



تاريخ الحضارات العام الشرق واليونان القديمة

اهداءات ٢٠٠٠
الأستاذ / عاطف جلال
الإسكندرية

تاريخ الحضارات العام

موسوعة تاريخ الحضارات العام

في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه إيمار جانين أوبوايه
أستاذ في السريون أستاذة متحف بيمه

٢

روما وإمبراطوريتها

أندريه إيمار جانين أوبوايه
أستاذ في السريون أستاذة متحف بيمه

٣

القرون الوسطى

إدوار بژوي أستاذ في السريون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسينييه أستاذ في السريون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسينييه و إيرست لابروس
أستاذ في السريون أستاذ في السريون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنيرب أستاذ في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه منسق المعارف العام في فرنسا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف

موريس كروزيه

مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلد الأول

تاريخ الحضارات العظام
الشرق واليونان القديمة

تأليف

جانين أوبوايه
أمينة متحف غيمه

أندريه إيمار
أستاذ في السوربون

نقله الى العربية

فؤاد ج. أبوريحان

فريد م. داغر

منشورات عويدات
بيروت - باريس

سام في ترجمة هذا المؤلف كل من السيدين :

يوسف أسعد داغر و أحمد عويطات

مقدمة الطبعة العربية

التاريخ علم حي وواحة غضة تنفيا في ظلها العلوم اجتماعية كانت أم سياسية أم طبيعية الخ . والتاريخ واجهة الحضارة الانسانية ، فلا عجب من ثم ان استولى على قلوب هواة المعرفة وغدت له المنزلة الرفيعة عند الطالب والعالم وجمهرة الشعب . وقد اهتم مؤلفو الغرب الاهتمام الكلي لتبيان مراحل تطور الشعوب ورقيا وربط نتائجها بأسبابها ، فكانت من ثم ابحاثهم واقعية ومنطقية استلهموا فيها الآثار من رسم ونقش وبناء الخ والاستنتاج المنطقي اذ العاديات بمحذاتها مادة لا حياة فيها ولا تسلسل ، يحبسها العقل وينسحقها ويفسرها فتنتطق اذ ذاك لتعلننا بما ابقاه السلف تراثا قويا للخلف . ولا يعرف هذا التطور هواده أو نهاية اذ تميز سنة الرقي بالانسان من حسن الى أحسن وبني بنو آدم التاريخ لبنة لبنة ، ولن يتم هذا التطور الحضاري الا مع آخر حي عاقل .

وما أفدح خطأ من يعتبر التاريخ سلسلة حوادث وسجلا لأسماء تنتثر هنا وهناك في الزمان والمكان اذ التاريخ كما سبق القول علم له أساليبه ومبادئه وفلسفته التي أوجد لمحتها وسداها العربي الخالد ابن خلدون . وليست الحضارة - مادة التاريخ - ثمرة جهود فرد أو شعب أو مجموعة أمم ، بل هي صنع الانسان في مختلف عصوره القديمة والحديثة والمستقبلية ، يتضافر ويتكافل لحلقتها مع أخيه الانسان لسير مرحلة مرحلة والانتقال من حسن الى أحسن . وقد تولى أمة اهتمامها لناحية حضارية دون الأخرى وتسهم من ثم على قدر طاقتها في تشييد صرح هذه الحضارة الانسانية العالمة التي ينعم بها الجميع على تفاوت تبعاً للمؤهلات والظروف . فلا فضل والحالة هذه لشعب على آخر اذ لا حياة ولا استقرار ولا استمرار للجهود الانسانية الكبير ان لم يعضده الافراد في أي قطر وجدوا وفي أي وقت عاشوا . وهكذا تظهر بوضوح كلي تلك الصفة الاجتماعية - الاشتراكية ... التي تربط الانسان بأخيه الانسان مهما اختلف اللون ونمط العرق وشملت المسافات . لذا ما أوهى قول بعضهم « الحضارة الشرقية » أو « الحضارة الغربية » اذ الحضارة الانسانية للانسان ونتيجة جهد الانسان وفي خدمة الانسان !

والبحث في تاريخ الحضارة - وان تجزأت اقسامها دون ان تتصادم ! - هو نسيباً حديث

المعهد ، اذ كثيراً ما كان يحصر المؤلفون عنايتهم بدرس حضارة شعبهم أو قطرهم دون استقراء حضارة الغير والغوص عن جوهرها ومعالها مها بلغت شأواً في الرقي والتقدم . ولكن أخذ المؤرخون في القرنين التاسع عشر والعشرين بتعاليم ابن خلدون فأولوا عنايتهم المجاري الحضارية والثقافية عند مختلف الأمم مها اختلف الزمان والمكان فكوتوا من أبحاثهم والحالة هذه مادة موحدة « تاريخ الحضارات » وان تميزت المراحل واختلفت الحلقات .

وقد عثرنا على موسوعات عدة في اللغات الانكليزية والفرنسية والالمانية والايطالية تشرح بأسباب منطق هذه الحضارة الانسانية الجماعية ومادتها ، مؤلفة من شتاتها وحدة تكد وتزوق وتقييد . ولا يسعنا مفاصلة هذه على تلك اذ لكل منها ميزات وخصائص . ولكننا مع هذا توقفنا عند هذه الموسوعة الكبرى باللغة الفرنسية التي أصدرتها « دار المطبوعات الجامعية الفرنسية » ، وأشرف عليها العلامة الاستاذ موريس كروزيه *Maurice Crouzet* ، وأسهم بتدبيح أجزاءها لخبية من المؤرخين الثقة المشهود لهم بالمعرفة والتدقيق فأعجبنا بها الاعجاب الشديد سيما وان كل مؤلف أخذ على عاتقه درس حضارة القطر أو الشعب أو العصر الذي أشبعه تحميصاً . وعنى الأبحاث التي وردت في هذه المجموعة وجديتها من حيث تقصي الحقائق والوقوف على الآثار وتحليلها منطقياً وربطها مع زميلاتها ربطاً محكماً لظهار مختلف مراحل التطور الحضاري الانساني حملنا على انتخاب هذه الموسوعة وتقديمها لقراء الضاد دون ان نغبط حق زميلاتها أو ننقص من صفاتها .

وتأتي هذه المجموعة الفرنسية على درس الحقائق التاريخية منذ أقدم عصور الحضارة الانسانية وأعرق الشعوب ، فتشرح الشرح العلمي المستفيض الوقائع والحوادث والأحداث التي عاشتها الأمم في العالين القديم والجديد على مر الأجيال والقرون... وهكذا تبدو هذه المجموعة سجلاً حافلاً من حيث الواقع والعلم لتاريخ الانسان منذ أطواره الأولى المتوعدة في القدم حتى عصرنا الحاضر دون التوقف عند هذه الأمة أو ذاك البلد فتظهر اذ ذاك حضارتنا المعاصرة ابنة الجهود الغابرة .

ومن ميزات هذه المجموعة انها أتت شاملة كاملة فوصفت لنا طرق العيش ونظام الحكم والاسس الاجتماعية والاساليب التجارية والمعتقدات الدينية والنشاطات الفكرية والاطوار الفنية الخ... فلم تترك شاردة إلا ولجتها أو واردة إلا واحلتها في اطار واقعي ومنطقي عز نظيره ، فغدت من ثم معلماً وهادياً لابن القرن العشرين ، ان استوعبها وقف على حقيقة تاريخ الانسان . وقد بسطت مجموعتنا المذكورة هذه المادة الخصبه بأسلوب رشيق متسلسل ، وضمت من الخرائط والرسوم العدد الوافر ، ووقفت على ما اكتشفه رواد وعلماء الآثار حتى سنة ١٩٦١ ، وأعلت القياس والمنطق أو التخمين - عندما يعجز المنطق والأثر المادي - ... حتى غدا معها التاريخ علماً حياً شيقاً .

واننا لا نلغي القول على عواهنه بل نضع أمام القارئ اللبيب عناوين أجزاء هذه الموسوعة وأسماء مؤلفيها فيؤكد بأن القوس أعطيت بأريها .

المجلد الأول : الشرق واليونان القديمة *L'Orient et la Grèce Antique*
لؤلفيه اندريه ايمار *André Aymard* عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية في باريس ، وجانين
أوبويه *Jeannine Auboyer* امينة متحف غيمه .

المجلد الثاني : روما وامبراطوريتها *Rome et son Empire*
لؤلفيه : اندريه ايمار *André Aymard* عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية في باريس وجانين
أوبويه *Jeannine Auboyer* امينة متحف غيمه .

المجلد الثالث : القرون الوسطى *Le Moyen Age*
اتساع الشرق ومولد الحضارة الغربية
لؤلفه : ادوار بروي *Edouard Perroy* استاذ في السوربون .

المجلد الرابع : القرن السادس عشر والسابع عشر *Les XVI et XVII siècles*
تقدم الحضارة الأوروبية وتضعف الشرق (١٦٩٢ - ١٧١٥)
لؤلفه : رولان مونييه *Roland Mausnier* استاذ في السوربون .

المجلد الخامس : القرن الثامن عشر *Le XVIII siècle*
عصر النور (١٧١٥ - ١٨١٥)
لؤلفيه : رولان مونييه *Roland Mausnier* وارنست لابروس *Ernest Labrousse* استاذين في
السوربون .

المجلد السادس : القرن التاسع عشر *Le XIX siècle*
ذروة الاتساع الأوروبي (١٨١٥ - ١٩١٤)
لؤلفه روبرت شنيرب *Robert Schnerb* استاذ الصف الاول العالي في ليسه كليرمون - فران

المجلد السابع : العهد المعاصر *L'Epoque Contemporaine*
بحثاً عن حضارة جديدة
لؤلفه موريس كروزيه *Maurice Crouzet* ، مفتش المعارف العام في فرنسا

ويؤسفنا القول إن المكتبة العربية تفتقر الى مثل هذه الموسوعات المفيدة العلمية على غنى
تراثنا القومي ووفرة كتبه . وكما تشوقنا الى الوقوف على مراحل الحضارة العالمية من خلال
مؤلفات عربية يضعها أبناء الضاد أنفسهم ، وما كان العرب يوماً الا سابقين في مضمار المعرفة والعلم
والتأليف ، وقد استنار الغرب بكتبهم الموضوعية أو المنقولة . وما كان أسعدنا لو ان أبناء

عالمنا العربي قاموا بمثل هذه الدروس الموسوعية بالاستناد الى غنى شرقنا - مهد الحضارة ومنهل الأمم - وتفتحهم على الثقافات العالمية .

ورغبة في سد هذه الثغرة والتعاون مع من أخذوا على عاتقهم بحو هذا النقص نقدم لعالمتنا العربي أبحاث هذه الموسوعة الفرنسية في لغة الآباء والاحفاد ... مع ما في الأمر من صعوبة وارهاق .

ولا مجال هنا للبحث في طرق النقل أو الترجمة . فقد ارتأى بعضهم في هذا المجال ان يزيدوا على النص الاصيل أو ينقصوه أو يفسروه طبقاً لرغبة أو تنويراً للقارئ، أو تقوياً لأفكار المؤلف . أما نحن فقد تقيدتا تقيداً أميناً بنص الموسوعة الفرنسي ونقلناه نقلاً حرفياً - دون اعتبار صحة الآراء أو بطلها - وان كنا لا نحاري المؤلف في بعض آراء أو نظريات أو استنتاجات ، اذ اننا نقدم لقراء الضاد ما قاله المؤلف الفرنسي على علاقه وهنائه ؛ وتشويه الأفكار أو تحويرها أمر غير مستحب وان كان تقويمها ضرورياً ... ولكن في بحث مستقل ! ووضعتنا نصب أعيننا بحجارة النص الفرنسي كما ورد دون تقديم أو تأخير - جهد المستطاع - على ما في هذا النص من تشابك صرفي وتركيب نحوي واستدارات في السبك وتطويل في الجمل ؛ وحرصنا الحرص الكلي على التقييد بروح المؤلف واستدراكاته وتمييزاته البيانية حتى في بسط الاسلوب مع ما في الامر من جمل اعتراضية ونقط وفواصل الخ . لذا قد يبدو هنا وهناك بعض الوهن في حسن التركيب من حيث قواعد اللغة والادب ؛ ولا نرى غضاضة في ذلك ، اذ المؤرخ - ولو كان أديباً بالسليقة - لا يتوخى التتميق وجمال التعبير بل سرد الحقيقة المجردة دون خيال مجنح أو لجوء الى أساليب بيانية . ونقل مثل هذه التراكيب والعبارات الى لغة الضاد - مع المحافظة على الكلمة روحاً ونصاً - قد يضطربنا بعض الممار الى تخطي حسن السبك والاسلوب العربيين بغية التوفيق بين الاصل الفرنسي ومرادفه العربي ، اذ لكل لغة نفس وتقنية نحوية .

واعتمدنا في نقل أسماء العلم على اصولها ومواطنها الأولية مراعين قدر المستطاع ما غدا أمراً متداولاً . وهكذا سعينا جهدنا لكتابة الاسم اليوناني مثلاً كما ورد في لغته الاساسية ... باستثناء الاسماء التي جرى التعارف في كتابتها ولفظها على امر مستقر كاسم ارسطو بدل ارسطوطاليس . وقد استمعنا لنفسنا أيضاً ، عند تعذر كل وسيلة ، ان نعتد كأساس الكلمة الفرنسية التي وردت في النص المنقول . وحرصاً على الدقة والامانة اللفظية لجأنا الى سفارة الجمهورية الهندية في بيروت لتعيننا على حسن كتابة الاسماء الهندية الصرفة فلاقينا منها تجاوباً وحسن مساعدة تذكر فتشكر ، اذ غني عن البيان بأن الحرف اللاتيني قد لا يعبر التعبير الصحيح الدقيق عن كيفية لفظ وكتابة الكلمة الغريبة عنه هندية كانت أم عربية ام صينية .

ولا بد من الجهر أيضاً بأنه من الصعب الوقوف على كلمة عربية واحدة لبعض المصطلحات الفرنسية التي تحتوها للتعبير عن مبدأ فلسفي أو عقيدة دينية مما أهاب بنا الى تأدية معناها بأكثر من لفظة أو احياناً بنقش كلمة عربية - مثلاً استغرق نسبة الى تبني حضارة الاغريق -

قد توافق لفظ المصطلح الفرنسي، او باعتبار طرق الاشتقاق اللغوية العربية، ولا ترى في الأمر خرقاً لقاعدة او تجاوزاً على صلاحية .

واننا وقد ألزمتنا أنفسنا بأمانة النقل نرى من واجبنا استطراداً لما قيل أعلاه بأن نؤكد من جديد بأننا لا نتبنى ولا نؤيد شخصياً بعض النظريات التي ساقها المؤلف ، دينية كانت أم اجتماعية ، او بعض المبادئ السياسية والوقائع التاريخية التي اعتبرها المؤلف كحقائق . هذا مع لفت النظر الى ان تفسير الاحداث والحوادث التاريخية قد يتطور، وقد يناقض عالم تاريخي ما قاله زميل له على اعتبار ان المصادر والآثار لم تستنفذ بعد تماماً؛ وقد يكشف الغد واثق تغلب بعض الاعتبارات التاريخية رأساً على عقب . ومن الحق القول إن مؤلفي هذا الكتاب يجهلون ضراحة بأن الرأي الذي ابدياه هو اجتهاد قد يحوله ويحوره ما سيعثر عليه عالم آخر من آثار أو يحلل من رموز كتابية لا تزال لجهلها الى يومنا .

ومع علمنا بوجود كتب تاريخية عربية قيمة نقلت عن لسان غربية يسعدنا بأن نقدم لغراء الضاد المجلد الأول من موسوعة موريس كروزيه التاريخية هادين الى اعلاء كلمة العلم وشاكرين لدار « منشورات عويدات » في بيروت ما لا قينا من تشجيع ، هذه الدار التي أتحفت المكتبة العربية ولا تزال بكتبها الفلسفية والقانونية والاجتماعية والقصصية ، والتي لن تألو جهداً لتقديم سائر أجزاء موسوعة كروزيه التاريخية للعالم العربي .

والمولى ولي التوفيق وعليه الاتكال .

هيئة الترجمة

مقدمة عامة لتاريخ الحضارات العام

انها لأول مرة على ما نعلم ، يصدر في تاريخ الادب الفرنسي ، كتاب بهذا العنوان يتوج مجموعة من الكتب تتجه للرأي العام ، يمثل هذا الشمول . فهل في الامر ما يدعو للاستغراب ، بعد ان سبق للوسيان فيفر ووضح كيف ان كلمة « حضارة » دخلت مصطلح العلوم متأخرة في الربع الاخير من القرن الثامن عشر ، وان مدلولها الكامل لم يتضح على الوجه الامثل ولم يستقر مشتمله الأوفى الا بعد ذلك بكثير .

وعلى نقيض البربرية ، عنى المصطلح الجديد ، على لسان فلاسفة القرن الثامن عشر العقلين وكتابه الشعوبيين ومن لف لفهم ، مجموعة من الخطط والنظم القمينة باشاعة النظام والسلام والسعادة ، وتطوير البشرية الفكرية والادبي ، ويتأمن انتصار الانوار . فالحضارة والحالة هذه ، « وضع مثالي وحقيقي في آن واجد ، عقلي وطبيعي ... سبي وغاني » .

وراح القرن التاسع عشر بدوره يمكن لهذه الفكرة الاوروبية المحور ويرسخ لها في الازدهان . ووضع تقدم العلوم والتكنولوجيا بين ايدي الاوروبيين طاقة مادية بلغ من شأنها ما ادخل في روعهم تسامي حضارتهم وافضليتها على سواها من الحضارات الاخرى . وهكذا « اخذ القرن التاسع عشر ينظر الى حضارته كالحضارة البشرية الفضلى » ، وراح يعتقد ان من حقه فرض هذه النظرية على العالم كله بالقوة حتى تبناها وعمل بها ونهج عليها . الا ان طمانينة الضمير الاوروبي لم تتعد هذا القرن ، وقد انتهى امرها الآن ، كما يستدل من التعابير التي درجوا على اصطلاحها تشاؤماً ، اذ كثيراً ما يتردد على شفاه الكتاب عبارات كهذه : « ازمة الحضارة » ، و « الحضارة في خطر » و « الحضارة على الهك » .

لهذه الاسباب ، فتاريخ الحضارة في مفهومه القومي الرحب ، هذا التاريخ الذي يتناول بالدرس سجل الجماعات البشرية والمدنيات ، ويرى في هذا التراث المتأني لنا مراحل التطور الذي عرفته الانسانية في رقيها الصاعد ، ويحصى على كل جماعة ما اسدته من خير للتراث المشترك ، يصعب تجريدته من غاية تجعل الحضارة وفقاً علينا نحن الاوروبيين ابناء القرن العشرين .

صحيح اننا شهدنا ، في غضون العصور الاخيرة ، تحت تأثير اوربوا الحاسم نفسها توارى او زوال معالم حضارات كثيرة واصيلة ، وذلك اقله تحت ستار الدعوة الملحة لتوحيد نظم الحياة .

ولهذا اخذ يبتدى لنا ان هنالك حضارة موحدة آخذة بالتكون ، مستوحاة على الاخص من الغرب في مدلوله الاوسع . كل هذا صحيح . غير ان هذا التطور نحو الوحدة لم يتم الا من عهد قريب ، وهذه الالوف من السنين التي يتألف منها تاريخ البشرية ، مرت بأدوار من الركود والقهري ، وبأطوار من الانعزالية والقطيعة ، بحيث تفرض علينا الحكمة العزوفة عن مثل هذه النظرية .



اما ان نكون امام حضارات متعددة لا حضارة واحدة وحيدة ليس بينها ما يدعي الرئاسة المهيمنة ، فهذا امر مسلم به اليوم بين علماء الاجناس البشرية والمؤرخين والعلماء الاجتماعيين اذ يقر هؤلاء بالاجماع ان لكل جماعة بشرية على شيء من النظام ، مدنيته الخاصة حتى ان للاقوام المتوحشة حضارتها الخاصة بها .

كذلك من الامور المسلم بها اليوم عدم الاخذ بالنظرية الضيقة التي تتول بتاريخ واحد للحضارة .

لقد شهدنا بالفعل في السنوات العشرين - وفي فرنسا على الاخص ، منذ ظهور البحث الداوي الذي وضعه مارسل موس - تطوراً حوّل انظارنا من نظام سام وحيد للحضارات يفرض مقولات سامية - الفنون والآداب ، والدوق حتى والعلم - ليردها الى مظاهر الواقع الحيائي ، المادية غالباً والاقل بروزاً واشراقاً . فقد حاولوا ، نارة عن طريق المؤثرات الثقافية (فكترة ، اداة ، مهارة فنية ، وصفة مطبخية ، حركة في الملابس) وطوراً عن طريق الحقب الثقافية (الاسس الجغرافية للحضارات) ان يستبدلوا الدروس التقليدية ، بدروس موضوعية لا اثر فيها لهذه التجريدات الفنية الملبئة بالاحكام المهيمنة . وهكذا حاولوا يمزجوا عن الناس وعن اعمالهم (مشاهير الرجال وآثارهم الباقية) و يمزجوا عن تيارات العوامل المؤثرة ان يحددوا الشروط المادية والاجتماعية وغير ذلك من العوامل التي كثيراً ما عاجلها التاريخ التقليدي معالجة سقيمة او مر بها على الاقل مروراً عابراً

نرى في ماضي البشرية وتاريخها السحيق ، حضارات عديدة لكل منها مجموعة من الافكار والنظم السياسية ، ومستوى من العيش المادي والتقنية ، وطاقات على الانتاج وقدرة على تأمين العلاقات الاجتماعية على اختلاف مظاهرها : الدينية والفكرية والفنية . ليس من قصد الاجزاء التي تتنظم هذه المجموعة التي تظهر بعنوان « تاريخ الحضارات » ان تلبيس هذه او تلك من النظريات الضيقة التي جيء بها باسم العلم ، او هذا المعنى الخاص على حساب غيره او باستثناء غيره . فالتاريخ ليس إثناراً او تحقيراً ، بل استحضاراً لماضي بكل مظاهره وواقعه . فعلينا اذا ان نصف بدقة المظاهر الحياتية المتعددة التي تؤلف مجتمعة كلاً متجانساً وان نستحضرها للانهاض في وحدتها الزمنية والمكانية ، كما يتوجب علينا ان ندرس المؤثرات التي تفاعلت بها

هذه الحضارات وانفعلت . هذا ما يهدف اليه التاريخ العام الذي وضعناه للحضارات .



نقطة الانطلاق عندنا جهد موصول سداه التحاليل ولحمته الوصف بغية ابراز الخصائص المقررة لكل حضارة ، وتحديد ما اسدته من خدمة للتراث الانساني النامي . هل بالامكان الذهاب الى ما هو ابعد ، ورسم خط بياني منحني لكل من هذه الحضارات لستبين معه مراحل التقدم او التأخر التي قطعها ؟ وهل بالاستطاعة السير الى ابعد لنتفخلص من هذه المشاهد والمرئيات الملاحظات التي توحى بها النواميس التي تنهض عليها الصيرورة الاجتماعية التي رسمتها هذه الحضارات المتباينة ؟ ان محاولات التأليف العظيمة الباهرة التي شهدناها حديثاً والتي قامت على اساس من التفسير الجدلي في الازمنة الحاضرة والمستقبل الطالع ، واتفاق الرأي لدى المؤرخين وعلماء الاجتماع ، كل ذلك اوضح بصورة جلية ضرورة الاعتصام بالفطنة في مجالات البحث الحديثة العهد هذه . ان تصنيف الحضارات ، ومبادئه ، الرقي ، و « التأخر » كل ذلك يجعل للتطور البشري مدلولاً ميتافيزيقياً ، يجب ان يبقى بطبيعة تعريفه بعيداً عن المؤرخ .

وستحاول هذه المجموعة ان تتفادى ما يتصل « بفلسفة التاريخ » ، هذه الفلسفة التي تبقى دوماً من العنديات العرصة اينداً للحدس والجدل ؛ بينما قبل كل شيء ان نصف وان نفسير الامور ، لا ان نصدر احكاماً قوامها لون من الوان الحضارة المثالية .



تجاهلت البشرية وحدتها مدة طويلة . فلم يكن هنالك بشرية واحدة بل بشريات وحضارات . فقد ارسيت في اواخر القرن الخامس عشر مع الاكتشافات الجغرافية العظيمة الحاممة الاسس والامكانات التي تدعم وحدة كرتنا الارضية ، هذه الوحدة التي كان علينا تشييدها فعلاً . ففي القرن الثامن عشر تمكن الانسان من استكشاف مجاهل اوقيانيا واورشاليا ، كما قام خلال القرن التاسع عشر باكتشاف المناطق المجهولة في افريقيا وقطبي الارض الشمالي والجنوبي . ووحدة عالمنا هذا كانت تبقى وحدة منقوصة لو لم تقم على اسس علمية ، وكانت بقيت مجزوة مخرومة لو لم ينتظمها اقتصاد عالمي متناسك . هل بدا شيء من هذا قبل ظهور السفن الشراعية في القرن الثامن عشر ، او بالاحرى ، قبل الثورة التي اطلقها البخار ، هذه الثورة التي لم تبلغ اوجها الا في منتصف القرن التاسع عشر ؟ لا واه الحق . وعلى هذا يجب ان نقيس أحداث التاريخ العام ، اذ يطالعنا في البدء السحيق ، فجر الحضارات الاولى ، والانتقال بالسير البشري من عصور ما قبل التاريخ الى التاريخ ، فتعاقب التواريخ والمدنيات على اساس من الترابط والتفاعل الى ان لم نطلع علينا عالم موحد .

ان عرّض هذه المادة التاريخية الوافرة في المجلدات السبعة التي تتألف منها هذه المجموعة اثر في وجعنا صغريات دقيقة . « فالسرعة التي يتكون بها التاريخ ، ونمو معارفنا وازديادها حتّى

علينا ان نخص كل جزء من هذه الاجزاء ، دوراً من ادوار التاريخ العام يقصر او يطول كلما
دونا من التاريخ المعاصر .

لم يكن في الامكان ان نستعرض في المجلد الاول من هذه المجموعة ، ونحن بعد عند عتبة
التاريخ ، بروز هذه الحضارات وتطورها وفقاً للترتيب الزمني ونتولى درسها وإجالة النظر فيها
وتتبع احداثها من ذاتها وبذاتها باعتبارها كتلة قائمة . ومن اين تأتي بتاريخ صادقة صحيحة
لكل هذه المدينيات المتعاقبة ، بما فيها مدينيات الهند والشرق الاقصى ؟ وكيف نتفادى التكرار
في مثل هذه الحال ؟ هنالك مدينتان من اضخم المدينيات التي ظهرت في التاريخ القديم : المدينة
المصرية ومدينة بلاد ما بين النهرين ، تؤلفان معاً كتلتين متجانستين بالرغم مما بينهما من فوارق
وخصائص مفردة ، استمرت أكثر من ثلاثة آلاف سنة . فدرسها درساً افقياً في ادوار تاريخية
منفصلة امر يتعذر الاخذ به والوقوف عنده . ان هذه المدينيات وغيرها بما نضرب صفحاً عن
ذكره هنا قلما تأثرت بعوامل من الخارج ، وان حدث ذلك احياناً اقتصر التأثير فيها على
الاطراف الخارجية ، وظهور المدينيات العارضة وتطورها في الأقطار المجاورة لهذه المدينيات قد
حال دونها او أخر ظهورها معارك طاحنة دارت رحاها بين هذه المدينيات الضخمة ، في نفس
هذه الأقطار . لا شك في ان نهجاً من هذا النوع كان افضى بنا الى صورة ناقصة حيناً ، ممزقة احياناً
لعدم تكافؤ معلوماتنا من جهة او لتفاوت ظاهر بين هذه المدينيات مستوى وشأناً .

وقد حدث ، بعد ذلك بكثير ، اي بعد اوائل العهد الميلادي ، في نطاق العالم القديم على
الأقل - : آسيا واوروبا وافريقيا - أولى المحاولات لمقارنة هذه التواريخ ولربطها بعضاً ببعض
فجاءت اجزاؤها متناثرة غير محكمة كما ان هذه التواريخ بقيت اجيالا طويلاً متشابكة مترابكة .

الا ان توطد العلاقات بين الشعوب واشتداد اواصرها بين مختلف الحكومات والحضارات
المنزلة فيما بينها من قبل ، والعثور على المزيد من الأصول والوثائق التاريخية كل ذلك ممكن
للأخذ من جديد بنظرية الاطوار الزمنية والاعتصام بها واتاح للورخ ان يشدد ، أكثر فأكثر ،
على بعض الاحداث والشخصيات التاريخية البارزة ، واطهار ما لها من اضواء كاشفة . ولكن
لم يلبث ان افصح شيئاً فشيئاً وجوب التحرز من التبسط في السرد والاستطراد في القبول
والوصف ، اذ ان المهم في هذا كله ان يرسم المؤرخ للحقبة التاريخية التي يتناولها صورة واضحة
جلية ، ما امكن ، تألف كل الائتلاف وتنسجم مع الاكتشافات العلمية الحديثة .

ولا بد للتارئ الواعي من ان يلاحظ ان كثيراً من الاحداث التاريخية التي يحلو لبعض
الكتب التقليدية سردا بالتفصيل قد ضرب صفحاً عنها او لم يؤت على ذكرها الا لماماً . ولا
يتوهم احد قط اننا « ننتقص من اهمية الاحداث الثابتة الآخذ بعضها برقاب البعض وفقاً
للتسلسل الزمني » او انه سها عن البال تعريف التاريخ كما حدده البعض من انه « علم الواقع
المحيي » . فنحن اول من يقدر المحاذير المترتبة على « تجريد التاريخ من الواقع القائم » ، ولا يدور
في خلدنا ، في ردة عكسية ضد مفهوم التاريخ قديماً الذي كان لا يهتم الا للأمور السياسية

والحربية والدبلوماسية ، ان نفضي عن ذكر هذه الوقائع التي تؤلف أسس المدنيات والحضارات البشرية . فنحن اول من يعترف بأهمية هذه الوقائع ، وقد حرصنا على احلالها محل اللاتق في تضاعيف هذا التاريخ وتقدير الدور البالغ الذي كان لها في الحضارات المتعاقبة . وقد هنا منها ، في الدرجة الاولى الأمور الاقتصادية والاجتماعية ، وشددنا بنوع خاص ، على التطور التقني وعلى القضايا التي تتصل بصمم السكان ، كلما استطعنا الى ذلك سبيلا . ان حرصنا الشديد الا " نولي هذه المجموعة من المجلدات أهمية أكثر مما تستحق ، واليسر الذي يستطيع معه الباحث التوثق من الاحداث السياسية المعروفة ، كل ذلك حدا بنا أحيانا الى التنويه بها في الجداول الزمنية الترتيب او في الإبراهيميات التي تتكون الاطار الوضعي لتاريخ الحضارات .

ان تاريخ الحضارات الذي يعنى بوضعه هنا انما يتجه في الدرجة الاولى من الرأي العام المثقف وليس من العلماء الاختصاصيين . ولذا فقد ضربنا صفحا عن ذكر الشواهد والمراجع والمناقشات الجدلية التي جيء بها لاثبات رأي او لدحضه . فقد حرصنا على اثبات قائمة موجزة متواضعة من المصادر والمراجع يمكن لمن يرغب في التوسع اعتيادها والركون اليها . اما الصور والرسوم ، فتهدف لتوضيح النص باعادة جانب من الجو التاريخي الذي سيطر على هذه المدنيات دون ان يكون الغرض الاول منها التوثيق .



لست ارى بعد هذا ، موجبا يدعوني لتقديم المؤلفين الذين قبلوا القيام بوضع هذا التاريخ العام للحضارات البشرية ، اذ لهم من مؤلفاتهم ومن آثارهم في حقل التعليم والتدريس ما احلمهم المحل اللائق بين زملائهم المؤرخين في فرنسا . وهل لي ان ازيد هنا ان هذه المجموعة من المجلدات التي يتألف منها هذا التاريخ لم يكن في الامكان تحقيقها ، لو لم يقم منذ ربع قرن تيار جارف يتمثل على اشده في المأسوف على علمه المرحوم مارك بولك الذي له الفضل الاكبر في تجديد الدراسات التاريخية في فرنسا ، فسدد الابحاث ووجهها شطر تاريخ مبسط يرتبط ارتباطا وثيقا بالعلوم البشرية الاخرى ؟ فقد كان من اولى واجباتنا هنا ان ننوه بفضل الرواد في هذا الحقل الذين مهدوا السبل امامنا .

موريس كروزيه

مدخل

من وحلة العصر الظرفي الى النوع التاريخي

ظهور الانسان يضع ظهور الانسان على الارض بين العصور الجيولوجية السحيقة . وقد أصبح ظهوره ممكناً منذ الدور الجيولوجي الثالث إذ كانت ظهرت فصائل البهائم . ويتمرجح هذا الظهور في أواخر الدور الجيولوجي الثالث ، عندما كانت تسرح في بطاح الارض وقرح وحداث من فصائل الفيل الجنوبي ، ويتأكد هذا ويثبت في الطور الاول من الاطوار ما بين الثلجية الاربعة التي عرفها الدور الجيولوجي الرابع . أما اذا ما حاولنا ان نحدد الازمنة والاوقات لهذا الظهور فلا بد من ان يأخذنا الدوار . وراح بعض علماء الهيئة في تعليلهم الادوار الجليدية وتقدير مداها ، يقدرون الفترة الاعدادية للدور الرابع بمائة وخمسين الف سنة ، بينما يجعل غيرهم امتداد هذه الحقبة لاكثر من خمسمائة الف او ستمائة الف سنة . اما الدور الجيولوجي الثالث فيقدر بعضهم امتداد حقبته ثلاثين مليون سنة . ولا نعرف تاريخ اي شعب من شعوب الارض يرجع الى ما قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة . ويمتري الواحد منا قشعريرة عندما ترقص امام عينيه ارقام مثل ٤٣٤٥ - ٤٣٤٢ قبل الميلاد وهو التاريخ الذي يحدده التقويم المصري القديم ، بدءاً للتاريخ المصري القديم .

فالانسان في مثل هذه الحقب المتهاكة في القديم هو الانسان الحيوان ، او الانسان الشبيه بالبشر . اما الانسان المنتصب القوام ، ولا سيما الانسان العاقل ، المدرك ، فلم يظهر إلا بعد ذلك بوقت طويل . فالانسان العامل ، صنع اليدين ، الذي يستعمل الادوات ويتحسها ، قد تقدم الاول كما تقدمه بدوره جنس من شبه الادميين . وكثيراً ما اكتشف علماء الآثار بعض مصنوعاته دون ان يعترفوا على شيء من بقاياها العظمية ، وان وجدوا شيئاً منها فهو نادر ومبعثر . والذي يحمل اهمية خاصة للانسان الصيبي الذي عبثوا على بقاياها في تشو كوتيان ، على بعد ١٠ كيلومتر الى الجنوب من مدينة بكين ، وللانسان القرد الذي اكتشفوا بقاياها في بلدة ترينيل ، على مقربة من جافا هو ما يحمل العلماء قادرين على ان يلتبعوا ، في هذين المكانين ، بعض معالم التطور الذي بلغ معه الانسان منزلة الانسان العاقل . اما الاماكن الأخرى ، فملي عكس ذلك تماماً كما يظهر

في افريقيا الجنوبية مع الانسان القد الجنوبي ، في الترانسفال وفي اوروبا ، حيث يوجد فجوات من الفراغ بحيرة .

ففي اوروبا على الأخص نجعل كل شيء عن إنسان عصور ما بين الجليدية إلا بعض بقايا نادرة جداً من هيكله العظمي الرميم ، دقيقة الحجم . وقد عرف العلماء المصنوعات الرئيسية المتخلفة عن هذا الإنسان ، بمصنوعات العصر الحجري المشطى . أما إنسان العصر الجيولوجي الرابع او العصر الموستري كما اصطلاحوا على تسميته فهو معروف اكثر باكثر ، إذ انه يتمثل بانسان العصر النياندرتالي الذي انتشر على مساحات واسعة ، هو هو نفسه تقريباً بشكله الواحد ، أينما وجد : في اوروبا الغربية ، وفي جميع أنحاء افريقيا او في البلدان الشرق الاوسطية ، ومع ذلك فهو ليس من جنس الانسان الحقيقي . وهكذا نرى أنفسنا امام جنس آدمي جديد أو بشرية جديدة ، طلعت اصولها من أقاصي آسيا لم تلبث ان قضت على «البشرية القديمة» وعقبتها .

ولكن هؤلاء الاقوام الجدد ينتمون الى ما اصطلاح المؤرخون على تسميته العصر الحجري القديم بانسان العصر الحجري القديم ، مشطى كان ام مصقولاً ، عاصروا منه احداث ادواره او الدور الحديث منه ، عاشوا في العراء كلما سمح لهم الجو بذلك ، وسكنوا الكهوف وغابىء الأرض ، يعولون في معاشهم اكثر ما يعولون عليه ، على الصيد والقنص ، وعالجوا استعمال حجر الصوان واتخذوا منه سلاحاً بعد صقله ، ودببوا منه الرأس ، وحددوا الاطراف ، كما اتخذوا ادوات لهم من عظام الحيوان وقرونه ، وعرفوا النقش والحفر والرسم ، وتوصلوا الى افراغ بعض الادوات في قوالب واشكال معينة .

وقد حفظت لنا جدران المغاور والكهوف التي سكنوها بعض معالم الفنون البدائية التي زاولوها على شيء من الذوق والصناعة الفنية ، متخذين لهم في بادىء الأمر مادة لصورهم بعض الحيوانات التي دبتوها ، وبعد ذلك بكثير ، الجسم البشري ، محاولين جهدهم في كل ما عاجلوه ان يتركوا مسحة من جمال ترميمه . ففي عالم مجهول غامض ، كل ما فيه يدعو الانسان للعجب والحيرة والتحرز ، تترصده الاعداء ، من كل جانب ، حاول الانسان ان يدرأ عنه الغوائل والمخاطر فيتخذ سلاحاً له كل ما تصل اليه يده ، واداة لخدمته ، كل ما يعينه على العيش . تعرف الى العلائق والاصداف والاساور فاتخذ منها زينة له وحلية كما اتخذ من بعضها تعاويذ واقية ورقى . وتوصل الى صنع بعض دمي ، بشرية الصورة ، انثى الشكل ليرمز منها الى الخصب والانسال ، واصطنع صوراً شتى للحيوان يدرأ بها العين الشريرة والسحر الذي كثيراً ما وقع تحت تأثيره . وهو في كل هذا يحاول فرض سيطرته على الحيوانات المفترسة ، كما يحاول تدجين الانواع التي يفيد منها في معاشه او تؤمن له الصيد الوفير . وكان يشارك باحتفالات ومناسك دينية يقرأها سحرة ينصرفون اليها في المغاور المظلمة . وهكذا من تعاطيه اعمال السحر واستسلامه لطرق السحرة ظهرت الفكرة الدينية عنده ، وكان السحر والفكرة الدينية يصطبغان كلاهما بمسحة من الفن البدائي .

ويؤيد أكثر من اكتشاف علمي ان الانسان ، منذ العصر الحجري القديم ، أخذ يهتم باطراد صاعد ، بموتاه وتأمين دفنهم ، وإعداد اجسادهم وتجميعها في محل معين وبمجاثهم إذ تراه يذُرُّها بالمعصرة ويمدها بالحلي والزينة والتقاويم وبعض اللحوم . وقد تحدت معالم هذه المناسك وعم استعمالها ، بعد ان كانت في الاصل تعبيراً عن مشاعر الانسان يتقي بها مقبة الثأر والانتقام المتوقعين . إلا ان هذه المراسم لم تلبث ان اصبحت عزيزة عليه كريمة عنده ، إذ رأى فيها ايماناً بعقيدة الخلود والبقاء . وهكذا نرى كيف ان السحر افضى بالانسان الى ابعاد مما كان يتوقع له : الى عبادة الموتى وتكريمهم .

استطال امد العصر الحجري القديم في أوروبا ، من حضارة العصر الحجري الحديث الى عصر الحديد أكثر منه في اي مكان آخر ، ولا سيما في غربي جنوبي فرنسا ، وفي الغرب الشمالي من شبه الجزيرة الايبيرية . واستقرت الاجناس البشرية فيه على عروق مشهورة كالعرق المغدلائي ، والعرق الازبالي ، الا ان ظهور اجناس بشرية أخرى ادى الى زوال العروق التي كانت تهنض بهذه الحضارة او الى إقصائها وإبعادها الى اماكن نائية صعبة المثال ، كإفريقيا مثلاً حيث عجزت عن القيام باي دور بارز . فلم يحدث هذه المرة ، اقله في أوروبا ، تطور محلي ، بل غزو جارف طلع من الشرق المتوسطي قادماً من الجنوب ، ومن جهات أخرى أقصى ولا شك ، من الشمال الشرقي . فلم يؤلف الغزاة القادمون ، كما في الماضي ، بشرية جديدة ، بل كانوا من صميم الجنس البشري السائد الذي تمكنت بعض عروقه ، في اماكن معينة ، من التطور في المظهر الخارجي وفي الحضارة . وقد استطاعوا ان يؤلفوا ، من الوجهة العرقية جماعات كبيرة متباينة بينها الطوائف المتوسطة والجليلون (القوقاس - والألتاي) والطوائف الشمالية . والامم من هذا كله ، هو ان الحضارة استطاعت في عهود متباينة بقبائل البلدان التي قامت فيها ، ان تتجه اتجاهاً مغايراً للاتجاه الذي سارت فيه حضارة العصر الحجري القديم . ويجب ألا يغرب عن البال ان كلا الحضارتين عرفت اتصالات سابقة فقد تعرضت حضارة العصر الحجري القديم لتسربات ومؤثرات طارئة ، كما انها اعطت لدى زوالها الحضارة التي عقيبتها عادات وإعرافاً تتعلق بالجائز والمآتم . ومع ذلك فقد كانت حضارة جديدة لم تلبث ان انتشرت وعم استعمالها .

وهذه الحضارة الجديدة ، عرفت لدى المؤرخين بحضارة العصر الحجري المصقول . فقد لبث الحجر العنصر الرئيسي الذي استمد منه الانسان اجهزته وادواته الضرورية ، الا انه حجز أقصى من الصوان ، آثره الانسان لما فيه من صلابة بعد ان عرف كيف يصقله ويهذب كما يشاء . وقد سجل الانسان مراحل عديدة في تطوره الصاعد ، فقد اصبح واعياً وتمكن من تدجين بعض الحيوانات ، ولم يلبث ان اقبل على الارض يحرثها ويستبثتها ، فقطع الأحراج وعزف على التربة يستخلصها من الاعشاب المؤذية ، واخذ يتخير بعض لمائل الزرع يستعيد منها الانواع ويستطيب كريم الاصل حتى استقر به المقام ، فتحضر ورأى نفسه مرتبطاً الى حد بعيد بما

لديه من زرع وضرع وبما يحرق من اراضيه وحقول. واخذ في بناء اكواخ له ومنازل لسكانه، ثم تألب جماعات ما لبثوا ان ألتوا مجتمعاً يربط بين افراده وروابط من العمل المشترك والدفاع المشترك عن سلامة المجموع. واتخذ له من صوف الحيوانات ومن بعض الالياف النباتية ألبسة خاطها ملبساً له استبدل بها جلود الحيوانات التي كان يعول عليها في لباسه من قبل. وعرف كيف يتخذ له مادة مما تقع عليه عينه من معرّش النبات والقصب ومن الدلفان المزوج ليصطنع من هذا كله السلال والخزف.

ثم تعلم كيف يستخدم خامات المعادن كالتحاس والذهب وكيف يستخرجها من مزيج الفلزات، ثم توصل تدريجياً الى اخلاط كثيرة، كالخلط بين النحاس والقصدير لاصطناع الشبهان او البرونز. وبعد ذلك نرى الحصان والعجلة والحديد في خدمة الانسان.

كلها خطوات تصاعدية في سلم الحضارة تدعو للاعجاب، وتشهد من الانسان الرغبة في المزيد. نود ولا شك لو نستطيع تحديد هذه المعالم في مدارج الرقي والتطور والتاريخ لها واقتفاء ما كان لها من اثر بين ومن شيوع كرتس استعمالها. ولعل اكثر هذه الكشوف واقدامها كلها هي التي طلعت علينا بها مدنات الشرق الاوسط، ولا سيما مدينة مصر وبلاد ما بين النهرين، وهما من اخصب بلاد العالم طراً ومن اكثرها دعة للحياة البشرية. اما الحصان، فقد وصل اليها من مناطق ابعد وانأى، اما الحديد فان كان صنعه التقني يعود اصلاً للشرق، الا ان ندرته في مناطق البحر المتوسط تجعل من العسير جداً تطور هذه الصناعة في تلك المنطقة. فالاكشافان المذكوران يسجلان معاً تطوراً جديداً: هنا معاصراً وهناك لاحقاً. وقد طلعت علينا اقوام جديدة جاءت من الشمال او من الشرق الشالي: من التركستان والقوقاس والبلقان، تتمثل في غزوات الهند والاوروبيين الذين في غزوات متباعدة متلاحقة، اخضعوا تبعاً: الهند وايران وآسيا الصغرى واليونان. وقد أخذ الشرق الاوسط يشعر بوطأة هذه الغزوات ابتداءً من سنة ١٤٠٠ حتى اواخر الألف الثاني قبل الميلاد فزعزعت اركان الحضارات التي كانت مزدهرة منذ عهد بعيد، في هذه الاقطار المظلومة. اما الغرب الاوروي، فقد وصلت اليه صناعة النحاس والشبهان من الجنوب والجنوب الشرقي، وعرف معها ان ينشئ له حضارات مستقلة قامت على هذه الصنائع. ولم يكن اثر حضارات الشرق الكبرى ببلغ الغرب باستثناء بعض المهارات التقنية. فمن الشرق، دخلت الغزوات والحضارات اوروبا مارةً بوسط القارة وذلك ابتداءً من الألف الاول قبل الميلاد، كما يظهر من آثار بلدة هولستات في النمسا ومن آثار بحيرة لاتين في سويسرا وكلها تعود الى عصور ما قبل التاريخ في اوروبا.

اذا ما اردنا ان نتقصى بالتفصيل معالم هذا التطور الذي رحلنا بايجاز مراحل غزوات وهجرات الكبرى، كان لا بد لنا من ان نلاحظ هنا هذا العدد العديد من الغزوات التي انقضت على اوروبا من اقاصي آسيا او من سهول اوروبا الشرقية التي تعتبر بحق امتداداً لها

بأنحاء الغرب . فلم تعرف غزوة منها نالت من النجاح ما نالته الغزوة التي حدثت في اواخر الدور الحجري الوسيط المعروف بالعصر الموستري واولئل العصر الحجري الأعلى . وهناك غزوات أخرى انطلقت في ما بعد متبعة لرقاً أخرى ، فبلغت مشارف البحر الأبيض المتوسط والمحيط الاطلسي معاً . وقد لاقت في سيرها صعوبات كانت تشتد مع مرور الزمن ، إذ وجدت نفسها وجهاً لوجه مع حضارات أكثر تطوراً ، وأقوى على المقاومة . غير ان نزوع اركان الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث للميلاد ، وانهار هذه الامبراطورية في ما بعد ، في القرن الخامس ، يدلان على ان ليس ثمة صعوبة لا يمكن التغلب عليها .

ولذا كان لا بد لنا من العودة الى ما قبل التاريخ لنعثر على « عرق » بشري أصيل ، يراد منه فريق كبير من الناس لهم ملامحهم الخارجية السوية الطابع . ان جيل العصر الموستري هو آخر من يستجمع هذه الصفاتية او من فرض وجودها . وهذا الجيل هو جيل شقيق لانسان العصر النياندرثالي ، باستثناء بعض الفروق النادرة التي تؤلف بحد ذاتها فوارق ثانوية لا يؤبه لها . ولكن انسان العصر الحجري الأعلى يمثل هو نفسه انساناً هجيناً كما يسميه مرسلين بول . وقد تكاثرت في ما بعد عمليات التهجين او التضالاب ، مع تنالي الغزوات المتعاقبة ، بحيث لم يبق لكلمة « عرق » اذا ما أسقطنا من مدلولها الميزة الخارجية سوى الطابع او النموذج الذي يفرّد الحضارة .

هنا يجب ان نلاحظ ان الانتقال من حضارات ما قبل التاريخ ردة الحضارات وتنوعها الى الحضارات التاريخية يجعل المدى التاريخي للاخيرة منها يضيق وينكش . فلم تتكرر ابدأ الوحدة التي ميّزت الدور الموستري المعروف بالعصر الحجري الوسيط ، او طلائع الدور الأعلى للعصر الحجري القديم . وكانت هذه الحضارات اوسع الحضارات التي عرفتها الانسانية انتشاراً وذوعاً . فهل من عجب في الأمر وهو واضح كل الوضوح ؟ فالطقس الجليل يحفز للظعن والريادة اناساً مهمهم العثور على الاراضي المطيرة ، يكثر فيها القنص والصيد او اقتناء قطعان الحيوان التي تؤم الحديث من المراعي الحسبة والارض الخضلة . ثم يأخذ الانسان يألف تدريجياً الاستقرار في بقاع ورقاع من الارض تساعد طبيعتها الجغرافية طوائف من الناس على الاقامة فيها ، ولا يلبث بعد ان أمن على سلامته ، ان ينقطع لحراثة الارض وفلاحتها يطلب من خباياها رزقه الحلال .

ومع ذلك ، فقد تطرأ ادوار تسيطر فيها وحدة نعم شطراً كبيراً من الناس ، كما لاحظ ذلك علماء الأسفائية ولا سماً من يفنون منهم باسماء الامكنة الجغرافية . من ابلغ الأمثلة على ذلك ، الاصل اللغوي : « Car » الذي يعني كلمة صخر او حجر . ومن هذا الاصل اشتقت المفردات او الكلمات : Carpathes , Karawanken , Carso , Crau , garrique ، وغير ذلك من الاوضاع اللغوية . ومن هذا الاصل الألسني جاءت الكلمة العربية قلعة ، والكركسة كاله

والليثوانية *gala* وكلها تنفي في هذه اللغات : القلعة او الحصن . مثل هذه الكلمة وغيرها من المصطلحات اللغوية الأخرى ، مشاع بين بلدان كثيرة ، وكلها دوائر او بقايا لغة تقدمت بكثير اللغة الهندو الاوروبية التي درج استعمالها في هذه الرقعة الجغرافية الممتدة من القوقاس الى جبل طارق فبحر البلطيق . وهنا لا بد لنا من ان نتساءل ما عسى ان تكون هذه الاقوام او الشعوب التي في عهد العصر الحجري الجديد ، او في عهد اسبق واقدام ، تعارفت وتفاعمت فيما بينها بهذه اللغة ، مع العلم ان اسماء الامكنة الجغرافية ومسمياتها تبقى على اللسان يستعملها الناس ويمجرون عليها حتى بعد زوال الحضارات التي مكنت لها في الاستعمال . كذلك نرى مثل هذه المفارقات والمواصفات تظهر في الحضارات التي سبقت الحضارات السلاوية في مصر وبلاد ما بين النهرين وبين الحضارات التي ازدهرت فيما بعد حول هارابا وموهنجو - دارو في حوض نهر الهندوس . فالاعتقاد بانها تحدثت من جذع واحد لا يزال منه في جبل مطبق ، ليس بكفر .

وهكذا ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار قِدَم ظهور الانسان على الارض ، فان الحضارات لم تأخذ بالتنوع والتفرّد . وبالتالي بالتمركز جنباً الى جنب ، في حيز ضيق الالبصرة تدريجية ، وفي عهد قريب منا جداً . وقد برز هذا التنوع واصبح الطابع المميز لحياة الناس في التاريخ القديم ، رديحاً طويلاً من الزمن . وقد كانت هذه الظاهرة امرأ لازماً . فنذا ان اخذت فئات من الاقوام البشرية في الاستقرار والتحضّر ، راحت كل فئة تتطور في المحيط الغذائي ارتضته لها مقراً وفقاً لعوامل زمنية ومكانية ، خضعت لها ، ولؤثرات حسية وخلقية عرفت بها ودرجت عليها . والحق يقال ، ان التفتت الذي أُلِمَّ بالحضارة الوحداية وتشعبها الى حضارات متعددة ليس إلا النتيجة المنطقية للرقى الذي حققه الانسان ولتطوره الصاعد الذي زاد حياته المادية والعقلية تعقيداً وتشابكاً ، ووفر له اسباب التباين والتفريق . فربّ برعم لم يؤبّه له عند ظهوره وبروزه كان سبباً في قيام ساحات من الغابات الظليلة والاحراج الفضة .

ليس لعمري من مدينة قامت وعاشت في قوقعة مطبقة لم تتأثر في كثرة اوقلة بما تقدمها من الحضارات التي ازدهرت من قبل . وقد يكون خطر لبعض هذه الحضارات مثل هذا الشعور من الاكتفاء الذاتي . من ذلك مثلاً الحضارة الفرعونية القدية التي لم تستطع ان تحقق مثل هذه المثالية واذ كانت أكثر المدنيات اقتراباً منها . فكل هذه الحضارات دونما استثناء عولت على مصنوعات ومحاصيل جاءت من الخارج . ويعتري المرء الدهشة عندما يرى ، منذ اقدم العصور ، المسافات الطويلة التي كان يقتضيها وصول بعض المواد الأولية . صحيح ان معظم هذه المواد المستوردة كانت خفيفة الحمل والوزن يستعملها الانسان في حليه وزينته لندرتها وغلاء ثمنها . من هذه المواد مثلاً اصداف مقاطعة التورين ، في العصر الحجري القديم الاعلى ، والكهرمان المستورد بعد ذلك بكثير من شواطئ بحر البلطيق ، والحديد الذي اتخذت منه ادوات الصياغة في مصر وبلاد ما بين النهرين . وصناعة البرونز او الشبهان اقتضت كميات وافرة من القصدير جرى شحنها الى بلدان الشرق الأدنى واقطاره . فالتبادل التجاري كان سبباً في اقامة اتصالات

مباشرة . والمهم في هذا كله ان هذه المبادلات التجارية والاتصالات التي بعثتها وهيأت اسبابها ، تمت واستمرت دون ان تمس ، بشكل محسوس ، اصالة كل هذه الحضارات التي انتظم عقدها واستبطن شأنها . والظاهر هو ان التاجر والبحار في نقلها السلع التجارية ومقايضتها بها ، كانوا اقل اهتماماً بنقل المهارات الفنية والتقنية ، واقل منها ، معاطاة بالامور الفكرية والروحية . وهنالك امثلة مستمدة من الأزمنة التالية للتاريخ القديم ، يمكن ان يستدل بها على أنفعتها من ذلك إذ يفقدان بها سبب وجودهما . فالتبادل انما يعني التباين .

الامبراطوريات القديمة ووحدة الحضارة
هل عاد هذا التجزؤ الحضاري الذي ميز التاريخ القديم بالضرر على غير التجار ؟ فان لم يعاود

الناس اخبار تلك الوحدة التي زالت من الوجود بعد ان عجزوا عن الاحتفاظ بذكرها فقد يكون راودهم الشعور بان حضارة مشتركة تتحقق تساعد الجميع على العيش معاً بسلام ؟ قليلة جداً هي الاصوات التي عبرت متأخرة عن هذه الامنية ، وهي امنية كان علينا ان ننتظر طويلاً ظهور من يعبر عنها بجلاء ووضوح كالاسكندر الكبير في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد . والمحاولة القصيرة الامد التي تمت على يدي الفاتح المقدوني لم يقم من يحاوها من جديد رسمياً الا الامبراطورية الرومانية في القرن الثاني للميلاد التي نسجت على هذا المنوال دون ان تعلن عنه او تفصح به .

فالتاريخ القديم يعج بالامبراطوريات ، كما يفيض باخبارها ومصائرها وارتفاعها وهبوطها الى غير ذلك مما يدخل في صميم التطورات السياسية . وكل من هذه الامبراطوريات التي طلعت عبر التاريخ : من مصرية ، واشورية ، وفارسية ، ومقدونية واخيراً رومانية كان يبرز اللاحق منها السابق بالتوسع الرقعة وضخامة السلطان ، بحيث يدخل في روع المستقرى ان نقطة الانطلاق اقوى في اللاحق منها في السابق وان الاندفاع كان في كل مرة يقترب اكثر فاكثراً ، من الهدف المشترك الذي وضعه الفاتحون نصب اعينهم ، الا وهو الامبراطورية الشاملة . وكان بهذا الجهد الموصول لتحقيق هذا الهدف السامي تعبير عن نزعة جاش بها قلب الانسانية الا وهو تحقيق وحدة شاملة ليست جغرافية فحسب بل بشرية ايضاً .

وبالفعل ليس شيء من هذا كله . فمهما كانت العوامل المختلفة المتفاعلة دائماً والمتشابكة ، التي ادت الى ظهور هذه السلطنات الشاسعة المتتالية ، فلا ندس في أيٍّ منها الرغبة الصادقة في نشر حضارة الفاتح وفرضها على المغلوب ، اذ ان اهتماماً من هذا النوع لا بد ان يتبلور ويبرز باعمال واجراءات موضوعية لا نجد بالفعل شيئاً منها . فالفاتح او الغازي الذي تم له الفتح ، كان يرى في الحضارة التي ادت به الى النصر المئين خبر الحضارات وامثلها كما رأى فيها سر تفوقه وتعاليمه ، يحرص عليها ويصونها من كل عبث وانفعال ويحفظ لنفسه بالنافع الجزيلة التي امتنها له . فلم يحاول يوماً ان يصطنع المغلوب على امره او ان يشمله او يتقرب منه تحت ستار او مظهر من مظاهر التشبع والدعوة . فالفاتح انما يهيم من الفتح الفوز بالاعضاء والاسلاب ، ولذا فلم

تتم الامبراطوريات التي قامت في التاريخ القديم يوماً بامتلاك القلوب والنفوس .

من الطبيعي جداً ان لا تخلو مساكنة الغالب للقلوب وتعايشها معاً زمناً طويلاً من تفاعلها معاً وانفعالها بثورات وعوامل مشتركة . فبالرغم من تمسك المصريين مثلاً وتشبثهم بعناد بتقاليدهم الموروثة ، في كلا الوضعين او الحالين ، فقد كانت تظهر عليهم معان هذا التفاعل المتبادل يحملون اثره ظاهراً . غير ان الحصول على نتائج عميقة محسوسة من جراء هذا التعايش الطارىء فقد كان يقتضي له أمد طویل من الزمن لم يتوفر لكثير من هذه الامبراطوريات التي كانت تنهار وسراعا . واذا اعوز هذه السلطنات الوقت الكافي الذي يتطلبه اي تطور من هذا النوع كانت لا بد للحكومة المركزية ، والحالة هذه ، ان تحاول بنفسها تحقيق هذا التقارب وتستحث منه الخطى بإدارة حازمة .

الا ان مثل هذه الفكرة لم تخطر يوماً على بال احد قبل الاسكندر . فجرد طرونها في ذهنه ومحاولته الصادقة لتحقيقها وتحفيزها قولاً وفعلًا ، كل ذلك يضيف على الفاتح المقدوني ميزة خاصة تفرقه وتميزه بين كبار الفاتحين . ومن المفيد مع ذلك ان نلاحظ هنا ان هذه الفكرة لم تخطر على بال الفاتح اليوناني في بدء حملته على الفرس بل نشأت عنده إبان الفتح والحملة العسكرية . ولذا جاز لنا ان نمتدح دون ان نشك باخلاصه في ان الفكرة تبدت له وسيلة من وسائل التغلب على المقاومة العنيدة التي لقيها عند خصمه . الا ان حقن رفاقه وتعلمهم امام صعوبة المطلب ، وموت الفاتح فجأة كل هذا حد من التجربة وانتقص من امكانيات تنفيذهما بالزخم المرجح والى المرغوب .

وقد قام بين خلفائه ، هنا وهناك ، من عاود الكرة ، اما مدفوعاً اليها كرهاً عنه بقوة الاستمرار ، وبالتالى بخشية ولين ، إما بتوعية اكبر وادراك اوسع وب نشاط اوفر وعلى نسبة اكبر ، ولا شك انهم رأوا في الكرة يعاودونها من جديد وسيلة مثلى لترسيخ ما اقاموه من سلطان سياسي وعسكري فعملوا على تدعيمه بلاط الوحدة الروحية .

وها هي رومة تطل اخيراً علينا فتنشئ امبراطورية تمتد اطرافها من الشرق الى الغرب هي اقوى الامبراطوريات التي عرفها التاريخ القديم واوسعها طراً واطولها مدى ، اوشكت تتحقق من جنبها وحدة الحضارة . ولكن رومة لم تسع الى هذه الوحدة ، بل فرضتها عليها عوامل عديدة ودوافع متنوعة : ادارية وسياسية ، وعسكرية واقتصادية ، حتى ودولية . فالمسؤولون فيها لم يعتقدوا الفكرة ، ولم يماشوها الا متأخرين جداً ، بعد ان اتضح لهم فشل فكرة الامبراطورية . ثم من الجائز ايضاً الافتراض انهم لم يتذوقوا النتائج التي ادت اليها هذه الجهود الفورية أولاً ثم المنهجية . الا انه لا يجوز الانتقاص من اهميتها والخط من شأنها . ولكن ما عسى ان تكون انضت اليه هذه الجهود وهذه النتائج لو لم تستعجل غزوات البرابرة ، مع عوامل اخرى تضافرت وتفاعلت بها ، انهار مثل هذه الوحدة البشرية الواسعة التي اوشكت ان تتم ؟

لتاريخ الحضارات التي ظهرت في العصور القديمة طابع مؤثر . فقد تفتتح من المذنيات
المسكونية البدائية حضارات مختلفة اخذت بالتطور والتكامل الى ان ازدهرت ورالت الواحدة
قلو الاخرى . وقد اسهمت كل منها في نماء التراث البشري المشترك . ومن جهة اخرى
فالحضارات الكبرى التي نشأت واستشرى امرها ضمت في كينونتها بمالك ودولاً تعايشت معاً
وتفاعلت على فترات من تطورها . وهكذا بدا العالم القديم وكأن قوة خفية تحركه وتدفعه من
حيث لا يدري نحو وحدة تتجدد دهرأ بعد دهر . فالحضارات تتعاقب وتتناهى بعد ان تحاول
كل منها ان ترفع درجة اعلى من سابقتها ، صخرة الوحدة التي آل اليها امرها فترة من الدهر .
ولا تلبث الصخرة ان تهوي الى الارض محطمة كل شيء في انهارها المدوي .



القسم الأول

حضارات الشرق الأدنى والأمبراطورية

في هذه الرقعة الواسعة من الأرض التي يصطلحون اليوم على تسميتها بالشرق الأدنى ، برزت وازدهرت أقدم حضارتين بين الحضارات التي قامت على مقربة من حوض البحر المتوسط . ففي مصر وبلاد ما بين النهرين ظهرت أولى السلطنات العظيمة التي تستأثر بانتباهنا للجهود البشري العظيم الذي بذلته .

والسبق الذي حققه الانسان في هذه البلدان على أمثاله في العوامل التي ساعدت على هذا النجاح في مصر وما بين النهرين .
واحداً سوياً ، يجب رده في الدرجة الأولى الى حلم الطبيعة والاحوال الجوية فيها . فكلتا البلدين يتألف سواده من سهول فساح ووديان ظليلة يؤمن لهما المناخ الحرارة اللازمة كما يردفها بالرفء والخصب انهار غزيرة . وهكذا في قلب منطقة صحراوية جرداء ، بعض فيافيها من اخشن ما قام من أمثالها في الأرض ، توفر الشروط المؤاتية لبروز واحتين لا اوسع منها ولا اخصب تقع احدهما على شواطئ البحر الابيض المتوسط كما تطل الثانية على مشارف هذا البحر .

وراح الانسان في هذه البقاع البارة يتلمس طريقه وينمي خبراته مكتسباً مهارات جديدة في استثمار هذه الأراضي الخيرة . مهمة ظاهرها هي تسير بيننا يخفي الواقع صعوبات كأداء لا تلين . ففي الحين الذي كان يحاول فيه الانسان استنباط تكتيكه الزراعي وتحسين عدته وادوات عمله كان عليه ان ييمن على المياه وان يتفادى منها الطغيان والتقصان ، وان يردأ عنه خطر المستنقعات وهجوم الصحراء عن طريق اقامة شبكة من اقنية الصرف والترع اللازمة للسقي ليحقق من هذا كله سيطرته الكاملة على الأرض واستثمار خيراتها الطائلة ، على منهجية اصول .

فامام مهمة بهذا الشمول وبمثل هذه الجسامية كان لا بد لجهود الفرد من ان تصاب بالعجز وببؤس سعيه ومحاولاته بالفشل ، فيقصر عن تحقيق اي شيء نافع له ولغيره من بني جنسه لو لم يتكفل مع غيره وينتظم من جماعات لها كيائها السياسي والاجتماعي ولها القدرة والسلطات الكافية لتنسيق الدروس وتحقيق المشروعات واستثمارها على وجه يعود بالنفع على المجتمع . وبالفعل فقد كان بحاجة ماسة الى زعماء وقادة يتمتعون بالسلطة والاحترام اللازمين .

فضرورة القيام بمثل هذه المهمة السلبية والنفع الذي تعود به على الجميع ليسا من الحقائق التي تبرز للعين بمرور واجب الدفاع عن الوطن من اعتداءات المعتدين . ومن جهة اخرى فالحرب

وضع طارئاً وحالة حادثة تمر وتنقضي ، بينما إعداد الأرض للزراعة عملية يجب معاودتها كل سنة وإثباتها من جديد عاماً بعد عام بعد ادخال التحسينات عليها . فلكي يستطيع القادة اصدار الاوامر في هذا المجال وانتزاع الطاعة ، يجب ان يتمتعوا بسلطة قوية تنطلق من مجموعة من التعاليم والمعاقد الدينية التي تحتم على الانسان الطاعة التامة والخضوع الكامل والتسليم المطلق ، ان لم يكن تفاني الفرد المطلق وانسكابه في مجهود مشترك نظم .

هنالك ثلاثة عوامل تضافرت وتفاعلت معاً فادت الى هذا النجاح ، هي : سر هذا النجاح الظروف الطبيعية المؤاتية في خدمة ادارة جماعية يشدها الى الدين روابط وثيقة متينة . ولكن كيف تم للعاملين الانسانيين الآخرين الظهور وكيف تم لها مثل هذا الانتشار والشيوع واكتسبا مثل هذا الحول والطول ؟ هنا السر الكامن الذي لا يمكن ادراكه والنفوذ اليه ، اذ ان نشأة الدين وطلوع الفكرة الدينية ، لا يأتلفان بشيء مع التسليم بفكرة المنفعة المادية . والاخذ بهذا التسليم يعجز عن تبرير هذا الرضوخ المستمر ، من قبل جماعات تعمل تحت الاكراه والضغط .

وما يزيد هذا السر اغلاقاً واطباقاً ، وبالتالي اقراً في النفس هو اننا امام ظاهرتين لا ظاهرة واحدة وامام نشأة حضارتين متعاصرتين تقريباً . فالحضارة المصرية وأختها الحضارة البابلية نفسها ، شارفتا على التام وقت لها الخصائص المفردة ، بضعة قرون قبل اواخر الالف الرابع قبل الميلاد اي حوالي سنة ٣٢٠٠ ق.م ، بحيث يستحيل على المؤرخ اليوم ان يقطع في من منها سبق الاخرى للظهور .

ولو فرضنا وقام دليل قاطع على اسبقية احدهما للآخرى ، تعذر القطع ايضاً على الباحث في من منها تأثر بالآخرى ونهج نهجها واحتذى حذوها . فبين الحضارتين اكثر من خاصة واكثر من ميزة مشتركة . ولكن ، في النظام العقائدي الذي ارتقضته كل منهما ، وفي الانظمة السياسية الاجتماعية التي علمتا بها ، قامت مفارقات اساسية جذرية تجلت كذلك في العلاقات التي شددت الدين الى السلطة الشرعية . والنتائج العملية التي أدت اليها المناهج والاساليب التقنية التي استخدمت هنا وهناك في استئثار الأرض ، هي متشابهة ان لم نقل واحدة . ولكن اذا ما نظرنا الى مظاهر الحياة الاقتصادية نفسها رأيناها تتلبس اشكالاً والواناً هي في مصر غيرها في بلاد ما بين النهرين . فنحن امام حضارتين اصيلتين نشأتا الواحدة بعزل عن الاخرى ، ودون نقل او نسخ الواحدة منها للآخرى ، مع بعض اقتباسات طفيفة . ولكل من هاتين الحضارتين قبحها الخاص وضحاها المميز ، وكلاهما يستدعي تبني مئات الألوف من الناس واقتباسهم لمجموعة من العقائد والمذاهب ، ذات فعالية مدمشة كان اثرها قبل التجربة غامضاً مجهولاً ، يصعب تحديده او تبيانها ، صحت اساساً وطيداً لهذه الحضارة ، ونقطة انطلاق لها نحو الظهور قاتلجي فالازدهار .

وهذه الحضارات الفرعونية والبابلية التي يكتنف الغموض نشأتها المبكرة
ويلفّ كينونتها لفاً ، عرفت ، بما تمّ لها من موارد طبيعية هائلة ورفد
كريم ، وبما امتازت به في الداخل من تماسك وتراصٍ زادتها النجاحات
التي سجلتها والتفوق الذي حققته قوة ومتانة ، ان تكفل للشعوب التي قامت عليها ونهضت بها ،
تقوفاً ساحقاً على ما حولها من امم مجاورة وطوائف دارت في فلكها . فقد تمّ لهذين القطرين
منذ الفجر الباكر وسائل ساعدتها على الفتوحات العريضة وبسط سيطرتها بعيداً .

وهذا السلطان جاء استعماله واستخدامه عندهما على غير استواء . فالحاجة للمزيد من
الطمأنينة عن طريق تدويخ المزيد من الشعوب المجاورة ، الفينة بعد الفينة كانت اكثر غيباً لدى
المصريين منها لدى البابليين . وهكذا يبدو لنا ، بعيداً عن كل نظرة سيكولوجية ، ان
« شهدة السيطرة » التي وُصِّت بها هذه الحضارات ، لا تلازم تاريخ مصر الفرعونية بصورة
مستمرة . ومع ذلك فقد اضطرت مصر ، بدافع من موقعها الجغرافي ، لتحقيق وحدتها في
الداخل ولمراقبة الصحاري المحيطة بها من الشرق والغرب ، على السواء تفادياً للفتايات المزعجة
ومنعاً لكل طارق طارئ ، بحيث تستطيع الانصراف للاستمتاع بدعة الوادي وبحيراته
الوافرة . ومهما يكن ، فقد اضطرتها ظروفها الخاصة ووضعها الجغرافي لان تصبج وتبقى دوماً ،
من الوجهة الجغرافية والاسكانية ، دولة كبيرة واحدة موحدة ، بالرغم مما تمّ لها من
صروف وظروف .

فالشرق الادنى ميزة خاصة لا يشاركه بها قطر من اقطار حوض البحر المتوسط ، وهي ان
حدوث الحضارات الكبرى لا يلبث ان يعقبه ، بعد فترة قصيرة ، طلوع امبراطوريات عريضة .
فاذا ما نظرنا الى هاتين الميزتين مستقلتين او في إطار التاريخ العام ، رأينا ان ليس بينهما شيء
من الترابط والتداعي ، اذ اننا نلاحظ في غير مكان ، او في ازمدة تاريخية اخرى ، طلوع
حضارات ضخمة تزدهر ، بالرغم مما يتخللها من انقسامات سياسية . وعلى عكس ذلك تماماً ،
هنالك امبراطوريات واسعة تقوم وتستمر في الوجود بالرغم مما هي عليه من تخلف في تطورها .
فهذا التوافق والتزامن الزماني يبقى ابداً من مواصفات الشرق الادنى المميزة .

وهذا التوافق ليس حدثاً عارضاً ، بل جاء نتيجة منطقية . ففي هذه الحقب الموعلة في
التاريخ ، جاء مجهود السكان المشترك ، في حقل الحضارة والتكوينات الجغرافية ، سبباً وعلّة في
آن واحد . ومن جهة أخرى ، عندما تأخذ شمس هذه الحضارات والامبراطوريات بالغروب
تترك وراءها شيئاً مما كان في الاصل ضرورة عضوية لها .

فالشرق الادنى عرف ان يحافظ ، مع توالي الاجيال ومر القرون ، على قسماص صورته
الاولى . ومن جهة ثانية ، نرى الانطلاق الحر للفرد امرأ عسيراً . فمن وجهة عدد السكان الاجمالي
او من جهة كثافة السكان ، لم يكن لوحدة الدولة ، من الناحية المادية كبير اهمية . كذلك امر

الفرد من الناحية الادبية ، اذ كثيراً ما كان يضيع بين غمر الجماهير . وكل شيء يشير الى اثر الضغط الذي كانت الجماهير تحدثه من الخارج ، كان اكثر من كافٍ ليعيق انفتاح الشخصية وبروزها . من الميسر ان نتصور كيف لا يؤول التجنيد في سبيل نفع مشترك كالشغل والحرب ذباً عن الوطن الى التجنيد العقلي والادبي معاً . ومن جهة اخرى ، كانت هذه المنطقة منطقة الشرق الادنى ، ابدأ ودوماً الارض المختارة او الارض المدعوة لاطلاع الممالك الكبيرة . يبدو ان قادة هذه الشعوب لم يستطيعوا مقاومة ما لالاق المديد من سحر وفتنة ، فوقعوا تحت تأثير هذه الافاق صرعى اغرائها وفعلها الاختاذ ، وقاموا يذرعون مشارق الارض ومغاريها طولاً وعرضاً ، ويقطعون مضايق البحار وبرازخها ، تحقيقاً منهم حلم راودهم بفتح مابين . وهكذا نرى الامبراطورية الايرانية التي آلت اليها تركه امبراطوريات بابل ومصر ، تحاول بدورها بلوغ ما لم تبلغه سابقتها من قبل .

وهكذا نرى الحضارات الامبراطورية الكبرى الثلاث : الفرعونية والبابلية والايرانية التي توارثت الشرق تباعاً ، قديماً ، تنتصب ، بما لها وفيها من نزعات عريقة اصيلة ، وجهاً لوجه امام مدنيات دقت رقعته الجغرافية وتواصفت خططها السياسية . وهكذا نرى ثلاث مدنيات كبرى تبسط سرادقها على الملايين من البشر لتنتصب وجهاً لوجه امام مدنيات تركت للجهد الفردي حرية اكبر واوسع . ففي الصورة الكبيرة التي رسمنا ، كما هي الحال في كل صورة مكبرة ، لا بد من التحفظ في ما تبدى عليها من فوارق . الا انها في جملتها وفي خططها الكبرى تبدي الواقع المجرد .

الكتاب الأول

الحضارة المصرية

ودون ان نقطع في امر اقدم الحضارات واسبقها في الترتيب الزمني ، لنبدأ بمصر .

مدى الحضارة المصرية
استمرارها

الحضارة الفرعونية التي زهت وازدهرت في مصر منذ اواسط الألف الثالث قبل الميلاد عمرت نحواً من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة . ففي عهد الامبراطورية الرومانية كان القوم يقدمون لآلهة مصر العبادة التي نهجوا عليها وفقاً للرأسم التقليدية المتعارفة ، وبينون لهم الهياكل وينقشون على جدرانها رسوم الطقوس الدينية بالخط الهيروغليفي . ولم تتلاش ديانة مصر القديمة وتسخ مناسكها ومراسمها الا مع ظهور المسيحية وغلبتها في نهاية الأمر وسيطرتها على اطراف البلاد ، بعد ان عرفت كيف تحافظ على نفسها سليمة وتحفظ مجيوتها بالرغم من وقوع مصر تحت سيطرة الفاتحين الاجانب كالليبيين والاثوبيين ، والاشوريين والفرس والمقدونيين . فاذا كان الاولون منهم اعتنقوا الديانة المصرية وثبوتها ، فالباقيون ادخلوا معهم آلهتهم الوطنية لاستعمالهم الخاص . اما الاهلون فقد احتفظوا بآلهة جدودهم القدامى واحاطوا بعضها بظواهر التكريم وبالفوا في السير على مناسك عبادتها . فالانسان لا يعرف حضارة من حضارات التاريخ القديم عمرت ما عمرت الحضارة الفرعونية ، وبرهنت عن عراقة ورسوخ لا مثيل لها قط .

وغني عن القول ان الاستمرار لا يعني عدم التبدل . ففي مثل هذه الحقبة المديدة التي استطلت لها الحضارة المصرية القديمة ، عرفت مصر اكثر من تبدل وتغير وتطور في جميع نواحي الحياة وفي كافة المجالات . والديانة نفسها التي يعني مدلولها المحافظة تقدم الدليل على ما نقول ، ناهيك عن التطورات العديدة والعميقة معاً التي ألمت بالحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد ، ولا سيما في المهود التي وقعت مصر فيها تحت سيطرة الاجني .

كذلك ، غني عن القول ، ان مصر ، خلال الخمسة والثلاثين قرناً التي استطلت لها الحضارة الفرعونية ، لم تحافظ على مستوى واحد من الحيوية والنشاط . فقد مرت بها عهود ازدهار وتوسع واشماع كما عرفت عهوداً اخرى من الانحطاط والحسف والسبات العميق . فقد تعاقب على

الوادي ، منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد ، ثلاث امبراطوريات ، من الاسرتين الثالثة والرابعة — اي من بناء الاهرام — حتى اواخر القرن الثالث عشر قبل المسيح ، تاريخ زوال السلالة التاسعة عشرة التي ينتهي اليها رعمسيس الثاني . وبعد ذلك في القرنين السابع والثامن ، اي بين ذهاب سيادة آشور . والفتح الفارسي ، عاد الى مصر شيء من حيويتها مع اسرة سايس . فاذا شئنا ان نرسم للحضارة المصرية رسماً بيانياً لم يتبع الرسم خطأ منحنياً ، مديد الطول مسع مدى الأزمنة التي استطالت لها هذه الحضارة ، بل سار متعرجاً ومتكسراً بين هبوط عظيم وارتفاع شاق .

فالحديث ، والحالة هذه عن حضارة مصرية « واحدة » ووضع صورة بيانية عامة لها عملية رهان ومجازفة ، ولكن المحاولة لها ما يبررها في ما اعتقد به المصريون واستقر في اذهانهم وما جاهروا به عالياً من ان حضارتهم حضارة استمرت دونما انقطاع .

اذا تبينا عند شعوب كثيرة الاعتقاد بعصر ذهبي ، وبوضع مثالي تحقق في الماضي الاسطوري ، فن النادر جداً ان تتخذ هذه الشعوب ، من هذا العصر المثالي قسطاً تهج عليه وهدياً تأتم به . ولا يولي الظهور للتطور عن قصد ، لما يتبينون فيه من مفسدة ، الا قوم لفتمهم العقيدة الدينية لفا قتل بسوها وراحوا يستلمونها في كل تصرفاتهم وافكارهم . فقد هالهم التفاوت بين الأمل الذي عقدوه على نعم الالهة وعللوا النفس بها وبين البؤس المحيى بالناس فراحوا يعملونه بالخرق على التعاليم الالهية ، ويردونه لما كان عليه الجدود من جحود لنعم الالهة ومن جهل وجهالة فنالوا حزاء علمهم ما يتضرسون به اليوم من شقاء بعد ان فقدوا النعم والخيرات التي كانت لهؤلاء الجدود من قبل . ويبدو ان المصريين كانوا من هذا النوع من الناس . فسمع انهم كانوا يقولون بالتسك بالقديم والحفاظ عليه ، لم تبق ارادتهم جامدة . صحيح انهم لم يكونوا من المستسلمين للكتابة والقنوط ، فقد حملهم ما عرفوا به من اندفاع طبيعي ، على احياء الماضي المجيد مع تحسرم عليه وتحرقهم اليه . فالشعب ، في مجموعه لم يعمر قلبه بفكرة الرقي الذين كان في مكنة المستقبل ان يجعلها لهم . فقد اعوزهم ، ولا شك في ذلك ، الخيال المجنح المطمئن الذي يستطيع وحده ان يستجليه . كانت نفوسهم تهفو الى ماضي اسفل كانوا عليه ، انما قضى ومضى وزال ؛ الا انه يمكن لهم ويتحتم عليهم استعادته وحيائه . ولذا حاولنا على شاكلتهم استحضار هذا الماضي وتقمه وتكوين صورة مثالية لهذه الحضارة الباهرة .

وحدة وفوضى « مصر هبة النيل » كلمة مأثورة طامنا نسبها الناس الى هيرودوتس المؤرخ اليوناني المشهور . والصحيح كما يصرح به هيرودوتس نفسه ان هذا القول نقله هو عن اسلافه الاغريق ولا منيا عن هيكانيه الميلي ، احد مؤرخي اليونان ورحالهم المشهورين في اواخر القرن السادس ومطلع القرن الخامس قبل الميلاد . وكان اليونان يطلقون القول على دلتا النيل وحدها بينا وجد هيرودوتس ان القول يجب اطلاقه على مصر كلها .

وبالفعل ، قللنا من الاهمية الطاغية على تكوين مصر وعلى تطورها عبر التاريخ ما لا يمكن نكرانه ولا يصح تجاهله ، ولا يحتاج بالتالي الى دليل يحتاج به . فالحياة في مصر ترتبط في جميع مظاهرها ونواحيها البشرية والحيوانية والنباتية بالنيل وبما يردف به مصر ، في ابان الفيضان من ماء وفير وظمي يكسبها الخيرات والبركات الطائلة ، وهو فيضان يقع في فصل القيظ ، اي من حزيران الى تشرين الاول فتكون معجزة الماء احدى عجائب الخلق في هذا البلد . فمصر هي ، قبل كل شيء آخر ، النيل نفسه الذي يؤلف بواديه الطويل شريطاً اخضر كان ، منذ القدم ، امثل وسيلة للمواصلات ، يفيض الرفء على ما حول ضفافه من الاراضي الخضراء فتكتسي حلة سندسية . ولا تتجاوز هذه الاراضي ثلاثين الف كيلومتر مربع مساحة - اي ما يوازي مساحة بلجيكا مثلاً ، والف كيلومتر طولاً خطأ مستقيماً ، اي ما يوازي المسافة بين دنكرك في شمالي فرنسا وبرنينا في جنوبيها ، او اطول من ذلك بكثير ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار عطفات النهر وتعاويجه اذ ان سيره ومجره ليس بالسير السوي القويم .

ولذا كان لا بد من وحدة للوادي ، يستطيع معها الانسان مراقبة ارتفاع مياه النهر ابان الفيضان وتنظيم عملية صرفها وتقنياتها ، وهي وحدة سريعة العطب ، سريعة الزوال اذا لم تتمكن الادارة المركزية من التغلب على عقبة المسافات والابعاد التي كانت تعترضها . والمقاطعة او المتصرفية التي نشأت حول التجمعات البشرية التي قامت على جنبات الوادي كانت تضيي على الحياة اطاراً طبيعياً . ويجب ان ننوه هنا ، ولو من طرف خفي ، بالتضاد او المنافسة القائمة بين الوادي او مصر العليا التي لم يكن عرضها ليتجاوز عشرة كيلومترات ، وبين الدلتا او مصر السفلى التي تألفت من مثلث طول ضلعه ٢٠٠ كيلومتر تقريباً حيث كانت المياه الجارية منها والراكدة تشعب الى اقنية وترع متعددة ، فتحدث البحيرات والفيضات والاجمات الفضيضة التي كثيراً ما اعتصم فيها المتمردون والخارجون على القانون والشرعية ، هرباً من وجه العدالة . وبفضل اتصال الدلتا بالبحر تم لهذه المنطقة وسائل وخدمات تجارية لم تعرف مثلها مصر العليا او الصعيد ، فقامت في الدلتا مدن عديدة كان لها من الاهمية التجارية ما لم يترفع بعضه لمدن الصعيد ، وقام لها من المشاغل والمصالح الخاصة ما تعارض مع مصالح الريف في الوادي .

ويتوجب علينا ان نشير هنا الى عامل آخر ، عمل فعله باستمرار منذ القدم الى جانب عامل الوحدة ، الا وهو وجود قوى مركزية دافعة ، استطاعت اكثر من مرة تحقيق اهدافها معتمدة في ذلك اما على نفسها او على مساعدات الاجنبي وأثره الهدام على البلاد من الداخل . غير ان الشعور المرير بفقدان الوحدة لا يلبث ان يشتد عند مرأى المصائب والاحن التي كانت تنزل بالبلاد ، فتحول دون استثمار الارض الاستثمار المرغوب فيه كما كانت تسيء الى الأهلين في سيرتهم المألوفة والعيش الذي افوا نهجه . ناهيك عن انها كانت تضعف الموارد التي تنهض عليها معالم

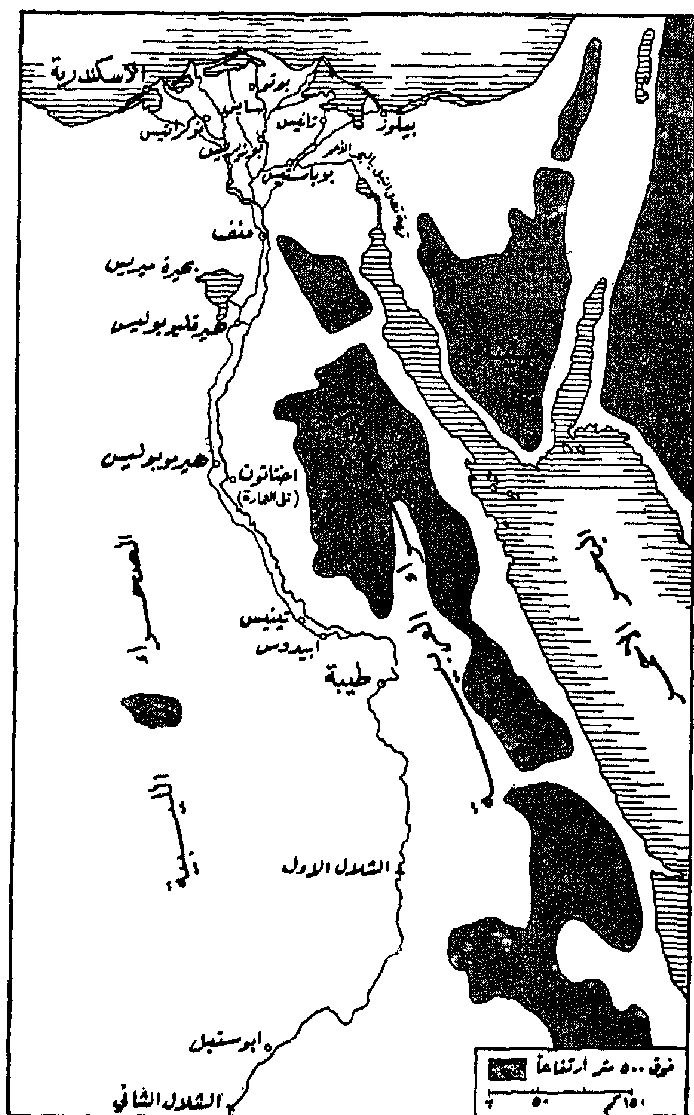
الحياة الدينية التقليدية . وهكذا ندرك حق الإدراك كيف أن الشعور بالأسف كان يغمر البلاد في تلك الأزمنة التي كان يضطرب فيها جمل الأمن في الداخل ، فتماود الناس ذكرى تلك الأيام الحارة وعهود الرخاء التي كانت فيها البحوحة والرفاهية يخبان فيها على مرافق البلاد كافة . وهكذا نجد أن التعلق بالماضي والحنين إلى أيامه الحلوة ، هذا الماضي الذي عرف الوحدة وحضنها وحافظ عليها كان الدافع إليه المصلحة العامة المشتركة .

عزلة وأصالة
كره المصريين للجديد له ما يبرره العزلة التي نعموا بها . فما من حضارة توقرت لها ظروف البروز والازدهار والبقاء بنأى عن المؤثرات الأجنبية كأنها في وعاء مغلق ، كالحضارة المصرية .

كانت مصر بفضل موقعها الجغرافي الممتاز ، أقل دولة تعرضاً للخطر من الخارج ، وهي ميزة تستلفت النظر والانتباه ، إذ أن الازدهار الذي نعمت به من شأنه أن يثير أطباع الراغبين وجشعهم . أما حدودها فكانت أقل ما يمكن أن يتصوره إنسان لحدود طبيعية . فقد كانت الشلالات في الجنوب معاقل في وجه الغزاة يرومونها من هذه الناحية . والصحارى المحيطة بالوادي من الشرق والغرب على السواء كانت تؤلف سدوداً منيعاً لا ترام ، كما أن حدودها البحرية كانت هي الأخرى ضيقة محدودة . وإلى هذا ، لم يحتم على حدود مصر ، عدو شديد الشكينة ، يتهددها باستمرار . ولا يعني هذا الوضع المحيز أن مصر نعمت باستمرار براحة البال لم يساورها القلق على سلامتها ومصيرها . فباستثناء الصحارى العربية والديبية القاحلة الجذباء التي عزلتها من الشرق والغرب والتي كانت على الأجمال خالية من السكان ، كان لا بد لمصر من قوة بوليسية دوماً منسقة للعمل والتدخل عندما تدعو الحاجة . وكثيراً ما اضطرتها الظروف ودعتها للقائمة والجهد المرير في جنوبي الدلتا وشماليها ، ولا سيما إلى الشمال الشرقي ، إذ يشدها إلى القارة الآسيوية برزخ ضيق . فحاربت واستماتت دفاعاً عن سلامتها أو استخلاصها لأراضيها من مغتصب مستبد . وهذه المخاطر التي استهدفتها من الخارج في العهود المتأخرة من تاريخها المديد ، لم تسبب لها قبل مطلع الألف الأول قبل الميلاد ، سوى أزمات ونكسات عابرة . وليس في تاريخها الطويل ما يصح مقارنته أو معارضته بهذه الحروب الأكلو المنهكة التي اضطرت لخوض غمارها شعوب أخرى ذوداً عن أوطانها وذباً عن حياضها .

فالتلاحم في ساحات الوغى كثيراً ما أدى بالمدينيات القائمة وجهاً لوجه للاحتكاك والتصادم ، إلا أن الحضارة المصرية قلما تعرضت لمثل هذه الأمور في تاريخها السحيق . وهكذا استطاعت هذه الحضارة ، أن تحافظ على أصالتها ، بإسرها استطاعت أية حضارة أخرى . وكان من أثر هذا كله على المصريين ، أن حرك فيهم كغيرهم من الشعوب الأخرى ، الشعور بالفخر والمباهاة ، وهو شعور أشد عندهم وأقوى منه عند الغير ، كما نلاحظ ذلك من كلام كهنتهم لبعض الرحالة اليونان عندما خاطبهم قائلين : « أتم اليونان لستم سوى أولاد صفار » . وعندما بلغ تحوتمس يحافظ الجلالة ، شواطئ الفرات ، في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، قام في مصر من

ينتقد هذا التوسع ويشجبه ، إذ رأى فيه مسأً ببقاء الحضارة المصرية .
 فإذا كان هناك من حضارة تستدعي عرضاً عاماً لمدينتها لجاء وجوه التطور الذي عرفته
 خلال تاريخها المديد ، فهي لعمرى الحضارة المصرية .



الشكل ١ - مصر

الفصل الأول

النظم السياسية

الحضارة المصرية والملكية ، هما واحد ، في المجال السياسي . فمصر تفقد معناها وتخرج عن ذاتها عندما لا يتولى الحكم فيها فرعون قوي الشكيمة . فالضعف ينزل بالسلطان في مصر الفرعونية ، افا يعني ، في نظر المصريين الهوان فالقوضى تعم البلاد ، فالغزو من الخارج يقوم به الطامعون بخيراتها لا يلبثون ان يتزبوا بزي الفراغة ، اجتذاباً لرعاياهم .

١ - الملك

الملك محور الوحدة وخالفها يعزو المصريون الى ملكهم الاول مينس مؤسس الاسرة الاولى ، تنظيم البلاد على اساس توحيدها . فالملكية في نظرهم ، بدء تاريخ الانسان في البلاد . وقد جعلوا من نقطة الانطلاق هذه حدثاً الهياً دبرته الالهة وهيات له الاسباب ، وسخرت في سبيل تحقيقه مينس وجعلت منه خلفاً مباشراً للارواح انصاف الالهة الذين شدوا منه الازر . وقد وقع هذا الحدث التاريخي في نظرهم في الحين الذي برزت فيه الاكتشافات البشرية الاولى التي تعد من اركان حضارة الانسان : كالكتابة ، والفن واختراع فنون الزراعة والصناعة .

ويأبى علم الآثار التسليم بهذه الاحكام ، اذ لديه الدليل القاطع على المحاولات الاولى التي اخذ الانسان فيها بتلمس طريقه نحو التقدم والارتقاء ، كما عندها الدليل على المراحل التي مر بها بين صعود وهبوط وارتفاع ونزول استغرقت وقتاً طويلاً من الحضارة . كل هذا من شأنه ان يضيف اهمية خاصة على تحقيق الملكية بعد ان عرفت في البلاد ، ولادة صعبة ، بطيئة ، اذ كان عليها ان تتغلب تباعاً على النزعات المحلية المثلة في الاربعين « حاكية » وعلى الازدواجية او الثنائية التي قسمت مصر الى منطقتين متباينتين من الوجهة الطبيعية : الدلتا والوادي ، او مصر العليا ومصر السفلى ، متعادلتين تقريباً بجواردهما المادية والبشرية .

والحلبة التي مرت على الملكتين تركت اثرها بارزاً في خطط المملكة الموحدة ، اذ عرفت البلاد مدة طويلة ادارتين مختلفتين ، وسلسلتين او دورتين من الاقارب المتوازية ، ويتبين للمسال او خزينتين ، اقله من الوجهة الرسمية . وهذه المراسم التي لم يكن بد منها في بادئ الامر لم تلبث ان زالت وتوارت بينا بقيت حية الرموز والشارات المميزة للملكية والتي كرستها التقاليد الخاصة بتكريس الملوك وتوحيهم . ولعل ابرز هذه الرموز طراً التاج الذي كان يتألف من تاجين مزدوجين ، اشارة للملكتين اللتين اندمجتا وذابتا في مملكة واحدة ، يتوج به الفرعنة في الحفلات الرسمية ، يعلوه تاج الجنوب الابيض المستدير الشكل من اعلاه ، مرتكزاً على قبعة الشمال الحمراء يعلوها من الوراى سيخ عمودين تزينه من الامام ريشة لولية الشكل . ومن القاب الملك الكبيرى : « رب التاجين » وهو لقب يولي صاحبه صفة خاصة اذ ان للتاجين صفة التأليه ، ولها بالتالي المرتبة الثانية بين مراتب المراسم والتشريفات . وتنتهي الى الذوبان والانصهار في الذات الملكية هذه الازدواجية الممثلة بهذه الانشطة المتنفة حول عمود العرش وهي انشطة تتألف من البردي ، وهو من منابت الفياض في الشمال ، ومن زهرة البشتين او اللوتس رمز الجنوب ، ومن الشارة البارزة في التاج الملوكي والتي ترمز الى الشمال والجنوب معاً: النحلة والثعبان اللولي الشكل من جهة ، والقضبة والذسر من جهة اخرى .

لا شك ان الملك مينس ، طلع من الجنوب ، من الصعيد ، اذ ان اختيار العاصمة منف وأثر ذلك تاريخ مصر الرسمي يرجع السلالتين المصريتين الاولى والثانية ، الى مدينة قديمة من مدن الصعيد هي مدينة تنيس اتخذها ملوك الاسرتين المذكورتين عاصمة للمكهم ، فاستحقوا بذلك ان يوصفوا بالاسر الثانية . وقد وقع اختياره على نقطة تقع الى الجنوب من الدلتا ، على بعد يسير من الرقعة التي تقوم عليها مدينة القاهرة اليوم . في هذا المكان ، تأسست منذ السلالة الاولى ، قبل إنشاء مدينة منف التي برزت بعد ذلك بقليل ، قلعة تعرف « بالجدار الابيض » وهي بمثابة حصن منيع يتحكم بطريق الوادي ويهيمن عليه ، كما كان يشتمل على قصر ملوكي تقام فيه حفلات التتويج .

والمكان الذي وقع عليه الاختيار نزولاً عند مقتضيات الجغرافية والمحافظة على التوازن بين الشطرين الشمالي والجنوبي ، كان يستجيب تماماً لاهداف الملكية الاتحادية ومتطلباتها التي طالما شهبوها مجازاً ببيضة القبان او ميزان المنطقتين . وقد قررت السلالة الثالثة نقل المقر الملكي الى هذا المكان وجعله بالتالي مركزاً للحكم والادارة العامة ، وعلى ذلك سارت الاسر الفرعونية التالية حتى الثامنة منها، ولهذا استحققت ان تلقب بالاسر « المنفية » نسبة الى منف ، بينا تعرف اسر الامبراطورية الوسطى والحديثة بالاسر « الطيبة » لان ملوكها الاول طلعوا من طيبة في مصر العليا او الصعيد ، وكان هؤلاء الملوك ابناء اله هذه المدينة « آمون » (الهة الملوكي الاعظم ، وهكذا اصبحت طيبة المدينة العاصمة . وبعد ذلك بكثير قامت سايس في الدلتا ، ثم الاسكندرية خارج الدلتا او على مقربة من مصر ، كما ورد وصفها في النصوص الرسمية .

وفي العصر اليوناني نفسه ، اي في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، كانت مراسم التتويج لا تجري الا في مدينة منف ، وهو تقليد يُعْمِل به باستمرار لما كان يرمز اليه من اتحاد شطري البلاد في شخص الملك الواحد الوحيد .

الملك الاله كان الملك في مصر ، منذ بدء الملكية فيها ، الها ، ولكن ليس بصورة رمزية او مجازية للتدليل على سلطته المطلقة وتساهيه فوق العامة بل على عكس ذلك تماماً ، فالنص الحرفي انما ينم على هذه العقيدة التي تكون احدى ميزات مصر الفرعونية . وهي عقيدة تطورت بالطبع على مر السنين والاجيال الا انها لم تفقد شيئاً من قوتها وفعاليتها .

فالملك هو قبل كل شيء « هوروس » الاله النسر او الاله الشمس ، ابن اوزيريس . وتحت تأثير عبادة الاله رع ، اله الشمس الاكبر في هليوبوليس بالقرب من مدينة منف ، مركز الثقل في الامبراطورية المصرية القديمة ، يصير هوروس تابعاً لرع ، والملك يصبح بالتالي : هوروس - رع او بالاحرى رع - هوروس ، ثم فيما بعد ابن رع . ولم تلبث هذه البنية ان رمز اليها منذ الباكر بصورة حسية ، ظهرت على اتمها وباهة وجلال في عهد الامبراطورية الحديثة عندما اصبح امون طيبة الاله رع ، وذلك لاسباب ودوافع سلاسية ، واستحال بالتالي الاله امون رع . وعوضاً من ان يكتفى بوصف هذا كله شفوياً اي بالكلام ، راح المصريون يرسمون هذا كله على جدران الهياكل ، فيصورون الاتحاد الحسي بين امون والملكة كما راحوا يصورون حسياً العون يسديه الاله والآلهة التوابع للطفل عند ولادته وفي تربيته . وهي تقاليد بقيت حية ، قوية ، ثابتة ثبات الحضارة الفرعونية نفسها .

ففرعون الاله في الحياة ، يبقى الها بعد الوفاة . فهو الاول بين المصريين وبالتالي يستحق مناسك العبادة والتكريم المتوجب للملك المتوفي باعتباره اوزيريس ، اذ قام على الارض من يحل محل ابنه هوروس . فمن المنطق والطبيعي ، والحالة هذه ، ان يصبح اباه الاهي . والتعاليم الدينية التي سيطرت على هليوبوليس لم تغير شيئاً من طبيعة الاعتقاد الذي لا يتفق ، حسب منطقنا ، مع العقيدة التي تجعل من الملك ابناً للاله رع ، الا ان الديانة المصرية لم تبال كثيراً بهذه المتناقضات . ولما كان اوزيريس ملك الاموات كان لا بد للفرعون الراحل ان يتسم بهذه الصفة اللازمة للملكية . وهكذا حتى لرعمسيس الثاني ان يخاطب اباه قائلاً : « انت في مسكن الراحة في الدار السفلى مع اوزيريس ، بينما انا أتألق هنا امام الشعب بصحبة رع ، متربعاً على عرشي مثل هوروس » .

وهذا التأليه في الدارين ، الفانية والباقية ، ليس من نزوات ملك عاتٍ مستبد اوجب على رعاياه الخائفين الاخذ به . فهو ينبثق رأساً ويصدر عن الايمان الوطيد ، بانه اله واله عظيم دوماً على اتصال مباشر وثيق بالآلهة الكبار ، له القدرة على الطبيعة يصرفها في الوجه الحسي النافع .

فالمملك ، كما يقول احد الوزراء الذين عملوا في عهد الامبراطورية الحديثة ، « الله اعماله تساعده على الحياة » . أفليس له الفضل في إخصاب المواسم وازدهارها واقبالها ، لانه الله النيل ، مصدر كل ازدهار . واسمع ما يقوله هنا أحد الفراعنة المتوفين : « كنت ملكاً أَوْثَنَ طلوع الشعير » . وعندما يعتلي فرعون العرش ، كان على الناس ان يفرحوا ويتبجحوا لأن أحد الارباب اقيم رئيساً على كل البلاد ... والمياه ترتفع ولا يهبط منسوبها ، والنيل المياه الحيرة المدرارة ... والحياة نهب بين ضحك وهو « ففي الرُقْم والكتابات المصرية ، يرافق اسم الملك شارات ترمز الى : « الحياة والصحة والقوة » ووجودها على هذا الشكل يُمن يرفع ليس للذات الملكية فحسب ، بل ويتجه ايضاً بواسطته لكل المملكة وما فيها من سكان . وحتى بعد الوفاة يبقى فرعون يحذب على مصر ويعطف عليها ، ولذا حق له اكثر من أي انسان آخر ، ان يخلد ذكره ويبقى حياً الى الأبد .

تعيين الملك وتتويجه الملكية بمثل هذا المفهوم وعلى مثل هذا الشكل ، نظرية لا بد وان تترك ، من قريب او بعيد ، اثرها العميق على كل ما يتصل بالملك وشؤونه . فهل قام في مصر ، بالفعل ، حق ملكي ورثني راسخ ثابت وطيد ؟ ليس من يستطيع إثبات ذلك ، ان كل الدلائل تشير الى ان الابن البكر كان يخلف ابيه الملك ، ولكن هذا الأخير كان يعمد في بعض الأحيان ، الى تأمين خليفته بنفسه فيختاره او يشركه باعباء الحكم وهو في قيد الحياة فيحكم كوصي مشارك . غير ان تدابير كهذه من شأنها ان تجعل الملك يؤثر ابنه الاصغر او ابن احدى زوجاته الاخرى . ولذا فالوثائق الرسمية التي بلغت الينا من ذلك العهد لا تقتصر على التنويه بحق الولادة وحده . ففي حالات اغتصاب الملك والاستيلاء على العرش عنوة واقتداراً — وهي حالات كثيرة ما تكررت حوادثها علانية ولم يطف من حدة وقوعها زواج المختصب من احدى اميرات الاسرة السابقة — تسكت الوثائق التي لدينا عن تبرير مصير الملكية بقوة الحق او بالنجاح . فالكل ينسب هذه الامور لرغبة الآلهة ومشيتيم ، وهو بالذات ما تفرضه تماماً نظرية البنوّة الالهية . ولا بد ان يكون حدث — وقد حدث ذلك بالفعل اكثر من مرة — في عهد الامبراطورية الحديثة التي بلغت فيها عظمة اله الطيبين امون الارج ، كما كانت لنفوذ الكهنة اذ ذاك الشأن الكبير فكانت مداخلات الكهنة والسحرة والعرافين مثاراً للشك من حيث عدم تحيزهم .

وعلى كل ، فالمملك لا يصبح بالفعل ملكاً الا بعد حفلة التتويج ، وهي حفلة تتم مراسمها في مدينة منف بسلسلة من الطقوس الرمزية والادعية التقليدية التي في اتيانها تذكير بتوحيد الملكتين او شطري البلاد في شخص الملك ، فيدخل بين مصاف الآلهة ويصبح مساوياً لهم . وخلال حفلة التتويج يسلم شارات الملك التي توليه القوة الالهية كالصولجان والوسط . وبعد ذلك « ينتصب » ناهضاً وعلى هامته تاج الجنوب الابيض وتاج الشمال الاحمر ثم البشت (*Pschent*) ، الذي يجمع بينهما ، ويجلس على العرش فوق البردي واللوتس ويقوم بدورة حول « الجدار الابيض » ،

وهي حركة ترمز لتوليده امر الدفاع عن مصر ، اسوةً بالشمس التي تقوم بدورة حول الارض . وهكذا يحمل الملك الجديد الالقاب الرسمية الخمسة التي ينص على حملها مرسوم ملكي يعود صدوره لعهد الامبراطورية المتوسطة : هوروس رع ، ورع التاجين ، وهوروس الذهبي الحاكاه الذهب الشمس ، وبالتالي رع ، و « ملك القصبه والنحله » رمزي مصر العليا ومصر السفلى ، وابن رع . وهكذا نرى رعسيس الثاني يلقب بالاسماء التالية : ١ - الثور القوي المصفح بالعدل ؛ ٢ - حامي مصر وصلة الوصل بين البلدان الاجنبية ؛ ٣ - المهتلى سنين وفتوحات ؛ ٤ - المسربل بعدل رع والمصطفى من رع ؛ ٥ - حبيب امون ، رعسيس . والتاريخ لم يُبقِ الا على هذا الاسم الذي اعطي له عند مولده . اما الاسماء والكنى الاخرى فلم يعرف بها الا بعد اعتلائه العرش ، اذ انه لا ينال الرابع منها الا في حفلة التتويج . وهكذا يسربل فرعون صفة الملك الفاتحة الطبيعية بصورة تأخذ الالباب وتدعو للرهبه والخشية لما لها من وقع في النفس .

حياة الملك تجري في عهد الملك حفلات من هذا النوع ، وذلك في الاعياد التذكارية وهي اعياد لها من المعنى والمدلول ما يتجاوز بكثير مفهوم الاعياد المألوفة . والغرض من هذه الاعياد تجديد الاعتبار الذي كان للملك من قبل والاعتراف بما له من سطوة دينية وقوة خارقة يتوقف عليها خصب مصر ورفاهية الوادي . بالطبع لم تكن هذه الاعياد الموسمية سوى العودة بالذكري الى تلك التقاليد والعادات البربرية التي كثيراً ما كانت تنتهي بقتل الملك واستبداله بخلف له اوفر شباباً وصحة .

فحياته على مر الايام ، حياة الله وابن الله . هو موضوع عبادة الجميع وتكريمهم . الكل يعفر جبينه امامه ويشرف اسدهم حظاً بتقبيل قدميه . حركاته وسكناته الرسمية تجري وفقاً لمراسم معينة فلا يظهر للناس الا برداء خاص مرصع بالجواهر والاحجار الكريمة ، وبلحية صغيرة مستعارة ، كذلك يقوم بمراسم خاصة من التطهير . ووجبات الاكل التي يتناولها هي بمثابة قربان يقدمها للآلهة .

فهو يحب ويستطيب بالطبع كل ما يدخل البهجة الى قلبه ، شأنه في هذا كله شأن الآلهة . له اوقاته الخاصة للترفيه والتسلية ولا بأس اذا ما تحدث الناس عن هذه او تمثلوها . فاذا ما نهض للصيد والقتص قام بعمل ما لوف متعارف لدى الملوك ، فيعطي الدليل على ما أوتي من قوة وصحة وبأس في صيد التماسيح وفرس البحر التي تألف الغياض والمستنقعات ، فيظهر البلاد من السباع والحيوانات التي تعيش فيها قسداً وتنزل الرعب والضرر في العباد . وهو الى هذا كله ، ومع هذا كله بحاجة الى مباحج اخرى تسري وتدخل الغبطة في النفس : كاللحم اللذيذ الوافر ، والطيب ، والموسيقى والرقص والمصارعين ، والرفاق والاسرة ، التي تتألف من العديد من الزوجات والسرايري ، يختار من بينهم ما احلولى له ملكة ، يستمض عنها باخرى بعد حين . وقد افرد للحريم داراً يجمع بالخدم والحشم والوصيفات . فلا عجب ان يقوم في مثل

هذا المحيط وهذه البيئة دسائس وتحاك الفتن وتفسج المؤامرات وتقدور المناورات ، كما وقع ذلك مثلاً في عهد الاسرة الثامنة عشرة اي في اواخر عهد الملك تحوتمس الثاني ، وهي المغامرة التي كانت بطلها الملكة حتشبسوت التي حفظت لنا الوثائق الرسمية الكثير من اخبارها .

وظائف الملك : الدين
وبين المراسم الدينية التي يؤتى بها موعظة وعبرة ويحرص الملك على القيام بها بوصفه ملكاً للبلاد ، وظيفته الدينية التي كان يؤديها بكل امانة باعتباره ابن رع او ابن الاله امون . فهو يعرف اكثر من سواه كيف يعبر للآلهة ، عن شكر مصر ويستمطرها شائب النعمة ودوام البركات . فالواجب الديني هو اول الاعباء العائلية التي يضطلع بها ، والواجب الاول المفروض على الابن نحو ابيه ، وعلى الورث نحو ذويه من اباعد واقارب . فهو الكاهن الاعظم الذي يرتب مصاف الكهنة ويقيم من بينهم نواباً له او مساعدين لهم في الخدمة الدينية التي لا بد من تأدية مراسمها المفروضة كل يوم من ايام السنة .

نادرة جداً في تاريخ مصر القديم المناسبات التي استجال الحكم فيها ثيوقراطية ، آلت فيها حقيقة الحكم والادارة الى طائفة الكهنة . نرى في بعض الاحيان بعض الكهان يلقنون الملك القرارات التي تحت عليه اتخاذها ، الا انه كان دائماً حريصاً على التظاهر بان ما يصدر ليس سوى الالهامات والتجليات التي يوحى بها اليه ابوه الالهي ، وانه يأتي ما يأتي وفقاً لمشيئته . ومع ذلك عرفت مصر النظام الثيوقراطي البحت في اواخر عهد الامبراطورية الحديثة ، بُعيد السلالة التاسعة عشرة ، سلالة رمسيس الثاني ، اي مع سلالة كهنة امون العظام ، وهي المعروفة بالسلالة العشرين . كل هذا والملك يعرف جيداً كيف يحول دون التجاوز هنا على حقوقه . فهو باعتباره الكاهن الاعظم في حياة البلاد الدينية ، يقوم بواجباته وبوظائفه الدينية على الوجه الامثل .

فالقرايين تقدم باسمه في الهياكل كل يوم من ايام السنة . وهو الذي يصدر الاوامر والتعليمات ببناء ما يرغب في بنائه وترميم ما يجب ترميمه من هياكل ، ويؤمن لها الاصلاحات التي يستدعيه وضعها ، هذه الهياكل العظيمة او المدافن الملكية التي شادها السلف الصالح . والملك هو الذي يُسبل الوقوفات ويقطع الاعطيات للآلهة ولهاكلها ، ويسهر على تأمين ادارتها واستئثار مراقبها عن طريق الكهنة ، كما يحرص على الظهور امام الناس بالخشوع والتقوى والامتثال الوديع في التنفيذ .

ولا يتردد ، الى جانب ذلك ، بفعل كونه اوسع اطلاعاً من اي شخص آخر ، في ان يعزي لشخصه سلطان اللاهوتيين المعتقدي . واذا اكتفى في عهد الامبراطورية القديمة بتأييد تعاليم اللاهوت الشمسي المعمول بها في معبد رع في هليوبوليس ، فهو لا يهمل الاستفادة منها لمصلحته وخيره . وفي عهد الامبراطوريتين الوسيطة والحديثة ، لا يمكن فصل النجاحات التي احرزتها عبادة امون عن الاهداف السياسية التي سعت ورامها الاسر الطينية الاصل . واكثر من ذلك

فاننا نرى الفرعون اخناتون الذائع الصيت ، في الربع الثاني من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، يستخدم ما له من سلطان وقوة مادية للدفع بعبادة الاله اتون الى الامام . انها لأزمة قصيرة ولا شك ولكنها اتصفت بعنف نادر وكان بمكنتها ان تؤدي الى نتائج راسخة لو قيَّض لاختناتون ان يعيش طويلا .

وظائف الملك : الحرب
الدفاع عن مصر والدود عن حياضها وصيانة استقلالها ، مهمة وطنية عليا يضطلع الملك نفسه بمسؤولياتها . فاذا ما انعمنا النظر ملياً في تاريخ مصر القديم ألفينا هذا الدور من المهمة الملقاة على كاهل الملك اقل بروزاً في مصر منه في معظم الممالك والدول القديمة التي قامت في بلدان واقطار كانت اكثراً تعرضاً من وادي النيل لاطلاع الغزاة والفاحين الذين نجاشت نفوسهم برغبة التوسع . كان وضع مصر الجغرافي مدعاةً من الوجهة السيكلوجية لطمأنينة لم يتوفر مثلاً لغيرها من البلدان المجاورة . فقد توالى على الحكم في مصر عدد كبير من الملوك حكموا البلاد وعاشوا بدعة هائنين لم يعرفوا الحرب ومتاعبها المقتضة . فالاشادة بحب السلام ، والاستمسك بعراه والتغني بنعمائه بعبارات ولهجة لا تنبو عن نزعات العصر الحديث ، كل ذلك من المميزات التي اتسم بها الادب السياسي في مصر قديماً . ومثل هذه النزعة تبدو واضحة بارزة في مجالات أخرى من الوضع الاجتماعي الذي سارت عليه البلاد .

وهناك مع ذلك حد ادنى للاستسلام للدعة والطمأنينة لا يمكن لاية دولة تجاوزه او تخفيه جزافاً : فهلك ايفتو لم يتغنّ بغير المثل التي تدغدغ خيال شاعر مجنح الخيال . اما الفرعون فعليه ان يسهر على مراقبة الصحارى المحدقة بمصر وعلى أمن مسالكها ومدخلها ولا سيما ما افضى منها الى ثغور البحر الاحمر ومرافئه التي كانت ترفد البلاد بمحاصيل بلاد البونت . وكان عليه ان يضع دوماً نصب عينيه تحت اشرافه ومراقبته بلاد النوبة وشبه جزيرة سيناء وكلاهما غني بالمعادن والخامات النادرة . فكل الدول والامبراطوريات التي قامت في مصر ، في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد حرصت على ان تبسط سيطرة تامة على سيناء وشيئاً من ذلك على النوبة ، فكان البلدان ابداً من البلدان التوابع لمصر . وكان على الفرعون ان يتصدى اكثر فأكثر للغزاة الطامعين بمصر من آسييا عبر السويس . فصر تأثرت ولا شك ولا تزال بكل الموجات البشرية التي يصل مدحا الى سواحل آسييا الغربية وبالفتوحات التي تنهض لها شعوب المنطقة .

فالغزو الذي قام به ملوك الرعاة (الهكسوس) في اعقاب الامبراطورية الوسطى سجلت عهداً جديداً في تاريخ مصر كما احدث تغييراً ملحوظاً في القيم المثالية التي سيطرت على مصر الفرعونية . فقد ترتب على ملوك السلالة الثامنة عشرة ان يطردوا الاجنبي المغتصب من البلاد وان يطاردوه الى ما وراء الحدود الشرقية ويحدوا في إثره حتى مشارف الفرات ، محاولين ان يمحوا من المنطقة الواقعة شرقاً بين مصر وبلاد ما بين النهرين درعاً واقياً لهم . ولذا اخذت

الامبراطورية الحديثة تحاول بسط سيطرتها المباشرة على فلسطين وسوريا ووضعها تحت حمايتها المباشرة ، حتى ان ملوك ما بين النهرين اصبحوا في فترة معينة من التوابع لها . وعلى كل ، فهذه صفحة جديدة في تاريخ مصر . فبعد ان كانت البلاد ، من قبل ، في شبه عزلة ، نراها في هذه الحقبة تقوم بدور نشيط وحاكم في مصير الشرق الادنى ، سياسياً حيناً ، وحربياً او عسكرياً في اكثر الاحيان . وكان من بعض نتائج هذا الوضع الطبيعية ان فراغت ذلك العهد ، برزوا ، شأوا ام ابوا ، قادة حرب مجريين بالرغم من النفور او الكره الذي بدا على بعضهم في هذا المجال ، مثل امنوفيس الرابع . فشخصية تحوتس الثالث ورعمسيس الثاني الحربية تكشف من حولهم من فراغته ذلك العهد ، من جراء الفتوحات العريضة والانتصارات الميمنة التي حققها ، هذا في مجدو وذاك في قدش ، كما تشهد بذلك مرويآت تحوتس وقصيدة بنتاوار . وهذه النصوص الخالدة التي طبقت شهرتها الآفاق تعيد الى الذاكرة نصوصاً اخرى من عهد ملوك السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، تنبض بالزغزغات ذاتها . من الطبيعي ان تنسب الوثائق الفضل في هذا النجاح يصيبه الجيش المصري ، لعناية الآلهة ورضاها ، الا انها تشدد هذه المرة وباعتداد ظاهر ، على صفات هؤلاء الملوك الحربية والنبوغ العسكري الذي تحلوا به . فنحن امام مفهوم جديد للقيم يطبع ذهنية الفراغته ، كان من قبل في المرتبة الثانوية ، واذا به اليوم يبرز الى الصف الاول .

فإقبال الملك على الالعاب الرياضية العنيفة والاستسلام لها بشدة يوليه قوة بدنية لا بد منها لتعمل الاعباء الحربية . فهو يظهر الآن اكثر منه في الماضي ، يصطاد الغيل على ضفاف الفرات كما يصطاد فرس البحر والتمساح ووحيد القرن بين غياض النيل ، ويطارد الاعداء في الصحارى . والناس يتندرون بقوة السحرة ويتفاكهون بأحاديث مهارته الفنية وبقدرته على وتو أشد الأقواس بعد ان يرتد عنها الآخرون خاشعين ، ويسمرون حول مهارته في تسيير دفعة السفن وترويض الخيل الجفول وغير ذلك من ألعاب الفروسية التي حرص المؤرخون على تسجيل وقائعها في الكتابات التي خلفوها والرقم المنقوشة .

ومع ذلك ينقص هؤلاء الملوك شيء لم يتم لهم ولم يتوفر فيهم ، هو انقطاعهم لمنه السلاحي والاهتمام بالامور العسكرية كخبراء مجريين وقادة محنكين ، فليس ثمة من استعراض للجيش او تفقد سلاح يقوم به الملك ، ولا من قارن ومناورات عسكرية خلال ايام السلم ، فاذا ما ارتفعت الحرب وخيم السلام على البلاد ، تنومي امر الجيش . فالمصري نفر دوماً من الحياة العسكرية ، فلا يتقبل الفكرة ولا يقبل عليها باختياره . واذا لم يسقط رجال الحرب من الفراغته ، مكافأة الشجعان وتقدير البطولة واليسالة ، فانهم لم يستطيعوا منع ذلك ان يحدثوا أي تغيير في عقلية رعاياهم . ولذا فهم يحاولون باصرار واستمرار لها مغزاهما البعيد ان يتفادوا الصعوبات التي يصادفونها في اوقات التمهنة العسكرية واعلان النفير العام ، وذلك عن طريق استخدام جيش من المرتزقة كاليبيين والنوبيين وأجناس شتى من الاسيويين ، وغير ذلك من شذاذ الآفاق ،

واخيراً الاغريق . وكـم عـمـاد عليهم الاتكال على الاجنبي في الذود عن حياض الوطن بالمهاذير والمفاجآت المفضة أقفلها اغتصاب السلطان على أيدي رؤساء مصريين . فكـم آل الحكم في مصر الى سلالات ليبية ونوبية حتى الى اليونان انفسهم مع ما عرفوا به من نفرة وأنفة من تمثل للحضارة المصرية ، فكثيراً ما زرعوا الاضطرابات الدامية في الداخل ، في عهد الدولة ..

من الصعب ، وأيم الحق ، حقن شعب بالروح العسكرية . وتحبيب هذه الروح اليه . إلا انه كان في مقدور هؤلاء الملوك لو اعتصموا بالصبر واستخدموا الاساليب والطرق الموصوفة ان يشيروا في الشعب المصري اكثر من هبات عابرة واستشاطاة آنية .

واخيراً كان على فرعون ان يؤمن ببلاده ادارة رشيدة ولشعبه العدل بالسوية . فسلطته لاحد لها وليس لارادته مبدئياً من وازع او حسيب . فالكلمات التي ينبس بها « موحيات » تخرج من فـم اله . وهذا الاله يبرئ ويبعد ويخلق : « فكل ما يتفوه به صاحب الجلالة يجب ان يتم وان يتحقق بالخال » . فشيئة الملك وارادته هي القانون ولها ما للعقيدة الدينية من قوة وشكينة . « فهو يعمل ما يجب ، ولا يأتي قط ما يكره او يبغيض » . هذه النصوص التي نستشهد بها هنا تعود بجرها الى الامبراطورية الفرعونية القديمة ، اي الى عهد بناء الاهرام . وهذا الشمول المطلق الذي تتضمنه لم تفقده الاجيال المتعاقبة شيئاً من قوته ومدلوله . واقواله لها من الختمية بحيث لا يسع المصري الا التسليم والخضوع لارامر ونواه منها بدت له قاسية لا تحتمل او بغيضة لا تطاق . فبعد ان أعرب الحكيم المصري إيبور عن اسفه للفوضى التي ضربت اطنابها في مصر ، خلال الحقبة الواقعة بين الامبراطورية القديمة والامبراطورية الوسطى ، راح يكشف الملك دوغما خوف او وجل او تردد قائلاً : « ان ما تشهده البلاد بعض نتائج الاضطراب الذي زرعه يداك في طول البلاد وعرضها وسط السجس والجلبة . ولذا ترى الناس يلجأون للعنف بعضهم ضد البعض الآخر » . ثم لا يلبث ان يضيف قائلاً : « ان الشعب يمثل لأوامرك » . فالدعوة للثورة على الملك ، للانتفاض على الحكم لم ترتد يوماً رداء العقيدة . وسلطة الملك ، حتى ولو اصبحت مدعاة للضرر والأذى ، تحافظ على طابعها الالهي .

ولكن إيبور هذا يحتكم من الملك الواهم الى الملك الحسن الاطلاع . فقد كان مفهوماً من الاساس ومقبولاً لدى الجميع ان الارادة الملكية لا يمكن ان تهدف الى اسعادة مصر . وبعبارة اخرى فالتناؤل الذي تجيش به النفس المصرية والتسليم للمقدّر انما يعني في نظر المصري التسليم لمشيئة الآلهة الخيرة والنزول عند رغبتها ومشيتها . كذلك من الأمور البديهية عنده ان ارادة الملك وقضاء احكام لا يمكن ان تأتي كيفية ، اعتبارية ، هنالك تجريدات الالهية تجعل من هذا كله اشبه باليقين . وبما ان « هو Hou » هو القوة المبدعة ، فالاحكام التي تصدر عنه والרגائب التي تتجلى فيه ، هي « سيا » اي تفهم . وما « مات » الا « عدل » و « حق » .

وعلى هذا المبدأ فنظام الحكم المطلق في مصر الفرعونية يتكشف عن الوان من التقييم بدت وتجلت على وجهها الصحيح منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد. وقد برزت بوضوح وجلاء في عهد السلالة الثانية عشرة ، اي في عهد الامبراطورية الوسطى. وبقيت منذ ذلك الحين مسيطرة على النفوس ، مستبدة بالأذهان حتى زوال السيطرة المصرية الوطنية. وتستمر هذه السبات على صفائها واستقرارها حتى في مثل هذه الحال ، لتنتقل كاملة غير منقوصة الى النظرية الملكية التي حملها معهم الفاتحون الفرس وعملوا بها لينقلوها الى الاسرة الملكية اليونانية التي آل اليها الحكم بعد دوال الدولة الفارسية ، بحيث ان البطالسة ، هؤلاء المقدونيين الذين تربعوا على دبت الملك في وادي النيل ، لا يتحرجون ولا يجدون كبير عناء باستعمال التعابير والالقاء الرسمية نفسها التي عمل بها الفرعنة من قبل واستعمال الشعائر التي عمل بها وعلمها هؤلاء الفرعنة انفسهم حقبة تزيد على الف سنة . وليس من انجس واوضع ايجاد الحضارة المصرية القديمة ان تكون استطاعت — ان لم تكن الوحيدة والاولى بين الحضارات التاريخية القديمة ، وبمعزل عن كل تأثير اجنبي — ان تحدد وتلطف من طغيان السلطة المطلقة في نظام ملكي الهي .

وبالفعل ففهوم الملكية المؤلفة المثالي الذي يقول به : « مات » تفرض نفسها بنفسها على الملك بشكل لا يرد وبقوة لا تقاوم . هنالك نصوص صريحة ، بغاية الأهمية تطلعننا على « ارشادات » ملك لابنه ، وعلى « تعليمات » ملك لوزيره ، وهي نصوص وارشادات تتفق نصاً وحرفاً ، يكفي الواحد منها لاعطائنا فكرة عامة : « ترغب الالهة في ان يحق الحق وهي تكره اشد ما تكره ، الاخذ بالوجوه والتحيز » هنا كل الناموس . هنالك قصة شعبية تضع على شفاة فلاح فصيح اللسان ، حسن الكلام ، يتقن القول ويحيد الكلمة البليغة بحضرة صاحب الجلالة ، فيمطره بوابل من الاتلاسات والتوسلات ترفع عنه في نهاية الأمر الحيف النازل به ، وتزيل اسباب الشكوى التي آذته وآلمته . « يا مولاي ! إقطع دابر اللصوصية وارحم البائسين واحسم المساكين ، ولا تكن إعصاراً يطيح بمن جاءك يشتكي ظلامته ... إنجر عدل ملك العدل ، واسلك عدالة العدل ... واعمل بحسب القول المأثور الذي خرج من فم رع نفسه ... قل الحق ، وأبتر العدل ، فالعدل قوة ، والحق شيء عظيم ، فكلاهما راسخ رسوخ الجبال الشامخ ... شكوت امرى اليك ، فلم تصنع الى طلبتي وصممت اذنك عن شكواي ، ولذا فاني ارفع امرى منك الى اله الأموات ... يا لها من حرارة ومن جسارة في صاحب هذه القصة الذي انما اراد ان ينفذ منها الى انازة الأبتسامه ولكن اعديدة هي هذه الممالك التي اتبع الروح الساخرة فيها ان تتفوه امام العزة او الجلالة المؤلفة ، بثل هذه الألفاظ ، وان تتفحصر بثل هذه الاقوال حصول موضوعات من هذا الشكل ومن هذا الوزن ؟

هذه التعاليم التي عمل بها والضرورة الملحة بضبط ادارة بلاد شاسعة كمصر ، كل هذا جعل من فيرعون مشرعاً . كانت الحياة في مصر تفرض وضع مثل هذه القواعد الاساسية التي تضبط السلوك البشري ، الى جانب القضاء الملكي الذي كان عليه ان يفتي ويقضي في امور كثيرة

تعرض له . وهذه القواعد المكتوبة المربعة الجانب لم تكن شيئاً غير المبادئ التي خطها ملوك مصر من قبل ونهج القوم عليها من بعد . فمصر القديمة عرفت ولا شك ، الى جانب الاعراف المحلية او الاقليمية المعمول بهما ، مجاميع من الشرائع والقوانين منها نظام ملكي مركزي . ولكننا لم نجد بينها للآن ما يشبه ، من قريب او بعيد ، الدساتير التي عثر عليها في ما بين النهرين . نحن هنا امام تقاليد ومرامم حفظها لنا مؤرخو اليونان . فذو ذوروس الصقلي الذي استقى معلوماته عن مصر ، من مؤرخ مصري عاش في مطلع القرن الثالث قبل الميلاد ، هو اكثر الرواة والمؤرخين سرداً للتفاصيل المسببة . فهو يسمي لنا قبل الفتح الفارسي لمصر ، خمسة فراعنة ويقدمهم لنا بكونهم « مشترعي مصر » بينهم مشرع واحد استقرسل بذكر اخباره هو الفرعون بوزوروس الذي ملك على مصر في اواخر القرن الثامن قبل المسيح ، واليه يعود الفضل في مد البلاد بدستور ينظم الحياة التجارية فيها . الا ان فقر مصادرها حول هذه الناحية من نشاط الفراعنة يجعلنا نجعل الكثير من معالم الحضارة المصرية .

ومها يمكن من الامر ، فالملك ، في مصر ، هو المرجع الاعلى والموئل الارفع . اليه وحده يرفع طلب الاسترحام الذي لا يُعزَم منه اي من رعايا فرعون ، مهما اتضع قدره وانحط شأنه ، وبذلك يتاح له مراقبة اعمال عماله المتصرفين بشؤون مملكته الشاسعة ، والضرب بشدة على ايدي العابثين منهم بأموارها او الخارجين على ارادته .

٢ - الحكومة والادارة

اذ لم تعوزنا المصادر المتعلقة بالناحية الادارية من تاريخ مصر الفرعونية فلا بد مع ذلك من ان نبين نوع وطبيعة هذه المراجع لنوضح حدودها . نحن نفتقر لنصوص القوانين والمراسيم والوثائق الميدانية ، أي تنقصنا الاضمارات الادارية نفسها التي تتألف من اوراق أصلية تتصل مباشرة بعمل الجهاز الاداري الحكومي . في بلاد ما بين النهرين الوثائق عديدة كثيرة تتيح لنا شيئاً من المراقبة المتبادلة والمعارضة . اما في مصر ، ولا سيما في عهدها اليونانية والرومانية المتأخرة ، فلدينا مجموعات ضخمة من البرديات والفخاريات ، بينها بعض المراسيم العامة والكثير من الرسائل والتقارير والبيانات ، والعرائض والكشوف المالية المتعددة الوجوه . اما بشأن الازمنة التاريخية المتقدمة فقلنا ان نعول على مصادر من الصنف المتدني باستثناء بعض فترات تاريخية خاصة تتوفر لها بعض البرديات النادرة . فنحن على الغالب تارة امام نصوص رسمية تحمل الثناء الكثير على الملك وقبض يذكره ومدحه وحده ، وطوراً امام كتابات مدفنية تسرد لنا على جانب من المديح والثناء سيرة الملك المتوفى ، وحيثاً امام نصوص ذات طابع خرافي اسطوري ، وطلبات وتضرعات تقوية او غير ذلك من المرويات . كل هذه الوثائق تحمل طابع الصنعة والاصطناع وبالتالي التعريف للحقيقة والواقع . ولذا يرى الناقد نفسه ، في كل

لحظة ، وجهاً لوجه أمام صعوبات كأداء ليس من السهل تذليلها ، فتختفي وراءها تفاصيل ومعلومات ثينة تتخذ مادة في ايضاح رأي أو دليلاً على نظر .

الصفات العامة كثيرة هي الانطباعات التي لها ما يؤيدها او تنهض على أساس ثابت . فازدهار مصر واستثمار خيراتها ومواردها الطائلة ، كل هذا وما اليه يفرض قيام ادارة رشيدة ، منظمة قادرة على ان تؤمن وسائل التبليغ والتنفيذ ، والأخذ بما رحمه سيد البلاد الوحيد الاوحد . فالمركزية في الادارة هي من هذه السمات الأساسية المفردة للحضارة الفرعونية . فكل تراخ أو توانٍ أو ضعف ينتابها يفضي في الحمال الى بعض ما تقضي اليه الفوضى : الى البؤس والى ما هو أدهى وانكى منه ، الى الرعب ، والقلق والاضطراب العام ينزل بالبلاد ويشل منها أسباب الحياة . هذه حقيقة أساسية راسخة من حقائق التاريخ المصري القديم تؤيدها التجربة المرية والاختبارات المتكررة . فهي توضح لنا حاجة البلاد والناس فيها للنظام ، للاطار الاداري المستحكم ، للسلطة القوية ، إذ طالما شعر الناس بمثل هذه الحاجة وشعروا بوطأتها . وهذا ما يفسر لنا جيداً روح الخضوع والامتثال التي ميزت الشعب المصري . فالفكرة الدينية ، مهما بلغ من قوتها وشدة تأثيرها لم تكن لتستطيع وحدها ان تضفي على النفس المصرية مثل هذه المشاعر والأحاسيس التي جاشت بها هذه النفس طيلة آلاف السنين ، وهي مشاعر وأحاسيس كثيرة ما اتخذ منها الفراعنة يداً لكبت البدوات الفطرية والنوازع الامارة بالسوء ، ولكبت ما تحرّق اليه الارباب من الاستئثار بالسلطان ، والحدّ من الدعوات الاقليمية والمحاولات التي قامت بها فئات نزعت لشيء من الاستقلال الاداري . فقد استطاعوا مراراً كثيرة ان يقيموا لهم في البلاد نظاماً ادارياً كادوا يبلغون به التمام لم يكن يضاهيه ، في التاريخ القديم ، غير النظام الذي اقامه فيها خلفاؤهم من بعدهم ، ملوك الدولة اليونانية . وليس من باب المصادفة قط ان تبلغ مصر في هذه العهود التي تم لها فيها مثل هذه النجاحات الباهرة ، سدة المنتهى في الحضارة التي صاغتها وانشأتها .

فأمام هذه المشاهد يرغب المرء ويتمنى لو يحدد بشيء من اليقين ، المبدأ الاساسي الركين الذي نهضت عليه الادارة في مصر الفرعونية وكان عمادها الاكبر . أكانت مصر إذ ذاك ، ملكاً خاصاً لسيدها وربها الفرعون ، يستثمرها كما يستثمر عقاراً خاصاً به ، او انها كانت تؤلف مملكة — او بالأحرى مملكتين هما مصر السفلى ومصر العليا — انيطت به مسؤولية ادارتها ؟ ليس ما يتنفي في الواقع ، قيام الفكرتين معاً كما انه ليس هنالك دليل على ان الخواطر خامرها ادنى شك بوجود اي تضاد او تناقض بين الفكرتين . كإله وابن إله ، الفرعون هو رب ارض مصر وسيد من عليها وما عليها . فلم نر قط أي اثر للتمييز ، ولو فكرياً ، بين تلك خاص او تملك تابع للتاج وبين دولة قائمة بذاتها تتألف من رقعة جغرافية قائمة بمحدوداتها المميزة ولها مجتمعيها الواحد . والدليل البسيط الى ذلك هو ان الناظر او القارئ العام للادارة المالية في البلاد ، كان من ضمن مسؤولياته ومن واجباته الاولى ان يؤمن حاجات البلاط . ومع ذلك ، فقد رأينا

كيف ان هنالك واجباً ادبياً على الملك ، هو واجب اشتد التحسس به على مر السنين . وقد ادت فكرة هذا الواجب بصورة لاشعورية ، الى فكرة دولة مستقلة ، متميزة عن شخصية رجل فرد ، ولو كان الهاً وابن اله . وعندما كان فرعون يتكلم عن : « وظيفته العظمى » - وقد أتى ذلك على لسانه اكثر من مرة - كان كلامه هذا تعبيراً عن فكرة لا تزال غامضة طي الضمير ، غير مستوفاة التحليل والتركيب ، لم يكن الناس ليتبينوا جيداً نتائجها ومستلزماتها النظرية إذ انهم لم يروا فيها تضاداً مع فكرة التملك ، ولم يستخلصوا منها النتائج العملية .

الحكومة المركزية
فالفكرتان مع ذلك ثلقتان من حيث ان كل شيء في مصر الفرعونية يتوقف على الملك وعلى الملك وحده . هذه هي القاعدة الذهنية التي قام عليها تاريخ مصر قديماً .

فقصر الملك « الصرح الكبير » ، برعا ، ومن هذه اللفظة المصرية تحت اليونان كلمة فرعون ، هو مجمع الادارة المركزية التي يرجع اليها حتماً كل شيء . فالملك يتولى امرها ويقبل عليها يتدبر شؤونها منذ الصباح بعد قيامه بالمراسم الدينية ، ويتحرى كل امر ويتقصى كل شيء ، ويطلع على الرسائل والمعاملات الواردة والتقارير ، ويستقبل اصحاب الاعمال ويشرف على ديوان المظالم ، ويسترشد بآراء ذوي الخبرة ويتخذ في نهاية المطاف الرأي ، ويصدر الاوامر والتعليمات التي يقتضيها الوضع ، فتبلغ بأسرع ما يمكن بعد ان تفرغ بصيغة المتكلم .

والى جانب الملك يقوم وزراؤه او معاونوه وهم اشبه برؤساء دواوين عليهم تبليغ الاوامر وتنفيذها . وكثيراً ما تشير النصوص الرسمية اليهم فتصفهم طوراً بـ « فم الملك » ، و« لسان الملك » ، وطوراً « بعينه » او « اذنيه » ، يعينهم ويعزلهم كيف يشاء . وبينهم من يلعب دوراً رئيسياً هو الوزير « ثاني » ، موضع ثقة الملك ، يلقيه تعليماته وتوجيهاته والارشادات العامة وكيفية مباشرة السلطة والقيام باعباء الادارة . فاختصاصات البلاط الملكي الواسعة وما اليه من مهام واعمال وعمال ، كل هذا يأتي على نسبة تفهم الفرعون لمقتضيات « الوظيفة العظمى » . وهذا الاهتمام يختلف كما ونوعاً باختلاف شخصية الجالس سعيدياً على اريكة العرش الذي يبرز لنا دوماً من خلال لغة الدواوين والتعابير الرسمية المكرسة . فصورة الفرعون الادبية والسياسية تلبين تباين صورته المادية او الطبيعية .

ففي عهد الاسرة التاسعة عشرة ، نرى الوزير يرأس احياناً مجلساً أعلى له ، من الوجهة الادارية على الاقل ، صلاحيات واسعة . الا انه ليس ما يدل على ان القضاء ، تتمتع في مصر القديمة ، من الوجهة الادارية على الاقل ، بشيء من الاستقلال وتميز بذلك عن الادارة وانفصل عنها . وهذا المجلس ، هل كان وحيداً في البلاد ؟ وما كانت وظيفته والعمل الذي يقوم به ؟ ومن يتألف وعلام يقوم ؟ كلها اسئلة مغلقة تبقى دون جواب . وقد حلا لبعض المؤرخين ان يروا فيه هيئة وطنية ضمت عدداً من اعيان البلاد واشرفها ، نجعل كل شيء عن طريقة اختيارهم

وتعنيهم ، وهو رأي فيه الكثير من الجرأة ومن الخطأ . والافضل ان نرى في هذا المجلس اشبه بلجنة من كبار الموظفين واصحاب المقامات العالية والنبلاء ليس إلا ، وهم كثر في القصر يؤلفون بطانة الملك ويحملون ألقاباً من الالقاب الشرفية او الادارية . في الامكان اعداد قائمة طويلة من هذه الرتب والالقب ، ليس فيها من طائل او كبير منفعة ، إذ يبقى علينا ان نعرف من جهة ، ما اذا كانت الالقب التي يحملونها بالفعل هي وظائف عملية يقومون بها ، كما يجب علينا من جهة أخرى ان نتساءل ما اذا لم يكن في البلاط قائمة رديف للاولى . فقد كان في عهد الامبراطورية القديمة في مصر ، احد عشر « رئيساً للاسرار » كلهم من رتبة واحدة تتميز الواحدة عن الاخرى بنعت او وصف يضاف الى حاملها فيفرده عن سواه . وهكذا نرى في البلاط عالماً من الموظفين يتوزعون على سلم من الرتب والدرجات لا نعرف عنها في اكثر الاحيان ما يشفي الغليل ، كلهم يعيش في « الصرح العظيم » ويعمل في دوائره واقسامه ودواوينه . رؤساء ورش ومأمورو مخازن ، ورؤساء عتابر ، وقهرمان على خزانة الدولة ، تحت امرتهم جيش لجب من المأمير والكتاب والمحاسبين والحراس والعبيد ، هم على الغالب اسرى حرب وغزو .

ومها بلغت هذه الادارة المركزية من كمال التنظيم الحكم ، كان لا بد الادارة الاقليمية والمحلية ان تترأخى عراها وتلين حلقاتها امام المسافات الشاسعة التي كان يترتب اجتيازها باسرع ما يمكن على قلة وسائل النقل وضعفها ، إذ كان فيضان النيل السنوي الرتيب يحول دون انشاء وبناء طرقا جيدة تربط اقصاي البلاد بدوائنها ، كما ان الحصان الذي دخل استعماله متأخراً في البلاد ، بقي وقفاً على الاغنياء والاثرياء . ولذا كان جل اعتماد الادارة على السعاة المشاة او على التنقل في النيل بواسطة المراكب الشراعية ، وما الى النيل من شبكة الاقنية والترع . فكان على العامل ، والحالة هذه ان يقطع بالامور ويبت بالقضايا المعارضة باتخاذ قرار محلي ، بالرغم مما يستهدف له ، اذا ما اشتط عن الصراط وخرج عن الصدد ، من تعنيف وتكدير ورجوع عما اتخذ من قرارات او اصدر من تعليمات .

وفي بعض عهود مصر الفرعونية يزدوج مركز الوزير ويتضاعف ، اذ يقوم واحد في منف وآخر في طيبة ، وفي هذه الثنائية ، تذكير بالملكيتين الموحدين معاً في شخص الفرعون . وقد قام احياناً ، لا سيما في عهد الامبراطورية الحديثة حاكم خاص في النوبة ، عرف عندهم بـ « نائب ملك » . وكان حكام الولايات يتمتعون ولا شك بصلاحيات ادارية واسعة .

كانت الوحدة الادارية المحافظة او المديرية ، قسمت البلاد الى اربعين منها ، وهو تقسيم حافظت عليه البلاد ، كما حافظت على حدودها المرسومة . وكانت المحافظة تتألف من دائرة جغرافية لها تنظيمها الاقتصادي والديموغرافي ، لها حاضرتها او قاعدتها الادارية ، وهي على الغالب قرية كبيرة اطلقوا عليها في عهد حكم اليونان في مصر اسم : « متروبول » . وفي بعض عهود مصر الفرعونية ، ولا سيما في عهد الامبراطورية المصرية الوسطى التي اقامت في البلاد شبكة

ادارية محكمة الخلفاء ، نرى المحافظة ، او بالاحرى ، جميع المحافظات ، تقسم اداريا الى اقسية : واحد في الشمال وآخر في الجنوب ، ويأتي في اسفل السلم ، القرية التي تمثل الوحدة الاساسية ، اذ كانت مصر تجهل المجتمعات السكنية المتفرقة من جراء فيضانات النيل فكانت المساكن تتجمع فوق مرتفعات الارض من رواب وتلال .

وعلى كل مستوى من هذه المستويات الادارية ، كان يقوم موظف اداري يمثل الفرعوت في الناحية او المنطقة ، اختلفت رتبته وسلطته وطريقة تعيينه باختلاف العصور والازمنة والعهود التي تعاقبت على تاريخ مصر القديم . ففي العهود التي اخذ الحكم بأشد انواع المركزية ، كان يتولى الأمر في القرية العمدة الذي يعين من وجوه سكانها . وكان لكل قضاء « مجالس » ، مقصور بعضها على الفلاحين والصناع والكهنة ، وهي مجالس تقوم بوظائف قضائية ومالية ومدنية . من الصعب على المرء ، ان لم نقل من المستحيل عليه ان يستطيع تحديد مدى صلاحيات هذه المجالس ، ومدى ما كانت تتمتع به من استقلال اداري تجاه الحكام الذين كانوا يعينونها . ومهما يكن من الامر فقد كان عدد الموظفين كبيراً وكبيراً جداً . بعضهم يعمل بصورة دائمة في الديوان والآخرين يمدون عليه غباً بين سعاة بريد ومفتشي ادارة ، ومراقبين ، تأميناً للصلة بين البلاط والادارات في الملحقات . والمفهوم ان هذا العدد العديد من الموظفين والاعمال التي يعهد اليهم القيام بها كان من شأنه ان يجعل واحياً او صورياً اي استقلال اداري ، اعترف به يوماً من الايام لأي من هذه الهيئات الاقليمية او المحلية .

وهكذا نرى ان الموظف الرسمي في مصر القديمة ، تتمتع دوماً بسلطة ونفوذ عظيمين ، كثيراً ما تجاوز حدود وظيفته ، فاتسع امامه مجال التآدي في العبث والتجوز . والموظف النموذجي هو « الكاتب » . وهو على الغالب رجل عليم ، ثقيف ، مفتقن بأمور الكتابة والخط والقراءة . على صعوبة الكتابة وقراءتها اذ ذلك . فاستطاع مع الزمن بما اوتي من ذكاء وعلم ومراس وخبرة ان يرقى درجات السلم الاداري فتنتفتح امامه ابواب الوظائف العالية . وسرى بعد قليل صورة للكاتب وللشأن الذي يمثل ، في حديثنا عن الوضع الاجتماعي في البلاد ، اذ يمثل فيه دوراً بارزاً بفضل الوظيفة الادارية التي يقوم بها والتي كانت توليه سلطة مطلقة فتجعل منه ممثلاً للسلطة المركزية .

اما الغاية لهذه الادارة والغرض الذي تسعى اليه فتأمين خدمة آلهة الادارة والحياة المادية في مصر مصر على الوجه الاكمل حتى اذا ما تم لها الرضى احواله رفاهاً وازدهاراً على البلاد واهلها . ويجب الملاحظة هنا ان النظام الديني وجه متصل من وجوه الادارة المدنية . فالملك الاله هو سيد الامرين ورب الاثنين ، يعرعى الاول تأميناً لخير الثاني ، ولا يرضى قط ان يجعل منها ميدانين مختلفين يؤمن مصالحهما اشخاص مختلفون هم من الدرجات العليا سواء ينتقل الواحد منهم ، من هذه الى تلك ، دونما تخرج . فالوظائف الكبرى في كلا السلكين تتناوب وتبادل على السواء .

ويستتبع هذا من الوجهة المثالية، ان الملك الاله، يوجه عن طريق الادارة، حياة مصر برمتها ويسيرها في جميع مظاهرها ومعالمها، وان دور الاهلين فيها يقتصر على تنفيذ الاوامر والتعليقات التي يبلغونها حتى ما وقع منها ضمن حياتهم الخاصة. وهذه المثالية الصورية تقتضي بأن يكون الملك ليس رب البلاد ومالكها الأعلى فحسب، بل السيد المطلق الفعلي للأرض وما عليها، ولما اليها من صنائع وقنون ومقتنيات، ولما يدب عليها من حيوان وانسان.

وكم نرى هذه المثالية الصورية تصطدم عملياً بالواقع المرير. فباستثناء ازمات الفوضى والاضطرابات التي صاحبت تاريخ كل امة ولازمت كل حضارة، كان على الملكية ان تحسب حساباً لماجريات الحياة وللأختبارات الواقعية. كان عليها ان تحسب حساب النزعات الى الاستقلال الاقتصادي أكثر منه الى الحرية الفردية، وان شئت فقل التوق الى التملك والكسب الشخصي. ومثل هذه النوازع تجلت في مصر كما تجلت في أي بلد آخر الا انها هيمنت عليها في مصر مشاعر أقوى حدثت من سورتها وكبتت من شكيتها.

وبالفعل نرى السلطة الملكية في مصر، تبلغ الذروة في عهد الامبراطورية القديمة، أي في عهد الاسرتين الرابعة والخامسة، اذ كانت رغبة الملك وارادته هي القاعدة التي يؤتم بها ويعمل بها، وهي ارادة يفرضها على اتاس هم عبيد أكثر منهم رعايا. وفي عهد الامبراطورية الوسطى، استطاعت الاسرة الثامنة عشرة أن تعيد الى البلاد الهيبة التي كانت للسلطة من قبل، كما استطاعت ان تقيم لها نظاماً ادارياً غاية في الدقة، وذلك تحت ستار من مثالية العدالة أقصرت الملكية نفسها عليها واثمنت بها. ولم يستطع ملوك الامبراطورية الحديثة من الاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ان يحققوا شيئاً من هذا أو شبيهها به. الا ان هذه المثالية بقيت مهيمنة لارتباطها بمجتمعة مصر نفسها، فأفاد منها الملوك المقدونيون في القرن الثالث قبل الميلاد وتوارثوا العمل بها، فكانوا أسعد حظاً من أسلافهم الذين تعاقبوا على الحكم مدة ألف وخمسمائة سنة قبلهم، كما كانوا أكثر تفوقاً منهم في وضع هذه المثالية موضع التنفيذ.

لدينا من الوثائق ما يقيم الدليل القاطع على ما بلغته الادارة في عهد مراقبة الحياة المادية وغنى التاج الامبراطورية الوسطى اذ ذاك، من الدقة والانضباط وشدة المراقبة لنظام الحياة المادية في مصر الفرعونية. فهي تعطينا فكرة صحيحة صادقة للكيفية التي كانت تجري عليها عمليات الاحصاء العام في البلاد، وهو احصاء يضبط بيان الاشخاص الذين تتألف منهم الاسرة الواحدة او الاشخاص الذين يعيشون تحت سقف واحد، وتبيين ما تملكه الاسرة من ماشية وعقارات قيد الاستغلال، كل ذلك تحت مراقبة واشراف عدد من المراقبين الاداريين، بينما كانت عمليات البيع والشراء والهبات والوقوفات، والارث وغير ذلك من وسائل التصرف خاضعة بصراحة لقيود التسجيل الرسمية.

ان تنظيمياً بثل هذه الشدة والضبط من شأنه بالطبع ان يتيح للادارة الملكية ان تؤمن ولو

مبدئياً، لكل فرد وسائل العيش وأورد الحياة ، فتمن له عملاً تتحكم هي بجميع أسبابه ومقوماته ،
أذ لم تكن الأرض تزرع والمهن تقامس وتحترف إلا باسم الملك الإله الذي في شخصه تتمثل
الدولة وتجتسم .

عاد هذا النظام الإداري الآسر بفوائد عظيمة على السلطة ، وبمنافع جليلة ، فضربت على
الناس السخرة ، وألزمهم السهر على صيانة الأقنية وسلامة القرع النهرية واجبرتهم بتشديد
السدود وبناء الطرقات ، وتأمين أعمال النقل والبناء ، كما تفرض ذلك مرضاة الآلهة وخدمة
الدولة النصوحة . وكانت الإدارة تسهر على جباية ضرائب مختلفة ليس بالإمكان تحديدها بالدقة
المطلوبة في أي عهد من عهود مصر الفرعونية ، ولا تحديد تفاصيلها ومعدلاتها . وكان بين أحكام
الخراج مسا يتعلق بجباية الميرة على الأشخاص والرسوم المفروضة على الماشية ، وضريبة الأعشار
التي كان يتعهدا متعهدون مشالة أو على أقدار معينة ، وعلى محاصيل الأرض وغلة كل شجرة ،
وغير ذلك من الرسوم المختلفة .

كان كثير من هذه الضرائب والأعشار يجبى عيناً ، كما كان الملك يدفع عيناً ايضاً بعض
مرتبات موظفي الإدارة هو الآخر . وكانت الأعطيات التي يدفعها على الهاميب وذوي
الخطوة ، تدفع لهم من غلال بعض الأملاك او من الرسوم العائدة لجبايتها للملك . فلا عجب بعد
هذا ان تنعم الإدارة بكنوز طائلة وخيرات لا تحصى ، فتعزز المعادن الثمينة خامات او صنائع
فنية ، وان يوضع تحت تصرفها حواصل وإهراء نفص بالحبوب والثمار والشراب والجلود وغير
ذلك من غلال الأرض . وكان الداخل والخارج يضبط في قيود دقيقة ينظمها محاسبون مجربون ،
كما يتضح ذلك من بعض البرديات التي بلغت الينا .

وكان من نتائج هذا الجهاز الإداري الحكم الذي كاد يبلغ سدة الكمال ان يؤول ، حتى في
المواسم المتوسطة المردود ، الى هذا الغنى الاسطوري الذي رفلت به الملكية في مصر . ليس
باستطاعتنا ان نعطي هنا أرقاماً لما بلغه فيء الدولة المصرية ولا نفقاتها ، وهي أرقام بالطبع
يسيل لذكرها للعب وتدعش من يسمع بها ، كما كانت تثير الشهوة الجامحة والنهم في نفوس
الأغراب ، وشذاذ الآفاق الذين كانوا يتشوفون الى غزو مصر والاستمتاع بخيرات الوافرة
والاستيلاء على الكنوز المحبوة في عتابر الملك . فقد استهدفت مصر الفرعونية للعديد من هذه
الغزوات والفتوحات التي كان يمكن ان يتضاعف عددها لو لم تنعم البلاد بموقع جغرافي عازل
يمتاز جملتها ، الى حد كبير ، بأمن من المستبشرين وبمزل من الطامعين .

ان مجرد السيطرة على البلاد ، مهما قصر مداها وضاق عهدها ، كان كافياً ليؤمن لصاحب
الأمر فيها الذي عرف ان ينشر لواء سلطته فوقها ، موارد طائلة ، ودخلاً هائلاً . فكيف به ،
وما عسى ان يكون أمره ، اذا بسط نفوذه العسكري فوق التوبة وما تحويه من مناجم الذهب
ومن موارد غنية أخرى كالعاج والأخشاب الثمينة ، وفوق شبه جزيرة سيناء ومناجمها الفنية ،

وعلى ما يحاورها من أقطار آسيا الغربية التي كانت تستأثر بتجارة العالم اذ ذاك فكانت بحالاً لحركة الاعمال والصنائع وأغنى بقاع الارض بغلال الحنطة . وبفضل الخراج الذي كان فراعنة الامبراطورية الحديثة يجلبونه من هذه المستلكات ، واستثمارهم لحسابهم الخاص املاك الدولة في كل من النوبة وسيناء ولا سيما مناجمها الغنية ، استطاعوا ان يخففوا بعض الشيء من وطأة شبكة النظام الاداري الذي أحكوا حبكه ، وان يخففوا من حدة رسوم الجباية المزرحة التي كان الشعب المصري يشن منها .

والى هذه الرسوم والضرائب القانونية المفروضة ، يجب ان نضيف بالطبع ، ولو نظرياً ، وان نحسب حساب أعمال الابتزاز والاعتصار والاعتساف التي كان ينزلها بهذا الشعب الراح المستكين بمشوا السلطة في المقاطعات والأقضية ؛ والموظفون الاداريون كانوا جميعاً يحكروا ويدبرون امور البلاد والعباد باسم الفرعون ، فيجدون في النظام الاداري الذي ينظمهم اكثر من مهرب أو فجوة للعبث بمصالح الناس والاثراء . وتاريخ مصر القديم مليء بأخبار التناكب والتباكي من المظالم تقع على السكان ، فتتصاعد زفرات عرقة وتهتدات كارية لما يتعرضون له من مغارم ، وهي امور لا بد ان يقع مثلها في كل نظام مهما اشتدت فيه الرقابة . ولذا نرى الفلاح المصري يرضخ مستسماً للواقع ، قلياً يرفع صوته شاكياً وقلماً يحاول الانتفاضة منجاة له من مظلمة تصيبه . فالفتاحون والغزاة الأجانب الذين سولت لهم النفس بفتح مصر وغزوها ، كثيراً ما عوتلوا على ما عرف به المصري من روح الاستسلام فباء فآلهم وعادوا بأكثر من خيبة عندما حاولوا العبث بتقاليد البلاد الحضارية ولا سيما بتقاليدها الدينية .

وقد عاد هذا النظام الاداري الأسر على السلطة بفوائد عظيمة ومنافع طائلة فأقصرتهم على اعمال شاقة اخذتهم بها كالسخرة والاشغال الشاقة ، واكرمهم على تأمين سلامة الاقنية والزرع النهرية وتشديد السدود ، وبناء الطرقات ، وغير ذلك من اعمال النقل والبناء والصيانة التي يقتضيها كسب رضى الآلهة وخدمة الدولة . وكانت الادارة تسهر على جباية الضرائب العديدة ، وهي ضرائب لا تستطيع ، في أي عهد من عهود مصر الفرعونية ، ان تحدد بالدقة المطلوبة ، تفاصيلها واقدارها او معدلاتها ، ومقدار الفيء الذي تؤمنه للنتاج . وبين هذه الضرائب ولا شك ما يتعلق بجباية ضريبة الاعناق ، والضريبة المفروضة على رؤوس الماشية ، وضريبة الاعشار التي كانت تلزم للمتعهدين مشابهاً أو على أنصبة معينة ، وغيرها مما يتناول محاصيل الارض وغلال الحقول ، ورسوم الحرف والمهن ، وغير ذلك .

فالغنى الذي رفل به الفراعنة أتاح لهم انشاء دولة ذات جهاز اداري صارم يحكم الحلقات يجمع بالموظفين ، كما أتاح لهم تكوين جيش لجب لم يكن دوماً من العزة والقوة المرتجاة ، كثير التكاليف ، باهظ النفقات لاعتماده بالاكثر على المرتزقة من الاغراب ، وانشاء بلاط فخم وبطانة تعج بالخدم والحشم والعبيد لم يقيم في الارض ما يضاهاها . ومع ذلك فالتكاليف الباهظة كانت تلك التي تذهب في سبيل الآلهة وخدمة الفراعنة الآلهة ، الأموات منهم والأحياء . فالمراسم

الدينية التي كانت تأخذ اجتفالاتها بجماع القلوب مكنت الفن الوطني من التجلي والظهور في أبداع صورته . وفي هذا السبيل سخرت الحكومة كل ما في البلاد ومن عليها لتحقيق هذه الحضارة الفرعونية الباهرة وما بلغته من عظمة ساحقة صادقة . ويكفي المؤرخ ان يسجل هذه الحوافز دون ان يكون لديه من المعايير ما يسمح له الجزم بالتكافؤ بين هذه الشقة وتلك .

الموظفون والنظام الملكي في تاريخ مصر الفرعونية مثال قد يكون ابرز ما تقدمه لنا الملكية المطلقة . فالحق الالهي الذي هو الاساس والنتيجة المحتومة لكل الانظمة من هذا النوع ، وجد في هذا النظام تعبيره الأقوى والأمثل وعاد بأبعد النتائج وأقصاها . ولكن لكل نظام على هذه الشاكلة مساوئه الداخلية التي تتمثل بهذه الغريزة التي تجيش في نفس كل موظف ، من أي فئة كان ، فتتزع به للتحرر من كل مراقبة وتحدوه لتوسيع الصلاحيات التي اولته اياها السلطة العليا لتنفيذ الاوامر والتعليمات ، فراح يستخدمها للاثراء . وهذه النزعة لا تكون المحذور الاكبر في نظر السلطة ، اذ كثيراً ما كانت تزع نفوس كبار العمال والموظفين الاداريين ، للارتقاء الى مصاف صفار الملوك فيتصرفون بالاقطاع الذي قطع لهم كما يرغبون ، وتشرّب نفوسهم احياناً الى مصاف الملوك الذين يبسطون سلطتهم فوق مصر برمتها . فكان على الملكية ان تعرف كيف تتفادى دوماً خطر الوهن يدب الى نظامها ، والاحتلال يصيب وحدة البلاد فتعرض معه لخطر اغتصاب السلطة الشرعية . ولم نر ان النظام الملكي عرف كيف يتجنب هذه المخاطر حقبة من الدهر زاد امدها على اكثر من مائتين او ثلاثمائة سنة .

وحركة الغتصاب للسلطة التي كانت تتكرر بالمظاهر الواحدة تقريباً من شأنها ان تحدث بعض الدهش في النفس . فقد كان على الفراعنة امام هذه التجارب المرة المتكررة ان يبرهنوا عن فطنة اكبر للحيلة دون مواجهتها مرة اخرى .

فامام هذا الحرق الذي برهن عنه الفراعنة ، يحق لنا ان نتساءل عما اذا كانت مصر قديماً اصبحت بعقم بالرجال الاكفاء الخلقين بالاضطلاع باعباء الوظائف العليا مع بقائهم في الحدود المرسومة لهم . فمن بين جمهرة السكان السليبين القابعيين في اشغالهم اليومية ، لم يبرزوا - ولم يحبروا ان يبرزوا - نخبة مختارة من الموظفين الاكفاء ، ثقافياً وخلقياً ، تكون من الكثرة والوفرة بحيث يختارون من بينها القدر الكافي لتأمين الادارة . لم يتوفر لكل الشعوب في كل ادوار تطورها التاريخي ما يلزم الدولة من موظفين اكفاء يجمعون بين الاختصاص والاخلاق وصدق الولاء ومحققون مثالية الدولة التي راودت الحضارة المصرية لتشييد البناء الديني والعلمي ، والمدني والعسكري .

ولعله من المفيد ان نحسب هنا حساباً لهذه الذهنية التي سيطرت على النظام الملكي المطلق في مصر ، وجعلت فراعنة مصر يعتقدون ان مصر "ملك" خاص او متاع خاص بهم ، فيستندون

بوجوبها ذوي قرباهم المتكاثرون عددهم بتعدد الزوجات ، ويقرّبون رجال بطانتهم ومحاسبيهم ، وقد اطمأنوا الى ولائهم في البدء . الا اننا على مر الاجيال وكر السنين نرى محاولات عدة للتحرر يقوم بها اصحاب الخطوة للاستبداد بامر السلطة . ويمتدّ التاريخ بالكثير من الامثلة على ذلك .

على مثل هذا الشكل الموصوف تم ، على الاخص ، انحلال الامبراطورية المصرية القديمة ، كما يتضح ذلك ، بصورة لا تدع مجالاً للشك ، من الوثائق القديمة وزوالها العديدة ، ودون ان ندخل في تفصيل ذلك يكفي ان ننوه هنا لما ببعض الاحداث المميزة .

نالت الهياكل العديدة هبات واعطيات واسعة من الاراضي والعقارات اعفاها الملوك الذين أسبلوها من الرسوم وغيرها من الضرائب المالية المعمول بها إذ ذاك ، كما انهم حولوا لها رسوم الجباية التي كانت تُفرض على مستثمري الاراضي العائدة للملك . كل هذه الهبات ذهبت منافعتها بالطبع لرؤساء الكهنة الاقليميين او المحليين الذين حاولوا ان يجعلوا مناصبهم وراثية في ولدهم واسرتهم .

كثيراً ما كان هؤلاء الزعماء الدينيون يجمعون بين المراتب الدينية والوظائف المدنية ، هذه الوظائف التي كانت تولي صاحبها او « المحافظ » ، كما يسميه الاغريق — رئاسة المحافظة ، وقد حصل هؤلاء الموظفون ولا سيما الكبار منهم على إقطاعات عريضة من الارضين نالوا معها حق نقلها بالوراثة الى ابنائهم من بعدهم .

ففي الوقت الذي كان فيه جميع من في البلاط يفاخرون بقربانهم بالملك ويعتدّون بصداقتهم له وتقربهم منه وملازمتهم لبطانتهم ، اخذت اواصر هذه القرّبي وشائج هذه الصداقة تتراخى بسرعة مع الزمن وتخف عراها . والضعف الذي اعترى السلطة المركزية كان من بعض نتائجه الوخيمة ان يجعل بعض مرضى النفوس ممن يتوقون للسلطان ، على مناصبة الملك العداء المكشوف فلشاً عن هذا الوضع في المقاطعات ، طبقة من النبلاء او الاشراف المحليين ، كما زاد من توسيع نفوذ الموجودين فيهم من قبل ، وكلهم يحاول التجاوز على امتيازات التاج او اختلاس حقوق الإقطاع الملكية المفروضة على مساحات شاسعة من الاراضي المصرية ، او يتألبون ضد الملك تحت سلطة احدى الامر البارزة ، ويتناقسون فيما بينهم ويتحاربون احياناً ، محاولين إخضاع الفلاحين لسلطانهم . فنتج عن هذا كله فوضى قاصمة في البلاد وما الى الفوضى من ضعف السلطان وروهن السلطة المركزية ، وانفصال المقاطعات وتناثرها ببدءاً . فقد كان هذا الوضع الاجتماعي الذي برزت عليه مصر الفرعونية في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد اولى سوابق نظام الاقطاع الذي ساد المجتمع الاوروبي في القرون الوسطى .

الإصلاح الاخرج استطاع ملوك طيبة الأوّل من الامبراطورية الوسطى ، في اواخر السلالة الحادية عشرة وببدء الثانية عشرة ، ان يعيدوا الى البلاد وحدتها المثلومة

فيعود الأمر الى نصابه والنظام الى محرابه . واستفادوا كزملاتهم ملوك الامبراطورية الحديثة درساً واتخذوا لهم عبرة من هذه التجربة المريعة التي مرت بها البلاد . ففسر منصب «الحفاظة» على الاخص ، في عهدهم ، كثيراً من اهميته ولم يبق له من الوجهة العملية كبير شأن فاستحال الى رتبة شرفية لا غير . وكذلك حدث للوظائف الكبرى الاخرى ووفروا لها من يقوم بها بعد ان رقعوا اليها من برهن عن كفاءته واخلاصه وولائه للملك ، في الوظائف الدنيا التي اسندت اليهم .

ومع ذلك فالخطر لم يُقَضَّ عليه تماماً ، إذ رفض الملوك التخلي عن الاساليب التقليدية البالية التي نهج عليها اسلافهم من قبل ، لما كانت تؤمنه لهم ولدوهم ولبطانتهم من منافع مادية . فالقضاء على هذه الاساليب كان يقتضي له تقويض النظام القائم من اساسه وإلغاء الاعراف والتقاليد التي سار عليها المجتمع المصري إذ ذاك .

ففي عهد الامبراطورية الوسطى كاد النظام الاداري يبلغ الكمال . لا شك في انه بقي في بعض المناطق والاقاليم وظائف هامة لها شأنها تشرى وتباع . فالارشادات والتعليمات التي اصدرها الفرعون مريكاره والتي كانت تقتزى بعاطفة انسانية كريمة ، كانت توصي بالاحترام من العملاء الفقراء والموظفين المتوسطي الحال لما تجش به نفوسهم من حسد وجشع ، كما كانت توصي بالتوسيع حول الكبار منهم اود العظام ، الذين لهم من الغنى والثراء والبجوحة ما يسد مطلب النفس ويحد من نهمهم فيمتصون بمجل التجرد بعيدين عن المحاسبة والاخذ بالوجوه . والملاحظ على الاجال هو ان حى التوريث ظهرت من جديد واستمر العمل بها ، كما يبدو ذلك واضعاً في عهد الامبراطورية الحديثة عند وفاة كبار الموظفين ورؤساء الكهنة . وقد خضعت الوزارة ، كما نحسب ، لنظام الوراثة بالرغم من الصفة الخاصة التي تلبسها ، وبذلك استقر منصب الوزارة مدة طويلة في بعض الاسر . كذلك أعيد الاخذ بنظام إقطاع الاراضي للجنود والموظفين مكافأة لهم على خدمات قاموا بها او تسديداً لمرتباتهم ، كما أعيد العمل بنظام جمع وظائف عدة في شخص فرد واحد .

فلم يلبث أن أطلّ الخطر من جديد على نظام الملك في مصر ، هذا الخطر الذي تمثل في الدور الذي لعبه الجيش في تسهيل مهمة المتعصبين للسلطة العليا في البلاد . ولعل خير شاهد على هؤلاء القادة المحدودين هو مثل القائد حورعيب الذي بعد ان حقق انتصارات باهرة في ساحة الرغى وحمل ألقاباً عالية ، مثل : « قائد قواد الجيش » ، و « المدير العام للأعمال » هذا القلب الذي كان يوليه سلطات عسكرية ومدنية واسعة جداً ، نودي به ملكاً على مصر بعد ان سبق لسكان امون وثناً بصيرورة الملك اليه ، ثم تزوج من إحدى الأميرات لتأييد شرعيته في الحكم وترسيخ سلطانه على البلاد ، ثم إادر الى تقديم تاريخ وصوله للحكم فجعله توطئة بعد وفاة امنوفيس الثالث ، ضارباً عرض الحائط بالملوك الأربعة الذين تقدموه على العرش ، بعد ما عرفوا به من عداء لاله طيبة امون ، كأمنوفيس الرابع ، او من تشكّر له .

رئيس كهنة أمون تبين هذه الحادثة المزعومة العالية التي تمتع بها رئيس كهنة أمون والدور السياسي الذي لعبه في البلاد . فليس بغريب قط ان يصبح رئيس الكهنة الشخصية الاولى في الدولة بعد الملك وان يحل محله احياناً .

كان الملك يرأس حفلة تنصيب رئيس الكهنة الأعظم ، ملتصقاً من الاله امون وضارعاً اليه ان يستجيب لتحقيق رغائبه ومشيتته التي يعبر عنها بالتأينات ومراسم كانت تخفي وراءها الكثير من الدسائس والتطبيقات والمناورات والألاعيب . وكان على الملك ان يستدرج رضى الاله بالاكتثار من الأعطيات والتقادم التي كانت تذهب للهيكل فتزيد من سلطة كهنة أمون وبالتالي من شأن رئيس الكهنة الذي كان يعيش عيشاً مترفاً ويسكن في دائرة خاصة تمتع بالحشم والخدم فتشمل سلطته جميع الكهنة والعاملين في الاملاك والمقارن التابعة للهيكل امون . وكثيراً ما كانت سلطته الدينية تمتد الى جميع اطراف البلاد فتشمل الكهنة القائمين على خدمة الهياكل الاخرى . وكان رئيس الكهنة يمارس الى جانب وظيفته الدينية وظائف مدنية اخرى حتى العسكرية منها . فمن الطبيعي والحالة هذه ، ان تطمح نفسه ليجعل منصبه وراثياً في امرته .

فالاصلاح الذي قام به امنوفيس الرابع اخناتون لم يستهدف الاله امون فعصب ، بل طغمة رجال الدين ورئيس الكهنة نفسه الذي اخذت الملكية تخشى الوقوع تحت وصايته ، الا ان المحاولة باءت بالفشل واستفعل بالتالي خطر رجال الدين . وفي اواخر اسرة رمسيس اي السلالة العشرين ، في نهاية الالف الثاني قبل الميلاد ، اصبحت وراثة مركز رئيس الكهنة القاعدة التي سير بموجبها في البلاد .

والظاهر ان هذه الوراثة لم تصبح مرقاة للشخص الذي عرف ان يفيد من هذا التطور هريمور . ومع اننا نجعل الكثير من الروايات العائلية التي كانت تلابسه ، فاننا نراه بعد ارتقائه الى رئاسة الكهنوت ، نائباً للملك في النوبة ووزيراً له ، وقائداً اعلى للجيش في الوجهين البحري والقبلي . وتلمح لنا الرسوم والنقوش في هيكل الكرنك ان تنتبج المراحل التي مر بها الى ان آل اليه التاج الملكي . وفي هذه المرحلة بالذات نرى الوجه البحري يؤول الامر فيه الى وزير سابق تزوج من احدى اميرات الاسرة المالكة . ومع ان هريمور يرسخ دعائم الاستقلال التام فهو يسمع بان يلقبوه هو وزوجته بملوك الصعيد . وبعد ذلك نرى لقب الملك يصير في عدة اجيال متلاحقة ، اي في عهد السلالة الحادية والعشرين ، من ألقاب رئيس كهنة الاله امون . وهكذا نرى الملكية تعجز عن الدفاع عن امتيازاتها ضد تعديات كبار الموظفين وتجاوزات رؤساء الكهنة فتوغل في القوضى .

وهكذا نرى ايضاً البون الشاسع بين الحقيقة والمثال الاعلى . فالوضع في مصر القديمة يعطينا بوضوح وجلاء ، صورة صحيحة للخطر المزمن الذي احاق بالنظام الملكي المطلق ، هذا الخطر الذي تمثل خير تمثيل في كبار الموظفين .

الفصل الثاني

النظم الاقتصادية والاجتماعية

ان استعراض هذه النظم يوجب ابداء الملاحظة التالية : من العسير جداً تكوين فكرة شاملة وواضحة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر القديمة . أجل نحن لا نفتقر الى ما يستعيد أمامنا هذه الحياة ، فالرسوم والكتابات والروايات أكثر من أن تعدّ ولكننا نفتقر الى الايضاحات العددية والاحصائية . ولذلك فعلينا الاكتفاء بلوحة لا يتساوى فيها توزيع الاضواء تتضح لنا فيها تقنية الانتاج المادية والمقايضات دون ان تتيسر لنا رؤية نتائجها وتوزيعها أي ارتباطها بالحوادث الاجتماعية التي تسببها مع ذلك وتأثرها بها في آن واحد .

النظام المثالي من النافل التشديد على النتائج الاقتصادية والاجتماعية التي يستلزمها المفهوم المثالي للملكية المصرية : كان على الفرعون الاله ، منطقياً ، ان يمارس في كل شيء دور وكيل الاله العظماء على الارض ، وعملياً ، بالتالي ، دور صاحب الملك وصاحب العمل المباشر . وكان عليه بفعل سلطته المطلقة ان يعين لكل شخص عمله وأجره .

سبق وبينّا ان هذه النتائج النظرية ، اذا ما ألقينا نظرة شاملة على التاريخ القديم ، لم يعمل بها الا في حالات وظروف نادرة . فباستثناء عهود ازدهار الامبراطوريتين القديمة والوسطى ، وهي لا تتعدى القرون الخمسة ، عرفت مصر ، درغماً انقطاع ، ما يعرف عنه اليوم « بالنطاق الحر » . فمن يا ترى أوجد هذا النطاق ؟ هل هي حرية أنعمت بها السلطات أم غش واغتصاب اغضت عنها هذه السلطات ؟ من ذا الذي كان يفيد من هذا النطاق بالإضافة الى الكهنة والمتنفذين الذين رزح الأهالي تحت وطأة مطالبهم كما رزحوا قديماً تحت وطأة مطالب الملك ؟ كلها اسئلة لا جواب عليها لأن هذا الجواب يختلف دون شك باختلاف الازمنة والمهود .

ولكن بالرغم من هذا الغموض ، يسود الشعور بأن فقدان المبادرة الفردية وحرية الفرد الاقتصادية والاجتماعية كامن في صميم منطق الحضارة المصرية القديمة . فنظام هذه الحضارة المثالي يفرض واجبات دقيقة يحول افعالها دون تحيزه في كاله وبهائه . ويبدو ان الامبراطورية الحديثة وحدها قد بلغت هذا الكمال دون الاضرار بعظمة الحضارة القومية ، أقله في الفترات الجيدة

من حكم السلاطين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . ولكن هاتين السلالتين استثمرتا في آن واحد البقاع المصرية نفسها وتمتلكات خارجية واسعة الاطراف من شأن مواردها ان تقلب معطيات القضية نفسها .

١ - الحياة الاقتصادية

الزراعة مورد البلاد الكبير العجيب الذي لا ينضب . في صيف كل سنة ينقل فيضان النيل الى الارض التي فلعتها الحرارة المياه والاحوال الحمية فيستقبله السكان بالمزيد من الفرحة وعرفان الجمل . وفي الخريف يأخذ النهر في الانخفاض ، فتبدأ أعمال الحراثة والبذر في المساحات الصالحة للزراعة التي لا أثر فيها للأرض البور ، والتي لا تحتاج ، بفعل غمر المياه ، الا الى حراثة سطحية . وكثيراً ما كفى لطمع البزار ان يستعمل المحراث البدائي أو ان تقرر الحيوانات الأرض بأقدامها .

دون الرحالة الأغريق اعجابهم بسهولة العمل ووفرة المحاصيل في مصر وقد بدت لهم تربة بلادهم ، بالمقارنة ، وكأنها أم جافية رديئة . ولكن لا نأخذن حرقاً بالتأكيدات والأرقام التي وردت على أقلامهم . فالفلاح المصري ، كأبي فلاح آخر ، يتعب ويتعشى ولا يذوق الراحة طعماً الا في أسابيع معدودة اذ تغمر المياه البلاد بأجمعها فتستحيل كل قرية جزيرة صغيرة . وما ان ينخفض النهر حتى يتوجب على السواعد البشرية تأمين أعمال الري المغذية ومعاونتها وتسييرها... وقد أوجب تنظيم الري وتخفيف المستنقعات ان تشيد السدود وتحفر الأقنية ويعنى باصلاح هذه وتلك بنبات ، كما كان يقتضي في مراحل نمو المزروعات ان تمدد الأقنية الصغيرة بالمياه ، أقله في البساتين ، وذلك يجمعها ونقلها من الغدران أو الآبار أو النهر نفسه بواسطة رقاص خشبي خاص أو باستعمال أوعية ثقيلة . قامت السواعد البشرية في سبيل ذلك كله بأعمال فيها الكثير الكثير من العناء والمشقة . وكان الحصاد يتطلب بدوره يدأ عاملة لا تحصى توزع فرقاً تنتقل نزولاً من الوادي نحو الشمال تابعة في سيرها توقيت نضج المزروعات .

ومن نافلة القول ان هذه الجهود الجبارة كثيراً ما أعطت ثمارها . فيكفي أن يبلغ الفيضان منسوباً وسطاً - ١٣ مترأ في الوادي و ٧ امتار في الدلتا - حتى تأتي المكافأة غاية في السخاء يتلمس فيها السكان عطف الآلهة عليهم . ولكن يتعذر القطع في من كان يفيد عملياً من هذا المن . كانت الحبوب ، لا سيما الشعير والقمح ، قوام المحصول الزراعي . وكان هنالك ، بالإضافة الى الحبوب نفسها ، البساتين بخضارها وشجرها المثمر وكرمها المعرشة ، وتربية المواشي ، لا الحصان - الذي أدخله الغزاة الرعاة مصر في النصف الثاني من الألف الثاني واستأثر به العظماء - بل الثور والحمار ولا سيما الخنزير والحروف والعنز والطيور الداجنة من أوز وبط . ولم يكن الدجاج معروفاً بعد .

توفر لنا النقوش المدفنية بدقة كل تفصيل حول هذا النشاط الزراعي بحيث يمكننا ، انطلاقاً منها ، ان نسير في هذا الاحصاء الى أبعد حد . ويصح القول نفسه عن القنص والصيد اللذين مارسهما المصريون بجميع الوسائل والادوات المختلفة واللذين لم تنحصر الغاية منهما في التسلية والرياضة : فبالرغم من الخطر المفروض هنا وهناك على استهلاك هذا أو ذاك من الطيور والحيتان ، اسهم الصيد والقنص الى حد بعيد في تنمية الموارد الغذائية .

استطاعت ارض مصر ان تؤمن للملايين البشر الغذاء واللباس في اقليم ملائم عطوف وفرت لهم في الوقت نفسه المنتجات المادية الضرورية لحضارة كبيرة .

أجل كانت مصر تفتقر الى الحديد وخشب البناء . فالحديد لم يستخرج من قبل ولمدة طويلة سوى من النيازك ، فكان بالتالي نادراً جداً يستعمله الصاغة معدناً للزخرف . ولم يعم استعماله ، بفضل الاستيراد ، الا قبيل الألف الأول . ولم تكن الاشجار نادرة في مصر ، غير ان أشجارها من نخيل وائل وما اليهما كانت جميعها عقداً لا تصلح للبناء . ولم تقم في مصر على كل حال غابات ظلية ، فتحتم عليها ان تأتي من النوبة بالأخشاب الاستوائية ، ومن سوريا ، عن طريق فينيقيا ، بخشب الأرز والصنوبر . وقد اعتمدت أعمال بناء السفن خاصة على الأخشاب المستوردة من الخارج .

كل ما عدا ذلك كان كثيراً ووافراً . فالأسوار الصخرية في الصحارى القريبة تؤلف مناجم لا تنضب لحجارة البناء الجميلة المختلفة ، والوحل ، اذا خلط بالقلش أو بالقصب وجفف تحت أشعة الشمس المحرقة ، يوفر للمهندسين احدى مواد البناء الكثيرة ، والذهب المستخرج من الصحراء العربية ومن النوبة يكاد ينافس الفضة . أضف الى ذلك وفرة النحاس في سيناء والحجارة الكريمة على انواعها من زمرد وقيروز وما اليهما في الصحراء والنوبة وسيناء .

ولم تقتل هذه الخامات من جوف الارض ، وشأنها في ذلك شأن الحصائد ، الا بالمزيد من الجهود الناصبة . روت النصوص أخبار بعض البعثات في الصحراء ، وأعمال حفر الآبار ، واستخراج الفدرات الضخمة ، واكتشافات عجيبة في بقاع خالية ، ولكنها اقل اداء ، على العموم ، من تلك المشاهد المصورة التي تمثل نشاطات الفلاح والصيد وقاطف العنب . ولا شك في ان قصة عمال المقاتل والمناجم - وهم في الغالب من اسرى الحرب الارقاء - كانت أشد وأدمى من قصة الفلاح ، فهم يشقون عطاشاً تحت أشعة الشمس المحرقة يحيط بهم الجنود الذين يتولون حماية الثروات المكتشفة والمؤن من غزوات البدو . وفي الواقع كان على الطبقات الكادحة في مصر ان تصبر ، في سبيل حياة مصر وازدهار حضارتها ، على نظام لا يقيم وزناً لألم ولا يباه غالباً للحياة الفردية نفسها .

توفر لمعالجة هذه الخامات عمال على قسط كبير من المهارة والتقنية والفن . التحميل والمخاضات . ولم يكن يومذاك من تمييز بين أصحاب الحرف والفنانين . وقامت المعامل

على أنواعها في كل مكان ولكننا لا نعرف منها سوى تلك التي تتمتعها المعابد والبلاط الملكي لاحاطة الآلهة والملك الآله وحاشيته بمختلف ادوات الزينة والزخرف . واكتفى السواد الاعظم من السكان بالعادي العادي من الاواني الخزفية . فلطف المناخ يحد من حاجتهم الى المنسوجات التي تؤمنها الصناعات البيئية ، ولم يكونوا بحاجة للاستعانة بعمل الاختصاصيين المأجور سوى في ظروف الجنائز . وكان بمكنة الحاكمة والنجارين والصاغة والحكاكين والنقاشين ان يصنوا التحف الجميلة لطبقات المجتمع العليا . اما القسم الاكبر من هذا الانتاج فقد أضيف الى كنوز المعابد او خبيء في المدافن المظلمة بانتظار عبث الناهيين في غفلة من السلطة ، او تنقيب الأثريين مؤانئ المتاحف .

وكان بمكنة التجارة الداخلية ان تتصف بنشاط واسع لأن موارد الدلتا والوادي غالباً ما تتكامل ولأن الانهار والترع تسهل حل معضلة النقل . غير ان المثل الاعلى لتنظيم البلاد لم يكن ليشجع المقايضات الخاصة ولو طبق بالتام لأفضى الى الاحتكار الكامل لصالح الدولة ، اذ يصبح من واجب السكان المنخرطين فرقاً في خدمة الآلة الحكومية الضخمة ان يتسلوا بثابة اجر من المخازن الرسمية كل ما يحتاجون اليه . وهذا ما حصل في اكثر الاحيان لبعض طبقات المجتمع التي يستحيل تحديد نسبتها في مجموع السكان : عمال الحرف وفلاحو املاك كل من المعابد والدولة الجنود والموظفون والكهنة الذين غدت هذه التخصصات محاصيل اقطاعاتهم . ولا عجب بعد ذلك اذا ما رأينا ان التجارة ، حتى الصغرى الصغرى منها ، تبدو في مصادرها جذرية بكل اقتبائه واهتمام .

وتجدر الاشارة هنا الى ان مصادرها هذه محصورة مواضعها في مصر العليا تقريباً إذ انها سهلة المراقبة والادارة بفعل المحاصرها . ويبدو ان الدلتا جاشت على الدوام بحياة حضرية لم يعرفها الوادي وتغلصت ببعض السهولة من المركزية التي اضاعت جهودها في هذه الشبكة من الشعب التنهزية والمستنقعات . وكانت المجموعات البشرية اكثر انتمزالا فيها فشعرت بصواحبها وبقوتها الحقيقية ، وشددتها الى الخارج علائق كثيرة اتاحت لها الاخذ بالاساليب المعتمدة في حضارات الشرق الادنى الاخرى . وليس من الصدفة ان يكون الملك بوخوريس ، الذي اشار ديودور الضفلي الى تشريعه حول العقود ، ملك سايس احدى مدن الدلتا . ولكن هذا الدليل والأدلة الاخرى التي تثبت - وجود التجار الاجانب ورواج النقد الاجنبي الخ . - لا يعود تاريخها الى ابعد من اواخر القرن الثامن قبل الميلاد .

وبالفعل لم يعرف النقد في مصر حتى عهد متأخر جداً مع انه الاداة الضرورية لنشاط المقايضات : قالاسكندر وخلفاؤه البطالسة هم الذين جمعوا استعماله . كذلك لم تظهر سبائك الذهب والفضة والنحاس إلا في اواخر الالف الثاني بعد ان تكاثرت سلب الكنوز والمدافن . ومن قبل ، اي في عهد الامبراطورية القديمة واليهود اللاحقة ، اعتمد المصريون للتقويم والتخمين ، منذ ايام الامرة التاسعة عشرة ، وزناً معدنياً كوحدة حسابية مثلى . ثم اخذوا يتقايضون

محاصيل او سلعا تعادلت قيمتها مضطربن احيانا لاضافة هذه او تلك من المواد الاخرى تعويضاً عن فرق في القيمة او الوزن . وجلي ان هذه الاساليب وما اليها قد شلت حركة الصفقات لانها لم تكتسب وفقاً للحاجة .

التجارة الخارجية
ظلت التجارة الخارجية في حالة من الوهن والخور لاسيما اذا ما قورنت بوفرة المحاصيل المصرية وجودتها . ولا تترك لنا معلوماتنا ، على قلتها ، مجالاً للشك في هذا الموضوع .

واذا ما اركننا الى هذه المعلومات ، جاز لنا القول ان التجارة الخارجية منوطة بالملك وحده تقريباً . هو وحده يتصرف بما يمكن تصديره من فائض الانتاج الزراعي او المهنى ويقدر الحاجات الملحة لمواد الاستيراد ، لان المعابد والبلاط ، التي تستهلك وحدها هذه المواد ، تتعلق به دون غيره : فصر التي تكفي نفسها بالضروريات لم تلجأ الى الخارج إلا للكاليات من مصنوعات الزينة والزخرف ، والملك وحده اخيراً يمتلك الوسائل المادية لهذه التجارة اعني بها المراكب القادرة على ركوب « الخضراء الكبرى » والفرق العسكرية التي تواكب القوافل في مسالك الصحراء . لذلك غالباً ما اردت العلائق الاقتصادية بالخارج ، على الاقل في اليهود الفرعونية ، صيغة التجريدات والمشاريع تتولاها الدولة نفسها .

وجب الحصول على الاخشاب من الموانئ الفينيقية وامها جبيل التي ترتقي صلتها بمصر الى اوائل التاريخ والتي كثيراً ما بدت ، حتى ابان استقلالها الحقيقي ، وكأنها من توابع مصر : فاعتبر المصريون المقايضة في رواياتهم كنادية للضرائب يليها تسليم الهبات . حصلوا فيها على العوارض الخشبية وبنوا فيها بعض المراكب تبسيطاً لعملية النقل . وقدم الفرعون بالمبادلة قطعاً فنية ومعادن ثمينة ومصنوعات متنوعة . وقد جاء في احدى الروايات ان اتفاقاً تم التوصل اليه في اوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، بعد مفاوضات عسيرة اجراها احد موفدي هرمحور رئيس كهنة امون الذي ما لبث ان جلس على العرش ، لمقايضة الاخشاب المعدة لمعبد الكرونك ، بقطع المصوغات والاقنعة الكتانية وخمسةائة لفافة من البردي وخمسةائة جلد بقر وخمسةائة كيس من العدس وثلاثين صاعاً من السمك المجفف الخ ..

وقد جرت المقايضات مع الجزيرة العربية ايضاً ، فكانت السفن تبلغ البحر الاحمر مروراً في شعب الدلتا الشرقية وفي قناة تلتقي الى البعيرات المالحة ومنها الى خليج السويس . وعمدت للسلطنة المصرية ، كلما اشدت ساعدها ، الى ترميم هذه القناة المهددة على الدوام بغزو الرمول . وغالباً ما قطعت احدى التجريدات الصحراء العربية انطلاقاً من منطقة طيبة ولحقت بالاسطول على الشاطئ . فيبدأ البحث بعد ذلك في الجزيرة العربية وبلاد « البونت » وابتعد الى الشرق في الخليج الفارسي وعند مصب الهندوس ، عن مصنوعات الشرق البعيدة المعجبة من جواهر ثمينة وعطور وطيبوب . وقد حاول المصريون اكثر من مرة ان يقتلوا الاشجار البغورية نفسها وينقلوها

يجذورها وأتربتها الى بلادهم وقد توقفوا الى ذلك فعلاً بأمر الملكة حتشبسوت، في اواسط الألف الثاني، فجاءوا ببعضها وأعادوا زراعتها في أملاك دير البحري وخلدوا هذه الذكرى بالمزيد من الكتابات والرسوم على جدران المعبد . وقد توجهت بعثات اخرى كثيرة أقل شهرة أو أقل توفيقاً الى المناطق نفسها أو الى بلاد النوبة .

ولكن الأبهة نفسها التي كانت ترافق ذهاب هذه البعثات وعودتها والأجساد التي يسعى اليها الملك من وراء نجاحها تكفي للدلالة على انها أبعد من أن تؤدي خدمات تجارة منتظمة .

لم تعرف هذه التجارة المنتظمة في الحقيقة الا في عهد متأخر ويعود الفضل الأول في ظهورها، على ما يبدو ، الى الأجانب لا الى المصريين . وإذا ما عرفت قبل ذلك ، على الأقل في الدلتا ، فلأن « الخضراء الكبرى » غرقتها سفن أخرى كثيرة غير سفن الفرعون . فقد عثر على مصنوعات كريتية في مصر كما عثر في كريت على مصنوعات مصرية المصدر . وتشير النقوش والرسوم والكتابات الى أجانب ، إيجيين أو اسيويين ، نقلوا الى مصر مصنوعات بلادهم . ولكن النصوص الرسمية تجعل منهم مندوبين جاءوا يعلنون ولاءهم لسيّد أو لصاحب إخادة . وتشير الأوديسيه من جهتها الى اعمال قرصنة قام بها المغامرون الأغريق ، ولعل الحقيقة في القول انها أعمال تجارية سلمية . وما من شك ايضاً في ان بعض التجار الفينيقيين أقاموا في مصر اقامة دائمة . ولكن مهما يكن من الأمر ، فقد بقيت هذه العلاقات عرضية حتى القرن الثامن عندما احتاج ملوك سايس الى اليونانيين كمرتزقة فسمحوا لمواطنيهم بتعاطي التجارة على هذه الأرض التي كانت مطمح الأنظار الجشعة . وبعد التفتّسات الاولى التي اثارت في الرأي العام ردّة فعل صاخبة ، حدّوا من حريتهم في نواحي البلاد المختلفة وفي الدلتا نفسها ، ولكنهم مع ذلك خصصوا اليونانيين بسوق تجارية هي نوكراتيس حيث أقاموا متاجر دائمة تمكنوا بواسطتها من مقايضة نبيذهم وزيتهم وخزفياتهم ومصنوعاتهم المعدنية بالقمح الذي كانت مدنهم اليونانية بحاجة اليه . ثم جاء ملوك الفرس فكانوا اكثر تسامحاً وتساهلاً . وهكذا فان مصر كانت آخذة في الانفتاح على التجارة العامة حين انتزعها الاسكندر نهائياً من عزلتها بتأسيس ميناء الاسكندرية « على مقربة » منها .

عزلة مصر الاقتصادية وتناجها كانت مصر الفرعونية اذن أبعد من أن تحقق جميع امكاناتها الاقتصادية . فقد تعنت وتأثرت ، في رجالها النشيطين الوادعين ، من الافراط في نسبة ما أقطع من محاصيلها تخصيصات للآلهة والملك والوتى المؤهلين . ولجت اقتصادياً في نموها الطبيعي بتجميد معادنها ومصنوعاتها الثمينة في كنوز معابدها وفي مدافنها . كما انها تعنت وتأثرت ايضاً بفعل انكماشها الطوعي والعرضي معاً على نفسها .

كان يمكنها ان تنتج كثيراً وقد انتجت كثيراً في الواقع . كما كان باستطاعتها ان تضاعف انتاجها لو حسنت تقنياتها باعتبار اكتشافات الشعوب الأخرى وأساليبها . وكان باستطاعتها على كل حال ان تسدّ الى حدّ بعيد المعجز التقليدي المزمّن في توطين الشرق الايجي الذي يوفر لها

الخاصات اللازمة لأدواتها، وهي قد بذلت جهوداً متواصلة للتوفيق الى ما يقوم مقام هذه الأدوات .
كان من شأن المقايضات ، لو حصلت ، ان تؤدي الى خير كلا الطرفين ، ولكنها لم تحصل بالاتساع
المطلوب فلحق الضرر بالجميع هنا وهناك .

قد تكون مصر توصلت الى تشديد حضارتها الكبرى قبل غيرها ممن بادلتهم المقايضات ،
وهذا دليل سخاء الطبيعة عليها . غير ان الظروف الجغرافية ، من جهة اخرى ، حالت دون
اقامة العلاقات السهلة المنتظمة .

فيبدو والحالة هذه ان مصر القديمة نزعته الى العيش بنفسها ولنفسها خاضعة في ذلك لمثل
أعلى في الاستقلال الاقتصادي - وهذا المثل الأعلى فطري عند الشعوب والأفراد على السواء ،
الا ان الشعوب تعرف كيف تمهله عندما تكون سلامتها بأمن من الاخطار - وقاصرة طلباتها
الاستثنائية من الأجانب على ما يكتل مواردها الخاصة . فهي لم تبحث في الخارج الا عن
الاستزادة فقط . وقد أحاطت على الدوام هذه الزيادة ، تبذل الجهود للحصول عليها ، بما
يضفي عليها سمات الأهمية والندرة والزهو . عاشت مصر داخل اطار مقفل ، كلتها استطاعت
الى ذلك سيلا ، عازفة عن امتلاك الغابات اللبنانية نفسها وحاصرة في النوبة وسيناء أفق
مطامعها الاستعمارية .

الا يجوز لنا الجد في كشف أسرار سيكولوجية الشعوب ؟ وهل يجوز لنا ، على الأقل ، ان
نعتقد بأن هذه الوقائع تفسر جزئياً تلك المشاعر التي أشار الأغريق اليها عند المصريين وتبنتها
أدلة كاشفة كثيرة في مراحل التاريخ القديم : تمسكهم المستعيت بالتقاليد القومية وفخارهم
القطري بصفات حضارتهم ورسوخها في القدم وشعورهم بتفوقهم الأدبي والديني على الشعوب
الاخرى ومقاومتهم كل اندماج بالغير واحتقارهم الأجنبي حتى وكراهيتهم له . فيمكننا دون
تهور ودون عناء اثبات حقيقة التبادل بين فعل وتفاعل الأحداث والمشاعر في هذين النطاقين .

٢ - المجتمع

الأوضاع الاجتماعية : الرق
ان فقدان المستندات القانونية حول الأوضاع الاجتماعية في مصر
القديمة يفسر جهلنا المطبق الخفيف الذي لا يجوز اخفاؤه .

لا شك في ان الرق كان منتشرأ . ويبدو أن الأرقاء كانوا أجناب في الأصل : أسرى حرب
وأمرى قرصنة أو لصوية قدمتهم سلطات بلادهم بمثابة جزية أو تم شراؤهم من الخارج .
وكثيراً ما حدث ان أعطي هؤلاء النوبيون والليديون والأسويون أسماء مصرية جديدة تثير
الشك أحياناً حول حقيقة جنسياتهم . ولكن ليس من مثل واحد اكيد على وجود عبد مصري
بحصر المعنى ، مع اننا نجعل مصير الأولاد الذين أنجبته في مصر النساء الأجنبية المستعبدات .

ويبدو في هذه الظروف ، ان العبيد قد تفاوت عددهم وفقاً لثانة وطبيعة علائق مصر بالحارج . ولكن هذا العدد لم يبلغ يوماً نسبة مرتفعة اذا ما قيس بمجموع السكان . وكان امتلاك العبيد دليل يسار ومحبوبة لم يحدث ان توفر عملياً للطبقات الاجتماعية الدنيا ، اذ ان وجود العبيد ، عند مثل هذه الطبقات ، بما يثير الشبهات كما تكشف عن ذلك بعض التحقيقات حول نهب المدافن .

وكان الملك نفسه سيّد غالبية هؤلاء العبيد الأوّل يحتفظ بالقسم الأكبر منهم ويستخدمهم في خدمة البلاط او في أعمال العناية بالاملاك العامة او في أعمال المناجم والمقالع الشاقة . ولا شك في ان بعض المتنازعين منهم قد عينوا في فرق المرتقة وان غيرهم قد شقوا طريقهم في وظائف الادارة بعد ان أسندت اليهم في البدء أعمال الترجمة : فحدث يوسف مثلاً ليس بالبعيد البعيد عن الحقيقة .

ولكن الملك قد وهب بعضهم ايضاً للقربين اليه وخصوصاً لحاربيه فجعلهم بذلك يهتمون بفنّان النصر . وقد ادى عمله هذا الى توزيع العبيد على طبقات المجتمع المصري المختلفة لانهم ما لبثوا ان استحالوا مواد تجارية تباع وتؤجر وتقرض . هنالك بعض الروايات عن عبيد يهربون فيطاردهم رجال الامن، ولكننا نميل الى الاعتقاد بان الهاربين هم من عبيد الملك لان اصحاب الاملاك الخاصة عزل من السلاح امام الحسارة والسرقة كما هي حالهم امام الاعتداء على ممتلكاتهم الاخرى . وهنالك بعض الامثلة النادرة عن تحرير العبيد التي يمكننا الجزم في طوعيتها .

هذا كل ما يمكن قوله حيال هذا الموضوع . ويجوز لنا بالاضافة الى ذلك التأكيد ان قسمة العبيد ، المرغم على العمل تحت تهديد العصا الدائم ، ما كانت تختلف عملياً عن قسمة الفلاح نفسه . وهو لم يتصف قط بصورة مجتمعية مميزة ، وما لبث ان امتزج وانصهر في مجموع السكان بالمرغم من تميزه اصلاً بلغته ودينه واخلاقه وربما بصورته الطبيعية ايضاً .

الامرة : المرأة
الامرة نطاق مظلم آخر . في الشعر المصري يدعو الشاب جيبته « اخي » كما تدعوه هي بدورها « اخي » . ودرج على ذلك كل من الزوج والزوجة . فهل يستنتج ان القاعدة كانت في زواج الشقيق من شقيقته ؟ انقسمت الآراء حول هذا الموضوع . فالذين يرتأون الايجاب يستندون الى مثل اوزيريس وابزيس في الميثولوجيا المصرية والى اقدام الملوك ، في بعض السلالات على الاقل ، على التزوج بالفعل من شقيقاتهم . اما القائلون بالنفي فيجيبون ان الحرص على نقاوة الدم في امرة الهية قد يعبر مثل هذه العادة الغريبة . وان التسميات الجازية وارادة في جميع اللغات . ولا تزال ابواب هذا الجدل مفتوحة على مصراعها .

ويبدو ايضاً ان الامرة المصرية موسومة باعراف محل المرأة في مركز مرموق بل في مركز الصدارة احياناً . فقبالاً ما انتسب الابناء الى امهاتهم انتسبهم الى آباءهم . واذا ما توفي زوج ، وليس بين ابائهم من بلغ سن الرشد ، انتقلت سلطته الى امرأته حتى في علائق الامرة بالدولة .

وقد غرقت رسمياً ، لا سيما بعد الامومة ، « بسيّدة البيت » ، متمتعة بكل ما في هذا التعبير من مدلول قانوني ، وذلك بالرغم من ان البيت مصدره الزوج . ولكن الشك لا يزال يحوم حول تحديد ذلك في الزمن او التعريف عنه بوضوح .

والادلة على ما يعارض ذلك ليست بقليلة . ويبدو انه قد عمل احياناً بعقد زواجي محدود مساهمة كل من الزوجين المادية ويحتفظ لكل منها بملكية ما يقدمه . وقد سمح بتعدد الزوجات الذي درجت عليه دون شك بعض طبقات المجتمع المتنعة بالنعى التي تستطيع تحمل ما يجز ذلك من نفقات : فقد رزق رعمسيس الثاني مثلاً اكثر من مائة وستين ولداً . ولعل مركزاً شرفياً مرموقاً اعطي لاحدى الزوجات التي نعتجز عن تعيينها بالضبط . وبالإضافة الى هذه الزوجات الشرعيات اتبع للرجل ان يحتفظ لنفسه في منزله ببعض السراري . وعلى نقيض ذلك كان تعدد الأزواج محرماً على المرأة التي يؤدي بها زناها الى القتل حتى ولو لم يقبض عليها بالجرم المشهود . ولكننا نجعل ما اذا كان على الحاكم ان تتدخل دائماً في هذه الحالات .

اجل ان في الادب الخيالي الكثير الكثير من الروايات التي تلعب فيها المرأة دوراً شديداً البعد عن الفضيلة ، وهي إما لواذع اصطلاحية واما انتقام الحقيقة والواقع من تشريع ظالم اعرج . ولنعترف هنا ايضاً بجهلنا المطبق ، لا سيما ونحن نرى بازاء هذه الروايات ، التماثيل العديدة لزوجين جالسين او واقفين جنباً الى جنب وقد تشابكت ايديهما او القيت يد المرأة منها على كتف الزوج ، مما يدل على ان الموت نفسه لا يفصل بينها . غير ان الفنى ، وللفن المدفني بنوع خاص ، ما للادب نفسه من مصطلحات .

ويحذر بنا هنا ، دون رغبة منا في التعميم والشمول ، ان نلفت الانتباه الى الدور السياسي الذي لعبته في بعض الظروف نساء معينة من السلالة المالكية اشهرهن على الاطلاق الملكة حتشبسوت في اواسط الالف الثاني . وكذلك ، في القرن الثامن قبل الميلاد ، خلفت بعض « عابدات امون » ، في السلطة الروحية والزمنية على السواء ، رؤساء كهنة امون الذين لم يتح لزوجاتهم معهم ، لاجيال واجيال ، ان يحتلن مركزاً يذكر . فيمكن القول ، على وجه التاكيد ، ان مصر القديمة لم تنظر ، مبدئياً ، الى المرأة نظرتها الى كائن ادنى ، ولعل عزوفها الفسي عن الامور العسكرية وعدم اهتمامها بها يفسّر لنا خير تفسير هذه القراية الخاصة .

الولد والاحصائيات البشرية نحن نجعل كل شيء عن التشريع في موضوع الاولاد ولكن الاخلاق تترامى لنا بشيء من الوضوح . وجب ان يكون للمصري ابن يؤمن له الدفن بعد موته وفقاً للطقوس واعراف الجنائز ، إذ يجب ان تدوم الاسرة جيلاً بعد جيل . لذلك يتعم على الابن ، اذا ما بلغ سن الرجولة ، ان يقوم بدور رب الاسرة حيال امه الائمة وشقيقاته . غير ان ولادة الذكر التي من شأنها ان تؤمن الاعقاب لم تؤد يوماً الى التضحية بمن يولد بعده من اخوة او اخوات . وقد لاحظ الاغريق بعض الدهشة ان

المصريين يرضون « بقرية » جميع الاولاد . ونفهم من ذلك ان المصريين لم يدرجوا شات الاغريق ، على « عرض » المولودين حديثاً ، اى على امهاتهم وعركهم يستهلون بين نفايات الحياة المادية .

وبالفعل فان العطف على الولد كولد صفة من احب صفات الحضارة المصرية ومن اكثرها ندرة في الحضارات القديمة . فهل هو دمية من نوع الحيوان المنزلي الصغير يطفح بحياة فطرية نضيرة ، ام انسان المستقبل ، اى وعد يجب مساعدته على التحيز في تفتح وجوده . ان الافتراض الاول اقرب للصواب لان الفرد لم يكن له كبير شأن او قيمة . ولكن لا نتوقف عند هذه التفاصيل والفروقات الدقيقة . فيكفي ان نعرف ان الفن المصري كثيراً ما طرق موضوع الولد بحيوته والعابه وعطفه والعطف عليه . وبكفي كذلك ان نعلم ان النصوص كثيراً ما تصف مسرات الطفولة وتعتبر احياناً بقوة مؤثرة جداً عن الافراح التي تنسي الوالدين عناءهم ومشقتهم .

كان من شأن خصب البلاد ان يزيل شبح القسوة الفظة التي فرضتها فرضاً ، في غير مكان ، طبيعة اقل سخاء . ومن المؤكد ايضاً ، بالرغم من غزارة المياه وعذوبتها ، ان الوفيات بلغت نسبة مرتفعة . ومع هذا فلا شك ان المعنيين بامر الاحصائيات البشرية قد قدروا احياناً حرجة الموقف وواجهوا بعض المعضلات الاقتصادية : فمهما بلغت ارض النيل من خصب مغن ، لم يكن بمكنتها ان تلسع لهذا التكاثر البشري المتزايد . كانت الادارة في وضع يمكنها من استدراك الخطر ، إذ ان القانون يقضي ، ولو نظرياً ، بالتصريح عن كل ولادة هي لها بمثابة فم جديد لا يجوز لها ان تدعه يوماً يصرخ من الجوع . لذلك كلما استعادت السلطة الملكية قوتها وشعرت بواجباتها وقضت على خطر الفوضى ، اخذت على نفسها اعمال تصريف المياه والري رغبة منها في استخلاص اراض زراعية جديدة من المستنقعات والرمول . لذلك فان كل عهد ازدهار وعظمة من عهود مصر القديمة قد تجلّى بتوسيع رقعة زراعة القمح في اليوم على حساب بحيرة ميريس ، وهي هبطة طبيعية فسيحة الارحاء ، الى الجنوب الغربي من الدلتا ، تنتهي اليها مياه فيضان النهر . اما في عهود الانحطاط فتغير الرمولى على المنطقة نفسها وتكتسحها النباتات المائية . ولذلك فان رسماً بيانياً لمستويات البحيرة وشواطئها المختلفة في العهود المتعاقبة — فيما لو امكن وضعه — يصوّر التطور المتوازي في نظام المملكة وازدهارها وسكانها ، لان هذه الظواهر تعود ، في زمن واحد ، الى مجموعة منسجمة واحدة .

لما كان الصالح العام يستلعب سلطة ادارية مطلقة مثالية ، اصبح من المحتوم ان تتجه الادارة ، رغبة في تبسيط مهمتها ، الى تقسيم المجتمع ، الى الطبقات الوراثية المنتظم رتباً وفرقاً ، الى طبقات وراثية تؤلف الاسرة لها إطاراً طبيعياً . فاذا ما توفقت الى ذلك ، وجدت معضلة الاستفادة من الكفاءات ، وهي مستعصية بفعل

الاتجاه المحتوم
الى الطبقات الوراثية

تجددها المتواصل ، حلا يكاد يكون آليا . وهكذا يتم تلقائيا تأمين ملء الفراغ في الحرف والمهن ولا يبقى سوى إيجاد العمل لمن هم أصغر سنا .

ولكن هذه النزعة لم تقض قط الى جود شامل . فهي ، بدلوها هذا ، وبفعل تجاوبها ومنطلق النظام الضمني ، قد أدت الى نتائج عملية ، فتحن نرى ، في مراحل تاريخ مصر القديمة المختلفة ، امثلة اجتماعية شبه ثابتة تسيطر عليها الوراثة سيطرة تامة . كان الأب ، بفعل القرينة ، يكتفى الابن على صورته ويظلمه على أوليات معرفته وفنه باشرأكه في عمله وينقل اليه بسهولة المهنة المدونة باسمه في السجلات الملكية كما لو كان ينقل اليه ملكا عائليا خاصا . واذا ما اتفق ، من جهة ثانية ، ان لمس فيها بعض الفائدة ، كان من السهل عليه ، بموافقة الادارة ، ان يوجهها او يبيعها . ولكننا نعتقد بأنه ما كان ليقدم على ذلك اذا تيسر له ان يحل محله فيها . لحد ابنائه . أو أنسابه . وهذا ما يفسر ، في جميع العهود ، رسوخ وركانة المجتمع المصري . واذا أغفلت المصادر في غالبيتها ذكر هذه الوراثة المفترضة والمقدرة ، فان الكتابات المدفنية ، التي تشدد بفخار وكبرياء على انتساب الميت الاجتماعي ، لا تترك اي مجال للشك حيال هذا الموضوع .

ويجب لفت النظر الى اننا نستخلص وجود بعض هذه الامثلة الاجتماعية استخلاصا فقط . قائلين مثلا وسكان المدن على العموم يكتنفهم الغموض الشامل لأن المدن ، ولا سيما مدن الثلاثا المدينة التي كانت تجيش بحركة تجارية ناشطة ، اذ منع من ان يدركها البعث والاستقراء بعد ان غاصت ، منذ عشرات القرون ، تحت طبقات الاوحال الرسوبية المترامية . ويصح القول نفسه عن المقابر التي قد يسفر التنقيب فيها ، فسيما لو امكن التنقيب ، عن الكثير من النقوش والرسوم والكتابات الكاشفة . ومن المدهش ان الأدب المصري لم يتعرض قط عمليا لامور سكان المدن ، ولعل مرد ذلك الى ان الادب يتوجه اساسا الى العظماء القيمين في لقطاعاتهم المتميزين باحتقار هؤلاء السكان وجهل كل شيء عنهم ، لا سيما وان نفوذهم الاجتماعي كان يقف عند قداخل المدن .

لذلك كان علينا ان نقصر الكلام على عدد من الامثلة النموذجية التي
الأمثلة الاجتماعية : الفلاح
حيثما الفنانون والكتاب المصريون نهائيا بالرغم مما فيها من
صفحة اصطلاحية .

اما المثال الواجب رسمه قبل غيره ، بسبب ديمومته وشموه ، فهو الفلاح ، المثال الاول للمصري وللشعوب الاعظم من المصريين في كل جيل . فهو فلاح قبل أي شيء آخر ، بالرغم من توليه اعمالا اخرى مختلفة في بعض الظروف : تمهيد الاراضي ونقل الاحمال على ظهره او الاشتراك في حياض التقييل منها في صفوف طويلة من امثاله . يتوقف انتزاع المحاصيل المغذية من التربة السوداء وحياة مصر نفسها وبها حضارتها على عمله خلال الفصول المتعاقبة ، وفاقا لفيضان النهر وانخفاضه .

ولكي تتمثل حالة الفلاح ، يونا علينا ان نرسم ونجس لوحه مزدوجة تقباين منها الظلال والانوار ، فالمصادر المصرية ، ولو تعاصرت ، تدعو الى ذلك .

كان فداديا في الامبراطورية القديمة ، وما زال فداديا ، عمليا ، حتى اذا بدا حرا فبا بعد ، من الوجهة القانونية ، لانه اليد العاملة الضرورية التي لا يبقى للأرض قيمة بدونها . فهو مرتبط « بحقول الفرعون » والمعبد - وقد شملت مصر بكاملها في بعض الاحيان - او ان عمله يعطى ويبيع مع الاملاك التي لا يستطيع ان يهرب منها . اجل انه يملك بيتا شيدته يداه من لبن وعوارض خشبية حين اقدم على الزواج ، كما يملك حديقة وبعض الطيور الداجنة . ولكن الارض الصغيرة المؤلفة من بيته وداره وحديقته لم تكن سوى حبة الغاية المبيتة منها احكام ابقائه في الارض التي يعمل فيها تحت سلطة المتولي عليها . وقد يكون الملك ، في بعض العهود ، قد أثر اعتباره مزارعا يستثمر على هواه حقلا يعادل حقل جاره من حيث المساحة ، ولا شك في ان ذلك استلبع تأجير بعض الحيوانات وبعض الادوات الزراعية . ولكن قسمته المادية لم تتغير قط ، موجهاً كان عمله ام حرا . فهو لا يزال يزرع تحت كامل السخرة التي لا بدليل عنها لعمال السدود والاقنية . ولا يزال الحق بمصادره قائما لصالح الادارة المدنية او العسكرية . كما لا يزال سيده يقطع حصصه دون هواده ، إما مباشرة ، إما عن طريق اقتسام المحاصيل او بدلات الاستثمار او الضرائب . وتقبل النصوص الى التشديد على تجاوزات الموظفين في سلطتهم وصلاحياتهم . وأشهر هذه النصوص « هجاء المهن » الذي يعود ما يصفه الى عهد الامبراطورية الوسطى . وبعد ان يعدد الاضرار التي انزلتها بالمحاصيل الحشرية الطفيلية والجردان والطيور والحيوانات البرية واللصوص ، نراه يفضل بقرية تصويرية ضربات العصي يكيلها للفلاح مرافقو جابي الرسوم وضروب قسواتهم ومظالمهم : « حينئذ يضربونه مطروحاً على الارض ثم يوثقونه بالحبال ويلقون به في القناة فيغوص في الماء ورأسه الى اسفل ويحرك يديه على غير هدى . ثم توثق امرأته بالحبال امام ناظره ويكبّل اولاده بالسلاسل . فيتخلى عنه جيرانه ... »

قبالة هذه اللوحة التي تثير الشفقة ، نستطيع ان نشير الى تهديدات الملك المتكررة لمأموه والتعقيقات المشددة بأمر باجرائها والعقوبات ينزلها بالخالفين والعدل يوزعه بنفسه . ولكن هذه الاجراءات التي تستحيل ، منذ اواخر الالف الثالث ، مجرد مادة للترديد ، تفقد فعاليتها وثقة السكان بها . وللحصول على الوان اكثر نقاء وجلاء يترقب علينا ان ننظر الى رسوم جدران المدافن . فهي ايضا تصف بقرية حادة افراح الحياة الريفية واعمالها على السواء وتستعيد اماننا الظلال الوارفة والمياه العذبة وتعتبر عن حرارة فرق العمل التي تقوم ، على الحان المزامير ، بالحصاد او يدوس العنب . والى جانب الاشخاص ، كتابات تكرر كلامهم الرشيق والمرح الذي لا يعرف للمرارة معنى . الحصادون ينشدون : « عملنا هو ما نحب » . ثم يسيطر على الجميع جو من المزاج والمداعبة . وبعد الفراغ من العمل يستسلمون للراحة يجرعون خلالها البعة فرحين بالعاب اولادهم امامهم . ويبدو كل منهم راضيا عن قسمته وسعيداً بان يلفت ،

بهارته و إخلاصه انظار سيده الذي يوجه نشاطاً ضرورياً لسعادة الجميع .

و اذا نحن خيّرنا ، تبدو اللوحة الاولى أقرب الى الحقيقة ، فهذه المدافن المزدانة بالمشاهد الريفية انما هي مدافن العظماء المتعاقبين عن آلام خدامهم ، والاطار المثالي لهذه الكتابات الراعية انما هو حقول العالم الثاني . وقد ذهب بعضهم الى وضع مثل هذه الأغنية على أفواه حاملي أسيادهم : « نؤثر الحمل المآلن على الحمل الفارغ » . ولكن « هجاء المهن » من جهته يدعو الى الانتفاض . وكان من شأن هذا الشقاء ان يفضي طبيعياً الى الثورات ، غير ان هذه الثورات لم تتميز مرة واحدة بالشمول ، كما ان حوادث الحرب نفسها لم تتكرر الا نادراً . وهل هناك من خيار بالمعنى الصحيح ؟ فليس يمكنه الفلاح ان يلبس شقاءه الا بمقارنة قسمته بقسمة غيره من الفلاحين التي لا يعلم عنها شيئاً . الآلهة أنفسهم هم الذين وضعوا النظام الذي رزح الفلاح تحت وطأته المادية ، وهذا النظام في نظره لا يس . لا شك في انه حاول المطالبة بحقه في هذه الدنيا ، ولكنه سيحصله على كل حال في الآخرة ، بينما سيلقى العقاب فيها ذلك الذي حرمه منه . وقد دفع به كل هذا الى السلبية والاستسلام ولم يبق له الا ان يستمتع بتلك الافراح العادية التي لا يمكن لأحد ان ينتزعها منه : أفراح الطبيعة الهادئة وأفراح حب الأسرة وأفراح الصداقات بين أمثاله . ونرى ، بعد كل هذا ، ان وجبي اللوحة المزدوجة يتكاملان دون تعارض بالرغم من تباين الألوان فيها ، وان تقاربهما وحده هو الذي يحدد ويقرب الى الفهم ميزة من أخص مزايا مصر القديمة ومن أكثرها تأثيراً . فلم يشع قط لعظماء هذا العالم ، في غير مكان ، ان يتصرفوا بهذا القدر العظيم من الادوات البشرية الناشطة المطواعة والهائنة والمتواضعة والمتجلدة . فليس ابعد ، في مصر القديمة ، من مفهوم الرجل الحر والشخص المجتهد الذي يتلقى مساعدة الجماعة لشكون له هويته ، لا لينصر في الجماهير .

يمكن ان نستخلص بوضوح كاف أمثلة اجتماعية أخرى .

العامل يلف « هجاء المهن » وغيره من النصوص جميع العمال بما ياثل شقاء الفلاحين ولا تهمل الاحصاءات المؤثرة لا مهنة صغيرة ولا حرفة يدوية : الحلاق يستدرج الزبى في الأزقة والحداد يلتزم « فوهة الكور » وينشر الروائح الكريهة « اكثر من بنوض السمك » والحكاك الذي « حقله الخشب » و « معوله الازميل » والنحات والملاح والحائك والحراز وغيرهم ينهكهم عمل سواعدهم ويتضورون جوعاً او يكادون يتسولون .

ان اصحاب الحرف ، في الواقع ، اكثر تميزاً من الفلاحين . اما اولئك الذين يمارسون مهن الساحات العامة فيختلطون بعامة الشعب ، والذين يحكم عليهم بالاشغال الشاقة تستثمر عقوباتهم افزع استئثار .

لا شك في ان العمال المرتبطين بأشغال المعابد والملك قد لاقوا معاملة اقل سوءاً ، فهم يقصدون المخازن الطافحة بالمواد ويتسلمون منها اجورهم في مواعيد منتظمة ، مأكلاً وملبساً . ولعلمهم ،

بالإضافة الى ذلك ، انتظموا جماعات متجانسة واستخدموا ما لديهم من وسائل للضغط على اصحاب الاعمال . ولدينا امثلة متأخرة عن تهديدات بالاضراب ساعدتهم على الفوز بطلبيهم . ومثل هذه الحوادث مما يثير الشك حول النشاط الذي تعزوه الرسوم اليهم لا سيما في اعمالهم الزراعية .

وكان يودنا ان نتعرف الى قسمة اولئك العمال الاختصاصيين المميزين الذين جمعوا رصيذاً مدهشاً من التقنية فاحلّوا منتوجاتهم في مصاف المصنوعات الفنية الرفيعة . فهل حظوا بالتقدير الذي هم جديرون به ؟ وهل نموا بتكريم المجتمع لهم او هل كوفئوا مادياً مقابل بهجة الجمال يوزعونها ذات البعين وذات البسار ومقابل الخلود يؤمنونه للمقتدرين من زبنهم ؟ من المغالاة والتهور نقي ذلك اطلاقاً لان بعضهم بلغ الثروة والجاه بفضل براعتهم . وقد بلغنا اسم الصانع نفسه في بعض الاحيان النادرة النادرة . ويبدو ان عهد امنوفيس الرابع — اخناتون قد تجاوز كل عهد غيره في رفع المستوى الاجتماعي لا سيما للنقاشين . ولكنه عهد قصير الامل اذا ما قيس بالتاريخ المصري المتطاول في الزمن . وفي اكثر الاحيان لا تحول كفاءات الفنان النادرة ونجاحاته الباهرة دون غمره ، كما مل يدوي عادي ، في جماعات الشعب المجهولة . ولكن حضارات قديمة كثيرة قد ارتكبت في هذا المجال ، قروناً طويلة ، الاخطاء نفسها التي ارتكبتها الحضارة المصرية .

كان اسهل على الجندي ان يبلغ الشهرة . فكثيرة هي الظروف في ساحات الرضى الجندي التي تتيح للفرد ان يفرض بطولته فرضاً . ولكننا لا نستطيع التأكيد مع ذلك ان بمكنة محارب الرتب السفلى في مصر ان يتعالى ويبلغ المراتب التي توليه النفوذ ونحوه حق القيادة . وهنالك نصوص تثبت تدرج بعض العسكريين المبرزين في سلك الجندية ، غير ان واحداً منهم لم ينطلق من الرتبة الدنيا بل هو ينحدر اساساً من اسرة تحتل مكانة اجتماعية مرموقة وينتقل يافعاً الى المدارس الحربية التي تجنّبه ، منذ دخوله اليها ، الاختلاطات المحطة من شأنه . اما الانطلاق من رتبة الجنود العاديين ، وهو دليل الانحدار الوضع ، فيكاد يحتم الغمر والاغفال .

وقد سبق ورأينا ان الروح العسكرية لم تنتشر قط بين افراد طبقات الشعب الدنيا لان مزاجهم السلبي لا يصلح ان يكون حقلاً خصباً لاستثمارها فيهم لا سيما وان الانظمة الدينية والادارية السائدة قد شجعت فيهم هذه السلبية وغذتها . ولم تشذ عن هذه القاعدة ، في بعض العهود القصيرة ، سوى امثلة نادرة لا يجوز ان نغالي في اهميتها ونشمل بها المجتمع كله . ويبدو ان الفلاح لم يبرهن ، في خدمته العسكرية ، عن اهلية تذكر إذ ان مثال الجندي ، عند الفراغة ، اي ذلك الضابط الذي تأتي الوثائق العديدة على ذكر اجماده ، لم يكن مصرياً بل غريباً ومأجوراً .

لم يعجب الرأي العام بهذا الجندي بل شعر نحوه بالخوف والازدراء . ولم يكن ابن الشعب ليرى نفسه فيه لا سيما وان الجهود لم تبدل لايحاد هذا التقارب بينها . ولم يعرف الجيش ، على ما نعلم ، اي تخالط اذ كانت وحداته متجانسة من حيث قوميات افرادها . اما اذا حصل التخالط ، خارج الجيش ، فيكون ذلك نتيجة غير مباشرة لاسلوب تمثب عليه الادارة تأميناً لدوام خدمات هؤلاء الغرباء بجؤولها دون المطامع التي تثيرها فيهم ثروة البلاد .

فكان الملك يرعى المرتزقة باقطاع كل منهم ارضاً ، فيعنى بزراعتها واستثمارها تأميناً لحاجاته وحاجات عائلته . وقد افضى ذلك ، في عهد البطالسة الى « مستعمرات المهاجرين » . وفي عهد سلاط ساييس ، بلغ عدد الجنود ، على ذمة هيرودوتس ، ٣١٠٠٠٠ وقد اقطع كل منهم ثلاثة هكتارات وربع الهكتار في الدلتا ، وحتى لمن انخرط منهم في الحرس الملكي ان يتسلم حصصاً غذائية سخية . فليس من المعقول ان يجيء كل هؤلاء من الخارج ، وليس من المعقول خصوصاً ، ألا يكونوا من اصل مصري ، شريطة ان نعود جيلاً او اجيالاً الى الوراء .

فاذا كان الملك يحتفظ مبدئياً بحق تلك هذه الاراضي ، واذا كان من حق ادارته بالتالي ان تبقي فيها عائلات الجنود ، ما دام هؤلاء صالحين للخدمة العسكرية فقط ، اصبح من السهل رسوخ قدم الوراثة التي كانت تؤمن مصالح الطرفين . فاذا خلف الابن أباه كجندي ومزارع ، احتفظت العائلة بقطعة الارض وأمن الجيش بديلاً عن رجل أصيب بمرض او تجاوز سن الخدمة . وهكذا فالمصري الذي يقيم نهائياً في مصر يصبح بعد حين اصلاً لفروع كثيرة ويتمصر احفاده رويداً رويداً فيستحيل ، بعد ذلك ، التمييز بينهم وبين المصريين الاصليين المنخرطين في الجندية الخاضعين لنظام مماثل . وتنظم مع الزمن طبقة « المحاربين » الوراثة التي ألح اليها كتبة الأغريق . ولكن يرجح ، قبل العهد الذي تصح فيه شهادة هؤلاء ، ان الجنود اقطعوا الاراضي منذ السلالة الثالثة عشرة وان المرتزقة تضخم عددهم منذ اواخر عهد السلالة الثامنة عشرة .

ولا حاجة بنا لأمثلة اكيدة حتى تتصور نتيجة هذا النظام المحتومة . فوراثة الاراضي المقطعة لم تكن سوى مرحلة من مراحل التطور ويكفي ان تخفف وطأة المراقبة الادارية حتى يستحيل استثمار الاراضي ملكية فعلية قابلة للنقل بالهبة او بالبيع ، كما يطيب للمالك ، وتزول مع الزمن فريضة الخدمة العسكرية التي كانت في الاصل الشرط الاساسي لاقطاع الارض . وتتحم بالتالي العودة الى البدء كلما مست حاجة الملك الى المحاربين الجدد . ان المصادر المتوفرة لدينا ليست من الوضوح والكمال بحيث نستطيع معها الجزم بان مصر قد قطعت هذه الدورة بكاملها ولكن منطق الحوادث يبيح ذلك .

من الثابت ان طبقات الشعب المصري الميسورة لم تقدم للفراغنة جميع ضباط الجيش والاسطول ، لا سيما في جميع العهود ، لان المرتزقة قد احتفظوا احياناً

برؤسائهم الأجانب ، مما عرض البلاد في بعض الفترات للقلق والاعتصابات . ولكن الضباط قد جاؤوا ، دائماً تقريباً ، وباعداد كافية ، من أسر هي في خدمة الجيش أو الادارة الراهنة . كثيرة هي الكتابات المدفنية التي تشير باطراء دائم إلى المآثر العسكرية واعمال البطولة والتضحيات ، غير ان توزيعها في الزمن ليس متساوياً لأن السلطنة لم تهتم على الدوام للشؤون العسكرية . ولم يكتمل مثال الضابط في المجتمع المصري الا في عهد الامبراطورية الحديثة بنوع خاص وهي التي تولت تحرير البلاد أولاً ونهضت بالفتوحات في آسيا ثانياً . وقد استقر هذا المثال في الاذهان بعد هذا التاريخ بسبب الحاجة الدائمة الى الدفاع عن مصر وصد الغزوات عنها

ويشدد « هجاء المن » على ما يلزم مهنة الضابط من مشقة . في المدرسة الحربية ، وفي المراتب الدنيا نفسها ، لجأ الرؤساء الحازمون الى العصا لتلقين الشاب خضة الحركة والانتباه . يضاف الى ذلك عناء الأسفار الطويلة القسرية في المناطق الريفية ، والأمات تعترض العربات ، والجروح ، وغير ذلك مما هو أدهى . ولكن هذا النص يغير وجه الحقيقة هنا شأنه في تفسير وجه حقيقة من أخرى كثيرة ، لا بل يغضي عما فيها من تشويق ، أعني بذلك المكافآت الفخورية وغيرها ، وهيات الفرعون ، وتقاسم الغنائم المادية والبشرية ، والأوسمة عقوداً وأساور ، والتدرج السريع ، وخصوصاً التعيين في الوظائف المدنية ، أو الحصول على الاقطاعات المحترمة ، عند بلوغ السن أو الاصابة بعاهة ، وكلها تثير في النفس الرغبة والشهوة . وتطمينا الكتابات أمثلة لا تحصى على صحة ما نقدم . اجل ان يحسر ابي مستاء على ان ينسب لسيدته نكران الجميل ، ضمناً ، بالكلام عن عوزه في شيخوخته . ولكن الوقائع هي الوقائع . ولن يحظى الملك بخدمة مخلصه الا اذا اعترف بجميل خدامه المخلصين . وبين لنا مثل حورمحيب ان اقرب الناس الى الملوك واكثرهم حظاً وشجاعة كانوا يحملون أحياناً بالزيد من السموم والارتفاع .

يبقى أخيراً أولئك الذين نعموا بثقافة ارفع . درجت العادة ان تبدأ الدروس منذ الصغار
عهد الطفولة في المدارس الملحقه بالبلاط أو بالمعابد حيث تحتل مادة الخط المركز الاول . ثم تتفرع بغية تلقين الطلاب المعارف الخاصة بالمهنة التي يعد الوالد ابنه لها ، وهي غالباً تلك التي اختارها لنفسه بين اثنتين : الكهنوت أو الادارة .

ونتيجة لانهاكهم في نشاطات المعابد الدينية والزمنية على السواء ، كرس كثير من المصريين والمصريات نفوسهم لخدمة الآلهة . ولكن في هذا الجمع الغفير علمانيين عديدين بما فيهم فئات عامة الشعب المختلفة : الفلاحون مستثمرو « الأرض المقدسة » ، وعمال المصانع الاختصاصيون والمعاونون على انواعهم ، حتى والراقصات والمغنيات والموسيقيات . ولم يحل ذلك دون تضخم عدد الكهنة انفسهم الذين توزعوا فئات كثيرة تختلف القابها وانظمتها ، وربما اعمالها ، باختلاف المعابد . وتعيين هذه المهام منوط مبدئياً بالاله اي بالملك ، ولكن المهام نفسها غالباً ما تصبح ،

مع الايام ، ملكاً للقائمين بها . وقد حدث ، في عهد الانحطاط على الاقل ، ان تقسمت هذه المهام حصصاً زمنية ، غاية في القصر — اجزاء من اليوم — واصبحت موضوع تجارة وبيع وشراء .

وقد يصح الكلام عن كهنوت نسائي قوامه « سراري الآلهة » أو « المعتزلات » . ولكننا نجعل كل شيء عن تربيتهم ودورهم في العبادة . ومع ذلك يمكن التأكيد انهن كن ينتخبن ، للمراكز العليا على الاقل ، في صفوف المجتمع الراقي ، بل في البلاط نفسه احياناً . وكانت الملكة مبدئياً ، منذ الامبراطورية الحديثة ، رئيسة الكهنوت النسائي المكرس لخدمة معبد الاله امون في الكرنك وتلقب « باليد الالهية » و « عروس الاله » أو « عابده » . وكانت تقوم مقامها عملياً تلك التي يمكن تسميتها رئيسة الكاهنات .

ويصح القول نفسه عن درجات الكهنة الذكور التي رأسها في القمة « النبي الاول » و « اعظم الانبياء » ، وبكلمة ، رئيس الكهنة ، الذي عرف بغير ذلك من الالقاب . وكان في كل معبد رئيس كهنة يقوم مقام الملك الذي يعينه لهذه المهمة . وقد احتل بعض رؤساء الكهنة مكانة ضخمة واسعة بفضل ما لاله الذين يدبرون شؤون معبده من نفوذ وطيء وثروة طائلة . وبما لا شك فيه طبعاً ان واحداً منهم لم يتقدم على رئيس كهنة امون في الكرنك الذي اقضى ضعف بعض الملوك الى رفعه الى مرتبة « مدير الانبياء في مصر العليا والسفلى » اي الى مرتبة رئيس الكهنوت الوطني الاعلى . والملكية ، كما سبق ورأينا ، تعرضت لخطر الاغتصابات على يد رجال الدين ولم تفلح دائماً في صدّه وابعاده .

وكثيراً ما وقع الخيار على رئيس الكهنة من خارج الدرجات الكهنوتية ، ولكنه اشرف مباشرة على سلسلة كاملة من « القراء » و « الاطهار » و « الآباء الالهيين » و « الانبياء » . وكان باستطاعة هؤلاء الكهنة ، المنتظمين فئات متميزة ، ان ينتقلوا من مرتبة الى اخرى ، غير ان تدرجهم يخضع لعوامل متعددة اهمها التعلق للبلاط وصلة القربى بذوي المناصب الرفيعة . واليك مثلاً عن نجاح كهنوتي باهر احرزه احدثهم في عهد رمسيس الثاني : دخل احد ابناء « نبي امون الثاني » المدرسة في سن الخامسة ، اصبح « طاهراً » في السابعة عشرة ، و « اباً إلهياً » في الحادية والعشرين ، و « نبياً ثالثاً » في الثالثة والثلاثين ، و « نبياً ثانياً » في الثامنة والأربعين ، و « نبياً اولاً » في الستين حتى مماته في السادسة والثمانين . وهذا مثل آخر يعود الى عهد متأخر : احد رؤساء كهنة امون يعلن باعتزاز وكبرياء ان ابنه البكر « نبي ثان » في معبده وحفيده « أب إلهي » ، ان لم يكن « نبياً رابعاً » ، بينا يرتبط ابنه الثاني بمعبد آخر .

هذه ، ولا ريب ، نجاحات وأسر غير عادية زادت انجاءها في القوة الادبية والمادية التي نعم بها كهنوت هو ادارة في آن واحد . فشكّل هذا الكهنوت طبقة اجتماعية شبيهة بطبقة الموظفين المدنيين ، ولم يختلف الكاهن عملياً عن الكاتب . فهو يلتقي في الاوساط الاجتماعية نفسها ويربى التربية المدرسية عينها . وهو مدين ، في قوته ، الى مثل أعلى واحد هو التنظيم القمين بان يؤمن

للشعب السعادة التي يهبها الآلهة بسخاء للدلالة عن رضاهم ، وهو أخيراً يبحش برغبة واحدة في اعتبار الوظيفة التي يشغلها ملكاً خاصاً لا خدمة عامة .

النكاتب
نصل ، مع الكاتب ، الى مثال سيد مصر الفرعونية الحقيقي بكل نقائه وجلائه . ولا يشدد « هجاء المهن » ، بتلك المرارة ، على آلام المهن الاخرى واطوارها ، إلا ليرى ما تنطوي عليه مهنة الموظف من قوة اغراء واجتذاب . وليس الشخص نفسه ، الذي يرسم هذه الصور السوداء ، إلا موظفاً صغيراً يحض ابنه على الاجتهاد ، وهو يقوده الى مدرسة البلاط ، منبت موظفي الادارة . وهنالك نصوص كثيرة تعرب عن هذا التوق نفسه باعجاب البسطاء دون ان تم عن حسد او تملل . وتجمع هذه النصوص على القول بقيام حالة راهنة يجب الاعتراف بحقيقة واقعا : « فالكاتب هو الأمر » كما جاء في كثير من هذه الكتابات .

تحرر الكاتب من السخرة التي اخذ يفرضها على غيره وابتعد عنه شبح التعمب الجسدي وضمن مؤونته من بيت الملك . فتوقف نجاحه على ذكائه وحيته دون غيرها . وكان من الطبيعي ، في مثل هذه الظروف ، ان يحمل الامل في السعادة المرجوة ، كلاً من الطالب والمبتدئ ، على الاعتماد ، في عمر الطيش ، عن ملذات الرقص التافهة وعن المسكرات والمنكرات ، وعلى كشف اسرار الحظ والحساب والادارة ومنافسة اترابه في الدرس والاجتهاد .

ويصور هذا المثال احسن تصوير ، منذ الاسرة الخامسة في اواسط الالف الثالث ، تمثال « الكاتب المقرص » الذي يعبر عن حدة محسوسة في الانتباه عند قدوة الموظفين .

واذا ما حالف الجدارة حسن الطالع ، يرتقي هذا الموظف الوضيع في الدرجات الكهنوتية الى ان يبلغ اكثر المناصب ابتغاءً ، بفعل الجاه الذي تؤمنه ، واوفرها عطاء سخياً ، بما تستتبعه من مرتبات وهبات . وان لم يتيسر له ذلك ، يرافقه دائماً ، حتى في الدرجات الدنيا ، شعور أخاذ باشتراكه الشخصي في سلطة لا حد لها ويتساميه على الجماهير بمراقبته الشاملة لاعمالها . وهو مبدئياً يتلقى التوجيهات حتى يوجهها للغير ، ولكن الملك ، عملياً ، ابعد من ان يرضن عليه بالثقة واضعف احياناً من ان يعاقبه على تجاوزاته .

وكثيراً ما يتاح للكاتب المنتمي الى هذه الدولة الالهية ، بفضل وراثة الوظائف وفقدان فعالية آلة الحكم المعقدة ، ان يستفيد منها استفادة مباشرة كبرى ، حالما يتراخى ، في القمة ، ذلك الحزم الذي تبقى المبادئ الاخلاقية بدونه حرفاً ميتاً .

وبذلك تكون الحضارة المصرية قد شُيدت لمجد الآلهة الاعظم ولمجد الفرعون ابنهم ورضيعهم وخليفتهم ، معتمدة مادياً على مجهود الطبقات الكادحة التي أرهقتها بالواجبات ، ومستهلكة المزيد من الثروات بالرغم من سخاء الطبيعة في عطائها المتكرر . ولكن انانية الانسان الفطرية قد سخرت منها الارضيات لصالح اولئك الذين عملوا تحت ستر تلك القوى الالهية وباسمها ، اعني عظماء مصر الحقيقيين : الكهنوت والادارة ، الكاهن والموظف .

الفصل الثالث

المظاهر الدينية

ليست الحضارة المصرية مدينة الا بحزمه من عظمتها للقوة الالتحام والمنطق - من الوجهة المثالية على الأقل - في نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي . فقد تجلّت قوتها الخلاقة ، بكثير من التأثير ايضاً ، في نطاقات بشرية اخرى .

ترتب علينا اكثر من مرة ، فيما سبق ، التنويه بقوة الفكرة الدينية في مصر القديمة . وكان هيرودوتس يعتبر المصريين « اكثر الناس دقة في الدين » ، قاصداً بذلك حرصهم الشديد ، حتى في العادي من اعمالهم ، على العمل بموجبيات دستور العادات والحرّمات الذي سنته تقواهم الملزمة . وهذا الاثبات يحتفظ بقوته حتى ولو رفمناه الى مستوى أعلى . ففي الديانة وحدها ما يبرر نظرياً تنظيم البلاد العام . وبما ان البلاد ملك للآلهة ، فهي تعيش لاجلهم وفاقاً للبداية التي وضعوها والاوامر التي تصدر عنهم يومياً .

١ - الآلهة

عدد هؤلاء الآلهة مرتفع جداً ولا حد لتنوع طبيعتهم .
التعدد الاساسي وبحكم الضرورة ، سعى اللاهوتيون في نظرياتهم ، اكثر من مرة ، لادخال نظام ما على هذه الكثرة التي يكاد لا يحصرها عد . وحدث ، لاسيما لاسباب سياسية ، ان قاربوا التوحيد ان لم يتوصلوا اليه بالفعل احياناً . وقد حصل ذلك ، في حال حصوله ، مكرراً وخداعاً باخضاع الآلهة الآخرين لاله جعل هذه الغاية أعلى منهم شأنًا وسلطاناً . ولكن هذه الطرائق لم تلق قط ترحيباً يذكر حتى ولو كانت السلطات عوناً لها ولم تحرز إلا نجاحاً محدوداً في المجتمع والمكان والزمان على السواء . فمن الجلي ان تعدد الآلهة كان أمراً اساسياً ولم ترض غالبية المؤمنين عنه بديلاً .

هل كان هنالك ، على الأقل ، فكرة مشتركة وراء هذا التعدد ؟ هل كان هؤلاء الآلهة

يتساوون في الانحدار من مبدأ أعلى ؟ يميل كثير من علماء مصر القديمة ، منذ ما يقرب الأربعين عاماً ، الى اثبات ذلك ومحاولون ان يستشهدوا ، لهذه الغاية بلفظة « كا » التي جاءت على ذكرها نصوص قديمة قدم الاهرام : « هوذا انت ، « كا » جميع الآلهة ، تقودهم وتحكمهم وتحييهم . » ولكن هذه النصوص النادرة والغامضة لا تتيح الاجماع على تحديد مدلولها والانتهاء منه الى ما يفرينا في اكتشاف مدلول ذات الالهوية . جوهر اساسي او سائل هيوالي تنصب عناصره في الاغشية المختلفة ، او مجموع القوى الفائقة الطبيعة ، او مبدأ الحياة الكامن في الاطعمة ، او مبدأ التناسل ، او مجموع الصفات الطبيعية والادبية والعقلية التي تكون الشخص الكامل ، لا فرق كان هذا المجموع واحداً او متعدداً : هذا قليل من تحايد كثيرة قدمها بعضهم . وكل منها يستند الى حد بعيد إما الى النظريات العامة وإما الى الاستعارات السهلة ، ويكفي ذلك وحده لان تحوم حولها الشكوك .

ومهما يكن من الامر ، من جهة اخرى ، فما كان بلوغ هذا التجريد بمكن الانضبة محصورة العدد ، ولا يبدو ان هذه النتيجة انهمكت ابدأ ودائماً في بناء مذهب منسجم ومعقول . ولو حاولت ذلك ، لاصطدمت بواقع ديني برز قبلها مستقلاً عنها مستعصياً على جهودها التنظيمية . ولو وفقت جدلاً الى مذهب مرضٍ ، لقابله المصري باللامبالاة وعدم الاكتراث .

تعكس الديانة المصرية ، بوضوح لا مثيل له الا في الفن الذي تربطه بها
الواقع والخيال
صلة وثيقة ، بعض الخطوط الأساسية للبيكولوجية الجماعية . وقد يرتسم في الفكرة الدينية
بعض هذه الخطوط ، بوضوح متفاوت ، عند الشعوب الاخرى . ولكن
لمصر خطوطها المميزة .

ومن حيث ان الفكرة الدينية المصرية قد نشأت ، كما في غير مكان ، من العضلات التي واجهها البشر في علاقتهم بالعالم المحيط بهم الذي تستبد حياته بحياتهم ، فهي قد انبثقت بدسياً من المادة الجامدة ومن الحسوس ، مع بعض التفضيل للثرثيات . وهي لم تحد عن هذا قط ، مع انها غالباً ما تعدتها ، يستهويها في ذلك خيال حاد . ولم يتح لها هذا الخيال ان تسكب الحياة في الاشياء نفسها فحسب ، بأن اعطتها قيمة ارفع من قيمة الرموز ، بل قادها الى اعتماد التأليف والجمع كي تخلق من معطيات الواقع كائنات جديدة لم يدخل في خلق احد انها دون هذه المعطيات واقعية . ولم يلعب التجريد في كل هذا الا دوراً ثانوياً ، اذ كان يكفي ، لبلوغ الهدف ، بذل مجهود في تأويل الواقع المنظور والاستمرار في الاستفادة من معطياته بحيث يدخل ، في نطاق الاختبار العادي ، اغرب ما يتعرض له الانسان وبيئته المباشرة من احداث وظواهر .

وفي سبيل عملية الخلق هذه ، وفق المصري بين صور مختلفة متنافرة ، لانه كان يؤمن بالحياة في الصور . وما ان الصورة منقولة عن حقيقة في الحاضر او في الماضي ، فهي تضاعف وجود هذه الحقيقة ، أو تعيد الوجود اليها كل مرة يعاد رسمها ، او طالما هي في حيز الوجود .

وهي في البدء ترسم دون قصد ، ثم تتجسم وتعطي الحياة لنفسها . ولذلك فالخلاق الضرر بالصورة انما هو الخالق الضرر بمن لا وجود له بدونها . وكانت هنالك طريقة اخرى للخلق ، في التسمية لفظاً او كتابية : فمقابلة إسمي إلهين مثلاً كانت بمثابة جمعها في واحد وكان من شأنها ان تقضي الى النتيجة نفسها التي تقضي اليها صورة من ينتمي الى جليسين مختلفين . وتتصل هذه الطريقة بفكرة الكلمة الخالق التي اعتمدها اللاهوتيون في تفسير تكوين العالم تلبية لنداء الاله الخالق . كما تتصل ايضاً بفكرة السلطة التي تمنحها ، على الاشياء والكائنات الحية ، معرفة اسمائها الحقيقية ، وهي التي كثيراً ما لجأ السحرة اليها . ولكن هذه الطريقة ، على الاجمال ، لم تؤد الخدمات التي أدتها الصورة ؛ منبت الفن المصري الوحيد ، او الاول على الاقل .

وبفضل الواقع من جهة ، والخيال من جهة اخرى ، توفر للفكرة الدينية امكانيات خيار تكاد لا تحصى . ولكن يبدو ان نزعة تفاؤلية ، تلفت النظر بيجديتها ، قد وجهت هذا الخيار . لا شك في ان المصري كان محاطاً بقوى كثيرة تبدو له وكأنها تناصبه العداء ، او تهدده تهديداً فقط . وهو قد رآها بام العين وحاول تهديتها . ولكنه ، على ما يظهر ، لم يرض قط بأن ينظر الى وجهها الخيف ، فحصر في نطاق ضيق ، على نقيض الحضارات الاخرى ، الهول والذعر اللذين اثارتهما فيه . فتمثل آلهته آلهة خير ، وغضبهم غضباً سريع الزوال . ولم يستطع أبالسته قط من توفير نصرة الشر . ولم يحدث في أي بلد آخر ، ان ادرك الانسان معنى الموت بهذا الجلاء وهذه الطمانينة ، ناظراً اليه نظره الى باب الحياة الثانية الابدية . وهكذا فان الديانة المصرية قد سبقت الكثيرات غيرها في املاء عرفان الجميل على اتباعها وفي حمل الامل اليهم . ومن حيث هي علة ومعلول في آن واحد ، فانها قد اندمجت بكثير من التآلف في مجموع حضارة لا سبيل لادراكها اذا نحن اغفلنا ، ولو دقيقة واحدة ، ما ينطوي عليه الشعب في الفطرة من صبر جميل وانس لطيف ، والحضارة كما نعلم تعبير جماعي عن هذا الشعب .

لما كانت اعراق الديانة المصرية ترتقي الى ماضٍ سحيق ، فانها قد حُدود تشبيه الآلهة بالانسان احتفظت على مر الايام بالظواهر البدائية ، وبرزها بلاءريب عبادة الحيوانات .

ونحن نجد ، قبل بدء الازمنة التاريخية وتوحيد البلاد ، « شارات » المناطق المصرية المميزة مرسومة على المراكب والابنية التي تزين الخزفيات . وهي عبارة عن صور حيوانات او نباتات او أدوات مثبتة في اعلى الاعمدة الخشبية . وباستطاعتنا ان نتصور بسهولة تأليه حيوان نافع او مرهوب ونبات خيّر كالبطم او النخيل . ولكن كيف نتصور تأليه المترس والحافوف والنبال وما الى ذلك ؟ ولنفرض انها رموز واصنام ، او ان لها أي تفسير آخر ، فيما لا ريب فيه ان هذه « الشارات » مدلولاً دينياً .

ظهر التشبيه او التجسيد ، قبل عهود السلالات الفرعونية . ولكنه لم يفلح قط في ان يفرض

نفسه كلياً ، ففي أوج الحضارة المصرية نفسه ، استلزمت صورة الاله ، على العموم ، تفصيلاً أو صفة على الأقل يعيدان الى الذهن الرسوم البدائية غير البشرية ، شريطة ان يكون اصل هذا الاله راسخاً في القدم ، وان يكون متصلاً بالآلهة المحليين ، والشذوذ عن قاعدة استمرار الماضي هذه نادر جداً ، ولكن اكثر الرسوم انتشاراً هي تلك التي عريت من كل عنصر بشري او تلك التي تمثل النغولات .

وفيايلي مثل واضح يبين ، اكثر من اي تحديد ، تنوع الحلول المعتمدة وسرعة الانتقال من حل الى آخر . بين الرموز البدائية قحف الثور الذي انتشر منفرداً في البدء . ثم أضيف اليه الزهر فقام هو مقام الهيكل المعدني للرهر . ثم اصبحت البقرة إلهة المنطقة التي انتشر فيها . وبين الآلهة التي تمثل بهذا الحيوان ، لاقت حانور اوسع ترحيب حتى خارج إطار هذه المنطقة . فنتج عن ذلك ان حانور تمثل دائماً بشكل امرأة لها اذنا البقرة ، او يعلو رأسها زوج قرون حيناً ، وقحف الثور والمزهر احياناً .

وقلتها صادفت عبادة النباتات والجمادات انتشاراً وحيوية ، لأن الحركة اعوزتها والحركة دليل الحياة الاول . وعلى نقيض ذلك استمرت عبادة الحيوانات زمناً طويلاً حتى ولو انصفت بالبروز آناً والانكماش آناً آخر . وفي عهود الانحطاط نفسها ، لم تقل الى الهبوط ، بل بعثت حيويتها بكل قوة . ولا تفسير آخر للكانة التي يحلها هيرودوتس فيها ، بعد رحلة الى مصر في أواسط القرن الخامس قبل الميلاد ، والتي تؤيدها جميع الكتابات القديمة اللاحقة . وكثيراً ما يشير الكتبة الاغريق واللاتين ، بدهشة وشمساز ، الى الاكرام يحاط به هذا او ذاك من الحيوانات ، وعقوبة الموت او الجزاء النقدي تفرض على من يخالف القانون ويستحل قتله ، والاحترام يؤدي الى مثل الفصيلة الحيوانية المعنى به في احد المعابد والى جميع حيوانات هذه الفصيلة بعد الموت . وليس من النادر ايضاً ان يلقوا النظر الى ان حيواناً قد يكون مقدساً هنا وعدواً هناك . فالتمساح مثلاً يكرم في منطقتي طيبة وبحيرة مبريس ويطارد ويقتل ويستهلك في منطقة الفيلة . ومن الجلي ان هذه المتناقضات الظاهرة تلاقى تفسيرها في ما تتميز به محلياً هذه الحيوانات الالهية .

وقد أيد علم الآثار شهادات المعاصرين هذه . فقد اسفرت اعمال التنقيب عن مقابر كثيرة دفنت فيها وفاقاً للطقوس ، جثث مخنطة كثيرة لحيوانات معينة : الهررة والكلاب والجراري والصقور والاسماك .. المنتمة لهذه الفصيلة او لتلك الفصيلة الاخرى . ويبدو ان هذه الاعراف لم تنتشر الا في عهد متأخر . غير ان عبادة الثور أبين في منف تعود الى السلالة الاولى على اقل تحديد . وقد تم العثور على مدافن ثيران هذه الفصيلة المائدة الى ما بين القرنين الرابع عشر والاول قبل الميلاد . ففي معبد سيرابيس الذي اكتشفه مارييت ، عثر على اربعة وعشرين مدفناً توزع في الزمن منذ رمسيس الثاني حتى العهد اليوناني . كان هذا الثور الأبلق يُنصب وفاقاً لطقوس احتفالية ، ويعيش في معبده ، بازاء « قفاح » الاله العظيم الذي هو « بشيره »

« صورته الحية » ، ويجيب ، باسم الاله ، على اسئلة المتعبدين ويتقبل التقدّم ويشترك في التطوافات ، وعند موته ، يحفظ ، ويوضع في ناووس ويخضع لطقوس جنازية تستمر سبعين يوماً ثم يودع سرباً صغيراً بازاء اسلافه . وبالرغم من ان عبادة ايبس كانت اشهر العبادات طراً ، فانها لم تكن الوحيدة من نوعها . فعبادة الكيش في منديس من اعمال الدلتا ليست دونها رسوخاً في القدم . ويتكلم قدماء الكتبة ايضاً عن ثيران منيفيس وبوخيس ، وقد ايدهم علم الآثار في ذلك .

يتضح اذن ان التشبيه او التجسيد قد اصطدم بمقبات لم يقوَ على التغلب عليها وازالتها من دربه . غير ان المصريين قد درجوا باستمرار على ان ينسبوا للآله ما يتميز به الانسان من شهوة للأكل وعاطفة وذكاء وافكار ويكيفونهم على صورتهم اديباً وروحياً ان لم يكن مادياً ايضاً . وباكرأ جداً ، جمعوا سوادهم الاعظم أسراً على النحو البشري لا سيما المثلث الذي قوامه اب وام وابن .

وليس هذه المثلثات من المعطيات البدائية . فالواقع الديني الآلهة المهيمنون : تعددهم وجمعهم المصري السحيق يمثل بمده لا يحصى من الآلهة المحليين الذين ينظر اليهم كأسياذ منطقة معينة . ولم تقتصر سيادتهم على امكنة معابدهم فحسب ، وهذا يصح لجميع الآلهة على السواء ، بل امتدت ايضاً ، اما منذ عهد تطاول في القدم ، واما بنسبة حقهم في التملك الى مصدر غير الهبة الملكية ، على الارض المجاورة للمعابد ، وعلى كل ما عليها من بشر وحيوانات واشياء . وتركت هذه التجزئة الاولى آثارها بالرغم من ضيق البقعة وانعزالها . وقد تقام عدة معابد للاله الواحد في رقعة محصورة الاتساع . ولكن ، في الواقع ، اطلق على كل معبد اسم خاص ، كما اتسح ايضاً ، لشخصية اله كل معبد ، ان تبرز ، من وراء هذه السمية السطحية ، بواسطة لقب او تسمية او زاوية معينة او صفة لا يصح نسبتها الاله . وكانت باستطاعة المؤمنين ، والحالة هذه ، ان ينوعوا تقوأم وفاقاً لتفضيلاتهم الشخصية او للعادة السائدة . وهم لم يبخلوا على انفسهم بذلك .

وقد توصل المصريون بعد لأي الى تخفيض عدد الآلهة المحليين بطرائق مختلفة . فلجأوا الى المماثلة ، انطلاقاً من اوجه تشابه عرضية في غالب الاحيان . فالبقرة مثلاً لم تكن في الاصل ولم تبقى قط الحيوان الرامز لحاتور دون غيرها ؛ ولكن حينما وجد اله ترمز اليه البقرة ، سهل على حاتور ان تحل محله . ولجأوا الى التركيب والضم ايضاً فجمعوا المميزات والصفات والرموز المتقاربة او الواحدة . وقد اصبحت هذه الطريقة واسعة الانتشار واعتمدت لكل الآلهة على السواء . ولجأوا اخيراً الى توزيعهم مثلثات قد تختلف المناطق على تصنيفها او على تعيين الاله الرئيسي فيها . وهكذا يرجح ان حاتور قد اشتركت احياناً في بعض المثلثات كأهم هوروس ، ويقودنا الى هذا الاعتقاد اسمها نفسه الذي يعني « منسكن هوروس » . ولكنها اعتبرت زوجة

له على الاجمال ، متوارية امامه ، في ادقو ، جنوبي طيبة ، في المقاطعة الثانية من مصر العليا ، ومتقدمة عليه ، في دندره ، شمالي طيبة في المقاطعة السادسة .

وليس من شك في ان هذه المحاولات تمكس الصراع على النفوذ والمنافسة في السياسة بين جماعات بشرية تنصر كل منها بقوة السلاح لالهها الخاص . قد سعى بعض علماء الآثار المصرية الى استعادة وجوه ماضي مصر السحيق بالمقارنة بين تقدم بعض العبادات المحلية وتقهرها ، ونجاح اتباعها وفشلهم . ولكن التوصل الى نتائج موضوعية ، انطلاقاً من هذه الطريقة ، يستوجب ، قبل كل شيء آخر ، ان يوضع تاريخ هذه العبادات المحلية على أساس وديد . وهذه الطريقة ، من حيث المبدأ ، لا غبار عليها . فالمتصرون يأتون بالهم الرئيسي ويدخلونه المنطقة المغلوبة على نفسها ، وان لم يحلوه المقام الاول : فتحق آخر تاريخ مصر القديمة ، أتيح دائماً للعبادة التي ترعاها السلطة السياسية القائمة ان تنتشر ويتسع نفوذها .

الى هؤلاء الآلهة الخصوصيين الذين يضيع سر وجودهم في ظروف محلية ، الآلهة الكونيون والذين هيئت عبادتهم حتى الزوال احياناً ، او تقدمت بفضل ظروف بشرية مؤقتة ، انضم آلهة آخرون كثيرون ، في توارينغ لا نعرف الا القليل منها ، فأرجعت مصائرهم بين صعود وهبوط ، لاسباب مختلفة ، كثيراً ما يكتنفها الغموض ايضاً .

انبتى بعض هؤلاء الآلهة من تأليه عناصر او قوى كونية كالشمس والفلك والارض . وليس من غرابة في طريقة الوصول الى ذلك . شعر الانسان ، في كل مكان ، بضعفه وعجزه ، امام هذه المعطيات الكونية ، فشده ميل طبيعي فيه الى تأليها . وقد تتميز مصر القديمة بانها لم تنصب إلا العدد القليل منها . فكان الاهمال نصيب الكواكب باستثناء الشمس ، وما كان القمر نفسه ليحتل مكانة ما لولا ارتباطه بالاله المحلي طوخ ، الاله الجارى المعد لدور إله الكتابة والحساب والنشاطات العقلية . وتتميز ايضاً بانها انتهت الى عدة آلهة لكل من العناصر التي صادف تأليها نجاحاً كبيراً . ومرد هذا التعدد ، الثابت بالاسماء المختلفة والمفوض الى ايمان آلهة معنيين في التنافس احياناً ، بالرغم مما في طبيعتها من عمق الوحدة ، التشديد هنا او هناك على ظواهر او بؤادر متباينة . وقد يكون مرد ذلك ايضاً ان جماعات بشرية مختلفة قد شقت او سلكت طرقاً مختلفة . ومها يكن من الأمر ، فان صفة الشمول ، في اصل هؤلاء الآلهة ، بالرغم مما قد اصبحت به من اذى ، اتاحت اكثر من فرصة لاولئك الذين حاولوا جاهدين ان يوطدوا وحدة مصر عن طريق العبادة . وقد استخدمت الشمس قبل غيرها ، بهذا او ذاك من الاسماء ، في سبيل بلوغ هذا الهدف . وكان من الطبيعي ، في بلاد اشعت فيها الشمس قوتها اشعاعاً ، ان تتبعه الافكار اليها ، قبل غيرها من القوى الكونية ، لتحلها في القمة من المراتب الالهية او لتجعل منها ، احياناً ، محوراً لمحاولة توحيدية .

ومن ناقل القول ان فصل الآلهة المحليين عن الآلهة الكونيين غالباً ما يبدو نظرياً . فهو انما

يستند الى اصل هؤلاء الآلهة ؛ ولكن هذا القياس يكتنفه بعض الغموض احياناً . فليس للآلهة الكونيين ، عادةً ، معابد وعبادات يومية خاصة بهم . غير ان هذه القاعدة لم تكن مطلقة . وكان من جهة اخرى ، للمائلة والتركيب ، اثرهما بين عدد من هؤلاء والآلهة المحليين ، وذلك باستخدام بعض اوجه الشبه الخارجية التي من شأنها اخفاء تباين الآراء في اصولهم .

لذلك تداخلت ، في كل هذا ، عوامل تطفئ عليها الناحية البشرية . ولا عجب ، فقد جمعت بين هاتين الفئتين من الآلهة صفة مشتركة ، وهي انهم بجمعهم كانوا موضوع عبادة رسمية نظمها الدولة ، تحت رعاية الفرعون الذي حرص كل الحرص ، وهو اله ايضا ، على ان يؤدي الاكرام لاجاله . ولكن هذه الرعاية نفسها جعلتهم عرضة للتأثر بعواقب التقلبات السياسية .

الآلهة الشميون
كم نود الوقوف على مكانة كل من هؤلاء الآلهة بين عامة الشعب . ولكن اشباع هذه الرغبة من المستحيلات في اغلب الاحيان ، لان شواهد التعبد التي بلغتنا مصدرها الاول ملوك وكهنة وموظفون . فباستطاعة العظماء والاغنياء ، دون غيرهم ، اظهار تقواهم بتقادم وانصاب وابنية تنقش عليها كتابات قينة بان تسخر من عوادي الزمن . وتعتبر النصوص الشعرية والادبية نفسها ، المحفوظة على اوراق البردي ، عن افكار اللاهوتيين والمثقفين الذين يأتفون ، بفعل انتباههم الى اوساط اجتماعية رفيعة ، من التوجه الى عامة الشعب كما يأتفون ، على كل حال ، عن التكلّم باسم هذه العامة . غير انه لا يستلّج من ذلك ان هذا الورع لم يرافقه الصدق دائماً . ولكن هل يصحّ ان نستقرئ من خلاله ورع الشعب ؟

بالحقيقة اذا نحن استندنا الى وثائق اقل شأنًا يغلب عليها الاغفال ، كبعض التائم والتعاويذ الصغيرة المصنوعة من مواد عادية ، وجدنا ان عبادة الشعب تميل ، بالفضل ، وباندفاع مماثل ، الى آلهة آخرين يطلق عليهم لقب « ثانويين » للفصل بينهم وبين الآلهة « الرئيسيين » ؛ ويغلب ان هؤلاء مدينون بلقبهم هذا الى صفتهم الرسمية . اما الآلهة الثانويون فلم تأبه الاوساط الحاكمة لان توفرهم مقومات العبادة ولم تكن على البعض منهم إلا بالقليل القليل كتليح اليهم في نشيد او غيره من النصوص الدينية ، او زاوية لتمثال في هيكل ، او قسم من معبد احياناً .

من العسير وضع لائحة كاملة بهؤلاء الآلهة الشميون . لذلك نكتفي باعطاء فكرة عن تنوعهم . لنضرب صفحاً عن الآلهة الغريبة ، ومعظمهم من اصل اسوي . ولكن نفور المصريين الدائم من الاعراف المستوردة يجعلنا على الاعتقاد بأن عبادة هؤلاء الآلهة كانوا في اغلب الاحيان ، شأن عبادة الآلهة اليونانيين في عهد السيطرة المكدونية ، اجانب استوطنوا البلاد ، كالهكسوس الغزاة والعبيد الارقاء . واذا وجد من عبدهم من اهالي البلاد ، فلا بد انهم من الجنود والموظفين الذين أقاموا في قينقيا وسوريا . ولا مكان هنا لأن نفكر بالتجار قبل التأكد من ان التجارة الخارجية أفسحت المجال للمحاولات الفردية . وبما لا ريب فيه على كل حال ، ان مصر قد اعطت الاجنبي ، على الصعيد الديني ، فوق ما تلقت منه .

ثم كان هنالك آلهة مرتبطون بالحياة الزراعية ، كالاله الفيل ، والاله الحية ، والكثير غيرهم من القوى الواقية في ظرفي الحمل والولادة على الارض . واشهر هؤلاء « بيس » حامى المنزل وهو قديم قبيح مضحك ، مقتنع بقناع اصفر ، مشهور بترويض الاسود ، يحاط بالقرود الاليفة ، تتمتع بصفات آلهة كثيرين . وكان هنالك حيوانات من كل نوع ، تلك التي سبق الكلام عنها ، وغيرها ايضا ، تخص بالذكر منها الجمل الذي انتشرت تماثيله التمويزية انتشاراً واسعاً جداً . وكان هنالك اخيراً بشر مؤهلون لم يبلغوا ، من حيث العدد ، نسبة كبيرة في مثل هذا التاريخ الطويل . ولا شك في ان كل ملك وكل انسان احيط دفنه بجناز طقسية اصبح لها عند الموت ، ولكن لذريته فقط ، وما كان يتيسر ، الا للتأليه الخاص ، الذي يتوقف انتشاره على عوارض سرية تحمل الجماهير على الذكرى والتحويل ، ان يوسع آفاق هذا التأليه العام . وقد استفاد من ذلك بعض الملوك ولا سيما « منحوتب » وزير الملك جيسر (الاسرة الثالثة) ومهندبه وطبيه ، و « امنحوتب » ابن « هابو » ، مهندس امنوفيس الثالث (الاسرة الثامنة عشرة) . فاصبح كلاهما الها شافياً . وقد شهدت كتابات عديدة على آمال وشكر الحجاج الذين توافدوا حتى في العهد الروماني القريب ، يطلبون منها الشفاء في معبدها المشترك داخل هيكل الملكة حتشبوت في دبر البحري بالقرب من طيبة . وقد اقيمت لها في مصر عدة معابد اخرى .

لم تنتشر هذه المعبادات الشعبية الا في عهد متأخر ، ولكن حرارة تقوى الجماهير اوزريس قد اسهمت باكرأ في انتشار عبادة اله على الاقل هو اوزريس . وكل شيء يفرض علينا هنا ان نفرد له مكاناً خاصاً : طبيعته الخاصة بين الآلهة المصريين ، والعون الذي صادفه في ورع الازساط الشعبية وأسهم بمن قريب او بعيد في استالة الشخصيات الرسمية اليه ، وانتشار عبادته الصاعد ، الذي جعله يلعب دوراً اساسياً في ديانة مصر الفرعونية وحضارتها .

الاسطورة الوحيدة ، بين الاساطير المصرية ، التي صادفت شهرة واسعة ، هي اسطورة اوزريس الذي قتله اخوه شيت ، وقطعه اربا اربا ، وبكته زوجته واخته ايزيس ، وبحث عنه ، وعثرت عليه ، وثأر له ابنه هوروس من القتاتل . ولعل مرد هذه الشهرة ذبوع عبادة اوزريس ، الذي استحال الى سيرابيس ، خارج مصر في العهد اليوناني الروماني ، ولا سيما ذبوع عبادة ايزيس في كل مكان تقريباً من الامبراطورية الرومانية . فاثارت هذه الاسطورة اهتمام الكتاب الاغريق واللاتين ، ولا سيما « بلوتارك » الذي وضع فيها كتاباً صغيراً في اواخر القرن الاول لليلاد استقى منه ، باستمرار ، التقليد اللاتيني واليوناني . غير ان نصوصاً مصرية كثيرة تختلف ، في روايتها للاسطورة ، اختلافًا بينا ، وحول نقاط هامة ، عن رواية « بلوتارك » . ومهما يكن من الامر ، فان الفكرة التي تكونت عن اوزريس في مصر قد تباينت وفاقاً للزمان وفاقاً للمكان احياناً وحاولت ، على كل حال ، الجمع بين عناصر مختلفة .

لذلك نراها امام معاضل كثيرة لا تزال موضوع اخذ ورد ، لعل ادقها اصل هذا الاله . فقد

جاء في مؤلف بلوتارك ان جثة اوزيريس قد بلغت جبيل في فينيقيا حيث لم يصعب على ايزيس ان تعثر عليها وتستعيدھا . فأخذ بعض المفسرين من ذلك حجة للتأكيد بان آسيا هي مصدر عبادة اوزيريس ، بينما رأى غيرهم ان اغفال ذكر فينيقيا في الروايات المصرية يكفي للدلالة على ان هذا المصدر هو مصر نفسها . واذا ما افترضنا جدلا ان الخارج هو المصدر ، يبقى ان مصر قد ميزت « اوزيريسا » الى حد بعيد . وهذا يبرز بقوة لدى درس صفاته الرئيسية ، لذلك سنقوم بهذا الدرس دون توقف عند هذا الجدل وغيره .

كان اوزيريس ، وهو ابن الارض الإلهة والسما الإلهة يموت ويبعث حياً ، كما كان اله زراعة النبات بوجه عام وزراعة القمح بوجه خاص . والقمح يخضع لدورة دائمة ترمز اليها اهم مراحل الاسطورة وتمرنا اياه على التوالي مخضوضراً ونامياً وناضجاً وهاوياً تحت المنجل ومتقطعاً تحت النورج ومطموراً في الارض على رجاء البعث .

لذلك سهل اشراكه في قوة مصر الهيبة الكبرى ومماثلته لها . وليست هذه القوة سوى « الماء الصافي » و « ماء التجدد » ، اي الفيضان الذي يخضع لدورة دائمة ، ايضاً فيندفع صعوداً حتى القمة ثم يهبط نزولاً ثم يتوارى على امل الظهور ثانياً بقوة مستعادة . وقد قيل لاوزيريس : « النيل منبمه نضح يديك » لان إلقاءه في مياه النهر قد سكب فيها صفاته الخيرة . وقيل له ايضاً : « انت النيل ، الآلهة والبشر يحبون من جريانك » . وقد حظي العرقى ، في عهد الالهة ، باكرامات إلهية خاصة بحيث دعي الغريق « السيد » او « المحمود » .

كان من شأن هاتين الميزتين وحدهما ان تجعلا اوزيريس إله مصر كلها . ولكن الاسطورة جعلت منه ، بالاضافة الى ذلك ، ملك مصر الموحدة . فهل استندت في ذلك الى ذكريات تاريخية ؟ نحن نرجح ذلك ، لان مقتل اوزيريس ، على يد شيت ، يتجاوب الى حد بعيد والضراعات الكثيرة في سبيل السيطرة على جميع البلاد ، التي وصلتنا بعض اخبارها . واذا صح ان بوزيريس في الدلتا كانت عاصمة ملكه ، كما يعتقد ، فقد يكون اوزيريس اقدم انسان ألهته الديانة الشعبية . وعلى كل حال ، قد ربطته بالملكية صلة وثيقة مستمرة . فاذا جسد الفرعون هوروس ابن اوزيريس ، لا اوزيريس نفسه ، فان الدعامة « جد » *ged* ، احد رموز هذا الاخير ، لعبت دوراً هاماً في الاحتفالات الملكية ، وان اوزيريس يحمل دائماً ، في الرسوم التي بلغتنا ، التاج والصولجان وهما من الخاصيات الملكية .

وقد افضى الخوول دون مماثلته بالملك الحي الى احلال مكانته سدة المنتهى والى انضمام الجماهير الفقيرة الفقيرة الى صفوف عباده . فملكته مملكة الاموات قبل كل شيء آخر . وقد اجريت على جثته ، لأول مرة ، المراسم التي تؤمن البعث والحياة الابدية . فاذا ما اجريت على غيره من الاموات ، امنت لهم هذه الامتيازات العظمى نفسها . وقد تاق كل البشر لان يعاملوا بمثل ما عومل به اوزيريس ، حتى يصبحوا مماثلين له على غير طمع منهم في منازعته المقام الاول .

فهم رعايا ملك الاحوات يخضعون لدينوته بعد اقتنائهم به ، ويجوبون بمعيتة ميساه العالم الثاني وحقوقه . وكانت عبادة مثل هذا الاله املا بالبعث لجميعهم . « فإله الزرع » و « إله الفيضان » و « إله الحياة الجديدة » اسماء مختلفة لاله واحد . ويدل على ذلك ، كل سنة ، استفاقة المزروعات وتجدد الفيضان .

ان خاصيات اورزيس الثانوية ، الى جانب ذلك ، كثيرة جداً ايضاً . فقد اشار المفسرون ، على غير اتفاق حول اهمية ما اشاروا اليه ، انه غالباً ما يبدو وكأنه اله الارض الخصبة ، او اله السماء المتنجمة او اله القمر . وما هذه التأويلات المتعددة ، التي تدعها كلها حجج قوية ، الا الدليل على ما احرزته من نجاح وعلى ما فيه من قوة جاذبة عجيبة . ولا غرابة في الامر . فمسطورته المأساة نفذت الى قلب كل من زوجته وولده ، وحركت فيها المشاعر العائلية المؤثرة ، تلك المشاعر نفسها التي يتوق كل مصري لان يحاط بها . وعبادته طردت شبح الرعب من الموت . فكيف والحالة هذه لا تندفع الجماهير نحوه اندفاعاً تلقائياً أتاح له « سوغ » آلهة كثيرين ، او ربطهم به ، بعد ان كانوا مستقلين عنه ، فقدوا انبساطاً او معاونين . وهكذا قامت « اسرة اورزيس » التي لم يكن هوروس وايزيس سوى عضويها الرئيسين . ولم يرقم الكهنة بأي جهد لاحتلاله في المقام الاول ، بل حاول بعضهم ، على تقيض ذلك ، في عهد الامبراطورية القديمة ، ان يحاربوه مبادورة عن طريق بعض الالهات من اسرته ، ولم يدخلوه الا على مضض في هامش مذاهبهم اللاهوتية . وقد استفادت الملكية كثيراً من نفوذه على غير رغبة منها في توسع هذا النفوذ ، وهو على كل حال اوسع من ان يعوزه التأييد الرسمي .

دعنا الحاجة اكثر من مرة للاشارة الى المحاولات المتكررة في سبيل تنظيم المذاهب اللاهوتية الالهة المصريين الكثيرين تنظيماً متجانساً ، وهي محاولات متعددة ومتباينة . فكان لكل اله ، في نظر عبده ، من القوة ما يسمح برفعه الى المرتبة الاولى . وليس هناك من عقيدة سابقة مفروضة ، كما ليس ما يحول دون الخوض في اكثر البحوث النظرية تطرفاً وجرأة . وقد وردت بعض هذه البحوث في نصوص كاملة حيناً ، ومجتزأة احياناً ، يستلزم تفسيرها منتهى الدقة . وكمنها ما لم يعد يقرأى امامنا فاصبحنا لا نقدّر وجودها تقديراً .

غير ان هذه المحاولات ، في الواقع ، لم تكن في متناول الجميع . فهي تفرض ثقافة دينية عالية ، ومقدرة نادرة على التجريد ، وبراعة في استخدام المجازات والرموز ، كما تفرض ايضاً دعما بشري قوية تتيح لها الانتشار الواسع ، ويجب ان تشمل كلها نظرية في الخلق وتنظيم العالم : فهي في الوقت نفسه علوم في تكوين العالم وعلوم في نواحيه . وعلى كل منها ، في الدرجة الثانية على الاقل ، ايجاد حل لمشكلة الموت المفضة . لذلك وجدت معظم النصوص العائدة لهذه المحاولات في المداخن والقبور ، « كنصوص الاهرام » ، و « نصوص النواويس » مثلاً . وكان على كل منها اخيراً ان تنتهي الى مذهب الهى يقول بتفوق اله معين . وكان بنسأ هذا المذهب الهدف المقصود للقائين بهذه المحاولات . وبغلب ان هؤلاء من الكهنة حاملي الشهادات

الذين انطلقوا من رغبتهم في تبيان تقوى المذهب ، على نحو قناعتهم به . ولم يقيم امنوفيس الرابع نفسه بعمل هواة في ما عمله في هذا الحقل مع بعض المساعدين . وكانت الصعوبة تكمن في اقناع الآخرين باعتماد المذهب . فحدث احياناً ان السلطة السياسية نفسها ، بالرغم مما لديها من وسائل نافذة ، قد اخفقت في هذا الاقتناع .

لا يسعنا هنا ان نفصل بعض هذه التعاليم اللاهوتية بسبب الاهمية
مذاهب هليوبوليس ومنف :
التي اسبغتها على بعض الآلهة . ولكن يتعذر علينا ان نخصص لها
دراسة ولو موجزة ، لاسيما وان العبادات هي التي اثرت ، اكثر
من العقائد النظرية ، في حياة البلاد الدينية . لذلك فانتنا سنحاول هنا ، قبل كل شيء آخر ،
تبيان النتائج العملية التي اسفرت عنها هذه العقائد .

هل المذهب الذي انتشر في هليوبوليس ، بالقرب من منف شمالاً ، اقدم من غيره من
المذاهب ؟ لا يسمح تضارب آراء الاختصاصيين باثبات ذلك ، بالرغم من انتشاره الباكر . وقد
كان له اهمق اثر باختياره الشمس الها رئيسياً . فما الشمس ، حين يعتبرها خالقة كل شيء حتى
ذاتها - لانها خرجت بجل ازادتها من المياه - سوى « اقوم » . ولكنه كان يلبسها شخصية
ثانية فيسميها « رع » اي الشمس بالمعنى الحضري ، وبهذا الاسم تمت سيطرتها على مصر كلها .
ويبدو انها احرزت نجاحاتها الحاسمة في عهد السلالتين الرابعة والخامسة على الاخص ، اذ ان
الملكية ، بعد ان كانت مرتبطة بهوروس وحده ، ارتبطت حينذاك بالشمس ايضاً وازيف
لقب « ابن رع » الى لائحة ألقاب الفرعون الرسمية . وقد تسرب اللاهوت الشمسي الى مذاهب
دينية اخرى عديدة فاضيف اسم « رع » ، بما يشبه الشمول ، الى اسماء الآلهة التقليدية . وليس
ما يمتنا ، على كل حال ، عن الاعتقاد بان كهنة كثيرين تولوا عملية هذا الاشراف حتى ينال اله
كل منهم قسطه من عظمة الشمس الشاملة .

ولعل الاله الوحيد ، باستثناء اوزيريس طبعاً ، الذي استطاع ، بين الآلهة العظماء ، ان
يحافظ على استقلاله ، هو « فتاح » اله منف . وقد سبق ورأينا ان ملوك السلالة الثالثة جعلوا
من هذه المدينة ، القائمة بين شطري مصر ، المركز السياسي للبلاد . فكان هذا الخيار خدمة
جلي « لفتاح » الذي تبوأ المقام الاول بفضل مذهب وضعه لاهوتيو منف . فقد وصفه هذا
المذهب « بالخالق الاكبر » ، الذي ينحدر منه روحياً آلهة اخرون بما فيهم « اقوم » ، ليسوا
سوى « اسنانه وشفتي » . فهم وسطاء الكلمة الخالق يعبرون عن ارادته العاقلة وينفذونها .
وقد احتفظ « فتاح » ومعبد به مركز مرموق ، حتى عندما انصب عطف الملوك على
آلهة آخرين .

قد يمكننا هنا ان نهمل المذهب الذي ساد مصر الوسطى ، في اهم المدن
امون وامون رع التي اطلقي الاغريق عليها اسم هرموبوليس ، بالرغم من رسوخه في القدم

رسوخ العقيدة السائدة في هليوبوليس ، وبالرغم من اهميته لتاريخ النظريات حول تكوين العالم . وغني عن البيان ان الاله الذي توخى هذا المذهب ورفع شأنه هو الاله المحلي « طوخ » ، ولطوخ مكانة مرموقة خاصة حتى لو جردناه من كل صلة بسواه . ويبدو ان آلهة كثيرين جداً قد انصهروا فيه : آلهة افاع ، وآلهة ضفادع ، والاله قرد ، والاله حبارى ، والاله قمر . وقد نسب اليه القيام بالوساطات والايحاء الى البشر بجميع النشاطات الفكرية من كتابة وحساب وعلوم وسحر ، فكان بالتالي الاله الكاتب والاله المثقف ، وغداً مساعد اوزيريس الاول ورئيس الدوائر القضائية والادارية في مملكة الأموات . وهذا يعني اناطته باوزيريس بحيث انه لم يكن أولاً الا في نطاق معابده الخاصة .

ولكن هنالك الها انفصل عن الآلهة الذين احاطهم لاهوتيو هرموبوليس « بطوخ » ، هو « امون » ، ومعناه الاشتقاقي « السري » و « الخفي » . فبا دعاءه الى هذا الخروج وما هي المراحل التي مرت بها عبادته قبل ان تستقر في طيبة ، في مصر العليا ؟ نحن لانعلم عن ذلك شيئاً . وجل ما نعلم هو انه كان لا يزال شبه مغمور ، في نطاقه الجديد ، حين توصل احد عبده الملحين ، امنمحت (ومعناه « امون في الطليعة ») ، الى عرش الملك . وقد اسس هذا الفرعون السلالة الثانية عشرة ، فعظم شأن امون بسرعة تكاد تكون من المعجزات ان نحن نظرنا اليها من الناحية الدينية دون غيرها . ولكن يستحيل علينا تفسير هذه السرعة ان نحن لم نفكر بالقوة المطلقة التي تمتعت بها السلطنة الفرعونية حتى على الصعيد الروحي والتي هي ابرز مظهر من مظاهر هذه السلطنة . وكما كنا نود الاقتناع ، بصدد هذا الاله ، بان بواذر العبادة الرسمية عتبرت ، عند كل من اشترك فيها ، عن حقيقة ايمان صميم . ولكن افتقارنا الى وسائل التدقيق يوجب علينا الاكتفاء بالاشارة الى ان الحكام قد تباروا خلال اجيال طويلة في السير على خطى الملكية .

كان أمون ، في الواقع ، الاله العائلي للملوك الذين تعاقبوا على عهد الامبراطوريتين الوسطى والحديثة ، وبعدهما ايضاً ، طوال الالف الثاني تقريباً . فغداً مع الزمن ، ومغالاة في تصويره مادياً ، والدأ للملك الحي . كما ان عقيدة « الزواج الالهي » ، اي اتحاد الفرعون جنسياً بوالدة الفرعون المقبل ، قد بلغت اوج الكمال في عهد الملكة حتشبسوت ، حوالي الف وخمسمائة سنة قبل المسيح ، في الكتابات والنقوش التي تزين جدران معبد دير البحري . وقد دامت هذه العقيدة باستمرار حتى عهد البطالسة . وكان من المفروض ايضاً في الاله ان يسهر شخصياً على طفولة الملك وتمرينته ، وعلى اختياره وتعيينه خلفاً لابيه المزعوم ، والهامه السلوك السوي وسط اعباء حركه ، والاسراع الى نجده في القتال .

لا عجب والحالة هذه في النجاحات التي حققها « أمون » . فما لبث ، في اوائل الامبراطورية الوسطى ، ان اصبح إله منطقة طيبة . ثم اشترك « برع » ليكون معه « أمون رع » الذي استأثر بامتيازات الاله الشمس . وقد لقب « بملك الآلهة » . ثم الحلت به ، بالإضافة الى اشركه

التي اختير اعضاؤها بين آلهة طيبة ، حاشية من آلهة آخرين تبين عددهم حتى بلغ الستة عشر احياناً . ولكن كل ذلك ليس دليلاً على وجود نزعات توحيدية . فالآلهة مصر العديدون يدومون باستمرار ولكنهم يخضعون لآله السلالة الحاكمة كما يخضع بانقيساد للفرعون كل كائن حي في البلاد .

الثورة « الاتونية » وفشلها
أدت هذه النجاحات لفترة طويلة خدمات حمة للملكية . ولكن تطور الامور ، بفعل هذه النجاحات ، لم يحل احياناً من اخطار تهدد هذه الملكية التي اسبغت الثروات والامتيازات السخية على كهنة معبد طيبة . فافضى الأمر هؤلاء الى الامعان في الوساطات السياسية العلنية ، بعد ان كانوا يستجدونها استجداءً . وعندما دعت الحاجة الى اصلاح جذري ، ارتدى هذا الاصلاح ، بشكل غريب ، صفة ثورة لاهوتية . يلزمها اسم الفرعون امنوفيس الرابع .

ولم تقتصر هذه المحاولة على الناحية اللاهوتية فحسب ، بل تداخلت فيها غايات واهداف زمنية أيضاً : الحرص على تحرير الملكية من نير وصاية الكهنوت الاموني الثقيل ، والتصميم الثابت ، بالرغم من الغموض الذي يحف به ومن مساعي بعض المؤرخين ، على ايجاد توافق ديني بين مصر وبين البلدان التي احتلتها في الخارج منذ أوائل عهد السلالة الثامنة عشرة : النوبية وسوريا ، واخيراً المقاومة التي اصطلح بها الملك المجدد والتي بلغت حدّ المؤامرة ، لا بل حد التمرد العلني ، فأخذ تصلّبه يتضاعف شدة . وتطور هذا المذهب الجديد باتجاه نوع من الحصرية ، جديد في تاريخ مصر الديني ، اضيف على المحاولة الشيء الكثير من غرابتها المبتكرة .

ولم يكن الاله « أتون » ، الذي بذلت هذه الجهود في سبيله ، خليفة اوجدها امنوفيس الرابع من العدم ، لا ولا عبادة أتون ايضاً . بل كان « أتون » الهاً شمسياً ، او بالحري مظهرأ من مظاهر الاله الشمس . ولا خير في ذلك إذ انه قد استفاد من الفتوحات السابقة التي احرزها لاهوتيو هليوبوليس والتي كانت قد انتقلت الى امون باسم « امون رع » . ولكن في هذا الانتقال ما يمكن ان يظهره بمظهر عملية اغتصاب . وقد برز فعلاً ، في ايام بعض اسلاف امنوفيس الرابع ، ميل الى التخفيف من وثاق الاتحاد بين امون والشمس ، ان لم يكن الى فصله نهائياً . وفي عهد امنوفيس الثالث ابنه ، ارتسم اتجاه اكثر وضوحاً ، فأصبح « أتون » ، وهو اسم نكرة يعني قرص الشمس ، اسماً لآله انتظمت عبادته ، مع ما تستلزمه من كهنة ومعابد ، قبل ان يشترك اخناتون ، حوالي سنة ١٣٧٠ ، بسلطة أبيه الملكية . وبمكنتنا ان نستشهد بسوابق اخرى كثيرة .

ولكن توضيح هذا التجديد لا يعني قط الانتقاص من اقدام امنوفيس الرابع وجراته . فكل ما حدث قبله لم يخرج عن نطاق الرغبات المترددة التي لم تقتزن باي اجراء جدي محدّد الاهداف . وهو لم يضطلع بالتجديد إلا منذ تفرده بالسلطة مشدداً تارة على تنظيم ما ورثه من معالم شبه

دارسة ابصر هو ما تعرم به من امكانات لتحقيق هدفه ، وجازماً تارة اخرى في رفض كل ما لا يتفق ونظامه الجديد .

وفي عداد ما احدثه الصفة الشخصية التي أحاط بها وحي العقيدة ونشرها في صفوف الرعايا . فحتى ذاك العهد كانت التعاليم اللاهوتية مغلقة لا تترامى فيها شخصية واضعها ، اما هذه المرة ، فكل ما لدينا من مصادر يدل على ان الملك وحده ، دون غيره ، هو واضع التعاليم . والمغالة في ذلك واضحة . فلا يعقل انه لم يستشر احداً او انه حرّر وحده ذلك الاثر الادبي الرائع اعني به النشيد الطويل لاتون . وكان من مستلزمات انتشار عبادة الاله ان يغامر الفرعون بنفسه في هذا السبيل . ولكن هنالك امراً آخر برز لأول مرة ولمدة وجيزة في الحضارة المصرية وانسجم مع الاتجاه الواقعي الملحوظ في الفن : الاندفاع نحو الفردية ، والتصميم على الافلاق عن التضحية بالانسان في سبيل عمله ، وبذل الجهود في سبيل احكام نزع الغلاف المثالي عن الكائن الحقيقي لظهاره على حقيقته العارية صافياً وواحداً ومكوّناً من لحم ودم وعواطف ، حتى لا يطبق عليه هذا الغلاف مرة اخرى .

ان الاضواء الخافتة التي تلقيناها الوثائق المعاصرة على امنوفيس الرابع نفسه ما يثير القلق ويحرك المشاعر . فالملك يعتبر نفسه ابناً لاتون ، بغير مدلول نبوة اسلافه لامون ، مستميضاً عن الزواج الالهي بعملية خلق تتجدد كل يوم كما لو كان « صورة » الاله . ويؤكد ايضاً انه نبي الاله ينزل الوحي عليه دون وسيط : « انت في قلبي ، وليس من يفهمك سواي ، انا ابنك » . والانسان ، اذا ما شاهد مثل هذه الرؤى لا يعلن عن حبه وثقته وشكره فحسب ، بل يندفع ، مستمسكاً بكتيبتّه للانفعالات التي تتركها في نفسه ، وراغباً في ان يخضع كل شيء لهذه الانفعالات عينها . يصمّ على العمل ويعمل بالفعل بنشاط لا يتصوره احد في كائن تدل كل تماثله على هزاله وبحوله . وينسب البعض ذلك الى سيكولوجية كبار الملهمين ؛ ويرده غيرهم الى مرض نفسي . غير ان التعمق في التحليل يتعدى ما لدى المؤرخ من وثائق ومصادر .

ان اللاهوت الاتوني ، اذا ما قورن بالتعاليم اللاهوتية السابقة ، يتميز بطريقته المباشرة الباذخة . فلم تمثل الرسوم اتون انساناً او حيواناً او غلابل شمساً كما يراها البشر كل يوم . فانما هو قرص الشمس تضاف اليه بعض الرموز فقط : الحية الملفتة واياد تتناول ، عند اقصى الاشعة المتجهة نحو الارض ، التقادم الموضوعة على المذابح ، او تعرض ، امام وجه الملك ، الصليب المعقوف التقليدي الذي هو رمز « الحياة » الخير . وهكذا نرى ان الاله يعمل وحده دون آلهة وسطاء . ليس له عائلة او حاشية . كان هو الخالق الوحيد ولا يزال هو وحده يوزع القوة الحيوية اليومية على كل الموجودات التي تتجدد ولادتها ، بفضل ذلك ، مع كل فجر . لذلك فالطبيعة كلها تعترف بحيمه باستخدامها الخير للحرارة المتجددة : البشر ينصرفون الى اعمالهم والحيوانات تسرح في المراعي والطيور تتطلق من اوكارها والبراكين تمخر عباب النهر صعوداً

وانحداراً والاسماك ترقز في المياه ، كل ذلك يشترك في الانسجام العام الذي اراده والذي هو ناسقه الاعظم .

كان من شأن هذا التعلم ان يفضي الى التوحيد . وما من شك في ان الملك قد ادرك ذلك . ولكن شتان بين الادراك والتنفيذ . ففقيدة « ماهات » او « العدالة - الحقيقة » قد روعيت على الدوام لانها تعبير عن دافع ادبي لا يمكن فصله عن السلطة الملكية . وقد جرت ايضا ، في بادىء الامر على الاقل ، محاولة تسوية مع الاله « رع » . ولكن هل هذه التسوية لاهوتية على اعتبار ان العبادة الشمسية ، مهما كانت ، لا يمكن فصلها عن تعاليم هليوبوليس العقائدية ؟ ام هي تسوية سياسية يقصد منها الحصول على تأييد كهنة هليوبوليس ضد كهنة طيبة ؟ لا سبيل امامنا للإجابة على ذلك . وعلى كل حال لم تدم هذه المحاولات زمناً طويلاً . وباستثناء هاتين الحالتين ، رفض تعدد الآلهة بشكل صريح .

لجأ نبي اتون الى صلاحياته الملكية فعمم عبادة الهه وألغى ، في كل مكان ، العبادات التي سبق ان نظمها الدولة ومهدت امامها الطرق خدمة لآلهة لا يريد هو الاعتراف بهم . بيد انه ما كان يستطيع الحؤول دون التعبد الخاص ، لا سيما في ما يعود الى عبادة الاموات حيث ترك هذا التعبد آثاراً ظاهرة . لكن المعابد تعطلت بعد انقطاع مواردها وخفت حركة الاحتفالات بالذبايح والاعياد وتوقفت الدعوات الكهنوتية وتشتت الكهنة . فانتهى ارتباط العبادات بالدولة الى اضعاف الآلهة القدماء بعد ان كان مصدر قوتهم . وبزوال مرتكز العبادة الزماني انتهت العبادة نفسها الى الزوال .

تحولت هذه اللامبالاة ، بما انطوت عليه من عواقب عملية خطيرة ، الى اضطهاد استهدف الاله امون . كان هذا الاله وكهنته يحتلون مراتب أكثر ثباتاً واغراء من ان يتنازلوا عنها بسهولة ، فأثارت مقاومتهم الخطورة في العلن والخفاء تصلياً من جانب الملك . ومنذ السنة الرابعة لاعتلائه العرش ابدل الفرعون اسمه « امنوفيس » (امون راض) « باخناتون » (خادم اتون) فعذا حذوه رجال بلاطه والمقربون اليه بأن ابدلوا اسماءهم الامونية باسماء اخرى تنسب الى آلهة الجديد . وفقدت طيبة مركزها كعاصمة وحلت محلها مدينة « اخناتون » (افق اتون) الجديدة التي انشئت بسرعة مدهشة في مصر الوسطى . ثم عقب الاضطهاد هذه التخلية ففرض الحظر في كل مكان على معابد امون وشئت كهنته ولوحقوا واتلفت صوره وعفي اسمه ، حيثما نقش ، بدق المطارق . وقد تناولت هذه الاعمال البربرية المدافن ورؤوس المسلات نفسها . ولم ينج ما نجا من الصور والرموز الا بفضل الاهمال في التنفيذ هنا او هناك . بيد ان المجازفة باءت بالفشل . فما هي الاسباب يا ترى ؟ لحن لا نرى في الحقيقة سوى اسباب بشرية . وليس باستطاعة التفسير التاريخي ، مرة اخرى ، تقدير نسبة صدقها او نسبة عكسها لمشاعر المؤمنين الحقيقية . فتحن فترأى مثلاً عداء اولئك الذين لحق الاذى بصوالجهم بعد ان كانوا يتمتعون بالعيش في المعابد . ونعلم أيضاً ان الملك ، بانصرافه كلياً الى الامور الدينية ، قد اهل ممتلكات مصر في آسيا إبتان تعرضها للزبد من الاخطار . وما من ريب في ان اخناتون

نفسه اخذ يتراجع شيئاً فشيئاً . وعند وفاته ، بعد ولاية دامت عشرين عاماً ، انهار مشروعه انهياراً سريعاً . اما خلفاؤه الاولون ، وبينهم « توت عنخ اتون » (صورة اتون الحية) الذي اطلق على نفسه ، فيما بعد ، اسم « توت عنخ امون » ، فقد اكتفوا باجراءات تسكينية . غير ان جلوس « حورعيب » على العرش ، بمساعدة كهنة طيبة ، قد كرس نهائياً انتصار العقيدة القديمة على الهرطقة . فاستهدف الاضطهاد اخناتون واله في صورهما وفي كل كتابة ورد فيها اسمها . وصبت اللعنة على عاصمته التي كانت لتعرف الشهرة ، باسم تل العمارنة ، لولا الاكتشافات الاثريّة .

عاد امون فاصبح إله السلالة المالكة واستعاد ووطد سيطرته على مصر وعلى الحكومة . فعرفت عبادته ازدهاراً بعيداً لم تعرفه قبل الثورة وجمع كهنته ثروة طائلة وتمتعوا بسلطة نافذة . ولم يضع حداً لهذا الازدهار وهذه الثروة وهذه السلطة سوى الفوضى ونقل الملكية الى الدلتا والاحتلال الاجنبي في نهاية المطاف .

٢ - عالم ما بعد الموت

الايان بالحياة الثانية من الجلي ان المصري لم يابه كثيراً للتعالم اللاهوتية النظرية ، بل وجه جل اهتمامه الى المصير الذي ينتظر البشر . ولكنه لم يستطع مع ذلك ان يشايح بثبات اي تعليم عقائدي .

منذ ما قبل التاريخ حتى آخر التاريخ القديم ، احيطت جثث الموتى بعناية خاصة فدفنت وفقاً للراسم ووضعت على مقربة منها ، في المدافن ، الادوات البيتية او الصور والتبصوص الرمزية ، وقدمت لها هدايا اعقاب الميت . وقدل هذه العادات والاعراف على استمرار وشمول الايمان بحياة ثانية ، وعلى اثر هذا الايمان العميق في الحضارة المصرية خلال مراحل تاريخها الطويل وتوضح هذه الصلة خاصة في التطاق الفني . فلن نغالي ان نحن رأينا فيها تعبيراً أخسر للتفاؤل الذي اشرنا اليه اكثر من مرة ، كميزة هامة من ميزات السيكولوجية المصرية .

اجل هنالك بعض النصوص الناشئة : نص « حوار بين انسان تمب من الحياة وبين نفسه » الذي بلغنا في كتابة وحيدة على ورق البردي ، وخصوصاً نص « اناشيد ضارب العود » المحفور في بعض مدافن الامبراطوريتين الوسطى والحديثة ، الى جانب صورة ضارب العود . وقد وردت في النص الاخير ، بعد التنويه بان المدافن عرضة للهدم ، مقاطع يقود ما فيها من افكار وتشاؤم الى الاخذ بهذا المبدأ : « عش ليومك ولا تمأ بندق » . « لا احد يعود من هناك ليطلمنا على واقع الموتى ويعرفنا بمحاجاتهم فتهدا فلونسا بانتظار ساعة لحاقنا بمن سبقنا الى حيث ذهبوا . فافرح اذن واشبه رغبتهك ما حيت ... لا تستطيع الشكاوي انقاذ احد في القبر . اجعل ليومك

سعيداً . لا تستسلم لهم . انظر . فليس من يصطحب ثروته وليس من يعود بعد الزهاب . . »

ولكن هذا الإنكار — الذي ينتهي على كل حال بنداء الى الفرح ، لا الى التشاؤم — لم يخرج قط عن نطاق الشذوذ . وتكفي كتابة مثل هذه المقاطع الشعرية ، في المدافن ، للدلالة على ان واضعها لم ينظر الى الشكوك التي تم عنها نظرتهم الى حقائق ثابتة : وقد اجمعت مصر كلها تقريباً على رفض اقنات الانسان باعتبار الموت نهاية لا غد بعدها . فقد اعتبرته بجمرة ، على نقض ذلك ، انتقالاً الى حياة اخرى . وقد اتاح ذلك للفلاح تعزية كبرى مقابل شقائه على هذه الارض . اجل ، لم يمن ذلك ان الانتقال غير محفوف بالاطار ، او ان الحياة الابدية دائمة الهناء . ولكن هذه الحياة ليست ، على كل حال ، بالعدم او بيجهم .

يتبقى علينا ايضاح فكرة العالم الآخر . ولكننا نميل الى الاعتقاد بان عامة الشعب لم تكن لشعر بحاجة الى ذلك ، بل تكفي ببعض الارشادات العملية الوثيقة الاتصال باحدى العقائد . ولذلك استهواها السحر استهواء مستمراً . اما العقيدة نفسها فقد رصيت منها ببعض الضمانات المهمة التي تلسج تخيلته حولها ما شاءت من الممكنات والمتناقضات احياناً .

كانت ابواب النظريات مفتوحة امام العقائدين فولوجوها بخيرين . حاولوا ، بالطبع ، ان يطبقوا آراءهم على الموت ، اذ ان الخلود من مستلزمات الالهة . ولكن حريتهم في هذا النطاق كانت

نقل العقائد حول الحياة الثانية
الى مستوى الشعب

اضيق منها في النطاق اللاهوتي نفسه ، لانه ترتب عليهم هنا مراعاة الشعور الشعبي الحذر . وان تسليماتهم الكثيرة معه لحدث فريد من نوعه وباهيته في تاريخ الحضارة المصرية . فهذه الحضارة تقوم في جوهرها على مبدأ تسلسل الرتب وهي ، فيما يتعلق بالحياة الارضية ، عميمة الفائدة للطبقات الحاكمة ، وقاسية في الوقت نفسه على الوضعاء والكادحين . ولكنها اضطرت ، فيما يتعلق بالحياة الثانية ، الى الأخذ بمبادئ تختلف عن ذلك اختلافاً بيناً .

وليس من شك حول هذا التطور . فبموازاة كل حقبة من حقبة مصر الفرعونية الثلاث ، نجد سلسلة من النصوص المدفنية ترافق الميت في قبره وتترأى فيها الحياة الثانية التي يلجأها : « نصوص الاهرام » في عهد مصر القديمة ، وقد حفرت على جدران هذه الضرائح منذ اواخر السلالة الخامسة (حوالي ٢٥٠٠ سنة قبل المسيح) وطيلة ايام السلالة السادسة ؛ و « نصوص النواويس » في عهد الامبراطورية الوسطى ، منذ السلالة الحادية عشرة قبيل السنة ٢١٠٠ ، وقد حفرت على جوانب هذه النواويس ، و « كتب الاموات » في عهد الامبراطورية الحديثة (ابتداء من السنة ١٥٠٠ تقريباً) والمعهود اللاحقة ، وهي لفافات من البردي مليئة بالكتابات والرسوم توضع الى جانب المومياء . بيد ان الفرق كبير بين هذه المجموعات الثلاث من النصوص . وليس من واحدة بينها تتميز بالجدية . فقد انتقلت ، من سلسلة الى اخرى ، مقاطع طويلة احياناً كاملة قارة ومجتزأة اخرى . وما من ريب في ان « نصوص الاهرام » نفسها تتضمن مقاطع تتعدى ،

في قدمها ، زمن استنساخ هذه الكتابات . اصف الى ذلك ان التلاحم المتين مفقود في كل من هذه السلاسل التي كان وضعها عملية جمع لا عملية تأليف . ولكن بالرغم من هذا الاستمرار وهذا الانتقال ، في نصوص المجموعات الثلاث ، تبرز ثلاث نظريات يستحيل رد احداها الى الاخرى . وتحديدأ لاتجاه هذا التطور العام ، تكلم بعض المؤرخين عن « نقل الى الديمقراطية » . ويبدو ان الفكرة التي تعتبر عنها هذه الكلمة تنطبق على الواقع شرط أن لا تؤخذ بمنها الحصري السياسي . فاذا كان على العقائدين ارضاء ميول الشعب ، توجب عليهم تطوير نظرتهم الى العالم الثاني وتوسيع آفاق تطبيقها .

لا نعلم شيئاً ، في عهد الامبراطورية القديمة ، عن المصير المحدد للقراء العقيدة الشمسية
بعد موتهم . ولكن نرجح انه كان وضعاً جدياً . وقد زادت في ضعته في الامبراطورية القديمة
تلك الهالة من البهاء التي احاطت بمصير الفرعون . فهل يعقل ان يهوي عن مرتبته عند الموت من كان إلهاً على الارض ؟ وان هو استقر في قوة سلطانه ، جنت مصر الخيرات العميمة لانه سيشملها بعطفه المستمر . ولا سبيل ، خارج هذا الاقتناع ، الى فهم الجهود الجبارة المتمثلة في تشييد الاهرام الكبيرة . وبالرغم من استنساخ « نصوص الاهرام » بعد ذلك بستين ، فانها لا تتناول سوى مصير الملك الذي ، دون غيره ، يهتم له المؤلفون .

تشدد هذه النصوص على صفة الملك الميت الالهية وعلى عظمة دوره . بيد ان التناقضات ، حول تحديد هذه الالهة ومظاهرها ، تبرز في هذه النسخة الواحدة او تلك . ولذلك لا يجمع علماء الآثار المصرية على التفسير الواحد . ولتضرب صفحاً هنا عن « الاله العظيم » الذي قد لا يكون لا اوزيريس ولا رع ، وعن روايت عقيدة غامضة حول النجوم . يبقى امامنا ، حينذاك ، مذهبان متقاربان غالباً ، ممتازان احياناً ، متباينان اصلاً .

تشبه هذه النصوص احياناً الملك الميت باوزيريس . اجل ، انها تتضمن تعريضات مستقبحة بهذا الاله وتهجمات مباشرة احياناً على آلهة أسرته او حاشيته . ولكنها لا تخلو من تعجيد اوزيريس ايضاً . ومن الطبيعي ، ما دام اوزيريس ملك مصر القديم ومثال الاله الميت والملك الميت ، يضمن الخلود لنفسه بفعل اكرام ابنه هوروس ، ان يصبح الفرعون اوزيريس آخر لا سيما وهو نفسه هوروس ما دام حياً وما دام يخلفه على الأرض ابنه هوروس الجديد . وهو يملك ، بهذه الصفة ، على « الغرب » ، مملكة الاموات .

واحياناً اخرى تحمل محل عقيدة اوزيريس عقيدة اخرى اقدم عهداً واعظم قوة تتصل اتصالاً مباشراً وثيقاً بتعاليم هليوبوليس . استطاع اوزيريس ، من قبل ، ان يلج الى النظريات المدفنية ، ولكنه لم يفرض نفسه فيها دون سواه . اما هذه المرة فالفرعون الميت يصعد الى السماء كحي يصبح هو نفسه الاله الشمس « رع » ، او يعلو رتبة ، كما يقال احياناً . وبهذه الصفة يملك على مملكة السماء التي تنقسم ، شان مصر ، الى قسمين .

ونلقي هذه النقطة الأخيرة ، على ضآلة أهميتها ، نوراً على القياس الذي أتاح تعميم الافادة من العقيدة الشمسية على اشخاص آخرين . فالمقابلة القائمة بين المملكة الأرضية والمملكة السماوية تفضي حتماً إلى تحيل المقابلة في تنظيمها . لذلك يقتضي أن يكون للملك الميت أسرته وبلاطه وإدارته كما كان له كل ذلك في حياته . وكان من الطبعي أن يحاط ، في العالم الثاني ، بمن احاط به على الأرض . وقد درجت العادة أن يمنح من يريد شملهم بعطفه الأرض والترخيص للآزمين لدفنهم على مقربة منه ، وفاقاً لمراسم دفنه نفسها ، في رموس مماثلة لرمسه شكلاً ، أقل منه حجاً . فيستمر هؤلاء المحطون في مشاركته حياته الحميدة . ولكن فتح هذه الثمة ، لإدخال بعض الأصدقاء والمعاونين المختارين ، قد أدى بصورة حتمية ، مع مرور الزمن ، إلى توسيعها .

وقبل أن نصف ونرسم هذا الاتساع ، تجدر الإشارة إلى نتيجة أخرى من نتائج هذه العقيدة . فحتى يصبح الملك « رع » ، عليه أن يكون « مستقيم الفم » و« مستقيم الصوت » ؛ وفي طريقه إلى مملكته السماوية ، عليه الإجابة على أسئلة الملاح الذي يحتار هو النهر في بطاحه . أجل قد تكون هذه الأيضاحات الدقيقة استلزمت فكرة دينونة أخلاقية تتناول أعمال حياته الأرضية . ولكن لا شيء يفرض هذا التفسير . فالأجراء المتبع لبلوغ الصلاح ، حسب معرفتنا ، انحصر في صيغ كلامية يجب معرفتها . وهكذا يكون الفرعون قد آمن انتقاله من الملكية على هذه الأرض إلى الملكية في العالم الثاني . أما المقربون المدعوون للحاق به الذين يشعرون بحاجة للدلالة على أنهم خضعوا دائماً للعدالة ، قد يقصدون بذلك العدالة الملكية وحدها ، وهذا يعني أنهم يعلنون عن إخلاص خدمتهم . أجل أخذت تلتشر ، من قبل ، فكرة واجب أدبي فرضته الآلهة على عظماء هذه الأرض ، ولكنها ، على ما يبدو ، لم تسيطر سيطرة تامة . إن هذه الجرثومة الراهنة ستتمو ولكن السحر الراهن أيضاً سيناقشها ويتفوق عليها نجاحاً .

تعمم العقيدة الشمسية في البدء استمر الذين بلغوا حياة الملك الشمسية خاضعين للملك ، ولكن ضعف الملكية في أواخر الامبراطورية القديمة آثار الفوضى في هذا الصعيد نفسه . ولم تراجع بعض الشخصيات الكبيرة أمام اغتصاب الملك اغتصاباً كاملاً ، وقد أعلنت كتابات مدافنهم ، دوماً اهتماماً لسلطة خلعوا نيرها ، اتحادهم الشخصي بالشمس . وهكذا كانت الفوضى السماوية نتيجة وانكساراً للفوضى الأرضية . وفي الوقت نفسه تراخى حبل النظام الإداري والاجتماعي فتضخم عدد ذوي الامتيازات بعد أن كان ضئيلاً . وقد آمن بعض الموظفين الصغار لأنفسهم الاستفادة من خلود مجيد بفضل مجاملة رؤسائهم أو بفضل سلطتهم الشخصية . وقد احتذى بهم أخيراً كثيرون من عامة الشعب وانتشرت المراسم الجنائزية الموضوعة أصلاً للملك وحده وعم الجميع العمل بها . وقد كرس الامبراطورية الوسطى هذا التطور يجعلها من مصر ، كما سبق ورأينا ، إدارة واسعة يقوم كل رجل فيها ، وفاقاً لدرجته ، بالمهمة التي عينها له

الدولة . وبعد تعميم الوظيفة العمومية في مجتمع منظم تنظيمياً جديداً ، اتيح لكل شخص الاحتفاظ بدرجة في العالم الثاني تحت قيادة الفرعون . تنبئ « نصوص النواويس » التي يعود تاريخها الى هذا العهد بان العقيدة الشمسية ما زالت حينذاك تسيطر على المعتقدات حول الحياة بعد الموت . فهي انما تشير دائماً الى « رع » ولا تأتي على ذكر اوزيريس الا نادراً ولا تعطيه سوى دور غير ذي اهمية . لا ريب في ان هذه النصوص مصدرها بعض الاوساط الكهنوتية التي بقيت على تمسكها بالولوية الهيا . وكان استنساخها على جوانب النواويس بمثابة قربان طقسي بغية الفوز بقوتها الطلسمية . ولكن وثائق اخرى معاصرة ومتنوعة – لا سيما ما جاءنا منها من المدافن الحقيرة – تتكلم عن اوزيريس كما عن اله يتعد الميت به او يصبح احد رعاياه . وهكذا فقد عمل بالعقيدتين في آن واحد . ولكن عقيدة اوزيريس احرزت تقدماً لا مراء فيه .

ان فكرة الدينونة الاخلاقية قد رسخت . وتعود الى عهد الامبراطورية الوسطى ، من حيث المعنى على الاقل ، اكثر النصوص وضوحاً حول واجب الملك نفسه في الطاعة « لماهات » إلهة الحقيقة – العدالة . وفي بعضها ايضاً اثبات لحصول امتحان بعد الموت . اليك مثلاً « تعاليم » ملك لابنه : « تذهب النفس الى مقر اولئك الذين يعرفونها ... انت تعلم ان القضاة الالهيين الذين يحكمون المظلوم لا شفقة عندهم ... ساعة تنفيذ القانون » . وقد درجت العادة في نسبة هذه الدينونة الى رع . ولكن فكرة عقيدة اوزيريس لم تلبث ان لاستها . فقد اطلق على الميت اسم « اوزيريس المستقيم الصوت » ، الماسحاً الى حادثة في اسطورة الاله : الدعوى التي اثبتت حقه في الملك بالرغم من مزاعم شيت .

بيد ان المصريين العاديين ، على ما يبدو ، قد استوعبوا هذه الآفاق البعيدة . فلا ذكر للراسم والادعية ، على وجه التأكيد ، إلا فيما يتعلق بالملك ؛ وهذا نف ما يضعف اهميتها . وان ذلك اكثر صحة عند باقي البشر ، إذ ان خوفهم ، عندما يعبرون عنه ، لا يتعلق إلا بالصيغ الكلامية الجاهزة وقيام انساخهم بدقة بما هو مطلوب منهم . ويبرز شعور مماثل في الطريقة المتمدنة للتغلب من العمل في الحياة الثانية ، وهم لم يواجهوا هذه المشكلة إلا بعد ان تيسر للجميع ولوجها . ولم يشعروا ، الا في عهد الامبراطورية الوسطى ، بوضع تماثيل صغيرة في القبور يطلقون عليها اسم « الكفلاء » ويعتبرونها صوراً للميت نفسه او لحداثة ويفرضون عليها تنفيذ ما قد يطلب منه من سخریات . وهكذا فان السحر او ما يماثله اتخذ له مكاناً ، يتسع يوماً بعد يوم ، في العقائد حول الحياة الاخرى .

انتصار عقيدة اوزيريس
كان انتصار اوزيريس ناجزاً في عهد الامبراطورية الحديثة ، ولم يبق من اثر لما اصطدم به من مناقسة طويلة سوى بقاء بعض الآلهة ، الى جانبه ، من مجموعة الاله رع ، ك« ماهات » ابنة رع وك« طوخ » مثلاً . وتخلت هليوبوليس عن نفوذها لمركزين رئيسيين من مراكز عبادة اوزيريس هما بوزريس في الدلتا ، وهي عاصمة هذا الاله ايارت حياته

الملكية ، وابدوس ، شمالي طيبة ، حيث عثر على رأس جثته المقطعة . وهكذا تغلبت العاطفة الشعبية على نظريات اللاهوتيين الكونية .

يعيش الموتى اذن في « الغرب » بوجه خاص ، و « الغرب » هو مملكة اوزيريس تحت الارض . ولا ذكر ، الا عرضاً ، لوجود بعضهم في الزورق الذي تجوب عليه الشمس مناطق السماء . ويسلك رع ، في الليل ، طريقاً باتجاه آخر مستحضراً النور والحرارة للمناطق المظلمة . ومن البعث هنا ان نرى الدقة والتلاحم في جغرافية ما وراء الارض . فهي تلجأ الى عبارات غامضة ومتناقضة احياناً « كحقل القصب » و « حقل يالو » الذي جعل منه اليونان « حقول ايليزيه » . ويكتنف الغموض نفسه وصف كيفية تصرف الاموات بوقتهم . فهم تارة يستسلمون للراحة بفضل خدمة « الكفلاء » ، ويجرون تارة اخرى الارض التي يهبهم اياها اوزيريس ، او يقيمون في قبورهم ، او يعودون ، هائثين وغير منظورين ، ليتلوا بمشهد الاحياء على الارض . ولعل القصد من مقابلة هذه الاعمال المختلفة ترك الخيار لهم في انتقاء الوسيلة التي تحقق سعادتهم . ولعل قدرة سامية ايضا تقوم بهذا الاختيار باسمهم . ولكن لو نظمت هذه الآراء التي تتخللها تيارات كثيرة تختلف زمناً ومصدراً ، لفقدت الكثير مما فيها من فتنه واغراء .

وزن النفس وما يمتبه لم تكن هناك ، على الأرجح ، رغبة في الايغال في فهم معنى « وزن النفس » ، ذلك الاجرام الذي يخضع له الميت قبل دخول مملكة اوزيريس . ان منطقنا ، وقد يكون اداة غير صالحة في هذا المدى ، يرى ان المفهومين اللذين يعكسهما هذا الوزن لا يمكن التوفيق بينهما . فقد اعتقد المصريون ، من جهة ، ان الميت ، كل ميت ، يخضع لدينونة صارمة وزودوا كل ميت ، حتى المجرم ، من جهة أخرى ، بما يضمن له صدور الحكم لصالحه . وهكذا فقد تقابلت المبادئ الاخلاقية والاعتقادات السحرية .

كان للمبادئ الاخلاقية شأنها . فيجلس اوزيريس على عرشه رائساً الهيئة الحاكمة ، وينتظر وحش غريب الحلقة الحكم الذي سيسلمه المحكوم عليه . يوضع قلب الميت وريشة ماهات في كفتي ميزان كبير حيث يجب ان يتعادلا للحصول على النعمة المرجوة . انها لرموز مؤثرة حتى في سذاجتها . يدعى قلب الميت للشهادة عليه عند الاقتضاء . وهذه الفكرة ليست بالفكرة التافهة ، ولكن المهم ان يظل القلب حراً في شهادته .

كان الميت يأخذ المبادرة في الكلام فيعترف « اعترافين سليبين » متوجهاً ، في الاعتراف الثاني الاكمل ، الى اثنين واربعين قاضياً منكرأ ارتكاب اثنتين واربعين خطيئة يعددها واحدة واحدة . وكانت القائمة طويلة متشابهة غير منظمة تتجاور فيها الاهانات الملحقة بالالهة ، والجرائم المقرفة ضد السلطات المدنية ، والاضرار المنزلة بأرزاق الغير وشخصه ، والزلات الاخلاقية نفسها .

ان هذا المثال الاعلى الذي تحدد بمضاداته بوضوح ، لا يخلو في مجموعه ، من مفهوم سام للوجدان الاجتماعي والفردى على السواء . ولكنه بسبب اكتماله ، قد عز بلوغه وتحقيقه . فك من الأكاذيب انطوت عليها هذه الانكارات المتسلسلة ، يا ترى ؟ كان الميت ينادى القضاة باسمائهم ، التي يعرفها تماماً ، وكان له ، بسبب هذه المعرفة ، بعض التأثير عليهم . وبالحقيقة كانت المحكمة ، بالرغم من قسوة مظهرها ، تخشى التشهير وتقبل بالمسامحة . وبعد هذا ، يبقى الميزان وهو المرحلة الاخيرة او المستحدثة ، ويبقى القلب الذي يجب ان لا يتجاوز وزنه وزن الريشة . لكن هذا القلب كان موضوع مناشدات ملحة هي اقرب للابتهالات الحارة : « ايه يا قلبي بل يا قلب امي ... لا تقف شاهداً ضدي ؛ لا تجعل من وزنك حجة علي ... ؛ لا تقل ... » .

ان « كتاب الاموات » الذي يتضمن ، في ما يتضمن ، التفصيلات التي اوجزناها ، يدعى بالحقيقة « صيغ لاجل الخروج الى النهار » . بين هذا الاسم بصورة كاملة ما في هذا الكتاب من منتخبات مجموعة على غير نلاحم تزود الميت بكل ما يحتاج اليه للتغلب على المكاييد الكثيرة ، المادية والروحية ، التي تنتظره في طريقه الى « الغرب » . وبالرغم من انتقادات بعض المفسرين المعاصرين ، لا تبدو عملية « وزن النفس » ناشئة في هذا المجموع . وكان لا بد من ان يقلق لها الانسان عند اقتراب ساعة الموت . لكن هذا الامتحان بما تستطيع فيه الذاكرة البقطة ، بمساعدة الكتابة الموضوعية الى جانب الميت ، ان تخرج الانسان ظافراً بتلاوة بعض العبارات المضمونة المفعول . فكيف يمكن صرف النظر عن كلمة « سحر » ، والامتناع عن الاعتقاد بأن اللجوء الى هذه الصيغ كان قيناً بمحو اخطاء الحياة الارضية ؟ لا شك في ان المؤمن كان مدعواً لأن يترفع عن هذه الاخطاء ولا يأتياها حتى يكون خلاصه المقبل مضموناً . ولكن ما من اثر ، في اي مكان ، لتحفظ يحصر فعالية هذه الصيغ التي يحرص المؤمن ، وان مجرماً عنيداً ، على ان يزود بها .

حددت حضارة مصر الفرعونية علماً للاخلاق خاصاً بها جاعلة اياه ، منذ القديم ، على صلة بفكرة الحياة الثانية التي تتيح امكانات كثيرة للعقوبة . ولكنها تفننت في اكتشاف وتعميم وسائل التهرب من هذه العقوبة . فهاذا يكون علم الاخلاق علماً ، يا ترى ؟

٣ - العبادة

كانت النتيجة الحتمية لهذا التهرب ازدياد اهمية العبادة والطقوس . وكان من الضروري ، على كل حال ، ان تكون هذه الاهمية بالغة لان على مصر ، المزدهرة بفضل الآلهة ، ان تعرب لهم عن شكرها واعترافها بجميلهم . ولكن عبادة الاموات لم تلبث ان رافقت عبادة الآلهة الحقيقيين . فهي ضرورية لحياتهم الثانية . واذا كان من المستلزم به ان الاموات العاديين أعجز من ان

يلحقوا ضرراً كبيراً بالأحياء ، حتى المهلين ، فمن الواجب ان يحسب حساب لتضامن الأجيال المتلاحقة منهم .

وكان بين عبادة الآلهة وعبادة الأموات كثير من النقاط المشتركة ، ولا عجب في هذا الالتقاء بينهما . فالطقوس الجنائزية انما وضعت لصالح الملك الميت ، استبقاء لقدرة العاطفة على مصر ، قبل ممارستها على غيره أولاً وعلى الجميع أخيراً . ولا عجب أيضاً اذا ما قلنا ان هذا التشابه بين العبادتين مصدره اثر اهم العقائد ، عقيدة رع وعقيدة اوزيريس بنوع خاص ، على هاتين المجموعتين من الطقوس . فجموعة طقوس عبادة الآلهة العظيمة انفسهم مشبعة بأفكار عقيدة اوزيريس ، فكيف بطقوس عبادة الأموات ؟ وفي المجالة التالية ما يسمح بالوصول الى بعض المقارنات بينهما .

عبادة الآلهة سارت عبادة الآلهة ، من حيث مبدأها ومظاهرها ، على قواعد عامة بالرغم من تنوعها وفقاً للآلهة والمعابد .

ودلت هذ العبادة على الاعتقاد الثابت بأن الآلهة يشعر بما يشعر به اي انسان . فالمعبد هو مسكنه الذي تُدخِل اليه الحياة والحركة جوقة من الخدم ولا يتاح الا لأرفعهم مقاماً ولوج الحجرة الخاصة حيث يقيم الآلهة تحت اعراض تمثاله . وهو كالانسان بحاجة الى الكثير من العناية والملاطفة ، والترفة والبذخ ، والمأكل والمشرب ، والراحة والنوم ، واللهو والاعيان أيضاً . وكل هذا كان مضموناً باسم الملك الذي يميز الهبات السخية والذي يتولى الخدمة الكهنوتية بنفسه ، اذا سمحت له ظروفه بذلك ، بحكم كونه ، قانوناً ، الكاهن الكاهن .

كانت تقام كل صباح وفي كل المعابد ، مراسم متاثلة : حركات طقسية وسجديات وصلوات وانشيد واحراق بخور . كان الكاهن يفتح الحجرة الالهية « ويوقظ » الآلهة ويقدم له ، قبل اي شيء آخر ، « عين هوروس » التي فقدتها هوروس في صراعه ضد شيت ثم عثر عليها وقدمها لأبيه اوزيريس . ويقدم له بعد ذلك تمثالاً صغيراً « لماهات » ابنة « رع » . ثم يغسله ويلبسه ثيابه ويزينه ويمسحه بالطيوب ويخضبه . ويقدم له أخيراً ما لذ وطاب من انواع الطعام والشراب على سباط او حصير امام التمثال . وفي ساعات معينة من النهار تفتح الحجرة مجدداً لكي تقدم له وجبة اخرى . وعند حلول المساء ، يرتدي ثياب الراحة ويستسلم للنوم ، بعد ان يقفل المكان المقدس .

اما الذبائح فلم تقدم له لأنه لم يهتم ، على ما يبدو ، لنحر الحيوانات وتقطيعها وطهيها . غير ان الكاهن القائم بالخدمة كان يحرك مطرقة ، ولعل في هذا الرمز ذكرى ماضٍ سحيق لم تحل فيه الاحتفالات من اطعمة مستهجنة .

كان الهدف من الاعيان ادخال البهجة الى قلب الآلهة المنفرد . ويبدو ان معظم هذه الاعيان على ضعف معرفتنا بها ، كانت تستلزم كشهد اولي ، تطوافاً في الهواء الطلق ، على الاقل في هو

المعبد الكبير حيث كان باستطاعة المؤمنين أن يدخلوا . أما التمثال ، الذي لا يراه عادة إلا نفر من المهيمنين ، فكان يشترك في التطواف جالساً ، شأن رع في السماء ، في قارب يحمله الرجال على اكتافهم . وكان الآله في هذا الظرف خصوصاً ، ورينا في ظروف أخرى ووفقاً لكيفيات أخرى ، يجيب على أسئلة العلمايين باهتزازات من تمثاله يمجيد الكهنة تفسيراها .

تأتي المستندات على ذكر اعياد أخرى على جانب كبير من الاهمية او الشعبية . لنترك جانباً الأعياد الملكية ، وهي دينية قبل كل شيء ، لأن الفرعون اله على الأرض له كهنته وعبادته اليومية وانشيده الخاصة . فكان له اذن اعياده أيضاً : اعياد الجلوس في منف ، والاعيد التذكارية السنوية ، وخاصة اعياد « سد » التي تجدد نشاطه الالهي في مواعيد دورية منتظمة . اما الاعياد الكبرى في المعابد المحلية فان تنوع احتفالاتها الدينية وخاصياتها ، على معرفتنا المحدودة بها ، تفوق كل وصف ويتعذر تفسيرها احياناً . كان بعضها يستغرق اياماً عدة تتخللها انتقالات آله يزورون او يردون الزيارة في موكب فخم يسير على مياه النيل . وكل من يرافقه كثيراً منها مشاهد ايمائية او ناطقة احياناً تستعيد اسطورة الآله وتشترك فيها ايضاً بعض التماثيل . والاسطورة التي استغلت بالترفضيل ، في هذا الصدد ، بسبب تأثيرها الكبير وشعبيتها الواسعة ، هي اسطورة اوزيريس التي استوحتها اعياد كثيرة لاسيما عيد ابيدوس الذي اطلق عليه هيرودوتس اسم « الاسرار » . ولكن الرحالة اليوناني والنصوص المصرية الكثيرة التي تشير اليها تعتمد الغموض حول ما يستطيع الحاضرون استزله فيها من إلهامات قد تطمئنهم سلفاً عن بعثهم الآتي .

المراسم الجنائزية وعبادة الاموات
يفرض هذا البعث ، على كل حال ، القيام بطقوس تؤمن الشروط المادية الضرورية للحياة الثانية التي لا يمكن تغييرها ، على نقيض الشروط الاخلاقية .

فكان من المهم حفظ الجسد أولاً كي تستطيع النفس التي انفصلت عنه عند الموت ان تستقر فيه . وامعانا في الحرص على ذلك ، توضع في المدفن تماثيل يستعاض بها عن الجسد . بيد ان الجسد نفسه افضل من كل هذه التماثيل . وبما انه قابل الانحلال وجب تحويله الى مومياء وفاقاً لطريقة فنية عولجت بها جثة اوزيريس لأول مرة : انتزاع الاحشاء ووضعها في اربعة آنية من الالستر ، فصل اعضاء الجثة على مثال اوزيريس وغمرها في محلول من الاملاح المعدنية ، حشو الجثة بمواد رائينجية وعطرية واعادة شكلها بواسطة كتل من النسيل والقش وتقيطها بمصبوبات كثيرة من الكتان . ويقوم بهذه الاعمال كلتها مهنيون يعتبرون كهنة من درجة دنيا . وهكذا تغلبت ألوف الموميات على الزمن ، بفضل مناخ مصر الراق ، بعد جفافها ، ومنها ما يرتقي عهده الى الامبراطورية القديمة ، على الرغم من ان طريقة التحنيط هذه قد استمرت ، بعد ذلك ، اكثر من ألف وخمسة سنة في طريق التقدم والاكتمال .

ثم تأتي الجنائز مع موكب الاقارب وتماثيل الآلهة والنائحات: الابحار على النيل - على غرار اوزيريس - ، الصعود البطيء نحو المقبرة عبر الاسوار الصخرية الغربية ، وضع النواوس في مدفن مصمم كسكن للميت . ويقوم اخيراً كاهن يمثل هوروس بأعمال سحرية ، أهمها « فتح القم والعينين » ، الغاية منها اعادة الوظائف الحيوية للميت بصورة نهائية . ثم يوصد المدفن وتشهر لعنات هائلة على كل من تسوّل له نفسه اقلاق راحته .

ومع ذلك لم تكن مطالب الميت لتقتصر على هذه المراسم الجنائزية . فهو بحاجة الى الغذاء ؛ وهناك نصوص عديدة تكشف عن وسواس الجوع والعطش عنده اللذين يدفعان به الى احقر التسوّلات . من هنا كان النداء الى القربان الغذائية التي ترافقها الصلوات والايامات الطقسية . وكانت هذه القربان مبدئياً من واجبات الابن اولا والحفيد ثانياً ، وغيرها الى ما حد له في هذا التسلسل ، وكانت تدعى « عين هوروس » ، على غرار الرمز المقدم كل صباح الى التمثال الالهي في المعبد ، وتقابل الوجبات المقدمة للآلهة . ومن الممكن عملياً ان يستعاض بالتماثيل عن الاحفاد ؛ فكان في الهياكل المدفنية خاصة كهنة وإبرادات لهذه الغاية . وليس من ذكر عملياً الا ويحصى ومن وقف الا ومصيره الحجز . والاموات صائرون حتماً الى الاهمال في يوم قريب او بعيد . وسعداء جداً أولئك الذين لم يعتمد على قبورهم سوى الاثريين المعاصرين . وشغلت مكافحة ناهي القبور اجهزة أمن جميع الفراعنة الذين حرصوا على امتتباب النظام ؛ فهاذا نقول عن تلك العهود التي تراخت فيها الادارة مفسحة المجال امام مخاطر اللصوص الجريئة في سبيل الاستيلاء على القربان الثمينة المودعة الى جانب النواويس ؟

من الواضح ان ما قيل هنا لا يختص إلا بعظماء هذا العالم الذين عندهم من الثروة والنفوذ ما يزيل كل عقبة مادية تحول دون العناية بجنثهم . ولا تتكلم الوثائق عن غيرهم من اصطدم حقهم بالخلود ، من طبقة اجتماعية الى اخرى ، بالعقبات العملية الكثيرة التي جعلته نظرياً فحسب . لذلك يثمر على موميائهم الوضعية دخيلة على القبور القديمة ، او على آثارها فقط لان الوفير في التحنيط لا يكون إلا على حساب جودة النوع . وحتى يغدو ابن الميت هوروس لأوزيريس جديد ، كان لا مندوحة له من ان يملك الحد الأدنى من الموارد . وهكذا كان للمجتمع المصري ، شأن مجتمعات اخرى . كثيرة ، ضحايا حتى في العالم الثاني ، وهم هم في كل زمان : أكثر الناس ضعة في هذا العالم .

الدين والحضارة
في جميع هذه العبادات ، للآلهة كانت ام للاموات ، لم يكن للأفعال المادية ، رسمياً ، من قيمة الا اذا سمّت بها التقوى الصادقة واخلاق الكاهن القائم بالخدمة ومن يمثله . بيد ان ظاهر الحق ، في هذا المجال ، يفرض علينا موقفاً حذراً حكيماً ، بالرغم من ان المثل الاعلى قد دام طويلاً . فالحضارة المصرية ، الى جانب المعابد والتقادم للآلهة والقبور والمراسم الجنائزية والتقدم للاموات ، استندت الى عمود فقري هو معتقداتها التي لا يهم

كثيراً ان تكون رأت فيها اولاً ، عملياً ، الممارات والمراسم الالزامية بنوع خاص . فهي قد
شيدت العمارات وبذلت جهوداً صادقة في اقامة المراسم . وهذه المهمة المزدوجة شاقة جداً حتى
على بلاد تنعم بمثل هذه الثروة . فقد انك الفلاحين ما كان يقتطع من نتاج كدحهم . وهم
دفعوا ، من يؤسهم الخانع ، بذخ الآلهة وبذخ الاحياء العظام المدعورين لان يصبحوا الاموات
العظام . وكان قربانهم ، للمحظيين في هذا النظام السياسي الساحق ، الفن المصري
المغفل والفخم .



الفصل الرابع

المظاهر الفنية والعقلية

١- الفن

ان الارتباط بين الدولة والدين ، هيكلي الحضارة المصرية ، من القوة بحيث يتعذر القطع في الصبغة التي تسيطر على الفن المصري ، الملكية هي ام دينية . وهاتان الصبغتان تتعارضان بل تتدخلان ، فالملك الاله متسلط على الحياة الدينية ، والقبور الخاصة نفسها منوط امرها ، عملياً ، بالمؤسسة الملكية ، وهو الملك ، في عهد الامبراطورية القديمة ، الذي يملك كل شيء وهيب ، على هواه ، الارض والمواد اللازمة لبناء القبر . وفي العهود اللاحقة نفسها ، كان الافراد الذين يملكون من الثروة ما يتيح لهم تحسين عمارتهم المدفنية ، مدينين بسعتهن الى خدمة في الجيش او في الادارة او في الكهنوت .

ولذلك يتضح كيف ان عهود ازدهار الفن المصري تقابل عهود ازدهار الملكية الفرعونية . فقد تسنى لهذه الاخيرة ، بفضل الموارد الكثيرة التي وفرها لها حسن سير الآلة الحكومية واستثمار المقاطعات الخارجية ، ان تكثر من البناء وتوسع مجالات سلطتها وتوجه جهود الفن نحو مشاغلها الخاصة . وفي العهود المعروفة بالمتوسطة - الفوضى بين الامبراطوريتين القديمة والوسطى ، غزو الهكسوس ، السيطرة الآشورية والفارسية - لم ينخفض الانتاج فحسب ، بل انحط ، من حيث القيمة الفنية ، مظهرأ استرخاء موازياً للتدخل السياسي والاجتماعي ولتصدع التقاليد القومية .

ومكثدا فقد تطور الفن المصري عاكساً في ذلك تطور الملكية ابداع الامبراطورية القديمة نفسها . يعود للامبراطورية القديمة ، التي اوجدت ما يمكن ان نسميه قاعدة الدولة وطوقسها ، الفضل في تركيز تقاليد الفن وامثلته الكبرى باستثناء الهندسة المعمارية ، لان تصميم المعبد قد تأخر في بلوغ صورته النهائية ولان الاهرام الملكية الكبرى التي شيدت في عهد السلالة الرابعة لم تؤخذ مثالا لاي بناء آخر. غير ان امثلة الاعمدة الرئيسية وضمت

نهائياً : الاعمدة التي عرفت ، بعد شموليون ب « بروتودورية » لانها، بحلولها من القاعدة وبضامها المخوفة وبتأجها البسيط ، تذكر بطراز من الاعمدة ابدعه الاغريق فيما بعد، والاعمدة ذات الجذوع التي تنتهي بزهرة بردي تقوم مقام التاج . كما ان النحت الذي توصل الى تقنية رفيعة اخذ يحقق التماثل ويزين الانصاب وجدران المدافن بنقوش بارزة تعالج المواضيع التي ستوارثها الاجيال : الملك ، الآلهة ، ابو الهول ، الميت وعائلته ، القربان للاله او للميت ، مشاهد الحياة اليومية ، الخ .. فتحدت منذ ذلك الحين المصطلحات الهامة لما يتعلق بالجسم البشري واوضاعه وازيائه وخاصياته .

وجد الفن القديم المتدع نفسه امام اتجاهين كبيرين : الواقعية والمثالية اللتين على كل فن ان يختار بينهما ، فمكسها معاً واعطى كلا منها نصيبه المتفاوت وفقاً لغاية عمله . احتفظ الفن الخاص بحرية اكبر ، دون ان ينحرف عن القاعدة العامة لموضوعه ، وتقيد بالواقع الذي يعبر عنه دون ان يهتم للبالغة في تعظيمه ، صارفاً النظر فقط عما فيه من ضعة وابتذال وبؤس ومتسككاً بما في الحياة من فتنة ومن نكتة احياناً . اما الفن الرسمي فقد كان والفن الخاص على طرفي نقيض لان جموع الحيال فيه لا يلبق لا بالآله ولا بالملك ، ولذلك فقد انطلق من الواقع المراقب ، اي من الصورة ، ولكن احترام القدسيات قد دخل عليه لاضفاء الجلالة الصافية عليه .

يتميز كل من العهود الكبرى التالية بطابع خاص يضيف الى الفن شيئاً التطور اللاحق
جديداً جريئاً مع التيار العام الذي يبرز فيها .

حققت الامبراطورية الوسطى تنظيمياً داخلياً كبيراً . وتبنى الفراعنة انفسهم هذا الواجب الذي عينت الدولة باسمه ، لكل مواطن ، مكانه وعمله في المجهود الجماعي . لذلك نلصق ، على اوجه بعض التماثيل الملكية على الاقل ، انسانية اكثر احساساً وتألفاً وتأثيراً ، حتى في خشونتها . فالواقعية ، هنا ، تتقدم بقوة .

في الامبراطورية الحديثة نلصق عودة الى المثالية . غير ان الاناقة الرشقة تلتطف من تصنع النبل . فلم تكن الطبقات الحاكمة المصرية ، في يوم من الايام ، اوسع ثرورة واكثر سعادة مادية واوفر وسائل لارضاء اذواقها الرقيقة .

اما ثورة امنوفيس الرابع - اخناتون - القصيرة الامد فقد كانت شاملة ، على الاقل في البلاط الذي انتقل الى تل العمارنة العاصمة الجديدة ، وتميزت ، في الفن كما في العقيدة الدينية ، برواقية جريئة تصور العيوب الطبيعية نفسها الا في شخص الملك . ولكن اخلاصها يسهل عليها التعبير عن الحياة الروحية العارمة التي تجيش في « ملهم » اتون .

ويرافق الجهد ، الذي بذل في عهد سلاطت سايس لاستعادة الوحدة الداخلية وبعث السلطة الخارجية ، تصميم حازم على الرجوع الى الفن القديم ، فعاد الفنانون ، بل اختصارهم ، الى الامثلة العامة في الامبراطورية القديمة ، واخذوا يقلدونها ، مدخلين على الصورة الواقعية ، خطوطها الكبرى الضلعية نفسها .

مصر القديمة في فنها ، منها كان من حقيقة هذا التنوع ، فانه لم يُطرح بوحدة الفن المصري العميقة الجذور . ومن كل ما انتج هذا الفن ، تبرز ، بقوة غريبة ، بعض التعاليم التي تألفت مع خطوط جوهرية اخرى في الحضارة الفرعونية .

توفرت دائماً لاهم زُيْن هذا الفن سلطة تؤمن لهم وسائل عمل تفوق بضخامتها كل قصور . وقد نزع هذا الفن ، لا سيما في الهندسة المعمارية ، وفي صناعة التماثيل احياناً ، الى ان يصبح فناً واسعاً جباراً يتعدى الانيسة البشرية . فكانت مصر ، حتى في هذه الناحية ، ارض الآلهة ، وكان الناس فيها لا يقفون عند حد في خضوعهم وانقيادهم لهؤلاء الآلهة . وتفرض علينا روائع هذه الفن المميزة ، كما جرى للرحالة الاغريق ، ان نفكر بالجاهل التي اقتلعت الفدرات ونقلتها ودفعت بعرق الجبين اثمان المواد الضخمة او الثمينة ، قبل ان نفكر يا وللك الفنانين الذين صموها وحققوها .

فهذه الروائع نفسها ايضاً دليل على الايمان الذي عمر قلوب هذا الشعب ، فتحمل التضحيات الفائقة في سبيل ايمانه بآلهته وايمانه بمخلود امواته وايمانه بملوكه .

وقد رافق هذا الايمان ، من جهة ثانية ، رجاء دائم ، فأوجد في الشعب تفاسلاً وهدية والهاماً . اجل لم يستسلم الفن المصري لهذه الاتجاهات في كل مكان . ولكنه اتاح لها فرصة الانطلاق ، كلما استطاع الى ذلك سبيلاً ، مضمياً عليها تمجيداً بريئاً غداً هو نفسه ، في معالجة بعض المواضيع ، ضرباً من ضروب الطقس .

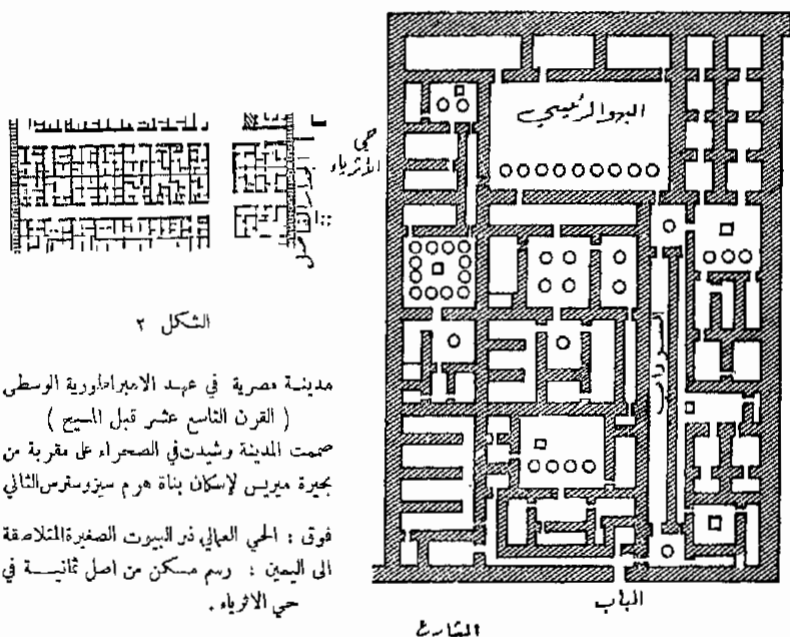
١ - الهندسة المعمارية

مساحن الاحياء يتجلى طابع العظمة على الاخص في ما تبقى من الآثار البنائية . ولا غرابة في الامر ، اذا ان لمعارفنا حدوداً تقف عندها . هنالك الحدود الزمنية أولاً : فالامبراطورية الوسطى اقل انتاجاً ، وغالبية مدافن هذا العهد مبنية بالآجر وليست اليوم سوى انقاض متراكمة لا شكل لها ، كما ان المعابد ، على كثرة عددها ومتانة بنائها ، قد ادخلت عليها فيما بعد تحويرات جمة .

وهناك ايضاً الحدود المنطقية . فكل ما كان معداً للناس في حياتهم على الارض قد قام بالتفضيل ، رغبة في الاسراع ، على مواد يسهل منالها ، لا سيما اللبن الذي ما لبث ان انهار وتفتت . والقصور الملكية نفسها ابعد من ان يتيسر تخطيطها اليوم لآث الآثار التي تركتها لا تتعدى بعض ما ازدانت به الجدران وبعض حفر قامت فيها احواض السباحة التي تشير اليها النصوص . وجلي ان هذه الآثار تضمحل اهميتها اذا ما قورنت بالكثير غيرها من الآثار البنائية

الضخمة . واذا كانت هذه هي حالة القصور ، فماذا عسانا نقول عن المساكن الخاصة ، لا بل عن المدن نفسها ؟

يبد أن اعمال التنقيب قد قدّمت لنا بعض الادلة . وهكذا فقد كان اكتشاف معالم مدنية مؤقتة ، مبنية في عهد الامبراطورية الوسطى على مقربة من احد المعامل ، اكثر تيسراً ، كلما افضى انتهاء اعمال العمل الى الاجلاء عنها بسرعة . فاتباع وضع تخطيط مساكن مماثلة لموظفي الادارة كما للعالم . ولكن في ذلك كله من الابهام ما لا يسمح بتحديد الغاية من الغرف المختلفة ، حتى في المساكن الكبيرة نفسها . ولنكتف بالاشارة هنا الى سياج البيت من الخارج ، والممر

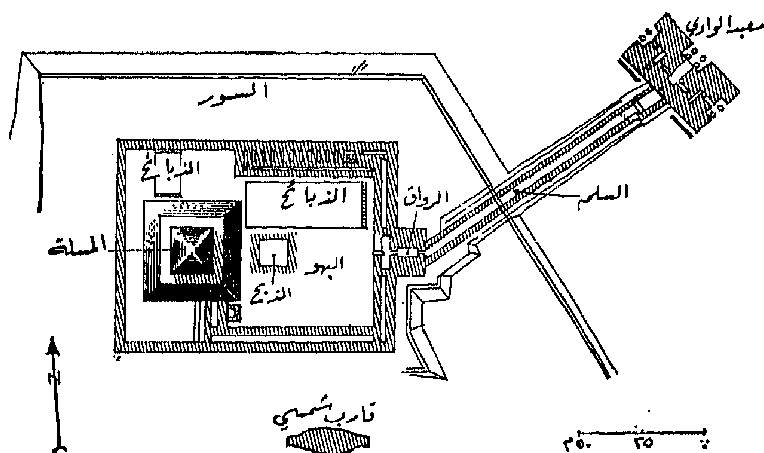


الطويل ذي الزوايا المؤدي الى البهو الرئيسي الذي يجاذبه امام جهته الكبرى رواق مستطيل ، والفناءات الداخلية باعمدها واحواضها ، وسطوح الغرف التي توفر التنم ببرودة الليل ، وهذا التخطيط انما يستجيب لرغبة مزدوجة : صفاء المنزل والرفاهية . اما المساكن الشعبية المبنية في حي خاص يفصله جدار عن حي الاغنياء فتقتصر على ثلاث غرف او اربع تؤلف جزءاً من كل هندسي رتيب هو اشبه برقعة الشطرنج .

وباستثناء الحدائق والمساكن المتلاصقة ، وجد العلماء في غير امكنة ، وفاقا للطبقة الاجتماعية المعنية ، هذا السعي وراء الحياة اللذيذة تارة وهذا التواضع تارة اخرى .. ولكن ليس في كل ذلك

اي شيء مبتكر يثير العجب ، سوى المعابد والمدافن ، تلك الابنية المشيدة بالحجر الصلب والمعدّة ، اساساً ، لان تبقى مدى الدهر ، فبقيت مدى الدهر .

لم تستقر هندسة المعبد إلا بعد وقت طويل . ولا يبدو ، في عهد الامبراطورية القديمة ، انها كانت واحدة لكل المعابد ، إذ كان لكل إله كبير تقريباً معبده الخاص به . واشهر هذه المعابد معبد الاله الشمس ، وهو يطلق السماء كما يليق به ان يكون . استغنيض فيه عن التمثال الالهي برمز شمسي كان في البدء ثقيلاً وموضوعاً على قاعدة كبيرة هرمية الشكل ، وقد اخذت عنه فكرة السلّة . وبعد حقبة طويلة من الزمن ، ادت عبادة اتون ، التي نهض بها فرعون نبيّ ، الى تشييد معبد شمسي مائل في تل العمارنة . ولعلّ ما بقي من هذا التخصص



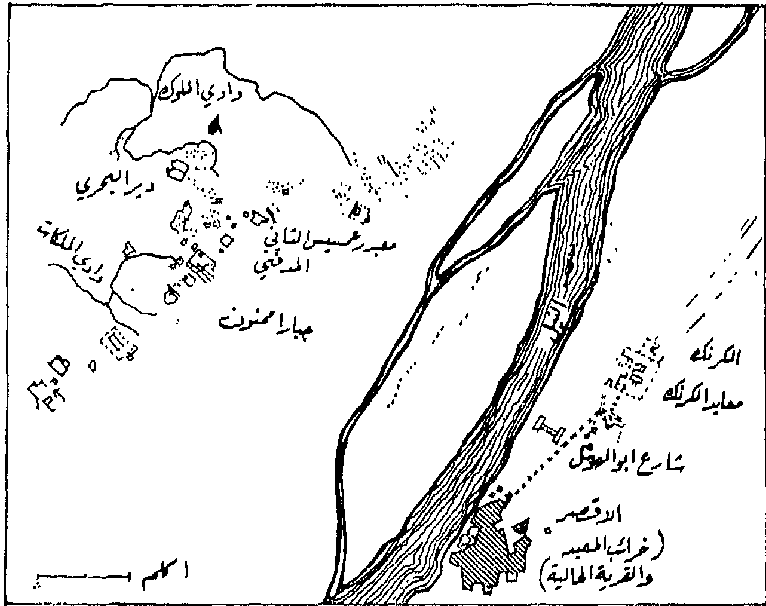
الشكل ٣ - معبد شمسي شيده الملك نبوسري
(السلالة الحامسة : حوالي السنة ٢٥٠٠ قبل المسيح)

الأول قد عاد وبرز ، على عهد الامبراطورية الوسطى ، في ظهور تاج العمود « الحاتوري » الذي رسم فيه ازميل النحات مزهراً ورأس امرأة ذا اذني او قفري بقرة . وقد خصص هذا العمود بالمعابد المكرسة على اسم الآلهات . بيد ان هذا العهد قد ابتكر ايضاً ، ولا شك في ذلك ، العمود « الاوزريسي » ، الذي يسند اليه الظهر تمثال للملك بشكل اوزيريس . وقد اعتمد هذا العمود في المعابد المكرسة للاموات ايضاً . وان في هذين الابتكارين ، لعمرى ، دليل النفوذ الذي تقع به اوزيريس وحاتور احدى آلهات امرته . وقد توصل اللاهوت الشمسي ايضاً الى فرض بعض الرموز على جميع المعابد . وهذا برهان جديد على ما لعقائد هليوبوليس واوزيريس من اثر عميق : فكان لا بد لوحدة الطقوس من ان تقود الى وحدة التصميم الهندسي .

قبعد التنوع القديم ، توصل المصريون ، اذن ، في عهد الامبراطورية الوسطى كابعده حد ، وربما قبل ذلك ، الى مثال نموذجي موحد للمعبد الالهي . اجل كان هنالك بعض الفروق في الواقع ،

خصوصاً في معبدي الكرنك والاقصر ، عند مداخل طيبة ، حيث نشاهد كل تركيب عجيب ، لان فراغة كثيرين ارادوا ان يسموا ملكهم ، فيها ، بأبنية شخصية ، وقد حققوا ذلك اما بتوسيع بعض الاقسام من عمل اسلافهم واما باضافة أقسام اخرى ماثلة اليها . ولكن باستطاعتنا ان نستخلص تخطيطاً عاماً شاملاً لاسيا وانه قد حقق ، اكثر من مرة ، في عهود متأخرة جداً وحتى في ايام الاحتلالين المقدوني والروماني .

كانت تؤدي الى المعبد ، من المدينة او النهر ، طريق مرصوفة بالالواح الحجرية يحف بها من الجانبين صفان من تماثيل ابي الهول . وقد يستعاض احياناً عن رأس ابي الهول برأس الكباش .



الشكل ٤ - منطقة طيبة
كانت مدينة طيبة مبنية على الضفة اليسرى قبالة الكرنك والاقصر

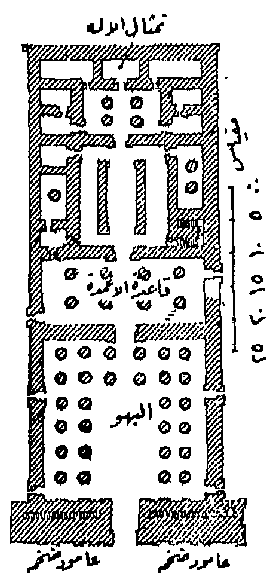
والكباش حيوان مكرس لأمون ، فمن الطبيعي بالتالي ان يلتصق تماثله في طريق تؤدي الى المعبد هذا الاله . وتلتصق عند آخر الطريق ، نقلاً عن العبادة الشمسية ، مسلتان شاحتان منحوتتان من حجر واحد تنتهيان عند القمة بشكل هرم صغير ، استرسل المصريون في وصف اعمال البطولة التي تطلبها اقتلاعها ونقلها وإيقافها . وبعد المسلتين يقوم السور بحذرانه الضخمة محيطةً ببيت الاله الذي هو المعبد نفسه . وقد حافظ هذا البيت ، نظراً لقوة ماله ، على مظاهر القلعة الحصينة من الخارج . وكان يدخل اليه بواسطة باب يقوم على جانبيه عمودان مربعان كبيران تسند السها الظهر تماثيل ضخمة للفرعون الباني .

يلي هذا الباب بهو كبير تحيط به اروقة ذات اعمدة يستطيع ان يدخل اليه جمهور غفير من

الشعب إبان الاعياد التي ينظم فيها التطواف بتمثال الآله وهو يرتجّ على قاربه. أما بعد ذلك فلم يكن مسموحاً بالولوج إلا لبعض اصحاب الامتيازات الذين يتضاءل عددهم شيئاً فشيئاً لا سيما وان قياسات الابنية والغرف نفسها تتضاءل اكثر فاكثر. وعلاوة على ذلك كانت الارض ، بين قاعة وقاعة ، ترتفع شيئاً فشيئاً بواسطة درجات ، بينما كان السقف ينخفض باتجاه الطول ومن جهتي المحور . ويرمز ذلك الى صعود الشمس وانحدارها يوماً في السماء . وقد اشتركت تيجان الاعمدة نفسها احياناً بهذه الرمزية ، فتبدو الازهار ، التي تستوحىها ، متفتحة على مقربة من المحور ومنغلقة الى اليمين واليسار ، شأن الازهار الحقيقية التي تفتح اوراقها في وضع النهار وتطبقها عند اقتراب الليل .

وهكذا فانتنا نجد ، بعد البهو ، « قاعة الاعمدة » وهي مسقوفة بالواح حجرية ملقاة على اعمدة مختلفة الارتفاع ، بما يوجد فصحاً بين الالواح يتسرب منها النور والهواء . وبالرغم من ان القياسات نموذجية ، فاننا نذكر هنا بعضها لما تعطيه من ايضاحات ضرورية : تبلغ القاعة الكبرى في معبد الكرنك ، التي اتم بناءها رمسيس الثاني ، ١٠٣ امتار طولاً و ٥٠ متراً عرضاً ويلتصّب فيها ١٣٤ عموداً يزيد ارتفاعها عن العشرين متراً عند محور القاعة ويبلغ قطرها ٣.٤٠م . فلا عجب اذا ما تركت في نفوس زائريها انطباعات لا ينسى عن جلال وعظمة هما فوق الطاقة البشرية .

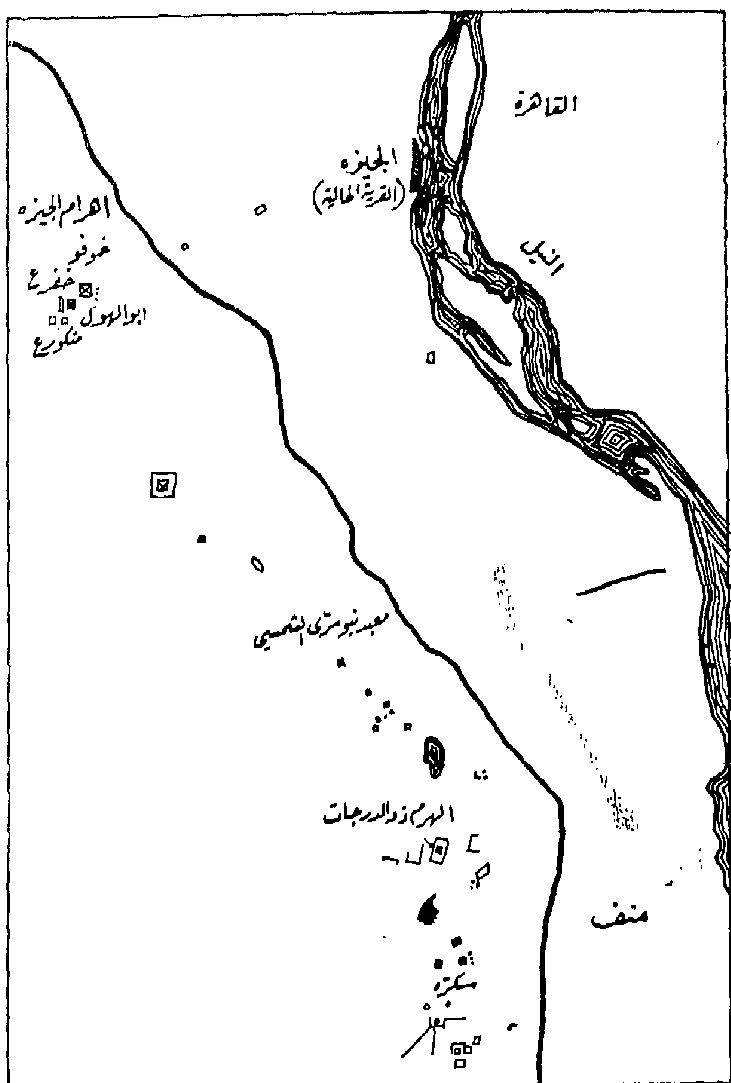
وتقوم اخيراً ، في آخر المعبّد ، الحجرة المعدة لسكنى التمثال اي الآله نفسه ، وهي غارقة في ظلام دامس يفصله عن النور الذي يفرق قناء البهو نور خافت في قاعة الاعمدة . ولا يستطيع سوى كائن بشري واحد هو الملك او منوّضه ان يفيض الخاتم الغريبي الموضوع على باب الحجرة ويدخلها ويحتفل بمراسم العبادة .



الشكل هـ - رسم معبد خنصو في الكرنك (القرن الثاني عشر قبل المسيح)

وتحيط بهذه الحجرة غرف مختلفة تستخدم مستودعات للالبسة والمصنوعات الثمينة . ولكن يتوجب علينا ان نتخيل ايضاً اراضي محاطة بسور اكثر اتساعاً تتوزع فيها مساكن خدام الهيكل والمكاتب والمخازن والمصانع والحداثق والبحيرة المقدسة ، اي كل ما هو لازم لرعاية الآله وللضروريات طائفة الخدم المكرسين لخدمته والعناية بممتلكاته .

وقد حدث ان دفعت الرغبة في بذل مجهود يتصف بالجدة الى اختيار مكان المعبد في بقعة وعرة عسيرة المسالك جداً ، كما هي حال بعض المعابد « المدفنية » حيث يحتفل بعبادة الميت المؤله ، وهي هامة جداً حين يشيّد لها الملوك إبان ولايتهم وتلتصج مع النموذج العام الذي سبق



الشكل ٦ - منطقة منف

وصفه . ولم يقر الرأي ، إلا في عهد متأخر ، على تشييدها بعيداً عن المدفن القائم خارج السهل المروي والمحروث ، فأقيمت في الامكنة الوعرة . واهم هذه المعابد المدفنية تلك التي بنيت عند لحف اسوار دير البحري الصخرية والمتميزة بسقوف تصل بينها السلام الحجرية وتقوم عليها الفناءات ذات الاروقة : معبد منتوحوتب الاول والثاني الذي يعود الى عهد الامبراطورية الوسطى وخصوصاً معبد الملكة حتشبسوت حيث وفق المهندس الى الجمع بين عمله البشري وبيئة طبيعية جليلة الوعرة .

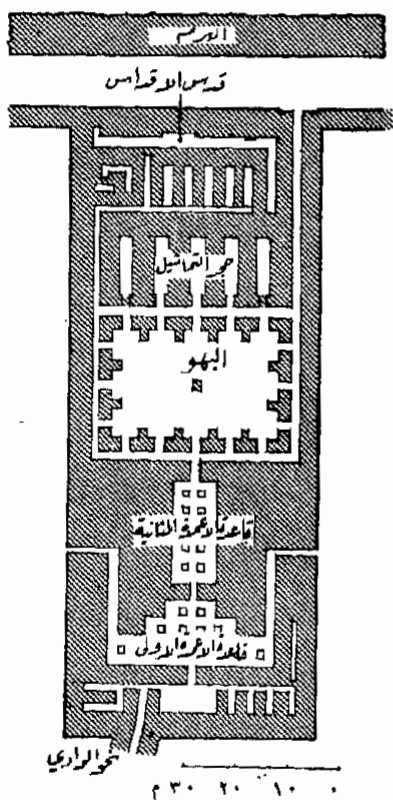
نحتت هذه المعابد جزئياً في الصخر الصلب ؛ وحدث ان نحتت فيه معابد كاملة . فقد امر رمسيس الثاني بنحت اثنين منها في جبل ابي سنبل امام الشلال الثاني ، تتقدمها فناءات في الهواء الطلق وتغوص اقسامها الاخرى في الجبل ، يجدرانها واعمدتها التي ابقى عليها ، من اصل الصخر ، اثناء النحت والتفريغ . وامام اكبر المعبدین ، تقوم اربعة تماثيل ضخمة تمثل الملك جالساً ، وتعاقب ، في جوف الصخر ، عدة غرف ، بما فيها غرفة الاعمدة ، ترتكز على ثمانية اعمدة اوزريسية .

المدفن
لقد اوحى المدفن ، المعد لاستقبال المومياء والتماثيل الكفلاء ولتأمين مسكن للميت الذي عادت نفسه الى جسده ، تحقيقات اكثر غرابة ايضاً ، اذا جاز هذا القول ، لاننا ، اذا ما ذكرنا المدفن في الكلام عن مصر ، ترسم امامنا في الحال ، صورة تلك الاكداس الثلاثة الهائلة من الحجارة المجموعة التي تنتصب في الجزيرة الى الجنوب الغربي من القاهرة . بيد ان الاهرام الكبيرة لا تمثل سوى فترة قصيرة من تاريخ المدفن المصري او بالاحرى ، في نطاق اضيق ، من تاريخ المدفن الملكي .

ان عناصر المدفن الاساسية تبرز بكل وضوح في الابنية المدفنية الاولى التي خلقت ، في عهد الامبراطورية القديمة ، الحفر العادية . فالقبر نفسه محفور على بعض العمق في الارض ، ينزل اليه الناووس في بشر مستقيمة الزوايا . وبعد الدفن ، تؤخذ الاحتياطات القمينة بالمحافظة على سلامة القبر اثناء ردم البشر . وترتفع فوق الارض اكمة صغيرة ما لبثت ان اصبحت نجفاً من الآجر او من الحجر المنحوت وعرفت ، بسبب شكلها العام ، بالمصطلح العربي « مصطبة » . يدخل من جهتها الشرقية الى غرفة اولى هي مكان عبادة الميت ، يتوسطها ، فوق الناووس ، منضدة التقادم الى جانب نصب مدفني . وتقوم وراء هذا النصب غرفة اخرى في المصطبة نفسها وهي « المر » او السرداب الذي يضعون فيه تماثيل الميت . فالنصب اذن حدة فاصل بين عالمين : عالم الاحياء وعالم الاموات لا يتصل احدهما بالآخر سوى بواسطة فرجة ضيقة لا يتجاوز علوها طول الانسان . وينحت هذا النصب بحيث يرمز الى باب - ولذلك دعي « باباً مُضلاً » - كما ينقش احياناً في اطاره تمثال يرمز الى الميت العائد الى عالم الاحياء . وقد يطل احياناً ، من كوة فوق مصراعي الباب ، تمثال نصفي يرمز الى الميت متربعاً زائريه .

فهر ومستودع تماثيل ومعبد ، هذه هي الاقسام الثلاثة الرئيسية في المدفن . وقد اضيفت اليها ، في « مصاطب » الاغنياء ، غرف اخرى تقل او تكثر وفقاً لمكانة الميت . ومن الطبيعي ان يصبح عددها كبيراً في المدافن الملكية .

جرت منذ اوائل عهد السلالة الثالثة محاولات متكررة ادّت الى مثال الهرم القياسي . ولكن لا مراء في ان المجدّد الجريء هو امحوتب ، مهندس الملك جيسر ، الذي صمّم وحقق هرم سكّره ذا الدرجات منضداً فيه ست مصاطب الواحدة فوق الاخرى . وقد شيّد مؤسس السلالة الرابعة اول هرم مربع القاعدة ومتساوي الانحدار . ثم شيّد خلفاؤه الثلاثة المباثرون الاهرام الثلاثة الكبيرة المعروفة : الاول باسم « افق خوفو » والثاني باسم « عظيم هو خفرع »



الشكل ٧

معبد خفرع المدفني في الوجه الشرقي من هرمه

الهرم هو مأوى القبر الامين . والقبر هنا ليس محفوراً في الارض بل قائماً في الهرم نفسه الذي تتشابك فيه الاروقة الكثيرة تسدّها المسالف الساقطة وتفرع عنها معابر لا منفذ لها . ولكن جميع هذه الاختياطات لم تكن لتثني اللصوص عن عزمهم ، فتوصلوا الى النواويس منذ

والثالث باسم « الهى » هو منكورع . ويحذر بناء ، هذه المرة ايضاً ، ان نذكر بعض الارقام . تغطي قاعدة الهرم الاول اكثر من خمسة هكتارات ويتجاوز ضلعها ٢٣٠ متراً ، ويبلغ علوه الاساسي ١٤٦،٥٠ متراً وحجمه الاساسي ٢٥٢١٠٠٠ متراً مكعباً . ويكاد الهرم الثاني يعادل الاول في قياساته (ضلع القاعدة ٢١٥ متراً والعلو ١٤٣،٥٠ متراً) . اما الهرم الثالث فلا يبلغ ضخامة الاول والثاني (ضلع القاعدة ١٠٣ امتار والعلو ٦٦،٤٠ متراً) .

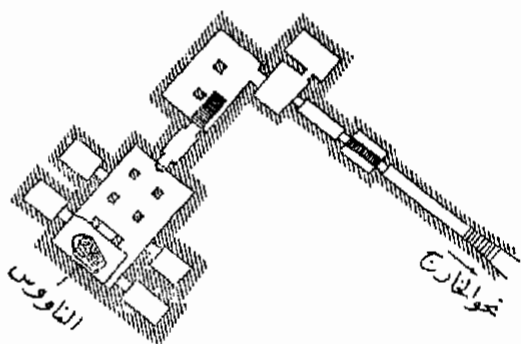
ان الخيلة لتعجز عن تقدير الجهد العظيم الذي بذلته في هذا العمل الجبار جماهير غفيرة مسخرة . ذكر هيرودوتس ان بناء هرم خوفو استغرق عشرين سنة كاملة ، بعد عشر سنوات مكرسة للاعمال التحضيرية وحدها . فهل يمكننا التحقق من هذه الاعداد ؟ ولكن ضخامة المجهود تفتقر شيئاً آخر ، غير السوط في خدمة الكهنة ، هو انسياق الشعب في معتقدات تدفع سيده لان يازمه بهذا القدر من الجهد .

اوائل العهد القديم . وقد قام خارج الهرم امام جهته الشرقية هيكل مدفني يأوي ، في الوقت نفسه ، السرداب والمعبد . وبما ان كل هذه الابنية مشيدة في النجاة الصحراوية ، قام اخيراً في الوادي معبد آخر مسقوف يتسلق المنحدر .

فكلّ هرم من الاهرام الكبيرة ، والحالة هذه ، جزء من كلّ تبرز فيه ، بالرغم مما يفصل بينها ، عناصر المدفن القياسي موسعة حتى الضخامة او منكشة القياسات ، بالإضافة الى الصخر النائي القريب منه الذي استفادوا من شكله الطبيعي لكي ينحتوا منه تمثالاً لابي الهول يعلوه رأس خفرع ، وبالإضافة الى العديد العديد من المدافن والمصاطب والاهرام الاخرى المبنية لاعضاء الاسرة المالكة ولذوي المكافات الرقيقة . والى « الثرب » من منف عاصمة الملوك الاحياء ، او بالحري الى الشمال الغربي منها ، خلست المدافن جلالهم الالهي وعظمة رجال بلاطهم .

كان منكورح قد خفض قياسات هرمه . ولم تقم بعده اهرام ضخمة لان المجهود الذي تتطلبه مرهق جداً . بيد ان مثال الهرم ، الذي تبنّاه حتى الافراد العاديون والذي تحقق على نطاق ضيق وبمواد اقل جودة ،

كالقرميد مثلاً ، قد دام حتى الامبراطورية الوسطى . كان مركز هذه الامبراطورية قد انتقل من منف الى طيبة ، والنجاة الصحراوية ، في مصر العليا ، اكثر تشققاً من الشمال فلا تصلح بالتالي لاستواء الابنية الضخمة . كانت المدافن منذ



الشكل ٨ - رسم ديماس امنوفيس الثاني

(السلالة الثامنة عشرة ، القرن الخامس عشر قبل المسيح)

القديم ، في هذه المنطقة ، تفوض

في السور الصخري ، لاسيما مدافن الامراء المحليين الذين حررتهم عهود الفوضى . وقد منى فراغة السلالة الثامنة عشرة النفس ، من جهة ثانية ، بان تنجو موميائهم من عبث اللصوص فاعتمدوا قبوراً تحت الارض او « دياميس » . اما معبدهم المدفني فقد بقي في السهل ، على مقربة من النيل ، لا صلة تربطه بالقبر المحفور في جوف صخر من صخور احد الوديان القفرية الجافة ، سوى صلة الصوفية . وقد استحق احد هذه الوديان ، بسبب وفرة مدافنه الملكية اسم « وادي الملوك » ، كما اطلق اسم « وادي الملكات » على واد آخر . وكان مندخل القبر ، بعد المراسم الجنائزية ، يسدّ بكل عناية باكوام من الانقاض والهيار . ثم يدخل في الصخر سرداب - يدعى في اليونانية سيرنفوس وهو اسم آخر يطلق على هذه القبور - تكثر فيه المنعطفات والمنحدرات والسلالم يتفرع الى غرف متباينة الاحجام تستند الى الاعمدة عند الحاجة .

بعد أواخر الامبراطورية الوسطى يكتنف الغموض تطور المدفن الملكي ، إذ إن البيضة الطبيعية ، في الدلتا ، حيث انتقل مركز الملكية الرسمي ، غير مؤات للحفاظ على الابنية . فقد اختفت آثار فراعنة سايس . وقد عثر في تانيس ، نحو الشرق ، على مدافن السلالتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين ، ولكنها متواضعة ومحفورة في سور المعابد ولا افر فيها للعصا . كانت الملكية سريعة الزوال إذ ذاك فحدثت ، راضية ، من الجهود التي فرضتها لاجل امواتها .

في العهد نفسه استمر حفر السرايب للافراد في مصر العليا . وقد سعى الافراد دائماً في نطاق ثروتهم ، ولو متأخرين ، الى تقليد العادات الملكية ، معتمدين الهرم وحده او الهرم والمنصبة معاً ، وحافرين الخلايا في الاسوار الصخرية الغربية من مناطق ابيدوس وطيبة . اما الفقراء فلا غربة في ان يكتفوا دائماً بالحفر الوضيعة او ان ينتهزوا ظروف الذوضى والاهمال وانقراض السلالات كي يملأوا بموميائهم القبور المحفورة لسواهم من الاموات .

٣ - النقاشة والتصوير

ارفع الفنون الاخرى هو النقاشة التي لم تعوزها الظروف لتنتشر . فخلق صناعة التماثيل الصورة هو بمثابة خلق الحياة . والتماثيل ضرورية للدلالة على الآلهة والبشر على السواء ، إذ ان نفس هؤلاء بحاجة الى ما يحل محل المومياء الكريمة العتيبة ، اذا ما ارادت العودة الى الجسد . اضيف الى ذلك ما في تزيين جدران المعابد والمدافن واعدهتها من تشويق واغراء . وهكذا فقد وجدت النقاشة المصرية نفسها امام حقل عمل : التماثيل والنقوش الناتجة ، وقد حققت في كليهما تحمناً فنية مذهشة في ضخامة بعضها حيناً ، وفي كمال جليها الفني احياناً ، وخصوصاً في ما يتجلى فيها من صفات جمال وسمو مقصد ودراسة نفسية وفهم للحياة البشرية والحيوانية .

والنقوش الضخمة كثيرة اشتهر منها عدد كبير لا يزال حتى اليوم في حالة جيدة : ابو الهول في الجزيرة ؛ والتماثيل التي تسند الظهر الى الاعمدة المربعة الزوايا عند مداخل المعابد ، « كجباري ممنون » مثلاً ، وهما الاثران الوحيدان اللذان بقيا من معبد امنوفيس الثالث المدفني في سهل طيبة وقد اطلق الاغريق هذا الاسم عليها لانه طاب لهم ان يروا فيها احد ابطال اسطورة طروادة ؛ والتيجان الهائلة ؛ وتماثيل الملوك على شكل اوزيريس الداخلة في الاعمدة ؛ الخ . وقد حققت كل هذه النقوش بقياسات تتناسب وقياسات الانشاءات الهندسية الضخمة ، فعبرت مثلاً عن قوة غير محدودة ، ووثبة تتجاوز المستوى البشري ، وتوق الى غير المحدود ، وكلتها نزعات تكاد تكون طبيعية في بلاد ثرية وخاضعة لقانون قوتين تتحديان عمل الانسان : النيل والشمس .

ولذلك بسرعة أيضاً التقنيات التي برع فيها المصريون منذ القرون الاولى من الالف الثالث . استفاد النقاش ، منذ ذلك الحين ، من الارث الذي تركه له فاحت الاواني الحجرية ، فمرف معالجة اقصى المواد ، كالحجر البركاني والحجر السائقي والرخام السائقي ، وصقلها صقلاً ملبصاً متوفقاً في الاستفادة من الوان الحجر وانعكاساته وعروقه . وقد توصل الى استخدام المعدن في صناعة التماثيل الكبيرة : فتمثال الملك بيبى الاول ، منذ السلالة الرابعة ، قد صنع من الالواح النحاسية المطروقة باداة خشبية ، ونزلت عيناه بحجارة كريمة نادرة ، واللبس وزرة من ذهب . ويستنتج منه ان هذه التقنية لم تكن حينذاك في اول عهدها ، بالرغم من اننا نجهد كل شيء عن المحاولات التي سبقته . وما من شك في ان هذه التقنية قد تكاملت فيما بعد واعتمدت التذويب واللاحام ، لا في التماثيل الكبيرة ، بل في التحف والتماثيل الصغيرة الكثيرة التي ستبقى مصر منتجتها الكبرى والتي تستصدرها الى العالم الهليني بأسره والى العالم الروماني من بعده .

وقد فرضت الديانة والجلال الملكي على النقاش مصطلحاتها وقديستها بفعل وثوق الصلة بينها . فلا يهدف الفنان المصري الى الجمال كجمال ، ولكن في سبيل غاية محددة تسمو على ارضاء هواه . فلا مجال اذن لتفسير الهيئات . وقد لاحظ افلاطون الخطر الموضوع على ابتداع كل ما هو خارج عن التقليد . اجل قد نجد بعض الحرية في التماثيل المعدّة للزبن الخصوصيين ، وقد نجد بعض المرأة في التماثيل الرسمية نفسها . ولكن هذه المرأة ، اذا ما استثنينا مرحلة تل العمارنة ، في عهد اخناتون ، تبقى محدودة وفادرة . والتمثال ، جالساً كان ام واقفاً ، يصنع وفقاً لما يفرضه نوعه من ميزات ويرتب ساقاه وذراعه ويدها ترتيباً معيناً . وهو يبدو في اغلب الحالات كوحدة من كمية تجارية كبيرة .

وغالباً ما يحدث ، في الواقع ، ان الفنان لا يعبر الساقين والذراعين سوى اهمية محدودة فيصنع الجسم وفقاً لقياسات قانونية ويكسر للوجه جل مجوده . وهو يحوز هنا اكمل نجاحاته . فقد توصل الى تحقيق التشابه الضروري لهوية من يجب تأمين الحياة له ، وتحقيق المثل الذي يعكس تصميمه المجتمع الالهي والبشري والذي يتيح له استخلاص ميزات العقلية والادبية ومشاعره النقية . وهكذا ، من عهد الى عهد ، ومن تحفة الى تحفة ايضاً ، بحسب صفة الشخص الممثل الرسمية او الخاصة ، اختلفت الاهمية المعطاة لهذين الاتجاهين اللذين تسهل دائماً مع ذلك رؤيتهما .

يتعذر علينا هنا ان نذكر كل شيء . ولكن كيف لا نعدد على الاقل اكثر التحقيقات سحراً . وهي اليوم مفخرة المتاحف التي تعرضها ؟ وستقوم لذلك باختيار شاق لانه يفرض علينا التضحية بالكثير منها .

فمن عهد الامبراطورية القذمية نذكر رأس خفرع يحمي جناحان يبسطها وراءه صقر هوروس ويبرز فيه صفاء جلال لا حدود له ؛ والتمثال الخشبي لاحد موظفي السلالة الرابعة وهو قوي

الدلالة ويتم عن سلامة القلب ، حتى ان عمال مارييت قد لقبوه بشيخ البلد ؛ وثقال الكاتب المقرص المروض في متحف اللوفر ، وهو من الخشب ايضاً ، تشع عيناه انقباهاً وذكاه حاداً وتمثل وظيفته في وجهه . من الامبراطورية الوسطى نذكر قنايسل حتشبوت وامنوفيس الثالث الرشيق ، بالرغم من آثار التخثنت فيها ، والتمثال المروض في متحف تورينو والذي يحمل اسم رعسيس الثاني . ومن عهد سايبس اخيراً نذكر رؤوس شيوخ عدة قعرها اهم فوق ما قعرتها السن .

بيد انه يحذر بنا ان نفصل تحف عهد تل العمارنة عن هذا الرواق المستطيل في الزمن والمتصف بالوحدة بالرغم مما فيه من فروق ظرفية . فعهد تل العمارنة قد ادخل ، على التماثيل والنقوش الناتئة معاً ، لباً من الواقعية والقسوة : بدانة الاوراك ، وانتفاخ البطن ، وسماجة الجمجمة ، وطول الاعضاء والرقبة وضعفها ، وتواء الذقن في الوجه . وقد برز كل هذا في عهد اخناتون منذ بداية ملكه ، حتى قبل ان يقاطع امون . فبعد رفض مصطلحات القانون حول الشكل الخارجي ، املت الهيئات التي اتصفت بعد ذلك بالميوعة والحفارة والتضع ولم يعد يشع منها اي جلال . غير ان هذه النقوش نفسها ، التي تشبه الصور الاستهزائية الى حد بعيد ، تأسر القلب بخلاص المشاهد العائلية — الملكة او الاميرات الصغيرات على ركبتى الفرعون مثلاً — وبسحر رأس نفرتيتي المروض في متحف برلين الذي لم يفقد شيئاً من صفاته المستحب بالرغم من انتشار غاذجه التجارية ، وبدراسة الشوانية في اجسام الفتيات ، وبالروحانية الفائضة في نظر الملك الذي ينيره وحي مسكر انزله الهه عليه . اجل ليس هذا العهد سوى هنيهة في تاريخ النقاش المصرية ، ولكنها هنيهة لا تنسى بسبب قصرها الذي لم يتح لها تثبيت مصطلحات فنية جديدة تفسد هي معها في تصنع يميل الى الزوال .

اضيفت الى الكتابات التي ازدانت بها جدران الابنية نقوش ناتئة
التعنى الناقء والتصوير
اتسعت لها مساحات كبيرة يجب تجميعها في هذه الجدران . ولكن
النقوش لم تملأها كلها ، لا بل انها ، حتى في المساحات التي زينتها ، تتصف بطابع من السرية ابعد من ان يؤثر في شعور العظمة تحدته رؤية الجدران بمناصرها المتناسقة . واذا ما استثنينا انصاب الابواب المضلة ، فاننا لا نشاهد نقشاً كثير التواء . اما النقش القليل التواء فيكاد يكون منعدم السماكة بحيث لا يظهر فيه الظل سوى قسمه الدائري . وقد يحدث ان لا يكون هنالك تسوء البتة ، لا سيما في النقوش المقعرة ، المعتمدة في خارج الابنية للأقلال من خطر التعديات ، وفي داخلها ، بدافع السرعة الذي نلسه خصوصاً في عهود عظام البنائين من فراعنة الامبراطورية الوسطى ، كرعميس الثاني مثلاً .

وبرزت في بعض الغرف المظلمة او القليلة النور حاجة الى ابراز الرسم فاوجب ذلك ، منذ البداية طلي النقوش بالالوان . ولم يمض وقت طويل حتى استعملت الالوان وحدها بسبب تدني

سعر كلفتها وسرعة وسهولة إنجازها ، فاستعاض بها عن النقوش النائية وظهرت فعلاً في بعض المدافن الخاصة العائدة الى عهد الامبراطورية القديمة . ثم انتشر استعمالها حتى كادت تستعمل دون غيرها ، في السراذيب عموماً وحتى في سراذيب الملوك انفسهم ، بسبب شوائب الصخر ، الذي يكفي ان يطلى بالدهان حتى يصبح صقيلاً .

لذلك كانت من الطبيعي ان يخضع هذان الفنان اللذان تجمع بينهما غاية واحدة ، اعني هما التصوير - دوناً ظلالات - والنقاشة النائية ، الى قواعد واحدة هي قواعد الرسم . وكان هذا الرسم اصطلاحياً بسبب رفضه تصوير الاشياء بحسب رؤية العين وتمثيلة الجسم البشري تمثيلاً كيفياً . ففي الجسم مثلاً ، لا يرى الرأس الا من جانبه ، بينما ترى العين مقابلة وتترى مقابلة ايضاً ، الا في حالات نادرة جداً ، الاكتشاف واعلى الجذع الذي لا يرسم فيه سوى ثدي واحد . ولا ترسم الاعضاء الا من جانبها ، وترى في اليد الاصابع الخمسة بينما تخفي باهمم الارجل الاصابع الاخرى كلها .

يسهل علينا ان نطيل لائحة هذه المصطلحات . ومن نافل القول انه لا يجوز ردها الى خرق الفنان بل الى احترامه لتقاليد دائمة ثابتة . فمهاره الرسام ليست بحاجة الى دليل .

وهو لم يتصرف بموجب مهارته الا بحكمة عندما يعالج المواضيع الرسمية . والمواضيع الرسمية كثيرة نقتصر هنا على ذكر بعضها : مراحل العبادة الرئيسية ؛ والزواج الالهى اى اتحاد امون بوالدة الملك القبل ؛ وعناية الآلهة بهذا الملك ؛ والاعياد الملكية الكبرى ؛ وتشيد المعابد وزخرفتها ؛ وقيام الغرباء بتقديم الجزية ؛ والانتصار على العدو ؛ والى ما هنالك ... ولكن ما هو عدد هذه المواضيع يا ترى ، اذا ما قورن بالمساحات المطلوب تجميلها : اعمدة المعابد المربعة الزوايا ، واروقتها ، وجدردان غرفها ؟ كل هذه المواضيع قد عولجت دون ملل ودون طابع الفردية بحيث ان الفرعون قد استطاع اكثر من مرة ، ان ينسب لنفسه نقوشاً نائبة انجزت في عهد احد اسلافه . وفي تكرارها الرتيب دليل قاطع على استمرار الديانة والمثل الملكي الاعلى طيلة الوف السنين .

ولكن لا يصح القول نفسه في غير ما للملوك من قصور وبيوت ومدافن . فتقسم هذه الى غرف عديدة قد ضاعف منها الجدران وزاد في رغبة الانتفاع بها للترتين . ولم تقف عبادة الاموات دون ذلك ، بل دعت اليه بكل تشويق . فرسمت عليها مشاهد الجنائز وعمليات وزن النفوس . ولكن الجنائز ووزن النفس انما يقودان الى حياة ثانية لا يمكن تخيلها اكثر سعادة الا بتشييبها بالحياة الفانية . وكان لا بد ، بالاضافة الى ذلك ، من مواجهة امكانية انقطاع خدمة القرابين على يد الاحفاد او الكهنة الاختصاصيين . فكانت افضل طريقة ، للحوول دون هذه الامكانية ، اللجوء الى ما في الصورة من قدرة خلاقة وتصوير كل ما قد يحتاج اليه الميت وكل ما يمكن ان يدخل البهجة في قلبه . وكما ان باستطاعة قناثيل السرداب ان تقوم مقام المومياء ، كذلك يكون باستطاعة النقوش او الصور ان تحمل محل واقع غير متوفر .

هذا كان المنطلق العقائدي لرسوم متنوعة لا تخصى . فهناك مشاهد التقدّم مع كل ما يمكن تخيله من ماكل ومشارب وازهار والبسة تتمثل بمنتهى السخاء والشاهية والبذخ . وهناك جميع مشاهد الحياة الريفية والمهنية الشاقة ، وقد رسمت للدلالة على اغلال هذه الحياة ولإعادة الميـت الى وسط اراضيها والعمال الذين اشرف على نشاطهم . وهناك أيضاً مشاهد القنص والصيد والملاحـة والتـنزه والخلوص العائلي والولائم التي تتجلى البهجة فيها بالموسيقى والرقص والبهوانيات والشعوذات ، وهي مشاهد غنية كسابقاتها بما توحى من ذكريات وذكريات . وتكاد هذه اللوحة لا تقع تحت حصر . ولو جاز لنا ان نفق بهذا النشاط الداعب المنسوب دائماً الى اليد العاملة ، لاستعادت هذه المجموعة الكبيرة من الصور كل عمل وكل هنية من اعمال وهنيات الحياة المادية في مصر ، بمهامها وافراحها اليومية ، لان مصر قد استحرّت في مصاعبها لان تنقل الى العالم الثاني طيب العيش الذي لم يعوزها منه شيء على هذه الارض .

بيد ان هذه اللوحة لا تخلو من مواضيع تقليدية يكثر تكرارها في حقلي الاجتماع والفن على السواء . ومن النادر ان لا يعالج الموضوع الواحد مراراً عدة ، ولكن بفروق تسترعي الاهتمام . وفي الواقع تحرر النقاشون والمصورون من بعض قيود الطلبات الرسمية وعملوا بروحي تخيلتهم ، دون ان يتركوا لها العنان ، فأدخلوا على الهيئات بعض التغييرات في الجزئيات خصوصاً . وهكذا تسربت الى المشاهد النموذجية نفسها اشياء جديدة مستمدة غالباً ، مفتنة ولطيفة دائماً ، وغير مستقبجة ابدأ . فالشرمون انفسهم وحتى الثرعات يحتفظون باناعتهم عندمسا يتقيأون اطعمتهم . وفي الوقت نفسه استطاع التصوير ، الذي احتل مركز النقاش في هذه المواضيع الخاصة ، ان يبلغ مستوى الفنون الرفيعة في اواسط الامبراطورية الحديثة . فقد لفت تمثيل الحيوانات الانظار منذ زمن بعيد ، ولكنه بلغ القمة ، حينذاك ، بمجدة الملاحظة والحياة المصطفقة التي تملأ الهررة البرية والطيور وحتى الحيوانات المجترة .

الفنون الثانوية
لو اتيسح لنا القيام باستعراض الفنون المصرية كلها لوجدنا كثيراً من الفنون الثانوية التي تستحق ذكراً خاصاً ، لا سيما الصباغة التي تبهـر النظر بدقتها وقيمتها ، والحكاكة التي كشفت مفروشات مدفن توت عنخ آمون عن قطعها الفخمة العجيبة . وان في كل هذه الفنون دليلاً على مهارة في التقنية لا تجارها مهارة وعلى ابتكار يحافظ على الاناقة في اغرب التحقيقات وعلى انتاج مكثـار نادر . ولا عجب في ذلك ، اذ ان زين هذه الفنون من الطبقات الرفيعة التي لم تكن غريبة عن أي مظهر من مظاهر الظرف والاناقة . واذا ما قل عدد هؤلاء الزين في مصر ، بفصل مصائب الدهر القاسية ، تلجأ مصر الى التصدير على نطاق واسع مع انها لم تلجأ اليه الا عرضاً في عهود ازدهارها .

وان ندرة هذا التصدير نفسها ، قد أسهمت ، خلال أجيال طويلة ، في رفع أثمان القطع واذاعة شهرتها في العالم المتوسطي الذي سبقته مصر بأشواط بعيدة . فانصبت الاطماع من كل

جبهة على منشأ هذه الروائع ، بينما وقف الرحالة والمرزقة معجبين بتلك الأبنية الضخمة التي استطاعت مصر وعرفت ان تشيدها . فتحت مصر ابوابها للأجنبي ، وحتى اواخر التاريخ القديم ، استألت اليها السياح وقدمت للهواة حاجاتهم من التحف الجميلة والشمعية . وبالأجمال لم ينقل الأجانب عن قننها الا بعض التقنية ولم يستلموها قط ما فيه من احياء عميق . ولم يبرز الفن المصري ، على صعيد الجماليات ، مريباً او موجهاً لأي فن قديم .

ولعل مرد ذلك ان الفن المصري قد جهل الانسان . فهو لم يخصص له مكانه ، بل اهمله كما أهملته كل الحضارة التي هو لها ، في اكثر الأحيان ، بمثابة إزهار عظيم . ولم يدرسه كفرد الا قليلاً ، كما لم يخدمه الا نادراً خارج الطبقات الحاكمة التي أحاطها بالجلال والعظمة أولاً وباللطف والظرافة ثانياً . ونظراً لارتباطه الوثيق بها ، بسبب رسالته الدينية والسياسية ، تعذر عليه التخلص من قيود التقاليد الرسمية ومن الاحتذاء بماض قديم محقق . وكان مكتوباً له ، في عالم نزعت قواه الفنية الى مثل أعلى آخر منذ قبل واسط الألف الأول ، ان ينكشف على نفسه ولا يؤثر في غيره ويعيد الصيغ نفسها أو يتكلف الرقة .

ب - الحياة العقلية

لم تترك الحياة العقلية في الحضارة المصرية طابعاً شبيهاً بذلك الذي تركه كل من الديانة والفن . فقد كانت ، شأن الفن ، في اكثر مظاهرها ، بمثابة ملحق للديانة تشتق منها وتخدمها . ولكن تحقيقاتها متواضعة جداً اذا ما قورنت بتحقيقات الفن . وهي قد شابهت ، في كثير من خطوطها ، الحياة العقلية التي قابلتها في النمو في بلاد ما بين النهرين . فهي قد انطلقت من نقطة واحدة ، من تلك الأرومة الروحية التي لم ترض قط ان تنفصل عنها ، وسارت في اتجاهات مماثلة ، خاضعة لمشاغل وتصرفات تكاد تكون واحدة ؛ ولم يتفرد بصفات مميزة حقاً سوى الأدب بمعناه المصري . بيد ان سكان ما بين النهرين قد تخطوا المصريين في كل نواحي هذه الحياة تقريباً . لذلك سيكون من الجدوى بمكان ان نفرد للفصل الذي سيخصص بهم بياناً اكثر استفاضة عن الوسائل المعتمدة والنتائج المحصلة . وفي نظر الاغريق ، يبدو ان المصريين قد بلغوا بل تجاوزوا ، على صعيد الفكر والعلم ، الشهرة التي بلنها سكان ما بين النهرين . ولعل مرد ذلك الى ان مصر المفتوحة على البحر والداخلية ، قبل فتح الاسكندر ، في صراع ضد ملك الفرس ، عدوهم ، كانت تستهويهم وتفتنهم اكثر فاكثراً . ولعل لذلك سبباً اقل تعقيداً ، وهو ان المصريين ، الذين يهيّدون الكلام ، قد تفوقوا في التباهي والتفشير .

ولنحنا ابعد ، على كل حال ، من ان نحقق لنا احتقار تحقيقات العقل المصري .

مارس المصريون الكتابة منذ اواخر الالف الرابع قبل المسيح . وقد توصلوا اليها بانفسهم دون ان ينقلوا شيئاً عن اسلوب غريب ، لان الرموز التي اعتمدها مستعارة من المشهد الذي تبسطه بلادهم امامهم ، لاسيما الحيوانات والازهار الخاصة بها . ولكنهم شأن سكان ما بين النهرين الذين استنبطوا هم ايضاً كتابة قد تكون اقدم عهداً ، لم يعرفوا او لم يريدوا تبسيط طريقتهم في سبيل جعلها اسهل منالاً .

تنطلق هذه الطريقة من مبدأ رسم الكلمات - او اجزاها - بصورة المسمى بها . فصورة الساق تعني « الساق » مثلاً بصورة الساعد تعني « الساعد » . ولكن ما لبث الرسم الواحد ان انطوى على معان اخرى كثيرة : المعنى الرمزي ، لتجريد العمل الذي يقوم به المسمى المرسوم او الفكرة التي توحى رؤيته ؛ والمعنى الصوتي ، لنسخ كلمات يؤديها صوت واحد ؛ والمعنى المقطعي ، لكتابة كلمة مركبة من اكثر من مقطع واحد يقابل كل منها كلمة ذات مقطع واحد ؛ والمعنى الاليجدي اخيراً لاربعة وعشرين رمزاً يقابل كل منها حرفاً اما صحيحاً ولما قريباً من حروف العلة . وقد وجب ، امام خطر الالتباس والتشويش الدائم ، توضيح معنى كل رمز من الرموز بسبب انطوائه على مثل هذه الفروق الكثيرة . لذلك وضعت اشارات تحديدية الى جانب الكلمة التي يراد كتابتها بهذا الشكل او ذاك . وهكذا ، بعد ان توصل المصريون الى الاليجدية بتحليل الاصداء التي ترافق الصوت ، لم يهملوا ، حين اعتمدوها ، الاساليب الكتابية القديمة ، بل جعلوا من الاليجدية طريقة اخرى جديدة واستعملوها بالاضافة الى الاساليب الاخرى . فكانت النتيجة تعقيداً كلياً .

لم تبسط الا الرموز نفسها . فكان الرسم الاساسي يتطلب مهارة ورشاقة ويحد من السرعة في الكتابة بما يستلزمه من تفاصيل وفوارق . ولم يحتفظ به ، على غلظه هذا ، الا للكتابة على الخشب او الحجر او المعدن ، اي ، عملياً ، للنصوص الرسمية التي اوجد بها عنصراً زخرفياً للابنية التي تكاد تضطبع كلها بصيغة دينية . لذلك اطلق الاغريق على هذه الرموز اسم « الهيزوغليف » اي « النقوش المقدسة » . اما الكتابة الرانجية التي شوهت واقتصرت فيها على القسم الدائري من الرموز ، فهي اولا الكتابة « المقدسة » (وهذه التسمية كاذبة) المعتمدة على البردي في العهد الفرعوني كله ، وثانياً الكتابة « الشعبية » في عهد الانحطاط .

الكاتب : المدارس
و « بروت الحياة »

ومها يكن من الأمر ، فان تعلم القراءة والكتابة كان أمراً شاقاً يتطلب سنوات مراس طويلة . وكان هناك « علم » حقيقي للكتابة يحصل ببطء في مدارس القصر او المعابد التي يبدأ التردد اليها منذ الصغر . فالتارين تبدأ على الواح من الحجر الطريء ، او على قطع خزفية ، قبل ان تلامس على البردي . ولم يهمل استعمال هذه الخزفيات قط ، حتى في الادارة ، للوثائق الشاوية . وقد توافر في مصر النبات المائي الذي يؤمن المادة الخام للبردي ؛ ولكن اليافه تقتضي تحضيراً طويلاً قبل ان تصح لفافات وترسم عليها الرموز بواسطة منقش غضل في الحجر .

ولم يقتصر التعرّف على الناحية المادية ، بل رافقه ، بحكم الضرورة ، ترويض عقلي صاعد يستلزم ، فيما يستلزم ، قراءة النصوص ونسخها وتفسيرها واستظهارها . وبهذه الطريقة ، كانت معارف كثيرة تسلك طريقها الى ذهن التلميذ ، فيتدرج رويداً رويداً الى تعاليم تتباين فيها صفة التخصص ، ويقطع فيها اشواطاً بعيدة ، اذا ما اقترن انقياده بالنشاط اللازم . فكانت طبيعياً والحالة هذه ان يسود الاعتقاد بان العلوم جميعها ، من حيث انها تؤلف كلام مع الكتابة التي هي بمثابة المفتاح لها ، اوحاها للبشر الاله الكاتب « طوخ » .

وتفسر هذه الظروف المادية ، الى حد بعيد ، النفوذ الذي تمتع به الكاتب ، بصرف النظر عن سلطته كعضو في الادارة او الكهنوت . فهو قد استقى العلم ، طيلة سني طفولته ، من مصادر يستحيل على الجاهل الاقتراب منها . لذلك فهو لا ينتخب من الطبقات الاجتماعية الدنيا ، اذا ان هذه الدروس الطويلة اعتبرت ترفاً كالياً . فكان تمقيد طريقة الكتابة ، والحالة هذه ، حاجزاً اجتماعياً لا يمكن تجاوزه .

وكان في بعض المعابد ، الى جانب مدارس الكتبة ، معاهد تعرف « بيوت الحياة » لان الطب كان احد التعاليم الرئيسية التي تتلقاها فيها نخبة الطلاب . وكان قوام هذه « البيوت » الاول مكتبة كاملة ؛ ويتناول التدريس فيها الاستطلاع ، والحساب وتدوين حوليات الاله او الملك المقدسة ، والتعمق في العقائد الدينية .

تباهى كثير من الملوك بمعارفهم الواسعة ، ولا عجب في ذلك . افلا يعرفون اكثر من امثالهم ، بفضل مركزهم ، كل الاسرار الالهية ؟ وتباهى كثير منهم ايضاً بعلاقتهم ببيوت الحياة وبسماخاتهم عليها ، لا لانها ملحقة بالمعابد فحسب ، بل لانها بيوت الحياة . وفي عهد الاحتلال الفارسي نفسه ، جرى ترميم احد هذه البيوت في معبد سايبس الرئيسي باسم داريوس الاول : « استه وادخلت اليه كل تلامذته الذين اخذتهم من اصل عريق لا من بيئة وضيعه ؛ وجعلت عليهم ، لكل الاعمال ، علماء في كل الحقول ... » وبالرغم من ذلك ، قاننا لا نلصق هنا بمجهوداً او تعطشاً للمعرفة شبيهين بما ينم عنه قيام مكتبة اشوربانيبال في القصر الملكي نفسه . ربما كان امنوفيس الرابع اخناتون لاهوتياً ؛ ولكن اسلافه وخلفاه ، على معرفتنا بهم ، يبدون وكأنهم كرسوا نفوسهم لمهامهم الملكية ، مؤثرين الاستفادة من نشاط العلماء العقلي على الاسهام شخصياً فيه .

ثم ان العلم نفسه ، في معناه المحصور ، يخضع للرغبة في فعاليته العملية لا للعلم الصحيحة الرغبة في المعرفة الحقيقية عن طريق التفسير . فهو انما يبحث عن صيغ ذات فعالية دون اكتراث لبسوغ التجريد في اكتشاف الصلة القائمة بين ما يلاحظه من محسوسات .

يحتل علم الحساب ، الضروري للإدارة ، مركزاً رفيعاً مرموقاً ؛ وله المقام الأول في تربية كاتب القد . ومع ذلك فإنه لا يزال علماً أخرق . وإذا طبق المصريون القاعدة العشرية ، فإنهم ، كغيرهم من شعوب التاريخ القديم ، قد جهلوا الصفر . عرفوا الجمع والطرح وجاهلوا العمليات الحسابية الأخرى التي لم يستطيعوا إجرائها إلا بالاستناد إلى العمليتين الأوليين . أما الهندسة فلا نسمو أبداً إلى النظرية . فيبدو ، بكلمة مختصرة ، أن الإغريق قد جتأوا الواقع الراهن الواهن حين نسبوا إلى أقدم علماءهم تحقيقات كثيرة منقولة عن مصر . لا شك في أن مجاحات المهندسين المصريين التقنية ، في حفر الآقنية وتشديد الابنية الضخمة ، أمر لا ينكره أحد عليهم . ولكن هل يدل ذلك على شيء آخر غير المهارة التي هي ثمره التجربة والاختبار ؟

وما من ريب في أن التبصر في السماء قد أثار اهتمام شعب أسكن فيها كبار الآلهة ، وبنوع أخص ، اهتمام كهنة هليوبوليس المكرسين لعبادة الشمس ، رع . وقد حل رئيس كهنتهم هذا اللقب الرسمي : « أكبر الرائين » . فقد لاحظوا إذن بعض الأحداث الفلكية ، ولكن لم يبلغوا بملاحظاتهم ما بلغه سكان ما بين النهرين من علم منظم مفيد ، فلم يعيروا أهمية ، مثلاً ، للكسوفات الشمسية ولم يهتموا لأدراكها قبل حدوثها . أجل أنهم قد حققوا فتحاً مبنياً في اعتماد الروزنامة الشمسية ، ولكنهم لم يقدموا على تحسينها بالرغم مما انطوت عليه من شوائب .

وقد انطلقوا ، للتوصل إلى هذه الروزنامة ، من اتفاق غريب لا يصح إلا على خط واحد من خطوط العرض ، هو خط منف - هليوبوليس ، مما يحدد مكان الملاحظة بالضبط والوسط العلمي الذي استخلص نتائج هذا الاتفاق . فكل سنة ، في التاسع عشر من تموز ، وهو اليوم الذي تظهر فيه « مياه التجديد » الأولى ، أي ابتداء الفيضان الذي تتوقف عليه حياة البلاد ، تبزغ فوق الأفق ، مع اشراق الشمس ، النجمة سوتيس (الشمرى) التي يمثلون بها إيزيس . وبين هذا التاريخ والتاسع عشر من شهر تموز التالي تمر ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً قسموها ، بتأثير من الروزنامة القمرية القديمة ، إلى اثني عشر شهراً متساوياً من ثلاثين يوماً ، وضافوا إليها خمسة أيام متممة . وهنالك ، كما نعلم ، نقص يقارب ربع النهار ، يتولد منه في البدء المحراف طفيف لا يلبث أن يلاشي التوافق بين الروزنامة الرسمية وبين مواعيد تعاقب الفصول وفيضان النيل وبنوع سوتيس مع اشراق الشمس .

استناداً إلى هذه المعطيات ، استطاع علماء الفلك المعاصرون أن يثبتوا ، بعملية حسابية ، أن الاتفاق الذي كان منطلق هذه الروزنامة الشمسية قد حدث أما بين ٢٧٨٥ و ٢٧٨٢ ، وأما بين ٤٢٤٥ و ٤٢٤٢ قبل المسيح . ومن الجائز مبدئياً أن نتردد بين هذين التاريخين ، ولكن بعض الدلائل تدفع بنا ، على العموم ، إلى تفضيل التاريخ الأقدم . ومهما يكن من الأمر ، لا سيما وأن الشيء لم يتقرر إلا بعد سنوات طويلة من الملاحظات السابقة ، فإن هذا النجاح الباهر يرقى إلى عهد متطاول في القدم .

إنه لنجاح هام ، ولكنه نجاح غير مكتمل . ولم يتقرر على معرفتنا ، إضافة يوم سادس

متمم الى الايام الخمسة الاخرى ، الا في السنة ٢٣٨ قبل المسيح في عهد احد البطالسة . وهنالك على نقيض ذلك ، نصوص كثيرة تعرب عن الحزن الذي تسببت به « السنة العرجاء » . وقد مست الحاجة عملياً الى اصلاح عيوبها ، ولدينا الدليل الثابت على ان العلماء قد شرعوا بالفعل يحرون العمليات الحسابية اللازمة . ولكن روزنامة الثلاثمائة وخمسة وستين يوماً ما زالت ، مع ذلك ، تعتبر رسمية دون غيرها .

العلوم الطبيعية والسحر كان امام الطب ، بفضل معالجة الجثث ، حقل اختبار واسع وكبير الفائدة ، فاستثمره اياماً استتار وبلغ شهرة واسعة جداً اعترفت له بها الشعوب المجاورة . فطلب الملك الفارسي قورش طبيب عيون من الفرعون واعجب الاغريق يعدد الاطباء المصريين المرتفع وبتخصصهم في الحقول الصحية المختلفة : العيون والرأس والاسنان والبطن والامراض الداخلية ، كما يذكر هيرودوتس . واعجبوا كذلك بأرائهم الصحية الدقيقة حول تناول الاطعمة مع ما تفرضه من ادوية منظفة ومقينة متكررة استعملها المصريون بانقياد وطوعية فجعلت منهم ، بمساعدة المناخ ، « اوفر الناس صحة سليمة » . ربما كانت هنالك « كتب مقدسة » طبية ، اي مستظهرة ومحفوطة في المعباد ، ولكن البرديات التي تعطينا اليوم فكرة عنها توحى لنا ان العلم الذي انطوت عليه ، بما في ذلك علم التشريح ، كانت علماً موجزاً ويفتقر ، في اكثر الاحيان ، الى مبادئ الاساليب العلمية نفسها . وقد ذكر ذيردوروس الصقلي ان الطبيب يتعرض للدعوى وعقوبة الموت اذا ما انحرف عن التعاليم الطبية القانونية ، لان « المشتري قد ارتأى بأنه يصعب اكتشاف طريقة علاجية افضل من الطريقة المعتمدة منذ امد بعيد التي توصل اليها رجال الفن » . وبديهي ان هذه المحاذير لم تكن لتشجع المحاولات في سبيل التقدم .

يصح القول نفسه عن علم الكيمياء المقتصر على الاختبار التقني في صنع المعجونات الملونة والقيشاني والزجاج وفي استخراج المعادن ومزجها . ويجدر التنويه هنا بما توصل اليه هذا الاختبار من ابداع واقتنا .

ولسنا بحاجة للتشديد على « بيوت الحياة » الكهنوتية ، لنلمس مرة اخرى ان للديانة تأثيرها . فهي قد أفرزت في نطاقها الخاص مركزاً هاماً للسحر فكيف لا يتمتع السحر ، منذ البدء ، بمركز رفيع في النطاق العمي او في النطاق الذي قد يصبح عملياً ، لا سيما وان العمل فيها يتناول الطبيعة نفسها ؟ لذلك فقد استمر وجود السحر بصورة دائمة . والعقل لا يخضع البتة لقوانين المنطق وحدها . لا بل انه ما شعر قط بوجودها . ويسهل علينا هنا ان نسرده الامثلة الكثيرة . فالروزنامة مثلاً تنطوي على أيام فال وايام شؤم تبرزها بعض الحوادث في حياة هذا او ذاك من الآلهة ، وهذه الايام ذكريات سنوية لهذه الحوادث . وهنالك ادوية تشفي المرضى في بعض الاشهر ، بينما هي تبقى دون جدوى في اشهر اخرى . وتوافقها ، عند الاستعمال ، الرقى

والمراسيم . وقد حرص الناس على ان يحملوا السجائم والعوذ من كل نوع . ولم يكن ذلك وقفاً على الشعب وحده . ففي عهود الانحطاط على الاقل طفت موجة البخر في كل مكان .

وكان للسحر اثره البين في الطب بنوع خاص ، لأن علمي التنجيم والكيمياء لم يبرزوا قط في مصر برونهما في بلاد ما بين النهرين . غير ان الرومان والاعريق ، الذين تأثروا بالسحر الى حد بعيد ، لم يحسنوا التدقيق في ما رأوا . فقد بدا لهم الشرق عموماً مهداً للمعارف السرية التي كثيراً ما نهلوا منها عن طريق اشخاص التبس في جنسياتهم .

يستدل من احد التقاليد المشكوك بها كثيراً ان افلاطون قد أقام اقامة طويلة في مصر الأدب وانه أمعن في التحدث الى كهنة هليوبوليس . واذا هو لم يحصل بالقرب منهم على معارف فلكية جديدة ، فان في قوة عقيدتهم حول الحياة الثانية ما اثر فيه وعمل فيه عمله . وان « نصوص الاهرام » ، في هذا الموضوع ، جديرة بكل تقدير . ولكن الأدب المصري الذي لا يزال يحرك منا الشعور احياناً ليس مدينأً بديمومته الى هذه النصوص .

كان الأدب المصري مكثراً ولم يصل الينا منه الا النذر اليسير . وقد أتاحت لنا الظروف ، اكثر من مرة ، فيما سبق ، ان نذكر بعض انتاجاته ، لا سيما ما يتصف منها بصفة سياسية واخلاقية ، كـ « التعاليم » و « الأحاديث » التي تعبر ، بفم الملك او بفم احد العظماء ، عن افكار يتجلى فيها نبل رفيع صارم . ويبدو ان العصر الذهبي ، لمثل هذا الأدب ، هو عهد الامبراطورية الوسطى ، الخليفة المباشرة لعهد الفوضى الذي بلبل الروح المصرية في اعماقها ، ومقيمة النظام الجديد الذي ارسته على مثالية لها نزعاتها الجديدة . ولكننا لا نعرف هذه النصوص الا عن طريق نسخ متأخرة عنها ، مما يثبت استمرار شهرتها .

وهناك مؤلفات اخرى تنتسب الى ألوان أدبية مختلفة . فقد ترك لنا عهد تل العمارنة نشيداً لأتون ينسب الى الملك نفسه ويفيض بنفحة شعرية أوحاها له منظر الطبيعة المباشر . ولكن هذه السذاجة وهذه النضارة اللتين سمنا هنا الى مستوى اللاهوت ، تبرزان ايضاً في مؤلفات معدة لعامة الشعب ، اعني بهما القصص . تظهر القصص منذ الامبراطورية الوسطى وتنتشر انتشاراً كبيراً ابتداء من السلالة الثامنة عشرة . وهي على قسط كبير من الواقعية والخيال المجنح والسخرية ، وكأنها الند الطبيعي للنقوش النائية والصور التي تعالج مواضيع الحياة اليومية . ولكنها هي ايضاً تصح مجالاً كبيراً للسحر ، ايماناً من مؤلفيها بالحصول على رضى سامعها اذا ما نقلوه الى نطاق ما هو مدهش وعجيب . وكيف لا نذكر اخيراً الشعر الغنائي الشهواني الذي يسوغ كل شيء في « اناشيد الحب » ؟ قد يكون هذا الأدب الخيالي نهل من منبع مشترك واحد في الشرق الأدنى ، وقد يكون هو نفسه أسهم في تكوين هذا المنبع . بيد انه من الجلي ، مثلاً ، ان في « قصة الغريق » بعض اوجه التشابه بمجاذب مغامرات أوليس او سندباد البحري وان « اناشيد الحب » تذكر احياناً بانشيد الاناشيد .

الخاتمة

الحضارة المصرية والعالم القديم

ان الحضارة المصرية اذن ، بالرغم من انكماشها البالغ ، قد اتصلت أحيانا بالأجنبي . غير ان هذا الاتصال لم يتصف بطابع الاهمية عليا .

وهي مدينة باستقلالها الى التلاحم الذي ربط كل مظاهرها بسلطة الدولة والآلهة المطلقة . اجل ، قد نجد في غير مكان مبدأ تلاحم مماثل ، ولكن مصر وحدها طبقته بمثل هذه الشدة وهذا التطاول ، وفي بلاد على مثل هذا الاتساع وهذه الثروة ، وعلى شعب يمثل هذه الكثرة وهذا الختوع . وان اتفاق هذه الظروف المؤاتية التي توفرت بفضل الانسان والطبيعة معا يضيف عليها صفة مميزة بالغة الأهمية .

كانت مصر القديمة ولا تزال مدينة لها بمكانتها وشهرتها . وبالرغم من ان الحضارة المصرية قد عمّرت اكثر من اية حضارة قديمة ، فانها قد اندثرت اليوم ، واضمحلت . وقبل زوالها بألف سنة تقريبا ، لم تقوَ على البقاء الا بالمزيد من التحايل والعناء ، عاجزة لا عن النهوض والتجدد فحسب ، بل ايضا عن ادراك المعنى الحقيقي للتقاليد التي لم تتخل عنها . فهناك مدلولات : الانسان والتقدم ، اجتماعا وانتصرا في كل مكان ؛ اما هي فقد جهلتها وعجزت بالتالي عن استساغتها والافادة منها .

ولكنها قبل زوالها بزمان طويل قد أثرت في بعض الحضارات الاخرى . فوفرت للملك كثيرين مثلا اعلى للمعقيدة الملكية التي تبرز سلطتهم المطلقة ، ولتنظيم الادارة التي توجه الثروات نحو الحكومة المركزية . اما الملكيات المحلية بنوع خاص - وقد أقامت احداها في مصر - والامبراطورية الرومانية فقد اخذت عنها بعض الاتجاهات العامة على الأقل ، واقتبست احيانا بعض نظمها المحكّمة . كذلك اقتبست عنها الحضارة الاسكندرية ، التي توعّرت وازدهرت « على مقربة » من مصر ، الميل الى الافتان والسخرية والاحساس بالظرف الرفيع ، وكلها يميز بعض مظاهر فنها وادبها . وقد انتشرت اخيرا عبادة ايزيس الهيا في بلدان عديدة ، كما كان للسحر ، احد مظاهرها ، سوق رائجة في الكثير من المناطق .

ولكن واحداً من هذه المنقولات لم يس جوهر الامور الحقيقي . ولا عجب فانما خلق هذا الجوهر لمصر ، ولا سيما لمصر في الالفين الثالث والثاني .

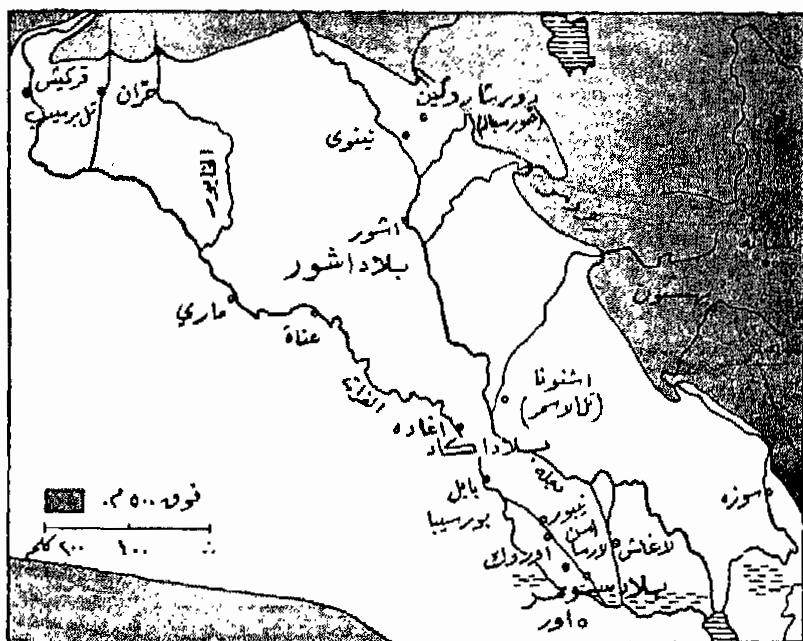
حضارة بلاد ما بين النهرين

ان القاء نظرة خاطفة على مجمل حضارة بلاد ما بين النهرين لا يعد مجازفة اكبر من تلك التي خضناها عند قيامنا بالعمل نفسه نسبة الحضارة وادي النيل .

ان حضارة مصر وحضارة بلاد ما بين النهرين ، وقد اعتبنا مصر وبلاد ما بين النهرين : حضارة مشتركة لا بل حضارة شاركتها فيها اقطار اخرى ، تشابه في المصير والحضارة ولدنا واتخذنا شكلاً في تواريخ متقاربة ، وان عبر علينا تحديدنا بدقة . وقد فقدت كل منها سيادتها في فترتين لا تبعد الواحدة عن الاخرى اكثر من خمسة عشر عاماً ، تحت ضربات عدو مشترك هو المملكة الفارسية . ولكن استمرت كل منها ، بعد ان زال استقلال الدول التي اتحدت معها اتحاداً ذاتياً ، على شيء من الحيوية ايام الحكم الاجنبي . ولا عبرة من ثم ان هوت حضارة بلاد ما بين النهرين قبل الحضارة المصرية اذ كان قد قضى فعلاً على هذه الاخيرة منذ مدة بعيدة . ونسبة للزمن فان سرد الوقائع الذي يظهر الحقائق الثابتة بقوة اشد من قوة اظهار الاختلافات التي يسببها الوقت والبيئة ، لا يجب ان يلاقي من ثم صعوبات كبرى : وهنا ايضاً فان حبك الحوادث يجمع الشكيت من آلاف السنين .

ان صعوبات اخرى تنشأ عن اختلاف الواقع الجغرافي قد تعترض مصر وبلاد ما بين النهرين : سرداً مثل هذا ، ولكن تذليلها نسبة الى مصر اسهل ، اذ ان حضارات موحدة ومقفلة الطبيعة ، باستثناء الجهة الجنوبية ، تعين لمصر حدوداً ، وتدعوها للوحدة . وتختلف الحالة ان اعتبرنا بلاد ما بين النهرين ، اذ ان الصحارى التي تحيط بها ، باستثناء جهة البلاد العربية ، اقل عداوة للانسان من الفيافي التي تحد مصر . وان اعتبرنا ناحية سورية خاصة نر بان لهذه البدايات بالاحرى منظر السبابس دون البراري الحقيقية ، وعلاوة على ذلك فان الشواطىء الفيديقية والسورية هي قريبة نوعاً ما ومغرية ايضاً لتعوض عن الجهد الذي يتطلبه اجتيازها ، هذا الاجتياز الذي يقلل بصورة جدية المسافة . وعلاوة على ذلك فان بلاد ما بين النهرين تتصل دون صعوبة باقطار اخرى تناسب حياة الانسان .

لذا لم يُجد بلاد ما بين النهرين نفسها محصورة ضمن حدود طبيعية تفرض ذاتها على الجميع ، وذلك تحت عوامل داخلية وخارجية . وخلافاً للشعوب المصرية فإن سكان بلاد ما بين النهرين لم يُدعوا للوحدة ولم تُسلِّج اطماع رؤسائهم التوسعية التي لم تتعثر بعراقيل طبيعية الا في البعيد البعيد عن بلادهم . ودون اي ضرر جلل يسهل تقسيم البلاد الى دول عدة ، كما تستوعب باكثر سهولة المؤثرات والنفوذ الاجنبي لا بل هي اكثر عرضة للغزوات . وبالمقابلة فهي توافقه اكثر الى ان تلقى بقواها ورجالها خارج حدودها وتصر بواسطتهم حضارتها .



الشكل ٩ - بلاد ما بين النهرين

لذا فإن حضارة بلاد ما بين النهرين تبدو للمؤرخ أكثر ترجيحاً في ديمومتها الزمنية واطل وحدة ونماسكاً ، إذ تظهر عليها المؤثرات القطرية بأشد جلاء ، ومن نقطة الانطلاق هذه يتضح لنا ، ولو جزئياً ، كيف انقرضت هذه الحضارة قبل الحضارة المصرية . وإن كانت أكثر استعداداً للذوبان والتشتت ، غداً من الطبيعي ان لا تبدي مقاومة ضارية ضد الحضارات المنافسة .

ان الفوارق والتقلبات التي طرأت على حضارة بلاد ما بين النهرين في الزمان والمكان لا تحول مع هذا دون وجود هذه الحضارة واعتبارها ، بما فيها من ابداع وتناعم ، وحدة مستقبه من السهل مقارنتها مع الحضارات المعاصرة والمجاورة . فهي نشأت في بلاد ما بين النهرين السفلى ، في المنطقة المدعوة سومر . وفيها

يتعلق خاصة بالدين والكتابة فقد رسمها التأثير السومري بأثر عميق قاوم آلاف السنين ، حتى بعد ان قضت على السومريين عناصر عرقية أخرى . وفي هذين المجالين تبرز الديبومة بشكل واضح : ولكن الدرس والتحليل سيكشفان لنا بصورة تكثرا أو تقلل سهولة مواطن أخرى لهذه الديبومة .

والحق يقال بأنه ، في مصر كما في بلاد ما بين النهرين ، وبشعور أقل استمراراً فقط في مناطق دجلة والفرات مما هو في وادي النيل ، توخى المرء في عصر دعوته بالذهبي احياء الماضي السحيق الأكثر قدماً .



الفصل الأول

الأشكال السياسية

التجزئة ليست الوحدة السياسية التي تشمل قطراً شاسعاً عنصراً أساسياً في حضارة بلاد ما بين النهرين . لقد تحققت أحياناً ولكنها لم تدم فترة طويلة الأمد . وعلى كل فأننا لا نجد لها ، في الحقبة الأولى ، في بلاد ما بين النهرين السفلى حيث ، باكراً جداً ، تباورت الخطوط الرئيسية لحضارة مدعوة لأن تستمر وقتاً طويلاً .

والدولة - المثال هي البلدة ، أعني المدينة : مركز قطر يتعذر علينا ، لغرض معطيات الجغرافية التاريخية ، تحديد مساحته إلا نادراً جداً . ففي هذا السهل المنخفض حيث تنتفي العروش الطبيعية ، ما عدا شعاب الأنهر والقنوات - وقد أحدثت فيضاناتها ، ولا تزال إلى يومنا ، أكثر من تغيير مكاني لما تسببه من ارتفاع في مستوى الماء والطمي - فأننا لا نرى أي أثر لحدود مستديرة ، لكونها طبيعية ، لقطر معين . وقد نشأت مدن لا يزال موقعها إلى يومنا مجهولاً : كأغاده (أو أكاد) التي فرضت اسمها على منطقة كاملة لما كان لها من سطوة وعظمة . وما القول عن نخوم المدن التي غداً ضرورياً لحفظها بذل جهود جبارة ومستديرة ضد المستنقعات والرمال ؟ ولكن لا يرقى الشك إلى وجود الكثير منها وإن استحال علينا تقدير مساحتها التقريبية .

وتركت المدينة هنا آثاراً أكثر مما تركت زميلتها في مصر مع أنه ، في منطقة الدلتا أقله ، لم يختلف الوضع اختلافاً كبيراً في أول العهد . ولا يشعر المرء قط في بلاد ما بين النهرين ، كما يفس ذلك في مصر ، بأي قوق إلى نظام موحد اعتبر لازماً لاسعاد حياة السكان . وكان باستطاعة هذا التنظيم أن يثمر هناك أيضاً نتائج حسنة لما يحققه من تجانس وتناسق في أعمال الري والتجفيف . ولكن الفيضانات النهرية هنا تأثيراً أخف على الانتاج ، ولربما كان السكان أيضاً أقل كثافة . وعلى كل حال فإن التجزئة السياسية التي اعتبرها المصريون فوضى لم تعد هنا بعد ذاتها عامل سوء .

مع هذا فقد غدا من الحتم ان تتمدى البلاد مستوى التجزئة . ولا جرم
 بانه نشأت منازعات بين المدن المتجاورة . ونتيجة للحروب او للمحالفات
 مقومات البلدة
 استمرار على مفهوم
 حيث يفرض احد الفرقاء سيادته ، نشأت دول اكثر اهمية ، لابل ولدت
 تمراراً امبراطوريات بكل ما في الكلمة من معنى .

ان الالقاء الرسمية التي كان يحملها الملوك تكشف لنا بعض الشيء عن مفهوم الدولة .
 ويتراوح هذا المفهوم ، كما يبدو ، بين البلدة التي تتسع قليلاً او كثيراً وبين المنطقة . ومع اسم
 المدينة ، كمدن أور وأوروك ولاغاش وغيرها برز ، باكراً جداً ، لقب « ملك البلاد » : وهذا
 ما ينطبق على سومر التي لم تعد بلدة . ولكن لقب « ملك اكاد » هو شديد الغموض ، إذ مع
 الزمن اطلق اسم هذه المدينة على مجمل القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين السفلى ، ومن ضمنها
 بابل . وينطبق الامر نفسه على لفظة « اشور » التي عنت في البدء إحدى مدن بلاد اشورية
 العديدة ، ثم اطلقت بصورة واقعية على المنطقة بكاملها بعد ان تضاءلت امامها سائر المدن .
 وهكذا فقد حافظت الدولة ، بعد ان اتسعت رقعتها كثيراً ، على ذكر وسمة الخلية الاولى التي
 منها نشأت .

مفهوم الامبراطورية
 وفي الوقت ذاته نلاحظ استعمال تعابير يختلف مفهومها اختلافاً كلياً . فان
 لقب « ملك المناطق الاربع » قد يشير في البدء ، علارة على سومر واككاد ،
 الى منطقتين اخريين في الشمال - الغربي والغرب امورو وسوبارتو يصعب تعيين حدودهما بصورة
 واضحة . وقد تشمل هذه التسمية ، استناداً الى تعبير كان رائجاً يومئذ ، مناطق تمتد من
 البحر الاسفل (الخليج الفارسي) الى البحر الاعلى (البحر الابيض المتوسط) . ولكن يفضي
 بنا هذا اللقب الى لقب آخر هو « ملك مناطق العالم الاربع » الذي يفرض تفسيراً اشد اتساعاً
 لانه يبعد الى الذهن الجهات الاربع الاساسية . وبما يؤكد هذا التفسير لقب « ملك الكل » .
 و « ملك العالم » الذي لن يتوانى بعض الملوك الاشوريين والبابليين ان يتخذوه . فالدولة ، التي
 تسلسلت من مفهوم البلدة ، تنتهي بالتساوي مع مفهوم الامبراطورية العالمية .

ان هذا المفهوم نظري دون شك اذ لم يحققه عملياً اي من الملوك الذين اتخذوا لانفسهم مثل
 ذاك اللقب ، ولكنه يشير اقله الى ادعاءات لم يعتبرها المعاصرون في القرن السابع مغللاً فيها .
 اي في عهد اوج عظمة سلالة الاشوريين السرجونيين الذين امتد سلطانهم من بحيرة « فان » الى مصر
 العليا ، ومن كيليكية الى بلاد الماديين Medes .

وفعلاً بقيت هذه الامبراطوريات ، عظيمة او صغيرة ، عرضة
 لزوال السريع .

وقد سمي لتشيدها كل الذين ، هنا وهناك ، توصلوا الى بعض السلطة . وانتقلت السيادة من

تلك البلدة في سومر الى سامي كيش الذي استقر ملكها سرجون (القديم) في اكاد واسس اول امبراطورية عظيمة في بلاد ما بين النهرين . ثم نرى سلسلة من الممالك السومرية تلتها اول امبراطورية بابلية اعلى شأنها في القرن الثامن او السابع ق.م. الملك حورابي العظيم . ولم تكون بلاد ما بين النهرين في كل مرة الانقطة انطلاق يسعى منها الاباطرة لاختضاع بلاد عيلام وسلسلة جبال زغروس شرقاً ، ووادي دجلة الوسطى اعني اشورية شمالاً ، ووادي الفرات مع هاري في الشمال الغربي ، ثم غرباً الشواطىء السورية ولربما ايضاً - كما يزعم اقله سرجون القديم - جزيرة قبرص . وهكذا تبدو روح السيطرة الاشورية ، ان اعدناها الى اطار تلك الحقبة التاريخية الطويلة ، كأنها وريثة تلك الانجماهاات التوسعية التي لم يكتب لها النجاح طويلاً ، وان هي أوصلتها الى مدى اوسع .

الشكل ١٠
امتداد الامبراطورية الاشورية في عهد اشوربانيبال

اذا كان البناء يتزعزع كل مرة ثم ينهار تحت تأثير الثورات الداخلية او غزوات الشعوب المتدفقة من الجبال او السبابس المجاورة ، هذا البناء الذي كان قد شيد بصعوبة كلية وغدا ثمرة غزوات سنوية متكررة . واتخذ البطش الذي يرافق كل فتح او اخماد ثورة اشكالا أشد قسوة ، وقد بلغ الزبى اثناء الحروب التي خاضها الملوك الاشوريون . ولكن لم يحل الابداع في خطط التنكيل دون ازدياد المساعي الفاشلة .

مدنيتها قريبة مما اعتبروه اساس سيطرتهم . فما هو القول اذن عن المدن او القبائل الغربية ؟ ان النزعة الفردية التي انبثقت عن المفاهيم الاولى تستمر قوة لا تقهر .

ولكن نتيجة لكثرة الحروب والثورات التي لا يحد لها هيب ضعفت قوى شعوب ما بين النهرين . وقد سهل هذا الوهن تحقيق اهداف فاتحي المستقبل من امثال كورش الايراني واسكندر المقدوني .

النظام الملكي وجماعة المواطنين تتطلب الحرب وحدة القيادة ، أعني قائداً حربياً يسعى حتماً ليصبح زعيماً سياسياً ، لذا فلا عجب اذا غدا النظام الملكي في بلاد ما بين النهرين كما في وادي النيل اساس الادارة السياسية . ولكن الفرق واضح بين هذين النظامين الملكيين اذ ان مبدأ التجزئة الى دويلات مستقلة هو اكثر شوعاً في بلاد ما بين النهرين ، كما ان المدينة في تلك البلاد قد اتبعت لربما في الاصل النظام الجمهوري دون الملكي .

ويستحيل حقاً على نفر من المؤرخين الثقة بفسر بعض النصوص ان لم يستندوا الى وجود نظام يمت الى « الديموقراطية البدائية » حيث كان مسرور الامور « الشيوخ » يستشيرون ندوات الرجال الاحرار . ولم تنتخب هذه الندوة رئيساً واحداً الا في حال نشوب أزمة وحل هذه الأزمة فقط . وقد حول تكرار الأزمات وعبرية بعض الزعماء هذا النظام العارض الى نظام مستديم .

والحق يقال ، ان هذه النظرية تسيء الى المبدأ العام ، الذي لا يحتمل اي شواذ ، القائل بشيوع النظام الملكي . ولكن في زمن لاحق ، وفي بعض المدن التي كان يحكمها ملك ، كما نرى ذلك مثلاً في مستعمرات الآشوريين ببلاد كبادوكية في اوائل الألف الثاني ، نشهد بعض المنظمات الجماعية التي تسيطر عليها طبقة ارسقراطية بورجوازية .

الملك « نائب الآلهة » لا مشاحة بأنه ، نسبة الى تطور النظام السياسي ، يجب ان نحسب حساباً للآلهة كما نفعل ذلك مع المواطنين وطالبي السلطة .

فكل مدينة تسيطر عليها آلهة معينة . ومع ان آلهة اخرى تعبد في تلك المدينة ، فارت هذه الآلهة فيها حق السيادة والاولية ، كما ان هيكلها يفوق سائر الهياكل عظيمة وغنى . وهي التي توحى القرارات سواء اتخذها المجلس او الشيوخ او الملك !

لذا فان السلطة الملكية تستند دوماً الى أساس الهي . « لقد هبط النظام الملكي من السماء » وهذا ما يحلو للنصوص ان تؤكد . وعلاوة على هذا فان اللقب الذي يحمله ذوو السلطة ليس دائماً ، اقله في اوائل العهد ، لقب « الملك » . لذا غالباً ما تتلاقى مثل هذه الكلمات « حاكم المدينة » ، خاصة متى احتكر ذو السلطة مسؤولية الكاهن الأعظم ايضاً و« نائب » و« مندوب »

الآلهة . لذا فان الملوك الاشوريين الاوائل مع تسمية ذاتهم بـ « الملوك » ، لا بل « ملوك العالم » لا ينفكون عن اعتبار انفسهم « نواب الاله آشور » ، ولم يعد يمنح لقب « الحاكم » — وقد فقد من حقيقة مغزاه وقيمته الاولى — الا الى الامراء التابعين او الى الموظفين .

وبالعكس ، ولفترة طويلة ، نرى بأن لقب هذا الاله او تلك الآلهة هو « ملك » او « ملكة » المدينة .

تعيين وتصيب الملك يظهر كل هذا الدور السياسي الذي ، نظراً للمعتقد الديني وغنى الهيكل ، يلعبه رجال الكهنوت او الكاهن الاعظم في شؤون المدينة او المملكة . وهكذا فان النظام يحتفظ ، من وجهات عدة ، بالمظهر الثيوقراطي . فالسلطة الملكية لا تصبح علمانية ، لا بل انها لا تتجه نحو العلمنة ، بل تسعى للاستفيد من وضع سبقها في الزمن .

وفعلاً يفترض في الآلهة امر تعيين صاحب السلطة . فهي « تنظر اليه بحذب » او « تلفظ اسمه » . وكانت تتم هذه الوقائع بموجب طقوس لا تزال نجعلها . ولا غرابة في التوفيق بين هذا الاصطلاح وبين مبدأ الوراثية إذ ان الملوك يفخرون بالاصل الملكي الذي ينتسبون اليه . ولكنهم مع هذا لا يتناسون في الوقت نفسه عن التذكير بالانتخاب الذي وقع عليهم من قبل الآلهة . وفي عهد اوج الامبراطورية الاشورية يباشر الملك ، زيادة في الاطمئنان ، وهو على قيد الحياة ، بانتخاب احد بنيه . وهذا يعني دون شك بأنه يعرض من يقتضيه لثقله الآلهة ، إذ لا اثر لمبدأ البكورية : فاشوربانيبال يعلن بكل صراحة بأنه اصغر سنناً من « اخوته الزناة » .

وبعد المصادقة على الانتخاب ، يستحصل الوالد على عین الخضوع والاحترام لابنه ، ويلج المنتخب « بيت الوراثية » حيث يدرب على مهام منصبه المستقبلية . ويوم ارتقاء العرش تجري احتفالات دينية يمنح اثناءها المنتخب اسمه الملكي ويؤخذ الشعارات ، رمز السلطة الالهية . وتقام هذه الاحتفالات في آشور ، مدينة الامبراطورية الاشورية المقدسة ، وليس في المقر الملكي ان كان في نينوى او في مدينة اخرى .

لذا يفقد من السهل فهم الاسطورة التي تجعل من مرجون القديم ابناً لاحدى الكاهنات ، وقد ربي عند بستانى ، او تلك التي تؤكد بان اشورناسيرابلي الثاني — ملك آشوري من القرن التاسع — يعتبر نفسه من اصل جبلي وضع ، مع انه ابن ملك ، ويقول من ثم : « انت يا اشنار ، سيده الآلهة الرهيبة ، قد القيت نظرك علي ، واردت ان اصبح ملكاً ، وانتشلتني من بين الجبال .. وعهدت إلي بصولجان العدالة » .

واجبات الملك الدينية ان التقوى ، والحالة هذه ، هي صفة من صفات الملك اللازمة ، واجباته الدينية هي اولى واهم واجباته .

ومنها واجبات طقسية . فالملك هو الكاهن لا بل الكاهن الأكبر للاله الوطني ، حتى ولو لم تقر له الكتب صراحة بهذه الالقب . وهو الذي يقدم شخصياً طقوس العبادة ، وهو الذي يشيد ويرمم ويكرس المعابد . وهو أكثر من اي كان مؤهل للقيام بطقوس التطهير ، وتقديم الذبائح ، واستشارة الآلهة .

ومن هذه الواجبات ، او التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالمذكورة اعلاه ، واجبات ادارية . فهو الذي يراقب ادارة اموال الهياكل التي يقوم بها رجال الدين ويتدخل لتقويم ما اعوج منها . وهو الذي يعين في المناصب الكهنوتية ، اقله في المراكز الأكثر اهمية ، كوظيفة كبير الكهنة ، ولا يتردد في اسنادها الى افراد من أسرته ، استناداً بطبيعة الحال الى اوامر الآلهة التي يعجب لها بكل سذاجة .

واخيراً فان بعض هذه الواجبات هي معنوية . ومن المؤكد بان كلمات « عدالة » و« انصاف » و« حقيقة » تذكر أكثر من مرة . فحمورابي عندما أعلن قانونه اراد ان يرضي شمش « إله العدل » وان « يؤمن الحق في البلاد ويقضي على فاعل الشر والزدية » ، ويمنع القوي من الحاق الاذى بالضعيف . ولكن في الاساس تتعد العدالة اتحاداً ذاتياً بإرادة الآلهة التي يستعصي فهم اسبابها على ادراك البشر الذين لا يحق لهم من ثم مناقشتها والحكم عليها .

وهكذا فان واجب الملك المعنوي الاول قبل الآلهة ، بصورة عملية ، هو الطاعة العبياء . انه يسعى لمعرفة ارادة الآلهة ، لذا فهو يراقب ويأمر بمراقبة وتفسير كل الدلائل الممكنة : احلامه ، الظواهر الفلكية ، اجوبة الآلهة ، كبد المحرقات الخ . . . انه يضرع الى الآلهة لتلهمه ؛ وبالمقابلة عليه ان يخضع لايحاءات الآلهة فيبدأ المعركة عندما تأمره بذلك ، ولا يخوضها الا عندما تشير عليه بذلك . ولدينا نصوص عدة تظهر لنا علماء التفسير يطمثون باله ان ساوره شؤم ، لا بل يلحون عليه كيلا يهمل الرقي والتوضؤ ، او يأمرونه ، حتى اشعار آخر ، بالمثابة على صيام مضمين ينك قواه ، او على عدم تبديل ثيابه ، وعدم تقديم المحرقات وركوب العربات الخ . . وهكذا يفدو الملك فعلاً عبداً لعلماء تفسير ارادة الآلهة اذ يجب عليه ان يظهر بمظهر التقى الشديد الورع .

يبدو من السهل ، استناداً الى هذه العلاقات مع الآلهة ، ان نجد اوجه شبه الملك صلة الرسل بين النظام الملكي المصري والنظام الملكي في بلاد ما بين النهرين . ولكن لا تقل الاختلافات بينها وضوحاً ايضاً ومن امها دون شك عدم اعتبار ملوك بلاد ما بين النهرين انفسهم عادة وبشكل اساسي آلهة .

ففي بعض مدن بلاد ما بين النهرين السفلى نجد نقراً من الملوك الاقدمين في الزون (البانتيون) المحلي ؛ ولكن حتى بعد المئات فان الرجال الذين يكتسبون صفة الالهوية يعدون من الشواذ . ويصبح هذا المبدأ اصدق حقيقة ما دام الملك على قيد الحياة . ويمثل لنا نصب اللوفر الشهير ،

وقد اقامه الخليفة الثالث لسرجون القديم نارام سن ملك اكاد ، الذي كل هامه بالتاج الذي القرون ، وهذا امتياز لا يعطى إلا للآلهة . ولكن هذا امر لا ثاني له ! ففي الالفين الثالث والثاني يسبق اسم بعض ملوك بلاد ما بين النهرين السفلى نعت يدل القارىء على ان الاسم الذي يلي هو اسم « إله » . ولكن لم يعم قط هذا الاستعمال وقد زال مع عهد حمورابي على ابعد تقدري . وحتى مع هذا الملك الاخير فلا يبدو الامر بعيداً عن كل شبهة ، ويظهر الخلاف على اشده بين المؤرخين عند تفسير لقب « إله الملوك » الذي يطلقه الملك على نفسه في قانونه .

ولا نجد امثلة اخرى الا في عصر قديم وفي حالات افرازية . وقد يستعمل اسم ملك بدل اسم إله لتكوين اسماء اشخاص من امثال « حمورابي هو اهي » . فلا تدل هذه العادة مع هذا الا على احترام شخصي وليس على تأليه رسمي . وقد تذكر قصة نكاح الملك إلهة انتخبته عوض زوجها الالهي ، ولكن لا يعني ذلك الا طقس خصب . وهناك تقاليد اخرى اكثر ديمومة تسترعي الانتباه في العهد الاشوري : التضرع الى العاهل مشفوع بالدعاء الى الآلهة في عبارات بين ، او تأكيد من الملك بانه ينتسب بوشائج القربى الى الآلهة كما يت بالوقت نفسه الى اصل بشري . ولكن لا يتعدى مداها الحقيقي حداً بعيداً .

والحقيقة هي انه بينما نرى الفرعون المصري المنحدر من صلب اهي والمتزعزع على يد الآلهة يرتقي حين اعتلائه العرش الى مصاف الآلهة ليستمر على هذا الصعيد حتى بعد مماته ، نجد بان الملك في بلاد ما بين النهرين هو ممثل الآلهة فقط قبل البشر ومندوب البشر لدن الآلهة . فهو اذن والحالة هذه صلة الوصل بين العالمين الرباني والانساني . وهو لمروؤوسه نوع من الطلاسم ، يدافع عنهم ويسعى لتنفيذ رغبات الآلهة نحوهم ، اي انه يخلق لهم جواً ملائماً لحياتهم وسعادتهم بالاتفاق مع القوى التي تفوق الطبيعة ، ويسهر على ديمومة هذا الجو .

السلطات والنظم الملكية
سبق واشرنا الى الحدود التي تقررها هذه النظرية للسلطة الملكية المطلقة . ولكن لا تجمل هذه الحدود من الملك رجلاً شبيهاً بامثاله الآخرين ، إذ ان خضوعه للرغبات الالهية تقابله من جهة اخرى طاعة مروؤوسيه العمياء التي تسهل له القيام بالموجبات الملقاة على عاتقه . لذا تشمل سلطاته جميع مرافق الحياة الجماعية . والى اي حد تكون سلطاته هذه حقيقة وتستند بمحجج دينية ، ام ظاهرية فقط لتخفي والحالة هذه الجاءات تنتسب الى اصل كهنوتي ؟ انه من المحال تقرير ذلك على ضوء النصوص الرسمية التي وصلت الينا . وتختلف الطبائع دون شك في هذا المجال باختلاف الملوك ، فتبرز من ثم حالات عدة متنوعة .

وعلاوة على امتيازاتها الدينية فللملكية مهام حربية وادارية .

القيادة الحربية
ان الملك هو قائد الجيش الاعلى ، وربما غدت هذه المنزلة في الاساس سبب وجوده . وغدا من ثم لزاماً عليه ان يحارب بصورة مستديمة وعلى رأس

جيوشه . ويتباهى الفن والأدب لإعلان بطولاته . وتعدده الآلهة بالنصر وتمنحه إياه ، لذا غدا وصف المعارك شبيهاً بتقارير يقدمها للآلهة التي ترعاها وتحميها . وتظهر كثرة هذه التقارير المهمة القيادية التي يأخذها على عاتقهم ملوك الدولة الآشورية في عصرها الذهبي . ومن النادر ان تنقضي سنة دون ان يخوض الملك فيها حرباً ، ونادرة الغزوات التي يلقي زمام قيادتها ، عند غيابه ، الى التوراتو ، ثرثان التوراة ، اعني نائبه . غير انه بالواقع من المحتمل جداً بان هذا الاخصائي يقوم بعمله جنباً الى جنب مع الملك كانه القائد الحقيقي . ولكن عظمة الملك تحتم على هذا النائب بان يختفي وراء الرئيس الاصيلي .

ولا بد ان يظهر هذا النشاط الحربي بصورة ما ، وان لم يحتل دوماً الصدارة في حياة الملك . لذا يحتم وجود جيش . وتعرف حالة هذا الجيش من خلال الآثار المنقوشة والادبية معروفة لا بأسمائها وان تفاوتت تبعاً للشخص والزمن .

الجيش الآشوري
نستطيع ان نتتبع بشيء من الدقة تطور المعدات الحربية وخطط القتال . وسنجد في هذا المجال الاساطير والحيلالات . ولكننا نكتفي ، استناداً الى نتائج هذا التطور في قتله ، بان نلقي نظرة على الجيش الآشوري في القرنين الثامن والسابع ، هذا الجيش الذي يعد بحق اشد وارهب اداة حربية حققتها دولة في بلاد ما بين النهرين : ويفسر لنا تفوق هذا الجيش عدد انتصاراته واستمرارها .

ان تقسيم الفرق وتنوع معداتها نسبة الى المهات الملقاة على عاتقها دقيقان جداً .

لم يظهر الحصان إلا في وقت متأخر - وكانت الخيول تجر العجلات السومرية القليلة العدد - . وقد استخدم لهدفين . فهو كدابة حمل يجر العجلة الحربية التي يعلوها رجال عدة : ففي المقدمة يقف السائق الذي يوجه الحصانين المشدودين الى جانبي المجر ، ويليه المحارب والقرب منه حربة وجعبة كبيرة للسهام ؛ وخلف الاثنين « الثالث » الذي يقلب بين يديه ترساً دفاعاً عن رفيقه . وكمحيوان ركوب ساعد الحصان في اوائل القرن التاسع على تكوين فرق للخيالة . ولم يكن آنئذ ركوباً او سرج بل فرش . واوجب ركوب الخيل معرفة فن الفروسية الذي ما يرح يتقدم تقدماً مستمراً لتقدم وتطور السلاح الهجومى . ورافق في اول الامر المقاتل الخيال مساعد يتنطى صورة جواد ليقود فرس الجندي ويحميها معاً . غير انه مع الزمن استغني عن هذا المساعد اذ ألبس الحصان قطعاً وازاد المحارب الى خوذته درعاً معدنية واتخذ المساه . وغدت عجلات القتال وفرق الخيالة الثقيلة اهم عناصر الجيش الآشوري الهجومى .

ويتألف جيش المشاة ، وهو الاكثر عدداً ، من فرق الرماة وحاملي الحريات ، وقد اعتمر بعضهم الخوذ ولبسوا الدروع والاحذية وحملوا الدرق . ولم يكن لفرق المشاة الخفيفة التي ضمت رماة القلاع اسلح دفاعي اقل وزناً وعدداً ، يمتاز رجالها بسباحة ، دون شك ، مجاري المياه مستعينين بطرف من جلد منفوخة او يقلبون مجاذيف القوارب على حوافي الاتراس المرتفعة .

وللجيش أيضاً فرق من العملة المجهزين بالفؤوس والمعاول لثق الطرق في الجبال ونصب الجسور والاسراع في اعمال الحصار . لا بل اصبح للجيش فرق للتموين لامدادها بالغذاء والعتاد ، تحملها الجمال والحير ، إذ ان موارد البلاد الوعرة حيث يقود الرئيس جيوشه لا تكفي لحاجاتها .

وهكذا اصبح الجيش آلة معقدة يفرض حسن قيادتها على هيئة الاركان مشاكل تقنية دقيقة . ولا شيء يظهر بوضوح الاتقان الذي توصل اليه الجيش في مختلف المرافق والحلقات اكثر من التقدم الذي احرزه في فن الحصار اذ لم يجد العدو ، امام تفوق الاشوريين في المعارك ، وسيلة افضل من الاحتماء وراء اسوار مدنه . ولكن كان الاشوريون إذ ذاك يشدون الحصار بإبراج متحركة يصوبون منها نبالهم على المحاصرين ويقذفونهم بكوم من التراب للسيطرة عليهم . وللأشوريين آلات متحركة عليها اكباش ثقيلة لدك الجدران . ثم يقومون بهجوم صاعق لا يُغلب بواسطة السلام او من ثغر الاسوار يتبعه النهب والتقتيل وتعذيب الملك المتمرّد وجلاء الاسرى وأهلهم الذين يصبحون فريسة لتكسيل المنتصر بشراسة وبطش .

ولكن مهما بلغ هذا الجيش من القوة والكمال فلا بد ان يلاقي يوماً ما من يصبح له سيداً ، مع انه ، حسب معرفتنا ، لم يتعرض لأي تضعّض او تحاذل داخلي . وقد يفاجئه اعداء لم يتعود اساليبهم - او بالأحرى لا يعرف لهم اساليب ! - بأسراب من الحيلة لا قرار لهم اكثر خبرة من خيالاته ينقضون من السباب الشمالية والشمالية - الشرقية . ومع ان الغزاة (السيت Scythos) والسياريين (Cimmériens) ، هؤلاء الرجل الشكس ، لم يستطيعوا ان يوجهوا ضربة قاضية الى الجيش الاشوري الذي لم يعرف الانكسار مدة طويلة ، فانهم مع هذا اضعفوه إلى ان هوى تحت وطأة الماديين (Médas) - وهم أيضاً خيالة اكثر مهارة - والبابليين المتمردين . وهكذا حيث هتافات الغلبة والخلاص والصفينة المتأكلة حسداً وتشفيًا التي فجرتها الشعوب المغاوبة على امرها حريق مدينتي اشور ونيوى وقد هوتا ودمرتا .

التعبئة لا وجود لجيش دون قوانين تنظم اشكال التعبئة . ولكن باستثناء بعض الحقب المعينة ، يبرز جهلنا في هذا المجال .

وقد ظهرت باكراً جداً الخدمة العسكرية الازامية أيام الحرب ، وذلك منذ نشوء الدولة دون شك : إذ بدونها يصعب علينا ان نتصور كيف تقدم مدينة صغيرة على مقاومة الحرب والفتح . ولكن هذه الكيفية في التعبئة لا تأتي إلا نادراً جداً بمجنود ذوي جدارة . لذا فارت قانون حورابي ، زمن كانت بابل تتحكم في مصير امبراطورية ، يكشف القناع عن وجود جنود اتخذوا الجندي مهنة لهم ، فيخدم بعضهم بصورة مستديّة في فرق الحرس الملكي ، ولا يجند بعضهم ، وهم اكثر عدداً ، إلا اذا اقتضت الحاجة ، ويقبض جميعهم اجرهم . وبالعكس ، في

ايام السلم، فانهم يعيشون مع اسرهم باستئثارهم ارضا اقطعهم اياها الملك، مع بيت للسكن وقطيع، ملازمين فقط بتلبية نداء استناداً الى تطور التعبئة. ولم تصبح وراثة هذه الاقطاعية حقاً ولكن غداً ذلك امراً متبعاً. ومن المعتقد، استناداً الى تطور سار عليه كل نظام مماثل، بان هذه الارض اصبحت فيما بعد ملكاً للمعطي اليه، ويستطيع ان يبيعها.

ولا نجد شيئاً لهذا الأمر، كما نعرف اقصاه، في الامبراطورية الاشورية. فان الجنود الحقيقيين يمثلون، نسبة الى عدد السكان، عدداً اقوى بكثير، وهذا مما يدل دون شك على وجود الخدمة العسكرية الاجبارية الفعلية مع تدريب اشد تغلغلاً في الجماهير. ونجمل ايضاً، نسبياً، اذا كان الاختلاف بين فرق الجيش يتناسب مع التفاوت الاجتماعي. وهذا من المحتمل ان رجل الخيالة او المقاتل على العجلة مثلاً هو دون ريب من طبقة ميسورة الحال. ولكن، حتى وان شملت التعبئة مجالاً اوسع، فان المجهود الحربي اقوى من ان يتحصله الاشوريون وحدهم. لذا يستعين الملوك بفرق من المرتزقة تقدم افرادها الشعوب الخاضعة لطاعتهم. لا بل يبدو مراراً بان الملوك فرضوا تعبئة ما على البلاد المغلوبة على امرها. ولكن تبقى صفوف الجيش الاساسية دون ريب من اصل اشوري.

وهكذا تتكون مجموعة من التقاليد والنظم الحربية تراثها الامبراطورية الفارسية، حتى ان آخر دولة من دول بلاد ما بين النهرين، المملكة البابلية الثانية، تساهم بدورها في اغناء هذه المجموعة اذا انها، في مدة سيطرتها الوحيدة التي تمتد من تضعف بلاد اشور الى الفتح الفارسي لا تتوانى عن تجنيد مرتزقة يونان فيخدم نبوكدنصر شقيق الشاعر ألسه (*Alcino*). وفي الفترة نفسها يقدر فراعنة سايس (*Sais*) مزاي اليونانيين الحربية. وعندما يتخذ ملوك الفرس مرتزقة من اليونان منذ اواخر القرن الخامس، فانهم بذلك يجذون حذو الممالك التي قضوا عليها.

ان ملك بلاد ما بين النهرين هو رأس الادارة كما هو القائد الحربي في الدولة، الادارة والموظفون توجهه اسباب اضطرابية مختلفة نحو المركزية حتى ولو لم يمنح خلقه الى ذلك. ويلزمه جيشه كفاءات مادية وبشرية، وعليه ايضاً ان يسعى لتقوية وحدة الاقطار والشعوب التي يسيطر عليها. ولا تتحقق هذه الرغبات إلا اذا فرض طاعته، ولا يتسنى له ذلك الا اذا اوجد ادارة محكمة او اقله مراقبة بقطعة.

واهتمت هذه الادارة، في اول الامر فقط، وذلك بصورة لا يرقى اليها الشك، بتدبير الاملاك الملكية. واذ تتخذ من القصر مركزاً لها فهي تنظم « كبيت » الملك ولها نظار وموظفون يقومون بمحدمات معينة. ونرى هذا التنظيم، ولو بصورة مصغرة، في « بيوت » الملكة وولي العهد. ولكن رويداً رويداً امتدت صلاحيات هذه الادارة الى الدولة بأسرها، وذلك بسهولة

اذ يظهر بانه لم يحرق قط اي تمييز بين املاك العاهل الشخصية وبين الدولة بمعناها الحقيقي .

وننشأ الصعوبة الكبرى بطبيعة الحال من كيفية التوفيق بين السلطة الملكية واستقلال المدينة ، وقد كانت دولة قديمة ضمت الى دولة أكثر اتساعاً . وفي هذا المضمار لم ينجح نظام المركزية الملكية أكثر من نجاحه في المملكة البابلية أيام حورابي ، حتى ان اعظم الملوك الاشوريين لم يأثروا بشيء يفوق اتفاقاً ما اتى به حورابي . انهم لربما تعاطوا أكثر منه مع جماعات بشرية من قبائل جبلية او قبائل على نصف بدواة ، وهي أقل تنظيمياً وأقل خضوعاً حتى ارتضت بنظام اقطاعي أكثر رخاوة .

وبالعكس فان السلالة البابلية الاولى اخضعت لارادتها حياة الجماعات المركزية زمن حورابي المغلوبة على امرها من كافة النواحي ، وقد تبقي على الامراء المحليين تاركة لهم لقب « حاكم » - وقد كانت لقبهم قديماً « الملك » - . ولكن معظم هؤلاء الحكام ليسوا الا موظفين يعينهم العاهل وينقلهم متى اراد من مدينة الى اخرى . ويحتفظ الملك ، اعني الادارة المركزية التي تسيطر الامور بالقرب منه وتنفذ اوامره المباشرة ، بمراسلة دقيقة مع مختلف الجهات . فهو يتسلم التقارير وهو الذي يقرر ويقوم ، معتن مراراً بامور نافذة جداً وبسلوك موظفين ثانويين .

ولا يظهر تأثير الملك بأكثر وضوحاً وقوة ، في اي من مرافق الحياة الاجتماعية ، مثل ظهوره في مضمار العدالة . فلقد استغل حورابي ، وهو الملك المسترع ، سلطاته القضائية ليوحد ويوطد المركزية . والى جانب الجهاز القضائي في المدن والهيكل ، يوجد جهاز قضائي ملكي يمين العاهل فيه ممثليه . وعلاوة على ذلك اباح حورابي لجميع رعاياه امكانية مراجعته او مراجعة وزيره للأعلى .

وهكذا فان الموظفين الذين لا يحصرهم عدد يؤلفون قسماً هاماً من الامة البابلية ، وهم ينالون اجرهم مستثمرين ارضاً يقطعهم اياها الملك اسوة بالجنود الذين اتخذوا الجندي مهنة لهم .

الابهة الملكية ان للملك على كل حال حياة ابهة تحجبه عن سائر البشر ، حتى عندما تبدو المركزية أقل شأنًا والهيئة الادارية أقل عظمة . فالقصر هو « البيت الكبير » يسحق بشموخه وعظمته سائر مباني الدولة ، ما عدا الهيكل ، يحشر فيه عالم من الجنود والعبيد والحخدم والكتبة ، وتراعى فيه قوانين آداب اجتماعية صارمة ، مما يجعل الوصول الى الملك امراً صعباً .

والآثار المنقوشة ، وهي تكثر خاصة أيام الملوك الاشوريين ، تظهرهم لنا في الحرب او في الصيد والقتل - وهي الاعمال التي تنوب مناب الحرب - او الحفلات الرسمية . ويبدو لنا فيها

العاهل كرمز اكثر مما يبدو كفرد . وحتى في المشاهد العنيفة فلا تحور حركاته ، وهي دائماً دليل النصر ، شيئاً من جلالة الملك التي تبدو بأكثر وضوح في مشاهد الاستعراضات . فله اللحية والشعر المجدد ، يكلل هامه التاج العالي وسط رجال حامري الرأس ، يتزين بالحلي ويرتدي ثياباً طويلة مزركشة ، تحميه مظلة ويتبعه رهط من الخدم يلوحون بالمراوح . وقد يجلس على العرش ، او يقف ، ورجلاه على الأرض ، حاملاً عصى طويلة ترتفع حتى الوجه ، او ينتصب على عجلة تجرها الاحصنة المزينة . وهو يمثل ، في كل حال ، بعظمة وثبات جنات ، جبروت الانسان الكلي القدرة الذي انتخبته الالهة ليكون « مندوبها » على الأرض .



الأشكال الاجتماعية والاقتصادية

القصر يؤلف القصر الملكي ، بطبيعة الحال ، عالماً على حدة في حياة مدينة بلاد ما بين النهرين . ويسكن فيه جمهور اجتماعي تشده الى العاهل عرى تتعدى الوشائج التي تصل الاقرباء بعميد الأسرة او العبد بسيده . ولقد وجد المنقبون في اور - اور في بلاد الكلدان حسب التوراة ، ووطن ابراهيم - قبوراً لا يتعدى تاريخها اوائل الالف الثالث غنية جداً بالاشياء الثمينة مما يحمل على الاعتقاد بان بعضاً منها اقله هي اجداث ملكية . ويحوي كل منها على اقل تقدير هيكلية غظام ، ومراراً عشرات وعشرات رتبت على احسن دقة ونظام . ولم تحدث دون شك اعمال عنف او مشاجرة . وهناك اشخاص يضعون طوعاً بحياتهم - ولا فرق ان فرضتها التقاليد - وهم ينتمون الى حاشية الملك ليرافقوه في عالم غير عالمنا الارضي . ولم يثر على اي قبر يرتقي الى عهد اسبق في بلاد بابل او آشور لم تمتد اليه اليد . ولكن تذكر لنا بعض اللوحات الآشورية الطقس المتبع عند دفن العاهل : وهي تفيدنا بانه كان يجري في الوقت نفسه دفن « سيدة القصر » اعني الزوجة الاصلية . ولم يجر هذا الدفن الا صورياً لربما اذ نعرف ، في اواخر القرن التاسع ، ملكة - امّا أصبحت وصية في بدء ولاية ابنها وهي سامون - رامات التي دخلت الاسطورة باسم سميراميس . ولكن هذا كاف للتدليل على ان العادات القديمة تركت لها اثرأ زمنأ طويلاً ولو بشكل ملطف .

وهذه المجموعة الاجتماعية هي كثيرة العدد ومختلفة التركيب اذ نجد فيها عمالاً ينتسبون الى كل المهن ، واجراء ، وكتبة ، وصناعيين ، ورجال اعمال ، وفلاحين ، ورعاة ، وحراس مخازن الخ وكلهم يخضعون لوامر ناظر اذ ان الاملاك الملكية المشتقة والمتشعبة الخيرات تجعل من القصر نوعاً ما مشروعاً اقتصادياً واسعاً تساهم ارباحه بتثبيت وتقوية سلطة الملك المادية .

ويسلخ الملك عن املاكه اقطاعات ينخصصها للملكة ولاولاده الملكيين ، كما انه يقطع ايضاً منها ، اقله زمن حورابي ، اقساماً يوزعها على سبيل المكافأة ، لجنود اتخذوا الجندية مهنة لهم او لوظفين . ويستثمر ما تبقى من هذه الاملاك مباشرة حسب اوامر الملك الذي يتصرف كمالك كبير يتم بارباحه . انه لا يوجد بكل تأكيد اي تمييز بين عقار يملكه الفرد وآخر يخص التاج . لا بل

يحصل التباس اكيد بين املاك التاج والدولة ، اقله فيما يختص بالافعال المادية ذات المنفعة العامة . وان سهل التمييز نسبة الى الضرائب والجزى ، فالعكس مؤكد ان اعتبارنا اعمال السخرة التي تفرض على المواطنين لحفر قنوات الري والاعتناء بها وبناء الطرقات والنقل ومصادرة الحيوانات الحلوبة وحيوانات الجر والمراكب والعجلات . وعلى كل فان الاهراء حيث تكس غلال املاك المعامل والدولة مشتركة . وللملك الحق بان يتعاطى اعمال الصيرفة ، ويقرض مالا لقاء فائدة ، ويشترك في مشاريع خصوصية . ومع انه مالك كبير لاراض وقطعان ، وصاحب معامل فهو ايضا رأسمالي واسع الثراء . وهكذا يلعب الملك في مختلف المرافق دوراً اساسياً في حياة البلاد الاقتصادية .

الهيكـل وتقوم الهيكل ، نسبة لعددها ، بدور اشد خطورة . فلكل مدينة عدة هياكل : فقد وجد في لاغاش في اوائل الالف الثالث نحو خمسين هيكلاً . وتصنف هذه الهياكل كل درجات وفتات ، وعلى كل تعود الاولوية الى هيكل الإلهة سيدة المدينة . وهذا المعبد هو عادة اكبر المعابد واكثرها زينة الا اذا عطف على هيكل آخر ، وبصورة استثنائية ، ملك ينتسب الى مدينة اخرى . وهذا الهيكل هو اكثر الهياكل غنى ، لذا فهو احسنها تجهيزاً من حيث رجال الكهنوت ورجال الادارة والاستثمار .

وهكذا يكون كل هيكل ، على غرار القصر ، عالماً مستقلاً . ونسبة الى بعض الفئات التي تتلاقى مع نشاط طقسي او مهام اخرى بعض المزارع ، فان المجتمع الذي يتخذ له من الهيكل مركزاً رئيسياً يصبح كأنه طبقة مغلقة . وهناك اساليب وفنون لا يتعلمها المرء الا في الهيكل ، وفي عهد الصبا . كما توجد مهن تبدو وكأنها لا تمت الى الدين بصلة ولكنها تستوجب مع هذا ، بالنسبة الى الهيكل ورجال الكهنوت ، معرفة بعض الطقوس وممارستها ؛ وعلى النقاشين والنساجين والحجابين وحتى البوابين ان يقفوا عليها . ولا شك في ان اعمال الزراعة وحدها تستثنى من هذا الواجب .

ويلاحظ المرء ، على كل حال ، عدداً وفيراً من المهن يلتحق اربابها بالهيكل . وتمثل فيهم كل الطبقات الاجتماعية ابتداء من العبد حتى ابن الملك او ابنته ، ويكوّنون ، تحت رعاية الكاهن الاعظم او الكاهنة الاولى ، جماعة كبيرة تحيا لخدمة الاله ، وتمتاز من ثم من مدخوله ، اعني من غلة اوزاقه او مما يفيض عن التقادم والذبايح .

ولكن لا يستكف افراد هذه الفئات المختلفة من الاندماج في الحياة المدنية ، فهم لا يأتون بثرواتهم الشخصية الى الهيكل الذي ينتمون اليه ويلكون ارباقاً شخصية يستثمرونها كما يحلو لهم .

حتى ان اصحاب الحرف الذين يعملون لمصلحة الهيكل يشغلون ايضا للجمهور لقاء أجر **في مناجات الظروف** .

لا يخلو هذا التنظيم من خلل . فباكراً جداً بدأ التذمر من الالتباسات التي لا مفر منها . ومنذ الألف الثالث اقتصر احد ملوك لاغاش بأنه وضع حداً نهائياً للخداع الذي استخدمت بموجبه « ثيران الاله » لاعمال زراعية في ارض يملكها شخصياً احد الكهنة . ومع الزمن اصبحت هذه الوظائف الدينية كأنها حق ارثي : فيرهن الواحد او يبيع او يهب لمدة اشهر او ايام هذه الوظيفة او تلك ، لا بل انتهى بهم الامر مراراً في اعمال تقسيم الارث او اجراء البيع الى تجزئة يوم من الخدمة اجزاء عدة . واستمرت هذه العادة حتى في العهد اليوناني ، في بلاد اهل على اقل تقدير ، بعد ان كان قد انهار الاستقلال السياسي . وتدل ضمناً هذه المواقف بان رضوخ كان يتعلق بغوائد تلازم وظيفة ما . ومع هذا فلربما فرض تحصيل مثل هذه المنافع القيام ببعض الموجبات . وعلى كل يجب الرجوع الى فترة انتقالية غدت فيها الوظيفة ، كوحدة بما لها من حقوق وواجبات ، موضوع مساومة ، مع ما سبق ذلك من تطور يسهل تصور مراحله .

وهل غدت املاك الاله موضوع استملاك مماثل ؟ ان الامر ممكن اذ في زمن متوغل في القدم اقتطعوا منها حصصاً وهبوها الى الافراد . وقد استثمر هؤلاء العقارات تلك ليؤمنوا معيشتهم ومعيشة اسرهم . ومع الاحتياطات المتخذة فلا يجب استثناء هذه الحصص من مبدأ اغتصاب اراض وزعها الملك على جنوده او موظفيه .

ومها تقلبت الظروف يحتفظ الهيكل باملاك يؤجرها من الغير واخرى يستثمرها مباشرة بما يملكه من ادوات وحيوانات ويد عاملة تعزها اعمال السخرة ، ويتم كل امر باشراف النظار . والهيكل ايضاً مصانعه يصنع العمال فيها ما يلزم لطقوس العبادة او لرجال البيعة . وله ايضاً مخازن ومستودعات وكثر ورجال اعمال .

وهكذا تهيمن الهياكل ، في مختلف المرافق ، على قسط وافر من حياة البلاد الاقتصادية . ويتشابك تشابكاً متيناً نفوذهم المادي مع امتيازاتهم الروحية . وقد يسخر الهيكل احياناً سلطانه هذا للخير والرحمة ، اذ تفيدنا نصوص ترتقي الى عصر حورابي بان الهياكل تقدم قروضاً بفائدة تقل عن الفائدة القانونية القصوى ، لا بل تنقص عن الفائدة المعتدلة . وتقرض الهياكل ايام المجاعة الحبوب دون ربح ، وتسلف العبد الذي يريد ان يبتاع حريته . ويأمر الملك ايضاً بان يقرضوا الجندي الذي وقع اسيراً في يد العدو والذي يعجز ، نسبة لفقره ، عن دفع الفدى . وبعض اعمال الرحمة هذه تلقائية ا وعندما فرضها حورابي فرضاً اكتفى بتثبيت تقاليد متبعة . وهكذا يسمى الهيكل لتأمين مصالح الاله والقيام باعمال رحمة خليقة به . وقد قرأنا اعلاه كيف حدد حورابي مشيئة شمس .

ان طرحنا جانباً عالمي القصر والهياكل فانتا لا نعرف مثلاً معرفة حسنة المجتمع الميزوبوطني الا في عهد حورابي ، وخاصة من خلال قانونه . ويكون هذا

المجتمع المملاني

التشريع النص الاساسي الذي يسمح لنا بتفسير مستندات لا عد لها ، وعقود يختلف زمانها ومكانها . وان وقفنا على نبد من قوانين اخرى سنها ملوك اور واشنونا وأسين ، او ملوك آشوريون من الالف الثاني ، او اذا وجدت بعض نصوص عقود لاحقة في الزمن تكشف لنا القناع عن اختلافات تتعلق بنقاط خصوصية ، فان الجوهر والمعادن لم تتبدل كما يبدو .

ان قانون حورابي يؤكد بصورة قاطعة وجود ثلاث طبقات اجتماعية ، اقلها في المراتب : « الانسان » اي الانسان الكامل اعني الفرد الحر ، « والشخص الذي ينحني » المرؤوس الوضيع اعني الفرد الذي يتمتع بقليل من القيم ، واخيراً العبد ، ملك شخص آخر ، حرأ كان هذا الاخير ام مرؤوساً .

ان الغرابة في هذا التقسيم هو وجود الطبقة الوسطى . اننا نجمل اصلها كما لا نعرف المرؤوس ان كانت قد حصرت فقط في بعض المهن المحددة . وعليها ان تقصر بوجودها ونعترف بان القانون وضعها على مفترق الطرق بين الفئتين الاخرين . فالذي يضرب مثلاً ابنة رجل حر ويسبب لها من ثم اجهاضاً يدفع غرامة تعادل عشرة مثاقيل ^(١) فضة بينما لا ينقد ابنة المرؤوس سوى خمسة اثقال ، وابنة العبد الا مثقالين فقط . ويظهر هذا التفاوت ايضاً في الاجر المستحق لقاء احدى الخدمات اذ يقبض الجراح الذي اجري عملية ما عشرة مثاقيل او خمسة او مثقالين تبعاً لفئة المريض الاجتماعية .

ان العبد ، ذكرأ كان ام انثى ، يتساوى قانوناً مع الشيء المادي الممتلك المنقول العبد ويوسم غالباً . ويجب بتريد الطبيب الذي يزيل هذا الوسم . ويعاقب معاقبة صارمة من يساعد او يقبل عنده عبداً هارباً ، لا بل قد يحكم عليه بالموت ان كان الهارب من عبيد القصر . ونسبة الى سلسلة تصنيف الممتلكات المنقولة ينزل العبد منزلة وسطى بين المعادن الثمينة والحيوانات الاليفة . وهو مثل هذه الكائنات يباع ويستبدل ويهرن ويودع . وفي عهد حورابي غدا الثمن التجاري العادي للعبد الذكر الذي بلغ اشدّه عشرين مثقالاً ، وهذا هو ثمن حمار ... وهو اقل دون شك من ثمن الثور . وتمثل هذه الصفقات بموجب عقود مكتوبة حسب المتعارف : ويكفل البائع حقوق المشتري ، ان وجد في العبد عيوب مستورة ، وذلك لفقرة اختلفت مدتها قديماً ولكن جعلها القانون شراً .

ان حقيقة حال العبد القديمة والتي تركت لها اثرأ في معجم اللغة ، نسبت اليه اصلاً غريباً ، فهو اما من الاسلاب او حصيلة عملية شراء قانونية تمت خارج حدود البلاد . ومنذ القدم فعلاً ولد بعض العبيد في الوطن اما من ابوين عبيدين او حتى من ابوين يتمتعان بحريتها ، لانه ان اعتبر الاولاد الذين هم ثمرة زواج فتاة حرة مع عبيد احراراً كوالدهم ، فان الاولاد الذين

(١) ين المثقال ٦ غرامات .

يستولدهم سيد خلية عبدة لا يعتقدون بملء الحق في الوقت الذي تصبح والدتهم حرة ، الا عند وفاة والدهم . وعلاوة على ذلك فانه باستطاعة الآباء الاحرار ان يبيعوا اولادهم ، وللدائن الحق باسترجان مديونه وامراته واولاده منها . وفي هذه الحالة الاخيرة فمن الحق القول إن القانون لا يقر العبودية الا لفترة لا تتعدى ثلاث سنوات . ولكن مددت هذه الفترة القصوى فيما بعد قانونياً وواقعياً .

ولا يوجد الا حالة واحدة ، وتبدو غامضة - حالة عبد ولد في بلاد بابل واقْتيد الى الخارج واعتق هناك - يأمر فيها القانون بالعتق بصورة آلية . ولكن يستطيع العبد دوماً ان يذال الحرية ان وهبه اياها سيده دون مقابل او منحه اياها لقاء مبلغ ما . وكسب الحرية بالمال ، وقد كثر اللجوء الى هذه الوسيلة ، يؤكد انه بإمكان العبد جمع قنوة ، ولكن لا نعرف كيفية هذا الكسب . ويقدر العبد ان يقترض من الهيكل مبلغاً لا كآل القنوة او ليقوم مقامها . وقد يفرض عقد العتق على العتق بعض الواجبات نحو سيده ما دام هذا الاخير على قيد الحياة . وللعق مفاعيل معجلة التنفيذ فيما يختص بالاحوال الشخصية . وكان التحرير يتم ، ايام حورابي ، في احتفال ديني يظهر انتماء جبين العبد حتى غدا لكلمة « التطهير » معنى « العتق » .

وكل هذه المعلومات ، وهي ذات قيمة عظيمة ولا نرى لها مثيلاً في القرون القديمة الا في المجتمع الروماني ، لا تفيدنا مع هذا لسوء الحظ كيف كان يحيا بالواقع افراد طبقتي الرؤوسين والميسد .

وتسري هذه الملاحظة ايضاً على الاسرة .

تحقق نظام الاسرة للمرأة الاستقلال لشخصيتها القانونية خصوصاً في موضوع تشريع الاسرة ادارة املاكها ، وهذا امر يستعري الانظار . والذي يقدمه الزوج المقبل لحيه عند اعطاء الوعد بالزواج لا يصبح ملكاً للزوجة ، ولكنها تبقى المالكة الوحيدة للبائنة التي تجلبها لزوجها . اما الهدايا التي من الطبيعي ان يقدمها الزوج لزوجته فلا تستطيع هذه الاخيرة ان تبنيها ولكن لها ملء الحق بالانتفاع منها . وللأمراة وحدها حق التصرف بكل حرية بما هو ملك لها من اموال منفولة او ثابتة . وللعقد الذي هو شرط ضروري واساسي لكل زواج صحيح ان يمنع القاء القبض على شخص الزوجة من قبل دائن زوجها . ولكن لا يسري عادة هذا البند الا على الديون التي توجب على الزوج قبل زواجه . ولكن ينفذ مبدأ التكافل والتضامن للديون التي تعقد بعد الزواج . ولا يستأثر اذ ذاك الزوج بادارة المنافع المشتركة بل نرى الزوجة تتدخل ، اقله كشاهدة ، عند عقود البيع . وان كان الزوج جندياً ، وطلب للخدمة فيعود اذ ذاك للزوجة حق ادارة املاكه ، ان لم يكن له ابن بلغ اشده ، وتصبح الزوجة في مثل هذه الحالات مالكة لثلث الربح .

ويستطيع الزوج دون شك ان يطلق امرأته ، ولكن القوانين تحميها اذ ذاك ضد قراره

التعسفي ، اذ عليه ان يلجأ الى الحاكم ويثبت شكواه بأدلة عادلة وقوية . وعلاوة على ذلك فإن سوء سلوك الزوج يعطي الزوجة الحق بإقامة دعوى ماثلة لتعود الى عند زوجها . وفي كل من الحالتين تأخذ معها كل ما يخصها وغالباً ايضاً تعويضاً تقدره القوانين . ويبقى جرم الزنى المشهود : اما جرم الزوج فلا يذكره القانون ، كما نعلم ، بينما يمكن لقاء الزوجة المجرمة مع غيرها الى الماء ، اذا لم يصفح عنها زوجها . وهذا ، على ما يبدو ، هو التفاوت الحقيقي الوحيد .

ونظام الزوجة الواحدة هو القانون ، يحد من شدة حق تأمين ذرية للرجل ، لذا فان عقصم الزوجة ومريضها هما من اسباب الطلاق الشرعية . كرفض المرأة القيام بواجباتها كزوجة وربة بيت او تهاونها في ادائها . ويحق للزوجة العاقر ان تهدي زوجها عبدة بمثابة خلية . ولربما هدف هذا التدبير الى منعه من اتخاذ اي تدبير قبله ان اتخذ له السراري ، اذ ان القانون ، في مثل هذه المواقف التي لا تشرف ، يكتفي دون شك بالتلطيف من افعال لا مفر منها . ونعرف حوادث المحجب فيها الرجل اولاداً من زوجته ومن خليلته ايضاً . ولا يمكن بيع العبد التي غدت موضوع انتخاب كهذا ، لا بل تعتق مع اولادها عند موت سيدها . ولكن عليها مع هذا ان لا تنافس سيدتها وان تنجب اولاداً . وان اخلت باي من هذه الشروط يحق اذ ذاك للزوجة ان تعيدها الى العبودية .

ويسمح القانون اخيراً للزوج ، ان لم ينجب اولاداً من زوجته او من خليلته ، وفي مثل هذه الحالة فقط ، ان يدخل الى بيته زوجة من رتبة ثانية . وعلى هذه الزوجة ان تحترم افضلية الزوجة الاولى . وقد ينص صراحة عقد النكاح الثاني على ان الزوجة الثانية « تغسل رجلي الاولى ! » .

وبعد ايجاد الحلول لمختلف هذه الحالات تبقى مسألة التبني ويتم التبني بموجب عقد . وان جرى وفقاً للاصول ودون اي ضغط فان القانون يحمي التبني في حال جحود المتبني او والديه الطبيعيين . فالمتبني الذي يتنكر لاسرته الجديدة يباع كعبد ، ويستطيع المتبني ، ان رزق الاولاد فيها بعد ، ان يفسخ العقد ولكن شرط ان يعطي للمتبني الذي يرذله ثلث الحصة الارثية القانونية باستثناء الاملاك الثابتة .

ويحدد القانون بدقة بالغة قوانين الارث ، فان كل ما تملكه المرأة ، حتى ولو استرجعته معها عند عودتها الى اسرتها ، يعود الى اولادها . ولكن يوجد تمييز وتفرق نسبة الى المهور بين الاولاد الذين هم ثمرة عقود زواج متبالية . والشئ نفسه يقال عن اموال الوالد . ومع هذا فبوسع الوالد ان يهب الهبات لامرأته او لاي من بنيه او حتى لشخص غريب عن الاسرة . ولكنه لا يستطيع ان يحرم من الميراث اياً من اولاده الا اذا سمحت له المحاكم بذلك بسبب ذنب خطيئ اقترفه المحروم . ويمرر تقسم الارث بالمساواة التامة ، اقله بين اولاد الزوجة ، لا بل يأمر القانون بالاحتفاظ بما هو ضروري لهدايا العرس التي سيقدمها العزب ، ويحرم من الارث اولاد الخلية ان لم يكن الوالد قد اعتنقهم وهو على قيد الحياة . وان كان قد اعتنقهم فليسهم

لمع هذا ان يدعوا لاختوتهم افضلية الحيار بين الحمص . وتحرم البنات من الارث ان كن قد اخذن البائنة والا فلهن حق استئثار حصه ما .

وتكفي هذه الايضاحات ، ومن السهل الزيادة عليها ، لظهار روح قانون الاسرة الذي يهتم الاهتمام الدقيق بكل ما هو موضوع ملكية منقولا كان ، بما في ذلك العبيد ، ام ثابتا .

واستناداً الى البقايا التي وجدت من قانون يرتقي الى الالف الثاني ، تظهر الاسرة ، عند الاشوريين ، اقل تماسكا : فيذكر مثلاً بانه باستطاعة الزوجة ان تعيش في البيت الوالدي ، حيث يزورها زوجها ويقدم لها كل ما تحتاج اليه . ولكن الفرق الاساسي هو ان للمرأة اهلية مدنية اقل مدى . فلا نراها فقط الا في القرنين الثامن والسابع ، ايام سلالة السرجونيين ، فريفاً في عقود البيع او افعال مماثلة ، وذلك بصورة اكثر ندرة مما هو الحال في بلاد بابل . ويعاقب القانون كل من يقرضها حتى ولو كان غريباً عن الاسرة ويجهل بانها متزوجة . ويمكن طلاقها دون تمويض او لجوء الى المحاكم . ويجبرها القانون ، بعد موت بعلها ، على الزواج من اخيه او من احد الاولاد الذين يحبهم من زواجه الاول . ويحق للزوج ان يتخذ خلية او خليلات عدة ، ويرفعهن الى مرتبة الزوجات .

ان قانون حمورابي سبق بقرون عدة التشريع الاشوري ، ومع هذا فهو يعبر بصورة جازمة عن حالة اجتماعية قد يعتبرها المرء اكثر تطوراً . ولكن في هذا المجال يجب اعتبار الطبع القومي . فلا عجب من ثم ان بقيت المرأة في مستوى قانوني دون مستوى الرجل عند شعب حربي كالشعب الاشوري .

ويسهل تصور ما ينقصنا في هذا الجانب او ذاك . ومن الطبيعي بان مجموعة قوانين ، حتى ولو طابقت دوماً — مع ان بعض العقود تنقض هذا القول — الحقيقة العملية ، تعتبر على مستوى واحد لوضعا تتوفر كثيراً في حياة مجتمع مع اوضاع اخرى تعد نادرة وشاذة ، هذا ان لم نقل مجرد تخمين وتكهن . والاخلاق التي تنتج عن وضع وسط بين هذه النظرية وتلك لا تنعكس بصورة واضحة في القوانين التي تبقى دون وزن ان استثنيتها . ويلزم لاحياء الحقيقة امور غير العقود التي لا عد لها والاسناد القضائية التي قد يأتي تنظيمها المنطقي نتيجة المصادفة . اعني مراسلات شخصية وطرائف وقصصاً . ان المستندات الكثيرة عن تاريخ بلاد ما بين النهرين تساعد المشرع اكثر من المؤرخ .

يدلنا كل ما تقدم على اهمية وقوة وتنوع الحياة الاقتصادية . ويمتقدون بانه الحياة الاقتصادية :
من واجبات المؤسسات الجماعية الاساسية السهر على هذه الحياة وتنظيمها
لتمكين ازدهارها وابقائها على مستوى من الاستقرار العادل .
العمل الرسمي .

وتهدف العبادة في الدرجة الاولى الى استجلاب عطف وحذب الالهة على الاعمال التي تؤمن

للإنسان طعامه ورفاهيته ، ويعطي المثل والقودة مالكو الاراضي والهباء كل والقصور واصحاب الكنوز والخيرات منها اختلفت انواعها . فهم يتأثرون مباشرة بالازدهار العمومي لما تنفدقه عليهم من خيرات مادية فضائل التقوى والطاعة وعرفان الجميل . لذا فهم يقومون بدور منظمي الحياة الاقتصادية . ولكن هذه النظرية هي أشد وطأة في مصر : اذ لا نجد أثراً لاقتصاد موجه ، ولا يعتبر الملك او الآلهة المالكين الوحيدين لجميع اراضي البلاد التي يصبح المزارعون فلاحها . ولكن في بعض المرافق ، يشتد تدخل الدولة بصورة اوضح واعق بما يجري في وادي النيل ، حسب معرفتنا اقله ؛ ويعتبر قانون حورابي ، بعد ان حدد الراتب والتمن في مجالات عدة ، اوسع تجربة ، في عهد قديم ، لثمين رسمي ، ونود ان نعرف ، استناداً الى وثائق اكثر عدداً وأشد وضوحاً ، فعالية هذا العمل في الحياة اليومية وتطورات التاريخة .

تتبع الزراعة مركزاً مرموقاً ، الاول دون شك ، في حقل اهتمام المسؤولين
 الزراعة
 عن مجموع الامة ، وقد مسحت الارض ، باكراً جداً ، وغدا ضرورياً تسجيل كل تغيير يطرأ على تقسيمها او ملكيتها او حتى على طرق استثمارها . وتحفر قنوات التجفيف والري ويسهر على صيانتها تحت اشراف السلطات ، تبعاً لنظام اعمال سخرة لا يعني منها الا امتياز ملكي . ويدير مهندسون جهابذة مكاتب فن ودراسة ليضعوا تصاميم احواض وخزانات المياه وقنواتها ، كما تنظم القوانين والتقاليد اسس توزيع المياه المنعشة ، ومعاينة كل امال او غش يلحق الضرر بالمجاورين . ويحدد القانون ايضاً شروط المزارعة وواجبات المزارع وكيفية تقسيم الاضرار التي تسببها تقلبات الجوبين المالك والمزارع او المستأجر ، ومبلغ اجرة الفلاح والبقار والراعي ، وبدل استئجار ثور او حمار ، ومسؤولية الحوادث او الخسائر التي تحمل بالقطيع ، وعملة العامل اليومي في الحقول .

وتكشف هذه الدقة التي تصل غالباً حد المغالاة عن نظم حياة زراعية شديدة التطور ومبدأ الملكية العقارية المصغرة جداً ، وترتيبات لا حصر لها في كيفية ملكية وتوزيع الاراضي الزراعية . وما لا جدال فيه بان الارض ، في منطقة بابل ، مهد حضارة بلاد ما بين النهرين ، غدت المظهر الاول للثروة ، واثارت المطامع ، وبسبب انتقالها من يد الى يد خلقت المشاكل التي لم يستطع حلها الا الهياكل والدولة . لذا اصبحت الارض المادة التي اجريت عليها اقدم التجارب حياة اقتصادية تخلق علاقات بين السكان وتستحث مخيلتهم .

وقمت ، عن جدارة واستحقاق ، بلاد بابل طوال الازمنة القديمة ، وهي الارض الرسوبية المروية ، بشهرة حصص اسطورية تفوق شهرة تربة مصر . ولقد افاد هيرودوتس وسترابون بان الجنوب كانت تعطي غلة تعادل ٢٠٠/ او ٣٠٠/ للوحدة ، وتسمح لنا حقا المستندات والوثائق الاعتقاد بغلة عادية تفوق ٥٠ للشعير ، هذا الصنف من الجوب الاكثر شيوعاً والذي غدا عياره مقياساً لعظم الاثمان والتعويضات التي حددتها القوانين . وحسب اقوال هيرودوتس ايضاً فان

نبتي: السمسم، الذي يستخرج الزيت من حبه، والجاورس أصبحتا كالشجيرة! ولتأكد هيرودوتس باباً واحداً لن يصدقه، استكشف من الإشارة الى طول هذه الشجيرة. ويعترف «ابوالتاريخ» بعدم وجود الكرمه وشجرتي الزيتون والتين؛ ولكنه، وقد حذا حذوه سترابون، يشدد في الكلام على عدد شجر النخيل وتنوع المنافع التي تؤديها: اثمار قد تعتبر المادة الغذائية الأساسية، وخمرة، وعسل، وخبث، والياب للنسيج؛ حتى ان نواة البلح تصلح وقوداً للحداد، وهي ان طحنت غدت علفاً للحيوانات. ويقال، كما يعترف سترابون، بان اغنية فارسية تعدد نحو ٣٦٠ استعمالاً لشجرة النخيل.

لذا فان اساليب لبقه ترشد عمل الانسان وتساعد، وقد بلورتها حقبة عدة من التجربة والاختبار. فقد عرفوا اثاره تلقيح شجرة النخيل، واستطاعوا ان يجعلوا من الثور البري ذي القرون الطويلة الملتوية، ومن الحمار، والحزير، والضأن، وطيور القن حيوانات داجنة، وهم يجاربون، مستندين الى المهارة والقوة والحيلة، الحيوانات المضرة التي تعيش في المناطق المجاورة من الصحارى والجبال او في مناطق المستنقعات. ولم يكتفوا باستعمال الحراث الذي تجره الحيوانات بل عرفوا ايضا المذرة.

ان هذه الاوصاف الجميلة تنطبق على بلاد بابل، اعني السهل المنخفض الذي حبه الطبيعة. وكسبب وسبب في الوقت ذاته للازدهار الزراعي الذي لا يعكره احد، فان كثافة السكان، التي لم تخضع لاي احصاء، تصل الى نسبة كبيرة جداً، يؤكد ذلك عدد المدن التي تذكرها النصوص والذي يفوق عدد المدن التي عثر عليها. وتتغير الحال في المناطق الاقل غنى، اعني مناطق الجبال والسباسب. ويفتدو الصيد من اساس وسائل التغذية في كل مكان يجري فيه نهر او تنساب قناة. ويذكر هيرودوتس بان ثلاث «قبائل» على شاطئ الخليج الفارسي، وهو من اكثر مناطق الدنيا فقراً وجدياً، لا تأكل الا سمكاً مجففاً في الشمس او مسحوقاً ليصبح دقيقاً. وهناك يدو يتنقلون سعياً وراء المراعي لقطعان الماعز والضأن والجل. وهناك سكان الجبال الذين لا يحنون الا غلالاً ضئيلة ولكنهم يتعاطون الصيد الذي يصبح عندهم من ثم ضرورة مستمرة والذي يغذي فيهم النزعة الحربية، بينما يعتبر في مناطق اخرى لهواً نبيلاً لا يبل محصوراً بالملك. وفي فترات مختلفة تصبح هذه الجماعات، التي تعيش على الحدود، والقريبة من مواسم السهول الغنية، خطراً عظيماً على رجال الزراعة الذين يعرفون الاستقرار. وبقيت هذه الجماعات، رغم الحملات التأديبية المتكررة، سبب ازعاج مستمر للدول النظامية التي لا تتفاوض عن اي تجاوز على القانون او عصيان.

العمل الصناعي
ان مهارة الصناعيين لا تقل عن مهارة الفلاحين ودأبهم على العمل. ويكفي ان نتفحص ما وجد في قبور أور الملكية لتؤكد من دقة الصناعات اليدوية في اعمال غلي الخشب والمعادن، خاصة منذ اواخر الألف الرابع او اوائل الألف الثالث. فهم عرفوا

خمس مئاد : الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص . وقد اتقنوا تنقيتها من الشوائب والاقذار ، وقاموا بأعمال المزج والالحام والصقل والصياغة والترصيع والتزيين بالميزن . وقد استبدل الحزف بالمعدن اللوانى الثمينة . ومع الزمن فان الجمهور الذي يتعاطى مع الهياكل والقصور التي تغذي المصانع المختصة بالنسيج والتطريز والصياغة والنقش والحفر الخ ، ساعد على تطور الفنون اليدوية وتقدمها المستمر . والتدريب على هذه الاعمال ، وقد اصدر لها حورابى تشريعاً دقيقاً ، يؤمن توارثها .

المواد الاربعة : ان ما تحتاج اليه بلاد ما بين النهرين لتتخذ صناعاتها المدى الواسع الذي يبرره كالماء وجودتها هو المواد الاربعة ، وخاصة المواد المعدنية . ويصر المؤرخون اليونان على ذكر « الزفت » اي القار في حالته الجامدة او شبه الجامدة في بلاد بابل ، الذي تطلّى به السفن او تشد به آجر الحيطان ، وان كان سائلاً ، النفط الذي ينبع من ارض سوسة والذي يستعمل زيتاً لاشعال القناديل . وهذه ثروة جوف الارض الوحيدة تقريباً ، اذ لا اثر للمعادن او انها سرعان ما نضبت ، لا بل تنتقص المنطقة الاكثر خصباً وسكاناً ، اعني سهول الاودية الرسوبية ، الخشب والحجارة .

لذا على المرء ان يسعى لاستيراد هذه المواد عندما يصل الى درجة من الحضارة التقنية . ومنذ تاريخ متوغل في القدم استوردوا بعض هذه المعادن من امكنة بعيدة جداً : فالعاج والحجارة الكريمة من الهند ، والنحاس من قبرص وارمينية او آسية الصغرى ، والقصدير من القفقاس وربما . ولكن قد يتعرض التموين بهذه المواد الى مخاطر كنفاد المعادن او انقطاع سبل المواصلات . ويختلف العلماء بخصوص تحديد تاريخ مقابر اور الملكية حيث الشبه ، وطبقة لاغاش حيث ادوات النحاس ، ولكن ليس من المستحيل ان تكون اور قد استحصلت على القصدير وقد خلت منه لاغاش في زمن لاحق .

ولدينا دليل على تصدير الحمير والقماش والاشياء المصنوعة . غير اننا لا نجد اثراً لتصدير المواد الغذائية . ومع هذا فمن المؤكد بانه كان سهلاً على بلاد بابل ان تقدم كمية كبيرة من هذه المواد . ولكن تسعى البلاد الغربية جهدها لكفاية حالها بحالها وتستثقف من ثم عن دفع ثمن هذه المواد الغالي اذ لا تجري التجارة الا على بضائع ترتفع اثمانها لما يطرأ عليها من مصاريف باهظة نتيجة للنقل وللأخطار المحتملة والمضاربة .

تطرح ضرورة التصدير الى البلاد البعيدة على بساط البحث مشاكلاً النقل . وسائل النقل وفي بلاد بابل يحل وجود القنوات هذه الصعوبة باهون الطرق فنجد اوائل الاف الثالث غدت المراكب تتسع لمحمولة ذات وزن محترم (اكثر من مائتي هكتوليتراً) . وهي تسير بواسطة المجذاف او الشراع . ويحدد قانون حورابى بصورة واضحة شروط بناء هذه المراكب وتأجيرها واستخدام ربابتها . وتصلح الانهر ، خاصة الفرات ، لاسفار اكثر بعداً . ويلعب « الرصيف » دوراً رئيسياً في المدن التي اقامها الملوك الاشوريون او التي جددوا بناءها ،

اذ تصبح الكلمة التي تعني « رصيف » جزءاً من اسم المدينة . وهكذا تأتي الاخشاب الكبيرة التي تنقلها القوارب او الاطواف من آسية الصغرى او سورية ، وتستخرج الاحجار الكبيرة من الجبال الشمالية - الغربية او الشمالية - الشرقية .

ولكن لا بد من اللجوء الى وسائل النقل البرية ، مع ما يرافق ذلك من صعوبات تولدها حالة الطرق السيئة وشروط الجر البدائية . ويحصر استعمال الحصان او العجلة تقريباً بالاعمال الحربية فقط ، ولضرورات الحياة العادية يلجأون اذن الى حيوانات الجر كالحمير والبغال والجمال . واذ كان الامن شبه مفقود على الطرق في المناطق الصحراوية او الجبلية يجتمع التجار قوافل قوافل تبعاً لتقليد سيستمر الشرق عليه آلاف من السنين .

التجار ومستعمراتهم
استثمرت بلاد ما بين النهرين موقعها الجغرافي ، وهو اقل عزلة من موقع مصر . وترجع علاقات بلاد ما بين النهرين مع اقطار بعدت عنها كثيراً كناطق وادي الاندوس والقفقاس وآسية الصغرى الغربية الى اقدم العصور التاريخية والى اكثر عهود ما قبل التاريخ قدماً . وبصورة شبه مستديمة ، باستثناء فترات سببتها هجرة الشعوب اكثر من الغزوات الحربية ، فقد استمرت هذه العلاقات مسهلة والحالة هذه تبادل الخيرات وتلاقي الحضارات وتشابك العناصر العرقية المتباينة .

وقد اثبتت المستندات المدعوة « اللوحات الكبادوكية » بانه في اواخر الالف الثالث ، كان يوجد في اواسط آسية الصغرى ، في ضواحي جبل « أرجيه » ، جماعات من التجار الاشوريين يتعاطون اعمال السمسة للاستيراد والتصدير . وهم يديرون شؤونهم كما لو كانوا جمهوريات صغيرة مستقلة ، « الارصفة » ، وييقون على اتصال مع بلاد ما بين النهرين . وان اختفت هذه المؤسسات دون ان تبقي لها اثرأ فقد غدا لسواها ديمومة اطول عمراً . ومما يثير الدهشة ان يلاحظ المرء في بدء القرن السادس وجود يونان في مملكة نبوكدنصر ليس لهم صفة المرتزقة ، اذ تشير مستندات تجارية الى وجود تجار « ايونيين » في بابل . ولكن يصعب على المرء خاصة ان يفهم توسع الاراميين الآتين من السباب الممتدة بين دجلة والفرات ، دون ان يتبادر الى ذهنه دور الوسطاء في حياة اقتصادية فتحت المجال رحباً للتبادل بين الاقطار لا بل بين الدول . وسنجد في هذه الدراسة اكثر من مناسبة للاتيان على ذكرهم .

تنظيم المعاملات
يولد اتساع العلاقات الاقتصادية المختلفة الاشكال ، وذلك باكرأ جداً جداً ، اشكالا متطورة للتنظيم التجاري حتى والمصرفي .

والقرض لقاء فائدة هو موضوع معاملات عادية ، لجهة الفلال كان ام لجهة المال . ويعين القانون حد الفائدة الاقصى منذ الالف الثالث . وان اعتبرت الغلات الزراعية - وتذكر النصوص « البشير » ، ولكن اتخذت هذه الكلمة مدلولاً واسعاً - فالفائدة هي ٣٣،٣٣ بالمائة

سنوياً ؛ وان اعتبر المال تبلغ الفائدة ٢٠ بالمئة فقط . ونعرف بعض حالات نادرة جداً تفوق الفائدة الحقيقية هذا الحد ، وحالات كثيرة جداً تنقص عنه . وهذه الفائدة هي في هبوط مستمر ، اقله في بلاد بابل الاكثر انتاجاً . ففي العهد البابلي الجديد لا تتمدى الفائدة العادية للشعير الحد الذي قرره حمورابي للمال . وعلاوة على ذلك ، ومنذ القدم ، فان على القصر والهيكل واجباً معنوياً ، وهو ان يظهرا تساهلاً وحذباً أكثر من الافراد . وهكذا فقد اكتفى احد الهياكل بفائدة تبلغ فقط ٦ بالمئة ، كما استلف الفقراء والمرضى الحبوب دون اي فائدة .

وهناك ايضاً امثلة اخرى عديدة عن اعمال عادية : كالايجار والرهن والكفالة ، وفيما يختص بالتجارة ، الشراكة لمدة قصيرة او طويلة ، وفي هذه الحالة ، المحاسبة في اوقات محددة ، وشركة المضاربة ، والسمرة والتوكيل الخ .. وتحدد القوانين شروط هذه الاعمال ، كما فعلت للدين ، وتستدرك حالات عدة مختلفة .

وتم كل عمل بموجب عقد ينظم ويوقع حسب اصول ، مع ايضاحات صريحة ، وذلك امام شهود يوقعون اختتامهم ، وغالباً ايضاً ، خاصة في مجال الديون ، امام موظف يحمي اثرافه المدينون ضد قساوة المرابي الذي يستغل الفرص للكسب . فرجل الاعمال الذي يخضع له مستخدمون وعملاء هو شخص له اهميته في مجتمع بلاد ما بين النهرين وحياة شعوبها . واذا يكون غالباً وكبلاً عن الثروة الملكية او الالهية فهو يعمل ايضاً باسم رجال احرار آخرين او باسمه الشخصي ، وهو يعتبر ، منذ السلالة البابلية الاولى ، جد الصير في العصري .

تسهيلاً للتبادل وتبسيطه لم ينقص ذاك المجتمع سوى معرفة النقد . وقد عوض المايير والقيم عنه ، بصورة تزداد حسناً او ثقلاً ، باستعماله الشعير والمعادن ، كعماير للثمن والقيمة . ففي اول الامر لجأوا الى النحاس فقط ، وعند الاشوريين الى الرصاص غالباً ؛ ولكن بشكل مستمر ، خاصة في عهد حمورابي ، استعمالوا الفضة التي يضاف اليها الذهب ، بكيات قليلة للتعامل مع الغريب . وللهياكل والقصور مكاييل وممايير معينة ، وينص القانون على معاقبة الغش . ويتعاملون بالمعدن على شكل سبائك او صفائح او حلقات ، قد انتهى الامر بهم الى ختمها بختم للدلالة على نقاوتها . ولكنهم لم يسكوا قط نقوداً معدنية ، وقد حفظت الاقدار هذا الاختراع للحضارات الغربية .

وتظهر بعض النصوص بان نسبة التقدير ، حتى بين البضائع المتخذة كعماير ، غدت عرضة للتغير . وقد يحمل الحصاد على ازال كمية الشعير التي يمكن الحصول عليها بوزن من الفضة (عادة هكتولتر واحد لكل ٣٠ غرامات من معدن الفضة النقي) الى النصف او اكثر . وتزداد نسبياً من ثم قيمة الذهب ، وهو في كل وقت مادة اندر من الفضة ويحتكرها الصاغة . ومع هذا فلا نلاحظ قيمة تصاعدية مستمرة : واذا كان الذهب يساوي في البدء تسعة اضعاف وزنه من الفضة ، فقد هبطت قيمته ايام حمورابي الى ستة اضعاف لترتفع من جديد الى اثني عشر ضعفاً في القرون

السادس . ولكن ايام الامبراطورية الفارسية غدا المعدل المتعارف عليه عشرة اضعاف فقط .
ويخضع هذا التقلب دون شك الى كميات الذهب المتوفرة التي هي عرضة بدورها للتبدل الحاصل
في ملكية المناجم . وتكثر هذه المناجم او تقل تبعاً لاتساع ممتلكات الدولة جغرافياً .

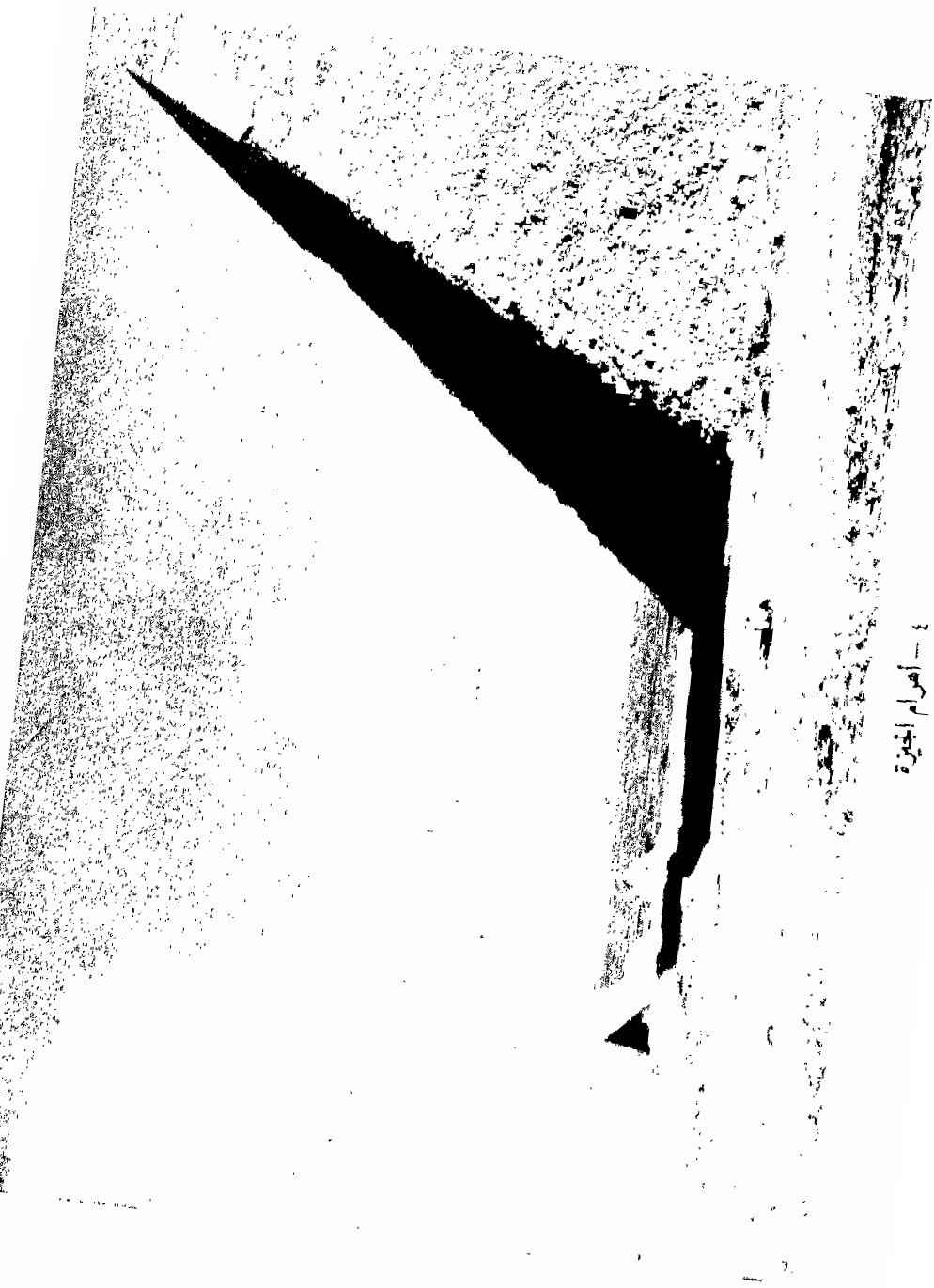
ويكون عدم وجود النقود، او اقله عدم توفر عيار موحد ذي قيمة ثابتة، النقص الوحيد في
حياة بلاد ما بين النهرين الاقتصادية . ولكن ان اعتبرنا بمجل هذه الحياة فان الوقوف على حيورتها
وليونتها وتشعبها ، هذه الصفات التي تثبتها لوحات القبود والحاسبة المكتشفة ، يحملنا على
الشعور بانها حياة اقتصادية شبيهة جداً بحياتنا العصرية .





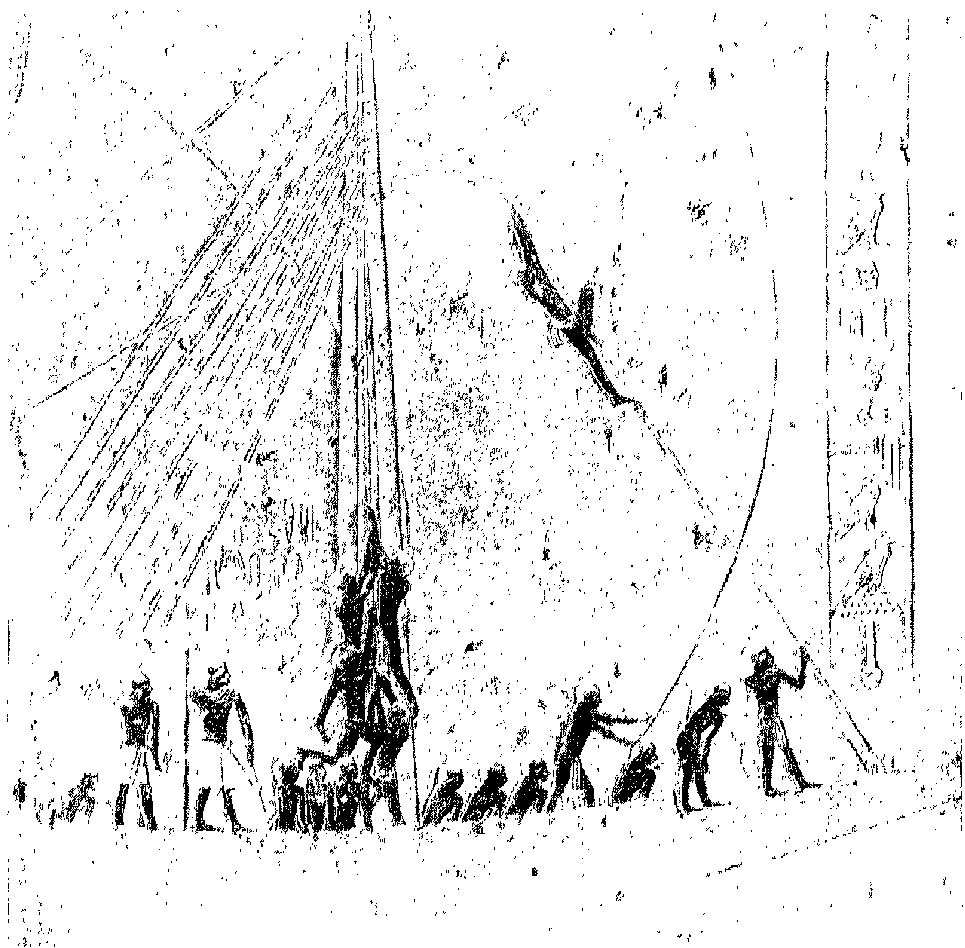




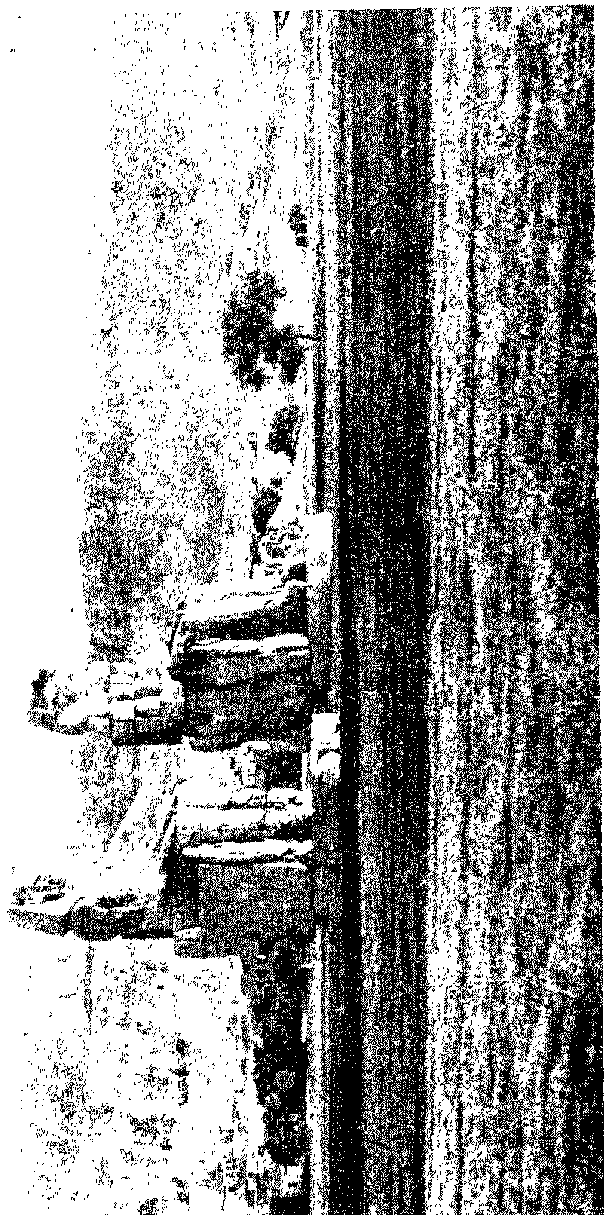




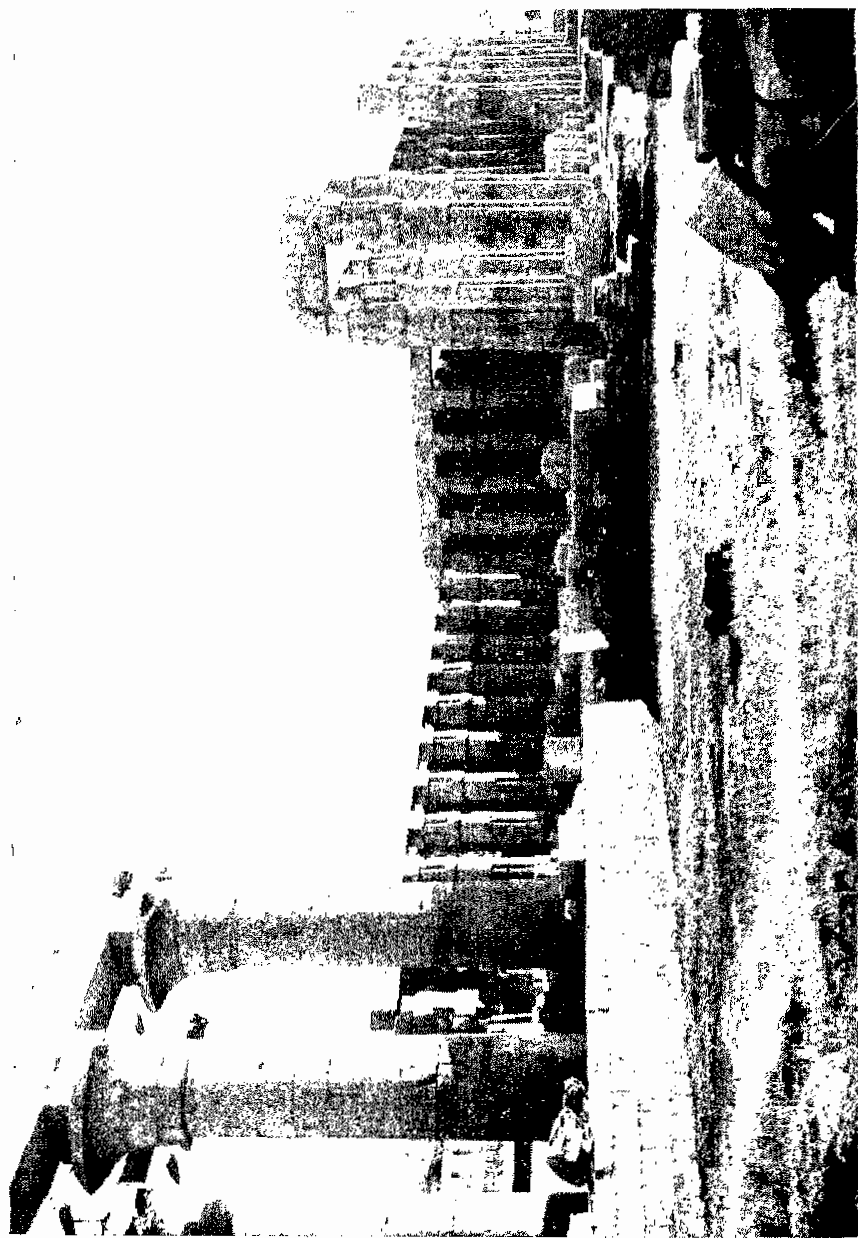
٥ - أبو الهول في الجيزة



٦ - نقش ناتىء فى مصطبة اخوتخوتب







٩- معبد امنوفيس الثالث في الاقصر





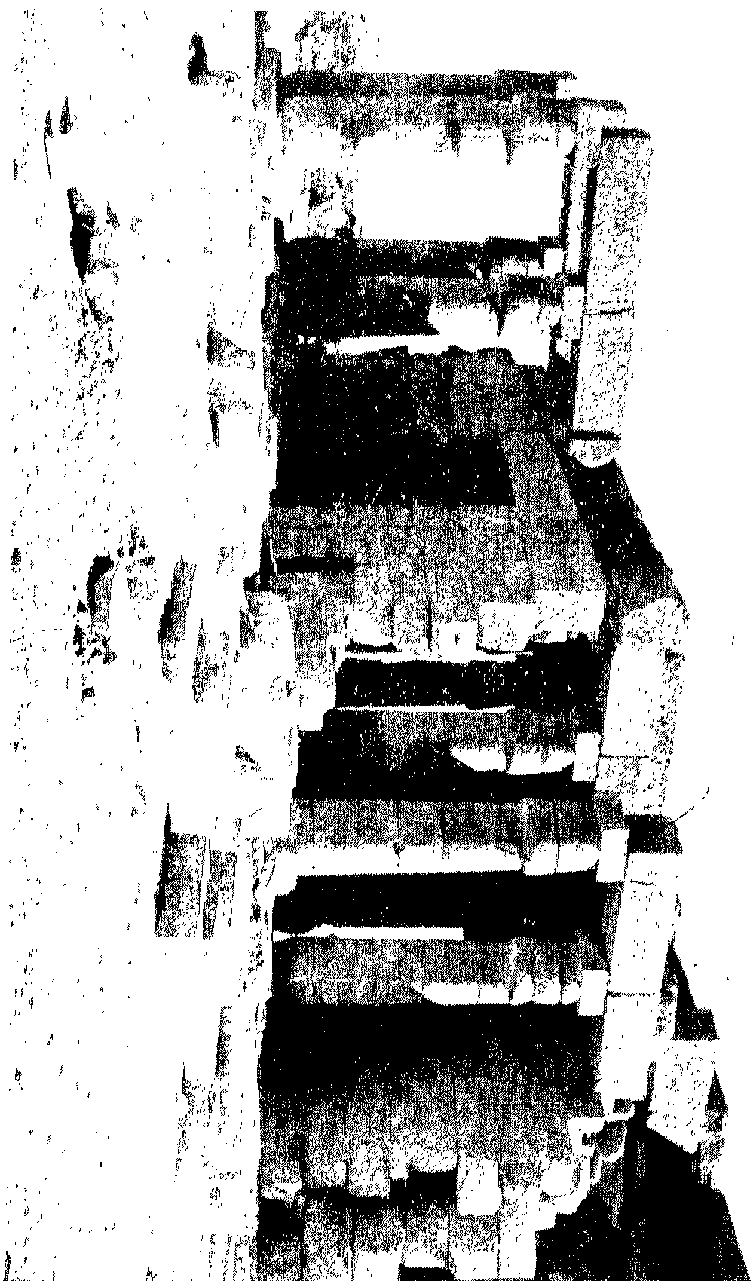






١٤ - معبد سبتي الأول في أبيدوس





الحياة الروحية

ان الطوائف المالية والتجارية التي وقفنا عليها لا تكون الحصة الوحيدة التي اسهمت بها حضارة بلاد ما بين النهرين في مجموعة اختبارات العالم القديم . ولا تقل حيويتها وضوحاً واهمية في مضمار الحياة الدينية والعقلية والفنية . وان اعتبرنا بعض المعالم ، خاصة علم التنجيم ، ان لم نعر اهتماماً إلا هذه الناحية الأكثر اشراقاً ، نربان هذه الحضارة لم تعرف لها منافساً ، وقد تركت اثرأ لا يمحى في مناطق تبعد كثيراً عن احواض دجلة والفرات .

اولاً - الافكار والوقائع الدينية

يسر على البحث الوقوف على اصول ديانة بلاد ما بين النهرين . وعندما يصبح بالامكان التقصي عن هذه الديانة ، فنستظهر لنا إذ ذاك متينة التكوين من حيث المظاهر الاساسية والاهداف الرئيسية ، ان لم نقل في الكثير من نواحيها التفصيلية . فهي موجودة منذ العهد السومري ، قبل اوائل الالف الثالث . ولا يعني هذا جزمأ بانها من صنع السومريين الذين يكونون قد اكتفوا بتبني او تعديل عقائد او عبارات سبقتهم في الزمن . ولكن بقي التقليد اميناً لما اورثوه . واستمرت معرفة لغتهم محصورة زمنأ طويلاً بين الاوساط الكهنوتية ، لا بل يشعر المرء ايضاً بان التغييرات العرقية التي فرضتها الغزوات في وقت لاحق لم تبدل كثيراً في ديانة ثبتت اسمها منذ عهدهم . لا بل فان العكس صحيح اذ ان الشعوب التي تلتهم اعتنقت هذه الديانة التي فرضت نفسها فرضاً عليهم لما لها من ابهة وقضائل .

الديانة : السومريون
والساميون

ولا اوضح في هذا المجال من المقارنة مع الديانات السامية . فهناك نقاط ثلاث لا شك فيها . فلشعوب بلاد ما بين النهرين اله للزرع ، دوموزي ، وهو الاله تموز بالذات ، اي ادونيس عند الفينيقيين والسوريين . ولهم اله الزوبعة والعاصف ، يتخذ عند الاسم المذكورة اسم حدادة . ولكن عبادة هذه الالهة في بلاد ما بين النهرين هي اسبق في الزمن من اقدم تغفل

سامي، حتى ان نظرية الاقتباسات التي اعتمدها الساميون ، المدعوون « غربيين » ، لها من الاحتمال ما للنظرية المعاكسة .

وعلى كل تبقى دوماً مثل هذه الآلهة في ديانة بلاد ما بين النهرين على هامش المذاهب الالهية الاكثر احكاماً وتبلوراً . وقد قبل كل الساميين المدعوين « شرقيين » ، اعني ساميتي بلاد اكد واشور ، الخضوع لهذه المذاهب مع ما هم عليه من تفوق حربي وسياسي . ففي بابل الاكادية يتبع حوراي الديانة نفسها التي خضع لها غوديا في لاغاش السومرية ، فيكرم الآلهة نفسها ويقيم لها ذات الطقوس وفي الهياكل عينها ، لا بل يظهر نابونيد ، عشية الفتح الفارسي ، اي بعد اكثر من خمسة عشر قرناً على انقراض مملكة اور ، تعبده للاله سن ، الاله القمر في اور القديمة ، احدي مدن بلاد الكلدان .

ومع هذا يلوح هنا او هناك تطور ما : إذ لا يستمر قط امر انساني على حاله . وتبدو هذه الحقيقة اكثر دقة عند البحث بالافكار المتعلقة بالموت ، تكريم الموتى : عدم النظام في قبور اور فتتكشف اذ ذاك عن وضوح ووحدية تحيّر المؤرخين .

ولم يمض بعد ثلاثون عاماً على اكتشاف قبور اور التي يرجع تاريخها الى نحو ثلاثة آلاف سنة . ولكن اظهر هذا الاكتشاف المدى القوي الذي كان يتمتع به الاعتقاد بوجود حياة ثانية . فقد وجدت كل الجثث في هذه القبور والى جانبها ادوات تستعمل في هذه الحياة الدنيا ، من الادوات الخزفية السيئة الصنع والشكل المختصة بالفقراء المدفونين في جوف الارض دون تابوت الى الآلات الثمينة التي يستعملها عظماء هذا الكون ، وقد شيّدوا لهم اقبية من آجر . ولا يُفسر وجود بعض من هذه الاواني الا اذا كانت ملأى بالمواد الغذائية . ونرى العجلات والاسلحة التي يتخذونها للآلهة والعظمة كالخناجر والحوذ من الذهب الخالص ، وزناير الفضة وآنية الطعام الذهبية ، ومعدات التزيين والتبرج ، والحلى ، حتى والآلات الموسيقية . وعلاوة على ذلك فان جثث الحيوانات والحراس والخدم والجواري تؤلف بعد الموت ، كما فعلت اثناء الحياة الارضية ، الموكب الذي يعتبر ضرورة لظهار عظمة السيد الميت ، الذي سيحيى حياة لا نهاية لها في عالم آخر نجعل عنه كل شيء .

ولم يعثر قط على قبور كقبور اور تخبرنا الحقيقة — على قلة النقوش التي وجدت فيها — مهما توغلنا في القدم او بحثنا في المناطق التي ازدهرت فيها حضارة بلاد ما بين النهرين . ولم يشهد لهذه القبور مثيل . ولا شيء يفهمنا حقيقة مثل هذا التصرف مهما قلبنا في الآداب السومرية او البابلية او الاشورية . ولقد اكتشف امر وحيد مقارب ينبه الفكر : الطقوس التي يذكرها هيرودوتس والتي كانت تقام في زمن الملوك الفرّ (او السيث *Scythes*) . ولكن نسبة للبعد لا يسع المرء الا ان يشك في قدرته على استنساخها ليستنتج وجود تأثير عرقي او غيره .

فقد الاحياء ، مع الزمن ، بعضاً من الاهتمام الذي كانوا يبدونه نحو الموتى ،
 الافكار المتداولة
 فلا يمثل القبر انموذجاً من فنون بلاد ما بين النهرين ، على عكس ما نراه
 بخصوص الموت
 في معظم الحضارات القديمة ؛ لذا نجد انفسنا مقيدين بالنصوص التي ، على
 ما فيها من تكتم ، تساعدنا على معرفة العقائد التي تفرضها اكتشافات أور الباهرة .

ولا يعني هذا بان الموت يعادل العدم الكلي . ولكن لا يصبح الميت الها كما الحالة في مصر .
 وقد نعد على اصابع اليد الاشخاص الذين اعتبرتهم الميثولوجية آلهة . وفي الوقت الذي تنقلص
 فيه الحياة يغادر الجسد ظل او روح . وان لم يُعد لهذا الروح رسم ، وبصورة ثانوية مواد
 غذائية ، فهو ينكد عيش الاحياء اذ هو بطبيعته شرير وبهم دون راحة . لذا فان مصالح
 الاحياء تتفق مع منفعة الميت ، وهذا ما يفسر لنا الرغبة الملحة في ان يكون للميت ولد ، حتى
 ولو كان بالتبني ؛ وهذا الابن يؤمن طقوس الدفن المناسبة ويصبح فيما بعد « مربي الماء » ومنظم
 وجبات طعام الميت ؛ لانه ان اقيمت الفروض الاخيرة المتوجبة نحو الجثة ، يهبط اذ ذاك هذا
 الروح نحو « الارض الكبيرة » « الارض التعتانية » « الارض التي لا عود منها ! »

ويقدم لنا قصيد « نزول إشتار الى الجحيم » وصفاً غير شيق عن هذه الملكة الجهنمية ، وعن
 شروط المكوث اللانهائي الذي سيقضيه فيها حتى اكبر العظماء انفسهم . وبطابق هذا الوصف
 الوصف الذي تسوقه لنا ملحمة غيلغمش ، ولا يحتفظ الاموات باي ثوب بعد ان ينزعوا عنهم
 كل ملابسهم عندما يعبرون الابواب السبعة التي تتيح لهم اجتياز الاسوار السبعة المتتابعة .
 ولا يستطيع هؤلاء الاموات الذين تكتنفهم ظلمات حالكة ويحرسهم الشياطين ان يعودوا الى
 الارض ، وذلك لراحة الاحياء الكبرى . ويجمع الجنود الذين يسقطون في ساحات الوغى وقد
 رفع ذروهم رأسهم قليلاً واراحت نساؤهم على وسادتهم . وينعم بعض من هؤلاء الاموات ، دون
 ان نستطيع تعيينهم لنقص في النصوص ، بسرير ويشربون « ماء قراحاً » . ويقفات العدد
 الاكبر من الاموات ، خنى وان اعتنى بهم الاحياء ، من الغبار او من التراب المذوب .

ويقلق غيلغمش على مصير هؤلاء الاموات المساكين . وقد يناشدهم قائلاً : « ايها الميت لن
 نجد الحياة التي تبحث عنها . وعندما خلق الآلهة الانسان خصصوا له الموت ، اما الحياة فقد
 احتفظوا بها بين يدم » . ومع هذا فهو يكتشف نبذة الصبي الذي يصبح اسمها « الشيخ الذي
 يعود شاباً » والتي تكون مادة لنهاج . ولكن تنتزعها منه اخيراً اقمى مثبتة بصورة قاطعة
 مصير الانسان الذي يدعو للشقة .

والبون شاسع بين هذه الاساطير المحزنة والحكايات التي دغدغت عقول المصريين . واذا لا
 ينكشف اي افق مشجع على العالم الثاني يزول من ثم كل استغراب ان بدا تطويل امد الحياة
 الدنيا صفوة الاماني ، اذ لا تحقق اي حياة اخرى سروراً للكائن الزائل . وهذا التعديد في
 اوروك ولا رسا كما عند الاشوريين والبابليين ، هو المكافأة الكبرى لحياة صلاح ، اعني لحياة

خضعت لمشيئة الآلهة ، وملأها صاحبها بأفعال البر ، حتى ان اشوربانيبال العظيم لا يستنكف عن
ترديد هذا الدعاء : « اني ارحب الوهيتك » فامنحني حياة مليئة بالايام الطوال ، فرحة القلب ،
ولاني اعبدك في هيكلك دع قدمي تشيخان ! »

اتى هذا النص على ذكر خوف الآلهة . وباستطاعتنا ان نورد نصوصاً تفوق
الخوف وتقوى الحصر تتلور من خلالها نفس العاطفة . ولا يفكر المؤمن بالتذمر او الشكوى ،
بل قد يستمخ لنفسه مراراً اظهار استغرابه للبلاوى التي تنزل به والتي لا يبررها مع هذا اي
خطأ ارتكبه ، فقتصاره في نفسه عاطفتا الخوف والشكران لكل ما كان يمكن ان يصيبه
وقد نجا منه . وهكذا يفدو الخوف ، ولو بصورة مصغرة ، مرادفاً للتقوى ، وفقدان هذا الفزع
للخطيئة ، والذي يخشى يعتبر نفسه على حق ان التمس ، دون الحاح ، ثواباً لان الخوف يحرضه
على اتيان اعمال تسر الآلهة ، بينما يعد نفسه مستوجباً العذاب الذي لا يعرف للخوف معنى .

انه يوجد ولا ريب شياطين شريرون ، وهم مصدر الامراض والبلايا ، وتقوم مهمة السحر في
تدارك وابعاد اذاهم . ولكن يصبح اعظم الآلهة ، مع حديثهم الاصيل نحو الانسان ، عرضة
لانفعالات غضب يستحيل التكهّن بوقت حصولها ومعرفة اسبابها . واذ يعسر على المؤمن
التخفيف من حديثها ، يتوجب عليه من ثم تقبل نتائجها دون استنكار او تذمر . وكما نجد آثاماً
معددة العالم ومصنفة درجات درجات ، هناك خطايا يرتكبها الانسان عفواً دون ان يفقه بانها
تشكل ضده اسباباً للشكوى . وان وجدت آلهة من مزاياها الاساسية العدالة وحماية الانسان ،
نرى آلهة اخرى لا تتأثر قواها قط بالمبادئ المعنوية . وكما يوجد آلهة يعرف الجميع حقيقة كنهها ،
فهناك آلهة سرية يحيل المرء عن حقيقتها كل شيء ، فيسهل من ثم اغضاؤها وعن غير قصد .
وهكذا يفدو الاعتراف بآثامه الوسيلة الوحيدة لاستجداء الرحمة : « ان آثامي كثيرة وخطاياي
ثقيلة ، فلتخمد عاصفة الغضب في قلب سيدي ! فليهدئ الاله الذي اعرفه والاله الذي اجهله !
وليطمئن خاطر الآلهة التي اعرفها والتي اجهلها ! »

ان اصل هذه الطاعة العمياء ، في مستهل نشأة ديانة بلاد الرافدين الذي
الآلهة الكبرى يصعب علينا تحديده هو تأليه القوى الطبيعية العظمى التي تتسلط اهاواها
على الانسان الاعزل . وفعلًا فيسبيل دوماً في زون (بانتيون) كثير التغيير آلهة الرعد والزوبعة
والنار والانهار والجبال . كما تتمثل فيه آلهة الزراعة ، التي على غرار الزراعة نفسها ، تنتقل الى
الموت لتعرف من بعد قيامة جديدة . وتقام لهذه الفئة من الآلهة او لتلك طقوس تقدم لنا اصدق
تفسير عن تأمين خصب الارض ومن ثم تكثير الغلال .

ومع هذا فان تطوراً طويلاً الامد ، متوغلاً جداً في القدم ، وذا طابع عملي يصعب علينا
من ثم احياء مراحلها ، قد اسند المركز الاولي الى آلهة لا تبيح لنسا التجارب اليومية والسريعة
معرفة حقيقة قوتها . وتسيطر بعض هذه الآلهة على مختلف العوالم من سماء وارض وماء وعالم

سلي، كما تتحد بعض منها اتحاداً ذاتياً مع النجوم الكبرى . وهذه الآلهة الأخيرة بالإضافة الى آلهة السماء كالاله أنو والإلهة أنتوم والتي يستحيل علينا التفريق بينها ، هي دون شك الآلهة الأكثر عظمة : سن الاله - القمر ، شمش الاله - الشمس ، إشار كوكب الزهرة . لذا فان العلامة التي تسبق اسم العلم وتشير بانها ستدل على إله هي مشتقة من شكل النجمة وتعني في الاساس « السماء ».

يوزع سكان بلاد الرافدين تعبدهم على آلهة لا عد لها . ويقر كل شخص ، مهما كانت منزلته ، بان له الها ومراراً إلهة ايضاً ينتظر منها رعاية خصوصية . وتظهر غالباً هذه العلاقة الفردية في اسم المؤمن حيث نجد الكلمة العادية « يا إلهي » ، « ربه » ، او اسم هذا الاله او ذاك مشفوعاً بتأكيد نظير هذا... هو حصتي « ... خلقه » ، او بدعاء شبيه بهذا « كن رحيماً » ، « اعط علي » الخ ... ويلاحظ غالباً على الخاتم الخاص بكل شخص اسم او رسم هذا الاله ، الملك الحارس ، او حادثة تمت الى طقوس عبادته او اسطوره . ولا ينسى المرء ان يستجدي حماية الاله بدعائه : « ليقيف الهي عن يميني ! ولتلتصب الهي عن يساري ! وليستقر ملاكي الحارس على جانبي ! » ولكن نظم الفرد ، منذ اقدم العهود ، مجموعة هذه الآلهة التي يلتخب منها من يشاء ، وذلك تبعاً لمعاداته ومفاهيمه واحتياجاته كمخلوق اجتماعي .

في جميع الآثار ، المنقوشة منها والادبية ، يبدو لنا المذهب القائل إن للآلهة اشكالاً ومزايا الانسان ، كأنه قاعدة مطلقة . ولا نجد قط اي اثر لمبدأ التعاويذ (*Fétichisme*) . وقد بقي وتطور تطوراً عميقاً المذهب القائل إن النفس هي مصدر كل الامثال (*Animisme*) . وقد تلاقى بعض دلائل لما يعرف بمذهب التوقيسم *Totémisme* (قالت به بعض القبائل المتوحشة ، خاصة في اميركا الشمالية ، ويؤكد بان جسد الانسان هو حيوان معروف لديهم يقومون من ثم بشكره) ولكنها شديدة التشويه ويختلف العلماء في تفسيرها . وانعدمت في بلاد ما بين النهرين عبادات الحيوانات التي اكتسبت في وادي النيل اشكالاً واشكالاً : فلاحوانات مؤلهة ، ولا كانتات نصفها على شكل انسان والنصف الآخر على هيئة حيوان : وليس الثور المهنج الذي يحمل وجهاً بشرياً الا روحاً للحماية يتمتع بسلطة محدودة . وقد يرافق حيوان مقدس آلهة ما : ففري إشار ومعها اسد تحميه او تعلمه او تشده الى عجلتها ، ويشبهونها به . ولكن ليس للحيوان ، ان رافق الاله او حل محله ، الا قيمة رمزية او مجازية شبيهة بقيمة قرون الثور ، رمز العظمة ، المرسومة حول التاج الذي يكلل التماثيل الالهية . وهذا دليل على انه ان كانت الديانة قد عرفت مراحل سابقة في الزمن ، فهي تطورت وتجاوزت هذه المراحل منذ العهد السومري .

ان جميع الآثار المنقوشة اضفت على الآلهة الحقيقية لا بسل على الارواح الصالحة او

الشريعة مظهراً انسابياً مجتأ ، واعتبرتهم من ثم الميثولوجية متساوين في كل شيء للطبيعة الانسانية ، ماعدا الموت ، فاستدت اليهم العواطف والاهواء ، وتحدثت عن أسفارهم ومغامراتهم ، ونظمتهم فئات فئات ، فلكل اله زوجة او « السيدة » استولدها البنين والبنات ؛ ومن البديهي ايضاً ان نجد في الميثولوجية بعض الاختلافات ، فان وشائج القربى تتغير ، طبقاً للسكان وخاصة حسب الزمان ، تبعاً لتقلبات واهواء يستحيل غالباً تفسيرها . وتُعرف إشتار بأنها ابنة سن من آنو ، ولكن في مكان ما او في فترة لاحقة يقدمونها لنا كأنها ابنة آنو التي تصبح زوجة له . وتفسر لنا هذه الملاحظة الى اقصى حد التغيرات اللمجة التي تطرأ على علم انساب كثير التفرج . وينتشر الآلهة ويتحاربون ، وهم يتبادلون الرأي في اجتماعاتهم ، وقد يندم بعضهم ، ولكن لات ساعة مندم ، بعد ان يكونوا قد خضعوا للضغط الآخرين ، فلا يبقى لهم من ثم إلا ان يبكون بكاء مريراً .

يستطيع الانسان ان يفسر ما يتحدى التفسير لاول وهلة . فان الآلهة والدول
التغيرات التي تطرأ على الدولة تعكس الظروف التي تمر بها القوة النسبية للآلهة التي تحمي هذه الدولة وتعطف دوماً عليها دون ان يغدو لقوتها مع هذا مفعول ايجابي .
ولكل مدينة اله او إلهة ، وهي تعتبر نفسها ملكاً لها او له ، كما تتحد معه او معها شبه اتحاد ذاتي ؛ وتحفظ المدينة له - او لها - بافخر هداياها ، عربون عبادتها ، وتثق به - او بها - لتعيين ملكها الذي بدوره يعرض قراراته ومشاريعه كأنها فرضت عليه فرضاً من قبل الآلهة ، او اقله اوحت له بها . وهكذا فان آنو هو ، بالدرجة الاولى ، اله اوروك ، وأنليل رب نيبور ، ونرغال معبود كونا ؛ وسن سيد أور ، وشمش رب مدينتي لاغاش السومرية وسيبار الاكادية .

ويظهر هذا المثل الاخير كيف ان مدينتين قد تكرمان مراراً الإلهة الواحدة . ولكن حتى في هذه الحالة لا يأخذون على انفسهم إلا نادراً ان يضيفوا الى اسم هذه الإلهة صفة خاصة ، كعندما يوضحون مثلاً « إشتار مدينة اربيل » لتمييزها عن إلهة اخرى اشورية تدعى بهذا الاسم كإشتار نينوى او إشتار اشور . ولا يعني غالباً هذا التشابه في الاسماء خداعاً بل يكشف عن صلة استعمار ، او بوجه افضل ، عن تفاعل ديني ، هذا ان لم نقل عن فتح حربي حقيقي . وان عرف سن منذ اقدم الازمنة بأنه اله أور في بلاد الكلدان فقد اشتهر بعدئذ بأنه اله حران ، في الشمال الغربي من بلاد ما بين النهرين ، عند منعطف الفرات : فكيف يتناسى المرء باث والد ابراهيم كان قد هاجر ، كما تذكر التوراة ، من اور الى حران ؟ ومع هذا فان مثل هذا الزواج او ايجاد مراكز جديدة لا يمتان دوماً دون تحويل او تحوير في الجوهر او التعبير ؛ فإشتار التي عُرِفَتْ في بلاد بابل بأنها إلهة الحب اساساً ، غدت في بلاد آشور ربة الحرب . ولكن وان مالت طارة هذه الجهة وطوراً لتلك الناحية فقد غنت دوماً وبصورة التلازم هذين العنصرين .

ولذا يسهل التفسير كيف ان بعض الآلهة ارتفعت الى مصاف إلهة شعباو بالاحرى ملكة ، دون ان تبقى بصورة حصرية إلهة مدينة ما . وقد لازم هذا الارتقاء في المنزلة تطور المدينة التي أصبحت مركزاً سياسياً أكثر أهمية او عاصمة دولة . وهكذا فان اشور ، رب مدينة اشور ، أصبح الإله الرئيسي لجميع الآشوريين ، حتى وان كانوا خارج المدينة التي تحمل اسمه ، ثم غدا اله الدولة الآشورية الاول ، بعد ان انتصر على آلهة الشعوب الغربية المغلوبة على امرها . ولكن كيف نعرف في هذا المجال ان كانت حقيقة العقائد العنوية تعادل فعلاً العبادة الرسمية التي يبديها المعامل ؟ والحقيقة الواحدة الثابتة هي ان افراد سلالة سرجون قد اظهروا عبادتهم للاله اشور ، واعتبروه حامياً سلطانهم وملهم تعلق الشعوب بهم . ومن الجائز طرح مثل هذا السؤال وفي الالفاظ نفسها فيما يختص بالاله مردوك ، رب بابل ، وقد أصبح معبود الامبراطورية ايام حورابي ، ثم بعد انقضاء الف سنة ، معبودها في عهد نبوكدنصر .

وتوافق هذه التغييرات السياسية تقلبات قد تكون عاطفية ، وتفسر بعض التحويرات الميثولوجية وان هي لم تخضع مع هذا لمعطيات القياس . وهكذا يرتقي هذا الاله الثانوي ، بالاستناد الى حدث جديد ، الى مستوى رب آخر أعلى مقاماً ، بل يحل محله ان اقتضى الامر ويرتفع من ثم الى القمة . وهكذا فان إشتار ، وهي الزهرة الكوكب السيار ، وسيدة السماء ، و « ربة اللذة » و « سيدة الحب » و « إلهة الحرب والمغامع » قد حققت ارتقاء مستمراً حتى ان آتو في مدينة اوروك انتخبها زوجة له .. قبل ان تحل محله : وقد طفى نجاجها على كل بلاد ما بين النهرين حتى أصبح اسمها مرادفاً لاسم « إلهة » . ونجد نصوصاً ترتقي الى العهد الحورابي تروي لنا كيف تنازل اكابر الآلهة لصالح مردوك ، اله العاصمة بابل ، ومنحوه « ملكاً ابدياً » و « الملك على العالم بأسره » . فعند بل *Bēl* « السيد » . وقد كان سابقاً هذا اللقب والمركز لانليل . وفي « نشيد الخليقة » اغتصب نحو خسين اسماً من اسماء الآلهة كما اختلس لنفسه في الوقت ذاته صفة خالق الانسان ، وقد كانت قبلاً لآبيه « إيا » اله اريدو . ولكن في وقت لاحق ، واستناداً الى نص هذا النشيد الآشوري ، استأثر اشور لنفسه بهذه المنزلة . وهكذا تعكس تعديلات الاسطورة ، مداورة بواسطة الآلهة ، مصير الجماعات البشرية المتقلب .

ان عرفت هذه الجماعات افول مجدها لأن الآلهة التي تكرمها قد تخلصت عنها او
المهيكل خضعت لآلهة اخرى ، فلا يعني هذا الامر بانها تتهاون في جهودها للابقاء مع هذا على عطف الآلهة وذلك باستكشاف رغباتها ومن ثم تنفيذها ، إذ تعتبر هذه الجماعات بان عبادة الآلهة باصدق المعاني وادق المظاهر هي فرض لا زب لا تستمع لنفسها التهرب منه .

ويحتاج الاله كالانسان للمنزل له ولاسرتة اعني الهيكل . وللهياكل كلها دون استثناء اسم يبتدىء في اللغة السومرية بحرف (اي *E*) وباللغة الاكادية بحرف « بيت » اي « البيت » . ففي بابل يملك الاله مردوك اله « اي - ساغ - يل *E-Sag-il* » اعني « المنزل ذو الرأس العالي » الذي

يرتفع بقربه حصن يدعى ابي - تيمين - أن - كي E - Temen - an - ki اي « بيت اساس الارض والسماء » . ويشمخ عالياً في اشور « بيت اشور القطر » اي هيكل انليل ، كما يرى في « بيت العظمة » ، وهو سور كرتس لاشور ، « بيت جبل البلاد » . وعلاوة على ذلك ، وفي خارج المدينة ، يلك بعض الآلهة بيتاً ريفياً يجلبونهم اليه بمسيرة حافلة في موسم اعيادهم .

ويلازم لتشييد هذه الهياكل وترميمها او توسيعها جهد كبير ووفر من المال ساهم بها الملوك بصورة فعلية وليس فقط ادارياً ومالياً : إذ لا يستنكر الملوك من ان يمثلوا ، كما حصل في لاغاش ، وهم يحملون على رؤوسهم قفة تملؤها مواد البناء . ويتبع البيت الحاق عدة : كالحازن والاصطبلات للحياة المادية ، والجنانئ والحداثئ للترويح عن النفس . وتضاف اليه ايضاً مدرسة للكتابة ، ومخطوطات ومكتبة بغية تأمين الثقافة اللازمة لرجال الكهنوت .

ان هدف العبادة الرئيسي ، لارضاء الآله ، هو تغذيته وذلك بتقديم العبادة ورجال الكهنوت المال والاشربة التي تقررها الكتب الطقسية ، في ساعات محددة واكثر من مرة في اليوم ، على طاولة مقدسة امام الصنم الالهى وسط الازاهير وادخنة البخور المنقي وسيول من الروائح العطرية . وسمحت كثرة ذبائح الحيوانات المنتخبة الاحتفاظ يومياً باحسن الاجزاء للاله ، واذ كان يجب التسرع في الطعام قدموا له لحوم حيوانات داجنة وبرية ، وطيوراً ، وبيضاً ، واسماكاً ، وقوراً وثمار غنـب وتيناً ، وعسل ، وماء ، وجعة ، وخرماً وحليباً .

وكانت الاعياد كثيرة يحتفل بها بابهة عظمى تتخللها تطوافات تشترك فيها الجماهير التي تواكب التماثيل الالهية المحملة على العجلات .

وساد الحفلات ترتيب دقيق شمل الحركات والاناشيد ونصوص الصلوات « أذ كل يوم واجباتك لاهلك : الذبائح والصلوات والبخور اللائق ... قدم له كل صباح الابتهاال والصلوة والسجود وهو يهبك الكنوز ، وتنجح كثيراً بواسطة الهك ... إذ ان الذبيحة تزيد في الحياة والصلوة تطهر من الائم » .

لذا افتقر كل هيكل الى العديد من رجال الكهنوت الذين قسموا فئات فئات . ففي القمة نجد الكاهن الاعظم الذي ينوب مناب الملك ، ثم جيشاً من مختلف الرتب : فهناك الرقاة والمنتخبون والمشدون والسحرة والنجمون الخ .. وهكذا فاننا نعرف اقله اربعين وظيفة كهنوتية . ولنجد ، حتى في خدمة الآلهة الذكور ، الكاهنة العظمى والكاهنات ؛ خصوصاً كما نجد في هيكل إشتار بمدينة اوروك ، العواهر اللواتي يعرضن ذواتهن لتتعم طقوس تكريم الربة !

ويبدو بان رجال البيعة هؤلاء كوّنوا ، في كل المناسبات ، الوسيط الضروري بين المؤمن والآلهة . وقد لا نقف قط على فعل عبادة شخصية يقوم بها في منزله فرد علماني . ولم يمنع هذا الفرد من تأدية الصلاة ، ولكن هل من ثقة في جديتها؟ وحتى هذه الصلاة أفا كان من الضروري

معرفة نصها معرفة تامة ؟ قد تفضلنا الوائى التي نعتد عليها والتي لا تمت جميعها تقريباً إلا الى اصل كهنوتي . ولكننا نعرف ، ان اعتمادنا عليها ، بأنه لم يكن يتم اي امر بدون خبير ، ولم يشترك جمهور المؤمنين في الحفلات الا خارج الهياكل التي كانت توجد دوماً في وجهم . فكلمة « الداخل » - الى الهيكل - كانت تعني بالدرجة الاولى الكاهن الذي يساعد دوماً المؤمن الذي يسمح له بالدخول الى « بيت الآلهة » ، وذلك في مناسبات خاصة وللقيام بعمل محدد المعالم كالذبحة او التقدمة او استشارة عرافي الآلهة .

تعددت الظروف التي حتمت على المؤمن مراجعة رجال الكهنوت لقاء أجر
المحرر عدد . ووضعت الهياكل سحرتها وعرافيتها في خدمة الجمهور وخدمة الملك .

والسحر والدين الرسمي متلازمان لا يفرقان . وترقب الانسان في كل لحظة من لحظات حياته اشراك ونحوس وغالطات دنسة ، وشياطين ينشرون الاذى - « السبعة » - مجموعات السبعة - وينفذ اوامرهم سحرة وساحرات ، يترصدون في كل مكان ويوقعون بالف مصيبة ، حتى ينفذوا المرض شكلاً من اشكالها . واقتفاء لشرهم يستنجد الآلهة والملوك بالارواح الحارسة ، هذه الثيران المجنحة ذوات الرأس البشري المهيّب والحنون ، والتي تنتصب امام ابواب الهياكل والقصور . ولكن لا يبطل حضورها مع هذا شر الشياطين ، بل نجد لهذه الغاية طقوساً كثيرة العدد والتنوع من النضح بماء التطهير الى تلاوة الصلوات الى اعمال الرقي الاكثر تعقيداً .

ومن الضروري اجراء المقتضى على الشخص بالذات ، وتطهيره من الخطايا التي يكون قد ارتكبها ، او من الهفوات التي قد اقدم عليها بصورة اللاوعي ضد الاخلاق الانسانية والقيم الدينية ، او من اعمال السحر التي يكون قد تعرض لها . ويجب اتمام الطقوس على كل ما يخصه او يحيط به حتى اصغر ممتلكاته المنقولة العادية كالكرسي والسرير او الطاولة . وتشمل هذه الاعمال ايضاً زوايا بيته ومنعطفات الطرق وثقوب الحفر . ولبلوغ هذا الهدف تتوالى الصلوات والمزامير والادعية . ولكنهم مع هذا قد يحرقون الطقوس المشار اليها على الرسوم والنقوش التي تمثل الشخص المعني ، او حتى ايضاً على اشياء اخرى تلقى من بعد الى النيران او الكلاب . ويستعملون كذلك مواد نافعة شرط ان تعتبر مقدسة من حيث جوهرها او من الطقوس التي اجريت عليها : كالزيت النقي ، « المقدس » ، المطهر الآلهة الذي يسمح فيه المرضى خاصة . وهكذا يأخذ السحر وكأنه من صميم الدين مجراه الى علم الطب .

لا تقل العرافة شأنًا واهمية ، وهي تهدف استكشاف نيات الآلهة ومن ثم
العرافة الخضوع لها وتنفيذها اكثر مما تسعى لايضاح مصير مقدر لا مرد عليه . ويصبون ايضاً في هذا المجال الى التاكيد من ان الظروف ستكون سعيداً او شؤماً على المشروع الذي يفكرون به . وهكذا يسمى الانسان ، وهو يحيا في خوف دائم من التأثيرات المضرة التي تحيط

به ، لمعرفة الخطر حتى يتخذ حالة دفاع امنع فيجعل حياته اكثر نقاوة او يستجدي عوناً اشد فعالية .

وللوصول الى هذه الغايات المختلفة تصبح جميع الوسائل صالحة شرط ان يقوم بتنفيذها خبراء يملكون مجموعات مخطوطات عملية دونت فيها قواعد واساليب تقليد يغيب في ظلمة القدم . وان تتابع الاحداث الشديدة التنوع والتي لوحظت بكل دقة وسجلت بفائق عناية ، سمح بتقرير قوانين التوافق السري بين مجالات تبدو غريبة بعضها عن بعض . ولكل شيء معنى ، لم يتضح بعد ولكن من الممكن كشف القناع عنه يوماً ما ، إذ لا ينفرد في العالم اي امر : بل يكفي ان يُحدد الاطار ، الفعلي او الرمزي ، الذي يدخل ضمنه الحدث مهما كان نافعاً .

لذا تعتمد العرافة اساليب عدة . وتغدو الاحلام ، واضحة كانت ام بحاجة الى تأويل . وقد ارسلتها الآلهة دون شك - بمثابة انذار او نصح او أمر . ويراقبون حالات وحركات المعنيين والاشخاص الثالثيين والحيوانات ، فزجر الطير وتموج الماء واللهيب يعطيان افادات لها مغزى ونفع . وقد يستحصلون ايضاً على مادة التفسير بمزجهم الزيت والماء ، ويفحصون خصوصاً فحصاً دقيقاً جداً امعاء وكبد الحيوان الذي انتخب للذبيحة . وعرفت هذه الطريقة الاخبار - اعني فحص الكبد - رواجاً اكثر من سواها . وافاد كثيراً ايضاً درس هذا الجهاز بهذه الطريقة لمعرفة معرفة واسعة من حيث علم التشريح . لذا اكثروا من صنع اكباد خزفية وحتى لحاسية استعملوها كآلات للمقابلة حتى يستطيعوا تفسير اي حالة غير طبيعية مهما كانت دقيقة .

ان اعتبار بعض كبار الآلهة متحدة اتحاداً ذاتياً مع كواكب معينة ، علم التنجيم وتفوق العالم الفلكي وآلهة السماء الذي اقرته الشعوب منذ اقدم العصور ، شجعاً على مراقبة الاحداث الفلكية مراقبة دقيقة ، اذ هي تنبئ عن الاحداث الارضية المقبلة وتسيرها وتسيطر عليها : لذا وجب معرفة الصلة المتينة الكاملة التي تربط بين ما يجري في السماء وما سيحدث على الارض .

فالخسوف يجلب تهديداً ما ، لذا غدا من المفيد معرفة زمن وقوعه ، حتى يبذل الجهد لتدارك نتائجه وتخفيف وطأته جهد المستطاع . ولم تظهر مصادفة الغمامة التي تحول دون ملاحظة الهلال في اوائل الشهر ، ويخضع مصير الانسان لهيئة الابراج ومقتضى اوضاعها وقت مولده . وما الفيضانات والانتصارات والهزائم الحربية ، والامراض الحيوانية ، والابوثة السارية ، والامراض الشخصية إلا تعبير مادي عن حسن استمداد الآلهة او غضبها ، وعن الممارك التي تذنب فيما بينها او ضد القوى المعادية لها .

لذا فباستطاعة الذي يراقب الفلك بصورة مستديمة وعلمية ان يستكشف كل شيء . وان جمع هذا المراقب الى علمه كفسر لا تقوته شاردة او واردة صفة اللاهوتي والساحر والكاهن غدا بإمكانه ان يعين بكل تأكيد الطريق الواجب اتباعها لتجنب الالم او العوز المدقع ، ان لم يكن

ايضاً طريق الخلاص والازدهار . ولكن لا يدعي احد بانهُ يملك مثل هذا العلم الدقيق المتبصر . ومع هذا يُدون علماء التنجيم دون ملل او وهن في غطوطات الهياكل الملاحظات التي يقفون عليها اثناء ابحاثهم . لذا تقدم مباشرة مراقبة الطوالع والادلة المساوية مواد لا تحصى ، تحرر منها ، يوعي او يغير وعي ، علم الفلك الاول .

انقرضت ديانة بلاد الرافدين قبل الديانة المصرية . وحافظت
 معطيات ديانة
 بلاد ما بين النهرين المستدي
 هياكل اوروك ، احدى اقدم المدن السومرية ، على دورها التقليدي
 اكثر من سواها . وكما يحصل غالباً عند نزاع الحضارات الهزلي ،
 يلاحظ المرء عند هذه الجماعات الكهنوتية الخاضعة لسلطان الملوك اليونان ، في القرنين الثالث
 والثاني قبل المسيح ، ارادة ملححة للعودة الى الماضي السحيق ، وجهداً كبيراً لحياء اشكال
 الحياة الدينية الاكثر قدماً مع معارضة كل تحويل قرره العرف والتقليد . ولكن الزوال محتم ؛
 وتعود آخر وثيقة ذات صبغة دينية - وتدل على ملاحظة فلكية - الى القرن السابع ق.م .
 اما الصمت الذي يلي فيعني دون شك اضمحلال هذا « المجمع » الكهنوتي ، اضمحلالاً طبيعياً .
 وهكذا تكون ديانة بلاد ما بين النهرين قد دامت قرابة ثلاثة آلاف سنة .

ولا نعتقد بان هذه الديانة قد منحت المؤمنين بها الكثير من الفرح . فقد عاشوا تحت وطأة
 الخوف الذي اوحى اليهم به والذي كان ينبع بصورة اللزومية من فكرة العالم الالهي الذي
 صورته لهم . وبقيت المبادئ الاخلاقية والادبية التي قالت بها تلك الديانة تدور في حلقة
 ضيقة وقد دخلت من كل فكرة عقاب او ثواب في عالم آخر بدا كالحل للجميع ، كما اضعفها
 الاعتقاد بخطيئة مجهولة يرتكبها الانسان دون وعي . وغدت هذه التعاليم ، كما يظهر ، سلبية
 قبل كل شيء ، اقله فيما يخص بالعلاقات مع الآخرين . وان اكتفينا بمجموع السؤالات التي كان
 يطرحها الساحر الباحث عن اسباب المرض الذي يريد ان ينقذ المؤمن منه ، وجدنا بان الواجب
 الايماني الوحيد المفروض هو تحرير اسير او اطلاق سراح مكبل . اما الآثام الاخرى التي بحث
 عنها فهي السرقة والاهانة والعنف . وقبل ان تتلاشى هذه الديانة بزمان طويل كانت حضارات
 عدة قد نشرت تعاليمها الاخلاقية متخذة اساليب واهدافاً اكثر اختلافاً وشمولاً .

ولكن مع هذا لم تندثر تلك الديانة تماماً عندما مالت نحو الافول قبل بدء عصرنا بقليل ،
 إذ ستعرف امور السحر والتنجيم والرقى - وقد اشتقت جميعها من تلك الديانة - اتساعاً زاهراً
 في العالم القديم . فقد لاقى « الكلدانيون » في رومة - ولم يكن لهم دون شك من الصفة
 الكلدانية إلا الاسم وممارسة بغض الاساليب التي هزلت قيمتها الى مرتبة وصفات مبتذلة -
 منزلة عادت عليهم بالنفع مع ما كان لهم من سمعة غير مستحبة . ومن جهة ثانية ، ان اعتبرنا
 الصعيد العقلي او بالاحرى العلمي ، فان علمي الطب والفلك كانا قد استفادا كثيراً من الملاحظات
 الدقيقة التي جمعت دون ملل في هياكل بلاد ما بين النهرين

وهكذا فقد عُدا لبعض المظاهر التي نثت الى ديانة السومريين والساميين الشرقيين قوة
فاعلية مستديمة .

ثانياً - الاكتشافات الفكرية

الروائع احتفظت الهياكل ، كما رأينا ، اطول زمن ممكن ، بالكتابة الخاصة بحضارة
بلاد ما بين النهرين . وتقاسم الهيكل والقصر ، طوال المدة التي استمرت فيها
هذه الحضارة على حيويتها ، تثقيف الكهنة والاستفادة منهم . ولم يفقد هؤلاء المثقفون ، حتى
عندما عملوا لمصلحة الافراد او ككتبة عدل ومؤلفين للجواهر ، صفتهم كموظفين او خدمة عند
الآلهة . ولدينا عدد لا حصر له من الوثائق الخطية الكلدانية والاشورية . ولم ينتشر الكثير منها
بعد ، ولكن قد تكشف لنا دراسة الموسوعات التي جمعت منها منذ امد بعيد نصوصاً في غاية
الاهمية مرّ عليها لغاية اليوم مرور الكرام . ولكن مها تعددت اهداف وفحوى هذه الوثائق ،
فان لمعظمها صفة ملكية او دينية ، لا بل ان الكثير منها الصفتان معاً .

الكتابة المسارية ان تمعيد كتابة بلاد الرافدين يفوق تععيد الكتابة المصرية ، وهذا
ما يسهل لنا تفسير الحالة التي ألحنا اليها اعلاه . ولا نستطيع ان نجزم
باسبقية زمنية لهذه الكتابة او لتلك . وتشير بعض الآثار التي عثر عليها مؤخراً في بلاد ما بين
النهرين ، بان البدء باستعمال هذه الكتابة قد يعود الى النصف الثاني من الالف الرابع . وانطلقت
الكتابتان من نقطة متشابهة : رسم شكل يمثل الشيء او الكائن الحي او الفكرة ، ولكن اسم
استعمال الحزف كادة للكتابة في بلاد ما بين النهرين في تحويل الرسوم التصويرية الى جموع اشارات
ضمت بعضها الى بعض على الهوى ودون نظام . وقد لمحدد الشكل الاصلي الذي انبثقت عنه
بعض هذه الجموع ، ولكن يستعصي حل تفسير الكثير منها : فهناك حالات يرى فيها بعض
العلماء يداً تحمل صولجاناً ، بينما يتحدث عنها علماء آخرون بانها قتل مركباً يعلوه شراع ، او
برجاً للمراقبة يستند على ركيزة .

وتشبه كل علامة مسيراً ذا رأس عريض ، كسهم السيطار . وكان الكاتب يرسم هذه العلامة
بواسطة قصبه حدد رأسها بشكل منحني او مثلث الزوايا يفرزها في البدء غرزاً قوياً في الحزف
ثم يسحبها مخففاً بصورة تصاعدية الضغط على احدى الزوايا . وتكون هذه المسامير « الجوانب »
العلامات للكتابة المسارية . وقد تكون أفقية او عمودية او منعنية ، ومراراً صغيرة الحجم
جداً ، تتشابه معاً عندما تعود الى جمع واحد . وقد رسمت اولاً على الحزف مما يسهل تفسير
الامور . وبعد ان استقر اسلوب الكتابة هذه بزمان طويل سعوا لحفر العلامات المسارية على
المعدن او الحجر ، ففدا من ثم ممكن الاحتفاظ بالشكل التمثيلي للرسم الاصلي ، كما حدث ذلك

في مصر . ولكن مع هذا استعمل الحزف بسهولة الحفز عليه وكثرة وجوده . وكان يكفي ان يبق الكاتب هذه المادة الحزفية رطبة قليلا ولدنة . وحفظ تجفيف صفائح الحزف في الشمس او شيئا الوثائق المكتوبة من اي تحريف اوتزوير . وغالبا ما اعطوا هذه الصفائح شكل لوحات مستديرة او مسطحة او قائمة الزوايا .

وضعوبة الكتابة المسارية متأية عن كثرة عدد جوع العلامات . ولم يتعد تقسيم الكلمات المقاطع الصوتية التي فاقت من ثم دون شك عدد الحروف . ونتجت هذه الصعوبة ايضا من تنوع المعاني الممكنة لكل جمع من العلامات ، كما حدث ذلك في الاشارات الهيروغليفية المصرية . فقد يعني الجمع ثارة فكرة وطورا مقطعا صوتيا ، كما قد يدل ايضا على صفة ، ويختلف معناه ان وضع قبل جمع آخر او بعده .

تضاف الى الصعوبات اعلاه تلك التي تنتج عن تنوع اللغات .
اللغتان السورية والاكادية
ويشعر المرء بمحاجة الموقف في حال الاختصار وفي حصر الامور على وسط بلاد ما بين النهرين ، أي بعد التفاضي عن الاقطار والشعوب المغلوبة ، وعن وثائق جهات ايران الجنوبية الغربية العيلامية ونصوص « بوغاز - كي » في آسية الصغرى .

لقد حدد السومريون معالم الكتابة المسارية . ولم تندثر لغتهم إلا رويداً رويداً مع تفوق الساميين عليهم عدداً ونفوداً . وبقيت وقتاً طويلاً تستعمل خاصة في النصوص الدينية التي تحافظ اكثر من سواها على التقاليد القديمة . لذا وجب على كل كاتب ، جدير بهذا اللقب ، ان يفهم ويقرأ ويكتب لغة ميتة ، مهما كانت نواقصها ثابتة كعدم ليونتها وخاصة قلة وضوحها .

وللاستعمال العادي او السياسي تغلبت لغة سامية الاصل ، تمتاز امتيازاً عظيماً بليوننة قواعد صرفها وبوضوحها وبمقدرتها على تأدية مختلف انواع الفكر مهما كانت دقيقة : أعني اللغة الاكادية التي لم تكن اللغة الاشورية الا شكلاً من أشكالها . ولكن منذ البسده تبشئ الكتاب الاكاديون جوع علامات الكتابة السومرية . وان هم احتفظوا بمعناها للتعبير عن فكرة ما فانهم مع هذا عدلوا قيمتها كصوت حتى يعطوها القيمة الصوتية للمقطع الذي يعبر عن الفكرة نفسها في لغتهم الخاصة . ونتيجة لذلك فان نفس جمع العلامات الذي كان له ثلاث معان في اللغة السومرية ، اصبح يلفظ بصورة مختلفة اختلافاً كلياً في اللغة الاكادية ويدل من ثم على معنى حقيقي مختلف جداً .

لذا أصبح التدريب الدقيق والطويل ضربة لازب على كتبة المستقبل . وكان من ثم لازماً عليهم ، حتى ولو اقتبسوا ثقافة عالية جداً ، ان يرجعوا في ممارسة مهنتهم الى كتب ومستندات تقدم على المعاني المختلفة التي كان ممكناً ان يدل عليها اي جمع من العلامات في اللغتين السومرية والاكادية .

وتجدر الملاحظة بأن هذه الصعوبات قد ولدت نتائج مماثلة تقريباً لنتائج شيوع الطباعة والتعليم البدائي في عصرنا الحاضر . فهي وضعت على أقل تقدير حداً لتطور اللغة ، خاصة اللغة المكتوبة ، هذا ان لم تمنع الامر منعاً باتاً . وسعى الكتبة ، وقد اشبعوا من التقاليد ، لحماية هذه اللغة جهد المستطاع من التحريف ، ولججوا تقريباً في هدفهم . ولم يلاحظ حقاً اي انحراف الا في عصر لاحق : وقد زال تصحيح الاشكال الصرفية اثناء السيطرة اليونانية في القرن الثالث قبل عصرنا . ولكن لم تعرف اللغة الاكادية الا تغييرات طفيفة جداً مدة ثلاثة آلاف سنة تقريباً ؛ ولا يسعنا طبعاً ان نبدي حكماً فيما يختص باللغة المحكية .

تفسر هذه الصعوبات وذلك الثبات وذاك التمسك المقصود بالقدم النجاح اللغة الآرامية الهائل الذي لاقته في الألف الأول قبل المسيح لغة أخرى : اللغة الآرامية . وقد نجد اسباباً أخرى لتعليل هذا الفوز . فالقبائل ، وهي سامية ايضاً ، التي نطقت بهذه اللغة انتشرت في مختلف مناطق آسية العليا تقريباً . . . ولعب الآراميون دوراً تجارياً هاماً مما ساعد على انتشار لغتهم التي عدت وحالة هذه شبه لغة «عومية» اخضعت لسلطانها رويداً رويداً مختلف اللغات التي استعملت في المنطقة والتي لم تنجح أي منها في فرض نفسها خارج نطاق الشعب الذي اتخذها لغة وطنية . ورافق انتشار الكتابة الآرامية توسع اللغة الآرامية ، واتخذت عن الفينيقين أبجدية أبسط بكثير من الابجدية المسارية ، وكتبت بالحبر على مواد أخف وزناً واسهل تداولاً من الحزف كالرق او البردي . ومنذ القرن الثامن كتبوا على لوحات مختصراً باللغة الآرامية للوثيقة التي سجلت بكاملها بالكتابة المسارية . واستخدم الملوك الآشوريون في قصورهم «كتبة على الرق» ، اعني للكتابة باللغة الآرامية ، و«كتبة على اللوحات» اي للكتابة باللغة الاكادية . وغدت الآرامية ، اثناء الحكم الفارسي ، لغة الادارة ، واضحت من ثم اساس وحدة الامبراطورية السياسية .

ولكن لسوء حظ المؤرخين العصريين ، فان البردي والرق هما اقل مقاومة لعوامل الزمن من لوحة الحزف المشوية أو فقط المجففة ، ومن ثم عرضة للزوال اكثر منها .

قدمت اللوحات والنقوش على الحجر أو النحاس نصوصاً مختلفة المواضيع .
المؤلفات الادبية
فمنها ما هو قانوني : القوانين ، الوثائق القضائية ، العقود المختلفة النواحي . ومنها ما هو إداري : المراسلات الرسمية ، مستندات المحاسبة . ومنها ما هو تاريخي : سجلات الملك ، تقارير وجهت لاله عن غزوات شنها العاهل ، اخبار المدينة او الهيكل . ومنها ما هو ديني : الصلوات ، والمستندات عن المؤسسات الخيرية ، والتقارير عن مراقبة النجوم او احشاء الذبائح ، والرقى السحرية الخ . ولكن للبعض من هذه الوثائق الكثيرة العدد والشديدة التنوع نفس شمري أو نفحة أدبية . وهكذا باستطاعتنا ان نتحدث عن أدب بلاد ما بين النهرين ، هذا الأدب الذي لا يخلو من روائع .

ولا تخلو بعض كتابات ملوك الاشوريين التي تسرد لنا مغامراتهم الوحشية من عظمة فظة . ويحدد تغلثلاسر الاول نفسه قائلاً : « هار مشع يبهر سناه المناطق الاربع ، شعة وهاجة تهمين على البلد العدو كمطر الزوبعة » . وهذا اشوربانيبال يخبرنا عن اجتياحه مدينة سوزة وبلاد سوسه : « في شهر من الايام اخضعت عيلام في كل مساحتها ؛ وضعتُ حداً في اربابها لصوت الانسان ، ولوقع حوافر القطيع الصغير والكبير ، وهتافات الغبطة ، وتركتها مسرحاً لحمار الوحش والايئل وجميع اصناف الحيوانات البرية » . ولا تنقص هذه الامثلة الذبرة الملحمية والخيالات التصويرية والاستعارات .

وقد تلتهمي هذه التصاور بالغموض ، خاصة في النصوص الدينية ، التي تجنب غالباً نحو السر . وباكراً جداً ، ولربما منذ العهد السومري او على اقصى تقدير في عصر حورابي ، بدأوا ينسجون الاساطير الميثولوجية ويدونونها . وقد توالى الكتبة احياناً بعد اجيال ، ولقرون عدة ، على نسخ هذه الاساطير دون ان يخشوا تحريفاً او تحويراً . وتعد هذه الاساطير اساس ادب بلاد ما بين النهرين الكلاسيكي .

الاناشيد الميثولوجية الكبرى
ستوقف هنا على نشيد من هذه الاناشيد ، وهما مشهورتان بصورة خاصة وعن استحقاق . والاول هو « انوما اليش » اي « عندما في الاعالي... » ، ودعي كذلك نسبة للكلمات الاولى . وقد دعاه المعاصرون ايضاً « نشيد الخلق » ، لانه يخبرنا كيف تنظم العالم خارج الفضى الاول . واول الامر تميز الماء العذب عن الماء المالح ، وغدا الواحد شمعاً للآخر ، ثم ظهر الصوت او العقل وكان لها خادماً . ومن هذه الاوليات ولدت الالهة ، زرجاً زوجاً ايضاً . وثار بعضهم على بعض ، وبعد عراك لا هوادة فيه انتصر احدهم — وقد يتغير ، فهو مردوك في الاسطورة البابلية ، واشور في الرواية الاشورية — وغدا من ثم منظم العالم ، خالق الكائنات الارضية ، اي الانسان والحيوان .

ثم « ملحمة غيلغاميش » التي تحكي لنا في روايات عدة مغامرات مؤسس مدينة اوروك وملوكها ، وهو انسان حقيقي ولكن ألتهه الاسطورة . ونجد في هذه الملحمة ايضاً قصص صيد ، وسرد معارك ، وحوادث عراك ضد الوحوش ، واخبار الطوفان ، وقصة السطو على النبات الشائك الذي يؤمن فتوة دائمة ثم فقدانه ، وذكرى اخي سلاح قدماء . ويكفي هذا المختصر « المفيد » ليوحى لنا بالصدى الذي لاقتة هذه الملحمة خارج بلاد الرافدين . وليس من العبث دون شك ان نأخذ بعين الاعتبار المقارنة التي تفرض نفسها بين هذه الملحمة وذاك الفصل من سفر التكوين او من الوديسه *Odysée* او من اسطورة هرقل .

منذ عهد حورابي انشأت بعض الهياكل مكاتب حيث حشرت اللوحات ، وقد صنفت بعناية استناداً الى موضوعها ، في سلال تحمل عناوين من الحزف ، حسب مبدأ استعمل ايضاً لتصنيف المخطوطات وحفظها .

وقد قام بعض الملوك بهذا العمل ايضاً في قصورهم ، غير ان ايتاً منهم لم يظهر في هذا المجال جهداً أو مثابرة مثل اشوربانيبال الذي كان يفخر بأن الآلهة وهبته « كل علم الكتابة » . وكان يأمر موظفيه كي يتحروا عن الوثائق والكتابات ويرسلوا الى القصر الاصول أو أقله نسخاً عن كل النصوص الطقسية والدينية والسحرية والفلكية والتاريخية الخ . وكان يحقن رسائله بنصائح من هذا النوع يبعث بها الى ممثله في بروسيا في بلاد الكلدان : « وان وجدت بعض لوحات أو نصوص طقسية لم اطلبها منك واعتبرتها مفيدة لقصري ، فانتخب وارسلها الي » . واستطاع العلماء الانكليز ان يكتشفوا في خرائب نينوى ألوفاً من اللوحات التي تعد اليوم من أغنى ثروات المتحف البريطاني .

ويثبت جمعها في قصر اشوربانيبال الاحترام العميق الذي كانوا يبذرونه لكل عمل خلقه العقل البشري في الاجيال السابقة وترك له اثرأ مكتوباً . وغدت هذه اللوائح موضوع غزو كالحريات المادية فهي تفني المرء دينياً وعلمياً . ولم يتوفر مثل هذا الاهتمام في أي عصر منذ ان وجد الانسان ، وسعى بعضهم لتأسيس امبراطوريات . ويعتري هذا السعي دون شك شيء كثير من الخرافات الدينية . ولكن يظهر المندى الذي وصل اليه بأنه اخذ يصبح علمانياً . وهو يعبر من ثم عن توق لمعرفة جامعة يحذر على اي ان يسخر منها .

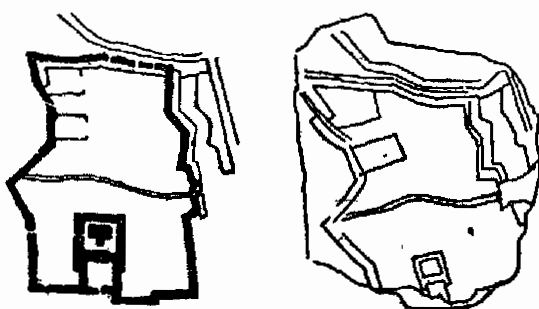
رأينا كيف تفتح الدين عن علوم تشابكت مع معارف اخرى وان العلوم : الطب وعلم الفلك لم تعد هذه وتلك المهذ فانها مع هذا ذات اثر وقيمة .

وعالج الطب المريض ، كما لو انه ارتكب اثماً او مسه شيطان أقله . لذا لم ينس قط اللجوء الى الطقوس الدينية لينقذه من الروح الشريرة . ولكن بدأ رويداً رويداً يقرن الى هذه الأساليب أدوية معدنية أو نباتية أو حيوانية ، فعالج بالنبات والنحاس والرماد والدم والبول والشحم والزيت ومواد اخرى ووافق لاستعمالها بين تعاليم التجارب ومعطيات السحر ، اذ ، مع تحديده الكلمة التي يجب ان تعطى ، لم يتناس المناسبات الطقسية للبحث عن هذه المواد واستعمالها . وسأقت مراقبة طوابع الفلك والاشارات التي تدل على ارادة الآلهة الموافقة او المخالفة الى علم النجوم . فدرسوا الكواكب وراقبوا حركاتها الظاهرية واتفاقها مع شروق وغروب الشمس فحددوا من ثم السمات ومنطقة الابراج ، وتوصلوا الى نتيجة على جانب عظيم من الأهمية اعني التقويم السنوي .

واتبع دوماً هذا التقويم السنة القمرية ، وجعل بدء الشهر يتفق مع ظهور الهلال . ولكن غداً لزماً ان يضاف من وقت الى آخر الشهر الثالث عشر وذلك لاعادة التوافق مع فصول السنة . وكان الملك يقرر هذا الادخال بالاتفاق مع السحرة . واخيراً ، وعلى اكثر تقدير سنة ٧٤٧ ق.م . عرفوا بأن عدد ايام ميتين وخسة وثلاثين شهراً قريباً يعادل بالتدقيق عدد ايام تسعة عشر عاماً شمسياً . وهكذا أضافوا سبعة اشهر قمرية بعد مرور فترة تبلغ تسعة عشر عاماً . ولكن متى تجري

هذه الاضافة ؟ واستمر القصر يصدر الاوامر بذلك . ولم يعين مبدأ وقت الزيادة بصورة مستديرة الا اثناء السيادة الفارسية سنة ٣٦٧ ، إذ قرروا اضافة الشهر المشار اليه ست مرات في الربيع ومرة في الخريف في بعض السنوات المحددة في دور يعد تسعة عشر عاماً . وهذه نتيجة فضلى سمحت للمؤرخين العصريين ان يعرفوا ، بالاستناد الى علماء الفلك ، تحديد كل تاريخ يذكره التقويم البابلي دون ان يتجاوز الغلط الممكن يوماً او يومين - وذلك باعتبار الايام التي حالت فيها طبيعة السماء دون مشاهدة الهلال الجديد .

الرياضيات وعلم الموازين
فرض استعمال نتائج علم الفلك هذا معلومات رياضية جمة . اذ كان السومريون فعلاً قد اكتشفوا واستعملوا نظاماً « ستينياً » كاملاً وفتح معه فيما بعد نظام عشري . وقد طبق مراقبو النجوم هذا النظام بسرعة ودقة لا مثيل لها في العصور القديمة قبل يونان القرنين الرابع والثالث .



الشكل ١١ - رسم تيبور

١ - على لوحة مسابية ؛ ٢ - حسب اعمال التنقيب الحديثة

واخترعوا باكر جداً نظاماً للموازين والمقاييس قورن ، نسبة لما فيسه من توازن داخلي ، بنظامنا المتري - وكان ذلك نتيجة حتمية لما بلغته الحياة الاقتصادية من اتساع ومدى ، اذ يستحيل ان تنشط التجارة والملكية العقارية دون وجود عيارات ثابتة ، واتخذت الوحدات الاساسية من قياسات الطول - ومن توزيع احداها كوّنوا سلسلة مقاييس المساحة ومن تكعيب اخرى اوجدوا سلاسل المكاييل للاجسام السائلة والجامدة . واشتقت سلسلة الموازين من حجم كمية ماء .

وتسهلاً للحساب وضعوا جداول معينة . وكان هناك نماذج من اعمال حسابية او هندسية وضعوا لها طرائق حل : وهكذا توصلوا الى حل اعمال من الرتبة الثانية والثالثة ، بتطبيق قواعد عملية سهلة .

عالم الطبيعة
قاسوا بدقة المسافات والطرق ، ووضعوا الرسوم الهندسية للمنازل والقنوات
وحتى المدن . وقد اثبتت افعال الحفريات التي اجريت في نيبور دقة رسومهم .
ووصلت الينا خريطة عن العالم ، قديمة جداً دون شك ، وهي تضع ولا جرم بلاد ما بين النهرين
في وسط الأرض . ويمتد حولها المحيط أو « النهر المر » ، وعلى مسافة ابعده تنبسط اراض اخرى ،
ارض الشمال المدعوة « البلاد حيث لا يرون الشمس » ، ولكن من غير الحكمة ان نفكر بان
البابليين عرفوا الليل القطبي .

وهل بالامكان التحدث عن العلوم الطبيعية ؟ ان مثل هذا التعبير دون شك هو من الكلفة على
شيء كثير . ولكن لدينا اقله عدة جداول قديمة العهد للنبات والحيوان وضعت دون شك بكل دقة .
ولا يكشف النقاب دوماً عن المبدئ الذي هيمن على هذا التصنيف ، لا بل يبدو بانه اعتمد
على المظاهر اكثر من اللازم كعندما صنفوا مع الحجارة نواة التمر او البرد . ولكن هناك جهد
واضح للاتيان بتصنيف وتنظيم عملي : فيجمع جدول واحد النباتات التي تحوي القلى ، والتي
يمكن استعمالها كتوابل الخ .

العلم والسحر في الفنون
ذهابا من المواد التي تقدمها الطبيعة درجت الصناعة المعدنية والكيمياء
اولى خطواتها .

وكان الحديد اولاً نادراً ، اذ يستعملون فقط الحديد الذي يجدونه صالحاً للاستعمال ، خاصة
الذي يمت اصلاً الى النيازك ، لذا حصروا استعماله لصنع الحلى ؛ لا بل قد يرصعون الذهب فيه .
ولكن ، حوالي آخر الالف الثاني ، اتسع مدى استعماله اذ عرفوا كيف يستخرجونه من المعدن .
واتصل بهم هذا الاسلوب من اوروبة ، وقد حملته الى بلاد ما بين النهرين ، وإلى كافة اقطار
الشرق ، الشعوب التي بدأت تفقد منذ القرنين الخامس عشر والرابع عشر ؛ واقتبست بلاد
الرافدين هذا التقدم اما باحتكاكها مع هذه الشعوب او لانها تعرضت الى غزواتهم ، ففدا
استعمال الحديد فيها امراً عادياً منذ الالف الاول .

وبالعكس فان كيفية صنع الزجاج الذي تزينه المينا هي اقدم بكثير ، ولدينا نص مكتوب
لهذه الطريقة وهو يحدد المواد الواجب استعمالها وكميتها المفروضة . ويعود هذا النص الى اوائل
الالف الثاني ، وقد كشفت لنا اعمال التنقيب القناع عن لوحات زجاجية من هذا النوع تعود
الى عصر اشد قدماً : فلا عجب والحالة هذه ان غدا هذا النص نسخة او اقتباساً من نص
يفوقه قدماً .

ويسود هذا النص غموض مقصود : فان كاتبه اتخذ ، وقد أراد ان يسجله خطياً ، كل تحفظ
وحذر كيلا يكشف القناع عن الاسرار التي يحويها ، اذ تحتفظ هذه الصناعة بعري وثيقة مع
السحر والعرافة ، كما هو الحال ايضاً دون شك في الصناعة المعدنية حيث نلاحظ اقله مثل هذا
الحذر : اذ لا يحذر العمل إلا في ايام معينة وساعات محددة ، بعد مراقبة بعض الدلائل ،

والتلفظ ببعض الكلمات . ولا يجب ان يقودنا هذا القول الى علم الكيمياء : فالطريق ، وهي حتى الآن واحدة ، لم تتفرع الا في وقت لاحق فقط فظهرت لنا اذ ذاك طريق ثانوية ستؤدي بنا الى « العمل الكبير » .

هل ندخل في الأدب او العلوم او الفنون الاختراعات القانونية التي أوجدها الحقوق : المقود سكان بلاد ما بين النهرين ؟ ولا نجد عن الطريق السوي ان اعتبرناها ضمن أي من هذه المجالات ، أو ضمن مجالات أخرى أيضاً ، اذ أجبرنا على التحدث عنها اكثر من مرة . وعلى كل حال فانها حقاً مؤثرة .

تظهر لنا الاتفاقيات المسجلة على اللوائح ، منها توغلنا في القدم ، قانوناً خاصاً في غاية التطور ، وبالدرجة الاولى في كل ما له علاقة بالمقود ونقل الملكية . وتكفي ضرورة تثبيت شروط أي عمل من هذا النوع بصورة خطية ، تحت طائلة البطلان ، لدعوة العقل الى تنظيم منطقي في مختلف المبادئ ؛ وقد اكسبت هذه الضرورة الاعمال الحكي عنها صفة الثبوت والتأكيد الحقيقية . ولم تتعرض هذه العقود بنظام مفرط من القبود الشكلية . ولكن حوت هذه القبود ، مع التحديد الواضح للرفقاء والموضوع ولشهود الاتفاق ، بعض التأكيدات التي تتناسب وتحليل العقد المنوي اجراؤه كعمل قانوني تحليل دقيقاً وبيان المصالح المتضاربة وما قد ينشأ من منازعات .

تبدو القوانين ، ومنها ما يعود الى اواخر الألف الثالث ، اكثر وقفاً القوانين : قانون حمورابي في النفس أيضاً . وقد زادت الاكتشافات الحديثة عددها : ففي سنة ١٩٤٨ نشرت بعض اجزاء الشرائع التي سنّها بيلالاما ، احد ملوك اشوتنا ، كما أشير سنة ١٩٥٢ الى شرعة أور-نامو ، وهو من ملوك أور الذي يفوق بيلالاما قدماً . ولكن كل هذه السنن هي دون قانون حمورابي أهمية وشهرة .

وبكل تأكيد فان هذا الصيت متأثراً جزئياً عن المسلة العظمى التي عرّفنا بهذه الشرائع . ويدعو تاريخ هذه المسلة الى العجب افصح الى سنة ١١٧٥ ق.م. سابقا شوتروكناخوته ملك سوزة ، كجزء من الاسلاب التي غنمها من بلاد بابل ؛ ووجدت سنة ١٩٠٢ بين انقاض عاصمته ، وقد قامت بهذه الحفريات البعثة الفرنسية في بلاد فارس ، مما اكسب متحف اللوفر حق ملكيتها . وتدعو الى العجب ايضاً هذه المسلة بمجد ذاتها : وهي عبارة عن اسطوانة من الحجر الاسود الصلب مخروطية الشكل يبلغ ارتفاعها ٢٥،٢ م ودائرة قاعدتها مترين . وفي اعلى وجه المسلة نرى نقشاً يمثل الملك واقفاً في وضع التعبد امام شمس ، اله الشمس . والعدالة ايضاً ، تدلنا عليه شرارات تقدح من كتفيه . وتغطي كامل وجه التصب رموز مسارية صنعت على شكل عمد ، أتى الفاتحون على بعضها بالطريقة ، كما طرق ايضاً القرص الشمسي الذي كان يعلو هام الاله ! ويمد النص نحو ٣٦٠٠ سطر .

ولكن بصرف النظر عن هذا التصب الذي لم يكن وحيد دهره اذ كشفت اعمال الحفر ، في

سوزة أيضاً ، نسخة عنه ، فقد اكتسب هذا القانون شهرة حقوقية فائقة في كل اقطار الشرق الأدنى . ونسخ هذا القانون على لوائح ولاقى رواجاً في اقطار بعيدة جداً عن بلاد ما بين النهرين واثراً من ثم في قوانين شعوب غريبة عن امبراطورية حوراني .

وقارن اكثر من معاصر هذه الشرائع مع قانون نابوليون . وتسري هذه المقارنة دون شك ان اعتبرنا انتشار هذا القانون ومدى تأثيره ، ولكنها قد تقود الى الخطأ فيما يختص بفهم النص وروحه . فبعد استهلال ، يعتبر قطعة ادب ديني وسياسي ومعنوي رائعة ، يعلن « محاكمات عدالة » تهدف الى « اقامة الحق في البلاد » وقد قررها حوراني ، « ملك الحق الذي وهبه شمش العدل » نقرأ ٢٨٢ قضية . ويبدأ معظمها بهذه الكلمات « لما كان ... » ثم تحدد كل منها حالة عملية معينة ، وتنتهي بقرار يحكم بها . وان نحن ابقينا على هذا التشبيه الذي اقره الزمن ، باستطاعتنا ان نعتبر هذه القرارات كموا قانون ، صيغت بلغة في غاية الدقة والوضوح ، تقضي جهد المستطاع على كل إشكال وغموض . وان نحن لاحتظنا ترتيباً نسبياً في تصنيفها ، فاننا نعجز مع هذا ان نتحدث عن مواد قانونية وضعت بصورة منطقية متراسة تسيخ لنا ان نرى من خلالها تطبيق نظام شرعي بالمعنى المحصور .

اننا نلحظ دون شك بعض الاتجاهات العمومية : تثبت استمرار الاسرة بواسطة الولد ، تأمين الملكية مهما اتخذت من الاشكال الخ ، ولكن نلاحظ ايضاً امتزاج مبادئ تختلف لا بل تتناقض . فمثلاً نرى العقاب او التكفير ، ومبدأ دم بواء دم او التعويض . وبصورة تبدو مستهجنة يطبق هذا المبدأ او ذاك تبعاً لمركز الضحية الاجتماعي : فالرجل الحر الذي حطم اسنان رجل حر يفقد اسنانه ، ولكنه يكتفي بدفع ثلث « كيل » فضة ^(١) الى من دونه رتبة وحدث له مثل هذا الضرر ؛ والذي يسبب باعتداء اجهاض وموت ابنة رجل حر يشهد مقتل ابنته ، ولكنه يدفع نصف او ثلث مثقال فضة ان كانت ضحيته ابنة عبد او شخص دونه رتبة . ونرى مثل هذا التفاوت في مجال التحقيق : تقبل الادلة وتعد البينة الشخصية منها مع تقرير عقاب صارم للشهود الكذبة ، ولكن قد تعرض اليمين « امام الاله » ، اعني يطلبها الاله ، او الملك ايضاً ، لا بل يلجأون في بعض الحالات الى اساليب التعذيب فيلقون في « الاله - النهر » اعني الفرات من اتهم باستعمال السحر او المرأة المتهم بالزنى . ونلمس بكل سهولة من خلال هذا الوضع اثر تطور في الحق الجزائي او الآداب ، لا يزال مستمراً ، تباطأ هنا وتقدم هناك .

وهكذا فاننا بالاحرى امام مجموعة قرارات ملكية - وليس قوانين - لحل بعض حالات تبدو غالباً على جانب من الصعوبة واللبس ، لا بل منها ما هو لربما وهمي وغير حقيقي : وتعرض علينا هذه القرارات كأنها اجتهادات محاكم وذلك لتوحيد احكام القضاء . واكثر ما يمكننا قوله باننا امام كتابة تقاليد قانونية كانت تنفذ لاذك التاريخ في وسط الامبراطورية ، ثم قررت الارادة الملكية تمميمها على جميع المناطق التي تهيمن عليها .

١ - يعادل الكيل ٥٠٥ غرامات من الفضة .

وبقي علينا في هذا المجال ان نعرف جواباً لسؤال قد يطرح: هل نفذت دوماً هذه الاوامر، وحواري لا يزال حياً؟ اذ نرى اكثر من لوحة، فيما يختص بالعقود، لا تنقيد بنصوص هذا القانون، وهذا ما يجعلنا على الاعتقاد بان العادة المتبعة او ارادة المتعاقدين قد احتفظنا بقوة اشد من الاوامر الملكية.

وتُظهر لنا عوامل ماثلة قوانين بلاد الرافدين الاخرى، التي يرتقي بعض منها الى زمن اشد قدماً. وتعتبر كلها عن جهد ملحوظ هو اجتماعي واقتصادي اكثر مما هو علمي. وقد اراد واضعوها ان يكسبوا مختلف علاقات البشر المبدأ القانوني، ويضفوا عليها صفة الشرعية والتأمين، ولكنهم لم يخلقوا، لا بل لم يلحظوا هذه الربط المسندة الى القياس العقلي الذي هو القانون.

وتقرض ملاحظة ماثلة نفسها على معظم مجالات نشاط حضارة بلاد ما حددت الجهد الفكري بين النهرين العقلية: فهي لم تتعد حدود التجربة والعمل. لقد أجاز علماء بلاد الرافدين المراقبة الدقيقة، وسجلوا ملاحظاتهم بسداد واحكام ضمير. وهم قد صنفوها وقابلوها بعضها ببعض. ولكنهم لم يستنتجوا من ذلك الا سلسلة من السوابق الواقعية والنصائح العملية، ولم يرتقوا في اي مجال الى الجو النظري المجرد، ولم يسعوا الى معرفة اسباب ما لاحظوه.

حتى ان الرياضيات نفسها، وهي علم نظري في الدرجة الاولى، اتخذت معهم مجرى غير عجراها: لقد استوقفتهم المسائل الرياضية، و اشاروا الى الطرق الواجب اتباعها ليجاد حل لها. وهكذا توصلوا الى هذا الحل الصحيح، ولكنهم لم يعلموا ذلك قط علمياً ولم يحلوه، بل اكتفوا بانهم وجدوا سر النجاح، وذلك دون شك بعد ان تفلسوا الحل مرة بعد مرة او اجرؤا التجارب المتعددة. وينطبق هذا القول على مختلف مجالات معارفهم. وهكذا فان معارف بلاد ما بين النهرين بقيت عملية بحتة - حتى انها لم تصبح تجريبية، مع ان المبدأ التجريبي يعتمد في بعض مظاهره على الاختبار - ولم ترتفع الى مستوى التنظيم القياسي.

وكيف يمكن ان تكون الحالة على غير هذا نسبة الى العرى الوثيقة التي كانت تشد العلم الى الدين؟ فقد اعتبروا العلم كأنه الهام او وحي، كأنه هبة يمنحها هذا الاله او ذاك الى الانسان. لذا اكتفى الانسان بالمراقبة والتطبيق: وما كان عليه ان يفقه الكنه والسبب.

ونتج الجود عن هذا الوضع العقلي بصورة لا مفر منها. وحيث ان المعرفة هي هبة من الآلهة فلا بد بانهم منحوها، باكرأ جداً، الى الاجيال القديمة التي سبقت الجميع في مجال التقوى والطقوس الدينية. لذا غدا واجب الجيل الحاضر الرئيسي جمع عناصر هذه المعرفة وتسليمها الى الغير، ومن العبث من ثم ان يطمع الى زيادة شيء عليها؛ وكما هو الحال فيما يختص بالمعائد والاعمال الدينية، الذي لا تكون معرفتها الا أمراً تبعاً، فان الكمال محصور في الماضي وليس في المستقبل.

ومن هنا نجد تفسيراً لهذه النسخ التي لا عد لها ، وهذا التردد المستمر ، وهذا الختويع لاعادة ما كتبه السلف . وفي هذا الفصل لم يرد إلا نادراً ذكر الاشوريين ، وبصورة شاذة بصفتهم مخترعين . فهم وقفوا أنفسهم على جمع تراث فكري وصيائمه جهد المستطاع . ولجهود اشوربانيبال التي هدفت الى جمع كل ما كتب سابقاً في مكتبة قصره بنيوى مظهر رمزي : فليست معرفة جميع الامور التي يسعون لتسهيل اكتسابها نقطة انطلاق نحو خلق آفاق جديدة اوسع مدى ، ولكن يمد هذا الاكتساب هدفاً نهائياً بمجد ذاته . واعتُبرت بابل في عهد حمورابي مثلاً يحتذى به . وقد جمع فيها حقاً كنز زاه من الثروات العقلية . ولكن الى اي حد غدت هذه الثروات ، حتى في القسم الاول من الالف الثاني ، فتحاً جديداً حققه البابليون معاصرو تلك الحقبة ؟ قد يكون فضلهم ضعيفاً جداً اذ اثبت اكثر من اكتشاف حديث بان ما نقله وجمعه كتبة حمورابي يعود الى ماضٍ حقيق ، ليس فقط من حيث الاصل بل ايضاً من حيث النسخ المباشرة التي اخذوا عنها .

الآثار الفنية

لن يعجب احد اذا وجد بان فن بلاد الرافدين قد ساد ، منذ بدء وجوده الى آخر عهده ، الحدث الديني والحدث الملكي ، ويرجع الاول كثيراً على الثاني اذ يتغلغل فيه ويصكون دوماً له سنداً : فالدين هو دائماً مصدر الوحي الجزئي اقله للفن ، هذا ان لم يكن غالباً المصدر الوحيد . ولا يحسب أي حساب للمبدل القائل « الفن للفن » اذ يقتضي بالدرجة الاولى ان يستجدي المرء نعم الآلهة باظهاره تعبه لهم . ولا يتنكر قط الملوك لهذا الامر ان هم شيدوا الهياكل او وضعوا فيها تقادمهم التي تفوق تقادم المؤمنين السذج أو أقاموا وزينوا منازلهم الخاصة . وهكذا ، واذ لم تنتج ضرورة تأمين الحياة في العالم الآخري فن مستقل - حتى ان قبور اور « الملكية » مدينة بقيمتها الفنية لا ثائها ، الذي هو اثاث ارضي ولا لهم تاريخ فن العمارة الا لأنها تثبت استعمال الحنية والقبه باكرأ جداً - فان الهياكل والقصور هي الابنية الوحيدة المهمة ، لابل الهدف الوحيد للفن الذي تنحصر رسالته بلقيدها لحى سكانها وحراستهم ومجدهم ومسروهم .

المدن والحصون مع ان كلمة « فن » تفوق كل مستوى في هذا المجال ، يرغب المرء مع هذا ان يتمثل التجمع المدني في شكله المادي لهذه الحضارة حيث لعبت المدينة منذ اقدم العصور دوراً هاماً . ولكن سرعة عطب مواد البناء وتنضيد المساكن المتتالية في نفس المواقع مدة آلاف من السنين لا يميزان لنا معرفة البيوت وتنظيم المدن الداخلي معرفة حسنة : ولا يتعدى ما نجهده اليوم ، ليصبح مادة بحث ، انقراض المباني الكبيرة التي يصعب جداً مع هذا تفسيرها لما حل بها من ترميم وتبديل . وباستثناءها فالسور هو عنصر الهندسة المدنية الذي يسهل معرفته اكثر من غيره .

ومن الطبيعي بأن يأتي الاشوريون في هذا المجال بتحسينات ملموسة ، ان لم يكن بامور جديدة كلياً : اذ غدت الحرب مهم الرئيسي بشكل لم تعرفه ابي جماعة بشرية سكنت بلاد ما النهرين . واذ سعوا لحماية سيادتهم ضد الثورات الداخلية والغزوات فانهم اكثروا الحصون وحوطوها بالأسوار قصور ملوكهم . وورث عنهم هذه الأساليب ملوك الدولة البابلية الجديدة ،

حتى ان اعمال الدفاع التي أقاموها حول عاصمتهم أثارت ، في العهد الفارسي ، إعجاب المسافرين اليونان :

وكان لمدن القديمة دون شك أسوار مستديرة الشكل تقريباً تشبه أزقة ضيقة لتشابك دون اي نظام . وغالباً ما احتفظ الملوك الآشوريون بما وجدوه ليس فقط في المدن التي أخضعوها وأقاموا فيها الحاميات ، كتل برسيب (وتعرف اليوم بتل الاحمر) على منعطف القرات ، بل ايضاً في المدن الوطنية القديمة كمدينة اشور . وقد استرعى الانتباه ما قاموا به من اعمال فنية حتى على هذه المواقع القديمة ، اذ يعجب المرء مثلاً لكثرة وجودة حصون اشور : ارضة من الحجر والاجر المشوي على طول دجلة واحدى القنوات ، وحفرة نحو السهول قد تغلأها المياه يبلغ عرضها عشرين متراً وعمقها خمسة عشر متراً ؛ واسوار من الداخل والخارج يبلغ ارتفاعها نحو اثني عشر متراً تتخللها ، كل ثلاثين متراً تقريباً ، ابراج ناتئة ؛ وقلاع ضخمة في الاماكن المعرضة للخطر النخ .

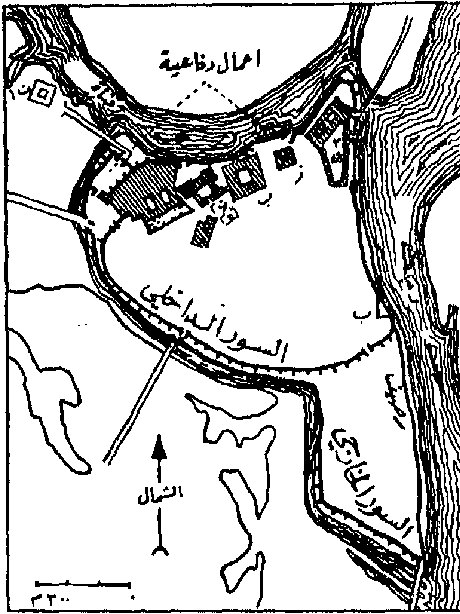
ويزداد التقدم وضوحاً عندما ينشئ الملوك مدناً جديدة ويكونون اذ ذاك احرار التصرف . وقدمت لنا حفريات خرساباد اشهر مثل على ذلك في قصر شيدى سرجون الثاني حوالي اواخر القرن الثامن يدعى دور - شروكين اي « حائط سرجون » . وقد حل هنا الشكل الهندسي المتوازي الاضلاع محل الشكل المستدير وان لم تظهر هنا الصفة العمودية كاملة ، خلافاً لما اعتقده المنقبون منذ مئة سنة ، فان مجموع البناء يشكل رسماً هندسياً واسعاً مربع الاضلاع وقائم الزوايا تقريباً ، يبلغ عرضه نحو ١٨٠٠ م وطوله ١٧٠٠ م ومساحته ٣٠٠ هكتار . ويشمخ على اساس من الحجر حائط من اللبن يتجاوز ارتفاعه وعرضه عشرين متراً ، ونجد خارج الحصن حيطاناً عدة ذات زوايا ، وسبعة ابواب منيعة وعدداً من العرصات والغرف والمنحنيات تحمي مداخل المدينة (الشكل ١٣ صفحة ١٩١)

ومها بدت خرساباد جبارة ، فلا شيء يفوق من حيث العظمة والضخامة اسوار مدينة بابل الخارجية التي شيدها نبوخذنصر ، وهي ايضاً مربعة الاضلاع تمتد على طول ١٨ كلم تقريباً ، مع حيطان مزدوجة يلتصق بعضها ببعض تمرزها الابراج . وعلاوة على هذا كان يحصد سور آخر المدينة الداخلية ، وهي اقل مساحة ويلجئون اليها بابواب ضخمة مزينة ومتينة ، أهمها اليوم باب إشتار (الشكل ١٤ صفحة ١٩٧) لانه حفظ بحالة احسن من سواه .

وفي كل ناحية شيدت البنايات العظيمة كاهيا كل وخاصة القصور الملكية لتصبح معاقل الدفاع الاخيرة ، وقد كوّنت مجد ذاتها قلاعاً تستطيع ان تقاوم زمناً طويلاً كل حصار ، اذ ارتفعت حولها الاسوار بما فيها من ابراج ذات شرافات ومرام .

واستنفد هذا الجهد البشري والفن الهندسي دون جدوى ، اذ املت دور - شروكين ، بما يفسر لنا كيف حفظت الى يومنا بصورة تمت الى الاعجوبة . واستولى المنتصرون الماديون

والبابلون على اشور ونيوى ودمروها وجعلوها طعمة للئيران . ووقعت بابل بدورها في قبضة الغازي الفارسي ، وتقترب اسطورة بلشاصر « مناتقل وفرسين » باسطورة كومة حطب سرداناال . ولكن يظهر وجود هذه الاساطير الى أي حد سيطرت سطوة الامبراطرة



الشكل ١٢ - مدينة اشور

قبل تدميرها بوقت قليل في اواخر القرن السابع قبل المسيح
ب « قصر » ت ١ ، بيت اكينو « بيت السنة الجديدة » بيت الاله
اشور الربيعي ؛ ت ٢ ، مجموعة اربعة مياكل ويملك احدهما زقوراتين ؛
ت ٣ ، « بيت جبل البلاد » هيكل الاله اشور الكبير ؛ ز ،
الزقورات الكبرى كرسيت في اول الامر لانيل ثم لاشور .

الاشوريين على الخيلة . وسيتقرب من
اقامة الحصون عند اليونان الكثير
من مثيله الذي ازدهر في حوضي
دجلة والفرات .

ويسري هذا التأكيد ايضا على
فن تشييد المدن وقد فرض السيد
رسماً منسقاً للمدن التي شيدها أو
جدها ، اذ ان فن بناء المربعات
الهندسي هو من وضع بلاد ما بين
النهرين الشرقية : ولم يجده
هيبوداموس رجل ميله *Milet* ،
عندما قرر تصاميم بيده *Pirée* في
القرن الخامس ، الا في نقل هذا الفن
للمرة الاولى الى اوربية . وقد اعطى
الاشوريون الرسم والمثال للأعمال
الفنية الضرورية لتجمع بشري كبير .
وجلب سنحاريب الى نينوى
مياه الجبال بواسطة قناة حملها
فوق واد « جسر من الحجارة
البيضاء » يبلغ طوله ٢٨٠ م ،
وعرضه ٢٢ م ، وارتفاعه ٩ امتار .

ولكن تبقى كل هذه الامور قليلة الاهمية نسبياً ازاء الاكتشافات المدهشة حقاً ، غالب
الاحيان ، والتي ازاحت الستار عنها اعمال التنقيب التي اجريت حيث شيدت القصور والهيكل .
وقد بذل البنائون لوقاية هذه الابنية جهوداً وتضحيات مادية اكبر ، كما غدت ملاحظات علماء
الآثار اكثر دقة وقد اجروا اعمال تنقيصهم في مساحات صغيرة لان هندسة البناء الديني والمكي
فاقت دون شك عظمة واهية كل هندسة وبناء آخر ولا تزال كذلك .

هناك عامل مادي له تأثير فعال منذ اقدم العهود ، تساعد على استمراره
ظروف مختلفة حتى ولو لم يعد له من سبب حقيقي .

استعمال الحرف

وتخلو بلاد ما بين النهرين السفلى من الحجارة ، وغاباتها قليلة جداً ، لذا غدا لزاماً على الانسان الذي اراد تشييد بناء ضخيم ان يعتمد الى الخنزف ، ويصنع منه خاصة لبناً يحففها في الشمس ويكدسها اكداماً افقية تلتحم بعضها الى بعض بواسطة رقع من القصب او القش او الزفت . ولم يستعملوا اللبنة المشوية الا بصورة استثنائية في الامكنة المعرضة الى مياه المطر او الانهر ، وكان يلزم لصنمها مواد محرقة . ومن الاكيد بان بلاد الاشوريين كانت اغنى بكثير بالمواد الصلبة من سهول الجنوب الرسوبية ، ولكن غدت حضارتها ، بواسطة بابل ، وريثة الحضارة السومرية ، لذا احتفظت بتقاليد نشأت في مكان آخر وتحكمت فيها عناصر طبيعية اخرى . وقد عملت الفكرة الدينية على تقوية هذا الاستمرار اذ ساد الاعتقاد بان كل حكمة ، املها الوحي ، تحدثت من السومريين .

وهناك اعتبار آخر ايضاً : سرعة الاعمال وسهولتها . وقد طبع كل ملك سني حكمه بطابع اعمال شخصية وسعى والحالة هذه الى تخليد اسمه فشيده او اصلح مباني تشهد على تقواه وقوته . وهكذا غدا فن النقش عند الاشوريين اكثر ابتكاراً اذ تصرف بصورة اوسع مدى بهذه الحجارة التي اجبر السومريون والاكاديون على جلبها من مكان بعيد وبتكاليف مرتفعة عندما ابوا ان يكتبوها بالحصى الكبيرة التي كانت تحملها الانهر . ولكن لم يحدث الفن الاشوري في مجال هندسة البناء اي تجديد اذ اكتفى بما هو سريع الزوال شرط ان يكون عظيماً ؛ لذا لم يستعمل المهندسون الحجر الا لوضع الاسس . وقد شيده الملوك العظام على اقل تقدير قصرهم وهياكل عدة ، وهذا ان لم نقل مدينتهم الخاصة كما فعل سرجون الثاني في دور — شروكين .

غدا لاستعمال اللبنة القليلة الصلابة نتائج تقنية اصبحت مع الزمن تقاليد محترمة
النتائج حتى عندما زالت الضرورة الاولى .

والنتيجة الاولى الاكثر ضرورة هي ايجاد كوم من التراب الاصطناعية وذلك لحماية اسس المباني العظيمة من خطر الفيضانات . وكان على سطحها المنحني ، والذي يغطيه ان دعت الحاجة الزفت او الاجر المشوي ، ان يوجه الماء نحو يواليع اعدت في هيكل هذه الكوم . ولاعطاء فكرة عن ضخامة هذه المباني التي شيدهت يكفي القول ان سطح قصر سرجون في خرساباد الذي يغطي مساحة تبلغ نحو ١٠ هكتارات قد ارتفع اكثر من ١٥ متراً ويساوي تراباً منقولاً يبلغ حجمه نحو مليون ونصف من الامتار المكعبة .

ولجعل الجدران اكثر صلابة غدا لزاماً ان تبنى سميكة جداً . وهي تضيق كلما اتجه المرء صعداً من الاساس الى القمة . وانعدمت النوافذ تقريباً ، الا — لربما — عند السقف اذ ارادوا تقليل ، جهد المستطاع ، نقاط الضعف في هذه المباني الضخمة . ووجب على الابواب ، وكان بالامكان جعلها اكثر ارتفاعاً دون كبير ضرر ، ان تؤمن الحاجة الى الهواء والنور . وكانت لزاماً ايضاً ان تنفتح على الهواء الطلق ، لذا وجب الاكثار من العرصات الكبيرة والصغيرة داخل البناء .

ومن هنا ينأتى الشعور بالضخامة الهائلة التي تظهرها المباني الكبيرة . واذا امتدت على مسافة طويلة - وكان من الخطر ان تتوالى الطباق ولم يجرؤ احد حقاً على هذه المغامرة ، حتى في الزقورات - ظهرت كل من هذه المباني ، ان اعتبرنا الخط المستقيم ، ككومة ضخمة شبيهة الى حد ما بجرم متواز ومستطيل السطح ، حفرت فيها بصورة واضحة ، من القمة الى الاسفل ، حفرة على شيء كثير او قليل من الشكل المكعب .

وهذا ما يفسر لنا الجدران التي قامت على وتيرة واحدة . لذا سعوا باكرأ جداً لان يصلحوا الحال وذلك بتدني نظام الحائط المربع الزوايا او نصف الدائري الذي يتخذ اذ ذاك شكل ركن مربع او عمود منتقص . وعمدوا ايضاً الى تغطية المساحات العمودية او المسطحة بمربعات الفسيفساء او الاجر المشوي الطلي بالمينا بشكل عادي او نافر ؛ ولجأوا ايضاً الى تغطيتها بمادة تشبه الرخام ينقشون عليها الرسوم ، او اخيراً ، وفي بلاد الاشوريين ، باندام اليها نقوشاً بارزة من الحجر المنحوت . واكسبت هذه الاساليب تشابكاً في الالوان على تلك اللوحة السمراء التي لا مفر منها . وخيمت داخل القاعات ظلام خفيف اذ لم يتسرب اليها النور الا قليلاً ؛ والحق يقال ان هذه العتمة اللطيفة التي تدعها صفاقة الحيطان كانت تحمي من الحر الذي يشتد كثيراً جداً في ذاك الاقليم .

أثار السقف مشاكل لم يوفقوا في ايجاد حل لها . ولم يكن لشكله الأفقي السقف ودعمه كبير أهمية : وحالت كمية من الزيت دون تسرب الماء منه في بلاد خف مطرها . ولكن لم يكن للقوم خشب . واستعملوا المباني الصغيرة ، كليبوت مثلاً ، نظام القنب . وعرفوا ايضاً نظام المقعد واستعملوه للقنوات والجسور ولكن لم يعثروا الا قليلاً على آثار من عقود السقف في انقاض المباني العظيمة . لذا احبوا كثيراً استعمال قطع كبيرة من الاخشاب حصلوا عليها من جذوع الاشجار . ولا شك في انهم اتوا بها ، إن دعت الظروف ، من الغابات البعيدة ، خاصة من سورية مستعينين بالفرات : وتقضي نقوش عدة على كل شك بخصوص شجرة أرز لبنان . ولكن لزمهم والحالة هذه عدد كبير . واكتفوا غالباً بأخشاب قصيرة ، مما اجبرهم من ثم على تقليل عرضها .

واستعمال الآجر لاقامة العمد التي تحمل السقف امر في غاية الدقة . ولعدم توفر اساليب فنية للحصول على الآجر المشوي استحال على هذه العمد ان تصبح مثينة ان لم يعمدوا الى زيادة قطرها ، وهذا ما كان يعيق الرؤية في القاعة .

لذا لا نجد للضخامة الخارجية مثيلاً في الداخل ، في مقاييس القاعات او العرصات ؛ وغدا من الصعب جعلها فخمة الا في مجالي الطول والعلو ، وذلك ببدل جهود جبارة استثنائية . ولكن اوحى قصور الآلهة والملوك التي تهيمن على المدن فكرة اجمالية بوجود سطوة تقوى قدرة الاشخاص العاديين .

الهيكل ان الهيكل هو بيت الآلهة ، أعني بالوقت ذاته ، القصر والحصن ، وذلك بعد ان زالت الازمنة الدولية الوضيعة . وتشاهد على ركب أحد تماثيل الملك « غوديا المهندس » لوحة تحمل رسم الهيكل المنوي تشييده : انه رسم حصن منيع ، اذ يحيط بالهيكل الكلاسيكي سور له ابراج لحماية الآلهة وخدامها وكهنتها وكنوزها ضد أي عدو .

ويفرض دور الهيكل الاقتصادي ، وقد رأينا اعلاه اهميته ، وجود منازل ومكاتب للأشخاص ، كما يحتم وجود اصطبلات واهراء ومخازن وكنوز . وفي كل هيكل كثير عدد بيوت العبادة بالمعنى المصري اذ زيدت مع الزمن دور خصصت لآلهة أخرى استضافتها الإلهة الوحيدة أو الإلهتان الرئيسيتان . وهذا ما يدعو دوماً لتغيير هندسة الهيكل . ومع هذا لكل إله رئيسي نجد دوماً تقريباً باحة مخصصة للاحتفالات الدينية تشرف على قاعة نجد في اقصاها الغرفة الالهية السرية بمصر المعنى حيث لا يدخل الا الكهنة والملوك وحيث يرتفع تماثيل الإلهة .

تشتمل كل الهياكل الكبرى ايضاً ، في احدى زوايا سورها أو على مقربة البرج ذو الطبقات منها ، على بناء خصوصي يعبر احسن تعبير عن حضارة بلاد ما بين النهرين : الزقورات (Ziggourat) وقد درج المعاصرون على تسميته « البرج ذو الطبقات » . ومع الاختلافات المحلية المتعددة التي طرأت على هذا المبنى ، نراه دوماً « عالياً » - وهذا معنى كلمة الزقورات الاصيلي - تقبل مساحته ذهاباً من الاساس الى القمة .

وهندسة هذا البناء معروفة : سطوح تعلو بعضها بعضاً تضيق مساحتها باستمرار كلما ارتفعت ، تصلها مع بعضها البعض السلم أو درابزونات . وان ارادوا اعداد قاعات فيها فلا يتوفر لهم ذلك ، في كل سطح ، الا على الجوانب ، ويقيّمون لها ابواباً تطل على الاعمدة الجانبية التي تتوسط الاجزاء ؛ اذ وجب الامتناع عن اجراء أي ثغرة في جسم البناء الاسامي وذلك لتأمين متانته .

وكان عدد السطوح عرضة للتبديل : فهو سبعة ، حسب احد النصوص ، « اي - تيمين - أن كي E - temen - an - ki » ، اي « بيت اساس السماء والارض » ، الذي ارتفع بالقرب من « اي - ساغ - ايل E - sag - il » ، أعني « البيت ذو الرأس العالي » ، أو هيكل مردوك في بابل ؛ بينما اصل هيروdots هذا العدد الى ثمانية ، وقد اعتبر دون شك الجزء الذي هو بمثابة الاساس ، ونجد ان هذا الرقم هو سبعة في مواضع أخرى ، بينما لا يبلغ الا الاربعة أو الخمسة على بعض النقوش . واختلفت ايضاً المقاييس : فهي تزيد قليلاً عن التسعين متراً طولاً وعرضاً وارتفاعاً « اي - تيمين - أن - كي » ، بينما لا تزيد الا القليل عن ١٦٠٠ م لبرج خرسا باد التي لا تزال باقية سطوحه الثلاث السفلى ؛ وهي لا تعدى ٦٤ م و ٤٣ م للطبقة الاولى ، وهي الوحيدة التي يسهل قياسها ، من برج اور الذي يرتقي الى الالف الثالث .

وحقيقة تفسير تشييد هذا النوع من المباني لم تفرض بعد ، ويحول عدد السطوح الذي يتبدل هنا وهناك دون اعتباره متصلاً بالكواكب السبع السيارة التي عرفها البابليون ، وخصوصاً لكل منها طبقة طلوا كلها منها بلون مختلف . وذكر هيرودوتس بأنه كان يوجد في القمة « بيت للعبادة وضع فيه سرير كبير وعليه اغطية » ويجانبه طاولة من الذهب . وقد قضت فيه ليلتها وحيدة امرأة من المدينة « اختارها الاله من بين جميع النساء » . ويزعم سترابون بأن سكان بابل اعتبروا الاله - تيمين - أن - كي قبراً لمردوك ، بينما اورد ديودور الصقلي بانهم استعملوا الزقورات كمرصد . اما بعض المعاصرين فرأوا فيه « مكاناً عالياً اصطناعياً » . ومن الجائز اختيار اي من هذه الحلول ، ان لم يكن من الواجب دمجها معاً .

ولكن بانتفاء التفسير الاكيد فلا يغربن عن البال الجهد المادي الذي بذل والاثر الذي تركه مثل هذا البناء طوال العصور القديمة . ولم تعرف بلاد بابل ، وقد خضعت للبرثيين قبل عهد اوغسطس بقرن ، تدفق السياح اليونان والرومان الذي اشتهرت به مصر ، لذا لم تتم اساطير هذه الانقاض العالم القديم كما انتشرت الاساطير التي اوجدتها الاهرام الكبرى او تماثيل منوت الضخمة . ولكن تظهر الدهشة في تعابير هيرودوتس الذي زار الاماكن ، كما تظهر في كتابات سترابون وديودور الصقلي اللذين لم يأتيا بها . وتحدثنا التوراة عن برج بابل الذي شيده جبروت بني آدم الذين توخوا « تخليد اسمهم » والحوول دون تشتتهم . ومنذ القرن الثاني عشر من عصرنا ارادوا ان يتعرفوا الى هذا البرج من خلال خرائب « بيت قواد السماء والارض السبعة » الذي كرسوه للاله نابو في بورسيبا : اذ ان كمية التراب المنهار الذي يبلغ ارتفاعها ٤٧ م هي اليوم دون شك اعظم آثار بلاد الرافدين .

ساعد الملوك بيدهم لتشييد الهياكل والابرار ذوات الطبقات . وقد الملوك والمباني الدينية وجدوا نصاً مسهياً يرتقي الى القرن الثالث ق.م . يعزو هذا القول الى ملك يوناني : « كنت اصنع ، بيدي الطاهرة ، ومن زيت في غاية النقاوة ، الاجر » لترميم هياكل بابل . وابدى اقدم ملوك بلاد ما بين النهرين تقوى ماثلة ، فاشتغلوا بالدوارة والمسطرة والحبل والمنكاش والممر ، واوعزوا الى رسمهم او نقشهم وهم يحملون على رؤسهم قفة مملوءة آجرأ . وكانوا يضعون في اساسات الهيكل ودائع ثمينة ويرفقونها بوثيقة تثبت تكريس مكان التشييد وتذكر الاجيال القادمة بعزمهم الخبير . وعند ترميم الهيكل كان واجب الملك الذي يرأس هذا العمل ان يطلي بالزيت وثائق اسلافه قبل ان يزيد عليها وثيقته الخاصة التي تدعو خلفاءه الى تبني هذه الاعمال التقوية وذلك بتهديدهم بأشد اللعنات ، اذ غدا لزماً ان يستدر عطف الالهة على الملك الذي هو وسيطهم امام شعبه .

وكان من ثم طبيعياً ان تحوي اسوار القصر الملكي نفسها بيوتاً للعبادة ان لم يكن هياكل ، مع نصوص ابتهالات وصور ارواح حارسة ورسوماً او نقوشاً تمثل طقوس العبادة او تقدمة

الذباح . ولقد وجدوا شيئاً من هذا في اقدم القصور التي سمحت اعمال التنقيب بدراستها ، كقصور اشنونا في بلاد أكّاد التي ترمقي الى اواخر الالف الثالث ، او قصر ماري على الفرات الوسط والذي دمره حورايي . ونجد في الفسحة حيث ارتفع قصر مرجون الثاني ، الذي بُني في اواخر القرن الثامن ، ستة هياكل مختلفة الاحجام ، بالقرب من الزقورات ، وقد اعتقد المتقنون في القرن السابق بان هذه المباني هي حرم الملك . وعلاوة على ذلك نجد بالجوار المباشر ، ولكن خارج هذه الفسحة ، هيكل آخر الحقوه بقصر آخر . فكان الملك يعيش والحالة هذه بمعاشره الآلهة المباشرة .

ان احدث اكتشافات الدور الملكية في بلاد الرافدين ، اكتشاف ماري ، القصر
ليس اقلها اهمية . فهناك مساحة تبلغ هكتارين ونصف احصوا فيها ٣٦٠ غرفة ، منها قاعات الحفلات التي تزينها الرسوم ، وغرف السكنى المجهزة تجهيز رفاهية ، ومكتبات المحفوظات ومكاتب العمل ، ومدرسة للكتابة ، والمخابر ، والمجان ، والمخازن والمصانع . ولكن لم يقتصر دون شك قصر مرجون الثاني في خرساباد الشهرة التي لا يزال يتمتع بها منذ قرون تقريباً . وبعد ان هجر لم يطرأ عليه اي دمار الا التخريب الذي انزلته به العوامل الطبيعية ، لذا سهل هنا عمل علماء الآثار اكثر من اي مكان آخر : وهو اليوم خير شاهد على العظمة والفخامة ، ولم يكن له في هذا المجال ، المركز الاول .

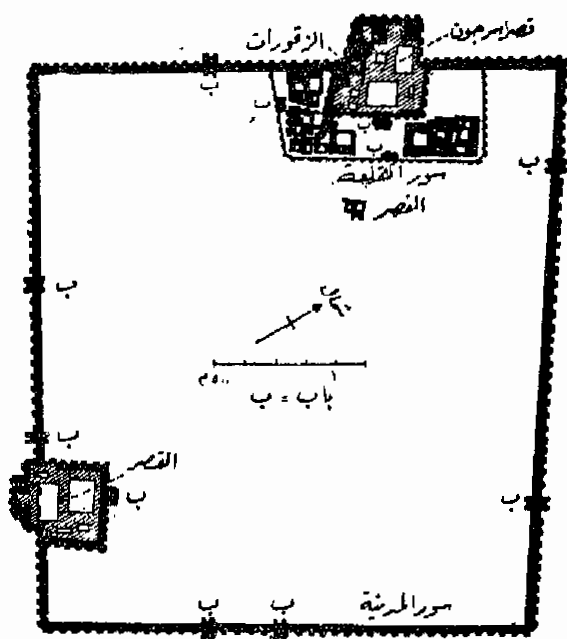
وشمخ هذا القصر على ارض مرتفعة امتدت على جانبي سور المدينة في الشمال الغربي . وبسبب تنوّه نحو الخارج غذا كأنه حصن دفاعي حصين . واتصلت الارض من جهة المدينة بمجموعة من المباني الاخرى تحدها اسوار محصنة اشد اتساعاً غدت كأنها قلعة مستقلة .

واذا انجبه المرء من المدينة الى القصر فانه ، بعد ان يجتاز القلعة ، يصل الى الرصيف بواسطة درج عريض يؤدي الى باب القصر الكبير الذي تحيط به الابراج . وخلف الباب غتد باحة مكعبة الشكل تقريباً ، يبلغ طول جانبها مئة متر ، وتعد هذه الباحة مركزاً للواحق القصر وحياته المادية ، يجتمع فيها الجمهور او أقله الحرس والخدم ، ومن حولها تظهر ابواب مستودعات المؤن المختلفة الانواع ، والاصطبلات والمطابخ . وعلى بعض المسافة ومن الجهة التي هي اكثر بعداً عن المدينة ، تتلاقى حول باحة كبيرة قائمة الزوايا المباني المعدة للسكن والادارة والحفلات : قاعة العرش خاصة ، حيث وجدوا قسمة السفلي ، وكان لها ثلاثة ابواب يفصل بينها عمودان هائلان على احدى جوانب الباحة الطويلة ، وبلغ طول هذه الغرفة نحو ٥٠ متراً ، وعرضها ١٢ م فقط . وهكذا نجد اكثر من مئتي غرفة تشرف بغية الهواء والنور على اكثر من عشرين باحة ، تارة كبيرة وطوراً ضيقة جداً .

مع الاهتمام بفن التزيين ، ويجب ان نعود الى هذا الموضوع ، لا يغربن عن البال الجنائن
سعيهم لتأمين الرفاهية . فقد وجدت في قصر ماري القديم كما في قصر تل برسيب

الاشوري الريفي (من القرن التاسع الى القرن السابع) غرف الحمام ، مجهزة احسن تجهيز ، وفيها المغاطس واكوار التسخين ، ولم تنقص المياه اذن وقد جلبت من محل قريب بواسطة القنوات او ، كما الحال في نينوى ، بواسطة قنوات تعلو القناطر .

لا بل توفرت المياه حتى غدا بالاستطاعة خلق جنائن غرست فيها الاشجار . وغدت هذه



الشكل ١٣

درر شروكين (جدار سرجون) خراباد اليوم
السور والمباني الرئيسية للمدينة التي شيدها سرجون الثاني حوالي اواخر
القرن الثامن ق.م.

الجنائن هدف احلام سكان هذه المناطق التي تقرب السباب ان لم يكن الصحارى ، وحيث تشتد فيها الحرارة . وكان يلزمهم حداثى يجوار الهياكل ليُسكنوا الآلهة في « بيت يفرح القلب » ؛ وقد ظن البعض بأنهم غرسوا الاشجار على طبقات الزقورات ؛ وعلى كل حال كان لمعابد كثيرة شيدت في المدن بيوت ريفية ألحقت بها ينقلون اليها الاله في بعض المواسم . وغدا ضرورياً ايضاً ايجاد بساتين على اقرب ما يكون من القصور لكي يشعر الملك بطراوة نضرة . وظن علماء التنقيب بأنهم عثروا في بابل على اسس « الجنائن المعلقة » وذلك في مجموعة من الغرف الضيقة جداً . واعتبرت التقاليد اليونانية هذه « الجنائن المعلقة » احدى عجائب الدنيا السبع !

ويقال إن الملك نبوخذنصر اعد لها ارضاً وزوجها التي اعتادت على الجنائن الملكية « الفراديس » في بلاد ميدي حيث كانت قد ترعرعت .

ان فن النقش ، ولو ادغموه غالباً في هندسة البناء ، بقي لها
الاصناف العمومية لفن النقش الخادم والمساعد الذي يقدم عوامل تزيين او يزيد بها غنى وجمالاً .
وفي هذا المجال ازدهاد دوره اهمية ، خاصة في القصور الاشورية . وحتى في هذه الحالة لم يكن
للزخرفة فقط وقد - والتقدير هذا في غاية الدقة - لم يقصد هذا الهدف : وعلى كل قصدوا من
اللجوء الى النقش ، اول الامر ، ارضاء عوامل مختلفة ، اذ لم تظهر قط للعيان بعض النقوش
وقد دفنوها في الارض . لذا لم يكن المجال المحرك لتلك النزعة الاولى ، بل وجب ايجاد السبب
في الافكار الدينية او ما شابهها .

وأرادوا من جراء نقش شخص ما ان يؤمنوا ، اطول مدة ممكنة ، حضوره حيثما وضع
- ولا شك في مكان مقدس - حتى تحرره الآلهة . كما انهم توخوا من نقش مشهد الذبيحة
والعبادة والتقدمة ، والمركة المظفرة او القنص الموفق احياء ذكرى هذه الافعال او تأمين
استمرار هذه الاعمال التقوية والمجيدة ، او بالاحرى استمرار العطف الالهي الذي كانت نتيجة
الاعمال الاولى وسبب الاخرى . وهكذا فان الانتاج الفني ، وقد لازمته الادعية والصلوات ،
لا بل غذا هو دعاء وصلاة ، حاذى حدود السحر وتعداها غالباً .

ولم تختلف هذه الفكرة في جوهرها عن زميلتها المصرية . ولكن ضيق مدى تطبيقها
التفاوت في الاعتقاد بحياة في العالم الآخر . ولم يتطلب القبر تماثيل تقوم مقام الموميا ، كما لم
يقدم جدرانها ليصوروا عليها رسوماً تحيي لليت المؤله افراح الحياة الارضية والثمار الختمية
للعمل الانساني . ولكن بقيت التماثيل والانصاب التي كرسوها للآلهة في الهيكل ، واستمرت
ايضاً النقوش التي غذا وجودها في القصور سبب نعم لساكنيها ، ولم تنقطع الادعية وان
خف عددها .

لا يعجب أحد ان خضع فن النقش هذا ، خاصة في عهده القديم ،
مقوماته لشروط معينة .

ولم يتم المتفان لظهار الجسم الانساني في تناسقه الطبيعي : وهو لم يمثل المرأة الا نادراً ، ولم
يتبع مبدأ العري الا نادراً جداً . وبالعكس فقد سلطوا انتباههم على الشباب التي - سوا
جدهم لظهارها بدقة : ففي اول العهد تنورة من شقف صوفية ، استلموها شكلها دون شك من
جلد الخروف وجزته ، ثم جبة طويلة مشدودة ومطرزة . وقد استرسلت هذه الاثواب حتى
الارض ، ولكن اعدت فيها ثغرة للرجلين . اما الذراعان فكانتا مطويتين عادة دون ان
تتحركا وقد لصقتا بالجسم . وهكذا صعب بتر الاعضاء اذ التحدث اتحاداً كلياً بكتلة التمثال .

ونبضت الحياة في الرأس بشكل اتضح أكثر فأكثر باستعمالهم حواجب اصطناعية من الزفت وغيوناً من الحجر الملون ، والصدف الابيض والمينا . ولكن لم يتسم الوجه الا نادراً جداً ، ورافقت غالباً عدم تأثره مسحة من السويداء ، ان لم يكن من الحزن : فديانة بلاد ما بين النهرين لا تسهل كثيراً أسباب السرور . وغدا الرأس عند السومريين ، دون جدال ، الجزء الرئيسي من التمثال ، وقد جعلوه نسبياً أقوى وأكثر ارتفاعاً من سائر اجزاء الجسم . وهلل غدا التمثال الصورة الحية لشخص معين ؟ ان التأكيد في هذا المجال يتنافى وملاحظات علماء العرق الذين اكتشفوا فوارق كبيرة بين الهياكل العظمية والتأثيل : فجمجمة هذه الاخيرة تتساوى طولاً وعرضاً ، بينما يفوق طول جمجمة الهياكل عرضها . لذا وجب الرضوخ الى بعض الحقائق المتفق عليها وآخرها — وهي التي تثير اشد استغراب — يؤكد بأن هناك أقلية عرقية قد احتفظت بالسيادة السياسية .

وكان على النقش البارز ان يتجانس مع فن الرؤية : أعني الاسلوب الذي اصطلحوا عليه لاطهار هذا الفن : وهكذا سمح المتفنن لنفسه ان يظهر الاشياء مرتبة فوق بعضها البعض ، وتراراً على شكل طبقات تفصل بينها خطوط ، مع انه كان عليه ان يبرزها على شكل يوحى بفكرة العمق . وعندما نقش المتفنن 'الانسان خضع لمبادئ تقرب من مبادئ النقش المصري . ولم ير الوجه بصورة مقابلة الا نادراً جداً وللأشخاص الالهية فقط . ولكن مع انهم ابرزوا الوجه بشكل موارب فانهم اظهروا مع هذا العين والحية بصورة مقابلة ، وقد لجأوا أيضاً الى هذه الوسيلة فيما يختص بالكفتين وأعلى صدر الانسان . وعندما طووا هذا الصدر ، وكانت ذلك نادراً جداً ، وبشكل غير كاف ، توخّوا الإبقاء على إظهار الذراعين بشكل موارب . وقد لجأوا دوماً أيضاً الى هذا المبدأ لإظهار الاعضاء السفلى ابتداء من الركب ، وذلك بدون اي استثناء اذ ساروا على هذه النظرية حتى عندما نقشوا البطل غيلغيميش بشكل مقابل .

ان فن النقش في بلاد ما بين النهرين ، خلافاً لما حصل في مصر ، لا يعتمد على شروطه التقنية اشغال عظيمة الحجم : وهو في هذا المجال على طرفي نقيض من فن الهندسة . وتتعد هذه الاشغال ، ان وجدت ، استثنائية وحديثة العهد نسبياً ، ولا يتعدى أي منها العصر الاشوري العظيم : وخير مثال كلاسيكي في هذا المظهر هو الثيران الهائلة المجنحة ذات الوجه البشري في خزساباد التي تبرز لنا عضلاتها القوية على جوانب قطع حجرية يفوق علوها اربعة امتار ، وزنها ثلاثين طناً . وبقيت المقاييس قبل هذه الفترة صغيرة نسبياً : واذ وجدوا في سلسلة تماثيل غوديا الكثيرة العدد انموذجاً يظهر فيه جالساً وقد زاد ارتفاعه ١٦٥٨ م عن طول قامة الإنسان العادية وصفاً هذا التمثال « التمثال الضخم » . وتفسير هذا النقص ، الذي يخف في بلاد الاشوريين ، هو عدم وجود مواد صلبة في بلاد ما بين النهرين السفلى ، وقد تأصلت هنا عادات بنائها الغير مع انه كان اكثر غنى في المواد الاولية . ويجوز لنا ان نضيف الى هذا

التفسير المادي تواضع الرجال ، والملوك ايضاً ، الذين لم يعدوا انفسهم آلهة ، امام عظمة القوى الالهية الساحقة . ولكن لعدم هذا الشعور عندما أرادوا تمثيل إلهة ما . فعلا تحمل الثيران المجنحة ، وهي ارواح حماية ، التاج ذا القرون ، رمز العظمة الالهية . ومع هذا فان قلة تحقيق مثل هذه الاعمال الضخمة تفيد على وجود مثل هذه الاعتبارات واحترامها .

ولا نجد كل هذه الاعتبارات لنفسها تحليلاً منطقياً ، كما تحقق لنا ذلك . ولكن مقدرة المتفنن التقنية هي فوق كل شبهة . انها دون شك لا تظهر دوماً على اكمل وجه . ولكن باكراً جداً ينتصر النقاش ، أقله في بعض الأماكن ، على اصلب مادة ، وهو يحقق بصبر وطول اناة ما يريد وما ينتظر منه . انه يرى ما يجب عليه ان يراه ويعبر عنه كما يريد ان يراه الغير ، ويهيمن دوماً عقله على يده عندما يعبر عن معطيات حواسه وغيلته .

يكتسب فن صنع التماثيل الأهمية الكبرى في اليهود القديمة . وقد عرفت فن صنع التماثيل الشهرة ، في هذا المجال مصنوعات قديمة عدة : وهي لم تكتسبها كلها الفني فحسب ، بل غالباً لغنى الأدلة التي تقدمها لنا عن معتقدات سكان سومر وأكاد القديمة .

ولا نجد الاعداداً قليلاً جداً نسبياً لتماثيل الآلهة ذكوراً كان أم اناثاً . ومن اشهرها تماثيل عثر عليه في قصر ماري وهو يظهر لنا إلهة مرتدية ثوباً مزركشاً وتضع على هامها تاجاً مستديراً يحيط به زوجا قرون ، وتمسك على بطنها بيديها وعاء ينسكب الماء من ثقبه - والتمثال فارغ الجوف - على الثوب : انها « إلهة الوعاء المتدفق » ، رمز الرفاهية والحضب الذي تجده مراراً بين يدي تماثيل الانسان .

ونجد ايضاً بعض التماثيل للأرواح الجارسة ، لا بل تماثيل للثور ذي الرأس البشري - وهو ممتو بهدوء - يكلل هامه تاج ذو قرون ، وتعبير نظراته عن الرصاة ، ان لم يكن الحزن . ومع تماثيل هذه الارواح ، نجد تماثيل كثيرة اخرى تعبر عن حيوانات مختلفة كالأكباش والأبقار الوحشية والأسود التي ترمز الى آلهة او تستدعي عطف هذه الآلهة على القطيع . ولا تخلو هذه التماثيل من ثقوب اعدت لتصبح مستقراً لقطع من صدف ، يتم معها ، ان هذبت ، الشبه التام مع رقطة جلد الحيوانات .

ونجد اخيراً وبصورة خاصة تماثيل كثيرة جداً ، صغيرة أو كبيرة ، للرجال . أما تماثيل النساء فهي أقل منها عدداً . وقد طويت الذراعان بصورة تسمح لليدين بأن تلتقيما على الصدر ، أو لاحدهما ان تستقر امام الفم : وهذه هي علامات الصلاة والعبادة اننا دون شك ازاء ملوك او عظماء ارادوا ان يؤمنوا بحضورهم الى الابد في الهياكل ويظهروا للإلهة تقواهم ، وخضوعهم لاولامها . وكليلاً يصبح اسمهم عرضة للنسيان ، فانهم غالباً ما يحفرونه على احد اجزاء التماثيل الملصقة .

لنكتف بسرد اشهر التماثيل . اولاً « قِتم » قصر ماري ، ايل - ايل . وهو قيم ماري ، غوديا منقوش في الرخام الابيض ، حجر ابيض لبن ، ونجا باعجوبة من كل خراب ودمار : ولكن مع هذا فقد فقدت رجلاه . ولا يرتدي الشخص ، وهو جالس على مقعد سلال ولا يرتدي الا قميصاً من صوف . وتلتقي يده امام وسطه العاري . ولم يس رأسه الذي يحوي كل العناصر التي تفرسها العيون والحواجب والاهداب ، تمدده لحية حريرية بينا حلق شعر الجمجمة والشارب . وتسدي هاتان العينان على الوجه حياة زاهرة ، تساعداهما على ذلك شفتان يعلوها شبه ابتسامة

ولكن علينا ان نتوقف اكثر امام مجموعة تماثيل الملك غوديا العجيبة ، التي عثر عليها في تلّو ، حيث ارتفعت لاغاش القديمة . ونعرف اكثر من ثلاثين تمثالاً من هذه المجموعة ، منها ما هو مكتمل الاجزاء ومنها ما هو مكسور . ويوجد منها نحو اثني عشر تمثالاً في متحف اللوفر وقد عثر عليها منقبون فرنسيون . ولكن لا يحوي هذا المتحف إلا ثلاثة رؤوس . وقد نقشت كل هذه التماثيل في حجر رلب جداً ، وفي غاية الجمال يميل لونه الاخضر نحو الاسوداد . ومع هذا يدل نقشها على مهارة لا غبار عليها . وتتراوح احجامها من ثلاثين سنتيمتراً حتى تبلغ مع التمثال « الضخم » ، الذي يظهر الملك جالساً ، نحو ١٥٨ م . ويبدو فيها الملك في مختلف مراحل سنيه ، فتارة في عهد صباه وطوراً في مكتمل العمر . ولكن يكفي ان نلاحظ بانهم يطلقون على احد هذه التماثيل صفة « صغير الكتفين » وعلى النموذج آخر منها « عريض الكتفين » لشك ولو قليلاً في حقيقة هذه الصور . ولكننا نجد في كل حلقات هذه المجموعة نفس العينين المفتوحتين ، والشفتين المنقوشتين نقشاً دقيقاً ، والذقن الطويلة المعكوفة . . وتكشف لنا هذه الاوصاف عن مزايا الشخص النسائية : فهو كان دون شك ذا ارادة وعزم . ولكن بما يسترعي الانتباه هو الصفة الكهنوتية التي تظهر مراراً كثيرة على ثيابه وجلسته . ويضم غوديا دوماً يديه ، ان ظهر واقفاً أو جالساً ، حاسر الرأس او معتبراً نوعاً من العامة . ويظهر دوماً وقد انحسرت عن كتفه وذراعه من الجهة اليمنى قطعة قماش كبيرة تمر من تحت ابطه ويغطي جزء منها كتفه اليسرى وذراعه حتى المعصم . ونجد في نفس الامكنة الشيا ذاتها وان قل عددها ولطف طيتها . ولكن في كل النماذج وتحت قطعة القماش السميك ، تبرز لنا الحياة في الجسم ، اقله في الجزء الاعلى ؛ ولا ينقص قط اي مثال شيء من الاناقة والكياسة . كما تظهر لنا البساطة بصورة مؤثرة ، مما تجسمت وخلافاً لكل مفهوم ، عظمة الشخص الذي يستجدي ويتنظر وحي الآلهة ليقوم بعمل ما وسط بني البشر .

لنكتف بقط فن نقش التماثيل في بلاد ما بين النهرين الى درجة النقش البارز . Bas - relief . كمال كهذه . انه لم ينقرض ولكنه نع هذا ترك المركز الاول في فن النقش الى ما دعوه النقش البارز .

غداً لنرى النقش البارز عند الملوك الاشوريين خطوة لا مثيل لها ، وقد تعاطاه الجمهور باكرأ

جداً على لوائح مصفرة ، او حصى (الكودورّوس Koudourrous) ، او اوان او نصب ، وكانت بلاهم غنية بالحجارة ، فاستعملوها بكثرة لتغطية جوانب الأجر ، خاصة جوانب قصورهم . وتفوق المساحة المنقوشة على هذا المضمار في قصر سرجون الثاني في خرساباد ستة آلاف متر مربع .

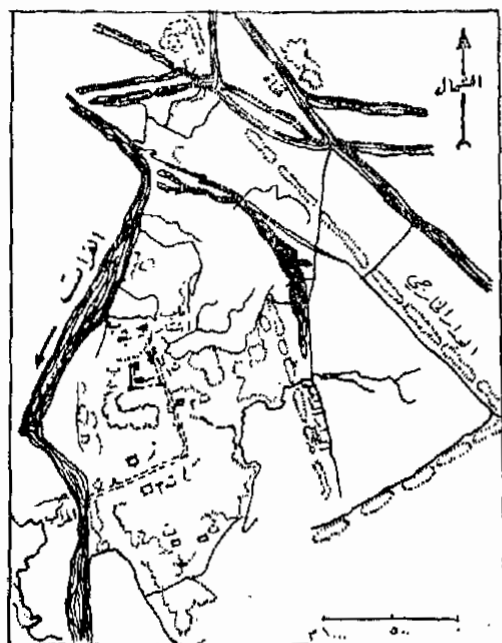
ووجدت هذه الآثار المنقوشة على مقربة من الابواب . وكانت تمثل هناك خاصة الارواح الخبيثة التي يحول وجودها دون دخول الارواح الشريرة . وغدا لوجود نقوش الابطال والحيوانات الحقيقية او الخيالية ممزى رمزي . ونقش هناك اغلب الاحيان نوعان من النقوش . الاول البطل غيلغيش الذي ينتصر على الاسد ويشده الى ذراعه الايسر ، بينما تحمل يده اليمنى سلاحاً معكوكاً يعد اصلاً للحسام ، والثاني الثور المخنح ذو الرأس البشري الذي ينتصب على ركائز الباب ، يدير نحو الزائر رأسه المهيّب على ما به من وسائم بشاشة وامن .

ووجدت النقوش ايضاً في الداخل على جدران الاروقة والقاعات . وكانت اقل دقة اذ لولا ذلك لانعدمت رؤيتها لقلة وسوء الاضاءة . وهي تمثل ارواحاً مجنحة خيالية برفقة الملك او وحدها ، ترش ماء التطهير بواسطة ثرة الصنوبر الطقسية ، نباتات اخرى ، مستديعية والحالة هذه على البلاد بركات الخصب . ونقش ايضاً العبيد وهم يعدون الحفلات حيث سيظهر الملك بكل عظمة . وهناك ايضاً نقوش قنص تظهر الملك وهو يخرق بسهامه او حربته ، من على عجلته ، الاسد الشرس ، او يسكه من لبدته ويغمد في بطنه الخنجر . وقد يمثلون الملك ايضاً وهو واقف على عربته يجارب في الصف الاول من جيوشه ، وهو على احسن هندام ، وقد جمعد شعر رأسه ولحيته بكل عناية . وكثرت مشاهد الحرب والمعامع والحصار والهجوم ، كما تعددت ايضاً مشاهد التقتيل والموتى وجموع الاسرى والامم المسبية او دافعي الجزية الذين غلبوا على امرهم .

ولطفت من حرمة التقاليد المقدسة حرية في الوحي التعبيري ، لا بل خففت حدة هذه الحقيقة الواقعية القاسية ، ان لم نقل ايضاً الواقع الطبيعي القوي . ولكن استمرت تلك التقاليد على شدتها عندما مثلوا الملك او حاشيته المباشرة ، او عربته واحصنته وخدامه . ولم يفرقوا قط شخص الملك عن اصول اللياقة هذه التي استطاعوا ان يقللوا من اهميتها عندما نقشوا الجنود والاعداء والمواطنين والذين قهرهم في الحروب .

وعبرت هذه النقوش النافثة من ثم احسن تعبير عن التقارير المظفرة التي كان يقدمها الملوك للآلهة عن معاركهم : ولم يكن الاشوري ، حتى عند عرضه قساوته ، باي تحفظ . ولا تبليغ هذه الاعمال من حيث الفن درجة الكمال . ووجب الاسراع بالعمل لبث الحياة في انصاب شيدت بسرعة وذلك بواسطة هذه الرسوم . وقد استعملوا احجاراً لينة ، كحجر الكلس والرخام الابيض . واشرف على ادارة الاعمال رجل فن ، ولكن انجزها نفر من العملة ،

ولوحظت اخطاء في التنفيذ. ولكن مع هذا استطاعت القرحة ان تكشف عن نفسها من خلال وضحة فنية : فيطلق الخيال نداء مستعملا يده كبوق ، او في الخيم تعتني الوالدة بابنها او يحمي الصبي الجنود . وقد بلغ الكمال حداً فائقاً بعض المزارع أيضاً، خاصة في درس و اظهار الحيوانات . وفي هذا المجال



يحتوي المتحف البريطاني روائع زاهية صادرة عن قصر اشوربانيبال في نينوى ، منها اللبوءة المجروحة وهي تجر مؤخرتها المثقلة بالسهم بينما ينفجر من شدتها صراخ الالم الشديد . ويشكل هذا النموذج اروع واشهر وحدات هذه المجموعة التي لن تنسى .

لم يكن النقش
التزيين المرسوم
البسائر إلا
والمزخرف بالبناء
وسيلة للتزيين

من ضمن وسائل أخرى متعددة :
إذ كانت من المناسب ان لا
تطفئ الوتيرة الواحدة على
مسافات كبيرة .

ولهذه الغاية لجأ القوم الى فن
الرسم بالالوان . ولكن لم تحفظ
نماذجه جيداً لسرعة زواله .

الشكل ١٤ - بابل عشية الفتح الفارسي (٥٣٩ ق.م.)
ب ، القصر ، القصر في الجهة الشمالية القصوى ، ويشمله الجدار
الخارجي وهو قصر نبوخذ نصر المصيفي ، ت ، الهيكل ، ب ، ت ، ٢ ،
هيكل لإشطار ؛ ت ، ٣ ، هيكل مردوك - زقورات مردوك .

واننا نجد فقط بعض آثار هذا الفن في اكبر وافخم العصور ، وقد اكتشفت لسوء الحظ في زمن لم تبلغ فيها اعمال التنقيب كالا تقنياً . لذا وجب انتظار اعمال التنقيب في ماري ، عشية الحرب الكبرى ، ليسهل درس بعض النماذج المهمة ، ان لم يكن اقله جمعها . وتمثل تصاوير ماري ، وان عسر تفسير دقائقها ، مشاهد دينية كطقوس العبادة وتقديم الذبائح . ولكن في قصر تل برسيب الاشوري الريفي استطاعوا ان يتحققوا من وجود رسوم تمثل رسوماً شبيهة برسوم الدور الملكية الكبرى : الصيد والقتال وصفوف الجنود .

وعلاوة على ذلك فقد طليت هذه الرسوم بالالوان ليزيدوا من دقة وجمال الاشكال ، كما انهم

استعملوا الالوان ليضفوا على الآجر الاسمر نوراً وبهجة . وهكذا نجد مساحات واسعة باللون الاصفر ، والازرق الخفيف ، والاحمر والابيض النخ ، عليها رسوم ورود وزهيرات وحيوانات لا تتجاوب غالباً ألوانها مع الالوان الحقيقية .

ولكي يجعلوا في الخارج الالوان اكثر ثبوتاً لجأوا الى مبدأ تزيين الآجر بالمينا كما تقتضيه الاشكال المرسومة . والتحقيق في هذا المجال الذي يدعو الى الدهشة اكثر من سواء هو تزويق باب هيكل إشتار في بابل . ولا تزال انقاض هذا الباب الى يومنا وهي ترتفع الى ١٢ متراً . وقد لوّن كل شيء قديماً ، ولكن دون تشابك الالوان تشابكاً مفرطاً . وكانت الالوان خفيفة . ولوّن الجزء السفلي بالازرق عادة ، اما اعالي الحيطان ذات الشرافات ، فاعطيت ألواناً زاهية تخترقها خطوط من ورود وازهار . وعلى جوانب الابراج والعمد رسموا بصورة نافرة ثلاثة عشر صفاً متضدة تضيداً تشابك فيها الثيران والتنانين ذوات رأس الحية المقرّن ، يتعاقب فيها حيوان ابيض وحيوان اسود . وغدا الباب نفسه نقطة نهاية لطريق تصلح لمسير الاحتفالات ، حصرت بين اسوار منيعة ايضاً ، تزينها اسود يظهر رسمها المطلي بالمينا نافرأ على الخط العمودي . وقدروا بأنه قد رسم نحو ١٢٠ اسداً و ٥٧٥ تيناً وثوراً على هذه اللوحات الدفاعية وذلك بشكل فني يدعو الى الغرابة وان هو لم يخل من بعض الدقة . وتشابكت في هذا المجال اساليب التلوين وتجاوز الحقيقة المعالي فيه واللجوء الى رموز الآلهة الحارسة مع الهندسة الدفاعية النفعية . واستقى دون شك فن تشييد القصور الفارسية من بابل فكرة الافاريز المطلية بالمينا .

لا يجدر بالذكر ، من بين الفنون الثالوية ، إلا فن النقش على الحجر ، وذلك فن النقش على الحجر
لكثرة ما تركه من آثار ، تحوي المتاحف للمجموعات الخاصة آلافاً منها ، إذ كان يملك كل شخص ، شرط ان يبلغ منزلة اجتماعية ما ، خاتماً يحل الرسم المنقوش عليه محل توقيع الفرد على المعاملات التي يكون فيها فريقاً او شاهداً . وغدا هذا الخاتم الحامل بمثابة تعويذة : اذ كما احتوى كل اسم علم على اسم آلهة ما ، غذا طينياً من ثم ان يمثل الخاتم روحاً حارسة ، او حيواناً رمزياً ، او اسطورة ميثولوجية ، او مشهداً تقوياً ، او طقساً يقضي على نفوذ الشياطين الشريرة . ورافقت كل هذا غالباً خطوط كتابة تشدد او تقل وضوحاً .

وحفر الرسم بشكل مقعر حتى يظهر نافرأ على الحزف حيث يطبع . ولهذا الغرض استعملوا حجراً منتخباً ، كاللازورد والعقيق وحجر الحية وحجر الدم النخ ، فحصلوا على اختتام مسطحة ونحروية او نصف كروية ، او خاصة على اسطوانات تحمل ثقبا على خط محورها للرباط الذي يوثق به . ان درس مثل هذه الاشياء يحمل في طياته غالباً فائدة دينية كبرى . وكما يبدو وصلوا الى قمة الفن في هذا المجال حوالي اواخر الالف الثالث عندما اظهر المتفننون حذقاً خصباً في الابداع ، وحساً مرهفاً في الخلق المتزن ، ومهارة تقنية فائقة . ولكن اذ

كثير الطلب فيما بعد عمدوا الى صنع هذه الاشياء بصورة متواصلة ومتسلسلة مما دعا الى العمل بسرعة فانتفت الجودة

ان درساً شاملاً لفن بلاد الرافدين يستدعي فقرات اخرى كثيرة للبحث في الآنية ، والمعادن ، واليابس والاثاث الخ ، ولكن لن يظهر هذا البحث شيئاً جديداً اذ ان المصنوعات في هذه المجالات المختلفة لا تقدم لنا العظمة والجودة اللتين وجدناها في النماذج التي اتينا اماماً على ذكرها - هذا ان توقفنا عند النتائج الحالية للاكتشافات الاثرية التي تخضع لعوامل المصادفة وامكانية حفظ الاشياء .



الخلاصة

اننا دون شك ، ومهما كانت الاعتبارات ، امام حضارة زاهية من حيث ما حققته ومن حيث مدتها . وهي زاهية ايضا لما اسهمت به في الحضارة الانسانية العامة والتوجيهات التي وهبتها لمعتقدات واعمال بعض الحضارات القديمة .

انها تفتقر عادة الى عوامل الاغراء والجمال والطلاوة ، ولا نجد فيها الا مكانا ضيقا للسخرية والفرح . لا بل ان القساوة والكربة المتأصلتين فيها منذ القدم لا تستميلان النفس ، كما لا تؤثر فيها الشراسة المقصودة التي يظهرها الاشوريون وكثيراً ما تلامس عظمتها فظاظة غير انسانية ، حتى غدت هذه الصفة من مقوماتها المستديمة .

ولكن لن ينكر احد على هذه الحضارة قوتها على التنظيم الجماعي او الابتكارات التي اوجدتها في صلب هذا التنظيم بالذات . وبموجب هذه المبادئ يذوب الفرد في المجموعة التي تدينه العذاب والهوان : ولا يستطيع المرء في هذا المجال ان يتغاضى عن الحقيقة . ولكن يبدو هذا الواقع اخف وطأة مما هو في مصر ، وعلى كل حال يتجه اتجاهاً مختلفاً ، لان عبادة الموتى لا تحظى هناك باهمية كبرى في الدين ، ولان الملك لا يعد هنالك ايضاً في مصاف الالهة . لذا فان لانصرار الفرد في بلاد الرافدين بالمجموعة الاجتماعية الذي تفرضه عقائد اخف وطأة مما هي في مصر ، وقمّا اقل شدة وقساوة . وهذا ما يفسر لنا مداورة كيف ان الفرد في بلاد ما بين النهرين احتفظ بقسط قليل بمبدأ حرية العمل مع خضوعه لمقتضيات الجماعة وللأوامر الالهية ، ومع خوفه من التهديدات والأشراك السرية التي تحيط بحياة الانسان وسعادته .

واستغل الفرد هذه المواقف التي لا تتصل كلياً بالعدم كما هو الحال في مصر . ولم يحمله ذلك طبعاً على تحليل وفهم الحوادث والمظاهر التي اعتقد مبدئياً بانها لا تخضع لاي قياس منطقي . ولكنه استباح لنفسه اقله ان يراقب . لا بل سار على هذا النوال لإعتقاده المتين بحقارة الانسان وبالتفوق الساحق الذي تملكه القوى التي تهيمن على مصير بني آدم وتفرده . وهذا ما حدا بسكان بلاد الرافدين الى المراقبة وتدوين ملاحظاتهم بكل حماس . لا بل نفس عندهم الجد والدقة والمثابرة على العمل . وكلها عوامل قادتهم الى تخوم بعض العلوم المباشرة . وسيحصد الورثة ثمره جهودهم ، ولكنهم سيتبعون طرقاً اقل حكمة ، وان كان ذلك بصورة اللاوعي ، واقل تواضعاً ومثابرة ، مما يحملهم على ارتكاب اكثر من خطأ .

آسيا الصغرى وإيران

لم يشمل الشرق الأدنى ، باستثناء مصر وبلاد ما بين النهرين ، مساحات شاسعة من الاراضي الخصبة ، إذ لم توجد فيه انهار كبيرة ذات فيضانات رسوبية . ولم تستهو هذه الاقطار بني آدم . وعندما كانوا يجتازونها لم يفرح شيء للاستقرار فيها وتكوين جماعات مستديمه . وهكذا لم تظهر فيها حضارات متطورة إلا في زمن لاحق جداً . لا بل هناك عوامل كثيرة اخرى لهذا الواقع سببتها على مدى واسع قلة عطاء الارض . ولم تبلغ قط اي من هذه الحضارات عظمة وقوة ومدى حضاري مصر وبلاد الرافدين . ولم تجد اي منها مهداً فسيحاً ينتج خيرات مماثلة لخيرات هذين القطرين . وهكذا فانها لم تلد بصورة عفوية كما غدت الحال هناك ، ولم تمير بشكل نقي عن الفضائل والميول الخاصة بشعب معين . فبرزت من ثم هذه الحضارات مركبة العناصر ومتشعبة الاصول لانها نشأت عن احتكاكات ولدتها سيول الهجرة او المبادلات التجارية . وغدت هذه الحضارات اكثر ميوعة واقل ديمومة . وقد ثابت كلا منها نواقص كثيرة ، ولم تملك مجتمعة او منفردة الامكانيات المادية او المعنوية او الوقت للتنطب عليها . ولم تترك هذه الحضارات للخلف في الزمان والمكان إلا إرثاً اقل عظمة وكالا إذ غدت هي نفسها في كل المجالات دون الحضارتين اللتين سلف ذكرهما شروفاً ونبوغاً . ونتيجة لهذه الحقيقة خلفت آثاراً دون آثارهما : ولا تزال الى يومنا هذا نستشف جوهرها جاهلين مقوماتها وذلك مع ما حققته العلوم الاثرية واللغوية من اكتشافات باهرة .

وتتصل بعض هذه الحضارات بدول شجعت همتها القوى لتدعيم مركزها الداخلي او توسيع مداها الخارجي لتحافظ على كيانها ، وذلك على غرار ما جرى لزميلتيها في مصر وبلاد الرافدين . وهكذا نجد انفسنا مضطرين لجمعها معاً هنا وان اختلفت عناصرها واهدافها . واستناداً الى النجاح الكثير او القليل الذي لاقته فاننا نضفيها مع الحضارات التي يمكننا ان نطلق عليها لقب الحضارات الامبراطورية ، ولكن شوائبها تقلل من مدى اهميتها الجوهري

والنسي . ومع هذا تتفصل واحدة منها عن المجموعة وان كانت تشارك سائر زميلاتهما بتلك السمات . ومع انها كانت الاخيرة من حيث زمن ظهورها فانها فرضت مع ذلك سيادتها السياسية على ابعد مدى ، حتى انها اخضعت لسيطرتها مصر وبلاد الرافدين . انها الحضارة الايرانية او بالاحرى الفارسية .



الفصل الأول

الحضارة الحثية

جرت العادة على تسمية شعوب آسية الصغرى القديمة « الشعوب الآسيانية » . وتدل هذه التسمية على جهلنا حقيقة تلك الأمم ، اذ يتعذر علينا دمجها مع الساميين او مع الهندو - الاوروبيين . ولا اهمية ان ابتكرت هذه الشعوب حضارة زاهرة ، كما فعل السومريون الذين لا يزال اصلهم العرقي مجهولا . ولم يحصل هذا إلا بعد ان توطن فيهم أثر سكان بلاد الرافدين والهندو - الاوروبيين . عندئذ فقط ، وابتداء من اوائل الالف الثاني تقريبا ، ظهرت دول منتظمة كالامبراطورية الحثية ومملكة ميتانتي الحورية .

يصعب تعيين حدود هذه الدولة او تلك لأنها كثيراً ما تغيرت ،
الحضارات الحثية والحورية :
وتأخذت دوماً الامبراطورية الحثية مركزها في الجزء غير الايجي
الخطوط الكبرى
من الاتحاد الاناضولية : وغدت عاصمتها مدينة خطوش (بوغاز -
كي الحالية) الواقعة داخل المنطقة التي يكونها منعطف نهر كيزيل - (إرمك) الذي عرفه
اليونان باسم « هاليس » . ولكن اتسعت هذه الامبراطورية كثيراً نحو الجنوب - الشرقي حتى
امتدت الى بابل في بعض اطوارها . ونجد الحوريين ، في أزمنة مختلفة ، في كل من نواحي بلاد
الرافدين الشمالية الممتدة من جبال زغروس حتى شواطئ البحر الابيض المتوسط السورية .
ويطلق اسم الميتاني خاصة على منطقة منعطف الفرات حيث كان لمصريي الامبراطورية الجديدة
علاقات كبرى مع الحوريين : وفي هذه الحقبة وتلك المنطقة فقط شيد الحوريون دولة عرفت
بعض الاهمية والاستمرار . ولكن منذ السلالة التاسعة عشرة خضعوا لسلطة الحثيين وانقرضوا
تماماً تقريباً . لذا يصعب علينا من ثم التفريق بين حضارتهم وحضارة الحثيين التي قد تتوفر لنا
فعلاً عناصر معرفتها بعض الشيء .

واساس حضارة الشعبين هو آسياني . وبدأت الاحتكاكات مع بلاد الرافدين تدخل الى
هذا الشعب او ذاك بعض العناصر الثقافية ، خاصة استعمال العلامات المسهارة للكتابة ، ويرتقي
هذا الواقع الى اواخر الالف الثالث . وقد اتخذ هذا التغلغل مدى واسعاً كما يشهد بذلك وجود

جاءت من التجار الاشوريين في بلاد كبادونية . ولكن في هذه الفترة أتت بعض العناصر الهندو - الاوروبية - من تراقية دون شك - الى بلاد الاناضول ، فتلاقت مع حثيتي المناطق الشرقية وحموري المناطق الشمالية الشرقية . وتزايدت هذه الجماعات مع الزمن حتى انتهى بها الامر الى تكوين فئسة ارسوقراطية حاكمة ، خاصة وقد جلبت معها الحصان الذي حقق لها استعماله تقوفاً حربياً لا يُعادله فيه . واستأغت هذه القوى لنفسها اذ ذاك شن غزوات جريئة ، لا بل تشييد امبراطورية حثية . وفي القرنين الرابع عشر والثالث عشر تفوقت هذه الامبراطورية على دولتي البابليين والاشوريين المنفصلتين واقامت توازناً للقوى مع مصر . وفي هذه الفترة اوجدت العلاقات الدبلوماسية والحربية احتكاكات جديدة مع حضارة بلاد ما بين النهرين وعرفت الحضارة المصرية التي كانت قبلاً بعيدة جداً .

وبعد ذلك حصل الجزر ثم التضضع واخيراً الانقراض السريع او التدريجي . ولكن بقيت لنا نصوص ونقوش تشهد بهذه العظمة القصيرة العمر . ولم تفسر بعد كل هذه النصوص ، وان كان قد اميط اللثام منذ ثلاثين سنة عن سر بعضها التي كتبت بالخط المساري فلا يزال العلماء يتعذرون لحل رموز تلك التي كتبت بالخط الهيروغليفي . ولكن من الممكن مع هذا ان تأتي على ذكر حضارة اظهرت الصفحة الحاطفة التي سبقت معالمها المتشعبة الاصول .

الدولة تستند الدولة الى أسس اقل متانة وتنظيماً مما هي عليه في مصر وبلاد الرافدين . ان هناك بالتأكيد عرى وثيقة تربط السلطة الملكية بالآلهة . انهم يستجدون نبوءات عراني الآلهة في الشؤون العامة ، ويمثلون الآلهة وهي تقبل الملك والمملكة . ويصبو الملك نحو تأليه نفسه لرغبته في التشبه بفرعون مصر : فهو يتخذ لنفسه حوالي منتصف القرن الرابع عشر ، لقب « شمسي » ، ويصبح بعد موته موضوع عبادة ، ويتقبل التقادم الغذائية المخصصة للآلهة . ولكن لم تبلور قط عملياً هذه المنزلة الدينية بسلطة ملكية مطلقة .

ونجد الى جانب الملك جهازاً يرجع أساسه الى اصل هندو - اوروبي : اعني المجلس الذي يؤلفه افراد من الطبقة الحاكمة . ويقرر هذا المجلس قيام ملك جديد ، ويخلف بين يديه عين الوفاء ولكنه يتقبل من العاهل عهداً مائثلاً . ويسمى الملك لتدبير خلافته على العرش وهو بعد على قيد الحياة . وتوصلاً لهذه الغاية يقدم ابنه للمجلس ويستحصل مسبقاً من هذه الهيئة على عين الطاعة . ومع هذه الاحتياطات فقد اثار هذا النظام اضطرابات سلبية : وقد حصل منها ما اضعف الدولة الحثية . وتعبّر عن تفوق هذا المجلس المبدي امتيازاته القضائية : إذ هو يفصل بالدعوى التي تساق على اعضائه وعلى اقرباء الملك .

وتستثنى اجزاء شاسعة من الدولة من ادارة الملك المباشرة . ويستثمر الملك مباشرة بعض الاراضي ، وهو يتسلم عائدات ويفرض اعمال السخرة . ولكن عليه ان يحسب حساباً لجماعة الهياكل التي تتمتع بالحصانة ، واللكاهن الاعظم ، في الاوساط الدينية الكبرى ، الذي يتمتع

ايضا بسلطات مدنية وهناك ايضا الامراء الاقطاعيون الاتباع ، يعقد معهم الملك معاهدات تضمن لنزيتهم السيطرة لقاء طاعتهم . ويوجد اخيرا النبلاء الذين ، في اوقات الحرب ، يجمعون فيرق الجنود من سكان اراضيهم ويؤمنون قيادتها ، ويطالبون من ثم يجزء من الغنائم . وللملك جنوده الخصوصيون ، ومنهم المرتزقة ، ومنهم المواطنون الذين يهبهم لإقطاعات من الارض ، اذ تجري التعبئة بصورة بطيئة ويجب الاحتفاظ من ثم ، على تحنوم الدولة المعرضة للخطر ، بحاميات مستديفة في الحصون حيث يوجد حكام يمثلون الملك .

لدينا مجموعتان من القوانين الحثية وضعت على غرار بلاد ما بين النهرين واوجدت الحلول لمشاكل مماثلة . نملك ايضا عقودا تشريعية حورية . ولم يأت النظام التشريعي بشيء جديد ، وقد تأخر بحضارات أودية دجلة والفرات .

ويظهر لنا كل هذا مجتمعا لا يختلف اختلافا اساسيا عن مجتمع بلاد الرافدين من حيث نظام الاسرة والمهر والطلاق والتبني . ومنع هذا لا بد من الاشارة الى اختلافات هامة . وما يجب ملاحظته في اول الامر هو ان وجود طبقة حاكمة وحربية ، شبه اقطاعية ، يفرض تعاونا اجتماعيا يعادل على ما يبدو تفاوتاً عرقيا . ويدعى افراد الحرس الملكي عند الحوريين «مارياني» وتشق هذه الكلمة من كلمة مارياء الهندو-اوروپية التي تعني «البطل» ويتحكم هؤلاء المحاربون بعملة ممتلكاتهم ، ومعظم هؤلاء من «المسييين» ذوي نظام اجتماعي أقل شأنا . ونلاحظ ثانيا بان القانون الجزائي هنا هو اخف وطأة من قانون بلاد ما بين النهرين ، وهو يعتمد اكثر على مبدأ الغرامة او التعويض ، الذي يتخذ له مستوى قاسيا جدا . وهكذا فلا تعاقب قط السرقة عند الحوريين بالموت ، ولكن قد يبلغ التعويض ما يوازي ٢٤ مرة قيمة الشيء المفقود . والعقوبات الجسدية هي اقل عددا واكثر ليونا . ويزداد هذا الفرق ، المألوس منذ القدم ، قوة مع التطور والزمن .

وتستفيد الحياة الاقتصادية من معطيات زميلتها في بلاد الرافدين ويمارس القوم اعمال التبادل والقروض حسب نظم مختلفة ، مع وجود مبادئ الكفالة والرهن الخ . وعلى ما يظهر نشطت جدا التجارة في مختلف مرافقها . واستحال عكس ذلك في مناطق اعددها وضعها الجغرافي لتلعب دور الوسيط بين سواحل البحر الابيض المتوسط . من جهة وبلاد ما بين النهرين وايران من جهة اخرى . وغدا الحديد خاصة مادة تصدير كبير نحو المناطق الشرقية والجنوبية ، وقد استخرجوه من آسية الصغرى وزاد في استعماله كثيرا الهندو-اوروبيون ؛ وكما حدث للقوانين البابلية والاشورية فقد حدد التشريع الحثي الاثمان المفروضة لبيع المنتوجات الزراعية والحيوانات ، وبدلات المثل للخدمات والادوات وفائدة القروض ، ولكن ارتفعت جدا قيمة المعدن الثمين وفائدة القروض ، اقله في الواقع .

الفن والدين غدا الحثيون بناء عظماء . ويظهر موقع عاصمتهم آثار أسوارها ، وآثار
مبان أخرى مهمة ، ولكن يصعب تحديدها ، وجدوا ، أيضاً في المدن المقدسة
آثار الهياكل . واعتمد القوم كثيراً على النقش . وقد وجدوا ، علاوة على نقوش الأرواح الحارسة
التي تحمي الأبواب كما جرت العادة عند الآشوريين ، نقوشاً على الصخور . وهي تبدو عظيمة
ولكنها غير كاملة ، تمثل آلهة منفردة أو مواكب دينية . ويظهر لنا أشهرها مجموعة من أربعين
ذكراً تتقدم نحو صف من عشرين أنثى أو أكثر : وقد نظم الأشخاص في كلاً الصنفين حسب
الدرجات ، ففي الامام نجد الآلهة الكبرى ، تليها الآلهة الثانوية ، ثم يتبع رجال الكهنوت .
ولهذه النقوش الكبرى فائدة إذ تقدم لنا معلومات عن الديانة ، بالإضافة إلى الدلائل التي تحويها
النصوص في هذا المجال .

يحتوي الزون (البانتيون) الحثي على آلهة كثيرة العدد جداً . وبعد أن يعددوا أسماء بعض الآلهة
في المعاهدات السياسية يستغيثون « يا آلهة الحثيين الألف » : ويذكرون هذا العدد الاجمالي دون
شك للتأكد بأنهم لم ينسوا أي إله . ومع هذا يولد هذا العدد الكبير الحيرة . وفعلًا اقتبس الحثيون
آلهتهم من مختلف الجهات . ولكن لا يعود أكبر عدد من هذه الآلهة وأهمها إلى أصل أسيوي ،
ونحن غالباً ما نجهل اسم الآلهة الحثي ، إن لم نقل الحوري ، هذا مع العلم بأن الهنـدو — الأوروبيين
قد جلبوا معهم بعض آلهتهم كـ «مترا» مثلاً ، وبأن الحثيين اقتبسوا أيضاً بعض آلهة زون
(بانتيون) بلاد الرافدين كإشتار .

ونجد على رأس هذه اللائحة زوجين من الآلهة حيث تتولى المرأة الصدارة دون شك . إنها
الآلهة — الشمس ، وبصورة أوضح « شمس أرينتا » وقد اتخذت اسم المدينة ، حيث شيد أشهر
معابدها ، ولها حيوانان هما اللبوء واليامة ، ورفيقها هو إله العاصفة الذي يصبح بالوقت نفسه ،
هنا أو هناك أقله ، إله الحرب . ويمثلونه برفقة ثورين وترمز إليه الصاعقة أو الفأس أو الحربة أو
مجموعة من الأسلحة . ولكن مع الزمن والتطور تأتي على أوليته إلهة أخرى ، هي بالأساس ابنة
الزوجين المذكورين أعلاه . إننا هذه المرة أمام الآلهة الفتى الشمس الذي يظهره لنا دون حياء ،
ولا يترددون من جعله عشيق والدته ، عندما يعتبرون هذه الأخيرة إلهة الخصب .

وتتأثر العبادة والكتب الطقسية تأثيراً كبيراً بزميلاتها في بلاد ما بين النهرين . فهم يقدمون
الذبائح — وقد يقوم غالباً بهذا العمل الملك نفسه — وينظمون المواكب ، كالملوك الذين يظهره
النقش الذي أشير إليه أعلاه والذي يمثل إله العاصفة وهو يتقدم نحو الآلهة — الشمس . وما
الأمراض والمصائب إلا قصاص ترسله الآلهة : لذا وجب على المرء ، لتهدئة الآلهة ، أن يتطهر
جسدياً ويقدم الذبائح وينطق بالصلوات والعبارات الطقسية . وللسحر مركز مرموق كما أنهم
يقبلون على مراقبة النجوم ، وزجر الطير ، والتدقيق بكبد الذبائح ليستندوا من هذه الطقوس
على المستقبل .

لا تستوجب الديانة الحثية الانتباه لكونها تمت الى اصول عدة فحسب ، بل ايضاً لانها تلقي الانوار على مصادر بعض العبادات والطقوس التي نعتز عليها في امكنة اخرى وازمنة لاحقة .

وسنجد إله العاصفة ، المدعو تيشوب عند الخوريين ، والذي نجعل اسمه الحي ، في سورية باسم حدد وفي فينيقية باسم بعل . وسيصبح الاله حدد - بعل في مدينة دوليخه *Doliché* (بلاد كوماجين *Commagène*) الذي يحتفظ بالثور والفأس الإله زوس - دوليخانوس *Zeus Dolichénos* ليوناني المهد الحليني ، ثم الاله جوبتير دوليخانوس *Dolichénus* للرومان ؛ وبهذا الاسم ستمتد عبادته الى كل المقاطعات .

وحسب كل الظواهر فان الإله الكبرى التي فقدت بصورة تدريجية صفتها الشمسية ليست إلا « الوالدة الكبرى » ، الإلهة الرئيسية لكل آسية الصغرى تقريباً ، « مروضة الحيوانات المفترسة » ، خاصة الاسد . وقد اطلقوا عليها اسماء عدة وعرفت تغييرات كثيرة . فدعتها نصوص فينيقية قديمة باسم كويابا . وستصبح كيبييه عند الليديين ، وسيبلة *Cybele* عند اليونان . وستجلبها رومة ، منذ أواخر القرن الثالث ق.م . من مدينة بسينونت في فريجيية ، المركز الرئيسي إذ ذاك لعبادتها . وستعرف اتساعاً كبيراً في الامبراطورية الرومانية . ولكن عبادتها الآسيوية ، كانت هذه الإلهة قد أفرت في ديمتير اليونانية ، وذلك قبل ان يشعر اليونان بزم كثير باغراء عبادتها الآسيوية . وسارع الفرس ، منذ ان اتوا الى آسية الصغرى ، ان يساوا بينها وبين إلهتهم انهيता *Anahita* .

ووجد الاله - الابن الفتى في الديانات السامية : وقد عرفه اليونان في فينيقية باسم ادونيس . وبهذه الصفة اجتاز البحر الابيض المتوسط منذ القرن الخامس ق.م . ولكن ستعرفه اوروية ايام الامبراطورية الرومانية باسم أتيس خاصة وقد دمج مع والدته - وهي حبيبته في الوقت نفسه - سيبلة .

واخيراً اي تفسير نعطي لوجود بعض التقاليد الدينية التي عرفها الحثيون في مدينة رومة وذلك منذ أقدم الازمنة ؟ أحصل الامر عقواً ام كان وليد اعمال نهل مستقلة ولكن من معين واحد مشترك عرف مدى اتساعه شوائب غريبة ؟ ففي رومة سعى القوم ايضاً لقراءة المستقبل من خلال كبد الذبائح وزجر الطير ؛ واستعمل العرافون العصا المنحنية ، الليتوس *Lituus* التي كان الحثيون يضعونها بين يدي إله الزوبعة والملك الذي يقوم بالخدمة الدينية . ومن غير المشكوك فيه بان رومة عرفت كل هذا من الاتروسكيين *Etrusques* : وبما ان هؤلاء قد اتوا من آسية الصغرى نحو ايطالية ظن البعض بانهم وجدوا فيها الحلقة التي كانت تنقص السلسلة المشدودة .

وعلى كل ، حتى ولو لم نأخذ بهذه النظرية ، فاننا نجد بأن الحسين ، وبصورة ثانوية حوربسي
ميتاني ، قد لعبوا دوراً هاماً في نشر المعتقدات الدينية . ولم يكتف الحثيون بالمحافظة على
الاساس الآسياني واقتباس بعض العناصر من بلاد الرافدين بل سهلوا انتقال كل هذه المعالم الى
امكنة اخرى على سواحل البحر المتوسط الشرقية .



الفصل الثاني

الحضارة الميديّة

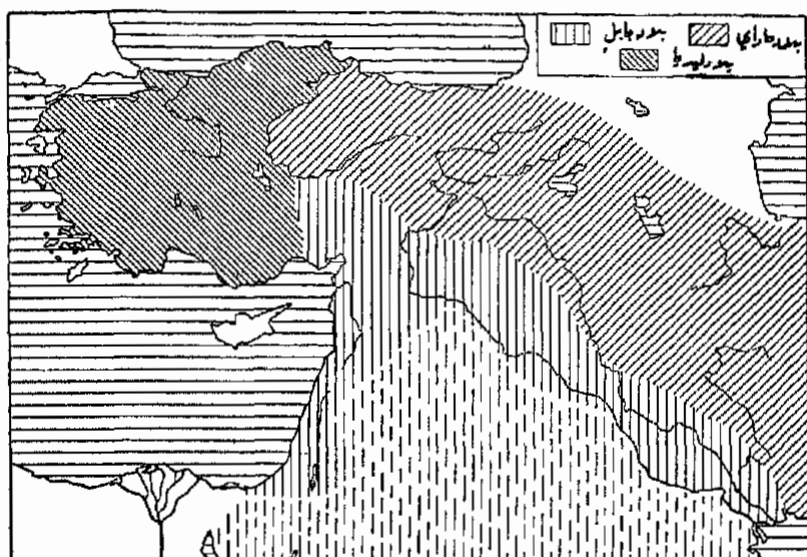
دخلت الامبراطورية الحثية طور التضعف حوالي أواخر القرن الثالث عشر، خاصة تحت عامل مجيء جماعات هندو - اوروبية ، أتت من الغرب عن طريق المضائق . وعلينا ان ننتظر قروناً عدة لنعثر من جديد في آسية الصغرى على دولة لها بعض القوة ويمكننا معرفتها بعض الشيء .

ليست هذه حال مملكة او ممالك الفريحيين .
الفريحيون
فمنذ القرن الثاني عشر حتى أواخر القرن السابع تدلنا كتابات الملوك الاشوريين على وجود الموشكو *Moushkou* في شرقي آسية الصغرى ، وقد ناصبهم العداء وتحاربوا مرات عدة . ومن الجائز الظن بان خلفاء الحثيين هؤلاء هم من تدعوم الالباذة بالفريحيين . وان صدقنا الاساطير اليونانية فانهم حالفوا اهالي طروادة . وكانت ملكتهم هي كوب ، امرأة بريام ، فريحية . وغدا ملوكهم خلفاء غوردياس - وقد اشتق منه اسم عاصمتهم غورديون حيث قطع الاسكندر العقدة « الغوردية » - وميداس . واتخذ احد هؤلاء زوجة له امرأة يونانية من الساحل الايحيي وقدم لابلون الدلفي العرش الذي كان يجلس عليه للقضاء . ولا نستطيع تفسير هذه الوقائع إلا اذا قاربنا بلاد الفريحيين من الغرب اقله البحر الابيض المتوسط ، وان هي كانت اقل اتساعاً لجهة الشرق من الامبراطورية الحثية .

وما نستطيع زيادته على هذه الاسطورة او تصحيحه هو امر قليل . فقد اتت زمرة من الفريحيين من بلاد تراقية : وهذا ما تؤكده بعض العلاقات الدينية ؛ ولكنهم حصلوا على إرث الاسويين والحثيين العرقي . ومن الوجهة السياسية لم يكونوا دولة مركزية ، إذ لم يكتشفوا قبوراً كبيرة ، وهي قبور ملكية دون شك ، في غورديون فقط ، بل ايضاً في اقطار شرقية ، في انقرة مثلاً : وتفسر هذه البعثرة ضعف دورهم الحربي . وقد كانت لهم علاقات تجارية مع

جيرانهم ، ولكن على مدى قليل . وفي الحقيقة غدت الزراعة وتربية المواشي ، وقد امتدحتهما الإلياذة دون ذكر تفاصيل مميزة ، مصدر ثروتهم الرئيسية ، وظهر علم الآثار بأنهم تأثروا بتيارات مختلفة في مجال الفن والصناعة الخزفية : فهناك تأثير الحثيين ، وقد عمدوا مثلهم إلى النقش على الصخور ؛ وتأثير قبرص التي باعتهم العُمرى التي تصل أجزاء الثوب والاولاني ؛ واخيراً تأثير اليونان الذين أخذوا عنهم الالفباء ومبادئ التزيين في القرن السابع .

وهكذا نجد حضارة مختلفة العناصر ولكنها دون نضارة . ولم تتحدث العصور القديمة عن الفريحيين إلا بشأن هيكل بستيونوت من حيث امتدت عبادة سيبله وأتيس مع ما يرافقها من ادوات موسيقى صاخبة كالصنوج او « النحاس الفريحي » .



الشكل ١٥ - امبراطوريات آسية الوسطى نحو منتصف القرن الخامس قبل المسيح

تقدم لنا الحضارة الليدية وجهاً آخر مختلفاً .

المملكة الليدية

انشقت عن الاقطار الفريحية المناطق التي ستصبح في غربي آسية الصغرى المملكة الليدية . ولكن لم يظهر هذا الاسم إلا في زمن متأخر : اذ اسكنت الإلياذة في هذه المنطقة الميونيين « Maioniens » الذين كانوا هم أيضاً حلفاء طروادة . وقد ربطت التقاليد اليونانية تغيير الاسم مع اغتصاب العرش على يد جيجس Gyges في اوائل القرن السابع ا وفي الفترة نفسها تشير النصوص الاشورية الى اللودو Loudou وملكهم غوغو Gougou . ودام حكم السلالة الجديدة ، المدعوة سلالة مرمناد Mermnudes ، نحو قرن ونصف وذلك حتى الفتح الفارسي ، وفي آخر

عهد هاسيطرت على مسافات شاسعة : فقد بسطت نفوذها على آسية الصغرى الغربية بكاملها حتى نهر الهاليس . وخضعت لمهايتها أيضاً السواحل الايجية بما فيها المدن اليونانية . وقد احاطت — ولا تزال — شهرة غنى استثنائي باسم آخر ملوكها كريسوس *Crésus* . وغدت عاصمته سرديس *Sardes* مركز حضارة زاهية .

منذ وصول الهندو — اوروبيين غدت تسيطر على البلاد طبقة من النبلاء لما تملكه من اراض . وكانت تقدم للملك « رفقاء » . وقد ملأ الوزير جييجس هذا المنصب وغدا خاتمه الشهير الختم الملكي . ولم يأت « المرمناد » على هذه الفئة الارستوقراطية . وبعد هذه السلالة نجد النبلاء يعيشون في ممتلكاتهم في بيوت ريفية دعاها اليونان « الابراج » وهي تشبه الحصون . وكانوا بعض المزار اغنياء جداً مما ادهش الملك الفارسي أخشوروش او (سرخس *Xerxes Asrexisus*) . وحققت السلطة الملكية ، على زمن خلفاء جييجس ، تقدماً محسوساً ، حتى ان التقاليد تظهر لنا الملوك مطلقي الصلاحية ، لا بل تعتبرهم طفءة حقيقيين . ولم يراعوا خاطر احد إذ كانوا خلفاء مقتصب يواجهون الدسائس والفتن ويلاقون المنافسة عند شغور العرش : وكان والد كريسوس يمزق ثياب النبلاء ويصق في وجعهم إذلالاً واحتقاراً . وامات كريسوس اخاه بسين اسنان آلة تشييط الصوف لانه سعى الى العرش .

الحياة الاقتصادية لم تكن ثروة الملك اسطورة ، وقد اثبتتها هبات منقطعة النظير في بلاد اليونان . وتولد هذا الغنى الفادح عن استثمار املاك الدولة والضرائب التي ادتها المصانع المحلية . وعلاوة على ذلك كثر المعدن الثمين وقد جمعه على شكل وريقات من رمال الباكثول ، نهر سرديس ، كما استخرجوه من مناجم بعض الجبال . وكان يوجد أيضاً ضرائب على التجارة . وقد يطرحون هذا السؤال : هل ازدهرت التجارة مع الشرق البعيد ؟ ان حفريات سرديس اظهرت لنا اشياء قليلة جداً اتت من تلك النواحي ، ولعلمهم يقولون كثيراً في وصف تجارة القوافل التي كانت تتجول على الطريق الكبيرة التي تخترق آسية الصغرى ، والتي استدعى فيها بعد « الطريق الملكي » ايام الفرس . ومع هذا يؤكد هيروdotus بان الليديين غدوا السكايلي *Kapēioi* الاولين ، اعني الذين يبيعون بالتفريق ويديرون الخانات (اي الفنادق) . وعلى كل لا يشك احد في كثرة التبادل التجاري مع مدن الساحل اليونانية التي تقود اليها الاودية النهرية والتي غدت صلة الوصل البحرية مع الغرب .

وقد دعا دون شك هذا التبادل لاختراع النقود المعدنية التي وضعت حذاً لمراقبة نوع ووزن السبائك التي عجم استعمالها سكان بلاد الرافدين . وتتردد التقاليد كثيراً في تعيين زمان ومكان اختراعها . وقد يكون حق ذلك بعض الافراد في مدن الساحل اليونانية . ولكن ان عدت المملكة الليدية مقبسة ذاك الاستعمال فهي قد اقتبسته باكرأ . وسلك القوم في اول الامر قطعاً من معدن استحصلوا عليه بمزجهم الذهب والفضة بنسبة غدت عرضة للتبديل ، فاصبحت من ثم

النقود ذات قيمة غير معينة . وظهرت اول عملية سك نقود فضية في بلاد اليونان ، بينا غدا كريسوس اول من سك نقوداً ذهبية في عالم البحر الابيض المتوسط .

ان العلاقات مع العالم اليوناني تفسر لنا تشابك هاتين الحضارتين .
الحضارة الليدية
والحضارة اليونانية
احتفظت الحضارة الليدية بمظاهر جد شرقية . وشابهت القبور الكبيرة التومولي Tumuli الفريجية . وغدت سبيلة وأتيس الإلهتين الرئيسيتين . وكان للموسيقى مركز مرموق في الحفلات حتى قد تهجم الجيوش على ميله Milet « على انغام المزمار والقيثارة » . واتسمت الدعارة بطابع مقدس ، وكانت امراً طبيعياً للفتيات اللديات . وعلى كل فقد ساهمت الجاريات ، بالاشتراك مع رجال الصناعة والتجارة ، باكبر مبلغ لتشيد قبر والد كريسوس . اذا لم يستنكف اليونان عن ذكر تفاصيل حياة الليديين الانيقة والمخنة : فهم يصفونهم مرتدين غلائل طويلة من قماش زاه ، وواضعين في آذانهم الخرصان ، يهدرون الدهن المعطر على رؤوسهم ، ويتضوع المسك والطيب والعطر من اجسادهم . وهم يفضلون الاكل اللذيذ والحلويات والمربيات ، ويخترعون - لتناسي الجوع والفحط - ألعاب الكعب والزهرة والكرة ، وألعاباً كثيرة اخرى . ولا ترمز هذه الالعب الصبانية التي ترفع من المعنويات إلا الى الافتتان الذي شعر به اليونان عندما احتكوا بطبقة اجتماعية استغلت معرفتها فنون الرفاهية التي اوجدتها حضارات الشرق القديمة .

ولم يتوان اليونان عن الحضور . فقد عرضوا خدماتهم كمرتزة وتعاطوا التجارة . وألّفوا مستعمرة في سرديس : ففي هذه المدينة ولد الشاعر ألكمان Alcman . لا بل توصلوا الى القصر ايضاً إذ ان والدة منافس كريسوس السيء الحظ ، وهو اخ له من أبيه ، كانت يونانية . وتفتحت الحضارة الليدية على العناصر اليونانية ، واتخذ الملوك الليديون لنفسهم لقب « محبو اليونان » ، ولم يسلكوا هذا المسلك للدعابة : فهم استشاروا العرافين اليونان ، واطهروا احتراماً فائقاً للاله ايولون في مدينة دلفي ، واكثروا العطايا للهاكل والمدن اليونانية ، وتعاقدوا مع المهندسين تاليس . وتذكر التقاليد بانهم عهدوا الى صاغة يونان في بعض اعمالهم ، وقدموا المعونة الى شاعر الامثال ايزوب Esop ، وتحدثوا الى هذا او ذاك من الحكماء السبعة الذين اتوا الى بلاطهم . ولم ينحصر اثر الحضارة اليونانية في القصر الليدي فقط اذ وجدوا اغراضاً خزفية كثيرة من صنع يوناني في قبور سرديس التي ترقى الى اواخر القرن السابع او الى النصف الاول من القرن السادس . وبعد مضي قرن على الفتح الفارسي كتب المؤرخ الليدي كستوس Xanthos تاريخ بلاده باللغة اليونانية . وهكذا منذ اواخر العصر المتوغل في القدم بدأ ذاك التطور ، وقصد اشتد مع فتح الاسكندر ، الذي سيجعل من آسية الصغرى الغربية ارضاً حصبة للحضارة اليونانية ، وذلك طوال العصور القديمة الاخيرة وفترة طويلة من القرون الوسطى .

وبالمقابلة فقد غرف اليونان من معين الحضارة الليدية ، واستغوام الذهب . ولتفسير وجود

الذهب بشكل كثير ومفاجيء من الممكن الظن بانهم لاقوا مناجم جديدة . وعلى كل فقد ذكروا ، وكانوا بذلك على حق ، « هجوم » اليونان ، وهم تناسوا بسهولة انفتهم امام مثل هذا الغنى . وقد اورد هيرودوتس قصة احد نبلاء اثينة الذي سمح له كريسوس ، مكافأة له لانه اضحكه بشكله الزري ، ان يأخذ من الذهب ما يستطيع حمله ، فلما التئبل إذ ذاك حذاءه وطيات قميصه وفه ايضاً ، هذا علاوة عن الهدايا الاخرى التي تلقاها . واخذ اليونان من ليديا العدد الكثير من الكنوز ، إذ غدت هذه البلاد ، وهي قريبة من مدنهم الآسيوية ، إحدى الطرق ، لا بل الطريق الرئيسية ، التي سمحت لهم بالاحتكاك مع الشرق الذي اقتبسوا عنه الطرق التقنية الصناعية والفنية ، والعقائد والعبادات الدينية ، والامثال الميثولوجية والمعلومات العلمية . وهكذا غدت اقتباسات اليونان من الشرق كثيرة العدد وثقيلة الوزن ، إذ تعجز المصادفة ان تفسر التقدم الذي احرزته ايونية على سائر المقاطعات اليونانية ، وقد شاركت لا بل خضعت عملياً لسرديس : ولم تلاق اي من هذه المقاطعات سهولة مثل ما لاقته ايونية للاستفادة من اختبارات الغير .

الفصل الثالث

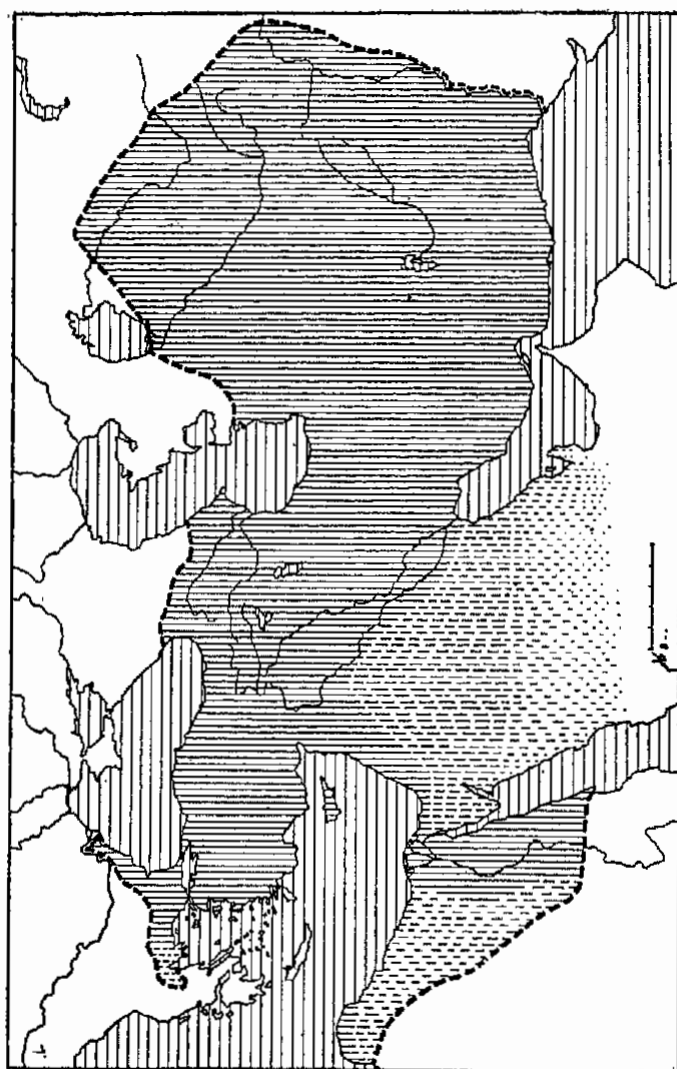
حضارة بلاد الفرس الأخمينية

استولى الملك كورش الفارسي على سرديس سنة ٥٤٦ او سنة ٥٤٥ . وبعد قليل بدأ يونان الساحل بهجبتهم ، وهكذا فوجيء العالم بظهور قوى جديدة سوف يقضي توسعها بشكل صاعق على جميع العقبات ، وذلك اثناء نصف قرن او اكثر .

كانت هذه القوى لشعب لم يعره احد قبلاً كبير اهتمام . وينتمي هذا روح السيطرة الفارسية الشعب الى الارومة الهندو - اوروبية ، وكان قد استقر في الالف الثاني ق.م في جهات هضبة ايران الغربية . وجاوره جنوباً السوزيون Susions الذين كانوا قد اقتبسوا حياة سكان بلاد الرافدين منذ زمن قديم . ولكن فصلت سلسلة جبال زغروس بين هذا الشعب وبلاد ما بين النهرين . ومع هذا تأتي على ذكره بعض المزارع نصوص آشورية . وعندما يقرؤها المرء يعتقد بأنه ازاء قوم من البدو السرقه والمقلقين . ورويداً رويداً استقر بعض منهم ونظموا حياتهم حسب تطور لا تزال نجهله .

وحالف هؤلاء البابليين واسهموا ، بقيادة الماديين ، بالاستيلاء على نينوى وتدميرها ، وقد نالوا مناطق بلاد الرافدين العليا عندما قسمت الامبراطورية الاشورية . ولم يكفهم هذا . وكان عليهم ان ينتظروا اكثر من ستين عاماً ليظهروا قوتهم الحقيقية دون حاجة الى حلفاء . وفي هذه الاثناء انتقلت القيادة الى الفرس الذين حققوا غزياً فتوحات ساحقة : فاستولى كورش ، اول ملك من السلالة الاخمينية ، على ليديا ثم بابل ؛ واخضع ابنه قبيز مصر والقيروان ؛ وغدا الملك الثالث داريوس الاول سيد بعض جزر بحر ايجه وتراقية في اوروبية . واثر غزوات اخرى اشد صعوبة دون شك - ولا تزال معرفتنا بها سطحية جداً - دانت لهم هضبة ايران حتى تركستان ونهر الهندوس .

وفي زمن لاحق غدت حدود الدولة هنا وهناك عرضة للتغيير : وهكذا تخلى الملوك نهائياً عن اوروبية اثر انكساراتهم في بلاد اليونان زمن الحروب المادية . وحصلت في الداخل ثورات



الشكل ١٦ - امتداد الامبراطورية الفارسية في بدء القرن الخامس قبل المسيح

متتالية لم يلبططعوا قعها إلا بصعوبة ، كما حصل في مصر مثلاً . ولكن لا تؤخذ هذه الظروف بعين الاعتبار إذ لم يسبق للعالم القديم أن عرف دولة بمثل هذا الاتساع ، ولكونها ورثت الامبراطوريات العظمى التي سبقتها فقد هيمنت هذه الدولة على كل الاقطار التي خضعت لتلك الامبراطوريات ، وزادت عليها بلاداً أخرى : ولم يصل اقوى الملوك الاشوريين الى المضائق او الى نهر الهندوس .

وهناك اكثر من ملاحظة جغرافية . فمن ناحية اولى استفاد الماديون والفرس ، وقد برزوا في زمن لاحق على منسرح منازعات الشرق السياسية والحربية ، من تضعضع شركائهم القدامى وتفككهم . ولم يستطع الذين هددهم الماديون والفرس ان يوحدوا صفوفهم لما استحكم بينهم من منافسات قديمة ، لا بل كان تحالفهم ، ان تحقق ، اعجز من ان يتبلور في عمل مشترك . ومن ناحية أخرى وجد عواهل الفرس في تراث الممالك العظمى المعنوي التي غلبوها على امرها مبادئ عدة تدعوهم الى السيطرة العالمية . وكان التراث البابلي اغنى من كل زملائه في هذا المجال . لذا ظهر هؤلاء الملوك وكأنهم يحققون منهج الدول الشرقية الاستعماري .

وفي الحقيقة لم يكن اندفاعهم المفاجىء إلا تعبيراً عن دفقة حياة جديدة في نظام مرت عليه ألوف السنين : نبضة تلت زميلات كثيرات لها امتدت ابعدهن مدى ، ولكنها ستعرف مثلهن المصير المتهلك . وهناك اكثر من ذلك . فان كان الانكماش الذي تلاها قد تأخر ، ولم يحصل إلا بعد قرن ونصف من الحرب المادية الثانية — لكنه غدا اوسع مدى من اي انكماش سابق واتخذ له طابعاً جديداً ، اذ مع الاسكندر غمر الغرب لأول مرة اقطار الامبراطوريات القديمة ، ولم يصبح توحيد الشرق إلا عاملاً يسهل مهمة الذي سينتصر عليه . وقد ناب المكدونى مناب العاهل الاخمينى ، بعد ان انتصر عليه ، وغدا هو ايضاً وريث المبادئ الملكية التي نشأت في منف وطيوة وبابل وأشور .

الروح الايرانية « أنا أحشويروش ، الملك العظيم ، ملك الملوك ، ملك البلاد المتعددة أصناف رجالها ، ملك تلك الاقطار الشاسعة ، ابن داريوس الملك ، ابي اخميني وفارسي وابن فارسي وآري من عرق آري » هذا ما تظهره لنا كتابة محفورة على جسم موحد السطح تقريباً . وتحوي مجموعة هذه الالقاب اموراً عدة . ودون ان نعيد الكرة على مزاعم الملك الذي يريد السيطرة على العالم كله سنكتفي بالتعليق على العناصر الاخرى . يشدد الملك على وصف اصله العائلي والعرقى . فهو يعلن نفسه بكل اعتزاز بأنه ايراني نبيل ؛ ويبقى في الواقع على هذا الشرف .

وكان الآريون — وهم الهندو — اوروبيون الذين استوطنوا ايران — اقرباء الغز والسياريين الذين سكنوا السهول المنبسطة ما بين الدانوب الاسفل وتركستان . ولم تستطع ايران ، وهي بلاد سباسب وصحارى ، ان تفقرهم ، وغدت المناطق ، التي تقع على سفح الجبال المحيطة بالبلاد

من الشمال ومن الغرب ، البقاع الوحيدة الصالحة لحياة استقرار لمناخبها الرطب وسهولة الري ، ومع انه أسست هناك المدن فقد استمر مبدأ حياة البداوة يسيطر نوعاً ما . وبقي التنظيم الاجتماعي الطبيعي على ما كان عليه في القبيلة : ست قبائل من الماديين ، كما يقول هيرودوتس ، وعشرة قبائل من الفرس منهم أربع قبائل رحل . وقسمت هذه القبائل الى بطون وأسر : ومن هنا تكاثر عدد الرؤساء الذين يتوارثون السلطة والنبلاء الذين يختلفون فئات وطبقات . ولم يختلف الماديون والفرس في هذا كله عن سائر الايرانيين الا في تكوين نظام ملكي مطلق مبدئياً ولكنه يحسب واقعياً الف حساب للأسر الكبيرة .

واعتقدت بعضها بانها لا تقل شرفاً عن الاسرة الاخمينية نفسها . لقد اكتسب كورش سلطة معنوية لا حد لها لما احرقه من انتصارات ، ولكن انقرض نسله بموت ابنه . وانتسب داريوس الاول الى اسرة فائوية ولم يكن رئيساً لها . وانتخب من بين عظماء كثيرين كانوا قد تضافروا ضد احد المغتصبين . وكان احدهم قد تنازل عن ترشيح نفسه ، شرط ان يعفى ، هو وذريته من بعده ، من الاعتراف باي سيد . واسدى الملك الجديد خدمات جليلة اذ قمع الثورات التي نشبت في سوزة وبابل وبلاد ماداي - فاحرق تسعة عشر نصراً ، وادب تسعة عصاة - ونظم الامبراطورية . وقد أضفت عليه هذه الاعمال هالة من المجد استند اليها خلفاؤه . ولكن حصلت اضطرابات عدة كان مصدرها القصر ، وهو مهد الدسائس والمكائد ، او أحدثها نبلاء كان اخلاصهم سريع التضعع . واستند النظام الملكي الفارسي على اخلاص الفرد للفرد ، وذلك على مدى واسع ، اي على النفوذ المعنوي الذي يتمتع به الرئيس عند صحابته .

وتبرز الروح الايرانية بمظاهرها اخرى تميز الحضارة الفارسية عن الحضارات الشرقية القديمة . ولا يتم هذا في مجال الدين فقط حيث للاله الاعظم أرموز طابع مميزة لا جدال فيها ، بل ايضاً - ويصعب تحليل هذه النظرية - في توزيع الامة الى فئات تعتمد كل منها على صناعة ، وذلك حسب مبدأ نظري شبيه بالذي تنفذه اليوم الامة الهندية . واخيراً تبرز تلك الصفة باستعمال نقوش ورموز تعبر عن اساطير غامضة ، تمتد اتساعها الجغرافي دون تعيين حدود ، الى سباسب جنوبي اوربية واواسط آسية متجاوزاً بذلك حدود ايران . وبين الارواح التي لا يرقى الشك الى دورها الوقائي يحتل الحصان منزلة مرموقة ، إن كان وحده او ضم بصورة غريبة الى حيوانات اخرى كالديك مثلاً . وعندما يخبرنا هيرودوتس بأن داريوس انتخب للعرش لأن حصانه قد صهل للشمس الشارقة قبل أحضنة الطامعين الآخرين بالتاج ، فإن معرفة ارادة الآلهة بهذا الشكل تتلاقى مع دلائل اخرى لتظهر لنا الاهمية العملية والروحية التي كانت للحصان عند شعب بدوي الاسل استمر على تعاطي تربية المواشي .

لا نستطيع والحالة هذه ان نفصم العرى التي تصل المملكة
إرث الشرق الكلاسيكي »
الفارسية بأصولها الايرانية : وان رجعنا الى الزمن القديم نرى

بأن هذه المملكة هي غريبة عن « الشرق الكلاسيكي » . ولم تلت الاسكندر هذه الحقيقة إذ تظهر السياسة التي اتبعها بأنه شعر ، وهو في إيران ، بأنه أقرب الى مقدونية مما لو كان في مصر او بلاد بابل .

لكن تأثرت الحضارة الفارسية بمجار كثيرة اخرى ، جعلت منها حضارة شرقية . وتعتبر هذه الحضارة ، اكثر من كل زميلاتها السابقة ، نقطة التقاء . ونسبة لما اقام الماديون والفرس من علاقات مع سوسه وبلاد الاشوريين فانهم تخطوا الحياصة البدوية الصرفة . ثم جعلت الفتوحات من الاخمينيين وريثة اعظم الامبراطوريات القديمة وسادة اقطار تأصلت فيها اشد الحضارات قدماً . ومع ان هذه الحضارات كانت قد أشرفت على المغيب فانها تركت تقاليد وآثاراً باهرة : فكيف التهرب اذن من اشعاعها ؟ وبرز تأثير الشرق قوياً جسداً ، خاصة نفوذ بلاد الرافدين ، وهي اقرب الى وسط الامبراطورية واشد تنظيماً من مصر البعيدة .

ونشأت عن هذه الحالة ، في المجال السياسي ، صعوبات مباشرة اظهرت حدتها اللازمة التي برزت عند اعتلاء داريوس الاول العرش . وغدا من الضروري ايجاد نظام ، وان كان اداريا اقله ، لامبراطورية لا تعرف اي وحدة اذ هي فسيفساء بلاد متعددة الشعوب ، تختلف في الدين واللغة والنظام الاجتماعي والحياة الاقتصادية ، ولم يكن الهدف توحيد هذه الحضارات او صهر تلك الامم . ولم يكن هناك سابقة تدعو الى ذلك ، ولم تلاق مثل هذه الفكرة ، ان وجدت ، اي بدء تنفيذ . انهم اكتفوا فقط بنقل بعض السكان من قطر الى آخر وذلك على سبيل القصاص ، فأسكن بعض اليونان في بلاد سوسه ، وكان الاشوريون والبابليون قد لجأوا مراراً كثيرة الى مثل هذا التدبير . وهكذا أسكنت بعض الجماعات الايرانية في وادي النيل وآسية الصغرى الغربية . وقد مثلت هذه الجماعات فرقاً حربية اسندت اليها مهمة الدفاع عن حدود يهددها الخطر او مناطق معرضة للثورات . واكتفى الملوك الاخمينيون ، دون ان يكون لهم هدف واسع المدى والتنظيم ، ان يروا بأن اوامرهم تنفذ ، والجزية تدفع لهم بانتظام ، وتعبئة جيوشهم تتحقق .

وتوصلاً الى هذه الغاية لجأوا الى الطرق التي اتبعها اسلافهم ، خصوصاً ملوك بلاد الرافدين . انهم حسنوها دون شك ونفذوها غالباً كما تقتضيه العدالة والروح الانسانية ، ولكنهم لم يستنبطوا شيئاً جديداً في هذا المضمار . ومع هذا فان التطور الذي قد حصل كان خارجاً عن ارادتهم ولم يحددوا المنتفعين منه .

النظام الملكي
الملك هو مطلق الصلاحية . ولا يحق لأي فرد او لأي مجلس جماعي ان يقاسمه سلطاته او يراقب كيف يستغلها . انه يتسلمها من اورموزد الذي ينتخبه . وتبتدىء كل النقوش الملكية ، تحت ستار الدعاء الى الإله ، بإعادة ذكر هذا التعيين : اورموزد هو الاله الاكبر ، الذي خلق السماء في العلى ، واوجد الارض ، الذي ابدع الانسان

واستنبط له الغبطة ، الذي جعل من داريوس ملكاً ، ووهب لداريوس هذه المملكة العظيمة الغنية بالخليل والسكان . وقد وجد هذا النص منقوشاً على اربعة وعشرين نصباً في مصر . وعلى وجه النصب الآخر وجدوا النص الهيروغليفي المقابل وهو يعزو انتصارات الملك الى عطف إلهة ساينس ، والدته . اما في بابل فكان الاله بعل - مردوك ينتخب الملك . وهم يسندون النص الرسمي الى التقاليد المحلية . ولكن لا يتكلم هذا النص الا عن الاله الايراني .

ولا تعتبر السلطة الملكية المطلقة التي تقررها ارادة الاله تجديداً في الشرق . كما لا يعد امراً غير مألوف الرأي القائل إن على الملك ان يحب الحق ، ويؤمن العدالة ، ويحمي الضعيف وذلك طاعة لرغبات الإلهة . وتعد هذه النظرية جزءاً من مفهوم النظام الملكي المصري ، وقد اشار اليها بشدة حمورابي في قانونه . ولكن يعبر ملوك الفرس عن هذه العقيدة بصورة اشد وضوحاً واكثر استمراراً : « لقد احببت العدل وأبغضت الكذب » كما يؤكد داريوس « وارادتي هي ان لا يلحق ظلم بالارملة واليتيم » لقد جازيت الكذاب وكافأت الفلاح . وهذا ما يتفق مع المبادئ التي بشرت بها الديانة الفارسية لكل الامم . وان اعتبر بعض الكتاب اليونان الملك الاخميني ، وهو عدو وطنهم ، مثال المستبد الظالم الذي يعد نفسه فوق كل قانون ، فقد اشاد البعض الاخر ، ومراراً الكتاب الاولون ايضاً ، بعمل هذه التعاليم . وعلى كل لم تكن هذه الاشادة مجرد كلمات جوفاء ، فان كتاب السيروبيدي *Cyropédie* لكسينوفون *Xénophon* هو اقدم قصة تاريخية . ولكن اشتهر بحق داريوس الاول . بانه مشرع عادل ونشط .

وهناك مظهر كلاسيكي للنظام الملكي الشرقي المثالي ، وقد اشاد بذكره الملوك الاخمينيون الذين انتسبوا الى اصل ايراني : فالملك هو القدوة لكل محارب ، اذ قد غدا مريضاً على مختلف التمارين الجسدية . وعندما وصل الاسكندر الى قبر داريوس نقلوا له بهذه الكلمات ما كان قد نقش على ضريحه : « كنت صديقاً لاصدقائي ، واصبحت امهر الخيالة ورماة القوس ، وفقت الصيادين ، وباستطاعتي القيام بكل شيء » . ويعبر هذا الموجز احسن تعبير عن روح النص الاصلي وان كان اطول .

وفي اول عهد النظام الملكي ، كان باستطاعة النبلاء العظماء ان يقابلوا الملك بسهولة . ولكن بعد داريوس نظمت مبادئ دقيقة جداً جميع اعمال الملك . فهو يعيش في جناح خصوصي بالقصر دون ان يستطيع احد الاقتراب منه . وتجبرنا قصة استير *Esther* بأن نساء كن ينتظرن اوامره ليلتحقن به . ولم يشاهده الحاضرون لحكمه الا في ايام الاحتفالات ، يخضع الجميع امامه عندما يطل على عرش العظمة او عربة الالهة يحمله حرس منتخب تحلوا لتسا تصاوير سوسه اسلحتهم وحليهم . وقد سبب له هذا الانزواء نتائج لا مفر منها : دسائس الحريم والاعتبالات ومكاييد الوزراء والخفيان . ويوجد هوة سحيقة بين المملكة القوية التي حكمها كورش الكبير او

داريوس الاول وبين الدولة التي انقضت عليها الاسكندر اذ كان قد هلك ملكات من ملوكها باسم بينا احتاط الثالث لنفسه فسمم قاتلها خشية ان يصبح هو الضحية .

الحكم والادارة
التي اسسها كورش ولكنها املت بالواقع، وبربوليس *Persépolis* التي وضع تصميمها داريوس ، اول ملك من الفرع الثانوي ، لتصبح مقر السلالة الرئيسي والتي لم يكتمل قط بناؤها. وهناك عواصم اخرى كانت قواعد الدول التي اخضعتها المملكة الجديدة : إكباتانا في بلاد ماداي وبابل وسوزه . وقد املت مصر وليديا لبعدهما . وشيد الملك في كل مكان القصور وأقام الحدائق « الجنائن » لشدة ولعه بالحضرة والقنص - وكلمة الجنائن هي الاسم الفارسي للحدائق الكبيرة حيث ترتفع الاشجار وتكثر حيوانات الصيد المتنوعة . وسريعا ما ينتقل الملك من مكان الى آخر دون ان يجبر نفسه في هذا المجال بمبدأ او نظام . ولكن المقر المستحب هو مدينة سوزه، حتى ان اسم هذه المدينة غدا للمعاصرين كأنه رمز لقوة الامبراطورية وهيئة حكمها .

ويجري طبعا كل شيء باسم الملك . وتتخذ القوانين الملكية العمومية شكل تصريحات شفوية تصدرها دوائر الدولة . ولكن يقوم الى جانب الملك وزير ينتخبه العاهل ويدعوه اليونان « شيليارك *Chiliarque* » ويشق هذا اللقب من كلمة حربية وهو يعني قيادة جزء من الحرس الملكي .

وترتكز المركزية على وسائل مادية قوية . فقد اعدوا بعض الطرق الكبيرة والحقوا بها سلسلة من الخانات والاصطبلات التي تعتبر كمحطات تؤمن تنقل السعاة السريع . ومن اشهر هذه الطرق الطريق التي تصل سرديس بسوزه ، وعلى كل هي الاشهر لان اليونان استعملوها وغدت موضوع اعجابهم . ولكن لا يكفي تبادل الرسائل ؛ لذا ترسل الحكومة المركزية مراقبين يراقبون الادارات المحلية ؛ وقد دعي هؤلاء « عيون وآذان الملك » حسب استعارة تبتتها الممالك التي سبقت في الزمان .

وهناك وسيلة اخرى تسهل المركزية : اللغة والكتابة . ولم تكتب الفارسية لغة الملوك ، قبل داريوس الاول . ولهذا الهدف تبنوا العلامات المسارية . واستعملوا اللغة الفارسية في النقوش الرسمية والاستعراضية ، كما استعملوا في الوقت ذاته لغات الممالك القديمة كلفتي بلاد أكاد وسوسه . وقد سمحت هذه النصوص المكتوبة باللغات الثلاث للعلماء المعاصرين ان يحلوا رموز هذه اللغات المنقرضة وذلك لما عرفوه من اللغة الفارسية بواسطة كتب البارسيين الدينية الذين يقيمون في الهند . ولكن لم تصبح هذه اللغة سهلة التداول لانها فرضت استعمال الحزف . وكانت المملكة الاشورية قد بدأت تستعمل اللغة الارامية ؛ وهكذا اعتبرت المملكة الفارسية اللغة الارامية اللغة الوحيدة للأعمال الادارية . وعمدت دوائر الدولة في سوزه الى نقل النص

الفارسي الى اللغة الارامية وارسلت نسخاً من مقرراتها الى الدوائر الحكومية المحلية التي كانت تترجمها بدورها الى لغة القطر الوطنية . وهذا ما يفسر لنا التقدم المستمر الذي احرزته اللغة الارامية في الشرق الادنى - وهذه نتيجة غير مقصودة لضرورة سياسية - وقد نتج كل هذا عن اسناد المملكة وظائفها - ولم يكن لها تقاليد عريقة او مؤهلات لخلق ادارة مركزية على شكل آخر - الى جماعة من الكتبة اورثتهم اياها الدول المنقرضة او انتخبهم من رعاياها الاكثر تنوراً او اطلاعاً .

وهكذا اكتفى الاخمينيون بتبني اساليب اسلافهم والسير بها نحو الكمال ، وذلك في اكثر من مجال ، ولكنهم اوجدوا مناهج جديدة في مضمار الادارة القطرية ان لم يكن المحلية ، واحترموا الجماعات البشرية والتقسيمات الجغرافية التقليدية كالمقابل والممتلكات العقارية الفسيحة العائدة الى الهياكل والاشخاص ، والمدن والمحافظة . ولكنهم مع هذا قسموا امبراطوريتهم الى عدد من المقاطعات يتراوح بين العشرين والثلاثين دعواها المرزبانان . وكان على رأس كل منها نبيل ايراني يمثل دون شك الملك ، ولكنه يمثل ايضاً في الوقت ذاته الشعب الفاتح او بالاحرى تلك الطبقة الارستوقراطية الحربية التي تصلها بالعامل عرى وفاء شخصي ، اذ تشترك واياد بحماية وادارة الاقطار التي انتصر عليها مجهودهم المشترك . وقد برزت الصفة الايرانية في اكثر مظاهر هذا التنظيم ! اذ عاش المرزبان ، ولو على مستوى اقل ، عيشة الملك ، وكان له قصر وحرس وبلاط واصدقاء شخصيون . ولم تخل هذه الحالة من غطر . واتخذ داريوس الاول للأمر احتياطاته اذ اوجد المقتشين والمراقبين ، وانشأ نظام البريد الملكي ، وأقام بجانب « المرزبان » امين سر يرسل مباشرة الوزير ، واسند الى قائد خاص قيادة الجيوش الموجودة في المرزبانة . ولكن ضعف بعض الملوك والتنازع على السلطة في القصر او هنا هذه العرى التي كانت قديماً متينة وقوية . وجند بعض المرازبة مباشرة المرتزقة وطالبوا - ونالوا مبتغاهم - باسناد وظائفهم الى اولادهم ؛ وقد احدثت هذه التصرفات ؛ في القرن الرابع ، اضطرابات طويلة الامد في نواحي الامبراطورية الغربية . وبعد ان كانت هذه القلاقل محلية فقط اتسعت فحدثت اذ ذاك « ثورة المرازبة الكبرى » التي لم يقض عليها ارتحششتا الثالث الا بصعوبة كلية .

توخت هذه الادارة في الدرجة الاولى اعطاء الملك وسائل اظهار
اهداف الادارة
جبروته .

وغدا الهدف الاول توفير الاموال ، لذا اجبر جميع رعايا الدولة على دفع الجزية ما عدا الفرس والماديين ، وهم الشعوب المظفرة . وكان داريوس قد حدد مقدار هذه الجزية لكل من المرزبانان . ولتوزيع هذه الضرائب على الجماعات التي اجبرت على تأديتها ، اعتمدوا الاساليب القديمة المتبعة وذلك على اساس اعمال مساحة نظمت هنا تنظيماً دقيقاً وهناك حسب تقدير

تقريباً . وغدا للفرس من ثم فضل التوفيق وليس الاختراع . ولم يجر خلفاء داريوس ، كما يبدو ، تغييرات أساسية في هذه الاجراءات . وقد نجد تفسيراً للثورات المتكررة في بلاد بابل دون اعتماد الافتراض القائل بزيادة تلك الضرائب . فهي كانت منذ الاساس المرزبانية الاشد احتقاراً والمفروض عليها ايهظ جزية إذ اجبرت سنوياً على تأدية ألف مثقال فضة وخمسة خصي . وكان قسم من الجزية يدفع خيرات طبيعية والقسم الآخر سبائك من المعدن الثمين . واستعمل جزء من هذه الضرائب في كل مرزبانية لإعالة الجنود والموظفين المقيمين فيها . وهكذا قدمت كيليكية ٣٦٠ حصاناً ابيض و ٥٠٠ مثقال فضة يصل منها فقط الى الحكومة المركزية ٣٦٠ مثقالاً . ويلجأ هيرودوتس ، واليه يعود فضل وقوفنا على حسابات عهد داريوس التوصيلية ، الى ضرب رقم مثاقيل عيار الذهب التي كانت تدفعها المرزبانية الهندية وهي ، حسب قوله ، اغنى المرزبانات واكثرها سكاناً ، وذلك للحصول على كمية الفضة المعادلة لذلك العيار الذهبي . وهكذا يؤكد بأن تلك المرزبانية كانت تدفع ما يقابل ١٤٥٦٠ مثقال فضة - اي ما يعادل ٨٧٤٣٦٠٠٠٠ فرنكاً فرنسياً في سنة ١٩١٤ . واعتبر اليونان دوماً بأن لملك الفرس ثروة ضخمة خضع لجاذبيتها اكثر من شخص .

وعلاوة على الاعباء المالية كانت هناك اعباء حربية . وتألفت القوى التي اخذ الاخميني على نفسه تعبئتها ان دعت الضرورة من فرق تقدمها كل مرزبانية ويغدو قائدها عادة المرزبان نفسه . وهكذا استطاع العاهل جمع اسطول وجيش كثيري العدد . ولكن لم تسير هذا الجيش وذلك الاسطول اي روح وطنية وقد كانا مجموعة عناصر مختلفة من حيث السلاح وخطط القتال واللغة . وقد استغل اليونان ، اعداء الفرس ، هذا الواقع الى ابعد مدى فذكروا لجيوش الفرس رقماً هيوياً وتحدثوا عن عبيد سيقوا الى المعركة تحت تهديد السوط . لقد وجدت دوماً في خضم هذه الجماهير عناصر حسنة ، خاصة الايرانيين ، خيالة كانوا او رماة ، والمشاة البالغ عددهم عشرة آلاف وهم فخر الحرس الملكي ، ويدعونهم « الخالدون » . ولكن اهاب تفوق الجندي اليوناني التقني بالملوك والمارازبسة الفرس لتجنيد المرتزقة اليونان وذلك بصورة تصاعدية ابتداء من اواخر القرن الخامس ؛ وقد اثبتت حوادث عدة هذا التفوق ومن اشهرها مغامرة « العشرة آلاف » من بلاد بابل حتى البحر الاسود . وايام غزوة الاسكندر كان المرتزقة اليونان يؤلفون قسماً هاماً من الجيش الفارسي ، اقله من الفرق التي لم يعوزها كبير وقت للانتقال من مكان الى آخر ، كما كون أيضاً اليونان او بحارة شواطئ آسيا الصغرى الذين ينتمون الى عنصر يوناني ، بالاشتراك مع البحارة الفينيقيين ، رجال اسطول حسبوا له حساباً .

هل حددت الدولة الفارسية لنفسها اهدافاً اخرى ؟ انها على كل لم تقرر بملء ارادتها ووعيتها منهاجاً اقتصادياً . فقد تركت للأقطار التي اخضعتها حرية الاستمرار على تنفيذ النظم التي ارادتها لنفسها . ولكن حصل مجهود مرموق في حقل التشريع ، وخاصة في بلاد بابل ، ومع ذلك لم تسع الدولة لتوحيد القوانين ؛ وقد سهلت الوحدة السياسية التعامل التجاري اذ قللت .

الحواجز والصعوبات واوجدت جو أمن وسلام لتثقل التجارى، ولكن لم يستفد القوم من الامكانيات التي برزت امام الاتصالات البحرية . ومع هذا استطاع احد الاسيويين الغربيين الذي كان في خدمة داريوس وهو الكاري سكيلاكس من كاريندا ، ان يجاري نهر الهندوس ثم يجاذي سواحل ايران الجنوبية ليدور بعد ذلك حول الجزيرة العربية وينتهي عند السويس . ولكن بقي هذا « الطواف » وحيد جلسه ولم يستفد تجارياً منه احد ، وكان قد نظم لغايات سياسية ، وبصورة ثلوية علمية . وسيظهر نيارك ، امير البحر عند الاسكندر ، جزأة فائقة عندما يتم جزءاً من الرحلة التي قام بها سكيلاكس . والطريق الوحيدة للشرق الاقصى كانت الطريق البرية : فبعد اجتياز ايران كانت هذه الطريق تتفرع نحو افغانستان والهند من جهة ، ونحو تركستان والصين من جهة اخرى . وقد عرفوا هذه الطريق واستعملوها ولكن نجعل مدى استغلالها .

وكانت تنقص الامبراطورية الفارسية لتحقيق امكانياتها الاقتصادية سياسة مالية منظمة ومطرودة . ولم يتبع الاخمينيون الا قليلا المثل الذي قدمه لهم الملوك اليديون . فهم منذ عهد داريوس الاول ، ضربوا السكة الذهبية « الدارجة » وذلك بكمية قليلة جداً ، ولكنهم لم يعمدوا الى ضرب النقود الفضية الا في زمن متأخر ، كما سمحوا للرازية ان يسكوا مثلها باسمهم . وقد قام هؤلاء واولئك بهذا العمل لضرورة معاملاتهم مع اليونان ، وهم المرتزقة والتجار ورجال الفن . ولكن يؤكد انتشار قطع النقود اليونانية في الامبراطورية الفارسية التي بعدت بعض اقطارها بعداً شاسعاً عن البحر الابيض المتوسط بأن النقود الفارسية لم تدفع بالمطلوب الضروري . وفضل ملوك الفرس تكليس الثروات محتفظين بالمعدن الثمين الذي دفع لهم كجزية بشكل سبائك صبت على هيئة اوان . وهكذا بقيت وقتاً طويلاً هذه الثروات دون فائدة . وعندما استولى الاسكندر على العواصم الفارسية وضع يده على كنوز لم ير لها مثيل في ذلك العصر ! مئة وعشرون الف مثقال في برسبوليس وحدها ... وهذه القيمة تعادل اكثر من مليار فرنك في سنة ١٩١٤ م . وسارع هو وخلفاؤه لسك نقود من هذه الكميات ؛ محدثين والحالة هذه ثورة اقتصادية حقيقية في بعض الاقطار حيث بقي التبادل التجاري يحتفظ بأشكال متأخرة وقديمة العهد .

واستطاع بعض الملوك ان يراقبوا مراقبة دقيقة حكام المقاطعات المحليين ، فاحتمت الدولة اذ ذاك برفاية رعاياها وحيايتهم من مظالم السلطات . ولا نجد في هذا المجال اوضح من رسالة ارسلها داريوس الاول — ولا نجد دوماً الا هذا الملك ! — الى موظف نجعل رتبته كان يشغل وظيفة ما على الساحل الإيبيي . وقد افادتنا عن هذه الرسالة كتابة يونانية غير كاملة ، لسوء الحظ ، ورد فيها : « عرفت بأنك لا تخضع لأوامري بمخاثيرها . وبما انك تستثمر املاكي اذ تزرع فيها اشجاراً مثمرة بعد ان تنقلها من سورية نحو شاطئ آسية فاني امتدح افعالك وستلقى مكافأتك من القصر الملكي . ولكن حيث انك تستهزئ بتعليماتي التي اصدرها تجاه الآلهة فاني

بأريك ، ان لم تغير سلوكك ، مدى غضيبي . فقد فرضت دون حق ضريبة على مزارعي ابركوت
المقدسین وأمرتهم بأن يفلحوا ارضاً لا تخص الإله ، مستهتراً والحالة هذه بعرفان الجميل الذي
ابدها اجدادي نحو الإله ، الذي علّم الفرس حقيقة شريفة و ... » وهكذا توخت الادارة
كاهداف لها ، وقد احسنت مراقبتها ، تقدم الزراعة والعدالة والتساهل نحو الآلهة الغريبة ،
شرط ان تعلم الحقيقة ، وهذه كلها موجبات معنوية اخذتها الديانة الفارسية بعين الاعتبار .

عرف الشرق قبل هذا التاريخ فاتحين لم يتصفوا كلهم بالتسامح . وقد اعتبر
الديانة
الاشوريون حروباً عدة جرت بين الامم معارك تنشب بين الآلهة . وعندما
سبى نبوخذنصر البابلي اليهود الى عاصمته قسا بشراسة ضد الهيكل اليهودي . ولا يفهم سلوك
الاخمينيين على حقيقته الا اذا قورن بمثل هذا النهج الذي سار عليه سلفاؤهم مباشرة . وحالما
وصل كورش الى بابل قدم « خضوعه لبعل مردوك » كما اطلق في الوقت نفسه سراح العبرانيين
وساعدهم في تعمير مناطقهم . ولم يقدم خلفاؤه على اي اضطهاد ، ولم يفرضوا آلهتهم بالقوة ،
لا بل أدوا لساثر معتقدات امبراطوريتهم الاحترام التقليدي الذي كان يؤديه الملوك الوطنيون ؛
وهكذا قدمت في اورشليم كل يوم ذبيحة على اسم ونفقة الملك ، ولم يلحق اي اذى برجال
الكهنوت في مصر وبلاد بابل الا بقدر ما اتهموا به من تحريض على الثورة . وان لم يعرف العالم
القديم ، منذ هذا التاريخ ، الا بصورة استثنائية التعصب الديني ، فان ذاك يعود الى المثل الذي
ضربه الملوك الفرس .

ولم يكن سلوك هؤلاء الملوك في هذا المجال تعبيراً عن عدم مبالاة او بصورة اولية عن
كياسة سياسية ، بل اقتبالاً لديانة اعتبرت على غير مستوى .

وبصعب علينا تحليل خيوط الكبة التي تؤلف الديانة الفارسية القديمة . وان لم تقتبس
هذه الديانة امورا أساسية من الديانات الشرقية فانها تحتوي مع هذا على عناصر مختلفة لا نجد
لتفسير الكثير منها معلومات مستقلة . وجمعت هذه المبادئ في كتاب زند افسته المقدس .
وقد نعر على بعض العناصر الهندو - اوروبية التي نجدها في كتاب ريفندا الهندي ، وهذه
العناصر هي قليلة . ولكن هناك ايضا مبادئ آرية بجمة ، اي خاصة بالايانيين الغربيين ، والتي
لم تعم بواسطتهم القبائل الايرانية الاخرى الا في زمن متأخر . وقد اتى احد المصلحين ،
زرادشت ، بتعاليم في غاية النقاوة ، ولكن شوها جمهور المؤمنين بها . وتطرح هذه الوقائع
اسئلة لا عد لها ، دون ان يجدوا لها حلاً لتاريخه . وتختص اهم هذه الصعوبات بزرادشت نفسه .
فقد لاقت تعاليمه دون شك ، وهو بعد على قيد الحياة ، نجاحها الاكبر في ايران الشرقية .
ولكن ابن التندقيق ؟ وخاصة في اي زمن ؟ ان الليدي كسانتوس هو اول الكتاب المعروفين
في التاريخ الذي يأتي على ذكره ويرجمه الى القرن الخامس . ويرجع به المؤرخون المعاصرون
الى عهد اكثر قدماً ، ويذكرون عادة القرن السابع او القرن السادس . وعلى كل يعجب المرء

كيف تجاهلت ديانة الاخمينيين الرسمية زرادشت وتعاليمه .

ان جوهر عقيدة المصلح هو التوحيد بانقى مظاهره . فهي لا تقز الا باله واحد هو اورموزد ، لا قياس لعظمته وقدرته وروحانيته . وتوجد معه وحدات مجردة هي اشكال منه او مبادئ صادرة عنه . ولكن في منزلة اقل من منزلته يتناحر منذ خلق العالم ارواحان ، احدهما للخير والآخر للشر ، ولا يعرف نزاعها مهادة وهو يشمل كل شيء . وعلى الشخص ان يحارب عناصر الشر في ذاته وخارجاً عنه ، وعلى هذا الاساس سينال السعادة بعد الدينونة الاخيرة . وتنحصر العبادة في هذا الجهد اليومي المتواصل متحررة من كل تقادم او ذبائح مادية ! « ان رجل التقوى هو قديس : وهو يزيد العدالة بالعقل والكلام والعمل والضمير » . وهكذا يشعر المرء الى اي قمة اوصل هذا المصلح ، الذي يشمله الغموض ، فكرته .

وتغير عن هذه المبادئ ديانة الاخمينيين الرسمية التي تظهر لنا من خلال النصوص الملكية . فهي تعتبر اورموزد « اكبر الآلهة » ، ويتحدث داريوس الاول عن « الآلهة الاخرى الموجودة » . انه تعبير غامض وهو يشمل دون شك آلهة غريبة — وهذا ما يفسر لنا التسامح نحوها — وآلهة ايرانية اخرى . ويجب انتظار حفيد داريوس ، حوالي منتصف القرن الخامس ، لنعرف بالتدقيق لاسمي الهتين من هذه الآلهة الايرانية وهما ميترا وأناهيتا . وعلى كل يبقى اورموزد الاله الاعظم ، الاله الملكي بالدرجة الاولى ويمثلونه برسم قرص شمس مجنح يخرج منه نصف الشخص الاعلى يحمل لحية ويككل التاج هامة . ويشق هذا الرسم من الرموز الاشورية الدينية . وبما انه خالق العالم ، بما فيه الارض والسماء ، فهو اكثر من الشمس : انه النور السباوي « السيد الحكمة » منظم السعادة والعدالة ، الذي يأمر بحجب الحقيقة وبغض الكذب . ومع وجود هذه الغزوة نحو المبادئ الروحانية الطاهرة فقد قدم الملوك الذبائح ، اقله باشعالم شخصياً النار التي لا تنطفئ ، على المذابح .

وقد ابقت الديانة الشعبية ، التي استمرت على شيء كثير من الحيوية ، المركز الاعلى لاورموزد ، ولكنها تلتصق به جمهرة من الآلهة التي تمثل قوى الطبيعة والعناصر . واكثر من هذا ، فهي تتخيل ، مقابل عالم الاله الاكبر ، عالم النور واليسر والحضب ، عالماً للدياجير والاشراك والشياطين ، ويسير هذا العالم اهريمان . انها تؤمن بضرورة جهود الانسان الروحية ودينونة النفس التي قد تقضي الى فردوس افراح مادية جداً . ومع هذا فهي تعتمد كثيراً على طقوس العبادة التي يقوم بها ، او اقله ينظمها ، رجال الكهنوت اعني الجوس ، وتقر ايضاً عبادة النار والاناشيد والتقدم والذبائح الدموية التي ندد بها زرادشت بكل شدة . واستناداً الى هذه المعتقدات فهم لا يحرقون الجثث ولا يدفنونها كيلا يدنسوا النار او التراب ولكنهم يلقيونها في اماكن صحراوية . ولا نستطيع لسوء الحظ تحديد الوقت الذي فرضت فيه هذه الفكرة نفسها بتلك القوة .

ان الديانة الفارسية زادت على مجرى التفكير القديم افكاراً جديدة منها الحياة الفكرية الدينونة الاخيرة ومبدأ المثوية ، هذا مع العلم بانها شددت اكثر من الديانات

الاخرى على المبادئ الادبية . أما في باقي مجالات الحياة الفكرية فلم يأتِ الفرس بأي جديد . ولا نملك في هذا المضمار إبداء الحكم إلا كتاب زنداغستا ، وهو كتاب ديني تناقل القوم اجزائه القديمة بالسماح ، لأنهم لم يلجأوا الى الكتابة الا في اواخر القرن السادس .

ولا يحتوي هذا الكتاب على أمور علمية . لقد كان لدى الفرس اطباء دون شك . ودأبوا بعضهم بالنباتات ، أما الآخرون فلجأوا الى التغاير الطقسية . ولكن جلب الملوك الى بلاطهم أطباء يونان أو مصريين . ولم تظهر ايران كمهد للعلوم او لشبه العلوم التي كلف بها الغرب واطلق عليها اسم زرادشت إلا في زمن متأخر ، أي بعد العصر المسيحي : ومنذ هذا الزمن اتخذت كلمة « مجوسية » معناها الحالي ، وقد اشتقت من اسم الكهنة الايرانيين .

ولا يبدو بان حياة الامبراطورية الفكرية الحقيقية كانت فارسية ، لا بل لم يهتم كثيراً الفرس لهذه الحياة . وقد اصلح التقويم البابلي مرة اخرى سنة ٣٦٧ ق.م . إذ حددوا السنين والفصول حيث كان يجب حشر الشهور التي قرروا زيادتها ، وذلك ضمن اطار الوحدة التي تشمل تسعة عشر عاماً . ولكن فضل الفرس الوحيد في هذا المضمار هو السماح لملء الفلك من الكهنة متابعة اجائهم . واظهر بعض الايرانيين ميلاً للفلسفة والعلوم ، حتى اليونانية منها . وقد تحدثوا عن وجود شلة منهم بالقرب من أفلاطون في اواخر ايامه . ولكن بقيت مثل هذه العناية امراً استثنائياً ، ولا يظهر بان أحداً من الملوك رغب فيها .

الفن
ان الحالة في مجال الفن على غير ما ذكر اعلاه ، وان كان مؤكداً بانه لم يحصل إلا منزلة محدودة في الحضارة الفارسية . اننا لا نجد تماثيل للآلهة ، او هياكل ، إذ اكتفت الآلهة بالمذابح ، لا بل زهدت بهذه الأخيرة مراراً . ولا نجد ايضاً قبوراً ، للأفراد أقله . وحسب علمنا لم يشيد الشخص لنفسه بيتاً كبيراً ، ولم يأت باي ابتكار في هذا المجال من حيث الهندسة او الزينة . ومع هذا يوجد فن فارسي ، إذ وجد ملوك فرس لم يستطيعوا التخلي عن التقاليد التي تربطهم بالملوك الشرقيين . ولأنهم فاقوهم قوة وغنى ، وقد أعلنوا أنفسهم « الملوك الكبار ، ملوك الملوك » ، ارادوا أقله مساواتهم بما خلدوا من آثار . لا بل فرض عليهم مثل هذا السلوك مقامهم في اعين رعاياهم الايرانيين الذين اعتقدوا بان الذي ينتخبه اورموزد هو من جوهر سام جداً .

وهكذا تعرض الفن الملكي ، في مراحل التصميم والتنفيذ ، الى تمجيد الملك والسلالة والسلطة الملكية . ولكن لم تبرز هذه الاهداف منذ البدء : ولم يكن كورش بحاجة الى شيء من هذا وكانت عاصمته يومئذ بسرغاد مدينة متواضعة . وغدت المبادرة في هذا المجال لنداريوس الاول الذي نظم الامبراطورية ، فتبنى الانواع الثلاثة من المباني التي لم تقصّل قط في دول اخرى عن فكرة السلطة الملكية وهي : النقوش بشكل ضخّم وبارز التي تذكر باعمال الملك الباهرة ، ثم القصر وهو الاطار المهيّب للحفلات والبلاط ، واخيراً القبر الذي يحمي شخص الملك من

الأنهات بعد موته . ولكن كان هذا الهدف الأخير رمزياً إذ لم يسع الفرس ، أو سعوا قليلاً جداً ، للاحتفاظ بالجثة الطبيعية . وفعلًا كان مبنى ، على شيء كثير من البساطة ، قد جرى ما تبقى من كورش . ولكن أيام داريوس وجد تقليد في غاية السمو يؤكد بان الملك لا يخضع للناموس الطبيعي .

وغدا الفن الفارسي ، وهو فن ملكي ، متعدد النماذج والأصول ، إذ لم يكن لايران تقاليد عريقة ، بينما عرف الشرق الذي خضع للفرس بغناه في هذا المجال وبغنى اختباراته . وقد قدمت المناطق المواد الأولى والعملة



الشكل ١٧ - منطقة برسبوليس

ورجال الفن . ولنصغ الى داريوس الأول في سوزه : « لقد أتيت من بعيد بالمواد التي بنيت بها هذا القصر في سوزه . والشعب البابلي هو الذي حفر الأرض وكسّم الحصى ، وجلب الارز من لبنان ، وقد أتى به البابليون حتى بابل ، واصله من بابل « الايونيوث والكاريون » - وهم مسبيوث - الى سوزه . وأتوا بخشب الصندل من الهند ، والذهب من سريديس وبكتريه ، واللازورد والزنجفر من سوغديانه ، والفيروز من بلاد خوارزم ، والفضة

والرصاص من مصر ، والمواد التي تزين الجدران من ايونية ، والعاج من اثيوبية والهند ، والعواميد الحجرية من كاريه . وكان نحاسو الحجارة ايونيين وليديين ، والصاغة ليديين ومصريين وعمال الخنزف بابليين ، ومزينو الجدران ماديين ومصريين . لقد انجز عمل باهر في سوزه . ليحمي الإله اورموزد... » وقد أتى هؤلاء الرجال ، وهم مختلفو الاجناس ، بالحلول التي ارتأوها وعملوا حسب فنونهم . واننا نجل الشخص الذي نسق هذه الاعمال . ولكن على كل برز القصر وكأنه مختصر للامبراطورية واتخذ من ثم هذا الفن قيمة رمزية .

ولم يستعمل احد غير داريوس النقوش الهائلة التي توخت التذكير . انها نقوش «هستون» الصخرية وقد حفرت على علو مئة متر وعلى صخرة تشرف على احدى ممرات جبال زغروس ، وهي الطريق التاريخي الكبير بين بلاد آشور وبلاد ماداي . وتتغنى هذه النقوش بالانتصار الذي احرزه داريوس على الثائرين الذين هددوا أمن وسلامة الامبراطورية غداة تسلمه العرش . وفي أعلى النقوش رسم يرتفع فوقه رمز أورموزد: قائدان والملك عشرة من الاعداء وقد ألقى

أصم أرما وقيد القمعة الآخرون ووضع الجبل في عنقهم ، وفي الأسفل نقرأ كتابة بلغات ثلاث تسرد الحوادث . ولم يستطع احد ان يقرأها وهو على الطريق ، وغدا الجهد المبذول لقراءتها اشادة عظيمة للملك وجبروته .

والقبور الملكية في برسبوليس ونكش - اي - روستم *Naksh - i - Roustem* هي صخرية ايضا ، وقد أخذوا فكرتها الاولى عن القبور المصرية . ولكن لم يتسع داخلها إلا الى رواق وغرفة دون نقوش او رسوم ، وقد بقي من ثم في غاية البساطة . وصباوا جل اعتنائهم على الخارج . وقسمت الصخرة ، وقد برزت على شكل صليب يوناني كبير ، قسمين عليها النقوش . ويمثل القسم الذي في الوسط ، وهو الاكثر عرضا ، مجموعة من العواميد تحمل اقريزا : أي واجهة قصر يليشق في وسطها باب القبر . ويمثل القسم الاعلى الملك امام مذبح النار الذي يعالوه اورموزد ، وترى الملك على دكة يحملها رجال يرمزون الى المرمزبات .

والقصور هي اشد تأثيرا ايضا . وقد أراد كل ملك ان يشيد له قصراً خاصاً في العواصم الوطنية ، او أقله زيادة شيء جديد على مباني أسلافه . وهذا ما يفسر لنا كثرة القصور وتشابك اجزائها . وهذا ما يشرح لنا ايضا السرعة التي جعلتهم يستعملون الآجر للجدران طبقاً للتقاليد الاشورية ، والاحتفاظ بالحجارة لاطار الأبواب ، مع اننا في مناطق كبلاذ فارس حيث لا تنقص المواد الصلبة للبناء . وهذا ما يعلل لنا اخيراً عدم اتمامهم الاعمال مراراً ! ففي برسبوليس بالذات نرى اجزاء الأساطين انتهوا من اعدادها ولكنهم لم يركزوها في مواضعها .

وتعرفنا خاصة اعمال التنقيب الجديدة بقصر سوزه الكبير وبمجموعة المدينة الملكية المهيبة في برسبوليس . وبعد ان شيد داريوس هذه المدينة الاخيرة لتصبح عاصمة السلالة بدأوا رويداً رويداً يتخلون عنها لمصلحة سوزه ، ولم يظهر فيها الملك إلا نادراً جداً وذلك في مواسم الاحتفالات الرسمية . ولكن بقيت برسبوليس مع هذا رمزاً للمملكة الاخمينية اكثر من المدن الاخرى ، وعلى هذا الاعتبار احرقها صاحب الاسكندر عندما مروا فيها وذلك ثأراً لما سببه الفرس من خراب في بلاد اليونان اثناء الحروب المادية . وتستند هذه المدينة الى الجبل وتشرف على سهل واسع . وهي تمتد على فسحة مسطحة نصف اصطناعية يبلغ طولها ٥٣٠ م وعرضها ٣٣٠ م إذ قد فُرض الصخر وسويت حافات حيث أقيم جدار من الحجر النحيت . ولم يخشوا الفيضانات ، ولكنهم حذوا حذو تقاليد بلاد الرافدين فشيّدوا القصور الملكية في مكان يشرف على المدينة التي يقطنها عموم السكان .

وغدت قاعة الاستقبال ، «الأبدانة» ، حيث يجلس الملك على عرشه تحيط به هالة من الوقار والعظمة اهم اجزاء قصر سوزه وبرسبوليس . وتحمل سقف هذه القاعة المصنوعة من خشب الارز اعمدة تعد قليلة العدد نسبة الى مقاييس القاعة — ٣٦ عموداً فقط في مربع يبلغ ضلعه

٣٥٠ م - ورفيعة جداً نسبة لعلوها - قطر القصر ١٦٠ م لعلو ٢٠ م تقريباً - ونسقوا هذه « الغرفة ذات المئذنة عمود » على غرار قاعات الهياكل المصرية ، ولكن خفة وزن السقف سمحت بالبقاء على شكل العمود الرشيقة . ويوجد تجديد آخر سببه تاج العمود الذي يمثل ، فوق نقوش حلزونية الشكل ، رؤوس ثيران جائية .

وزاد فن التزيين في عظمة هذه الهندسة ، وقد اعتمد كثيراً على اللون ، لا بل على الحجارة الكريمة أو الذهب . ففي سوره رسموا صفوفاً طويلة من الجنود والأسود والحيوانات الخيالية على قطع من الآجر الناتي ، والمطلي بالطين وفقاً للطريقة البابلية ، والذي يظهر في أجزاء السلام والممرات السفلى . أما في برسيوليس فقد أعادت الرسوم المسطحة التي صورت على الحجر باظهار الجنود أو المكافئين الذين يحملون إلى السيد ، وهم في زيهم الوطني ، ضرائب اوطانهم . وهناك أيضاً رسوم ونقوش نافرة - وهذا ما يحدث نادراً جداً - تستلهم الرسوم الأسورية : الثور المجنح وله رأس بشري ، صراع الاسد والثور ، قتل وحش هائل بيد الملك . ولا نرى اي رسم او ظل رسم لامرأة ، بل نجد دوماً رسوم الملك ورعاياه وجنوده و ثروته وعظمته دون عطفه .

ولذا يبقى كل شيء في هذا المضمار على وتيرة واحدة ، وإن هم سعوا لبعث الحياة فيه . ومع هذا يحذر بنا ذكر تأثير الفن اليوناني على ما سبق لنا وذكرنا من تأثيرات عدة ، وانت بدا هذا التأثير محدوداً جداً نسبة لغيره او لم يبرز بصورة عملية الا في توجعات بعض الثياب والستائر ، ولكنه يوجد على كل حال وقد ضم الملك الى امبراطوريته جزءاً من العالم اليوناني وآتاه رجال فن من الأجزاء التي بقيت حرة ؛ غير ان احداً منهم لم يكن من الدرجة الاولى الممتازة ، أو ان احداً منهم لم يستطع ان يعبر كما يرغب عن المواضيع الرسمية؛ ولا يلاحظ وجودهم هنا وهناك الا في تجميد أو طية قطعة القماش الذي يغطي الجسم .

تعايشت معاً الحضارة الايرانية والحضارة اليونانية الكلاسيكية ، ولم
الميزة الايرانية والهلينية

تحل المنازعات التي نشبت بين الشعبين دون احتكاك هاتين الحضارتين . ولكن حذار ان نبالغ في مدى الاقتباسات التي أخذت عن الحضارة الهلينية . لقد سمح الملوك لليونان بالتجول في الشرق والوقوف على حالته . وما قام به هيرودوتس هو اكبر شاهد على هذا التسامح . ولكن تابع الفن اليوناني تطوره وكان قد تجاوز عهد تلمس طريقه . وعرف اليونان الهند بواسطة فارس ، ولكن بقيت معرفتهم لها سطحية جداً : وان وجد عملياً التأثير الهندي فلم يتجاوز حدود بعض المبادئ الطبية وبعض الادوية . ان أفلاطون عرف « فكرة الثنائية » الزرادشتية ، وقد استموت . ولكن انتهى كل شيء عند هذا الحد ، وعلينا ان نتنظر عدة قرون لنلاحظ انتشار عبادة ميترا وعلوم السحر السرية المنسوبة الى « المجوس » الذين لا يمثلون مع هذا ، الحضارة الايرانية في القرنين الخامس والرابع .

وبصورة معاكسة فلم يستهزئ الحضارة الهلينية ، وبصورة سطحية فقط ، إلا بعض أفراد الطبقات الحاكمة الذين رأوا فيها أساليب عيش رخاء ورقاهية لم يعرفوها قبلاً ولم يريدوا أن يجرموا أنفسهم منها . وفي زمن الحرب التي انتهت باندحار «سلامين» كان أحشوروش الملك قد وضع يده على بعض الآثار الفنية وأتى بها إلى سوزة . ودخلت نساء يونانيات إلى حرم الملك أو تزوجن مراغبة يحكمون المقاطعات الغربية . وخدم بعض الأطباء اليونان في بلاط ملك فارس من أمثال ديموسيدس الكروتوني *Democédès de Crotone* في القرن السادس وأبولونيد من جزيرة كوس *Apollonide de Cos* في القرن الخامس ، ثم كتيسياس *Clésias* ؛ ولكن يقال بأن إبقراط *Hippocrate* رفض عروض أحشوروش المغربية . وتجنبدمرتقة يونان كثيرون في صفوف الجيش الفارسي في القرن الرابع ، وقد لعب بعض من قوادهم دوراً مهماً ، دون أن يكسبوا مع هذا ثقة الملك الكاملة . ولم تجد التجارة الأثينية أي قيود . وباستطاعتنا أن نضيف إلى هذه الحقائق حلقات عدة ولكن دون أن نغير شيئاً من النتيجة . وإن غدا تقدم الحضارة الهلينية مؤكداً في آسية الصغرى الغربية ، حيث كانت قد استأملت إليها السكان الوطنيين ، فإن الإيرانيين مع هذا لم يستجيبوا كثيراً لهذه الحضارة ..

وفي زمن حروب الاسكندر تواجه الشعبان . وكان كل منهما يمثل عالماً مستقلاً وحضارة مختلفة . ولم تستطع جدارة البطل كإلم يتوصل نبله أن يشيدا جسراً دائماً بينهما .

القسم الثاني

حضارات الانسان في الشرق الأدنى

المقدمات

بالرغم من اللقاءات التي لا يخطر ببالنا قط اسدال الستار عليها - ومن الجلي ان كل تصنيف يخطئ ، حين يبسط ، ويضحى بالكثير من التفاصيل - فان هنالك ، في المهود نفسها ، ابتداء من الالف الثالث قبل المسيح ، حضارات تتميز عن الحضارات الامبراطورية التي جرى استعراضها في الفصول السابقة .

ارتبطت الحضارات الامبراطورية كلها بدول اتسعت رقعتها وارتفع عدد سكانها وفرص وجودها ، واجبات نافذة في كل من التنظيم الاداري والتنظيم السياسي ، وتوجب عليها تأمين سبل العيش لجمهير غفيرة وتوجيه وتنسيق نشاط اعضائها الاقتصادي سعيًا وراء هذا الهدف ، كما حدث في مصر مثلاً . ومهما يكن من الامر ، فان هذه الدول ، العظيمة بمساحاتها الشاسعة وبارتفاع عدد سكانها ، والمعرضة ، من حيث هي دول برية ، لاطلاع وتهديدات جيранها الذين تقلقهم تارة ويقلقونها اخرى ، والمجرورة جراً الى حروب لا تستطيع ان تحجم عن خوضها ان هي لم ترض بالزوال ، قد واجهت مشاغل عسكرية خطيرة لم تنج من كابوسها الا مصر وحدها لمدة طويلة . وهكذا تضافرت فيها اسباب مختلفة ادت الى اعلاء شأن وسلطة ملك يسمو فوق المستوى البشري قد يؤله احياناً ، والى انصهار الفرد في جمهور الرعايا . ان هذه الحضارات لم تستهدف الانسان بل الدولة المتمثلة بشخص الملك .

اذا ما اخذنا بعين الاعتبار القوة التي بلغتها هذه الامبراطوريات والنفوذ الذي تمتعت به بفضل هذه القوة ، يصبح من الطبيعي الا نرى حضارات معاصرة تعتمد مثلاً على آخر ، او تفكر به مجرد تفكير فقط . وبالْحَقِيقَةُ ، ان « النزعة الانسانية » التي حررت الفرد فاناطت بالدولة مهمة مساعدته في تفتح كيانه المادي والروحي ، لم تبرز ، بشيء من اللاوعي ، الا بعد زمن ، ولم تحظ بالفوز الا بعد زمن اطول ، عاجزة في التاريخ القديم عن ارساء فوزها على اساس وطيده ودائم . ولكن المهم في ذلك ليس عدم الاكتمال وعدم الاستقرار ، بل قلص جرثومة على الاقل ، هنا وهناك ، مصيرها الاجهاش حيناً والنمو حيناً ، وسماع صدى آخر مختلف ، حتى ولو تضخم في غير مكان ، او انطفأ ببعض السرعة . ولكن استجلاء هذه المقدمة ليس بالامر اليسير . فقد تختلف

جوهرأ وتكون سياسية او اقتصادية هنا ، او اخلاقية او عقلية او فنية هناك . وقد يحدث
احياناً كثيرة الا يكون هنالك شيء ملموس ، فنجد انفسنا امام دلائل لا امام حقائق ، او
امام وريث بعيد يشوّه الارث الذي انتقل اليه . ولكن لا نهتمن للامر ، بل فلنمسك بالفارق
الذي يضي عليه دقته قيمة كبرى .

ويودا ان نجد خطوطاً اخرى مشتركة بين هذه الحضارات التي صنفناها على حدة ، ولكننا لا
نكتشف الا خطأ واحداً ، جديراً بالتالي ببعض الاعتبار ، وهو ان جميع هذه الحضارات قد
نمت في كنف شعوب تؤلف جماعات اقل عدداً من تلك التي الفتها الشعوب الامبراطورية ، وتقيم
في رقعة اصغر مساحة ، ويعيش بعضها في مناطق مختلفة لا تخضع لوحدة سياسية . وهي لم
تواجه ، بصورة عامة ، معاضل تنظيم ملحة ، وقد عاجلت ما واجهته منها بحلول غير عسيرة .
وقد اضطرت الدولة بحكم الضرورة ، في غالب الاحيان ، الى التراجع عن المطامع الكبيرة ، فوقفت
من هذه المعاضل موقفاً حكيماً ، حاصرة مطالبها ومطلقة للانسان حريته في العمل . اجل ،
قد فرض عليها التهديد الخارجي ، احياناً ، تعبئة جميع قواها الشعبية ، متجاوزة في ذلك
محاولات اعظم الملكيات شأناً ، ولكنها سلكت حينذاك اوفق السبل امامها ، اعني التوجه
المباشر الى الفرد وارثاق الحصول ، ولو جزئياً ، من قبوله الاختياري ، على ما يعجز اي قسر
عن تحصيله . وهكذا تخرج الدولة والانسان ، من هذه الازمات نفسها ، اوثق ارتباطاً وتضامناً .
يصح تطبيق هذه المحاولة التحليلية على اليونان بنوع خاص . ولا يزال من المستهجن تطبيقها ،
كما وردت ، على حضارات الدول الصغيرة التي سنستعرضها استعراضاً سريعاً في الصفحات التالية ،
لان الغموض ما يبرح يكتنفها بظلمته . ويحوز لنا الاعتقاد بان الصلة التي تقوم بين واقع الدولة
الصغيرة وبين بعض الفوارق الحضارية المعينة ، قد تقابل حقيقة ثابتة ، اذ اننا رأينا ، في حالة
خاصة نعرفها تماماً ، ما يبرر منطقياً قيام هذه الصلة . او ليس من الممكن ايضاً ، والحالة هذه ،
ان تكون هذه الصلة قد قامت في غير مكان ، بكثير او قليل من الاسترخاء ؟

الفصل الأول

الحضارة الأيجية

قد يبدو غريباً ان نفرز للحضارة الايجية فصلاً خاصاً في سلسلة الفصول التي سنسندھا الى هذه المحاولة . ولكننا نعتقد مع ذلك بان لهذا التصنيف ما يبرره . فبالرغم من ان الكلام عن «الامبراطوريات» عند الايجيين تقليد موروث وامر مشروع ، فليس المقصود بها سوى دول صغيرة يكاد مجموع مساحة اراضيها لا يذكر اذا ما قورن بالامبراطوريات البرية الكبيرة ، ولا تموض السيطرة التي بسطتها هذه الدويلات على البحر عما تتصف به من تواضع نسبي . والمقصود ايضاً هو حضارة يرتبط نشاطها الاقتصادي الرئيسي ارتباطاً متيناً بالتجارة ، وخصوصاً بالتجارة البحرية التي تترك للانسان ، او لفرق صغيرة من الناس ، استقلالاً اوسع من ذلك الذي تتركه الزراعة ، لا سيما في المناطق التي تقتضي رياً منظماً . وقد عبّر عن هذه الحضارة ، من جهة ثانية ، فن اكثر انفلتاً وعقوية من فنون الشرق القديم جميعها ، حتى عندما اوجبت على الفنانين معالجة بعض المواضيع الملكية او الدينية . وهي قد تركت اخيراً للحضارة اليونانية ، التي كرس ازدهارها اللاحق انتصار الفردية ، تراثاً اعم من تراث الشرق او اسرع نضجاً على الاقل ، بفضل المجاورة الجغرافية والتنضيد الجغرافي احياناً .

١ - وحدة الحضارة الايجية وازدواجيتها

الحضارة الايجية واحدة ومزدوجة معاً .

المهد الكريتي

ولدت في كريت ، اكبر جزر البحر المتوسط الشرقي ، وهي الجزيرة الوحيدة التي تتخللها بعض السهول وتنشط فيها بالتالي الاعمال الزراعية . وعلى الرغم من جودة مناخها ، فان الانسان لم يظهر فيها الا بعد ظهوره في مناطق الشرق الادنى الاخرى بزمان طويل ، ولم يترك في الواقع اي اثر قبل عهد الحجر المصقول ، في حال ان آثار عهد الحجر المشطوب وافرة جداً في مصر وفلسطين وبلاد ما بين النهرين . وهي لم تسجل ، طوال قرون عديدة ، اي تقدم على ارخييل السيكلاد . اهلت ، وهذا الارخييل ، بالعنصر البشري نفسه الذي يقلب ان سواحل

آسيا الصغرى اهلت به ايضا ، وهو عنصر لا يمت بصلة الى العناصر المعروفة الكبرى وأطلق عليه لذلك لقب «التوسطي» . فالأحرى بنا ، كي نفسر هذه المقابلة ، ان نفكر بسهولة الملاحظة بين جميع اجزاء هذا العالم الإيحيى الذي تنتثر جزره هنا وهناك وتكثر فيه الاجوان والخلجان وتهب عليه ارياح منتظمة في فصل الصيف . بيد ان جزيرة ميلوس وحدها ، في مجموعة السيكلاد ، حوت طبقات وافرة من حجر يركاني اسود اشبه بالزجاج (الابوسيدن) توفر يمينه وتصريفه صفائح رقيقة دقيقة الزوايا ، ولذلك ربما كانت في البدء اكثر ازدهاراً من جزيرة كريت . ويصح القول نفسه عن جزيرة قبرص الغنية بالنحاس الذي عرف باسمها والقريبة من آسيا التي كانت حضاراتها بمثابة المرشد لها .

اما كريت فلم تأخذ في البروز الا في النصف الاول من الالف الثالث ، اي قرونًا طويلة بعد مصر وبلاد ما بين النهرين اللتين اغدقت الطبيعة عليهما نعيمها . فها هي تنطلق فجأة في السنة الالفين تقريباً فتشيد القصور في كنوسوس وفايستوس وماليا بنوع خاص . ولكن هذه القصور تهدمت حوالي السنة ١٧٠٠ ، بفعل كارثة شاملة قد تكون زلزالاً ارضياً او غارة صاعقة قام بها الاعداء . ثم اعيد تشييدها وابتدأ حينذاك عهد ازدهار كريت عامة وكنوسوس بنوع خاص التي كتب البقاء لقصرها وحده في الجزيرة منذ السنة ١٥٠٠ تقريباً .

ذاعت حينذاك في كافة أنحاء المتوسط الشرقي شهرة كريت ، ولا سيما شهرة مينوس ، الملك الاسطوري الذي تكلم عنه الاغريق والذي يغلب انه اسم لاحدى السلالات لانه لا يعقل ان يكون من اكتشافات غيلتهم فقط . وقد بدا اثر هذه الشهرة في جنوبي اليونان وفي البلوبونيز بنوع خاص .

لم تعرف مناطق شبه الجزيرة اليونانية حتى ذاك التاريخ سوى حضارة فقيرة ومتدنية . وقد تعرضت منذ اوائل الالف الثاني تقريباً ، بفضل اتصالها بالمناطق البلقانية الاخرى ، لغزوات دورية متكررة قام بها الهنود الاوروبيون الذين كثيراً ما نجحوا في الاقامة في البلاد . ومنذ القرن السادس عشر توصل المستوطنون الجدد الى تسلّم السلطة ، على الاقل في منطقة ارغوس ، في الشمال الشرقي من البلوبونيز ، وهؤلاء هم الاخيون الاغريق ، او بالأحرى احدى العنصريات التي ستكون الشعب الاغريقي فيما بعد . وقد تأثروا بنفوذ الكريتيين واخذوا ينقلون الكثير عن حضارتهم ، محتفظين في الوقت نفسه باكثر من ميزة من ميزاتهم الخاصة . بيد انه قد مر عهد حققت فيه كريت سيطرة نافذة عليهم تكاد لا تختلف عن السيطرة السياسية ، لا سيما وان كريت وكنوسوس كانتا حينذاك في اوج ازدهارهما .

غير ان الأخيين بفضل صفاتهم الحربية واستخدامهم العربات التي تجرها
العهد الميسيني
الخيول والقوى النضيرة التي تجيش فيهم ، وبفعل سحر الثروة التي ينعم بها
مربوهم ، قد انتهوا الى مهاجمة هؤلاء المربين . فذلك قصر كنوسوس دكاً حوالي السنة ١٤٠٠ ، ولم

يكتب أنه ان ينهض بعد ذلك . ويمكننا ان نحدد بهذا العهد اقامة شعب جديد ، كبريتي حسب رواية الكتاب المقدس ، في الشاطئ الجنوبي من بلاد كنعان ؛ ويرجع ان هؤلاء الفلسطينيين الذين حلت فلسطين اسمهم من بعدهم ، مهاجرون هاريون من بلاد عمها الدمار . اما الارغوليد ، على نقيض ذلك ، فقد اخذت في الوقت نفسه تتقدم وتزدهر . فكيف لا نجتمع بين هذين الواقعيين ، الهبوط في الجزيرة والتقدم في شبه الجزيرة ، بافتراض حصول حملة منصوره واستلاب منظم ؟

ويدعم هذا الاعتقاد ان في الحضارة التي تمت حينذاك ، لا سيما في ميسين - التي اعطتها اسمها التقليدي - وفي تيرنثوس ، اثرأ كبيراً للحضارة الكريتية . وليس من ريب في ان الأخيين ، في غزوم الجزيرة والقضاء على الحياة النشطة فيها ، نقلوا منها الكنوز والفنانين والعمال بغية تحسين حياتهم المادية الخاصة ؛ ولكن وجود هذه الأشياء وهؤلاء الاشخاص عندهم ما كان ليبقى دون نتيجة في الحقل الأدبي ، لا سيما على الصعيد الديني .

وقد استثمروا ما ورثوه من كريت على الصعيد الاقتصادي ايضاً . فسيطروا على البحر ومارسوا التجارة مندفعين فيها شطر مناطق جديدة كالليونان وغربي المتوسط مثلاً . وكانوا اكثر خشونة من الكريتيين فحاربوا ونظموا جماعات من المستعمرين ووجهوها هنا وهناك ، الى قبرص وربما الى شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية حيث اسست دولاً جديدة . وقد نهض الأخيون جميعهم بعمل مشترك ضد مدينة طروادة عند مدخل المضائق ، وهو ذاك الحصار الطويل الذي خلدت ذكره الملاحم الهوميروسية . أما تاريخ هذا الحدث فلا يزال موضوع خلاف وجدل ؛ فهل هو وقع في أوائل القرن الرابع عشر ، أم في أواسط القرن الثالث عشر ، أم في أواخره ؟ ولا اتفاق كذلك حول الاسباب التي أوجبت النهوض بهذه الحملة . ولكن ليس من شك في قيام الحملة وانتصار الأخيين .

غير ان هذا الانتصار لم يحل دون تسرب الوهن الى الحضارة الميسينية منذ السنة ١٢٠٠ . لم تصب هذه الحضارة بانهار مفاجئ سريع ، بل اعترأها هبوط تدريجي سببته موجات يونانية جديدة آتية من الشمال هي موجات الدورين . وقد توفر ل هؤلاء الحديد الكافي لان يصنعوا منه جميع أسلحتهم فتغلبوا على أسلافهم المتسلحين بالبرونز الذين بسطوا سيطرتهم على العالم الايحي طيلة قرنين كاملين .

وهكذا نرانا امام حضارتين متميزتين بالرغم من صلة القربى بينهما . أجل وحدة وازدواجية انها تجاورتا في المكان مع ان المسافة الفاصلة بين مركزيهما تتجاوز ثلاثمائة كيلومتر . وتجاورتا في الزمان ، الى حد ما ، ايضاً ، لا بل ان تحديد تاريخ زمنهما التقريبي يلخص علائقهما الواحدة بالآخرى . فقد دامت الاولى من السنة ٢٠٠٠ حتى السنة ١٤٠٠ ودامت الثانية من السنة ١٦٠٠ حتى السنة ١١٠٠ قبل المسيح . نشأت الاولى ببطء في جزيرة متوسطية ، فأثرت في ولادة الثانية أولاً ، ثم امتدت في وريثتها بعد زوالها ؛ ووفقت الثانية بين ما تقبلته

أو استلبته وبين ما جاء به افرادها من السهول الشمالية . الأولى محلية ومستقلة والثانية نتاج المهاجرين الذين بنوها بمستوردات خارجية . الأولى تفرغت للتجارة بنوع خاص ، والثانية نزعت الى الحرب واتصفت بانها بحرية وبرية على السواء . الأولى أنيقة ورقيقة ، والثانية أكثر قسوة وسعياً وراء الذهب .

فجلى اذن ان هاتين الحضارتين تتكاملان جزئياً وتتقابلان ايضاً . وليس من سبيل لدرسها مجتمعتين .

بيد انه يحذر بنا ، قبل الشروع بهذا الاستعراض المزدوج ، ان نلفت حذره المستندات النظر الى واقع يفسر نواقص هذا الاستعراض والتحفظات التي ستدخله أحياناً كثيرة : ان حل رموز الكتابات التي استعملها الايجيون لم يتوصل بعد الى النتائج المتوخاة . وليست المستندات ما يعوزنا ؛ فهناك ، على الأخص ، أكثر من ١٥٠٠ سبورة غرينية بحففة بالحرارة اكتشفت في اطلال كنوسوس وحدها ، وعدة مئات اخرى عثر عليها في بيلوس من اعمال البلوونيز . ويستدل من ذلك ان القصور كان لها مكاتبها ومحفوظاتها وربما مكاتبها ايضاً ، ثم ان كريت قد زودتنا ، بالإضافة الى ذلك ، بالكثير من العاديات ، لا سيما الاختام والخزفيات التي تحمل رموزاً كتابية . فالكتابة اذن لم تكن وقفاً على الادارات ؛ واذا اعتمدنا على وجه استعمال بعض هذه العاديات ، جاز لنا الاستنتاج ان الافراد ، حتى في الطبقات الاجتماعية الدنيا ، كانوا يفهمون هذه الرموز . وقد اعتمدت في الكتابة ثلاث طرائق على الأقل احداها هيروغليفية والاخريان كتابيتان ، وقد بذلت جهود كثيرة غير مثمرة لكشف سرهما . فقيل : «تنتظر كريت شموليونها» ؛ غير ان شموليون قدوقف الى حجر الرشيد الذي نقش عليه كتابة في لغتين مختلفتين ، وهذا ما لا يتوفر هنا . ولكن العلماء البريطانيين ، في اواخر السنة ١٩٥٣ ، قد كشفوا عن النتائج التي انتهوا اليها في تطبيق اساليب جديدة على احدى الكتابات . وما لبثت هذه النتائج ان فرضت نفسها على المعنيين بهذه الكتابة . ويمكن القول اليوم ان الأخيين تكلّموا وكتبوا ضرباً من ضروب اللغات اليونانية التي اصبحت بعض مفرداتها ، منذ اليوم ، سهلة القراءة والفهم . وليس من ضرورة للتنبؤ بالآمال المعلقة على هذا الحل . فاذا ما استجلي واكتمل وتساؤل المستندات الاخرى ، قد تنقلب النظريات المأخوذة بها رأساً على عقب ، حتى تلك التي اوجزناها في الصفحات السابقة . ولكن الحل لا يزال في بدايته .

لذلك يحذر بنا ، في الوقت الحاضر ايضاً ، ان نكتفي بالتقاليد التي نقلها الاغريق وشوّهوها احياناً وبما اسفرت عنه اعمال التنقيب من آثار وافرة منذ السنة ١٨٧٥ في البلوونيز ومنذ السنة ١٩٠٠ في كريت .

٢ - الحضارة الكريتية

الملكية المينوسية ليس لدينا من الحقائق الثابتة حول الملكية المينوسية الا النزر اليسير .

فتعدد القصور في النصف الاول من الالف الثاني يحدو بنا الى الاعتقاد بتعدد الممالك . ومع ذلك فليس من مدينة احيطت بالاسوار، ولم تظهر القصور بمظهر الحصون الا لفترة قصيرة . فلم تكن الجزيرة اذن ساحة حرب بين اطباع متنافسة . ومهما يكن من الامر ، فان كنوسوس قد ضمنت لنفسها الغلبة الاخيرة كما يشهد بذلك الازدهار الذي انتهت اليه والذي يثبت سيطرتها على الجزيرة بكليتها . اما الحياة النشطة التي استمرت في المساكن القروية الفنية فلا يجب ردّها بالضرورة الى الملوك الصغار ، بل الى الحكام الذين تعينهم السلطة المركزية . وان الغنى المادي الذي تتصف به الحضارة الكنوسوسية لدليل ثابت على غنى هذه الملكية . وكان للقصر مصانعه ومخازنه وجمهور غفير من العمال والخدم . واذا ما استندنا الى اهمية المكاتب والمحفوظات الكتابية ، جاز لنا التأكيد بان الملكية قد سمت لتحقيق نوع من المركزية . بيد انه يتعذر علينا الادلاء بشيء عن الاساليب الادارية المتبعة .

لا تجوز المغالاة هنا في الكلام عن ملكية قوية او عن امبراطورية مينوسية . اما القوة البحرية فلا يرقى اليها شك ، اذ بدونها يصبح تحصين المرافئ والمدن والقصور امراً لا مفر منه . ويعتبر مينوس في التقليد اليوناني مؤسس اول ملكية بحرية ايجية . ويثبت اتساع حركة المقايضات ، مع جميع بلدان المتوسط الشرقي ، ان هذا البحر ، كما يؤكد تومسيدد ، قد طهر من القراصنة . ويضيف المؤرخ نفسه ان مينوس قد اقام «ابناءه» رؤساء للمستعمرات في معظم جزر السيكلاد ، مما يحمل على الاعتقاد بسيطرة سياسية على الجزر . غير ان علم الآثار لم يكشف عن اي نفوذ هام خلال عهد الازدهار في كنوسوس . ولولا اسطورة المينوطور ، وهو مسخ مينوس الذي توجب على الاثينيين ان يقدموا له كل سنة ضحية بشرية ، لكننا اكتفين بالقول ان اثر الحضارة الكريكية في اليونان قد اقتصر على الاشعاع فقط . فهناك اذن صلة انتساب وخضوع لم ينج منها ، بالتأكيد ، سوى الارغوليد وقبرص والساحل الآسيوي . اما تلك المواقع القليلة المتشتتة التي احتفظت باسم مينوس فلا تكفي لان نرسي عليها القول بامبراطورية كبيرة حقيقية .

وعلى نقيض ذلك كانت القوة العسكرية اقل شأنًا . اجسل ، ان على «اناء الرئيس» رسماً لضابط صابر على حمل الاسلحة ، وان اخربة كنوسوس حوت مخازن للأسلحة . ولكن هذه الأدلة تبقى محدودة الاهمية . فالملكية الكريكية اعتمدت على بحريتها ، ولم تقو بحريتها على ان ترد عنها هجمات الغزاة المستلبين ولا الكارثة الكبرى النهائية .

كان للملكية صفة دينية . وليست الرسوم التي تزين قاعة العرش في كنوسوس والغرف الملاصقة لها مجرد رسوم جمالية فحسب . الملك يقبض على صولجان وتحيط به بعض الرموز : زهرة الزنبق وخصوصاً الفأس المزدوجة التي كثيراً ما رسمت على الأعمدة والجدران ايضاً . وكانت هذه الفأس ، عند بعض شعوب آسيا الغربية ، شعاراً دينياً وخاصة من خاصيات بعض الآلهة كـ « تيشوب » الحوري و « حدد » الدوليكانى . وقد نقل الأغريق اسمها الآسيوي « لابرِس » ؛

وليس ما أطلقوا عليه اسم « لايرنت » سوى قصر كنوسوس ، قصر الملكية التي ترمز إليها الفأس المزدوجة . فليس من ريب إذن حول العلاقة بين هذه الملكية والديانة . ولكن لا شيء لدينا يساعد على توضيح هذه العلاقة ، حتى تلك القصة التي رواها افلاطون .

لنا بحاجة الى التقليد اليوناني كي ننسب الى الملك مهام قضائية . فهو قد تدخل ، في كل مكان ، في واقع السلطة الملكية وجوهرها . ولكن هل يجوز لنا ، اذا جعل الاغريق من مينوس قاضياً للجحيم لا تلين له قناة ، ان نستنتج ان سلالته من بعده قد اشتهرت بتقشف خاص ؟

ويستدل من قلة ما نعرفه وكثرة ما نجهله ان الملكية المينوسية ، حتى لو حملت الحضارة الكريتية طابعها واستحال ادراكها بدونها ، أبعد في الوقت الحاضر من ان تجعل درس هذه الحضارة أمراً مغرباً يوجب الاهتمام .

بيد ان الأمر على خلاف ذلك في بعض مظاهر الحياة الاقتصادية على الأقل . النشاط الاقتصادي
ويمكننا القول ان الزراعة كانت مزدهرة ، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار نسبة الجودة المحدودة في تربة البلاد الايجية ، واحتلال الجبال للقسم الأكبر من مساحة الجزيرة ، واستطالة فصول الصيف الجافة فيها ، والحاجة للرعي بسبب فقدان الانهار الكبيرة .

ولم تتمكن الديانة نفسها وتستقر الا بتأثير الحياة الزراعية دون غيرها تقريباً . ولم تتطور بعد ذلك حتى عندما تنوعت اعمال الانسان ومشاغله . وقد اشتهر الكريتيون الى حد بعيد في الاستفادة من كل الموارد الطبيعية ، ويشير حذقهم ، مع حفظ الاقيسة ، الاعجاب نفسه الذي يشهده العمل الزراعي المنظم في الاودية النهرية الكبيرة من الشرق . يغلب على الظن ان انتاج الحبوب ، ابان عهد الازدهار ، لم يكن ليفي بحاجة السكان ، في حال ان انتاج الاشجار المثمرة ، الكرمة والزيتون خصوصاً ، يفيض عن الحاجة ويصدر بعضه . وقامت ، الى جانب ذلك ، تربية المواشي حتى الابقار منها ، وقد كَيْفَ بعض الفلاحين حياتهم ، بفضل المساكن الفصلية ، وفقاً لحركة ارتياد الكلأ بين السهول والجبال . وعرف الحمار منذ زمن بعيد ، ثم ظهر الحصان قبيل الالف الثاني غير ان استخدامه لم يصبح شاملاً . وكان الصيد ناشطاً جداً في بعض النقاط من الشاطئ ، يستهدف ، بالإضافة الى سدّ حاجة من حاجات التغذية ، الحصول على صدف « الموركس » الثمين الذي يستخرج منه الأرجوان . وفي استطاعتنا ان نطيل هذا الشرح الموجز بالكلام عن القفران والازهار والاحراج وغيرها . ولكن هذه الاشياء كلها ، ولو مجموعة ، ابعد من ان تملأ ازدهار كريت الذي ارتكز دونما ريب الى قواعد اخرى راسخة .

يؤيد نشاط الصناعة اكتشاف المعامل الملحقة بالقصور ومدينة اصحاب الحرف ، غورنيا ، في اقصى الخليج القائم الى الشمال الشرقي من الجزيرة . وقد اكتشفت واستُغيت في جميع حقول الانتاج تقنيات على قسط كبير من الكمال . ويستدل من دقة الخزفيات ان الكريتيين استعملوا مخرطة سريعة الدوران . وقد توصّلوا ، باكراً جداً ، في حقن التعمدين ، الى

اقتان التنزيل والتفشية والالحام . اما الصياغة وصناعة الاسلحة من البرونز والمعادن الثمينة فلم تكن ادنى مستوى من اجود الصناعات في مصر وبلاد ما بين النهرين .

وأفضت الصناعة الى تجارة عارمة لم تعوزها التجهيزات الفنية اللازمة . أجل ليس الانسان من أنشأ المرافىء ، فلم يقتض للملاحة سوى الشطآن الطبيعية ؛ ونحن لا نعلم شيئاً عن المراكب التجارية ، ولكن يكفيننا ان نخط علماً بالمراكب الحربية ، اذ ان الاعمال الانشائية قد تقرر لها وحدها في البدء . وقد توفرت في الداخل شبكة من الطرقات المرصوفة بالألواح الحجرية والمعدّنة في الاساس الحيوانات قبل العجلات ، تؤدي الى المدن التجارية والقصور . وقد عمل في الجزيرة ، على غرار الشرق ، بنظام معين لليازين والمكايل ، فكانت هنالك سبائك من نحاس واسطوانات من معدن ثمين تسهل المقايضات ، وقد سميت احياناً بعلامات خاصة للدلالة على قانونيتها ، ولكن لا شيء ، ويا للأسف ، يخبرنا عن القانون التجاري . فكيف نتصور ان كريت التي ربطتها بعالم ما بين النهرين علائق ثابتة قد اهملت المقارضة على انواعها : المقايضة والشراكة وغيرها ؟ ولا يمكن ادراك تطور هذه التجارة دون جهاز قضائي يراعي الظروف الخاصة للتجارة البحرية .

فكان من الواجب ، وذلك عن طريق البحر فحسب ، توين الصناعة بالخدمات غير المتوفرة في الجزيرة وتصريف انتاجها في الخارج . وقد أمّن النقل البحري خير تأمين هذه المهمة المزدوجة ، فلم تعوز الفنانين الكريتيين الحجارة ولا المعادن المختلفة . وقد عثر على بعض مصنوعاتهم في مصر وقبرص وعلى الشاطئ الفينيقي (جبيل وأوغاريت ورأس شمرا) وعلى شواطئ آسيا الصغرى وفي اليونان ، كما عثر على الكثير منها في جزر السيكلاد حيث كانت جزيرة ميلوس خاصة ، على ما يبدو ، فرعاً اقتصادياً تابعاً لكريت .

لقد استهدفنا قبل اي شيء آخر ، من هذه العلائق المتعددة ، تفسير طريق بحر ايجه المعترضة
الثروة البادية في الحضارة الكريتيّة . ولم ينطفئ الاثر الذي تركته بل اتسع مكانه في التقليد اليوناني حتى ان هوميروس سيتكلم عن الجزيرة . « الجميلة والخصيبة والمروية والآهلة بسكان لا حصر لهم وذات المدن التسعين » .

وهناك اكثر من هذا . فمع هذه الحضارة تبرز للمرة الاولى في العالم القديم ، حياة اقتصادية تسيطر عليها التجارة البحرية . وتضفي عليها هذه الميزة جدّة اكيدة بين الحضارات الشرقية التي تمت اليها باكثر من صلة . وكان ذلك بحكم الحتم في جزيرة فرضت الطبيعة فيها على الانسان ظروفا حياتية تختلف كل الاختلاف عن تلك التي فرضتها عليه في وادي النيل والفرات وقد اعدّها موقعا لدور قامت به خير قيام ، وهو انها ، تسهلا للاتصالات والمقايضات المتنوعة ، فتحت طريقا جديدة تتر في المتوسط الشرقي من الشرق الى الغرب وتلتقي ، عند قبرص ، الطريق الشمالية الجنوبية الموازية للشواطئ الاسيوية والمعروفة والمتبعة منذ امد بعيد ،

كما تشهد على ذلك علائق مصر يجبل . قبل ذلك ، كان الاتصال التجاري بين أوروبا وآسيا يتم عن طريق المضائق بنوع خاص . وإنما «طروادة الثانية» ، إحدى المدن التسع المشيدة فوق مرتفع هيسارليك ، مدينة لهذا الاتصال بازدهارها حوالى السنة ٢٣٠٠ قبل المسيح تقريباً ، وإن كانت مدينة به أيضاً لعلائقها ببلدان البحر الأسود . غير أن هذه الطريق ، عندما سيطر الكريتيون على البحر ، لم يسلكها تقريباً سوى جماعات الهنود الأوروبين المصممين على استيطان آسيا الصغرى . وهكذا فإن كريت قد أبدلتها بطريق أقصر جداً لأن مراسي سفنها في الشرق أكثر قرباً من مواطن الحضارة الكبرى في الشرق الأدنى .

لا نعلم الكثير عن الحياة الاجتماعية ، ولذلك فإن ما سندلي به عنها سيكون على المجتمع كثير من الاجتزاء والنقصان .

إنه لمن الأهمية بمكان أن نستطيع سبيلاً إلى تعقب خروج الإنسان من الجماعة الكبيرة وتوزع المجتمع إلى أسر صغيرة . ويعتقد البعض بأن في علم الآثار دليلاً على ذلك . فقد عثر بالفعل على بعض المساكن القديمة الوضيعة المقسمة غرفاً حتى العشرين تقريباً ، في حال أن البيوت العادية ، بعد ذلك ، كلها بيوت لأسرة واحدة . ولكن الغموض لا يزال يكتنف حقيقة تحليل هذه المساكن الجماعية . ومن خطأ الرأي ومزيد الجرأة أن نتكلم عن الأحزاب في جزيرة كريت .

وهناك ، في موضوع الأسرة ، واقع يبرز بجلاء من المستندات ، وهو أن المرأة في المجتمع الكريتي تتمتع بمركز وبحرية لم تعرفهما في ذلك الزمن نفسه ، في أي مكان آخر ، وسيقتضي لها وقت طويل جداً حتى تبلغها . فساد الآلهة من الإناث وللكهانات الدور الأول في الاحتفالات . وغالباً ما تظهر الرسوم نساء خارج بيوتهن ، في الساحة العامة والمرح وحلبة الملعب . ولكن علينا الاكتفاء بالتأكد من حقيقة هذه الأعراف الخاصة ، دون محاولة تحليلها . نحن نجهد كل شيء عن النظام الزراعي وعن تنظيم الطبقات الاجتماعية الدينية التي نهضت بالانتاج الزراعي والصناعي وعباء النقل التجاري . ويعطينا تراكم البيوت - المصانع الصغيرة التي تتدرج المنحدر إلى الورا من غورنيا ، الدليل على واقع غني عن البيان ، وهو وجود الفقراء في كريت كما في كل مكان .

لن نتوقف هنا سوى أمام المساكن الكبيرة والقصور . فهي قد زخرت بحياة متألفة بهجة صافية ، أي بحياة بلاطية . وقد وفّر الذهب والفضة والبرونز والآلء والحجارة النادرة المادة الضرورية لأسلحة الآلهة والحلى والجواهر والحوائث والفصوص التي جمعت الذوق اللطيف إلى كمال الصنع . وقد شاع زي نسائي مستحب يستلزم «التنانير» الناقوسية ذات الأطار ، والصُّدْر التي تكشف العنق والكتفين ، والأكام الفضفاضة . وقد استعمل الرجال حلاهم أيضاً ورغبوا في الأقمشة والجلود الملونة ، ولكن تبرجهم كان أقل تعقيداً . وكان للشرقات والأزهار وسعة العيش مركز مفضل . وكانت هنالك أقتية محكمة التصميم لتوزيع الماء على المساكن التي لم تخل

حتى من البواليع ؛ وسينقضي بعد ذلك وقت طويل قبل ان يفكر الانسان ، من جديد ،
بالاهتمام للتدابير الصحية المعتمدة الى حد بعيد ، في كريت. المينوسية ، اكثر من ألف وخمسمائة
سنة قبل المسيح .

ولكن كل هذا ، بالرغم من فتنة هذه الأدلة ، لا يتعدى المظهر المادي لحياة اجتماعية تنمى
لو نستطيع تحليل اجزاء نظامها المختلفة .

يصح القول نفسه تقريباً عن الديانة التي لا سبيل للدنو منها إلا من
الديانة
خلال الفن .

ان اسهام كريت في النظريات الدينية التي اخذت بها الحضارات الشرقية المعاصرة لها أبعد
من ان يكون شاملاً . بيد انه يمكننا ان نحاول ، انطلاقاً منه ، تحليل وفرة الكائنات الرومية
الشرطانية ذات الوجه الاصفر : رجال ونساء برؤوس حيوانات ، ابو الهول ، العنقاء المغربية ،
الجنّ الجنيح . وما المينوطور في علم الاساطير اليونانية ، على الأرجح ، سوى أثر من آثار هذه
الكائنات المسيخة . ويبدو بصدد الآلهة انفسهم ، ان الكريتيين أخذوا بمبدأ التشبيه . ويغلب
ان الاسلحة (القوس والنفاس المزروجة) والطيور والحية والثور لم تكن سوى خاصيات أو
رموزاً . بيد ان الامعان في تمثيل الشجرة وسط الاحتفالات الطقسية او على المذبح احياناً يحملنا
على الاعتقاد بانها كانت موضوع عبادة مباشرة هي من رواسب الوثنية البدائية . وعلى كل
حال ، فليس هناك ، على نقيض الشرق وعلى ما نعلم ، أي جرم مؤله . كما ليس من إله للهواء أو
إله للبحر ، وهذا ما يثير العجب اذا ما اعتبرنا دور البحر في الحياة الكريتية . ويغلب ان
الديانة انما تستهدف تجسيد خصب الارض المغذية . فوفرة الرسوم النسائية ، والميل الملوس الى
ابرار الكشحيين وتعزية الشديين بوضع اليدين متشابكتين عليها احياناً ، وإشراك هذه الرسوم
برسم الشجرة والحية التي هي حيوان ما تحت الارض الاول ، كل ذلك يحدو بنا الى الاعتقاد
بوجود عبادة أولى تتجه الى ما يمكن ان نسميه « بالأم الكبيرة » ، اعني بها إلهة الارض
والاخصاب . والإله الذكر المفروض وجوده الى جانبها لا يتمتع إلا بمرکز ثانوي اكيد . ولكن
هل يجوز لنا ان نرد كل ما لدينا بعض آثاره الى هذه الازدواجية؟ يجب علينا قبل الاقدام على هذه
المحاولة ، ان نتمكن من قراءة الامماء الالهية .

ان المعبد الذي لا مناص عنه للعبادة في غير مكان لا أثر له هنا . ولنا نجد سوى بعض
المساجد الصغيرة قائمة في المساكن الصغيرة أو منشورة في البلاد ، أو سوى المذابح وحدها احياناً .
وهكذا فان العلاقة بالشرق لم تقض الى اعتماد الابنية المخصصة لسكن الاله . اما الاعياد ، على
نقيض ذلك ، فأكثر تشابهاً بالعادات الشرقية . فهي تظهر ، هنا ايضاً ، المراحل الكبرى للحياة
الزراعية ، ولا سيما الحصاد وجني الاثمار ، وتتخللها التطوافات والرقصات المقدسة السعرة احياناً
على انغام الموسيقى . بيد انه لا يمكننا ان نستنتج من ذلك ان هنالك نقلاً أو اقتباساً . ويتخلل

الاحتفالات الدينيّة مشهد غريب ، غير المسرحيات التي درجت عند المصريين ايضاً ؛ بل الالعب العامة مع ما يرافقها من معارك الملاكمة والمصارعة وسباق الثيران بنوع خاص ، ولم يعرّض ذلك للموت على ما نعلم ، بل كان قرصة يظهر فيها اللاعبون خفتهم ومهارتهم . ولم تتردد بعض النساء انفسهن في الاشتراك في هذه الالعب .

احرزت هذه الالعب نجاحاً اكيداً كبيراً . ولكن هل كان لها ، عملياً على الأقل ، معنى غير ديني ؟ لا نستطيع ثبت ذلك او نفيه . ويبدو على كل حال ان المثل الأعلى الطبيعي للكريتي هو نفسه المثل الأعلى للرياضي . واذا ما استندنا الى الرسوم المصورة فليس من يدين واحد في البلاد التي اكتسب الكلّ فيها قدماً تحيفاً جديداً . وما من شك ايضاً في ان هواية الرياضة هذه ، حتى ولو ارتبطت بالديانة ، تمّ عن الأخذ بمفهوم جديد للانسان المدعو لانماء صفاته الطبيعية في سبيل هدف غير الحرب وتحضيراً للجهد الفردي بالضرورة .

ولا تتراءى الآراء حول الموت إلا جزئياً ايضاً . فلا يقتصر على دفن الجثة في قبر على هذا المقدار من الغنى أو ذاك . بل توضع على مقربة منها أدواتها المألوفة أي كل ما قد تحتاج اليه في المداومة على حياة لا يضع الموت لها حداً . وتخصص للجثة بعد ذلك التقادم الغذائية وغيرها ، تلك نفسها التي يستحسنها الاله . وهكذا فان الحياة الثانية قد يرافقها شيء على الأقل ثمناً يدينها . من العالم الالهي . ان ثاويرس الثالث المقدس الشهير المستغشى بالرسوم المصورة يرينا الميت منتصباً أمام قبره ناظراً الى حاملي القرايين وهم يتقدمون نحوه . ويرينا ايضاً عربية قطرها الاحصنة من جهة والعنقاوات من جهة اخرى . ولكن هل تنقل هذه العربية الميت ؟ الحكمة أولى في هذا الموضوع ايضاً .

ان الفن ، مع التجارة البحرية ، هو النطاق الذي اثبتت فيه الحضارة الكريتية الفن صفاتها المميزة واحرزت اكمل نجاحاتها التي ليست بحاجة الى توضيح بقراءة النصوص لان صفة الجمال فيها تسحر كل من يشاهدها . هنالك فنون معاصرة تفرض الاحترام بسعة المفاهيم التي تعبر عنها وقوة الوسائل التي تستخدمها ، في حال ان الفن الكريتي لم ينهض باي شيء عظيم ، بل كأنه يتنكر لكل ماهو عظيم متحاشياً تحقيق المواضيع الكبيرة ، ولكنه يستعيز عن ذلك باحساس حاد حيال الحياة وملاحظة الواقع ، وبقابلية لاكتشاف الناحية التزيينية التي يمكن استخلاصها من كافة الاشياء ، وبذوق سليم مكتمل حيال الالوان والاشكال ، وبحيوية عجيبة في الاكتشاف وبمهارة فنية مدوّخة . ان الفنانين الذين انبثقوا من هذا الشعب ولم يتميزوا نوعاً ما عن جمهور الفنانين الآخرين ، لم يروا ما هو عظيم بل رأوا ما هو جميل .

فلا معابد إذن ، ولا مدافن كبيرة ولا مساكن رائعة ايضاً . واكثر القصور اهمية ، بما فيها قصر كنوسوس نفسه ، لم تشيد وفقاً لتصميم مدرّوس . لا بل انها تؤلف عوالم قارب بناؤها المتعاقب اقسامها المختلفة التي لا يتسرب اليها حتى النور الخافت من الفناءات الداخلية او من

أروقة طلقة السماء . ويتصل الواحد بالآخر ، كيفما اتفق الاتصال ، بشبكة مستقلة من الممرات والأروقة ذات الأعمدة - وهذا هو « اللابيرنت » الذي تتكلم عنه الاسطورة . ولكن هذه العيوب في الفوارق بين مستوى وآخر قد سترتها المهارة في انشاء السطوح . ولم يُعْطَ قط باعطاء هذه المجموعة البنائية الجلية بقياساتها - يبلغ ضلع قصر كنوسوس الاخير ١٥٠ متراً ، وكان مؤلفاً من طبقتين أو ثلاث طبقات - أي تناسق يوحى النبل والجلال . وكان بالإمكان ، للاستعاضة عن الوحدة الداخلية ، ان تشيد « واجهة » رئيسية وينشأ فيها باب فخم ينتصبان امام القادم الى القصر . غير ان الواجهة والباب لا وجود لهما ، بل هنالك ابواب عدة في الاسوار الخارجية تهشم خط النظر العام .

ولكن حداً أدنى من التنظيم يسهم في التقسيم الداخلي . فهناك هو كبير في الوسط : ٦٠ م × ٢٩ م في كنوسوس . وهو ليس مقفراً ، بل فيه المداخل وما تستتبعه من حفر للضحايا . غير ان « الواجهات » المطلة عليه تكاد تكون رتيبة . وترى حواليه بعض « الاحياء » : حي قاعات الالهة والاسلحة وأحياء المساكن الخاصة والمكاتب وعامة الشعب . وان في تجمعها بعض التلاحم ، ولكن التشويش يظهر داخل كل حي من الاحياء التي تتوسطها فناءات ثانوية صغيرة جداً اشبه احياناً بالأبار .

على الرغم مما يبدو في هذا التكديس من مغايرة للمنطق ومن ان هذا العالم المشوش يعوزه الجلال ، ومن ان اكبر القاعات - قاعة الأعمدة المزدانة بالفؤوس المزدوجة في كنوسوس - لا تتجاوز ١٢ متراً طولاً و ٨ أمتار عرضاً ، فان في الابتكارات الهندسية الجزئية احياناً انسجام اناقة يستوقف الناظر بسحره : تصميم بعض السلام وتنظيمها ، إحكام الأعمدة التي تقوم مقام بعض الجدران الجانبية ، الوقع الموفق والمقصود في توزيع الظلال والاضواء .

وهناك بنوع خاص زخرف الجدران ، لاسيما في قصر كنوسوس الاخير الذي يثبت ، بذلك وبقياساته ، تميزه عن القصور الاخرى . ولا وجود للتأثيل في هذا الزخرف ، فالجزيرة كلها لم توفّر لنا على هذا الصعيد سوى حطام وضيع . وليس من نقوش تائتة على الحجر ايضاً ، بل هنالك رسوم ملونة على جص ادخل عليه بعض النتوء قبل الرسم . والزخرفة عرف قديم جداً لن يلبث التصوير على الجدران ان يحل محلها ، مع الزمن ، بمشاهدة الحية .

عندما يصور الفنان كائناً بشرياً ، يستأثر الوجه كل اهتمامه فيطبعه بالحياة وقوة التعبير والصفات المميزة التي تحملنا على ان نرى فيه رسماً لأحد الاشخاص . وهو لا يهتم ، فيما عدا ذلك ، للتفاصيل التي يعالجها بسرعة . « فباريسية » كنوسوس مثلاً ليس لها اذان ، كما اهمل في كل الصور تكوين الجذع والاعضاء . فالهم هو الحركة حين حدودها واختلاجها ، ولذلك يتسرب الى المواكب نفسها بعض عدم التناسق والتشويش . وان ما يلفت النظر هو التصميم على الحرية . فالإنسان لا يتقيد بالقدسيات ولا بالأوضاع التقليدية او الاصطلاحية ولا بالحرقات المفروضة ،

ولا يخضع إلا لقانون حياته الشخصية . وإذا كان الأمر على ما هو عليه بالنسبة للرسم التي يحقها الفنان ، فهل يمكن ان يعترف بقانون آخر بالنسبة له شخصياً ؟

نشط الفنان إذن في تصوير حركات الفرد حين حدوثها وعلى طبيعتها ، ولكنه كان أكثر براعة في تصوير الحيوانات فحقق في هذا المجال روائع لا تنسى : الثور الواثق ، والنسر القانص ، والقرود المتقدم بين الأزهار ، والطير عند هبوطه ، والسمكة الطائرة عندما تثني جوارحها كي تغط في المياه الزبدة ، والأخطبوط بجاسه المتأوجه . ليس ثمة من وضع جامد ، بل حركة توحى بما سبقها من حركات وما سيتبعها منها ، أو عمل مختلف المراحل بفضل رسم حيوانين أو ثلاثة في فترات مختلفة من العمل نفسه ، أو استعادة بالغة للحياة في تغيرها ونشاطها ولينها .

بيد أن هذا السعي وراء تصوير الحركة لا يفقد الصورة شيئاً من قيمتها الزخرفية التي يتوصل الفنان الى تحقيقها دونما اعتبار لأي تناسق . ففي سبيل التواء القرن مثلاً ، نراه يحطم حاشية الاطار ، وهو لم يكتف بمراقبة « العدو الطائر » المزعوم عند بعض رباعيات القوائم الكبيرة — وهذا الخطأ الذي يعود إليه قد استمر حتى « ماراي » قبيل سنة ١٨٧٠ — بل جوف احقاء الحيوان وأعلى منه الرّدف بغية إبراز رشاقة خط الظهر . ويقدر انه استوحى من العالم البحري الذي يعرفه تمام المعرفة ، بفضل وجوده في جزيرة صيقة ، أكثر من نصف الحيوانات (أسماك وأصداف وغير ذلك) التي صورها ، وان ما يقارب نصف الباقي هو من ضروب المصايف . ومرد ذلك انه يجد عند هذه وتلك أشكالاً أوفر لدانة وتموجاً تضع امامه المزيد مما يشبع نهمه للتناسق الزخرفي . وهو يستوحى ، من البحر أيضاً ، غالبية المناظر الطبيعية التي يجعل الكائنات الحية تتجول فيها بين التواءات الأمواج وتحطمتها ، الأشن الرخيصة ، والصخور الناتئة . وتستهويه ، في عالم النباتات البرية ، الجذوع والأزهار كواضيع تزيينية أيضاً . ولكنه لا يستسلم لفتنة الوصف ولا للإكثار على غير نظام . فإن ما انطبع عليه بالقطرة من اتزان وتميز يجنبه ركوب الشطط . والزخرفات التافهة . فالطبيعة ، الى جانب الحركة ، تغذي بنفسها إلهاماً أحسن هو رقابته ، حتى في ميعاة الدوار .

وقد برهن عن المزيد من الجرأة في معالجة الألوان التي جهل منها الباهت ، ولجأ الى الجارح دون أن يعأ بالالوان الثانوية التكميلية او بالالوان الواقعية . فالصفر والقرود أخضرا اللون مثلاً في « بيت الصور » في كنوسوس ، كما أن خطأ قرمزياً يحيط ببقع من لون واحد . وما كنا لنصف ذلك بغير البرقشة ، لو لم تكن هذه الالوان مختارة عن قصد وتصميم قوصلاً الى الفتنة والسحر في الزخرف .

اعتمدت طريقة تعدد هذه الالوان ، أول ما اعتمدت ، منذ القرنين الثامن عشر والسابع عشر في الأواني الخزفية المنسوبة لـ « كاماريس » . ولكن هذه الطريقة لم تلبث ان أهملت في الخزفيات ودام استخدامها في الصور الجدارية ، في حال ان طريقة التصوير وفقاً للأشكال قد

خضعت لتطور واحد في الصور الجدرانبة والأواني الغربية ، وفي حفر الحجارة ونقش الأواني المعدنية . بيد ان ما قلناه عن المواضيع المطروقة وأساليب طرقها ينطبق على عهد ازدهار الفن الكريتي بنوع خاص ، في القرن السادس عشر وأوائل القرن الخامس عشر . وبعد ذلك تهذب هذا الفن وانقاد لنظامية قد تفسرها نجاحات الملكية الكنوسوسية . وفي التعبير التقليدي « نط القصر » اشارة واضحة الى مغايرة هذا الخط للخط الطبيعي الحر المستعذب الذي سبقه . وقد أفضى التهذيب تدريجياً الى تبسيط الأشكال دونما قاعدة او منطق . فأحل القرد محل الفرس ، وفصلت المحسة عن الأخطبوط ففدت مجرد طريدة متماوجة فحسب . ولكن هذا التصنع المنحط قد برز بعد انهيار كنوسوس على الأخص في الخزفيات الميسينية التي بقيت رائجة ، بالرغم من ذلك ، في اسواق الخزفيات الكريتية في حوض المتوسط الشرقي .

٣ - الحضارة الميسينية

ان الارث الكريتي الذي انتقل الى الميسينيين من الأهمية بحيث أننا سنقتصر ، تجنباً للاعادة النافهة ، على الفوارق الملموسة بين الحضارتين ، اي الأشياء الجديدة التي أضافها الأخيون . وليس هؤلاء مدينتين بهذه الأشياء الجديدة للبلاد التي عاشوا فيها . فبين جنوبي اليونان وكريت فوارق طبيعية طفيفة لعل أهمها ماينتج عن التفاوت في شدة البرد في فصل الشتاء . فلا شيء من شأنه ان يؤثر جدياً في تطوير الظروف الحياتية ، ثم ان الحضارات التي ظهرت في اليونان قبل مجيئهم لم تترك لهم شيئاً يذكر ، لا بل لم يكن لديها إلا القليل مما تستطيع ان تتركه ، إذ لا شيء فيها يضاهاي الحضارة الكريتية . واذا لم يقبلوا بأن ينقلوا تنظيمهم وحياتهم عن الكريتيين ، ففرد ذلك الى انهم قد جاؤوا بنظريات وأخلاق وعادات خاصة بالهذود الاوروبيين ، وبأناس قضوا زمناً طويلاً في بلدان اخرى لا سيما البلدان الشمالية .

تظهر الجدة ، أول ما تظهر ، في التنظيم السياسي والاجتماعي ؛ لأن الآثار الامراء الهرايون المادية التي خلفها كبار هذا العالم أبعد من أن تقارن بآثار كريت .

ان القصور والمدافن الكبرى تفرض الاعتقاد بتعدد الامراء . وكان منهم في ميسين وثيرنوس ، وهما موقعان غير بعيدين عن بعضهما في الارغوليد . بيد ان شهرتهم لا تفرض الاعتقاد بعدم وجود غيرهم في غير مكان : في الارغوليد نفسها ، في غربي وجنوبي البلوبونيز ، في القسم الأعلى من أثينا ، في بيوسيا . ولم يوجد بين هذه المجموعات السكانية المتشعبة مجموعة بأهمية كنوسوس . أما ثروة ميسين الذهبية الطائلة فقد يكون الفضل فيها للمجرد الاتفاق في اكتشافها ، وهي على كل حال مقتصرة على المصنوعات دون غيرها ، لا يرافقها اي تفوق في الهندسة والزخرف . وفي القصائد الهوميروسية نفسها ، حيث التحية تعظم الواقع ، ليس اغا ممنون ، ملك أرغوس اي ميسين ، ملك الملوك إلا بصورة مؤقتة ولحمة عسكرية معينة .

ويصبح التباين أكثر وضوحاً حين ننظر الى القصور نفسها . فهي حصون قبل كل شيء آخر ،

شيدت في موقع تسهل طبيعته الدفاع عنها . وغالباً ما يكون هذا الموقع مرتفعاً مشرفاً على السهل المحيط به . يبعد الى هذه الحصون بسلام خارجية تتخللها العراقل . والابواب ، وبسلام محفورة في الصخر وبأبواب خفية . وقد أتى بالصخر من كل مكان لتشييد تلك الجدران التي سيصفاها الاغريق « بالسيكلونية » أي الضخمة ، لأن حجارها ستبدو لهم هائلة . ففي جزيرة « غلا » في بحيرة كوبايس البيوسية يبلغ محيط السور ثلاثة كيلومترات ، وفي تيرنثوس أنشئت مراديب معقدة في الجدران التي تبلغ سماكتها ستة امتار .

فلا سبيل ، والحالة هذه ، الى الاعتقاد بملكية واحدة حتى ولو افترضنا انها منحت بعض اصحاب القطاعات اجزاء من اراضيها . لذلك وجب القول بقيام امارات مستقلة يغلب على ظننا انها تناقست وتصارعت . اما القول بالولوية شرفية معترف بها لأحد الامراء توليه حق القيادة في المشاريع الجماعية ، فلا يستند الا الى الالياذة . ربما استلمت الارغوليد زمام الامور في النهاية ، لكن ميسين وتيرنثوس قد استمر بقاؤهما جنباً الى جنب ، مما يضعنا امام معضلة مستعصية الحل .

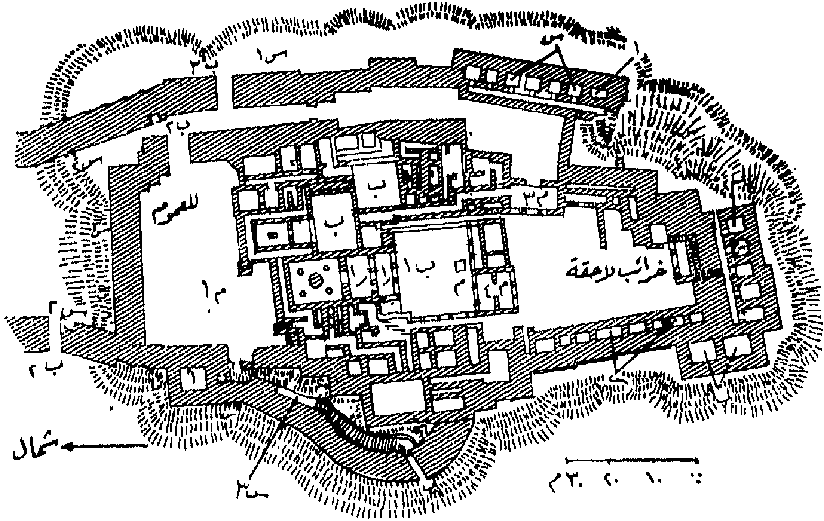
فمن الثابت ان الامراء يهونون الحرب ويخوضون غمارها في ظروف كثيرة ويدفنون مع اسلحتهم وخوذهم وسيوفهم الثقيلة وخناجرهم وحراهم . وقد أاثحت لنا الرسوم التي بلغت الينا معرفة دروعهم وتروسهم ايضاً ، التي كانت كبيرة الحجم اولاً ، يبدو الانسان فيها وكأنه في احد الابراج ، ثم اصبحت سهلة الاستعمال بعد ان استديرت واستصغرت . وكلاهما بين حرب وحرب يواظبون ، بغية الابقاء على قوتهم الجسدية ، على ممارسة القنص . وقد أحاطهم الفن الخاص بهم بمشاهد تم عن نشاط عنيف كما نرى لها مثيلاً في الفن الكريتي . وأعمال النهب هي مصدر ذهابهم جزئياً . وكل شيء يدل على ان هؤلاء الهنود الاوروبيين الذين بلغسوا جنوبي اليونان ، بعد ألف مغامرة ومغامرة نجحها ، وبشق طريقهم بين شعوب طال عهد اقامتها في هذه المناطق ، يحتفظون بيوهم الحرية التي اقرنت بميل الى الجمال الشرقي الذي استوحوه من الكريتيين . فالسلطة عندهم تتباهى بالقوة الفظة ، وتلجأ اليها عند الحاجة .

الارستقراطية والطبقات
الكادحة

لم يتيسر كل ذلك إلا على حساب المجتمع . بالرغم من الرغبة الواضحة في التقليد ، أقلت في معالجة المواضيع التي لا تنطبق على معطيات التاريخ ، فإن الحياة في البلاط أقل بهاء منها في كريت . وتذهب النساء ، في ملاسهن وترتيب شعرهن وحلائهن مذهب نساء كنوسوس ، ويظهر احد الرسوم الجدارية في ميسين بعض هذه النساء يتبحرن في المسرح عند مقدمة مقصوراتهن . ولكنهن أهملن التمارين الرياضية ، ويرجح ان ذلك قد أثر في قوامهن وحرية سلوكهن الخارجي . ويرجح ايضاً ان الحياة داخل هذه الحصون الضيقة (أقل من ١٥٠ × ٥٠ م في تيرنثوس) ، أي القصور ، لم تشهد احتفالات على درجة عالية من اللطف والأناقة ، وليس من

شك أيضاً في ان الرجل ، بفضل دورة العسكري ، قد فرض نفسه على الحياة الاجتماعية .
ويمكننا ، بالمقارنة مع مجتمعات الهنود الاوروبيين المحاربين الاخرى ، وبلاستناد الى بعض
الخطوط المستعارة من المجتمعات الهوميروسية ، يمكننا ان نعتقد بوجود جماعات من « الرفاق »
تربطهم بالامير صداقة شخصية او مقامات أحياناً .

يمكن القول نفسه عن العلائق بين الطبقات الحاكمة والطبقات الكادحة . فالقصور المنتصبة



الشكل ١٩ - قصر تيرنثوس

م ، مذبح ؛ ب ، بهو ؛ ب ، بهو رئيسي ؛ س ، سرداب معقد ؛ ا ، آبار ؛ س ، سور العلوي ؛ س ، سور السفلي ؛ س ، سلم ؛ م ، الميغارون الرئيسي ؛ م ، ميغارون النساء ؛ ب ، ابواب ؛ ب ، باب خفي ؛ م ، مدخل كبير ؛ م ، مدخل صغير ؛ و ، ر ، ر ، اروقة تؤدي الى الميغارون .

على المرتفعات أشبه بلججء يراقب الاسياد منها عمل ممالكهم في السهل ، لا سيما واننا لا نعلم شيئاً عن العلائق بالسكان السابقين الذين لا يعقل ان يكون الاحتلال قد قضى عليهم قضاء تاماً ، ويستمرينا جداً ان نتصور الباقيين على قيد الحياة منهم خاضعين خضوعاً كاملاً للفتحين . بيد ان الشيء الواحد الثابت هو أن اسواراً خارجية كانت تحيط بالقصور والمدن على السواء . ولكن هذه الأسوار محدودة الطول على العموم (٧٥٠ متراً في تيرنثوس ؛ أكثر من ١٣٠٠ متر بقليل في ميسين) ، مما يحد من مساحة المدينة . فن الطبيعي إذن ان يتوزع السكان الباقون في الارياض او ان يقيموا عند لحف المرتفع بحيث يلجأون الى داخل الاسوار طلباً للحماية في ساعات الخطر . وكل ما سوى ذلك فجرد نظريات .

ويقوم التناقص هنا ، في ان مثل هذه الدولات ، وهذا المجتمع قد تعاطت في آن واحد الزراعة والصناعة والتجارة على نحو تعاطيا اياها . أجل ، قد جرى ذلك ببطء ، وعلى غرار كريت التي ما لبثت هذه الدولات ان حلت محلها ، بعد قرنين من التدرب تقريبا . بيد ان نشاطها الاقتصادي قد توسع الى حد بعيد بعد انهيار كنوسوس .

فأنشئت الطرقات وربما المرافئ ، ولم يشعر سكان الحصون ، القرية كلها من الساحل ، بانهم غير قادرين على مراقبة الحياة البحرية وحتى على الاشتراك الفعلي فيها . مارسوا القرصنة أولا ثم سيطروا على البحر فبعلت الاسفار التجارية محل الغزوات الاستلابية . وكانت هذه الاسفار بعيدة أحيانا : فاستورد القصدير الغربي بكيات كبيرة بالاضافة الى قصدير القفقاس واستخدم لصنع المزيد من الشبهان ، كما استورد - ولا نعلم بأية واسطة - ندى البلطيق الذي لم يعرفه الكريتيون والذي قدّر الهنود الاوروبيون حتى القدر انعكاسه الشاحب الحفي . وقد جابت المراكب الميسينية البحار القريبة ايضا : وتزود المصنوعات الميزة المكتشفة ، بما توفره من معلومات ثابتة ، أهمية واتساع انتشار الانتاج المعدني والخزفي . فلما كانوا قد أتوا من الشمال ، حيث المناخ أشد قساسة ، فإنهم قد أحضروا معهم المشابك المعدنية (الدبابيس) القيمة بإيثاق ملابس الثقل وزنا . فنقلها عنهم سكان البحر المتوسط . وقد ظهر الكثير من مصنوعاتهم الشبيهة وجواهرهم وحجارتهم المنقوشة ، ولا سيما خزفياتهم ذات الرسوم المبسطة التي تشبه الرسوم الهندسية ، في مواقع كثيرة جداً : في صقليا واطاليا الجنوبية والسيكلاد وسواحل آسيا الصغرى وفينيقياً أخيراً حيث غدت لهم « مينة البيضاء » ، مرفأ أوغاريت - رأس شمرا ، مستودعاً عارفاً بالنشاط يرجع انه كان بمثابة مستعمرة انطلق القصدير منها الى كل مكان حتى بلغ بعض النقاط في وادي الفرات .

غنيمة حرب وقرصنة ، جزية ، صناعة ، تجارة ، كل ذلك أدّى الى الثروة . ولم يعط أي موقع في العالم اليوناني كمية الذهب التي اعطتها ميسين (١٤ كيلوغراماً قبل اكتشافات ١٩٥٢) . وحفظ الاغريق ذكرى هذا البذخ ؛ فالقصائد الهوميروسية تنعت ميسين « بالغنية بالذهب » ، على انها تهيّرت فيما بعد حتى اصبحت قرية صغيرة في ارض ارغوس . ويجب عملياً انتظار العهد الهليني ورواج الكنوز الفارسية حتى تدخل البلاد كمية كبيرة من معدن هو اثن المعدن .

يبدو ان الديانة لا تختلف كثيراً عن ديانة كريت . ولكنهم يولون عبادة الفن الميسيني الاموات اهتماماً اكبر شأناً ، لا سيما ما يتعلق منها بأموال عائلات الامراء . وقد اقضى هذا الفرق الى تنمية هندسة مدفنية على قسط كبير من الجدة .

اعتمدت في البدء « المدافن ذات الآبار » الخاصة بميسين التي تحفر بأعداد كبيرة داخل اطار مستدير من الحجارة المنتصبة ، وقد اكتشفت مجموعة ثانية منها حديثاً .

ثم خلقتها « المدافن ذات الحُجر » حوالي السنة ١٥٠٠ ، واخيراً المدافن ذات القُبب . فكانوا يحفرون في منحدر المرتفع سرداباً يؤلف مع المنحدر زاوية مستقيمة ثم ينشئون حفرة مستديرة الشكل يعززون جدرانها بسافات حجرية محكمة الترتيب تضيق تدريجياً حتى تكون سقفاً للحفرة . ثم يردمون كل شيء باستثناء السرداب الذي ينتهي الى باب . ويكفي للدلالة على سعة الاعمال المنجزة ، ان نذكر ان السرداب يبلغ حتى ٢٥ متراً طولاً والقبة حتى ١٥ متراً قطراً وارتفاعاً .

في هذه « القفران » ، اي في القبور الجانبية ، توضع الجثث باعداد كبيرة أحياناً . فهل تعني هذه الكثرة ان ضحايا بشرية كانت تقدم اثناء الاحتفال بالجنائز ؟ لا شيء يحول دون الاخذ بهذه النظرية في بعض الحالات . ومهما يكن من الامر ، فإن الميت يستمر في الحياة بعد موته . وقد اكتشف في حفر الذبائح تحت السرايب عظام حيوانات وتقدم لميت . وقد عثر في المدافن ذات الآبار على الاقنعة الذهبية التي تظهر خطوط وجه الميت بما فيه اللحية . كما عثر فيها ايضاً على الاسلحة والجواهر والحلى والسكاكين والحالق وغيرها من الادوات المختلفة . وفي اواخر القرن التاسع عشر أثارت اكتشافات « شليمان » دهشة العالم بأسره . وقد حصلت بعد ذلك اكتشافات اخرى عرف بعضها الشهرة كاكشاف الاكواب الذهبية في « فافيو » جنوبي البلوونيز ، ويستحق بعضها الشهرة كاكشافات دندرا في الارغوليد التي تعود الى خمس وعشرين سنة تقريباً ، كما قد تبلغ الشهرة ايضاً بعض الاكتشافات الحديثة العهد .

لا شيء في هذه المصوغات يظهر تغييرات جوهرية بالنسبة للفن الكريتي . ويمكن القول نفسه عن الفنون الاخرى لا سيما التصوير الذي ازدانت برسومه جدران القصور . فقد ايرت بعض المواضيع اهتماماً خاصاً كالحرب - اقله في البداية - والقتل مثلاً . ولكن النزعات الجمالية قد بقيت هي نفسها دون تغير . ولا غرابة هنا اذا ما لاحظنا ان هذه النزعات ما زالت تلهم الفنانين الكريتيين الذين راج انتاجهم في اليونان ، او الذين اتوا الى اليونان للعمل فيها مخبرين او مسيرين فدرّبوا تلامذة بقوا أوفياء لهم .

على نقيض ذلك ، ادخلت على الهندسة المدنية بعض التجديدات التي لا تقل اهمية واثراً عن تلك التي ادخلت على الهندسة المدفنية .

وقد تناولت هذه التجديدات البيت بنوع خاص الذي كُتِفَ وفقاً لمناخ البلاد . فبينما كان مسطحاً في كريت ، غدا هنا ذا منحدرين تسيل عليه بسرعة مياه امطار اقل ندرة . ثم كانت من الممكن في كريت ، حيث البرد اقل شدة ، ان تثقل العائلات من مسكن الى آخر . وقضت الضرورة هنا بإعتاد المسكن الواحد الثابت لا سيما وان السكان قد هبطوا البلاد من مناطق مناخية اخرى وخضعوا لمعادن اخرى ايضاً . فنشأ عن ذلك عنصر البيت الأساسي : « الميفارون » الذي ظهر في العالم المتوسطي قبل الأخيين . فاننا نجد في « طروادة الثانية » التي ترقى الى الالف

الثالث ، وفي تساليا وبوسيا في أوائل الألف الثاني . ولعل منشأه شمالي آسيا الصغرى التي انتقل منها الى أوروبا عن طريق شمالي بحر ايجه ، ولكن المسيحيين هم الذين وضعوا له شكله النهائي الثابت وعمموا استعماله وطريقة بنائه ، فظهر في السيكلاذ حوالي السنة ١٥٠٠ ، وفي كريت بعد هذا التاريخ .

قوام الميغارون بناء مستطيل . ويقوم امامه في الخارج ، بعد الأعمدة التي يستند اليها قسم ناتئ من السقف ، رواق بثابة مدخل يلجج النور والهواء ويفصله جدار ذو باب واحد عن قاعة كبرى هي الميغارون نفسه الذي تتوسطه موقدة ثابتة مستديرة . وليس هنالك من مدخنة لتصريف الدخان ، بل كوة في السقف تستند الى أربعة أعمدة تحيط بالموقدة على الأرض . وبفضل هذه التدفئة يصبح هذا المكان قاعة للآلهة ترخف جدرانها ويستقبل فيها الضيوف . وسيرد في القصائد الهوميروسية ان الولايم تقام فيها ، كما ان «أوليس» سيور قوسه ضد الطامعين في الملك في ميغارون قصر ايباكا . ومن وحي الميغارون أيضاً سيشتق المعبد اليوناني .

منذ ذلك الحين أصبح للبيت مركزه ثم انتظمت اقسامه الأخرى كالحققات له . وصدف ذلك في القصور أيضاً التي استلزم ، بسبب أهميتها ، قاعتين ذات موقد أو ثلاثا . ولذلك فهي قد كانت أقل تعقيداً وتشويشاً . ثم خضع البهو الوسطي لقاعدة محددة مع ما تقتضيه من اروقة ومداخل تحف بالأبواب . وان خرائب تيرنثوس ، حتى بدون الاسوار ، خرائب مساكن توحى العظمة والنبل .

ثم ان الذهنية العامة قد تطورت من جهة ثانية . فليس هناك بعد من جوح إلا في حقول التزيين . وقد بذل الملوك المسيحيون مجهوداً بغية تحقيق الجلال الخارجي الذي امله الكريتيون فأثبتوا مرة أخرى انهم لا يأنفون من اظهار قوتهم .

وتحت تأثير هذه الذهنية نفسها ، طاب لهم تنفيذ الأعمال العظيمة التي تبدو وكأنها تفوق الامكانيات البشرية . وقد توفق المهندسون في بناء الحصون و « القفران » الى استعمال قدرات حجرية ضخمة جداً . ومهما كان من خرق المحاولة التي استهدفت النقاشة على الحجر والنقاشة الكبيرة - وهذان فنان جليلهما الكريتيون ، ولكنها عاجلا في هذا الحقل موضوعاً كريتيّاً أيضاً - ومهما كان من قبح وترهل وثقل الوحشين المنقوشين في « باب اللبوءات » في ميسين ، فان هنالك جدة تتصل اتصالاً وثيقاً بنزعة الأخين الى ضرب من العظمة فيه الكثير من التيه والمجاهاة . وللمرة الأولى نرى ، خارج القارة الآسيوية ومصر ، محاولة لتحقيق مثل هذه التصاميم العظيمة توصلنا الى مقصد ديني وزخرفي في آن واحد . أجل فشل المجهود من الناحية الجمالية ولكنه قد نجح من الناحية التقنية ، اذ ان رفع هذه الفدرة والاسكفة التي تركز عليها فوق جانبي الباب لم يكن من الامور اليسيرة .

بالرغم مما انطوت عليه الحضارة الميسينية من قوّة وإقدام في الحروب ، فقد وجدت من هم أكثر قوة منها واقداً ، أعني الدورين ، وهم أيضاً من

إرث المسيحيين

الاغريق ، الذين سببوا المحطاطها أولاً وزوالها فيما بعد . ولكن هل يمكن ان تزول حضارة ولا تترك للاحقاتها شيئاً سوى آثار مادية ؟

تمت الحضارة الميسينية قسماً كبيراً من الارث الكريتي وعنت به . كذلك لم يتح كل شيء منها في اعصار الغزوات الجديدة . فان في اللغة اليونانية بعض المفردات التي ليست بسامية ولا بهندو - اوروبية ولعلها تنتسب الى لغة قد تكون هي نفسها اقدم عهداً من اللغة الكريتية . ومهما يكن من أمرها ، فان الكريتيين والميسينيين قد استخدموها . كذلك احتفظت الديانة اليونانية بتأليه مبدأ الخصب وبممارسة الالعاب الرياضية . وانما هم الأخيون الذين آمنوا استمرار كل ذلك وانتقاله الى من بعدهم .

لم يقصر الأخيون أنفسهم على دور الوسطاء في هذا المجال . أجل لا يمكن ان ننسب اليهم كل ما أصبح يونانياً فيما بعد ، اذ يجب الا نفعل القسط الذي أداه كل من العناصر التي ستكون الشعب اليوناني . ولكن ذكرى حريهم ضد طرواده واسفارهم في المتوسط وثرواتهم وأسلحتهم وحلام تلهم القصائد الهوميروسية . وقد ذهب البعض الى القول إن هذه القصائد قد تأثرت مباشرة ، من حيث الوزن والمبنى ، بقصائد ميسينية مماثلة ، ولا يخفى ما في ذلك من جرأة ومغالة . اما نحن فلنكتف بملاحظة على نطاق أوسع . كان الكريتيون قد فتحوا طريقاً معترضة في المتوسط الشرقي فكان ذلك خدمة لبحر ايجه وجزره . فحافظ الميسينيون على هذه الطريق ، وكان ذلك هذه المرة خدمة لليونان البرية . ولن يعوز الاغريق طاقة بشرية ومهارة ونشاط كي يستمروا في السيطرة عليها قومياً واستعادة السيادة عليها اقتصادياً . وخلال قرون طويلة سينشطون الى ابقائها مفتوحة وسالكة خدمة لمصالحهم على غرار ما حدث في عهد ملوك ميسين وتيرنشوس .

الفصل الثاني

كنعان وسوريا

ان جوار البحر المتوسط ، وارتفاع سلاسل لبنان يطبعان بطابع خاص المنطقة التي هي امتداد لصحاري البلاد العربية نحو الغرب : كنعان في الجنوب وسوريا في الشمال . وتشد هذه المنطقة الى هذه الصحاري صلة دائمة من حيث انها تتعرض لهجمات الارياح الممرقة المفاجئة ومن حيث انها تستهوي البدو الرّحل فبلغتها منهم موجات متعاقبة واقامت في اقسام كبيرة منها أحيانا . فلما هي لهم الارض السعيدة بفضل امطارها وانهارها وينابيعها : الزراعة ممكنة فيها وجبالها مكسوّة بالأشجار . ثم ان الطرقات المختلفة تؤدي اليها وتمر فيها . وهي المسلك الطبيعي الوحيد بين مصر وجميع بلدان الشرق الأدنى . اجل قد يلفظ البحر فجأة القراصنة ورائدي المغامرات ، ولكن هذا البحر نفسه طريق تؤدي الى البلدان المختلفة . وهناك اخيراً طرق القوافل التي تصلها بأسفل الفرات وبلاد ما بين النهرين . فهي بلاد صغيرة اذن لا حدود طبيعية لها ولا وحدة فيها ولا ادارة مركزية تجمعها ، ومفترق مستطيل قسمته طبيعة الارض الى طرائد طويلة تتجه من الشمال الى الجنوب . وهي الى ذلك مفتوحة أمام كل سيطرة وقائير ، طمعت فيها كل الامبراطوريات العظيمة والجماعات البشرية الناشئة التي رغبت في ان تقتطع فيها لنفسها مكاناً .

بيد ان هذه الجماعات قد برهنت في ضعفها عن انها اكثر تصلباً من جيوش الفاتحين المتعاقبين الذين خلدوا مروهم بكتابات على درجة كبيرة من التصلف فطمعت تاريخ البلاد بطابعها الخاص . وباستثناء الفلسطينيين ، كانت هذه الجماعات كلها سامية ، مع انها انتسبت في الحقيقة الى اصول سامية متنوعة دخلت البلاد في عهود مختلفة . وبالرغم من تنوعها هذا ، فانها قد مارست ، أقله في البداية ، الديانة الكنعانية الشديدة التأثير بالطبيعة والزراعة . ولكنها سلكت في تطورها طرقاً متباينة وكوّنت فلسفة معقدة لذلك لن يتوقفنا منها سوى بعض جماعات كان لها اثرها في تطور الحضارة القديمة اللاحق .

١ - الفينيقيون

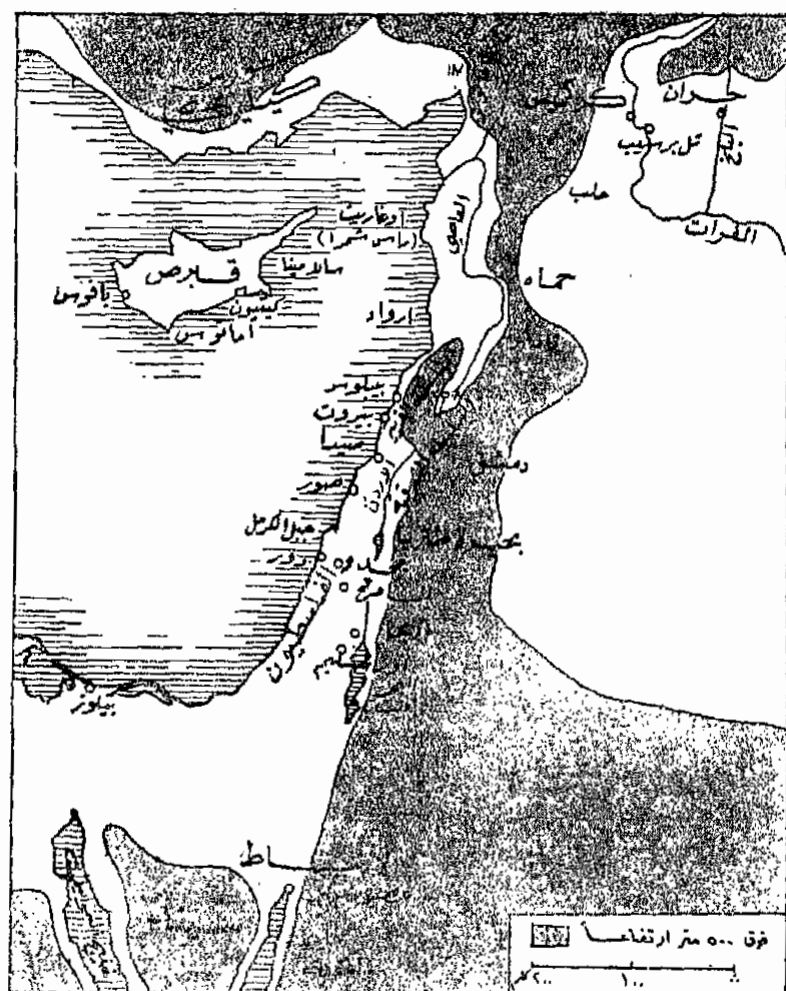
الفينيقيون ساميون استقروا في السواحل . و نراهم منذ زمن مبكر في الساحل الجنوبي الذي يتقدمون منه ، فيما بعد ، نحو الشمال . ومنذ اواخر الألف الثالث كأبعد حد نراهم في اوغاريت (رأس شمرا الحالية مع مرفأ مينة البيضا) ، قبالة رأس قبرص الشرقي . ولكنهم لن يتوغلوا الى ابعد منها نحو الشمال . وعلى نقيض ذلك ، فإن الساحل الجنوبي الذي كان ساحلهم قد أفلت من ايديهم وانتقل الى سيطرة العبرانيين والفلسطينيين . ولم يحتفظوا إلا برقعة ضيقة من الارض جنوبي الكرمل . اما نحو الداخل فيبدو ان توسعهم كان محدوداً ولم يبلغوا جبل لبنان الشرقي الا في نقاط نادرة . بيد انهم توقفوا الى الاحتفاظ بعلاقات طيبة بالسوريين .

طوال الألف الثالث ومعظم الألف الثاني ، توطدت علاقتهم بمصر بنوع أخص ، الحياة السياسية وكان مركزها بيبيلوس ، وهو الاسم اليوناني لجبله الفينيقية وجبيل الحالية . ولكن اسياد بلاد ما بين النهرين ، من جهتهم ، بسطوا نفوذهم على اوغاريت . ولم يتح للمدن الفينيقية ان تتمتع بالاستقلال إلا بعد انهيار الامبراطوريتين العظيمتين المصرية والحثية في اواخر القرن الثالث عشر . ولكن هذا الاستقلال كان قصير الامد اذ خضعوا فيما بعد على التوالي للسيطرة الاشورية والبابلية الجديدة والفارسية قبل ان يدخلوا في فلك اليونانيين والرومان من بعدهم . بيد ان هذه الطريدة الساحلية الضيقة لم توفر الارض الكافية لتشييد دولة كبيرة ، بل كانت تحت رحمة الامبراطوريات القوية بسبب ضعف دفاع حدودها البرية .

ولم يكتب لهذه الطريدة ان تتوحد بسبب امتدادها الى اكثر من ثلاثمائة كيلومتر وصعوبة مواصلاتها البرية التي تعترضها وديان ومرتفعات كونتها السول الجعافة المنحدرة عرضياً من الجبل الى الساحل . لذلك توزع السكان فيها على عدد من المدن احتل كل منها موقعا مؤقتاً للنشاط البحري : جزيرة صغيرة قريبة من الشاطئ أو أرض داخلية في البحر . ولم يجمع بينها اتحاد أو تحالف بل تكلمها التحاسد والتنافس اللذان قاداها الى التحارب احياناً . فتناصبت صور وصيدا بنوع خاص عداءً طويل الامد . ولم يتح لمدينة واحدة ، حتى ولو استفادت مما ألحقه الاجني بمنافساتها ، ان تبسط نفوذاً واسعاً أو دائماً . ولكن ما يلفت النظر هو ان المدن الفينيقية ، على نقيض المدن اليونانية ، لم تهلك قواها في هذه المنازعات . ويبدو ان الاسياد الغريباء الذين بسطوا عليها حمايتهم قد فرضوا عليهم الاخلاص الى السكينة . ولعلها ايضاً قد انشغلت بمصالح اخرى واستهوتها الآفاق الواسعة فلم تنجرف في تيار الخلافات المحلية . والجراح البالغة التي اصيبت بها صور وصيدا ، فسببت هبوطها ، انما هي نتيجة ضربات عدو خارجي لا انقسامات داخلية .

لا نعلم الشيء الكثير عن تنظيم هذه المدن وعن الحياة فيها . ونحن نرجح ان هذا التنظيم وهذه الحياة قد اختلفا من مدينة الى مدينة ومن عهد الى عهد في تاريخها الطويل . وليس من سبيل الى المقارنة بين مفهوم المدينة عند الاغريق والمفهوم نفسه عند الفينيقين . ولم تحل بعض الفوارق الطفيفة دون سهولة تطور المدن الفينيقية ، بعد فتح الاسكندر ، الى مدن من الطراز

اليوناني ، على نقيض بعض المدن الآسيوية الأخرى . لذلك يتوجب علينا الاقتصار على بعض الأنظمة الثابتة . فيمكن الجزم ، بنوع من الشمول ، ان المدينة الفينيقية قد خضعت دائماً للملك



الشكل ٢٠ - كنعان وسوريا

برأسها، و تنتقل الملكية عادة الى ذريته من بعده. والملك يتمتع احياناً بسلطة مطلقة ، كما هي حال حيرام في صور في عهد سليمان ، ولكن عليه نظرياً وعملياً في اغلب الاحيان ان يحسب

حساباً لقوى أخرى . فكاهن إله المدينة الرئيسي ينعم بنفوذ واسع يحدث أحياناً ان يستخدمه لاغتصاب الملك . وقد ثبت خصوصاً استمرار وجود مجلس من « القدماء » والقضاة ، كما درجت على ذلك صور مثلاً حيث تمثل القضاة بشخصين هما « الصافطان » . ويشترك في هذه الأجهزة ممثلون عن طبقة الاغنياء دونما تمييز بين اصحاب الاملاك واصحاب المراكب ، مما يبرهن انب للعائلات الكبرى مصالحها المشتركة . أما الشعب ، حتى ولو قام مجلس يمثله ، فلا كيان له إلا في ظروف البليلة والفوضى ، إذ يلجأ إليه الزعماء المتنافسون والأحزاب المتناهضة . ولكن هذه الجمهوريات الملكية الأرستوقراطية النزعة تمثل ، بالرغم من ذلك ، الى جانب الملكيات الشرقية الكبرى ، شكلاً مبتكراً في التنظيم السياسي .

ولعل حياتهم الاقتصادية اكثر ابتكاراً ايضاً .

الحياة الاقتصادية

فالزراعة ليست مهمة . وهنالك على منحدرات الجبال جلول منضدة هي ثمرة عمل شاق طويل . ويسد محصول الحبوب القسم الاكبر من حاجات السكان الغذائية ، وعربية المواشي بعض حاجاتهم من المنسوجات ، كما يصدر ما يفيض عن حاجتهم من خمر وزيت .

الصناعات المهنية ناشطة جداً في المدن . وقد قصد الصيادون شواطئ نائية جداً قبلقوا افريقيا سعيًا وراء طلب أصداف « الموركس » التي يستخرج منها الارجوان ، مما أتاح للفينيقيين ، زمناً طويلاً ، التفرد تقريباً بصناعة الاقشة الصوفية الملونة . ولم تواجه خزفياتهم منافسة تذكر في الفترة التي تفصل بين هبوط الميسينيين واتساع حركة التصدير في كورنثوس . وقد اكتشفوا أو اكملوا افضل التقنيات لصناعة ادوات الترف والجواهر والزجاجيات والطيوب والمفروشات المنزلة معدناً أو عاجاً . وفي هذا الحقل ، حتى في العهد الروماني ، سترام يتنازعون الأولوية مع الاسكندرية .

ثم ان بحثهم عن المواد الخام وعن الأسواق لبيع سلعهم قد دفع بتجارهم دفعاً الى الامام . فتعاطوها منذ عهد سحيق ، قائمين ، بالإضافة الى مقتضيات ضرورياتهم الخاصة ، بدور السامرة ، فجنوا الارباح من سلع غيرهم ايضاً التي أخذوا على انفسهم امر تصريفها : هكذا سلك الجبيليون مع مصر منذ الألف الثالث ، وهكذا غدت أوغاريت في الألف الثاني مستودعاً حقيقياً للعالم الايجي . أما في البر فلم يتولوا بأنفسهم نقل البضائع بواسطة القوافل ، ولكنهم أقاموا حيث تؤدي طرقات هذه القوافل وحرصوا على ان تقوم أحسن العلاقات بينهم وبين السوريين والعبرانيين . وإنما انقطعوا الى التجارة البحرية مستفيدين من موقع مراقبتهم ومستثمرين الموارد التي توفرها احراج لبنان لبناء مراكبهم . كان سكان بلاد ما بين النهرين قد اكتشفوا الأصول القانونية والمالية للتجارة البرية ، بينما نحن لا نملك قوانين ولا عقوداً فينيقية ، ولكننا أكيدون من انها قد وجدت واعتمدت في التجارة البحرية أصولاً ماثلة . وعلى كل حال فإن الفينيقيين قد برزوا في تقنية الملاحة التي تفوقت على كل تقنية أخرى ما بين القرن الثاني عشر وأواخر

القرن الثامن . وقام بعض ملاحهم من كانوا في خدمة نخاور ، أحد فراعنة سايس ، « بجولة » حول افريقيا مروراً بالبحر الأحمر وجبل طارق استغرقت ثلاث سنوات . وسلكوا بحراً ، لحسابهم الخاص ، طرقاً غير مطروقة مندفعين بعيداً نحو الغرب ومكتشفين مصابئ الانهر والمواقع الصالحة للجوء المراكب وللدفن من الشاطئ . ومستطلعين ، بتوقفهم الاضطرابي كل مساء ، شواطئ مجهولة ، حرصوا على الاحتفاظ بأسرارها . وقد نشطوا في كل مكان إلى إقصاء كل من تسول له نفسه منافستهم ، لاجئين إلى القوة حين يرون للقوة سبيلاً ، مستعدين لكل مقايضة ، مقدمين على الاستلاب أحياناً ومعرضين انفسهم لسطو المستلبين أحياناً أخرى . فقد اتجروا ، بالإضافة إلى ما تجروا به ، بالأرقام من رجال ونساء واطفال باعهم اسياهم أو هم خطفهم بالحيلة أو بالقوة . أما ما جاء في ملحمة « أوليس » عن خطف راعي الخنازير اليافع ، « اوميوس » ، بينما كان ذوهه يتباحثون مع احدالتجار الفينيقيين في ثمن عقد من الذهب والندى ، فيبدو ان الخطأ فيه مشترك بين الطرفين اذ ان الامة الصيدونية المسؤولة عن الخطف قد خطفت هي ايضاً على أيدي قراصنة من الاغريق . ولكن الفينيقيين قد عرفوا تمام المعرفة ان الاتفاق الجلي مع اهالي البلدان الغربية أولى .

وقد توصلوا في اكثر الاحيان إلى تحقيق هذا الاتفاق وتمكنوا من تحويل الاستعمار الاسا كل المبتدئة إلى اسواق تجارية دائمة ما لبثت ، بفضل ظروف عملية مؤاتية ، ان اصبحت مدناً جديدة أحياناً . بيد انهم قد صادفوا مقاومة جديده من قبل الاغريق الذين لم يسمحوا بأن يمس حرمهم الايجي ، بل هم أنفسهم خرجوا منه لتأسيس اسواق خاصة بهم . ففُتحت قبرص فيما بينهم على ان الفينيقيين قد حصلوا منها على الشطر الأكبر : فكان لصيدون فيها ، في القرن الثامن ، « قرط حدثت » أو قرطاجنة ، أي « مدينة جديدة » . وقد وجب التوافق في صقلياً ايضاً . ولكن الفينيقيين لم يواجهوا منافسة ما في سردينيا ولا في شبه الجزيرة الايبيرية ولا في افريقيا الشمالية . ولكن ذلك لم يفض إلى قيام امبراطورية بمفهومها المعروف ، بل إلى سلسلة من المستعمرات الفينيقية ، قد تتقارب حلقاتها أو تتباعد ، ينتظر احداهما ، قرطاجنة الصورية في افريقيا ، مستقبل باهر جداً . وقد نشرت هذه المستعمرات أحياناً الحضارة الفينيقية في اوساط على كثير من التخلف والتأخر .

يتناقض عدد هذه الاسواق وتشققها تناقضاً كلياً وضيق بلاد مؤسسها الأم . وهذا دليل على كثافة سكان هذه البلاد حتى ولو سلمنا بالتعاق مهاجرين جدد من هنا وهناك بالنازحين المؤسسين . وهذا ما يعطل ايضاً امتناع المدن الفينيقية عن التوسع في آسيا وربما عدم نشوب أزمات سياسية واجتماعية خطيرة في تاريخها الداخلي . ولكن هذا النشاط قد أدى الحثمات الجللى للعالم الشرقي القديم . فقد أسهمت التجارة الفينيقية ، بفضل انتشارها في الغرب المتوسطي وبفضل اسواقها التجارية في شرقي اسبانيا وفي قادش بعد مضيق جبل

طارق ، في قنوين الشرق بالمعادن النادرة لاسيما القصدير المستخرج من الجزر الكستيرية . وهكذا فإن هذه المدن الصغيرة القائمة على شاطئ صخري قد وفرت للأمبراطوريات العظمى بعض المواد اللازمة لتشييد حضاراتها .

ويالدهشتنا ، استناداً الى ما سبق ، عندما نرى ان الفينيقيين قد مارسوا ، في الديانة والفن جوهر معتقداتهم ، ديانة تتسم بطابع زراعي مميز فيما يتعلق بألهتها وخرافاتها وطقوسها ، مما يثبت انهم تعاطوا الزراعة دون غيرها قبل ان يصبحوا تجاراً وملاحين .

اطلقوا على إلههم الرئيسي اسم العلم « ايل Eli » الذي ليس سوى اسم نكرة معناه « إله » . وقد رأوا فيه خالق كل شيء وسيد الآلهة . وبأبي عمده بعل (السيد) وهو يمثل « حنّاء » المتبسط عن سوريا الشمالية اثناء الاستيطان وكان إله الصاعقة والرعد والمطر . اما ابنه « أليان بعل » فيمثل الآبار وينابيع المياه الجوفية . وكان « داغون » إله القمح و « موت Mot » إله الحصاد ونضج الثمار . وغدت « عشتروت » إلهة الخصب وهي لا تختلف عن عشتار بلاد ما بين النهرين كما يتضح من اسمها . وهناك مجموعة آلهة آخرين كثيرين طرأ بعض التطور على نظرة الناس الى جوهرهم وتنسيقهم . فاستقر ملقرط (ملك المدينة) في صور ، وجمع ادونيس (سيدي) اليه « أليان » و « موت » . ولا ذكر هؤلاء الآلهة في نصوص اوغاريت — رأس شمرا ، ولكننا نجد ، في الاساطير التي تروى هذه النصوص ، الخطوط المميزة الدائمة . منذ القرن الخامس عشر قبل المسيح ، « موت » وأليان يموتان منابذة ثم يقومان كما سيفعل « ادونيس » في اعياد جبيل التي وصفها « لوقيانوس » في القرن الثاني للميلاد . وكذلك نرى ان العالم الفينيقي قد مارس طقوساً لازمته زمناً طويلاً بموجبياتها الاصلية . فقد اثبتت اعمال التنقيب ما جاء على لسان المؤرخين الاغريق ، اذ ان القرطاجيين قد قدموا في عهد متأخر ضحايا بشرية من الاطفال لأيل الذي عرف عندهم « ببعل هامون » . ولعل اسم هذه الذبيحة (ملّقت) هو الذي حدا بالعبرانيين لأن ينسبوا للفينيقيين إلهاً اسمه مولوخ .

تمكنا من معرفة الفن الفينيقي عن طريق المدافن التي ثبتت قدمها وغناها اهمية عبادة الاموات . ولكنه ليس بالفن المبكر ، لابل انه يكشف عن الاثر البعيد الهام الذي اضفته عليه فنون اجنبية عدة ، وهو حين يؤلف بينها لا يتوفق الى تحقيق صهرها . المدافن في اوغاريت معقدة ويتقدمها سرداب على الطراز الميسيني . ويمثل ناووس الملك احيارام في جبيل ، تحت افريز من البردي ، الميت مرتدياً ثياباً مصرية وجالساً على عرش يجانبه تماثيلان لابي الهول ، امام منضدة للتقادم مصرية ايضاً . اما في صيدون ، فان بعض نواويس القرن الرابع على الاقل التي قد صممت على شكل معابد يونانية صغيرة ، هي دون رب من صنع النقاشين الاغريق ، كناووس « الباكيات » مثلاً الذي سبق وعولج موضوعه ، بكثير من الحرق ، على ناووس احيارام ، ولعله موضوع فينيقي صرف . ولكن أجمل وأثمن الادوات الموضوعة في المدافن مصدرها اجنبي ،

وهو ، في جيبيل كما في اوغاريت ، مصر والعالم الآيحي . وقد زودها هذا الاخير بنوع خاص
بماجيات تلفت الانظار . ففي هذا النطاق ايضاً جمع الفينيقيون ثرواتهم من التجارة الخارجية .

بيد ان لهم فضلاً خاصاً في تحقيق اكتشاف على جانب كبير جداً من الاهمية هو
الايجدية اكتشاف الايجدية . لقد سبق ورأينا ان المصريين ، وربما سكان ما بين النهرين ، قد
اعطوا بعض رموزهم قيمة حرف صحيح ، وتمكنوا بالتالي من تحليل الاصوات الاولى . ولكن
هذه الرموز قد احتفظت في الوقت نفسه بقيم اخرى كما ان رموزاً اخرى كثيرة ، لا سيما المقطعية
منها ، قد استمر استعمالها في آن واحد بقيم مختلفة . ويبدو اليوم ان الخطوة الفاصلة قد خطاها
الفينيقيون . فالنصوص الدينية في اوغاريت - رأس شمر التي ترتقي الى القرن الخامس عشر قد
كتبت انطلاقاً من ثلاثين رمزاً مسبارياً فقط يمثل كل منها حرفاً صحيحاً . وكانت هذه الرموز
معقدة جداً وصالحة للكتابة على الغرين فقط . ويرجح ان النجاح الاخير قد احرز بعد ذلك
بقليل وكان مكتملاً عندما اودعت جثة احيرام ناووس في جيبيل : فقد استخدم في الكتابة
المخورة على غطائه اثنان وعشرون رمزاً اصطلاحياً تقابل اثنين وعشرين حرفاً صحيحاً . فتى
عاش احيرام يا ترى ؟ هناك آنية من حجر الشطوط تحمل اسم رعيس الثاني وضعت على مقربة
من الناووس مما يحملنا على الترجيح انها معاصرة للقبر تقريباً . فلا يرتقي هذا القبر والحالة هذه
الى ما بعد آخر القرن الثالث عشر . وهل اشتقت هذه الرموز من اسلوب كتابي غريب ؟ كل
ما نحققنا منه هو انها لا ترد الى تبسيط الرموز الهيروغليفية او المسبارية . ولكن هذا يهيب بنا
الى الاعتقاد بان الفينيقيين قد ابتدعوها بمعزل عن أي تأثير . ويتضح بالتالي ان التقليد اليوناني
الذي نسب اليهم اكتشاف الايجدية قد صادف تأييداً ركيناً بالاكشاف الذي طلعت علينا
به جيبيل .

ويستدل من مقارنة الرموز ان ايجدية ناووس احيرام كانت مصدر الايجديات المعتمدة في
كتابة لغات الشعوب السامية والمجاورة : الآرامية والعبرانية . ثم استوحاها الاغريق بدورهم
مضيفين بعض العلامات الناقلة او الجديدة الى اشكال حروف ايجديتهم الخاصة ، لا سيما حروف
العله منها . وما الاسماء التي اطلقوها على هذه الحروف سوى اسماء سامية كألها التي تأتي من
ألف مثلاً ، وغيرها ... ثم نقل كل العالم المتوسطي الايجدية عن الاغريق .

فلا خوف اذن من المغالاة في اطراء اهمية هذا الاسهام بحقه
دور الحضارة الفينيقية التاريخي
الفينيقيون في الحضارات القديمة . وان لهم عليها افضالاً اخرى
أتاح العرض السابق تقديرها وتوقعها : استكمال التقنيات البحرية التي لا نعرفها تماماً على كل حال ؛
استكشاف شواطئ المتوسط الغربي ؛ تنظيم المقايضات فيما بين المناطق والحضارات الثانية .
واذا اعوزهم النقد الذي لم يظهر في مذهبهم قبل العهد الفارسي ، فانهم حريصون على ان يكتفي
'بجارة التجار' ، في تعاملهم والشعوب المتخلفة ، بالمقايضة دون صعوبة . وقد استمرت اهمية

دورهم الاقتصادي، حتى بعد ان دخلوا في فلك الامبراطورية المقدونية والامبراطورية الرومانية من بعدها ، وحتى بعد ان اشتركت البلدان الغربية اشتراكاً مباشراً في الحضارة العامة . وقد حافظت صناعتهم الزخرفية على نشاطها الواسع ، وقد انتشر تجارهم الذين لم يميز بينهم وبين « السوريين » في كافة انحاء العالم الروماني ، وأسهموا في اشاعة بعض العبادات الشرقية فيه . بيد ان انطلاق هذه الاشاعة يعود الى عهد مبكر جداً اذ قد مهد لها الطريق وجود البحارة الفينيقيين في كل المرافئ . ففي السنة ٤١٥ قبل الميلاد ، احتفل بعيد ادونيس في البيرة بحضور جماهير شعبية غفيرة ، وكانت النساء تتحسرن على موت الاله الذي لن يلبث ان يقوم ، حين اقلع الاسطول العظيم شطر صقليا حاملاً معه آمال اثينا والقيبادس .

٢ - الأراميون

وراء الطريدة الفينيقية الساحلية ، تقوم سوريا التي هي ملتقى طرق وملقى شعوب ايضاً . فقد استوطنتها شعوب عدة وتناوبت السيطرة عليها تاركة فيها عنصريات مختلفة القوميات انصهرت رويداً رويداً في كل متجانس وتاركة ايضاً أثراً يمازج المصائر تنسيقها . ولتقتصر بين هذه الشعوب على الاراميين دون غيرهم ، اذ ان حضارتهم تنطوي ، في بعض مظاهرها ، على اهمية راعنة .

الاراميون ايضاً ساميون جاؤوا من احدى مناطق الصحراء السورية العربية . الحياة السياسية كانوا في البدء بدواً رحلاً منتظمين قبائل ، هاموا على وجهم حتى بلغوا الاصقاع العليا من بلاد ما بين النهرين حيث نجدهم ، على بعض الكثافة ، مستقرين في حرّات اولاً . وقد جاء في سفر التكوين ان يعقوب قد اقام طيلة عشرين سنة عند لابان على بعض المسافة من هذه المدينة . ثم هاجروا ، ابتداء من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، الى سوريا حيث أسسوا مستعمرات حضرية . بيد انهم لم يقدموا يوماً على طرد قدامى السكان كلياً ، ولم يتوصلوا الى غرهم عدداً ، كما انهم لم يؤسسوا دولة واحدة ، بل بممالك متعددة قد تتحارب احياناً . ولعل أهم ممالكهم تلك التي قامت في واحة دمشق الكبرى عند لحف جبل لبنان الشرقي ، وهي مملكة اسرة « بن حداد » (ابن حداد) ومملكة هازايل (ايل ينظر) . وباستطاعتنا ان نذكر ، الى جانب مملكة حران ، ممالك اخرى كثيرة : في حلب ، وحماة على العاصي ، وزنجري عند لحف امانوس ، وغيرها .. وتعددت التوراة ثلاثة وثلاثين ملكاً حليفاً في القسم الثاني من القرن التاسع . ويمكن القول انهم بلغوا اوج الازدهار في القرنين الحادي عشر والعاشر اذ سدّوا الطريق امام الاشوريين نحو الغرب والشمال الغربي . غير ان الملوك الاشوريين منذ اواخر القرن العاشر ، عندوا في تسديدهم الضربات يوم كانت لهم منازعات مع العبرانيين . وفي اواخر القرن الثامن تم القضاء على استقلالهم ، فغضّصوا باستمرار بعد ذلك التاريخ الى الدول الأجنبية .

كان لكل مملكة أرامية عاصمتها وملكها وسلالتها ومقتصبوها أيضاً . وقد فرض الآشوريون الجزية والتقادم على هذه أو تلك من الممالك محاولين حل الملك على القبول بدور صاحب الإخاذة والموظف في آن واحد . ولكن هذا الملك كان يهب عند أول ساحة ، لاستمادة استقلاله . وجلي ان لا جديد غير عادي في كل ذلك . بيد انه يجدر بنا ان نذكر الكتابة التي يجدها فيها أحد ملوك زنجبرلي احسانات سياسته الداخلية ، بعد انتصاراته الخارجية : « كان « المشكب » يطوفون كالكلاب . أما أنا فقد كنت لهذا أباً ، ولذاك أمّاً ، ولذلك أخاً . وذلك الذي لم ير في حياته رأس خروف ، جعلته يملك قطعاً من الماشية الصغيرة . وذلك الذي لم ير في حياته رأس ثور ، جعلته يملك قطعاً من الماشية الكبيرة ويملك الفضة والذهب . أما الذي لم ير القيص منذ حداثة سنه ، فقد ألبس الحز في ايامي . أنا امسكت بأيدي المشكب الذين كيفوا أنفسهم كما يكيف اليتيم نفسه حيال امه . فاذا ما جلس احد اولادي على العرش بعدي وأقدم على ائتلاف هذه الكتابة ، فليضن المشكب باحترام البارير وليضن البارير باحترام المشكب » . وانما المهم في هذا النص ، ذكر المشكب ، وهم بلا ريب عمال زراعيون ، وربما فداديون ، حسن الملك وضعهم تحقيقاً للآفة بينهم وبين البارير ، « القساء » ، أي العتاة أو الاشراف . وقد يكون لهذه الفكرة سابقاتها في الحضارات الشرقية الاخرى . ولكن قوة التعبير فيها تبدو حدثاً جديداً . ومن سوء الحظ ان ليس من نص حتى الآن يلقي ضوءاً آخر على الحياة الداخلية في هذه الدول الصغيرة .

أما دورها التجاري فأقل غموضاً . فالواقع الجغرافي لسوريا وشمال بلاد ما
الدور التجاري
بين النهرين ، الذي جعل منها طريقاً طبيعية للتجارة بين الساحل الفينيقي وآسيا الصغرى من جهة وبين مناطق اسفل الفرات ودجلة من جهة اخرى ، قد سمح لها ، كوسطاء ، باظهار المزيد من النشاط الواسع . فقاموا برأ في بعض اقطار الشرق الادنى بما قام به الفينيقيون بجزراً . وما لبثت الصناعة والتجارة في سوريا ان طبقت اضواً تقنية افضل فنالت شهرة كبرى وأسهمت في ثروة دمشق . ولكن القوافل كانت قد تقاطرت على هذه المدينة منذ قبل الفتح المقدوني . ثم ان تنقلات الاراميين قبل اقامتهم الحضرية المستقرة ، واقدام الملوك الآشوريين مراراً على نفيهم ، وهجرة تجارهم الطوعية الى الامبراطوريات الواسعة الارحاء التي انخرطوا في عداد رعاياها ، كل هذه الاسباب قد أفضت الى احلال جماعات ، كبيرة أو صغيرة ، ممن يتعاملون التجارة ، في مدن عديدة نائية جداً في بعض الاحيان . وقد استفادوا من هذا الوجود المتزايد في كل مكان ، حتى في عهد السيطرة اليونانية ، وسيصبحون ، في ايام الامبراطورية الرومانية ، التجار في كل امصار العالم القديم تقريباً .

وكانت اولى نتائج ذلك انتشار لغتهم التي انتصرت لهجاتها المتعددة في
الأرامية لغة الشرق
لغة أرامية عامة . وهم لم يكتبوها بحروف مسارية ، بل طبقوا عليها
اليحدية مشتقة من الايحدية الفينيقية . فحملت سهولة استعمالها الملوك الآشوريين على استخدام

الكتابة الأرامية المنتشرين هنا وهناك، في اداراتهم ، للكتابة على البردي، وذهب الاخمينيون الى أبعد من ذلك فجعلوا من الأرامية لغة امبراطوريتهم الادارية . وإذا ما أضفنا الى ذلك نشاط الأراميين التجاري يتضح لنا كيف ان لغتهم قد عم استعمالها وحلت محل لغات اخرى كثيرة . وتبين لنا نجاحاتها اسباب اضمحلال اللغات القديمة الخاصة في بلاد ما بين النهرين . فأصبحت العبرانية بالمثل حتى في فلسطين . لذلك نرى في التوراة بعض المقاطع الأرامية . فكتاب دانيال قد وضع كله بهذه اللغة ، ولم ينقل الى العبرانية جزئياً إلا بعد ذلك بزمان . وكذلك فان يسوع وتلاميذه لم يعملوا بالعبرانية بل بالأرامية . وكذلك أيضاً فان اللغة السريانية وهي لغة المسيحيين في سوريا وبلاد ما بين النهرين طيبة احقاب طويلة، تشتق من اللغة الأرامية . ولم يحدث من انتشارها أولاً، وبسبب زوالها ثانياً، سوى الفتح العربي وحده، في القرن السابع بعد المسيح . ولكنها قبل ذلك لعبت في الشرق الادنى كله ، باستثناء مصر وآسيا الصغرى ، دوراً كبيراً جداً : تجارياً وثقافياً وحتى أدبياً وسياسياً من حيث هي اداة توحيدية .

ليس ما يلفت النظر في فن الأراميين طيلة هذا العهد القديم . وما كانت الديانة الديانة لتلفت الانتظار وتلتم ببعض الأهمية لولا الشهرة التي سبغها بعض عبادتهم في عهد الامبراطورية الرومانية .

فديانتهم هذه لا ابتكار ولا تفرد فيها ، بل هي مزيج جوهره كنعاني انضمت اليه تأثيرات ميثانية وحثية وفينيقية . وما سهل استساغة هذه التأثيرات ان العبادات التي عكستها تنحدر هي نفسها من العبادات الكنعانية . وهكذا فقد عرف اسم إيل هنا وهناك ، كما ان إله الزوبعة ، وحده ، خصوصاً - واسمه رامون اي « القاصف » في دمشق - يعرف باسم بعل في اكثر الأحيان . وكذلك فإن عشتروت هي المثال الأصلي لأغلبية الآلهات . ثم ان آلهة ما بين النهرين الكثيري العهد ايضاً لم يتميزوا عن الآلهة الكنعانيين ، باستثناء بعل حرّان الإله القمر سين Sin الذي جاء من أور في بلاد الكلدانيين وأكرم في هذه المدينة منذ عهد سحيق ، محافظاً على اسمه دون تغيير .

فسوريا إذن كانت ملتقى دينياً ايضاً . وفي عهد متأخر ، أي في أوائل العهد الميلادي ، حولت أو بالأحرى صهرت ما تجمع لديها من نظريات ، عن طريق التوحيد ، في اللاهوت الشمسي . وقد صدرت الكثير ايضاً عن طريق تجارها الموجودين في كل مكان وجنودها الذين انخرطوا في خدمة روما والجنود الغرباء الذين أقاموا في ارضها . « فالإلهة السورية » ، « أثارغاتيس » ، وبعل دوليكيه ، وبعل هليوبوليس ، وبعل حمص ، الذين انتشرت عبادتهم في اوربا ، انما خرجوا منها . وفي اوائل القرن الاول قبل المسيح كانت عبادة اثارغاتيس راسخة في ديلوس .

في تلك الازمنة التي بسطت فيها روما سيطرتها على العالم ، لم يوجد ، منذ زمن بعيد ، من يأبه للملوك أشور العظام أو لحضارتها . وعلى نقيض ذلك لم يشمل تأثير الأراميين الحقيقي ، في

يوم من الايام ، المناطق الشاسعة التي شملها حينذاك . ولعل مرد ثانيوم هو في الاصل فقدادت استقلالهم السياسي حين قع سرجون الثاني الانتفاضات الثورية الاخيرة في حماة ودمشق . وفي التاريخ اكثر من مثل على هذا التناقض الظاهر .

٣ - العبرانيون

ان هذا الشعب السامي الذي عاش زمنا طويلا حياة البدو الرحل، المتشردين احيانا، والذي تعنى واستوطن فلسطين نهائيا ، بعد خروجه من مصر ، في اواسط الالف الثاني قبل المسيح قد عرف مصيرا خارقا غريبا . وهذا المصير ليس خارقا بحد ذاته ، اقله حتى منازعاته مع الملوك المقدونيين الاخيرين ومع روما ، فان شعوبا شرقية صغيرة اخرى قد اصابتها ما اصابه من تقلبات الدهر الممثلة ، وانما الفارق الكبير الوحيد هو اننا اكثر معرفة باحوال الدهر فيه منها في سواه ، ثم ليس تاريخه كتاريخ ، ما يجب ان يستوقفنا هنا . لكن مصيره الخارق قائم في غرابة تطوره الديني والاخلاقي وفي اتساع وعظمة دوره في تاريخ البشرية الروحي .

أ - التقلبات الزمنية

يكفي اذن ان نرسم بسرعة الخط البياني المنحني لتنظيمه السياسي ولنشاطه اللغاة المادي، اذ ان الاشكال التي تلبسها لم تبقى دون نتائج في النفوس.

فرضت الحياة البدوية على العبرانيين نظام القبائل الجماعي . ثم فرض عليهم الصراع ، بفية احتلال ارض الكنعانيين ، والمنازعات مع الفلسطينيين بنوع خاص ، تنظيما آخر جانب ظهور الروح القومية وسيرها في مدارج التقدم : فالحرب تتطلب رؤساء يستطيعون جمع الحد الأقصى من طاقات العمل والنشاط في مجهود مشترك.

كان الرؤساء الاول : القضاة ، وهو الاسم الذي اطلق على القضاة المدنيين في المدن الفينيقية . وقد تسربت الاسطورة الى التقليد الذي تكون حولهم . ولكننا نلصق فيهم ، دون عناء ، رجالا تلهمهم الاخطار ويتمتعون ، بفضل صفاتهم الشخصية ، بنفوذ رفيع عسكري وسياسي وديني معا . وقد اعتبرهم الناس اقرب الى الالهية من باقي البشر ، مما اركن سلطتهم على اساس وطيد . ولكن هذه السلطة افتقرت الى ادارة منظمة واكتفت بالاساليب البدائية . وقضى صموئيل لاسرائيل كل ايام حياته . وكان يذهب من سنة الى سنة ويدور في بيت إيل والجلجال والمصفاة ويقضي لاسرائيل في جميع هذه المواضع . وكان رجوعه الى الرامة ، لان بيته هناك ، وهناك قضى لاسرائيل . اما شاوول ، فكان يشاور مع معاونيه جالسا تحت الاثلة في جبعة فوق المرتفع ، راحه في يده وجميع عبيده وقوف لديه .

الملكية الاتحادية وما لبث شاوول ان منح اللقب الملكي في اواخر القرن الحادي عشر ، على الرغم من المعارضة التي صادفها هذا الحدث . ولكن الملكية لم تصبح اتحادية حقاً الا في ايام متافسه وخلفه داوود الذي حدد لها اورشليم مركزاً . ثم سلبها لابنه سليمان الذي عرفت في ايامه ، في اواسط القرن العاشر ، ازدهاراً باهرأ حقيقياً .

ولكنها لم تتميز باي تفرد خاص في تنظيمها السياسي والاداري ، اذ كانت من المهتم عليها ، حتى في نطاق شعب صغير ، ان تستوحي المثل الشرقي العظيم . وكان داوود يحسب حساباً للقبائل والمدن التي كانت لها بمثابة عواصم صغيرة . اجل انه جند مجلساً من الموظفين مع رئيس كنية ومسؤول عن اعمال السخرة وقواد وحرس ومرزقة ، ولكنه كان يستدعي مندوبي القبائل ايضاً التي يلجأ اليها عند تعبئة الجيش . واحرز النظام المركزي تقدماً كبيراً في عهد سليمان ، وازداد عدد موظفي البلاط الذين يعملون الى جانب الملك في ادارة المملكة . وقسمت البلاد الى اثنتي عشرة مقاطعة اسند امر ادارة كل منها الى « وكيل » وفرض على كل منها تأمين المواد الغذائية للقصر الملكي طيلة شهر كامل . ونظمت اعمال السخرة وثقلت وطأتها ، مما اثار شكاوى الشعب المريرة الحادة . وان الفارق الاساسي الوحيد الذي ميزها عن الملكيات المجاورة ، لا سيما مصر وبلاد ما بين النهرين اللتين كانتا لسليمان مثله الاعلى ، كان في الحقيقة فارقاً دينياً . فلم يكن الملك يوماً من الايام ابن الاله او نائبه على الارض ، بل اقتصر على ان يكون « مسيحه » . واذا كان ذلك قد اضفى عليه صفة مقدسة ، فانه ، مع ذلك ، لم يتصل مباشرة وبصورة عادية بالاله ، كما انه لم يمارس قط ، ولو نظرياً ، سلطات رئيس الكهنة . ولكن المركزية قد رافقها ، على الاقل ، تقدم ملموس نحو المركزية الدينية . فاقام داوود ، من قبل ، تابوت العهد في اورشليم ؛ وحين توفى سليمان الى تشييد الهيكل ، سعى جهده لان يتخلى الشعب عن المعابد العديدة المنشأة في زمن الحياة البدوية .

وقد اعارت الملكية الحياة الاقتصادية اهتماماً كبيراً ، سعياً وراء توفير مواردها . فحرث العبرانيون ارضهم واحرزوا نتائج حسنة ، حتى في الحبوب ، فاستطاعوا ان يصدروا الى الفيلقيين القمح والزيت والعسل والشمع والطيوب . وقد حالف سليمان حيرام ملك صور ، على المتوسط ، كما نشط لاجتذاب تجارة القوافل من شرقي الاردن . وقد انشأ في الجنوب قاعدة عاصيون جابر البحرية في اقصى خليج العقبة رغبة منه في ان يحوّل اليها شطراً من التجارة مع الجزيرة العربية التي احتكرتها مصر حتى ذاك التاريخ . ثم بنى المراكب وقدم له حيرام الملاحين . ولعل اسطورة ملكة سبا احياء لذكرى الملائق التي ربطت العبرانيين بدولة زخرت بالكثير من المحصولات المرغوبة . وقد جاء في التوراة ان سليمان « جعل النقيدي في اورشليم عاديّاً كالخجارة » .

وقد استخدم ثرواته لا لتقوية جيشه فحسب بل لتجميل عاصمته ايضاً . فاقام على رابية

سهيون الهيكل و « بيت الملك » الذي اكمله بقصر للملكة التي قيل عنها أنها اميرة مصرية . ولكن التنقيب عن الآثار لم يتوصل الى اظهار هذا او ذاك من هذه الابنية . ولذلك فان كل محاولة لتحقيق تصميمها تكون مجرد اجتهاد . غير ان المعلومات التي توفرها التوراة (الملوك الاول ، الفصلان السادس والسابع) تلعب لنا بسهولة التأكد من واقع تأثير مصر وبلاد ما بين النهرين ، على الرغم من ان الكتاب يشدد باعجاب على المساعدة الفينيقية وعلى الاسراف في البذخ . وقد استعمل ، بسخاء كئسي ، خشب الارز والصندل ، والحجارة المنحوتة ، والذهب ، والفضة والشبهان . وصنع العرش الملكي من العاج المغشى بالذهب : « لم يسبق ان صنع شيء مماثل في اية مملكة » . « ما من ائاف فضي » في آنية المائدة الملكية : « اذ لا اعتبار لها في ايام سليمان » . وقد قدم حيرام ملك صور كثيراً من هذه المواد ، كما قدم بدون شك عمالا اختصاصيين . ولم يذهر الفن عند العبرانيين الا في هذه الفترة القصيرة . ولكن يتملذ تكوين فكرة واضحة عن الاعمال المنجزة حينذاك ولسنا نعرف معرفة ثابتة سوى الامور التالية : غنى المواد ، والسعي المقصود وراء العظمة والبذخ ، وفقدان الابتكار والتفرد .

الازمات والتبوقراطية يبدو ان عهد الظلم هذا لم يدم طويلا ، اذ ان اولوية اورشليم قد اثارت الشكاوى ، لاسيا من الضرائب الباهظة والمركزية . فتفجرت الازمة السياسية منذ موت سليمان في السنة ٩٣٥ وادت الى انقسام البلاد الى مملكتين : يهوذا ، وعاصمتها اورشليم ، التي التحق بها سبطان فقط ، واسرائيل ، وعاصمتها السامرة ، التي التحق بها الاسباط العشرة الاخرى .

وجاءت الازمة الاجتماعية اكثر عمقا واشد خطراً . كانت الحياة البدوية قد فرضت نظاما حياتيا ، ان لم يكن ديموقراطيا بالمعنى الصحيح ، فقوامه المساواة بين الشعب ، وذلك بفضل اشتراكية الاموال والاملاك . فازالت الحياة الحضرية رويداً رويداً ثم افضى الاقتصاد التجاري الذي شجعت الملكية الى التفاوت الاجتماعي ، وذلك بوضع الاغنياء والفقراء جنباً الى جنب . فهاج في النفوس الحنين الى الحياة البسيطة . وكان سليمان واورشليم وحدهما في البدء موضوع انتقاد ، اي ان الانتقاد تناول الملكية التوحيدية وانشاءاتها البنائية التي جسّمت ، بلجوها الى المحصولات الاجنبية ، الاقتصاد الجديد وعواقبه الاجتماعية الوخيمة . ثم شمل الانتقاد ملوك اسرائيل ايضا الذين لم يبرهنوا قط عن انهم اكثر عدلا واسمى اخلاقا من ملوك يهوذا .

ولاح الخطر الخارجي اخيرا ليس من سكان الساحل والملوك الاراميين فحسب كما في الماضي بل من الملكيات العظيمة التي استمدت قدرتها على النهوض بالمهام خارج حدودها . ففدت فلسطين قريسة للدسائس الدولية وساحة حرب تصادمت فيها الجيوش الاجنبية . فعالقت المملكتان ، على التوالي ، هذه الدولة او تلك ، وبحث دون جدوى عن دولة حامية تكون اقل خطراً ، غير انها انتهت الى الزوال .. فقد فتح سرجون الثاني السامرة في السنة ٧٢١ ونفى ٢٧٢٩٠

شخصاً من السكان الى بلاد اشور وقضى على اسرائيل. وفي السنة ٥٨٧ كان نبوخذ نصر اشد قهوة في اورشليم اذ انه دمرها نهائياً واجلى عنها كافة السكان الذين نفاهم الى بابل .

بيد ان كورش الاخميني ، بعد ذلك بخمسين سنة تقريباً ، وضع حداً لهذا النفي واذت للفرانيين باعادة بناء اورشليم . ولكن لم يكن هنالك بعد اي عضو من الاسر الملكية القديمة . ولم يكن الفرس ، ولا المقدونيون من بعدهم ، ليرضوا بقيام ملكية قومية جديدة . لذلك لم تعرف فلسطين باشراف المرازبة ، سلطة غير سلطة الطبقة الكهنوتية . وكان على رأس هذه الطبقة رئيس كهنة يدير شؤون البلاد ، يعاونه مجلس اعيان من المدنيين والكهنة ما لبث ان اطلق عليه اسم « سندرين Sanhedrin » (من اليونانية سندريون مجلس) اي المجلس الاعلى . ودام هذا النظام التيوقراطي الذي جعل من الدولة القديمة كنيسة ، بعد ان اصبحت دائرة في ولاية حتى القرن الثاني قبل المسيح ، اذ انتهت انتفاضة المكابيين على السلوقيين باستعادة الاستقلال وارجاع الملكية .

اولوية الديانة ان هذه العجالة التي توجز ، على الرغم من اسبابها ، تاريخاً كثير التقلبات ، تتيح لنا منذ الآن بعض الاستنتاجات .

فالعبرانيون لم يدخلوا سياسياً ، شيئاً جديداً يستحق الذكر ، على تاريخ الحضارة . فالتيقراطية نفسها ليست نظاماً جديداً في حياة الشرق ، حتى ولا النظام القبلي من قبل ، وتكوين الوحدة الوطنية بقيادة شخصيات بارزة ، والازدهار القصير الامد الذي عرفته الملكية القائمة على مبدأ المركزية .

وكذلك فان اسهامهم الفني ، بقدر تخيلنا له على الاقل ، مفقود تماماً ، ولم يكن له ، على كل حال ، اي اثر في الخارج .

اما الادب فأكثر حظاً من الغنى . فنحن نعرف تاريخ العبرانيين بفضل التوراة في الدرجة الاولى . واذا كان لهذا المؤلف من قيمة تاريخية ، كثيراً ما نتمنى من جهة ثانية لو تكون اكبر ، - ولكن اي شعب اهتم للتاريخ حينذاك ؟ - فان اكثر من صفحة فيه تم عن نفحة ادبية رفيعة . فان القوة التي توحىها الصورة والعزم الذي تلبس به الكتابة والحياة التي يحيش بها التعبير ، كل ذلك يجعل من بعض القصائد روائع أدب يغذي نضارته نسخ شعبي ايضاً . وما يلفت النظر ان عدداً كبيراً من اجل القصائد القديمة تنسب لداود نفسه : لا سياه نشيد القوس ، في صموئيل الثاني الذي ألفت بعد موت يوناتان وشاول ، و ٧٣ مزموراً من اصل ١٥٠ . ويلفت النظر ايضاً ، على ما في ذلك من استبعاد ، ما ينسب الى سليمان من مؤلفات شعرية كثيرة جداً - اكثر من الف - بالإضافة الى « الامثال » و « نشيد الاناشيد » و « الحكمة » التي لا شك في انها احدث عهداً . وان الصلة المقامة بين الادب والملكية تثبت المركز الرفيع الذي خص به الادب ، وهو ، من حيث جوهره ، لم يقتصبه اغتصاباً . ولكن بعض علماء الآثار المصرية قد

برهنتوا ان اهل التوراة هو ، اكثر من مرة ، صدى للادب المصري . فالزمور الرابع والستون مثلاً مستوحى ، بصورة ظاهرة ، من الشيد لأتون المنسوب لامونفيس الرابع والموضوع منسب القرن الرابع عشر . ثم ان الشعر العبراني لم يترك في الخارج ذلك الابر الذي لا يزال حياً حتى اليوم ، الا بفضل صلته الوثيقة بالحركة الدينية التي ألبسها زينة رائعة : وماذا كان مدى اشباعها ، لولاه ، في الزمان والمكان يا ترى ؟ وهكذا فان الحضارة العبرانية ، على هذا الصعيد ايضاً ، مدينة بالكثير من عظمتها الحقيقية الى الديانة التي هي ملازمة لها .

ويجب ان ننتهي الى الاستنتاج نفسه حيال التطور الاجتماعي . فاهمية هذا التطور ، بمحد ذاته ، قائمة في توضيح الانتقال من اقتصاد جماعي وراعوي الى اقتصاد فردي وتجاري . ولا يفس هذا الانتقال ، في غير مكان ، بمثل هذا الوضوح وفي مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن . ولكن اذا ما نظرنا الى الدرس الذي استخلصه منه الشعب العبراني ولقنه غيره من بعده ، فان الالهية الحقيقية الكامنة في هذا التغير الخطير تبرز في النتائج الدليلية التي افضى اليها .

ب - الديانة وتطور النظريات الاخلاقية

ان الديانة العبرانية تنفرده منذ نشأتها ، بميزة خاصة . فليس من النادر ، في العالم ، ان يعترف شعب باولوية اله من الآلهة . ولكن ليس من شعب يأبى ان يعبد آلهة آخرين في الوقت نفسه . والى ذلك ، فان العبرانيين ، بالرغم من مخالطتهم للشعوب الاجنبية ، يسرون قدماء في تحديد عقيدتهم الدينية الخاصة . ومن الجلي البين هنا انهم ينتقلون من عبادة اله واحد الى الايمان بوجوده واحد واخذ ولكن هذا الاله نفسه يتحول ايضاً .

اثناء مرحلة « الخروج » التي انتقل العبرانيون فيها من مصر الى كنعان ، جعلهم يهوه القديم رئيسهم ، موسى ، يعاهدون إلهاً ظهر له في سيناء ولعله بالاحرى ذلك الذي أكرم في واحة قدس جنوبي فلسطين . وقد اطلق هذا الإله على نفسه اسم « يهوه » اي « الكائن » او « المكون » . وقد دعوه ايضاً « ايلوهم » وهي صيغة الجمع لكلمة « ايلوه » التي معناها « اله » ، لانهم جعلوا منه مجموع كافة القوى الالهية .

كان هذا الاله ، من نواح كثيرة ، شبيهاً بآلهة آخرين كثيرين . فكان اله الحياة والنبات والخصب والعاصفة والغيوم ايضاً . وكان حامياً النظام البشري يقتص من الجريمة ويقضي بالعدل ، اوحى الشريعة ولا يزال يمكنه الاستمرار في اجلائها ؛ وهذا ما صنعه شمس مع حوراني . وقد فرض الحتان . نعم ، لم تعمل شعوب آسيا الاخرى بهذه الفريضة ، باستثناء بعض القبائل العربية ، ولكن عمل بها في مصر حيث عاش العبرانيون . وقد استلزمت عبادته ، بشأن العبادات

الآخري ، المعابد المختلفة والاعباد والطقوس والذبايح الدموية . وكان يكشف سر المستقبل ، اما بظهوره للبشر ، لا سيما في الأحلام ، واما بواسطة « قرع » خشبية يسترثيها الكهنة . ثم ان هؤلاء الكهنة قد جندوا في البدء من مختلف الاسباط ثم انحصر انتخايم ، نظرياً على الأقل ، في سبط لاوي . ولكن كم من الشعوب كان لها طبقتها الكهنوتية ايضاً ؟

ولكن يهوه ، مع كل هذا ، يبقى متميزاً عن كافة الآلهة الآخرين لانه اله العبرانيين ويفرض على اسرائيل ان لا يكون لها اله سواه . وليس في ذلك نكران لوجود آلهة آخرين ، غير ان هؤلاء لا يمكن ان يكونوا الا آلهة شعوب اخرى . وقام بينه وبين العبرانيين « عهد » حصري الزامي لكلا الطرفين . وقد رمز الى هذا العهد « التابوت » ، اي الصندوق الذي اودعت فيه « لوحات الشريعة » ، والذي رافق العبرانيين في حلمهم ورحلاتهم ، حتى اليوم الذي اقام فيه داوود في اورشليم . اما الاعياد التي تمت في البدء بصلة الى الحياة الراحوية والزراعية فقد غدت حفلات تذكارية لاحداث تاريخ العبرانيين وشدت بالتالي وثاق العهد بين العبرانيين وبين يهوه . وهكذا فان الفصح ، وهو عيد كثير الرموز يرتبط في آن واحد بعبادة قرية وبترية الحملان وببدء حصاد الشعير ، كان يذكر ، على حد قولهم ، بالخروج من مصر . وهكذا ايضاً فان خيم عيد « المظال » الذي يحتفل به في الحريف للدلالة على نهاية الحياة النباتية ولاستئزال المطر الضروري للمواسم المقبلة ، كانت تذكر بطروفيهم الحياتية اثناء اجتياز الصحراء . فالتفسيرات النوعية خوّرت اذن معنى الطقوس التي لم تنطو بمجد ذاتها على اي تفرد وابتكار ، واسهمت في ابعاد العبرانيين عن الشعوب الاخرى وابعاد يهوه عن الآلهة الآخرين .

ولكن يهوه من جهته لم يبد وكأنه إله شامل يهتم لشؤون الشعوب الاخرى بل خصص العبرانيين وحدهم بحبته وعدله وعضده وقدرته الحامية مبغضاً جميع اعدائهم . وقد تجلّى ، حيال هؤلاء ، تحيزه وعنفه وتعطشه للدم . وحبّد كل مكيدة واوصى بكل اباداة واسترذل كل شفقة . وهو انما كان « اله الجنود » لاقامة شعبه في كنعان ولنصرته على الفلسطينيين .

ذاك كان الاله الذي تطوّر .

اخطار التأثيرات الخارجية

كان بالإمكان - ومن الطبيعي - ان يتجه هذا التطور نحو تقارب من الآلهة الآخرين ، وقد توفرت لذلك ظروف كثيرة . فاقامة العبرانيين في كنعان ، وتشتتهم واستيطانهم في وسط شعوب كان لها آلهتها وعباداتها ، وصفة هذه العبادات الزراعية ، وروابط هؤلاء الآلهة القديمة بالمواقع والنباتات والأشجار والصخور والجبال ، كل ذلك كانت مدعاة لإعداد شبه محتم . وبالفعل فان العبرانيين لم يقفوا احياناً عند حدّ التأثر بفقرات بمعل وعشيرة الكنعانيين ومعابدهما واصنامها وطقوسها ، بل تجاوزوها الى البلدان النائية التي اثر آلهتها في الملكية نفسها ، حتى في ايام مجدها ، كما في عهد سليمان مثلاً . فالعلاقات التي ربطتهم بالعرب وبالفينيقيين بنوع اخص لم تقم دون مقابل ، ففرضت عليهم مصلحتهم التجارية المسيرة

والاغضاء عن بعض العبادات . وبعد ذلك ، لم يكن وجود الجيوش الاجنبية المصرية والاشورية والبابلية ، واقدام الفاتحين على انشاء مستعمرات في البلاد ، واقامة المنفيين في بلاد ما بين النهرين ، لتبقى دون نتائج . فكيف سمح اله العبرانيين لنفسه بالتهرب من واجبه في حماية شعبه ونزول كل هذه المصائب به ؟ أفلا تكفي هذه الاحداث كلها للدلالة على تفوق قدرة الآلهة الآخرين الساحقة على قدرته هو ؟ وهكذا فان العهد القديم كان عرضة للنكسات الدائمة .

ولكن قوى اخرى اشد قدرة قد نشطت في عملها من جهة مقابلة .
اورشليم
نذكر منها أولاً اولوية اورشليم . ويعود الفضل في هذه الاولوية لبادرة الملكية التوحيدية . وليس من شك في انها بدت كملحق طبيعي لكنيونة هذه الملكية وبرنامجه السياسي القائم على المركزية . ناهضت الملكية ، بعد ان استقرت في اورشليم ، المعابد المحلية رغبة منها في احتكار نفوذ العبادة لمنفعة عاصمتها اي لمنفعتها الخاصة ، وتوصلاً لمراقبة الكهنة مراقبة اجدى . وكانت الغاية البيئية من تشييد الهيكل الفخيم تسهيل حصر العبادة في مركز واحد ، لا سيما وان الحصر يؤدي بالضرورة الى زيادة عدد التقادم ومحصولها .

ولم يفض قيام المملكتين الى النتائج التي توقع حصولها . ففي مملكة اسرائيل الواسعة ، وجد اتباع يوه انفسهم اكثر ميوعة وانفلاتاً ، فنزعوا الى التظاهر فيها باستعدادهم لتقبل التأثيرات الخارجية ، ولا سيما الكنعانية منها . فبدا ايمانهم وما يستلزمه من طقوس اقل نقاء وصفاء . ولم يقدّر يوماً للسامرة ، على الصعيد الديني ، ان تنافس اورشليم ، اذ ان سياسة المركزية ، في مملكة يهوذا ، قد امننت لها الفوز في هذا المجال . ثم ان السامرة ، من جهة ثانية ، قد سقطت نهائياً في ايدي الاجني ، مائة وخمسة وثلاثين سنة قبل اورشليم ، واخضعت لسيطرة اطول مدى اخذت على نفسها افساد الاخلاق . وحين استطاع احفاد المنفيين القدماء العودة الى البلاد ، كانت القضية القومية في حكم المنتهية .

استأثرت اورشليم اذن بالعبادة الحقيقية . ولم يوجد ، خارجاً عنها ، سوى اماكن للصلاة المشتركة . ولم يشذ عن هذا المبدأ ، خلال التاريخ ، سوى تجاوزات نادرة حصلت كلها في العصور القديمة . وبالرغم من تشتت الشعب فقد توجب الاحتفال بالاعياد الكبرى ، ولا سيما الفصح ، وفاقاً للطقوس ، على رابية صهيون ، مما جبر الى فريضة حجّ دوري سنوي الى الهيكل . وهكذا فان اسم يهوذا ، وهو اسم السبط الذي خرج منه داوود واسم المملكة التي كانت اورشليم عاصمة لها ، قد تخلّد في ما نسب اليه ، وهذا هو منشأ كلمة «يهودي» .

فكان على اورشليم بالضرورة ، والحالة هذه ، ان تسعى جامدة للابقاء وللتشديد على ميزة الديانة التي كانت هي مركزها والتي لم تتميز عنها علماً . فكل تقرب ، ولو بعيد ، من عقيدة دينية غريبة ، وكل تبني ، ولو بعيد ايضاً ، لممارسة طقسية غريبة ، يثيران الريبة والشبهة . ثم ان عبادة العديد من الآلهة ، خارج اورشليم ، وهي نتيجة شبه حتمية للايمان بتعدد الآلهة ،

كانت لهذه الديانة بالمرصاد . ولذلك فإن هذا الاستثثار من قبل صهيون لم يجيد ما يبرره سوى الإبقاء على العهد وشدة اواصره .

الانبياء . يجب إذن ألا نهمل دور العوامل الزمنية . ولكن العوامل المقابلة ، وقد سبق تعدادها ، تكاد تكفي لابطالها . لذلك تحتم علينا البحث ، في غير مكان ، عن قوى أخرى حاسمة ، هي القوى الروحية التي احاطت العبرانيين ، بوجودها وبعملها ، بهذه الهالة من الامة التاريخية الحقيقية ، لأنها حجر الزاوية في تفردهم ، وبالتالي في اشاعتهم المستمر . وقد تجسدت هذه القوى في الانبياء الذين تنسب اليهم التوراة ، عملياً ، كل الفضل في الانتصار على التيارات الدنسة والنجسة ، وليس من شك هنا في انها جتلت دورهم ايّما تجميل . ولكنها ، من جهة ثانية ، لا تقول شيئاً عن التطور . بيد ان التطور يتراءى بالرغم من صحتها . وبالرغم من صحتها ايضاً نرى ان الانبياء هم باعثوه الرئيسيون .

الانبياء عنصر حضارة العبرانيين الجوهري والمميز . وليس من حضارة ، على ما نعلم ، توفر لها مثل هذا العنصر . فقد قدموا لهم ، على كل حال ، الخير الذي أدّى اختباره الى ابعادهم وفصلهم عن الحضارات التي عاصرتهم والى تأمين عظمتهم ووحدهم . وطبعوا بطابعهم الخاص حتى الادب نفسه الذي سمو به الى مرتبة الآداب الرفيعة .

لقد كثر عددهم جداً منذ القرن الحادي عشر حتى قبيل العهد الميلادي ، بحيث ان عددهم هذا واستمرارهم جعلنا منهم مؤسسة حقيقية خاصة بالعبرانيين لا يمكن ادراك العبرانيين بدونها . وقد خضعت هذه المؤسسة للتطور شأن كل ما يمت الى الانسان بصلة . ولكن الانبياء ، بالتعديد ، هم «المهمون» - وهذا هو معنى اسمهم الجماعي نبيم *Nebium* - او «الراؤون» او الذين يسكن الإله فيهم . لا يعوزهم جهد حتى يسما اليه : فانما هو فيهم ؛ يستولي عليهم ويملي عليهم كلماته التي يميزونها بتأكيداتهم : «وحي يوه» و«هكذا تكلم يوه» . ولا حاجة للقول ، من جهة ثانية ، ان اكثرهم قد تكلموا ، في جوّ شامل من الغفلة ، دون ان يكون لكلامهم اي تأثير . واذا وجد منهم من فرض شخصيته ، فكم وكم غيره مرّوا ولم يشعر الناس بهم ؟

منذ البداية ، وقبل داوود نفسه ، ظهروا بشعر طويل اشعث ونفروا من المجتمع وكثيراً ما أثاروا الفضائح ، لانهم لا يراعون أحداً ، لا الملك ولا الكهنة ولا الشعب . فان يوه الذي يتكلم بلسانهم يميز لنفسه الجسارات وحتى المبالغات . ولم يهتموا بكتابة خطبهم قبل او بعد القاها . وهكذا فاننا لا نعرف شيئاً عن قدامى الانبياء ، حتى ولا اسماءهم احياناً كثيرة . ووسعهم شهرة ، مثل ايليا واليشع في القرن التاسع ، اقرب الى ابطال الاساطير .

ولكنه وجد في بعض الامكنة ، حتى في ايامهم ، ما يمكن ان نعرف عنه بمدارس إعداد الانبياء . وقد استمرت هذه المدارس حتى القرن الثامن ، ويغلب انها هي التي باشرت جمع الكلام الذي يجب ألا يطويه النسيان . فالكلف الالهى ما زال ، من حين الى آخر ، يُنجم

منها ، ومن الجماهير المعنوية ايضاً ، رجالاً خاضعين ليهوه ، غير مكترئين بكل شيء سواه ، عاجزين عن مقاومة القوة التي تدفعهم وتحملهم فوق طاقتهم . ولكن عنفهم لا يدين ولا يخف . فان عاموس ويوشع واسعيا في القرن الثامن ، وارميا في القرن التالي ، وحزقيال إبان النفي - ولا ضرورة لاطالة القائمة - يوجهون الى المجرمين انفسهم المذمات نفسها والتوبيخات نفسها والنداءات نفسها التي نستطيع اليوم قراءتها في قصائد ملتزمة طويلة او قصيرة .

اما بعد النفي ، فان هذه المؤسسة قد فقدت بعض الالهاب الذي احياها حتى ذاك التاريخ ، فأصبح الانبياء اشد ارتباطاً بالكهنوت وبدوا لاهوتيين اكثر منهم انبياء .

المثل الاعلى والعمل النافذ في مثل هذه الظروف ، يتضح ان لشخصية كل نبي اهميتها الخاصة التي كان من الجدير بنا ان نتوقف عندها ، لو امكن ذلك . ولكن هناك ، بالرغم من بعض الفوارق الخاصة في التعبير ، نزعات مشتركة بينهم هي التي سنقصر الكلام عليها وعلى اهم النتائج التي حققوها .

ان بعض اهدافهم لم يتحقق قط . ولا يعني ذلك ان الاضطهادات التي تعرضوا لها قد حطمت يوماً وثبتهم او خففت من نتائجها . ولكن كيف نسقط من الحساب عامل الضعف البشري وتعذر غالبة تيار الزمن . فان الكثيرين منهم نبضت قلوبهم بالحنين الى الحياة القديمة وما رافقها من مساواة . والاولون منهم حققوا على اورشليم وعلى الهيكل الوافر الثروة ؛ ولم يتعلقوا بحبته إلا بعد ذلك بزمن بسبب الفوائد التي جنتها منه وحدة العبرانيين ، وهي شرط قيام العهد بين العبرانيين ويهوه . ومقتوا التجارة والثروة لانها من اسباب افساد المجتمع وتفاوت طبقاته . وبالفعل في تحديد موجبات مثلهم الاعلى فاختفقوا في تحقيقه . ولكن الهزائم لم تقعس مهمهم فأحزروا بعض النجاحات .

ولعل اهم نجاحاتهم واكملها ، وهو ذاك الذي سعوا وراءه بجد لا يعرف الكلل ، ابقاء العبرانيين بعيدين عن اغراء العبادات الاجنبية ، واعادتهم الى إلههم وحده ، عندما يحيدون عنه . فتوجب عليهم ، لبلوغ هذه الغاية ، تحليل الولايات النازلة بالعبرانيين التي من شأنها ان تثير الشك حول قدرة يهوه على كل شيء وعزمه على حماية العهد . وقد توصلوا الى ذلك بإتهام العبرانيين ، او بعضهم ، بتقويض العهد عن طريق الخروج على الشريعة . فعدا اشهار الاخطار المرتكبة ، في الحقلين الديني والاخلاقي ، موضوعهم المفضل ، الى جانب القصاص المقاسي او الداني ، وهو دليل الغضب الالهي . فشقوا بذلك الطريق امام تطور عميق تناول في آن واحد ، يهوه وعبادته ، والاخلاق والتشريع ، وجميع النظريات التي شيدت عليها حضارة العبرانيين .

واكثر ما يتجلى هذا التطور ، بحسب التوراة ، في التدابير المنسوبة ليوشيا ، ملك يهوذا سنة ٦٢١ ، اذ اخرج كافة الآلهة الغريبة ، واقفل كل المعابد ، وحصر العبادة نهائياً في اورشليم دون غيرها . ولكن التوراة تنسب اليه ايضاً نشر سفر « تنبيه الاشترع » ، وهو ليس

بالشريعة « الثانية » بل « نسخة » موجزة عن الشريعة القديمة . وقد وُصف هذا النص بأنه « كتاب الشريعة الذي عثر عليه رئيس الكهنة في بيت يهوه » ، وهو ينطوي على بيان الاوامر والنواهي التي وجهها موسى الى الشعب باسم يهوه . بيد انه ، في الواقع ، يختلف عن الشريعة القديمة ، حتى في معناها . وما من شك في انه يمثل مجموعة قانونية لقرارات صدرت في تواريخ مختلفة ولاقت ما يبررها في نظرة الى الماضي . ويحدد بعض المؤرخين زمن صدور هذه المجموعة بالسنة ٦٢١ ، بينما يحدده غيرهم بنصف القرن الخامس . ومهما يكن من الامر ، فان التطور الذي تكرر منه النتائج يحمل طابع تأثير الانبياء .

وهكذا فقد اصبح يهوه إلهاً شاملاً .
 يهوه والعبادة
 نعم ، لا يزال حزقيال يؤكد انه « مع اسرائيل » وان « الاسرائيليين خرافه » و « انه إلههم » . ولكنه يكتفي بان يحب العبرانيين فوق محبته للشعوب الاخرى ، أي انه لم يعد واحداً معها . لم يعد يتحيز لها ولا يتردد في الاقتصاص منها في ثورة غضبه من كبائرها . وعوضاً من ان يؤمن لها السعادة الزمنية المستعجلة ، قانه وكل إليها رسالة حددت بعد النفي بما يلي : « انها امتي المختارة التي سكبت عليها روحي حتى تكشف الستار للامم عما هو عدل » . وايضاً : « ستكون نوراً للامم واداة خلاص للجميع ، حتى اقاصي الارض » .
 فأي موضوع افضل من موضوع الشعب المختار يمكنه ان يعزي شعباً مستضعفاً ومستعبداً؟ ولكن هذا الموضوع يستلزم يهوه آخر تعالت قدرته رويداً رويداً واتسعت آفاقه . فهو لا يزال ، في نظر انبياء القرن الثامن ، اعظم الآلهة ؛ ومن حيث انه خالق العالم ، فانه يستطيع ان يخاطب العالم بأسره : « انصتي أيتها الشعوب ، انصتي جميعاً ! واصفي أيتها الارض ، انت وكل ما تحتوين عليه » . ولكن هذا لا يحول دون وجود الآلهة الآخرين . فان ارميا يؤكد ان « ليس من نسمة حياة في كافة الآلهة » ؛ كما يؤكد سفر تثنية الاشتراع ان « يهوه إله في السماء وعلى الارض وليس من إله سواه » ؛ وينسبون اليه بعد النفي قوله : « انا إله » ، وليس من هو شبيه بي » . وهكذا تم انتصار الايمان باله واحد .

وقد جرّ هذا بصورة حتمية الى تهذيب اخلاق يهوه وتحويله الى روح . اجل انه يبقى اله الجنود ولكن هؤلاء هم الجنود الساريون ، جوقات الملائكة . وهو اكثر من أي وقت آخر ينادي بالعدل : « ان يهوه الجنود سيرتفع بالقضاء ، والاله القدوس سيتقدس بالعدل » . وقد تبرز أحياناً الفكرة القائلة إن السعادة المادية ليست دليلاً على عطفه ؛ وهكذا تميزت الروح عن المادة .

فليس ، بعد ذلك ، من محرقات في القرابين . والتقوى الحقيقية انما تقوم في قلب المؤمن لا في الطقوس التي يتمشى عليها . فقد قال يوشع : « انا احب التقوى لا القرابين واؤثر معرفة الله على المحرقات » . وقال عاموس : « أبغضت » كرهت اعيادكم . ولست التذ باعكافاتكم ..

وذائح السلامة من مسمّياتكم لا التفت اليها . ابعد عني ضجة اغانيك ، ونعمة ربائك لا اسمع .
وليَجبر الحق كالمياه والبر كنهر دائم » . وقال اشعيا : « ازيلوا من امام عيني خبث اعمالكم ؛
انقطعوا عن عمل الشر ؛ تعملوا عمل الخير ، اطلبوا العدل ؛ احبوا اليتيم ؛ اعطوا اليتيم حقه ؛
دافعوا عن الارملة » .

ثم ان التطور ، في موضوع الطقوس ، لا يقف عند هذا الحد ؛ فتتخف فيما بعد مقاومة
البذخ في الهيكل ، لان العبادة فيه قانونية وبعيدة عن التدنيس . وبالإضافة الى ذلك ، فان
النظام الكهنوتي ، بعد النفي ، يؤدي الى حلة محتمة في سبيل طقوس تتصف بالزهد من الانحياز
والدقة والمراقبة . وستتخذ الفرائض الغذائية وحفظ يوم السبت ، بنوع خاص ، صيغاً بالغة
الشدّة قد يفرض الخلاف حولها ، في نقاط طفيفة غالباً ، الى اطلاق العنان للبحث والتمييز
والجدل . ولكن الفريسيين لن يكونوا يوماً كل ديانة اليهود ، وستترك الوثبة الادبية التي نهض
بها الانبياء ، في هذه الديانة ، أثراً لا يمحي .

وهذا ما حدث للشرعة ايضاً .
الشريعة
فان العبرانيين يتفردون منذ ايامهم الاولى بانهم ادخلوا ، اكثر من اي شعب آخر ،
الاخلاق في صميم شريعتهم ، وشريعتهم في صميم ديانتهم . فاللاهوتي فيهم لا يتميز عن المشرع
ومذهب الاخلاق . وهكذا فاننا نتلس العهد في كل مكان . بيد ان تطور الشرعة يعكس ايضاً ،
بحكم الضرورة ، التنظيم الاجتماعي وردّة الفعل التي تثيرها تغييراته . فان هنالك تطوراً في
الواقع ، كما ان الفرائض الالهية التي تؤلف الشرعة (التوراة) قد جمعت من مصادر مختلفة في
تواريخ لا يمكن تحديدها . لذلك فاننا سنقصر الكلام على الخطوط الكبرى .

ليس من شك حول مبدأ التأثيرات الاجنبية ، والبابلية منها بنوع خاص ، إذ ان وصايا
موسى العشر نفسها حديثة العهد اذا ما قورنت بالقوانين الشرقية الاخرى . وكذلك فان
الشرعة القديمة قد تأثرت بالتنظيم القبلي . اجل ان الدائرة قد اتسعت حتى شملت الامة بكاملها .
ولكن الشرعة لم تنفك شرعة شعب جعلتها مصائبه تيسل نحو كره الاجانب . فمهما كان من
رحابة آفاق يهوه مثلاً ، فان الزواج من الاجنبيات قد بقي محرماً ، والرّبي ممنوعاً بين
المواطنين ، واستعباد الاجنبي غير محدد بزمان ، في حال ان استعباد الاسرائيلي يجب ان ينتهي
في اول السنة السابعة كقضى حدّ . بيد ان النزعة المقابلة قد استمرت ، لا سيّما خارج التوراة .
فقد جاء في الامثال : « لا تفروح بسقوط عدوك » ، « واذا جاع عدوك ، فاعطه طعاماً واذا
عطش فاعطه ماء ليشرب » . ولكن الغلبة لم تكن لهذه النزعة .

وما يلفت النظر ان الشرعة القديمة قد تخلّت بالسّاح للعادات الطقسية بان تتسرّب الى
وصاياها . فالوصايا إنّما تختص باستعدادات الانسان الداخلية الخاصة وبسلوكه الاجتماعي ولم
تدخل عليها سوى حد ادنى من واجبات الاحتفالات والمظاهر الخارجية . فبالمقابلة لمفهوم

الطهارة الجسائية ، اغمحت مقاماً واسعاً للطهارة الروحية . فاتبع للانبياء إذن ابن يشدوا بسهولة على هذا التمييز . وقد اظهرت عدة نصوص مما سبق الاستشهاد به الاتجاه المتبع في ذلك . ولننصف هنا اللوم الموجه للفني والمقتدر اللذين يضران بالفقير ويسببان استعمال ما اوتيانه من سلطة . فقاموس يصم بالعار اولئك الذين « باعوا البار بالمال والفقير بنعلين » . « يرقدون على اسرّتهم ؛ يستلقون على فراشهم الوثير ؛ يأكلون حلال القطيع والعجول المسمنة ؛ يشربون الخمر في الكؤوس الكبيرة . يسحون اجسامهم بافضل الزيوت » . ويتوجه يهوه ، بفم نبي آخر ، الى الرؤساء والامراء قائلاً : « أستم انتم من يجب ان يعرف العدل ؟ انتم تبغضون الخير وتحبون الشر . انتم تسلخون لحم الجسد واللحم من فوق العظام . هم يفترون لحم شعبي ... » وهكذا فان الجهد المبذول في سبيل تهذيب الاخلاق قد شارف الثورة الاجتماعية التي كان من شأنها ، لو حصلت ، ان تهدم نتائج التطور الاقتصادي .

وقد انتهى هذا الجهد ، في الواقع ، الى تشريع رائف للمواطنين والضعفاء ، لنا عنه في تفتية الاشرع اكثر من مثل : « لا تهضم اجرة مسكين ولا فقير من اخوتك او من الدخلاء الذين في ارضك في مدلك . بل ادفع له اجرته في يومه ولا تقب عليها الشمس لأنه فقير وبها يعول نفسه ... لا ترتهن ثوب أرملة ... اذا حصدت حصادك في حقلك فنسيت حزمة في الحقل فلا ترجع لتأخذها ، انها تكون للغريب واليتيم والارملة ... واذا فرطت زيتونك فلا تراجع ما بقي في الاغصان ... واذا قطفت كرمك فلا تراجع ما بقي منه .. » انها لمعري آراء اخلاقية السانية غدت . تشمل الدخيل نفسه . نعم قد يكون لها سابقاتها في الشرق ، ولكن لم يسبق ان عبر عنها بمثل هذا الحزم ومثل هذه الدقة .

يبد ان التطور قد أصيب بالركود بعد ان أثبتت نتائجه في نصوص التوراة النهائية . وقد تضافر كل شيء ، لإيقاف هذا التطور بعد تهدئة الحركة الاجتماعية التي أثارها العودة من النفي : التنظيم التيوقراطي الذي اسبل نفوذاً وقوة على كهنوت حارس للشريعة ، وبالتالي محافظ بالضرورة ؛ مفهوم الشعب المختار الذي جمد العبرانيين في انفرادهم المالي بالتحدي لكل ما هو جنبي ؛ تجديد العهد بينهم وبين يهوه الذي احوال وجودهم فضيلة . عند ذاك بدأ الجفاف ، اذ ان الامانة للحرف قد جرت الى خيانة المعنى .

التفرد الديني والاخلاقي غير ان النتيجة كانت ، على كل حال ، فتحاً بالغ الاهمية : التفرد . واول من سلك طريق التفرد هم الانبياء . فلم يقيم بينهم وبين يهوه أي حاجز ، شيئاً كان ام شخصاً . والروح الالهية كانت حالة فيهم ففقدوا عبيدها . وقد حاول بعضهم مقاومتها ولكن دون جدوى . ولكن عبوديتهم كانت عبودية مباشرة لا تحمل اي وسيط ، بحيث ان كلاً منهم قد تصرف حيال غيره من البشر بكل حرية واستقلال .

ويدهي انه لم يعط لكل انسان ان يطمع بمثل هذا الاستقلال لان العبودية تلك لم تتوفر

للجميع . ولكن تعليم الانبياء قد فرض على كل انسان ان يتوق اليها بكل قواه وفضيلته ، كما ان تطور يهوه وعبادته قد جملا من هذا التوق امراً واجبا . وقد اصبحت الديانة ، قبل اي شيء آخر ودون اي شيء آخر تقريبا ، داخلية وفردية وذاتية ، حيبال اله روحاني ودمت الاخلاق . فقد ورد في ثلثية الاشتراع ان الشريعة «قريبة جداً منك ؛ بل هي في قلبك وفي قلبك» . فوضعت بذلك قاعدة يمكن ان ينجم عنها نتائج لا تحصى .

بيد ان اسرائيل قد اقتصرت منها على هذه النتيجة : وهي ان كل انسان يجب ان يكون مسؤولاً عن اعماله وحدها دون غيرها . فحكمت بذلك على المسؤولية الجماعية التي تترتب على المجرم في شخصه وفي شخص انسالة واسرته على السواء . وكانت هذه المسؤولية ركنا من اركان هيكल التنظيم الاجتماعي القديم ، ولكنها لم تكن لتتفق والتعليم الاخلاقي الجديد والفكرة الدينية الجديدة ، حتى والظروف الحياتية الجديدة ايضا ، لان موجبات التفرد الاقتصادي ، على هذا الصعيد ، تنسجم وموجبات التفرد الديني والاخلاقي : فكيف يجوز تماطي التجارة دون تحديد مسؤوليات الافراد ؟ وكيف يمكن ، من جهة ثانية ، ان يستمر العمل بالقاعدة القديمة ، في حالة التشتت التي وصلت اليها اسرائيل بفعل الإحن التي نزلت بها ؟ لذلك فلا عجب في ان نرى ارميا واولا وحزقيال ثانيًا يتنكران للشل السائر القائل إن تضرّس الاولاد مرده الحصرم الذي يأكله آباؤهم : « انما يتضرّس آكل الحصرم نفسه» . فانتهت ثلثية الاشتراع من ذلك الى الاستنتاج التالي: « لن يمات الآباء بحريرة الابناء ولن يمات الابناء بحريرة الآباء ، بل كل يمات بحريرة خطيئته » .

ولم تحرز الفردية نجاحات اخرى . لا بل كان من الواجب ايضا ، لو امكن ذلك ، تقديم البرهان على ان الفضيلة ، تلقى ابدًا ثوابها والردية تلقى ابدًا عقابها في شخص من تُنسب ان اليه دون غيره . ولكن شتان ما بين هذا التمني والواقع . فمعضلة وجود الشر المقضة كانت حينذاك مطروحة دون حل . فبعد النفي ، اي بعد ان ظهر اثر الثنوية الايرانية ، وضع بعضهم الشيطان او بليال بازاء يهوه ولكن دون مرتبة . وكانوا قبل ذلك يجهلون كل شيء عن ذلك وعن الابالة ؛ فاسم الابليس ازمودي مشتق من الفارسية مثلا . وشدّه غيهم على فكرة الدينونة الاخيرة ، تلك الكارثة النهائية التي ينال فيها كل شخص جزاءه . وفي هذا ايضا يبدو الاثر الايراني . ولكن هذين الحلين لم يخرجنا عن اطار النظريات التي لم تصادف تأييداً اجماعيا ولا تأييداً رسميا . فقد ولّى زمن التطور الخلاّق .

ولكن هذه المساعي توضح الطريق الطويلة التي سلكها العبرانيون .
تسط العبرانيين الكبير
تميز العبرانيون بتفردهم منذ البداية ، ولكن هذا التفرد (المحدود نوعاً) ما لا يكفي لان يبرر القسط الذي تدين به الانسانية للعبرانيين . فان الاهمية العظمى لدورهم المقبل نشأت من حيث انها باشرت اخراج الانسان من المجموع في الحقل الديني نفسه الذي كانت

الانسان فيه اكثر ما يكون انصاراً في هذا المجموع . وقد توفقت الى هذه النتيجة ، مثبتة ، في الوقت نفسه ، الانسان في ديانته . اما تفسير هذا التناقض الحقيقي ، في الظاهر على الاقل ، فيجب ان يبحث عنه في ما قام به العبرانيون ، بتأثيرات شتى ، من تنقية واستقصاء المشاعر الدينية .

وقد اصطدمت هذه النزعة بالمقاومات في بلاد العبرانيين نفسها ، حتى انها ، حوالي اواخر القرن الخامس قبل المسيح ، بدت وكأنها تقلبت عليها النزعات المضادة المتسكة بالشكليات وبالشرعية . ولكن بذاراً لا يفنى كانت قد القي في الارض ستزيد من قوته تأثيرات اخرى فينبت في المستقبل حصاداً روحياً لا تزال ملايين البشر تتغذى به حتى يومنا هذا .

الحضارة اليونانية القديمة (أي السابقة للعهد الكلاسيكية)

لننظر الى الاغريق بعد ان تنظم هذا الشعب واستقر في الرقعة المعدة لان تكون وطناً له : جنوبي شبه الجزيرة البلقانية ، والجزر الايحية ، وساحل آسييا الصغرى الغربي الذي سيقم فيه حتى اوائل العهد المعاصر . انتهت حينذاك في تاريخهم حقبة كثيرة الغموض يزيد في بدائية حضارتها ان هذه الحضارة خلقت الحضارة الايحية المزدهرة . والكلام هنا عن «القرون الوسطى» اليونانية ليس بالتسمية التاريخية الكيفية . وفي اوائل القرن الثامن قبل المسيح تبدأ حقبة اخرى .

لما كان من الضروري ان يطلق عليها اسم ما ، وصفت بـ « القديمة » للمقابلة بينها وبين الحقب اللاحقة . وفي هذا الوصف تشديد على الاواصر الوثيقة التي تربط الاغريق حينذاك بالمساخي وتعيق حركاتهم . وهم لن يفوزوا بالحرية إلا في اوائل القرن الخامس ، فيستثمرونها ايما استثمار . ولكن طائقات فتية برزت ، حتى في ذاك العهد ، فحدثت في البلاد تغييرات على درجة من الاهمية . وبانت على الخريطة نفسها تبديلات محسوسة . فتوسع العالم الاغريقي مرة اخرى ، وتأسست اسواق تجارية جديدة على جميع شواطئ البحر المتوسط والبحار الملحقة به تقريباً ، وفرضت الامبراطورية الفارسية سيطرتها على الممتلكات الاغريقية في آسيا . ولا حاجة هنا للكلام عن المنافسات التي قامت بين بعض الدول الاغريقية الاخرى . ولكن سرد هذه الاحداث لا يدخل في ما يستهدفه هذا الكتاب ، بل يحدد بنا ان نشدد على احداث اخرى تكشف لنا عن تغييرات في الصميم من هذا الشعب ، لا سيما وان الموضوع يعود بالنتيجة الى يقطته . تلك هي التحقيقات الاولى لحضارة ستعرف مثل ذلك المستقبل الباهر ومثل تلك التشعبات البعيدة . وتلك هي الوعود والدعائم التي اخذ الانسان يكتشفها فيها كي يخرج شخصيته من المجموع أو لا يتركها تحتقن فيه على الاقل . وان وجود كل ذلك في طيات هذه الحقبة لبشير بان ايامها لن تطول .

لذلك فان كل من وجد آنذاك امام الحضارة اليونانية قد اهتم اهتماماً حقيقياً للتطور البادي . والتطور ، بحد ذاته ، أمر محتوم يعم كل الشعوب . ولكن الجيع لا يحققونه بمثل هذه السرعة

ويمثل هذا الشمول . ولا يعني الجميع خصوصاً معلولاته المتداخلة ونتائج الطارئة ؛ أو انهم اذا وأوها يشعرون في اغلب الاحيان بميل طبيعي لأن يرثوا له . نعم ، لقد وجد بين الاغريق ايضا من استاء وأبدى استياءه . ولكنهم ، شأنهم في غير مكان ، لم ينجحوا في منع أي شيء ، لا بل انهم لم يلقوا هنا الأذان الصاغية التي لقوها في غير مكان . وقد وجدت خرافة العصر الذهبي ، في هذه الحضارة ، الدواء الناجع الذي تمثلته في فوق جديد الى التغيير . فقد جاء الاغريق ، بالفعل ، بمجددة روحية هي جبال مجنح لم يخف اقدام ولم يتراجع عن اكتشاف الوسائل الكفيلة بتحقيق احلامه . ولكنهم لم يكتفوا بوضع دستور للتقدم او لما اعتبروه تقدماً : فسيأتي يوم يتيهون فيه ويتخيلون « المستحيلات » الاولى ، غير انهم لم ينتظروا ذاك اليوم لتحقيق اشياء جديدة كثيرة . ولكن يجب الانغالي في اهمية هذه الحقيقة حيال هذا العهد . فنذ اوائل القرن الثامن حتى اواخر القرن السادس ليس هنالك سوى مقدمات فقط جعلها القسم الاكبر من العالم الاغريقي أو لم يابه لها . ولكن يكفي ان تؤخذ بعض المناطق اذ ذاك بسحر هذه المقومات حتى يكون اتساعها القليل جديراً باهتمام خاص .

فبرضنا لهذه الحضارة لا يمكن ان يعتبرها ، حتى في العهد القديم ، كمعطية ثابتة . بل سيهتم فيها عن قصد ، لكل ما يتطور وينبئ بالمستقبل . ولذلك فانه سيمهل اشياء كثيرة ستسنع الفرصة المؤاتية لتوضيحها عندما يكتمل تفتح الحضارة الاغريقية ويصبح باستطلاعنا ان نأخذ لها رسماً اكثر استقراراً .

١ - التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي

ان عوامل التطور السياسي متعددة . ففي الخلايا الصغيرة التي كانت المدن اليونانية قوامها والتي انتظمت في عهد مبكر اجهزة شديدة الحرص على استقلالها والتي املت ببضعة آلاف من السكان فقط - عشرة آلاف على الاكثر - ، يمكن لاسباب عابرة او محدودة الاهمية بحد ذاتها ان تفعل فعلها وتترك أثرها : كسيكولوجية الانسان الشخصية مثلاً ، أو حرب تثير الحمية على الرغم من هزال غايتها ، أو تهديد يصدر عن جار قوي الشكيمة . واذا ما ألقينا نظرة شاملة على العالم الاغريقي بأسره ، تبدت لنا العوامل الاقتصادية والفنية والاجتماعية المتداخلة والمتفاعلة . ولكن التطور السياسي الذي تسببه هذه العوامل يمكنه بدوره ان ينعكس عليها .

المجتمع القديم ريفي قبل كل شيء من حيث انه وليد مجازفات الغزو
ومعارك الفتح وتسويات الاستيطان . ومثل الانسان الأعلى ، الذي
تثبت قوته دلالات كثيرة كتبت لها حياة طويلة احياناً ، هو الاستقلال
الاقتصادي الضروري للاستقلال الادبي : فلكي يستطيع الانسان ان يعمل او يتجول على هواه ،
يجب الا يكون مقيداً بأهواء زبون أو صاحب عمل . ولم يكن تحقيق هذا المثل الأعلى ممكناً إلا
لذري الاملاك الواسعة ، وهم إما أبطال حروب وإما انسال هؤلاء الابطال ، وقد نعموا في الوقت نفسه

المجتمع القديم :

ذور الاملاك الواسعة

بثروة وفيرة . كان قلق الارض ، بالفعل ، عنوان الثروة الوحيد تقريباً ، وكان هنالك اصحاب حرف لا شأن لهم وتجار لم يصل النينا منهم شيء يذكر . فالتجارة البحرية التي مارسها الميسينيون على نطاق واسع قد اصبحت بنكسة أكيدة على الرغم من استيطان الاغريق الباكر في شواطئ آسيا الايحية . واحتفظ الفينيقيون لانفسهم آنذاك بالمتوسط الغربي وكانوا يظهرون حتى في بحر ايجه . ولم يشر هيرود ، في القرن الثامن ، بالسفر بمرأ إلا على الفلاح التاسع الرازح تحت عبء الديون ؛ وتجدر الاشارة هنا الى ان الغاية من ذلك انما هي بيع جزء من الموسم لا لزوم له في الاستهلاك يمكن التصرف به ، في الاوقات العادية ، للهدايا والهبات . وكان هنالك فلاحتون صفار يمتلكون بحرية بعض الاراضي ، ولكنهم عاشوا عيشة قاسية في ارض قليلة الخصب حيث تحدد الحرارة الجافة المبكرة من انتاج الحبوب . وقد قام قسم من سكان الارياف بأعمال مأجورة في حقول ذوي الاملاك الزراعية الواسعة .

استطاع هؤلاء وحدهم لا ان يتغذوا عن سعة فحسب - وقد اطلق عليهم ، حتى في العهود المتأخرة ، اسم « البدن » - بل ان يكرسوا ايضاً لارضاء شهواتهم قسماً من مواردهم . وقد برهنوا في مراحل تاريخهم المختلفة عن ميل للبذخ والزينة ابرز ما ينطوون عليه من رغائب بدائية . فقد حرصت هذه الارستوقراطية على ان تتميز في استعمال الاسلحة وان تعنى بالمحافظة على صفاتها الجسمانية لاجل القنص . وأحييت الولايم الفاخرة والمشروبات الروحية . وقد سخرت لخدمتها في مساكنها الرحبة الكثير من الأرقاء الممثلين لاهواها . وقد طاب لها عرض ما تتمتع به من قوة وثروة . ولكنها اجلت ايضاً الاقشة والحلى النادرة ، والموسيقى والنشاد المغنين . فكانت مثلها الأعلى ، الذي لم يقو تطورها الاجتماعي اللاحق على ازالته ، ولم يتنكر له على كل حال ، بل عمل جاهداً على تعميم نفعه على الطبقات الأخرى ، يجمع بين جمال جسماني متناسق وتهذيب اجتماعي رفيع ومستوى ثقافي لائق . وكان هذا في الحقيقة المثل الأعلى الإغريقي نفسه : انسان حر يمارس حريته لتنمية وارضاء مثل هذه النزعات فيه . ولكن استقلال الاشراف قد قام على ارتباط الغير بهم .

لذلك فان هذه الامتيازات لها ما يبررها غير التملك : فالقيمة الشخصية انما تتجلى في الحرب . كان لذوي الاملاك الواسعة وحدهم متسع من الوقت لاتقان التمرن ، والموارد الضرورية لاقتناء سلاح كامل ثقيل وغالي الثمن ، وامكانية لتربية الأحصنة . وستبقى رياضة ركوب الخيل ، خلال قرون طويلة ، شهادة في الارستوقراطية لأن الارستوقراطية وحدها في البدء تمكنت من الانقطاع اليها . وكان على الحارب الحقيقي المجهز بأسلحة ثقيلة ان ينتقل الى ساحة المعركة على غربة ، يقودها حوذي ثم يقوم بمحاربتها ، بينما تمحدم المعركة بين سيده وعدوه الرّاجلين . أما المواطنون الآخرون فكانوا ينخرطون في الجندي كمشاة ويقنون الاسلحة التي تمكنهم مواردهم من اقتنائها وقد لا تتعدى المقاليع أحياناً . ولكن عددهم لم يرتفع قط عملياً : فمسير المعركة يتوقف الى حد كبير على مآثر الاشراف .

كان هؤلاء ، اذا ما حاربوا ، يخدمون الدولة ، فيولهم ذلك حقاً بإدارتها . ولكن الحرب من جهة ثانية كانت تعطيمهم حتى الانتفاع الشخصي بالغنيمة والرهائن . وكان يطيب لهم مزاوله القرصنة . فهناك مشاهد إبحائية مرسومة على آنية « الديبيلون » المدفنية الكبيرة في أثينا : مراكب حربية واعمال نهب وعرض محاربين وعربات عسكرية . تذكر هذه الصور بطبيعة عسكرية تطلب المجد في نشاطها الحربي وتباهى بعرض قوتها وثروتها .

حدث إذن توزيع اجتماعي فعلي على أساس الثروة والقوة ، رافقه توزيع أراسر السدم آخر على أساس الأصل والانتساب . ولكن هذا التوزيع الأخير يكتنفه الغموض لأنه على جانب كبير من الاصطناع ؛ بيد ان نتائجه ثابتة لا يرقى اليها الشك .

وأخذ المواطنون ، داخل المدينة ، ينتظمون جماعات يتدلى عدد افرادها يوماً بعد يوم : القبيلة ، ثم « الأخوية » وأخيراً « الجينوس » الذي يأتي مباشرة فوق الاسرة ، وهو القبيلة المحدودة أو الاسرة الكبيرة . ويبدو ان القبيلة والأخوية قد انتظمتا في كل مكان تقريباً ، في حال ان الجينوس لم يتأكد وجوده سوى في مدن معدودة . ويضم كل من هذه الجماعات مبدئياً ، في درجات نسبية مختلفة ، أولئك الذين ينحدرون من جد واحد والذين يتوجب عليهم ، بالتالي ، الاشتراك في عبادة جماعية . غير ان هذا التفسير ينطوي على الكثير من التبسيط ، اذ انه لا يوضح لنا ، بنوع خاص ، لماذا يسجل المواطنون دون استثناء في القبيلة في حال ان الكثيرين منهم لا ينحدرون في أي « جينوس » أو ليس لهم به سوى علاقة غير مباشرة كزبن لاحد الاشراف .

سنقتصر ، اختصاراً في الجدل ، على التثبت من واقع ، وهو ان النسب قد نام بثقله على التوزيع الاجتماعي وبالتالي على وجود المواطن . فليس لهذا الاخير شأن ، كفرد ، بل كعضو في جماعة يصبره فيها انتسابه اليها وتقوم هي بدور الوسيط بينه وبين المدينة . ولكن شخصيته تعيقها أبداً أواصر الدم التي لم يكن ليتحرر منها إلا بفقدان حسنات تضامن الجماعة بينما يستمر غيره في الافادة منها . ويغلب ان هذه الحسنات قد اختلفت باختلاف الدول ، ولا تتوفر لدينا بعض الدلائل ، في هذا الصدد ، إلا لأثينا فقط . فقد كان محظراً على من يموت دون عقيب ان يوصي بممتلكاته الى غير أعضاء الجينوس ، مما يحجز لنا الاعتقاد بان البيع لم يكن مسموحاً به ايضاً . ومن حيث ان القضاء الجنائي الرسمي لم يكن موجوداً ، فسان الاهانة اللاحقة بأحد اعضاء الجينوس انما تلتحق بالجينوس بأسره ، مما أفضى الى قاعدة الأخذ بالثأر . فكان المواطن بالتالي امام قياس ذي حدين : البقاء خارج الجينوس والقبول بالعجز ، أو الانخراط في الجينوس والقبول بالخضوع .

وانما نتكلم عن الخضوع لان ذوي الاملاك الواسعة في كل هذه الجماعات ، قد نعموا بنفوذ مسلم به . والثروة العقارية لا تتميز عن النبل والشرف . فقد طاب للأغنياء التباهي بنسبهم

البطولي ، وحتى الإلهي ، رغبة منهم في الارتقاء الى عالم الاسطورة . وقد هدفوا كلهم من وراء هذا التسبب الى الدلالة على الدم الكريم الذي يجري في شرايينهم ، حريصين على إحلال الابتكار في المربة الاولى . وهكذا فان رؤساء الاسر الكبيرة ، باعتبارهم على انسابهم وعلى كل من يرتبط بهم بفعل مكانتهم الاجتماعية وطاقتهم الاقتصادية ، تمتعوا بنفوذ لا يعادله نفوذ ، وكانوا أسياد « جينوسهم » .

لم يكن من العسير في هذه المدن الصغيرة ان يعرف المواطن جميع المواطنين الدولة الارستقراطية الآخرين . ولذلك لم يعوز الدولة تنظيم قوي متين . فلا ادارة ولا موظفين ، بل بيت مال محدود ، يشرف عليه عدد محدود من المسؤولين لأن النفقات تكاد تنحصر في نفقات العبادة ؛ ولا جيش كثير النفقات لان الجندي هو الذي يؤمن غرامه اسلحته ؛ ولا قضاء يستحق الذكر لان الدولة لا تمنى بتوزيع العدل إلا نادراً جداً . وقد أفضى ضعف الدولة هذا الى تقوية نفوذ راهن استأثر به رؤساء طبقة الاشراف ولم يكن باستطاعة احد ان يراقبه او يحد منه .

وكانت الدولة نفسها ، على كل حال ، في قبضة يدهم . اجل قامت الملكية في كل مدينة تقريباً . ولكنهم توصلوا الى حصرها في لقب لا حول له او الى إزالتها تماماً في بعض الاحيان . واذا ما حدث واستمر بقاء الملك ، فإن هذا الملك يكون علياً بمثابة قاض سنوي لا تسند اليه سوى مهام دينية . اما الاشراف فهم الذين يحكمون ، ولا تلتئم جميعه المواطنين الا شكلياً اذا طاب لهم احترام مبدأ السيادة الجماعية . فالسلطة الحقيقية يتمتع بها « المجلس » المؤلف من اعضاء وارثين او منتخبين وفقاً لأصول هي في الحقيقة مجرد مظاهر خارجية . وكانت مظاهر خارجية ايضاً الاصول المعتمدة لتعيين القضاة السنويين الذين يشرف المجلس على ولايتهم ايضاً . وفي الواقع كان اعضاء المجلس والقضاة ينتخبون من طبقة الاشراف دون غيرها وخصوصاً من كبار هذه الطبقة . وكان القضاء ، مع ان القضاء الرسمي شبه مفقود ، من امتيازاتهم ايضاً ، لا سيما وانه لم يستند الى قوانين مكتوبة ، بل الى اصول تقليدية ، إلهية المنشأ بحسب اعتقادهم ، ينقلها الآباء شفاهياً الى الابناء في أسر قريبة جداً من الآلهة بفعل نسبها وحكمتها الدائمة الصيت . فيتضح ان الاشراف امنوا بذلك ، علياً ، احتكار القضاء ، وضموا اليه بذرراً بالاسباب نفسها ، احتكار المهام الكهنوتية الرئيسية . وكان من الطبيعي ، بعد ان سيطروا في ساحات الحرب والمجتمع والحياة الاقتصادية ، ان يسيطروا في الدولة ايضاً .

هكذا كان النظام السائد في كل مكان ، بالرغم من بعض الفوارق المحلية التفصيلية . وهذا هو نظام « الارستوقراطية » أي حكومة الأفاضل (نسباً وصفات) ، أو « الأوليغارشية » أي حكومة العدد القليل ، كما سميت ازدياء في تاريخ لاحق . غير ان هذا النظام لم يوقر الهدوء والراحة . فالمطامع والاحساد والاحقاد قد أدت الى انقسام هؤلاء المحظيين . ولعل فقدان

الثقة فيما بينهم سبب من أسباب رغبتهم عن توسيع سلطات الدولة . وكان التحيز في القضاء مدعاة للشكاوى وللإتهام بالرشوة . فهيزود يصف العطاء « بأكلة الهدايا » . وكان الفقراء والمستأثرون ينزحون عن الاوطان ساعين وراء الاراضي أو خاطرين بحياتهم كمرتزقة في خدمة السلاطين الشرقيين . ولكن الاسباب الحقيقية لتقلبات الاحوال خارجة عن النظام نفسه .

فهذه الاسباب متعددة . ولن نهمل منها التطور الذي طرأ على تقنية اسباب تقلبات الاحوال:
الحرب . تقنية الحرب .

اصبحت عدة الحرب اخف وزناً ، فخفضت قياسات الدرس وادخل المزيد من الجلد على الدرع . وتعود المشاة من جهة ثانية تشكيل وحدة متراصة ، الكتيبة ، التي يصعب اختراقها بفضل سور الحراب الموجهة نحو الخارج . ففدت العربات دون جدوى حيالها ، ولم تظهر بعد ذلك الا في الاحتمالات الدينية المحافظة على الماضي او في الجيوش القائمة عند حدود الشرق . وظهر الفرسان الذين اختيروا بين النخبة في المجتمع . ولكنهم لن يصبحوا ، الا بعد زمن طويل ، وحدة قادرة على النهوض بالكرات العنيفة . ولذلك لم يلعبوا سوى دور الكشافة او اكتفوا باعداد الجياد في المواكب . وغدا مثال المحارب ، منذ ذاك الحين ، « الهوليت » ، اي « الرجل المسلح » ، وفاقاً لاشتقاق هذه الكلمة . ولكنه عملياً كان ذاك المواطن المنتمي الى الطبقة الوسيطة القادر على تحمل نفقات عدة حربية اقل كلفة وخادم يساعده في المسير والحياة المادية . وتكامل المركب الحربي ايضاً فضرر وسهلت ادارته واستخدم فيه المزيد من الجذافين الذين انتظموا صفوفاً يعلو بعضها البعض الآخر . وقد تحققت في كورنثوس ام هذه التحسينات التي تعود الى السنة ٧٠٠ كما يؤكد « توسيديد » . وظهر بعد ذلك « التريار » وهو النموذج المعروف للمركب الحربي الذي اعدت فيه ثلاثة صفوف للجذافين ويتسع ل ١٧٠ جذافاً موزعين ثلاث فرق ولمشاة ينقلون الى حيث تدعو الحاجة .

فعد ذلك من احتكار الاشراف للدفاع عن المدينة ، فاضطروا للتنازل عن القسم الاكبر من امتيازاتهم لطبقة الهوليت الوسيطة ، وقسم اصغر سيتسع مع الزمن في المدن البحرية ، للطبقة الفقيرة التي ينتمي اليها الجذاقون وهم اقوياء البنية بالرغم من انهم شبه عراة . فتعذر عليهم بالفعل نفسه ، ان يبرروا عملياً استثمارهم بالسلطة السياسية .

يكشف لنا تطور المركب الحربي ان اهمية الامور البحرية قد زاد شأنها . فحتى ذاك العهد كاد الاهتمام لها ينحصر في ناحية القرصنة . ولم يتعاط التجارة البعيدة ، في حدود اشتراك الاغريق فيها ، سوى المغامرين العاديين الاعتبار الذين رفضت كل المدن تبني منازعائهم . ولكن تطوراً اقتصادياً قد حدث ، منذ اوائل القرن السابع بنوع خاص ، هو في الحقيقة ثورة لا تطور .

بدأ الاستعمار اليوناني حوالي اواسط القرن الثامن وقد اتصف في اول عهده بطابع زراعي .

وقد هاجر الذين هاجروا تخلصاً من نظام اقتصادي واجتماعي انتهى بهم الى البؤس او الى المحول. وقد است أقدم المستعمرات ، في ايطاليا الجنوبية كما على البوسفور ، في افضل المناطق تربة ، دونما اعتبار رئيس للمركز الهام على طريق بحرية عظمى. وهكذا فان خلفيدونيا، على الشاطئ الآسيوي ، قد است سبع عشرة سنة قبل بيزنطية ، على الرغم من افضلية موقع هذه الاخيرة ، مما جعل احد الفرس الذين علموا بهذا الفارق الزمني ، يشتم الاغريق بالعمى. ولكن الامور تبدلت بفعل الاستعمار نفسه. فوَقَّرَ المزيد من المواد الغذائية . وزود الصناعة بال خامات فنهضت واتسعت اسواقها . وازدهرت التجارة . وبرزت المنافسة . وكيفت بعض المدن سياستها وفقاً لاغراض جديدة فاخترت للاقامة مواقع هامة يتحتم مرور الطرقات فيها ، بغية مضايقة المنافسين ، وبدأت في الظهور «نزعة استعمارية» لا تزال بدائية الى حد بعيد ، على اصطبائها بمشاغل اقتصادية .

واتفق في الوقت نفسه ان فقد الفينيقيون دورهم كوسطاء وحيدين تقريباً مع الشرق . فاستوطن الاغريق نهائياً على ساحل آسيا الصغرى الغربي الذي تقوم وراءه المملكة الليدية حيث استقبلوا على الرحب والسعة ايضاً . واستولوا على الجزر الايحية وعلى رودوس بنوع خاص ، وسيطروا على قسم من قبرص وانتهبوا الى تثبيت اقدامهم في دلتا النيل ، فاتصلوا بذلك ، بصورة مباشرة أحياناً وغير مباشرة ابدأ ، بالحضارات الشرقية . فجاءوا منها بالمواد والصنوعات والتقنيات والمعارف المختلفة . وصرفوا بسهولة مصنوعاتهم الخاصة .

وحدهوا ، في عهد مبكر نسبياً ، احتذاءً بالشرق ، أنظمة الميزانين والمكاييل التي لم يتوصلوا يوماً الى توحيدها . ولكن بعض هذه الانظمة عرفت انتشاراً واسعاً . وأوجدت معادلات مختلفة ، باضعاف الوحدة واجزائها ، لا سيما في حقل النقد . فالتقد قد ظهر ، هو ايضاً ، في اوائل القرن السابع . اما بصدد نسبة ابتكاره الى اغريق آسيا او اغريق أرغوس او الليديين ، فلا يسعنا الخيار بين التقاليد المتناقضة التي يتعذر الجزم في نصيبها من الصحة . ومهما يكن من الامر فان استعمال النقد قد انتشر ، فضربت المدن الاغريقية في آسيا الالكثرون (الكهرباء) خصوصاً ، وهو مركب معدني طبيعي متفاوت العيار . اما في اوروبا فقد ضربت الفضة بالنظر الى ندرة الذهب . فسهلت بذلك المبادلات التجارية الى حد بعيد .

انطبعت الثورة الاقتصادية بهذه التقلبات المتعددة ، ولكنها لم تعم كافة المدن الاغريقية حينذاك . لا بل ان مدناً كثيرة امتنعت عن ترويج القطع النقدية او لم تقرر ذلك الا في عهد متأخر . ففي أثينا مثلاً لم تظهر القطع النقدية الرسمية ، حاملة شعارات المدينة دون شعارات الاسر الكبيرة ، إلا خلال القرن السادس . وقد حافظ الشطر الاكبر من بلاد اليونان البرية ، حتى عهد لاحق متأخر جداً ، على اقتصاد زراعي صرف . ولكن الاقتصاد الصناعي - التعدين والمنسوجات والخزفيات - والتجاري قد احرز الغلبة في بعض النقاط ، دون ان يُضْحَى عن قصد ، بالزراعة يوماً من الايام .

تتحقق من ذلك في آسيا الصغرى ، لا سيما في المنطقة الوسطى من الساحل الايجي ، أي يونيا . وكانت « ميله » بلا مراء ، اوسع مدن هذه المنطقة نشاطاً ، عند مصب نهر الميساندر (مندريس) . فقد نعمت ، وحدها ، بالقوة الكافية لان تفرض حتى النهاية على « المرمند » في مدينة سارد عقوداً بالتفاوض . وقادت حركة التوسع والامتداد نحو المضائق والبحر الاسود فتوصلت ، على ذمة الراوي ، الى تأسيس او استتباع تسعين مدينة أو سوقاً تجارية في هذه المنطقة . واشتركت في الحركة الجماعية التي أدت ، في دلتا النيل ، الى تأسيس نوكراتيس من قبل اثنتي عشر مدينة يونانية منها احدى عشرة شرقية وأحدة اوروبية . وصرفت محصولاتها الى ايطاليا أيضاً ، عن طريق سيياريس المدينة بثروتها الاسطورية لهذه التجارة . لكن جيرانها حاولوا الاحتذاء بها ، ويكفي ، اختصاراً في التعداد ، ان نذكر ان مرسيليا اسمها ايونيو « فوقيا » في السنة ٦٠٠ ، وحافظت على علاقتها التجارية الوثيقة بايونيا حتى احتلال الفرس لهذه البلاد .

أما في اوروبافكانت الحركة أقل اتساعاً ، ولكنها برزت مع ذلك في القسم الاوسط من ساحل اليونان الشرقي الذي يعدّه مركزه ، بالتفضيل على غيره ، للعلائق مع آسيا . وقد ظهرت نتيجة ذلك في الازدهار الذي حققته جزيرة « اوبيا » على ضفة المضيق المستطيل الذي يفصل هذه الجزيرة عن اليابسة . بيد ان هذه الحركة تميزت بالنشاط في منطقة برزخ كورنثوس التي أعدها موقعها الممتاز لمقايضات بين الشرق والغرب ، في منتصف الطريق بين آسيا الصغرى والمستعمرات في ايطاليا وصقليا . فبدلاً من الدوران حول البلورينز ، آثر التجار ان ينقلوا البضائع من مركب الى مركب عن طريق البرزخ . وقد توصلوا الى اكثر من ذلك بعد حين اذ نقلوا المراكب نفسها على طريق خشبية . فأفادت كورنثوس من ذلك كثيراً لا سيما وان لها مرفأً في كلا الخليجين . فكانت خزفياتها ، لمدة طويلة ، اوسع الخزفيات انتشاراً كما تؤيد ذلك مكثشتها ايطاليا . ولكن النشاط التجاري امتد حولها كما تمتد بقعة الزيت فشمّل « سكيوني » نحو الغرب ، و « ميفارا » او « ايجينا » نحو الشرق . وكانت اثينا أيضاً على مقربة منها ، ولكنها لم تستلظ من سباتها إلا في القرن الرابع . غير انها تقدمت تقدماً حثيثاً ، وعند نهاية العهد القديم كانت قد اخذت محل مدن « اوبيا » في التجارة وكانت خزفياتها قد تفوقت على خزفيات كورنثوس . وخلال الفترة الممتدة بين الحريين الماديتين ، اتاح لها اكتشاف عروق جديدة ، في مناجمها الفضية ، بناء اقوى اسطول حربي في ذاك العهد ، ذلك الاسطول نفسه الذي لعب ، في السنة ٤٨٠ ، الدور الاول في سلامين ضد الاسطول الفارسي العظيم .

اما في « العالم الجديد » اليوناني الذي ابصر النور بفضل الاستعمار ، فان مستعمرات صقليا وايطاليا الجنوبية وحدها قد لعبت دوراً اقتصادياً مستقلاً جديراً بالذكر في هذا العهد . ولكن يجب ألا ننزلت الى المغالاة . فلا شك في ان ازدهارها العام قد فاق ازدهار مدن اليونان نفسها .

ولكن مرد هذا الازدهار الاول زراعة انتجت ، في سهول اوسع منها في اليونان ، محصولاً اوفر لكثافة سكان دنيا ، فامكن بالتالي تصدير الفائض . وكانت بعض المدن بمثابة مستودعات فنهضت بدور الوسيطات لتصريف المحاصيل اليونانية عند ابناء البلاد الاصليين . ولكن اثنتين منها فقط ارتفعتا الى مرتبة المراكز الناشطة بصناعات محلية ناشئة حينذاك ومدعوة لان تنمو وتتقدم : « طارنتا » في ايطاليا وخصوصاً « سيراكوزا » في « صقلية » .

بيد ان الاعتقاد بان الاقتصاد الجديد في العالم اليوناني انصف باهمية عظمى من حيث قيمته المطلقة او النسبية ، فخطأ جسيم جداً . فلم يرافقه غوة شيء من الذبول التي يمكن ان يذكرنا بها درس الحضارات العصرية . ولم يكن هنالك « رأسمالية » ولا « اتحاد » مؤسسات للحيولة دون المنافسة . وقد بقي الانتاج حصيلة المشاغل الصغيرة ، كما ان التجارة لم تكن وفقاً على مؤسسات كبيرة معدودة . ويجب القول تكررراً ، من جهة ثانية ، ان الشرط الاكبر من العالم اليوناني قد استمر مرتبطاً بحياة منكمشة على نفسها . غير ان الزمن القديم قد ولى على غير رجعة .

فند ذلك الحين لم تمثل الثروة العقارية الثروة الوحيدة الممكنة . نعم
الازمة السياسية والاجتماعية
انها بقيت فوق غيرها اعتباراً واحتراماً لانها اثبتت من كل ثروة ولانها وحدها تتيح مقاربة المثل الاعلى للانسان الحر الذي ما كان الرأي العام اليوناني يوماً ليتخلى عنه تخلياً تامة . ولكن واحداً لم يستطع عملياً ان يهمل الثروة المنقولة . وقد حدث في اغلب الاحيان ان هذه الاخيرة لم تتجمع لدى الاشرف الذين أبقتهم اعتبارات قديمة بعيدة عن الصناعة والتجارة ، طالما لم يشعروا بحاجة الى تجديد ثروتهم . وكانت اكثر الاغنياء الجدد غرباء عن ارستوقراطية النسب ، ويرجع ان حالات الزواج المختلط لم تعدد الاحداث العابرة ، فتوجب على الطبقة الحاكمة ، والحالة هذه ، ان تحسب حساباً لرجال جبرهم نجاحهم المادي فرغبوا ، هم ايضاً ، في الاشتراك في شؤون الدولة .

ولم يكن المعارضون ، من جهة ثانية ، ليقصروا هجومهم على الناحية السياسية وحدها حيث التحق بهم اعضاء الطبقة الوسطى العاملين كحزب في خدمة الدولة . فبفعل النشاطات نفسها التي تفرغوا لها ، بدا لهم تنظيم القضاء وتنظيم المجتمع على اساس الجينوس غير وافيين بالغرض الذي وضعوا له ، لانها لا يتلاءمان والاقتصاد الجديد . فهذا الاخير يستلزم قواعد قانونية واضحة تكون بمثابة من هو القاضي . ويجب ايضاً ان تظل المسؤولية المالية في المشاريع الفردية محصورة في الفرد دون غيره . وهكذا فقد اصبح كل شيء موضوع انتقاد وتجريح .

وقد حدث ما هو اشد وادهى . ففي بعض المناطق على الاقل ، لا سيما تلك التي بخلت تربتها بانتاج الحبوب ، اضطروا الفلاحون الصغار للاستدانة ، ويرجع ان منافسة المحاصيل الزراعية المستوردة قد ثقلت وطأها . ولكن الاستعداد بسبب الدين ما فتىء ساري المفعول . وكانت

المدن العاجز عن الوفاء ، على كل حال ، يفقد حقه في تلك ارضه . فاشتدت الازمة الاجتماعية اذن في المناطق الريفية . ومن حيث ان اليد العاملة في المدن تتمثل بالعبيد جزئياً فلم يتبق امام منكودي الحظ الا احد حلين : النزول الى مرتبة المزارعين الذين يعملون بكل قسوة ، او الهجرة اما شطر المدن الجديدة النائية واما شطر مغامرات الارتزاق في الجيوش الاجنبية . وقد برز بعض الثوريين الاجتماعيين ببرنامج مؤلف من بندين لن يعمتا ان يصبحا تقليديين : توزيع الاراضي وإلغاء الديون . فاصابت سهام هذا البرنامج مصالح كل من الثروة القديمة والثروة الجديدة ، على ان ما اصاب هذه دون ما اصاب تلك .

تفاوتت حدة الازمة وفاقاً للمناطق والمدن . فادت احياناً الى حروب اهلية رهيبة استباح فيها الطرفان حتى التقتيل وتقرر اجلاً في نهايتها نفي الخصوم وحجز ممتلكاتهم . بيد ان نصاً ثورياً واحداً لم يصل الينا عبر القرون ، في حال ان لدينا قصائد نظمها بعض الحكام من الارستوقراطيين كدألقيا و«ثيوغنيس» . وكى نكوّن فكرة عن حدة الاحقاد الشائرة ، يكفي ان نستشهد ببعض المقاطع من ثيوغنيس : «ان مدينتنا لا تزال مدينة ؛ ولكن السكان قد تبدلوا ؛ فاولئك الذين لم يعرفوا فيما مضى لاحقاً ولا قوانين ولم يصلحوا الا لإخلاق جلود الماعز حول كشوحهم للرعاية خارج الاسوار شأن الايائل ، قد غدوا وحدهم الصالحين بينما فقد شرفاء الماضي مكانتهم واصبحوا لا يلبون على شيء ... لست اترأى العقاب يحل بمن انتزعوا مني بالقوة ممتلكاتي ... آه لو يتاح لي ان اشرب دمه الاسود ! »

وهكذا فقد طرأ التغيير ، في اكثر من مدينة ، على الوضع القديم القاسم . وقد
المشترعون
اختلفت اساليب هذا التغيير اختلافاً بيناً . فنحن ولو وضعنا جانباً الحرب الاهلية ، وأخذنا بعين الاعتبار النواحي الكثيرة التي نجعلها ، يحق لنا الجزم بأنه لم يحدث ان تعاقبت مراحل التغيير وفاقاً لنظام واحد او في تاريخ واحد . واختلفت الوسائل ايضاً ، فهي شرعية حيناً وعنيفة حيناً آخر ، وقد تعاقبت هذه وتلك تعاقباً مطرداً .

فكُلِّفَ إذ ذاك بعض ذوي الاعتبار ، وغيرهم أحياناً ممن اختيروا من خارج المدينة لتجربتهم ، مهمة وضع شرائع مكتوبة . وتحقيقاً لهذا الهدف ، لم يقتصر احد من «المشترعين» على تدوين الاعراف الراهنة ، بل ادخلوا كلهم نصوصاً جديدة يرجح انها اخذت بعين الاعتبار التطور العام . ومهما تكن الاحتياطات التي اتخذوها بغية الحؤول دون التعويرات اللاحقة — اذ انه من الطبيعي ان يعتقد كل منهم بأنه قام بعمل نهائي — فان الشرائع الصادرة عنهم لم تبد وكأنها تعبير للارادة الالهية ، أو انها بدت أقل تعبيراً لهذه الارادة . فلا يمكن باي وجه وسمها بانها لا تمس . ومن جهة ثانية ، حدثت هذه الشرائع من مدى تعسف القضاة .

في غير مكان ، أو غير زمان ، انتزع «المستبدون» *Tyrans* الإسبادة والحضارة اليونانية السلطة بالقوة القاهرة . والكلمة ليست يونانية الاصل بل انها



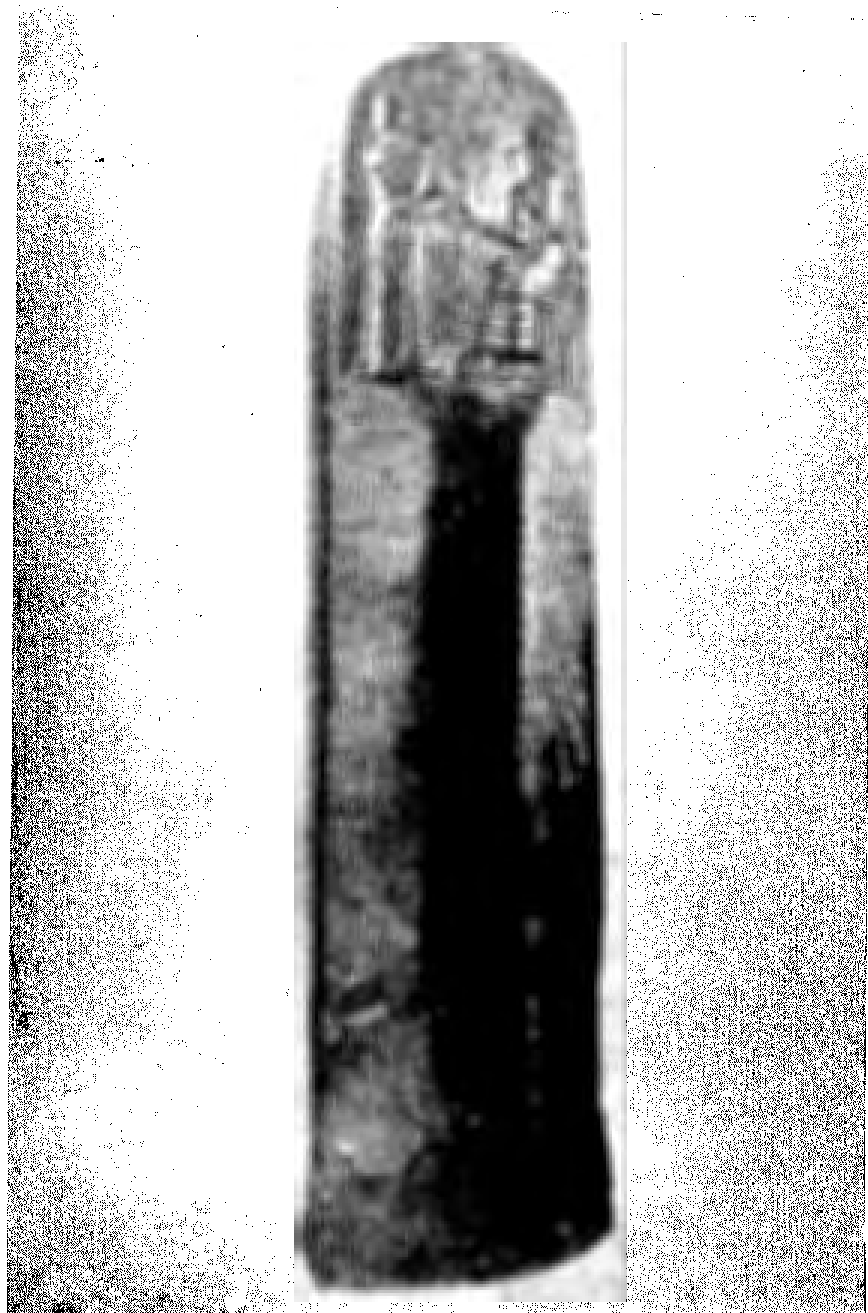
١٧ - أور - ناشى ، ملك لافاش ، وعانلته (حوالي السنة ٢٨٠٠ قبل المسيح) . متحف اللوفر .



١٨ - نصب نصر لئسارام سين ، ملك أغادي (القرن
السادس والعشرون قبل المسيح) . متحف اللوفر .



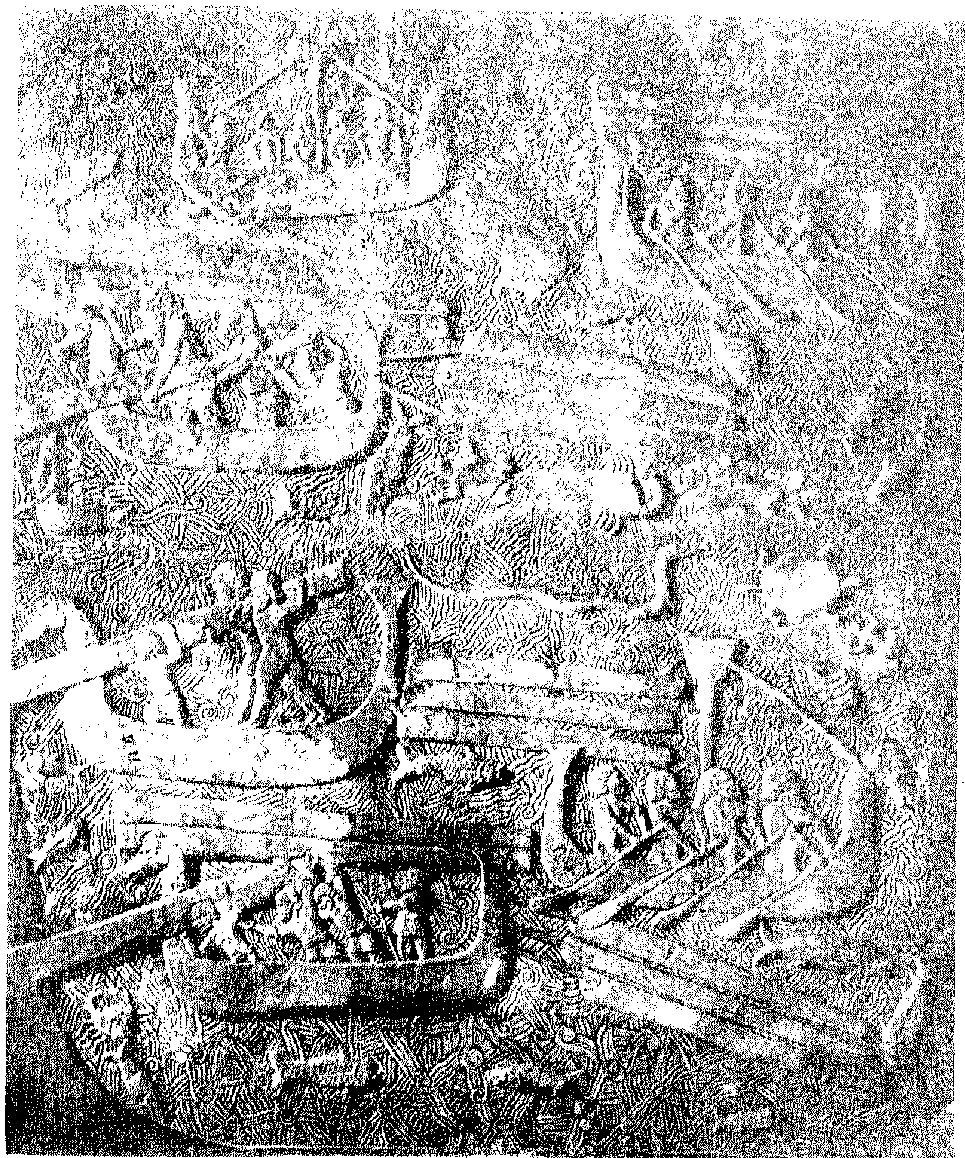
١٩ - سومريو لاغاش ، بقيادة ملكهم ايناتوم ، يدوسون
الجثث في سيرهم الى المعركة (القرن الثامن والعشرون قبل
المسيح) ، متحف اللوفر .



٢٠ - دستور حمورابي ، ملك بابل (حوالي ١٨٠٠ ؟)
قبل المسيح) . متحف اللوفر .



٢١ - كودورو بابلي . الملك مليشيباك الثاني يضع ابنته
تحت حماية احدى الالهات (حوالي ١٢٠٠ قبل المسيح) .
متحف اللوفر .



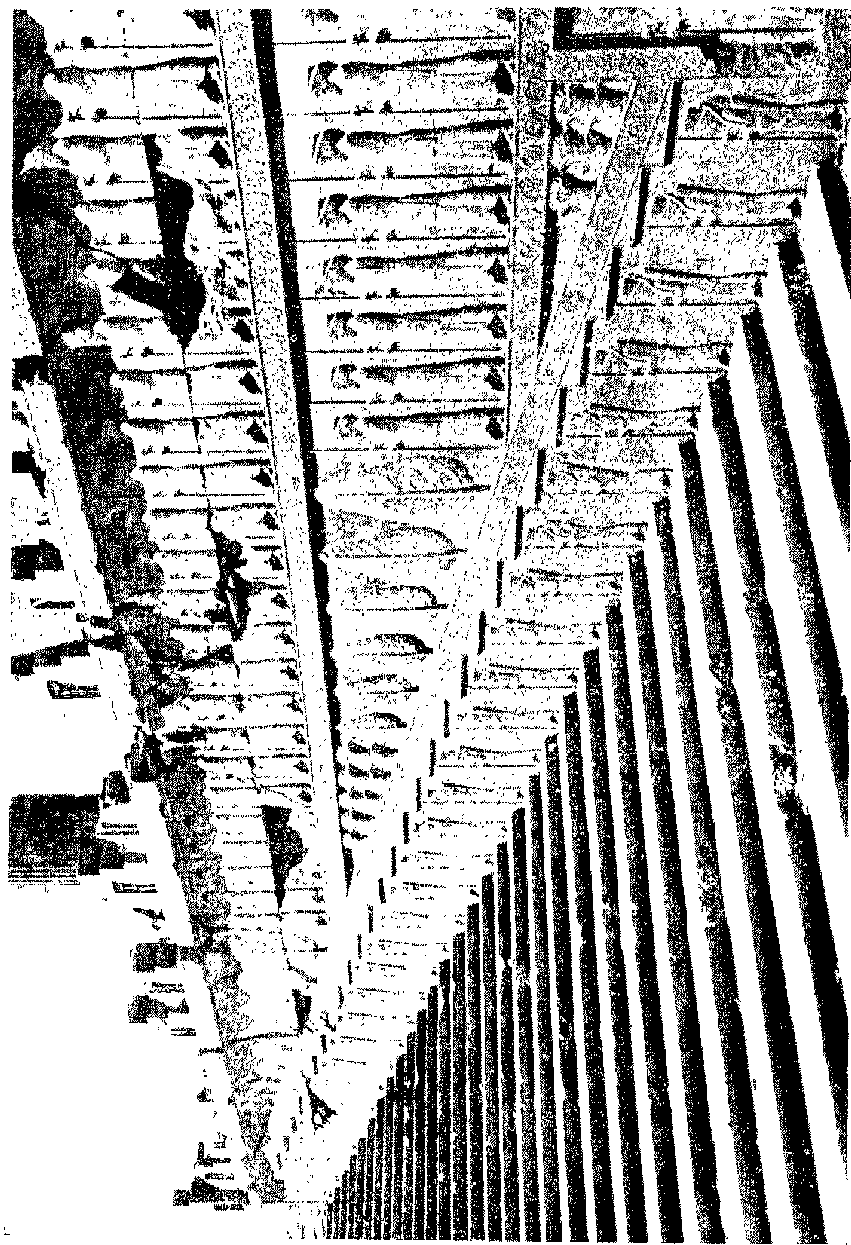
٢٢ - النقل البحري . نقش ناتىء من الالبستر مصدره
قصر خرمشاد (القرن الثامن قبل المسيح) . متحف اللوفر .



٢٣ - ثور بجناح ذو وجه بشري مصدره قصر مرجون
الثاني في خرسباد (القرن الثامن قبل المسيح) . متحف
إلوفر .



٢٤ - الملك اشوربانيبال في عربة أهبة . نقش ناتىء
مصدره نينوي (القرن السابع قبل المسيح) .





٢٦ - « الملك الكاهن » أو « الأمير ذو زهور الزنبق » في كنوسوس (كريت) . نقش
جصي ملون ، بعد ترميمه (حوالي ١٦٠٠ قبل المسيح) .

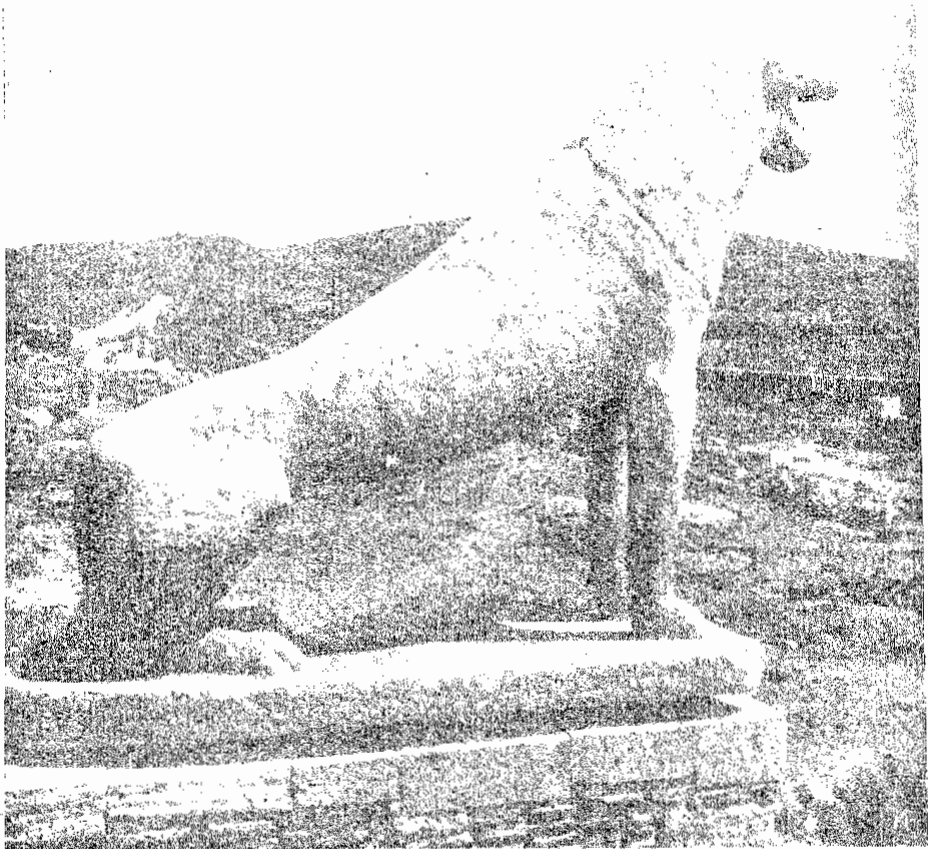


٢٧ - باب اللبوات في ميسين .









٣١ - طريق اللبوءات في ليتوون ديلوس (القرن السابع
قبل المسيح) .



تشتق من اللغات الشرقية ، والاغريق يعتبرون جيفيس الليدي المستبد الاول لانه كان أول ملك غير شرعي . ويبدو ان بعض مدن آسيا الصغرى لقتت العالم اليوناني امثلة اللجوء الى الاستبداد . وكان هنالك مستبدون يدعمهم أو يفرضهم الاجانب : الملوك الليديون وداريوس الاخميني . وتسلم غيرهم السلطة في صقليا او رستخوا اقدامهم فيها ، باستثمار تهديد العدو الخارجي للمدينة . وبمحملنا كل ذلك على الاعتقاد بان نظام الاستبداد يحمل طابعاً غريباً عن الذهنية اليونانية . فان هذا النظام ، في الواقع ، يتناقض ومفهوم المدينة نفسه القائم على مبدأ المساواة بين مواطنين احرار لا فرق بينهم إلا في المقياس الوصفي ، وبالتالي في العدد . وهذه النزعة ، الملموسة حتى في الارستوقراطية ، قد افضت من قبل الى زوال الملكية . ولكن مها يكن نصيب هذه الملاحظات من الصحة ، فان امتداد نظام الاستبداد ونجاحه ييزان ، مع ذلك ، القسم الثاني من العهد القديم ، أي من منتصف القرن السابع تقريباً حتى نهاية القرن السادس . ولا شك ، والحالة هذه ، في ان الاستبداد قد قابل واقعاً داخلياً لم يستطع الاغريق انكاره .

لقد برز في كل مجتمع وفي كل زمان رجال استلموا لطموحهم نحو السلطة وشغفهم الفطري بها وتحملوا بقوة الجاذب والسحر الضروريين لاستئالة الانصار المتحمسين . وان المجتمعات الشرقية نفسها قد عرفت الاغتصابات من قبل . ونحن نرجح ان عددها قد يرتفع كثيراً لو قدر لنا ان نعرف تاريخ هذه المجتمعات معرفة أعم وأوفى . ولكن الرجال فيها راقبتهم السلطة عن كسب وحالت دون طموحهم وتحمسهم . وقد قامت فيها ايضاً صلة بين الالوهة والسلطة ، بما حوى هذه من المغامرات الجريئة . أما في اليونان فقد احرزت نجاحات اكثر عدداً ، بما يثبت وجود نزعات فردية اعنى منها في الشعوب الاخرى التي لعبت دورها حتى ذاك التاريخ . فالحضارة اليونانية هي الاولى التي استساغت فكرة « الانسان المتفوق » الذي يفضل معاصريه مهارة وسعادة . قد يثير هذا القول دهشة وعجباً ، لأن الرأي السائد هو ان الحضارة اليونانية لا تتميز عن حضارة العهد الكلاسيكي الذي توصل الى حجب هذه الفكرة . ولكننا حجبناها حجباً فحسب دون ان نزيلها . فقد ظلت هذه الفكرة كامنة في الحضارة اليونانية ثم ظهرت مرة اخرى ، بقوة نادرة ، في الحضارة الهلينية . ومن حيث انها قد برزت من قبل في العهد القديم ، فلا ريب في انها انطوت على فردية عميقة الجذور في السيكولوجية اليونانية .

وكانت الظروف ، على كل حال ، مؤاتية جداً حينذاك . فالاضطرابات منهجية الاستبداد وعمله السياسية والاجتماعية اتاحت لذوي الحزم ان يبرزوا في صراع الاحزاب . فأفادوا في آن واحد من عياء المعتدلين وخاوفهم ومن غرارة الطبقات الاجتماعية الدنيا في السياسة . وكانوا يفتنمون في الغالب الى الارستوقراطية . ولكن الارستوقراطية ، المتحرزة والمترتبة ، لم تكن لتساندهم بكليتها ولمدة طويلة . ولذلك فهم لم يقبوا احقادها ، مؤثرين على تقيض ذلك ، التمرص لعداؤها ، باستثناء فترات تقارب قصيرة الامد فرضتها عليهم الانتهازية . وقد اعوزهم

العطف الشعبي للاستقرار في الحكم الذي عنى ، عملياً ، استلامهم القلعة والعيش فيها محاطين بحرس من المرتزقة . فليس من النادر اذن ان يكونوا تزعموا الحزب الثوري قبل تولي الاحكام . ولكنهم ، اذا ما استقرت الاحوال ، يظهرون ، بالتفضيل ، بمظهر المهكتين المصلحين ، رغبة في طمأنة المعتدلين . فيزعون السلاح من ايدي المعتسفين ، ويحرصون ، ما امكن الحرص ، على العمل بموجبيات الدستور ، ويقتصرون ، بالاستناد الى تفوذهم الشخصي والى نفر من الزجال المخلصين ، على القيام بمراقبة فعالة لحسن سير كافة الاجهزة السياسية . وقد سعوا ، في الحقل الاجتماعي ، وراء معالجة اكثر الآفات ظهوراً ، بفضل حجز ممتلكات خصومهم العنيدين ، اي بعض اسر الاشراف . ولكنهم يكتفون باعتماد التدابير الجزئية التي تقدم انصارهم قبل غيرهم . اما البرنامج الثوري فقد لفه النسيان . فالالغاء الوحيد للديون الذي وصلت اليه اخباره - ولعله مجرد تخفيف عن طريق اسقاط قيمة النقد - لم ينهض به مستبد ، بل مشرع يوناني هو صولون . اما اعادة توزيع الاراضي بصورة شاملة ، فلم يجرؤ احد ، لا مشرع ولا مستبد ، على التوغل فيها . لذلك فان الانتهازية والمصلحة الشخصية هما اللتان سيرا على المستبدين . وبالتالي ، ارتبط هذا العمل بصفته الفردية وبالظروف المحلية . ولكن القوى المتشابهة التي واجهوها املت عليهم مواقف مشتركة .

كان لبعض هذه المواقف اثر حاسم في تطور الحضارة اليونانية . ففرج المستبدون الكرية عن صفار الفلاحين وجعلوهم اكثر استقلالاً حيال ذوي الاملاك الواسعة في جوارهم ورفعوا مستوى حياتهم المادية . واذا ما استندنا ، في حكمنا ، على اثنينا ، نرى ان هذه النتيجة الاخيرة قد احرزت بفضل تشجيع زراعة بعض الاشجار المثمرة ، كالكرمة والزيتون ، التي ثبت ان انتاجها ، في هذا المناخ ، افضل من انتاج الحبوب . وكان صولون ، قبل « بيسيستراتوس » ، قد وجه الزراعة ، في منطقة اثنينا ، شطر هذه الناحية . ثم جاء بيسيستراتوس وسلك الطريق نفسها ، حتى انه سلف المالكين الصفار بعض الاموال . وقد توصل المستبدون ، في المدن ، الى التوفيق بين نزعتهم الى النفوذ الشخصي وبين تصميمهم على تهدئة من خابت آمالهم بالجماد العمل لهم . ولذلك نراه يتمهدون بلاطاً بهجاً ، ويحمون الادباء والفنانين ، وينمون الاعياد الدينية ، ويحققون الاعمال الكبيرة في البناء والتجهيز ، ويدعمون التوسع الاقتصادي .

اجل ، لم يفعل احد منهم في تأسيس سلالة تدوم طويلاً ، في حال انهم ، ولا ريب في ذلك ، قد استهدفوا هذا المطلب . فلم تتجاوز اسرة واحدة من اسرهم الجيل الثالث ، حتى في افضل الظروف مؤاثة . وقد كان لانهارهم اسباب متنوعة ، عرضية او خارجية في اكثر الاحيان . بيد ان هذا الانهيار قد وافق تياراً عاماً : ففي السنة ٥١٠ لم يبق مستبد واحد في اليونان البلقانية ، كما زال المستبدون الاخرون ، في صقليا ، بعد ذلك بحوالي خمسين سنة . وقد اصدر عليهم الحكام والفلاسفة احكاماً قاسية . وقد رسم فلاسفة الاخلاقيات كلمة « مستبد » ببدلول

ازدراي ، بينما لم يميزها من قبل ، اذا وجد التمييز ، عن كلمة «الملك» ، سوى فكرة الاختصاص . فدلّت في النهاية ، على الحاكم الفرد الذي يعتمد العنف ، ويحتقر القانون ، على تقيض من لا يستهدف سوى الخير العام والعدالة .

ولكن الاستبداد سواء كان شجبه مشروعاً ام لا ، قد افضى ، حيثما وجد ، الى الاسراع في تطوير المدينة نحو نظم سياسية واجتماعية لن يلبث المستقبل القريب والبعيد ، ان يعمها ايضاً .

لم تزل النظم في آخر القرن السادس متنوعة جداً .

الوضع في آخر العهد القديم

ولكن يجب ان نستثني سبارطة . فهي ، وان كانت نقطة الانطلاق

فيها مماثلة لما في سواها ، - وهذا غير محتمل - قد عرفت تطوراً خاصاً بحدأ . وهي تفتخر بتميزها الذي لا مرء فيه . اجل نحن نرى في كريت اثرأ لنظمها الاجتماعية ، لا سيما تلك التي تولي الدولة حق المراقبة على تربية وحياة مواطنيها الجنود . ولا يتنافى مبدأ هذا الحق ومبدأ المدينة اليونانية بوجه عام . ولكن استخدامه في سبارطة قد ارتدى طابعاً من العنف يضفي على هذه المدينة مظهراً فريداً .

ففي كل مكان آخر تترك الدولة ، كدولة ، حرية أوسع للمواطنين . ولكن الا يخضع هؤلاء لتأثيرات قوى اخرى ولضغط الجماعات التي ينتمون اليها لاعتبارات اخرى غير صفتهم كمواطنين ؟ ثم من هي الدولة ومن هي الطبقة الاجتماعية التي تستطيع اخضاعها لنفوذها المسيطر ؟ ان محاولة الاجابة عن هذين السؤالين تضعنا رجهاً لوجه امام آراء مختلفة تكاد لا تحصى ، ولكننا نترامى منذ الآن اتجاه التطور المقبل .

لا يزال عدد من المدن محتفظاً بحياة ريفية مجتة ، بعضها على الطراز القديم يتحكم بها اشراف مقتدرون ، وبعضها الآخر تعيش فيها طبقة من الفلاحين تتمتع بقسط من الحرية أوفر . فحيثما تطور الاقتصاد ونمت الصناعة والتجارة ، تعذر على ارسوقراطية النسب ان تبقي على امتيازاتها القديمة وتوجب عليها رفع عدد المحظيين . وقد اقدمت على ذلك إما اختياراً وإما قسراً . ولكن هذا التوسيع كان متفاوتاً ، فلم يستفد منه ، تارة ، إلا ذوو الثروات المنقولة ، فانضموا منذ ذاك الى الاشراف ووقفوا الى جانبهم في وجه مطالبات الطبقات الشعبية . ففي ميله *Milet* مثلاً ، وطيلة ستين سنة في أول القرن السادس ، اصطدمت فئة « أولئك الذين يجاربون بأيديهم » - أي الفقراء العاجزون عن شراء السلاح - بفئة « الثروة » أو « أولئك الذين يركبون البحر دائماً » أي مجهزي المراكب . وقد اشرك ، تارة اخرى ، اعضاء الطبقة الوسطى في الحقوق السياسية . وقد مارس الفقراء انفسهم ، احياناً ، بعض هذه الحقوق ، واننا نشاهد ، اذ ذاك ، قيام مؤسسات تنفرد بها الانظمة الديموقراطية ، في كيوس مثلاً منذ السنة ٦٠٠ قبل المسيح ، وفي أثينا بعد ذلك بزمان قصير .

خلال القرن السادس ، برزت اثنا ، في الواقع ، برزراً ملموساً . وليس هذا

تقدم أثينا

التركيز نوعاً من تقدير الشيء بعد حصوله أو وهماً جرتنا اليه وفرقة نسيية في

المعلومات . فقد بدأ التطور فيها بعد مدن كثيرة غيرها ، ولم يتحرك شيء فيها ، على هذا الصعيد ، قبل السنوات الاخيرة من القرن السابع . ولكن الحركة فيها كانت أكثر عمقا وسرعة ، فحققت في قرن واحد نتائج أهم منها في أي مكان آخر .

تبدل الاقتصاد في الدرجة الاولى . فتكونت طبقة ثابتة الاركان ومستقلة اقتصاديا قوامها فلاحون من اوساط الناس ينتجون غذاءهم ويبيعون النبيذ والزيت والثمار والبقول . وفي اسواق حوض البحر المتوسط ، احتلت صناعة خزفيات اثينا المركز الاول . وسبق ذلك ان غمر البحر اسطول تجاري . وضرب النقد بوفرة ، منذ ذاك التاريخ ، واكتسب شهرة طيبة بررتها قانونية وزنه وارتفاع عياره من الفضة . ثم ان تقهر المدن اليونانية في آسيا الصغرى ، على اثر الفتح الفارسي ، الذي أصبح امراً مفعولاً بعد ان قمع داريوس الاول ثورتهم ، قد افصح مكاناً أخذت اثينا تحتله ، على صعيد التجارة في البحر الابحطي والعلاقات ببلدان البحر الاسود ومصر والغرب . واذا لم تبسط بعد سيطرتها الاقتصادية ، فان انطلاقها قد برزت منذ الآن .

ورافق هذا التطور الاقتصادي تطور اجتماعي وسياسي . فبعد السنة ٦٢١ حتى السنة ٥٠٦ ، كانت شرائع « دراكون » و « صولون » ، واستبداد بيسستراتوس وأولاده ، وشرائع « كليستين » ، بمثابة اوتاد رُسمت بها بسرعة طريق طويلة تترامى في آخرها امكانات وآفاق كلتية الجدة . وبما هو اهم من ايجاد بعض الاجهزة السياسية ، ان يحضر المجال القانوني والاجتماعي للديموقراطية كما سيفهمها الاغريق . ولم يُقص الاشراف عن السلطة ، بل انهم سيقدّمون لاثينا ، طيلة سبعين سنة بعد ذلك ، خيرة حكامها : ميلتيادس وتيمستوكلس واريستيدس وكيمون وبريكليس نفسه . ولكننا نعتقد ، على قدر امكانية الحكم في هذه الامور ، انهم مدينون بتولي السلطة الى صفاتهم الشخصية قبل كل شيء آخر . ولعله يجوز الاستنتاج ، حيال هذه القضية ، ان الشرائع تقدمت الاعراف والتقاليد ، لان الشرائع لم تكوّن سلطة الاشراف قط ، واذا تبقى هنالك من امتيازات ، فانما هي امتيازات واقعية فحسب ، وليست بعد امتيازات قانونية . وهكذا فقد شقت الطريق لارتقاء طبقات اجتماعية جديدة تتولى ادارة الدولة وسيرمز الى هذا الارتقاء بعد موت بريكلليس مباشرة ، اسم الدبثاغ كليون .

وقام ايضا ، منذ دراكون ، قضاء جنائي رسمي . ثم جاء صولون فتبسط فيه . وبالإضافة الى ذلك اعطى صولون حق الشهادة لمن لم يرزق ولداً شرعياً ، وشجع تجزئة الثروات العقارية ، وحظر المظاهرات الصاخبة في الجنازات . وحقق كليستين اخيراً الاصلاح الحاسم بان اوجد ، بموازة توزيع المواطنين القديم المبني على النسب ، سلسلة جديدة من الفئات البشرية على أساس اقليمي : عشر قبائل ومائة « ديوس » تقريباً . ولم تعتمد الدولة الاثينية ، بعد ذلك ، في تأليف كافة اجهزة الحياة السياسية ، سوى التقسيم الكليستيني .

لقد اوحى هذه التدابير كلها تصميم واحد : انتزاع الدولة من قبضة العائلات الكبيرة بالانقاص

المنظم المرسوم من امتيازاتها وتلاخها الداخلي. فوسعت الدولة سلطاتها على حساب هذه العائلات، لا سيما بإنشاء القضاء والجيش، والاسطول بعد ذلك، فلم تعد الدولة حراً لها. ولكن الطريقة التي سير عليها لتحقيق هذا التحرير قامت - ولم يكن بالامكان ان تقوم على غير ذلك - على تحرير الفرد من تضامنه الوثيق مع الفئة التي ادخله نسبه فيها. وقد هدفت الدولة، من وراء ذلك، الى ان تجعل من الانسان مواطناً لا عضواً من اعضاء العائلة. ولعل ما يجب معرفته، بعد ان ساعدته على امتلاك هذه الحرية، هو ما اذا كانت ستجيز له استخدامها على هواه او ستحاول قيادته وتوجيهه او ستنوء عليه بسلطتها. ولكن طرح هذا السؤال سابق لأوانه. فالشيء المهم الآن هو حقيقة تحرير مزدوج يبدو مظهراً المترابطان كنتيجة لتطور واحد: تقهر التوزيع الاجتماعي القديم.

وتجدر الإشارة هنا الى ان الشطر الأكبر من هذا التطور قد تحقق في اثينا منذ الآن، ويكفي الاستمرار فيه دون التهرب من ذبوله. وقد قدمت اثينا، في عملها هذا، مثلاً يستير عليه كافة المدن اليونانية. وسيكون لسحر مثلها قوة لا تقاوم، لا سيما وان اثينا، في القرن الثاني، تنتمي قوتها العسكرية والسياسية وستحتل، في الوقت نفسه، المرتبة الأولى على صعيد الفكر والجمال حيث تكثفي الآن بان تبقى مع سواها على مستوى واحد.

٢ - التطور الادبي

لم يكن التطور الادبي في العالم اليوناني، طوال هذا العهد اقل عمقاً او اقل تحضيراً للمستقبل. ولكنه يبدو اكثر تعقيداً، في اسبابه وخطوطه العامة والاشكال التي اتخذها، من التطور الزمني.

لعب النمو الاقتصادي دوره بفعل الثروة التي وفرتها والصلوات التي عوامل التطور الادبي اوجدها او وثقتها بحضارات اخرى لا سيما الحضارات الشرقية. وكانت محتوماً على الحضارة اليونانية التي هي آخر ما جاء الى حوض المتوسط الشرقي ان تقيس من الاختبارات والتحقيقات التي كدستها حضارات ارسخ منها قدما وأوفر ثروة واسبق فناً وتقنية. فاقتبست عنها الكثير مما سبق واثرتنا اليه. ولا حاجة بنا الآن لان نجمع هذه الاقتباسات في لائحة طويلة كي ندلل على اهمية مجموعها. وقد درج المؤرخون منذ زمن بعيد على الانتقاص من مدلول القول المشهور «الاعجوبة اليونانية» بمصر هذا المدلول في تأويل الاغريق لما تسلموه من الغير، وقد يمتنع بعضهم عن استعمال هذا التعبير اطلاقاً.

ولكن هذا لا يعني وجوب التسليم لسراب الشرق، لان الشعب اليوناني، في اعماقه، غني بالامكانات المميزة التي يمكن التعرف الى القسط الذي ادته دونما عناء. فليست الارستوقراطية القديمة، كما رأينا، لامة من الاجلاف، بل هي تستهدف بلوغ مثل اعلى في الحياة الفكرية والفنية تدرجت نحوه، مع الزمن، طبقات اجتماعية كثيرة. وقد اثبت المستبدون انفسهم، باهتمامهم لنفوذ بلاطاتهم ومدنهم، انهم استهدفوا بلوغ هذا المثل ايضاً. لا شك في انهم اقتدوا

بالسلاطين الشرقيين ، لا سيما اللبيين ، أقرب الملوك في الزمان والمكان ، الى العالم اليوناني الذي عرفهم معرفة تامة دون غيرهم . ولكنهم صمموا ايضاً على ان يتفوقوا ، بهياء وجلال حياتهم ، على اشهر الارستقراطيين ثروة وسخاء ، متبنين على غرارهم ، المثل الهوميروسي الاعلى الذي يجعل منهم «رضعاء زفس» ، يملكون قصوراً غاية في الزخرف ويحنون وقادة الشعراء المفاين . ثم اذا نظرنا الى الشعب اليوناني كجموع ، توجب علينا الاعتراف بما يتحلى به من جرأة فكرية ورغبة دافئة في الاستطلاع واهلية لخلق كل جديد ومن ضن بالاحترام المتطير للتقاليد . ويمكننا رؤية هذه الحرية الفكرية في التقلبات التي طرأت على تنظيمه الاجتماعي والسياسي . وهو لم يتوان عن التجديد حتى في النطاق الديني الذي يتصف بالجمود اكثر من غيره .

ولكن هل كانت الذهنية اليونانية واحدة يا ترى؟ يغربنا جداً ان نرى فيها نزعتين متضامتين : الاولى ذات منطق بسيط سليم وتفكير رصين متناسق ، والثانية ذات جنال يدغدغ بتأثيره الحواس والشهوانية . فلما راء في ان هاتين النزعتين ، الاولى والثانية ، موجودتان في الحضارة اليونانية . ولكن غالباً ما جعل المؤرخون من تراحمهما الصفة المميزة للمعهد القديم ، وهو عهد تأسيس وتلمس وتردد ، فقابلوا القساوة الحازمة البارزة في التيار «الدوري» بالسحر الحلال والطلاوة النسائية في التيار «الايوني» ، الى ان جاءت اثينا ، في فجر العهد الكلاسيكي ، وحقت جمعهما في تيار واحد . لا ريب في ان تأثير الشرق الذي استهوى الاغريق بثبات يوضح خطوطاً كثيرة في التيار الايوني . ولا ريب ايضاً في ان الكلام عن هذا التمييز انما يصح عن الفن خصوصاً ويستلزم بعض التبسيط . فالمدنية الدورية الاولى ، سبارطة ، قد تأثرت الى حد بعيد بجاذب الشرق ، خلال فترة طويلة على الاقل . اما ايونيا الآسيوية ، فاذا صح ان فيها بنم عن رغبة في الافتان المتأنق ، فقد كان لها فلاسفتها وعلمائها . لذلك لا يجوز الكلام عن «الايونية» و«الدورية» إلا بكل حكمة ، اذ ان الاولى والثانية ، على كل حال ، لا تثلان بالضبط النزعتين اللتين ستظهران بوضوح ، في عهد لاحق ، في تطور الحضارة اليونانية .

تبدو الديانة كعنصر وحدة في العالم اليوناني المقسم مدناً عديدة . ولكن التنوع الديني
الآلهة الذين عبدتهم ينتسبون الى مصادر مختلفة . فبعضهم استوردتهم الهنود الاوربيون : آلهة السماء مثلاً ، ولا سيما زفس ، إله النور والزوينة . وتجمع البعض الآخر من الارث الإيحيي : آلهة الارض ، كاثينا وديميتر . وجاء غيرهم اخيراً من الخارج : من آسيا كأفروديت ، أو من تراقيا كأريس أو ديونيسوس . ومن العسير غالباً تبيان هذا المنشأ لان هذه العناصر قد اختلطت ببعضها اختلاطاً غربياً . فقد احتفظ احياناً بذكر حدث اغتصاب . وهكذا فان ابرلون الذي جاء من آسيا قد وضع يده على معبد «دلفي» المكرس للإلهة الكريتية العظيمة . واعتُمد الصهر احياناً اخرى ، اما باعتداء اوجه الشبه في اختصاصات الآلهة واما بطريقة اكثر بساطة تقضي بان تعزى لاله الواحد خاصيات آلهة مختلفين : وهكذا فان الحصان يشير الى الإله الشبالي في بوزايدون ، بينما يشير الخطاف الثلاثي الشوكات والسلطة على البحر الى

الإله الجنوبي . ووزع الآلهة أخيراً عائلات مختلفة هي نفسها معقدة التركيب . وقد تم كل هذا العمل في الوقت نفسه الذي تكون فيه الشعب اليوناني ، فلا نعرفه ، إذن ، إلا بواسطة نتائجه . وقد اكتمل في أوائل القرن الثامن ، حيث انتصر تشبيه الآلهة بالإنسان أيضاً ، فلم يبق للأصنام والحيوانات ، إلى جانب الآلهة ، سوى قيمة الرموز أو الخصائص .

تتضح إذن حقيقة مجهود قديم منمر استمر في العهود اللاحقة ، فيرى هيرودوتس أن الشعاعين القديمين هوميروس وهيزيود ، قد « حدّدا نسب آلهة الأغريق » ، ووزعا عليهم صفاتهم وخصوا كلّ منهم بأفعاله وصلاحياته ، ورسعوا صورهم . وفي الواقع كان للشعراء أثر بعيد في الديانة اليونانية . فلم إليهم يعود الفضل في أنهم اختاروا ، من الكثرة الأولى ، آلهة كباراً يحملون أسماء عالمية الشهرة ، ويتحلون بخصائص مميزة ، ولهم عائلتهم وتاريخهم ، وانتظموها مجتمعاً على غرار المجتمع البشري . وقد ذهب هيزيود إلى أبعد من ذلك ، بانقطاعه عن ادخال الآلهة مباشرة في اوساط البشر ، وبالتشديد على دورهم كحراس للأداب ، وحتى بتأليه بعض التجريدات الأدبية كالعدالة (ديكي) والمنافسة (ايريس) ؛ وغالباً ما كانت هذه الشؤون غريبة عن القوائد الهوميروسية .

ولكن هذا المجهود لم يكمل قط بالنجاح التام . فكان في الواقع لكل معبد إلهه الخاص به المتميز بأحد الفوارق أو أحد النعوت أو إحدى الأساطير المحلية . وقد ارتضى المؤمن بهذا التمييز البالغ لأنه يطلب عوناً واضحاً مادياً جذاً . وقد بقي دائماً للطقوس نصيبها الهام أيضاً . فنرى ، والحالة هذه ، أن نقل الديانة إلى الصعيد الروحي كان وفقاً على نخبة فحسب .

لماذا أحرزت بعض هذه الطقوس مزيداً من النجاح وصادقت قبولاً
الطقوس مكونة الوحدة :
وتأبدياً ؟ إن تضامن الشعب بكلّيته قد اتضح أخيراً بالاشتراك في
المباريات

الاحتفالات العامة . وهذا التضامن أبعد من أن يكون شاملاً منذ البداية ، لا بل نحن نستطيع تتبع تدرجه الصاعد من خلال اتساع هذه الاحتفالات نفسه . ولكن ، من حيث أن التضامن السياسي المقابل لم يحرز أي نجاح ، يتوجب علينا الاعتقاد بأن طبيعة هذه الاحتفالات استجابت لميل عميق في النفوس .

وإنما المقصود هنا الألعاب الموروثة فكرتها ، دوناً ريب ، عن الكرّيتين . ولكننا نرى بجلاء أن نجاحها يتفق والمثال الأعلى للإنسان كما تراءى للاذواق الأرستوقراطية : فهو يدعو كل فرد لأن ينمي في شخصه ما يمكن أن يميزه عن غيره . وإنما اللعب مباراة تتجلى فيها صفات الفرد وتقوّه على أمثاله . ولكن ما يلفت النظر هو تلك المشاعر والفكر التي تلبس هذه الفردية وتحد من نتائجها . فهناك الفكرة الدينية أولاً : يقدم المتبارون بمجهودهم قرابين للاله الذي يعين من يتقبل قربانه بالرضى ، بإيلائه النصر المبين . وهناك أيضاً الفكرة الأخلاقية المرتبطة بالأولى : فالإبعاد يصيب الخدّاع وخارق القدسيات والقاتل ؛ أما المكافأة ، وهي تاج من أوراق الشجر ،

نليس لها من قيمة مادية . وهناك اخيراً فكرة المدينة : فهي تدبغ الى جانب اسم المتصر ، اسم وطنه ، وتفسر الاكرام الذي ينال المواطن من وطن يقاسمه مجده .

نحن نجعل كل شيء عن كيفية تكون هذه الفكر وهذه المشاعر . ولا نرى سوى توسع اطار هذه المباريات المطرد . فان اشهرها واقدما ، على الاطلاق ، مباريات اولمبيا التي جرت كل اربع سنوات في واد صغير الى الشمال الغربي من البلوبونيز ، اكراماً لزنس الاولمبي . ولعلها تقرر للمرة الاولى في السنة ٧٧٦ ؛ وتكشف لنا لائحة الفائزين عن اتساع اشعاعها المطرد : الجوار القريب ، ثم البلوبونيز ، ثم اليونان البلقانية ، ثم آسيا ، واخيراً المستعمرات الغربية . وتكشف لنا ايضاً عن الاطراد في ارتفاع عددها وتنوع العالما : سباق الركض ، ثم سباقات القوي الاخرى ثم سباق العربات . وعلى غرار مباريات اولمبيا تنظمت مباريات اخرى ، على مقربة من معابد اخرى ، في تواريخ مختلفة . ومن اكثرها رواجاً ما اقيم اكراماً لبوزايدون في مضيق كورنثوس ، ولزنس في نيميسا بين كورنثوس وأرغوس ، ولابولون في دلفي . وقد جمعت مباريات دلفي بنوع خاص بين سباقات القوي والسباقات الموسيقية . وقد وضع مثل هذا البرنامج المتنوع ، اكراماً لابولون ، في جزيرة ديلوس الصغيرة الواقعة في وسط السيكلاد ، وهي الجزيرة التي ابصر فيها النور . ولكن ديلوس لم تجذب اليها عملياً سوى الايونيين دون غيرهم .

نظمت هذه المباريات لمناسبة عيد الاله المحلي . وكان لكل اله عبده اي «بانيجيريا» التي تعني بالاشتقاق «الاجتماع العام» الذي يضم مؤمنيه ، وهم قديتفاوتون عدداً وقد يأتون من قريب او بعيد . وكان لبعض الاعياد الاخرى مبارياتها ايضاً : كعيد «أثينا» لالهة مدينة اثينا مثلاً الذي ظهر قبيل منتصف القرن السادس مع تطواف ال « بيبيلوس » . ولكن عدد الاعياد التي تترأى فيها المنافسة على الفوز ما زال ، حتى ذاك العهد ، محدوداً جداً . ولكنه سيرتفع فيما بعد دون ان يؤثر على مكانة الاعياد الاولى الوحيدة التي بلغت مرتبة يمكن وصفها باليونانية الشاملة . وقد بلغ سحرها الارج ، لا سيما سحر مباريات اولمبيا ، في اواخر العهد القديم ، وكانت شهرتها ادبية اكثر منها مادية . وقد قضى العرف ، في مرحلة انتقال المتبارين والحجاج ، ان تملن في كل مكان «الهدنة المقدسة» التي يتقيد بها الجميع خير تقيد . وقد حق لكل يوناني حر ان يشترك في هذه المباريات . فكانت هذه المباريات اذن مظاهر جليلة لحضارة يونانية قاعمة بذاتها تتصف بالحيلاء في وحدتها المتسامية فوق التقسيمات السياسية وفي تناقضها مع «البرابرة» اي مع الاجانب . وعممت ممارسة الموسيقى والتهارن الجسدية والعري نفسه الذي اهم الفنانين ، واثرت بالتالي على تطور الحضارة اليونانية . ولكنها لم تخلق فيها تيارات جديدة بل اقتصر على تقوية بعض تياراتها القديمة . ولم تقو قط على القضاء على تيارات اخرى . فان صفتها اليونانية الشاملة مثلاً لم تتغلب يوماً على انقسام المدن .

لم يختص كل ذلك ، شأن الذبائح ، إلا بالطغوس . أما الديانة ، على نقيض ذلك ، فقد تأثرت ، في النصف الثاني من القرن السابع وفي القرن السادس بقوى بعيدة القمر يكتنفها الغموض . فاضطرت لأن تقسح مكاناً لتصوف جهل الشعر الهوميروسي جهلاً تاماً ولم يتخذ ، في شعر هيزيود ، سوى شكل ميول أدبية رفيعة . ولم يكن فيها حتى ذلك العهد ما يشبع الميول العاطفية عند الكائن البشري . ولم تفتح عبادة الاموات نفسها ، التي كانت تمارس بالولائم الجنائزية وبالأفراط من شرب الخمر على المدفن الذي يعلوه اناء دون قعر ، إلا افاقاً كالحلة عبوسة ؛ ولم يكن استحضار ارواح اكثر الاموات شهرة ، كما تصفه الاوديسه ، ليطمئن احداً عن حقيقة الخلود الكئيب والواهي الذي ينتظر الآدميين في عالم ما تحت الارض . فالتقوى البشرية تتطلب حقائق اخرى ، حتى ولو اقتضى ذلك موجبات اخرى . لذلك فهي قد استقبلت بحرارة الآراء والمراسم الجديدة او المجددة المستوردة من تراقيا و آسيا والمرتبطة بالتالي باتساع أفق الاغريق الذي يدينون به لأسفارهم ونشاطهم الاقتصادي .

كان لديونيسوس مكانه الخاص في جميع مظاهر هذه الذهنية الجديدة ففدا الوارث الرئيسي لهذه الحركة الواسعة . فتارة عمل مباشرة على امتداد عبادته : وهكذا فان الاستبداد الاثيني جعل من أعياده اعياداً رسمية ونظم الاحتفال بها ، وهي التي ستنبثق عنها التمثيليات المسرحية . وأثره تارة اخرى في عبادات او عقائد انتشرت حينذاك . فكان له مثلاً مكان في معبد آلهة « الفيس » الذي وجب توسيعه بفعل ازدياد عدد المؤمنين الذين استهدفوا ، من وراء الاطلاع على أوليات علم « الأسرار » ، المزيد من الاطمئنان حيال الحياة الثانية . وقد خصته أيضاً الأساطير الاورفيسية بالمركز الاول .

لشرت هذه الأساطير جمعيات انتسبت الى اورفيوس المغني التراقي . وقد روت كيف ان ديونيسوس قطع التيتان ارباً ارباً ، وهم الشر المتجسم ، وكيف ان أباه زفس قد بعثه حياً . اما الذين نشروها ، تدفعهم الى ذلك غيرة تبشيرية تنكر للحدود السياسية والاجتماعية ، فقد استخلصوا منها مثلاً وعبرة . فوعدوا بالسعادة الابدية كل من يسلك سبيل تقشف اخلاقي وجسدي نصحوا به الى كافة البشر الذين سيفصل الموت أرواحهم عن أجسادهم النجسة . ولا ريب في ان الاورفيوسيين قد جمعوا في صفوفهم دجالين وعرافين يجوز الاشتباه بهم . ولا ريب أيضاً في ان السحر كان له مكانه في كتبهم المقدسة . ولكنهم جاؤوا بأراء جديدة كثيرة كان نجاحها في البدء باهراً ثم تدنى طيلة العهد الكلاسيكي ، على الرغم من استمرارها المستقر ، الى ان عادت وظهرت في العهد الهليني ، فلم يكن ممكناً ، في الواقع ، ان يبقى دون اثر الوعظ الديني الذي لم يفرق بين يوناني و « بربري » اي بين الحر والعبد ، والذي لفت النظر الى تركيب الانسان ، في آن واحد ، من عنصر فان ومن روح ترتبط بمبدأ آخر ، وتكلم عن دينونة إلهية تنال الروح بموجبها ، بسبب مسؤوليتها على الارض ، اما ثواباً واما عقاباً . وحين زالت الجمعيات

الأورفيوسية السجدة ، استمرت نظرياتها موسعة وموضحة مفهوم الإنسان الذي اعتمدته
الآغريق حتى ذلك التاريخ .

يبدو ان هذا التيار التصوفي الذي دفع بالمثقفين الى الانحطاف أحياناً ، قد كان
متأثراً بالغيب
خير معوان لنجاح هتافات الغيب . وتعود هذه الهتافات الى ما قبل الآغريق
الذين ورثوها عن الحضارات السابقة . غير ان القصائد الهوميروسية تكاد لا تسكتم عنها ،
خاصة بالذكر الاحلام والدلائل الطبيعية عن المستقبل التي فسرهما المرافون . اما بعد ذلك
فوجود الكثير من هاتفي الغيب يصبح أمراً واقعاً وطيداً يستثيرهم الأفراد والدول في مواضيع
مختلفة فيجيبون بطرائق متنوعة ، وما العرافة المهمة سوى إحدى هذه الطرائق ، ولا يرتقي
الشك الى نجاحاتها خلال القرون السادس . غير ان الانبياء في الشطر الآسيوي من العالم اليوناني ،
هم غالباً من الرجال ، بينما هم كثيراً ما ينتمون الى النساء في الشطر الآوروبي : ففي كلاروس في
ايونيا يتصرف الكاهن تصرف العرافة في دلفي . فيمكن بالتالي ان تفسر بعض المراسم ، على
هذا الصعيد ، كمظهر من مظاهر تيار ديني قديم تأصل في القرن السادس وقبل به الآغريق أخيراً
بعد ان لطفوه بعض التلطيف .

أما الإله الذي كثيراً ما رافق اسمه فن العرافة هذا فهو أبولون الذي لا تقع مراكز الهاتفين
بالغيب باسمه تحت عذ أو حصر . وفي أواخر القرن السادس ، داعت شهرة بعضها حتى بين
الشعوب البربرية ، فيستشير الملك الليدي كريسوس عدداً منها ويعترف داريوس الأول بان أبولون
« قال للفرس الحقيقة الكاملة » . وبين هذه المراكز التي كان أبولون سيدها ، تمثل دلفي أشهرها
فحسب . وهو قد طرد منها بالقوة إلهة « الأرض » الكريتية . ولكنه اضطر لان يفسح في
معبده مكاناً متعظماً لديونيسوس . ولا ريب في ان هذه الشراكة قد خدمت نفوذه الذي بلغ
الأوج قبيل الحروب الميدي . غير انه لم يستخدم هذا النفوذ على الصعيد السياسي او انه اساء
استخدامه . أما على الصعيد الديني فكان هذا النفوذ أكثر فعالية بتنظيمه للعبادات والمراسم أو
باطراء الطهارة الجسدية ، منسجماً في هذا مع الأورفيوسية . وقد تطرق الى الصعيد الاخلاقي
نفسه ، فعبرت النصوص الظاهرة في معبده عن بعض اصول الحكمة ، كما ان هاتفي الغيب ، في
بعض الحالات ، يوصي باحترام اليمين وتأدية واجبات الضيافة .

ولكن كل ذلك لم يدم طويلاً . فلم يلبث عمل هتافات الغيب ان انحصر في النطاق الزمني .
وسيفتضي للديانة اليونانية تطوراً روحي آخر كي تصبح قابلة لان تنفذ اليها النظريات الاخلاقية .

لم تعرف الحياة الفكرية ، لزمان طويل ، طريقة تعبير ثابتة غير الشعر . فالوزن
يسهل الحفظ عن ظهر القلب . واذا افترضنا ان الكتابة عرفت قبل اعتماد
الايجدية المشتقة عن الایجيدية الفينيقية ، فان استعمالها لم يترك أي أثر ولم يتح له الشبول إلا في عهد
متأخر نسبياً . ثم ان هنالك مصطلحات ، بعضها ديني على الأقل ، قد لعبت دورها ، وهي

تتراءى في بعض الاوزان الشعرية الخاصة وفي استعمال لغة صنعتية وصيغ كلامية ، لا سيما في اقدم القصائد الشعرية عهداً ، أي الملحمة .

يمثل هذا الشعر الملحمي عظمة اوائل العهد القديم .

فهناك أولاً هوميروس بل بالأحرى القصائد الهوميروسية . فالتقليد اغنى بالمناقضات حول الشاعر الذي نسبت اليه من ان نستطيع ان نستخلص منها فارقاً واحداً لا عدة فوارق . ثم ان التشريح الذي اخضعت له هذه القصائد منذ اكثر من قرن ونصف لم يقض بعد الى نتائج اجمع عليها العلماء . « فالقضية الهوميروسية » ليست وشيكة الحل والحالة هذه . غير انه يبدو من الامور المفروغ منها ان الالياذة والاوديسة عبارة عن قصائد مجموعة مكرسة في الأصل لحوادث متفرقة ومختلفة ومؤلفة على حدة . ويصح ذلك بصورة جليئة عن « غضب اشيل » في الالياذة و « عودة اوليس » في الاوديسة مثلاً . ومن المفروغ منه ايضاً ان هذه القصائد قد مضى عليها زمن مديد وادخلت عليها بعض التحويرات ، قبل ان تجمع في كتاب واحد ، كما ادخلت عليها بعض التحشيات حتى في تاريخ نشرها في اثينا ، رابر المستبدن ، في النصف الثاني من القرن السادس . وفي ما عدا ذلك فالخلاقات القائمة بين الاختصاصيين كثيرة جداً ، ولكن القسم الاكبر منهم في الوقت الحاضر يعتبر ان الملاحم ، في جوهرها ، قد صبت في قالبها في القرن الثامن ، على ان الالياذة قد سبقت الاوديسة بخمسين سنة تقريباً . ولكن مها يكن من أمر هذه الارتياحات ، فانها لا تتال من صنعة العمل الذي يعود الفضل فيه ، باستثناء بعض القطع الرائعة ، الى الجامع أو الجامعين . ففي الملحمتين انتظمت الحوادث التي غلب عليها التشويش في البدء ، حول شخص وعمل : اوليس نفسه يروي اسفاره ، وماسفاراته سوى تحضير لمأساة ثأره النهائية . واذا ما اضفنا الى ذلك ان الملاحم الهوميروسية تنطوي على ديانة وميثولوجيا اضيفت عليها سحرها الشعري ، وتحدد علماً اخلاقياً أو أقله مثلاً بطولياً للانسان ودستوراً للأدب والانس والمجامة ، نرى كيف انها ، حتى آخر التاريخ القديم ، استطاعت توفير أساس تربوي لفتيان الاغريق .

أما هيزيود ، في أواخر القرن الثامن ، فوجه واضح الخطوط لا يمكننا وصفه بالتاريخي لان واحداً من الشعراء الاغريق لم يمش الحياة المتواضعة القاسية التي عاشها بعيداً عن القصور . وهو قد اعتمد اساليب وأوزان الشعر الهوميروسي ولكن بذهنية اخرى وببساطة تخيلته على معطيات الواقع اليومي ومعطيات التقوى الراسخة : فلم يكن أدب مدن آسيا وقصور العظماء ، لا ولا السخرية الباسمة ليعرفا سبيلاً الى مسكن هذا الفلاح المتواضع الذي يبالغ في التردد الى المعابد المجاورة . ولعل ما يحرّك منا الشعور فيه هو فظاظته الخرقاء نفسها ، بالإضافة الى اهتمامه للأخلاق والعدالة ، وثقته بالآلهة لضبان قصاص الأشرار ، واستجارته بالخرافات لتفسير وجود الشر على الارض ، ومواعظه الحازمة في سبيل عمل الانسان وواجبه وكرامته . وفي

« نسب الآلهة » ، حيثة يحاول تنظيم تسلسل الآلهة ، بعض هذه الآراء والنظريات . ولكنها تبرز مجموعة بشكل أكلي جفاء في كتابه « الأعمال والايام » . وقد عرف الفلاح في هذا المؤلف المستعذب على ما فيه من خشونة ، ان يبقى ريفياً على الرغم من تجليه شاعراً ومهذباً ، ووصف جهود المالك الصغير وارشاداته التقنية ومعتقداته وخرافات واضطرازه لان يوفق بين حياته وقوى الطبيعة .

نشأة الشعر الغنائي ونضارته
اصيب الشعر الملحمي بذبول سريع . ولكن شعراً آخر قد نشأ حاملاً ، في الوقت نفسه ، طابع الموسيقى الشرقية وطابع فردية الاغريق : الشعر الغنائي .

أما بصدد الموسيقى ، أدوات وأنغاماً ، فالعلائق بليديا التي هي نفسها وريثة فريجيا ، كانت حاسمة بلا مراء . واذا نسب الاغريق هذا او ذلك من الاكتشافات الفنية لبعض مواطنهم ، فليس من شأن ذلك ان يخفي واقع استعارات تقدمتها بلا ريب متروكات الحضارة الكريتية . وقد استقر كل ذلك في التركة اليونانية بدخوله في طقوس الاحتفالات الدينية . اما الغناء الجوقي الذي ترافقه الرقصات والحركات الايقاعية التي تقوم بها فرق من الرجال والفتيات والاولاد فلم يلاق في أي مكان ما لاقاه من اكرام واعتبار في سبارطة . وغدت الموسيقى مادة اولية في منهج تربية الفتيان الاغريق ، حتى سن الثلاثين احياناً .

وبالإضافة الى ما اوجده الاغريق لشعرهم الغنائي من اوزان كثيرة ، فقد اقدموا على تسخيره للتعبير عن مشاعرهم الشخصية ولا تتواءم التهمين ولتوجيه التهم لغيرهم ولحاولة الظهور دونها حياء وللتغني باحقادهم واهوائهم وآلامهم وافراحهم . واوجدت ، منذ القرن السابع ، المراتي والاناشيد والقصائد الانتقادية خاضعة باستمرار للتكسيف والتكسيف ، فنظمها شعراء عديدون لم يصل الينا منهم ، لسوء الحظ ، أية قصيدة كاملة . وقد لجأ المشرع صولون الى الشعر لدعم عمله السياسي والاجتماعي ، وأفرغ ثيوغنيس الميغاري جام غضبه شعراً ، ووجدت سبارطة في بعض الاجانب أفضل شعرائها في حقل التربية المدنية . بيد ان غالبية الشعراء الغنائيين ، الذين ولدوا أو عاشوا في مدن آسيا الصغرى أو في الجزر ، تغنوا بافراح وحرارة الحياة الشهوانية التي فتحتها فيها ثروة الشرق القريب منها . وأشهر هؤلاء الشعراء هم ألقيا والشاعرة صافو الميتيلينيات في أوائل القرن السادس اللذان لا يعرفان لضبط النفس من معنى ولا يتقيدان في هيجانها بمصطلحات أدبية قاهرة : فصافو تتظاهر بشهوة معثرة منذ التاريخ القديم ، ويمجد ألقيا موت مستبد مكروه ينداء الى معاقرة الحمر .

نشأة العلم والفلسفة
كان الشرق اليوناني اذن مهد الشعر الغنائي ، وكان أيضاً مهد العلم والفلسفة . كانت الحضارات الشرقية السابقة ، أقبله بصدد العلم ، قد جمعت المواد الأولية . ولا ريب في ان الاغريق استعاروها عنها . فان ايونيا ، حيث ظهرت هذه الانظمة

العقلية ، كانت على اتصال بكافة الشرق . وقد أهلها موقعها الجغرافي لان تطلع على جميع تحقيقاته . فمن طريق ليديا التي خدم ثاليس الميلي سيدّها ، لا عن طريق رحلته الى مصر فقط التي ينسبها اليه التقليد ، تمكن من معرفة علم الفلك وعلم الحساب اللذين اشتهر بهما كهّان بلاد ما بين النهرين . واذا ما عدنا بالذاكرة الى هؤلاء ، لن يدهشنا ان يكون ثلّياً بكسوف الشمس الذي حصل في ٢٥ ايار من السنة ٥٨٥ . ويمكن القول نفسه عن التقنية ايضاً . ويعزى الى ثاليس انه اشرف على حفر احدى الترع لتجفيف مسيل احد الانهار . وبنى مهندسو ساموس رصيفاً في البحر بلغ ٣٦ متراً ارتفاعاً و ٣٦٠ متراً طولاً لتوسيع المرفأ في الجزيرة ، وحفروا قناة لجر المياه بلغت ١٠٠٠ متر طولاً . ولكن هذه الاعمال الباهرة التي بدت للاغريق وكأنها معجزات لا تصدق سبقتها منذ زمن بعيد اعمال ماثلة في الشرق . ولم تكن الطرائق التقنية المعتمدة ، من حيث مبدأها على الاقل ، اكتشافات بالمعنى الصحيح . اما التجديد الحقيقي فهو انصرافهم ، بمجهود منطقي ، الى مباشرة تنظيم هذه المعارف علماً مجرداً . فحيث لم يتجاوز الشرق التجربة والاختبار ، ولدت الهندسة مع ثاليس ، كاقيل ، فدفع بها بيثاغور الى الامام ، اذا لم يكن هو نفسه قد اكتشفها ، وأوجد في الوقت نفسه علم الاعداد .

ولم يكن دور الايونيين في الفلسفة اقل اهمية . وكان يمكنه الشرق هنا ايضاً ان يوفر لهم بعض الشيء ، اي نظرياته في تكوين العالم التي انطلقت جميعها من مبدأ اولي بغية تحليل خلق العالم . ولكن المبدأ ، وفاقاً لتعليم هذه النظريات ، لم يتميز عن الاله ، كما لم يتميز الخلق عن ظهور آلهة آخرين . اما فضل الايونيين فهو انهم واجهوا المعضلة نفسها منعقلين من الفكرة الدينية ومستندين الى عقلهم فحسب . ولكن قد يصح ان يقال في هذا العقل الذي لم يزل بعد في عهد الفتوة انه انما يسكر من تلهيته بنفسه . فحاول ثاليس وتلميذه اناكسيمندروس واناكسينوس اكتشاف ابدأ الواحد الذي ادت تحولاته الى ولادة الاشياء والكائنات . واقترح بعدهما هيراكليت الافسي ، وهو ايوني ايضاً ، عنصراً اولاً هو النار ، ولكنه اضاف الى نظريته هذه فكري الصراع الدائم والتطور المستمر . وقد ذهب بعض الايونيين الى ايطاليا الجنوبية ينشرون فيها تعاليمهم ، فأسس كسينوفانوس الكولوفوني ، الهارب من السيطرة الفارسية ، مدرسة ايليا ، كما اسس بيثاغور الساموسي ، الذي رفض الخضوع للاستبداد ، ندوات للتلاميذ في مدن خليج طارنتا حيث استمر تعليم نظرياته حتى القرن السادس .

اما شهرة بيثاغور الطويلة فيفسرها غنى مذهبه حيث رافق تعليمه حول النفس وتساوب تجسدها - التقمص - علم اخلاقي وقانون حيائي ، بينما كانت فلسفته ، في سعيها لاكتشاف سر الكون الذي وجدته في تناسق الاعداد ، مثاراً للابحاث العلمية . ولكن حتى ولو لم تنش طويلاً مدارس الفلاسفة الايونيين الذين لم يفرقوا بين بحوثهم وبين العلم الذي انقطعوا اليه ، فانهم اول من اطلق الفكر اليوناني وشق الطريق امام اقداماته المقتلة .

اولوية الفكر اليوناني
 أصبحت الحياة العقلية عند الاغريق ، منذ آخر العهد القديم ، احدى حياة عقلية في العالم المتوسطي . ولم تكن اية حضارة شرقية حينذاك لتتمكن من الاتيان بشيء حي جديد تنافسها به . كان كورش الاخميني قد طلب طبيب عيون من فرعون مصر ، ولكن خلفه الثاني داريوس قد احتفظ في بلاطه بالطبيب ديموسيديس الكرووني الذي سبق وتنازعت مدن يونانية عديدة والذي توسط لديه ، بعد ان شفاه من التواء في مفاصله ، خدمة للاطباء المصريين المحكوم عليهم بالتعذيب تكفيراً عن جهلهم . فيتضح من هذه الروايات ان انتقال الاولوية منذ ذاك العهد قد غدا محتوماً .

انزل الاغريق الشرقيين عن عروشهم ولكنهم لم يهملوا الاستفادة من اختباراتهم واكتشافاتهم ؛ لابل انهم سيستمرون زمناً طويلاً في الافادة منها ، بقدر تمكنهم من اقتنان معرفتها . ولكنهم يتجهون فيها نهجاً آخر مستيرين العقل البشري ، بقيادة منطقتهم القطري ، في الطرق الجديدة التي تترامى امام فضولهم النهم . وليس من اتفاق الصدق ان يظهر ، في العهد نفسه وفي ايونيا نفسها ، علماء الجغرافيا والتاريخ . ولا يزال هذان العلمان متعثرين ومليئين بالاماطير عند واضعها ، « النافين » الذين كانوا اول من اقدم على التخلص من الايقاع الشعري . ولكن احدهم ، هيكاته الميلي ، قد وضع المبدأ التالي : « اكتب ما يلى لانني اعتبره حقيقة » اذ يبدو لي ان روايات الاغريق المتعددة جدية بالسخرية . فاذا كان فضله لا يوازي فضل مواطنيه العلماء والفلاسفة ، فانه ، باسناد ابحاثه الى النقد كما اسندوها الى العقل ، انما يشق الطريق نفسها امام خلفائه .

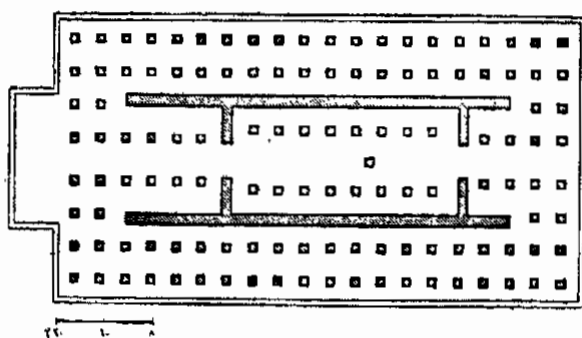
يصح القول نفسه في الفن الذي انتهى ، خلال هذا العهد ، الى ايجاد طرائقه الهندسة المعمارية وتأمين نموه المقبل .

تنحصر الهندسة المعمارية القديمة في المبد ، باستثناء بعض التجهيزات الصغيرة — الينايبع والاقنية وتزين الاماكن العامة والشوارع — في المدن المتوسطة المشيدة دون تصميم سابق . ويشق المبد ، المصمم كسكن للإله ، اشتقاقاً مباشراً من الميفارون الميسيني: سقف ذو منحدرين وأعمدة امامه وقاعة في الوسط يوضع فيها التمثال . ولكن قياساته قد تجسست منذ القرن السابع بعد ان اعتمد الحجر مادة للبناء . فأحيط بصف من الأعمدة وزيد على طوله بحيث تخصص في آخره مذخرة للكنوز ، وزيد في عرضه ايضاً بحيث اسند السقف الى صفوف من الأعمدة .

فهل من اثر للشرق في مجهود التوسع هذا الذي لم يبلغ حد الضخامة ؟ ان اليون ، على كل حال ، يبقى شاسعاً جداً . ومن الافضل ان نفكر بالحري بازدهار المدن وتفاخرها وتقاسفها . فإغريق الغرب لا يعترفون بأية افضلية لاغريق الجزر والساحل الآسيوي ، لا سيما وان معرفتهم بابنية الشرق الضخمة نفسها لم تكن لتؤثر فيهم . وفي هاتين المنطقتين المتقابلتين من العالم اليوناني ،

تقاربت قياسات المعابد المشيدة حينذاك : ١١٢م × ٥٦ م في ساموس و ١١٣ م × ٥٤ م في سيلينوتته من اعمال صقليا . وقد حدث احيانا ان بعض المعابد لم يكتمل بناؤها أو تأخر وقتا طويلا بسبب نفاذ الموارد المرتقبة . اما اليونان الاوربية فلم تسوغ لنفسها هذه القياسات ، فاكثفت الاستبداد الاثيني ، على الرغم من رغبته في التظاهر بالقوى والقوة ، ب ١٠٨ م × ٤٤ م لمعبد زفس الاولبي الذي أسسه والذي لم يكتمل تشييده إلا بعد ذلك بستة قرون ونصف القرن .

لقد برهن الاغريق على كل حال ، في حساب القياسات لأدق عناصر المعبد ولإحكامها ، عن شعور بالانسجام والتوازن بلغت الانظار ولا يتوفر لغيرهم . الى ذلك العهد يعود قيام « النظامين » : الدوري والايوني . ويتصف الاول بأنه أقل تكلفا وأكثر نقاء واداء ، ويحتفظ



الشكل ٢١ - معبد اركميس في افسس

شرع في تشييد هذا المعبد الكبير في القرن السادس .

اسم الملك الليدي « كريسوس » في الاتفاق عليه . ازدهان بالنقوش ٣٦ عموداً من اعمدته المائة والسبعة والعشرين.

في الحجر بذكرى الخشب ؛ عموده لا يرتكز الى قاعدة ويعلمه تاج بسيط جداً ؛ وفوق صف الاعمدة ، تمثل المجموعات الثلاثية التجويف تنوء روافد الصحن المعترضة ، وتمثل اللوحات الرخامية المنقوشة المسافات الجوفاء التي تفصل بينها . أما النظام الايوني فأوفر زينة وأكثر أناقة وتجميلاً ، كما يليق بمنطقة اشتهرت حضارتها بالرفقة والذوق ؛ عموده أكثر رشاقة ويرتكز الى قاعدة ويعلمه تاج منقوش نقشاً حازوني الشكل ؛ ويمتد فوق صف الاعمدة افريز طويل يتسع للنقش . ولكن مهما كان النظام ، فقد قامت نسبة دقيقة بين قطر العمود وارتفاعه وفي غلظه الهدب وعدد تجويفاته المستطيلة والمسافات الفاصلة بين الاعمدة . فكل شيء في المعبد اليوناني يخضع ، منذ اواخر القرن السادس ، لحسابات دقيقة يحورها مهندس متمكن في آت واحد من علم الحساب ومن دستور للذوق على بعض التجرد .

أسهمت النقاشة مع الهندسة المعمارية في تزيين المعبد . فقد وضع هذا الاخير امام النقاشة النحات مساحات حجرية يجب تزيينها بالرسوم . ومن الشذوذ عن القاعدة ما حدث في افسس ، عند إعادة بناء معبد اركميس الذي حرص كريسوس على الاشتراك في اكلافه ، من

تربين قسم من الاعمدة بتقوش نائفة في قاعدته السفلى . فان هذه الطريقة ، المستوحاة مباشرة من الشرق ، لم تعرف الشمول . ولم يفسح المعبد اليوناني مجالاً للتقوش إلا في أمكنة حددها تصميمه الهندسي نفسه . فاتفق النظامان على ان يكون هذا المجال جهة المعبد المثلثة الامامية وجبهته المثلثة الخلفية وآثروا ، بالتفضل على التقوش النائفة ، وضع تماثيل لا ترى ظهورها أمام الجدار الداخلي . اما في الامكنة الاخرى فقد وجب استعمال التقوش النائفة : فأفسح لها النظام الدوري مستطيلات لوحاته الرخامية والنظام الايوني افريزه الطويل .

وضعت الجبهات المثلثة واللوحات الرخامية الفنان امام مشكلات دقيقة بسبب قياساتها المزعجة . فحيال الجبهات وجب عليه ان يوفق بين التقوش وبين الزاويتين الجانبيتين الحادثتين جداً ، مما فرض عليه الانتقال التدريجي من الاشخاص الواقفين في الوسط الى الكائنات النائمة او الزاحفة . وحيال مجموع اللوحات الضيقة وجب عليه تصميم مشاهد صغيرة تملأ المساحة ضمن الاطار دون ان تتخطاه . فيمكننا والحالة هذه تتبع جهود النقاشين الذين كانوا مترددين خرقاً في البدء ثم استخلصوا من الصعوبة نفسها قوانين الهامهم وفنهم .

اما حيال افريز الايوني فكان عمل النقاشين اكثر سهولة لان المساحة تتسع لاشخاص عديدين . ولكن وجب عليهم توزيعهم دون تشويش وفقاً لموضوع عام ، وتوزيع الأوضاع والمشاهد دون ضرر بالفكرة العامة . فتوصلوا الى ذلك بعد جهود ناشطة مستوحين ، من جهة ثانية ، طريقة الرسم على الآنية الذي استلزم هو ايضاً توزيع المشاهد في عصابات دائرية . ومنذ الربع الثالث من القرن السادس ظهرت في «منخرة» معبد دلفي ، التي شيدها اهالي « سيفنوس » القائمة على جزيرة والغنية بمناجها الذهبية ، مشاهد ميثولوجية وبطولية عظيمة ، كصراع الآلهة والجبابرة او كاجتماع الآلهة الاولمبيين لتتبع تطورات معركة امام طرواده . وتستمر معالجة هذه المواضيع على افريز المعبد حتى العهد الهليني نفسه . وتبدو الأوضاع منذ ذلك الحين بتنوعها ، والدالة العائلية فيها — يد تلقى على ركة زفس ؛ ابولون يلتفت الى شقيقته اركيس التي تلامس كتفه بيدها — وفنتتها وطبيعتها ، خليفة بالمعهد الكلاسيكي نفسه .

اما صناعة التماثيل المستقلة عن البناء فقد كانت هي ايضاً مرتبطة بالديانة لان كل المواضيع التي عاجلتها تحمل طابع الديانة وتمثل الآلهة ومقدمي القرابين والحيوانات الرمزية . وقد تاملت في البدء على الفن الشرقي ، ولا سيما المصري ، الذي اعتمدت بعض مصطلحاته ، فبرز خرقها في جمود الأوضاع وفقدان النسبة الصحيحة في القياسات . ولكن النجاحات ، في هذا الحقل ، كانت حاسمة ايضاً . فتمحروا الفنانون من الانقياد للتقليد دوناً توغل في الحركة العنيفة ، اذ قد حالت دونها الديانة وحسبهم المهرف بالنبل والتناسق . غير ان الجسم لم يخضع لقاعدة التناسب ، مع ان درسه التحليلي الدقيق ، الذي سهّل ميل الى العري فرضته التمارين الرياضية ، قد اتاح بروز العضلات تحت الجلد . ثم دبت الحياة في الوجه رويداً رويداً ، فانتهى وقار التماثيل الدورية

الاولى وتصنع التماثيل الايونية وتكلفتها وابتسامتها المفنجة احياناً الى الانصهار في التعبير عن مشاعر رقيقة يهتز لها الناظر .

كان نتاج هذه المرحلة التفتحية القصيرة ، في النصف الثاني من القرن السادس وفي السنوات العشر الاولى من القرن الخامس ، غنياً جداً بالتحف المختلفة . وقد اختلفت آراء الاختصاصيين حول نسبة هذه التحف الى فئة معينة ، وحول المكانة التي تحتلها فيها . فكان ان اسهمت حدة الجدل في ذبوع شهرة عدد كبير منها ، لا سيما بعد الاثر الذي احدثه اكتشاف كثير من القطع الاصلية - بينا هي نادرة جداً في العهود اللاحقة نفسها - اثناء اعمال التنقيب في قلعة اثينا ودلفي وديلوس : فكان لأعمال « البرابرة » هنا نتائج خيرة . ولا ريب من جهة ثانية في الاثر البعيد الذي تتركه ، على كل حال ، نشأة فن عظيم يفوز ، في اقل من قرنين ، بالسيادة الفنية ويحقق ارتعاش الحياة . ومن حيث ان هذه التحف ، البديعة احياناً ، اكثر من ان تعد وتستعرض فاننا نكتفي بالاشارة الى روائعها التالية : اللبوءات الذابطة المنتصبة على قوائمها الامامية الضخمة والمصطفة خطأ مستقيماً في رصيف على مقربة من بحيرة ديلوس المقدسة ؛ ابو الهول في دلفي الذي اجثمه « الناكسيون » في اعلى عمود يبلغ عشرة امتار ارتفاعاً ؛ أحصنة افريز مذخرة سيفنوس واللوحات الرخامية في مذخرة « سيكيوني » أو اللوحات الرخامية في سيلينونته حيث نصّب الهوبليت الأثيني ، اريستيون .

سفة تنصر اذن على ايجاز تطور طرازين من التماثيل لا نغالي اذا قلنا عنها ، بقطع النظر عن مصادرها ، انها لم يتميزا عن الحضارة اليونانية ولن يتميزا عنها . وقد رأى بعضهم مرة اخرى في تضادهما ، التضاد القائم بين الدورية والايونية . ان هذا التضاد قائم بالفعل في النقاشة : تصميم أوفر منطقاً وتقشفاً وخشونة من جهة ، وأناقة اكثر لباقية ومزيد من التخشن من جهة ثانية . ولكن ، بصرف النظر عن نسبة هذه التحف التي تثير الشكوك ، لم يقم بين فرعي الشعب اليوناني الرئيسيين حاجز فاصل محكم : فالفنانون كانوا ينتقلون حيث يُطلبون والمزارات التي قصدها الاغريق من كل حذب وصوب كانت توفر الالتقاء والتجاور . وان هذين الطرازين وما عرفاه من ازدهار متواز ليرتبطان في الحقيقة بجوهر الحضارة اليونانية المشتركة .

فالطراز الاول هو الشاب العريان ، الـ « كوروس » . فهل هو ابولون ، أم مصارع مثالي ، أم مصارع معين ؟ لا فرق . انه يوناني بعريه التام ، على الرغم من الطابع المصري الذي يميز التحقيقات الاولى . ويمكن تتبع تدرج اكتماله في واقعه التشريحي ورشاقة قوامه ورقة عواطفه . في البدء - شأن الارغوسيين كديويس وبيتون ، وما مثالا حب والالدين في دلفي - كان الجسم ربة والكتفان كتفي حمال والذراعان قصيرين والبطن اصطلاحياً والركبتان كذلك ، والساقان مشدودين والعينان بارزتين . ثم دب في الحياة وتليّن وتقنى ، ففقدت تنوعات عضلاته خطوطها الهندسية كما فقدت مفاصله ما فيها من تبسيط ودخلت عيناه في

حجاجيهما ، واستميض عن الابتسامة الجامدة ، على شفاه « المراهق الأشقر الاثيني » وفي نظره ، بنوع من الحزن الحالم .

أما الطراز الثاني فهو المرأة المتحففة التي أفضت الى مثال الـ « كورا » . وكان هذا الطراز قديماً ، كما يتضح من مثال « سيدة أو كسير » المعناة أو إلهة ساموس ، « هيرا » ، بلباسها الطويلة المشدودة التي تتخذ ، مع ذلك اشكال الانحناءات في الصدر وفي الظهر . ولكن الانوثة تبرز بقوة وتنتصر بغلبة ثم تعتدل حياء في وفرة تماثيل الفتيات التي انتصبت في قلعة أثينا منذ القرن السادس . غير ان نجاحاً نهائياً قد أحرز ، يؤيده علم يتقدم تقدماً مطرداً ، أعني به علم اشكال الجسم التي يتهدل على استداراتها الموزونة الـ « بيلوس » الطويل أو الغلالة القصيرة . ولكن هنالك علوماً أخرى لا تزال تتمتع في تردددها . فكان الاهتمام بالزينة الزاهرة يفرض غنج الحضاب ، وتنوع الألوان في الالبسة وأقسامها المطرزة ، واحكاماً معقداً في مطاويها المتضادة الانحناءات ، والغنى في الحلى . ثم تنظّم هذا الاهتمام ، فغدت الالبسة اكثر تواضعاً في اللون والزينة ، وزاد فيها التهدل ، وقلّت المطاوي ، وخفّت تجعد الشعر ، وأصبح الزي اقل صخباً منه في أيونيا . وحدث التبدل نفسه في الوجه حيث انخفضت الوجنتان وزالت الابتسامة المسيرة وحل محلها تحفظ « الحاردة » الوقور ، التي يرجّح انها غير حاردة ، على كل حال . فليس بعد من أمر مشكل : حتى ولو كانت هذه التماثيل مصممة بغية تمثيل الفتاة كنموذج للجنس اللطيف ، فإن لكل مثال ، مع ذلك ، شخصيته الطبيعية والأدبية .

وهكذا فقد يكون الشرق الذي ساعد الخطوات الأولى ، قد وجّهها ايضاً . ولكن النقّاش اليوناني ، بتحريره جسم وروح الـ « كوروس » العاري ، وجسم وروح الـ « كورا » التي سينتهي خلفاؤه بتعريفها ايضاً ، قد قسام بعمل يفوق مجرد تحمين التقنيات القديمة : فهو ، شأن الفيلسوف والعالم ، قد خضع لمثل أعلى جهله الناس تحت سماءات أخرى .

طراً على صناعة الخزف ايضاً مثل هذا التطور الهام والحاسم . ولم يكن في صناعة الخزف الحقيقة ليتاح إلا للمعجزة تطوير زخرف هذه القطع السريعة العطب والمصنوعة من مادة حقيرة ، اذا نحن لم نعتبر ان الاهتمام التجاري ، حياها ، منذ ان تمت العلائق البحرية ، قد رافق الاهتمام الجمالي . اما نتيجة الابتكار ومراعاة الذوق العام والتأثير عليه باستباقه أحياناً ، فكانت ، في اسوال النجاح ، زيادة في المبيعات وخسارة للمنافس .

لم يعرف القرنان التاسع والثامن هذه المشاغل لأن التصدير ما زال خلالها على نطاق ضيق . غير ان وحدة العالم اليوناني قد ظهرت مع ذلك في المبادئ الزخرفية المشتركة : كان ذلك عهد النمط الهندسي . ولا يمت هذا النمط بأية صلة الى التبسيط الذي تسيطر فيه الاضلاع المنحنية كما درج في آخر العهد الكريتي وفي العهد الميسيني ، ولكنه يذكّر بوشى تتداخل فيه الخطوط والزوايا بحيث لا تترك مكاناً خالياً منها . أما روائعه فهي الأواني الكبيرة العائدة الى مقبرة

ال « ديبيلون » في أثينا ، التي تتعاقب على بطونها ، بين الخطوط المتقاطعة والمعينات والمثلثات واشكال الساعات الرملية والخطوط المعوجة والصلبان المعقوفة ، مشاهد لاشخاص عديدين ، مبسطين عن قصد لا عن خرق ، يتصفون بطول الساقين وتحافتها وبقوام الزنابير وجذوع مثلثة الزوايا ، ولأحصنة قوائمها شبيهة بقوائم الجراد الكبير وأعرافها منتشرة ثليات .

ثم ظهر ، في القرن السابع ، « النمط الاستشراقي » المعاصر لازدهار أبونيا وللأواصر الوثيقة بشرق غني بالزخرف التزييني وبالحيوانات والمخوخ أيضاً . فعالج الرسامون على الفرين المواضيع التي عالجها نقاشو المعادن على الذهب والعاج ، وهي مواضيع نباتية كالبردي والمان ، وخطوط متشابكة ورسوم وردية الشكل وخطوط حلزونية ورسوم سفية الشكل ، وكلها مشتقة من الجذوع والازهار . وهي مواضيع حيوانية أيضاً بعضها خيالي كأبي الهول والعنقاء المغربية والتنين والحسان المجنح وبنت البحر ، وبعضها واقعي كالأسود والثيران والكلاب والخنائير البرية والأوعال والوز ، وكلها منقولة عن تقاليد الشرق الخفية ، فرسنت بخطوط واشكال أنيقة توافق نخيلة شعب لم تبد له الحياة نخيفة مهما كان من قساوتها . وما لبثت رسوم الاشخاص ان تسربت تدريجياً الى هذه المواضيع . فبرهن الخزافون الكورنثيون بنوع خاص ، عن مهارة كبيرة بإبرازهم في هذا الفيض الزخرفي بإظهارهم في اوضاع متنوعة ويمجهم في مشاهد مستوحاة من الميثولوجيا ويجفروا حول رسومهم التي يصفون عليها بعض النتوء بواسطة بقع وخطوط حمراء أو بيضاء . وهكذا سيطرت الخزفيات الكورنثية ، منذ أواسط القرن السابع حتى أواسط القرن السادس ، على اسواق حوض البحر المتوسط ولا سيما الاسواق الإيطالية .

بيد ان الاولوية انتقلت اخيراً الى أثينا ، المدينة بذلك الى فنانين متميزين بالاتقان والحذق والابتداع . ويعود أشهر نجاحاتهم الاولى ، « اناة فرنسوا » ، الى السنة ٥٦٠ تقريباً ، وقد رسم عليه ، في عصابة دائرية يبلغ محيطها مترين وارتفاعها ستين سنتيمتراً ، مائتان وخمسون شخصاً ناشطين في اعمالهم وموزعين على مستويات مختلفة بتنوع مدوخ . ويرمز اكتشاف هذا الاناء في اثروريا الى نهوض أثينا بمنافسة كورنثوس منذ هذا التاريخ . ولكن نجاح هذه المنافسة المستند اساساً الى الطريقة الكورنثية ، قد تركز على قاعدة اثبتت متانة حين استخدمت ، منذ السنة ٥٣٠ تقريباً ، طريقة جديدة فرضت نفسها تدريجياً ، الا في نواحي اختصاص معينة . فبدلاً من الاشكال السوداء البارزة امام خلفية حمراء ، اعتمد البرنيق الأسود للخلفية واللون الاحمر للرسوم التي امكن ايضاح التفاصيل عليها بالوان اخرى . ثم اصبحت المواضيع في الوقت نفسه اكثر انسانية : فظهرت ، الى جانب الاساطير ، المشاهد العائلية والاعمال ومشاهد الحياة اليومية في الحقل والمدينة والريف . وهكذا احرزت اثينا اولوية ستدوم طيلة العهد الكلاسيكي .

هنالك اوان لم ترين باي زخرف وقعها الخزاف الاثيني ، في المكان اللائق ، يزهو له

ما يبرره . وما لا ريب فيه ان تقدم الصناعة الفنية بلغت النظر بتناسق ونبل وبراعة الخطوط الخارجية وبميزة انواع البرنيقي المشتملة . واذا ما ابتدأنا به إناه فرنسوا « قبل غيره » نرى ان الرسامين لم يترددوا في كتابة اسمائهم على مصنوعاتهم كما درج النقاشون على ذلك ايضا . ان توقيعهم لرمز صغير ولا شك ولكنه ذو مغزى رفيع : فالفنان يشعر بفخار بفرديته ويعبر عنها . يستلهم موضوعه بحرية ويحققه بأساليبه الخاصة لا بأساليب تقليد مفروض . وفي الواقع اخذت بعض الشخصيات « منذ ذاك الحين » تثبت اقدامها في هذا الفن السريع الذي يوجب ملاحظة دقيقة ويدأ بارعة على السواء . وليس من اتفاق الصدق ان يتوصل هذا الفنان المتحرر الى تحرير حركات الانسان الذي يرسمه والقاء الضوء على حالته النفسية ، بوضع حركة او خط من خطوط الوجه .

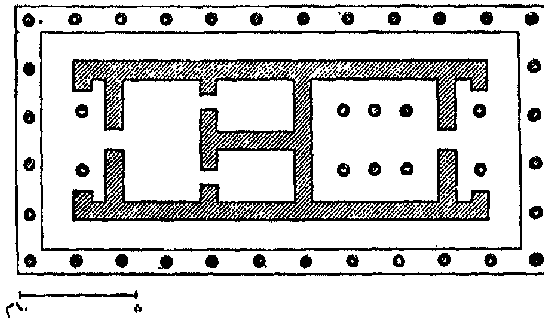
شق العهد القديم اليوناني اذن ، في كل نطاق ، الطرقات امام الكلاسيكية التي مراكز الاشعاع ستليه . ولم يتوفر لاية حضارة ، حتى ذاك التاريخ ، ان تسير ، بمثل هذه السرعة ، في رحاب تطور على هذا الشول ، كما لم يتح لاية حضارة ايضا ان تحصر بمثل هذا التفوق ، وبنجاحاتها الخاصة ، نجاحات المستقبل القريب : لم ينته شيء الى الكمال بعد ، ولكن اسس الكمال قد وضعت .

لم تتساو اجزاء العالم اليوناني في الاسهام بهذه التغيرات البعيدة القعر ، كما لم تتساو في الافادة منها . ولا تزال اكثر من منطقة ، في اوائل القرن الخامس ، جامدة في تأخرها ، قابضة في وديان لا يصل بينها غير مسالك البغال ، بعيدة عن التيارات الفكرية الجديدة . ولعب غيرها ، بفضل اتصال اوثق بالعالم الخارجي وظروف اكثر مؤاتاة وخدمات بعض الافراد ، دورا متفاوتا هامة واستمرارا . ولنجمع الآن حول بعض الاسماء ، يميزا واستنتاجا ، بعض المعطيات المعثرة هنا وهناك في الصفحات السابقة . فمن شأن هذا التلخيص السريع ان يبين بوضوح مظهراً آخر من « المعجزة اليونانية » لا يقل اهمية عن غيره ، اعني به تنوع الجهود ، اي الحيوية والتلاحم ، في شعب لم يحل قفنته السيامي ولا منافساته الاقتصادية دون وحدته المعنوية . وقد سبق لنا ان اشرنا اكثر من مرة ، بهذا الصدد ، الى عمل المستبددين الشخصي ؛ وعلى الرغم من ان اغريق العهد الكلاسيكي قد جحدوا ذلك وتكبروا له ، فان ما تدين به الحضارة اليونانية لبايعيها الاول ، في غير اشكالها المادية ، لعظيم جدأ . ولكن عمل المستبددين هذا ابعد من ان يفسر كل شيء لان مرحلة الحكم الاستبدادي لم تطبع بطابعها كافة المدن الهامة ، كما ان بعض المدن التي سيطر عليها هذا الحكم ، لم تحن منه اية فائدة ثقافية . فترانا هنا ، اذن ، مها كان من تفوق الافراد ، امام واقع آخر هو اتحاد الشعب .

لعبت دورها ايضا المعابد التي شملت شهرتها اليونان : اولمبيا ودلفي لمجموع العالم اليوناني ، وديالوس للابونيين . فقد اسهمت هذه المزارات بقوة ، كما رأينا ، في نشر العاب القوى والموسيقى والشعر الغنائي . وكان هنالك علم اخلاق اشتهرت به دلفي قرظه سقراط نفسه ، كما ان مؤلفين قدامى

كثيرين قد رأوا في أبولون العرفاء أحد المفضلين على الانسانية . وكان هنالك خاصة ، حول آلهة هذه المعابد ، تنافس المدن التقوي ، وقرابينها وابتيتها المختلفة ، التماثيل والاعمدة والمذابح والمذاخر ، بشكل معابد صغيرة ، التي شيدتها هذه المدن داخل الاسوار المقدسة . فقدت هذه الاسوار وبقيت ، حتى اليوم الذي هدمت فيه ، متاحف لم تتقابل فيها السخاوات فحسب ، بل الاذواق والمواهب ايضا . وعلى هذا الصعيد ، غدت العبادات اليونانية الشاملة سببا فعلا ، مباشرا او غير مباشر ، من اسباب تقدم الهندسة المعمارية والنقاشة .

بين مجموعات المدن الاقليمية ، في هذا العهد ، يجب ان نحلل ايونيا في المرتبة الاولى . فكل شيء قد ساعدها لمدة طويلة ، لاسيا قربها من الشرق . فكانت بوتقة سكب الايونيون فيها من أنفسهم واخرجوا منها مزيجاً مضطرباً طرقوه وكيفوه لاستخدامات جديدة .



الشكل ٢٢ - معبد الهيكاتومبيدون في قلعة أنثيا
يبلغ طول المعبد القديم (المشار اليه بالون الأسود) مائة قدم ، ولذا أطلق عليه اسمه . وسعة أبنائه
ببسيما تراوس بإحاطته بالاعمدة .

اما في النطاق الفني ، فان اسهام المدن في صقلها وفي ايطاليا الجنوبية يوازن اسهام المدن الآسيوية . فكان النمط الدوري في الهندسة المعمارية والنقاشة ، من حيث الحياة والصفاء ، شبيها به في البلوبونين نفسها . وتوجد اهم مصنوعات الميزة في بوزايدونيا (بيستوم) عند مدخل مقاطعة كيبانيا ، وفي سيلينونته على الشاطئ الجنوبي من صقليا . ولكن الغرب اليوناني ، خارج نطاق الفن ، لم يزل ، في اواخر القرن السادس ، في مستهل توسيع مكانه في الحضارة اليونانية ، فاقام فيه مؤسسو مدارسه الفلسفية الآتون من ايونيا .

وماجر كثيرون في الوقت نفسه من ايونيا الى امكنة اخرى ، لان العهد الذهبي لليونان الآسيوية كان قد زال عند نهاية العهد القديم . ودخلت ايونيا في سبات عميق بعد الفتح الفارسي اولا ، بعيد منتصف القرن السادس ، وبعد قمع ثورتها ثانيا ، في اوائل القرن الخامس ، الى ان يقظتها انتصارات الاسكندر . ولكن اليونان البلقانية كانت خليفة بان تحل محلها .

كان النشاط قد دبّ فعلا في اليونان البلقانية . وليس باستطاعتنا هنا ان نحصي كافة المدن التي احتلت مقاما محترما في المجهود المشترك ، مع انه كتب لبعضها التواضع الدائم ولبعضها الآخر اللحطاط والسقوط . فعلى الرغم مما يحيط بشهرة البيوسيين من ازدهار مهين ، فقد كانوا يملكون سلسلة تماثيل ابولونية في معبد « ابولون بتوريوس » ، كما كان لهم « بنداروس » ايضا الذي تعود اقدم « عرافاته » ، اكراما لاحد النبلاء التساليين ، الى السنة ٥٠٠ تقريبا . اما سبارطة التي سيغدو اسمها في وقت قريب مرادفا للشدة والحياة الضجرة ، فلم تنكشف على نفسها قبل منتصف القرن السادس . فحتى ذلك التاريخ استقبلت الشعراء واستدعت المهندسين والصياغ الايونيين وشيدت الابنية المبكرة ؛ وهي ستحافظ دائما على اعيادها التي تحييها بالرقص والغناء الجوقي . وكان في سيكيوني وفي ايحينا اختصاصيون في صناعة البرونز ونقاشون مشهورون . اما كورنثوس ، وان كانت صبغتها اليونانية اقل صفاء بسبب الروابط التي شدتها الى الشرق ، - بعض السراري المقدسات تكررمن فيها لخدمة افروديت - فقد كانت لها صناعتها الخزفية ايضا . وليست هذه الاسماء سوى قليل من كثير غيرها ؛ فلم يكن لليونان عاصمة ثقافية بعد .

مرّد ذلك ان اثينا كانت حديثة العهد في هذا المضمار . فلم يدفعها الى الامام دفعا حاسما سوى الاستبداد الذي ساعدته في عمله هجرة الايونيين اليها في اعقاب استتباب الأمر للسيطرة الفارسية على آسيا الصغرى . فلبسيسستراتوس واولاده يعود توسيع معبد الـ « هيكاتومبيدون » القديم ، وتقدم صناعة الخزفيات التقي وانتشارها ، وتنظيم اعياد ديونيسوس ، ومباريات المأمي التمثيلية ، وتماثيل الفتيات العارية في قلعة اثينا ، ووضع النص النهائي للملاحم الهوميروسية . وبعد ابعاد آخر بيسستراتوس في السنة ٥١٠ ، لم تحدد المدينة من وثبتها الى الامام بل وجهتها فقط في اتجاه اكثر استقلالا عن الطريقة الايونية واكل انقياداً لها ، لاسيا على صعيد النقاشة حيث برزت مرة اخرى الحشونة الدورية . ولكن كل هذه الدلائل عديمة القيمة والاهمية لمن لا يقف على التطور اللاحق . فلا مجال بعد ، في آخر العهد القديم ، للكلام عن سيادة اثينا الادبية .

فحتى تتركز الحضارة اليونانية نهائيا وتقف في وجه الحضارات الشرقية ، وحتى تغدو اثينا مركز هذه الحضارة دون منافس ، يجب ان تحدث ازمة الحروب الميديّة .

الكتاب الثاني

المدينة اليونانية والانسان

حضارة اليونان الكلاسيكية (القرنان الخامس والرابع)

الحروب المديدة صراع بين عالمين خافا غماره على غير تساو . فالامبراطورية الفارسية لم تعي له كل قواها ، على الرغم من انها استهدفت من ورائه غير التوسع الاستعماري . اما اغريق شبه الجزيرة فقد وعوا وعياً تاماً ان مصيرهم يتقرر فيه . ولا يقالي أسشيل *Eschyle* حين يطلق هذا النداء الحار ، في يوم سلامين : « يا ابناء الاغريق ، اذهبوا ؛ حرروا الوطن ؛ حرروا أولادكم ونساءكم ومعابد آلهة آبائكم واجداث جدودكم ؛ فانما القتال يقرر اليوم كل شيء » .

مهما يكن من الامر ، فان طرفي هذا الصراع امبراطورية واسعة الأرجاء من جهة ، ومدن غاية في الصغر من جهة ثانية ، عقدت بينها حلفاً سطحياً فرضه الخطر المداهم مسالبت ان تفكك غداة نصرها الذي يتحدى كل منطق . ومهما يكن من الامر ايضاً ، فإن حضارتين تتقابلان : الاولى عشاء مع ان الجرح الذي أصابها ليس ببليغ ، والثانية تسير قدماً في وثبتها التي تتصف بالمزيد من القوة والسرعة .

انتصرت اذن المدينة اليونانية . فما عساها فاعلة بقوتها ؟ أو ما هي ، بتعبير آخر ، علائقها بالانسان ؟ ان الجواب النظري عن هذا السؤال لا يرقى إليه شك : تحالف المدينة والانسان في سبيل تعاون متبادل على السراء والضراء ، في تنمية متوازية . ولكن المعضلة في معرفة مدى مطابقة الواقع لهذا المبدأ النظري .

الفصل الأول

الشواثب الداخلية في الحضارة اليونانية المنصرة

انتهت الحروب اليونانية بانتصار عسكري أتاح تفتح الحضارة
مندوحة الحضارة اليونانية
اليونانية الكلاسيكية . ويبدو التطور طبيعياً لنا نحن الذين
نستقريء البراعم من خلال الثمار الناضجة التي احتضنتها هذه البراعم أملاً ووعداً . وكان من شأن
انتصار الفرس ، لو قيَّض لهم الانتصار ، ان يجمّد هذا التطور ، لا بفعل تعسف يلجأ إليه
خلفاء كورش عن قصد وعمد ، بل بمجرد ارتباط الاغريق بامبراطورية واسعة الأرجاء
يحكمها سيد اجنبي ، وبفعل الصعوبات البدئية التي كان من الطبيعي ان يوجد لها وضع لا يقوى
اليوناني على تحمله . ويكفي ، للاقتناع بهذا الرأي ، ان ننظر الى مصير اليونان الآسيوية خلال
سبعين سنة تقريباً. خضعت فيها للامبراطورية الفارسية التي فتحتها في منتصف القرن السادس .
فهي قد كانت ، حتى هذا التاريخ ، مركز الحضارة اليونانية المشعّ ؛ وحافظت بعده ، في
المرحلة الاولى ، على بعض الحيوية والازدهار ، أقله في بعض أجزائها . ولكن ما لبثت اوارها
أن انطفأت ، بعد ثورتها التي قمعها الفرس بكل شدة . وسيصبح من المهم عليها ان تنتظر
الاسكندر حتى تنهض من الضربات التي كملت لها حينذاك . وما كانت اليونان الأوروبية
لتعرف مصيراً آخر ، لو انها غلبت على امرها في سلامين وبلاطيا . فإذا كانت ، على الرغم من
حريتها ، قد مزقت نفسها بنفسها بفعل جزع كياناتها المتحاسدة ، فكيف نتخيل ما كانت
ستسببه السيطرة الأجنبية فيها من هزات وأضرار وتقتيل .

أما وقد نجت اليونان من خطر الاستعباد ، فاتها استعادت وحدة نطاقها العنصري ، غداة
الانتصارات الحاسمة التي أحرزتها في الحرب الميدية الثانية . فانتزعت من الضغط الفارسي القسم
الساحلي الأهل بمواطنيها في آسيا الصغرى . وعاضدت هؤلاء في أسواق البحر الأسود وأطاحت

لهم التوصل الى نوع من الاتفاق على الأقل مع سكان روسيا الجنوبية الأصليين . وساندت انتصار الزعماء المصريين على الملك الفارسي ، إذ ان انكسار المصريين لم يمنع مصر من ان تبقى مستقلة علياً . ومن ان تفتح ابوابها للتجار والرحالة اليونان . اما في المتوسط الغربي فلم يتدخل اغريق اليونان نفسها بقوة السلاح ، ولكن المستعمرات المؤسسة في العهد السابق قد توفقت ، على الاجمال ، الى ابعاد خطر الاعداء عنها . فردة المستبدون في سيراكوزا هجوم الساميين القرطاجيين على صقليا منذ السنة ٤٨٠ وهجوم الاترويين (الايتروسك *Etrusques*) بعد ذلك بزمان قصير في كمبانيا . واستطاعت مرسلها ان تؤسس أسواقاً تجارية جديدة في سواحل غاليا واسبانيا ، أو ان تعيد تأسيس القديمة منها . فحافظت الحضارة اليونانية في كل مكان ، ان هي لم تتوسع بعد ذلك ، على أهم ما بلغته وحصلته ، وأبعدت عنه الخطر الاجنبي المداهم . واستعادت في كل مكان حرية حركاتها واستطاعت ، في القرن الخامس ، ان تتطور وفقاً لسنة مصيرها الخاص .

لم يخل مصير الشعب اليوناني ، بابعاد الخطر الاجنبي ، من الشوايب الداخلية . الحرية والفساد
فبعد أن ترك الاغريق وشؤونهم ، نوا أنهم مدينون الى اتحادهم بانتصاراتهم في الحرب الميدية الثانية . وبرهن السبارطيون الذين تسلموا ، باقفاق الرأي ، زمام القيادة العليا في اليونان البلقانية ، عن عزوفهم او عجزهم عن استثمار الانتصارات التي قادوا اليها ، خدمة للخير العام . ف وقعت الوثبة الجسورة التي تقاعسوا عنها ، في آسيا الصغرى ومصر واليونان ، على كاهل الاتيين خصوصاً الذين حلتوا محلهم بعد خورهم . أما في صقليا وايطاليا الجنوبية ، فإن سيراكوزا ، بعد ان خاضت المعركة الحاسمة ، لم تتوان قط عن متابعة السير فيها حين دعاها الواجب الى ذلك .

بيد ان هاتين المدينتين ، أثينا وسيراكوزا ، انهما أعطتا درساً في العمل الجاهد وكرسا له خيرة قواهما ، فإن غيرتهما على الخير الجماعي لم تكن منزومة وبجردة عن الغاية . فهما ، يجرهما وراءهما المدن التي يستهويها الصراع ، وبتخريب المدن المستعبدة ، وبمساندة تلك التي يهددها الاجنبي ، انما استهدفنا جمعها تحت ادارتها لابل ، قريباً ، تحت امرتها . فأستأمر بطوريات ونزعنا دائماً الى بسط المزيد من السيطرة عليها . فحلت محل السيطرة الأجنبية الزائلة سيطرة اخرى هي يونانية ولا شك في ذلك ولكنها تتناقل ويصعب تحملها يوماً بعد يوم ، بعد ان ان غلبت صفة التلقائية على الالتفاف الاول العام .

وحاولت مدن عديدة ، على نطاق اكثر تواضعاً ، ان تحقق لنفسها الخاصة ما حاولته أثينا وسيراكوزا على نطاق واسع . فالحلافات حول الحدود ، والاحقاد بين الجيران والحسد التي انتهت أحياناً الى تصمم على التدمير ، كل ذلك لم يكن جديداً في العالم اليوناني . ولم يتوصل الخطر المشترك نفسه أحياناً لخلق هذه المشاعر ، فما عسى الحال ان تكون بعد ان زال هذا الخطر . لقد خلا الجو لمناقشات لا يمكن التكفير عنها .

استهدفت المدن اليونانية جميعها ، كبيرة كانت أم صغيرة ، مثلاً أعلى واحداً ، هو الحرية . ولكنها فسرت هذه الحرية ، في آن واحد ، كاستقلال شخصي تام يفتت هذا الاتحاد الذي ، لولاه ، خضعت لسيد أجنبي ، وكحتى في التصرف بوحى احقادها وفي ارواء غليل أطباعها من مدن يونانية اخرى . وسيكتب احد المؤرخين اليونانيين فيما بعد ، ما يلي : « لا أدري كيف ان البلوونيزيين ، وهم اكثر الناس ميلاً الى حياة هائلة انسانية ، كانوا في الماضي دون غيرهم تنعماً بهذه الخيرات ؛ ولكنهم ، كما يقول « اوريبيد » خاضعون أبدأ للأعمال الشاقة والرمح في يدهم » . وأفضل تحليل في نظري هو انهم يهون كلهم السيطرة والاستقلال ، حتى انهم لا ينقطعون عن التعارك بعنف في سبيل النفوذ . ولا يصح هذا التفسير في البلوونيزيين فحسب ، بل في كافة الاغريق ايضاً . « فاستهوا النفوذ والاستقلال » ، اي هذه الرغبة في امتلاك ما تريد ان نحرم منه الغير ، هو احدى الميزات الرئيسية في سياسة المدن اليونانية ، واحدى الميزات التي طبعت الى حد بعيد حضارة هذه المدن في القرنين الخامس والرابع .

حالة الحرب حالة طبيعية كانت النتيجة المحتمنة حروباً متعددة دائمة . فنذ مستهل القرن الخامس حتى السنة ٣٣٨ ، قضت اثينا اكثر من ١٢٠ سنة في الحرب من أصل مائة وأربع وستين ، أي اكثر من سلتين من أصل ثلاث . ولم تعرف ، خلال هذه المدة ، فترة سلم تعدت العشر سنوات .

لا شك في ان مثل اثينا قد يبدو خاصاً ومفرطاً اذا انها ، بتسلم قيادة الصراع ضد الفرس ، وبتأسيس امبراطوريتها ، قد تعرضت لشتى الخصومات واضطرت لقمع الانتفاضات . ولكننا نرى ، اذا ما اخذنا الدور السياسي بعين الاعتبار ، ان هنالك نزعة عامة ماثلة على الاقل ، اجل ، ليست هنالك بعد حروب تفرض على المدينة تعبئة جميع امكاناتها البشرية والمادية . فالمعارك لا تحصل عادة في فصل الامطار ، وكثيراً ما يقتصر الجهود الاثيني على تسليح خمسين مركباً حروبياً تقريباً وارسالها لمدة اشهر الى البحر . ولكن هذا الجهود المحدود نفسه يؤدي عملياً مع ذلك الى تجميد هذه الطاقة وتدميرها البطيء ، أو السريع ، بفعل المخصصات التي تمنح الى عشرة آلاف بحار تقريباً يسحبون من نطاقات عملهم المنتج .

تقوم هنا اذن عقبة كاداء في سبيل النمو الطبيعي للحضارة لم تكن الطبيعة سخية عليها ، على كل حال . فقد كرتس الاغريق للتقاتل فيما بينهم قسماً كبيراً من القوى التي توصلوا الى تأمين استخدامها الحتر . ودفعوا بذلك ثمن الاستقلال الذي ما كانوا ، لولاه ، ليحققوا امكاناتهم الكامنة . ولكن هذا الثمن نفسه قد حال دون تحقيقها كلها او دون تحقيقها على النحو الضروري لتلقين الانسانية درساً فكرياً وفنياً ابهى من ذاك الذي لقنوها اياه .

لما كان الحزب هذا المركز الهام في حياة الاغريق ،
الحروب : الاساليب والحشائر بالارواح
اصبح من الواجب علينا ان نتصور ما كانت عليه حينذاك وكيف تخاض وما هي النتائج التي أدت اليها .

يجب الانغالي في ما تجر اليه من خسائر بالارواح . فلم يكن يمكن اية دولة يونانية ان تخوض هذه الحروب الطويلة لو ان هذه الخسائر بلغت ، بالنسبة للسكان ، الخسائر التي تبلغها الحروب المعاصرة . وليس مرد ذلك الى فقدان آلات التفتيل ، اذ ان القتل بمجد السيف أو بإسلحة الرشق ، ولو كان بطيئاً ، ليس بالضرورة عملية محدودة . فالسبب الرئيسي انما هو مفهوم المعركة وكيفية خوضها من جهة ، وعجز الدولة ، من جهة اخرى ، عن تجنيد كل الطاقات البشرية التي تستطيع نظرياً ان تتصرف بها .

ولكن يجب استثناء الحرب البحرية . فالرجال الذين يخاطرون فيها بحياتهم أوفر عدداً على وجه العموم ، لان البحارة ، وهم بالدرجة الاولى جذاфон لا عدة لهم ، يجندون من الطبقات الاجتماعية الدنيا . ثم ان المركب الحربي المعتمد في هذه الحرب مركب ذو ثلاثة صفوف من المجاذيف يمح البحر برشاقة ، وقد زود في مقدمته « بمهز » بروزي يحاول البحارة بواسطته شق مركب الاعداء . واذا ما حصل ذلك ، يغدو ركاب المركب المبقور في الماء لا زوارق نجاة لديهم ولا امل عندهم سوى التعلق بالحطام العائم . واذا قدر لهم النجاة من القتل بضربات المجاذيف ، يتركهم لصيغهم كل من الهاربين على غير هدى المغلوبين على انفسهم ، والمتنصرين الذين يعنون ، أول ما يعنون ، برفاقهم الاحياء والاموات . واذا ما هبت ربح هوجاء ، كثيراً ما تحدث الكارثة حتى للأسطول المنتصر الذي تتعطل مراكبه وتتحطم مجاذيفه وينهلك بحارته فيذهب طعمة للعناصر الشائرة . فالحرب البحرية والحالة هذه اقل من الحرب البرية .

طيلة الشطر الاكبر من هذا العهد ، ووفقاً لسنة المعتقدات الدينية والشرف الحربي ، كما تشتت عليه خصوصاً الدولة العسكرية الاولى ، لا كيديون ، نظر الاغريق الى الحرب نظرهم الى المباراة . لا ريب في ان تصادم جيشين متواجهين صفوفاً متعددة على سبيلتين متوازيتين يسفر عن ضحايا كثيرة بفعل عناد المتحاربين وشجاعتهم التي تشيد بها الكتابات المدفنية والخطب .

ولكن ما ان تحرق الجبهة ويختل توزيع الجنود المشتركين في المعركة حتى يولّي المغلوب هارباً ، بينما لا يحاول المنتصر مطاردته . فعلى المنتصر الباقي في ساحة المعركة واجبات اكثر الحاحاً من استثمار النصر استثماراً عسكرياً سريعاً : عليه ان يشكر للآلهة نصرته وان يقوم نحو الاموات بالواجبات الاخيرة . فكما ان المصارع الرياضي الفائز يكرس تاجه للآله ، كذلك يعبر الجيش المنصور عن شكرانه بالاناشيد وتقديم الضحية وجمع اسلحة العدو افتخاراً بالغلبة ، ويجمع جثث موته ويحتفل بيجنائزهم احتفالاً يليق بنهايتهم البطولية . وعلى العدو ، اذا سلمت نيته ، ان يخضع لحكم الآلهة ويعترف بكسره ويلتزم هدنة لمجمع موته واستلامه .

ولكن هذه الاساليب غير ذات فعالية . فاهاربون يلجأون الى اقرب مركز محصن يستطيعون الدخول اليه ويتجمعون فيه ويستعيدون قواهم بسهولة ، لا سيما وان الوسائل التقنية في ذاك العهد لا تسمح بفرض حصار قوي وان أقل سور يوقف افضل الجيوش طيلة اشهر كاملة . ويعتمد

المحاصر عملياً على الجماعة بنوع خاص ، عندما لا يجد خونة يسلمونه قسماً من السور . أجل قد تستنفد مؤن المحاصر ، ولكن مؤنه تستنفد ايضاً ، ولا مجال للاستعاضة عنها بحصيلة غزو الارياض المجاورة . وتنتشر الاوبئة بين الجنود المسكرين في الهواء الطلق . ويقترب فصل الامطار أو تشق النجذات طريقها الى العدو . فيتوجب رفع الحصار ، اذا كان قد فرض ، ويجب العودة على البدء في السنة التالية .

يتضح ان حرباً على هذا الفرار ليست على الاجمال دامية جداً . اما ما شذ منها عن هذه الوثيرة وعمل في قلب المعاصرين ، فمرده الى ظروف خاصة . من ذلك ان الاثينيين منوا بنكبة في صقليا في السنة ٤١٣ ، لان الجيش الذي قادوه حتى سيراكوزا لم يتمكن من النزول الى البحر للعودة الى اليونان . ومن ذلك ايضاً ، في السنة ٣٧١ ، ان اربعمائة مواطن سبارطي من أصل سبعةمائة مجند ، ومن أصل ألفي رجل باقين على قيد الحياة ، قد استبقوا باجمعهم في لوكترا ضناً منهم بالشرف القومي الذي يحظر عليهم الحرب والاستسلام .

بيد ان تحولات جذرية سبق وطرأت على الحرب اليونانية في لوكترا وحتى قبل ذلك في السنة ٤٢٤ في ذيليون حيث أفضى هوبليت أثيني من اصل سبعة آلاف . وتزداد هذه التحولات وضوحاً مستمراً في القرن الرابع الى ان تصبح إلزامية في أيام فيلبوس المقدوني وابنه الاسكندر بنوع خاص . فيضمحل إذ ذاك التقيد بالمصطلحات التقليدية أمام الرغبة في فعالية تؤمن النتيجة . فتثبت المناورة المرنّة تفوقها على تصادم جبهتين متواجهتين ؛ وتقضي أحياناً الى التطويق ، أي الى تدمير قسم من الجيش المكسور في ارض مكشوفة . ثم يطارد الفرسان الهاريين بعنف ويقضون عليهم او يمنعونهم على الأقل من جمع شملهم . واعتدت فيما بعد الآليات الضخمة المثقنة التي استخدمها دونيس السيراكوزي لأول مرة ضد القبطاجيين فأناحت فتح ثلم في الأسوار ينقض منها المهاجمون .

استهدفت المعارك البرية منذ ذاك التاريخ لا اثبات التفوق على العدو فحسب ، بل ابقاء قواته المنظمة ايضاً ، فكانت النتيجة ان منى المغلوبون بخسائر بالارواح أفدح منها في السابق . ففي خيرونيا مثلاً خسر الأثينيون ، وكان عددهم عشرة آلاف تقريباً ، ألف قتيل وألفي أسير ، مع أنهم لم يحملوا عبء المعركة الثقيل . ولكن الحرب ، بتحولها الى تصادم حاسم يجعل أحد طرفي النزاع تحت رحمة الطرف الآخر ، قد أصبحت بالفعل نفسه بالغة السرعة : لم يمض شهران مثلاً على الاعمال الحربية مع أثينا ، وسنة على الاعمال الحربية مع طيبة ، حتى استطاع فيلبوس ، بعد انتصاره الخاطف في خيرونيا ، فرض سلطته على اليونان بأسرها . ولذلك يجوز القول ، بعد كل حساب ، ان حملة عسكرية منفردة ، في حرب هي احدي مراحلها ، قد تؤدي بالنسبة للحرب كمجموع الى خسائر اكثر فداحة .

الحرب : قانونها وديناميها
تسبب الحرب ، مع ذلك ، المزيد من الدمار والويلات الفظيعة . عرف القدماء وطبقوا قانوناً يقضي بنقل السيادة المطلقة الى المنتصر

بمجرد انتصاره . وحين قام الخطباء الاثينيون يناقشون فيليبوس ويزعمون التمييز بين واقع الاحتلال والحق الشرعي بالملكية ، لم تنطل مغالطتهم على احد . وليس هذا التمييز ، اقله فيما يعود للأرض ، بتقديم العهد في حقوق الشعوب المعمول بها حالياً . غير ان الملكية في التاريخ القديم تعدى الارض نفسها : فالمنتصر يغدو السيد بمجرد انتصاره ويصبح له الحق بالتصرف المطلق بالاشخاص والممتلكات المادية في البلاد التي يحتلها ، بكنته التقتيل والهدم والحجز والاستهلاك والبيع على هواه . ومن حقه المشروع تقويض الابنية واحراقها دونما عذر أو حجة ؛ ولا يحذر به ان يحترم سوى الممتلكات المقدسة لان الآلهة يعاقبون الكافرين . اما الكائنات البشرية ، فمن حقه المعترف به ، نظرياً ، ان يفنيها دونما تمييز بين جنس وجنس وبين سن وسن . بيد ان فظاعة مثل هذا التقتيل الذي لا يحجر اي مغنم تحول دون الاقدام عليه . ولكن استعباد المغلوبين طريقة أقل شذوذاً يسهلها وجود تجار يلحقون بالجيوش ويشترون الاسلاب ، بما فيها الاسلاب البشرية ، ويؤمنون نقلها الى اسواق خاصة . ويعني هذا العمل بوضوح ايضاً ، من حيث المبدأ ، حق الناصر الكامل على كل ما استطاع الاستيلاء عليه من اشخاص واشياء .

أما عملياً فنادرأ ما يطبق قانون الحرب هذا بمخالفته . فالمدن المفتوحة عنوة ، بعد مقاومة طويلة اوغرت صدر المحاصرين غيظاً ، هي ضحايا الحروب العادية ، وقد سبق ورأينا ان عددها ليس بالعدد الكبير . ولكن هذا القانون واقع قائم ، ويكفي ان يلجأ اليه احد المتحاربين حتى يحتذي به الثاني ، عند أول فرصة ، ثأراً وانتقاماً . وهنالك ظرف واحد على الأقل يطبق فيه هذا القانون بصورة عادية ، اعني به ظرف اسرى الحرب الذين ينتظرهم الاستعباد كصير طبيعي . وليس سوى اقامة السلم ما يتيح لحكومتهم تحريرهم بتبديل الاسرى ، أو لاهاليهم واصدقائهم بمحاولة اقتنائهم بالمال . واذا ما فكرنا بفدية الاسرى التي استمر العمل بها حتى القرن الثامن عشر ، لن تدهشنا هذه الذهنية كثيراً . وعلمنا ان نعيد لهذا القانون مفهومه النظري غير المحدود وتطبيقه العملي الواسع جداً ، حتى نقف على مدى الوبلات التي سببتها الحرب في العالم اليوناني الكلاسيكي .

بيد ان المحارب الذي يبقى في منأى عن الغزو لا يمتنى بخسائر كبيرة نسبياً ، مع انه يعرض بصعوبة عن نفقات جيشه ولا سيما عن العجز في الانتاج بسبب فقدان اليد العاملة المجندة . اما المغنم فالقسم الاكبر منها يبذر تبذيراً ، ويجب ان يقطع من القسم الباقي القربان الواجب تقديمه للآلهة الذي تزيد من اهميته ، يوماً بعد يوم ، رغبة في النفوذ والدعابة . ونادرأ ما تنتهي الحرب بالربح من الوجهة المالية . وان تصبغ الحرب صفقة رابحة مثلاً إلا بقيادة الاسكندر ، الذي ينقلها الى بلاد مزدهرة يحكمها يكتزون الاموال . فسبارطة التي طالما احرزت الانتصار تلو الانتصار لم تكس الثروات قط ، وكل ما حققته من هذه الانتصارات انها استطاعت تأمين الاتفاق على جنود جيشها الذين هم مواطنوها ، دون ان يقوموا الى جانب الجندية باي عمل مأجور . ولم تستطع اثينا كذلك ، بعد قمعها ثورة ساموس ، ان تستعيد ما انفقته ، على الرغم من تعويض

حرب فرضته عليها واستوفته طيلة خمسة عشر سنة تقريباً . أجل ، قد اتاحت لها قوتها من جهة ثانية ، تأسيس امبراطورية غذت خزائنها وأثرت تجارتها . ولكن هذه الامبراطورية لم تعمر طويلاً . اما الاراضي التي يمتاحها العدو فتعاني الأمرين . وليس نصيب الارياض ، على الصعيد المادي ، سوى نهب المحاصيل أو اقتلاعها وتحطيم الأشجار المثمرة وتدمير الابنية . اما في المدن ، حيث يلتجئ الفلاحون وراء التحصينات ، فتفتك الاوبئة والجراثيم بالسكان ، حتى ولو لم يتعرضوا في النهاية لهجوم المحاصرين . ثم ما هي المدينة اليونانية التي لم تتقلب عليها الحرب في يوم من الايام يا ترى ؟ فقد اضطرت سبارطة نفسها ، التي طالما تباهت بأنها تنقل الحرب الى البلدان الاجنبية وبأن اسوارها الوحيدة هي صدور ابناؤها ، ان ترضى صاغرة ، بعد هزيمة لوكترا ، بأن يحتاج الطبيبون اريافها الحصبة حيث يحرق الصعاليك اراضي مواطنيها . ولذلك يمكن تلخيص مأساة اليونان الكبرى بأنها لم تستطع ، بسبب الاعمال الحربية المتكررة ، تأمين الاستقرار الهانئ لفلاحها .

التجنيد : مبدأ رواق
كان فلاحو اليونان ، من جهة ثانية ، قوام محاربها ، اقلته في الجيوش البرية . فقد حافظ جيش المشاة ، كما سبق ورأينا ، على مكانته كملك المارك التي احتلها في العهد القديم . وكان الهوليت أبدأ الجندي المثالي في هذا الجيش ، يجند ، بصورة خاصة ، من طبقة المالكين الصغار الذين يزاولون بانفسهم حراثة اراضيهم .

لا ريب في ان مبدأ الخدمة العسكرية للمواطن ولكل رجل يقيم في مسكن ، حتى الاجنبي ، كان مقررأ ومعترفأ به في كل مكان . فكل رجل سليم البنية اذن قابل التجنيد . وكانت من الممكن بالتالي ان تنظم جيوش اوفر عدداً وان تشمل التعبئة النبلاء انفسهم في حال فرضها على كافة الطبقات الاجتماعية . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث عملياً بسبب رسوخ التقاليد وعجز المدن في الموارد المالية .

استلزمت الخدمة المجدية في فرق الهوليت المشاة تربية عسكرية سابقة وعدة حربية . وكانت هذه العدة ، بالاضافة الى ذلك ، من ثقل الوزن بحيث يصبح من المرغوب فيه ، لا بل من الضروري أحياناً ، ان يعاون الهوليت خادم شخصي ، يغلب ان يكون عبداً ، في حمل اسلحته اثناء المسير وفي تحضير وجبات طعامه . وقد استلزم كل ذلك حداً أدنى من أوقات الفراغ والبعبوحة مكنته من توفير بعض المال ومن تحمل بعض التضحيات المالية المباشرة وغير المباشرة . ولم تكن المدينة لتساعده في الظروف العادية ، عامدة ، بسبب فقرها ، الى رواسب المبدأ القديم الموروث عن الدولة الارستوقراطية الذي يوجب على المحارب شراء اسلحته وتحمل نفقات غذائه نفسها في أغلب الاحيان . وقد كان من الضروري انقضاء عدة عشرات من السنين ، بعد الحرب الميدية الثانية ، حتى تقدم أثينا ، اكثر المدن ديموقراطية ، على اعطاء مثل لم يتبعه غيرها إلا ببطء ، في التمويض جزئياً ، بمعالجة يومية ، عما يتحمله جنودها من نفقات

وعما تحرمهم خدمتهم من ربح . ولكن دولة واحدة لم تفكر يوماً بالتعويض على الفتيان أثناء مرحلة تمرينهم المختصر على دورهم العسكري المقبل ولا بالمساهمة في شراء العبد المعاون ، حتى ولا في تأمين العدة للهوبليت ، إلا في حالات الخطر المداوم التي تضطرها الى تبني أكبر عدد من المحاربين . وإنما سبارطة وحدها حلت هذه العضلة المالية حلاً غير مباشر بأن أمنت لمواطنيها امتلاك الأراضي وخدمة الصماليك ، بفضل فتوحاتها وأجهزة أمنها .

يستنتج من ذلك ، أن الفقير مدعو لخدمة وطنه كجنداء في الاسطول البحري أو كجندي في فرق المشاة الخفيفة مزود بعتة بدائية . فهو لا يملك المال اللازم للحصول ، لا على الرمح والسيف فحسب ، بل على الخوذة والدرع والترس والسهم التي هي قوام عدة الهوبليت . وهكذا فإن طبقة صغار المالكين تمثل على العموم الطبقة الوسطى التي تقدم أوفر عدد من الجنود الى جانب المدن حيث يفضي النشاط الاقتصادي الى إيجاد طبقة من ذوي اليسار .

امام هذا الوضع ، لم يرَ فيه بعض المعاصرين ، ولا سيما الفنين منهم ، سوى الحسنات دون غيرها . ودرج التسليم بأن الفلاحين الناعمين بملكية بعض الأراضي يقدمون افضل الجنود . فمن الناحية الجسدية ، تحسن الحياة الريفية اجسامهم وتدريبهم على التعب والاسفار الطويلة والعيش المتقشف ، وتحميهم خفتهم بممارسة القنص . ومن الناحية المعنوية يشرك امتلاك الأراضي المصلحة الخاصة بالمصلحة العامة . فالذي لا يملك شيئاً يذود عنه لن يحارب بعنف من يخاطر ، ليس بشخصه وعائلته فحسب ، بل بالملكات التي توفر له الحياة في الاستقلال الاقتصادي والتي يشده اليها العناء الذي يبذله في سبيلها يومياً . ومن شأن قانون الحرب واعرافها ، وهي أشد صعوبة على الريفيين منها على المدنيين ، ان تجعل الفلاح يمي بسرعة حقيقة ما يدور حوله الصراع . « تدفع الارض الفلاحين الى الذود عن بلادهم بقوة السلاح لان ثمار حقولها تحت رحمة الاقوى ... لتفترض ان الاعداء يغزون البلاد ولتقسم الفلاحين والصناعيين الى فئتين ولنسأل هذه الفئة وتلك على التوالي عن رأيها في الدفاع عن البلاد المنبسطة أو في التخفي عن الارياف والمحافظة على الاسوار . في هذه الحال ... لا شك في ان الفلاحين يقرعون للدفاع عن الارض ، وان الصناعيين يقررون العزوف عن الحرب والاستمرار في عطلة تعودوها في منأى عن المتاعب والمخاطر » .

من شأن هذه التأكيدات التي ينسبها كسينوفون الى سقراط ان تثير ابتسامة من يعين التفكير . كل حضارة مدبنة لعاداتها وحالتها الاجتماعية وتقنياتها أو مفاهيمها العسكرية بشال للجندي لا تترد في مقابلته بضده . فيقابل الجندي بالفلاح ، والبربري بالمنحط ، والفارس بالمشاة السجين ، والابن الضال بأبي العائلة ، والاختصاصي في الآليات بالصناعي المتمرن . وهي أبداً تجعل من هذه المقابلة مبدأ تبسّم وراء نقلة الى الصعيد الادبي . فكسينوفون يقتصر على اعطاء شكل منطقي لما كان في إمامه واقعاً راعياً فقط : فلاحون من ذوي الاملاك الصغيرة يقدمون القسم الاكبر من الجيوش اليونانية التي كانت في غالبيتها نوعاً من « الميليشيا » المدنية . اما سبارطة فلا ينطبق

عليها هذا القول ، لان مواطنيها جنود مهنتهم الجندية من حيث انهم لا يحوزون الارض ولا يمارسون اية مهنة اخرى على كل حال . ولكن نسبتهم تتدنى رويداً رويداً حتى تصبح قلة نادرة في الجيوش التي يطلق عليها اسم « السبارطية » والتي هي في الواقع جيوش بلوبونيزية مشكلة من فرق المدن الحليفة او التابعة التي يغلب فيها العنصر الريفي . وهذا يعني انه لم يكن باستطاعة اية دولة يونانية ان تعتمد جيشاً كافياً من المتهنين . ولذلك فكل الدول مضطرة للجوء الى الطبقة الوسطى من مواطنيها ، أي الى فلاحها الاشداء القادرين على التسلح وتحمل مشاق الحملات العسكرية والمستعدين لبذل حياتهم ذوداً عن ممتلكاتهم ووطنهم على السواء .

غير ان هذه الطبقة ، والحالة هذه ، هي التي منيت بافدح الخسائر في الارواح ، لابل ان تكرر التجنيد ، بفعل تكرر الحروب ، قد اعاق هؤلاء الفلاحين الصغار في استثمار اراضيهم ، لاسيما وانهم اعجز ماليًا من ان يؤمنوا كفاف يومهم دون ان يجهدوا بقوة سواعدهم وعرق جبينهم . فأفضت القومية التي لا تلتين في المدن اليونانية ، هنا أيضاً ، الى خلخله التوازن الاقتصادي والاجتماعي القصيم الذي كان مرتكزاً لحضارتها في ازهى عهودها .

هنالك سيئة اخرى ، ملازمة للذهنية اليونانية على ما يبدو ، حالت دون الثورات الدافئة

إنثار هذه الحضارة إثماراً كاملاً : تعدد الحروب الاهلية في المدن .

بيد ان الحرب الاهلية ، طيلة الشطر الاكبر من القرن الخامس ، لم تضم ولايتها الى ولايات الحرب مع الاجانب . فقد عرف العالم اليوناني بأسره حينذاك ، بعد ان مَرَّق شر تمزيق في داخل الكثير من مدنه ، هدوءاً نسبياً استمر نصف قرن تقريباً . فما هو لتعليل هذه الاستراحة المحيرة في وقت توقف فيه النشاط الاستعماري وضؤل عدد المرتزقة الذين كانوا بمثابة دواء وقائي اثر الازمات الاجتماعية الخطيرة ؟ ليس تفسير ذلك ، في الحقيقة ، بالأمر اليسير . غير اننا نرجح ان الطبقات الاجتماعية الدنيا قد عرفت مصيراً اقل حقارة ، وذلك لاسباب وبوسائل نجعلها .

لكن هذه الاستراحة ، التي لا شك فيها ، تبقى قصيرة الامد ، اذ ان النزاعات الداخلية في المدن تعود الى الظهور قبيل الربع الاخير من القرن الخامس . ويقوم في الاساس من هذه العودة الصراع بين مذهبين سياسيين ، حكم الاقلية وحكم الشعب (اوليغارشية وديموقراطية) ، تمثلها وجرمز اليها وتساندهما المدينتان المتنافستان ، اثينا وسبارطة اللتان انتصبتا في حرب البلوبونيز الواحدة ضد الاخرى وارغمتا عليهما كافة المدن اليونانية على الانتصار لهذه او تلك منهما . ولكن النزاعات السياسية ، شأنها في القرون السالفة ، تمبر ، بخطورتها واستمرارها وشموها ، عن نزاعات اجتماعية أكثر عمقا . فانصار الاوليغارشية وانصار الديمقراطية انما هم ، اجمالاً ، الاغنياء والفقراء . ولا سبب غير واضح أيضاً ، استصعب الفقراء حياتهم من جديد فحملوا بالبليلة والانقلابات .

بعد ان عاد الانشقاق الداخلي الى الظهور ، لم يعرف الى الهدوء سيلاً ، لابل انه ازداد مع

الايام تأزماً وخطورة . فسيطرت الحرب في القرن الرابع سيطرة شبه دائمة ، لا على حدود المدن فحسب ، حيث لم تزل قائمة منذ زمن بعيد ، بل في داخل كل مدينة ايضاً . وقد حدث حينذاك ان المدينتين اللتين تلفتان الانظار ، أثينا وسبارطة ، قد عرفنا سلماً مدينياً غير كامل على كل حال . ومن حيث ان هذا السلم قد ادت اليه ظروف خاصة جداً ، يجب علينا ان نفرر نفسنا به . اما المعلومات حول المدن الاخرى فمن الوفرة بحيث تكفي للدلالة على وجود نزعة عامة على الاقل والاستعادة « مناخ » الامواء النائرة فيها .

في الظروف العادية ، تعتمد الاحزاب المتخاصمة - التي قد تتقاتل احياناً - الى فرض الابعاد . ويرافق الابعاد الطوعي والقسري حجز ممتلكات المفلولين وتوزيعها على المنتصرين او بيعها لمصلحة الخزانة العامة . ولكن عضد الاجنبي ، اذا لم يكن من عضد غيره ، لا بد ان يتيح للحزب المغلوب ، في يوم من الايام ، ان يستعيد السلطة . وعندما يتشم الخط ، يعوض المبعدون عما خسروه بممتلكات خصومهم ويحاولون استعادة املاكهم ايضاً . وليست هذه الاستعادة بالأمر العسير للأملاك التي انتقلت الى أيدي الأعداء أو تلك التي لم تبها الدولة . ولكنها ، تصبح من الصعوبة بمكان للأملاك التي بيعت أو رهنّت أو انتقلت الى شخص ثالث مهراً أو هبة بموجب وصية . ولذلك ، فإن كل ثورة سياسية تستتبع سلسلة لا حد لها من الدعاوى والمنازعات . واذا لم تتوفر الاموال للتعويض عن الاضرار الحاصلة ، يغدو الوضع مستغلقاً لا سبيل الى الخروج منه سوى القوة . واذا ما استخدمت القوة ، تدوم الحرب الاهلية الى ما لا نهاية لها بصورة شبه حتمية .

هدد الحزاب اذن الأملاك الموروثة عن الوالدين حتى تلك التي لا شأن العوز والنفي والارتاق لها . وأفضت تقلبات ونتائج الحرب الاهلية الموضعية الى ارتفاع عدد البائسين المبعدين عن وطنهم أو العاجزين عن أن يجدوا فيه أودهم وأوذ عائلاتهم . فانضموا الى عداد من أفقرتهم غزوات الجيوش الأجنبية ومن تنتهي بهم طبيعة ارض اليونان القاسية الى العوز والفاقة اذا لم يحدد النسل بحكمة . فانتشر الفقر باستمرار ، وقد زاد انتشاره ، وهو معلول وعلّة معا ، في خطورة معطيات المعضلة الاجتماعية التي تضاعف حدتها تنافس الاحزاب . وبانتظار معجزة أو ثورة تنشلان المعوزين من هذه الضائقة ، لا يبقى امام سوادهم الأعظم غير مورد المخاطرة بحياتهم تأمينا لضرورياتها .

وهكذا يطل مرة ثانية الارتاق الذي ما كانت اليونان لتعرفه عملياً ، وعلى نطاق واسع ، منذ اوائل القرن السادس . وتبرز اطلالته ابان حرب البلوينيز ؛ ففي الأساطيل خصوصاً ، أتاحت له الامدادات الفارسية ، في السنوات الاخيرة من هذه الحرب ، اتساعاً كبيراً ، اذ ان اولئك الجذافين الذين تجعلهم زيادة أجر هزيلة ينتقلون من المراكب الاثينية الى المراكب اللاكيدونية ليسوا في الحقيقة سوى طغماء المرتزقة . أما في ما يتعلق بالجيوش البرية فمعلوماتنا

القليلة لا تسمح لنا ببدء رأي صريح . غير ان نهاية الحرب تليها ، بعد فترة قصيرة ، الحملة التي تقود « العشرة آلاف » الى بلاد بابل اولاً ثم الى شواطئ البحر الأسود والتي يسرد وقائعها كتاب كسينوفون المعروف بـ « أناباسيس » . فما من ريب ان هؤلاء العشرة آلاف ليسوا جنوداً مواطنين قدماء فقدوا مذاق الحياة المنتظمة . فكم بينهم من رواد المغامرات الذين تركتهم نهاية الاعمال الحربية دون عمل ؟

ثم يتسع الارتزاق بعد ذلك باستمرار بحيث يتوجب علينا ، تعليلاً لانتشاره المدهش ، ان نفكر بالمصادر العديدة التي استطاع التزود بالرجال منها . لا شك في ان الابعاد السياسي مصدر هام من هذه المصادر . غير ان المبعدين ليسوا جميعهم بصالحين للمهنة العسكرية التي تفرض بعض الصفات الجسدية . كان الاسكندر بين السنتين ٣٣٤ و ٣٢٨ قد جند تحت امرته قرابة ٤٥٠٠٠ مرتزق ، وأقام منهم ٢٥٠٠٠ في المدن الحديثة التي أسسها . وخدم غيرهم في امكنة اخرى ايضاً ، في صقليا وفي ايطاليا الجنوبية مثلاً . ولكن هذا « البزل » من مجموع المنفيين لم يمنع ٢٠٠٠٠ مبعدين الاجتماع في أولبيا في صيف السنة ٣٢٤ حين شاع الخبر بأن أحد موفدي الاسكندر سيذبح فيها امراً صادراً عن الملك ، وموجهاً لكافة المدن بفتح ابوابها للمبعدين . فيتضح من ذلك ان هنالك واقعاً اجتماعياً ذا أهمية كبرى ، هو احدى آفات اليونان طيلة القرن الرابع .

أضف الى ذلك ان وجود المرتزقة الكثيرين المستعدين للدخول في خدمة من يدفع اجراً اعلى او من تسمح لهم شهرته ان ينتظروا منه السخاء والنظام المرن والنصر والغنيمة ، لم يمت عن اعراف سياسية فظة وعن وضع اجتماعي غير مستقر فحسب ، بل انه أسهم في تعميق الحرب ايضاً ، لأن الحرب اصبحت ممكنة بالمال اذا لم يتوفر لها الرجال ، وفي جعلها اكثر تدميراً وتخريباً لأن المرتزقة لا يملون ، من طبعهم ، الى مراعاة جانب المدنيين غير المجهدين معها كانت جنسيتهم .

يتضح من ذلك ان اليونان قد غذت في أحشائها أحقاداً دائمة الهياج . فافضت المنافسة ، التي ألتها الشاعر القديم هيزيود بشخص « ايريس » ، الى البغضاء التي أفضت بدورها الى التقتيل والتدمير . أجل ، قد تكون الروح اليونانية مدينة لها بقسط من وثبتها المتأججة . ولكن الاغريق قد حرموا ، بسببها ، حسنات السلم والطمأنينة والاستقرار .

بيد انهم ، على الرغم من ذلك ، قد انتقلوا بحضارتهم ، خلال القرنين الخامس والرابع ، الى طور النضج . فلم تعقها هذه الظروف المعاكسة ، في ارتقاها ، بقدر ما عجلت تدهورها ، بحرمانها من الاستقرار .

الفصل الثاني

المثل الأعلى والوقائع السياسية

لن نقالي قط في الكلام عن أهمية الـ «بوليس Polis» ، أي المدينة ، لأنها في الأساس من هذه الحضارة ، لا تكون إطارها فحسب ، بل تعطى ميزاتها الرئيسية أيضاً. فالحضارة اليونانية الكلاسيكية ، بيوهرها ، حضارة البولس ، وقد نضبت نفسها حين عجزت المدينة عن التغلب على الصعوبات السياسية الداخلية والخارجية التي واجهتها وعن ارضاء نزعات مواطنيها .

١ - سيادة المدينة

المدينة هي بالضرورة دولة محصورة الرقعة . ولا أهمية لهذه الرقعة في تحديدها. المدينة
فهي ، في جوهرها ، المواطنون ، الشعب ، الـ «ديوس» . ولم تأت الكتابات
الرسمية في يوم من الأيام على ذكر «أثينا» أو «لاكيديون» أو «الجمهورية الأثينية»
أو الجمهورية «اللاكيدونية» ، بل اقتصرت ابتداءً على «الأثينيين» أو «اللاكيدونيون» ، «مدينة
الأثينيين» أو «شعب الأثينيين» ، «مدينة اللاكيدونيون» أو «شعب اللاكيدونيون» .
فالمفهوم اليوناني ، إذن ، إنما يفرض على وحدة المواطن حدوداً ضيقة بعض الشيء . فعدد
المواطنين المثالي ، في نظر فلاسفة القرن الرابع هو عشرة آلاف كحدٍّ أعلى (حتى إن أفلاطون
قد حددته بـ ٥٠٤٠) ، وهم قد أخذوا على أثينا ، مصارحة أو مداورة ، أنها قد جمعت أكثر
من هذا العدد . فقد كتب أرسطو : «لا نستطيع تكوين مدينة من عشرة رجال» ، كما أن
عشرة آلاف لا يكوّنون مدينة أيضاً . وجلي أن السبب الوحيد لهذا التحديد هو السماح لكل
مواطن بأن يعرف شخصياً كل مواطن سواه ، لا في شكله الخارجي فحسب ، بل في أخلاقه
أيضاً ، وفي طريقة وأساليب حياته ، وفي ارتباطاته العائلية ، وفي نشاطه اليومي تقريباً .

لوحدة المواطنين هذه مركز هو المدينة التي هي قلب الـ «بولس» . وفي حالة الخطر ، تؤمن
أسوارها دفاعاً تؤلف القلعة (أكروبولس) مركزه الأخير . هنا تجري الاتصالات على

الواعها ، السياسية والاقتصادية والفكرية . وهنا تقيم سلطات الحياة الجماعية . وهنا تقوم السوق التجارية والمدارس والمنتديات الرياضية والمسارح والمعابد الرئيسية .

ولا غنى عن هذه المدينة من الناحية النظرية ، مع ان وجودها لا يتوفر لبعض الشعوب اليونانية . ففي بعض المناطق الجبلية والنائية من اليونان الوسطى والغربية يعيش الرجال مشتمين في مساكن منعزلة او في قرى صغيرة ، وليس لهم سوى معابد ريفية يجتمعون حولها في ظروف الاعياد التي هي أسواق دورية في الوقت نفسه . ولذلك فانهم يعتبرون متأخرين ، ولا تجتبي عليهم بهذا الاعتبار . فلن يتوصل بعضهم ، قبل اواخر العهد الكلاسيكي ، الى لعب دور سياسي او عسكري ، عاجزين ، على كل حال ، عن ترك اي اثر اقتصادي او ادبي حينذاك .

بيد ان هذه المجموعة السكنية ، حتى في المدن المتطورة ، ليست في الظروف العادية مكان اقامة كافة المواطنين ، باستثناء بعض الحالات التي تبررها حاجة للوقوف في وجه ثورة ممكنة يقوم بها السكان المُخضَّعون ، كما حدث في سبارطة مثلاً او في بعض مدن المستعمرات اليونانية . فان نسبة كبيرة من المواطنين تبقى موزعة على الاراضي المجاورة . ولكن المهم من الناحية الحقوقية ان المدينة تعامل بالساواة المواطنين الذين يقطنون المدينة واولئك الذين يقطنون الاراضي المجاورة . فهي لا تكتفي بأن تترك للقرى الصغيرة امر ادارة شؤونها استقلالياً ولا تتدخل فيها إلا في الحالات الخطيرة وتكلفها رعاية العبادات المحلية إلا اذا بلغت من الاشاع ما يؤهلها للارتفاع الى مرتبة العبادات الرسمية ، بل انها تعطي سكان الارياف ، مع مراعاة النسبة العددية ، حق الاشتراك بحكومة المدينة كلها بالتساوي مع المدنيين ، وحقوقاً مدنية وسياسية لا تختلف بشيء عن حقوق هؤلاء . أجل قد تبرز عملياً بعض الفوارق التي تضر بسكان الارياف يجب ردّها الى تشتتهم وبعدهم عن المركز المشترك . ولكن هذه الفوارق أعجز من ان تؤثر بشيء على المساواة النظرية .

للمدينة ، من حيث مفهومها ، السيادة المطلقة كدولة .

سيادة المدينة الخارجية

لا تعترف ، خارجاً عنها ، بأي مبدأ اعلى يحد من مندوحتها . فهي تقرر ، لا بل تعلن ببعض التيه ، انها يونانية . غير ان انتمائها الى مجموعة عنصرية اكثر منها اتساعاً لا يفرض عليها سوى واجبات أدبية . تكاد تفقد فعاليتها حين تتعرض مصالحها للخطر . وليس سوى العبادات اليونانية الجامعة القليلة العدد ، كمادات اولمبيا ودلفي في الدرجة الأولى ، ما توصل الى فرض احترام بعض الانظمة . ولكن نفوذ هذه الانظمة لم يتمتع دائماً بقوة زائدة كافية ، فقد أدت بعض الحوادث الخطيرة الى نزاعات مسلحة لم يستطع القانون الديني قط الحؤول دونها او منعها .

ان لفشل دلفي ، في هذا الصدد ، لغزى كبيراً . كانت اولمبيا مرتبطة بمدينة بلوونيزية صغيرة هي « ايليس » التي فرض عليها ضعفها موقفاً حكيماً . اما المعبد الدلفي فقد قامت على

ادارته جمعية شعوب « مجاورة » او مجلس اتحادي . نعم كانت هنالك مجالس اتحادية اخرى في العالم اليوناني . ولكن مجلس دلفي لم يكن أشهرها فحسب ، بل اوسعها حظوة بسبب شهرة هتافات الغيب الصادرة عن عرافتها ، واوسعها نفوذاً بفضل القوة العسكرية التي يتمتع بها هذا المجلس مبدئياً . وكانت اليمين التي يقسمها اعضاء المجلس ، وفاقاً لصيغة قديمة ، توجب عليهم ان يدافعوا كلهم وبكل قواهم عن مصالح الإله ، وتحظر « تدمير أية مدينة اتحادية وقطع المياه الجارية في أيام الحرب وایام السلم على السواء » ، وتواجه امكانية شن الحرب الجماعية على كل من يخالف هذه الاوامر . وكان مجرد اجتماع مندوبي الشعوب الاتحادية ، مرتين في السنة ، مدعاة لمفاوضات حول المصالح المشتركة . وكان من شأن هذا التصميم الایجازي ، لو اكمل ، ان ينضي الى نتائج بعيدة الأثر : ومن الجائز ان نفكر هنا بتلطيف قانون الحرب وبتحكم أعلى يتولاها جههاز اتحادي وحتى بتوحيد تدريجي . ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق . فقد نشبت أربع « حروب مقدسة » ، واحدة منها في القرن الخامس واثنان في القرن الرابع ، لم تختلف قط عن الحروب الاخرى ، إذ ان الحجة الدينية المتذرع بها لم تحف ، كل مرة ، حقيقة تصادم المصالح السياسية . فدمرت مدن اتحادية وقطعت المياه عن المدن المحاصرة ، دون ان يعترض على ذلك معترض . اما المجلس الاتحادي نفسه فلم يوسع تنظيمه توسيعاً كافياً ولم يكتف قط وفاقاً للواقع السياسي في العالم اليوناني . ولم يكن في الواقع سوى أداة طيعة في ايدي السلطة النافذة في اليونان الوسطى أولاً ، والتسالين *Thessalians* قبل الحروب الميدية ، وسبارطة وطيبة بعد ذلك ، والمملك المقدوني اخيراً . وهكذا فان الامكانات التي قد تكونت في دلفي قد أجهضت ايما اجهاز .

من حيث ان المدينة خلية صغيرة شريعته الانانية ومثلها الاعلى الاستقلال التام ، فانها لم ترتبط بالاتعهدات دولية تراها متوافقة ومصالحتها ، ما لم تضطرها قوة قاهرة الى تمهيدات اخرى . وعندما ترى ان مصالحها قد تبدلت ، لا تحترم اي ميثاق مهما كانت نصوصه قطعية ومهما كانت الايمان التي رافقته مغلظة . ولم تختلف معاهدة الصلح ، زمناً طويلاً ، عن هدنة قصيرة الأمد . ففي السنة ٤٦٦ ؛ مثلاً ، عقدت أثينا وسبارطة الصلح لمدة ثلاثين سنة ، وفي السنة ٤٢١ لمدة خمسين سنة ، ولكن ذلك لم يمنعها من استئناف الاعمال الحربية منذ السنة ٤٣١ ؛ والسنة ٤١٣ . وفي القرن الرابع ، تمدد فترة السلم المتفق عليها وتبرز لأول مرة الصيغة « دائماً » المنشولة عن معاهدات التحالف والمعدة لأن تصبح دارجة الاستعمال ؛ ولكن لم ينخدع احد بهذه التعهدات السريعة الزوال . فهي انما كانت احدى المعطيات البدائية للدبلوماسية اليونانية ، بل النتيجة الحتمية لمفهوم الـ « بولس » نفسه .

بيد ان بعض المدن كانت اعضاء في اتحادات اقليمية لها صفة الدولة ، لا صفة الحلف فقط ، بفضل أجهزتها السياسية الدائمة . لنهمل الدول البدائية حينذاك التي تجتمع شعوباً كالفوسيديين

والابتولين الذين لم يكن لـ « بولس » عندهم حيوية او وجود ايضاً . ولكن الدولة البيوسية ، التي لعبت ذلك الدور الكبير في القرن الرابع ، اختلفت في الحقيقة اختلافاً بيناً عن هؤلاء . فقد تكونت من مدن لا تقتصر على ولاية جماعية للمصالح الدبلوماسية او العسكرية المشتركة . وكان للعدن البيوسية مؤسسات متشابهة ، ومنحت كل منها بعض الحقوق لمواطني المدن الاخرى . فحققت اذن فيما بينها وحدة يحوز لنا الاعتقاد بأنها ، لو قيض لها نمو طبيعي ، لانتهدت الى الانصهار : فالمتطابق يقضي بشد الروابط العضوية ، والانتقال على التوالي من الجبهة الدفاعية المشتركة الى التحالف ومن التحالف الى الدولة الاتحادية ومن الدولة الاتحادية ، بالتدرج ، الى الدولة الواحدة . ولكننا نعلم علم اليقين ان حالة على هذا الوضوح وهذه المؤاتة لم تبرز في غير مكان . ففي الاطار الجغرافي الكبير الآخر ، أي سهل تساليا الواسع ، لم تظهر دلائل تطور ممكن نحو الوحدة ، قبل خضوع البلاد لفيلبوس المقدوني ، الا بسرعة البرق الخاطف . ولكن انفراد مثل الدولة البيوسية واقع لا يرقى إليه الشك .

ليس في الحقيقة ، في هذا المثل ، ما يحمل على البحث عن الفوارق ، لا بل انه يؤيد ما يرى في غير مكان . وما لا شك فيه ان الاختبار البيوسي هذا قد اعترضته القوة الاجنبية فأوقفته : فاذا لم يؤد الانتصار المقدوني الى زوال الدولة البيوسية زوالاً قانونياً ، فانه قد أفضى ، على الأقل ، الى ارتقاء روابطها الداخلية واضعاف بل تدمير طيبة ، مدينتها الرئيسية ، التي كانت قد نظمت هذه الدولة وأشرفت عملياً على ادارتها : ولكن مجرد نجاح اقتصاص فيلبوس والاسكندر من طيبة في ايقاف تطور انطلق انطلاقاً مشجعة لدليل واضح على ان هذا التطور كان مصطنعاً . ويبدو ان المدن البيوسية الاخرى لم تسر سيرة مع التيار الذي اوجدته طيبة . فلو اتبع للدولة البيوسية ان تعيش ، لغدت الدولة الطيبية فحسب .

يجب في الواقع انتظار العهد التالي حتى ترضى بعض المدن ، عن طريق القسر ، بالتضحية بشيء من سيادتها النظرية ، التي دافعت عنها دفاعاً حريصاً حذراً حتى ذاك التاريخ ، بغية إيجاد دول اتحادية حقيقية . ولكن هذا المثال الاعلى ، الذي لن تسمح له القوة الرومانية بالتحيز طويلاً ، غريب عن اليونان الكلاسيكية . فهو انما أوجده اخفاق « البولس » واملته الضرورة ، لانه يحاول بشق طرق المحاولة تحقيق توازن الممالك الهلينية الكبرى بوضع حشد نهائي للتفتت الاقليمي الخاص .

المدينة سيّدة ايضاً ، داخل اراضيها ، على الاشياء والبكائنات على السواء ، المدينة والفرد . وقد تلمعت بهذه السيادة ، نظرياً ، منذ البداية وفي كل مكان . وقد استمرت في الواقع ، بفضل تقدم الديمقراطية ، في توسيع النطاق العملي لسيادتها . فالديموقراطية لا تعني قط تراخي سلطة الدولة . ومن خطئ الرأي القول بغير ذلك ، انطلاقاً من مثل سبارطة . فحلفاء سبارطة ، في القرنين الخامس والرابع ، المدن (الاوليغارشية) التي تحكمها الاقليات ،

والاوليفارشيون ، في كل مكان ، يستهيم ، على الأقل ، الاعجاب بمؤسساتها . ولكن ذلك ليس سوى انتهازية ، او بالحري اختيار اهون الشرور . فإذا ما نظرنا الى مبادئ تنظيم سبارطة ، بدت لنا هذه المدينة ، في النطاق الاجتماعي خصوصاً . ومن بعض النواحي السياسية ايضاً ، كأكل الديموقراطيات اليونانية . وفي الصفة « متساوون » التي تمت بها مواطنيها برهان قاطع على ذلك . فالاوليفارشية الحقيقية تقوم على اسس اخرى . وهي لا تربط المواطن بالدولة مباشرة ، بل تضع بينها هيئات وسيطة او اطارات اجتماعية منظمة ، ليس الفرد فيها سوى عنصر من عناصر الجماعات المشككة وقائماً للنسب ، والمصونة بفضل المحافظة على عبادات البنوة الحقيقية او الاسطورية ، وهذه العبادات أفضل ما يصون تقاليد الجدود . بهذه الهيئات الوسيطة تصطدم الدولة عندما تقرر العمل ، وعندها من القوة ما يجعلها غالباً تسيطر على الدولة نفسها . لذلك يجب ان يتم التطور الديموقراطي على حسابها . اجل ان هذا التطور يحرم المواطن من الروابط التي تقيده . ولكن المدينة ايضاً تقيد منه لأنها تصبح أمتع قوة وطيقة في ممارسة سيادتها المباشرة الفورية على الافراد المنعزلين . حينذاك ، وحينذاك فقط ، يقوى عند الاوليفارشيين ميل نحو سبارطة سبق ونما عندهم بفضل عدائهم للاستبداد ، فيحولون انظارهم اليها ، لا سيما وانها لم تعرف قط هذه الهيئات الوسيطة ، وان الدولة فيها تضع كل طاقتها بالتالي في خدمة المحافظة على التقاليد الادبية التي فتحت فيها الشلم في غير مكان ؛ ولكن مساندة سبارطة قد اظهرت في النهاية انها عاجزة عن ايقاف التطور العام .

تفرض المدينة ، باسم « نواميس » ، « شرائع » و « عادات » ، كتابية او شفوية ، تسمو على الارادات الفردية او الحالات النوعية . أما القرارات التي تعود الى هذه المبادئ ، فلا يجوز ان تدعى إلا « مراسيم » ، وتؤخذ كافة الاحتياطات كي لا تتعارض والشرائع . فقد جاء في الكتابة المحفورة في الترموبيل على نصب ليونيداس ورفاقه : « أيها المار ، اذهب وقل لسبارطة اننا متنا اطاعة منا « لنواميسها » . ويضع أفلاطون ، على لم سقراط الحكم بالمولت ظلماً وعدواناً مناجاة « النواميس » القيمة بتذكيره ، اذا ساء حاول الحرب ، يواجهه في الخضوع خضوعاً أعمى حتى الى اخطائها ، تحاشياً لاحدارها ، شأنه في تحاشي احذار ابيه وامه . وتقوم سيادة « البولس » الداخلية على نفوذ « النواميس » والاحترام الذي توحيه والذي لا حياة جماعية ممكنة بدونه .

لا شك من جهة ثانية في ان « الشرائع » ، التي تسمح بموجبات المدينة ، تحددها بالفعل نفسه ، لانها تقرر على المدينة العمل ببعض القواعد او بعض الطرائق على الأقل . فعقوبة الابعاد مثلاً التي توجد ، بأسماء اخرى وبكيفيات مختلفة ، في مدن غير أثينا ، تجيز ان يفرض على المواطن نفى لمدة عشر سنوات دون تقديم أي مبرر ، ودون دعوى او مناقشة ، ودون اتهام أو دفاع . وقليلة في الواقع هي المؤسسات التي تبرز بهذا الوضوح سلطة المدينة البالغة على مواطنيها لانها

ذلك اعطت لنفسها وسيلة ، يحدث ان تلجأ اليها عملياً ، لتنال ، بمجرد هواها او تخوفها ، من رجل لا تهتم حتى لاعلان ذنبه . ولكن الابعاد لا يجوز تقريره الا بعد اجراءات خاصة ، يوفر القيام بها ، للضحايا الممكنة ، حداً أدنى من الضمانات . وفي بعض النواحي ، كذلك ، قد تتعدى مفاهيمنا المصرية للدولة المفاهيم اليونانية . فالمدينة التي غالباً ما تقرر حجز ممتلكات محكوم ما تجهل الاستملاك لاعتبارات تقتضيها المنفعة العامة . فـ « النواميس » ايضاً اذن قد لا تمنحني « البولس » احياناً .

ولكن لا شيء ، نظرياً ، يحظر التحوير ، والتوسع في الشرائع . وفي سبيل اعطائنا المزيد من النفوذ ، تطبع بطابع ديني او اكرامي على الأقل . ولكن الجميع يعرفون انها في الواقع عمل بشري لأنهم يذكرون واضعها المعتبرين اشخاصاً حقيقيين حتى ولو تسربت الاساطير الى تاريخ حياتهم ولأن اعادة النظر فيها امر ممكن شريطة العمل بإجراءات محددة . فليس اذن ، من حيث المبدأ ، اي حد لنفوذ الشرائع الذي قد يتناول جميع مظاهر الحياة البشرية وجميع مراحلها واعمالها ، كما حدث في سبارطة حيث اخضع المواطن للدولة منذ السنة السابعة حتى السنة الستين . اما في غير مكان فيبقى هذا النفوذ اكثر استتاراً ، ويطيّب للاثينيين ان يتباهوا به . ولكن شرائع أثينا نفسها - وقد عدلها كليستين للمرة الاخيرة في اواخر القرن السادس ، ثم اعيد النظر فيها واضيفت بعض الشرائع الجديدة اليها - تتناول ألف ناحية من نواحي الحياة الخاصة والحياة الجماعية على السواء . فهي تحدد الواجبات الدينية والمالية والعسكرية حيال المجموع كما تحدد شروط الزواج الشرعي والعقود التجارية وتربية الاولاد . واذا لم تواجه استملاك الممتلكات العقارية ، فحفاظة على الاستقرار الاجتماعي وتفادياً لاستغلاله استغلالاً ثورياً ممكناً . وكان باستطاعتها التدخل في كل الحقول التي اهتمت بها دونما تعرض لاي مبدأ اساسي .

فلماذا لم تفعل يا ترى ؟ هل ان الضرورة لم تقض بذلك ام ان مرد ذلك الى قوة التقليد ، او التحفظ الفطين ، او الاشتمزاز بتأثير المثالية ؟ قليل من كل ذلك في آن واحد . اجل لقد شدد العقائديون القدامى على الفكرة التي لاقت ارفع اصداؤها واجلها في التأبين الذي ينسب توسيديد الى بريكلبس في السنة ٤٣٦ : ليس لسلطات المدينة من مبرر سوى حماية المواطن من الضغط الداخلي والضغط الخارجي ؛ تحاول المدينة ، مقابل ذلك ، اناحية القصر لتفتح شخصيته الفردية تفتحاً كاملاً ؛ تستهدف المدينة تأمين الحرية والعدالة للمواطن . وهذا لعصري هو المثل الاعلى للحضارة اليونانية الكلاسيكية . ولكن كم من الناس رأوه ولو رؤية غامضة ؟ وحكم منهم كانوا مستعدين لتكليف اعمالهم عليه .

من حسن الطالع ان الظروف اتاحت ، خلال وقت قصير وفي بعض المدن المحظية ، ترائي ذلك التعاون العجيب بين المجموع والفرد ، النافع لهذا وذاك ، وبشارة تحقيقه وتحيزه . . .

وعلى الرغم من بقاءه نظرياً في غالب الأحيان أو من صيرورته نظرياً بسرعة ، فإن هذا المثل الأعلى يمثل واحدة من أثنى معطيات الحضارة اليونانية الكلاسيكية التي عرفت ، خلال القرون ، حيوية ناشطة مستمرة .

٢ - خطوط التنظيم السياسي العامة

بيني ان تنظيم المدن متنوع جداً . فسيادة المدن ، بالإضافة الى المدينة والسلطة الشخصية مرونة الفكر اليوناني واختلاف الحالات التاريخية تستلزم هذه النتيجة . ولكن هنالك بعض الميادين العامة المشتركة أملاها الاختبار او تولدت من تقاليد العهد القديم .

المدينة اليونانية جمهورية اولاً . أجل ، لقد قامت الملكية في كل مكان في البداية . وإذا لم تزل قائمة في اليونان الحقيقية ، فإن وجودها إسمي فحسب ، وهي اقرب الى ولاية محدودة الصلاحيات والمدة ينتخب من تسند اليه دوماً اعتبار الى منشأه العائلي . وتقدم لنا أثينا أجلى مثل على ذلك : فالملك (الفاسيلتس) فيها واحد من مجلس الأراكنة العشرة الذين يحري انتخابهم كل سنة ، ولا يلعب سوى دور ديني وقضائي غير ذي اثر في الواقع ، ويجري تعيينه بالقرعة كباقي الأراكنة وفقاً لطريقة أدخلت عليها تحويرات شتى في القرن الخامس بغية الحد بصورة نافذة من امكانات الخاتلة والضغط . لكن سبارطة هنا أيضاً تشذ عن القاعدة . وليس من أقل مميزات ان تحتفظ بملكين مدى الحياة ينتسبان وراثياً الى أسرتي « الآجياس » و « الارييونتس » ، ويتولى أحدهما بالضرورة قيادة الجيش . ولكن الملكية قد ضعفت في سبارطة نفسها . وانظمة الخلافة الوراثية من التعقيد بحيث يتوجب أحياناً على المدينة الاختيار بين طلاب هذا المنصب الكثيرون . وقد أعيد النظر بنوع خاص في مبدأ مسؤولية الملوك حتى كقواد جيوش . ونظمت رقابة على أعمالهم خلال الحملة العسكرية ، فدفعتهم بعض السوابق الرومية الى الامتثال بحكمة لتعليمات السلطات الادارية . فشتان ، في سبارطة نفسها بين ، ملكية اليوم وملكية الأزمنة الغابرة .

لم يكتب البقاء للملكيات الأزمنة الغابرة سوى في المناطق البعيدة عن اليونان الأم ، بفعل اتصالها بالشرق الملكي ، كما في قبرص ، ولاسيا في الشمال من شبه الجزيرة اليونانية ، بفعل اتصالها بالقبائل البلقانية البربرية ، كما في الأبير ومقدونيا وتراقيا . فهناك تلب التأثيرات الشرقية دورها ، ولا سيما الحاجة الى الوقوف في وجه منافسة الفينيقيين الساميين القوية ، المقيمين ، هم أيضاً ، في الجزيرة . وهنا ، بالإضافة الى البعد عن التيار العام للتطور اليوناني ، حافز الرغبة في الوقوف في وجه غزوات الجيران الشتميين . فالملكية في العالم اليوناني ، خلال القرون الخامس والنصف الاول من القرن الرابع انما هي نظام مناطق الحدود . وما بلغت الانظار ان هؤلاء الملوك ، في شمالي شبه الجزيرة على الأقل ، لا يطلقون على أنفسهم ولا يلقبون ، في علانهم ،

بالاغريق ، بلقب « الفاسيفلس » الذي هو من خاصياتهم والذي أحيط بهالة من الإجلال في الملاحم الهوميروسية . ولن يعم استعماله من جديد إلا بعد الاسكندر . فكأن مفهوم الملكية حينذاك اعتبر ، بالإجماع ، مفهوماً غريباً عن الحضارة اليونانية وميزة من ميزات البربرية .

ولم يقف جهل المدينة اليونانية عند الملكية فحسب ، بل تعداها الى الحكم الفردي بوجه عام . أجل انها عرفت الاستبداد أحياناً في العهد السابق بشمول كافٍ لأن نرى ، في نظام الحكم هذا ، مرحلة شبه طبيعية من مراحل التطور السياسي . ولكن هذه المرحلة قد دخلت في التاريخ . فالاستبداد ، حيثما قام بفعل ظروف الوضع الداخلي ، قد زال منذ أواخر القرن السادس . اما في غير مكان ، كصقليا وإيطاليا الجنوبية مثلاً ، فقد استمر هذا الاستبداد بضع عشرات من السنين بفضل الاسباب نفسها التي أتاحت له تسلم الحكم ، اي الخطر الخارجي . ولكن زوال هذا الأخير يسبب زواله أيضاً . فبعد ان كسر القرطاجيون في هيميرا (٤٨٠) والأترويون في كومس (٤٧٤) ، حكم على عهد سلالة الديونومينيس بالزوال في سيراكوزا . وقد انهار بالفعل في السنة ٤٦٦ ، فعرفت المدينة الصقلية الكبرى سيادة « النواميس » مرة أخرى ، بعد فترة من البلبلة والتشويش . فبدأ الاستبداد حينذاك ، وحتى السنوات الأخيرة من القرن الخامس ، وكأنه مرحلة سحيقة من تاريخ العالم اليوناني القديم . ولكنه لن يلبث ان يعود الى الظهور ، في سيراكوزا أولاً ، مع دونيس الاول الذي تسلم السلطة في السنة ٤٠٥ مستشراً خطورة التهديد القرطاجي الذي لاح في الأفق مرة ثانية أيضاً . ويتوسع الاستبداد في القرن الرابع رويداً رويداً بفضل الخطر العسكري أولاً والمتاعب الداخلية ثانياً . ولكن عودته الى الظهور وتوسعه انما هما من ذبول الأزمة التي تمر بها المدينة ، إذ ان المفهوم الكلاسيكي للمدينة يتعارض والاستبداد تعارضاً كلياً .

فـ « البولس » الكلاسيكية تخشى الفرد المتفوق الذي قد تكلفها خدماته ، اذا كان له من خدمات ، ثمناً غالياً جداً في النهاية . ويقلقها كل نفوذ فردي ، لانها لا ترى كيف يمكنها ان تضع له حدوداً لا يتخطاها . لذلك فليس من احتياطات لا ترى حاجة اليه ، وليس من ظننة مهينة في نظرها . فلا يدون اسم القائد في النذور والانصاب التذكارية الأخرى للانتصارات ، بل اسم المدينة دون غيرها . وسيرد على لسان ديموستينس ما يلي : « ما كان ليخطر على بال احد ان يدعو انتصار سلامين باسم تيمستوكلس لأنه عرف بانتصار الاثينيين ، ولا ان يدعو انتصار ماراثون باسم ميلتياداس لانه عرف بانتصار المدينة . ولا يمكن لأي رجل في وظيفة عامة ان يطمئن لفعده او ان ينجو من المراقبة الدقيقة في نطاق عمله . فيها كان من احترام بريكلئس لسيادة الشعب ومن مراعاته لها بكل خلوص نية في تعامله مع المجلس ، فلم يتردد خصومه في ان يصموه بالاستبداد ، وقد جاء أخيراً يوم قلبه الشعب فيه وحكم عليه . وقد قوّى التطور اللاحق هذه النزعة . أجل ان تقدم التقنية العسكرية وتكاثر الحروب وتزايد صعوباتها قد

أُتاحت للقواد المنتصرين مزيداً من الشعبية . فإن حرب البلوونيز التي انتهت بانتصار أحاط ليسندروس بشهرة ونفوذ لا مثيل لها ترسم بهذا الصدد عطفة حاسمة في تاريخ العادات والاخلاق . وهكذا غدا القواد منذ ذلك الحين موضوع اكرام فردي لم يكن ليخطر على بال . ولكن هذا الحساس الشعبي الهائج يقابله في حالة الهزيمة ، او خيبة الأمل فقط ، انهيار ضم الأمس مع ما يرافق هذا الانهيار من حيا غضبة وهيجان . وقد نال بطلا عظيمة طيبة ايبامينونداس وبيلوبيداس ما نال غيرهما من ذلك . وليست حياة كل من يتعاطى السياسة في أثينا سوى سلسلة طويلة من الدعاوى يكون فيها اما مدعياً واما مدعى عليه . وفادرون جداً هم رجال الدولة العظام الذين لم يتعرضوا للفرامة او النفي أو حتى لعقوبة الاعدام احياناً .

لقد قيل عن هذه الظنّة انها من قبيل الحسد الذي يتآكل النخبة . وفي هذا القول بعض الحقيقة لأن الجماهير في كل زمان ومكان متقلبة متلونة متحفزة لإسقاط أولئك الذين تبدو وكأنها لم تضعهم داخل الهيكل إلا لتجعل منهم هدفاً لحذرهما . وتجدر الإشارة هنا الى ان هذا السلوك لم يكن قط وفقاً على المدن الديمقراطية حينذاك . فقد سلكته المدن الاوليفارشية أيضاً حيث تسمي الطبقات الحاكمة الظن في من يسعى وراء الظهور من اعضائها . لقد قيل الكثير عن الحسد الديمقراطي او بغضاء الجماهير الطبيعية لكل من يلفت الانظار بسموه عن المستوى العام . ولكن الجدير بنا ، اذا كان لهذا الحسد من اثر ، ان نقول عنه انه يوناني المنشأ وانه جزء لا يتجزأ من سيكولوجية «البولس» . ويجب في الحقيقة ان نبحث عن اصله في اختبار عهود الاستبداد السابق ، الذي يكفي للوقوف موقفاً حذراً من الشعبيات الكاسحة التي يستطيع من يتمتع بها ان يفرض سلطته الشخصية ويستبدل النواميس بأرادته . فقد قدرت سبارطة حق قدره الضرر الذي أنزله بها كبرياء الوصي بوزانياس الذي انتصر في بلاتيا ، كما ان أثينا لا تزال تحشى قيام بيسيستراتوس جديد .

ان عودة السلطة الملكية ، ودخولها مرة ثانية في صميم الحضارة اليونانية سيتفق حدوثها مع نهاية الحضارة الكلاسيكية . كما ان في هذه العودة وهذا الدخول أوضح مصداق لهبوط الحضارة الكلاسيكية وزوالها .

ان هذه المبادئ العامة التي اتفقت الاوليفارشيات والديمقراطيات على الأخذ بها الجمعية قد أفضت بالضرورة الى تشابه في تنظيم السلطات العامة . فليس ، على الخصوص ، من مدينة حقيقية بدون ثلاثة أجهزة سياسية : الجمعية والمجلس والقضاة المدنيون . وقد تتفاوت الأهمية العملية النسبية لهذه الأجهزة لا من حيث توزيع الكفاءات المختلفة فحسب ، بل ، بنوع خاص ، من حيث الذمينة والعادات التي تسيطر نشاطها . ولكنها موجودة في كل مكان . ويؤيد شمولها سوابق راسخة في القدم . ففي الدولة الهوميروسية نفسها لا يقدم الملك عادة (وهو يوازي القضاة المدنيين بمفرده) على اتخاذ أي قرار قبل الاستئناس بآراء مستشاريه ، وفي

الظروف الهامة يدعو الجمعية للالتزام . وقد جعل التطور اللاحق هذه الاجهزة اكثر متانة ،
إذ ان افضل وسيلة للحد من تجاوزات السلطة هي في وضع السلطة تحت رقابة وسيطرة اجهزة
جماعية . لذلك فان الشروط العامة لملائقتها المتبادلة قد فرضت نفسها في كل مكان .

تقوم في الاساس جمعية المواطنين ذات السيادة من الوجهة النظرية . وستلقت انتظار الرومان
الذين يخضعون لعادات اخرى ملاحظة نافذة لها مغزاها ، وهي ان اعضاء الجمعية اليونانية
يشتركون في اعمالها جالسين على مقاعد خشبية ، أو درجات معدة في الارض المنحدرة .
فتثبت الجمعية بذلك رمزيا ، أمام المكتب الذي يرأسها ، سلطتها الاولى النافذة ، كما سيخال
لثيرون . ولا يمكننا ان نتصور في غير سبارطة الحق القانوني الممنوح للمجلس والملوك في رفع
جلسة الجمعية اذا ما اتخذت « قراراً معوجاً » . ولكن لم يعمل قط بهذا الحق حينذاك . فقد
آثر الحكام في سبارطة والمدن الاوليفارشية تجنب الصعوبة على مجابتهها . فالجمعية ، وفاقاً
للانظمة ، قد تتسع لكثير أو قليل من الاعضاء ، وقد تتعدد اجتماعاتها او تقل ، وقد تفعل فيها
أو لا تفعل تأثيرات تجعل من سيادتها النظرية سيادة واقعية متفاوتة المدى . ولكن المبدأ سليم
ولا اعتراض عليه إلا في سبارطة بفعل تشريعها القديم .

اما الخلافات البيّنة فتدور حول دخول الجمعية الذي وضعت له في المدن الاوليفارشية
شروط مقيدة ، متفاوتة جداً على كل حال . يطيب لهذه المدن مثلاً تأخير السن القانونية التي
يحددها غيرها حوالي العشرين ، وتوجد الفوارق بين المواطنين في ما تفرضه عليهم من رسوم
مختلفة للاشتراك في الاقتراع ، ويذهب بعضها أحياناً الى حرمان الذين يمارسون ، أو حتى الذين
مارسوا ، مهنة أو تجارة صغيرة ، من هذا الحق . فينتج من ذلك ان سيكولوجية الجمعية وسلوك
اعضائها يختلفان كثيراً باختلاف المسدّن . يتمتع المشتركون الحاضرون مبدئياً بحقوق متساوية
داخل الجمعية لا سياحق ابداء الرأي . ولكن مراعاة الفوارق الاجتماعية تحصل من هذا المبدأ
حرفاً ميتاً في المدن الاوليفارشية ، مما يبرّر تباهي الاثنين بأن ديموقراطيتهم مبنية على
« المساواة في حق الكلام » التي هي بالفعل عندهم واقع راسخ .

على الرغم من هذه الفوارق ، ليس شمول وجود الجمعية مجرد تشابه سطحي فحسب . فانما
هو يعني ان حق الاشتراك في حياة المدينة السياسية حق شخصي لا يفوّض به احد : فالليونان
الكلاسيكية تجهل النظام التمثيلي ولا تدرك معنى لغیر ممارسة السيادة المباشرة . وليست هذه
الطريقة بالطريقة السهلة ، على الرغم من انكماش رقعة المدينة العادية . وقد تفضي أحياناً الى
مجرد نظرية ، كما حصل للمواطنين الذين اسكنتهم أثينا في خلقيدونيا أو في الهاليسبونت
(الدردنيل) ، محتفظة لهم بمحکم النظر في الاشتراك في اعمال الجمعية . فهل مرد هذا الى قوة
الاستمرار ؟ ربما كان ذلك ، ولكن يجب ان نضيف الى هذه القوة سبباً آخر هو في الاساس
من نفوذها ، أعني به الخوف من ان يقوم ، بين المواطن والدولة ، وسيط لا لزوم له لمن لا

يزعجه الحضور شخصياً ، او وسيط يهدد بالخطر استقلال المواطن وسيادته .

لا ريب في ان اليونان الكلاسيكية تتشابه في ذلك بكثير من المجتمعات القديمة ، ولا سيما روما ، حيث يؤدي فقدان النظام التمثيلي الى نتائج أشد مغايرة وتناقضاً . ولكن طريقة التصويت ، على تنوعها في المدن المختلفة ، وفي المدينة الواحدة احياناً ، تكشف عن ميزة خاصة بالاغريق دون غيرهم . فالجمعيات الرومانية تصوت بفئاتها التي تتمتع كل واحدة منها بصوت ، دونما نظر الى عدد الاعضاء الحاضرين ؛ ولذلك فالساواة المعترف بها قائمة بين الفئات كقنات ، لا بين المواطنين كأفراد . اما في الجمعيات اليونانية فالتصويت ابدأً فردي فقط ، على ان ينصهر كل عضو ، عند جمع الآراء النهائي ، في مجموع واحد . واننا لنلحس هنا ايضاً ذلك الحرص نفسه على المساواة بين المواطنين المتعزلين وذلك التصميم نفسه على حماية الاستقلال الفردي وتلك الحشية نفسها من ان يقوم بين المواطنين والدولة جهاز يستطيع الحد من التماسك المباشر المتبادل بينهما .

قد يبرز المجلس ، وهو الجهاز السياسي الثاني المشترك بين كافة المدن اليونانية ، اكثر المجلس
اهمية ايضاً من الجمعية . فليست هذه الاخيرة ، في بعض الاوليفارشيات المتطرفة ، سوى جهاز شكلي فحسب . اما المجلس فيعقد اجتماعات متكررة في كل المدن ويلعب دوراً هاماً في المدن الديموقراطية ودوراً رئيسياً في المدن الاوليفارشية من الناحيتين النظرية والعملية .

انه في كل مكان يراقب نشاط القضاة المدنيين ، ويؤمن الاعمال الادارية الجارية وتنفيذ مقررات الجمعية ، ويعد هذه المقررات ويرجعه بالتالي سياسة المدينة . ولكن الانظمة الاوليفارشية توليه ، بالإضافة الى ذلك ، صلاحيات قضائية واسعة في الحقلين المدني والجنائي ، ومهمة العناية بالمحافظة على العامة والخاصة ، وهي مهمة يزيد في اتساعها غموض الكلام الذي يحددها . وبما يجعله ذا حظوة لدى هذه الانظمة ويحدد بها لتوسيع صلاحيته او بالاحرى للامتناع عن تخفيضها ، كونه هيئة استشارية محدودة العدد ، لانه بذلك اقل تعرضاً للانجرافات الطائشة ، ولان تشكيله ، بنوع خاص ، يمكن ان يمحصر في حدود آمنة . وقد يعين اعضاؤه احياناً مدى الحياة ، ولكن يجب ان تتوفر فيهم لذلك بعض الشروط ، لا من حيث السن والثروة فحسب ، بل من حيث النسب احياناً ايضاً . وهكذا يتاح للتأثيرات الاجتماعية ولقوة التقاليد ان تلعب دورها فيه بمزيد من السهولة .

بيدان الديموقراطيات ، اذا هي خفّضت هذه الحواجز وحاولت بشتى الوسائل تشكيل مجلس يكون صورة مصغرة عن مجموع المواطنين ، تشعر بحاجة لان تتجاشى ، بوجود هذه الهيئة المحدودة وصلاحياتها ، الاخطار الرئيسية العملية لسيادة « ديوس » (شعب) يعبر عن آرائه في جمعية مرتجلة وسريعة الزوال . فالجلس الذي يمارس صلاحياته سنة كاملة يؤمن حداً أدنى من الاستمرار ويدرس مسبقاً في الوقت نفسه القضايا المعروضة للنقاش او تلك التي يجب البت بها .

وهكذا فإن الواقع يفرض على المنطق المجرّد تسليكات وتنازلات لا مناص منها .

القضاة المدنيون لكل مدينة يونانية ، أخيراً ، قضائهما المدنيون الذين يختلف اسمهم وعددهم وطريقة وشروط تعيينهم وتوزيع الصلاحيات فيما بينهم . ولكن بعض الخطوط مشتركة بينهم في كل مكان ، ويستخلص منها - وليس هذا الاستخلاص بالانطباع الفرار - ان القضاء موضع شبهات مركزة وان ما من احتياط الا ويتخذ حياله .

يعين القضاء لسنة واحدة فقط ، وباستثناء الرؤساء العسكريين - وقد تأكد هذا الاستثناء في أثينا - لا يعاد انتخابهم أو لا يعاد فوراً على الأقل . وهم كثيرون العدد في كل مكان حتى في الوظيفة الواحدة ويخضعون لنظام جماعي يوزع السلطة بين عدة قضاة أصليين . وقد تمثت روما أيضاً على هذه المبادئ الحكيمة . ولكن الاغريق قد ذهبوا في حذرهم الى ابعد من ذلك . فلا يستطيع القضاء في اي مكان ان يتخذوا ، مبادأة ، قراراً هاماً . وليس سوى الضرورات العسكرية ما يوجب ، حين يقودون الجيش ، اعطاءهم المزيد من المتدوحة . ولكن دورهم العملي في الحقل الدبلوماسي والشؤون الداخلية ، يقتصر في كل مكان على التنفيذ فقط . يخضعون في كل مكان لمراقبة المجلس وللمراقبة الجمعية أحياناً . وهم في كل مكان مسؤولون عن اعمالهم ، حتى اثناء ولايتهم في اغلب الاحيان ، ولكن دائماً بعد نهايتها . وليست الامثلة ما يعوزنا ، حتى في المدن الاوليفارشية ، عن الاحكام القاسية الصادرة ضدهم .

ان في هذا لاكثر من فوارق عارضة بين اجهزة مختلفة . ان فيه لعمرى دلائل على مفهوم منطقي خاص بالمدن اليونانية . فالمفهوم الاكمل للقاضي ، الذي يستتبع سلطة مستقلة ملازمة ، روماني لا يوناني . وما كانت المدن ، ككل جماعة بشرية مصممة على العمل ، لتستغني عن « طليعة » . ولكنها لم ترض قط ان تكون هذه « الطليعة » أو ان تصبح سيّدة . ولذلك فقد سعت دائماً الى تجنب هذا الخطر الممكن .

الاوليفارشيات والديمقراطيات :
المواطنون الايجايون
والمواطنون السلييون
اذا ما اقتصرنا على الخطوط الكبرى ، اتضح لنا ان اوجهه التشابه بين الاوليفارشيات والديمقراطيات لا تتمدد ما ذكرنا . ومرد اكثرها ، كما سبق ورأينا في سياق هذا البحث ، مثل اعلى مشترك للاستقلال والحرية هو ، كما يبدو لنا ، هدف الاغريق الرئيسي في العهد الكلاسيكي . وهذا يعني استقلال وحرية المدينة والمواطن على السواء . وفي سبيل توفير هاتين النعمتين الكبيرتين للمدينة والمواطن يتوجب على المجموع والفرد التضامن والتعاقد المتبادل . فصولاً للاستقلال ، تحتاج المدينة الى تقاني مواطنيها الفعّال الحر . وهي مقابل ذلك تسعى بشتى الطرق وراء توفير استقلالهم الفردي والحفاظة عليه .

يحل التناقض محل التشابه وتتسع الحفرة بين الاوليفارشيات والديمقراطيات حين يتوجب تحديد المواطن الحقيقي ، أي ذاك الذي له من الحكمة والخبرة والمصالح ما يكفي لنمحه حقوقه السياسية بكمالها . هنا لعمرى ير الخط الفاصل بين النظامين .

ولخص الديمقراطية التفريق بين مواطنين إيجابيين ومواطنين سلبيين . فالقاعدة فيها هي « الايزونوميا » أي المساواة أمام « الناموس » . ومن الطبيعي ان تقدم أثينا المثل بقوة منطق لا يتناهى مع حد أدنى من التسليم للضرورات العملية بنوع خاص . فيكفي ان يكون الانسان مواطناً حتى يتاح له دخول الجمعية وحق ابداء الرأي فيها والفرز بعضوية المجلس وممارسة اكثرية مهام القضاة . ولا ريب من حيث المبدأ ان هنالك بعض الشروط المالية لوظائف القضاة او لأهمها على الأقل . ولكن هذه الشروط يدركها العفاء ، فيما يخص الأراكنة ، منذ منتصف القرن الخامس . وليس سوى أمناء الخزينة من يجب ان ينسبوا الى الطبقات الثرية حتى يتمكنوا من تقديم الضمانات اذا اساؤوا التصرف . اما قواد الجيش والاسطول الذين يتصرفون بالاعتمادات العسكرية والدبلوماسية فيكفي ان يملكوا عقارات في الاتيك وان يكون لهم في الوقت نفسه ولد شرعي . ويستدل من هذا الشرط الاخير ان الغاية المتوخاة ليست تأمين رهن احتياطاً لدعوى ممكنة ، بل ضمان مرشحين يهتمون لأمر المحافظة على ارض الوطن بحافز غيرتهم على عائلة واملاك غير منقولة ، وكلاهما معرض جداً للخطر في ظروف الكوارث العسكرية : فالهدف اذن توفير الرؤساء المستعدين لكل تضحية ، تهربا من اولئك الذين لا تشدهم الى الوطن صلة العائلة والبيت . تلك هي اهم الفوارق في المساواة النظرية بين كافة المواطنين . ويجب ان نضيف الى ذلك ان القرعة قد اعتمدت قاعدة في تعيين المستشارين والقضاة باستثناء اولئك الذين تستلزم مهمتهم معارف فنية ، كالرؤساء العسكريين مثلا . ولادراك ظهور هذه الطريقة ، يجب ان نعود بالذاكرة الى مبررها الديني ، كما يجب ، لادراك شمولها ، ان نوسع مكاناً خاصاً لكأبوس التأثيرات المالية والنفسية والدسيسة العادية والحائلة نفسها ، وكان من شأنها كلها ان تقضي على المساواة التي هي محك الديمقراطية واثمن فتح حققة « الديوس » .

على نقيض ذلك ، تفرق الاوليفارشيات بين المواطنين ، آخذة باعتبار السن والملكية العقارية ومجموع الثروة والنسب ، وفاقاً لطرائق متنوعة جداً ، متأثرة بهذا او ذاك من العوامل على حدة او بعدة عوامل في آن واحد . وليس هنالك نموذج للأوليفارشية ، بل اوليفارشيات قد يتفاوت عدد حكامها ، حتى ان بعضها قد اعتبرت في نظر المصنفين الاقدمين ولا سيما ارسطو ، كديموقراطيات معتدلة . ولكنها انتهت كلها الى تخفيض عدد المواطنين الذين يحق لهم الاشتراك في الحكم بالنسبة الى عدد المواطنين العام . وتشعر كلها ، في اعماقها ، بحنين دائم الى الانظمة القديمة ، اذ كان الاشراف ، بفعل تفوقهم ثروة و« صلاحاً » ، يسيطون حولهم ، بقوة التقاليد والاعراف ، نفوذاً مسيطراً . وهي لا تسلم إلا بما هو ضروري للتطور العام . فحيثما تبدلت الحياة الاقتصادية بعض التبدل وتوسعت بعض التوسع ، اضطرت هي للاعتراف ببعض الحقوق للثروة حتى المتقولة منها . غير ان الفقر ، وهو عيب لا دراء له ، لا يحرم من الوظائف العامة فحسب ، بل غالباً ما يحول دون دخول الجمعية التي لا دور نافذ لها على كل حال . وهكذا

تكوّنت المعادلة العملية « اوليغارشيون - اغنياء » التي تحوّل النزاعات السياسية الى منافسات اجتماعية ، منذ نهاية القرن الخامس بنوع خاص .

٣ - الديمقراطية اليونانية

من الخطأ الفادح ان تصور ، انطلاقاً من اولوية أئينا الفكرية والفنية في تقدم الديمقراطية عهد بريكليس ، ان الديمقراطية سادت العالم اليوناني منذ القرن الخامس . فما زالت الانظمة الاوليغارشية ، حتى في ذاك العهد ، كثيرة وقوية ، لا بل انها تسيطر سيطرة تامة في اليونان البرية على الاقل . بيد ان النصر الشامل الذي عرفته ، لسنوات معدودة ، بفضل هزيمة ائينا في حرب البلوبونيز وبفضل نشاط سبارطة العطوف بعد انتصارها ، لم يدم سوى فترة قصيرة الأمد جداً . فلم تلبث الديمقراطية ان استقرت في ائينا ، وكانت المصاعب الاولى في سبارطة التي اصطدمت بتصميم الحكومات ، حتى الاوليغارشية ، على الاستقلال ، كافية لأن تتنفس الديمقراطية الضعفاء في كل مكان .

استمر تقدم الديمقراطية طيلة القرن الرابع الذي هو قرن انهيار سبارطة بعد انكسارها في لوكترا في السنة ٣٧١ ، وفي الوقت نفسه قرن تسرب الديمقراطية الى اليونان البرية حيث توسع توسع بقعة الزيت . ويعود الفضل في وثبة الديمقراطية هذه ، قبل ائينا ، الى طيبة التي تلبس الانظمة الديمقراطية وتعممها في كافة انحاء بيوسيا ، بعد تحررها من الاحتلال اللاكيدوني في السنة ٣٧٨ . وبعد معركة لوكترا ادخلت جيوش طيبة هذه الانظمة الى قلب البلوبونيز ، في اقل المقاطعات الجبلية تطوراً حتى ذاك العهد .

بيد ان التدخل المقدوني ، الذي يخطئ من يعتبره خدمة جلّسى للاوليغارشين ، قد اخر هذا التطور تأخيراً لامراء فيه . فمن المحتوم على فيلبوس ، في صراعه ضدّ المدن اليونانية التي يحكمها الديمقراطيون اجمالاً ، ان يستميل عطف خصومهم ، ومن المحتوم ايضاً على هؤلاء ، شأن كثير من الاغريق الذين يؤثرون الحزبية على الوطنية ، ان يستجيبوا بصورة عامة لدعوته ، بحيث ان انتصاره هنا او هناك يغدو بالتالي انتصاراً لهم . ولكن بالرغم من هذا الحادث العارض الذي افتعلته انتهازية دبلوماسي وقائد واقعي الى اقصى حدود الواقعية ، فان مصير الصراع الذي قام ، منذ قرون ، بين هاتين المثلتين لا يدع مجالاً للشك عند نهاية العهد الكلاسيكي . فالاسكندر يقيم انظمة ديمقراطية في المدن اليونانية التي حررها في آسيا من السيطرة الفارسية . وسيتسابق بعض المتنافسين ، من سينازعون إرثه ، في المبادرة الى مجاملة الديمقراطيين في اليونان نفسها . ولن يبقى للاوليغارشين حينذاك الا ان يتدبروا امرهم المفعول بايجاد انظمة مبتكرة كي يخفوا ، وراء ستار ديمقراطي ، واقفاً آخر غير ديمقراطي .

فما هو تعليل اندفاع الديمقراطية هذا ؟ لقد لعبت الظروف الواقعية دورها ، واهما بهبوط سبارطة . ولكن نظرة واحدة الى التطور الذي رجعنا خطوطه الكبرى تكشف لنا عن أهمية حرب البلوبونيز . فإن هذه الحرب ، بحد ذاتها ، تفرض نفسها على التاريخ باتساعها وطول امددها .

ثم انها ، بنوع خاص ، كانت منطلقاً لسلسلة حروب القرن الرابع التي عقبتها وأنت على ما سلم من التدمير في كافة مناطق العالم اليوناني دون استثناء . وقد ضعفت هذه الحروب ، في كل مكان ، التوازن السابق ، وحررت قوى مستقرة ، جهلت نفسها فيما مضى وقدرت ، منذ ذاك الحين ، الخدمات التي قدمتها للمدينة . وأفقرت الطبقة الريفية المتوسطة التي كانت تدعم ، بعدد افرادها وثباتها ، التقاليد القديمة . وأبرزت أو زادت الخصومة بين الاغنياء والفقراء التي لم تكن من قبل سوى مظهر من مظاهر الخصومة بين النظامين المتقابلين ، والتي غدت اليوم مظهرها الرئيسي . فلماذا ما عرضت المشكلة على هذا الشكل مجدها ، موجزة ومعقدة من عناصرها المعنوية التقليدية ، يتحتم والحالة هذه ، تغلب الديمقراطية لأنها تنفق ، اكثر من منافستها ، مع بعض النزعات العميقة الجذور ، على الأقل في الحضارة اليونانية الكلاسيكية . فالحرية وتفتح الشخصية الانسانية يستلزمان بالضرورة فكرة المساواة ، كما ان المفهوم المتبع للمدينة والمواطن يوصي منطقياً بأنظمة سياسية تمنح الحقوق نفسها لجميع اعضاء الهيئة المدنية . وكان من الواجب ، لإيقاف الدفعة الديمقراطية ، تبديل مثل « البولس » الأعلى بالذات ، وهذا ما لا يتوفق إليه ، على الرغم من حدة هجماتهم ، فلاسفة القرن الرابع المشهورون اجمالاً برغبتهم عن الديمقراطية . فكانت دعاوتهم ، عند سواد معاصريهم ، صرخة في واد ..

بيد ان الديمقراطيات اليونانية لم تسر في المنطق الى ابعد من هذا الحد . وقد يشتموننا ان نصمها بالتناقض لأنها حصرت في مواطنها دون غيرهم ، حقوقاً كان من المتوقع ان تمنحها لغيرهم بمزيد من السخاء . أجل يبدو في تعاليمها بعض دلائل الشمول . ولكن هذه التعاليم لم يتسع نطاقها ، لا بل انها لم تشمل أناساً يقيمون في اراضيها ، منذ اجيال أحياناً ، ويمارسون عملياً حياة المواطنين اليومية . ان هذه الثغرة ، في الناحية الانسانية من الحضارة اليونانية الكلاسيكية التي تشدنا إليها ألف صلة وصلة ، من الخطورة بحيث لا يجوز ان نشير الى وجودها مجرد إشارة فقط .

صحيح ان أثينا ، مثال الديمقراطيات اليونانية ، لم تفكر هنية واحدة بالغاء الرق . واكتفت من هذا الأمر ببعض المستحبات الشرعية التي رافقت بعض ما طرأ على الأخلاق من رفق وخففت بعض الشيء من مصير الأرقاء فيها بالمقارنة الى المدن الاخرى .

صحيح ايضاً ان أثينا قد اعتمدت ، حيال الأجانب ، حرماناً شرعياً رافق تقدمه تقدم الديمقراطية . ففي اوائل القرن الرابع ، فكر صولون باعطاء صفة المواطن لمبعدي المدف الاخرى وللأجانب الذين يأتون مع عيالهم للعيش والعمل في « الأتيك » . وحين قام كليستين ، بعد ذلك ، باعادة توزيع المواطنين الطبقي ، استفاد من الظرف لتسجيل مقيمين أجانب عديدين كمواطنين . ولكن هذه المعاملة الكريمة زالت خلال القرن الخامس ، ومسح ذلك فقد بقيت أثينا مضيافة . وعاش هؤلاء المقيمون على اراضيها بأعداد كبيرة وكانوا بنشاطهم عنصراً

ضرورياً لازدهارها الاقتصادي . فاختلطوا بالمواطنين وعاشوا مثلهم على مساواة في المهنة والثروة ، أقله في المدينة ، إذ ان الريف لا يستهويهم بسبب حرمانهم من حق التملك . وتلقى اولادهم تربية اولاد المواطنين نفسها ، وفي المدارس نفسها . واخضعوا للواجبات العسكرية والمالية نفسها التي أخضع لها المواطنون ولم يميز عنهم ، على هذا الصعيد ، سوى رسم سنوي طفيف فرض عليهم . وحكوا أمام المحاكم نفسها ، ووفقاً للقانون نفسه . واشتركوا أخيراً اشتراكاً وثيقاً بحياة المدينة الدينية والأدبية . ولكن لا مكان لهم في حياة المدينة السياسية . فلا يسهم الاشتراك فيها إلا بحصولهم على صفة المواطن ، وقد بخلت أثينا بهذه الأعطية . وفي الظروف العادية لا تمنحها أثينا إلا لبعض الأفراد مكافأة لهم على بعض الخدمات الجلّسى في مختلف الحقول . ومن النادر جداً أن يكون المنح جماعياً .

من أوجه التناقض أيضاً ، أن تتبنى أثينا ، في عهد متأخر ، بناء على اقتراح اوسع رجال الدولة الديموقراطيين نفوذاً وأشهرهم ذكاء ، تشريعاً يتصف بنزعة العنصرية الظاهرة . فخلال وقت طويل - وفي غير أثينا أيضاً - حتى لمن كان أبوه مواطناً وأمه أجنبية ان يكون مواطناً : وهذه كانت حال كليستين وحال كيمنون بن ميلتيادس مثلاً . ولكن القانون الصادر في السنة ٤٥١ - ٤٥٠ والذي اقترحه بريكلئس نفسه يقصر المواطنة على الاولاد الشرعيين على ان يكون كلا الوالدين أثينيين . اما الاولاد الآخرون فلا يستطيعون الحصول عليها إلا بقرار فردي لأن القانون يجعل منهم أنغلاً أو اجانب . وليس استصدار هذا القرار بالأمر السهل : فقد وجب ، بصورة خاصة ، ان يفقد بريكلئس اولاده الذين أنجبته لهم أمهم الأثينية حتى يصدر مرسوم بمنح صفة المواطن للولد الذي أنجبته له أسباسيا الملية .

كان بريكلئس هذا نفسه منشئ الامبراطورية الأثينية الرئيسي في الديموقراطية والاستعمار
القرن الخامس التي قضت عليها حرب البوبونيز والتي أراد أثينيو القرن الرابع ، الذين ما فتشوا يحنون اليها ، إعادة انشائها . ومن النافل هنا ، ان نسهب في محاولة رسم صورة للاستعمار الأثيني . فإن قسوته التي لا تعرف الشفقة ، وتتنصف بالمكر في القرن الرابع ، وتجاوزاته المستمرة على حريات أولئك الذين تعاملهم أبداً معاملة « الرعايا » على الرغم من انهم يحملون اسم « الحلفاء » ، وعبء متطلباته الثقيل في شتى الحقول ، خطوط لا يستطيع احد ان ينكرها ، ولا ينكرها احد بالفعل . يحاول البعض العثور على خشية الخلاص في ديوسستينس الذي ترقق فعلاً ، في بعض نقحات خطبه الرائعة ، الى وضع برنامج اتحاد حر تدخله الدول اليونانية للدفاع المشترك عن استقلالها . ولكن خطباً أخرى للخطيب نفسه تعبر عن التأسف على سيطرة سالفه ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن المشاريع في سبيل تأمين المساواة بين المشتركين في الجهود العام لم تكن سوى مجرد حيل أخيرة فرضها تهديد فيلبوس المتفاقم . واكثر عدداً هم المؤرخون الذين يحاولون ، دفاعاً عن أثينا ، الاستشهاد بالأمثلة الرائعة ، من فكرية

وفنية ، التي وفّرتها الحضارة اليونانية ؛ فقد سبق لبريكلينس ، اذا صدقت رواية ثوسيديد ، ان قال : « أثينا مدرسة اليونان » . أجل ، ولكن المعلم قد تقاضى بشئ الوسائل من تلامذته رسوماً مرتفعة . فليس بعد العيان بيان : اذا كانت هنالك مدينة يونانية توفرت لها الامكانيات ، بفعل قوتها ونفوذها والمبادئ نفسها التي اعتمدتها في تنظيمها الداخلي ، لتحطم الحواجز التي قسّمت العالم اليوناني مدناً متعددة والسور بهذا العالم الى وحدة سياسية عليا ، فان هذه المدينة دون ريب هي أثينا . وقد يستهوي انسان اليوم ميل دائم الى الاعتقاد بأن الواجب كان يفرض على أثينا القيام بذلك ، بمجرد تمكنها من محاولة القيام به . ولكنه مضطر للاعتراف بأنها تهربت من هذا الواجب . فكم كنا نتمنى التوفيق الى بادرة او بداية ، ولو وضیعة ، تم عن توسع المدينة الاثينية وانفتاحها ، ولكننا لا نرى ولا نلمس شيئاً يذكر يوازن ابقاء المقيمين الاجانب في ظل نظامهم المتأخر او قانون السنة ٤٥١ - ٤٥٠ .

تبرز الديمقراطية الاثينية ، والحالة هذه ، اذا ما نظرنا إليها بمفاهيمنا الديمقراطية اليونانية العصرية ، وكأنها أوليفارشية فعلية لا يميزها عن الأوليفارشيات الحقيقية سوى انها اوسع عدداً . ولكن المفاهيم العصرية لا تكوّن قياساً كاملاً . والدليل على عدم كمالها يتضح بتسليم كافة المجتمعات القديمة بالرق كضرورة طبيعية او كواقع أساسي . فمن حيث التحديد ، يجب ان يتمتع المواطن بحريته الشخصية . فكيف يمكن ان يصبح العبد مساوياً من الناحية السياسية بمن يبقى سيده ، وكيف يمكن تجنب هذه الفظاعة دون قلب التنظيم الاجتماعي رأساً على عقب .

اما من حيث موقفها من الاجانب ، فيجب النظر الى الديمقراطية اليونانية كما هي ، مع ما تستلزمه من ضيق أفق وأنانية ، ولا غرابة بالتالي في ان تكون احدى الأوليفارشيات اكثر ترجيحاً بهم ، اذا ان المواطنة السلبية ، لم تحظ بأية مكانة في نظرها . ثم ان عظماء الاشراف من جهة ثانية ، كانوا ابعد من ان يرضوا بحصر تعاطشهم للنشاط والمجد ومطامعهم الزراعية وشائج قرباهم في حدود « البولس » الضيقة . وقد استهدف صولون ، من استالة الاجانب ، انماء النشاط الاقتصادي ، كما استهدف كليستين ان يصهر ، في الهيئة المدنية التي فرض عليها نظاماً جديداً ، عناصر معادية للنظام القديم . فحين تحررت الديمقراطية المنصرفة من نفوذ العائلات الارستوقراطية الكبرى ، وحين أفضى الازدهار الاقتصادي الثابت الاقدام الى تكاثر المقيمين الاجانب ، كان من الطبيعي ان يتبدل سلوك الاثينيين .

بالاضافة الى ذلك ، وفوق الاعتبارات الانتهازية ، يجب ان نفصح مجالاً لثل المدينة الاعلى بالذات . فيجب ألا يغرب عن بالنا ان المدينة اليونانية ليست اقليم المواطنين بل مجموعهم . لذلك فسلامة حدودها البشرية اهم من سلامة حدودها الاقليمية . ثم ان المدينة اليونانية لا تعتبر استقلالها سليماً ومؤمناً إلا اذا اقامته على سيادتها . فإنما هي انانية المدينة الطبيعية على

أصبعد الدولي التي ترثدي ، بانتقالها الى الصعيد القومي ، شكل انائية المواطنين . وبمقدار ارتفاع قيمة حسنات المواطنة المادية والمعنوية ، يتوجب التمسك الحريص بحق الانتفاع بها . وبمقدار اقبال الاجانب على عاصمة الامبراطورية وعلى وسط ايجي التجاري وعلى مركز اشعاع الحياة الفكرية والفنية ، يزداد خطر ادخالهم في نظام المواطنة ، لأن من شأن هذا الادخال ان يفتقر المدينة ويقضي على صفاتها المميزة التي تجعلها هي بالذات لا غيرها . فاذنا نقول اذن عن صهرها في دولة أرحب اتساعاً يصبح فيها جميع الاغريق مواطنين والمدن ذات السيادة مجرد قرى ؟ لو ان هذا الحلم ، الذي نراه اليوم طبيعياً في خضم الوحدات القومية ، راود فكري اغريقي في ذاك العهد ، لرأى فيها فظاعة ما بعدها فظاعة ، لأن البولس كانت في نظره المعطية الاساسية والاطار الطبيعي لكل حياة متحضرة .

فلا تناقض اذن في الديموقراطية اليونانية التي حققت المثل الأعلى الكلاسيكي باقامة المساواة بين جميع المواطنين وانقادت له ايضاً باقصار هذه المساواة عليهم وبشوتها في وجه تسلل الاجانب ؛ كما ان بريكليس ، بقانون السنة ٤٥١ - ٤٥٠ وبسياسته الاستعمارية ايضاً ، لم يناقض عمله الداخلي ، بل اكمله على قناعة منه انه إنما يعمل على توطيده .

الحياة المادية والاجتماعية

١ - المجتمعات الريفية

من حيث ان اليونان تجزأت سياسياً الى مدن عديدة ، ظهرت الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها بمظاهر متنوعة جداً . فالاستقرار بحرية على العموم بسبب فقدان الطرقات . ولكن مدناً كثيرة نائية عن المرافىء تتصل بهذه المرافىء وبمدن داخلية اخرى بواسطة مسالك سيئة فقط . لذلك ، وباستثناء بعض النقاط المحظية ، لا يمتزج الرجال والافكار ولا تقايض المحاصيل إلا بقدر محدود جداً . فعنصر الوحدة الفريد ، اذا ما اردنا ، بأي ثمن ، اكتشاف مثل هذا العنصر ، يكون والحالة هذه سيطرة الحياة الريفية في كل مكان تقريباً ، اذ ان سواد سكان اليونان يعيشون في الريف ومن الارض . اما توسع بعض المدن وتجميلها وحيوية نشاطها البحري فيجب ألا نكون عنها صورة خادعة .

ولكن هذه الحياة الريفية نفسها ، على الرغم من مماثلة ظروفها العامة تربة ومناخاً ، لا تتخذ الاشكال نفسها في كل مكان .

ان في بعض المناطق ثروات عقارية طائلة . وهذه المناطق انما هي تلك التي
كبار الملاصين تتميز ارضها بالخصب اقله لزراعة الحبوب ، او تكثر فيها المراعي التي تسمح بتربية المواشي الكبيرة لاسيما الخيل ، أي ، على العموم ، المناطق السهلية التي يجري فيها نهر دائم الهامي تقريباً . ويتمتع المحظيون مالكو الارض بقدر من الثروة يتيح لهم اجراء الاختبارات فيها واعتماد الاساليب الزراعية الجديدة . فالإقليم يعود الفضل في انتشار استعمال الامدة والمروج الصناعية في القرن الرابع ، فأفضى ذلك الى تخفيض مساحات الارض البور وانتشار تربية المواشي . ويرمى كسينوفون في كتابه الاقتصاد صورة مثالية للسيد النابه

الذي يتلقف ذهنه كل جديد ويهتم بفهم لمصالحه ويدير بحزم شؤون بيته بواسطة زوجته التي يقدق عليها النصائح الحيرة وشؤون اراضيه التي يرافق استثمارها عن كسب .

ان كبار الملاكين هؤلاء لا يعملون بأيديهم . فهم النخبة الاجتماعية في الارياف وحتى في المدن ، لانهم ، بفعل نبلهم ، مدينون بأملآكلهم لجودهم . يقضون اطيب ايامهم ، بعد الاستسلام لأهواء شبابهم في المدينة ، في بيوتهم العائلي القديم المتوسط عقاراتهم . وما مثل الارستوقراطية القديمة الاعلى في الحقيقة سوى مثلهم بالذات : فلا تمنعهم هوية الثمارين الطبيعية والصيد والفروسية والاطعمة الفاخرة من تقدير قصائد بنذاروس ، حتى ولا مآسي أوريبيد التمثيلية في مقدونيا الشديدة البرد . ومن حيث انهم اشراف محليون ، فانهم يهتمون لحياة القرية او المقاطعة الصغيرة اللتين تتقدم فيهما عائلتهم على غيرها واللتين ينظر الجميع الى عبادتهما كإرث خلفه لهم جدودهم . ويلعب اشهرهم نسباً واغنائهم ثروة واكثرهم إقداً وذكاء دوراً هاماً في حياة المدينة نفسها . ولكن نفوذهم حاسم في دائرة اقل اتساعاً . فالعمال الزراعيون المرتبطون بهم بمثابة زبن يتفانون بالضرورة في سيبلهم . ويتأثر بهم ايضاً فلاحو الجوار الاحرار حتى ولو لم تربطهم بهم اية رابطة قانونية . وقد يصح ان نتكلم ، في بعض المناطق المتخلفة كتساليا ومقدونيا ، عن الاسياد واصحاب الاخاذات لان هؤلاء قد توصلوا ، عند الحاجة ، لان يجندوا المزارعين في اقطاعاتهم لاجل الحرب الخارجية او الاهلية .

وهناك اكثر من ارتباط اقتصادي أو امانة في الخدمة أحياناً . فليس من مكان القداية قط يجري فيه الاستثمار على نطاق واسع بواسطة الأرقاء الموزعين فرقاً براقبة رئيس للعمال ؛ لان هذه الطريقة لن يمتددا احد قبل الرأسمالين الرومان . ولكن القداية واقع رهن هنا او هناك ، وهي تعني استثمار الارض بواسطة رجال مرتبطين بها غير مسموح لهم بفادرتها . واذا كان الفداديون ، في تساليا او كريت مثلاً ، ملك صاحب الارض ، فان اكثر الحالات غموضاً هي حالة الفداديين الرسميين في سبارطة .

للدولة وحدها حق تحرير فداديبها ، وهي التي وضعت نظامهم وألحقهم باقطاعات لم تنسح مواطينها مبدئياً سوى حق الانتفاع بها . ينشأ الفداديون عائلاتهم بحرية ويزرعون على هوامم قطعة الارض التي أقاموا فيها . ولا يتوجب عليهم ، للمواطن الذي نُخِصَتْ به هذه الارض ، سوى فريضة عينية سنوية تحدّد مرة واحدة ، ويحتفظون بحق التصرف تصرفاً كاملاً بالفائض من المحاصيل .

يبدو مصيرهم ، من الناحية الاقتصادية ، محتملاً على الاقل . والدليل على ذلك ان ستة آلاف فداي ، في اواخر القرن الثالث ، يمتلكون المال الكافي لشراء حريتهم من الدولة بدفع مبلغ يوازي ، في ذاك العهد ، السعر الوسطي لعبد جيّد . أجل هنالك واجبات اخرى تنوء عليهم بثقلها : الخدمات المنزلية التي تفعل نوعيتها ، وتقديم الخدم للمساعدة على حمل العدة وحتى

تقديم المشاة الخفيفي التسلح الذين يرافقون المواطن في الحملات العسكرية . ولكن ما يصعب حالتهم ، على ما يبدو ، هو التدابير الشرطية التي تتخذها سبارطة بحقيهم : كإطلاق الحرية للفتيان السبارطيين ، خلال خدمتهم العسكرية ، بقتل كل فداي يتجول ليلاً ، وكتحطير حمل الأسلحة عليهم . ولعل المسؤولين في سبارطة كانوا يشتهون خاصة بالمستفيين الذين استعبدوا منذ القرن الثامن وثاروا بعد ذلك أكثر من مرة . ولكن اضطراب جبل الامن قد استمر حتى بعد استعادة مسيليا استقلالها على يد ايبامينونداس في السنة ٣٧٠ ؛ كما ان الملوك الثوريين ، كليمينوس الثالث ونابيس ، في سبارطة الهلينية ، قد لاقوا عضداً لدى الفدائيين . فليس الفداي ، كزارع مضطر لدفع فريضة غير مرهقة ، من تألم بنوع خاص من هذا الوضع وهذه القسمة ، بل الفداي كإنسان يتزايد إحساسه بكرامته في عالم تسير فيه الفردية بخطوات حثيثة .

غير ان مناطق الثروات العقارية الطائلة ، حيث تزرع الارض بواسطة عمال صفار الملاكين زراعيين او فدائيين ، لا تغطي سوى قسم ضئيل من مساحة ارض اليونان . فهناك نظام زراعي آخر يسود البلاد بشكل ظاهر جلي ، اعني به نظام الثروة العقارية المحدودة التي يستثمرها مالكيها بالذات . نعرف هذا النظام معرفة تامة في افريقيا ولكننا نعرف انه يسود في غير مكان ايضاً ويكون بلا مراء المثل الاعلى لسواد الاغريق الاعظم . وهو نفسه تلك الحياة التي سعى وراءها في القرنين الثامن والسابع من هاجر منهم الى المستعمرات المؤسسة حول حوض البحر الابيض المتوسط . وهو نفسه الحياة عنها التي سيسعون وراءها في الشرق ، متابعين خطى الاسكندر ، او ملين نداء الملوك الهلنيين .

اما في أثينا فإن اعادة نظام الاملاك الصغيرة وحمايتها فيها ماثرة القرن السادس ، والقرن الخامس هو عصرهما الذهبي . فلا أجناب في الارياض لأن المبدأ الرئيسي هنا ، شأنه في كل النواحي ، يقصر على المواطنين حتى تملك العقارات . ثم أدى توزيع الارث بين البنين الى تجزئة الارض . ففدا أكثر من نصف المواطنين يملكون شتيتاً من قطع الارض النائية عن منزلهم الحقيقي . وكثيراً ما طرأت هذه التجزئة نفسها وهذا التشتت عينه على ممتلكات الدولة والجماعات والمعابد . فاستطاع الفلاح بسهولة ان يوسع ملكه الخاص باستثماره ، عن طريق التعاقد الحر ، قطعاً قريبة منه قد تبقى باثرة لولاه .

ولكنه ، على الرغم من عمله الجاهد ، لا يحقق الثروة فيها . وفي المناطق الجبلية يعيش بالتقير حطابون وفحامون تعودوا شطف العيش او رعاة ينتقلون بقطعانهم حيث الكلاً والزرع . فالمرج الجيدة نادرة جداً . ولا تعطي الارض الزراعية نفسها سوى انتاج متدن من الحبوب بسبب جفاف وحر الصيف الباكرين وفقدان رؤوس الاموال والنسق المطرد الواحد . وتحول الأدوات البدائية دون الفلاحة العتيقة . وتفرض الحاجة الى الاسمدة ، بسبب ندرة

المواشي والتقنة المتأخرة، ترك الأرض بوراً سنة بعد سنة وحراثة الحقول المزروعة ثلاث مرات في السنة ، ربيعاً وصيفاً وخريفاً ، تأميناً لاستمرار الرطوبة فيها . وليس بمكنة الفلاح عملياً ان يبيع الحبوب ولا يوفر له فائضاً انتاجياً ، وبالتالي بعض المسال ، سوى الاشجار المثمرة كالنخيل والكرمة والزيتون . فكان عمل جدوده وحرمانهم في هذه الحقول المشجرة ، بمثابة رؤوس اموال يلتفتع هو بفائدتها السنوية . ولكن المال يعوزة لتحسينها ، او لتجديدها فقط ، اذا ما عبثت بها ايدي الغزاة . ولا مطمع عنده ، من جهة ثانية ، سوى تحصيل ما هو ضروري لحياته ولا يقبل بأي شكل باهمال زراعة الحبوب . لذلك فانه يتعنى كثيراً ، تعاونه عائلته التي تفرض عليه ظروف حياته بأن يقصرها على عدد محدود : بعض الاولاد وعبد او عبدان ، لانه يعجز عن استخدام واعالة عدد اكبر .

ولكنه بذلك سيد نفسه ، يشعر ، باستقلاله ، باعتزاز حلال . ويضيف النظام الديموقراطي الى هذا الاعتزاز جبوراً يولده فيه تمكنه من الاسهام في ادارة الشؤون العامة كعضو في الجمعية الشعبية وممثل او قاض صغير . وتقريره هذه الوظائف بنوع خاص ، عملياً ، حين تحول سنة دون قيامه بالاعمال الزراعية الشاقة ، فلا يرى ضيراً إذ ذاك ، في ان يسير قبل الفجر ، يقوده احد الاولاد على ضوء فانوس خافت ، في الطرقات الموحلة المؤدية الى المدينة حيث تبدأ جلسات الجمعية والمحكمة في موعد مبكر . اما في شيخوخته فيؤثر العمل في املاكه على ضياع يومه سعياً وراء ربح بعض الدريهمات . ولكنه ، حتى في الانظمة الاخرى التي تقصيه عن الحياة السياسية بسبب ضعة نسبه او هزال ثروته ، او في تلك التي تخضعه عادتها للنموذج المطلق الذي ينعم به اشراف واثرياء الجوار ، يعمس على هواه ، لا يتلقى الاوامر من احد ، في الارض الموروثة عن آباءه والمعدّة لابنه . وفي زمن الحرب ، يرتدي دون تملل ، في سبيل الدفاع عن ذويه وبيته واشجاره وحصانه ، عدّة الهوليت التي هي إرث والدي أيضاً . ولكنه يتوق بالسليقة الى السلم الذي يتيح له حياة تتميز بالبساطة والقناعة يرضى منها بأكل شعيره المسلوقة وبصل حديقته وعسل قفرانه وتين وزيتون بستانه ، مقصراً طهي الطعام على ايام الاعياد فقط التي يتناول فيها ، مع بعض الاصدقاء من جيرانه ، وجبة تستلزم لحم التخزين وقارورة نبيذ من كرومه ، متبادلاً معهم احاديث غالباً ما تسيطر عليها السباحة . ورغباته المتواضعة وافراحه المبتدلة وشقاوته هي التي احاطها أرسطوفانوس بشعر فيه نضارة ندى الصباح وحسيس خفقان أجنحة النحل الطائر .

٢ - المتأريضات

لم توفر هذه الحياة الريفية للاقتصاد اليوناني سوى قاعدة ضيقة جداً ،
الاقتصاد المركب :
حتى عندما امتنت شرّ ويلات الحروب والاضطرابات الاهلية ، في اثناء
شراء وبيع
ايام العهد الكلاسيكي . وعلى الرغم من قناعة السكان لم تستطع اليونان
تأمين غذائهم بمواردها فقط ، باستثناء بعض المناطق التي اغدقت الطبيعة عليها العطاء ، او تلك

التي ضلّت فيها كثافة السكان . فتوجب عليها . في المناطق الأخرى استيراد المواد الغذائية من صقليا وإيطاليا الجنوبية ومصر وشواطئ البحر الأسود الجنوبية . ولكنها اضطرت لأب تصدّر محاصيلها إلى هذه البلدان كي تسدّد ثمن المواد المستوردة منها . فباعته النبيذ والزيت ، وهما الانتاجان الوحيدان اللذان يفيضان عن استهلاكها . وباعتها مصنوعات أيضاً ، وهي ضرورات أساسية فرضها عليها الفقر ، شقيقها الرضيع ، كما قال هيرودوتس ، وأدت إلى نمو اقتصاد كثير التعقيد .

فازدياد النشاط الصناعي يستلزم الحاجة إلى الخامات التي لا يسدها غير الاستيراد . والبيع والشراء من الخارج يقتضيان أسلوباً تجارياً لا تكفي موارد اليونان القديمة ، إذا ما بلغ أهمية معينة ، لأن ثؤمن المواد الضرورية لبنائه وصيانتة . ولكن هذا الأسطول نفسه مورد أرباح لأنه يتيح لقادة المراكب القيام بدور الوسيط والسماسرة في جميع المحاء حوض البحر المتوسط . ومن شأن حركة التجارة المتزايدة أخيراً أن تضاعف عمليات الصرافة ونقل الاموال وان تدفع إلى الامام ، بالتالي ، بتجارة النقد التي تتحول إلى نشاط مصرفي .

لم يتغلب هذا الاقتصاد المتنوع على الاقتصاد الريفي إلا في نقاط المراكز الاقتصادية الكبرى :
أثينا
معدودة من البلدان اليونانية ، أي في بعض المدن وبعض المرافئ القائمة في مواقع جغرافية ممتازة والأهلة بسكان عالي الهمة أو كثيري التعرض للزفافة ساعدتهم أيضاً ظروف سياسية مؤاتية .

وتبرز في هذا العهد ، من جهة ثانية ، نزعة واضحة إلى التجمع والمركزية . ففي صقليا تسير سيراكوزا قدماً في تفوقها السابق الراهن . وفي مناسبات عدة ، يتيح لها تفوقها وقواها العسكرية ، التي أمنت لها الانتصارات على قرطاجة ، إنشاء إمبراطورية أبعد من أن تكون سياسية فحسب ، فتدمر أو تخضع مدناً أخرى أو تستفيد على الأقل من تدمير الغير لها . وتساعد الهجرة ، الطوعية تارة والقسرية أخرى ، التي يسهلها أو يفرضها المستبدون الذين يوزعون المواطنة بسخاء ، مستهدفين القضاء على تلاحم رعاياهم المعنوي ، على ازدياد عدد السكان ازدياداً عظيماً . وفي إيطاليا الجنوبية ، نرى طارئاً ، وإن لم تعرف مثل هذا النصيب ، تبرز هي أيضاً بروزاً نهائياً خدماً فيه تأخر جيرانها الذين يقرض بعضهم بعضاً أو لا يتمكنون مثلها من مقاومة ضغط الإيطاليين . وفي اليونان نفسها تصبح مراكز ازدهار الحياة الاقتصادية أقل عدداً من ذي قبل . فلستقط خلقليس وإيرتريا وإيجينا أو تزول أمام نمو أثينا المطرد . وتعيش المدن اليونانية الآسيوية في ضيق ، حتى بعد أن انتهت الأعمال الحربية مع الإمبراطورية الفارسية بتحريرها وبعد أن فتحت آسيا أسواقها لتجارها . أما كورنثوس فتعافظ على مكانتها ، بفضل موقعها الممتاز للتجارة مع صقليا وإيطاليا ، وبفضل توسطها بين بحر إيجه والبحر الغربي لاسيا وأب الدوران حول البلوبونيز يخيف الملاحين . ولكن هذا التجمع كان جليل الفائدة لأثينا بنوع خاص

اذ انها تتقدم تقدماً مطرداً يكاد لا يتوقف حتى حملة الاسكندر وتلعب بلا مزاء دور العاصمة الاقتصادية للعالم الايجي .

يعود الفضل في هذا التقدم الى قوتها والسيادة البحرية التي يُعترف بها او تُفرض فرضاً غداة الحرب الميدانية الثانية ، والى « الامبراطورية » التي تسيطر عليها حتى هزيمتها في السنة ٤٠٥ ، و « الاتحاد » الذي اسسته في السنة ٣٧٧ والذي يدوم رسمياً حتى السنة ٣٣٨ . فهي تستحلب من حلفائها او رعاياها ، باسم « جزية » او « مساهمة » ، امدادات نقدية تغذي خزائنها بصورة مباشرة . تجمع الملاعين لراكيها في كافة المدن البحرية الخاضعة لها وتحصل فيها على تسهيلات تجارية وامتيازات حقوقية لمواطنيها . ويساعد التفوذ الذي تنعم به على ذبوع طرائقها الفنية وبالتالي منتجاتها الصناعية ، فيثبت الاسطول الحربي منذ ذاك الحين انه اداة دعارة نافذة . تساند قوتها السياسية نمو قوتها الاقتصادية ، وتعاضد قوتها الاقتصادية بالمقابلة غو قوتها السياسية . فاثينا مدينة لازدهارها بطاقات مادية وبشرية تتيح لها بناء وصيانة اسطول هو في الاساس من قوتها ، كما ان مكانتها التجارية تضمنها في مركز تستطيع معه القيام بالضغط وقطع بعض موارد الثمومين عن اعدائها ، وحتى فرض حصار شديد حولهم . فيتضح اذن ان هنالك ، في كلا الاتجاهين ، صلة وثيقة بين السياسة والاقتصاد .

ان اثينا التي تستورد المواد الغذائية والخامات على نطاق واسع تصدر نبيذ وزيت حقول الأتليك ومنتجاتها الصناعية ولا سيما خزفياتها التي تكتشف اليوم كسراً على الشواطىء الممتدة من غاليه حتى روسيا الجنوبية . ويفقد مرفأ البيره بفضل اسطوله التجاري الذي تحميه قطعاتها البحرية ، بشهادة ايزوقراط ، « سوقاً تتوسط اليونان ... يسهل الحصول فيها ، بسبب وفرة البضائع ، على المصنوعات التي لا يمكن وجودها في غير مكان الا بصعوبة وبكميات قليلة جداً » . واذا ما أردنا الاقتصاد على النواحي الرئيسية ، نقول ان اثينا تصدر المسكوكات اخيراً . فالفضة المستخرجة من مناجم الـ « لوريون » تسمح لها بان تضرب ، باعداد كبيرة وبربح قيم ، نقوداً مرتفعة الميار ودقيقة الوزن تعرف الرواج في كل مكان وقطع هي ، اقله في امبراطوريتها خلال القرن الخامس ، بان تحتكر بواسطتها النقد الدولي المتداول .

وهكذا تكون ، في شبه الجزيرة الاتيكية هذه ، السقي لم تحبها الطبيعة بأية مزية طبيعية ، بفضل تضافر ظروف بشرية مؤاتية جداً ، مركز اقتصادي يتصف بتنوع ونشاط وازدهار لم يعرفها مركز من قبل . ولكن هذا المركز يتصف بالهشاشة ايضاً لانه تحت رحمة كارثة بحرية - اينوسبولامي في السنة ٤٠٥ - او رقابة يفرضها عدو بري - الملك المقدوني فيما بعد - على طريق المضائق والبحر الاسود التي لا غنى عن سلامتها وحريتها لتموين سكان المدن .

٣ - المجتمعات المدنية

لم يؤد اقتصاد المقايضات اذن ، بفضل انحصاره في مراكز مضيئة ، الى الاقلال من اهمية دور

الحياة الريفية في مجموع أنحاء اليونان . ولم تنشط الحياة المدنية الا في بعض الامكنة فقط دون غيرها .

فالمدن أكثر من ان تعد في اليونان ولكنها وضعية في أكثر الاحيان . وهي تؤمن لسكان الارياف ، في ظروف الغزو ، ملجأ اسوارها وقلعتها . أما في أيام السلم فلتنشط الحركة فيها الا في أيام الاسواق والجمعيات والاعياد الدينية . واذا ما حدث ان كان المعبد الرئيسي خارج المدينة ، تتعرض المدينة لان تهجر عملياً . وهذا ما جرى بالفعل لـ « ابليس » التي اسست في اوائل القرن الخامس والتي ارتبطت بها اولمبيا اولاً . ولكنها لم تستطع منافسة نفوذها لدى مواطنيها انفسهم . فكان في اولمبيا في أواخر الألف الثالث ، كما يقول « بوليب » « عائلات على كثاف من الثروة لم يذهب احد من اعضائها ، منذ جيلين او ثلاثة ، لحضور جمعية في المدينة » ، لأن العدل تقرر اجراؤه في الارياف . فيمكننا ان نستخلص ، من هذه الحالة النادرة جداً ، الحياة الهادئة ، والحامدة غالباً ، في غالبية المدن الصغيرة .

اما في المدن الكبيرة فنعرف ، على الاخص ، طرازين حياتيين هما طراز سبارطة وطراز أثينا .

ان سبارطة التي ادهشت الاقدمين حتى الاعجاب قد حيرتهم في الوقت الحية في سبارطة نفسه بظهرها الحقير . اجل قامت فيها بعض الابنية ، التي شاهدها زائرون قليلون جداً على كل حال ؛ لانها منذ القرن الرابع لم تعد تلك المدينة المضيفة التي كانت . ولكنها ما كانت لتجواب مع الفكرة التي كوَّنها الاغريق عن المدينة . فلم تتوسطها القلعة ، ولم تحط بها الاسوار الا في تاريخ متأخر ، بل كانت اشبه بمجموعة قرى كبيرة .

يمارس مواطنوها ، منذ سن السابعة حتى سن الثلاثين ، التدريب والجندية ، ومنذ الثلاثين حتى الستين ، ينتمون الى قوة الاحتياط الدائمة التأهب المستعدة ، في النهار نفسه ، لتلبية نداء التعبئة ، والمفروض على افرادها ايضاً ، الا باذن استثنائي ، ان يتناولوا وجبة العشاء مع اولئك الذين سيكونون رفاقهم في الحيم اثناء الحملات العسكرية . يحظر عليهم كل سعي وراء الكسب ، وكل عمل غسير التمرين الرياضي والعسكري . لا تضرب الدولة سوى نقود حديدية ، ويجب الا يقتني السبارطي الحقيقي معادن ثمينة . فالقريضة العينية المتوجبة على الفدادين في املاكها تكفي نظرياً لاعالته وإعالة أسرته دون ان يقوم بأي عمل .

كان من نتيجة هذا النظام العسكري والاجتماعي الصارم ، الى جانب فئة « المتساوين » ودونها ، اي الى جانب المواطنين الكاملين ، فئات اخرى متدنية : الفدادين في الارياف ، و « المهنيون » في اطراف الارض اللاكيديمونية الذين يجتمعون في مدن صغيرة ويتعاطون الزراعة الحرة والصناعة اليدوية والتجارة ، و « المتدنون » في سبارطة نفسها ، اي المواطنون المنحطون والانتال والمحررون وغيرهم كثيرون ممن يتوقون الى مثل أعلى . هو العودة او الانضمام الى طبقة المتساوين . ولكن هذه العودة وهذا الانضمام ما كانا ليمنحا الا بقرار من

السلطات ، على ان يمتلك المستفيد منها ارضاً منتقلة اليه بالوراثة او بالزواج من وريثة غنية ، لان الفقر الذي يفرض العمل عقبة تتنافى مع وجوده في عداد المحظين .

ان تعداد نتائج مثل هذا النظام ، الموضوع ، وفقاً لمنطلق لا يخلو من الخطأ ، بغية توفير جنود على مستوى عال من التدريب ، لسبارطة ، يؤدي بنا الى إطالة لا موجب لها . فيكفي ان تشير الى المظاهر الشاذة في الحياة المساكنية : العزوبة المتكاثرة وإعالة الاخوة المحرومين من الاملاك والفناديين في بيت البكر ، والتحديد الطوعي للنسل الذي يسبب ، مع النقصان في الرجال ، هبوط سبارطة النهائي بعيد انتصارها في حرب البلوونيز ، واقدام الدولة على انتزاع الفتيان من والديهم واشرافها اشرفاً كلياً على تربيتهم ، والسلطة التي تمارسها المرأة في عائلة غالباً ما يكون ربها غائباً وتؤمن هي إعالتها بثروتها او بعملها .

لنضف الى هذه المظاهر وتيرة الحياة اليومية الواحدة . فهي توفر ، في الايام العادية ، لمذاث محدودة في نادي الرياضة وحقل المناورات وغرفة الاكل . ولا يدخل عليها التغيير بصورة عارضة الا رحلة القنص التي تحسن حصيلتها ، عند المساء ، اصناف وجبة العشاء . ويدخل عليها التغيير ، بنوع خاص في مواعيد معينة ، الاعياد الدينية التي يحتفل بها بكل دقة وفقاً لطقوس قديمة غريبة تنظم تماقب قيام الجوقات بتوزيع مقاطع شعر قديم . فيسبب جودها في تقاليد تلباهي هي بالابقاء عليها ، وبانقطاعها التام تقريباً عن العالم الخارجي الذي لا تربطها به سوى طرقات سيئة او مرفأ « جيشيون » الصغير في خليج بعيد عن بحر ايجه ، وبتهظير السفر الى الخارج على مواطنيها والاقامة فيها على الغرباء ، لم تستطع سبارطة الاسهام بشيء في وثبة الحضارة اليونانية .

فثنا ما بينها وبين أثينا .

هناك منطقة واحدة في أرياف الأتيك عرفت حياة ريفية تختلف مناجم وعبيد الـ «لوريون»
عن تلك التي وصفناها سابقاً ، هي جبل الـ «لوريون» جنوبي شبه الجزيرة . فقد ادى استثمار المناجم الرصاص المزوج بالفضة ، هنا ، الى تجمع بشري تباينت اهميته وفقاً لنشاط الادارة او اهمالها ولوفرة العروق المعدنية المكتشفة او نضيبها .

كانت الدولة الاثينية ، من حيث انها تلك الامتيازات ، توجرها للمستثمرين محتفظة لنفسها بالنفصة التي تجمع بعد معالجة المعدن الخام . وكانت تركز لهذا الاستثمار اموالاً هامة يؤمن المستأجرون بواسطتها خفر الدهاليز ، واثمان المواد وأجور اليد العاملة . المتمثلة بالعبيد . وقد حدث ، توصل لهذه الغاية ، أن اسست شركات احياناً . بيد ان بعض الرأسماليين ، من امثال نيقياس الذي لعب دوراً سياسياً كبيراً في أثينا ، ابان حرب البلوونيز ، فضلوا تأجير الملتزمين عبيداً يعملون في المناجم لقاء اجر يومي . اما كسينوفون ، فقد اقترح في كتابه حول «المدائيل» الاحتفاظ بهذا الاستثمار للدولة التي كان بامكانها ، بفعل قدرتها على تخصيص الاموال الكافية

لشراء المزيد من العبيد ، ان تضمن ، لا بجمع نفقات تأجيرهم للمناجم فحسب ، بل المداخيل المتزايدة بفعل توسع الاستثمار الذي تقضي إليه زيادة اليد العاملة . ولكن هذا المشروع الغريب لم يتحقق قط .

يمكننا ان نتصور ، والحالة هذه ، مصير هؤلاء العبيد العاملين في المناجم بإشراف ملتزم يسمى وراء الكسب السريع ، ولا يتم لاستبقاء طاقتهم على العمل ، ويدفع لهم أجوراً لا شك في انه يقدّرهما بدقة حتى لا يتأخر استهلاكها . وكانوا يعملون بأدوات بدائية في دهاليز ضيقة تنيرها مصابيح زيتية مدخنة . وكانوا يجمعون ، خارج المنجم ، في « مسكرات » حقيرة ، دون عائلاتهم ، طمعاً في تجنب نفقات تغذية اضافية ، تحيط بهم طبيعة كثيفة قضت الغازات الكبريتية المتصاعدة من المعدن المذوب على كل اثر للحياة النباتية فيها . وقد استهوى الهرب هؤلاء الاشقياء : فخلال حرب البلويونيز ، واستجابة لنداء الاعداء الذين احتلوا قلعة في الأتيك في سيرم للقضاء على أثينا ، حطّم ، عشرون ألفاً منهم قيود إقامتهم الجبرية وانتشروا في الارياض التي ألغوا الرعب فيها . وفي هذه المناجم أيضاً انفجرت ، بعد ذلك بزم ، ثورات عمالية كانت مقدمة لتلك التي ستواجهها روما في صقليا وإيطاليا الجنوبية . لذلك فإن منطقة اللوريون وحدها في اليونان الكلاسيكية ، تتيح لنا تحليل ظروف اجتماعية شبيهة بظروف بعض المناطق الصناعية الكبرى في عالمنا المعاصر .

العبيد المدنيون في أثينا
ان العبيد في المدينة ، اذا ما وجد العبيد ، لا يجمعون بأعداد كبيرة في مكان واحد ، بل هم ، على العموم ، عبيد منزليون مشتتون هنّياً وهناك . فالبيت الذي يخدمه عشرون عبداً تقريباً ، يخرج معظمه عن النطاق العادي . وفي فقدان العبيد من البيوت ، دليل على الفاقة القصوى . ولكن البيت العادي ، لا يزيد عدد العبيد فيه عن الثلاثة او الأربعة ، وهم نساء بنوع خاص . ويمتزج هؤلاء العبيد بالحياة العائلية ولا يعاملون معاملة سيئة . ويحدّ وجود الزوجة شبه الدائم في البيت من بعض تجاوزات الزوج . وليس من النادر ان ينشأ تعلق متبادل بين المرضعة او « المري » وبين الولد الذي رافقه هذا المري في نزواته وعني بتربيتة وتعليمه . وقد تسوّل في عقد الزواج في البيت الواحد بين عبد وعبدة تربى ابنها الذي لن يعرف الحرية ، على كل حال ، شأنه في ذلك شأن والديه .

استخدمت الصناعة والصناعة اليدوية الأرقاء أيضاً . ولكن اكبر معمل وصلت إلينا . أخباره ، وهو مصنع اسلحة في أيام الحرب ، لم يتجاوز العبيد فيه مائة وعشرين عدداً . وليس من تجمع صناعي حقيقي في اي مكان . فققدان الآلة لا يساعد على ذلك واليد العاملة الكثيرة تستوجب رؤوس اموال ضخمة . فثال المعمل الذي تصوره لنا الرسوم على الآنية هو معمل الصناعي المهني ، كالحداد والسباك والخزاف ، الذي يعمل شخصياً مع بعض العبيد . فتقيم

الحياة اليومية والعمل المشترك بين هؤلاء وبين سدهم علائق لا تخلو من عاطفة إنسانية .

وقد يذهب بعض الاسياد الى ابعد من ذلك ، مستوحين في ذلك خرصهم على مصلحتهم الحقيقية . فبعد ان يدركوا ان هذا او ذلك من عبيدهم سيعمل باندفاع اذا ما كان حراً علياً وأفاد من عمله إفادة شخصية ، يأذنون له ان يمارس ، لحسابه الخاص ، مهنة صغيرة او تجارة صغيرة او يؤسس عائلة ويعيش « على حدة » . غير انه يتوجب على هؤلاء المحظيين ، الكثيرين في مدينة ناشطة كأثينا ، ان يدفعوا فريضة يومية لسيدهم . فيعملون أنفسهم بمنزل عنه ويجمعون ثروة صغيرة بما يفيض عن كسبهم .

في مثل هذه الظروف ، يصبح من الطبيعي ان يتدنى الحاجز الراهن القائم بين الفقراء من الرجال الاحرار وبين العبيد . ولا يميز هؤلاء سوى شعر قصير . وهم لا يرتدون اي لباس خاص ، وكثيرون منهم اغريق أقحاح لم يفرض عليهم العبودية سوى ملابس الحروب . وأخذ عليهم بعض المراقبين الشكسين صراحتهم الكلامية الرقعة . وقد حامى القانون من شراسة الغير ولم يفته ان يحدد بخمسين جلدة العقوبات الجسدية التي يستطيع القضاة أنفسهم ان يحكموها بها في حالة ارتكاب الجرم . واذا ما كانوا محقين في التشكي من قساوة سيدهم ، جاز لهم اللجوء الى بعض المعابد وطلب عرضهم للبيع ؛ واذا ما اقتنع الكاهن بحقيقة شكواهم ، يرغم السيد ، علياً ، على القبول بهذا البيع . ويمدد اجل وفادة الشاكي . فأثينا في هذا المجال ، قد سقت المدن اليونانية الاخرى اشواطاً بعيدة : الاخلاق فيها اكثر عدوية والقانون نفسه أخذ يتأثر بالاخلاق . وعلى الرغم من ذلك فان التحرر فيها لا يزال امراً نادراً ، كما لا تزال استثنائية لمحاحات بعض العبيد المتميزين بنشاطهم وذكاؤهم الذين يتوصلون الى جمع ثروات حقيقية في التجارة والاعمال المصرفية ويحصلون لا على الحرية من اسيادهم فحسب ، بل على صفة المواطن من الدولة ايضاً التي يؤدون لها الخدمات المالية .

يدخل في عداد السكان الاحرار ، من الناحية القانونية فئتان من الاشخاص :

الاجانب المقيمون

الاجانب المقيمون والمواطنون .

يقم الاولون في مساكن خاصة بهم . يوجد منهم ، بهذا الاسم او بغيره ، في كافة المدن اليونانية تقريباً ، باستثناء سبارطة التي تتحرز منهم ، وباستثناء بعض المدن المتأخرة جداً ايضاً التي تعتمد على الاقتصاد الريفي دون غيره . ولكن عددهم لم يتجاوز في اي مكان ، بصورة مطلقة او نسبية ، عددهم في اثينا حيث يوجد منهم واحد مقابل مواطنين اثنين او اكثر من واحد ايضاً اذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى الرجال . ومرة ذلك ان الشهرة الفنية والفكرية التي تتمتع بها المدينة ، بالإضافة الى نشاطها الاقتصادي ، تستهوي اولئك الذين يطلبون الاستزادة من المعرفة والشهرة ، ورجال الاعمال المقدامين ، والمهنيين النشيطين الذين يسعون وراء كسب عيشهم .

وهم يلقون في المدينة ضيافة عطوفة ، دون ان يشعروا بالضعة بفعل تميز مهني . واذا ما استثنينا حرمانهم من الحقوق السياسية والملكية العقارية والرسم السنوي الضئيل الذي يدفعونه ، فلا شيء مما تبقى يفرقهم عن المواطنين ، اذ انهم يؤدون الواجبات العسكرية والمالية نفسها ويتمتعون بتسهيلات كبيرة في ممارسة عباداتهم الخاصة ويحضرون ، الى ذلك ، الاحتفال بالاعياد الدينية الرسمية ، ويستفيدون اخيراً من حماية القانون لاشخاصهم وممتلكاتهم .

يمارسون مهناً متنوعة جداً ، جرة وصناعية وتجارية . فليس تقريباً من فنان او اديب او عالم يوناني غير اثيني ، الا وقضى في اثينا شطراً هاماً من حياته قصيراً او طويلاً . وبين اشهر خطباء القرن الرابع ، الذين حافظ النحويون الاسكندرانيون على مؤلفاتهم ، لانها خليفة بان تدون في مجموعة « خطباء الأتيك » ، كثيرون ممن شرفوا بلاغة الهامة في اثينا ، كـ « ليزياس » و « ايزيا » ، كانوا اجانب مقيمين . وكانوا اجانب مقيمين باكثريتهم ايضاً ، لا سيما في القرن الرابع ، اولئك الذين مارسوا المهن الصغيرة والتجارة التفصيلية (المرقق) واولئك الذين اداروا مشاريع اعظم اهمية ، بحرية وحتى تجارية . فمالك مصنع الاسلحة والمائة وعشرين عبداً الذين عملوا فيه كان سيراكوزياً ، وبالتحديد والد الخطيب ليزياس . وهكذا فان مجد وازدهار اثينا مدينان ، الى حد بعيد ، لعمل الاجانب المقيمين .

أجل ان في هذا الوضع لمغايرة للرأي العام إذ انه ، في الحركة الاقتصادية التي تسهم هذا الاسهام الكبير في ثروة وقوة أثينا ، يولي الاجانب اهمية لا تتناسب وعددهم . ولكن له ما يبرره ، دون ريب ، تفرد المواطنين في حقول اخرى . فهم اولاً ينعمون وحدهم بحق الملكية العقارية الذي يقصر عليهم استثمار الارض وما تحت الارض ، الا اذا حصل المواطن الاجنبي على مثل هذا الحق في ظروف نادرة جداً . وينعمون وحدهم ، ثانياً وخصوصاً ، بالحقوق السياسية ، وبالتالي بالمكسب المتواضع الكافي لمعيشتهم الذي توفره نجاحات الديوقراطية لمن يمارس هذه الحقوق .

انصراف المواطنين
عن النشاط الاقتصادي

منذ القرن الخامس ، توصل بريكليس الى اقرار هذا التعويض ، الذي تتولاه الدولة ، للقضاة واعضاء المجلس ومحلفي المحاكم الشعبية والمجندين . وفي اوائل القرن الرابع شمل هذا النظام اولئك الذين يشتركون في جلسات جمعية الشعب . وكان الهدف من ذلك السماح للمواطنين الفقراء ان يكرسوا وقتهم لخدمة المدينة وان يشتركوا في الحياة العامة شأن المواطنين الذين تجنّبهم موارد المضمونة وسواس الميزانية العائلية اليومية . غير ان هذا التعويض قد بقي طفيفاً على الدوام ، دون اجر العامل الممتاز .

بتأثير التعويض اليومي

كان المهم ، على كل حال ، لا ان يسدّ وحده حاجات حياة متنوعة ، بل ان يساعد على ذلك كدخل اضافي . ومن حيث ان عدد المستفيدين منه كان مرتفعاً بفعل زيادة القضاة والمحاكم ، اذ كان يعين ستة آلاف محلف سنوياً - افضى هذا التعويض تدريجياً الى إنشاء المواطنين عن

الاعمال المهنية . فقد بدا لهم الاسهام في تسيير أمور الدولة اكثر بساطة واستمالة من العمل اليدوي . وقد هاجم خصوم النظام بمنف هذه الطريقة التي رأوا فيها ، على حق ، احد الاسس الرئيسية للديموقراطية . ولكن الغاية المقصودة من انتقاداتهم يجب ألا تحفي احدى النتائج المباشرة لتعميم التعويضات : نفوذ الاجانب المقيمين المتزايد في صناعة ائتنا وتجارها .

وبفعل استمرار الاعتبارات القديمة ليس من شك في ان عوامل اخرى قد فعلت فعلها في الموضوع نفسه ، لا سيما استمرار الاعتبارات القديمة التي

لا تسيخ عملا يُنفذ لخدمة وبأمر احد الزين ، او بانتظار زبون ممكن فقط . فقد جاء في التأين الذي ينسبهُ توسيديد الى بريكليس : « لا غضاضة في استيعترف الانسان بفقره » ، ولكن العيب كل العيب في التقاعس عن تجنب الفقر بواسطة العمل » . وان في هذا القول لاكثر من صدق لاقوال هزيرود الذي عبر في « الاعمال والايم » عن رأي مماثل . افليس اهدف الحقيقي ، في هذه الحالة وتلك ، تقويم رأي عام لا يشجع العمل ؟ وفي الواقع ، اذا ما قدم لنا ، بصدد ائتنا الكلاسيكية ، ان القانون يعاقب من يأخذ على غيره مهنته ، فمن الامور الثابتة ان ديموستين انما يستهدف الخط من شأن خصمه ، اسثن ، حين ينوه بارت والديه قد تعاطوا منها وضعية . فالتقاليد القديمة التي لا تزال تسيطر الاخلاق تثبت اذن انها اقوى من الارادة الرسمية التي تعبر عنها خطاب الحكام والشرائع ، كما تثبت ايضاً ان التطور ابطأ من هذه الارادة بالذات .

ان شؤوننا كثيرة تصرف اغريق ذاك العهد وستصرف اغريق العهد اللاحق والرومان ايضاً عن ان يستخدموا في اختراع الآلات وصناعتها ، مهارتهم العظيمة ومعارفهم العلمية التي كان من شأنها ، في اكثر من حالة ، ان تحقق هذا الغرض بسهولة . كثيرا ما يقتل المؤرخون هذا الاهمال بوجود الاستعباد الذي يؤمن بقليل من المال ، آلات بشرية وافرة العدد . ويعلمونه ايضاً بفقدان اسواق البيع الواسعة التي كان من شأنها ، لو توفرت ، ان تزيد الطلب وتحمل على زيادة الانتاج . غير انه يجب علينا ، بالاضافة الى ذلك ، ان نفكر بالمثل الانساني الاعلى الموروث عن العصور السابقة الذي يحل ، في الاساس من استقلال الفرد الحقيقي ، خيار العمل الحر لمنفعته الشخصية دون اهتمام للساومة او البحث عن الزين .

لذلك نرى خصوم السفنطين يثور فائهم عندما يرونهم يطلبون اجراً من تلامذتهم ، اذ ان تعاطي النشاط المأجور من الامور المعيبة . ولا ينبج من هذا الانتقاد سوى المالك الذي يشرف على استثمار ممتلكاته الخاصة . وفي المدينة يستسلم الغني والفقير للبطالة غير ساعين على العموم وراء استثمار ثروتهما . فستشري عدوى مثلها ، لا سيما وان المواطنين اقلية في طبقات العمال في المدينة ، فيسيطر الاجانب المقيمون في الاوساط التجارية ، اعني بهم ذوي اليسار والطبقنة العالية . ولن يلعب مالكو المصانع المتوسطة دور الادارة في السياسة الاثينية الا بعد موت بريكليس والاضطراب الذي خلقته حرب البلوينيز والذي جرف الى داخل اسوار المدينة الريفين الذين هدهم الغزو وافقرهم . ولعل افضل مثل للذين لعبوا هذا الدور هو « كليون » ،

ولكن السهام الساخرة التي وجهها اليه ارسطوفانوس تعبر عن احتقار الاوليمارشيين وعدم الثقة بالريفين . وفي الواقع فان الطبقة الاجتماعية التي مثلها كليون ما لبثت ان غمرها النسيان في القرن الرابع . اما ديموستين ، وهو ابن صناعي مشهور يملك معلمين ، فكان الفضل في بروزه للحمامة شان اكثر الرجال السياسيين في عهده . فقد مضى زمن طبقة ذوي اليسار من رجال الاعمال . وكان سريع الزوال لان نسبة المواطنين في هذه الطبقة المتوسطة قد غدت ضعيفة جداً .

نرى ، والحالة هذه ، ان الظروف الادبية تحالف الظروف الفنية في فقدان الثروات الطائلة نمو المشاريع الصناعية والتجارية . ومن حيث ان الاستثمار الزراعي لا يساعد على جمع الثروات الطائلة ، يصبح من الطبيعي ان تكون هذه الثروات الطائلة نادرة جداً .

كان « كاليبس » ، في عهد بريكلبس ، اوفر الاثنيين ثروة : فقد بلغت ثروته ، الناشئة عن استثمار المناجم بنوع خاص ، مائتي مئنة من الفضة (اي ما يوازي ١٠,٢٠٠,٠٠٠ فرنك في السنة ١٩١٤) . وفي عهد لاحق اعتبر نيقياس غنياً جداً من حيث ان دخله السنوي بلغ احد عشر مئنة تقريباً بفضل العبيد الالف الذين كان يؤجرهم للمزري اللوريون . فالاول والثاني يهتمان كلاهما ، اذن ، للصناعة المتجمية ، اي للناحية الاقتصادية غدير الزراعية الوحيدة المحرمة على سواد الاجانب المقيمين . وبعد هزائم حرب البوبونيز تدنى الحد الاقصى للثروات . ففي القرن الرابع لا يملك الاثينيون الثلاثة او الاربعة الذين اشتهروا بالثروة اكثر من خمسين مئنة . وقد اكد ديموستين ، بضع سنوات قبيل السنة ٣٥٠ ، ان في اثينا ثروات توازي او تكاد توازي مجموع ثروات كافة المدن الاخرى . اجل يجب ان لا ينظر الى هذا التأكيد كحقيقة راهنة . ولكنه اذا كان له ما يبرره ، فلا يمكن ان يصح ذلك الا بالنظر لمجموع سكان المدينة الذين يعيش قسم كبير منهم في البجوحة واليسار الكريم . ويكفي فقر الطبقات الاجتماعية المتدنية ، التي تعيش يومها بالكفاف ، لان يوجد قباناً ثابتاً بينها وبين الاغنياء . ولكن تكديس الثروات لم يتجاوز حداً معقولاً .

فهل كانت هذه حال المدن الاخرى في العالم اليوناني ؟ انت التفاصيل الدقيقة لاسي قدمناها بصدد اثينا تغدو ، بصدها ، نادرة جداً . يروى ان احد رجال المصارف في سيراكوزا توصل في اوائل القرن الرابع الى احتكار الحديد ، بجمعين مئنة ، وربح في هذه العملية مائة مئنة . ولكنها مضاربة استثنائية قد تبرر نجاحها الحاجات الناتجة عن الحرب ضد قرطاجه . وليس من المعقول ، على كل حال ، ان تكفي اموال هذا الرجل لتحقيقها او ان يكون بالتالي المستفيد الوحيد منها . ثم ان التساهل حيال الاجانب ، خارج اثينا ، اقل منه في اثينا ، كما ان الدولة لا تدفع اي تعويض لقاء الاشتراك في جلسات المحاكم او الجمعية . لذلك فالمواطنون اقل انصرافاً عن النشاط الاقتصادي ولا ينافسهم المقيمون الاجانب منافسة ذات شان . واذا ما استثنينا

كورنثوس ، استناداً لما يؤكد هيرودوتس ، - وهذا يعني اننا امام حالة شاذة - فان الصناعة والتجارة اقل اعتباراً في هذه المدن منها في أثينا .

نستنتج من ذلك ان الثروات الخاصة الطائلة لم تعرف قط في جميع انحاء العالم اليوناني الكلاسيكي . فهي ستبقى لزمن طويل وقفاً على الشرق . ولم يصعب على هيرودوتس ان يدهش مواطنيه بسرده امامهم اريحية ذلك الليدي الذي اعترف لكسر كليس ، في السنة ٤٨١ ، ان ثروته النقدية ، دون عقاراته وعبيده ، تبلغ الفي مناً من الفضة وقرابة اربعة ملايين قطعة نقود ذهبية اي ما يساوي مجموعه مائة مليون فرنك في السنة ١٩١٤ . فمعد تفكيرهم بهذه الكنوز الاسطورية ، وعند رؤيتهم الملوك والمرازبة الفرس يدفعون الاجور المرتفعة للمرتزقة الذين يمجندونهم ، وعند سماعهم روايات الرحالة عن عظمة البلاطات والمدن ، ينظر الاغريق الى الشرق حينئذ نظرتهم الى بلاد تفيض بالذهب . وقد اقتنع اكثر من واحد ، في القرن الرابع ، ان احتلال الشرق من شأنه ان يكون ، لمعالجة الآفات الاجتماعية والاقتصادية التي يتألمون منها ، دواء انجع من ثورة داخلية يدفع اليها الحسد ، محدودة في نتائجها بفعل ضالة الثروات النسبية التي ستتيح تقاسمها . وسيسهم هذا الشعور في تكوين الرأي العام الذي سيرافق الاسكندر في آسيا .

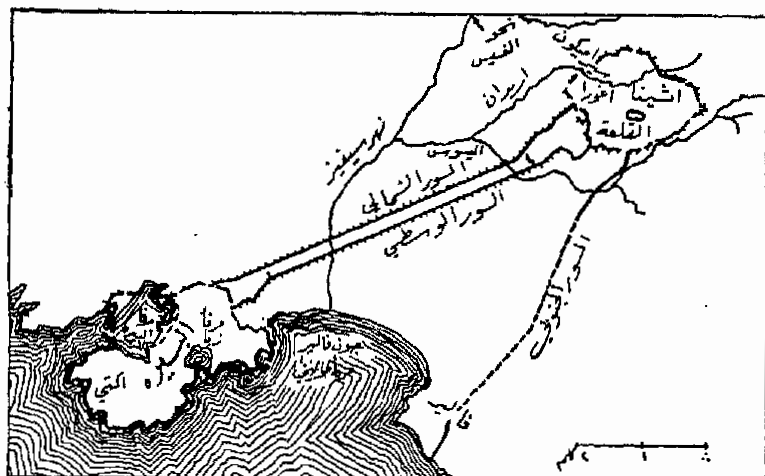
ولكن هذا الوضع يسمح ايضاً بادراك احدي الميزات الجوهرية في الحضارة اليونانية الكلاسيكية . فان تحقيقاتها التي تستلزم نفقات ضخمة تخضع لاشراف الجماعات دون الافراد . لذلك فان هذه التحقيقات انما تعبر عن حاجات ومقاصد الجماعات دون الافراد ايضاً .

٤ - المدن والحياة الخاصة

يتضح لنا والحالة هذه سبب الاعتدال العام في مظهر المدن ، اقله فيما يتعلق
البيرو رأينا بحياة السكان الفردية والخاصة .

ان اكثر المدن سكانا واكبرها واغناها على الاطلاق هي اثينا التي تكملها ، على مسافة سبعة كيلومترات ، مدينة أتيكية اخرى هي البيرو . تحيط باثينا نفسها اسوار محصنة ، ويحمي البيرو سور آخر يحيط بشبه جزيرة لـ « اكي » ، وتربط بين المدينتين اخيراً وتصل أثينا بالبحر « الجدران الطويلة » او « السيقان » . ولم تخصص اية مدينة اخرى حينذاك مثل هذه العناية والجهود والموارد لاثاق الصلة بين مراكزها الحيوية وللدفاع عنها . فقد توصلت اثينا بذلك الى تحسين مركزها البري والتحول الى جزيرة توحد بين اسطولها وجيشها توحيداً لم يعرف له مثيل في مكان آخر ، حرصاً منها على ضمان سلامتها . وفي الواقع فانها ، طالما العهد الكلاسيكي ، لم تستسلم سوى مرة واحدة تحت ضغط الحصار والجماعة بعد تدمير اسطولها . وقد اعطاها هذا التصميم الدفاعي الجبار ما اعوز اكثرية المدن الاخرى ، اعني الرحابة وراء الاسوار التي كثيراً ما تكون ضيقة بسبب الحاجة الى المال ، اي الرحابة الضرورية لراحة السكان . ولكن اثينا لم تحسن قط الانتفاع بهذه الرحابة .

أجل ، ليس المكان ما ينقص في البيرة . فالمدينة حديثة العهد ، بليت في اواخط القرن الخامس ، وفاقاً لمبادئ تنظيم المدن في ذاك العهد ، تنفيذاً لمخطط هندي . وهي تحيط بالمرفأ التجاري الوحيد في الأتيك وأحد المرافئ الحربية الثلاثة المعدة حول الكتي ، والمجهزة بلجىء للمراكب ودور الصناعة البحرية . وتجاور الارصفة ، حيث تفرغ المراكب الأتية من كافة المرافئ المتوسطة البضائع على انواعها ، السقائف والمستودعات ومكاتب الجمرک والصرافين



الشكل ٢٣ - أثينا والبيرة في القرن الرابع قبل المسيح .

والمصفق (البورصة) . وتمتد الى الورااء المدينة نفسها التي يتألف الشطر الأكبر من سكانها من أجناب ينتمون الى كل التابعيات ويتكلمون كل اللغات . ويمجد البحارة فيها كل أسباب اللهو التي طالما حلموا بها في عزلتهم وأسفارهم المحفوفة بالاعطار . يعتاش السكان المقيمون فيها من المرفأ وتجارة المسافرين والبضائع فيه . ولكن الطبقة الراقية لا تفضل الإقامة فيها لأنها تجمع كافة طوائف البشر الذين لا يتكلمون الا عن المال ولا يهتمون الا للتجارة . ومن حيث هي شبه متروكة للاجناب وللمواطنين الذين يتوجب عليهم الخضوع لاوامر وليتهم او لأهواء زبنيهم ، فان البيرة اقطاعة ديموقراطية : فيها يجتمع خصوم النظام الارهابي الاوليفارشي الذي اقامته مبارطة المنتصرة ، لاستعادة أثينا بقوة السلاح .

لم تحاول أثينا القديمة اذن التوسع نحو البيرة والبحر داخل التحصينات الجديدة حيث لا تزال مساحات كبيرة خلوا من البناء . فضواحيها تمتد نحو الشمال خصوصاً كأنما تشدها الحياة الريفية التي ما فتى العديد من المواطنين متعلقين بها بتأثير من مثلهم الاعلى ووشائج قرياهم ومصالحهم كلاكين . وهي قد ضاقت بسكانها في نطاق أسوارها التي أعيد ترميمها بسرعة غداة الحرب

الميدية الثانية ، قبل فتح نشاطها السياسي والاقتصادي والفكري . ولكنها على الرغم من ذلك لم تمتد الى حيث يبدو ان مصيرها قد دعاها للامتداد .

انها لا تطابق قط ، بسبب قدمها ، الفكرة التي نكوّنها عن مدينة كبيرة ، على الرغم من فخامة القلعة وبعض المعابد او الابنية العامة المشيدة في المدينة المنخفضة . تمر فيها شوارع ضيقة يحظر بناء الشرفات البارزة فوقها ، لا بلاط عليها ولا ارصفة على جوانبها ولا بواليع تحتها ، تتوسطها مجرات خزفية لتصريف المياه . ليس فيها سوى ينبوع ماء واحد شتده المستبدون في القرن السادس ، ولكن فيها آباراً كثيرة نيل الى الاعتقاد بأن مياهها لم تكن نظيفة وصحية . الساحات العامة قليلة وأهمها « أغورا » التي تطلها اشجار الصنّار . حول الاغورا تنتشر الاسواق : سوق مواد التغذية وفروعها المختلفة لكل فئة من هذه المواد بما فيها لحم الحمار والسماك المجفف ، سوق الخيل والعبيد ، اسواق الخزفيات والألبسة والاحذية ، حيث يتعاطى الصناعي عمله في حانوته امام عين الزبون ، كما هي الحال في الاسواق الشرقية في ايامنا .

يتكلم كسينوفون عن عشرة آلاف مسكن في اوائل القرن الرابع . ان هذا المساكن الرّم المرتفع جداً بالنسبة لمساحة ضيقة ، وهناك حدائق في الضواحي التي تتسع خارج مداخل المدينة بين المدافن القائمة على جوانب الطرق ، ولكن المجتمع الراقي لا يقبل بالسكنى إلا داخل المدينة . ليس لهذه المساكن الرضيعة ، على العموم ، سوى جدران من الطين المجفف يسهل على اللصوص ان يفتحوا فيها ثغرة . ولا تظهر البيوت المؤلفة من عدة طبقات سوى في القرن الرابع ، وكانت الغاية الاولى منها التباهي والتفاخر . اما الغرف فضيقة جداً وارضها ترابية جامدة . أسباب الراحة مفقودة تماماً . ولم تشكل المراحيض معضلة قط لأن النظر قد صرف عنها في كل مكان .

ولا افضلية لبيوت الأغنياء سوى في رحابتها واتساع غرفها الموزعة حول فناء تحف به بعض الاعمدة . فلا يظهر البذخ إلا في عهد متأخر مقتصر على قاعات الاستقبال التي ألبست سقفها بالخشب وازدانت جدرانها بالمديح والرسوم . وقد كشفت اعمال التنقيب في منطقة خلقيس ، في موقع مدينة أولنثوس ، التي دمّرت في اواسط القرن الرابع ، عن استعمال الفسيفساء الترينية المصنوعة من الحصباء المستطيلة لا من المكعبات الصنعية ، والتي نرجح ظهورها هناك في اواخر القرن الخامس . وباستثناء هذا البارق فقد أيدت هذه الاعمال الفكرة العامة التي تكونتها عن أثينا النصوص الكتابية . ولا تفخل البتة في الاثا . فان أثاث القيسادس نفسه الذي يتألف ، باعداد محدودة على كل حال ، من الصناديق والمقاعد والطنافس والأسرة والاواني ، لم يوفر اثماناً مرتفعة حين باعته الدولة بالمزاد العلني .

ما أن يبلغ البيت حداً ادنى من السعة والرفاهية ، حتى يفصل بين الغرفة او سيدة البيت
الغرف المخصصة للحياة العائلية البحتة ، اي نطاق الزوجة ، وبين « اندرون »
اي نطاق الزوج .

تنتقل الزوجة مباشرة من البيت والذي الى البيت الزوجي ولا تخرج منه الا نادراً . وقد نسب توسيديد الى بريكيليس قوله ! « ان ميزة هذا الجنس قائمة في ان يتبع ادنى شهرة ممكنة بين الرجال ، خيراً اوشراً . » اما واجبات الزوجة الاولى فهي ادارة شؤون البيت الداخلية والاعتناء بالملابس والعناية باولادها : الذكور الذين يخرجون من ولايتها في سن السابعة ، والاناث اللواتي يبقين معها حتى زواجهن . فالشؤون الاجتماعية والفكرية ، ولا سيما السياسية ، لا تعود اليها ، اذا قصدت تحاشي الفضيحة . بيد ان الشاعر لم يتردد ، في الملحمة الهوميروسية ، في اعطاء المركز الاول لوالدة « نوزيكا » في اللوائح التي دعا اليها « القينوس » . ولكن هذا المشهد ما كان ليلقى تأييداً في اليونان الكلاسيكية . فجلّ ما نترامه في تمثيلات اوريبيد وهزلية ارسطوفانوس وبعض المناقشات الفلسفية هو ان تقدّم الفردية كان مدعاة اولى لوضع قضية شخصية المرأة وتحريكها على بساط البحث . ولكن هذه الجسارات لم تخرج عن نطاق النظريات ولن تظهر نتائجها قبل العهد اللاحق .

ان الحياة الخارجية كتبها ، مما فيها المشتريات الغذائية من السوق ، حياة الرجل
تعود للرجل .

فهو سيّد بيته قانوناً ، الا اذا الجأ حرسه على السكينة الى ان يتراجع ، شأن سقراط ، امام زوجة شكسة عالية الصوت . يستطيع ان يطلق امرأته دون ان يقدم اي مبرر او عذر ، شرط ان يعيد لها البائة فقط . ويستطيع ان يقرر اموال « تربية » اولاده ، اي تركهم والقائم على قارعة الطريق في الايام الاولى بعد ولادتهم . وكثيراً ما اتبعت هذه الطريقة فعلاً ، لا سيما حيال البنات ، لاعتبارات اقتصادية في بلاد فقيرة كان من شأن ارتفاع كثافة السكان فيها ان يؤدي الى كارثة كبرى . ولكن الحياة في هذا المسكن الضيق ، مع امرأة لم تثقفها التربية والعلاقات الاجتماعية ، لا توفر له مزيداً من اللهو . لذلك فانه يقضي معظم نهاره خارج البيت ، في الاماكن العامة ، حيث يصادف اناساً ذوي معرفة يحادثهم ويستطلع آراءهم ويوثق عرى الصداقة معهم وعرى علائق اكثر خلوصاً احياناً .

البغيات اكثر من ان تعدّ . ومنهن من اشتهرن بثقافتهن الرفيعة . فهذه « اسباسيا » الملية التي لم يستكشف سقراط من اكرامها والتي جعل منها بريكيليس رفيقة حياته بعد ان طلق زوجته الشرعية ، والتي لا يحط من منزلتها في اعيننا سوى العلاقة التي ربطتها ، بعد وفاة عاشقها العظيم ، بتاجر اغنام استهوته السياسة هو ايضاً . غير انه لا يجوز لنا ان ننسب صفة الكمال لواقع غالب ما يكون قدراً ، برفع جميع البغيات ، حتى الاثنيات منهن ، الى مستوى اسباسيا . فقد جاء في احدي خطب ديموستين وصف لدخل معه الى عالم كله محاولات اختلاس ومساومات تقرّز منها النفس . ولا مرأى في ان هذا العالم المريب الذي تتخرج منه المغنيات والراقصات ، كان في الواقع اكثر اتساعاً .

اضف الى ذلك ان الحب اليوناني واقع راهن ، منشأه رفقة السلاح ومشهد العري اليومي في

نوادي الرياضة والرغبة - التي ليست دنساً كَلَّها - ، عند « العاشق » ، في الحماية والثريفة ، وعند « المعشوق » ، في التعجب والاطلاع . ففي مجتمع يجعل من مثل الرجل الاعلى ، كلما سمح له وقته بذلك ، تفتح طاقاته الفردية وانماء الجسم والعقل في توازن متوائم وخدمة الوطن في المجلس وفي ساحة القتال ، وفي مجتمع تقضي عاداته بفصل الذكور عن الاناث بالقدر الذي تسمح به الضرورات المادية ، وتحمل الرجال على اقصار معاشرتهم على الرجال وتجعلهم يتباهون بمزايا جنسهم الحسن ، يستحيل ان ينطبق علم الاخلاق على العلم الذي طبعته فينا ديانة وعادات مختلفة .

يتوسع الاثرياء في هذه العلائق الخارجية بدعوة اصدقائهم مساء الى ولائم يحضرونها لهم في منازلهم . ففي « الاندرون » الذي وضعت فيه اجمل مفروشات البيت ، يقدم الداعي ، دون ان تعاونه زوجته في ذلك ، الى اصدقائه في الندوة السياسية او الادبية ، في الرياضة او الفجور ، ما لذ وطاب من الطعام الشهي والتبذير الفاخر . ويتبادل المدعوون اطراف الحديث على هوام حتى ساعة متأخرة من الليل ، مستقلين على الأسرة ومتوكلين على مرافقهم يخدمهم العبيد وتلقي البهجة في قلوبهم الإلهي المختلفة ولا سيما لعبات الزمار والقشارة والرباب التي يحدّد القانون أجورهن القصوى . ويغاب ان تتحول هذه الاجتماعات المسائية الى مشاهد سكر وغمل تفرز النفس يخرج منها أكثر من واحد في حالة يرثى لها . ولكن ليس ما يمنع الاعتقاد بحقيقة او احتمال ما يرويه كسينوفون وافلاطون اللذان يقولان ان إطار « الوليمة » السبع قد اتسع لمناقشات رفيعة المستوى في السياسة والفلسفة والعلم يشترك فيها سقراط نفسه الذي يبدي من جهة ثانية تصلباً عنيداً في مقاومة السكر .

كثيراً ما شُبه المجتمع اليوناني في العهد الكلاسيكي بـ « ناد للرجال » . وان في هذا التشبيه لكثيراً من الحقيقة . فهو في الواقع مجتمع مدن تتأثر انظمتها وعاداتها لا بمصادرها البعيدة فحسب ، بل يشبه ديمومة الحرب ايضاً . فلا تستطيع المدينة الاعتماد الا على الرجال لتأمين سلامتها والدفاع عن استقلالها وكلاهما عرضة لتهديد دائم . لذلك فهي تشجعهم ، بحصر الحقوق السياسية فيهم ، على حياة خاصة تبعدهم عن العواطف المصطنعة المخنثة وتغذي فيهم المشاعر التي تعتقد هي بقائدها منها . وتسير سبارطة حتى النهاية في هذه الطريق بنظامها العسكري وبوجباتها المشتركة الاجبارية كل مساء . غير ان المدن اليونانية الاخرى لا تتبعها الا من بعيد : فالمثال أبعد من ان يدعو الى الاقتداء به اقتداء كاملاً ، بسبب بشكاسته . ولكنها لا تستطيع ولا تريد ان توغل في اتجاه معاكس تماماً ، فتكتفي بمحاولة تسوية ما بين هذا المثال وبين نزعات الفرد .

الكلاسيكية الروحية والجمالية

ان تقدم الحضارة ، في أزهى ما لهذه الكلمة من معنى ، قد انطوى في تبين التقدم الثقافي اليونان الكلاسيكية ، في مثل هذه الظروف ، على فوارق ملموسة . فاليونان هذه متباينة الثروات ، لا تتساوى فيها كثافة السكان ، ولا يتساوى هؤلاء حدقاً وبراعة . وقد اعتمدت فيها جنباً الى جنب ، حتى في اضيق الدول حدوداً ، النواحي الاقتصادية المختلفة على انواعها . فنهض اكثرها تطوراً في جوار اكثرها تخلفاً . وهي متباينة التعليم والانفتاح على حياة الفكر والنظريات العقلية . وهي اخيراً متباينة الانفتاح على التأثيرات المفيدة ، او الحافزة على الأقل ، التي تشع بها عوالم وحضارات اخرى ، وبالتالي متباينة الانتفاع باقتباساتها واتصالاتها : فالفلاح الذي يتفدى من محاصيل ارضه لا يهتم للاهوت كهنة هليوبوليس او للعلوم البابلية اكثر من اهتمامه لتصدير «سلقون» كايوس او «قار» مقدونيا .

يكفي ان نتذكر الصورة الهزلية المؤلمة التي رسم ارسطوفانوس سقراط بها في مدينة استطاع جميع سكانها ان يروا سقراط ويسمعه ، حتى تتراءى لنا ضالة النخبة التي تذوقت أحاديث هذا الفيلسوف . وكلتنا يعرف ان هذا الفيلسوف ، الذي تبدو لنا صفاته المدنية سامية جداً ، قد أصدرت إحدى المهاكم الشعبية عليه حكماً يشجع الشوكران السام ، فكان اول واشهر ضحية من ضحايا عداء الجماهير للذين لا يفهمونهم . وفي مباريات اثينا المسرحية لم توزع الجوائز وفاقاً لاقتراح المشاهدين بل وفاقاً لاقتراح لجنة تنتخب بالقرعة من اصل لائحة روعيت في وضعها الكفاءات . وهكذا فان ارفع نظام ديموقراطي في اليونان كان ابعد من أن يعلل نفسه بالاوهام ، بل طابق تلقائياً وضعاً ، أدركه هو خير ادراك ، تسبب في ابقاء مجالات واسعة في ما تكاد روائع هذا العهد ان تحملنا على الاعتقاد بأن الاضواء الساطعة تغمره بصورة متساوية . فان شطراً كبيراً من اليونان ، وشطراً كبيراً من السكان في اكثر المناطق حظوة ، لم يشترك في غيد الروح والفكر والمثل .

ان تفوق أثينا على هذا الصعيد ، لا هشاشة فيه . وقد تحمل بعض أولوية أثينا
تصريحات الخطباء الأثينيين على الابتسام بافراطها الساذج الذي يتخلله
الكبرياء والصلف أحياناً . وان ما يخرجون فيه عن الاعتدال هو في الحقيقة محاولتهم استئثار
هذا التفوق استثماراً سياسياً ، كما يخرج عن الاعتدال أيضاً المعاصرون الكثيرون الذين يبررون
الاستعمار الذي تهت به مدينة « أثينا » باسم نجاحاتها وإثراها في حقول الفكر والفن . بيد ان
أشد خصوم هذا الاستعمار حماساً لم ينكروا قط هذه النجاحات ، لا بل انهم أدوا لها ضريبة ما
تستحقه من اكرام بمحاولة السموة بالمدينة التي حققتها الى هذا المستوى . ولكنهم لم يستسيغوا
ان تنتزع أثينا من حلفائها او رعاياها اليونانيين قسماً كبيراً من الموارد المالية التي ألتحت لها
الاتفاق على اعيادها وانشاءاتها البنائية . وان اولئك الأثينيين انفسهم الذين عارضوا بريكلئس
لاعتبارات سياسية داخلية ، قد اخذوا عليه استخدام الاموال التي يدفعها حلفاؤه و لتعويه
وتزيين المدينة كالمغناجعة وإثقالها بحجارة كريمة وتماثيل ومعابد تبلغ كلفتها ألف منا . وهذه
المعابد انما هي البارثونون مع تمثال الإلهة « أثينا » المصنوع من الذهب والعاج ، وكثيراً ما
نفسى ، عند الكلام عنها ، اولئك الذين تكبدوا في الواقع ما اقتضته من اموال . فإن أثينا ،
في الوقت عينه ، كانت تنتزع من امبراطوريتها نصف مداخيلها تقريباً . ولولا هذا الخرج الذي
لم تتردد أثينا في استخدام وخداتها البحرية لاستيفائه ، لما قام البارثونون على القلعة .

وقد رافق هذا الاستثمار المالي المباشر ، من جهة ثانية ، أشياء أخرى كثيرة . فبالاضافة الى
مظهرها السياسي ، ارتدت الامبراطورية الاثينية مظهرأ اقتصاديا ، اذ ان وجودها يفسر ، أقل
ما يفسر ، نمو مرفأ البيرة الذي لم يستمد ازدهاره بسرعة منذ القرن الرابع ، بعد انهيار
الامبراطورية ، الا بفعل التفوق الذي احرزته قبل على جميع منافسيه . وهكذا فان نشاط البيرة
يوفر مداخيل الجرك ويؤمن الحامات والاسواق للصناعة ، مضاعفاً بذلك موارد أثينا . ويكثر
هذا النشاط ، على صعيد اوسم ، من الاتصالات البشرية باجتذاب الاجانب وتسهيل انتقال
الأثينيين ، فتنشأ حياة المدينة شيئاً فشيئاً بلتناججه حتى في الحقول التي لا تمت الى الماديات بصلة.

بيد انه يتوجب علينا الاعتراف بفضل بعض الاسباب الخفية : المؤهلات الطبيعية التي تحلى
بها شعب معتدل أدت به صدف الهجرة والانصهار العنصري الى الاقامة في شبه الجزيرة هذا
المتصل باليونان الوسطى ؛ وتحلى ذلك الرجل ، بريكلئس ، الذي ادار دفة الحكم في المدينة خلال
السنوات الحاسمة التي احتلت فيها الحضارة الكلاسيكية مركز الصدارة ، بالمواهب السياسية التي
فرضته على مواطنيه ، وعبزات عقلية سامية ، في وقت واحد . ولكن يجب ان لا ننسى مثل
« ميله » في العهد السابق : فهنا أيضاً صادف النشاط الاقتصادي والثروة والعلائق المتنوعة المختلفة
الاتجاهات وثبة ثقافية ليست نشأة الفلسفة الايونية سوى اشهر ظاهراتها . ولا يمكن ان يكون
تكرار هذه المصادفة مجرد اتفاق : فان الحضارة الاثينية في القرنين الخامس والرابع ، شأن

الحضارة الميمنية في القرن السابع والسادس ، لا تنفصل عن التيارات المختلفة التي تغذيها والتي جعلت حينذاك من المدينة التي نشأت فيها اوسع مراكز الحياة المادية نشاطاً وازدهاراً في المتوسط الشرقي :

لذلك فان كل ما يرتبط اذ ذاك باثينا ويبدو كأنه جزء من رصيدها ليس بالضرورة أثينياً . بنوع خاص . فالاجانب المقيمون وغير المقيمين يلعبون فيها دوراً سبق وتوهنا به قد تكون اهميته النسبية كبيرة احياناً . وبين رجال الادب والعلم والفكر بنوع خاص ، تجتذب اثينا او تضم اليها كل ذي مكانة . فبعد تحصيل العلم على ايدي الاساقفة ، يأتون اليها لتثقيف التلامذة او اقله للبحث عن تثبيت مركزهم لدى النخبة التي نشأت او اجتمعت فيها . فندوة بريكليس واصدقائه مثلاً ، بما فيها ساسانيا ، والمهندس هيروداموس الميلي ، والفلاسفة وذوو النظريات اناكساغور الكلازوميثي وبروتاغوراس الايديري وبيثوكليس الكابوسي ، والمؤرخ هيرودوتس الهاليكارناسي ، تشمل بين اعضائها الاجانب والمواطنين على السواء . اجل لم يفض هذا الاجتذاب الى احتكار الثقافة ، فقد بقيت هناك مراكز اشعاع مستقلة . ولكن هذه المراكز لا تخرج البتة عن نطاق الاختصاص يدفعها تقليد محلي او تأثير رجل زائل . وقد شبه ايزوقراط اليونان بمدينة واحدة ، فتكلم عن « القرى » الريفية و « المدينة » . ولكن الوقائع المصرية الراهنة تضطرنا الى تخوير التشبيه : مراكز اقليمية تكسفها العاصمة التي يهاجر اليها خير عناصرها . وهكذا فان أثينا التي قيل عنها « مدرسة اليونان » و « يونان اليونان » هي عاصمة اليونان الروحية ايضاً .

١ - الديانة

لا تتجدد الديانة اليونانية تجدداً عميقاً خلال العهد الكلاسيكي ، بل تبقى ما وصلت اليه في العهد السابق ولا تفقد أية نزعة من النزعات التي ظهرت فيها . ولكن حيوية هذه النزعات متباينة وسناها الخارججي غير متساو وتطورها يخرج بالبعض منها عن النطاق الديني بمعناه الحضري .

ان الورع الشعبي ، الذي لانعرفه جيداً لأنه قلما يستهدف لنظر الناس ولأنه متواضع جداً في مظاهره ، يحافظ على حرارته وعلى كل ما يستتبعه من خرافة وفظاظة اخياناً . وتشبع الطبقات الاجتماعية المتدنية ، ولا سيما الريفية منها ، حاجتها الى الايمان والحماية ، بممارسة بعض الطقوس التي غالباً ما يجهلون مغزاها الاصيلي وبالتردد على معابد محلية كثيرة يكتفي آلهتها المؤلفون ، الذين اوجدتهم تقاليد قديمة جداً ، بنذوراتهم المتواضعة . ويخلو عملهم هذا من اي سمو ، وما النفاية منه سوى الحصول على عون فوري في الصعوبات اليومية ووقاية المواشي والحصيد المقبل والتخفيف من الم وربة مراحل الحياة البشرية ، منذ اوجاع الولادة حتى احوال الموت . ولا يخرج عملهم هذا عن مستوى العقول البسيطة التي تحس باستمرار وغموض بوجود قوى فائقة قريبة منها لا سبيل الى ارضائها الا ببراسم لا مكان للنطق فيها . فانما الخوف هو

الذي يوحي بهذه المراسم، لا الشعور الديني بالمعنى الحضري. ومن شأن قدمها وتفاهتها ان يدهشا كل من لا يفكر بوجود المجالات المظلمة في ارفع الحضارات بهاء .

بيد انه يحدث ان تغلب هذه الحرافات وتقيّد النخبة على الرغم من اشمئزازها. ففي صبيحة يوم سلامين، كما جاء في بلوتارك، اذ كان تيمستوكليس يقدم الذبيحة ، احضر امامه ثلاثة اسرى من ذرية كسر كسيس . ف شاهد احد العرافين اذ ذاك شهابا يرتفع من وسط الذبائح وسمع عطسة عن يمينه . فأمر في الحال « بالتكريس » اي بتضحية الاسرى لديونيسوس « اومستيس » « آكل اللحم النقي » . فمانع تيمستوكليس اولاً ثم اضطرته الجماهير اضطراراً الى التسليم بذلك . وباستطاعتنا ان نستشهد بأمثلة اخرى كقضية بتر اعضاء قناثيل هرميس ودعوى القادة في جزر « ارجينوز » والحكم على سقراط بالاعدام بتهمة « انكار آلهة المدينة وادخال آلهة اخرين جدد إليها » . وليست الصوفية ما يبعث انفجار الغضب الشعبي هذا ، وباستطاعتنا ان نتصور والحالة هذه عنف ثورة تتميز بقطرة وحشية يندفع فيها الشعب الأثيني نفسه ، في ساعات الشدة ، على الرغم من اشتهاره بالحلم والشفقة ، ومن السمو الفلسفي والجمالي الذي توصلت اليه دياثته الرسمية .

ولا تزال هنالك عبادات شاملة أيضاً ، على ما في ذلك من تناقض ، في عالم العبادات الشاملة مزقته الحروب بين مدينة ومدينة .

اجل ، ليست هتافات الغيب أقل منها رواجاً في الماضي . فجل ما هنالك أن الدول أقلت من استشارتها أو من التأثر بأجوبتها. ففي سبيل دعم بعض التدابير السياسية، استعان بريكليس بدلفي وحصل على عونها فعلاً . ولكنه لم ينتفع بذلك انتفاعاً يذكر لأن الشعور قد ساد بأن هاتف الغيب انتھاري أو أنه يستنشق الريح أو يخضع لتأثيرات يصعب الاعتراف بها دون مس الشرف . فقد اتهم بالرشوة وبالحُضوع للعظماء . ولم يستكف الرأي العام من الاعتقاد والتصریح بأن عرافة دلفي ، بعد أن سايرت الفرس قبل سلامين ، سايرت على التوالي سبارطة وببوسيا وفيلبوس . وليس في الحقيقة باستطاعة المعاصرين أن يدركوا « الحروب المقدسة » ، الاولى في القرن الخامس ، والثانية ولا سيما الثالثة والرابعة في القرن الرابع ، التي اعلنت باسم الاله على مدنسي القديسات ، الا كحروب عادية تسببها شهوات السيطرة المتقابلة وتستتبع أحلافاً دبلوماسية وعسكرية ليست الديانة لها سوى حجة واهية فحسب . وقد كان من سبارطة نفسها، المشهورة بتعبداتها العميق لأبولون المنتصر على الحية الاصلية، أن ساندت، تشفياً من طيبة، الفوسيديين المقيمين في دلفي على الرغم من استنجايرهم المرتقة بأموال الإله . وحين قام فيلبوس المقدوني في حربه ضد مدنسي القديسات ، بتتويج جنوده بغار أبولون، لم ينخدع احد بهذا المشهد التمثيلي . وقد اتفق قيام وضع مماثل لوضع دلفي في مكان آخر من اليونان . فقد بلغ من تشيع معبد دياوس لأثينا ما حال دون استمراره في تقبل اكرام الايونيين التلقائي . وليس غير القصر ما

حفظ لأعياده ظاهر الاجتماعات الدولية ، التي تتفاوت في الحقيقة تفاوت نفوذ المدينة الحامية وقد بلغ من ادراك الديلوسيين لهذا الواقع أنهم حاولوا ، دون جدوى على كل حال ، حتى قبل انتصار فيلبوس على أثينا ، ان يتوجهوا الى دلفي ، أي عملياً الى الملك المقدوني ، لنيل استقلالهم . وعلى الرغم من بعدهما عن الطرق الكبرى المطموح فيها ومن كونها أكثر المعابد حياداً حتى ذلك العهد بين معابد الدرجة الاولى ، تطرأ على اولىمبيا نفسها ، في القرن الرابع ، تبدلات سياسية المصدر . فقد فرضت سبارطة الطاعة بالقوة على المدينة التي يرتبط بها المعبد . ثم سكنت كنوز المعبد نفوذاً للاتفاق على الحرب ، وقد كان من حدة المناقشات ان جرت المارك حتى داخل الأسوار المقدسة .

فالعبادات الشاملة إذن لم تخدم قط قضية تهدئة العالم اليوناني ، بل أدخلت الالاب الكبرى عليه جذوات انشفاق جديدة ، اذ ان التناقص بين الدول قد أفضى الى تحطيم الحواجز الممنوعة التي كانت تكبحه فيما مضى ، باستثناء حالات نادرة مشينة .

ولكن ذلك لم يمنع هذه العبادات من الاستمرار في البقاء . فما زال الاحتفال بها يجري بأية ، وان في التنافس الحاد حيال الاشراف على معابدها لدليل على ثروة كنوزها وعلى النفوذ الذي لا يزال عالياً باسمها . ولا تنقيد التقوى الفردية بنفور الدول ، فتشهر الاكتتابات لإعادة بناء معبد دلفي الذي دمره الزلزال في السنة ٣٧٣ . ويرافق ابداء مواعيد الاحتفال بالالاب الكبرى مهادنات مقدسة لا تحرق إلا في ظروف استثنائية . وتجذب هذه الاعياد ، أكثر من اي وقت مضى ، جماهير الحجاج الذين يعرفون أنهم في امان على طرقات السفر الطويلة أحياناً . وتزداد شهرة الفائزين باطراد ، كما تزداد باطراد ايضاً مظاهر التكريم التي تحيطهم بها اوطانهم الفخورة بمجد ينعكس عليها . وتطلب من الشعراء قصائد مناسبات للاحتفال بما أكرمهم . وفي السنة ٣٥٦ ، سار فيلبوس المقدوني على غرار مستبدي القرن السادس واول القرن الخامس وعلى غرار القيساريين ايضاً الذين استمروا لشهرتهم بنجاحات جيادهم ، فابتهج بثلاثة احداث تلقى اخبارها في وقت واحد : الهزيمة التي أوقعها احد قواده بالاليريين ، وولادة ابنه الاسكندر ، وفوز جياده في الالاب الاولمبية .

بيد أن استمرار النفوذ وازدياد الالهة لا يخفيان حقيقة الواقع . فالمشاهدون والمتبارون يتناسون رويداً رويداً الاله الذي تؤلف المباريات أهم مرحلة من مراحل الاحتفال بعيدة . وتصبح المباريات مجرد مشهد وتفقدها عملياً صفة الاحتفال الديني . وينتشر الخطباء فرصة وجود الجماهير ، للإلقاء ، أو أقله لنشر خطب صرفوا الوقت الطويل في صقلها : فليس من ظرف أفضل لبلوغ الشهرة واجتذاب الزين أو التلاميذ . ويحرص المتظمون على الاكثار من المباريات وتنويعها حتى لا يبقى عيدهم دون الاعياد الاخرى وحتى يأسروا انتباه المشتركين ويضاعفوا عددهم . ويكمل المصارعون تقنياتهم ويخضعون انفسهم لتمرين شاق ، ويحترقون المصارعة ، متأكدين من الانتفاع مالياً فيما بعد بالمجهود الذي بذلوه .

وهكذا فان روحية الالعب الكبرى قد تبدلت . اجل ، لا يزال الاغريق ، كما في الماضي ، يحسون فيها بوحدهم العنصرية واللغوية ، وحتى القومية نوعاً ، على ان هذه الصفة الاخرى غير ذات أثر . ولكن العيد الديني لم يلبث ، يوماً بعد يوم ، أن اصبح مجرد فرصة أو حجة لمظاهر الابتهاج الجماعية . وزالت حرارة التقوى ، وفقدت المباراة مغزاها كتقدمة مجهود تلقائي لاله يولي النصر لافضل المتبارين ويعين بذلك ، لا سرعهم او اقوام ، بل اكثرهم اعتباراً وتقديراً في نظره . ولا شك في ان ابولون دلفي كان ينشر ، بفضل المزيد من الحكم القصيرة ، تعليماً اخلاقياً موجزاً : « اعرف نفسك » ، « لا شيء يتجاوز الحد » ؛ ولم يقصر مفهوم الرجس على الصعيد الطبيعي دون غيره . ولكن زفس اولمبيا لم يأت شيئاً من ذلك ، واذا استطاعت الالعب الرياضية التي تبناها ان تعزز الصفات الجسدية في الشعب اليوناني ، فانها قد فقدت ، خلال العهد الكلاسيكي بالذات ، الصبغة الدينية التي اصطفت بها في الاصل .

اسرار الفيس
Eleusis

اذا لم تزل هذه الصبغة الدينية تترأى في بعض المعابد التي يتجاور فيها مؤمنون مختلفو التابعيات ، فان ذلك محصور في المعابد التي تلقن فيها اوليات بعض الاسرار . وعدد هذه المعابد كبير في اليونان . ولكن واحداً منها فقط يجمع اتباعه في دائرة تتسع باطراد ، هو معبد الفيس ، في الأتيك ، على مسافة كيلومترات من اثينا .

لا عقبات تعترض الدخول اليه . فالعبيد انفسهم يُقبلون فيه ، ولا توعد ابوابه الا في وجه المجرمين والبرابرة . نحن لا نعرف احتفالاته معرفة تامة ، ولكن ما نعرفه عنها يكفي للقول ان كشف بعض اسرار الحياة الثانية كان يتخلل بعض الطقوس المنقولة عن العبادات الزراعية ؛ فقد اشرك في عبادة الفيس ثلاثة آلهة من آلهة النباتات : « ديميتير » وابنتها « كورا » وديونيسوس . وكان ذلك عاملاً هاماً ثابتاً من عوامل نجاح هذه الاسرار . وقد اتفق اسمى مفكري العصور القديمة على تقريبها ، مما يحملنا على الاعتقاد بانها قد انطوت على تفسير رمزي عن طريق عرض غير مثير وتمثيل مختصر . غير ان ذلك كله كان يستدعي فكرة الموت ، مصدر قلق الانسان الدائم . وكان المشترك في هذه الاسرار يغادر المعبد مطمئناً الى المصير الذي سيكون مصيره بعد الاجل المحتوم . فقد كتب « سوفوكليس » ، وعلى غرار كثيرين : « طوبى ، ثم طوبى لأولئك البشر الذين سيذهبون ، بعد مشاهدة هذه الاسرار لمقابلة « هاديس » . اما الآخرون فكل شيء سيكون لهم عذاباً . اما معرفة طبيعة كشف الاسرار هذا فمن اشد مشاكل الديانة القديمة اخلاقاً . فهل هو وسائل آلية لاتقاء الاخطار الرهيبة ، ام تعليم عقائدي قنين بارضاء القابليات العقلية المختلفة ؟ يتعهد المشتركون بحفظ السر ، ولم يحدث ان حفظ سر كهذا الذي اؤتمن عليه ، طيلة قرون ، عشرات الالوف من البشر .

من خواص عبادة الفيس انها توجهت الى الفرد كفرد ، بعيداً عن كل نظام قانوني وعن كل أثر عائلي او مدني ، الى الفرد وحده كما سيكون يوم موته . ولذلك كان نجاح هذه الاسرار

موازيًا لنجاح الديمقراطية الاثينية نفسها التي حققت النصر بتحريرها المواطن من ضغط الجماعات العائلية . فاصبح نجاح أثينا ، بفضل الفيس ، منقطع النظير . فهي قد توصلت الى خلق عبادة شاملة من عبادة تمجيد المدينة ويشرف عليها القضاة ويحتفل بها في معبد هو ملكها تتخذ مي حيال ادارته مقررات نافذة . وقد اقتضى منها ذلك الاعراض عن بعض ادعائها ، بدليل فشلها ، في القرن الخامس ، حين اهابت بكافة الاغريق لأن يكرسوا بواكير حصانهم لآلهات الفيس اللواتي اطلعن البشر على اسرار زراعة القمح . ولم يصبح النجاح دوليًا الا بعد ثبوت الحياء السياسي وبعد الاقتناع بان عبادة الفيس ليست عبادة مدنية على الرغم من كونها عبادة المدينة .

تربط الديانة اليونانية الكلاسيكية ، على العموم ، ارتباطاً وثيقاً خاصاً بالمدنية نفسها . ويسم هذا الارتباط الى حد كبير ، والحالة هذه ، في جعل الحضارة اليونانية حضارة « البولس » بالذات ، لان تفتح هذه الديانة يسبب بدوره تفتح مظاهر اخرى في الحضارة .

ان للمدينة آلهتها وعباداتها ، وكلاهما متفاوت مرتبة ومثلاً واهمية حتى في نظرها ، ولم تتبن ما تبنت منها الا في عهود حديثة نسبياً ولاسباب مختلفة كثيرة . فهناك في الدرجة الاولى الآلهة « البولياسيون » اي المفروض فيهم ان يحموا البولس بنوع خاص ، لان المدينة تعلن انتمائها اليهم معتبرة عبادتهم كنظامها الاساسي وكمنوان وضمانة لميثاقها الاجتماعي . وهكذا فان اثينا هي مدينة الآلهة « اثينا » التي تعبد بهذه الصفة وتدعى لذلك « اثينا بولياس » . ولكن « اثينا » نفسها تعبد فيها ايضاً بصفتها « اثينا ارغاني » (العاملة) و « نيكى » (النصر) و « هيجيا » (الصحة) ... فبأية نسبة تبقى « اثينا بولياس » في جوهرها ، والحالة هذه ، يا ترى ؟ ومن جهة ثانية ، فان العبادات « البولياسية » لا ترى ضيقاً في قيام عبادات اخرى متوازية كثيرة .

تتنوع طبيعة هؤلاء الآلهة تنوعاً كبيراً جداً . فبعض آلهة الاولمب العظماء الذين قد تميزهم صفة عبادية يحاورون بعض آلهة العائلات القديمة ؛ وبعض الابطال المرتبطين بتاريخ المدينة يحاورون آلهة غراء توخى الاغريق من تكريمهم تجنب عداوتهم . ولم توضع قط لائحة نهائية بالآلهة ؛ فلا يختصر فيها ، أقله نظرياً ، خوفاً من استياء قوة فاتكة الطبيعة ؛ وليس ما يحول دون اطالتهما . لذلك فليس هنالك عبادة لمدينة بل عبادات المدينة . وقد يترابط بعض هذه العبادات ، على تفاوت في قوة الترابط ، تقرب بينها الاسطورة او ظروف تبني الدولة لها . ولكن ليس ما يوحدتها كلها في مجموع نظامي . فقد جعلها قرار المدينة تتجاوز دون انصارها ، وليس ما يجمع بينها سوى الجوار الجغرافي في ارض واحدة وفي بوادر - وربما نفوس - جاهل واحد .

وتتنوع هذه البوادر نفسها تنوعاً لا نهاية له . فالاعباد والقرابين والصلوات واحدة

في جوهرها ولكنها تختلف بتفاصيلها وتنظم وفقاً لبرامج لا تخص . لا بل ان الانظمة المتعلقة بكل عبادة لم توضع بصيغة لا تقبل التغيير . فهي لا تلغى البتة إلغاء رسمياً بل يكتفى بإمالتها الى ان تسنح فرصة ممكنة للعمل بها . ولكنها توسع وتحوّر ويضاف إليها : ويصكفي لحدوث ذلك ان نغلبه تقلبات الذوق أو الشعبية أو السياسة أحياناً .

يتضح من هذه الميوعة في لائحة العبادات المدنية وطقوسها ، ان الآلهة التصلب والتعامل البوليسيين لا يهتمون بالإبعاد حسود ولا موجبات ملازمة . فتعدد الآلهة مدعاة للتسامح . وليس هناك طبقة خاصة بالكهنوت يميل أفرادها بالفطرة الى العناية بحقوق الآلهة . فالكهنوت وظيفة عامة تسند ، لفترة محدودة ، الى مواطنين لا يفرض فيهم معارف خاصة يعينون بالانتخاب أو بالقرعة وفقاً لطريقة أشبه بطريقة تعيين القضاة . ويحدث غالباً ان يضيف هؤلاء القضاة الى صلاحياتهم الادارية أو السياسية صلاحيات دينية يتبعون في استخدامها ارشادات موظفين ضليعين في معرفة الطقوس والصيغ . ولا وجود للعقائد الايمانية نفسها لأن الاساطير التي تقوم مقامها تنطوي على فوارق لا عدتها .

يحمي التشريع الديانة المدنية . وذلك ثابت فيما خص أثينا على الأقل حيث يواجه القانون جريمة « الزندقة » التي تعرض مرتكبها لأقسى العقوبات . أجل لم يعمل بهذا القانون إلا نادراً ، ولكن هذا القانون واقع راسخ ، وهو سلاح رهيب لا يتردد المسؤولون في شهره عندما تبدو الدولة في خطر او عندما يعتبرون ، غلصين او غير غلصين ، بأن بعض الممارسات التقوية تسيء بشكل فاضح الى الاخلاق العامة : فقد استصدر ديموستين ، مثلاً ، حكماً بالاعدام على امرأة وجميع اعضاء عائلتها بتهمة تعاطي السحر والتسميم . فلا يصح اذن ان ننسب ، حتى لأثينا الديموقراطية نفسها ، روح تسامح مثالية .

غير ان ما لا شك فيه هو ان العبادات الاجنبية المنبثا ، لا تتعرض البتة للتحريم ، بهذه الصفة ، لا بل تكاد لا تكون موضوع شبهة او ريب . فان إله الواحة اللبية ، آمون ، مثلاً ، الذي تمثل برفس دونما صعوبة ، قد انتقلت عبادته ، عن طريق كيريبي الى القارة الاوروبية حيث أقيمت له المعابد ، ولم ينتظر بعض مشاهير الاغريق ، من امثال ليسندروس ، مثل الاسكندر لاستشارة عرّافيه . وقد اضطرت أثينا ، بسبب مرفأ البيره الذي يؤمه البحارة والتجار والمسافرون من كل البلدان ، ان تبالغ في التساهل . فسمحت في الدرجة الاولى بأن تؤسس جمعيات خاصة بعد افرادها الآلهة الغرباء كالإلهة « بنديس » التراقية و « إيزيس » المصرية و « الوالدة الكبرى » الفريجية و « أدونيس » و « عشتروت » السورين : ومنذ البدء ، انضم بعض المواطنين ، دونما تستر وتعرض لأي لوم ، الى صفوف الاجانب المقيمين وغير المقيمين في هذه الجمعيات . وأقرت أثينا بعد ذلك دخول العدد الاعظم من هؤلاء الآلهة الى العبادة الرسمية .

ان في هذا التساهل ، أو بالأحرى هذه القابلية للتسرب ، ما يثير الدهشة . فالمدينة التي تصلبت ذاك التصلب في الدفاع عن استقلالها السياسي والحفاظ على قضاة مواطنيها العنصرية تفتح الشفر بيديها في تفريدها الديني ولا ترى ضيراً في ان تصاب بعدوى ديانات البرابرة . وقد برهن أفلاطون مرة أخرى عن منطقته السلم في حكمه القاسي بالغاء العبادات الأجنبية . غير ان الدولة اليونانية قد استسلمت ، في الحقيقة ، لتيار لا يقاوم ، كما ستسلم له الدولة الرومانية فيما بعد . فقد كان كافياً لعامة المواطنين ان يتخلصوا بعض الشيء من خرافات الورع الشعبي حتى لا يحدوا في الآلهة اليونانيين الحرارة والحمة اللتين تستطعان اشباع نهمهم للتأثر الداخلي الخالص . لذلك فقد بحثوا عنهما في غير مكان وفرضوا على الدولة العبادات التي وجدوها فيها .

المنحبة والديانة المدنية
والاعباد

اقتصرت الديانة المدنية ، ظاهراً ، على الطقوس . ففي حوار وضعه أفلاطون ، يحمل سقراط محدثه على التصريح بما يلي : « ان التقوى وضمان خلاص العائلات والمدن في معرفة قول ما يرضي الآلهة امتسا بتأدية الصلاة واما في تقديم الذبيحة » . فلم تكن عامة المواطنين لترى أبعد من هذا . ولم يتح لغير الفلسفة ان تعيد الى هذه الديانة الآلية عاطفة اكثر عمقا . وفي القرن الخامس على الاخص ، اكتشف قسم من المنحبة - وفي طليعتهم بريكليس - مفتاح سر ذلك في التفسير العقلي : فهو يصعد ديانة المدينة بتجريد روحي واخلاقي يحافظ على بعض البرودة في الأعالي التي تسمو الديانة إليها . اما في القرن الرابع فتستخدم الاساطير ، بفضل أفلاطون بصورة خاصة ، دعامة لصوفية تحاول خلق وحدة بين نزعات النفس الخالصة وبعض المبادئ المجردة . ولكن هذه النزعة وتلك تعديان كلتاهما امكانيات المواطن العادي .

بيد ان المشرفين على إدارة البولس قد حاولوا احاطة طقوس الديانة المدنية بهالة من البهاء والنضارة . فان توسيديد ينسب الى بريكليس قوله : « نحن قد وفرتنا للروح سبل اراحة لا تحصى عن طريق الالعاب والذبايح الدورية المنتظمة » . وكان في الواقع للسلبية والراحة الضروريتين للسكان اهميتها الخاصة لا سيما وان الاغريق قد جعلوا « يوم الأحد » الذي يحدد تعاقب اسابيع العمل . ولكن اعتبارات اخرى كان لها اهميتها ايضا . وبأني في الدرجة الاولى منها الحرص على تقريب وبالتالي على توحيد جميع اعضاء المدينة في بادرة تكريم جماعي لألهتها الحامين ، اي للمدينة نفسها علماً : وهكذا ، تسير الديانة جنباً الى جنب مع المصلحة الأتانية ، التي هي مرتبطة بها على كل حال ، وتقوم مقام الاساس بالنسبة للوطنية . وتأتي في الدرجة الثانية الرغبة في استمالة هواة المشاهد الجميلة واعلاء شهرة المدينة في حرارة التقوى في اعين الاجانب ، وذلك توطيداً لأركان نفوذها وخضوعاً لطمع مستمر في رفع العيد البلدي الى مرتبة الاعياد الشاملة .

وهكذا فان كل المدن قد اندفعت في المنافسة . فاحتفلت سبارطة بنفسها ، التي سخر

خصوصها من خيانتها المستوحشة الضجيرة - وللملة بزيكليس التي سبق واستشهدنا بها ما يبررها ويبرر التأين الذي وردت فيه مقارنة ضمنية لتفسير مصلحة العدوّ بأعياد كثيرة تتخللها الحركات واغاني الجوقات المتعاقبة التي أطرب المعجبون في تمجيد نقارها القديمة . غير ان أثينا ، بفضل ثروتها وذوق حكامها وبفضل شول وقيمة ما تركته للأجيال اللاحقة من مستندات ادبية وفنية قد كسفت كل منافساتها على هذا الصعيد ايضاً . ولكن تجدر الاشارة ، اذا ما استثنينا اعياد الفيسس التي نوهنا بنجاحها النادر ، الى ان قيام الامبراطورية الاثينية هو وحده الذي استطاع ، بصورة عابرة بالتالي ، ان يطبع اشهر اعياد اثينا بطابع شامل جزئياً . وما كانت التقادم التي آتت بها وفود حلفائها الى إلهتها « أثينا » سوى تعبير عن اعترافهم بقوتها المادية : فان تأدية الاكرام فيها لإلهة مدينة اجنبية ، لم يكن ليوافق النزعة الى الاستقلال التي تمجيش في كل مدينة مهما بلغ من ضعفها .

اشهر عيد « أثينا » الكبير باسم « باناثينا » وكان يذكر بتأسيس
عيد الإلهة أثينا الكبير
المدينة نفسها بتوحيد كافة الاثنيين سياسياً .

كان الاحتفال به ستوياً ولكنه يحاط بمجال خاص كل أربع سنوات . وينسب احداثه الى صولون او بيسيستراوس في الربع الاول من القرن السادس . وضع برنامج المتنوع المستبدون أولاً وسارت الديمقراطية على خطاهم واصبح يستغرق في النهاية تسعة ايام . وكان يستلزم المباريات المختلفة : المباريات الفنية من إلقاء او « موسيقى » أي غناء على ألحان آلات موسيقية ؛ والمباريات الجيادية او الرياضية ؛ ومباريات الافراد او الجماعات ؛ ومباريات القوى او الخفة ؛ والاختبارات المتناسبة واعمار المتبارين من فتيان وشبان ورجال ؛ السباق على ظهر الجياد والرقص بالاسلحة والسباق بالمشاعل . وكان الفائزون في اشهر المباريات يُعطون الجوائز قوارير مملؤة بزيت زيتون الإلهة ، وهي القوارير الباناثينية الذائعة الصيت المصنوعة والمزدانة خصيصاً لهذه الغاية .

ويدرك المشهد الرئيسي من مشاهد هذا العيد لليوم الاخير . وهو تطواف طويل تسير على رأسه الشخصيات الرسمية ويشترك فيه المقيمون الاجانب انفسهم . ينطلق من شمالي غربي المدينة مصطحباً معه ، حتى معابد القلمسة ، الذبائح والقرايين . وبين القرايين قطعة فاخرة هي « البيلوس » المعدة لتمثال « أثينا » ، تحيكها وتطرزها طيلة سنوات اربع ، فتيات العائلات الكبرى وفاقاً لقواعد تقرها السلطات تدور حول موضوع دائم هو صراع أثينا ضد الجابرة . ويشكل هذا التطواف وهذه التقادم اكراماً يؤديه ، للإلهة البوليسية الاولى ، المدينة كلها وكل من يرتبط بها وتحد بينهم فكرة واحدة : عرفان الجميل والامل .

أعياد ديونيسوس
البارثون ، يحملنا على الاحساس فوراً بالصلة القائمة بين الديانة والفن ،
اذا كان تطواف عيد « أثينا » الكبير ، الذي يذكرنا به افريز

كانت اعياد ديونيسوس. تثقل بنا ، عن طريق المسرح ، الى الحياة الادبية .

كان لديونيسوس عدة اعياد في السنة ، خلال الحريف وفي اوائل الربيع . يحتفل ببعضها في القرى الاقليمية ، اي في الارياف حيث عرفت الوجود ، وفي المدينة ايضاً . وقد نظمت في القرن السادس ، خصيصاً لأحد هذه الاعياد في المدينة ، التمثيلات المسرحية التي شملت فيما بعد اعياداً اخرى ، واهتمت الاقاليم نفسها خارج المدينة ، لاسيما في البيرة ، لتنظيم مثل هذه التمثيلات ، بالنظر للنجاح الذي كان يصادفه مثل هذا المشهد في العيد . وكانت هذه التمثيلات في الواقع ، بعد التطواف ، مباريات موسيقية ، مأساتية او هزلية . وقد اخذ بعض اغنياء المواطنين ، « الحوريفي » ، على انفسهم لباس وتدريب الجوقات الموضوعة تحت تصرف المؤلفين الذين وقع اختيار احد القضاة على مؤلفاتهم . وكانت الجوقات ، في المباراة ، تنتصر لقضية قبيلة « الحوريفوس » ، وكان فخر النجاح ، بعد قرار الحكام ، يعزى « الحوريفوس » والمؤلف على السواء . وهكذا يتضح نشوء المسرح الاثيني ووثبته السريعة .

تطور الأعياد
يتضح ايضاً من العناية الفائقة التي احاطت بها الدولة هذه الاعياد ومن الاكلاف التي كانت تقتضيها أنها تتخطى الاطار الديني تحطياً بعيداً . اجل ، انها تحتفظ ، عن اصلها ، بالخطوط الاساسية : الذبائح والتقدم والتطوافات وشكل المباريات . وتستجيب المباريات ، في المجهود الذي يبذل اكراماً للاله ، لفكرة التنافس نفسها في المباريات الرياضية والالعاب في الاعياد الشاملة . ولكن ميزات اخرى ، فرضت بعضها النخبة الحاكمة ونشأ بعضها الآخر بفعل التطور الطبيعي ، تظهر باكرأ جداً ولا تلبث ان تغلب رويداً رويداً . وتخدم الاعياد الدعاية دولياً للمدينة وتقوي التماسك الشعب ادبياً وتوفر لهذا الاخير ، بالإضافة الى اسباب الراحة ، عناصر ثمينة للاستقصاء الفكري والجمالي .

وقد حرص حكام الديموقراطية الاثينية على ان لا تقتصر الافادة من هذه الاعياد على الطبقات الميسورة دون غيرها لاقتناعهم بنتائجها الخيرة على هذا الصعيد . فنذ عهد بريكليس تلقى الفقراء مساعدة من الدولة لتتيح لهم دفع رسم الدخول الى المسرح الذي كان اذ ذاك مجرد مدرج خشبي مجهز بالمترمون — اذ ان المسرح الرخامي والحجري الدائم لم ينجز ، في منحدر القلعة الجنوبي ، قبل اواخر القرن الرابع ، بعد ان انجز اقليم البيرة اعداد مسرحه . ولكن ما لبثت أن رفعت قيمة هذه المساعدة ودفعتم للمناسبة اعياداً لا توجب على المشاهد اي انفاق ، باستثناء اجره عن يوم يعطله . ففقدت هذه المساعدة ما يبررها وغدت في الواقع مساعدة مالية من شأنها اذا ما اضيفت الى تعويضات الاشتراك في الحياة السياسية ، ان تشجع بطالة المواطنين وتسهم في صرفهم عن العمل المنتج لمصلحة الاجانب المقيمين وتقتطع في الوقت نفسه قسماً من الموارد العامة كان بالامكان الانتفاع به في حفل آخر .

في الوقت نفسه تقريباً من القرن الرابع انخفض عدد التمثيلات الجديدة المعدة لاعياد

هينوسوم، ودرجت العادة على ان تعتمد ، في كل عيد ، تمثيلية متعجبة بين التمثيليات التي عرفت شهرة واسعة في القرن الخامس . وكان لهذه العادة ما يبررها تدني مستوى التمثيليات الجديدة ، ولكنها لم تتلاف قط هذا التدني . فكانت النتيجة ان افضى الحرص على ارضاء الجماهير بما تفتنظره الى اقصار المباراة على التنافس في الاخراج والجوقات والممثلين .

وافضى تطور موازنة الى اعطاء الممثل مركزاً اكبر في المباراة المسرحية . وكان هذا المركز في البداية على درجة قصوى من الاغفال اذ كان المؤلف نفسه يقوم بدور الانشاد . ولكن ازدياد عدد الأشخاص في التمثيلية قد رافقه ازدياد الاقتناع بما يمكن لموهبة وخبرة الممثلين ان تضفيها من اهمية على التمثيل ، لا بل من قيمة للتمثيلية احياناً ؛ فظهر حينئذ الممثل المتمن كما ظهر من قبل ، في الألعاب ، الرياضي المتمن . ثم شملت المباراة المسرحية الممثلين الذين نالوا التيجان على غرار « الجوريني » والمؤلفين والذين انتظموا فرقاً وانتقلوا من مدينة الى مدينة عاقدين اتفاقيات كثيراً ما تحدد فيها الغرامات التي يتوجب دفعها على من يخجل بشروط العقد . وقد عرف بعض هؤلاء الفنانين شعبية دولية . وقد أتاحت لهم تنقلاتهم ، والعلاقة الطيبة أحياناً التي ربطتهم بالحكام ، ان يتدخلوا في الظروف السانحة في المفاوضات الدبلوماسية . وبما لا ريب فيه ، على كل حال ، ان شهرتهم ، قبل ايمانهم ، هي التي اجتذبت الجماهير الطامعة بالمشاهد الرفيعة النادرة .

تمّ هذه التبدلات المتعجبة عن انحراف في الفكرة التي نهضت ، في البداية ، بالاعياد الدينية ، ففدا فيها جوهرها ما كان في البدء مجرد مشاهد ثانوية او ملحقات فقط . واضمحلت صبغتها الدينية المميزة امام قيمتها المسلية والجمالية والادبية والسياسية . واصبحت الديانة مجرد فرصة وحجة .

٢ - الفن

ان هذا العهد لاجل عهود الفن اليوناني الذي تفيض تحقيقاته اذ ذاك باسمي المعاني الانسانية ، وقد فرضت اهمية تعاليمه العامة والدائمة ان نرى فيه ، حتى في ايامنا هذه ، الفن الكلاسيكي بالذات . وهو يتم عن المعبية وملكة قياس وانسجام خليقتين بارضاء الانسان في كل زمان ومكان شريطة احوال العقل فوق المادة . غير ان هذا الفن مرتبط « بالبولس » وديانتها وظروف حياتها الجماعية ونظرتها الى الانسان ارتباطاً من الوثوق بحيث يفقد عظمة شموله عندما تتخطى « البولس » اوجها وتنحدر في طريق الهبوط . وان إعجب واحب مظهر في « المعجزة اليونانية » هو هذه الموازنة بالذات بين النزعات الجمالية عند جماعة بشرية في فترة من وجودها وبين نزعات الانسان الدائمة . ويجب البحث عن سر ذلك في مجهود التعبير والتنظيم المنطقي الذي ينجح الفنانون اليونانيون الواقع له ليهنتقوا به ، فوق العرض والتركيب والصورة ، الى مستوى مثالي وحقيقي مما يستطيع فيه بلوغ جمال غير عابر .

لم تكن هندسة العبارة ، كما سبق ورأينا لتعبير كبير اهتمام للمساكن البشرية ، لا بل انها تكاد لا تهتم لحاجات المدينة الدنيوية . فقد بقيت الابنية

التنافس في مجهود
هندسة العبارة

التي شيدها المستبدون من ساحات عامة وينابيع واقية جر المياه دون منافس في ظل الانظمة التي خلفتهم والتي اقتصر عملها ، في هذا الحقل ، على الابنية ذات المنفعة الفورية كالاسوار ودور الصناعة والخازن العمومية التي لا اهتمام فيها البتة للناحية التزيينية . فقد كرس المدينة مواردها لخدمة وتكريم آلهتها متجملتها بما يعبر عن ورعها الخاص .

لا بل انها تدخر مجهودها الرئيسي لمساكن الالهة اي المعابد . ولا تهمل الابنية المفيدة للاحتفالات او الاعياد الدينية ولكنها تحلها في الدرجة الثانية . ولا يظهر المسرح كبناء دائم ثابت ، على الرغم من فائدته لراحة المشاهدين ، قبل اوائل القرن الرابع . ومهما كان من روعة اعياد ديونيسوس ، فان اثينا قد تأخرت على هذا الصعيد ، عن عدة مدن اخرى .

ومما تجدر ملاحظته من جهة ثانية ان المعابد الكبرى الجامعة تحاول ان لا تتأخر عن ركب المدن . اجل لا تزال بعض المدن تشيد الابنية في حرم بعض المعابد . ولا تزال بعض المذاخر ، من امثال تلك التي كرسها الاثينيون لدلفي بعد انتصارهم في ماراتون ، تتبع تقليد القرنين السابع والسادس . ولكن هذه الطريقة تحف رويدارويدا مفسحة المكان لتقدم اكثر تواضعا كالتماثيل والتندورات المختلفة . غير ان المشرفين على ادارة المعابد الكبرى يعوضون عن تقاعس المبدن باقدامهم على البناء بفضل ثروات الاله الخاصة التي لا تزال تغذيها هبات تأتيها من شتى المصادر . وهكذا فان معبد ابولون ، في حرم دلفي ، بعد ان تهدم في السنة ٣٧٣ ، قد اعيد بناؤه بفضل الاعطيات الدولية . واذا حصل بعض التأخير في هذا العمل - اربعين سنة تقريبا - فرد التأخير الى اضطرابات الحرب المقدسة الثالثة . وقد بذلت الجهود نفسها وحقت النتائج نفسها حيث تعود ادارة المعبد الى المدينة ، لا الى المقاطعة كما في دلفي ، فأمنت الموارد الضرورية اذ ذاك تبرعات الحجاج التقوية الكثيرة . وهذا ما حدث في اولبيا حيث شيد معبد زفس قبيل السنة ٤٥٠ وحيث تعددت الابنية في الـ « ألتيس » . وحدث هذا ايضا في مدينة « ابيدورس » الصغيرة في « الارغوليد » التي استطاعت ، بفضل الشعبية المتزايدة التي عرفت معجزات إلهها الشافي « اسكليبيوس » ، وبسرعة مدهشة ، ان تجهز معبدها وتنشئ هيكلها والبناء المستدير السري . ومسرحها الذي يتسع لـ ١٤٠٠٠ مشاهد .

بيد ان الغلبة تبقى للمدن التي تقدم لنا اذ ذاك ، على الرغم من ضعف نفوذها الديني ، مشهد تنافس في حقل البناء يزيد في وقعه المؤثر انها بحاجة الى مواردها المحدودة لمطالبات اخرى كثيرة . لا شك في ان للبعد الباطل بعض الاثر في ذلك ؛ ولكن هذا الجدل لا يكفي لتعليل كل شيء ، لاسيما في مدن بعيدة عن طرقات انتقال المسافرين الكبرى ، تعلم علم اليقين انها مغمورة وانها ستبقى مغمورة . فيجب ان نفرز فيها مكانا للتقوى الصادقة ولتذوق الاشياء الجميلة . وقد حدث الانطلاق ، في العهد السابق ، من مناطق تكاد تكون خارجة عن العالم اليوناني ، اي من آسيا الصغرى والغرب حيث كان الازدهار الاقتصادي قد بلغ شأواً بعيداً . غير ان هبوط هذا

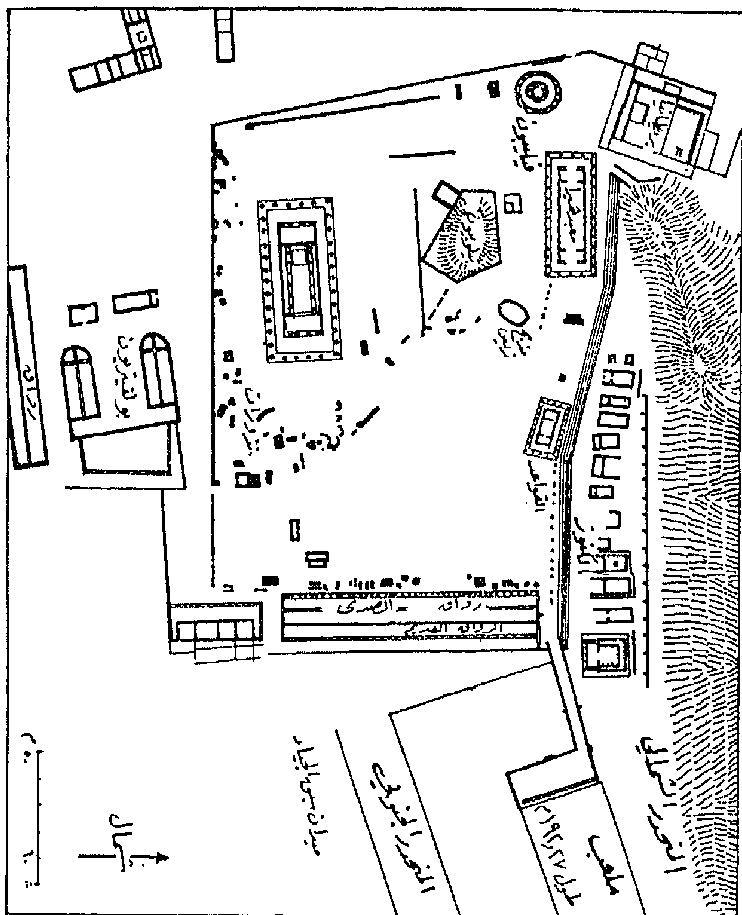
الازدهار ، في اعقاب تهديد او واقع ضغط البرابرة قد افضى الى إضعاف هذا الانطلاق . وما ان انتهت الحروب الميدية ، حتى استلمت اليونان الأوروبية القيادة في هذا النطاق وغيره ، ومنذ اواسط القرن الخامس تفوقت أثينا على كافة منافساتها بشمول ونجاح بمجهودها . وجدير بالإشارة هنا ان ايقاف هذا المجهود ، في السنوات الأخيرة من حرب البوبونيز ، بعد ان اتمت اثينا « الايرخشيون » ومعبد « اثينا نيكى » لم يثن أوروبا اليونانية عن متابعة السير قدما . ففي اواخر القرنين الخامس والرابع ، تتفرع الوثبة وتشمل مدنا صغيرة كقريه « باسي » الاركادية ، وتنقل في الوقت نفسه الى آسيا الصغرى بفضل النجاح الذي صادفه نشر الحضارة اليونانية بين البلدين . وفي حركة الجزر هذه نحو المركز الذي بدا وكأنه يجتذب اليه كافة التيارات الكبرى في الحضارة اليونانية كي يسموها الى القمة ، ثم في هذا المد الذي يعيد الفعل الخلاق الى اصغر الخلايا والى مناطق الحدود التي دب فيها الانتعاش ، يحق لنا ان نرى شبه رمز مختصر للتاريخ اليوناني .

التقليد والكمال في مهابا يمكن من تنوع نشاط الهندسة المعمارية في المناطق الجغرافية المختلفة فانه هندسة العمارة لا يفضي الى اشكال اقليمية مختلفة الجوهر .

فالمعبد انما يحافظ على المنظر العام الذي خلفته له القرون السالفة ، والذي لم يخالف الا في حالات خاصة جداً لا نستطيع اليوم تبيانها بصورة كاملة ، على كل حال . ويبدو هذا الخرق في ابنية ابيدورس المستديرة وفي معبد مرماريا الصغير داخل حرم دلفي مثلاً . ويبدو كذلك في بناء الايرخشيون الاثيني المعقد ، المدهل لايواء الذخائر القديمة و اقدم التقاليد العبادية العائدة للديانة ، برواقه الرائع المزدهن باعمدة على شكل تماثيل نساء يستند اليها ساكف المعبد لا يخفي سحرها ما فيها من غموض واهام . وتمثل هذه المخالفات نزولا عند متطلبات القاهرة خاصة لا احداثا يستجيب لتصميم على التجديد كان من المحتوم ان تقاومه قوة التقليد .

لا تبديل في الرسم العام الذي يؤول ابدا ، بالتبسيط ، الى قاعة مستطيلة تتقدمها ، عند طرفيها ، اروقة تعلوها « الواجبات » الثلاثية الشكل . ولا حائل جديد لمعضلة السقف الذي يفرض ، كما في السابق ، تحديد العرض بين الجدران او اللجوء الى الاعمدة الداخلية . ولا يحول هذا التشابه الجوهرى دون الفوارق الخاصة : كوجود الاعمدة حول المعبد او فقدانها ، والمسافات بين الاعمدة وارتفاعها ، وقياسات وترتيب المساحة الداخلية ... غير ان بعض المعابد يحافظ بدقة ، في النسبة بين اعمدتها ، وفي تنضيد الاقسام التي تعلو الاعمدة ، وفي توزيع النقوش الزخرفية ، على مبادئ الطراز الدوري او الطراز الايوني . وهناك معابد تؤلف بين الطرازين تأليفاً زاد في تنويعه ظهور عمود جديد في القرن الخامس هو العمود الكورنثي ذو التاج المليء بالنقوش الذي صادف نجاحا متزايدا . ولكن كل ذلك مجرد فوارق لا يمكن نعت اي منها بالثورية .

بذل مهندسو العمارة جهداً حقيقياً في محاولة تحقيق التناسق العام والكمال في اذق الاجزاء .



الشكل ٢٤ - تخطيط القصر في أريحا ، في أواخر القرن الرابع قبل المسيح .

واذا ما حصل ، في هذا المجال ، ان انجزت ابنية اكثر تألقا ، في مجال اجزائها الدقيقة ، من البارثونون في اثينا ، فانه ليس من بقاء اعظم منه جلالا عقليا في المطابقة النسبية ، ولا ازهى في انتقاء المرمر المستخرج من « بنتيليك » ولا اروع في نحت هذا المرمر وتنقيده ولا اعرق درسا في تصحيح الأخطاء التي قد يسببها بعد مرمى النظر أو تأثير النور الساطع . كل شيء فيه حتى قياسات اصفر حجر ، قد صمم بقوة منطق تحير المخيلة بشمولها وافراطها في الدقة ، ونفذ بمهارة تدهش العقل بحرصها على الكمال . ولا يمكن ادخال اية شفرة سكين ، مهما بلغت دقتها ، بين القطع التي تتألف منها الاعمدة والتي تربط بينها كلاليب معدنية . وتنحني سافات الاساس التي تستند اليها الاعمدة الخارجية ، من كسلا طرفي المحورين ، بمقدار ٠٠٥٩ و ٠٠٦٧ م في اوجه البناء التي يبلغ طولها ٣٠ و ٨٦ م ، وبمقدار ٠٠١٠٧ م و ٠٠١٠٩ م في الواجه الطويلة التي تبلغ ٦٩ و ٥٩ م : وليس المقصود من هذا التحدب الخفيف تصريف مياه الامطار بل تجنب الشعور بالانخفاض الذي يحدثه ، في وسطه ، خط افقي طويل ، لا سيما وان هذا التحدب يقابله تحدب مماثل في السالكف فوق الاعمدة . وباستطاعتنا الاستشهاد بأرقام اخرى كثيرة تثبت ، شأن الارقام السابقة ، ضبط الدقة الفنية الذي توصل اليه منفذو الاعمال وسيادة اولئك الذين صمموا في الفكر ، كليا وجزئيا ، العمل الواجب تحقيقه .

اما النقاشه فاكثر تنوعا . لا شك في ان الديانة لا تزال مصدر الالهام الاكبر للفنانين . فهي تقدم لهم المواضيع ، بصورة شبه دائمة ، مباشرة او غير مباشرة ، للتنايل والنقوش الناتجة على السواء كما تقدم لهم ابنيتهما او معابدها الامكنة المعدة لها هذه النقوش . ولكن مصدر الالهام قد يكون غير ديني احيانا . فيمثلون شخصيات سياسية او قوادا عسكريين ، على قيد الحياة احيانا - اقله منذ اواخر القرن الخامس . ويمثل النقش على النصب المدفني الميت في حياته اليومية . ويفرض تشبيه الآلهة بالبشر ، حتى في اقدس المشاهد ، نقل الأمثلة الالهية عن الدنيويات ، وليس المغزى الديني في هذه الأمثلة احيانا سوى عذر ووجهة : فهل تفقد افروديت ، التي مثلها براكسيثيل ، انوثتها مثلا عندما لا يطلق عليها اسم البغي « فريني » ؟

ثم ان هذه المواضيع الدينية نفسها اكثر تنوعا من الابنية التي شيدها المهندسون . فالاسطورة توفر مشاهد تعالج بالترتيب : اعمال « هيراكليس » والصراع بين شعب « اللابيث » وشعب « الصنطور » ومعارك « الامازون » ... وكم مشهد آخر اختاره الفنانون من الامثال والآلهة اضاف الى ذلك مشاهد الحياة الدينية ، الذبائح وعدتها والتطوافات والمباريات على اختلاف انواعها واطرافها . ثم ان المعبد الدوري اخيرا قد فرض وجود النقوش في لوحاته الرخامية ، كما فرضه المعبد الايوني في افريزه وكما فرضه كلاهما في المثلثين المتقابلين فوق الاعمدة الخارجية ؛ وكان كل بناء ، او كل حرم مقدس ، يتقبل ، اذا ما صادف الاله فيه بعض الاكرام من قبل الافراد والجماعات ، التذورات والتنايل التي يعتمد الشهبان في تحقيقها بالترتيب على المرمر .

وهكذا فان النقاش قد اتبع له المزيد من الامكانات المادية التي حق للمهندس العبارة ان يحسده عليها بسبب تقيد به بعض امثلة الابنية التقليدية .

استمر الفنانون هذه الورقة استثمارا واسعا كما يفيد منها مؤرخ اليوم . فان التنوع الذي كان نتيجتها الطبيعية يسمح له بان يكتشف ، بوضوح اجلى منه في دراسة التحقيقات الهندسية ، الخطوط الكبرى لتطور رافق ، دون شك ، التطور العام في الاذواق والمواطف والاخلاق والافكار . ومن جهة ثانية ، اقله في بعض الحالات الخاصة ، بتاح لنا ، بفضل بعض القطع الاصلية النادرة ، او بفضل النسخ التي ترجع مطابقتها لهذه القطع والتي لانراها غير لائقة بها ، او بفضل ايضاحات موثوق بها تركها لنا المؤلفون القدماء ، ان نראה ان فلس احيا نزعات الفنان الخاصة ونبوغه المميز واسهامه الشخصي في تطور فنه .

كان التطور ، في الدرجة الاولى ، تساميا نحو اوج الكلاسيكية الذي أدرك أوج الكلاسيكية خلال الربع الثالث من القرن الخامس . فما زالت هنالك ، حتى السنة ٤٥٠ ، بعض آثار العهد القديم : الابتسامة المصطنعة التي يتأخر زوالها على الرغم من تلطفها التدريجي ، ولا سيما بعض المجمود في اوضاع الاجسام واسترسال الالبسة وبعض الخرق في تنسيق المجموعات النقشية . ولكن تحقيق الماهرة الكاملة يتم بسرعة بفضل « ميرون » و « بوليكليت » و « فيدياس » .

توفى الاول الى ان يظهر بصورة محسوسة ، في جود المادة ، الحركة المنتهية والحركة المبتدئة . ويزيد في قيمة هذا التأليف ايضا ، مع انه بالغ الاتقان بمحد ذاته ، ما يوفره في التمثيل للتعبير عن المواطف تعبيراً خفياً : ازدراء « أثينا » الفتية الغطريسة التي كأنها توقف سيرها هنية وتدير رأسها لتتنظر باستخفاف الى طمع « مارسباس » المرائي والخزي الذي يسرع الى تناول الاداة الناقصة التي احتقرتها ، والتوتر المعنوي والجسدي على السواء البادي في تمثال « رامي الاسطوانة » « ديسكوبول » الراغب في اعطاء افضل ما عنده في جهد اخير تستعد له كافة عضلاته .

ودرس بوليكليت جسم الرجل درسا مستفيضا ؛ وألف كتابا حدد فيه « قانون » هذا الجسم وقياساته المثالية . وقد طبق مبادئه في تمثال المصارعين الشبان ، كالجندي (دوريفوروس) الذي يحمل ، في سيره ، الرمح على كتفه ، او كذلك الرجل (دياذومينوس) الذي يلف رأسه بعصية المنتصر . ولكن العنف في ضبط نقاش العضلات في هذه التماثيل يلطخه تناسق حتي لم يستطع تقدم العلم ان يقضي على بداهته واثار خفي تتركه ابسط حركة في الجسم كله .

اما فيدياس ، الذي يجب ان لا تنسينا شهرته الساطعة اننا لا نعرف بصورة اكيده تمثالا صنعته يده ، والذي تقاس عبقريته مع ذلك بما تبقى من نقوش البارثون التي صمماها ونفذت تحت اشرافه ، فانه قد استطاع ان يضي على الآلهة والالهات جلالات لا مثيل له ، وعلى الالبسة رشاقة تليق بالجسم الانيق الكريم الذي يرتديها وعلى الوجوه وقاراً يعبر عن المثل الاعلى

الديني عند النخبة . وقد توافق الناس في الزمن القديم على الاعتراف بان من يشاهد تمثال زفس الكبير ، وهو الذي قد حققه يجمع الصفات الذهبية والعاجية واقامه على عرش من الابنوس في معبد اولمبيا ، لن يكون بعد ذلك شقياً . وفي هذا الحكم اعتراف بفخامة هذه الطرفة وصفاتها التي لا تنسى . ولكن فيه ايضاً اعترافاً بالثقة التي توحى للمخلوق الوضيع الطمأنينة العميقة والتبيل العظيم والابوي مما للذين استطاع فيدياس ان يرميها على قسما زفس الاولمي سيد الآلهة والبشر . اما نقوش البارثون الرخامية التي تمثل ، في المثلثات ، بعض المشاهد من اسطورة « اثينا » إلهة المدينة ، كولاتها الاعجوبة بسلاحها الكامل من جبهة زفس وظهور شجرة الزيتون فجأة حين انكرت على بوزايدون حقه في تمثلك الأتيك ، والتي تبسط ، على الاقرب البالغ متراً ارتفاعاً و ١٦٠ متراً طولاً ، تطواف عيد هذه الإلهة الذي يشمل اكثر من ٤٠٠ شخص و ٢٠٠ حيوان ، فانها بلا مراة ارفع تعبير مصور عن الديانة المدنية ، ذلك التعبير الذي حاول حكام أثينا بواسطته توحيد « البولس » كلها في عبادة إلهتها الحامية .

هؤلاء هم كبار الفنانين . ولكن هنالك اسماء لا تخص الى جانبهم ، كما ان هنالك ايضاً عدداً لا يحصى من الفنانين الذين لا نعرف اسماءهم ، كاولئك الذين عملوا في البارثون تحت اشراف فيدياس ، وعدداً ضخماً ، اخيراً ، من التحف التي قد يتطلب عدداً صفحات وصفحات . وان الشيء العجيب الذي يضيف على نقاشه ذاك العهد ميزتها الكلاسيكية ، هو ، بالإضافة الى كمالها الفني وما تعبر عنه من تحكم الفنان بأنامله والاداة والمادة ، قيمتها العامة المرتكزة الى الاعتدال والمنطق . لأشيء فيها يفرض فرضاً عتيقاً او مباشراً على اعين المشاهد : فان اكثر الاوضاع هدوءاً يسمح له بترائي الحركة ، كما ان الايماء في اول انطلاقتها والتبدل الخفي في الوجه يكفيان لان يوحيا له العاطفة الخالصة . ولا يرد فيها شيء الى المصادفة : فانها توحى ، باتزانها وانسجام صناعتها ، ان الفنان قد حقق التناقض القائم في ان يفكر ابدأ دون ان يوقف دقيقة واحدة ارتجاج الحياة . وليس فيها شيء مستملح او عارض : فانها تتسامى حتى الأمثلة الطبيعية او الأدبية التي لا أثر في قيمتها المثالية للزمن والبيئة . وجلي انها تتوافق في كل ذلك مع النزعات الواعية التي تجيش في قادة الرأي في « البولس » والنزعات الغامضة التي خضع لها الانسان اليوناني باعطاء « البولس » الشكل الذي كان لها في القرن الخامس . وهي توجب على المدينة ايضاً ان تكون جسماً معتدلاً ، متناسباً ومنظماً من الناحية المنطقية ، ومركباً وفاقاً لقانون داخلي ، ومنقاداً للعقل ، وطامعاً في الانتقال بالمواطنين الى انسانية افضل . وليس من قبيل المصادفة اذا كان فيدياس ، في آن واحد ، معاصر بريكليلس وصديقه وبمناوبة وزير الفنون الجلية عندهم .

ولكن هذه المفاهيم الجمالية قد اشتقت من مثل أعلى أرفع سمواً وتجريداً من ان يوفر ارضاء دائماً . فبينما كانت الاحداث تثبت ان

النقشة في القرن الرابع

غريباً المتصر ، بفضل ارميل براكسثيل ، وبغير النقاش نفسه ، على كل حال ، عن شهوانية مماثلة ، في دراسة جسم المراهقين المشوق الاغيد الانيق على بعض التخنت . ثم تتليه الحركات حياة ، لا بل تتخلص من قيودها ، كحركات « الراقصة » التي مثلها « سكوباس » دائرة مضطربة ، او كحركات « الامازون » والاعريق الذين يضربون ويدافعون عن انفسهم بشراسة ، على افريز صريح هاليكارناس الفخم . وفي كل مكان يبرز الحرص على الواقعية التي تجعل حقيقة الحياة اكثر ظهوراً وتعطيها ميزة اكثر شخصية : قائف الملاكين مسطح واذانهم منتفختان وعنقهم ضخم ، واذا أطال « ليسبوس » ساقى مثال « ابوكسيومينوس » ، المصارع الذي يكشط العرق عن جسمه بعد الجهد ، فانه لا يتردد في اعطائه شعرا اشعث وعينين جزعتين وفيما يكاد يكون منقبضاً لا يفتح الا جزئياً لثفت قصير لم يستعد بعد انتظامه .

لاشك في اننا نتخطى مع ليسبوس المثال الرسمي للاسكندر ورفاقه ، في الشطر الثاني من حياته الخلاقة ، عتبة العهد التالي . ولكن هذه الدلائل القصيرة تظهر بما فيه الكفاية ، منذ قبل الاسكندر ، ان النزعات التي ستطبع النقاش الهلينية بهذه القوة ، لا تترأى ترائياً فحسب ، بل تقرب اكثر فاكثرا الى فن لا يفقد شيئاً من مهارته الفائقة ، ولكنه ينصرف عن المثل الأعلى الكلاسيكي ، الذي يهمل منذ ذلك الحين ، لأنه لا يتفق مع تيار يدفع بالاعريق الى عالم جديد .

نحسن نرى ان الفنون الاخرى دون هندسة العمارة والنقاشه
الفنون الأخرى :
التصوير وصناعة الخزف والفخار
بدرجات . وقد يكون رأينا خاطئاً ، على كل حال ، اما بفعل
جهلنا ، واما بفعل تسلسل جهل اليونان واوجدناه نحن بين نشاطات
فنية تستهدف كلها اضافة الجمال على الحياة الفردية او الجماعية .

لا تزال في جبل مطبق حيال فن التصوير اليوناني لان تحفة واحدة من تحفه لم تصل الينا . ولكن واقع وجود هذا التصوير في ذلك العهد لا يرقى اليه شك ، وقد ارتدى اشكالا متنوعة جداً انطلاقاً من التصوير على الجدران لتزيين الابنية ، وبنوع خاص الرواق والمعبد ، حتى لوحه المسند الخشبية . ففي مدخل القلعة الكبير الذي شيد في عهد بريكليس خصصت اسدى القاعات متحفاً للتصوير . وهذا يعني ان هذا الفن كان موضوع تقدير سام ، وسيعرب الرومان حيال الحصول على تحفه ، عن رغبتهم نفسها في الحصول على التماثيل . وقد وردت اسماء اشهر المصورين ، « بوليغوت » « وزفكسيس » « وبارتاسيوس » في القرن الخامس « وابيل » في القرن الرابع ، محاطة ببديع كبير وبطرف تؤيد شهرتهم . وقد حظي « ابيل » لدى الاسكندر بالتقدير نفسه الذي حظي به ليسبوس . وباستطاعتنا ان نتبع على وجه التقريب تقدم فنهم الذي لم يزل ، في اوائل القرن الخامس ، اولياً جداً وبطيء التحسن . فبوليغوت قد جهل التصوير بحسب الرؤية واهمية الظلال والصبغ المتدرج ، وهذه كلها اكتشافات لم تتحقق الا في النصف الثاني من القرن الخامس . وكان « ابيل » اول من اكثر من استعمال الالوان الشمعية بفضل طريقة

جديدة تسمح بتطمين الشعب . فهل يمكن التعويض عن هذه النواقص الفنية بفضل مهارة الفنانين وقناسق تحفهم ومعرفتهم للاشكال البشرية ودقة سيكولوجيتهم ؟ هناك من يؤكد لنا ذلك ولكن اصدار حكم ، انطلاقاً من التحف نفسها ، لا يزال مستحيلاً علينا .

ليست هذه ، لحسن الحظ ، حال صناعة الخزف التي لا يأتي المؤلفون القدماء عسى ذكرها الا قليلاً ، ولكن تحقيقاتها قد وصلت اليها .

اما عهد هذه الصناعة الذهبي فهو القرن الخامس الذي احتلت خلاله اثينا ، مرة اخرى ، مرتبة اولى لا شك فيها . وقد ساعدها في ذلك ، على الصعيد المادي ، سعة تجارتها ، وبنوع خاص تصدير الزيت والنبينا ، اذ ان نقل السوائل قد اوجب عليها ، بالضرورة ، النهوض بصناعة الفخار . ولكن الآنية الفخارية الصفيقة كانت في الحقيقة كافية لهذا الغرض ، وليس ما يستلزم ، والحالة هذه ، انتاجاً رفيعاً . ولكن هذا الوضع قد اسهم في تسهيل ظهور هذا الانتاج ، بتشجيع التقدم الفني ، وباراز الكفاءات بين الصناعيين العديدين ، وبزيادة امكانات البيع . ولذلك فان الاهمية الجمالية التي وفرها قسم من الانتاج ترتدي قيمة دليل هو أوضح وأفصح من ان نستطيع اجمال دلالته .

فهو يثبت في الدرجة الاولى وجود مواهب فنية فطرية بلغت نموها الانظار عند بعض العناصر على الاقل من العمال اليدويين . وقد حرص بعضهم على توقييع مصنوعاتهم ؛ ولكن الروائع المغفلة ليست ما ينقصنا . ونحن نترامى من خلال هذا التواضع ، رجالاً مكبيين ، في وسط الطبقة المالكة ، على عمل يتنافس في انجازه اهتمامهم في تأمين خبزهم اليومي ومشاكل اخرى اقل صبغة تجارية .

ثم ان رواج هذه المصنوعات البرهان على سلامة ذوق زين الخزافين . وكان هؤلاء الزين من المواطنين في الدرجة الاولى . فالخزفيات المزخرفة كانت دارجة الاستعمال ، ونادرة هي البيوت التي اكتفت بالفخاريات الصفيقة ولم تقن منها بعض القطع . ومن حيث ان الصفة الفنية لم تتأثر بذلك على العموم فيجب الاعتقاد -- مقارنة بالماهير العصرية -- ان الجماهير الاثينية لم تكن مبتذلة . وهذا في نظرنا استنتاج لازمي يفرضه ، بصورة اكثر جلاء من درس الفنون الاخرى التي لا شيء يثبت لنا انها لم تقتصر مبدئياً على ارضاء النخبة ، درس الخزفيات التي يعتبر شراؤها اوسع استفتاء يومي يمكن تصوره . ولكن الزين لم ينحصروا في الأتيك بل كانوا موزعين ومنتشرين حتى خارج بلاد اليونان . فمنذ العهد القديم ، صدرت روائع خزفية يونانية كثيرة الى البلدان النائية ، كإيطاليا الوسطى والقرم ، حيث عثر على بعضها . وقد حدث الشيء نفسه في ذلك العهد . فقد صدرت اثينا مصنوعاتهما ، في القرن الخامس ، الى شواطئ البحر الاسود . واذا فقدت اثينا ، في القرن الرابع ، كثيراً من منزلتها في الغرب الذي نزعت مصانع صقليا وإيطاليا الى سد حاجاته ، فان رؤساء قبائل روسيا الجنوبية ما زالوا زينها الاسخياء . وانما

متحف اللد « اوميتاج » في لينغراد مدين جزئياً لبقائهم بغنى مجموعاتهم النادر . وان في نجاح هذا الفن الرقيق لدى تحبة المجتمعات الاجنبية التي لها وحدها من الثروة ما يشيع لها اقتناء هذه القطع المختارة ، لبرهاناً جديداً على انتشار الذوق اليوناني الذي هو رائد الحضارة اليونانية والتعبير عنها في آن واحد .

اعتمدت من الوجهة الفنية ، طريقة تقلبت على غيرها منذ اواخر القرن السادس . وهي تقوم في خلفية سوداء ومساحة حمراء للشهد تعين الرسم فيها خطوط دقيقة سوداء . اما الطريقة القديمة التي كانت تعتمد الصور السوداء على خلفية حمراء فقد زالت الاعلى بعض الآنية القليلة المطلوبة ، احتراماً للتقليد ، على القوارير التي تقدم جوائز للفائزين اثناء المباريات في اعياد الإله « اثينا » . وقد خرجت عن القاعدة السائدة فئة اخرى من الآنية هي تلك التي تودع المدافن وبعض الاكواب النفيسة ذات الخلفية البيضاء والمتعددة الالوان الكامدة بسبب استعمالها المدفني .

ولكن الصفة الفنية في أجل هذه المصنوعات غير ناشئة عن مقيتها ، بل عن شكلها وعن التحديق النقي الانيق الذي اعطي لمادتها الطيبة القابلة التمديد . ومرد هذه الصفة خصوصاً الى الالهام وسلامة الذوق في الصورة التي تزينها . وتصلح كل المواضيع للفنانين : تمثيل الميت بهيئة مثالية ، والاساطير الخرافية والبطولية ، ومشاهد الحياة اليومية . وتلفت الانظار هذه المشاهد الاخيرة ، الملئية في اغلب الاحيان ، بقيمتها كمستندات اكدية وبدايتها كرسوم اعدادية سريعة وايحائية معاً . فلمعرفة حياة الاغريق الخاصة ، الاستعدادات للزواج والاحتفال به ، اعمال النساء في الحذر ، اجتماعاتهن عند ينبوع ، التمارين في مكان الرياضة ، تسليات الولائم ، الاعمال في المدرسة والمصنع والريف ، توفر الفخاريات رسوماً تفوق المستندات الادبية تنوعاً وتفصيلاً وافادة وحياة . فقد برز في اثينا اذ ذاك ، بصورة نادرة ، عدد كبير جداً من المصورين الذين لا نعرف ماذا يوجب الاعجاب بهم في الدرجة الاولى ، خصب ورشاقة الخيلة ، ام حدة الملاحظة ، ام الدقة والضبط والاناقة في التنفيذ السريع . ويضاف الى ذلك احياناً ، وينحصر ذلك في ارباب الفن ، قوة الابعاء ، والخط الذي يحمل الناظر بعيداً ويوحى حالة نفسية شعر بها الفنان في اعماقه وادائها تأدية لطيفة : سرور الجهد الطليق والمتنصر ، الم الام المتضرعة امام جثة ابنها ، استسلام الضحية وشفقة من يضرب الضربة القاضية ، حنان الوداع الذي قد ينذر بخاطر انفصال نهائي لا يخفف من احواله اي ايمان يقين بحياة ثانية .

ييز الاختصاصيون ، في مجد القرن الخامس ، عهوداً وطرائق يطيب لهم وبطها بتطور النقاشة وتصوير المواضيع الكبرى . ونحن يكفيننا هنا ان نلفت الانظار الى ما ظهر منذ اواخر القرن ، وازداد جلاء فيما بعد ، من اضافة مواضيع مبسطة ، تدريجياً ، على الرسوم الترينية ، ومن تعقيد في الرسم واستعمال صبغ متنوعة بما فيها التذهيب . وقد فقدت خزفيات القرن

الرابع البساطة التي انصفت بها في القرن السابق ، اذ ان الذوق قد تطور على هذا الصعيد ايضاً . وليس من المهم ان يكون الذوق قد تقدم او تقهقر بفعل هذا التطور ؛ فاذ لم يزل هنالك صناعيون ماهرون ، فلم يبرز فنانون مخلقون في تصوير الآنية .

ان صناعة الخزفيات ، على ما نعلم ، قد احتلت اعلى مرتبة في ترتيب الحياة اليومية . ولا شيء تقريباً يسمح لنا بابداء رأي في تجارة الابنوس والصابغة . وهنالك بعض القطع الرائعة في المسكوكات ، لاسيما بعض تلك التي ضربت في سيراكوزا حاملة رسماً جانبياً نقياً للحمورية اريثوسا ، بينما تبقى اثينا امينة للقاعدة القديمة في رسم البومة الصمماء ورأس « اثينا » . ولكن ما يجب ذكره حقاً هو التماثيل الفخارية . اجل انها صنعت في امكنة كثيرة ومنذ ازمنة بعيدة ، ولكنها تتميز ، في القرن الرابع ، وفي بيوسيا خصوصاً ، بصفات جذيرة بالاعتبار . واذا اعوزتها العواطف القوية والغنية ، فان فيها من الرشاقة والاناقة والسحر ما يأخذ بمجامع القلوب . وتؤلف هذه التماثيل - مع المشاهد المصورة على الآنية ، مستندات ثمينة بحقيقتها ومستعذبة بظرافتها البدئية لازياء المرأة وحياتها في البيت وفي الخارج - لان القسم الاكبر منها يمثل نساء .

ان هذه الروائع الصغيرة التي تمتاز بدقة الملاحظة والابتكار البديع واتقان التنفيذ تقودنا الى خارج أثينا . ومن الموافق على كل حال ان يأتي اسم « تناغرا » المدينة البيوسية الصغيرة الذي اشتهرت به ، لان ادق هذه التماثيل واجملها من صنع هذه المدينة ، مناقضاً للغلاظة التي طاب للاثينيين ان يتمتعوا بها البيوسيين جيرانهم ، واعداًهم في اكثر الاحيان . ولكن مهما يكن من هذا الامر ومن غيره فان إسهام اثينا في تحقيقات الفن اليوناني الكلاسيكي الرائعة تتفوق على اسهام كافة المدن الاخرى تفوقاً ساحقاً يصعب من التهور معه ان ننهي هذه المعجالة باسم غير اسمها .

٣ - الحياة الفكرية

ان النعت « كلاسيكي » غني بالمعاني التي يصعب الاحاطة بها كلها . ولعله من الثابت ، على الاقل ، ان ليس من حضارة كبيرة جدية حقاً بهذا النعت اذا لم يقتزن بهاء مصنوعاتا الفنية ببهاء مؤلفاتها الفكرية ، واذا لم يلمس فيها ، من جهة ثانية ، بعض الانسجام النظري بين النزعات التي يخضع لها المبتكرون في هذين المجالين . هذه هي بالضبط حال العالم اليوناني في القرنين الخامس والرابع . فالحياة الفكرية لم تكن اقل سناء فيها من الحياة الفنية . وفي كلا الحياتين كان ما خلفه الاغريق للاجيال اللاحقة ذا اهمية رئيسية ، واذا نحن اوعشنا اليوم في بعض الطرقات ، فالفضل يعود لهم في شق اكثرها امامنا . اما تشابه المثل العليا فليس فيه ما يثير الدهشة اذا ما فكرنا ملياً بكل ما بذله الفنانون من مجهود عقلي في فنهم : ومن الاكيد الثابت ، في اوج الكلاسيكية ، ان الفيلسوف اناكساغوروس والشاعر سوفوكليس والمؤرخ هيرودوتس قد عرفوا فيدياس في بطانة بريكلينس ، وان سقراط فيما بعد قد سأل الفنانين عن كيفية ادراكهم للجمال . لذلك فان المشاغل الهامة كانت متجاورة وقد تبم تطورها خطأ منحنيّاً واحداً . فكان

الهم الاول الحصول على معرفة منطقية ، اي تنظيم الانسان والطبيعة وفاقاً للعقل ، فاذا بقيمة هذا المثل الاعلى العامة تولى المجهود اليوناني قوة نافذة متبادية . ثم ساد الاقتناع ، بفعل التعمق في هذه المعرفة ، بان العقل لا يفسر كل شيء ولا يتحكم بكل شيء ، وبان هنالك قوى اخرى تعمل عملها لا تقل عنه واقعية واهمية .

يتوجب علينا ، في هذه الظروف ، ان نحلل الفلسفة في المرتبة الاولى بالاستناد الى تأثيرها اذ ذلك في كافة النشاطات الفكرية الفلسفة : التقاليد
والجدة في القرن الخامس الاخرى : ومن النادر جداً ان نرى كاتباً يونانياً لا نلصق عنده طابع المفكرين الذين قرأ مؤلفاتهم او استمع الى احاديثهم .

كان فلاسفة القرن الخامس اوفياء لحلم الطموح الذي دغدغ بخيلة فلاسفة القرن السابق ، فتابعوا في الدرجة الاولى البحث عن تفسير منطقي لطبيعة الاشياء . ولم يختلف اميليو كليس واناكساغوروس وليسيوس وديموكريت اختلافاً حقيقياً عن الايونيين من حيث الطرائق المعتمدة التي كثيراً ما لجأت الى الخيلة والى الاسطورة احياناً بسبب افتقارها الى وسائل البحث الصحيحة ، ومن حيث صفة الحلول التي تبناها . فهم ، شأن الايونيين قد تحاجوا حول عدد وصفة العناصر الاساسية والقوى التي تؤلف وتفصل بينها لتكوين منها الاشياء وحركتها الدائمة في آن واحد . وتكفي الاشارة هنا الى ان حدسهم لم يخطئ احياناً ، دونما حاجة منا الى الدخول في تفصيل نظرياتهم الذي لا نعرفه معرفة تامة على كل حال . فنحن نعلم مثلاً ان اناكساغوروس الايوني المنشأ والمقيم في اثينا قد اقيمت عليه الدعوى لانه علم ان الشمس كتلة متأججة ، نافياً عنها بذلك صفة الالهوية . وبما يلتفت الانظار اكثر من هذه النظرية ، وهو موضوع الساعة اليوم ، نظرية الذرات التي تخيلها ليسوس وتوسع فيها تلميذه ديموكريت . فالذرات ، في نظرها ، صغيرة جداً ولا عدّها ، ولكنها متشابهة من حيث تركيبها ولا تختلف الاحجاماً وشكلاً ووزناً . ومن شأن الذرات الثقيلة منها اذا ما سقطت ، ان تسبب ، بفعل الصدمات وتفاعلها ، حركة لا نهاية لها تتولد منها الاشياء في مظاهرها المتنوعة . وقد كتب لهذا المذهب مصير نادر بفعل قصائد « لوكريس » وبفعل جهود علماء الطبيعة المعاصرين لجهة مبدأ الذرة . ولكن هذا المذهب واحد من مذاهب اخرى كثيرة وهمة وغاشمة ، لا فرق اذا كانت هذه المذاهب توحيدية او ثنوية او تعددية ، واذا ما استندت ، في تحليل نظام الحركة ، الى التضاد بين المحبة والبغضاء او الى «نوس» (Nous) (الفكر) باعت الانطلاقة الاولى او الى بعض الامور الالوية . وقد اخاطت كلها بالثقة العمياء في طاقات الفكر البشري الاعزل من كل سلاح ، اذ ذلك ، امام معاضل شبيهة بتلك التي لم تحش الفلسفة اليونانية ، في اوائل عهدها ، من مواجهتها ومعالجتها .

وحدث حينذاك ، في النصف الثاني من القرن الخامس ثورة السفسطيين الفكرية والاخلاقية معاً . وليس لاسم السفسطي في حد ذاته اي معنى محط ، اذ انها تعني في اليونانية « رجل المعرفة » .

ولكن الحملة المفرضة اللاذعة التي قام بها ضدهم افلاطون بنوع خاص قد ألصقت بهم سمعة سيئة .
 وهم قد تنفروا من جهة ثانية معاصريهم ، المتسكين بآراء الزمن الماضي ، بفعل تجاسرهم ونجاحهم
 والارياح الطائلة التي جنوها من تعاليمهم منزلين التعليم العالي الجرد عن كل غاية ، حسب الاعتقاد
 السائد ، الى مستوى نشاط تجاري عادي ، وكلها مأخذ تثير الابتسامة اليوم ، لا تمحو شيئاً من
 اثر ما حققه السفسطيون واهميته التاريخية .

فهم قد تجاوزوا إطار الفلسفة تجاوزاً واسعاً متناولين جميع نواحي المعرفة ومعمدين فيها
 طريقة واحدة . وهي طريقة ثورية في جوهرها لانهم لم يهتموا للمواضيع المجردة بسل اعلنوا ،
 كما قال بروتاغوراس ، احد مشاهيرهم ، « ان الانسان هو قياس كل شيء » . فمسل عنوا بذلك
 الانسان الحقيقي بكمليته ، اي الانسان العاقل والعاطفي معاً ، العضو في الجماعة والكائن الفرد ؟
 يرجع انهم قد شدّدوا ، على سبيل رد الفعل ، على المظاهر المهمة حتى ذاك العهد . ومهما يكن
 من الامر ، فان ما نهضوا به فوز لروح النقد التي استسلموا لها ، بتحقرين التقاليد احتقاراً كلياً ،
 واخذ بمبدل الذاتية على اساس استحالة اية معرفة موضوعية . وكان من شأن هذا المبدأ ان
 يذهب بهم بعيداً : فلا سبيل اذن لاثبات او نفي وجود الآلهة ؟ ولا سبيل لاعتبار الشريعة ،
 « الناموس » الذي تأسست عليه « البولس » ، كواقع غير بشري او بئامن من التقلبات البشرية ؟
 ولا سبيل لمعرفة حق مطلق وعدل مطلق يسومان على ما هو مفيد ويتميزان عنه . وهكذا فان
 كل شيء قد اصيب بهزة عميقة . فقد حث السفسطيون تلاميذهم في الوقت نفسه على استهداف
 النجاح قبل كل شيء . وتحقيقاً لهذا الغرض روضوا جدلهم ولقنوم صيغاً خطابية بارعة استطاب
 اكثرهم درسها وتعليمها وحددوا لهم كمثل اعلى ، لا سيما امام المحاكم ، تحويل اقوى حجة الى
 اضعف حجة .

لجأ المؤرخون الالمان ، في تعيين هذه الثورة العميقة الجذور الى الكلمة نفسها التي استعملت
 في تعيين ثورة « الانوار » في القرن الثامن عشر : *Aufklärung* . وان هذه المقاربة لواجبة
 في الحقيقة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار اتساع الحركتين ومغزاهما العام . فقد كان لعمل السفسطيين
 اهمية عمل « الفلاسفة » بعد ذلك بثلاثة وعشرين قرناً . فأثروا مباشرة في نخبة المجتمع ، وعن
 طريقها في طبقات اكثر اتساعاً ، ونشروا ما يجب تسميته بالثقافة التي كانت وقفاً على دوائر
 ضيقة ، اي ، فيما يعنينا هنا ، تذوق بعض القضايا والاهتمام بجميع مظاهر الحياة الفكرية .
 وادخلوا ، على الفلسفة والعلم ، روحاً نقدية عميقة وخشية من تجريد لا رادع له ، لن يستطيع احد
 بعدمه ان يخرجها منها . وقد كانوا اخيراً في الاساس من انطلاقة الفردية المنتصرة التي لن تلبث ان
 تبدل الحضارة ، بادئة في جعل « البولس » نفسها تترجرج على اسسها .

جعل ارسطوفانوس من سقراط ، في كتاب « الفيوم » ، احد السفسطيين لا بل شرهم في نظره .
 ولم تنقش اربع وعشرون سنة حتى حكم على من سخر منه بالموت ، فشرب الشوكران السام من

الكوب للذي قدمه اليه الجلاذ . فاذا سلمنا ان ليس هنالك اخطاء اعظم من الجرائم ، فما عسانا نقول عن الاخطاء التي تسهم في التسبب في الجريمة ؟ فالضحك عند قراءة « الغيوم » يستلزم في الحقيقة استعداداً نادراً للنسيان .

يتغذر ، في الحقيقة ، فهم سقراط بدون السفستيين : فهو على غرارهم ، وبعدمهم ، يتحول عن البحوث النظرية حول المادة والحركة التي يعتبرها على جانب كبير من الطموح وعدم الثبات ؛ وعلى غرارهم وبعدمهم ايضاً ، يكرس جهوده وابحائه للانسان . ولكنه يفترق عنهم بسلوكة وطريقته . فمن حيث انه اثيني - وهم ليسوا بأثينيين - ومواطن متواضع ومثالي ، لا ينتقل من مدينة الى مدينة للبحث عن المستعدين يلقي عليهم محاضرات جاهزة . وهو يريد في الدرجة الاولى وفقاً للحكمة الدلالية ، ان يعرف نفسه ويرى جلياً في داخله ويقنع بحقيقة ما يشعر ويفكر به . وهو يعلم هذا المبدأ بالمثل معتمداً حيال كل شخص مبدأ « السخرية » وطارحاً على محدثيه اسئلة يتظاهر فيها بالجهل حتى يجعلهم « يولدون » ما هو كامن فيهم . ويفترق عن السفستيين ايضاً بتعليمه الاخلاقي والديني : يؤمن بوجود الالهة وتدخلها لدى البشر والامور البشرية ؛ ويعتبر ان السعادة الحقيقية مرتبطة بممارسة الفضيلة التي يمكنها ان تسيطر على الجميع اذا توصل الجميع الى التغلب على الالهام المشتركة ونبد الآراء السائدة دوغما تعليل . وهكذا فانه يلقي بالذاتية جانباً ويعيد مفاهيم الواجب والعدل التي سعى غيره الى ابدالها بمفهوم المنفعة ، تلك المنفعة التي يكفيه ان يحسن ادراكها حتى يتخطاها .

كل من اراد ان يوغل في عرض آراء سقراط الجوهرية الى ابعد مما قدمنا ، يحتاج الى اثبات غير متوفر . ولكن ما نراه لكاف لان ندرك كل ما احدثه في الحياة الفكرية اليونانية . هذا السابق المهد الطريق امام الشك المنظم والتأمل الباطني ، وامام علم الاخلاق العقلي وحتى امام اللاهوت الادبي . أضف الى ذلك ان تضحيته بحياته على مذهب شرائع وطنه قد جاءت ، بقوة المثل ، تكمل تعليمه وتخلّده ، مع أنه لم يختلف اي مؤلف مكتوب .

السلطة في القرن الرابع
يسيطر سقراط ، في الحقيقة ، على فلسفة القرن الرابع ؛ وانما يختلف اتجاه تلاميذه ، الذين لا يقيدهم أي تعليم محدد ، وفقاً لاستيحاءهم مجهود معلمهم المستر توصلاً لحقيقة أكثر عمقاً . وبصرف النظر عن الشبه المطلق في انتسابهم الفكري ، فانهم جميعاً يتشابهون في كونهم مؤسسين او أقله معلمين لمدارس معدة لتقدير واسع وحياة طويلة ، وفي ذلك ظاهرة واضحة للاهتمام الذي أثارته منذ ذاك العهد معاضل فلسفة طرحت بشكل جديد على بساط البحث .

فمن تلاميذ سقراط ، أنتستين ، الذي يعلم في ملعب « سينوسارغيس » الأثيني ، الذي سيشتق اسم مدرسته منه (*Cynique*) ، ان سر السعادة قائم في احتقار حاجات تولدها في الانسان ممارسة حياة تبعده عن الطبيعة ، ولن يلبث هذا المبدأ ان يؤدي الى تظاهرات

« ديوجين » التي املت معاصرة وفشرت المحافظين على التقاليد . ولكن في هذه التظاهرات شيئاً آخر غير المناقضة المتجبرة والخارجة عن المؤلف : ان فيها نوعاً من حفيظة تلك الفردية المستمرة في تقدمها منذ منتصف القرن الخامس التي بلغ منها هذه المرة ان احتجبت على عادات المجتمع وعلى التقنيات التي يفرضها وحتى على فكرة الوطن كبيراً كان أم صغيراً . فلا قيمة للانسان « في حالته الفطرية » الا بصفاته الفردية ، دونما تمييز في مرتبته الاجتماعية وقوميته . وكان ديوجين منطقياً مع نفسه حين نحت ، في زمن الاسكندر ، كلمة « كوزموبوليتس » « مواطن العالم » التي وقعت موقعها الحسن في تفهقر وهزيمة « البولس » بينما اتسعت الآفاق اليونانية اتساعاً كبيراً .

ومن تلاميذ سقراط ايضاً ، اريستيبوس ، الذي تنشأ السعادة في نظره ، من قطاف السلذة حتى الشهوانية منها ، المنتخبة ، والحق يقال ، ببصيرة عقلية واهتمام لتجنب سيطرة الاهواء على الانسان . وسينقل « ابيقور » عن نظرة اريستيبوس ، خصوصاً ، ذلك الحلد الذي وضعه للانحلال الاخلاقي والذي كثيراً ما امهله خصومه في انتقاداتهم .

ومن تلاميذ سقراط اخيراً افلاطون على الرغم مما نمجد عنده من تأثيرات أخرى لا سيما البيشاغورية ، ومن ان تفرد القوي ، خصوصاً ، يجعله يسبق معلمه اشواطاً ، في حواراته التي يعطيه فيها ، بمجاز تقوي ، الدور الاول . كان اثينياً ومن عائلة شريفة وقد قترت نفسه منذ البدء من رّد فعل الارهابيين اعداء الديمقراطية ، ومن الديمقراطية نفسها ، ومن العمل السياسي في وطنه ، وخيب امه اخفاقه في العمل الذي حاول القيام به كمستشار لمستبد سيراكوزا ، فاعتزل الحياة السياسية بعد اسفار كثيرة الى اثينا ونظم ، في الاربعين من عمره ، عند مداخل اثينا ، في حديقة البطل اكاديموس ، مدرسة اشتق اسمها (اكاديمية) منه ، بشكل طائفة تؤدي العبادة لألهات الشعر . فأقبل عليها التلاميذ من كافة مناطق العالم اليوناني رقد اتى بعضهم حتى من الشرق ، من بلاد ما بين النهرين ومن ايران . ثم جاءت كتبه ، وهي روائع في الحداقة الجدلية والسحر الشعري والطلاوة الانيقة في خدمة فكرة لا تضحي بالفروق الدقيقة على مذهب الحزم ، فنشرت تعليمه الشفهي وابقته حياً .

ان آراء افلاطون تحدى التلخيص بتنوعها وغناها وعمقها . ولكن التشديد على ما فيها من روح دينية زاخرة ليس في الحقيقة مما يزورها . فالفيلسوف يحاول التوفيق بين العقل والعاطفة الدينية وترانا ميالين تقريباً للقول انه انما يحاول التوفيق بين العقل ودفق الروح والقلب بفألحية ، أي تلك النزعة الحارة نحو الجمال المطلق ، القرية جداً من الخير المطلق ، هي في نظره معيار الفضيلة ، ويكاد علم العقوليات يختلط عنده بالصوفية . ويستحيل التأكد ان علم الفلك نفسه لا يماور التجيم عنده . لذلك فقد رأى بعضهم فيه المسؤول الاول عن « الانهيار

العصبي ، الذي يعزى اليه انه صرف الفكر اليوناني عن متابعة اليهود المنطقي الذي قادته حتى ذلك التاريخ بثل هذا النشاط وهذا النجاح . ولكن هذا الرأي لا يأخذ بعين الاعتبار كل ما قام في اعظم عهود الكلاسيكية ، الى جانب وخارج مذهب العقليين من النخبة الفلية العدد ، والمعجز الذي واجهته همة النخبة ، حتى قبل افلاطون ، في الحد من ازدياد وثبات نزعات مالت هي بالفطرة الى اعتبارها اقل نبلا . ولكن ما لا شك فيه ، على الرغم من ذلك ، ان افلاطون قد سلم هذه النزعات نهائياً شهادتها في النبل .

ليست ديانته على كل حال الديانة التقليدية الزاخرة بالاساطير التي حكم عليها بأنها غير معقولة . واذا ما بقي وفياً لمذهب تعدد الآلهة ، فإنه قد صحّحه بتدرج ينتهي ، عند القمة ، باله كامل لامتناه يكون إحكام التأمل فيه اسماً مكافأة ممكنة . وهو يؤمن بخلود النفس والتقمص وهما ذنول لازمة لنظريته حول « المثل » وعلم الاخلاق . فالمثل ، وهي جواهر الاشياء والتصورات ، التي ليس مثل « الخير » بينها سوى الاله المطلق ، موجودة في عالم سام . وليس باستطاعة الانسان ان يرى ، في العالم الارضي والمحسوس ، سوى انعكاساتها الغامضة . ولكن نفسه ، قبل ان تتجسد فيه ، قد عرفت العالم السامي والمثل . وهي بالتالي ، وفاقاً لصفحتها ، وبقوة متفاوتة ، تذكر هذا العالم وهذه المثل وتحن اليها . فيها نفسها ، وبالحبة التي هي خليفة بها ، وبالحرارة التي تشدها الى الفضيلة ، يتعلق امر تخلصها رويداً رويداً ، في تجسّدات متجددة متعاقبة ، من عالم الصور ، حتى تتقرب الى الله .

يستحيل التفكير هنا في استعراض المظاهر الكبرى الأخرى لرأي افلاطون : شغفه بالعلوم وخصوصاً بالرياضيات ، نظريته حول الاعداد المرتبطة بنظريته حول المثل ، نظراته الاجتماعية والسياسية . فهو لا يزال في الدرجة الأولى ، خلال الاجيال المتعاقبة ، « المثالي » الذي يرى في الفضيلة وثبة نحو الألوهة ويوجب على الأسئلة التي شعر الانسان ابداً بإقضاها بقوله المظن ان النفس ، اذا ما انفصلت عن الجسد الناقص والمحسوس ، تستطيع ان تجتد ، في الموت ، وبفضل الموت ، قرصة للسوء الى عالم أعلى .

ولم يتردد ارسطو ، وهو تلميذ افلاطون ، في انتقاد وتخطي معلمه . فهو يرى ان المثل ، الحالة في الاشياء والكائنات ، تتحقق في المادة باتخاذها شكلاً يزداد تكاملاً بازدياد مطابقتها لعلته الغائية . فالمادة والشكل والغاية اذن ثلاث معطيات لازمة ، على تبيان فيه اهميتها ، بسبب اختلاف مراتبها ، تستلزم الدرس لتدرك ادراكاً تاماً . فلا يحتفظ ارسطو بعد ، شأن افلاطون ، بالدور الأول للمحبة والحدس في سير الانسان نحو الحق بل للاستدلال والمجهود التجريدي . وهو لا يوجد بعد بين الله والخير بل بين الله والأدراك الخالص ، واذا كان كل شيء ينزع نحو الله بالارتفاع درجة فدرجة في سلم الكمال والعلل الغائية ، فان النفس لا تسدو منه الا بانقيادها للعقل ، وعلى العقل ان يرشد ، بين قيمتين متناقضتين ، الى « الحد الوسط » الذي هو الفضيلة ،

فضلة عملية قبل كل شيء ، إذ ان مصير الانسان يتحقق على الارض .

تهرز بذلك القوة التي تفضل بين ارسطو وافلاطون . فقد أدنى الخلاف العميق في طبيعتها التي تقوم على الاحساس والخيال عند افلاطون ، وعلى الملاحظة الدقيقة عند ارسطو ، الى خلاف جوهري في المنهجية والروحية . فقد اراد ارسطو ان ينطلق من الواقع الحسي ليأني بالبنات المألوفة التي تسمو الى ارفع تجريد ، فجعل نصب عينيه أولاً ادراك هذا الواقع . اما المدرسة التي أسسها في اثينا في ملعب ابولون ليكاوس (*Le Lycée*) حيث افضت احاديثه مع تلاميذه ، في الممرات الضيقة ، الى اطلاق اسم « المتزهين » عليهم ، فقد كانت قبل كل شيء ، في ايامه ، مركز أبحاث منظمة على أعلى مستوى ممكن من الدقة والشمول . ففي جميع الحقول ، من علوم وادب واخلاق وسياسة ، انكب هو نفسه وحمل غيره على الانكباب على البحث عن الوقائع وتنسيقها ، سعياً منه وراء اسناد جده في الاستدلال والتعميم على اسس وطيدة . وهكذا فانه يبدو بلا مراء ، كواضع حجر الزاوية ، في العصور القديمة ، لاحدى القواعد الرئيسية في الاسلوب العلمي الحديث . وهو غير مسؤول عن الخطأ الذي ارتكب زمناً طويلاً في جعل تحقيقاته المرجع الاخير في كافة العلوم : فالروح نفسها التي سيرته كانت تقضي ان لا ينقطع غيره عن توسيع وتعميق تحقيقاته .

بفضل افلاطون وارسطو ، الذين سيستمر أثرهما طويلاً ، حافظت فلسفة القرن الرابع على مستواها في القرن الخامس ، لا بل ان هذا النظام الفكري لم يسهم يوماً في سناء الحضارة اليونانية بمثل ما اسهم به اذ ذاك . وقد احتلت اثينا على هذا الصعيد ، منذ ذاك العهد ، مركزاً لم تعرفه من قبل . فسقراط وانتستين وافلاطون كانوا مواطنين اثينيين ، وفي اثينا اسس الفلاسفة الأجانب مدارسهم التي اقبل عليها تلاميذهم . وقد ثبت واقع سيدوم طويلاً ، هو ان اثينا أصبحت عاصمة الفلسفة في العالم اليوناني .

منذ البداية نظر الاغريق الى الفلسفة نظراً الى علم العلوم المبدئ لأن يؤلف العلوم منها النتائج في تفسير اجمالي . غير ان التيار الفلسفي اذ ذاك قد سبق التيار العلمي اشواطاً بعيدة . وفي الواقع تأثر التيار العلمي بدروس نظرية عقائدية ، ان لم تكن لاهوتية . وعلى الرغم مما في ذلك من تناقض ، فان علم المعقولات (ماوراء الطبيعة) قد تكون قبل علم الطبيعيات ، حتى اذا اسندنا الى هذه الكلمة معناها الواسع جداً ، الذي ربما انطوت عليه في ذاك العهد كدرس للطبيعة ، ويجب انتظار ارسطو حتى يولي بحث الوقائع المحسوسة الدقيق كل الامة التي يعطيها العلم . ولكن هذا العلم قد اعاقه من جهة ثانية فقدان الاهتمام لتطبيقاته العملية ، وبيد هذه الحالة الفكرية تنكسر المجتمع الراقي لبعض النشاطات المأجورة . ثم ان العلم قد اعوزته الادوات الفنية لأن الصناعة لم تكن ناشطة بعد ، وهي مساعد العلم وحافزه معاً . وبسبب افتقاره الى نهج اختباري لم يتصوره تصوراً قط ، ربما لأن الوسائل المادية لم تتوفر له

هذا العرض ، لجأ العلم الى التجريد او اقتصر على الملاحظة . وقد حملته البزعات السائدة في الفلسفة على ان يفضل ، لزمن طويل ، اولى الطريقتين المفتوحتين امامه .

فمن الطبيعي اذن ان تكون النجاحات الباهرة قد تحققت في حقل الرياضيات وملحقاتها . فالمدرسة البيثاغورية التي ما زالت ناشطة ، لا سيما في ايطاليا الجنوبية ، على الرغم من الصعوبات التي اقامها في وجهها عداء شطر كبير من الرأي العام ، قد بقيت امينة للابحاث الحسابية والهندسية التي جعلها مؤسسها متممة لعقيدة الطائفة المشايبة له . وقد برز في هذا الحقل اسمان ، كلاهما في القرن الرابع ، هما اسم « ارخيتاس » وهو بيثاغوري لا غش فيه كان حاكماً لطارتنا وطنه واسم « افدوكس » الكندي الذي افضت ابحاثه الى تقدم المعارف الرياضية تقدماً حقيقياً . ثم ان افلاطون نفسه ، الذي اطلق على احدى محاوراته اسم المهندس الاثيني « ثيئيت » والذي كان على صلة بالبيثاغوريين في الغرب وفي اليونان حيث انتشر مذهبهم ، قد اهتم اهتماماً حاراً بهذه الابحاث واحلها محلاً مرموقاً في اكاديميته . كذلك استموى علم الفلك جميع هؤلاء الرياضيين الذين تفننوا في ابتكار النظريات حول نظام الاجرام السماوية . فحالفهم التوفيق في احدى المرات . وقد سبق ان اشرنا الى الفكرة التي كونها اناكساغوروس عن الشمس . لاشك ، والحق يقال ، في انه قد اقتصر ، في الاملاح الى ضخامة كتلتها المتأججة ، على القول انها « اكبر من البلوينيز » ولكنه قد علم ايضاً ان القمر شبيه بالأرض تقوم على سطحه ، على غرارها ، الوديان والجبال ، ويتلقى ، على غرارها ، نوره من الشمس . وقد قال احد بيثاغوريي القرن الخامس بدوران الارض والكواكب الأخرى حول نار مركزية . ولكن نظريته التي اسرع من جهة اخرى الى ربطها بنظرية ايقاع الافلاك الموسيقي لم تصادف اي نجاح . فان افدوكس قد اهتمك اذ ذاك في ان يثبت ، بوسائل مختلفة ، دوران الكواكب حول الارض . وقد اضطدمت كروية الارض نفسها وقتئذ ببعض معارضات المعارضين . بيد ان هذا الرأي المنبثق عن البيثاغورية قد حظي اخيراً بانضمام اكثرية العلماء اليه . واذا كان الفضل يعود لأحد الايونيين من مدرسة « كيوس » في اثبات انحراف محور الارض على سطح مدار الشمس المستوي ، فسان ارخيتاس وافدوكس هما اللذان حققا الطريقة التي تسمح بحساب قياسات كوكبنا ، وانخفقا من جهة ثانية في تطبيقها عملياً .

والعلم الوحيد الأخير الجدير بالذكر هو الطب الذي نرى فيه النتائج الحسيرة للبدء العقلي الكلاسيكي الذي هو مدين له بنشأته كعلم . اجل ، مارس الاغريق الطب ابدأ ولكن بشكليته : « الوصفات » الاختبارية وقد استعيرت احياناً من مصر الغنية بها جداً ، « والوصفات » الدينية او السحرية احياناً . ففي اماكن مختلفة كان للآله او الأبطال الشافين معابدهم المتبينة الشهرة ، وكان اوسعها شهرة معابد اسكليبيوس ، ولا سيما معبد ابيذورس في الأرغوليد . وكان الطب فيها عن طريق هتاف الغيب ، فيأتي المرضى الى الكهنة ويطلبون منهم تفسير الاحلام التي انعم الاله

بها عليهم اثناء ليلة قضاؤها تحت الرواق ، ولم يكن هؤلاء الكهنة بالاغبياء ، فان خبرتهم ، بخل الأقل ، قد سمحت لهم بارشاد المرضى الى طريق الشفاء . فاستثمر الاطباء هذه الاختبارات العملية . ثم تأسست المدارس ، ولم ينفك ملوك الفرس ، منذ اواخر القرن السادس ، عن تعهد اطباء يونانيين في بلاطهم . فحصل في القرن الخامس المجهود المنطقي الذي يلفت الانظار بنسوع خاص في هذا الحقل .

وقد يكون احد اعضاء مدرسة « كروتون » في اليونان الكبرى اقدم على ممارسة التشريح . ومهما يكن من الامر فانه قد اكتشف ان الدماغ مركز الحس والفكر . وقد حدث خصوصاً ان ظهر « ابقراط » في مدرسة « كوس » وهي جزيرة في بحر ايجه قريبة من آسيا الصغرى . وكان ينتمي الى الاطباء الاسكليبيين التي تباغت بالحدارها من الاله وخدمت معبده المحلي . ولكن منشأه الكهنوتي لم يمنعه من ان يخلق حقاً العلم الطبي بتطبيقه المبادئ العقلية دون غيرها على الطب . فأبعد عنه النظريات الفلسفية والخرافات التقوية ، واعلن ان ليس من ممرض سببه فائق الطبيعة ، حتى داء الصرع الذي انتقد اسم « المرض المقدس » المشتهر به ، ناعتاً اياه بكذب المخرفين والجهلة ، وعني واوصى بتابعة درس الانسان وحتى البيئة الطبيعية التي لمس ما تنطوي عليه من اهمية بسلسلة من الملاحظات قام بها اثناء اسفاره . وان في اعتباره ابا الطب لاحقاً واجب الوفاء .

بيد ان الجرأة التي ألهمت هذا العقل الحازم لم تتوفر لخلفائه . اضاف الى ذلك ان المبدأ العقلي قد فقد مرتبته كنزعة سائدة . ولذلك فان القرن الرابع يبدو وكأنه ، في حقل الطب ، عهد ركود ان لم يكن عهد قهقري . واكتفى الاطباء الاسكليبيون في كوس بحرف تعليم معلمهم الذي نظروا اليه نظرهم الى عقيدة ايمانية . ولكن المعرفة الاختبارية وحدها قد تقدمت في المعابد حيث ازداد اقبال المرضى رائدي الاحلام الشافية . وقد اقتضى حافز جديد لبعث البحث العلمي ، فتوفر هذا الحافز ، على غرار كافة علوم الطبيعة ، في العهد التالي ، عن طريق اسلوب ارسطو — ارسطو ذاك الذي عاد الى خطاه السابق بأن نسب الى القلب الدور الذي سبق لاحد الكروتونيين ، قبله بقرن كامل ، ان تحقق من انه دور الدماغ .

ولو ان القلب قام مقام الدماغ ، والعاطفة مقام العقل ، لاستهوانا ، في اكثر من مظهر من مظاهر الحضارة ، ان نولي هذا التغيير قيمة الرمز وان نحدد بواسطته ، دوننا اعتبار لفوارق كثيرة ، التناقض القائم بين القرن الرابع والقرن السابق المكب على المنطق . ولعل ذلك لم يكن خطأ في كل الحقول ، ولكنه كان خطأ فادحاً في الحقل العلمي .

لا شك في ان التاريخ لم يكن علماً في ذاك العهد ، وهل يمكن ان يكونه بكل ما للكلمة من معنى ؟ ولكنه مدين لاغريق العهد الكلاسيكي بوعي تدريجي الوضوح لهدفه وواجباته ، لمبادئه الفكرية والمنهجية ، وبكلمة مختصرة لمثل الأعلى

المكون بحيث ان التاريخ يصبح اقل بعداً عن الأنظمة العلمية من اي نشاط فكري آخر .

كان هيكاته المبلي ، في أواخر القرن السادس ، كما سبق ورأينا ، قد برهن عن ملكته النقدية : « انني اكتب ما يبلي لأنني اعتبره حقيقياً » . ولكنه يتعذر علينا ، لسوء الحظ ، الحكم على كيفية تطبيقه لهذا المبدأ . وبعده بخمسين سنة تقريباً يبدو هيرودوتس ، وهو اغريقي آسيوي قام بأسفار كثيرة وظهر في اثينا في بطانة بريكليرس ، وكأنه يعود خطوة او خطوات الى الوراء . فقد اعلن ان دوره يقتصر على رواية ما نقل اليه : « ان لمن يرى هذه الامور جدرة بالتصديق ملء الحرية في قبول قصص المصريين ؛ اما انا فأقصد من خلال تاريخي الطويل ان ادون كتابة ، وفاقاً لما سمعت ، ما قاله سواي » . ولكن مثل هذه التصريحات ، مهما بلغ من عددها وجزمها في كتابه ، يجب الاتخذ احداً . فالحقيقة هي ان هيرودوتس ادهى من ان لا يكون له رأيه الشخصي ، وغالباً ما نراه يستسلم للرغبة في الامساح اليه ، وحتى للتعبير عنه احياناً بجنح ترافقه الابتسامة الدائمة . فهو ، عندما يروي ، يضطر الى تقديم الشروح ، ويبدو كأنه يفسح مكاناً واسعاً لدور الآلهة في الأحداث البشرية . ولكن من لا تحدعه الظواهر يستطيع غالباً هنا ايضاً ، ان يتلمس بعض الارتياح والتشكك ، اذ ان اضعف سداجات هذا الرجل الذي يصعب ادراكه ، وهذا الراوي المدهش بمرونته ، نادراً ما تغاوم سخريه مستترة يتعذر اكتشافها على من يقرأ كتبه قراءة سريعة . ان مؤلفاته تأخذ بمجامع القلوب بلاخطاته التصويرية حول اصل الشجوب وعاداتها ، وبصفاته الأدبية الرقيقة ، وبسحر الاستطرادات التي يستهويه اللجوء اليها دون ان تؤثر في تلاحزم روايته ، وبسلطة لغة مستعذبة يستثمر مواردها ببراءة يتظاهر بها من شأنها ان تثبط على الكثيرين وتحول غالباً دون تذوق فنه الرقيق . ولكن فضله الاكبر ، كمؤرخ ، يقوم في انه رأى وأدرك المعنى العميق لثلاثة ارباع القرن التي شهدت طفولته نهايتها . وكان الاول في ادراك العالم اليوناني الشرقي في الوحدة التي وفرها له الاتصال بين الحضارات ، والهجرة ، ومجازفات الفتح . وكان الاول ايضاً في النهوض بحركة تاريخية شعر بأهميتها وسعى جهده في اكتشاف اصولها ورواية نشأتها وتعقب نموها . وتقوم وحدة عمله ، في الحقيقة ، في مصير الامبراطورية الفارسية نفسه التي نظر اليها نظرتة الى محاولة لم يسبقه احد في اعطائها هذا الشمول ، ترمي الى توحيد الشرق أولاً والسيطرة على العالم ثانياً ، تسير بخطى حثيثة من نصر الى نصر حتى تتحطم باخفاق الحروب الميدية . فهو من تلقاء نفسه ، دوناً قدوة سابقة ودوناً خبرة تاريخية ماثلة ، ودوناً تأليف سابق او فلسفة سابقة للتاريخ ، قد ادرك وعرض ، ككل ، تطوراً على هذه الوحدة وهذه العظمة وهذا التعقيد وهذا التأثير ؛ وهذا في الحقيقة هو فضل وفخر ذاك الذي كان شيشرون محقاً في تسميته « ابا التاريخ » .

وقد كانت ثلاثون سنة كافية لأن يحقق التاريخ نجاحات أخرى عظيمة بالنظر الى تفوق « توسيديد » على هيرودوتس بقوة عقله وعمق تحليله السيكلولوجي ومعرفته لدوافع العمل

السياسي والمسكري . فبواسطة توسيديد تبدلت الذهنية بدلاً كلياً . فلا طرف بعد ، ولا اساطير ، ولا تلكؤ ، ولا احقاد نيميسيس ولا توبيخ ثقافات الغيب . وبعد انقضاء الحجج الثقافية والأسباب المباشرة ، اعطت الدولة والانسان وحدهما الاسباب الحقيقية ، الدولة بمنطقها العبوس وانانيتها المقدسة ، والانسان ، فردا كان ام خلية لكائن جماعي ، بأهوائه الفطرية : فالبصيرة الحادة هي التي تكتشف ترابط العلل والمعلولات . اصف الى ذلك ان موجبات الطريقة النقدية قد وضعت ونفذت بكل دقة : « اما بصدد الأحداث ، فلم ار من الموافق نقلها عن اي راوٍ يرويها لي او بحسب تأثيراتي الشخصية ، بل بمشاهدتها بنفسي ، او باجراء تحقيق دقيق جداً حيال كل نقطة ، اذا اتصلت بي عن طريق شهود آخرين . وكان البحث عسيراً لأن روايات هؤلاء الشهود للأحداث نفسها لم تتشابه قط ولأن الشهود ، وفقاً لعظهم او لذاكرتهم يتلون بين هذا الحزب او ذاك » .

الاعجوبة هي ان توسيديد يضع هذه الطريقة الملزمة ويحصر على تطبيقها على حوادث معاصرة له هو احد ابطالها ، لا بل احد ضحاياها . فهو اثني استلم قيادة عسكرية في اثناء حرب البلوونيز وحكم عليه بالابعاد للتكفير عن هزيمة عسكرية ، ولذلك فهو انما يريد فهم هذه الحرب وافهامها غيره عندما يرويها . فأتضح له باكراً جداً ان الصراع يهدد بالخطر سياسة التوسع الاستعماري التي ينهض بها وطنه ، لا بل سياسة التوسع الاستعماري التي تنهض بها البولس في كيانها ، وتابع بشغفه العقلي المتكبر نفسه التصميم الاول الذي وضعه وبدأ بتنفيذه قبل ابعاده . فاستعاض بجهده العقلي الملح عن الفاصل الزمني الذي توفر لهرودوتس بفضل تعاقب الحوادث التاريخية وبداية حياته كإنسان .

ولكن طموحه يتخطى الى حد بعيد حرصه على الحقيقة حيال الاحداث التي يرويها . فهو يستهدف « الفائدة لكل من يريد الحصول على رأي حقيقي في الحوادث الماضية والحوادث المتشابهة او المماثلة التي ستسبب عودتها دوافع الطبيعة البشرية » ، وهذا هو الذي يقصده في كلامه عن « خير مكتسب دائم القرار » . وهو بذلك يعبر عن مفهوم للتاريخ لم يفقد حيويته حتى اليوم : مختبر لاختبارات قابلة التجدد ، وبمجموعة دروس ودليل للسياسيين والمفكرين . فستان ، في الحقيقة ، بين هذه النظرة وتلك التي تستهدف ، اول ما تستهدف ، ارضاء نهم القارئ ، في بحثه عن آفاق اخرى ومغامرات قام بها آخرون .

نرى بذلك تفرد مقصد « توسيديد » وسموصفته المنطقية المطابقة لنزعة عصره العامة . لا شك في ان ذلك يفضي به الى رؤية الواقع رؤية ناقصة : فهو يهمل القضايا الاقتصادية ، ثم ان عمق تجربيده وتصميمه الفظ على بلوغ ماهو دائم يحدث ان عنده حتى المغالاة من دور ماهو عارض . ولكنه يبقى مثلاً فريداً للتأريخ الفيلسوف او بالأحرى السيكولوجي ، موعلاً في تشريح وتحليل بعض الحقول بثقة لم يبرهن عنها مؤرخ بعده .

كان من العسير جداً المحافظة على مستوى مثل هذا المعلم ، ولم يلبث الهبوط أن ظهر في القرن الرابع . أجل يبدو التاريخ حينذاك مثيراً لاهتمام عدد اكسير من القراء بسبب ازدياد عدد المؤرخين ومؤلفاتهم . ولكن الذوق والعقلية نفسها قد تغيرا ، بمقدار ما يجوز لنا الحكم على القليل مما نعرفه من هذه المؤلفات التي فقد أكثرها أو تقتصر اليوم على شذرات لا أهمية لها .

كان كسينوفون ، بهذا الصدد ، اوفر حظاً من غيره ، لان وضوح واناقة وظرف اسلوبه الكتابي ، قد حافظت ، بإطالة شهرته ، على مؤلفاته المتنوعة ، من فقدان . ولكن هذا المؤلف الذي لم يكن مؤرخاً الا في فترات معينة والذي طرق مواضيع كثيرة تفصله مسافة بعيدة عن توسيديد الذي طمع هو في اكمال المحاولة التي توقفت بماته . أجل انه ذو بصيرة نيرة ، ولكنه لم يكن بعيد الغور في ادراك الاخلاق والحوادث . يتصف بفهم الحياة ويستوقف القارئ ويشير اهتمامه ؛ ولكن ميله الى تهذيب الاخلاق مما يثير الالتماس ، على انه سطحي على كل حال ، كما ان تحيزه مما يثير القلق والريبة . ويبرز بعده اثر مسيطر تركه ايزوقراط معلم البيان ، ويكون ثيوپومبوس ، من التطور الذي تم امام ناظره ، رأياً كافياً للوضوح ليجعل من فيلبوس المقدوني الموضوع الرئيسي في أحد مؤلفاته . ولكن الشذرات التي لدينا من هذا المؤلف كافية لأن تبين لنا انه لا يتقيد بتأليف مدقق . ويصبح التاريخ بنوع خاص ، كما كتبه هو وايقوروس ، قطاعاً من قطاعات البيان ، يهدف الى الزهرة والحدة وتحريك العواطف ولا يأنف حتى بما هو مدعش وعجيب : فلم يلبث هو ايضاً ان الجرف في التيار العام . ولن يتحرر من هذا التيار لا بسهولة ولا بسرعة ، على الرغم من مثل ارسطو الذي كان ، في هذا الحقل كما في غيره ، يجمع الوقائع بانتظام ويوحى ، ان لم يؤلف دائماً ، سلسلة من كتب في مواضيع واحدة حول التاريخ الدستوري للمدن اليونانية . ولم يبلغنا من هذه الكتب سوى « دستور الاثينيين » الذي اكتشف بأعجوبة في اواخر القرن التاسع عشر . ولكن هذا الكتاب ، المؤلف بسرعة ، في موضوع عسير ، أدخل عليه الغموض نشره السابق المتعاقب الذي شوهته الروح الحزبية والخرافات الدينية او الغطيسة العائلية ، ابعد من ان يعبر عن روح نقدية منزهة عن الضلال . بيد انه ، بصرف النظر عن الخدمات التي يؤديها للمؤرخين المعاصرين ، قد اهاب بالمؤرخين القدامى ، الى الحذر من تفخيم في الكلام مستعذب آنذاك ، والنهوض بمجهود استقصائي دقيق . وهكذا فان ارسطو قد وجه التاريخ نحو العلم الواسع ، واذا لم يحرز فوزاً اكيداً ، فان اثر توجيهه سيظهر في العهد التالي .

الشعر : الشعر الغنائي
لم يشذ الشعر عن القاعدة العامة . ويمكننا ان نتتبع فيه ، بين الاجيال المتعاقبة ، تطوراً أقل بروزاً في الشكل منه في الروح يسير بخطى حثيثة ويتفق ، في خطوطه العامة وفي اكثر من قمة من قممه ، مع التطور الذي يلمحي مظاهر أخرى من الحياة الفنية والفكرية .

مهما بلغ من ازدهار الشعر الغنائي خلال العهد السابق ، فإنه قد تسامى حتى القمة في النصف الاول من القرن الخامس ، مع بنذاروس . فقد عبر هذا الطيبي المحافظ ، الذي مارس الغناء في خدمة الملوك والمستبدن والعائلات الكبيرة النبيلة ، عن المثل الأعلى للمجتمع الارستوقراطي المتشرب التقاليد الدينية والمتجسد في مثال من امثلة الانسان وفي نوع من انواع الحياة . فهو يجتد ، في الاناشيد التي تؤلف جوهر مؤلفاته المعروفة ، هذا الفائز او ذاك في مباريات الفروسية او العاب القوى . ويلجأ الى المزيد من الاساطير في مديحه ومديح عائلته ووطنه . ويدبج حكماً ملهبة من مبادئ ديانة واخلاق الزمن الماضي التي هي في نظره حقائق خالدة . ولا يمنعه بهاء استعاراته الجريئة عن ان يكون مثلاً للماضي في مستهل قسطنطين سيفيوس جدّة في كل الحقول .

وهو على كل حال آخر اسم بارز في الشعر الغنائي اليوناني . وانّ في هبوط ، بل في زوال هذا الشعر ، اذا جاز التعبير ، شيئاً من اللغز . فقد كان من الممكن ان يعرف البقاء ، ويكتشف بسهولة مصادر الالهام ، في عاطفة الفرد المتحرر شيئاً فشيئاً من القسر مثلاً . ولكنه لم يسر في هذا الاتجاه الا بعد العهد الكلاسيكي ، ولعل السبب في ذلك انه لم يصادف الا في ذلك الحين ، لدى البلاطات الهلينية ، جمهوراً جديداً من الهواة المتذوقين خليفاً بأن محلّ محلّ ذلك الذي حرّمه منه تطور المدينة المتراصة نحو الديموقراطية .

من المستحيل ، على كل حال ، الاّ نغزو الى هذا التطور الرواج المتزايد المسرح الذي عرفه الشعر المسرحي . ويستلزم الشعر المسرحي باستمرار ، من جهة ثانية ، اقساماً غنائية موكولة الى الجوقة ، ويظهر بالتالي كوريث وبديل الشعر الغنائي الصرف الذي هو اكثر انسجاماً مع اذواق الندوات الضيقة في المجتمع العالي . لذلك ليس من العجيب ان ينتج الشعر المسرحي روائعه في اثينا ، في المدينة التي اعطت المثل في الديموقراطية والتي لم تتفوق عليها اية مدينة اخرى في رونق الاعياد الدينية .

بين هذه الاعياد ، احيطت اعياد ديونيسوس ، التي تميزت بالتمثيل المسرحي ، بهناء خاص لا يمكن تعليقه اذا نحن لم نربط بينها وبين مفهوم المدينة الديموقراطية بالذات . فليس في الواقع شيء افضل من المسرح ، الذي ترانده الجماهير بما فيها الفقراء الذين كانت الدولة تدفع لهم رسم الدخول ، لجمع شعب بكامله وتحريكه بمشهد واحد يشير فيه الضحك او القشعريرة من هول المأساة ، ووضعه ، بشكل جذاب حيّ ، امام معاضل هو مدعو للتفكير بها في مكان آخر غير الجمعية السياسية ، وبكلمة موجزة « لتجميل الحياة » عن طريق السموّ بالافكار ، وفاقاً لحلم رجال الدولة الديموقراطيين آنثو . وهذا ما يفسّر ضخامة التضحيات المالية التي فرضتها هذه الاعياد على الخزانة العامة وعلى المواطنين الأغنياء المنوط بهم انتقاء الجوقات واكساؤها وتدريبها : وهذا ما يفسر ايضاً تزايد نجاح وعدد التمثيليات . وهذا ما يفسر اخيراً مجد المسرح .

اللائيني الذي بقي زمناً طويلاً دون منافس والذي أدى القسط نفسه الذي أدّله ابنته القلعة في القرن الخامس أو مبدأ من الفلسفة والبيان في القرن الرابع في سبيل اشعاع مركز الحضارة آنذاك ، مدينة الإلهة « أثينا » .

لا ريب في ان المسرح انتاج ادبي ، ولكنه يستلزم موجبات فنية مادية ايضاً تتعقد يوماً بعد يوم . كان المسرح في القرن الخامس مجرد صقالة خشبية تقام لايام معدودة ، ثم اتخذ ، في القرن الرابع ، وفي كل مكان ، شكل البناء الحجري الثابت ، وحتى الرخامي في بعض اجزائه ، واعدت لاستقبال السوف المشاهدين (١٧٠٠٠ في أثينا) . ويجهز لهذه الغاية منحدر احدى التلال ، ويحجري التمثيل في الهواء الطلق . ولم يؤمن المسرح المزيد من الراحة لان الجلوس على دكات مزعجة ، دون وقاية من الحرّ والمطر ، سحابة عشر ساعات في اليوم لمدة ثلاثة ايام ، كان يقتضي في الحقيقة جلدأ عظيماً . وقد حاول المخرجون ، في مكان التمثيل ، إيجاد الصورة الخادعة بالتزيين المصور الجزئي وبتحسين الأدوات المبتكرة التي كانت بدائية جداً . وكانت الجوقة التي تجول في القسم المستدير من المسرح امام الدكات ، موزّنة المقاطع الإيقاعية ، اكبر عناصر الفرقة عدداً - ١٢ ، ثم ١٥ للمأساة ، و ٢٤ للمهزلة . ولكن اهميتها تتدنى ، لأن عدد الممثلين يرتفع بسرعة ، منذ اواسط القرن الخامس ، من واحد الى ثلاثة ؛ وبعد ان كان الممثل مجرد « مجيب » على الجوقة ، اصبح بذلك شخصاً يقابل اشخاصاً سواء ، كما ان الرواية دبت فيها الحياة بفعل التمثيل المباشر وتصادم الآراء وتعاقب الأسئلة والأجوبة السريعة .

بيد ان هذه التغييرات لم تحل دور استمرار مصطلحات مرتبطة بنشأة المسرح وظروفه المادية على السواء . ففتح لا نعم مثلاً لماذا توجب على كل مؤلف ، في مباراة المآسي ، تقديم ثلاث روايات فاجعة كان من الضروري ، لمدة قصيرة ، ان يؤلف كلاهما واحداً . ولكن الرغبة في ان يكون لديونيسيوس نصيبه من التمثيليات الممددة لأعياده فرضت على المؤلف ان يرفق هذه الروايات الثلاث بـ « مأساة - مهزلة » مكرسة لأحد احداث اسطورة الاله . ولنصف الى ذلك مثلاً آخر هو تقنع الممثلين . فعند الشعوب المختلفة ، وحتى في ايامنا ، عند الشعوب البدائية ، درج استعمال القناع في الاعياد الدينية او استغنى عنه باعتماد الملوكات المختلفة على الوجه . انه ينزع عن الممثل شخصيته وفرديته وينتزع من الواقع اليومي ويرفعه الى مرتبة المثال العام ، ويسهل الابهام الذي يتيح له لعب ادوار مختلفة في التمثيلية الواحدة او دور ليس الانسان معداً له بالفطرة كدور الاله او البطل او المرأة - اذ ان العادات لا تجيز للمرأة مثل هذا العرض امام الجماهير . ثم ان القناع يضخم الصوت ويجعله اكثر جلاءً للجمهور غفير . فليست الاسباب اذن ما يعوزنا لتعليل هذا الاستعمال ، وهو واحد من كثير غيره ، الذي تدهشنا غرابته اليوم .

لا يتجلى المسرح اليوناني بكلل معانيه الا اذا اعيد الى جسوه الديني والاخلاقي وحتى

السياسي ، ووقع في اطاره المادي . غير انه يرتفع ، اذذاك ، لاسيا المأساة ، الى مستوى القيم الجامعة والخالدة .

ليس في الحقيقة ما يشير الاعتبار كروية الشعراء مؤلفي
المآسي ، في اثينا القرن الخامس ، يعرضون امام ضمير
المشاهدين اعظم المعاضل اهمية . فبقضهم ادنى المسرح قسطه
الرئيسي في مهمة التربية الفكرية والاخلاقية التي استازمها المفهوم البريكليسي للديموقراطية .
وهم يقتبسون مواضيعهم ، على العموم ، من الاسطورة الخرافية . وقد نلس عند بعضهم ، لاسيا
في البداية ، ميلا الى معالجة الاحداث القريبة العهد . واذا لم يكن اسثيل أول هؤلاء الشعراء
المؤلفين ، فانه كان الاخير في الاستسلام لهذا الميل ، على الرغم من قسوة التجلي البطولي في
روايته « الفرس » التي تستعيد ، بعد ثلثي سنوات ، معركة سلامين التي اشترك فيها كما اشترك
في معركة ماراثون حيث قتل اخوه . غير ان هذا الميل ، الذي كان من العسير جداً ان يأتلف مع
ميزة التمثيل المسرحي والفكرة الدينية فيه ، لم يحرز الغلبة ومالبت ان انتهى الى الزوال .
وقد وفرت العقيدة الخرافية ، على كل حال ، بما يتغللها من فوارق كثيرة يختار الشاعر منها
بلء حريته ، ينابيع حية لا تحصى للالهام الشخصي والتفسير الشخصي ايضاً . فالأسطورة
الواحدة ، كاسطورة « اورستس » مثلاً ، تتناولها على التوالي المعالجات الكثيرة المختلفة ، فتثار
حولها مناقشات هي ابعد من ان تنتهي بتوحيد وجهات النظر المختلفة . وتعتبر هذه الفوارق ،
شان ميزة الشعراء الفردية ، عن التطور الفكري والاخلاقي السريع الذي طبع الاجيال
اللاحقة .

ان اسثيل الذي حارب في ماراثون يمثل الماضي والخضوع التقليدي لقوى فائقة الطبيعة : فهو
قد ولد في الفسيس وامتلاّت روحه بتدين قديم . وهو يقبل الاعتقادات القديمة ويظهر ، بعظمة
منقطعة النظير ، تأثير الالوهة على المصير البشري تأثيراً مباشراً فعلاً لا يباي للعدل والرحمة .
ومن حيث خضوع هذا المصير للعنات الوراثية ولثأر وحسد الآلهة ، فانه يقتفل من امتحان الى
امتحان . ويكاد لا يجد بعض التعزية الا في الشفقة التي تثيرها مصائبه والتي يادراً ما تفعل فعلها ،
على كل حال . وقد اخذت تظهر ايضاً ، بكل صعوبة احياناً ، فكرة تعليل العقوبة بالكبرياء .
ولكن ، اذا حصل اورستس على الغفران بفضل حكمة « الاريباغوس » وتمكن من تقديم
الذبيحة الى الإلهات بنات الارض ، فان « بروميثاوس » ، « التيطان » الحسن للبشر ، سيعرف
العذابات الابدية التي استحققتها له جسارته كثائر والحكم المبرم القاسي الذي صدر عمن آلهة
ارفع من العالم وابعد بالتالي من ان يبرهنوا عن روح انسانية . وهكذا فان مذهب اسثيل
قوامه الهول والتواضع .

ولكن الامور قد تغيرت مع سوفوكليس . اجل ان هذا لا يعمل شيئاً من التدين التقليدي ،

ولكنه لا يحتفظ في مآسيه بالمركز الأول للألغة . فالتقدير يبقى سيد الانسان ويفرض عليه الانقياد الدائم ، لا بل الذل نفسه امام قساوته القصبى . ولكن القدر يصبح اقبل ظهوراً وتضييقاً ، واكثر انفتاحاً ، في الوقت نفسه ، على مفاهيم العدل والمسؤولية . اضاف الى ذلك ان ما أورده سوفوكليس في مأساة « انتيغون » لم يورده عبثاً : « هنالك اشياء مدهشة كثيرة ، ولكن واحداً منها لا يوازي الانسان » . فان سيكولوجيته تتعمق في الاستقصاء وتنوع متدرجة من العنف الحاد حتى ارفع العواطف رقة . وبدلاً من ان يتصلب الاشخاص عنده في مخالفة بعضهم بعضاً ، شأنهم عند اسثيل ، فانهم قد اخذوا شيئاً فشيئاً بتقديم البراهين والحجج ، رغبة منهم في التعريف عن انفسهم تعريفاً اكثر مرونة وفي ابعاد التهم الملصقة بهم . ومن حيث انه عاصر بريكلدس الذي زامله في القيادة العسكرية في السنة ٤٤٠ ، فانه يدخل على لاهوته خبرة اوسع تنوعاً وارفع انسانية وينقل في الوقت نفسه الى الشعر فن فيدياس المتميز بالجلال والبساطة معاً .

ثم يبرز ، على غيرية كبيرة ، اوريبيد الذي يفصله عن سوفوكليس فرق خمسة عشر سنة في السن فقط ، هي في الحقيقة ثورة فكرية ، ثورة السفطيين . فهم لا يتردد في الانتفاض بصراحة على الاعتقادات القديمة وفي انتقاد التقاليد المستبعدة او المنافية للاخلاق . فليست الاسطورة في نظره سوى حجة فقط وتقتصر الرواية المستندة اليها على مستوى الحياة العائلية . وقد تمتع بمخيلة بالغة الحسب وباحساس قاتئ الحدة في اشد الظروف عنفاً ادهشاً وهزاً مشاهدي هذه المآسي التي اصبحت مآسي بورجوازية او ريفية احياناً . لا بل يحدث احياناً ان يسبو احقر الناس ، نبلاً وفضيلة ، على الابطال والبطلات الذين تحركهم بالمقابلة الاهواء البشرية والضعف البشري . فاطر رواية « اليكترا » ليس قصر ارغوس الملكي ، بل قرية وضعية في الارغوليد تكون فيها ابنة آغاممنون زوجة لفلح غفل هو نفسه الذي يتجه اليه عطف الشاعر بصراحة . وقد ذهب اوريبيد الى ابعد من ذلك . فمن حيث هو « الصدى الرنان » لزمانه ، فانه يعلم على الاقل بالمناقشات الفلسفية الكبرى ، وحتى ببعض المعاضل السياسية الراهنة ، مضطراً احياناً لايقاف سير احداث الرواية ، ومبرهننا على الدوام عن بصيرة دقيقة اخذت بجماع قلوب الهواة انفسهم . ويقال ان سقراط قد داوم على حضور كافة تمثيلياته . ولا شك في ان المتسكين بالتقليد قد نادوا بالويل والشور ، ولكن ليس من استجابة افضل لاذواق الجمهور الاثيني الجديدة من مآسي اوريبيد .

ولدت المهزلة ، شأن المأساة ، من ظرف اعياد ديونيسوس نفسها ، « المهزلة القديمة » ولكنها استهدفت لإثارة الضحك . ولذلك فهي منذ البدء قد نعمت بحرية اوسع . وهي ليست على كل حال شبه احتكار اثيني ، مما ادخل عليها المزيد من التنوع . وكان هنالك في الواقع ، في النصف الاول من القرن الخامس ، مهزلة « دورية » *Dorienne* ، في سيراكوزا ، اشتهر « ابيخارموس » ممثلها الرئيسي ، استوحى مواضيعها من الحياة الشعبية والملاحظة

اليومية ، ثم استمرت في التمثيل « الایمالی » . وليس من ريب في انها لم تبق دون تأثير في التطور اللاحق الذي عرفته التمثيلات . ولكن هذه المؤلفات قد فقدت كما فقدت مؤلفات الهزليين الاثنيين المعاصرين : فلا شيء يمنع بالتالي ان تكون « المهزلة القديمة » في نظرنا ، مهزلة ارسطوفانوس بالذات الذي غطى نشاطه شطراً من القرن الخامس وآخر من القرن الرابع .

ان هواه ومداعبته حتى وغلاظته ايضاً لا تعرف حداً . فهو يلجأ بصورة طبيعية جداً الى المداعبات البذيئة وحتى الى القذارات نفسها . ويزدري بالآلهة الذين يصورهم في ارضاع مضحكة احياناً . ويتناول ، شأن الهزليين الآخرين الذين تهكموا تهكماً لاذعاً من بريكليس نفسه ، الرجال الاحياء المعروفين المشهورين الذين يصورهم صوراً هزلية تعجز قوة الخيال فيها عن ان تنسي ما فيها من تظلم فظيع . ويظهر في النظام الديموقراطي معارضاً رجياً . وينادي بالسلام حتى في خضم الحرب القومية . وينتقد اوريبيد وجرائه الاحادية ، ولكنه لا يتمتع عن تقليد رفته المحددة . ولا يهتم للتناقض ولا للشطط . ولكن هذه الغرابة المنفلتة ، وهنا سر المعجزة ، يرافقها شعر بالغ الرقة واحساس فائق اللطف بمحالات الطبيعة التي يعبر عنها بهارة نادرة في السبك والايقاع . وليس سوى مؤلفاته المدهشة ما يتيح ادراك مرونة الفكر اليوناني والمناقضات التي اصطدمت فيه بميوعة الحياة . فكيف يتذوق هذا الشعب ويتوج مثل هذه التمثيلات ، وجب ان يكون قريباً من الارض ، على انه كان خبيراً سريع الاحساس قادراً على الضحك الكثير والتأثر بمعايشة ذوي الاحساس الرقيق ومستعداً للإبتهاج بالواذع الموجهة الى آراء وزعامات يحضها ثقته في غده وامسه . اجل لم يكن متشككاً ولكنه ، في يوم عيد ، طيب له استقبال مناقضات شعر بغيلانها في نفسه دون ان يضطرب منها .

السر في القرن الرابع بلع تذوق المسرح الذروة . فتعددت الابنية المسرح في القرن الرابع واثبتت الشعبية الممثلين نمواً بالغاً ، وزاد الانتاج زيادة كبيرة لا سيما وان شعراء كثيرين قد برزوا في غير اثينا . وعلى الرغم من ذلك فقد كان التطور عظيماً .

هيبتت المأساة هبوطاً ان ترتفع بعده . ولن يكفي لتجديد قوة الحياة فيها ان يتفرغ لها احد عظماء هذا العالم ، مثل دونيس المستبد في سيراكوزا ، ويفوز دون دهشة بالجائزة في اثينا في السنة ٣٦٧ . مؤلفات القرن السابق العظيمة تنوء بسحرها على المؤلفين وتضطرم الى التقليد . لذلك فان الجمهور يستطيط تكرار التمثيلات السابقة ولا سيما تمثيلات اوريبيد التي تعرف شهرة لم تعرفها من قبل : وقد سبق لبعض الاثنيين الساقيين في ايدي الاعداء ، ابان حروب البلوونيز ، ان كانوا مدينين بنهاية عبوديتهم لمعرفتهم بعض المقاطع لهذا الشاعر ، وستكون مؤلفاته ، بعد ذلك بقرن تقريباً ، احدى مطالعات الاسكندر المفضلة . وقد فرض القانون الاثيني ان تمثل رواية ، من لائحة مقررة ، خلال مباريات المساعي المفعجة . فكتب بذلك البقاء لهذه المباريات .

اما المهزلة فقد احتفظت بحيرتها ، ولكنها تحولت نحولاً عميقاً . فان المركز الذي احتله فيها الجدل الكتابي الراهن قد طبع بالهرم والبطلان . الروايات القديمة التي كان من شأن فسادها الجارم ، على كل حال ، ان يبدو منذئذ معبثاً ومشيناً . فأصبح من الضروري ان يؤثر بشيء جديد اكتشفته المهزلة « المتوسطة » أولاً والمهزلة « الجديدة » ثانياً في طريقة ابيخارموس وحق في اوريبيد نفسه ، الباعث الأول للأساسة البورجوازية . وقد استلهمتا الحياة الاجتماعية في عهدهما وخلقتا نوعاً جديداً سندرسه في الصفحات التالية عند كلامنا عن « مينندروس » الذي يكفي اسمه وحده ، مع اسماء « بلوت » و « ثيرنس » وحق « مولير » التي تردّد صدى اسمه ، لذكرنا بمن انتسب اليه بعده بزمان طويل .

حظيت الفصاحة ، شأن المسرح ، بتقدير اعريق المهد الكلاسيكي
اصول رنشاء البيان وانتجت زوائج مدهشة .

كان ميل الاغريق للخطابة متأصل النبل فيهم : فهو يردّ دونما ريب ، الى نجاسة عنصرهم العميقة . فالمثل الأعلى للبطل الهوميروسي يوجب عليه اثبات الخبرة نفسها في تدبيج الكلام وفي استعمال السلاح . وقد عمدت كل الأنظمة القديمة ، ملكية كانت ام ارسوقراطية ، الى تعميم مبدأ المناقشة في المجالس والجمعيات . ولكن فضل الانظمة الديوقراطية ، التي رفعت عدد اعضاء هذه الاجهزة ، انها جعلت من هذه المناقشات عاملاً حاسماً . فهي قد احتفظت بالسيادة الفعلية لجمعية عموم المواطنين وخولت حق النيت بالدعوى الهامة ، العامة او الخاصة ، لحلفين شعيين لا يقل عددهم عن بضع مئات من المواطنين . وهكذا في المدن التي غدت اثينا قدوة لها في القرن الخامس ، اصبحت الحياة السياسية كلها ، وشطر كبير من المصالح الفردية ، خاضعين للاقتراع الذي يلي المجادلات الخطابية . ولذلك كان من حق ديموستينس ان يتكلم عن دول « يتركز الدستور فيها على الخطب » ، وهو لم يكن ليقصد تحقير هذه الدول لانه يستهدف بذلك وطنه في الدرجة الاولى . وقد بلغت اهمية الكلام شأواً لا نستطيع معه استغراب نجاحاته المستمرة التي تسمو بالفصاحة الى مرتبة الانواع الادبية : فالكمال الفني فيها يسير بمحاذاة الكمال التقني الذي يؤول في النهاية الى تحويل الفصاحة الى بيان .

يتعذر علينا في الحقيقة ، لمدة طويلة ، ان نبدي رأينا في هذا البيان . فنقدّر ان تيمستوكليس قد تمتع ، بغية التوصل الى السيطرة ، بوهبة خطابية نادرة . ولكنه لم ينشر شيئاً قط ولم يدون احد كلامه . اما بريكليس ، فيستحيل ان نركن الى الخطب التي ينسبها اليه توسيديد والتي هي في الحقيقة من وضع المؤرخ . فالتصرف الفوري كان كافياً آنئذ للخطباء .

ولكن الرغبة في زيادة فعالية هذا التصرف ، في منتصف القرن الخامس ، هي التي حملت بعضهم في سيراكوزا ، حيث حل النظام الديوقراطي محل الاستبداد ، على محاولة اكتشاف وتعميم اسرار النجاح . في البدء كان السفسطيون ، الذين جاء العديد منهم من الغرب ، ابتداء من

« غورغياس ، الصقلي الشهير ، اساتذة في علم الفصاحة ، وقد انتفعت الثورة الفكرية التي مهدوا لها الطريق انبثاقاً مباشراً من تعليمهم الخطابي الذي نشره في المدن المختلفة . فهم لم يكتفوا بالتمادة بالصنعة الانشائية وينشر بعض الصيغ الكتابية بل رغبوا في ان يظهرها ايضاً ، واظهروا فعلاً ، كيف تقلب البراهين على الخصم وروؤوا بالتالي عقول تلاميذهم ومرنوم على عرض كل قضية باجلى بيان واقوى استالة وعودهم اكتشاف الإجمال والخلاف في البراهين والآراء . وهكذا فان الروح النقدية التي تشك في كل شيء قد ولدت من الحاجات العملية التي تطلبتها المجادلة امام الجمعيات والحاكم الشعبية .

اقبل الاثينيون باعداد كبيرة على دروس السفستين ولم يلبثوا ان اصبحوا ، منذ اواخر القرن الخامس ، اساتذة في الفن الجديد . وتعود الى هذا العهد الخطب الاولى التي نشرها واضعوها الزاغيون في استمرار اثرها ولا سيما في اركاز شهرتهم : فاصبحت اثينا في القرن الرابع مدينة مدارس البيان كما كانت في الوقت نفسه مدينة مدارس الفلسفة .

نرانا لأول مرة - وللامر اهميته في تاريخ المجتمع والاخلاق - امام نشاط فكري وعمل حرقمين بتوفير الأرباح الطائلة للذين يمارسونها .
 فان عادة مكافأة الاستاذ على دروسه التي ادخلها السفستيون
 وانتقدها خصوم تعاليمهم الاخلاقية والفلسفية قد درجت بسهولة كلية في تعليم البيان الذي يؤمن لطالبه عدة نافعة لكسب دعاويهم الخاصة . وكان هنالك اكثر من هذا . فاذا كانت الاصول القضائية تمنع اللجوء الى المحامين ، فانها قد سمحت باللجوء الى « سينغوروس » قد يكون خطابه اكثر استفاضة من الفريق ذي المصلحة في الدعوى . وقد سمحت للتقاضي ، بنوع خاص ، بان يستعين « بـمُعِدِّ الخطب » الذي يحضر له سلفاً خطاباً يلقي امام المحكمة والذي يتقاضى بحكم الطبيعة اجر عمله . وهكذا فان الخطباء المتهنين اذا ما بلغوا الشهرة ، كانوا يجمعون الثروات . وهكذا ايضاً فان ديموستينس قد استعاد الثروة التي بددها اوصياؤه بفضل هذه الطريقة ، لا بفضل الذهب الفارسي والاختلاس الذي اتهم به . ولكنه ، في اثينا القرن الرابع ، لم يكن الوحيد الذي عرف النجاح المادي .

الاساتذة ومعد الخطب
 في اثينا

اقبل الاساتذة والطلاب من الخارج الى المدينة التي تحتل فيها الفصاحة مثل هذا المركز . فبين الخطباء « الاتيكيين » الذين احتفظ الاسكندرليون باسمائهم في « قانونهم » اي في مجموعة مثلهم ، يوجد ا بجانب مقيمون كثيرون : فسان ليزياس وايزيا ودينارخوس ينتسبون الى سيراكوزا وخلقيس وكورنثوس . واذا اتصف الاولان منهم بالبساطة المقصودة وبالوضوح المستلطف في انشائهم وبالحدة في اقامة براهينهم ، فهذا لا يمنعهم من ان يكونا مثالين لما اطلق عليه اسم الطريقة « الاتيكية » حيث تسمو بالملاحظة الاخلاقية الدقيقة والظرف اللطيف والرونة المستهيلة الى مرتبة الفن العاري الذي يستغويننا دائماً ويقنعنا احياناً . ولذلك فنان

مؤلفاتهم ، تضاف اليها « المرافعات المدنية » المعاصرة التي لا تجزم في صحتها والتي تظهر في مجموعة خطب ديموستينس ، ليست فقط شهادات ذات أهمية رئيسية حول القانون المدني أو التجاري وحول الاخلاق في المجتمع الاثيني . فهي تعبير حي عن مثل ادبي اعلى يستجيب ، على الرغم من وفرة زينهم ، لذوق سليم بالغ الرقة .

كان لبعض الخطباء من جهة ثانية طموح اسمي فتركوا اثرًا اطول بقاء .
 البيان - الفلسفة
 ايزوقراط
 خضع ايزوقراط بينهم الى شواغل جمالية ملحة اضطرته الى صرف الاوقات الطويلة في تحضير اقل خطبه أهمية التي نشرها دون ان يلقيها لانه لم يستطع التكلم امام الجماهير او لم يتجاسر على ذلك . فذهب الى اقصى حد في البحث عن التناغم في خطابه الكامل وفي كل من اجزائه حارصاً على توفير الوزن في جمل المتضادة وعلى نحاشي التقاء حرفين صائتين فيها . فابعد بذلك نوعاً جديداً مدعواً لان يدوم مادام العهد القديم ، اعني به الخطبة الخيالية التي تستهدف الالهة . وغدا باثقاله لتوازن توسيع فكرته وحسن انتقاء مفرداته القدوة المثالية « للخطباء » الذين كان دورهم الفكري عظيماً جداً طيلة قرون وقرون .

فالبنى جوهري في نظر ايزوقراط . وقد لجأ هو نفسه الى استخدام الفصاحة لتوجيه مصائر اليونان جمعاء . فقد بشر دوماً ملل بالمصالحة والتهديت بين الاغريق وبال حرب الجماعة ضد الملك الفارسي . اجل ان هنالك ، في نظرنا ، كثيراً من الحشو في العدة الميثولوجية والتاريخية التي ينقل عنها جزءاً كبيراً من براهينه ، ولكن كل ذلك لم يكن يعد ميماً لقرائه . لا بل ان في مؤلفاته مقاطع كثيرة تكشف لنا عن قدرته على التدقيق وحتى على الفراسة في تحليل الآفات التي ألمت باليونان آنئذ وتحديد الاتجاه الممكن ان يبحث فيه عن الدواء . فليس اذن هذا الخطيب الاول بين الخطباء كاتباً سياسياً يستهان به ، على الرغم من انه يتعذر النظر اليه كمفكر كبير . وليس هذا ما يقصده عندما يدعي انه « فيلسوف » وينسب الى فلسفته ، التي ليست سوى الفصاحة كما هو يفهمها ويمارسها ، قيمة تهذيب فكري وحق اخلاقي . فهو يعتبر ان الكلام هو مزية الانسان الاولى وان استخدامه استخداماً كاملاً لضمانة لفكر كامل وفضيلة كاملة وحضارة كاملة . وان اتقان الكلام يؤول بالضرورة الى اتقان التفكير ، لانه يرغم على البحث عن الافكار ووزنها وتوضيحها بانتقاء المفردات وتنظيمها منطقياً وجمالياً . فعمل البيان اذن مفتاح كفاءة التعامل : انه في الحقيقة يتناولها جميعها لانه يشتمل على جميع الصفات الانسانية . ومن ثم فان ايزوقراط يجعل نفسه مزاحماً لافلاطون ، وقد تكونت من تعليمه نظرية تربوية لم تقدم دوام الحضارة اليونانية فحسب ، بل دوام الحضارة الرومانية ايضاً ، وقد استمرت آثارها بادية حتى يومنا هذا . فان تعلم اصول البيان وممارسته بمارسه طويلة قد اعتبرا بمثابة التتويج للتربية الفضلى . فهل من غرابة والحالة هذه في ان تطبع عقول الرجال المثقفين بمثل هذا الطابع ؟

لم يمنع ذلك من ان يكون للفصاحة الاثينية ، في القرن الرابع ، رجالها ومؤلفاتها في العمل المدني والصراع المباشر . وقد وجه بعض الخطباء ، فعلا ، سياسة المدينة تاركين لرجال الحرب المتهنين مهمة تنفيذها . ولم تكن هذه حال القرن السابق عندما كان بريكليس يوحى مراسم الجمعية ويأمر الاساطيل : ان الفجاعات التقنية في هذين الحقلين من النشاط قد فرضا التخصص .

ان اعظم خطيب بين هؤلاء الخطباء الذين اثروا مباشرة بكلامهم هو ديموسينس ، بلا منازع . قد يمكننا مناقشة الرجل السياسي ، لا بل الرجل فحصب ، وبعد نظره ونزاهته . فان اسشين يفوقه مرونة وظرفا ، كما يفوقه هيبيريوس ، فنا أكثر استهلا وحذاقة ، ومع ذلك فانه سيد الجميع . ففصاحته عمل وحياة ومنطق وحما . تقع بقوتها وعمقها السيكلولوجي وبراعتها السهلة التي لا تتم عن الجهد وتأخذ بمجامع القلوب برصانتها التي تعترضها نزاعات تمزق القلب . امام هذا القدر من الكمال الطبيعي والقوة المؤثرة ، ينقاد بعض القراء العصريين انقياداً للاخذ بوجهات النظر التي دافع عنها ديموستينس : فكيف الحال ، كما سبق وقال اسشين المهزوم امامه ، « اذا ما سمعتم النمر بلحمه ودمه ؟ » ؛ واذا ما وصف خطيب سواء بهذا اللقب فيما يعد ، فلم تتوفر عند غيره ، وامي الحق ، ميزة خلق الاضطراب في انفس قرائه طيلة القرون المتعاقبة .

لاشك في ان طابع المأساة الذي طبع به مصير ديموستينس قد أسهم نهاية الكلاسيكية اليونانية في اعلاء عظمته . فمن حيث انه وجه صراع وطنه ضد مقدونيا ، جرع السم كي لا يقع حيا في ايدي اعدائه . وبذلك يتعد موته ذاتياً بهزيمة « البولس » ، اي الخضارة التي كانت البولس لها السند والاطار ، والمشجع والمنفع . قد حققت هذه الخضارة اشياء عظيمة وزرعت الانسان عقلياً . وتسامت الى قمم لا تستطيع اية هزيمة عسكرية ان تهويها منها . فهل كان بإمكانها أن تحافظ على قوتها الخلاقة نفسها ، يا ترى ؟ وهل كانت 'قدر' لأثينا ، لو انتصرت ، ان تستمر في اغناء تراث الانسانية الثقافي ؟ انه لمن الجراءة بمكان أن نغامر في اثبات ذلك أو نفيه . يجب علينا الاكتفاء بأن نلاحظ ان القرن الرابع كان أقل خصباً من القرن الخامس وان أثينا أبعد - آنئذ من ان تلعب ، في حياة العالم اليوناني الطبيعية ، دور التوجيه الذي لعبته فيما سبق . فالفلسفة والفصاحة هما الحقلان الوحيدان اللذان أظهرت العبقرية اليونانية فيهما ، داخل أثينا ، حيويتها ومؤلفات من المرتبة الاولى . وهذا لعمرى ليس بالقليل ، ومن العبث التساؤل عما اذا كان يوازي البارثون وفيدياس ، ومؤلفي المآسي العظام وتوسيديد . ان معركة « خيرونيا » التي سلّمت أثينا واليونان الى مقدونيا ، واخفاق الثورة التي انفجرت بعد الاسكندر ، يقفلان نهائياً عهداً من تاريخ الحضارة . وبين هذين الحدثين فتح غزو الشرق عهداً آخر جديداً .

الملكية الهلينية والانسان الحضارة الهلينية (من القرن الثالث حتى القرن الأول)

هزمت المدينة الجمهورية وانتصرت الملكية . فقامت دول واسعة الأرجاء كثيرة السكان على انقاض مقاطعات صغيرة ارتفعت فيها التثواء ومزق البحر شطآنها ، لم تكن كافية لاعالة بضع عشرات الالوف من السكان . وانتقل مركز الثقل في العالم اليوناني نحو الشرق . وانتظم نوع من التعايش الخالص بين اليونان الاوروبية والشرق .

غدا تطور الحضارة اليونانية امراً واجبا ، ولكن في اي اتجاه ياترى ؟

لا ترتضي الملكية مبدأ الحرية السياسية : فأصبح المواطن تابعا ، وحل القصر الملكي محل جمعية الشعب . اصف الى ذلك ان الشرق قد ناه على الحضارة اليونانية يجماعه الغيرة وثرواته وتحقيقاته الضخمة ودياناته الجذابة وكافة تقاليده التي تخنق الفرد خنقا .

بيد ان الحضارة الهلينية حققت معجزة التفرع والنمو في العالم اليوناني — الشرق تحت حماية الملكيات ، مستمرة ، في الوقت نفسه ، في تسهيل تفتح الانسان .

الفصل الأول

الاسكندر

باعت حضارة جديدة

فتح الاسكندر الشرق ، وغلب على الظن انه كان يستعد ، عند موته ، لفتح الغرب : ومن الجائز جداً ان تقاس الامبراطورية العالمية وحدها بمقياس روحه الفائقة الطبيعية واقتناعه الوطني بان زفس يعاون ويلهم ابناً بشخصه هو . بيد انه اذا لم يكن لا اول ولا آخر من دغدغه مثل هذا الحلم ، فليس لمعري من فاتح غيره ترك عمله اثرًا يثل هذا الاستمرار ، وفي نطاق جغرافي يثل هذا الاتساع ، وعلى نواح من النشاط البشري يثل هذا التنوع ، على الرغم من انها ، في طبيعتها ، قليلة التأثير جداً بحيلة خاطفة يقوم بها قائد عسكري . فهو ، بنتائج فتوحاته غير المباشرة قبل الفورية منها ، باعت حضارة جديدة تقوم اهميتها ، في نظرنا ، على ميزتها المسكونية او بالاحرى على طموحها المسكوني .

تقسمت امبراطوريته سياسياً . فقد توفق بعض قواده الى تأسيس رلاكة الامبراطورية السياسية ملكيات متميزة ، واضطر ابناءؤهم الى التخلي عن الامل الذي راود رفاق القائد العظيم ، الواحد بعد الآخر ، في استعادة الوحدة الاولى لمصلحتهم . وقرضت رقع هذه الملكيات . منافساتُ المنافسين على انواعهم ، والانتفاضات القومية التي نهضت بها شعوب يديّة عاصية اصلا او ثائرة على اسيادها ، والنزعات الجائشة في المدن اليونانية الى الاستقلال . وينتهي تاريخ سلالات عديدة ، لاسباب مختلفة ليس اقلها المنازعات العائلية ، في حالة من الفوضى يرمى لها . ومن ثم فان تفكك امبراطورية الاسكندر ، الذي بدأ غداة موته ، يستمر ، دوماً انقطاع تقريباً ، حتى قيام السيطرة الرومانية .

بيد ان هذا المظهر السياسي في التطور يضل ويخضع لانه يخيب الامل بخطه المنحني العام ويولد الاشتزاز بما يستلزمه من بلبلة متزايدة . وان حصر البحث فيه يؤول الى قبسع ازدياد

الخراب ، في حال ان هذا العهد ينهض بعمل بناء ، والمعنى الحقيقي للبناء الذي يخرج منه من الارض وتعجز قواه عن اقامه اعظم ما يمكن تصوره .

ان الاهمية الحقيقية لحملة الاسكندر تقوم في انها تدفع ، بقوة
مكونية الحضارة الهلينية
وجزم ، حركة بدأت قبلها ولكنها انحصرت حتى ذاك العهد
في دائرة ضيقة ، اعني بها انتشار الاغريق وحضارتهم خارج العالم اليوناني القديم . ونحن ننت
« بالهيني » العهد الذي يتبدى ، بانتصار مقدونيا على الجمهوريات البلدية في اليونان القديمة ولا يلبث
ان يتوسع بضم الامبراطورية الفارسية . وتشتق هذه التسمية من اسم « الهلنيين » الذي اطلق
على الشرقيين ، ولا سيما اليهود منهم ، الذين اقتبسوا الثقافة اليونانية . فهي تشدد اذن ، وبحق ،
على الفوز في استمالة الشعوب التي كانت موضوع الفتح العسكري . وللمرة الاولى في التاريخ بدأ
البشر وكأنهم يسلكون طريق وحدة عظيمة في الحياة والاخلاق والاذواق والاعتقادات ، على
الرغم من تعدد التخوم التي ما لبثت ان عادت الى الظهور مرة اخرى . ليس من ريب في ان
الاسكندر اراد هذه الوحدة ، فجاء خلفاؤه ، عن قصد او عن غير قصد ، تلقائياً او بقوة
الاستمرار ، يسلكون الاتجاه نفسه او يوجهون سواهم فيه .

ليس من ريب ايضاً في ان الحضارة اليونانية ، في نظر الاسكندر ، يجب ان تؤمن لهذه
الوحدة عناصرها الجوهرية . فالاستشراق الذي عبره به بعض رفاقه بكل مرارة ، وتبهم
التقليد القديم في ذلك ، لم يكن الا سطحياً . فهم قد اغتاظوا بنوع خاص من تصميمه على
تحقيق الصهر العنصري الذي نفذه عملياً بزواجاته فخمة وانعامات اغدقها على من انضم اليه
من الايرانيين : فهما كانت الديانة التي اراد ان يحلها المرتبة الاولى ، فان هذه التدابير
كانت ضرورية لخلق الوحدة البشرية التي بدونها يضيع كل امل بالوحدة المعنوية . ولكن الاسكندر
الذي تلمذ على ايدي ارسطو لم يخن الحضارة اليونانية ؛ فهو قد اكتفى بأن يطرح عنها ما
يثقلها ، مطبقاً على الظروف الجديدة ما كان منها وثيق الارتباط باشكال سياسية اعتبرها هو
باطلة بسبب قدم عهدها ، وكانت الملاحم الهوميروسية ، في نظره ، كافية للدلالة على ان الملكية ،
شأن « البولس » ، تؤلف جزءاً من الارث الذي آل امره اليه . ومن ثم فانه التربية اليونانية
هي التي فرضها على ابناء الاشراف الايرانيين المدعويين ، شأن ابناء الاشراف المقدونيين ، لان
يكونوا رجال الغد في جيشه وامبراطوريته . وقد خضع للزعة نفسها خلفاؤه اليونانيو الاصل
والمفخرون بيونانيتهم حتى انقراض سلاطنتهم . ولكنه كان من المحتم على الحضارة اليونانية ،
بفعل توسيع نطاقها الجغرافي واتصالها اتصالاً متزايداً بحضارات سبقتها بزمان طويل وتكيفها
وفقاً لبيئات جديدة ، ان تتطور وتسرّب اليها التأثيرات الاجنبية . وهكذا نشأت وتزعمت
الحضارة الهلينية ، اقل نقاء يونانياً من الحضارة الكلاسيكية واقل سموً ايضاً واقل قوة
منطقية ، ولكنها اكثر مرونة وانطباقاً على انسانية متنوعة وواسعة طمحت هي الى استجابة
حاجاتها المشتركة .

من ناقل القول ان محاولة هذه الوحدة الادبية ، ينهض بها الاغريق ، قد عرفت
غير النجاحات . فان الحركة ، المنطلقة من بلاد صغيرة جداً وقليلة السكان ،

قد تناولت على غير تساو وبصورة سطحية عموماً ، كتلاً بشرية متراسة مرتبطة بحضاراتها
التقنية ومتأثرة بها الى حد بعيد . ولذلك فكثيراً ما استمرت هذه الحضارات القديمة ، على الرغم
من انها لم تحرز تحقيقات هامة . فهي قد برهنت منذ زمن متفاوت القدم انها عاجزة عن اى
تحقيق جديد . اضيف الى ذلك انها ، بحرمانها من قادة الفكر والمجتمع الذين تواروا او انضموا
الى الفاتحين ، قد اضطرت الى البقاء مغفورة ، برواسبها القديمة ، في ظلام الطبقات الشعبية ، لا سيما
الريفية منها ، المتدنية الثقافة التي لم يعرها الاغريق اهتمامهم ولم يريدوا ان يروا فيها سوى يسد
عاملة احتياطية يمكن الاستفادة منها في اعمال استثنائية مجدية . فكان من المهم ان تبوء المحاولة
بالفشل ، ان هي لم تقم بانقلاب جذري . وهي لم تتج قط من هذا المصير . فبعد قرون من
المضوض الظاهر ، ستبرز قوميات محلية بلغاتها واخلاقها ودياناتها الخاصة .

بيد انه من الزينغ ان لا نفر بضخامة مجهود الاغريق وبراق بعض النجاحات المحققة .
وتبرز هذه النجاحات داخل الاراضي التي اشرف الاغريق عليها سياسياً : فالمكاسب في بعض
الطبقات الاجتماعية على الاقل ، ولا سيما في الطبقات العليا وفي المدن ، لا حاجة ولا جدال
فيها ، وهي تزداد كلما اقتربت من الساحل المتوسطي حيث تجري وتستمر الاتصالات الحية .
وتبرز ايضا نجاحات اخرى خارج هذا النطاق مردها جوار احدي الحضارات العظمى
وجاذبيتها الطبيعية . فهناك سلالات شرقية المنشأ ، كسلالة « المريدات » في كبادوكيا
البونتيية او سلالة الاراسيين عند الفارتيين مثلاً ، تتباهى بميولها للحضارة اليونانية وتقتبسها
فعلاً اقتباساً يختلف عمقه باختلاف السلالات . وقد امتدت الحضارة الهلينية نحو الغرب بنوع
خاص . فانطلقت من مرسيليا واخذت تشع في غالبا . وقد بدا اثرها في قرطاجنة ايضا بفضل
الحروب في صقليا والتجارة . ولكنها تحرز الانتصار الادبي الفعال في روما بفضل علائق هذه
باغريق ايطاليا الجنوبية وحملاتها العسكرية وفتوحاتها في حوض المتوسط الشرقي . وكان من
اهمية هذا الانتصار ان روما ، بعد ان تغدو وريثة الملوك الهلنيين ، تستهل ، عن غير قصد
اولاً ، وعن تصميم في عهد الامبراطورية ، نجاحات هذه الحضارة التي استساغت هي جوهرها .
ومن ثم فان الوثبة التي وثبتها بفضل الاسكندر ، ستدوم ، بفضل روما ، حتى فجر عهد
الانحطاط في الامبراطورية الرومانية .

الفصل الثاني

المثالية الملكية والحكومة الملكية

كان بالإمكان تحديد الحضارة الكلاسيكية بأنها حضارة «البولس» . أما الحضارة الهلينية ، اذا ما حاولنا ان نجد لها تحديداً عاماً ، فتبدو وكأنها حضارة « الفاسيلفس » (الملك) ، اي الحضارة الملكية . فقد فرض على البشر اطار سياسي جديد ، اوجدته القوة دونغاريب ، ولكنه جاء موافقاً لتطور علائقهم الاجتماعية وحتى مفاهيمهم الاجتماعية .

١ - الرواسب والاعتبارات الجمهورية

ليس المقصود بذلك ان المدن قد زالت او سقطت طموحاً ، هو مبرر وجودها ، اغطاط البولس الى الاستقلال والسيادة . فهي ، في اليونان نفسها ، تحافظ على ديمومتها ، ولكنها منحطة تلجأ الى التسويات . وقد فرض عليها هذا المصير ضيق اراضيها وقلة سكانها ومواردها ، وهي آنذاك دون مستوى القوى التي أوجدها توسع العالم اليوناني : فكيف يمكنها والحالة هذه الوقوف في وجه ملوك الدول الكبرى ؟ غير ان خضوعها لم يكن يوماً تلقائياً ودائماً ؛ فهي تثور كلما سنحت لها الظروف ، وتتحرر أحياناً ، ولكنها لن تثبت ان ترضى ، صاغرة ، باقامة حاميات عسكرية جديدة في حصونها ، ودفع الفرائض المالية ، وحتى قيام مستبدين يحكمونها متعبدين بإخلادها الى السكينة .

الدلت والحرب فقد اضمحلت قوتها الماضية المطلقة ولا سيما النسبية . وحداً انتقال التيارات الاقتصادية من مواردها . وكما في السابق ، استمرت الحرب ، وهي ابدأ ضجيتها ، وسببها في اكثر الاحيان ، في اضعافها وتخريبها . فالحرب تتطلب وسائل ترتفع نفقاتها يوماً بعد يوم . وتزداد قياسات البوارج الحربية ، فتلتهك أثينا نفسها أولاً ثم تمزق نهائياً

عن الاحتفاظ بمرتبتها في هذا التسابق الى التسليح الذي ينتظرها فيه فشل أكيد ، وقد بلغ من تقدم التقنية في البر ، بفضل استخدام الفرسان والآليات ، وحتى الفيلة ، وتدريب الجنود ، ما جعل المتطوعين المدنيين عاجزين عملياً عن مقاومة الجيوش النظامية . واحتفظ المقدونيون بأولويتهم المعترف بها منذ عهد ديموستينس وفيلبوس الثاني . ومن حيث ان الروح الوطنية المحلية وروح التضحية قد خفتا عند المواطنين الذين خيبت البولس آمالهم في ميولهم وسماحتهم الى الأمن والطمأنينة ، فقد تزايد يوماً بعد يوم ، كما سبق وحدث في القرن الرابع ، اللجوء الى المرتزقة الذين يحدد من عددهم الاتفاق الباطل عليهم . فاضطرت المدن ، كما لم يسبق لها قط ، ان تحاط بالاسوار - وقد عقدت سبارطة نفسها العزم على ذلك - وان تحسن سلاحها الدفاعي على الرغم مما جرّه عليها ذلك من نفقات طائلة : وغالباً ما كانت هذه الاسوار وهذا التحسين دون جدوى بالنظر للتحسن المتزايد في نهج الحرب والحصار .

أضف الى ذلك ان صرامة قانون الحرب لا ترحم مدناً آلت نهائياً الى الضعف على الرغم من تضعيفاتها المالية والبشرية الكثيرة . والمدينة التي تفتتح عنوة تصبح تحت رحمة المنتصر . ففي السنة ٣٣٥ مثلاً ، أمر الاسكندر بتقويض طيبة ، ولم يستثن فيها سوى بيت واحد هو بيت الشاعر بنداروس ، احتراماً منه للذكرى هذا الشاعر . وبعد قرن تقريباً ، اعتُمد فيه سلوك أقل فظاظة ، عادت الى الظهور ، وتزايدت بفعل أخذ النثر ، أعمال الإستلاب المنظم والتقتيل والثخاسة . وإذا كانت هذه حال المدن ، فماذا عسانا نقول عن الارياف حيث تضيف اللصوصية الموضعية المسلحة اعمالها التخريبية الى ويلات الحرب ؟ وليست روما ، الحريصة على وضع حد سريع للعمليات العسكرية النائية وعلى تكتيز خزاناتها ، ما يمكن ان يعطينا درساً في الحسليم والرفق : فهي قد توصلت بكل صعوبة الى أن توفر ، متأخرة ، عن طريق خضوع صامت أو بمسئلق ، سلباً محمواً لم تلبث أن عكزته المنافسات بين قوادها الطامعين .

وهكذا فإن المدن اليونانية التي أفقدتها قوتها السياسية مقدونيا أولاً ورومانياً ، لم تحصل مقابل ذلك على الازدهار والهدوء اللذين كان بالامكان ان يفسحا لها مكاناً أوسع في نشأة وترعرع حضارة لم تطبع بطابعها .

الاتحادات
بحث بعضها عن الخلاص في نظام سياسي جديد ، إن لم يكن من حيث مبداء ، فأقله من حيث تطبيق هذا المبدأ تطبيقاً أكثر شمولاً ومرونة .

منذ زمن طويل ، أتاح صهر دويلات مستقلة في جهاز واحد تكوين مدن أكثر سكاناً وأوسع رقعة ، وبالتالي أقل ضعفاً : فهكذا استفادت أثينا من الاندماج الذي وحد حولها كل الأتيك . والمدينة اليونانية الوحيدة التي تمثل قوة حقيقية ، أقله خلال النصف الاول من العهد الهليني ، هي رودس . ولكنها هي نفسها أيضاً حصيلة اندماج المدن الثلاث التي تقاسمت أرض الجزيرة وبقيت مستقلة حتى أواخر القرن الخامس إلا فيما يعود لعبادة الإله هيليوس ، المشتركة .

وقد حصل الانصهار فيها ، على كل حال ، باحتراز اكثر منه في أثينا ، لأنه جاء في عهد لاحق . ولم يكن « لمدينة » رودس نفسها وجود قبل الوحدة التي تحققت من ثم . دون تفضيل مدينة على أخرى ودون اثاره حسد أية مدينة من المدن القديمة الثلاث . أضف الى ذلك أن هذه المدن قد حافظت ، في الدولة الجديدة ، على استقلال اوسع منه في قرى الأتيلك . ولا ريب ايضاً في ان السر الحقيقي لقوة رودس يكمن في سبب آخر ، أعني به مركز الجزيرة على طرق التجارة الكبرى في المتوسط الشرقي . فرودس مدينة لهذا المركز بازدهار تجارتها وبثروتها التي أتاحت لها ان تتعد اسطولا حربياً حسبته له اعظم الدول حساباً ، وعند الاقتضاء جيشاً برياً توفى الى النزول في آسيا الصغرى ووطئ أقدامه فيها على الرغم من الصعوبات التي اعترضته . غير أن مثل رودس ، التي يعود الفضل في توحيدها الى وجود عبادة مشتركة سابقة ، خلق بأن ثبت للجميع بأن التضحية بالسيادات الفردية يمكن ان يقابلها ما يعوّض عنها الى حد بعيد .

بيد أن الشركة التي اعتمدت ، على العموم ، آنئذ ، وبصورة فعالة ، لم تسلك هذا الاندماج المتصرف المفضي الى البولس . وقد أدى نجاحها الاكيد ، الذي تبرره رغبة في تنظيم دفاع مشترك ، الى تكوين دول « مركبة » ، أو ، بتعبير ايسر ، الى « الاتحادات » ، دون ان يستوقفنا معنى هذا التعبير الخاص الذي يبين المؤرخون ورجال القانون العصريون المضادة التي بينه وبين معنى « الدول الاتحادية » . فقد يشكل علينا ، أكثر من مرة ، توزيع الدول المركبة بين هاتين الفئتين الكبيرتين اللتين لا تعطينا في التاريخ القديم ، باستثناء بعض الحالات النادرة ، تحوفاً أوضح منها في ايماننا الحاضرة . وليست الكلمة اليونانية المستعملة للدلالة على هذه الدول ما يسهل محاولة هذا التوزيع لانها كلمة غامضة قد تنطبق على الاتحادات بانواعها بما فيها الاخويات الدينية نفسها .

ليس التجديد الهليني في ظهور هذه الاتحادات : فقد وجد منها في اليونان منذ أمد بعيد ؛ وقد يمكننا اطلاق هذا الاسم على « احلاف » سبارطة واثينا اذا ما نظرنا الى بعض مظاهرها . إنما التجديد في تعددها : وقد بلغ من كثرتها ان بعضها قد كوّن اتحاداً آخر يجمع بينها . والتجديد فيها ايضاً هو المساواة الحقيقية التي توصلت ، إلا في حالات نادرة جداً ، الى تحقيقها بين المدن المندجة . وهي قد اخذت درساً ، بهذا الصدد ، من خبرة الماضي . فقد اعترفت الاتحادات السابقة أساساً ، أو تأثرت سريعاً ، « بسيطرة » إحدى المدن ، وحتى اذا كان انضمامها اختيارياً فان المدن الأخرى قد انتهت اخيراً الى التشكي من تجاوزات المدينة المسيطرة وحاولت خلع نير طاعتها . فكانت النتيجة العملية لهذه الاتحادات الاكثار من المنازعات وزيادة الضعف العام . أما آنذاك فقد اعتمدت أساليب أخرى . فليس هنالك من سيطرة ، بل ظهور بمساواة حقيقية قد تؤخذ بعين الاعتبار فيها أهمية الإسهام في الجهود الجماعي .

كانت النتيجة المحتومة لهذا الاحتياط ان المدن القديمة الحاكمة قد نظرت شذراً الى هذه الاتحادات التي ليست مستعدة لأن تعترف لها بمرتبة ممتازة . وكانت نقطة انطلاق الدول الجديدة ، المدعوة لمستقبل زاهر ، في مناطق لم تلعب حتى ذاك العهد سوى دور وضيع جداً في تقرير مصير العالم اليوناني سياسياً وأديباً . فبرزت شعوب جديدة لم تسهم سوى جزئياً في التطور العام للحضارة اليونانية ، شأنها في ذلك شأن المقدونيين قبل فيلبوس الثاني . وكانت لانعزالها هذا الفضل في المحافظة ، اكثر من سواها ، على تضامنها بفضل العبادات المشتركة بينها ، وبفضل ضعف الاقبال على الحياة المدنية ، بما حال دون قيام المدن ، او أقله دون تمتعها باستقلال متعجرف . وكان له الفضل أيضاً في الإقلال من استنزاف قواها في المنازعات العنيفة وفي ابعاد الشبهات الحاسدة عنها .

هذه هي ، بصورة خاصة ، حال الشعبين اللذين كانا الحلأين الأولى للإتحادين الهلنيسيين الرئيسيين في اليونان القديمة . فقد توصل الايتوليون الذين أقاموا منعمورين على الساحل الشمالي من خليج كورنثوس الى ضم الشطر الاكبر من اليونان الوسطى إليهم بما في ذلك قسم كبير من تساليا . وقد برز أيضاً على الساحل المقابل ، في البلوبونيز ، من مقاطعات جبلية لا ماضي مجيد لها ، اتحاد الآخيين الذين استفادوا من انتصارات روما وتوصلوا الى ضم البلوبونيز كلها .

الانظمة الاتحادية

ما أن ارتسمت حركة الاندفاع هذه بالانتصارات الاولى حتى تجاوزت هذه الشعوب حدودها العنصرية . فارتضت أو فرضت أن تنضم اليها مدن غريبة عنها حتى ذاك العهد . وقد حدث ، حتى في افضل هذه الاتحادات تنظيمياً ، أن يكون للمواطنين هويتان لا بل جويتان في الواقع ، الاولى محلية تحدد المدينة التي ينتسبون إليها ، والثانية اتحادية يكون اسمها اسم الشعب مؤسس الاتحاد . فال مواطن الذي من فرسال في تساليا يبقى « فرسالياً » ، ولكنه يصبح بالإضافة الى ذلك « أيتولياً » ، على الرغم من المسافة التي تفصله عن أيتوليا نفسها . والمهم في هذه التسمية الخداعة من الناحية العنصرية انها لا تعني مجرد الضم ، إذ أن النظام المعتمد ، بهذا الصدد ، يعطي ضمانات جدية .

لا ريب في ان المدن المنضمة تتخلى عن قسط من استقلالها . فهي مبدئياً تدير شؤونها بحرية ، وتفترض الحياة المشتركة عملياً ، حتى على هذا الصعيد ، حداً أدنى من التناقص لا ينطوي ، في أغلب الاحيان ، على مستلزمات خطيرة . بيد أن التخلي الحقيقي يتعلق بالشؤون الخارجية ، الدبلوماسية والحرب ، التي تصبح وقفاً على الحكومة المركزية المنوط بها أمر الاحتكام في الخلافات الممكنة بين المدن المنضمة وتحديد العلاقات بالاجانب وتنظيم الجيش الاتحادي واستخدامه . ولكن لا تستطيع مدينة واحدة او مجموع مدن متحالفة التمتع بمركز ممتاز في الحكومة المركزية .

تؤلف الحكومة المركزية على غرار حكومة البوليس . ولنصرف النظر هنا عن التفاصيل

والفوارق المختلفة وغير الثابتة غالباً . هنالك في الدرجة الاولى جمية شعبية في أيديها زمام الامور أبوابها مفتوحة لكافة المواطنين البالغين السن القانونية : وهي جمية البولس نفسها التي لا تتميز عنها إلا بفوارق فنية نادرة . ومن نافل القول ان مكان الاجتماع قد يتغير احياناً وان المدن تقترح لا الممثلون ، ولكنه يتعذر علينا الجزم ، بسبب افتقارنا الى الدلائل ، بأن هذه التدابير ، القمينة بضمان المساواة بين المدن ، قد اعتمدت في كل مكان . ويقوم الفارق الرئيسي ، وهو طبيعي بفعل المسافات الواجب قطعها ، في ان الجمعية الاتحادية لا تلتزم إلا نادراً ، فليس هناك سوى دورات معدودة في مواعيد محددة ، اثنتين او اربع في السنة ، على ما نعلم ، واذا ما واجهت امكانية اجتماعات طارئة ، فان العمل بهذه الامكانية كان نادراً . وما من اتحاد حر واحد ، نستطيع ان نبدي رأينا فيه ، أقر النظام التمثيلي رسمياً اي مجلس النواب : فالاعراف القديمة الاستبدادية تقف في وجه هذا الحل الذي كان من الضروري ان يفرضه اتساع رقعة الاتحاد .

يتضح من ذلك ان سيادة الجمعية لا تبرز الا بصورة عرضية ، وان اشرافها يتراخى ، وان الاجهزة الحكومية الاخرى تتمتع في الواقع بحرية عمل اوسع منها في البولس الديموقراطية القديمة . وهذه الاجهزة هي اولا مجلس او عدة مجالس يتفاوت عدد اعضائها ، وثانيا قضاء يعرف القاضي الاول بينهم باسم « ستراتفوس » اي قائد الجيش . وقد يحدد القانون ، او التقليد في بعض الحالات ، توزيع المراكز في المجلس بين المدن . وحتى اذا لم يُحِط لهذا الامر ، فان تعيين اعضاء المجالس والقضاة يتلاقى كل اخطار السيطرة .

من المؤثر حقا ان نرى الاغريق ، الذين بقوا جمهوريين ورغبوا في الافلات من سيطرة الملكيات الكبرى ، يتلصسون الطريق بنية التوفيق الى حل جديد . فالحق المدني عندهم لم يكن نظاما قويا وطيداً كما كان في روما منذ عهد مبكر . ولكن الحق العام قد استأثر بتفكيرهم منذ امد بعيد . وعديدة هي الكتب النظرية او التاريخية المتعلقة بالانظمة التي وضعها اشهر الرجال احياناً . وحين وضع ارسطو او اشرف على وضع ال ١٥٨ دستوراً للمدن ، التي لم يصلنا منها سوى « دستور الاثينيين » ، لم يبتكر قط ناحية قانونية تاريخية . ومن المسلم به ان الطريقة المتبعة بالتفضيل ، « ان العهد الهليني » - وهي تستمر زمناً طويلاً حتى في الامبراطورية الرومانية - تقضي بوضع المقالات عن « الملكية » ، وهي على كل حال مقالات فلسفية اكثر منها عملية . ويفسر هذا الاهتمام المستمر ، عند الاغريق ، لعلم الانظمة السياسية ، تنوع الانظمة المعتمدة في الاتحادات . ولكن هنالك ، الى جانب الابتكارات الاربية والمعادلات الثابتة ، احترازاات يملها الماضي وعادات موروثه عن « البولس » وتقاليد مرفوعة الى مستوى المبادئ ، تلجهم الخيلة الجامحة وتمنع بعض الجسارات التي قد تبررها ظروف كلية الجدة .

الديموقراطية : ظواهر ورائع
بما يسترعي الانتباه ، في المدن الهلينية والاتحادات الحرة على السواء ان مظاهرها النظام الخارجية ديموقراطية ابدأ . فالشرعية لا تضع ، في

الظروف العادية ، اي شرط مالي للتمتع بحقوق المواطن المطلقة وممارستها ، وهي من حيث المبدأ متساوية للجميع . فالجمعية العمومية ذات سيادة مطلقة . والقضاة الذين ينتخبون كل سنة ، لا يعاد انتخابهم فوراً ، وذلك لتجنب الاستبداد العملي ولائحة الادعاء على ادارتهم . اما ائتنا الكلاسيكية ، فقد استنتت قوادها العسكريين من هذه القاعدة ، رغبة منها في الاستفادة بحريّة من خبرتهم العسكرية . ولكن هذا الاحتياط الصارم ، على الرغم من حراجه الاخطار الخارجية شبه الدائمة ، وعلى الرغم من تقدم فن الحرب واهمية الدور الذي يلعبه فيها المهتمون ، لم يستثن منذئذ قواد الجيوش انفسهم .

فاذا ما استندنا الى التنظيم النظري ، نرى صحة ما تعبر عنه النصوص المعاصرة ، الرسمية وغير الرسمية ، التي تشدد على « ديمقراطية » هذه الانظمة . اجل ان هذه الكلمة في معجم ذاك العهد لا تعني احيانا سوى « الجمهورية » التي تقابل الملكية السائدة اذ ذاك ، ولكنها في حالات كثيرة ترتدي معناها القديم الذي يقابل « الارستوقراطية » . ويبدو في الواقع من كل القرائن ، في الصراع القديم ، الطويل والدامي ، بين المثاليين ، ان الديمقراطية هي التي تغلبت في النهاية ، بفضل نفوذ ائتنا وتقهقر سبارطة ، كما تراءى ذلك من سير التطور منذ القرن الرابع .

بيد ان ذلك لم يكن الا ظاهراً فحسب . فحيثما نستطع الوقوف على سير الامور العملي نرى ان هذه الأنظمة لا تطبق إلا ديمقراطياً . فحتى في المدينة التي كانت مقررة فيها ، كائيناً مثلاً ، الغيت التعويضات التي أتاحت للواطنين الفقراء تكريس وقتهم لخدمة الدولة سياسياً ، كقضاة أو أعضاء مجلس أو أعضاء جمعية . وقد أفضى زوال هذه التعويضات من الواقع الديمقراطي الى زوالها بصورة طبيعية من المثل الأعلى الديمقراطي الرسمي أيضاً ، وليس العجز المالي دائماً السبب الحقيقي لهذا الإلغاء ، إذ أن المسؤولين لا يترددون في شجبها شجباً مبدئياً ، ناظرين اليها نظرهم الى نظام فوضوي يدعو الى الأسف ؛ وقد حدث ان رفضوا رؤوس أموال هامة مقدّمة لإيجاد هذه التعويضات . فأصبح محتمّاً والحالة هذه على ممثلي الطبقات الشعبية المرغين على العمل الدائم لتأمين أودهم وأود عائلاتهم ان يبعدوا عملياً عن الوظائف العامة ، وفي أغلب الاحيان ان لا يشتركوا في أعمال الجمعية ، لاسيما في الإتحادات حيث يستوجب حضور الجلسات اجور نقل باهظة بسبب بُعد المسافات . ولكن هذا التغيير على كل حال ليس سوى أبرز وأهم ما حصل من تغييرات . فهناك اساليب أخرى كثيرة قد لا تكون كلها صادرة عن تدابير مكرية بل عن التطور العام في المجتمع والاخلاق فقط ، ولكن نتائجها كلها تتجه نحو وضع خاص لا جدال فيه : ان هذه الأنظمة الجمهورية الهلنسية ، الديمقراطية نظرياً ، تقوم في كل مكان تقريباً احتكار السلطة لطبقة اهل المدن اليسورين المثقفين ، المتسكرين لإصلاح اجتماعي من شأنه ان يضرّ بنصالحهم .

لما كانت الازمة الاجتماعية قد تفاقمت إذ ذاك لارتباطها بالوضع الاقتصادي ، لم يكن

التوجيه الطبيعي للسياسة الداخلية ليستهل تهدئتها . فرسخت الروح الثورية ، وبعنف في أغلب الأحيان ، في نفوس المستائين الذين ليس امامهم أي مخرج شرعي مفتوح ، ففعل هذا التوتر فعلة في مصر اليونان . وكان خطر الاضطرابات الاجتماعية ، وقيامها الفعلي احياناً ، عامل بليلة اضافياً في العلاقات الدولية . فهي تسبب او تعقد الحروب الأهلية والحروب بين الدول ، وتجزئ ، وبالتالي تضعف المقاومة في وجه العدو . وهي تفسر جزئياً الاخفاق النهائي الذي منيت به الحركة الاتحادية التي بدت قوية في منتصف القرن الثالث ولم تنلج مع ذلك ، في انتفاذ استقلال اليونان القديمة . وقد استفادت روما بنوع خاص من هذه الشقاات العميقة الجذور .

٢ - مثالية الملكية المملكتية

أصول الملكية المملكتية بيد ان النظام الجمهوري ، بلدياً كان ام اتحادياً ، لم يستمر إلا في جزء صغير جداً من العالم اليوناني الذي وسعت تخوميه فتوحات الاسكندر : فان الملكية هي ما يسيطر على العهد ويميزه سياسياً من كافة الوجوه .

على الرغم من ان الاغريق قد عرفوا الملكية في بلادهم في العهود القديمة ، فانهم قد نظروا اليها ، أثناء العهد الكلاسيكي ، نظرتهم الى نظام أدنى ، خليق بالبرابرة وغريب عمن الحضارة اليونانية ، لانها قامت حينذاك في مناطق بعيدة عن اليونان الوسطى ، متاخمة لعالمهم الأصلي . ولكن الفردية ، منذ أواخر القرن الخامس ، قد حطمت طوق المساواة الذي جمعت «البولس» داخله عموم المواطنين ، وذلك بتأثير استهواء الحروب للرأي العام وتأثيرها العميق المتزايد في الأنظمة الاجتماعية والذهنيات . فالجماهير نظرت الى القائد المنتصر نظرتها الى بطل ، مستعدة من جهة ثانية لافقاده حظوته عندها بمثل السرعة التي رفعت فيها الى الأوج . فالقبيباس وليساندروس مثلاً ، ونكتفي بذكرهما لأنها أشهر القواد ، قد نجوا من القصر المدني ، ورمزت أعمالهما التي لا تضاهي الى قدم المفاهيم الكلاسيكية . أضف الى ذلك ان بعض كتاب القرن الرابع المتكبرين ، بفعل نزعاتهم الشخصية ، للديموقراطية ، والسريمي التأثير بنقائصها قد باشروا تصميم المثل الأدبي والعملية الأعلى للملك ، جاعلين منه رجلاً فوق الرجال بعدله وعقله ومواهبه وسعادتته كرجل دولة وقائد عسكري وصلته بالالوهية في آخر المطاف .

جاءت الاحداث فجأة تؤيد وتمزز هذا المثل الأعلى . فمن إحدى المناطق المتاخمة ليونان ، برز ملك هو فيلبوس الثاني المقدوني الذي انتصر على المدن . وفتح ابنه الاسكندر الشرق وحقق مآثر بدت وكأنها تفوق الاقيسة البشرية . فتخلّص التنافس بين الاطباع الشخصية من قيوده ، ولكن انتهى له تسهيل عودة النظام والاعراف القديمة ؟ فان هذه الاطباع ، من جهة ، استندت الى وجود جيوش تختلف كل الاختلاف ، بضغامتة وتكوينها وانظمتها ، عن

جيوش المدن الجمهورية ، ولم يكن باستطاعة احد قط ان يعيد تكوين هذه الجيوش الملكية لجعلها ماثلة لجيوش المدن . ولم يكن باستطاعة اية مدينة ، حتى اذا كان لديها من الثروة ما يسمح باستخدام احد هذه الجيوش ، ان تؤمن قيادته . فاذا كان طمع الزعماء قد افضى ، والحالة هذه ، الى بقاء الجيوش ، فان هذا البقاء نفسه قد جعل من الملكية شيئاً لا مناص منه واوجد الزعماء الطامعين ، ومن جهة ثانية ، اشتمل إرث الاسكندر ، الذي لم يكن اي اغريقي ليرضى بالتنازل عنه ، على اراض شائعة - وشعوب غريبة عن الحضارة اليونانية آلفت السلطة الملكية الثمينة وحدها بتنظيم استراتيجياها . فمن الجلي مثلاً انه يستحيل على مدينة ان تحكم مصر وبلاد بابل . ثم ان الملكيات الهلينية التي قباها بيونانيتها لم تنبثق عن ملكيات شرقية . وهي لم تقبس سوى التزر اليسير عن الملكية الفارسية التي اعلن الاسكندر نفسه خلفها المباشر . وقد اعتبرها سكان المنطقة الاصليون ، الذين احبهم بعض الشيء ، بمثابة الملكية الفرعونية او الملكية البابلية اللتين زالتا منذ زمن بعيد . ولكن واقع السيطرة اليونانية على الشرق له من الامة ، لتفسير قيام الملكيات الهلينية وبقائها ، ما لواقع منشأها العسكري .

كانت النتيجة رجحان النظام الملكي ، في كافة انحاء العالم الهليني ، حتى امتداد وقوة الواقع الملكي قيام السيادة الرومانية . وقد تغير توزيع اراضي هذا العالم بين الملكيات لاسيما خلال نصف قرن من عدم الاستقرار بعد موت الاسكندر . واذا ما نظرنا نظرة شاملة الى العهد ، تبين لنا ان عدد الملكيات قد نزع باستمرار الى الازدياد . فلنسا تشاهد ان ذلك حصر السلطة السياسية ، بل فتتها ، وهذا يثبت بعد الملكيات عن الكمال .

من الملل والحالة هذه ان نحاول احصاء الملكيات احصاء كاملاً . ولكن الواجب يقضي بان نذكر اهمها . فقد كانت ملكيات الانتيفونيين في مقدونيا السبابة في الزوال حين قضت عليها روما في السنة ١٦٧ . وقد تأخر الاطاليون في آسيا الصغرى في الحصول على اللقب الملكي في « برغاموس » ، وساعدتهم تحالفهم مع الرومان في السنة ١٨٨ على توسيع اراضيهم توسيعاً هاماً ، ولكن وصية اطلال الثالث الذي مات دون عقب في السنة ١٣٣ جعلت من روما وريثة ممتلكاته . وكان السلوقيون في البداية ، بفعل سيطرتهم على آسيا الصغرى وسوريا وبلاد بابل ويران ، الخلفاء الرئيسيين للملوك الفرس ؛ ولكن ممتلكاتهم ، منذ بداية القرن الثاني تنكش بسرعة لمصلحة الاطاليين والفارثيين ، ولم تكن الملكية سوى مجرد ظل حين ازالها روما في السنة ٦٣ . وفي مصر اخيراً كانت سلطة البطالسة او اللاجئين الاولى في بلوغ الاستقرار ، فامتدت في القرن الثالث امتداداً بعيداً في المتوسط الشرقي ، ثم انحصرت في وادي النيل ولم تمس بعد الملكيات الاخرى الا بفضل روما التي لم تقرّر ضمها اليها الا في السنة ٣٠ بعد موت كليوباترة .

ان هذا الاستعراض السريع الذي يهمل ، في ما يهمل ، سيراكوزا والملكيات الثانوية في

شمالى اليونان كالأبير التى اشتهرت بفضل « بيروس » ، او فى آسيا الصغرى كىثينيا والبونت ، مما يحيطنا نحن بانحطاط شبه متواصل ينشعب الى ضعف لا علاج له . ولهذا الاحساس ما يبرره على الصعيد العسكري باستثناء بعض وثبات عارضة . فان روما ، حتى عندما اضطرت فى اوائل القرن الثانى الى توجيه الضربات الحاسمة التى كان الضم نتيجتها ، لم تحتاج الى بذل جهود مماثلة لتلك التى فرضها عليها صراعا ضد قرطاج . ولكن هذا الانحطاط العسكري يستثنى على الاقل قرنا من العظمة والمجد هو القرن الثالث . وحين اخذت الحضارة الهلينية تعطي ثمارها ، كانت جذورها قد بلغت عمقا استطاعت هى مفه البقاء على الرغم من هزائها . فقد تأثرت هذه الحضارة اذن ، فى تكوينها ، بالملكية القوية والفنية آنذاك والسيطرة على اراض واسعة تحمي وتنتشر فيها الحضارة اليونانية بين البرابرة : ولم يعد للمدينة امامها سوى دور ثانوي .

من نافل القول ان لكل من هذه الملكيات ميزاتها الخاصة . وتقوم بينها اختلافات الثانية الملكية مبدئية احيانا . فالأبير ومقدونيا ، وهما منطقتان كان سكانها يونانيين او اقله متأثرين بالحضارة اليونانية ، تعرفان ملكيات قومية كان رعاياها فى الوقت نفسه مواطنين اعضاء فى جماعة : فان الملك رئيس وحامي هذه الجماعة يخضع لعرف تقليدي يجعله خادما لها اكثر منها خادما له . اما الملكيات الاخرى القائمة فى الشرق فملكيات شخصية . لا شك فى ان بعضها قد خلف ممالك محلية : فالسلوقي يطلق على نفسه ، فى بعض الاحيان النادرة ، لقب « ملك بابل » ، واللاجي يلقب بصورة عادية ، كفرعون ، بـ « هوروس - رع » ، وملك الجنوب والشمال ، وهوروس الذهبي ، وملك مصر العليا والسفلى ، وابن رع ، ويخضع منذ اواخر القرن الثالث تقريبا لمراسم التتويج فى منف . ولكن هذا المظهر ، الذى يختلف كليا عن ذلك الذى يصفه على الملكية الانتيغونية لقب « ملك المقدونيين » ، لا قيمة له الا للمواطنين الاصليين دون غيرهم . فالاغريق لا يعرفون سوى « الملك (فاسيلس) بطليموس » او « الملك سلوقس » ، وتشير هذه التسمية الى الصفة الشخصية فى الملكية ، اذ ان الكلمة الاولى ، التى تقوم مقام الاسم الشخصي ، انما تحدد صفة لا وظيفة : فمن حيث ان الدولة لا وجود خاص ومستقل لها عن الملك ، فانها لا تعتبر الا ملكا له فحسب .

انتشر هذا المفهوم انتشار بقعة الزيت فقتسرب الى الملكيات القومية نفسها . وهو يعبر عن مثالية واسعة الانتشار ايضا . فان الفلاسفة ، الى اية مدرسة انتموا ، قد تابعوا عمل مفكري القرن الرابع وتعمقوا فى النظرية الملكية وتوصل بعضهم الى مثال ملك سيد العالم ، فريد فى نوعه ، مماثل للحكيم بالذات ، اقله فى نظر الروافيين . ولكن نظرية متوسطة واسعة الانتشار قد برزت ، صارفة النظر عن المبادلات وعن هذه الآفاق الواسعة التى تصطدم ، فى الوقائع ، بتعدد الملكيات .

الملك هو ذو الخطوة عند الإله الذى يعضده ويلهمه . وتظهر المواهب النادرة التى هو مدين للإله بها ، ظهورا لا جدال فيه ، فى الانتصار الذى هو افضل قياس لتفوقه . فالانتصار الذى

يريد الإله ويعطيه يثبت في آن واحد التمتع بالمواهب العسكرية وقوة الإشعاع على الجنود الذين لم يحب إخلاصهم الوفي .

إن الملك هو بالضرورة قائد جيش - كما يؤيد ذلك مثل الاسكندر والمنازعات التي عقب موت - عليه أن يسير على رأس جنوده في أشد الظروف خطراً ؛ فمن أصل ١٤ ملكاً سلوقيا ، لاقى عشرة حتفهم في ساحات الوغى . وعلى الملك من جهة ثانية ، بفعل السلطة المنبثقة عن صفتة وعن شخصه ، وبفعل الإعجاب الذي يشد إليه رجالاً آخرين ، أن يحيط نفسه بأصدقاء ورفاق وجنود لا يتراجعون ، في سبيل مساعدته ، أمام التضحيات على أنواعها ، ويؤيد ثباتهم ، في أشد الساعات حرجة ، صفاته التي لا تضاهيها صفات .

لو طبقت هذه النظرية بصورة الزامية لأفضت الى جعل القلعة عقيدة ايمانية . فإن هذه النظرية هي التي بررت الاعتصاب وتجزئة الملكيات الكبرى ؛ وقد بنى الثائرون ، على الانتصار وهتاف جنودهم حقهم في لقب « الفاسيفس » وهم إنما اعدوا بذلك ما فعله قواد الاسكندر عند نشأة هذه السلالات الملكية . ولكن المسؤولين لم يلبثوا أن تبادوا أخطار الفوضى الملازمة لهذه المثالية عن طريق مبدأ الشرعية . فحاولوا بالفعل ان يبدلوا ، لمصلحة السلالة ، مفهوم الانسان المتفوق الحائز على العطف الالهي ، ونثروا الاساطير حول دور هذا او ذاك من الآلهة في مولد احد الجدود . أجل لم يكن النجاح كاملاً ولكنه لم يكن دون اثر : فعدا الانتساب الى سلالة من الملوك المتعاقبين عنصراً طبيعياً من عناصر صفات الفاسيفس الشخصية .

كثيراً ما يعبر عن هذه الصفات بلفظة « اريتي » التي لا يعبر تعريبها بلفظة « فضيلة » عما تنطوي عليه من ايهام وغنى في المعاني . فلفظة « اريتي » تشمل في الحقيقة على صفات من كل نوع ، عسكرية ، وسياسية ، وفكرية ، وأخلاقية أيضاً . وتستلزم الشجاعة والعدل والعقل التشريعي والاداري والعزم والرفق و « حبة الناس » والتقوى . وإذا ما اضيفت كل هذه الصفات الى القوة والثروة اللتين ينطوي عليهما المثال الملكي أيضاً ، فانها تصبح ملغوسة في « احسانات » الملك نحو أعضاء بطانته ورعاياه . فالملك اذن ، في جوهره هو « المحسن » و « الناصر » و « المخلص » كما درجت العادة في تسميته رسمياً . وهنالك لفظة أخرى ذات معنى شامل ومبهم أيضاً استخدمت لغايتين : « افنوييا » أي العطف أو بالأحرى الارادة الحسنة والاستعدادات الطيبة . فقد استعملت لتعديد سلوك وعواطف الملك حيال الناس الآخرين ، الأصدقاء والجنود والرعايا والشعوب الخليفة ، ولتعديد سلوك وعواطف هؤلاء الناس أنفسهم نحو الملك .

لا حاجة للفت النظر الى ما تتطلبه هذه المثالية من اضافة صفات كالية ، مع ان الملوك الهلثيين بشر ، وبشر حقيرون في أغلب الأحيان . وليست الدعاوة بالزلفى وحدها ما أحاطهم بمثل هذا التجلي . فإن المواطن الوضيع الذي تعترضه صعوبات الحياة وتجاوزات

المستبددين المحليين قد رأى في الملك الملجأ الأخير ، الوحيد ، الذي يمكنه أن يضع آماله في عدله وكرمه . فكل شيء إذن قد تبدل وانهار في المبدأ الأساسي للخضارة اليونانية الكلاسيكية المبني على المثل الأعلى للإنسان ، المواطن الحر ، المساوي لغيره من البشر الأحرار ، والمتمتع في وحدة المدينة ، بالحماية والبيئة الفضلى لعمله ونموه . فالإنسان ، في العهد الهلنستي يرتفع بأنظاره المليئة بعرفان الجليل والأمل نحو إنسان يعترف ويعجب بتفوقه . أجل ، إن الحكيم — وهذا ما انتهت إليه عدة مدارس فلسفية — يحافظ على حريته ، ولكنه يعطي هذه الحرية معنى عقلياً ولا سباً جمالياً : أي إن المقصود هو حرية الفكر ، وحرية الروح حيال الاهواء . فالحكيم ملك والحالة هذه ، أقلت على نفسه . ولكن الإنسان الوحيد الحر بكل ما للتعبير من معنى ، والقادر وحده على تحقيق كمال نمو طبيعته الانسانية ، هو الملك .

الحق الملكي والاخلاق الملكية
إن النتيجة العملية لهذه المثالية هي السلطة الملكية المطلقة . لا شك في أن الملك مقيد بواجبات ، وبواجبات أدبية في الدرجة الأولى ، ولكن تقيدته بها لا يخضع لأية رقابة . فقد درجت العادة يوماً بعد يوم على القول إن الملك هو « الشريعة الحية » ، وسيصادف هذا التعبير نجاحاً متادياً . وهو ينطوي ، في أقوى معانيه ، على ما يقصد اليوم بالتعبير : « الارادة المطلقة » وقد أيدته تأكيدات مثل هذا : « إن ما يقره الملك هو عادل أبداً » .

وقد بلغ من أمر السلطة الملكية المطلقة أنها تغلبت على حق سلاي هو حق مُطيل ، على كل حال ، وغير مجموع في كتاب . فالخلافة الطبيعية تنتقل الى البكر بين الذكور ، ولكن خيار الملك قد يقف حاجزاً دون ذلك . وكذلك أيضاً ، إذا كانت وحدة الزواج هي القانون وإذا احتلت الملكة مرتبة تفوق مرتبة السراي الى حد بعيد ، فاننا نعرف أبناء زنى أقربهم شرعاً فضلاًهم آباؤهم على الأبناء الشرعيين . وقد اعتمدت أحياناً الشراكة في الملك : نادراً بين الاخوة — وتبدو إذ ذاك مفروضة فرضاً على البكر — وأكثر حدوثاً بين الأب وابنه — وهي إذ ذاك في الدرجة الأولى ، حيلة غايتها تجنب شغور مركز الملك حتى لفترة قصيرة . ولكن ما حدث لا يخرج في الحقيقة عن مجرد ولاية مشتركة لا تؤدي الى قسمة المملكة لمدة طويلة . فالميوعة إذن هي الميزة الرئيسية لهذا الحق السلاي الذي هو في طريق التكون البطيء وتعرضه دسائس البلاط وبوادر العصيان أو الثورات ، والذي يخضع فيه نفوذ الحق العائلي اليوناني لصلحة السلالة التي تقضي باستبعاد قسمة الخلافة ، ولسطة الارادة الملكية أحياناً .

ومن الصعوبة بكان أيضاً أن نخلّص أحد أغرب مظاهر الملكية الهلنستية ، أعني به اشتراك الأخ واخته ، المتحدّين بالزواج ، في الملكية . ليس من ريب في أن بعض الظروف الطارئة تقسر قيام هذه الشراكة التي يتعذر علينا تحليلها إذا ما أغفلنا حياة أرسينوي السابقة وطباعها الشخصية وطباع بطليموس الثاني الذي خالف ، في زواجه منها ، الأخلاق اليونانية التي اعتبرت

الزواج بين الاخوة عمل زنى . ولكن لماذا اتبع البطالسة فيما بعد ، باستثناء حالات نادرة ، هذه الحطة يا ترى ؟ يستحيل ، بكل تأكيد ، ان لا نسلّم هنا بتأثير العادات المصرية التي لم تتنكر للزواج بين الاخوة . غير ان الملكية السلوقية نفسها قد تأثرت بهذا العرف الذي انتقل اليها من الاسكندرية : فنذ عهد مبكر نسبياً ، لقبت الملكة السلوقية ، مع أنها غربية ، بلقب « الشقيقة » الرسمي ، وقد حدث فعلاً في أوائل القرن الثاني ان زوج احد الملوك ابنه من إحدى بناته التي تزوجت على التوالي ، بعد ارحاها ، من أخوين آخرين عند تسلمها زمام الملك بدورها . هذه هي الحادثة الوحيدة على ما نعلم ؛ فقد حالت المصادفة والاعتبارات الدبلوماسية دون رسوخ وشمول هذه الأعراف خارج مصر . ولكن لهذا الإعداء مغزاه على الرغم من سرعة زواله : ان الحرص على نقاء الدم والاحتياط لمطالبات ممكنة قد يقدم عليها أنساب بعيدون قد لعبا دورهما في تخطي موجبات الأخلاق اليونانية . وبذلك اثبت الملوك مرة أخرى انهم رجال يختلفون عن البشرية المتوسطة .

أما اشارات الملك الخارجية فانها تدعو في الحقيقة الى الدهشة ببساطتها ورسالتها . فالبزة الرسمية هي أبداً البزة المقدونية التي هي في الواقع بزة الميدان أي السُوق والمعطف المتسدل والخوذة أو القبة الواسعة الأطراف ؛ ولم يكن اللون الأرجواني نفسه في المعطف والقبة وقفاً على الملك ، إذ ان استعماله قد جاز لبعض أفراد البطانة الملكية . وبعض السلالات شاركتها الخاصة : الصولجان للآشيين ؛ والخاتم المزدان بنقش المرساة للسلوقيين ، ويطلق عليه اسم هبة ابولون . ولكن الشارة الوحيدة المشتركة حقاً بين كافة الملوك هي التاج الذي بلغ من سعة انتشاره أنه أصبح معادلاً للفظ « ملك » ودخل في سلسلة من التعابير الدارجة ، على غرار كلمة « العرش » في أيامنا هذه . نقله الاسكندر عن الملكية الفارسية واستخدمه كل خلفائه من بعده . والمقصود بالتاج عصية بيضاء ، أو بيضاء وأرجوانية معاً أحياناً ، تحيط بالرأس وتجمع الشعر وتعتدق الى وراء تاركة طرفيها يسترسلان فوق الرقبة . فهل من اشارة أقل لمعاناً من هذه ؟

أضف الى ذلك ان شخص الملك لا يحاط بعد بمعاملات شكلية خاصة . لا بل إننا نلمس استمرار البساطة المقدونية عوضاً عن المراسم الشرقية ولا سيما الفارسية منها ؛ فقد كانت الغلبة على هذا الصعيد للنفور الذي صادفه الاسكندر لدى رفاقه في السلاح . وإذا أخذت العادة تدرج ، في الاحتفالات الرسمية ، على حمل شمعاً أمام الملك ، فإن الأجانب وحتى الرعايا يحظون دونها صعوبة بمقابلة الملك . وإذا ما ساعدت الضرورات الدبلوماسية واختيرت خطيبة الملك اجلاً ، منذ البداية ، من أسرة ملكية ، وإذا كان عقد الاتفاق نتيجة مفاوضات ، وإذا احتفل بالزواج بابهة عظيمة ، فقد يحدث أحياناً ان يتزوج بعض الملوك من بنات الطبقة المتوسطة ، ان لم يكن من الراعيات أحياناً . غير ان الملوك الذين يرتدون الألبسة البسيطة

ويحتفلون بالجمهير قد أصبحوا موقع زلّة منذ أواخر القرن الثالث .
وليس من أقل مظاهر أهمية العهد الهليني ان تتكون فيه ، حول واقع الملكية الحديث العهد المطبوع بقوة بالأخلاق المقدونية على شيء من المساواة وفقاً للطريقة اليونانية ، نواة أولى من التقاليد والاعراف والمصطلحات القانونية والازياء في الملابس وغيرها . وستنمو هذه النواة رويداً رويداً بفعل تأثيرات غير التأثيرات الهلينية أيضاً . ولكنها ستنتقل من ملكية الى ملكية حتى بيزنطية وما بعدها أيضاً بواسطة روما .

٣ - الأنظمة الملكية

لا نستطيع ان نقدم هنا سوى تلخيص عاجل وعمومي للأنظمة الملكية ، اذ ان فقدان التوازن في التوزيع الجغرافي لمستندائنا يحول دون الاستفاضة : وفقاً من غزارة البرديات المصرية ، ليس لدينا ، عن مقدونيا والمناطق الساقية الشاسعة مثلاً ، سوى كتابات نادرة متفرقة . أضف الى ذلك ان عدد وخطورة المعاضل التي يستعصي حلّها أو عرضها عرضاً على بساط البحث ليسا بمقبات أقلّ شأنًا . لذلك يتوجب علينا الاكتفاء باستخلاص بعض الخطوط العامة التي تتيح لنا ادراك الملكية الهلينية ، في حد ذاتها ، ادراكاً أفضل .

السلطة الملكية الملك غير مقبّد ، وهو بهذه الصفة القائد الطبيعي للجيش . وهو المشتري الوحيد : يصدر أوامره في شتى المواضيع ويوجه الكتب الدورية الى الموظفين ويوجب على أسلّتهم . وهو أعلى سلطة قضائية : ولا يشذّ عن ذلك سوى الحق المعترف به تقليدياً للجمعية العمومية في الملكية المقدونية - وهو كثيراً ما يخرق عملياً - في ان تنظر في دعاوى الحياة العظمى . ولكن القضاء ليس مفصلاً آنذاك فضلاً تاماً عن الادارة ؛ لذلك فان الملك يتلقى في شتى الأمور عرائض لا تخصّ يقدمها له حتى الرضاء من رعاياه ؛ وان هذه العادة التي تأيدت ، فيما خص مصر ، ببرديات تعبّر عن آمال كلها سذاجة أحياناً ، قد اتبعت في مناطق أخرى أيضاً . يبدو ان بعض الملوك قد برهنوا في التهوض بهذه المهام ، تساعدهم الفلسفة على ذلك ، عن شعور بالواجب ووعي لكرامتهم بلغا أحياناً مستوى رفيعاً جداً . فقد نسب لأحد الانتيفونيين المتأثرين بالرواقية أنه قال يوماً لابنه : « هل أدركت جيداً ان ملكيتنا انما هي عبودية محاطة بالتكريم والتجلة ؟ » . ولكن الملك بحاجة الى العون والمساعدة مهما كان من تقيّده يوحى ضميره . ويتمتع الملك مبدئياً بحماية كاملة في اختيار معاونيه واسناد الأعمال اليهم . ويجري هذا الاسناد ، كما يطيب له ، دونما اعتبار للثقافة والاراتب والاقدمية : ليس من مقياس سوى رضام أي الثقة التي يوحى بها اليه .

بيد ان سمعة الملك تتوطد ، الى حد بعيد ، بنسبة اهلية واخلاق اولئك بطانة الملك والسياسة .
الذين يلجأ اليهم لمعاولته . وعليه في الواقع ان يحسب حساباً لرأي الجنود ، ولا سيما الحرس ، واهل البلاط . ويحتل بعض معاونيه مراكز شخصية رفيعة ، فيضطر

للتراث والركون إلى الحيلة للقضاء عليهم : وقد ارغم احد الملوك السلوقيين ، قبل الفوضى النهائية بزمان طويل ، على التآمر ونصب كمين لاغتيال وزيره الاول . فلبسلطة المطلقة حدودها الواقعية اذن ، وليس في ذلك ما يثير الدهشة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار للمكانة التي تخص بها المثالية السائدة صفات الفرد وما توفره له من تسلط على البشر الآخرين .

من حيث ان البلاط ، وهو ذيل من ذبول الملكية ، وبالتالي تجديد هييني ، واقع اجتماعي في الدرجة الاولى ، ينعم بنفوذ فكري وفني عظيم ، فانه يثبت من ثم وجوده على الصعيد السياسي . ومن نافل القول ان الديسمة ، ولا سيما ديسمة المخادع ، تلعب فيه دورها بصورة حتمية . غير انه يندر جداً ان يكون هذا الدور موقع زلة . ولكن السرايري والفلسان والحصيان الذين لعبوا دوراً سياسياً لم يتجاوزوا عدداً ضئيلاً ، حتى اذا اطمانت الى المستندات الطريفة التي تنتقد ، الا في الملكية اللاجية التي غدت ، منذ أواخر القرن الثالث ، العوبة بين أيدي مثل هذه الجماعات . بيد اننا نخطئ ان نحن شبهنا بهم تلك الملكات اللواتي ارتفعن الى مرتبة المدافعات عن فكرة معينة في المنازعات بين الملكيات الهلينية ، من أمثال أولمبيا والدة الاسكندر ، وكليوباتره العظيمة ، وارسينوي شقيقة بطليموس الثاني وروجه ، ولاوديكى زوجة انطيوخوس الثاني السلوقي ، وكليوباتره « الالهية » التي كانت « ابنة ملك وشقيقة ملكين » من اللاجيين و « زوجة ثلاثة وأم أربعة » ملوك سلوقيين . وانما الأمر يعود الى تطور عام في المجتمع حيث أصبح للمرأة مكانة أرفع منها في السابق : فبمكنة الشخصيات النسائية القوية أن تلعب منذئذ دورها بسهولة ، لا سيما وأن وجود البلاط يولي الملكة مرتبة رسمية .

وما يلفت النظر أيضاً ان النسب والثروة ليسا من العناصر التي تقرر الأوضاع الشخصية في البلاط ، على ان لها بعض الأثر مع ذلك . فـ « الأولاد الملكيون » ، المختلرون في العائيلات الكبرى يربون في القصر ويخصصون لخدمة الملك . وتسهل عليهم التزبية التي يتلقونها وبالتاليهم على الأمير الفتى ، ملك المستقبل ، دخول الوظائف العسكرية والادارية . ولكن هذه الوظائف لا يحتفظ بها لهم . ولم تتكون قط ، في أية ملكية ، طبقة من « الكبار » . فان حظه منوط بالموهب دونما اختيار اجتماعي أو جغرافي أو عنصري . فالعالم الهليني يتخطى الحدود ويؤلف وحدة بشرية كبرى يتجول الاغريق داخلها دونما صعوبة عارضين خدماتهم على أسياذ مختلفين . الضمان الضروري الوحيد هو الانتساب الى الحضارة اليونانية ، أو الأخذ بها فقط ، « أقله بالسببة لبعض الملوك » . فقد أجاب أحد الأنتيفونيين طالب مصلحة من ذوي النسب . « لا شأن عندي للقيمة الروائية بل للقيمة الشخصية » .

الحكومة المركزية
الفاسيلس ، مبدئياً ، رجل ذو مواهب عالية قادر على إيقاد التفاني وببذل الذات ، أكثر من أي رئيس دولة . لذلك فان المعاونين الذين يسند إليهم المهام الحكومية الكبرى يعدون بين « البطالة » . جنباً الى جنب مع خدامه المخصوصين . وهم

يؤمنون غالباً وظائف بلاطية . ويحصلون ، على الأقل ، على لقب يربطهم شخصياً بالملك ويتيح لهم التحدث اليه بمزيد من الدالة . فقد درجت في البلاطات الهلينية تسميات بطانية ظهرت سابقاتها في الملكية المقدونية القديمة والملكية الفارسية على السواء ، ثم تعددت وطراً عليها نوع من التفخيم المفرط في الاكرام بسبب ابتذال التعابير البسيطة . فهناك « أهل » الملك و « آباؤه المربون » و « مهذبه » و « اخوته الرضع » أو « تلاميذه » ، ويمكن تقديم الدليل في بعض الحالات على ان المقصود بذلك ألقاب شرفية فقط . وهنالك خصوصاً « الأصدقاء » المنتظمون جمعية حقيقية بدرجاتها المختلفة : « الأصدقاء » دوناً صفة ، وفوقهم تسلسل الاصدقاء « المكرمين » و « الأولين » ، و « الأولين والمكرمين تكريماً خاصاً » . ويزرع الانعام الملكي هذه الألقاب لقاء شتى الخدمات مع ما يقابلها من شارات أكثرها رواجاً المعطف الارجواني . ولا توجد هذه الألقاب سوى روابط شخصية بين من يوزعها ومن توزع عليهم إذ ان « صديق » الاب ليس بالضرورة « صديق » الابن .

وهكذا فان عدد رجال البطانة قد يكون مرتفعاً جداً . وتحمل بعض التعابير الرسمية على الاعتقاد بأنهم يشتركون في السلطة الملكية ، شأن الجيش أيضاً ، كأن هنالك ملكية جماعية . ويتباهى الملك في الحقيقة ، بعدد ورفاء « أصدقائه » وجنوده لأن في ذلك خير برهان على السحر الذي يشع منه ، وعلى سخائه و « انعاماته » ، وبكلمة ، على ما يكسبه نظرياً سلطته ككاسيلفس .

لذلك كان من الطبيعي ان يختار الملك بين هؤلاء الاشخاص من يأس فيهم الكفاءة لمعارفته . فالمشورات مرغوب فيها أبداً حتى ولو لم يكن هنالك مجلس استشاري دائم ومنظم . ويتلقاها الملك ممن يريد وبالشكل الذي يوافقه . ومن المسلم به أنه غير مقيّد بها ، ولكن الاستشارة ضرورية ، إذ ان الملك الذي لا يعبأ بهذه الحيلة يمرض نفسه لأن ينمّت بالاستبداد .

ينتخب الملك أيضاً بين بطانته القواد والسفراء والوزراء ، وليس من الضروري ، على كل حال ، ان ينطبق هذا الترتيب المنطقي على الواقع . فالرجل الواحد قد يكون تارة قائداً وأخرى سفيراً ووزيراً ؛ وقد يحدث له أيضاً ، بعد ان يتولى قيادة عسكرية هامة ، ان يسلم قيادة دونها أهمية ، حتى ولو لم يفقد الخطوة التي يتمتع بها . غير ان الشؤون الادارية على الأقل ، أي الحرب والدبلوماسية ، قد أصبحت من التعقيد بحيث انها فرضت حتماً ادنى من التخصص والاستمرار . لذلك فانتنا نرى في كل ملكية تقريباً رئيس ديوان ورئيس قضاء ومفتوض مالية . وقد يحدث أحياناً ان يبرز ، بين جميع الشخصيات الكبيرة ، شخصية أكثر نشاطاً ومهارة يشيرون اليها بتعريض غامض في الكلام ، « المفتوض بالشؤون » ، الذي يبدي رأيه في كل القضايا ويبت في أكثريتها باسم الملك ؛ ذلك هو المستشار الرئيسي والوزير الرئيسي . ولكن جميع هذه التعابير المستعمارة من قاموسنا السياسي لا تعبر التعبير الصحيح عن ميوعة التنظيم في الحكومة

المركزية لبلاد واسعة ، والتنظيم شيء حديث جداً بالنسبة للاغريق .

من الامور المسلم بها ان الادارة المحلية قد كانت ، في ما يظهر ، ارسخ الادارة المحلية استقراراً من الحكومة المركزية . ولكن معرفتنا بها ضئيلة جداً اذا ما قارناها بالحكومة المركزية ؛ ويبدو الاختلاف بين الملكيات ، في هذا النطاق خصوصاً ، عظيماً للغاية لان كل ملكية مرعومة على تكييف انظمتها ومصطلحاتها وفقاً لمميزات الاراضي والرعايا التي تشرف على ادارتها .

لنأخذ مثلاً مصر اللاجية ، وهي الملكية التي نعرفها اكثر من غيرها . فقد احتفظ فيها بالتقسيمات الادارية التقليدية المعروفة بـ « الاقاليم » مع بعض الفوارق الطفيفة الناتجة عن التطور الاقتصادي او زيادة عدد السكان في منطقة من المناطق مثلاً . وقد عيّن في كل اقليم ، في البداية ، حاكم مصري وقائد عسكري يوناني ؛ ثم توارى الحاكم رويدا رويدا وراء القائد حتى زال نهائياً . وتشتمل المراتب الدنيا على رؤساء الاقضية ورؤساء القرى . ولكن المشاغل المالية قضت منذ البدء بان يعين ، الى جانب كل من هؤلاء الموظفين ، عميل يرتبط مباشرة بوزير المال ، هو « الكاتب » الذي يعرف عنه بمرکز وظيفته ، فيقال كاتب القرية ، وكاتب القضاء ، وكاتب الاقليم او الكاتب الملكي .

ليس في هذه اللوحة البيانية شيء من الخطورة . ولكنها لا تنطبق إلا على مصر ، أي على بلاد تسهل فيها المركزية بفعل طبيعتها وتاريخها السابق . أما في الملكيات الأخرى فالأمر يختلف اختلافاً بيناً . نحن لا نعلم في الواقع شيئاً عن مقدونيا ، كما نكاد لا نعلم شيئاً عن الملكية الاطالية . أما السلوقيون ، وهم الخلفاء الرئيسيون للملوك الفرس ، فقد حافظوا على اسم وواقع « المرزبانين » القديمة ، باستثناء تقسيم بعضها الى اثنتين أحياناً . وقد تولى أمور كل مرزبانية قائد عسكري . فهل قام الى جانبه «مرزبان» وكلت اليه الأمور الادارية ؟ نحن نشك في ذلك ، ولا نعلم على كل حال بوجود موظف أطلق عليه هذا اللقب في عهد من العهود أو في منطقة من المناطق . وقد قسمت المرزبانية أخيراً الى أقضية تختلف أسماؤها الرسمية وفقاً للمناطق ، وبالتالي أيضاً أسماء الموظفين المكلفين ادارتها .

بدلاً من ان نضع هذه القائمة الطويلة التي تثير مجادلات شتى ونفضي الى اعترافات بالجهل ، يجدر بنا ان نعرف كيف سارت هذه الادارة المحلية . ويمكننا في هذا المجال ان نستخلص بعض النظرات العامة .

من الجلي ان كل المراكز الرفيعة وجلّ الوظائف الملحق بها قد احتفظ بها للاغريق في الملكيات الشرقية . أما في البدء ، وفي مناطق لم تخضع إخضاعاً نهائياً كأرمينيا وكبادوكيا وبيثيليا مثلاً ، فقد وجب مراعاة الأوضاع المحلية والقبول ببقاء بعض المرازبة الشرقيين الذين ما لبثوا في النهاية ان أعلنوا الانشقاق فغدوا في الأساس من تكوين الملكيات الثانوية . أما في

المناطق التي شعر الملك اليوناني بأنه سيدها المطلق ، فلم يعول إلا على الاغريق أو الشرقيين « المستعرقين » فعلاً ، وكانت اليونانية اللغة الرسمية ، فأقصى بالتالي البلديون الجهال . أضف الى ذلك ان الاغريقي ، بفعل ثقافته والاستعداد الفكري المفروض فيها ان توجد فيه ، قد اعتبر موظفاً أو فناناً ودقة وأمانة أيضاً ، لأن الواجب يقضي عليه ، بالتضامن مع الملك أمام رعايا يارسون حضارة أخرى .

فهل كان هؤلاء الموظفون عند حسن ظن الملك بهم يا ترى ؟ يمكننا التسليم بذلك ، بصورة عامة ، لجهة الامانة السياسية ، على الرغم من بعض الثورات التي أفضت الى الاغتصابات : وهي تقريباً وقف على الملكية السلوقية التي كانت أراضيها أوسع من ان تمكن مراقبتها مراقبة تامة دائمة . ولكن الامر على خلاف ذلك من ناحية الفعالية الادارية . فالحقيقة هي ان الاغريق الذين دخلوا في خدمة الملوك المستعرقين في الشرق كانوا حتماً أقل من ان يتاح انتقاء العدد اللازم بينهم . وكثيراً ما أثارت نزاهتهم الريبة والشك . بيد ان الكتابات الخاصة بآسيا ، وهي على الأغلب نصوص رسمية وتكريمية ، قد تحملنا على الاعتقاد بان الوضع فيها وضع مثالي . أما في مصر فالبرديات التي تصف واقعاً يومية ومتواضعاً تحتوي على شكاوى أو تأنيبات كثيرة وتطلعنا على سرقات وتجاوزات سلطة لا تدع مجالاً للشك . وان الادارة الحسنة تستلزم ، على كل حال ، خبرة وتقاليده وموظفين لم يتوفروا لهذه الملكيات الفتية التي قامت بعيداً عن الأرض الأم .

وتستلزم هذه الادارة الحسنة أيضاً مواصلات سهلة بغية نقل الاوامر وممارسة رقابة الحكومة المركزية بسرعة . غير ان المركزية في ملكيات ذاك العهد ، والرقابة منهطة بها ، تؤدي الى التعقيد وبطء المعاملات . وهذا البطء جليّ في مصر حيث تتطلب اقل معاملة تحقيقات شتى ومراسلات بين مكتب ومكتب ومروؤوس ورئيس . أما في الملكيات الأخرى فان المستندات المتوفرة لدينا ، وان كانت أقل جلاء ، تضعنا أحياناً أمام وقائع على مثل هذه الغرابة . ففي شهر آذار ، بينما كان احد الملوك السلوقيين في آسية الصغرى - في عصر السلالة الذهبي - اتخذ قراراً هاماً لمصلحة الملكة ، وكان على الموظفين المعنيين ان يسرعوا في إبلاغه ، غير ان القرار لم يصل الى الدرجات الدنيا من الادارة في احدى المربانيات المجاورة إلا في شهر أيار كما ، لم يصل اليها في غربي النجد الايراني إلا في شهر تموز . ويتراءى لنا من ثم ما يمكن ان تؤول اليه ، مع الخطأ الملكيات ، ادارات على مثل هذا النقص ، حين سلبت روما نفوذ الملوك

لذلك ، وفي كل زمان ، لم يتح لسلطة الملك ، وبالتالي لسلطة ادارته ، الوساطة والامتيازات المحلية أن تثبت وجودها في كل مكان بشكل متكافئ وقوي . وفي هذا المجال ، يبدو اللاجيون - في مصر لا في ممتلكاتهم الخارجية - في وضع موافق جداً ، ولكن عليهم ، حتى في وحدة وادي النيل ، ان يحسبوا حساباً لثلاث مدن يونانية . أما الملوك الآخرون فيصطدمون بمواجز شتى قوامها التقاليد المحترمة أو التنازلات . ويمكن مبدئياً نقض هذه

التنازلات أو التسليمات ؛ ولكن القوة غير متوفرة غالباً لنقضها فعلاً ، حتى ولو توفر المبرر المقبول لذلك . ثم ان الفاسيلفس قد يعرض سمعته للتحطيم اذا نقض « انعاماً » دون تبرير معنوي يختار المنعم عليه بحكمة ساعة توفيره له .

مما لا ريب فيه ، ربما باستثناء مقدونيا حيث يحجم الغموض على الادارة الداخلية ، ان الملك قد مارس على الدوام سلطة لا حد لها ، بواسطة عملائه وحدها ، على أعظم أجزاء مملكته اتساعاً . وغالباً ما أطلق المعاصرون على هذه الأجزاء اسم « خورا » أي « الريف » أو « الأرض المنبسطة » لاظهار المضادة بينها وبين المدن المحصنة . ولكن أجزاء المملكة الاخرى التي لا جدوى فيها للسلطة المباشرة ، أو التي يجب على السلطة أن تحتال فيها على العقبات ، تشمل على مناطق أخرى كثيرة غير المدن أيضاً .

ان هذه العقبات على أنواع كثيرة جداً وتختلف الاهمية النسبية لكل فئة اختلافاً عظيماً وفقاً للظروف المحلية . ففي مناطق الحدود ملوك ذوو اخاذات يكتفون بتأدية واجب الطاعة حين يمر الملك بالقرب منهم على رأس قوة مسلحة : فيطيب للرسمين ان يصفوا « بالجزية » ما يطلق عليه ذوو الاخاذة اسم « الهدية » . وهنالك « السلايون » الذين يسيطرون على مناطق أقبل سكاناً وثروة من أن يتجاسروا على اعلان نفوسهم ملوكاً عليها . وهنالك بعض المعابد التي يدير كهنتها أملاكاً عقارية تؤلف دولاً ثيوقراطية . وهنالك « شعوب » أو قبائل بلدية تخضع لشرائعها الخاصة وتعين رؤساءها : وأشهر مثل عنها الشعب اليهودي مع شريعته الموسوية ومجلسه ورئيس كهنته . وهنالك المدن أخيراً . فان ذوي الامتيازات هؤلاء ، أفراداً كانوا أم جماعات ، نزعوا بالسليقة الى الاستقلال ، ولا يتم موقفهم من الملك ، عملياً ، سوى عن نسبة القوى الراهنة . لذلك فان الفوضى الداخلية كانت بالمرصاد للملكيات المنهقرة وأسرع في تفككها .

ان ما يستوقف انتباهنا بنوع خاص هو دور المدن في الحضارة الهلينية . أجل قد تكون هنالك بعض المدن المحلية البلدية . ولكن المدن التي يمكننا ، بفضل الكتابات ، مرافقة حياتها ، هي المدن اليونانية ، أو المدن « المستفرقة » كما في فينقيا . ويوجد بينها مدن قديمة ومدن حديثة العهد . ولكن جميعها مثلاً أعلى واحداً لا يستطيع أي اغريقي أن يتنكر له ، هو « البولس » . فهي بمحصونها وأسوارها وساحاتها العامة وأبنيتها تؤلف أشخاصاً طبيعية . وتؤلف أشخاصاً معنوية أيضاً بالدستور الذي ينظم مواطنيها جماعة مستقلة ، أي ناعمة بوسائل عمل وقضاة ومجلس وجمعية تستطيع بها أن تدير شؤونها وشؤون البقعة المرتبطة بها .

ويطرح هذا الدستور والنزعات التي من شأنه ان يهد لها ، على بساط البحث ، العلاقات بين المدينة والملك . فالملك لا يستطيع القبول بقيام علاقات مع اجنبي ، هو ابدأ عدو ممكن ، ولا المخاطرة بان يرى يوماً ابواب المدينة تغفل بوجهه او القلعة تستخدم مركزاً محصناً من قبل الثائرين . فهو بحاجة الى ضمانات . ولديه سلسلة مختلفة من المكافآت والعقوبات ، يعامل بها

المدن وفاقا لاستحقاقها ، فيرسل اليها حامية او يسحبها ، ويثقل الجزية او يخففها او يلغيا ، وينح الامتيازات التجارية او الدينية ، الى ما هنالك . ولكن الطريقة التي كثر العمل بها قامت على ان يرسل الى المدينة « مفوض » يكتشف ، دوناً ضرورة لوجود الجيوش ، مراقبة الحياة المحلية ، وابداء الرأي في اختيار القضاة وفي قرارات الجمعية او المجلس ، ويوحى او يحثرر احياناً مشاريع المراسم التي يوافق عليها فوراً . ومن الطبيعي ان تفرض رقابة شديدة خاصة على المدينة التي يقيم الملك فيها او على مقربة منها ، كالاسكندرية عند اللاجين وبرغاموس عند الاطاليين ، فيتولى بعض الموظفين الذين يعينهم قطاعات معينة في الادارة ، ويصبح الاستقلال الاداري مجرد ظاهر فحسب . وتكون هذه المدن الاولى في الاستفادة من سخاء الملوك في توزيع المال وغلوائهم في تشييد الابنية . ولكنها تدفع ثمن هذه الانعامات بفقدان حرياتهما ، ولم يحل ذلك قط دون انفجار السخط الشعبي احياناً ، اقله في انطاكية والاسكندرية منذ القرن الثاني ، وتحوله الى شغب صاحب قد يؤدي الى تقتيل المقرين الى الملك ، وطرده الملك نفسه ، وعلان سواه مكانه . فعلى الرغم من الانظمة الاربية المعتمدة ، لم تتوصل الملكية الهلينية الى ازالة الاستقلال الاداري الذي اظهر المضادة بينها وبين « البولس » : فان فورة الاستقلال التي جاشت في « البولس » لن تمدها سوى قبضة روما بعد اكثر من انتفاضة .

كثرت اذن الصعوبات التي وجب على الملوك محاولة التغلب عليها لفرض الطاعة
الثروة وتأمين العنصرين المتلازمين آنشد لمثال الملكية : الثروة والقوة العسكرية .

جاء القسم الاكبر من موارد المالية من استئثار « الريف » الذي لم يكن ملكهم المباشر فحسب ، بل ملكهم الخاص ايضاً . وفي كل الملكيات ، حتى في مقدونيا ، كانت اهمية الممتلكات الملكية من العقارات والاحراج والمناجم ، وحتى المصانع ، عظيمة جداً ، لا يقلل منها سوى « الهبات » التي يطيب للملك ان يقطعها فيها مكافأة تقاني المتفانين في خدمته او لبعث هذا التفاني . وتلكوا عبيداً يتيحون لهم احياناً استثمار هذه الممتلكات استثماراً مباشراً بإشراف القهارة . ولكن طريقة الاستثمار العادية ، للاملاك الزراعية بنوع خاص ، هي التلزم الذي قد يفرض فرضاً على سكان « الريف » الذين ، حتى ولو نجوا من العبودية ، يبقون خاضعين لموجبات لا يعين حدودها سوى رضى الملك وحده . وما كانت هذه الممتلكات لتصبح شيئاً يذكر لولا اليد العاملة التي تحرثها .

الى موارد الملاك هذه اضيفت موارد المليك المتمتع بالحق السامي الذي توليه اياه الفتوحات وصفته كفسيلفس ، اعني بها الضرائب بمحصر المعنى . وهي على انواع كثيرة تختلف باختلاف الملكيات وداخل الملكية الواحدة ، اذ ان على الملك ، بصدها ، ان يأخذ بعين الاعتبار الامتيازات المحلية . واكثر الضرائب رواجاً واعظمها دخلاً الجزية ، رمز السيادة المعترف بها ، التي ورثت عن الامبراطورية الفارسية واعتمدت اخيراً في مقدونيا نفسها . والمقصود بها مبلغ

من المال - يضاف اليه أحياناً بعض المساهمات العينية - يحدد تحديدأ اجالياً لكل جماعة ، او اقطاع ، او قبيلة ، او مدينة ذات امتيازات ، او قرية في « الريف » . ويترك الخيار لكل جماعة ، لدفع هذه الضريبة سنوياً للخزانة ، في ان تجمعها كما يطيب لها وان توزعها على هواها بين اعضاءها . اما ضريبة الاعناق والرسوم على المواشي والاشجار المثمرة فتبدو اقل شمولاً ، اذا انها تستلزم احصاءات لا تستطيع كافة الملكيات اجراءها بانتظام . وهناك ايضاً الضرائب غير المباشرة ، الجمارك الخارجية والداخلية والمكس والرسوم على المبيعات الخ ، ولكنها تختلف عدداً وشدة . وهناك اخيراً ، فوق كل ذلك ، المصادرة والسخرة ، اذا ما مئت الحاجة ، وحتى « التيجان » اي الهبات الطوعية والاستثنائية في زعمهم التي كثيراً ما كانت تفرض فرضاً في الواقع في اوقات معلومة ، لمناسبة عيد سنوي او انتصار او ، على العموم ، اي حدث موافق للتعبير عن تعلق الرعايا بالملك .

لا يوحى هذا النظام ، في أي مكان ، بثل كاله المنطقي ودعائه وشده في مصر . فهو يتفق فيها والمشاغل الاقتصادية التي تقضي الى سياسة تجارية وموجهة معاً . فان الملك اللاجي الذي يملك القسم الاكبر من أرض البلاد يحصل دخل تازيم الاراضي ويستثمر الامتيازات التي تعود له واقعاً أم قانوناً . ومن شأن الرقابة الدقيقة التي تقود هذه العمليات وكلاءه الى ممارستها حيال الناس ونشاطاتهم وحيال المحصول والتجول ان تجعل جباية الضرائب أكثر سهولة وفعالية . وقد اكثرت من هذه الضرائب غيلة هي أخصب وألسن غيلة مالية عرفها التاريخ . فبلغ من كمال هذا النظام ان الجزية ، وهي ضريبة جماعية كما رأينا ، قد أمكن ابدالها بضرائب شخصية ، كالرسوم العقارية أو المنيهة .

كانت النتيجة ثروة الملوك الهلنديين . وأذهلت هذه الثروة اغريق اليونان القديمة الذين لم يعرفوا سوى الميزانيات الفقيرة في مدنهم الصغيرة . وغدت لهم طعماً جاذباً يحملهم على الهجرة والبحث عن العمل والمال الرقيق في الملكيات . وقد تعهد اللاتينغونيون أنفسهم ، وهم أقل هؤلاء الملوك حظاً ، اذ ان اقتطاع الأراضي والسخرة ليسا بالأمر اليسير عند المقدونيين ، بلاطاً بلغ من بذخه انه اقتضى عدة أيام لفاتح « بيدا » كتي يعرض مغامره في روما بعد انتصاره . وليس مانضاهي شهرة ملوك الشرق المشروعة ، لاسيا شهرة اللاجيين الذين ساورت كنوزهم الاسطورية ، في القرن الأول ، غيلة الطامعين وأفراد العامة في روما .

في الحقيقة كانت النفقات الملكية باهظة جداً . فان تعهد الموظفين والبلاط ، وسياسة السخاء ونصرة الآداب والفنون ، « والهبات للندن وعبادة الآلهة » التي اعتبرت اذ ذاك دليلاً على « ذهنية ملكية حقاً » ، كل هذا كان الثمن الهتم لثروة توفرها سلطة الملك . ولذلك فان كل محمود عسكري غير عادي يفرض اللجوء الى استنباط الجليل : إحداث رسم اضافي كذاك الذي فرض لهارية « الغالاطيين » النازحين الى آسيا الصغرى والذي أبقي ، بعد

استيطانهم النهائي فيها ، لضمان هدوئهم ضماناً غير ثابت ؛ حجز الثروات المشينة مع ان الانعام الملكي هو مصدرها ؛ استلاب كنوز المعابد الذي أدى في النهاية الى ثورة المؤمنين ، في مقاطعتي سوسة واليهودية مثلاً ؛ تضخم النقد النحاسي المتداول في مصر . ولكن الحيلة لم تجد ، فلم يمض وقت طويل حتى عجزت كل الملكيات ، الا اذا خدعت من نفقاتها الاخرى ، عن تمهيد جيوش تناسب حاجاتها .

قال مؤرخ معاصر : « العالم الهليني عالم عسكري » . ان مثالية « الفاسيلفس » القوة العسكرية نفسها تفسح للقوة مركزاً ممتازاً . وعلى كل ملك ، في الواقع أيضاً ، أن يكون قوياً للدفاع عن نفسه ضد جيرانه والاحتياط لهجماتهم ، ولإبقاء رعاياه البلديين الشرقيين تحت نير الطاعة أيضاً . وقد احتاجت الملكيات ، لهذه المهمة الجديدة ، الى جيش دائم استطاعت المدن قديماً أن تستغني عنه ، هو الحرس الملكي والحاميات الموزعة على الحصون . وهكذا فقد أعيض اعاضة عريضة عن الفترات السلمية التي كانت ، باستثناء ولاية الملوك المتعطين « للمجد » - وهم كثر آنذاك بين خلفاء الاسكندر - أطولها منها في العهد السابق ، بين حرب وحرب .

غدت الحرب عملية معقدة . فقد استلزمت جيوشاً أضخم عدداً : أجل لم يبلغ أفرادها المائة ألف رجل الذين جمعهم الاسكندر في النهاية ، ولكنه ليس من النادر أن يجمع أو يقاد منهم خمسون ألفاً . وقد سار التقدم التقني بإطراد . فاستخدمت وسائل مادية قوية في محاصرة الحصون والدفاع عنها ، وظهرت الآلات الحربية على المراكب وحتى في ساحات الرعى . وزاد محمول البوارج الحربية وعدد جذافها ؛ ولكن الاساطيل قد اشتملت أيضاً على مراكب خفيفة للفنارات والمفاجآت والانتقال السريع . وتنوعت الجيوش كذلك بالوحدات المختصة بالمهام المختلفة : الاستكشاف ، الهجمات الفجائية ، الالهاء ، الاصطدام العنيف ، الملاحقة . وأصبح لديها فرق الفرسان لاستثمار النصر ؛ فان معركة بين جيشين متقابلين تقرر في أكثر الاحيان مصير حملة من الحملات . وكلما استطاع ملك الاتصال بالمناطق التي يسهل عليه فيها القاء القبض على القيلة ، كانت له قيلة يديرها ويستخدمها في الحرب .

كانت هذه التجسيئات وهذه التجديدات نتيجة قيام الملكيات الكبرى التي توفرت لها وحدها وسائل تطبيقها . ولكنها استنزفت فيها جهداً أضناها .

أجل لم تكن الملكيات بحاجة الى الرجال . فللملك الحق بتعبئة رعاياه . ولكنه لم يلجأ الى هذه التعبئة على نطاق واسع . فان في تدريبهم أو إعادة تدريبهم على مهنة السلاح بعض الهاذير والاضطراب . وللشرقيين بنوع خاص طرائقهم الخاصة في التسليح وخوض المعركة ثبت تأخرها . فباشتر الاسكندر توزيع الأسلحة المقدونية والتعليم العسكري المقدوني على الفرس . وتردد خلفاؤه في متابعة الاختبار الذي ابتاء منه رفاقه . فقام بالمغامرة أحد الملوك الإلاجيين ، في أواخر القرن الثالث ، وألف « كتيبة » مصرية . ويضيف المؤلف اليوناني الذي أعلننا بذلك ان

المصريين ، وقد انتفخوا كبرياء بفعل النصر الذي ساعدوا على احرازه ، اسرعوا الى اعلان الثورة . ولم يخطر بالبدون عملياً الا في قرق المشاة الخاصة الخفيفة وفرق الفرسان ولم يُرق بعضهم بالنقل الى الوحدات اليونانية الا نادراً وبصفة شخصية .

بما لا ريب فيه ان خبر الجنود ، ومن الطبيعي ان يثق بهم ملوك من أصل يوناني ، كانوا الجنود اليونانيين ، وفي طليعتهم المقدونيون الذين دلت انتصاراتهم على المدن اليونانية وعلى الامبراطورية الفارسية على تفوقهم العسكري . فهم في فرق المشاة أخف تسليحاً من « هوبليت » العهد الكلاسيكي ، تؤلف « الكتيبة » وحدتهم المقاتلة الرئيسية ، وهي كتلة متراسة من صفوف الجنود المتوازية التي تحفض الصفوف الاولى منها نحو الخارج زمامها التي تتجاوز خمسة أمتار طولاً . وارتدى المقدونيون الدروع في فرق الفرسان ، وتألفت منهم أيضاً فرق الفرسان الثقيلة التي تولت الهجوم بقيادة الاسكندر وجملته يحرز جميع انتصاراته . وقد اثبتت الخبرة — أو هكذا ساد الاعتقاد اذ ذاك — ان الكتيبة لا تتغلب عليها سوى الكتيبة وان الفرسان المقدونيين لا يتغلب عليهم سوى الفرسان المقدونيين . لذلك ففي كل جيش ملكي كتيبتين المقدونية وفرقه وفرسانه المقدونيون . ويجب لتأمين التفوق اما زيادة عدد الجنود في هاتين الوحدتين واما اللجوء الى الاغريق في حال عدم توفر العدد الكافي من المقدونيين . فالاغريق أيضاً ، وهم أخف تسليحاً من الهوبليت وأفضل تدريباً كفرسان ومشاة ، من حيث أنهم على العموم جنود محترفون ، يؤلفون وحدات ضرورية لمكافئة الوحدات المقدونية ويقدمون الفرق المتخصصة في مهام الاستكشاف والمفاجأة .

قامت المشكلة اذن في الحصول على المقدونيين والاغريق . وهي لم تواجه الانتيفونيين البقيين في مقدونيا ؛ ولكنها لم تحل بسهولة في الملكيات الاخرى ، فقد احتفظت هذه بكل من أمكنها الاحتفاظ به من جنود الاسكندر وجنود خلفائه المباشرين . واستمرت في اجتذاب واستقبال المهاجرين . وقد وزعت هؤلاء أفراداً أو جماعات ممكنة ايامهم في اراض تؤمن لهم أودم وأود عائلاتهم . واحتفظت لهم بهويتهم الأصلية ووفرت لهم كل التسهيلات كي يؤمنوا لأبنائهم التربية الجسدية والعسكرية التي تجعلهم قادرين على الخدمة العسكرية . ويبدو أن هذا النظام قد طبق في آسيا الصغرى وفي مصر على الجنود الشرقيين أيضاً ، لا سيما على « الفرس » الذين يغلب أنهم أسكنوا بعيداً عن نجد ايران قبل الفتح اليوناني . ويعود لمثل هذا الاستمرار القضل في وجود « المقدونيين » في آسيا حتى في ظل الامبراطورية الرومانية . وكان لهذه الطريقة حسناتها للملوك الهلنيين : فهي توفر لهم الرجال دوغما عناء للوحدات الدائمة الصيت في جيوش ذاك العهد . ويأتلف هذا الاستثمار العسكري بأشكاله المختلفة مع الاستثمار الزراعي الهام جداً في ملكيات غنية « بالأراضي الملكية » المفتقرة الى اليد العاملة .

بعد تقلبات الخمسين سنة التي عقيبت موت الاسكندر مباشرة والتي كثرت فيها الهجرة من

اليونان القديمة، وانتقلت الجيوش من قائد الى قائد، أصبح من الصعب، يوماً بعد يوم، على الملوك المقيمين في الشرق تجنيد الاغريق، ولاسيا المقدونيين تجنيداً نهائياً. أجل لم تموزهم الحيلة - التي لجأوا اليها فعلاً، لاسيا اللاجيون، منذ أواخر القرن الثالث - في ان يعطوا البلديين جنسية أرفع شأنًا، سعياً منهم ورا، امتزاج كاذب. ولكن الحل الذي فضله هو اللجوء الى المرتزقة. وقد اتاحت تجنيدهم وسائل عديدة كالاتفاق، بفضل دبلوماسية سخية، مع دولة لديها المزيد من السكان، او استئجار فرقة احد قواد المفاوير، او ارسال من يجند الرجال، مع كثير من المال، الى المناطق التي يكثر فيها طاليو التطوع: فقد قامت لمدة طويلة في رأس «تيناروس» جنوبي اليونان، ثم في افسس على ساحل آسيا الصغرى، اسواق يتجمع فيها الرجال الذين يطلبون عملاً. ويخدم هؤلاء المرتزقة في وحدات خاصة اغربها ما يعرف عنه باسمها القومي، فلبعض الشعوب صيت او اختصاص عسكري يُرغَّب في استخدامها على الرغم من انها دون صيت واختصاص المقدونيين. فكان من الضروري ان يضم كل جيش جنوداً كريتيين، نبالين بنوع خاص، وفرساناً طارتيين مشهورين برشاقتهم، على انهم اوفر عدداً من ان يكونوا كلهم من مدينة طارنتو. لا بل كان من الضروري ان يضم كل جيش وحدات بربرية من التراقيين ولاسيا من الغالاطيين، وكان هؤلاء «كثيين» جاؤوا من شمالي البلقان وأقاموا على مقربة من مقدونيا وفي قلب آسيا الصغرى حوالي السنة ٣٧٥، وقد حسب لهم جيرانهم حساباً بسبب شغبهم. ولكنهم قدموا محاربين جليبي الفائدة بصفاتهم الطبيعية واحتقارهم الموت وشغفهم الفظ بالقتال.

ألفت جيوش الملكيات الهلنيزية، بالتالي، أجهزة كلية التعقيد. فقد اشتملت على وحدات دائمة: الحرس والحاميات، المؤلفة من المرتزقة في أغلب الأحيان، في الحصون الصغيرة القريبة من الحدود وحصون المدن المحمية. ولكنه يقتضي أشهر طويلة، اذا ما لاح خطر الحرب، لتعبئة وجمع القوى التي ستشارك في الأعمال العسكرية. فان تعبئة الجنود الفلاحين وتجهيز الفرق البلدية، ولاسيا تجنيد وحدات جديدة من المرتزقة، قد تتطلب سنتين أو ثلاثاً في بعض الأحيان. أضف الى ذلك ان هذه الجيوش تورث أعباء مالية مرهقة، فتضطّر كل ملكية الى تعهد ادارة مالية عسكرية، مهما قل شأنها، ومرابض للخيول ومستودعات للذخيرة ومرائب للآليات، وعليها أيضاً ان تعطي من يجارب لأجلها أراضي وأجوراً. وهي تؤثر، على كل حال، في الظروف العادية، اعطاء الاراضي على دفع الاجور، لأنها أوفر ثروة عقارية ولأنها ترى في ذلك طريقة فضلى لأن تقيم في أراضيها رجالاً لا تتطلب تعبئتهم وقتاً طويلاً ويمكنها بعد ذلك ان تستخدم أبناءهم. ولكن مشاكل مادية خطيرة تواجهها لن يسمح لها ضعفها الداخلي والفوضى المتزايدة، بعد فترة من الزمن، ان تتغلب عليها.

ثم ان تفوق روما العسكري، منذ القرن الثاني قبل المسيح، سيتوطد بشكل ساطع.

فتقاوم الملكية المقدونية خير مقاومة. ويعود الفضل في ذلك الى ارتفاع نسبة العنصر المقدوني الخاص في جيشها . فهي التي تعبى في اسرع وقت وباقل كلفة جنوداً يتحلون بالصفات العسكرية . ولكن الكتيبة المقدونية نفسها التي فقدت الكثير من مرونة اشتهرت بها في عهد فيلبوس والاسكندر ، وغدت على قسط كبير من الالتسكك والجمود ، وعجزت عن المحافظة على قلاعها في ارض غير متساوية ، قد برهنت اذ ذلك انها اداة حرب دون الجوقة الرومانية . اما الملكيات المقيمة في الشرق فليس لديها سوى عناصر مقدونية ويونانية قليلة العدد جداً . وقد اكتد احد القواد الرومان ، بالاستناد الى تأثير الارض المناخ : « ان المقدونيين الذين يحتلون الاسكندرية في مصر وسلوقة في بلاد بابل والمستعمرات الاخرى المتناثرة هنا وهناك قد انحدروا الى مستوى السوريين والفارقيين والمصريين » . هنالك بعض الحقيقة وكثير من المغالاة في هذه التاكيدات المحقرة . ولنتكف نحن بالملاحظة ان الملوك اليونانيين لم يبذلوا جهداً كافياً في تنظيم المتطوعين البلديين تنظيماً عسكرياً . فبدلاً من ان يعينوا الجنود الممتازين ضباطاً لجيش مختلط ، ابقوهم جنوداً في وحدات خاصة . وهكذا جارت سياستهم الاجتماعية كبرياء الاغريق وحرصت على استثمار سلبية الشرقيين وطففت على سياستهم العسكرية وأدت بها الى الإخفاق .

٤ - العبادة السلالية

العبادة السلالية : هل يحذر بنا اخيراً ان نربط بالانظمة الملكية ، لا بالديانة ، العبادة السلالية اصلها التي تؤلف بالفعل واحداً من اغرب تجددات العهد الهليني؟ لا ريب في انها تحتل هنا مكانها الافضل لانها نتيجة مثالية الانسان المتفوق الناعم برضى الإله واقرب الناس اليه ، أي المثالية الملكية السائدة . ومن الجدير بالملاحظة ان العبادة السلالية لم تتسرب يوماً بشكل من الاشكال الى مقدونيا ، أي الى الملكية التي لم تتسرب اليها مثالية الانسان ، سفير العناية الإلهية ، الا تسرباً نادراً وبطيئاً ، لانها اصطدمت فيها بمفهوم آخر هو مفهوم الملكية القومية . فبين الملكية الشخصية والملكية القومية يكن الخلاف الحقيقي مرة اخرى .

اجل قد يستهويننا ان نبحث عن هذا الخلاف في مكان آخر اي ، عندما نلاحظ ان الملكية المقدونية قد حكمت ارضاً اوروبية ، ان تنسب ، الى نشأة العبادة السلالية ونفوذها ، تأثيرات شرقية نها لم تتخط البحر الايحي . ولكن هذا التفسير غير مقبول اذ ان ملوكاً مقدونيين عديدين يرجح كانوا موضوع عبادة في اوروبا ، ولكن في اليونان لا في مقدونيا ، في مدن قد تكون ارتبطت به سياسياً ولكنها غريبة عن المملكة المقدونية بالمعنى الحضري ، واذا ان العبادة السلالية ، كما مورست في الشرق نفسه ، ليس لها سابقات محلية . فالفرعون وحده ، بين كافة الملوك الشرقيين ، كان موضوع عبادة قبل الاسكندر . وقد استمرت هذه العبادة التقليدية باقدم مظاهرها . فاعتبر اللاجيون ، شأن الفراغة ، ابناء آلهة وآلهة ، ولكن لرعاياهم البلديين فقط .

ثم انتظمت في الوقت نفسه عبادة موازية جديدة في خفومها ومظاهرها ترى عبادات أخرى مماثلة لها في الملكيات الشرقية. الأخرى حيث لم يعتبر الملك من قبل أكثر من وسيط بين الآلهة والشعب. وهكذا فإن العبادة السلالية، التي هي العبادة الهلينية الحقيقية، قد اشتقت من أصول يونانية بنوع خاص.

وفرت لها العادات اليونانية مرتكزا كافي المشانة والاتساع لتحقيق النهوض الذي أجبرته. وكان هذا المرتكز معقداً على كل حال، أو بالأحرى كثير الأجزاء. فهناك في الدرجة الأولى مثال غامض جداً وقابل بالتالي لشتى التفسيرات هو مثال *Daimôn* و *tyche* (الخط) والروح أو الكائن الإلهي الذي يحمي ويلهم ويحمي كل فرد؛ فعند من يستطيع هذا الجزء الصغير من الآلهة أن يظهر أعظم قوة ويجد قوة بالعبادة منه عند لافاسيوس، وهو يوفر له النجاح والسلطة؟ وهناك في الدرجة الثالثة عبادة الأموات التي يقوم بمراسمتها أحفاد لم تمورهم نوبات في هذا المجال، لاستئالة أصدقائهم والمعجبين بهم بغية الحصول على اشتراكهم فيها. وهناك أخيراً عبادة «البطل»، ذلك الإنسان العظيم الذي أكل المعجزات وانتقل بعد موته إلى جوار الآلهة، ولاسيما البطل «المؤسس»، مؤسس المدن بنوع خاص، أي ذلك الذي أوجد مجموعة بشرية جديدة تعبر له، في تادية عباقتها له، من قواها توشكرها، وتضمن في الوقت نفسه تلاحمها الداخلي ووثوق الصلة التي تشد جميع أعضائها؛ فهل يا ترى من أبطال يفوقون الملوك الهلنيين بما هم وتشييد المدن الكثيرة؟ كل ذلك قد اتحد بعضه ببعض، وربما بغناصر أخرى أيضاً، وأعطى البور للعبادة السلالية في كافة الملكيات المقيمة في الشرق.

جرت من قبل محاولات رضي عنها الاسكندر وشجعها لإقامة عبادة لشخصه وهو بعد في قيد الحياة، غير أنها لم تحرز على العموم نجاحاً باهراً. ولكنه كان من الطبيعي، بعيد وفاته، أن تضاعف أعظم المقاربات شدة؛ نظراً لصفاته ومآثره التي فاقت مقاييس الطبيعة البشرية. فقامت المنافسة حول إرثه الروحي وحتى حول بقاياه الفانية. فضرب «أهمينوس» رئيس ديوانه القديم، في وسط المعسكر، الخيمة الملكية وأقام فيها مذبحاً وعرشاً وضع عليه شارات الملكية؛ وقد اعتبر الاسكندر متربعاً عليه بشكل غير منظور وملهماً المذاكرات الجارية بمحسوزه وأفلق ممرزبان مصر، بطليموس الأول المقبل، في أن يستولي بمساعدة على رفات الاسكندر ونقله إلى الدلتا، وشيد أخيراً في الاسكندرية ضريح ضخم غدا مركزاً لعبادة الاسكندر التي فرضت لعبادة رسمية على كافة سكان مصر.

ولكن عبادة الاسكندر، إذا هي كانت سابقة، لم تكن مثلاً وقبوة. ففي مصر نفسها، حيث تستطيع تتبع تطور العبادة العام، ظهرت عبادة السلالة اللاجبية. وتمت دون أن تربط بعبادة الاسكندر.

ان وضع تاريخ هذه العبادة يذهب بنا بعيداً ويندو بالنتيجة مستحيلاً ، لا
بسل ان درس الاشكال التي انطوت عليها لا يمكننا أن نسير فيه الى حيث
نتمنى . ولكن هنالك حقيقة راهنة أعني بها تنوع هذه الاشكال
الكثيرة تنوعاً غريباً .

هنالك تنوع في غاية ممارسة العبادة . فيمكن ان تؤدي لهذا الملك الميت أو ذاك من السلالة
أو لمجموع ملوكها الموتى أو للملك الذي على قيد الحياة وحده أو للملكة أو لأعضاء آخرين من
الأسرة الملكية على السواء ؛ لا يل ان السراري الملكيات أنفسهم ، وحتى غلام الملك ، قد
حظوا أحياناً بمظاهر التكرم الالهي .

وهناك تنوع في العبادة نفسها . فالشخص الذي هو موضوعها قد يشرك بالالوهة التي قد
تتنوع هي نفسها الى ما لا نهاية له ، ولكن التفضيل يكون ظاهراً وطبيعياً لمصلحة أفراديت
عندما يكون هذا الشخص امرأة . ولكن مرحلة الاشراك هذه ، وحتى مرحلة المائلة ، لا
يقتصر عليها ؛ فالعبادة تؤدي الى ملك أو كما في مصر ، الى ملك وزوجته يؤلمان شخصياً ويضاف
الى اسمها الشخصيين لقب أو عدة ألقاب عبادية أو لقب « ثيوس » ، الاله ، أحياناً .

وهناك تنوع في مظاهر العبادة : معبد خاص أو مذهب فقط ؛ تمثال مزدان بخصائص
مختلفة أو موضوع في معبد إله آخر ؛ صلوات وذبائح وتقادم في مواعيد قد تكون قريبة أو
بعيدة يقدمها كهنة أو قضاة من مراتب مختلفة ؛ أعياد خاصة ترافقها احتفالات ومباريات
تختلف نوعاً وفخضة باختلاف الأمكنة .

ان تنوع الاشكال هذا له ما يبرره تنوع المؤمنين والحرية التي تطلقها الحكومة في مبادعات لا
يمكن ان تقع منها موقع الاستقباح . ويعلن بعض الأفراد وبعض الجماعات المحدودة العدد عن
تقوam بتقادم متواضعة . وتتشى المدن عبادات بلدية - وهى أكثر اشكال العبادة رواجاً --
بأقرار مراسيم أبعد من ان تقتني المراسيم التقليدية ، ولكن ذلك لا يمنع الملوك عن الاسهام في
النفقات بهبات هي في الغالب اوقاف تستخدم إيراداتها لتوفير المزيد من الزهو والعظمة
للاحتفالات . ويقدم الملوك أنفسهم أخيراً على بعض المبادعات ، اما اكراماً لجودهم ، واما
إكراماً لأنبائهم ، او اكراماً لأنفسهم أحياناً . وهم يتصرفون في عملهم هذا تصرف الأفراد ،
والفارق الوحيد هو ان لديهم وسائل دعاوة وعمل لا تتوفر للأفراد . فلهذه النقذ الذي يتداوله
كافة الأيدي والذي ينتقون له على هوام الرمم والخاصيات والنصوص ، ولديهم الأراضي والموارد
لقشيد العابد ومكافأة خدامها وإقامة الاعياد . ولديهم « الاصدقاء » والموظفون الذين لا
يوضون إلا بالاشراك بحماس في نفع العبادات ، ولو كانت عبادات خاصة مبدئياً .

عند هذا الحد وقفت سلالة الاطالين ، وقد برهنت على كل حال عن ترزّن نادر في هذا
الجال انه انها ، من جهة ثانية ، لم تؤله سوى الملوك المائى ولم تسمح بتأليه غيرهم . ولكن بعض :

الملكيات الاخرى قد ذهبت الى ابعد من ذلك لا سيما وانه ليس هنالك من حد طبيعي بين الملك في حياته الخاصة والملك في حياته العامة ، لا ولا بين أملاك الملوك والمملكة . فقد أضيف في مصر الى عبادة الملك كفرعون التي استمر البلديون في ممارستها ، وفاقاً لطقوسهم التقليدية ، عبادات يونانية فرضت على جميع السكان وسهرت الادارة على الاحتفال بها باللغة اليونانية ووفقاً للطقوس اليونانية : عبادة بطليموس الاول وعبادات سلسلة الأزواج الملكيين الموتى واخيراً عبادة الزوج الملكي الذي على قيد الحياة اي الاخ والاخت المتحدان بالزواج والمشاركين في السلطة . اما في اوج سلالة السلوقيين ، في اواخر القرن الثالث ، فاننا نعرف ، بأقل تفصيل ودون جزم في استمرارها اللاحق ، عبادة الحدود وعبادة الملك الحي وعبادة الملكة التي تنظمها الدولة معينة في كل مرزبانية رئيس كهنة ورئيسة كهنات . وهكذا فان اللاجيين والسلوقيين ، على الأقل ، قد اضافوا ، الى عبادات متنوعة جداً ، عبادة رسمية متشابهة الشكل ، شاملة ارض المملكة بأكملها ، موزعة على مقاطعات هي المقاطعات الادارية نفسها ، يخدمها كهنوت قد يشرف رؤساؤه على الكهنة المحليين والعبادات المحلية ، وتستلزم موجبات تفرض على عموم الرعايا . وان هذه المرحلة لنتيجة منطقية للنظام السائد ، اذ ان موالاة السلالة تستتبع في النهاية التعبد للمالك سعياداً .

لفت بعض المعاصرين النظر الى انه ربما كان هنالك ، في بعض مظاهر التقوى العبادية السلافية :
نحو الملك ، شعور ، برز بقوة عظيمة عند نشأة شعوب كثيرة ، ثم استمر مغزاه وأهميته
أر عاد الى الظهور ، في أن حيوية الملك ضماناً للخصب العام ، وبالتالي لرخاء مملكته وسكانها . وهذا أمر ممكن اذ ان الفكرة تتراعى فعلاً في بعض الصيغ النادرة على كل حال . ولكن صدق هذه الصيغ موضوع شكوك مشروعة : فكيف السبيل الى اكتشاف المشاعر الصادقة حقاً في سير ادارة يرضى عنها الولاة حتى ولو لم يستخدموا سلطتهم لفرض الاشتراك فيها ؟ أضف الى ذلك ان ما يعوزنا بنوع خاص هو الصلة الضرورية بين هذه الفكرة والتأليه . فقد كان يكفي الملك ، حتى يكون ضماناً ورمزاً ، ان يكون وسيطاً دونما حاجة لأن يصبح إلهاً : ولنا في أكثر من بلاد من بلدان الشرق القديم مصداق على ذلك .

في الحقيقة ، تعبر العبادة السلافية نظرياً عن عواطف المؤمنين لا من حيث هم رعايا بل من حيث هم بشر . وتشمل هذه العواطف الاعجاب المبهوت أمام هذا القدر من العبقرية ، وهذا القدر من السلطة في جميع الحقول ، وهذا القدر من السعادة ، وهذا القدر من الانعامات يهبها الآلهة بشرياً سفير العناية الالهية ، وعرفان الجليل للخدمات المؤداة ، والأمل الوطيد بإحسانات مقبلة أعظم شأنها أيضاً : وبكلمة موجزة تشتمل مثالية الفاسيلفس نفسها كما وردت في اللغسة الرسمية بتسميات « المخلص » والمحسن التي ترتدي قيمة عبادية في الدرجة الأولى . وهنالك لقب أقوى ايحاء : فن حيث الملك هو الـ « ابيفانيس » أيضاً ، فانه إله « يتجلى » .

ومن ناحية نظرية أيضاً ، يبقى انشاء أكثر هذه العبادات واسهام المؤمنين فيها أعمالاً حرة

وبديهيّة : فالعواطف التي سبق تحديدها ليست من تلك التي تستطيع سلطة سياسية ان تفرضها . وكانت هذه القاعدة مطردة باستثناء حالتين : حالة العبيد الملكيين المرغين بالضرورة على ممارسة عبادات سيدهم الخاصة ، مع اننا نجعل ما اذا كانت سلطة هذا السيد قد امتدت اذ ذاك الى فدائي الأراضي الملكية ؛ وحالة العبادات الرسمية ، مع اننا لا نعلم شيئاً عن مدى موجباتها حيال الرعايا : فواقع الموجبات المالية نفسه لم نتحقق منه الا في مصر فقط . وان فكرة العبادة السلالية ، في الحقيقة ، تذكرنا بالعبادات البلدية العديدة التي ليس من ريب في ان انشاءها يعود الى قرار السلطات في كل مدينة ، كما يتضح ذلك من تنوع اشكالها ومن اختلاف تواريخ انشاءها .

حريّ بنا ، بموازاة الناحية النظرية ، ان لا نهمل وضوح الناحية العملية ، فها لا ريب فيه ان بداية عواطف المؤمنين ، الراغبين في الاعراب عن تملقهم أو الخاضعين لضغط ليس . ضغطاً معنوياً فقط ، لم تكن في أكثر الأحيان سوى ظاهر بداهة فحسب . ويجوز القول نفسه عن بداية عواطف المدن التي تنشأ أبداً الانعامات الملكية والتي تدرك ادراكاً مسبقاً أحياناً انعامات المراجع العليا . وهكذا فان العبادة السلالية تعبر عملياً عن عواطف كثيرة المفارقات يتعذر علينا ان نميز بين نصيب الصدق ونصيب التملق فيها ، لا سيما وليس أمامنا سوى المستندات الرسمية التي انتقلت اليها عن طريق الكتابات .

فمن حيث ان العبادة السلالية تحمل ، بمثل هذه القوة ، طابع المثل السياسية والواقع السياسي ، فهل هي تعبر عن عاطفة دينية حقيقية يا ترى ؟ قد يكون من الحكمة ان لا تنفي ذلك نفياً باتاً . وسنعود الى هذا الموضوع في سياق البحث . ولكن الشيء الثابت هو أن الاحتفال بالعبادة قد اقتصر في أغلب الأحيان على القيام بطقوس اصطلاحية لا تتعدى قيمتها قيمة الحركات الرمزية . ولعله يحذر بنا ان نفسر بذلك كيف ان اتساع العبادة السلالية ، وحتى تعميمها كعبادة رسمية ، لم يصادفها مقاومة ، على ما نعلم . فان الوثنية ، التي لم تُقَمِّ حدوداً واضحة المعالم بين ما هو بشري وما يفوق قوة البشر وما هو إلهي ، قد أوجدت ، بهذا الصدد ، حقلاً مؤاتياً جداً . أجل كان هنالك شعب يؤمن بالله واحد ، هو الشعب اليهودي . ولكن السلطة قد سلكت حياله سلوكاً حكيماً ، وان هو اثار على الملكية السلوقية بعد السنة ١٦٦ ، فالعبادة الملكية أبعد من أن تكون السبب الرئيسي للثورة ، لأنها لم تدخل أورشليم الا بمظاهر عيد مناسبة ذكرى جلوس الملك ، وليس لهذه المظاهر ، بالضرورة ، أي مغزى ديني . أما في المناطق الأخرى فلم تقم أية صعوبة بروجه السلطة على الرغم من أنها كانت حرة طليقة في تصرفاتها .

اضف الى ذلك ان تأدية العبادة ، سواء كانت بديهيّة او موصى بها او مفروضة فرضاً ، لم يكن لها ، في ما يظهر ، فعالية سياسية . ولا يعجب من ذلك إلا من ينسى ان الاغريق قد جعلوا ابداً النظام الثيوقراطي وإن آلهة مدنهم لم يتدخلوا قط في شؤون مدنهم وان اعظم هاتفي

الغيب شهرة قد اخفقوا على العموم عندما خرجوا عن تحفظهم المتعذر . ولعله من المرجح ان الملوك ، بقبولهم تعظيم هؤلاء الهاتفين او بلجوئهم اليه قد استهدفوا اعلاء شأن نفوذهم الشخصي واثبات تعلق مؤمنين بهم . ولكن هذه الطريقة قد بقيت دون جدوى لأنها طبقت على جميع الملوك دون استثناء فقدت بالتالي قوتها . فالقرارات الشرعية والمظاهر المؤثرة ، مهما بلغ من امرها ، لم تحدد احداً . ولم تحل دون اقدام المؤمنين على العصيان والثورة عندما تتعرض مصالحهم للضرر او عندما تعطيهم الظروف الراضية بعض الامل بالنجاح . ومن الامور الثابتة ان كمال تنظيم العبادة هنا او هناك لم ينجح في تأخير المخطاط أية ملكية من الملكيات .

الخلاصة

ان قدرة الاغريق على الابتكار السياسي لم تنطو اذن ، في العهد الهلنستي ، على أي دليل من أدلة النهضة ، فهم قد حاولوا انقاذ المثال الجمهوري بتنظيم الاتحادات وتوسيعها . ولكنهم ابتكروا ، مع الملكية ، أشياء جديدة تنطبق على الظروف التي نشأت عن الفتوحات .

ألفت الملكية ، اقله في الشرق ، بين مثالية الانسان المتفوق وبين النظرية القانونية للشرعية أي نظرية الحق السلافي في التملك . وتكون هذه النظرية قاعدة متينة للسلطة المطلقة كحق إلهي وبشري معاً من جهة ، وللخلافة الوراثية التي تحتب الفوضى وتتيح تلافي نتائج الكوارث من جهة أخرى . وانطلاقاً من هذه السلطة تكون جهاز اداري ومالي وعسكري كامل توجته العبادة السلافية بغية ضمان تنفيذ قرارات الملك وجمع القوى المادية والأدبية في أراضيه بين يديه ، وهو جهاز على قليل أو كثير من التعقيد لأنه يأخذ بعين الاعتبار الظروف المحلية ، ولكنه يقرب من الكمال أحياناً . وفي الحقيقة برهنت العبقرية اليونانية ، في الملكيات ، عن امكانات عقلية وتقنية فائقة .

غير ان الملكيات كلها قد أخفقت . وقد بدأ الانحطاط يدب فيها جميعها في أوائل القرن الثاني كأبعد حد ، وبرز مادياً في عجزها عن مقاومة قوة روما . فكان أمر زوالها المبكر منوطاً بروما دون غيرها : ولم تضمن هذه أو تلك من الملكيات بقاء أطول الا بفضل ترددات روما فحسب . ولكن هذا الانحطاط يبرز أيضاً في حقول أخرى من التنظيم الملكي .

يجب الاعتراف هنا بأن الاغريق قد أخذوا على عاتقهم ، بسبب قلة عددهم ، وفي وجه الكتلة البشرية التي كان من الواجب عليهم تحريكها وتطويرها ، مهمة ثقيلة جداً ، لا سيما على الصعيد الاجتماعي .

الفصل الثالث

الاقتصاديات والمجتمعات

لم تكن ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية دون ظروف الحياة السياسية تغييراً ، وانما الجدة الكبرى هنا هي توسيع النطاق الجغرافي المفتوح أمام مشاريع الاغريق والاتصال الذي أقيم ، للمرة الأولى في التاريخ ، وبهذا القدر من التآلف ، بين اقتصاديات ومجتمعات مختلفة في الأصل اختلافاً كلياً . هذه هي النتيجة المباشرة لفتح الامبراطورية الفارسية على يد الاسكندر ، وقد أبقي عليها ، في جوهرها ، طيلة قرون عديدة ، خلفاء الفاتح . وقد شبه بعضهم حملة الاسكندر باكتشاف أمريكا الذي كان منطقاً للأزمة الحديثة . ولكن في هذا التشبيه بعض المغالاة ، لأن الامبراطورية الفارسية لم تكن « أرضاً مجهولة » للاغريق قبل ان يمسوا أسياها . غير أن المقارنة بين الحدين أمر ممكن من حيث اتساع نتائجها وديمومتها في بعض النقاط .

١ - العالمان

فقد أصبح هنالك عالمان متشاركان بفعل تفوق أحدهما العسكري . وقد اختلف اليونان القديمة وضعها وحاجاتها الخاصة اختلافاً شديداً .

في العالم اليوناني القديم ، ظهرت بوادر الهبوط على الحياة الاقتصادية منذ منتصف القرن الرابع ، او اقله لم يعد هناك التثام خالص بين المجتمع وبين التطور الاقتصادي . فقد صعب على صغار الملاكين ، يوماً بعد يوم ، ان يؤمنوا معيشتهم بتعاطيهم شخصياً زراعة أراضيهم الريفية . وغدت المنافسة بين المدن الصناعية أشدَّ عنفاً ، بينما غدت الطلبات الخارجية نادرة ، على اثر ظهور صناعات محلية ، لا سيما صناعة الخزفيات ، في ايطاليا وخليquis وفي روسيا الجنوبية نفسها . وجاءت الحروب الخارجية او الأهلية ، الى جانب ذلك ، تزيد البؤس وتساعد على ازدياد الارتباك : فارتفعت ارتفاعاً تصاعدياً نسبة السكان الاحرار في اليونان القديمة الذين لم يؤمنوا بعد ذلك في وطنهم معيشتهم ومعيشة عائلاتهم ، فأرغموا على المخاطرة بحياتهم في خدمة دول اجنبية

قد تكون أحياناً في عداد اعداء الاغريق . فلم يكن لهذه الازمة من حل سوى عن طريق ثورة اجتماعية او عن طريق العودة الى الاستثمار الذي توقف منذ قرنين . فجاءت السيطرة المقدونية على المدن التي مزقتها المنازعات الداخلية تسدّ المنافذ أمام الثورة الاجتماعية . ولكن حملة الاسكندر فتحت الشرق أمام الهجرة اليونانية .

اختلف هذا الشرق اختلافاً لا حدود له .

الشرق

قامت فيه اراض بالغة الخصب استثمرتها منذ زمن بعيد استثماراً جيداً جماهير مجتهدة نشيطة اعتادت العمل الدليل تنفيذاً لأوامر السيد : هذه الاراضي هي مصر وبلاد بابل ، درة الفتح الفريديان . وقامت فيه مناطق اخرى اقل خصباً لزراعة الحبوب اعتمدت فيها جزئياً زراعة افضل تلاؤماً مع المناخ وضعف الموارد المائية وموجبة شطر زراعة الاشجار المثمرة ، الكرمة وشجرة الزيتون بنوع خاص : كالشواطىء المتوسطة في آسيا الصغرى وسوريا - فينيقيا مثلاً . اما في واحات سوريا وفي بلاد الفرس ومنطقة البختيار التي لا نعرف عنها الشيء الكثير ، فاننا نعتقد على الاقل باستخدام مياه الينابيع والآبار فيها استخداماً دقيقاً لزراعة البقول والخضر . ولكن ما زالت ، بين هذه المناطق الزراعية المتطورة الى حد بعيد ، مساحات شاسعة بقيت الحياة الريفية فيها بدائية جداً غير مختلفة احياناً عن المظاهر الراعية والبدوية .

ونشاهد التناقض نفسه بصدد الإنتاج الصناعي . فكانت هنالك يد عاملة واسعة الاختبار لديها تقنيات ابعد تقدماً احياناً من تقنيات الاغريق تعمل في حوانيت المدن وحتى في المصانع المحيطة بالمعابد حيث الاشغال خدمية بنوع خاص . ولكن القسم الاكبر من الامبراطورية الفارسية ما زال في مرحلة العمل غير المثقن بغيره سدّ حاجات العائلة أو القرية .

وتوفرت للتجارة بعض الطرقات لسير القوافل والوحدة اللغوية التي تحققت في هذا الحقل كما في الادارة لمصلحة اللغة الآرامية . ومن الثابت ان التجارة قد اقتصفت ، هنا او هناك ، ببعض النشاط ، لا سيما في جوار البحر المتوسط ، على الرغم من ان المرافىء اليونانية في آسيا الصغرى والمرافىء الفينيقية قد فقدت الكثير من ازدهارها الماضي . ولكن مناطق واسعة لم تزال تعتمد في معيشتها اقتصاداً شبه مغلق ، منكشحة على نفسها ، جاهلة النقد تقريباً . وكانت المعادن الثمينة متوفرة في كل مكان ، باستثناء الفضة في مصر . وقد ضرب الملك والمرابزة الفرس نقوداً ، وبعض المدن التجارية ايضاً ، ولكن بكميات غير كافية . وكثيراً ما لجأوا الى تخزين المعادن الثمينة بشكل سبائك في حصون العواصم وبشكل مصوغات في القصور ومساكن الاثرياء والمعابد التي 'سقف بعضها' بقراميد من الفضة والذهب . وعلى الرغم من النقود اليونانية ، لا سيما الالينية منها ، التي انتشرت في بعض الاحيان بعيداً في الداخل ، كان الاقتصاد النقدي ابعد من ان يحوز الانتصار في كل مكان ويبرز اثره في إلغاء اشكال تبادل غير المقايضة الأولية .

ويمكن القول نفسه عن التفاوت الاجتماعي في البلدان التي احتلها الاسكندر . فكانت آسيا

الصفري الغربية وسوريا وفينيقيا ومصر وبلاد بابل مناطق عرفت فيها الحياة الحضرية ، وهي على العموم قديمة جداً ، نهضة لامة احياناً . غير ان هذه الحياة كانت في هبوط في كل مكان تقريباً . اصف الى ذلك انها لم تبد في كل مكان بظورها في اليونان . فالطبقة الكهنوتية قد لعبت فيها دوراً اعظم اهمية ولم تسيطر عليها قط فكرة وحدة المصالح بين المواطنين المتساوين حتى ولا مجرد فكرة المواطن . وقد خضع القسم الاكبر من الامبراطورية الفارسية خصوصاً لنظام اجتماعي آخر . فالتناس توزعوا فيها اجهزة ثيوقراطية مرتبطة بالمعابد ابي بكهنتهم وحتى برؤساء كهنتهم ، او قبائل تخضع لرئاسات شبه اقطاعية تشمل ذوي الاخاذات والزعماء وتنتهي عند القمة بشخص الملك . وارتدت الفدادية اشكالاً مختلفة ، حتى العبودية احياناً في جوار المعابد ، وكانت عملياً نظاماً للكتل عمالية كثيرة ، كما كانت ، في كل مكان تقريباً ، نظاماً للفلاحين الملحقين بالاراضي التي يستثمرونها بمراقبة الرءاء . وقد شبه اغريق القرن الرابع « البرابرة » بفدادي مدينة سبارطة ، وهم لم يأتوا بهذا التشبيه عملاً اعتبارياً .

كان العالمان مختلفين إذن . فهل كانا متكاملين يا ترى ؟ يمكننا اثبات ذلك شركة ام استنار ؟

لحاجات الاغريق . فان اراضي واسعة الارحاء قد توفرت لنشاطهم وهجرتهم واستعمارهم وتقنياتهم الزراعية والتجارية والهندسية والادارية . وكانت اليونان بحاجة الى الشرق لتأمين بقائها بكل ما في كلمة « الحاجة » من معنى مادي . ومها كان من قلة عدد مرشديها الذين وعوا ذلك ، فانها قد شعرت شعوراً غامضاً بهذه الضرورة وانتهزت الفرصة السانحة . فالتقوى عن الشرق اذن ؟ انه لذن قابل للمعالجة غني بإمكانات التطور . يقدم اراضيه وموارده الطبيعية ، وهو بحاجة لمرشدين كي يحسن استثمارها واستخدامها . ويقدم طاقاته البشرية ايضاً . ولكن الخيار الذي سيتوقف عليه المستقبل يجب ان يتم عند نقطة الانطلاق . باستطاعة الاسياد الجدد ان يسيروا بهذه الطاقات البشرية شطر تطور مائل لذاك الذي سبق لجودهم اليونانيين ان قطعوا مراحل ، بغية اشراكها في الانتفاع بالخيرات المادية التي سيكتفها المجهود المشترك . وباستطاعتهم ، على نقبض ذلك ، ان يحاولوا حصر البلبلة الاجتماعية بالاحتفاظ لانفسهم بفوائد استثمار اقتصادي اقل شمولاً لانه يرتكز الى عمل يد عاملة متدنية ، ولكنه يكفي لسد حاجاتهم الحالية الملحة .

ان التجربة الهلنسية ، التي كان من شأنها ان تؤدي الى نتائج تفوق اهميتها كل تصور ، قد اضرارها تردد الاغريق أو أنانيتهم . فبمقدار رؤيتهم للحلين واختيارهم بينها اختياراً واعياً - ولم يحدث ذلك باستمرار - قد اختاروا بالتفضيل الحل الثاني الذي كان يجد من نشاطهم . ولا ريب في ان الاسكندر كان اثر الحل الأول ، كما يبدو ذلك من العيول التي ينم عنها سلوكه الشخصي وأعماله السياسية حيال البلبيين . ولكن العدد الأكبر من مرافقيه لم يخفوا استنكارهم ، فكان الاممال ، بمد وفاته ، نصيب محاولاته الامتراجية . ولم تعد هذه المحاولات الى الظهور الا في عهد متأخر ، تحت ضغط الظروف ، ودون هدف معين اجبالاً ، ولكنها لم تجر ، على كل

حال ، على النطاق الواسع الذي كان من الواجب ان يفرضه عدم توازن الظروف الجغرافية والبشرية . وهكذا فان الاغريق قد ألزموا أنفسهم بعمل يتجاوز حدود طاقتهم ، لأنهم آثروا ، اعتداداً بتفوقهم ، الاستثمار على الشراكة .

٢ - الاقتصاد والمجتمع في اليونان القديمة

لم تكن اليونان القديمة فائدة طويلة الأمد من استثمار الشرق هذا .

١ - التطور الاقتصادي

انصهرت اليونان منذئذ في وحدة اقتصادية أعظم اتساعاً ، الى حد بعيد ، منها في السابق . وحدت المسافات وصعوبات النقل البري من مدى هذه الوحدة نحو الشرق . ولكن هذه الوحدة تضم مع ذلك ، بأقل تقدير ، المتوسط الشرقي بكليته - مع بعض التمديدات نحو صقليا وقرطاج ، وحتى نوميديا ماسينيسا - حيث تسهل المواصلات البحرية وحيث نستطيع التأكد من مطابقة التطور في الأسعار . فالعالم اليوناني القديم يتأثر اذن بنافسة بلدان ان لم تكن « جديدة » فان الطبيعة كانت لها أكثر سخاء على الأقل وتوفرت لها ، على كل حال ، يد عاملة ألقت مستوى حياتها متديناً .

وثب الاقتصاد اليوناني في البداية وثبة قوية . فالحرب نفسها التي ترفقت بالبعوضة الأولى نسبياً آنذاك باليونان وعانت فساداً في البلدان الأخرى ، وحاجات الجيوش المتنقلة ، التي تستهلك كثيراً ، والاضطراب وحتى الشلل التام أحياناً اللذان يصاب بهما الانتاج وتيارات المبادلات العادية ، كل ذلك ساعد على عودة الازدهار الى حين . وارتفعت أسعار كافة الحاصلات الزراعية والصناعية بسبب تضاؤل العرض وازدياد الطلب ونمو التداول النقدي بفضل ضرب المعادن الثمينة التي كانت تكتنز في الشرق قبل ذاك العهد . أجل طرأت على الأسعار تقلبات كبيرة ومفاجئة . فكان لنشاط بعض المضاربين أثره أحياناً : من ذلك أن مرزبان مصر كليومينوس قد احتكر في أيام الاسكندر القمح المصري المعد للتصدير فأسهم بذلك في رفع أسعاره في جميع حوض بحر ايجة بغية تحقيق أرباح طائلة . ولكن هذه المضاربات لم تكن سوى ظروف عارضة أظهرت اتجاهاً عاماً نحو رفع الأسعار . ومن حيث أن اليونان تستورد القمح ، فانها قد تضررت من هذا القبيل وشكت من القحط . ولكن ذلك ليس بالنسبة اليها سوى الوجه الثاني المحتمل لوضع جزيل النفع على العموم . فهي تجدد وتنتج لمستهلكين أوفر عدداً لا يعوزهم المال . أضف الى ذلك ان مبيعاتها وعدة الجنود والمهاجرين اليها تنقل اليها قسماً من ثروات الشرق ، فتحصل من ثم على رؤوس أموال يساعد توفرها على انهاء حركة الانتاج .

لذلك عرفت عهداً من البهجة ، ولكن هذا العهد لا يدوم علياً الى ما بعد السنة ٢٨٠ ، أي الى ما بعد استقرار العالم الهليني . فحوالي هذا التاريخ قام توازن اقتصادي جديد وطابق الانتاج الحاجات وانتظمت التيارات التجارية . وان اليونان القديمة ، التي لم تضمحل الحروب فيها بل تعددت وغدت أشد قوة ، لم تستمر بعدئذ المستفيدة الأولى ، عن طريق الرجال الذين غادروها ، من العالم الشرقي الذي فتحه الاسكندر أمام مشاريعها .

منذ السنة ٢٨٠ تقريباً تدنت الأسعار ، وقد دام هذا التدني حوالي ثلاثين سنة ، أقله للمنتوجات الزراعية التي ترتدي وحدها صفة الديمومة بطبيعتها ونوعها ، والتي يمكن بالتالي مقارنة أسعارها . وبعد منتصف القرن الثالث ارتفعت بعض الأسعار مرة أخرى . ولكن القسم الأكبر منها لم يطرأ عليه أي تغيير وبقي متدياً . غير أن اليونان ، في كلا الحالين ، لم تستفد قط .

مزاحة الزراعة والصناعة
فالحبوب هي المنتج الرئيسي الذي لم تبق أسعاره في المستوى المتدني الذي بلغته حينئذ من الزمن ، وهي بالضبط ما تفتقر اليه اليونان . وليس لدى الريفيين منها سوى كميات فائضة قليلة للبيع . لذلك فان ارتفاع الأسعار لم يؤمن لهم الثروة بينما هو أضر بسكان المدن . فبرزت مشكلة التموين في مدن عديدة بشكل مستعص حاد . فاسند أمر حلها أو بالأحرى تخفيفها الى بعض القضاة وأثرياء المواطنين الذين تعهدوا ادارة أموال خاصة كثيراً ما تغذيها الاكتتابات وسعوا وراء زيادة الاستيراد وتنظيمه محاولين تأمين المواد الضرورية للأسواق وبيعها بأسعار معقولة للقراء . وقد لجأ بعض الملوك الراغبين في اجتذاب احدى المدن اليهم الى اهدائها شحنات من الحبوب أو الى توفيرها لها بأثمان منخفضة ، لأن السخاء سلاح من اسلحة دبلوماسية . ولكن مها كان من أرباب رجال الدولة اليونانيين ، فانه لم تقض على المشكلة التي تصبح مقضة عند اقل تغير مناخي أو اقل حدث عسكري . وقد اشكى سكان مدن عديدة من غلاء الغذاء الرئيسي ومن الفاقة احياناً . وقد جاء على لسان احد اهزليين في اواخر القرن الرابع قوله ان الناس الجائعين في اثينا يتفدون املاً وهواء عليلاً .

مقابل هذا القحط في انتاج القمح ، اثبتت تربة اليونان جودتها لزراعة الاشجار المثمرة ، واهمها آتند ، كما في السابق ، الكرمه وشجرة الزيتون . ولكن الزيت لم يرتفع سعره عملياً بعد السنة ٢٥٠ ، وإذا ما بدا بعض الارتفاع في سعر النبيذ ، وهو ارتفاع معتدل على كل حال ، فهو لم يتناول نبيذاً تلتجيه اليونان القديمة . ومرد ذلك الى ان زراعة هذه الشجيرات او النباتات الزيتية السنوية ، كالسمسم مثلاً ، قد نمت نمواً كبيراً ايضاً واتقنت في البلدان الشرقية . وثبتت النصوص النادرة التي لدينا ميزات طرائق الاستثمار الريفي المعتمدة في اليونان الاوربية او في الجزر . بيد ان ذلك لا يعني ان طبقة صغار الملاكين لا تتعنى ، ولا يوفر لها دخلاً كافياً من اراضيها ،

ولا يحول دون اضطرابها للاستفادة ورهن ممتلكاتها ، أي ان الاثرياء بكلمة موجزة ، قد استطاعوا على حسابها توسيع اراضيهم . فتحسين التقنيات واللجوء المتزايد الى استخدام العلف الاصطناعي خلال سني استراحة الارض وتقدم تربية المواشي التي توفر مزيداً من اللحوم والاسعدة في آن واحد ، كل ذلك عاد امره للعلاكين الميسورين المستثمرين ذوي رؤوس الاموال . اما الباقون فقد نهكوا انفسهم في الاحتذاء بهم .

ولم تكن الصناعة اوسع ازدهاراً .

فالاعتقادات القديمة لا تزال مهيمنة والطبقات الاجتماعية العليا لا تزال قليلة الاكثراث بها . غير ان هنالك ظروفاً كثيرة مؤاتية لها . فرووس الاموال متوفرة . والشرق يجاهره الغفيرة ، مها كان من قديمي مستواها الحياتي ، سوق تجارية لا تحم حاجاتها . ويكفي لتأمين هذه الحاجات بأسعار تستحيل معها المنافسة ان تحسن وتستخدم ، بشكل آلات ، التطبيقات العملية التي توصل العلم اليها حينذاك . ولكن الاغريق لم يسلكوا هذا السبيل . فبقيت الصناعة صناعة يدوية : لا بل اننا لا نعرف ، في بلاد اليونان آنذاك ، مصانع يدوية يبلغ عمالها المائة والعشرون كما سبق ورأينا في معمل والد ليزياس .

ليس عجباً من ثم ان تتحمل الصناعة اليونانية ، شأن الزراعة ، بصعوبة ، منافسة الشرق . فقد توصل الشرق الى ان يكفي نفسه بزيادة وتحسين انتاجه الخاص . فأقفلت السوق التي بدا وكأنه فتحها . لا بل انه توفق الى ان يصدر الى اليونان بعض مصنوعات الفخفخة التي توفرت له خاماتها او حصل عليها بسهولة . فاستحال الصراع ، او بالآخرى مجرد البقاء ، ما لم يسلم الاغريق ببعض التضحيات في الارباح المعتبرة مشروعة حتى ذاك العهد ، أي ان حالة الصناعة او العامل الجرد قد تدنت وكادت لا تفضل حالة العامل العبد .

أما التجارة فما من ريب في انها تمت نمواً عظيماً اذا ما نظرنا الى مجموع المتوسط تطور التجارة الشرقي الذي يجتازه مبادلات لم يعرف لها من قبل مثيلاً ، من حيث النشاط واللاتساع . ومن نافل القول ان هذه المبادلات لم تجر كلها خارج شبه الجزيرة اليونانية .

نلاحظ بالفعل ، في اليونان ، فقدان مركزية التجارة البحرية التي نزع مرفأ البيرة من قبل الى اجتذابها اليه . فقد دبت الحياة في مرفأ صغيرة عديدة اقتصر نشاطها في السابق على المساحة المحلية فنجحت في إقامة العلاقات المباشرة مع البلدان النائية . غير ان تجارة اليونان قد هبطت من حيث قيمتها المطلقة وقيمتها النسبية . وبعدت عنها الطرق الرئيسية للتجارة البحرية . فاحترفت نحو الجنوب بسبب الأهمية الاقتصادية التي أحرزتها مصر ، وازداد عددها بفضل بروز نشاط المدن اليونانية في آسيا الصغرى ، ولم تتجه بعد ذلك نحو ما كان ، بمغالطة جغرافية ، بمثابة القلب لبحر إيجه ، فتلاقت منذئذ ، بشكل أقرب الى المنطق ، في جزر السيكلاد نفسها .

كان من شأن فقدان المركزية وانحراف الطرق ان سبباً ، مجتمعين ، تأخر اثنيلاً . وهذا

التأخر واقع لا ريب فيه . فقد أتى مسافر تجول في أنحاء اليونان الوسطى في القرن الثالث على ذكر بعض المرافئ الصغيرة دون أن يخص مرفأ البيره بكلمة واحدة وأشار الى وجود أجانب كثيرين في اثينا ولكنهم من السائحين والطلبة . أجل بدت الحركة المرفئية والتجارية وكأنها تتجدد في القرن اللاحق . فعاد الازدهار الى اثينا كما يتضح ذلك من ضرب النقود الوفيرة التي اشتهرت « بالطراز الجديد » لأن رسم « اثينا » فيها قد فقد طابعه التقليدي القديم . وصدر مرسوم عن الجمعية المدفعية يقضي بأن تقبل ، في كل مكان ودون مضاربة ، النقود الأثينية من قطع الدراهم الاولى . ولكن هذه النهضة في مدينة كانت العاصمة الاقتصادية للعالم اليوناني الكلاسيكي قد بقيت محدودة : فالنقود الأثينية التي انتشرت في الشرق انتشراً واسعاً في عهد الاسكندر لم تشاهد فيه عملياً بعد ذلك .

وحلت مرافئ أخرى آنذاك محل مرفأ البيره .

فهناك أولاً رودس ذات الموقع الممتاز ، جنوبي البحر الايحي ، على طريق ، هي محور حوض المتوسط الشرقي ، تبدأ من البحر الأسود شمالاً وتنتهي الى سوريا ومصر جنوباً . وقد اتضحت اهميتها منذ اواخر القرن الرابع بعد ان كانت وضعية في اول امرها . فصدّرت الزيت والتبذ في القوارير الرودية التي اكتشفت حتى في نجد ايران وفي قرطاج . وجُمعت في مستودعاتها بنوع خاص منتجات كافة أنحاء العالم المتوسطي التي تولت هي توزيعها . فأناحت لها الأرباح التي جنتها الدولة والأفراد ، على غرار اثينا في القرنين الخامس والرابع ، ان تشيد الأبلية الفخيمة — ومنها « الجبار » الشهير الذي هو تمثال لإله المدينة « هليوس » اي الشمس — وتتعهد اسطولاً حربياً يحسب له اعظم الملوك حساباً ، وتقرض سيطرتها على بعض الرعايا في المناطق الآسيوية المجاورة لجزيرتها ، وتبسط نفوذها على مدن كاريا وايونيا .

وبعد رودس بزم ، تأتي ديلوس في المرتبة الأولى . فديلوس هذه جزيرة صغيرة تعجز عن التوصل بنفسها الى القوة المادية . ولكنها جزيرة قائمة في قلب ارخبيل السيكلاد ، وخصوصاً جزيرة مقدسة ساد الاعتقاد بأن البضائع ورؤوس الأموال تكون فيها بأمان من اعمال القرصنة والحرب . خضعت فيما مضى الى حماية اثينا ثم حصلت على الاستقلال بانعام من احد القواد في اواخر القرن الرابع ، ثم عادت الى الخطيرة الأثينية في السنة ١٦٧ بانعام من روما ، فغدت اذ ذاك ، بنوع خاص ، مركزاً تجارياً هاماً لأن روما جعلت منها في الوقت نفسه مرفأً حرّاً . منذ ذاك التاريخ توافد اليها التجار من كل البلدان ، لاسيما الآسيويون والمصريون والايطاليون . وقد اعتمدها الايطاليون الأقوياء سوقاً رئيسية لهم في الشرق . وهم لم يبيعوا فيها بضائع كثيرة ولكنهم وظفوا رؤوس اموالهم واشتروا فيها المواد والمصنوعات التي كانوا يصدرونها الى الغرب . وكانت ديلوس ، على الاخص ، سوقاً كبيرة للرق ، قد يباع فيها ١٠.٠٠٠ عبد في اليوم كما ثبت ذلك سترابون ؟ وقد اجمر منها ، نحو مصائر جديدة وبأسه ، عدد كبير جداً من العبيد

اليونانيين - اسرى الحروب واسرى القراصنة - والشرقيين الذين كونوا جماهير الفدائيين في صقليا وإيطاليا .

يتضح من ذلك ان النشاط التجاري المستمر او المستعاد في اليونان البلقانية والبحرية تزداد سيطرة روما عليه يوماً بعد يوم . ومرد بقطة ازدهار اثينا في القرن الثاني الى رضى روما بنوع خاص التي لم تكن لتخشى بعد مدينة عديدة القوة تعيد لها ديولس فتجعل هي منها قاعدة لعملياتها المالية في الشرق . وانما جرى كل ذلك ضد رودس التي ارادت روما الاقتصاد منها لأنها لم تثق بأمانتها السياسية . وقد حاول موفد رودس ، بعد انشاء مرفأ رودس الحر بمن قليل ، ان يثير الشفقة في المجلس الروماني باعلانه ان دخل الجمارك السنوي قد هبط من مليون درهم الى ١٥٠.٠٠٠ . اجل ليس من ريب في ان هذه الارقام مغالى فيها . ولكن مهما يكن من الامر ، فان تفقر رودس قد سار سيراً مطرداً . وقد انتهى نشاط روما الى النتيجة نفسها في كل مكان آخر ، وفقاً لكيفيات مختلفة وفي تواريخ على كثير او قليل من الوضوح وبصورة مباشرة او غير مباشرة . فان كورنثوس ، التي يبدو انها حافظت على نشاطها حتى ذاك التاريخ ، قد نهبا ودمرها الجيش الروماني المنتصر ، في السنة ١٤٦ ، ولن تستيقظ قبل قيصر . وفي اوائل القرن الاول ، دمرت ديولس واثينا ايضاً : الاولى تدميراً كاملاً لن تنهض بعده ، على يد انصار ميثريدات الذين أرووا فيها غليل حقد على الرومان ؛ والثانية تديماً جزئياً بسيطاً على يد سيللا الذي عاقبها بذلك على مناصرتها ملك البونت .

أكمل التطور الاقتصادي دورته حينذاك : فلم تبع اليونان القديمة الى الاجانب سوى دروس أساتذتها في الفلسفة والبيان والروائع الاصلية لغنها السالف أو نسخاً عنها ؛ وليست اثينا ورودس بعد ذلك سوى مدن جامعات ومتاحف ؛ والتجرت الاسكندرية والمرافئ الآسيوية مباشرة مع روما .

٢ - الطبقات الاجتماعية

كان لهذه الظروف الاقتصادية ، بالضرورة ، ردة فعل على المجتمع اليوناني .
طبقة ذوي اليسار
في المدن اليونانية
ففي كل مكان تقريباً بدا ذوو اليسار باعداد اكبر منها في العهد السابق .
وقد شدد المؤرخ الكبير ميخائيل روستوفتزييف (Rostovtzeff) ، بحق ، على غوما أسماء بكلمة « بورجوازية » الفرنسية . وان هذا التعبير لأفضل في الحقيقة من « الطبقة الوسطى » لأن تركيبها الاشتقاقي يلفت النظر ، على الأقل ، الى الصبغة المدنية و « المتمدنة » بجميع ما لهذه الكلمة من معان - التي يصطبغ بها اولئك الذين تعنيهم . وسنشهد هذه البورجوازية في مدن الملكيات الشرقية حيث يؤلف وجودها وتحقيقاتها وقائع قد تكون أبعد تأثيراً . ولكنها تبرز وتنمو ايضاً في المدن اليونانية القديمة .

يجب ان لا نتكلم بصدها عن الثروات الكبيرة . فلم تتكون اذ ذاك ، كما لم تتكون من قبل ،

روايات طائفة ، و « الباب » المتمولون موجودون في غير مكان ، أي في الشرق . وقد أوضح « بوليب » ان اعظم اغريق اليونان ثروة ، في اوائل القرن الثاني بملك ٢٠٠ مثقال (١٢٠٠٠٠٠ فرنك في السنة ١٩١٤) اي بالضبط ما ملكه كاليباس اغني أثيني في القرن الخامس . وتتميز هذه الطبقة بيسار كريم يسمح للشخص بان يعيش وتعيش معه عائلته ، وفاقاً لقواعد الاعتدال ، دون قفخفة صاخبة ، ودون اهتمام كبير للأعمال ، مع بعض العبيد البيتين الذين يؤمنون أعمال المنزل .

فما هو في الأصل مصدر هذا اليسار يا ترى ؟ لا نعلم ذلك بيزيد من التفاصيل ، وليس باستطاعتنا سوى الاعتقاد بكاسب تجارية ، وبنشاط مثمر ، عام أو خاص ، في الشرق أحياناً . فقد خلقت مهزلة ذاك العهد مثلاً جعلته موضوع تهكم هو مثال المتظاهر بالشجاعة أو بالأحرى قائد الجنود المأجورين الذي يتباهى برباحه الضخمة في خدمة الملوك : انه انتقام البورجوازيين ، البشري ، من ضباط ضاحين متمجرفين يخدمون في الحامية الملكية المقيمة في حصن المدينة . ولكن هذا الانتقام يحمل على الظن أنه اذا كان لأحدهم جد من أمثال « بيرغوبولينقوس » ، « المنتصر على مدينة محصنة » ، فانه يهمله ولا يأتي على ذكره . ولا يشار كذلك الى جد طيب أو محام أو استاذ ، ويغلب على الاعتقاد ان هذه المهن الحرة ، مع انها اسمى اعتباراً من ذي قبل ، لا تؤمن ، إلا بصورة استثنائية ، ثروة كافية للسوء بالعائلة الى المجتمع الراقي . غير انه من الواضح ان الازدهار الاقتصادي في اوائل العهد ، ودخول رؤوس الاموال الشرقية المستلبة أو المضروبة الى اليونان ، والخدمة في الادارات والجيش الملكية ، كانت الاسباب الرئيسية لنمو البورجوازية اليونانية . وحين نصبت موارد الاثراء ، كان المهم الجوهرى قد تحقق ، فتمكن الاغريق حينذاك من قصر عملهم على الانتفاع بفائدة أموالهم . وقد تم ذلك بان وظفوا معظم رؤوس أموالهم في المشاريع الزراعية وقسماً ضئيلاً منها فقط في المشاريع التجارية . فعاشت البورجوازية في اغلب الاحيان من المداخل العقارية ، اما بتلزم اراضيها واما باستثمارها مباشرة .

ولم يرتفع قط ، في الحقيقة ، عدد افراد هذه الطبقة المبدورة الذين عاشوا في الريف . فالمدينة هي محل اقامتهم العادي . وهم الذين اداروا في الواقع شؤون المدينة حيث غدا المواطنون الفقراء لا يلعبون سوى دور عرضي . ومرد هذا التطور السيامي الى إلغاء التعويضات في كل مكان حتى في اثينا : فقد امسى مجرد اسمها مجدداً ، او رمزاً ، كما يقول الكاتب « بوليب » في القرن الثاني ، لفوضى الحكم الجائعة . وقد قابل هذا التطور ، بالضرورة ، شيء آخر : فقد توجب على الحكام ان يبرهنوا عن سخائهم ، ويكتبوا للقروض البلدية ، ويقدموا ، على الأقل ، سلفات لمخصصات التموين بالحبوب ، ويتحملوا ، عن طريق الخدمات العامة كما في العهد السابق ، او عن طريق الهبات ، اعباء بعض النفقات الجماعية . ولكن كيف لا نشك شكاً على الأقل ، كما تجبئ لنا ذلك بعض النصوص ، في ان ادارة المدينة ، وخصوصاً ادارة املاكها العقارية ، قد توفر

من الطبيعي والحالة هذه ان يكون هنالك مثال بورجوازي معين وان
يكون له اثره في كل مكان . فالطبقة اليسورة نزعت الى سعة العيش
المدينة والبيت :
وفاخرت بمدينتها في آن واحد .

تبدلت المدن مادياً . فانتشر البناء في كل مكان : الحصون المتقنة والمعابد والمسارح والملاعب
ومحلات الرياضة والاروقة وغيرها . وفي كل مكان ايضاً اعيد الاحتفال بالاعباد القديمة وقررت
اعباد اخرى جديدة : الولائم العمومية ، المباريات ، الالعب ، التمثيليات المسرحية . وعرفت
هذه الاخيرة ، بنوع خاص ، شهرة زرواجاً يفسر ان شمول بناء المسارح وتنظيم فرق من الممثلين
المتهنين والمتنقلين اعني بها الاخويات المنتسبة الى ديونيسوس . وغالباً ما اقتصرت الفكرة
الدينية الاصلية على مجرد حجة . واهتمت المدن اهتماماً كبيراً في الواقع بمنافسة بعضها البعض
ببذخها والألاهي التي ترفه بها عن حياة مواطنيها . فأصبح مثال اثينا القديم مثلاً مشتركاً عاماً .

وهكذا فان الملوك الهلنيين لم تعوزهم الظروف لاطهار سخائم الذي ينطوي في الوقت
نفسه ، من جهة اخرى ، على غاية دبلوماسية وعسكرية . فأسهموا بنفقات كل هذا البذخ .
واسموا بهباتهم المالية او الفنية في تشييد الابنية حتى ولو لم يتولوا وحدهم الاتفاق عليها .
وقدموا الزيت لمحلات الرياضة حيث يستهلكه الفتيان بكيات كبيرة للاعتناء بأجسامهم .
واسسوا اوقافاً تقوية او علمانية خصصت عائداتها لشتى المشاريع . وقد اخذ « بوليب » على
المدن انها امتنعت كرامتها بتأدية واجب الشكر لهم عن طريق المراسيم التقريضية واقامة التماثيل
وحتى التكريم « الألهي » احياناً . وهذا مظهر غير نادر لتجاوب اشرفنا اليه اكثر من مرة ،
بين « الانعامات » و « عرفان الجميل » .

ولكن هذا الاسهام الخارجي ابعد من ان يكفي . فالنفقات الرئيسية مطلوبة من موازات
الجماعات التي تصاب بالارهاق والتي لا تبقى متاعبها دون انعكاس على الشؤون العسكرية
والسياسية . فيتوجب على المواطنين الاغنياء القيام بتضحيات مالية تكافأ ، شأن تضحيات
الملوك ، بالمراسيم التكريمية . وهم يقومون بها بداعي التفاني المخلص والمجد الباطل . وتزايد
الاقواف المختلفة ، عن طريق الرومية او غيرها ، وتستثمر بشتى الطرق في البيع او التلزم او
الاعارة مقابل رهونات او استثمار الدخل من قبل قيمين يعينهم الواهبون او تلتخبهم المدينة .
وهكذا تتكون يوماً بعد يوم انظمة بالغة التعقيد احياناً تتعلق بشتى مظاهر الحياة المحلية ،
وحتى حياتها الاقتصادية ، الريفية والمصرفية بنوع خاص . وفي المدن التي يعطيها احد معابدها
شهرة كبيرة خاصة ، كدلفي ودبلوس ، لا تتوقف اعمال التجميل في الابنية ويزداد عدد الاعباد
ازدياداً مطرداً ، فيؤمن شطار كبير من سكانها ، بفضل تحضير هذه الاعباد وتهافت الحجاج اليها ،
سبل معيشتهم . ولكن كل ذلك ، بطبيعة الحال ، عرضة للزوال السريع لانه تحت رحمة

الحروب والانحطاط الاقتصادي . وقد بدأت الازمة فعلاً منذ اواخر القرن الثاني قبل المسيح ثم اخذت تزداد خطورة حتى تنظم الامبراطورية الرومانية التي ستؤمن البقاء لهذه الحضارة وتنشر مآثها لعدة قرون .

كان المثال البورجوازي اثره الجلي ايضاً على صعيد الحياة الخاصة . فاذا جمّلت المدن ، فان المساكن الخاصة قد جمّلت ايضاً . ولم يكن البنخ رائد البورجوازيين لأنهم افتقروا الى الوسائل المادية الضرورية لتحقيقه . ولكنهم رغبوا ، بصدد رفاهية ولذة حياتهم العائلية ، في جو اوسع رحابة وأوفر هواء وأجل منظرًا . لذلك فقد اتضح آنذاك ، في الاحياء الجديدة اكثر منه في وسط المدن القديمة ، مثال البيت المنظمة اجزائه حول فناء تحف به الاعمدة : وهو مثال اتقن درسه في ديلوس وانتشر في « بومباي » ، اي في اكثر اجزاء ايطاليا انفتاحاً على التأثيرات اليونانية ، واثربعد ذلك في « مقصف » العهد الامبراطوري . وقد ازداد هذا البيت باللوحات الرخامية والرسوم والفسيفساء والتماثيل الصغيرة والتماثيل الكبيرة . وتنوع اثاثه وتحسن نوعاً وشعل الأسرة التي نزل فيها العلاج والمعادن الثمينة ، والمشاجب ، والشمعدانات ، والمصوغات . وكان للأطعمة الفاخرة وبعض خمر الجزر وآسيا فيه تقدير عظيم ، في الولايم التي قضى قانون تقييد النفقات المفرطة ، في اثينا ، بتحديد عدد مدعوها بثلاثين شخصاً .

راقى هذا الاهتمام بالرفاهية اهتمام بالثقافة . وقد تجاهت البورجوازية المثل البورجوازي الاعلى : الهلينية بالثقافة المجردة عن الغاية . وسهرت على تربية اولادها واقدمت راضية على الانفاق عليها . وكثيراً ما اهتمت المدينة بها بغية تنظيمها — وقد ارغمتها على ذلك بعض الاوقاف احياناً — ومراقبتها ، مع انها لم تتول الانفاق عليها الا في حالات نادرة . وقد عين قضاة خصوصيون لهذه الغاية . ومها يكن من الامر ، فان المدارس ، عومية كانت ام خاصة ، قد ارتفع عددها ، كما ارتفع عدد محلات الرياضة وازدادت ، في اعلى الدرجات ، دروس البيان والفلسفة التي ألفاها اساتذة لم يستغرب احد ارتفاع اجورهم . واذا لم يفرض المثال المسلم به تعمقاً في المعارف فانه قد انطوى منذئذ على رشاقة فكرية حقيقية او اقله على رشاقة في التعبير الشفاهي او المكتوب .

وقد حدث تغيير أكثر ظهوراً : لم تعد قريبة البنسات محصورة في الامهات وحدهن في الحرم الذي ليس له أي اتصال بالخارج . فهن على غرار اخوتهن يختلفن الى المدارس وحتى الى محلات الرياضة : ولم يعد مثل سبارطة امرأ شاذاً على هذا الصعيد . فنتج عن ذلك ان حياة النساء ، في الطبقة الميسورة ، غدت اوفر حرية . اجل لم يتلق كثير منهن العلوم النظرية العالية . ولكننا نعرف عدة شاعرات ، وليس الحديث ، بعدئذ ، في الأدب والفلسفة والفن وفقاً على بعض المتحجرات المتقدمات . فقد بدأت اقتسارات الزمن الماضي بالتراخي . اجل لم تظهر سيدات المجتمع الراقي في الولايم ، ولكن اصبح باستطاعتهم ان يخرجوا الى المدينة دون ان يرافقه

أحد ، وقد سمح لمن أزواجهن بالتقاء رجال غير انسابهن . ولذلك فقد تطورت الاخلاق نحو ادب اسمى رقة : وتعود الى هذا العهد بعض عادات الجمالة ، كتقشير الايادي .

الطبقات الاجتماعية الدنيا
نتمنى لو أننا نعرف جيداً أيضاً وضع وحياة الطبقات الاجتماعية الدنيا . ولكن المعلومات بصدها نادرة جداً كما سبق ورأينا اكثر من مرة . غير انها كافية لظهور تناقض بين مصيرها ومصير البورجوازية اعظم بروزاً منه في الزمن القديم . فقد تمتعت البورجوازية بقسط أوفر من اليسار وتأثر بذلك مشاها وحياتها العملية تأثراً سريعاً . اما الطبقات الاجتماعية الدنيا ، فلما استمرت في عيشتها الماضية واما عرفت ظروفها مادية أشد قسوة - وهذا ما حدث غالباً - في ما يظهر .

تألم صغار الفلاحين والصناعيون المدنيون أيضاً بسبب منافسة حاصلات الشرق ومصنوعات . واتجهت الاجور نحو الهبوط كما يتضح من حسابات قهرمة ديولس المقدسة حيث يتقاضى نقاش الكتابات ، مثلاً ، درهماً مقابل ١٠٠ و ١٣٠ حرفاً في أواخر القرن الرابع ، ومقابل ٣٠٠ حرفاً فيما بعد ، دون ان يهبط مستوى عمله في هذه الاثناء . ولكن الارياب ، حتى اذا نحن اهلنا مثل هذه الحالات القصوى ، لا تتناسب وتقلبات اسعار المعيشة . فان ارياب الزامرة أو « خادم » المعبد مثلاً ، أي ارياب غير اهل الكفاءات ، قلماً تتجاوز ١٢٠ درهماً في السنة ، يضاف اليها تعويض لباس فتصبح ١٤٠ او ١٥٠ . ولكن غذاء اليافع دون غيره يكلف ، شرط ان يكون معتدلاً ، ١٥٠ درهماً في السنة ٢٨١ ، واذا ما هبطت كلفته الى ٩٠ درهماً في السنة ٢٥٠ فانها قد ارتفعت بعد ذلك الى ١٣٠ درهماً في اوائل القرن الثاني ؛ وفي التواريخ نفسها تبلغ كلفة غذاء عائلة مؤلفة من اربعة اشخاص ٤١٠ و ٢٤٦ و ٣٥٨ درهماً . لذلك كان العمل امراً واجباً على كل شخص في العائلات الوضيعة ، وعلى الرغم من تضافر هذه الجهود ، فان البؤس كان في اغلب الاحيان شديد الخطورة . ويتضح لنا أمام هذه الارقام المشاغل التي واجهتها حكومات المدن بسبب ندرة واسعار الحبوب في السوق المحلية .

ويتضح أيضاً كيف ان مصادر الارتزاق اليونانية لم تنضب . ففي اليونان القديمة ، بقي الارتزاق ، حتى اواخر القرن الثالث ، ظاهرة اجتماعية على نطاق هام ، استفادت منها الملكيات المقيمة في الشرق كل استفادة ممكنة . واذا ما هو اخذ يخف فيما بعد ، فليس السبب الرئيسي لذلك نقصان عدد المرتزقة . بل يحذر بنا ان نرى في ذلك نتيجة لنقصان طلب المرتزقة ، اما بفعل تراخي الروابط السياسية بين الملكيات واليونان ، وأما بفعل منافسة المرتزقة البرابرة وهم محاربون لا يكلفون كثيراً ولا يرضون بدماهم ، وأما ، خصوصاً ، بفعل افتقار الملكيات وضعفها . ولكنه من الجلي ان احتلال الاسكندر للامبراطورية الفارسية ، الذي اتاح للاغريق الهجرة باعداد كبيرة الى ما وراء البحر المتوسط ، لم يكن الدواء الناجع لهذا الداء ، لأنه لم

يصلح لمدة طويلة الحالة الاقتصادية والاجتماعية في اليونان .

العبيد ان الصعوبة التي تعترض المؤرخ المعاصر تقوم في كيفية تعليل استمرار البؤس في بلاد اصيبت بمثل هذا النقص في سكانها . يجب علينا حقاً ان نبحث عن سبب ذلك في ظروف سوق العمل . فالنشاط الاقتصادي في مبوط على العموم : وهذا يستتبع نقصاً في الحاجة الى اليد العاملة . ولكن ديولس التي جاءتنا منها اهم مصادرها حول الاسعار والاجور تشذ في هذا المجال عن القاعدة العامة ؛ فانه كان من شأن وجود معبد ابولون فيها ، وارتفاع عدد الاعياد وتوافد الزائرين من جهة ، والنشاط التجاري من جهة اخرى ، ان توفر فيها بسهولة سبل العمل والموارد للذين تعوزهم هذه السبل . لذلك يستهوننا ان نبحث عن التعليل في مبررات اخرى ، لا سيما في ازدياد عدد العبيد وفي التنافس الذي يبين المضادة بينهم ، شأن الحررين ، وبين العمال الاحرار .

هنا ايضاً ، نتمنى لو ان لدينا معطيات واضحة ، ولكننا مضطرون لسوء الحظ للاكتفاء ببعض التأثيرات .

مما لا ريب فيه ان العرض في اسواق الرق قد ازداد ازدياداً عظيماً ، واتسع نطاق « التزود » بهم اتساعاً كبيراً ايضاً ؛ فالجرب والفرضية اللتان ما زالتا على عنفهما مونتتا بهم التجار . ولكن اسعار العبيد ابعد من ان تندنى ، ان لم يكن في مناطق الاحتلال وراء الجيوش ، فأقله عند عملية البيع الاخيرة للمشتري المباشرة : فان رجلاً في شرح الشباب ، دون ميزات تقنية خاصة ، ولا سيما اسير الحرب ، يباع بـ ٥٠٠ درهم تقريباً . ولم تندن اسعار النقد ، كما يبدو ذلك غنظيقاً ، لأن نطاق توزيع العبيد قد اتسع بمقدار لا بل فوق نطاق التزود : فان روما وايطاليا اللتان لم تكونا بائعتين ، قد اشترتا العبيد ، في حوض المتوسط الشرقي ، منذ القرن الثاني قبل المسيح ، بأعداد تزايدت باستمرار .

اما في اليونان القديمة فلا يجوز الجزم بارتفاع عدد العبيد إلا في المناطق الشمالية والشمالية الغربية ، كالأبير مثلاً ، بسبب حدانة عهد الحضارة المدنية فيها . وليس ما يثبت ذلك في المناطق الاخرى . اضاف الى ذلك ان المزيد من العبيد الذين امتلكتهم البورجوازية ، بعد ان ارتفع عددها وتكامل يسارها ، قد كانوا عبيداً منزليين بنوع خاص لا يرهق وجودهم ارباح الرجال الاحرار بل يخفف عن المرأة ، التي تتحرر ، اعباء الاعمال العائلية التي كانت تنهض بها فيما مضى . فيجب والحالة هذه ان تكون الصلة بين العلة والمعلول اشد تعقيداً .

لذلك يحذر بنا ان ننظر الى حالتي العبد العامل لحسابه الخاص والعبد الحرر . فعلى هذا وذاك تلقي بعض الضوء ونائق التحرير التي انتقلت اليها عن طريق كتابات المعباد ، لا سيما دلفي الذي وصلت اليها منه اكثر من ألف وثيقة . وقد اخذ التحرير الفردي ، لا الجماعي الذي سنشاهده في روما ، يشق طريقه الى اخلاق الاغريق . ولا يستأنم هذا التطور ، على كل حال ، ازدياد

عده العبيد : بل يدل غالباً ، بصرف النظر عن غو روح التساهل ، على أن سيد العبد يستفيد من تحريره ، لأنه من النادر جداً أن يحدث ذلك دون مقابل مادي . والاعتقاد السائد هو أن الاله يشتري العبد من سيده ويعطيه حريته ضمناً تنفيذ شروط العقد : هذا هو مصدر الحرص على حفظ نص هذه الشروط في الحرم المقدس .

اما في الواقع فقد قام كل شيء بطبيعة الحال على الاتفاق السابق بين العبد وسيده . فالسيد يرضى بضمن وبظروف مختلف باختلاف الحالات النوعية التي لا نعلم شيئاً عن عوارضها . غير أنه من المفروض في العبد ، كي يستطيع دفع المبلغ المتفق عليه فوراً ، أن يكون قد جمع بعض المال وإن يكون قد تصرف ، في عمله المتفاوت حرية ، بحمد ادنى من الربح . فإن العرف الذي سمح للعبد بأن « يعيش على حدة » والذي عمل به في اثينا قد عرف الانتشار والشمول ، في ما يظهر . ومن المفروض في العبد أيضاً ، حتى يرتبط بتمهيدات وحتى يقوم بها على الاخص ، أن يكون متأكداً ، بعد تحرره وتصرفه بكافة ارباحه ، من أن يجد عملاً وزبناً . اليك مثلاً عبداً لم يدفع شيئاً عند تحريره ولكنه سيدفع ١٠٠ درهم لمدة ١٣ سنة ؛ واليك آخر يمارس ، في ما يبدو ، مهنة تغدق عليه الارباح ، يدفع على الفور ٦٠٠ درهم على أن يدفع ٣٠٠٠ درهم في المستقبل ، مع أنه يعد بالقيام « بكل اشغال » سيده ؛ على أننا نرجح أن هذا الوعد لا يتناول من الاشغال إلا ما هو من اختصاصه ولحاجات عائلة سيده المباشرة فقط . ويغلب أن هذه التمهيدات تنفذ بحذافيرها لأنها لم تلغ . واكثر من ذلك : فأننا نرى العبد المحرر نفسه في بعض الحالات ، بعد عشر سنوات تقريباً يحرر بدورته عبيده : وهذا يعني أنه استطاع أن يفي سيده حقه ويؤمن المعيشة لعائلته ويقتني عبداً ويسمح له بالعمل لحسابه الخاص . ولكننا نتصور ما يتطلبه ذلك من عناء ضار ومن حرمان يدوم سنين طوالاً ، ولا نستغرب المنافسة الشديدة التي يصادفها عامل حر لا يشجع مجهوده مثل هذا الامل .

لا يغربن عن البال ، مع ذلك ، أن معظم هذه المعلومات لا تتناول سوى جماعات بشرية تعيش على مقربة من المعابد . ففي دلفي يؤلف الحجاج . ومستشيرو هاتف الغيب ومشاهدو الأعياد زبناً كثيرين يميلون الى الاتفاق بسمة او فر منها في محلات اقامتهم ويعطفون على ممارسة المهن الصغيرة والتجارات الصغيرة المزدهرة . لذلك يستحيل أن نعمم هذه الظروف الاستثنائية على كافة أنحاء اليونان . وليس تفسير البؤس عن طريق العبودية بالامر الاكيد ، ولو بدأنا محتثلاً ومنطقياً .

اضف الى ذلك ، كما سبقت الإشارة ، أن الركود الاقتصادي والهبوط الاقتصادي اللذين يكوّنان السبب الرئيسي للوضع المتعظم خطورة في الطبقات الاجتماعية المتدنية ، كان من السهل تلافيهما لو أن الاغريق استفادوا من تفوقهم العلمي لتحسين تقنيات انتاجهم ، ومن وجودهم في الشرق لرفع مستوى المعيشة عند طبقة البليدين ، أي لزيادة طلب أصناف الاستهلاك . ومن ثم

فان البورجوازية الهلينية قد وقفت في وجه مصلحتها الشخصية بعدم تحرير مثالها الثقافي وبعدم اكترائها بالانتاج الصناعي ، ان لم يكن الزراعي أيضاً .

٣ - الآفات والاضطرابات الاجتماعية

كانت نتائج هذا الوضع على جانب من الخطورة .

كان من شأن نوع معيشة و اخلاق البورجوازية ، دونما ريب ، ان يكسّر تدني عدد السكان معاصري بريكليس لو انه ساد البلاد في ايامهم . وهو قد كدر ايضاً ، في هذا العهد نفسه ، رجالاً لم يتنهوا تعليم الاخلاق ولكنهم عزوا اليه إحدى اليونان التي شكوا منها يعنف ، اعني بها تدني عدد السكان . ولعل اشهر هؤلاء الكتاب هو « بوليب » الذي عاش في القرن الثاني والذي وصف في صفحة شهيرة الداء باسمه الكلاسيكي « اوليغانثروبيا » أي « نقص الرجال » ، موضحاً ما كان سببه في ما ارتأى : « نلاحظ اليوم ، في كافة أنحاء اليونان نقصاً في الاولاد والرجال تقفر معه المدن ويشلّ انتاجها ... أما السبب فواضح والدراء ففي أنفسنا . ان الرجال يعزفون عن الزواج وعن تربية اولادهم حباً بالتظاهر وحباً بالمال وجبناً ؛ فهم ، ان ربوا ، لا يرتبون اكثر من ولدين حرصاً منهم على الحفاظ على الثروة وعلى تربيتهم في ظل حياة هائلة متخنة . وهكذا فان الداء الخفي قد برز فجأة . فاذا لم يكن هنالك سوى ولد او ولدين واذا ما قضت الحرب او المرض عليها فمن انجليي الحتم ان تقفر البيوت ... ولا يختلف اثنان على القول ان تلافي ذلك منوط بنا وحدنا ، اما بتغيير ما هو هدف التنافس بيننا واما باعتماد شرائع ترغم على تربية الاولاد الذين يبصرون الثور » . وقد حاول بعضهم احياناً الانتقاص من اهمية هذه الصفحة باعتبارها بياناً اخلاقياً . قد يكون في ذلك بعض الحقيقة ، ولكنها تنطوي على اهمية لا تنكّر .

انها تكشف عن استمرار عادة « اهامال » الاطفال حال ولادتهم التي انتشرت في العهد السابق . وانما هن البنات ، كما في العهد السابق ، اللواتي يرفض الأب تربيتهن . فهل ان هذه العادة ، التي هي أشد خطورة في نتائجها العملية من تحديد النسل الاختياري ، قد أصبحت شاملة حينذاك ؟ ان بوليب يثبت ذلك ضمنياً ؛ ولكن الاسباب التي يعزرها اليها لا تتناول سوى الطبقة الميسورة ، وهذا هو العيب الاكبر في استدلاله . والحقيقة هي ان الطبقات الاجتماعية الدنيا تبدو متأثرة بهذه العادة المتفشية تأثر الطبقات العليا نفسها . فلم نر في وثائق التحرير في دلفي أي ذكر لعائلة كثيرة الافراد بين المحررين . وقد اتخذت مدن عدة احتياطات لزيادة عدد مواطنيها بقبول الاجانب في هذه الدرجة الممتازة . وقد نصح ملك مقدوني الى إحدى المدن التسالية بالتشبه بسخاء روما في هذا الموضوع . وقد اقام الملك نفسه في مملكته جماعات من البرابرة البلقانيين

« وارغم جميع رعاياه على الحجاب البنين وحببتهم » كما كتب احدهم دون ايضاح الكيفية . وكان بوليب على علم بهذه السابقة حين اشار باعتماد مثل هذه الشرائع . ولكن رأيه ومثل فيلبوس المقدوني الخامس ، على ما نعلم ، لم يعمل بها في اي مكان . لذلك يتعذر نكران تدني عدد سكان اليونان منذ ذاك العهد ولابالاة الحكام الشاملة تقريباً أو اقله عجزهم امام وضع كان يهدد بالخطر لا استقلال دولهم سياسياً وعسكرياً فحسب ، بل حيوية وحقوق وجود حضارة يتباهون بها أيضاً .

وعلى نقيض ذلك لم يتوصل بوليب ، في تحليل الأسباب إلا الى حقيقة جزئية ليست أبعد الحقائق أهمية . ولكننا لا نستطيع إمامها لا سيما وأنه يعطينا في غير مكان تفاصيل دقيقة حول « التخنث » واستهواء الأعباد والولائم . فعندما يتكلم عن البيوسيين - الذين لا يحبهم - في أوائل القرن الثاني ، يحزم قائلاً : « ان اولئك الذين لا أولاد لهم يوصون بممتلكاتهم للأكل الفاخر والسكر ويمعلونها مشاعاً لأصدقائهم ، بدلاً من ان يتركوها لأنسابهم ... وأخذ كثير من اولئك الذين أنجبوا اولاداً ينفقون على الولائم معظم ثروتهم بحيث ان بيوسيين عديدين أقاموا في كل شهر ولائم تفوق بعددها أيام الشهر » . هذا هو التشويه المحتم لحياة اجتماعية جعلت مطابقة لمثل أعلى في الرفاهية واللذة . ويدعي ان يصعب التوفيق بين هذه الحياة وواجبات العائلة العديدة الأفراد وان تفضي بالضرورة الى استحالة التعويض العددي الطبيعي عن جيل سابق بالجيل اللاحق . وكان للطبقات الدنيا أعذار أخرى كثيرة للتهرب من الواجبات العائلية المرهقة .

يتوجب علينا ، مع ذلك ، دون ان نتوقف عند الحقائق الاخلاقية المسلم بها ، كما فعلنا ، ان نضيف شيئاً الى تفسيرات بوليب .

ففي الدرجة الأولى كانت اليونان منطلقاً ، نحو الشرق الذي احتله وأداره ملوك يونانيون وانتشر فيه واستثمره الاغريق ، فجرة عارمة حرمتها من عناصر قتية أي من اهم ابناءها نشاطاً وتديراً . ولا ريب في ان هذه الهجرة التي كانت في البدء على نطاق واسع قد خفت بعد ذلك وريداً وريداً ؛ ولكنها لم تنقطع قط انقطاعاً تاماً ولم يعوض المهاجرون العائدون قط عن المهاجرين النازحين . واذا ما نحن أغفلنا هذه الحقيقة استحال علينا إدراك التوازن في مجتمع كان « يربي » ذكوراً أكثر من البنات . فجلي ان الرجال هم الذين هاجروا بنوع خاص كمرتزقة وموظفين وفنيين ومستعمرين واتخذوا لهم زوجات شرقيات .

ثم ان الصعوبات الاقتصادية المتزايدة التي عرفتھا اليونان لم تبق دون نتيجة في هذا المجال أيضاً . فقد ظهر أثر التأخر الزراعي والصناعي والتجاري في البورجوازية نفسها . وحين نضبت المصادر الطبيعية للآثراء رأت البورجوازية نفسها مرغمة على عدم زيادة عددها ، ان هي أرادت الحفاظ على مستوى اليسار الذي بلغته ؛ ولم يكن من المستطاع عملياً ان تحافظ عليه ، بسبب هباتها للعدن ، إلا بانقاص عدد اعضائها وجمع ثرواتها بفضل الإرث والهبات عن طريق الوصايا .

ولكن الفقراء خصوصاً ، الذين لم ترافق مواردهم ارتفاع الأسعار ، اذا لم تخفض أحياناً ، لم يتمكنوا من العيش إلا بفرض الحرمانات على انفسهم ، وكان اقلها صعوبة مباشرة ، وبالتالي أول ما يقبل به منها ، يستهدف الأولاد . وهكذا فان « نقص الرجال » من حيث هو علة وممول في آن واحد قد زاد بدوره من انحطاط اقتصاد البلاد ، وذلك باقلال طلب السوق الاقليمية التي كانت هي في افضل وضع لسد حاجاتها .

هنالك آفة أخرى ، هي نتيجة تنحدر مباشرة من يؤس الوضعاء ، الاضطرابات الاجتماعية اضطت اليونان ايضاً ، اعني بها خطر الثورة الاجتماعية الذي ليس جديداً ولكنه ، بعد هدوء العهد الكلاسيكي ، برز مرة أخرى بزيد من الخطورة الهائلة .

انطوى برنامج ثوار القرنين السابع والسادس على بندان تقليديين : توزيع الاراضي والغناء الديون . ويرى هذان البندان نفسهما الآن اكثر شعبية من اي وقت مضى . كلاهما يستهويان الريفين الذين ارغخوا على مغادرة اراضيهم او ينجشون ، بفعل الديون المتراكمة عليهم ، من ان يطردها منها ، او حتى من ان ينتهوا الى السجن بفعل عجزهم عن الدفع . واذا كان فقراء المدن اقل اهتماماً للديون — اقل اهتماماً فقط ، لأن الفقير المصدوم وحده يعجز عن ان يتوفق الى من يقرضه مالا — فانهم لم يهملوا الامل بأن يصبحوا يوماً ملاكين صغاراً .

غير ان هذا البرنامج الذي لم يفقد شيئاً من عنفه ، اضيفت اليه آنذاك مطالب تتعلق بالعبيد الذين لم يسبق في الماضي ان احيطوا بأي اهتمام . قد يكون مرد ذلك الى التضامن في البؤس الذي يقوّيه انتساب عبيد كثيرين الى الاصل اليوناني كاسرى الحرب وخطوفي القراصنة . ولكن الأرجح انهم يمثلون قوة لم يأنف آنئذ احد من اللجوء اليها في ساعات حدة الصراع .

وهم الوحيدون ، على كل حال ، الذين لا يتجاسرون على الحركة . اجل قد تحدث عرضياً بعض الثورات كما جرى في السنتين ١٣٠ و ١٠٣ في أثينا ، وفي السنة ١٣٠ ايضاً في ديلوس . ولكن هذه « الحروب الفدادية » المحصورة في المناطق التي كثيراً ما تخضع فيها جماهير غفيرة من العبيد لنظام شديد القساوة — كديلوس ، تلك السوق الكبرى التي تصدر الى الشرق البعيد دون امل بالعودة ، واثينا حيث لم تتحسن ظروف العمل في مناجم « اللوربون » — لا تحدث من جهة ثانية الا في عهد متأخر جداً : وليست سوى صدى الثورات التي اندلعت في صقليا وآسيا الصغرى في السنتين ١٣٥ و ١٣٣ . ولكن الحركات الثورية التي كانت من الخطورة بكان هي تلك التي نهض بها الاحرار والعبيد جنباً الى جنب يوحد بينهم البؤس المشترك والحقد المشترك على الملاكين : وان هذا الاتحاد لجدّة يعود الفضل فيها الى العهد الهليني .

لم يكن لمثل هذه الاضطرابات دافع عقائدي على ما نعلم . اجل لقد نادى بعض الفلاسفة بالمساواة بين البشر . ولكن هذه المساواة في نظرهم ، شأن حرية الشخص البشري ، كانت شيئاً داخلياً اكثر منه اجتماعياً لأنها تتعلق بالقوة المعنوية الفردية اكثر منها بالنظام القانوني : فالرجل

الحر والغني قد يبقى دون العبد ان لم يكن سيّد نفسه . لذلك فان مثل هذه الآراء لم تدفع الى العمل . وكذلك ، اذا وجد بعض المؤلفين لذّة في وضع نظريات خيالية ، فان هذا الفن الادبي الذي درج حينذاك ، لم يكن ليحرك الجماهير . وهناك بعض تنف لشاعر بلوونيزي من القرن الثالث هي في الحقيقة فريدة من نوعها والوحيدة التي تنبض بروح ثورية في الادب اليوناني ؛ ففيها ان على الغني ان « يتقيا » ، وان للتوزيع صفة إلهية ؛ ويتساءل عما اذا كان للإله عين خلد لأنه يعزف عن اخذ خيارات المرابي لاعطائها من يعجز عن سد جوعه . ولكن الشاعر ، سرسيداس ، قد لعب دوراً دبلوماسياً وعسكرياً ناشطاً ضد الثورة حين كانت على وشك النجاح ، بحيث لا يمكن اعتباره سوى مناصر التحق بها في الساعة الحاسمة . وبكلمة موجزة ، فان الثورة الاجتماعية في اليونان قد افتقرت الى رئيس روحي من حيث انها افتقرت الى برنامج عقائدي .

بيد انها ، في بعض الظروف وبعض المدن : قد وجدت رؤساءها اثناء العمل الثوري نفسه . وغالباً ما كان هذا العمل غير منظم ، ونادراً ما كان منسجماً وغير منقطع ، وقد تحطم ابدأ على صخرة مقاومة البورجوازية والتدخل الاجنبي . وقام عند الايتوليين رجال سياسيون من المرتبة الاولى يقترحون الشرائع حول الديون ، فانتهوا الى الابداء . وفي بيسيا توقف سير القضاء عملياً لمدة خمس وعشرين سنة : فكان ذلك فوضى فاضحة جاءت جزية الفائدة للدائنين . ولو توفرت المعلومات لدينا ، لاتفصح لنا دونما شك وجود وقمل حركة اصلاحية ، ان لم تكن ثورية ، في كل مكان تقريباً .

كانت الازمة خطيرة جداً في سبارطة حيث تسر خطورتها ظروف الثورة الاجتماعية في سبارطة خاصة جداً . ومعوماتنا عنها اوفر منها في اي مكان آخر . سعت سبارطة تقليدياً وراء مثل اعلى لمساواة حقيقية بين المواطنين المتمتعين بحقوقهم الكاملة ، « المتساوين » . ولكن عددهم قد انخفض انخفاضاً هائلاً ، ففدوا سبعمائة فقط في اواسط القرن الثالث بعد ان كانوا تسعة آلاف في الاصل على الأرجح . وقد ادى الى هذا الانخفاض تحديد النسل الاختياري الذي هو النتيجة المحتمة غير المباشرة لتشريع حظر على المواطنين كل نشاط مأجور ووصم بعدم الاهلية كل من يتدنّى دخله الى ما دون حد ادنى . قانوني . وادى اليه ايضاً ارتفاع نسبة الوفيات في ساحات الوغى بسبب تقييد السبارطيين بقانون قاس جداً خاص بالشرف العسكري . وقد ادى اليه اخيراً انزال الذين يخالفون واجباتهم كمواطنين ، مهما كان السبب ، لا سيما الفقر ، الى الفئات الدنيا . فلم يبرز « نقص الرجال » . في اي مكان برونه في سبارطة .

افضى هذا التطور - البلية الى الانحطاط العسكري والى نتائج اجتماعية هامة . فالمساواة ، العملية او النظرية ، قد قضى عليها منذ زمن بعيد . وتجمعت الثروات ، بما فيها الممتلكات العقارية ، في العائلات المحظية ، ولا سيما في ايدي النساء ، الوارثات الغنيات . ولكن قيام

الارستوقراطية الضيقة قابله في الجهة الثانية فقر بقيّة السكان . فكثيرون منهم كانوا مدينيين مهددين بخطر الحرمان من الحقوق السياسية وبعض الحقوق المدنية ؛ وكثيرون ممن أصيبوا بهذا الحرمان راودهم الامسل في إعادة توزيع الاراضي الذي سيؤمن لهم حياة سبارطية حقيقية ويعطيهم حقوقاً لم يعتبروا انفسهم غير اهل لها . وقد دفعهم استيائهم الى البحث عن حلفاء ، ان لم يكن بين العبيد القليلين عدداً في سبارطة ، فأقلت بين الفدائيين الرسميين المتطرفين ، الذين كانوا يتوقون ، هم ايضاً ، الى وضع قانوني وادبي افضل . فظهر الاختار منذ اوائل القرن الرابع وافضى الى اضطرابات عنيفة في النصف الثاني من القرن الثالث .

كان الرؤساء في البدء ملوكاً يتمتعون بشرعية تامة : « أغيس » الرابع و « كليومينوس » الثالث . قتل الأول بسرعة وحكم عليه بالموت . اما الثاني وهو ذو حكمة سياسية عرف كيف يرضي الزهو القومي ويبين الفائدة العسكرية من الاصلاح ويستثمر النفوذ الذي اكتسبه بانتصاراته ، فقد حقق انقلاباً : فأمر بتقليل القضاة وأبعد المعارضين . فاستطاع بذلك إلغاء الديون وإعادة توزيع الاراضي وزيادة عدد المواطنين . ورفع عدد الجنود أيضاً ووسّع انتصاراته الخارجية وبدأ قادراً على ان يعيد الى سبارطة عظمتها السالفة ، لأن العدو البلوبونيزي الرئيسي ، الاتحاد الآخي ، قد دبّ فيه الانهيار بانتقال العدوى الثورية اليه . ولم يتمكن الحكام الآخيون من التغلب على كليومينوس وإرغامه على الهرب إلا بفضل التدخل المقدوني الذي دفع المقدونيون ثمنه غالباً على كل حال .

هكذا أعيد النظام المحافظ الى سبارطة ، ولكنه لم يدم طويلاً فعددت الأزمة أشدّ عنفاً منذ السنوات الاخيرة في القرن الثالث . وكان نابيس زعيم العصاة الاول ، وهو رجل من اصل ملكي توصل الى الحكم بطريقة غير قانونية . وتمعن المصادر التي لدينا والتي تكرمه في الروايات المخيفة عن قساوته حيال الاغنياء في سبارطة او في المدن التي استولى عليها كأرغوس ، وعلاقاته بالقرصنة وقطاع الطرق المختلفي الجنسيات ، والانعامات التي أغدقها على اقل اتباعه اخلاقاً حسنة . اجل يقرأى لنا ، من خلال هذه البغضاء ، رئيس فظّ ولكنه مدفوع الى القساوة بسبب الحرب الاهلية والحسارحية ، ومصالح جريء يتناول في اصلاحه ، لا الديون والاراضي فقط ، بل رؤوس الاموال المنقولة أيضاً ، ويرفع عدد الموظفين الى حدّ بعيد باختيارهم بين المرتقة والفدائيين الرسميين وحتى بين العبيد . فهل من استغراب والحالة هذه لما أثاره سلوكه من فضيحة ورعب في اليونان ، ولا سيما في الجوار القريب ، بين اولئك الذين يدعومهم بوليب ، المؤرخ الآخي المحافظ ، بـ « ذوي التفكير السليم » ؟ وروما هي التي تدخلت هذه المرة ، دون ان تفرض سقوط نابيس . ولكنها اضعفته إضعافاً كافياً لحرمانه من نفوذه . وما لبث ان مات قتلاً ، فانتمت عن سبارطة صفة المنجم الثوري التي اتصفت بها طيلة نصف قرن .

تبين هذه الامثلة بوضوح كيف تكونت المعضلة الاجتماعية في اليونان

الهيلينية : فهي لم تبرز يوماً بمنزلة مستقلة بل متشابكة أبداً بمعاصل سياسية . وبدلها انها تشابكت بالسياسة الداخلية لانها في جوهرها ،

المعضلة الاجتماعية
والمعاصل السياسية

وفي الدرجة الأولى ، أحد عناصر هذه السياسة . ولكنها تشابكت بالسياسة الخارجية أيضاً ، وهذا هو الدليل على خطورتها لأن الخوف من العدوى قد لعب دوره في العلائق الدولية أكثر من مرة . فقد استفادت الدول العظمى ، الأكثر اتصالاً وثيقاً بالشؤون اليونانية ، أي مقدونيا وروما ، من البلبلة التي خلقتها هذه المعضلة : فساند الملوك المقدونيون ، دون سابق تصميم ، هذه النزعة هنا وتلك النزعة هناك ، غير مبتغين سوى المنافع الفورية واجتذاب الحلفاء ، أما روما ، التي ارتبطت دبلوماسيتها وجيوشها حينذاك بنبلاء مجلس الشيوخ دون غيرهم فقد أبدت نفوراً ظاهراً وفعالاً في أغلب الأحيان من كل ما من شأنه ان يعكر النظام التقليدي ولكنها تورطت أحياناً في تسويات املتأ عليها الانتهازية .

كانت نتيجة ذلك الانقسام الذي قاست منه الامرين طبقة الحكام اليونانيين في كل مكان تقريباً . فقد اضطروا ، في هذه الفترة أو تلك ، الى الاختيار بين غاظر الثورة الاجتماعية وبين السيطرة الأجنبية ، وقد انحصرت مأساة بوليب وأصدقائه السياسيين ، لا سيما بطله ومعلمه فيليبومين « آخر الاغريق » كما يتضح ذلك مما تبقى من مؤلفاته ، في انهم لم يستطيعوا ، على الرغم من كل جهودهم ، التخلص من ضرورة هذا الاختيار . ففضل بوليب قبول السلطة الرومانية التي لا تقاوم . وصرف بورجوازيون آخرون كثيرون ، أخيراً ، النظر عن مصالح طبقتهم . ولكن المصيبة ، بالنسبة لاستقلال اليونان ، انهم لم يقرروا هذا الاختيار في كل مكان وفي وقت واحد قبل ان يفوت الأوان : فقد أدى به انقسام البلاد الى دول كثيرة ومنازعاتهم القديمة والجديدة الى خوض المعركة الحاسمة بنظام غير موحد . ولم يقرر الزعماء الآخيون إلا في السنتين ١٤٧ و ١٤٦ خوض حرب لا هوادة فيها ضد روما ففرضوا تأجيل دفع الديون وقرروا مساعدات للفقراء وحرروا وسلحوا ١٢٠٠٠ عبد . فقبلوا بذلك حلولاً آتراً خلفاؤهم عليها ، فيما مضى ، ضد رأي كليومينوس الثالث ، الحامية المقدونية ، وضد نابيس ، الحامية الرومانية . ولذلك لم يكن لتدابيرهم الصدى اللازم حين كانت لا تزال هنالك ملكيات عظمى قادرة على موازنة قوة روما .

بعد ان انتصرت روما على هذه الانتفاضة التي أعوزها التلاحم والعضد الخارجي وطدت حينذاك ، في كل مكان ، النظام الاجتماعي وسيطرتها . ولكن التسليم للأمر الواقع ، في البورجوازية كما في الطبقات الاجتماعية الدنيا ، لم يتم إلا بكل بطء . ولا نلسه حقاً إلا في عهد الامبراطورية حين اتبح للبلاد ، التي اضعفها تناقص سكانها من جهة ثانية ، ان تعرف ، بالإضافة الى السلم ، ادارة لانقسة ، وان تتوصل الى التوازن الاقتصادي باكمال مواردها الطبيعية بفضل استثمارها السياحة وتصديرها الى الغرب الروائع الفنية والرجال الذين ثقفتهم حضارتها ، الاطباء والاساتذة والصناعيين اليدويين الماهرين .

٣ — الحياة الاقتصادية في الشرق الهليني

كانت الظروف مختلفة كل الاختلاف في الملكيات الفاعلة في الشرق . فمن الناحية الاقتصادية ، زخرت

اراضها الشائعة والواسعة الأفق بالمزيد من الثروات ، وبشوع خاص تانك الدرتان اليتيمان اللتان وهبتها طبيعة سخية العطاء وكيفها عمل الانسان الجليل طيلة آلاف السنين ، اعني بها بلاد مصر وبلاد بابل . ومن الناحية الاجتماعية ، ألّف الرعايا كتلاً ضخمة ، لم يكن للفرد فيها كبير اعتبار ، اعتادت الخضوع بالقياد الى اوامر السيد مهما كان من امر متطلباته . لذلك فان المعطيات الاولى للاختبار الهليني قد تباينت تبايناً كلياً في الشرق عنها في اليونان . وقد رافق هذا التناقض تناقض آخر اساسي في الظروف التي جرى فيها الاختبار . فبينما بقي الاغريق في اليونان وحدهم لم يدخل عليهم عنصر خارجي آخر غير العبيد ، فانهم لم يؤلفوا في الشرق ، على العموم ، سوى الطبقات الحاكمة وضباط الجيوش . اغريقاً ، اصلاً وحضارة ، كان الملوك الذين اتجهت انظارهم ابدأ نحو اليونان . واغريقاً كان المهاجرون الذين اتوا يبحثون ، في مسا وراء المتوسط ، كبطانة وموظفين وفنيين وجنود ومستعمرين وتجار ، عن فرص عمل او يسار مادي لم تتوفر لهم في بلادهم . وكان من شأن الاختبار ان يفضي الى نتيجتين قصوين على طرفي نقيض : اما استثمار الشرق واما نشر الحضارة اليونانية فيه . وقد توصل في الواقع هنا او هناك الى هذه النتيجة او تلك . ولكن اتساع الشرق وتنوعه يجعلنا نرى ، بين هذين النقيضين ، فوارق وسيطة كثيرة .

إسهام الاغريق
في نمو الشرق الاقتصادي

لم يصب اليونان سوى النزر اليسير من عطاء الطبيعة . وكذلك لم يتساور هذا العطاء في جميع مناطق الشرق : فقد قامت فيه جبال مجدية ومناطق صحراوية او بورية . غير ان المناطق الخصبة لم تكن قليلة فيه : فنظر اليه فاتحوه بسببها نظرهم الى جنة نعيم . فعمدوا ، اول ما عمدوا ، الى النهب والتبذير . ثم جاء الاستثمار المنظم ، مرتكزاً الى الاستفادة من الثروات الطبيعية وتجديدها وفقاً لتعاقب الفصول .

لم يكن كل شيء بدائياً في هذا المجال . ففيما خصّ بعض اشكال الحياة الزراعية على الاقل ، ولا سيما تلك التي استخدمت الري ، وحتى فيما يخص بعض التقنيات المهنية ، ولا سيما صناعة النفائس والاقمشة والمصوغات والزجاجيات ، لم يكن الشرق دون اليونان تقدماً ، لا سيما وان اليونان لم تعوّض عن كل تأخيرها على الرغم مما حققته من اقتباسات خلال العهد القديم . ومع ذلك فان كفة الميزان اليونانية كانت راجحة بشكل واضح . فاسهم الاغريق الى حد بعيد في نمو الشرق الاقتصادي .

فقد وفرت سيطرة الملوك الهلنيين ، اولاً ، ان لم يكن السلم الشامل ، فاقله سلباً اقل نقصاً . سبق للامبراطورية الفارسية ان تعرضت لاكثر من ازمة داخلية ، كانت نتائجها الثورات والحروب والضرائب . وحدثت ازمات اخرى زاد من خطورتها تنافس الملوك ودسائسهم وحملاتهم العسكرية وحتى غزوات « البرابرة » من امثال الغاليين الذين اتوا في اوائل القرن الثالث

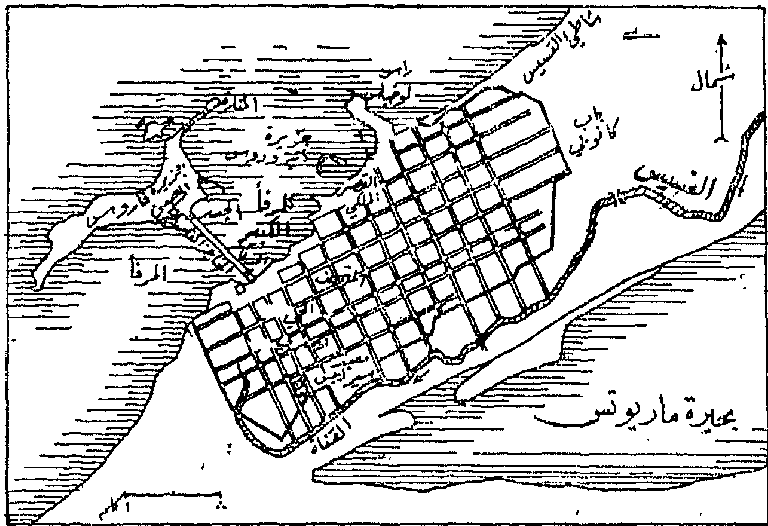
وأستقروا في قلب آسيا الصغرى حيث غدا سحهم شغلا شاغلا خطيرا للسكان المجاورين. ولكن الامن ، على الاجمال ، كان اعم منه في الماضي .

سهل هذا السلم النسبي عمل الادارة الحثري . لم تبلغ الإدارة اليونانية يوماً الكمال التام ، ولكنها برهنت ، دون كبير غناء ، عن انها اذق من الادارة الفارسية وافضل منها فنياً : فلم ترتبط الادارة الفارسية عملياً ، في النهاية ، سوى بالمرازبة ، الاقطاعيين الايرانيين الذين تراخت رقابة الملوك الاولى عليهم . واستعادت بلاد بابل ومصر ، بنوع خاص ، النظام الطبيعي والتنظيم الضروري لحسن استعمال مياه انهرها ولاستثمار خصبها الطبيعي استثماراً منطقياً .

ترتب على الادارة اليونانية واجب اول طبيعي هو انشاء او اصلاح وسائل المواصلات . فبدون هذه الوسائل تصاب السلطة الملكية بالشلل ؛ وبدونها تتوقف التجارة أيضاً . فرمت الأقية والجسور والطرق التي تضررت كثيراً بفعل الاهمال والفوضى السابقين . وتتوفر لدينا ، في هذا النطاق وغيره ، المعلومات الكثيرة ، لا سيما حيال مصر ، بفضل استخدام البرديات وحفظها ؛ عناية بأقية الري القديمة وحفر أقية أخرى جديدة ؛ تجديد العمل في الاراضي المهمله ؛ توسيع الاراضي الزراعية ، لا سيما في الفيوم ؛ بناء الارصفة والسدود والأنابر والمخازن ؛ اكمال أو إعادة فتح القناة التي تصل دلتا النيل الشرقية بمخليج السويس ؛ انشاء ورقابة طرقات القوافل التي تجتاز الصحراء العربية حتى البحر الاحمر ... الخ .

بدل هذا التعداد الممكن إطلاله ان الملوك قد اقتصروا في أغلب الاحيان على ترميم أو متابعة عمل أسلافهم القريبين أو البعيدين ؛ فنحن نعلم أنه سبق للانسان ، في عهد السلالات القديمة جداً ، ان اخذ يحسن في الفيوم الاراضي الجديدة للزراعة . ولكن الاغريق أحدثوا أشياء جديدة أحياناً بفضل تقنية وعلم مهندسيهم الذين برهنوا عن مقدرتهم في بلادهم ووجدوا هنا الآن السيد العاملة والمال بوفرة كلية . كانت المرافئ بنوع خاص أحد تحقيقاتهم الرئيسية : مرافئ عديدة على كل الشواطئ حتمها وحسنها انشاءات ضخمة احياناً على غرار رصيف ساموس الذي أحدث منذ القرن السادس . ولعل أهم نجاح في هذا المجال انشاء مرافئ لابل مرافئ الاسكندرية . فعند رأس جزيرة فاروس شيدوا برجاً يبلغ علوه ١٢٠ متراً تشتعل فيه نار يراها البحارة على ابعد من خمسين كيلومتراً ؛ وان شهرة هذا البناء ، الاول من نوعه حتى ذاك العهد ، قد حوّلت اسم الجزيرة الى اسم نكرة (*Phare*) . وقد وصل الجزيرة باليايسة سد يتجاوز طوله ١٢٠٠ متر ترك عند كل من طرفيه ، المراكب يملوه جسر ، فتكون بهذه الطريقة مرافئ واسعاً ومجهزاً بالارصفة . كما وصلت إحدى الاقية بحيرة داخلية بالنيل . وهكذا فان المهندسين اليونانيين قد حققوا ، قبل المهندسين الرومان بزمان بعيد ، اموراً عظيمة اثارت دهشة العالم القديم وكانت له مثلاً يحتذى به . وفي هذه الامور دليل على عظمة اتساع مجهود التجهيز الذي بذله في الشرق اسيا ده الجدد والذي لم يلبث اثره ان برز في نشاط الحياة الاقتصادية .

كانت اقامة المهاجرين الاغريق في الشرق وتأسيس مدن كثيرة جديدة كسباً آخر للتجيز الاقتصادي ، اقله من بعض الارجح . فالاغريق ، على العموم ، وفروا الاجهزة الفنية لاستثمار الموارد الطبيعية استثماراً افضل . اما المدن فقد غدت اسواقاً ومراكز تجارية في مناطق كثيرة



الشكل ٢٦ - الاسكندرية اهلينية

القسم الاخير من القننة غير معروف ؛ ولا نعلم الى أي المرفأين كانت تنتهي

ما كانت محرومة منها . واشترى سكانها المحاصيل الزراعية من الارياض المجاورة التي ارتفع انتاجها بفضل هذه الاسواق الجديدة ، بينما قدم صناعيو المدن للريفيين مصنوعات عملهم . فبلغت اراض كثيرة ، لا سيما في آسيا ، مستوى اقتصادياً ابعد تطوراً واعظم نشاطاً .

ادخل الاغريق ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ، وبفعل مجرد وجودهم وحاجاتهم واقامة العلاقات مع البلدان النائية ، طرائق استثمار مجهولة ، او حسنوا الطرائق القديمة . فأخذت زراعة الكرمة تنتشر في كل مكان تقريباً ؛ اما زراعة شجرة الزيتون ، المتعددة في وادي النيل ، فقد انتشرت الى حد بعيد في آسيا الصغرى . وقد اظهر ملوك عديدون اهتماماً بالغاً بهذه الامور العملية . فافترفت الادارة في مصر على زراعة الاشجار وقدمت بذار القمح الاجنبي الممتاز ؛ واصدر احد الملوك امراً الى احد المقربين اليه بالسعي سعياً حثيثاً منظمًا للحصول على موسم سنوي ثان ؛ واستحضر احد كبار الملاكين ، وهو موظف ذو نفوذ ايضاً ، من آسيا الصغرى ، اغناماً اصيلة ورعاة اختصاصيين . وقد احتفى احد الملوك الاططاليين ، في جبال ايداء ، الحرجية ، التي استخرجت منها اخشاب وصمغ بطمية شهيرة ، بـ « الصنوبرية العظيمة » التي يبلغ ارتفاعها ٣٠

منزلاً ودائرة جذعها ٧ امتار ؛ واشترى آخر ، بأسعار مرتفعة جداً ، خنازير ذات قسامات وأوزان استثنائية ؛ ونشر ملك ثالث « بحثاً في الحدائق » مكرساً لعلم النبات وللأشجار المثمرة بنوع خاص . وكان لجميع السلالات مصانع ملكية حيث تعنى اليد العاملة الفدادية بإنتاج مصنوعات الفخفخة التي تعد في الأساس من انتشار الآراء . وكثيراً ما قورن هذا العهد بعهد المستبدن الواسعي العلم في القرن الثامن عشر : أن ما يبرر هذه المقارنة خير تبرير هو رعاية الملوك الخاصة بنمو دولهم الاقتصادي .

مما بلغ من جودة هذه الجهود وتنوعها ونشاطها ، فإن تقنية اثر العمل السياسي على العمل الاقتصادي ما زالت ، بسبب بدايتها ، ابعده من أن تكون فعالة في جميع الحقول . وإن العمل في حقل النقد قد فاق أهمية ، بنتائج العملية ، جميع الأعمال الأخرى ؛ ويمكننا الكلام ، في هذا المجال ، عن ثورة حقيقية . فالشرق لم يستخدم النقود إلا نادراً قبل الاسكندر ؛ ولم تضرب الحكومات منها الاكيات قليلة ؛ حتى أن النقود لم تكن متداولة في مصر عالياً . فالعلائق التجارية مع اليونان واجور المرتقة هي وحدها التي اوجبت استخدامها ، وقد قامت القطع النقدية الاثينية - بصعوبة ، كما هو طبيعي - مقام القطع النقدية المحلية النادرة . وكان هذا النقص حاجزاً في طريق نمو المبادلات ، وبالتالي في طريق الإنتاج . ولكن كل ذلك تبدل تبدلاً عميقاً في أيام الاسكندر وخلفائه الذين ألقوا في التبادل ، بفضل ضرب المزيد من النقود ، السبائك المكشوفة على غير جدوى في مستودعات الملك الفارسي والواوي والقرامد الذهبية والفضية الموجودة في المعابد . ولكنهم لم يحققوا يوماً وحدة عيار ووزن النقود . فساد في آسيا النظام الاثيني الذي اعتمدته الاسكندر في مقدونيا ، بينما كان لمصر نظامها الخاص . غير أن تشابه النظام المصري بالنظمة الفينيقية والرودية قد سهل العمليات الحسابية التي تسبق المبادلة . وهكذا فقد حذا الاطاليون حذو المدن اليونانية في شاطئ آسيا الصغرى وضربوا ، وفاقاً للنظام الاثيني ، قطعاً نقدية كثيرة تبلغ قيمتها ثلاثة دراهم ولكنها توازي عملياً قطع الاربعة دراهم المصرية ، كما توازي قطع الثلاثة دنانير الرومانية . وقامت هنالك صعوبات أخرى كثيرة . فقد اضطر اللاجئين ، للحصول على معدن الفضة الذي اقتقرت اليه مصر ، للجوء الى سياسة تجارية . وقد طرأ على نسبة القيمة بين المعادن المضروبة ، لاسيما بين الذهب والفضة المستخدمين للعلائق الدولية من جهة ، وبين النحاس للتداول المحلي من جهة أخرى ، تغييرات هامة عديدة . فقد انخفضت قيمة النقد النحاسي على الاخص في مصر حيث أكثر الملوك ، لتلافي عجز الخزنة ، من اصدار تلك القطع التي ألغها رعاياهم البلدين فانتقلت النسبة الاولى الى ١/٦٠ بين الفضة والنحاس ، أكثر من مرة ، منذ السنة ١٦٠ قبل المسيح ، الى ٤٠٠ وحتى ١/٥٠٠ . ولكن نتيجة سيطرة الاغريق ، على الرغم من هذه السيئات ، كانت عظيمة على هذا الصعيد . فقد ارتد الشرق جميعه الى اقتصاد نقدي ، بينما لم تعتمد مناطق واسعة جداً في ما سبق سوى الاقتصاد الطبيعي والمقايضة . وجلي أن التجارة قد وثبتت بفضل ذلك وثبة كبيرة الى الامام .

النشاط الاقتصادي :
الزراعة والصناعة

لذلك فان نحو الحياة الاقتصادية مما يلفت الانظار اذ انها قد بلغت نشاطاً لم يسبق لها ان عرفته من قبل . غير ان المعلومات تعوزنا لوضع خريطة للمحاصيل الزراعية . فيجب علينا ان نكتفي بذئير البشارة الذي عبّر عنه آنذاك في ما يمكن ان ندعوه اليوم بالكلام السائر ، وبالصادرات التي من شأنها ان تترك مزيداً من الآثار في مستنداتنا . تفوقت مصر بوفرة الموارد التي حصلت عليها من أرضها . وحرى بنا القول انها تبدو متفوقة فقط لانه يجب علينا ان نأخذ بعين الاعتبار جهلنا المطبق بحيال بلاد البختيار التي نرجح انها كانت كثيرة الانتاج ، وجيلنا شبه المطبق بحيال بلاد بابل ، باستثناء ثروتها في زراعة النخيل والقمح . اما الملكية اللاجية فقد كان لديها كميات كبيرة من الحبوب للتصدير ، والمحاصيل الارضية الوحيدة التي اضطرت الى استيرادها ، الى جانب الخشب والمواد الصمغية الضرورية لاسطولها الذي لا وجود له في بلاد تقتصر الى الاشجار ، هي المحور المشورة او زيت الزيتون المفضل على زيت النباتات السنوية كالسمسم او الخروع . وتمتعت حينذاك اشجار فينيقيا وسوريا بشهرة مستمرة قروناً طويلاً . اما المناطق الساحلية في آسيا الصغرى فقد اضطرت الى استيراد القمح ، ولكنها باعت النيذ والزيوت والعسل ، بينما وجدت المناطق الداخلية في تربية الغنم تكتلة لانتاجها الزراعي .

كذلك لا تنراى لنا الصناعة الا من خلال صادراتها اي من خلال مصنوعات التزيينية . وفي هذا الحقل ايضا يتضح تفوق مصر الغنية بالمواد الأولية الثمينة وباليه العاملة الاختصاصية : فهي تبيع البردي الذي تكاد تحتكره احتكاراً ، وتبيع المصوغات والعطور والمنسوجات والخزفيات والزجاجيات والبرونزيات . ولكن فينيقيا تنافسها في اكثر هذه المصنوعات كما تنافسها « برغاموس » في الرق والخزفيات التي تقلد البرونز والعطور والمنسوجات التي تتخللها الخيوط الذهبية والتي تنتجها المصانع الاطالية .

واليك مثلاً محسوساً ابلغ من هذا التعداد يريك وفرة الانتاج في الشرق . في اعقاب زلزال دمر رودس حوالى السنة ٢٢٥ قبل المسيح تسابقت كافة الدول الهلينية في اظهار بواذر السخاء نحو المدينة المنكوبة . فلنكتف بالهبات العينية التي ارسلها الملكان اللاجي والسلوقي فوراً او وعدا بارسالها في اجل قريب جداً . فقد قدم الاول ١٠٠٠٠٠٠٠ لير قمحاً ، وكية من الخشب تكفي لبناء ٢٠ مركباً و ٢٠٠٠٠ متر من عوارض خشب الصنوبر و ٣٠٠٠٠ وزنة من الدسار و ٣٠٠٠ قطعة قماش للأشعة ، وقدم لاعادة صنع « الجبار » ٣٠٠٠٠٠ مثقال من البرونز ، بالاضافة الى مساهمة ١٠٠ مهندس و ٣٥٠ مدير اشغال ، كما قدم ٤٨٠٠٠٠٠ لير قمحاً للمباريات المقدسة والذبايح و ٨٠٠٠٠٠٠ لتغذية بحارة عشرة مراكب . وقدم سلوقس الثاني من جهته ، بالاضافة الى عشرة مراكب مع عدتها ٨٠٠٠٠٠٠ لير قمحاً ، و « خشباً وقطراناً وشعراً تبلغ عدة عشرات الآلاف من الاذرع وعدة ألوف من الوزنات » . فيمكننا انطلاقاً من اهمية هذه الهبات ان نقدر اهمية الانتاج والصادرات .

النشاط الاقتصادي : التجارة

كفى كل هذا لتفذية تجارة ناشطة جداً . ولكن التجارة قد فقدت ميزتها الخاصة في الوقت الذي تطورت فيه . ففي المتوسط الشرقي عجزت الزراعة والصناعة اليونانيتان عن الوقوف في وجه منافساتها التي لم يعوزها من قبل سوى التجهيز والتقنيات ، وهي التي وفرتها لها الإغريق انفسهم . والشرق الذي كان حتى ذاك العهد سوقاً لمصنوعات اليونان القديمة قد اقلق لأنه غدا يسد بنفسه اغلب حاجاته . لا بل اصبح باستطاعته ان ينافس المصنوعات المحلية في اليونان نفسها . اخف الى ذلك انه تعلم كيف يلجأ مباشرة ، دون وسيط اجني ، الى المبادلات التي استلزمها فائض انتاجه . فجاءت النتيجة ثورة تجارية حقيقية كانت أثينا اولى ضحاياها .

استمرت اليونان في الاستيراد ، أقله في استيراد الحبوب ، ولكن صادراتها تدنت ، ولم تعد تجارة بحر إيجه وفقاً على اسطرها . لا بل ان هذه التجارة قد انتقلت بمعظمها نحو الشرق وأمسّت تسير في اتجاهين ، شمالي جنوبي وجنوبي شمالي ، بين البحر الاسود ومصر بمحاذاة الشواطئ الشرقية . واستيطقت المرافئ الآسيوية من سبات عميق ولعبت رودس دور الوسيط بفضل موقعها عند ملتقى كافة الطرق البحرية : وقد أطلق على جزيرة في أحد مرفأَي الاسكندرية اسم « انتيرويس » أي مقابل رودس . ولكن الاسكندرية ، بنوع خاص ، عرفت نشاطاً غير مألوف غربي الدلتا . فبفضل تيار بحري قريب من الساحل حماها من غزو الروم الروسية ، وبفضل اتصالها بالنهر الكبير الذي هو شريان مصر كلها ، غدت مرفأ مصر الوحيد ومركز جميع المبادلات الخارجية . فكل ما يخرج من مصر أو يدخل إليها يجب ان يمر في أرصفتها ، وبها تنتهي ومنها تتفرع الملاحة الداخلية التي كان من شأن سهولتها ان تفوقت مصر تنافساً عظيماً على منافساتها . كان عمر الاسكندر أربعاً وعشرين سنة حين أصدر امره بتأسيس الاسكندرية : ففي ذلك اليوم ، كما في أيام كثيرة من حياته القصيرة ، غيّر وجه ومصير العالم الذي تناوله نشاطه .

ولكن المتوسط لم يحدد افق الشرق التجاري . فالاسكندر قد وسع هذا الافق بإندفاعه حتى تركستان ونهر الهندوس والخليج الفارسي . أجل كانت الفتوحات العسكرية عرضة لزوال سريع : فقد اضطرت خلفاؤه ، الى الشمال والشرق من ايران ، الى التخلي بسرعة عن بعض المناطق . وقد فقدت هذه المناطق النائية فقداً نهائياً منذ أوائل القرن الثاني ، ثم جاء الفارتيون من تركستان وتقدموا نحو الجنوب وأقاموا في بلاد بابل عازلين بذلك اغريق البختيار عن باقي العالم الهليني . ولكن هذا التراجع السياسي لم يحل دون استمرار العلاقات التجارية .

فقد اتاحت هذه العلاقات للمتوسطين الحصول على المصنوعات النادرة التي طبعت بطابع العظمة حياة الملوك من الطبقات الاجتماعية . ربما كان من الممكن استحضار بعضها من افريقيا الوسطى ايضاً ، كالعاج والاشخاب النادرة ، ولكن نقلها عن طريق المحيط الهندي كان اسهل

منه عن طريق الصحراء او السودان . وقد وفر عالم الشرق الاقصى للمناخي عطور وبنجور البلاد العربية ولآلئ الخليج الفارسي ولآلئ الهند الحيلة والماس والحجارة الكريمة . ثم ظهرت الافاويه فأحرزت نجاحاً مطرداً . واستورد القطن بكيات ضئيلة ، والحرير ايضا الذي فاق ما كانت تنتجه دودة برية هنا وهناك ؛ وقد نسج الحرير في صور وفي جزيرة كوس فأعجب به كل ذي ذوق مرهف ولكنه اخذ ، يوماً بعد يوم ، ينتشر الفياري على الاخلاق . ولم يكن لدى العالم المتوسطي شيء يبيعه بالمقابلة ، سوى الاقشة الملونة وانتاج صناعته الرائجة . ولا شيء من هذا يصدر بعيداً على العموم ، على الرغم من توفر الادلة على وصول الاقمشة السورية الى بلاد المغول . ولكن العجز يسد بتصدير النقود ، فتكون منذئذ وضع سيستم حتى في العهد الروماني .

بيد ان هذه التجارة كانت جزيلة الفائدة لجميع المعنيين ، لاسيما للوسطاء ، على ما نرجع . وقام تنافس شديد بغية الاشراف على طرقات هذه التجارة ، وحاولت كل بلاد ايصال هذه الطرقات اليها ، لتأمين الحامات الثمينة ولجني الارباح الطائلة من اعادة توزيعها او تحويلها . وقد تعددت هذه الطرقات . ولم تكن الطريق البحرية في ايدي الاغريق لأن اكتشاف الرياح الموسمية لن يحصل الا بعد زمن . فقد سيطر عليها البحارة العرب ، وحاول البطالسة توجيه معظم تجارتها نحو مرافئهم في البحر الاحمر ، وغالباً ما افلحوا في عمارتهم ، بينما عني السلوقيون ، في اقصى الخليج الفارسي ، بمرفأ « الاسكندرية خار كس » التي سيطلق عليها فيما بعد اسم انطاكية . وكانت هنالك طريق برية تمر في تركستان وتبلغ بحر قزوين ثم تنتهي الى البحر الاسود بعد ان تجتاز اودية القفقاس ؛ ويبدو انها قد اُهملت . وانطلقت الطريق البرية الرئيسية من البيختر وانتتهت ، بفضل القوافل الايرانية ، الى بلاد بابل . واسس السلوقيون هنا مدينة « سلوقية دجلة » التي هي عاصمتهم الشرقية والتي استخدمت مستودعاً لكل البضائع التي تنقل براً او بحراً . ثم تفرعت الطرقات نحو الغرب . ولكنها تبعت كلها - بسبب قلة استخدام وادي دجلة وبلاد ما بين النهرين العليا - مرحلة مشتركة هي وادي الفرات الذي سارت فيه صعوداً مسافات تتفاوت طولاً وقصراً . وقد اُفترق بعضها بسرعة عن هذا الوادي واجتازت الصحراء التي اخذت تزدهر فيها « مدن القوافل » واتجهت بخط مستقيم نحو مرافئ فينيقيا . وافتقرت طريق اخرى عن الفرات في سوريا الشمالية واتجهت نحو انطاكية ، عاصمة السلوقيين الغربية ، ومرفأ « سلوقية بيبريا » . واتجهت اخيراً اطول هذه الطرق الى ميله وافسس بنوع خاص ، على بحر ايجه ، مروراً في كيليكيا ووسط آسيا الصغرى . فأثارت هذه النقاط المتوسطية التي انتهت اليها الطرقات اطماع الدول المختلفة : فقد تنازع اللاجيون والسلوقيون بعناد السيطرة عليها . وكانت الغلبة للسلوقيين طيلة القرن الثالث . فسيطروا اذ ذاك على سوريا الجنوبية والشاطئ الفينيقي ، كما سيطروا على سلوقية بيبريا حوالى ثلاثين سنة . اما في الشمال ، فانهم قد أمنوا ، حين لم يسيطروا مباشرة ، حماية او تحالف معظم الطريدة الساحلية في آسيا الصغرى . ثم قلب السلوقيون الموقف رأساً على عقب ، واذا طردتهم روما من آسيا الصغرى لصلحة الاطالينيين ، فانهم قد احتفظوا ، حتى

الفوضى النهائية ، بسوريا وفينيقيا . واستهدفت حروب كثيرة فُتح أو اقفال نوافذ آسيا على البحر المتوسط : فقد حرص الملوك على الاشراف على المرحلة الاخيرة من التجارة مع الشرق البعيد بالإضافة الى العلاقات المباشرة مع اليونان القديمة .

وفي ذلك ما يلفت النظر الى صفة بارزة من صفات الحياة الاقتصادية في الملكيات الهلنستية . ففي كل الحقول تلقى الانتاج والمبادلات احثاثاً قوياً كانت نتيجته نمواً عظيماً . ولكن الدولة تدخلت في كل مكان لتوجيه هذا النمو توجيهاً يتلاءم ومصالحها .

كانت هذه المصالح ، في أغلب الأحيان ، أميرية ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، تستهدف زيادة دخل الضرائب أو إقامة احتكارات لمنفعتها الخاصة أحياناً . وكانت أحياناً تجارية أيضاً تستهدف زيادة الخزون من المعادن الثمينة في أراضي الملكية . فان زيادة انتاج بضائع الاستهلاك لا تتم الملوك إلا بالنسبة لحاجات الاغريق الذين رغبوا في إرضائهم لاجتذابهم اليهم أو لابقائهم على مقربة منهم ، ولكنها لا تهمهم بالنسبة للجماهير البلدية . وكان المهم في نظرهم ، كما كان في نظر المستبددين المستنيرين من قبلهم ، الموارد والمصنوعات المعدة للتصدير التي يجب الحصول عليها بأدنى سعر ممكن ، كي يستطيعوا التغلب على المنافسة . فلم يستهدفوا اذن رفع مستوى حياة الطبقات الريفية الدنيا ، التي تؤلف سواد رعاياهم : فإن إبقاءه منخفضاً ، على نقض ذلك ، شرط لسعر الكلفة المنخفض . وقد سبق ورأينا ان هذا المفهوم الضيق كان نكبة للاقتصاد اليوناني ، فسبب أيضاً ضعف السيطرة اليونانية على الشرق . فلم يكن الشرق ، في نظر الملوك ، سوى ارض للاستثمار سوا جهدهم ، بتحسين المناهج ، الى زيادة دخلها بغية زيادة وسائل عملهم السياسي . وقليلون جداً هم الملوك الذين لم يكتفوا بالدخل المباشر القريب ، بل فكروا بالمستقبل : ولعلمهم السلوقيون دون غيرهم ، ولكن الهزائم التي منوا بها لم تسمح للمستقبل بأن يبرهن انهم كانوا على حق .

لم يبلغ الاهتمام بالدخل المباشر القريب وتحسين مناهج الاستثمار في أية ملكية ، ما بلغه عند اللاجئين . فقد اقاموا في مصر نظاماً يصح في تحديده التعبير « اقتصاد مباشر » بالتفضيل على « اقتصاد موجه » ، والمقصود بذلك اضيق تدخل دولي مباشر لا يهتم إلا لجباية الاموال الاميرية . وقد مهدت الطريق امامه كل تقاليد البلاد الناشئة من الظروف الجغرافية نفسها التي فرضت وجوب مراقبة فيضان النيل والاستفادة منه الى ابعد حد ، وهو في الوقت نفسه علة ومعلول لانقضاء الفلاحين المنظم . ولكن الملكين الاولين من الملوك البطالسة استفادوا منه بصرامة منطقية ومرونة في الابتكار ودقة في التنظيم تشير كلها دهشة المعاصرين الذين قطعوا ، على صعيد « الاقتصاد المباشر » ، المرحلة التي تجوز فيها الدهشة . فتوصلا ، لحير خزائنتهم الاكبر ، الى التوفيق بين « التصميم » والسلطة والرقابة والتلزم والضرائب والاحتكار .

القسم الأكبر من مصر 'ملك الملك المباشر' . يلزم قطعاً صغيرة وفاقاً لدفتر شروط دقيق جداً ، ويستثمر ، فيما يخص الزراعات الرئيسية ، وفاقاً لأوامر الملك . بمجدد وزير الاقتصاد كل سنة المساحة الواجب بذورها في كل مقاطعة ، أقله فيما يخص القمح والنباتات الزيتية والكتان . ويوزع الموظفون الأوامر العائدة للبذر بين المزارعين ويتأكدون من تنفيذها . وتسلف الدولة حبوب البذار . ويصدر الأمر بجمع المواسم التي تحجز وتخزن في مكاتب عمومي تحت حراسة اشخاص مسؤولين يصادرون في كل قرية . وهكذا تحصل بالتفضيل حقوق الدولة بنسبة متساوية تحددها هي : إعادة البذار مع فائدته ، استيفاء المتأخرات المطلوبة للخزانة ، دفع الضرائب وقيمة التلزم . ثم يرفع الحجز ويستطيع الفلاح التصرف بما تبقى له ... إذا لم يكن الصنف خاضعاً لاحتكار ما . ومنالك في الواقع أكثر من احتكار ، لا على الحبوب ، بل على الزيت مثلاً الذي نعلم عن احتكاره الشيء الكثير بفضل بردي يحمل نص امر صادر عن بطليموس الثاني . ويتضح من هذا الأمر ان الحبوب الزيتية يجب ان تباع كلها ، دون أي استثناء ، الى ملتزم وانه يحظر على الفلاح ان يفتني في بيته هاوئاً او معصرة او اي شيء آخر من هذا النوع . وتخضع العمليات اللاحقة كلها ، منذ نقل الحبوب الى معصرة الزيت حتى بيع الزيت الى المستهلك ، مروراً بعملية سحق والنقل ، الى سلسلة من التلزمات التي تفرض عليها الضرائب واعمال الرقابة التي تعاقب ادنى مخالفة بالجزاء النقدي . اضاف الى ذلك ان الدولة تحدد السعر في كل مرحلة من هذه المراحل فتستطيع من ثم ان تعين حداً ادنى لأرباح الملتزمين . فنتج عن ذلك انه كان بالامكان الحصول على زيت الزيتون ، مع انه مستورد من الخارج ، بسعر دون سعر الزيت المحلي بمراحل ، لو لم تراقب الدولة استيراده وتفرض عليه رسوماً مرتفعة جداً .

تعبينا هذه الأمثلة من استعراض الاحتكارات والضرائب التي لا حدة لها . وهي تظهر ، بما فيه الكفاية ، ان الحياة الاقتصادية كلها في مصر اللاجية ترتبط بالملك ، وان نموها لا يفيد سوى الملك . وقصد يؤدي رضى الملك ، الذي يظهر باقطاعات عقارية قابلة الابطال توجب استثمار الاراضي الجديدة ، الى انراء بعض المقربين المحظيين . واستطاع الاغريق النشيطون الماهرون ، الذين لقوا كل ترحيب في المملكة ، ان يحصلوا فيها بسهولة على قسط وافر من اليسار . اما الجماهير البلدية فقد اضطرت الى العمل كي توفر لسيدها سبل اقباط سلطته وسخائه ، في حال انها لم تتأكد يوماً من انها ستبلغ اوضاع مستوى حياتي .

لم يبلغ « الاقتصاد المباشر » هذه الدرجة من الاحكام في الملكية الاطالية التي ارتفعت فيها ، على كل حال ، نسبة الاغريق والشرقيين « المستقرين » الذين يصعب تطبيق هذه الاساليب الشديدة حيالهم . غير ان اختلاف الاساليب لم يحل دون وجود نزعة عامة بماثلة . ان المشكل اللاجي لا يمكن تحقيقه الا في ارض الفراغة : ويبدو ان الاطاليين قد حاولوا الاقتراب منه جهد المستطاع . فهم قد امتلكوا قسماً كبيراً من السهول واستثمروها بواسطة فلاحين فدائيين

ينقلونهم من ارض الى ارض كما يطيب لهم . واقتطعوا قسماً من الحصاد في الاراضي المقطعة للفلاحين اليونانيين . وفرضوا اموالاً اميرية باهظة حتى على المدن اليونانية التي حدث ان حجزوا ممتلكات معابدها مقابل مساعدة سنوية للخدمة الإلهية . وكان لهم مصانع ملكية يعمل فيها العبيد رجالاً ونساء . وتصرفوا بمواد خامية او مصنوعة ، تجروا بها او وزعوها لدعم دعاوتهم ودبلوماسيتهم . فلم تستطع الطبقات الاجتماعية الدنيا عندهم ، كما عند اللاجئين ، ان تشعر بأي تغيير في مصيرها المادي ، بفعل السيطرة اليونانية ، غير وطأة ادارة اشد حرصاً على مصالح الملك المباشرة واكثر دقة في تحصيل مطالبيها .

لا نجد التراخي في هذا المجال الا عند السلوقيين . ولا يعني ذلك ان هذا المثل الأعلى بالغريب عنهم . فن حيث هم ملاكون كبار ايضاً ، فان لديهم وكلاء يراقبون استثمار اراضيهم بواسطة فلاحين مرتبطين بها . وقد حصلوا ، اقله في بعض المناطق ، كبلاد بابل التي تتوفر لديها المستندات صحتها ، ضرائب تستلزم رقابة الاشخاص والمواشي والاشجار والحاصلات وكافة المبيعات . فلم يأنفوا اذن من رقابة النشاط الاقتصادي رقابة شديدة . ولكن اتساع رقعة مملكتهم قد وفر لهم دخلاً كبيراً دون اللجوء الى الرقابة التي لجأ اليها اللاجئين . لا بل ان مملكتهم اوسع من ان يكون ذلك ممكناً ، لانه يفرض عليهم اختصاصيين وموظفين كثيرين جداً . فاضطروا والحالة هذه الى تنازلات عديدة تاركين لجماعات بشرية مختلفة حياتها الاستقلالية شريطة دفع ضريبة اجمالية سنوية هني رمز خضوعها . ويبدو ، حتى في الاراضي الملكية ، ان ادارة قرى الفلاحين لم تكن ضيقة ولا مزعجة . وتمتع ، بقسط اوفر من الاستقلال ، السكان المرتبطون بالامراء ذوي الاخاذات او بالمعابد التي يدير كهنتها « الارض المقدسة » ، وخصوصاً « القوميات » المحلية التي سارت في حياتها ، كاليهود مثلاً ، على شرائعها الخاصة ، اي وفاقاً لتقاليدها ، والمدن ايضاً يونانية كانت أم غير يونانية . اجل قد يحدث ان تلج الحاجة الى الضرائب وان يفرض ترميم الجيش ، مثلاً ، بعض المساعدات العينية ، او ان يقرر الملك مؤقتاً ، بسبب حاجته الى المال ، وضع اليد على كنز معبد من المعابد . ولكن ذلك لم يعتمد قاعدة ولم يصطبغ بصبغة النظام اللاجبي : فليس ما يقيد عمل الرعايا اليومي بتنظيم دقيق معدٍ للتهديد لما يشبه مصادرة ارباعهم .

٤ — الاتصال بين المجتمعين

من المحتم ان يترك هذا الخلاف اثره في الحياة الاجتماعية . اجل باستطاعتنا ان ننظر الى هذه الحياة من زوايا عديدة . ولكن الجودة الكبرى ، في هذا النطاق ، مردها الى دخول الاغريق بين الاجانب بنسبة متفاوتة الارتفاع . فقد برزت من ثم معضلة عظيمة الاهمية هي معضلة الاتصال بين حضارات متباينة الجوهر واستساغة جماعة بشرية لجماعة اخرى وتبادل التأثيرات والانفعالات . غير ان معطيات هذه المعضلة تختلف اختلافاً كلياً اذا الملك شجّع هذا الاتصال وهذه الاستساغة او لم يشجعها .

أما المقصود هنا هو المدينة اليونانية .

المدينة اليونانية
وال مواطنون الأصليون
لا يستطيع الملوك الهلينيون ، لاجتذاب الاغريق الذين لا غنى لهم عنهم
والإبقاءهم عندهم ، ان يكتفوا بتأمين الفوائد المالية لهم . فالأغريقي لا
يشعر حقاً انه في جوفه إلا كمواطن في مدينة ، اي ليس فقط كساكن مدينة تتوفر فيها بعض
الابنية والتجهيزات المادية ، بل ايضاً كمعضو ، بكل ما للكلمة من معنى قانوني ، في جماعة تدير
شؤونها بنفسها : بهذا الشرط وحده يمكنه ان يترقى الى تحقيق المثل الاعلى للانسان الذي يمكن
في جوهر مثله الاعلى للحضارة . وهنا هنا ، دون ان نعود الى امر العلاقات السياسية والادارية
بين المدينة والسلطة المركزية الذي يطرحه هذا المثل الاعلى على بساط البحث ، ان نستخلص
نتائجه حيال المجتمع البلدي .

تريد هذه المدن ان تكون ديموقراطية ، وهي ديموقراطية في الواقع . ولكن كما ان المبادئ ذات
الاهمية العالمية في الظاهر لم تتناف ، في المدينة الديموقراطية الاولى التي هي أثينا ، مع وجود الاجانب
المقيمين والعبيد ، كذلك لم ير الاغريق ، في المدن التي أسست في الشرق ، ضيراً في ان يوجد الى
جانبهم في مدنها نفساء سكان ينتسبون الى طبقة اجتماعية يعتبرها القانون متدنية . ومعظم هؤلاء
السكان عملياً من البلديين المنقطعين للنهن المدينة الحقيرة وللأعمال الزراعية في الاراضي الريفية
التي تمتلكها المدينة . ولهذا التخلّف القانوني ما يبرره في نظر الاغريق التخلّف الحضاري ، وقد
وجدت فيه غطرستهم ومصالحتهم ارضاء كافياً لكي ينتقلوا من فكرة الحضارة الى فكرة
العنصر : فالبلديون ، بالتحديد ، أدنى من الاغريق وعليهم ان يخدموهم كما يخدم العبيد اسيادهم .
تلك هي العقيدة الصافية التي طلع بها العهد الكلاسيكي والتي تركت رواسب عميقة كثيرة في
العهد الهليني على الرغم من بروز مثاليات تناقضها تناقضاً كلياً .

ولكن الاتصالات تتم على الرغم من كل شيء . فالرجال بين الاغريق أنفسهم كانوا الى حدّ
بعيد أكثر عدداً من النساء : فاقترض في أغلب الاحيان السلاح بالزواج المختلط . اُضيف الى ذلك
ان الحياة اليومية جعلت الشرقيين الذين يعيشون في المدينة يتحدون ، احتكاكاً على الاقل ،
بالحضارة اليونانية . وألف الاغريق في المدينة بروجوازية تسير الامور على هواها ويقتفي
الآخرون أثرها في اللغة والزي والعادات . وتوصل البلديون أحياناً الى دخول بعض الجمعيات
والى ادخال اولادهم في الاندية الرياضية التي توزع فيها التربة اليونانية الاصلية . وفي الظروف
الملحة ، كالحرب او تدني نسبة الاغريق مثلاً ، استفاد بعضهم من تخلفوا بالاخلاق اليونانية من
الترفيع رسمياً الى مستوى اعلى بما فيه مستوى المواطنين . اُضيف الى ذلك ان الملك ، دون ان
يتقيد بهذا الشرط ، قد لى فيهم معاونين جليلي الفائدة فعمط عليهم ورفعهم احياناً الى
اعلى المراتب .

كان قيام المدن اليونانية وتعددتها ، بالضرورة ، اذن ، عاملاً قوياً من عوامل نشر الحضارة

اليونانية . ولكن ذلك لم يكن كله لمصلحة الملوك . فالمدينة تولت شؤونها الخاصة ، مما بسط جهاز ادارة الدولة ؛ ولكن ذلك لم يعف من مراقبتها وحتى التفاوض معها ، مما أخر تنفيذ الاوامر . ولم تنشأ ، مادياً ، اية مدينة حديثة الا بنفقات باهظة تتحملها في البداية الخزانة الملكية . وكانت اراضيها تقتطع من الممتلكات المستثمرة لحساب الملك ، في حال ان الرسم السنوي الذي تدفعه يبقى ابدأ دون دخل هذه الاراضي فيما لو بقيت تحت تصرف الملك ؛ ناهيك عن الاحسانات التي سيري من الموافق فيما بعد ان يتكرم بها عليها . ثم ان البلدي « المستغرق » كان مدعوا ، عاجلاً أم آجلاً ، الى ان يصبح يونانياً ، مما يوفر عليه بعض الواجبات المالية ويخلصه من العبودية الاقتصادية التي كان نظامه السابق يخضع لها .

كان من ثم على الملوك الهلنيين ان يختاروا احد امرين : اما ترسيخ نتائج فتح الاسكندر عن طريق تشجيع « الاستغراق » بتعمير مملكتهم على الطريقة اليونانية ، واما الابقاء جهد المستطاع ، لا سيما بتحديد انشاء المدن الجديدة ، على الحاجز الفاصل بين المجتمعين مع فوائد ذلك للخزانة الملكية . وبديهي انهم لم يختاروا كلهم حلاً واحداً ، وباستطاعتنا ، انطلاقاً من النزعات الاقتصادية ان نستخلص نزعات السياسة الاجتماعية عند هذه السلالة او تلك . وهنالك في الواقع نزعتان : نزعة اللاجئين ونزعة السلوقيين .

١ - الحل اللاجئي في مصر

احتاج اللاجئون الى الاغريق ، شأن الملوك الآخرين ، فاجتذبهم الاغريق والبلديون في مصر : الى مصر بتأمين تسهيلات المعيشة لهم ، وتوفير اجور مرتفعة المدن جداً أحياناً اذا كان هؤلاء الاغريق موظفين او عسكريين ، اقله لكبار الرؤساء بينهم . وقد اختلفت علاقات هؤلاء الاغريق بالبلديين خارج المدن عنها في المدن نفسها .

قامت في مصر بعض المدن اليونانية . اقتصرت فيها السلطة الملكية ، التي وضعت لها نظامها الاساسي والتي كان باستطاعتها تحويله ، على مراقبة الادارة التي هي مشتركة مبدئياً . وكانت الاسكندرية بين هذه المدن « على مقربة » من مصر لا في مصر نفسها . وألفت هذه المدن ، من الناحية النظرية ، مناطق حرّة داخل البلاد المصرية شعر الاغريق فيها كأنهم في بلادهم . وكان في عداد سكانها جماعات غير يونانية : اًجانب وخصوصاً يهود جاؤوا باعداد كبيرة لاسيا وان فلسطين قد خضعت للتاجيين حتى أواخر القرن الثالث ؛ وبلديون أيضاً ، كما هو طبعي ، حفظ لهم مؤسس الاسكندرية نفسه مكانهم يجعل أسوارها تضم قرية راكوتيس المصرية . وحدث من ثم في هذه المدن التطور المحتم . فتأثرت العناصر غير اليونانية بسرعة بالحضارة اليونانية مما أرغم منذ البداية على محاولة الحد لا من اقامة هذه العناصر في المدينة بل من تسريبها الى المجتمع اليوناني . وقلنا ان معلوماتنا الاسكندرية بنوع خاص حيث تجلّي الخطر جسيماً بفعل

نشاط الحركة التجارية التي توفر المزيد من ظروف العمل الحر . ولكن هذه المعلومات تكشف الستار عن ذهنية عامة . فقد حرم الزواج المختلط بين الاغريق والبلديين وقسم سكان المدينة الى فئات متميزة أخضع الانتقال من احداها الى فئة اخرى لتنظيم شديد ليس الحداد معه بالامر اليسير . ولم ينح حق « البورجوازية » بمعناها المصري دون احتياطات حتى للاغريق العريقين . وما لبثت الاسكندرية ان اُمتست احدى كبريات مدن العالم القديم ، فأُمتست بالتالي أكثرها هياجاً بسبب وجود القصر الملكي فيها وما يستتبعه هذا الوجود من صخب سياسي ، وبسبب تنافس الجماعات البشرية التي يبرز اتصالها اليومي الفوارق بين أوضاعها القانونية : وسيلعب هذا الهياج ذروته في القرون الاولى بعد المسيح في الاضطرابات المعادية لليهود .

وتقع مسؤولية هذا الوضع في المحدث على الاغريق أنفسهم أكثر منها على الحكومة بسبب تمسكهم بامتيازاتهم . ولكن الملوك من جهتهم يتحاشون زيادة عدد المدن اليونانية . فقد قسام منها ، أولاً واخيراً ، ثلاث في مصر : نوكراتيس ، المستعمرة القديمة على الدلتا ، والاسكندرية التي أسسها الاسكندر ، ويطوليايس ، المدينة اللاجية الوحيدة ، التي أنشأها بطليموس الاول في مصر العليا . ولا يعقل ان يكون الملوك اليونانيون قد اكتفوا بهذا العدد إلا عن قصد وتقصير ، للحد من « استفراق » البلديين والحوول دون قيام مناطق حرة كثيرة في مملكتهم تحدد من سلطتهم المطلقة . فان رعاياهم يفلتون من أيديهم بعد ان يقيموا في المدن . لذلك بدأ الابقاء على الوضع الاجتماعي لسواد المصريين شرطاً للابقاء على وضعهم الاقتصادي : فاللاجيون كانوا بحاجة الى يد عاملة يحصلون عليها ويسخرونها على هوام .

ولكن وجد ايضاً اغريق في مصر في غير هذه المدن الثلاث ، ولم يحدث شيء من الريف حريتهم في الإقامة والانتقال . غير ان مشاريع الدولة الاحتكارية لم تقسح سوى مجال ضيق لاقدامهم ومبادهاتهم التجارية . لذلك فان أكثر الذين عاشوا في الريف المصري لم يأتوا اليه من تلقاء انفسهم : فالملك الذي يقدر تفوقهم التقني قد اقامهم فيه لاعتبارات مختلفة . وقد استخدمت الادارة ، التي لا تعترف بغير اليونانية لغة رسمية ، عدداً كبيراً منهم حتى في مراتبها الدنيا . وقد اقطع بعض المخططين منهم اراضي واسعة نشطوا في استثمارها بمساعدة قيمين يونانيين وفاقاً لمناهج افضل . واعتمد اللاجيون اخيراً على نطاق واسع نظاماً استعماريّاً عسكريّاً لمصلحة الجنود اليونانيين في الدرجة الأولى .

ان هذا النظام يعفي الملك من دفع الاجور بين التعبئة والتعبئة ، وله الفضل بالاضافة الى ذلك في ابقاء رجال الجنودية الممتازين في مصر وفي حملهم على الزواج والانجاب الأولاد فيها . يبقى الجندي مرتبطاً بوحدة معينة من وحدات الجيش تحت امرة رئيس معين . ولكنه في الوقت نفسه يتصرف « بقطعة » ارض تؤمن له زراعتها أوده وأود عائلته وحتى أود حصانه اذا كان فارساً . وتتفاوت مساحة القطعة بتفاوت مرتبته ومركز الوحدة التي ينتمي اليها .

وعلى الرغم من ارتفاع عدد هذه القطع في بعض المناطق لا سيما في الفيوم حيث افضت الاعمال الى توسيع رقعة الاراضي الزراعية ، فانها قد كانت مع ذلك منتشرة هنا وهناك يخضع توزيعها لعاملي الترفيع والشفور : ونادراً ما عاد التصرف بها لشخص واحد ؛ كما لم يكن من الضروري ، من جهة ثانية ، ان يتجاور فيها الجنود المنتهون للوحدة نفسها في الجيش . وتبقى الارض مبدئياً ملكاً للملك ولا يتصرف بها الجندي إلا تصرفاً مؤقتاً : عند وفاته تستعيد الادارة القطعة ويمكنها ان تسلمها لمن تشاء . ولكن تطوراً محتوماً أدى بسرعة الى التنكر لهذا الوضع القانوني . فالملك يكون سعيداً جداً في ان يبقى في القطعة الابوية ابن الجندي المتوفى شرط ان يصبح هو نفسه جندياً . وهكذا غدا الجنود رويداً رويداً يوصون بأراضيهم لأراملهم أو يرهنونها أو يبيعونها للغير : فأصبحت الارض المقطعة للجنود ، علياً ، ملكاً خاصاً في النهاية .

وهكذا أقام الاغريق في أملاكهم في الريف المصري . عاشوا فيها بين البلديين ، وقد زاد من الاتصال بينهم انه تعدد تشيد بيوت جديدة كافية لجميع هؤلاء السكان الجدد . واستعمل الملك لساكنهم حقه في المصادرة : ففرض على ملاكي البيوت ان يتنازلوا عن نصفها للجنود ، تنازلاً مؤقتاً في البدء ما لبث ان اصبح نهائياً كتملك الارض المقطعة . وإذا أدى هذا الوضع أحياناً الى تساكُن حقيقي ، فانه كان أبعد من ان يجعل هذا التساكُن ذا فعالية من حيث التقارب الفعصري . اجل لم يفيض المصريون الاجانب بغضاً مبدئياً ، ولكنهم رأوا في هؤلاء الجنود دخلاء يجرمونهم من قسم من بيوتهم ، وزاد في حقدهم التصادم اليومي المتعدد الذي يسببه الجوار القريب : ولم يرضوا مرغين بهذا التدبير إلا بعد زمن طويل .

اضف الى ذلك انهم نظروا الى الاغريق نظرتهم الى من يحسم ادارة مزعجة متطلبة يثقل ممثلوها المباشرون والملتزمون مطالبيها بتجاوزاتهم . ومن حيث ان البلديين ، من جهة ثانية ، فاقوا الاجانب عدداً الى حد بعيد ، لم ينتشر الاستغراق انتشاره في المدن . لا بل غالباً ما تأثر الاغريق أنفسهم بالاخلاق المصرية ، لا سيما وان الزواج المختلط الذي حرّم في المدن ، قد سمح في الارياض في ما يظهر . ولكن نظاماً ما شبه مدني خاصاً بمصر ظهر مع ذلك ببطء ، أقله في القرى الكبيرة ، ولا سيما قواعد الانسام الادارية الهامة : بورجوازية حاولت الاحتفاظ بظاهرها اليوناني بفضل جمعياتها وتربية أولادها في الاندية الرياضية وبلغت تقريباً ما حاولته ، ولكن بكثير من الزيف والافساد .

من حيث ان الفلاحين لم يستغرقوا ، فانهم لم يخلصوا يوماً لسلالة كانت أبعد من الملكية اللاحقة ان تصبح سلالة قومية بسبب اعتدادها في الحرص على البقاء يونانية . ومهما بلغ من امر انقيادهم السلمي ، فان هدوئهم كان منوطاً بالوضع المادي الذي يوفر لهم . وقد وعى الملوك ذلك ، وانسجماً منهم مع المثالية الملكية ، من جهة ثانية ، أو صواباً ، بالعدل والسنّاهة وتقبلوا شكوى رعاياهم وتباهوا بتقويم الاخطاء وتوزيع السعادة .

ولكن شتان بين النظرية والواقع لأنه قام بينها موة لم يتح لتقنية الادارة اذ ذلك ان تربطها . فلم تحمل الرقابات على انواعها دون تجاوزات الموظفين ولا دون اختلاسات ملقزمي الضرائب أو الاحتكارات المسؤولين شخصياً عن كل نقصان والمقضي عليهم من ثم بالافلاس اذا ما برهنوا عن نزاهة كلية . ومن حيث ان النظام الاقتصادي والمالي كان مصمماً بحيث لا يترك للبليدين إلا الحد الأدنى من كفاف العيش ، فقد آل مصيرهم الى بؤس لا يطاق بفعل التجاوزات أو التقصير وكلاهما لا مناص منها بين آونة واخرى .

أخذت الآلة بالصرير باكراً جداً . فلجأ الفلاحون المصريون ، بصورة فردية ومتفرقة أولاً واكثر تواتراً ثانياً ، الى ايسر وسائل الاعتراض : الاضراب . وليس المقصود بالاضراب رفض العمل والبقاء في المنزل ، اذ ان للملك حق المصادرة والسخره ، بل الاختفاء او الهرب الى مكان تجعلهم امتيازاته بأمن من ملاحقة الشرطة ، اي الى أحد المعابد على العموم ، فحاولت الادارة مكافئة ذلك بالحد من الحق الممنوح للمعابد في الحماية وبإضافة قسم على عقود العمل بمتابعة العمل حتى النهاية « وبالإمتناع عن الذهاب الى معبد إله او مذبح ملكي او مكان حاية او مكان محصن » . ولكن ذلك لم يمنع انتشار المقاومة السلبية .

وقد حدثت في اواخر القرن الثالث واولئل القرن الثاني ، ثورات علنية في مصر العليا وفي الدلتا . وكان مصدرها ، كما يقول بوليب ، غطرسة المصريين الذين ارتكبت الدولة خطأ في تسليحهم وقدرتهم كالجند المقدونيين لمواجهة ضرورات الحرب ضد السلوقيين والذين نسبوا لأنفسهم الفضل في احراز النصر . ليس من ريب في ان هذه التدابير العسكرية كانت بمثابة اعلان الانتفاضات . ولكن سبب الانتفاضات البعيد العميق كان وطأة الرسوم على انواعها التي أثقلت كاهل البليدين .

التف الثائرون حول زعماء أطلق بعضهم على انفسهم لقب الفرعون ، فعاقبهم اللاجيون عقاباً صارماً . ولكن ما ان تم اخضاعهم حتى عمد عدد من الملوك الى سياسة التنازلات ، لا سيما حيال الطبقة الكهنوتية التي اعدوا اليها امتيازاتها وتكرموا عليها بهبات سخية . ووسعوا مساحة الاراضي المقطعة للجنود المزارعين الذين من اصل مصري ، حتى دون إلحاقهم بوحداث عسكرية ارفع شأناً عن طريق تغيير قوميتهم الرسمية . وخصوا ببعض الامتيازات المصريين الذين قبلوا بالاستغراق ، وقد بلغتنا اخبار بعض حالات ذات مغزى في هذا المجال . فالتخذ مصري يدعى « نختسافيس » اسم « مارون » اليوناني ثم حصل على لقب « مقدوني » . وقصد حصل مصري آخر يدعى ديونيزيوس — بيتوساراييس على لقب « صديق الملك » . غير ان كل ذلك لم يكن سوى امور استثنائية . فالسواد الاعظم لم يؤخذ بهذه المغريات التي لم تفره قط . ولعله لم ير في مثل هذه التنازلات سوى دافع آخر جديد للاستمرار في تعلقه بتقاليده .

واذا حدث من جهة ثانية ان ضعف السلطة الملكية المتزايد ، الذي أدى الى الفوضى الادارية

وعقم الانظمة الشكليه ، ، قد خفف من الظلم الذي شكاه منه الفلاح ، فانه قد سهل في الوقت نفسه اختلاسات الموظفين التي ما زال الفلاح ضحيته ، دونما ملجأ بعد بروز هذا الضعف . واستمر الهرب الذي غدا ، عند الريفيين المصريين ، تقليداً لم تقو روما نفسها على استئصاله .

يستحيل إذن تكران الفشل النهائي في كافة الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية الذي منيت به الادارة اليونانية في مصر : وكان بوسع روما ان تقطف هذه الثمرة الناضجة للفتح ، قبل ان تقدم على ذلك بزمان طويل ، والشيء الخطر في هذا الصدد هو ان اسباب الفشل كانت داخلية بنوع خاص : فالصعوبات الجديدة لم تأت من الهزائم التي اوقعها باللاجئين العدو الخارجي ، بل من داخل مصر ، لأن انضواء الرعايا لم يحصل . ورد بعض المؤرخين المتأثرين بالاقتصاد الحرّ هذا الضعف الداخلي الى مبدأ النظام المباشر والموجه نفسه الذي اعتمدته الملكية مثلاً أعلى ولكنه لم يلزم باستمرار الانسان ولا الأشياء . ان هذا الاستنتاج مقلّ في اذ كان المقصود اعطاء صفة الشمول والديمومة . فالاقتصاد اللاجبي لم يكن بعد يستطيع الحصول والاعتماد على جميع الوسائل التقنية ، البشرية والمادية ، الضرورية لبلوغ الهدف . فالأجدر ان يردّ هذا الضعف الى التصميم على اقصى استثمار اناني الذي ساد تطبيق هذا النظام ، لأن اللاجئين لم يسعوا الا الى زيادة مواردهم المباشرة التي جنوها من احتلالهم ومن رعاياهم ، ولم يريدوا استخدام هذه الموارد المصلحة الملك وسلطانه الذي هو اداة سياسته الخارجية بدلاً من استخدامها لرفع مستوى حياة المصريين اي لضمّهم الى الأغريق تحقيقاً لمصلحة هؤلاء واولئك المشتركة .

٢ - الحل السلوقي في آسيا

كانت سياسة السلوقيين ارحب آفاقاً . ولعلمهم ادركوا مهمتهم منذ البدء ادراكاً يختلف عن ادراك السلوقيين . وهناك حالة عائلية تقدم دليلاً ذا مغزى على هذا التباين . في السنة ٣٢٤ ارغم الاسكندر ، في « سوزة » ، ثمانين من كبار ضباطه على الزواج من نساء ايرانيات ، كما فعل هو نفسه . فكل الذين وصلتنا اخبارهم ابطلوا زواجهم بعد موت الفاتح ، متبنكين بذلك لسياسة الامتزاج التي ارادها الاسكندر ، ومرتبدين الى عصبية عنصرية أكثر انسجاماً مع التقاليد اليونانية . ولم يشذّ عنهم سوى واحد فقط هو سلوقس نفسه الذي كان مدعواً لأن يؤسس السلالة التي كان القسم الأكبر من آسيا الغربية من نصيبها . فهو لم يطلق « اقاميا » البختيارية او انه لم يطلقها الا في عهد متأخر ؛ واطلق اسمها على عدة مدن انشأها يكاد يوازي عددها عدد تلك التي اطلق عليها اسم والدته « لارديكي » ، كما سلّم مملكته الى ابنه انطيوخوس الذي احببه منها . فلم يأنف السلوقيون فيما بعد ، اقله في بعض الظروف ، من تزويج بناتهم الى بلاطات ثلوية في آسيا الصغرى او التزوج من بنات هذه البلاطات التي لا ريب في انها استغرقت باطراد ولكنها من اصل عيل ، لا سيا امرة الـ « متريدات » الايرانية ، اسيا د كبادوكيا الهونثية . وليس من ريب في انها مصاهرات

دبلوماسية ، ولكنها تناقض بوضوح حرص البطالة في العهد نفسه على نقاوة الدم التي كان من مبالغتهم في المحافظة عليها انهم رأوا خير حل لها في زواج الملك من شقيقته .

بيد ان الواجب يقضي بأن لا نبالغ في أهمية هذا التفرد من الوجهة العملية . وان هنالك في الحقيقة اسباباً أخرى لسياسة السلوقيين : فهي لا تخضع لمبادئ مقررّة في الحرية حددتها الوراثة خضوعها لضرورات ملحة . فالسلوقيون أيضاً يستهدفون الثروة للتنمتع بالقوة . ولكن مساحة مملكتهم وعدد رعاياها ، وكلاهما يفوق مساحة وعدد رعايا مصر ، اتاحا لهم تأمين موارد كافية دون اثقال مطالبهم . اضاف الى ذلك ، وهذا هو الامر الجوهري ، انهم لم يحكموا ، شأن اللاجئين ، شعباً واحداً ، واحداً بمحضارته التقليدية ، ومرغماً على الوحدة بوحدة ظروف المعيشة نفسها وبالنظام الذي تفرضه عليه الطبيعة . فليس ما يشبه دولتهم في اختلاف عنصرياتها : الاغريق والاسيانيين والساميين والارابيين ، وكلهم شعوب يختلفون جنساً ولغة وديانة وتنظيماً اجتماعياً ومستوى تقنياً ونوع معيشة . القوة العسكرية واتفاق الظروف هما اللذان جمعا هؤلاء الرعايا المختلفين تحت سلطة سيد واحد . غير انه لا يعقل ان يتوق هذا السيد الى مراقبة حياتهم اليومية باقامة ادارة تتوفر لديها وسائل العمل والموظفون للسيطرة على هذا الواقع المتعدد الاجزاء ، فاضطر اضطراراً لاعتماد اساليب أخرى .

لا تترك اعمال السلوقيين نجلاً للشك حول الاسلوب الذي اعتمدوه بالتفضيل على غيره : نشر الحضارة اليونانية . فهم لم يروا فيها حضارة متفوقة تقنياً في الحقلين الاقتصادي والعسكري فحسب ، بل العاد الأكبر المشترك الوحيد بين رعاياهم . اجل بقي امامهم ان يحولهم اليها . ولكنهم لم يخشوا نتائج هذا التحويل بل شجعوه وفقاً لخطة مرسومة بالاقدام على انشاء المدن وبالتأثير على النخبة الاجتماعية بين الشعوب البلدية .

بلغت جهودهم في سبيل « تدوين » مملكتهم على الطريقة اليونانية السلوقيون والاكثار من المدن شأواً بعيداً يقع في النفوس موقعاً جليلاً : وهم قد برهنوا في هذا المجال ايضاً ، ولأسباب نفسها ، عن تفيدهم بمثل الاسكندر ، ولكن بصورة اكثر ظموراً واستمراراً منها في الزواج المختلط . ومن اشهر ما انشأوا مدينة « انطاكية - على - العاصي » في سوريا ، ومدينة « سلوقية - على - دجلة » في بلاد بابل . ولكنه من السهل علينا ان نذكر مدناً أخرى كثيرة ، ويعزو التقليد الى سلوقس الاول وحده تأسيس ٥٩ مدينة : ١٦ انطاكية (على اسم ابيه) و ٩ سلوقية و ٥ لاوديكي الخ ... اجل قد خف هذا النشاط بعد ذلك ؛ ولكن انطيوخوس الرابع ، حوالي السنة ١٧٠ ، قد جدد بعض الشيء .

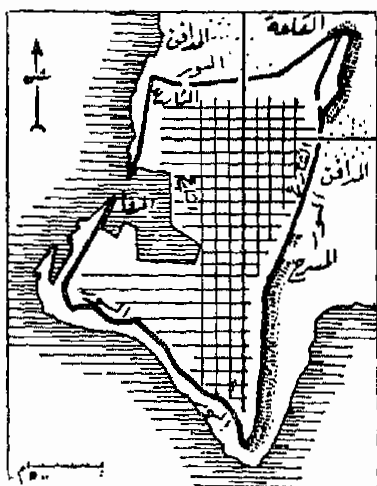
من الثابت ان الملكية قد سيطرت ، اقله في قسم كبير من القرن الثالث ، على الساحل الايحي في آسيا الصغرى الذي سبق له ان كان يونانياً او مستغرقاً ، وانما استطاعت بالتالي ، بأكثر سهولة من المملكة اللاجبية ، ان تجرد الاغريق في اراضيها نفسها : فعند ما رغب انطيوخوس

الرابع في توسيع مدينة انطاكية في بلاد فارس ، ارسلت له مدينة «مغيزيا» — على — مندريس — جمهوراً من المهاجرين المزارعين ، وهي نفسها التي ارسلت مهاجرين آخرين لتأسيس انطاكية في بيزيديا . ومن الثابت ايضاً ان عدداً من هذه المدن لم ينشأ من العدم ، اذ كثيراً ما يقصد بالانشاء ابدال اسم او وضع ، او رفع مدينة بلدية راهنة الى مرتبة المدن اليونانية . ولكن مها بلغ من امر شكلية هذا الانشاء فانه قد انطوى دائماً ، اقله ، على اقامة سكان جدد ، اغريق او مستغريق ، يكتسبون صفة المواطنين ويفقدون قوميتهم السابقة ، وما كلوا ، بالتالي ، ليرضوا بهذا التغيير لو لم يجدوا فيه افادة مادية ، اي ملكاً عقارياً في ما يعيننا .

لذلك يجب الاستسهل الصعوبات التي تنطوي عليها سياسة تطبيق مثل هذا الاتساع . فحق اذا لم تكن المدينة جديدة بالكلية — وهذا ما نواجهه احياناً — فانها تخضع لبعض التجديد على الاقل : اذ ليس من مدينة يونانية لا تضم في وسطها أسواراً وحصناً وساحة عامة وشوارع ومعابد وأبنية عامة اخرى ؛ وليس من مواطنين اصليين دون بيوت وارض . وانما يقع عبء كل ذلك على الملك الذي يتخلى عن قسم من اراضيه ويتحمل نفقات التأسيس الأول . ولا نجب من ان يكون التصميم على مثل هذه البساطة — مربعات هندسية تتفق على كل حال مع مبادئ التجميل الهليني منذ القرن الخامس — وان تكون قياسات الساحات العامة والشوارع موحدة تقريباً : ويجب ان نعتقد انه قد قامت ، في خدمة الادارة ، مكاتب دروس ومصالح هندسة عمارة نرجح ان مهامها كانت مرهقة لأنها حاولت ، بتجراح شبه دائم ، التوفيق بين الخطوط الرئيسية للتصاميم الموحدة وبين الظروف الخاصة بكل موقع . فكان المجهود المبذول عظيماً ، وعظيمة ايضاً كانت الكلفة التي جرت اليها ضخامته ومدته في الازواح والأموال .

وبالاستطاعة تقدير تجرد هذا المجهود تقديراً افضل ، اذا لم ننس ان المدينة ، من حيث هي مدينة ، تتمتع بحد أدنى من الحريات الادارية والسياسية احياناً . فالملك ينشئ المدينة في ارض تخضع لسلطته المطلقة : فهو يتخلى اذن ، لهذه الغاية ، عن قسط من سيادته . وغني عن القول انه لا يتوخى مما يقدم عليه مجرد الخسارة . فالمدينة الجديدة التي يقيم فيها حامية عسكرية تؤلف نقطة دفاعية يتوقف امامها غزو الاعداء . ثم ان المدينة تدفع له الجزية ؛ فهي تلتقط الحركة الاقتصادية في المنطقة المحيطة بها ، فتزداد بالتالي الموارد الاميرية عاجلاً أم آجلاً . ولكن ذلك لا يوازي ما ينطوي عليه قيامها من انتقاص للسلطة الملكية التي تضطر لأن تحسب حساباً لجهاز يتمتع بنظام خاص ، بعد ان تكون من قبل سلطة مباشرة . فتزول الإدارة الباسطة ويصبح على الملك ان يلجأ الى الدبلوماسية حيال رعاياه انفسهم . وحيث كان يكفي ان يصدر أمراً لفرض ضريبة جديدة او طلب قرض او جمع متطوعين ، اصبح عليه ان يبرهن عن كرمه او ان يركن الى الحيلة للاحتفاظ بتأثيره ونفوذه وان يوجد التوازن في الاستقلال الممنوح للأجهزة البلدية برقابة « وكيل » ، وان يحاول ضمان ولاء وخوف المواطنين كي يفوز بأيديهم في

حالة الحرب او ان يتلافى ثورتهم فقط . لذلك فان نظام المملكة نفسه قد تبلبل وانقلب بفعل الاكثار من المدن . ولو ان « التحضير » على الطريقة اليونانية نفذ تنفيذاً كاملاً لأدّى الى جمعة من الدول الصغيرة المستقلة المتحاذية لا يكون الملك فوقها سوى عنصر توحيدى مهتمة الابقاء على الوحدة وادارة الشؤون العامة اي الدبلوماسية والحرب . ولعل السلوقيين ناقوا الى هذا الهدف توفراً لاوعياً على الرغم من انه لا يغري الملوك اصلاً .



الشكل ٢٧ - خريطة لآشور بانياس البحرية السلوقية (وتعرف اليوم باسم اللاذقية)

غني عن القول ان
النتائج جاءت
متباينة وفاقاً
للمناطق .

كانت المهمة على بعض السهولة في الشطر الغربي من المملكة ، لا سيما في السواحل المتوسطة حيث سبق للحضارة اليونانية ان تأصلت وحيث لم يأنف الاغريق ، على انهم كثر فيها ، من ان يأتوا من اليونان نفسها للقامة

فيها . فالواقع هنا لا يخيب الآمال . لذلك فان جميع المنطقة الغربية من آسيا الصغرى وساحلها الجنوبي وكيلىكيا ، شرقي بحر ايجه ، قد غدت ملكاً للمدن اليونانية ؛ ويجوز القول نفسه عن سوريا الشمالية حيث اطلقت على الجبال والأنهار والمناطق الطبيعية اسماء جغرافية مقدونية . في هذه المنطقة من سوريا ، وبين مدن اخرى كثيرة ، شيدت انطاكية ، أشهر العواصم الملكية ، وقامت على مقربة منها ضاحيتها « دفنى » حيث انشئ معبد الإله السلالي ابولون . وقد ازدادت اهمية هذه المدينة ، مادياً وسياسياً ، بعد ان ضاقت اراضي دولة السلوقيين الذي اصبحوا في النهاية « ملوك سوريا » فحسب : فبقيت حتى آخر العهد القديم احدى اكبر عواصم الشرق المتوسطي ، منافسة الاسكندرية ومشتهرة بثروتها وبذخها ، ونشاطها وحتى سجنها ، وملاذاتها وحتى فجورها . وثابتت المدن الفينيقية القديمة ، ابعد الى الجنوب ، تلقى الحضارة اليونانية الذي اقدمت عليه بخيرة منذ قبل الاسكندر . ويجوز التأكيد ان النجاح في كافة هذه المناطق قد بلغ الكمال الممكن بلوغه ، ولكن يجب ألا ننسى ان العمل المنجز ، الذي كان منقوصاً عندما استلمت روما الارث السلوقي ، قد اثنته روما بحزم ، واليها يعود بالتالي بعض الفضل في تحقيقه .

يجب ألا ننفل ايضاً ان ساحل آسيا الصغرى الجنوبية وساحل فينيقيا وفلسطين قد بقيا في

السابق ، طيلة قرن تقريباً في اوائل العهد الهليني ، في ابدي البطالة وباشراً خلاله تطبيق هذه السياسة . ويدل تناقض عملهم هذا لسلوكهم في مصر انه استحال على اي ملك الوقوف في وجه نشر الحضارة اليونانية حيث كشف التطور السابق ، التلقائي ، عن ان امكانات هذا النشر لها ما يبررها جدياً . ولكن السلوقيين قد بذلوا الجهود نفسها في مناطق اخرى ، مما يثبت انهم خضعوا لدافع غير ذاك الذي خضع له البطالسة .

ومع ذلك فان الظروف كانت اقل مؤاتة في وسط المملكة وشرقيها . فلم يتوفر الرجال لمهمة على هذا الشأن في مملكة على هذا الاتساع . وقد نذر الاغريق من الابتعاد عن البحر ، كما ان طبيعة الحضارات المحلية وميزاتها الخاصة التي لم يسبق لهم ان واجهوها من قبل قد زادت من شعورهم بابتعادهم عن بلادهم . بيد ان مدناً جديدة كثيرة قد انشئت في بلاد ما بين النهرين وبلاد بابل وبلاد سوزا وحتى في قلب ايران . اما المدينة التي عرفت اعظم نمو فهي « سلوقية - على - دجلة » المؤسسة لمنافسة بابل التي أبعد شطر من سكانها لتكثير السكان في المدينة الجديدة . واعتبرت بابل ، بسبب صبغتها الشرقية العميقة ، ابعد من ان يمكن نشر الحضارة اليونانية فيها ، مما لم يمنع انطيوخوس الرابع ، من جهة ثانية ، من ان يحولها هي ايضاً الى مدينة يونانية بعد ذلك بقرن ونصف . ولكن سلوقية - على دجلة ، في هذه الاثناء ، اعست مركزاً تجارياً كبيراً ومستودعاً للتجارة مع الشرق الاقصى واحدى اكثر المدن سكاناً في العالم القديم . وقد ذهب « بلين القديم » ، في القرن الاول من العهد الميلادي ، الى القول ان سكانها يبلغون ٦٠٠.٠٠٠ . وهذا ما يوازي ، على الأرجح ، سكان انطاكية وسكان الاسكندرية ، ولكنه دون سكان روما .

كانت النتيجة المباشرة والمؤسفة لهذه الجهود انتشار الاغريق في كافة أنحاء المملكة . بيد ان نسبة توزيعهم بقيت متفاوتة فكانت مرتفعة هنا ومتدنية هناك ، على ان منطقة واحدة خاضعة للسلوقيين لم تخل منهم . واذا ما حدث ان وجدوا منعزلين ودون تنظيم ، فان ذلك لم يقتصر على المملكة السلوقية ، بل حدث في كافة الممالك الهلينية . كانت ابواب الشرق مفتوحة على مصراعها امامهم ، وكان باستطاعتهم ان يتنقلوا فيه ويتعاطوا التجارة ويملكوا الاراضي شأن الرعايا الآخرين ، شرط التقيد بالأنظمة ودفع الضرائب . اما ما يميز المملكة السلوقية عن مصر اللاجية ، فهو انهم استطاعوا من جهة ثانية ان يتلاقوا فيها في كل مكان ، منذ البداية ، مؤلفين جماعات منظمة ، بصفة مواطنين لمدن تنعم « بشرية » هي دستور يحدد حقوقهم وواجباتهم ، وسكان مدن تتوفر فيها المعابد والمنتديات الرياضية الضرورية للبقاء على حضارة يونانية يستطيعون ان ينقلوها بكل حرية الى اولادهم . وان ما لم يحصل عليه اغريق عوام المقاطعات المصرية الا ببطء ، حصل عليه اغريق المدن السلوقية فوراً ودونما جهد .

كانوا اذن في الواقع ، منذ البداية ، بوجوازين محظيين وفر لهم تملك قطعة ارض يساراً كريماً ، لا باستثمارها بأيديهم ، بل بمساعدة بعض العبيد او يد عاملة لا يدفعون لها اجوراً

مرتفعة . فكانوا بالتالي بورجوازيين يكادون يتساوون ، من حيث المستوى الحياتي ومن حيث ميولهم للحياة الجماعية والحياة الخاصة على السواء ، مع أولئك الذين انتسبت اليهم في الوقت نفسه الطبقة الحاكمة في مدن اليونان القديمة : فقد همهم كثيراً ان يتشبهوا بهؤلاء وان تتفوق مدنها على مدن اليونان القديمة بفخخة ابقيتها واعياها وبشهرة مدارسها وفنانها . وقد توصلوا الى مبتغاهم في اكثر من حالة ، بمساعدة الملوك او دونها ، اقله على مقربة من المتوسط . وهكذا فان ازدياد البورجوازية اليونانية وتفرقها في آسيا يمثلان احد تحقيقات العهد العظمى وحدثا اجتماعيا كانت نتائجه كبيرة الاهمية على الحركة الفكرية ، كما نرى . بيد انه من الجلي ان السلوقيين ، بفضل سياستهم التحضيرية والتضحيات التي تحملوها في تنفيذ هذه السياسة ، ان لم يخلقوا هذا الحدث الاجتماعي الذي لاحت دلالة قبلهم ، قد اسهموا على الاقل اسهاماً بعيداً في الاتساع الذي اتسم به في مملكتهم .

كان احد اهدافهم ، من وراء علمهم هذا ، شأن الاسكندرية من عمل المدن اليونانية قبل ، نشر الحضارة اليونانية . وقد بدا لهم اجتذاب الشرقيين الى حضارتهم الخاصة وسيلة لضمان ولائهم . وهي وسيلة مريبة على كل حال لأن السلوقيين لا يستطيعون الزعم بأنهم الاسرة الوحيدة التي ينتسب اليها فاسيلس يوناني ، ولأن زعماء آخرين ، اقله في بلاد البختيار ، لم يقلهم السلوقيون على الرغم من انهم نظروا اليهم كغفصين ، قد استمروا في بذل جهود مماثلة . وقد صادف السلوقيون في النهاية مشاعب سياسية حتى في المدن الملكية ، كالعاصمة انطاكية مثلاً . فهل يستنتج من ذلك ان مصلحة الحضارة اليونانية تغلبت ، عند بعض ممثلي السلالة ، على مصلحة السلالة نفسها ؟ ولكن المرجح انهم اعتبروا ان المصلحتين تتلاقيان ، وفي هذا الاعتبار كل الحق لو بقيت السلالة قوية . وكان العدو الحقيقي ، العدو المشترك ، في الواقع ، البدوي او الجبلي السجس المستلب الذي رفض الخضوع لادارة منظمة والاكتفاء بعمل منظم والتكيف وفاقاً لمقتضيات تقنية زراعية عليا ، معارضاً بذلك ما تتوق اليه كافة الحكومات ، اي النظام وزيادة الانتاج والمبادلات . ففي هذا الصراع ضد العاصي ، كانت المدينة افضل سلاح ، لا مركز رقابة عسكرية فحسب ، بل مركز اشعاعي تنتشر منه العادات الواجب نشرها ، اي كقدوة واداة تحويل وارتداد .

جعل عدد المدن التي انشئت اروحاً وفاقاً للطريقة اليونانية ، من المملكة السلوقية ، حقلاً اختبارياً واسع الأطراف صادف فيه كسب البلديين ادياً ظروفاً أكثر مؤاناة منها في مصر اللاجية . أجل لم يحصل كل البلديين المقيمين في أرض مدينة من المدن على المواطنة الكاملة . فان المنطقة الريفية التابعة للمدينة قد أمنت استثمارها باستمرار لحساب الملاكين ، وهم مواطنون في أغلب الأحيان ، يد عاملة من الفلاحين الذين لم يطرأ على مصيرهم القانوني والعمل أي تغيير . وكانت في المدن نفسها فئات من السكان الى جانب المواطنين ذوي الحقوق الكاملة ، أي جماعات

ذات وضع أدنى كالأجانب المقيمين مثلاً . غير أننا لم نر في أية مدينة آسيوية أنظمة أشد تدقيقاً وعداءً لقطع الحبود القانونية منها في الاسكندرية . أجل كان الاستغراق بالفعل أمراً محتوماً بسبب الاتصال اليومي وبسبب الاطار المادي نفسه للمدينة ولكل ما يستلزمه زخرفها البنائي ويدخله من عادات شأن المثال الانساني وبسبب الانسجام البيئي الذي كان بالنتيجة لمصلحة الطبقة المحظية الممثلة بالاغريق : كان التطور في كل هذا مماثلاً لذلك الذي حدث في المدن المصرية الثلاث . ولكن الاستغراق القانوني ، خلافاً لما جرى في هذه المدن ، قد تم ، في ما يظهر ، دونما صعوبة ، بعد جيل أو جيلين .

تكوّنت اذن في المدن طبقة من البلديين المستغرقين الذين رفعوا رويداً رويداً الى مرتبة المواطنين أي أصبحوا رسمياً من الاغريق . وقد استلزم ذلك من جهتهم حمل اسم يوناني ، على اننا نرى ، في هذا المجال ، كيفيات كثيرة كان من شأنها تخفيف أثر الانتقال . فلدينا أمثلة عن أشخاص عرفوا بإسمين واحد يوناني وآخر سامي . ولدينا كذلك أمثلة كثيرة عن أسماء يونانية مركبة يدخل فيها اسم أحد الآلهة ، وهي طريقة تسمية قلنا لجأ اليها الاغريق وكثيراً ما اعتمدها الشرقيون فيما سبق : وليست هذه الأسماء في الغالب سوى أسماء سامية محوّرة بعد تمثيل إله شرقي بإله يوناني . واستلزم الاستغراق أيضاً اعتياد الزي اليوناني والأخلاق اليونانية واللغة اليونانية : وناس ذلك على كثير أو قليل من التمكن وخلوص النية أو من الشمول لأن النساء لم يتأثرن كثيراً بالنزعة اليونانية لأنهن لا يخرجن كثيراً ويحافظن على التقاليد القديمة .

بيد ان الاستغراق ، عملياً ، كان شاملاً في أكثر من حالة لاسيما بين الطبقات الميسورة التي كان لأبنائها متسع من الوقت للتردد على المدارس والأندية الرياضية . فتكوّنت بورجوازية من أصل محلي لم يكن لها وجود من قبل في القسم الأكبر من الشرق حيث كادت الحياة المدنية تقتصر على فينيقية وبلاد بابل ، وكان تكوّنهما أسهل وأوسع منه في مصر . وقد توصلت الى الانصهار في البورجوازية اليونانية الأصل التي كانت مثلاً لغيرها واستطاعت بفعل تنظيمها ان تحافظ على حضارتها . وهذا ما يفسّر ميزة التطور الاجتماعي في المملكة السلوقية : فان هذه المملكة قد اتسمت بالحضارة اليونانية بنسبة تحضّرها أي بنسبة انكسائها الى البورجوازية بنوع خاص .

اختلفت النتائج العملية اذن وفقاً للمناطق أي وفقاً لكثافة الاغريق والمدن . وجاءت النتائج جدية بالاعتبار في غربي المملكة . فقد بلغ من تأثر مناطق واسعة في آسيا الصغرى بالحضارة اليونانية ان شعوبها التي اعتبرت « برابرة » في السابق لم تتميز عملياً عن الاغريق بشيء : كالكارين والليديين بأجمعهم ، والفريجيين والكيليكيين بأكثريةهم . أجل ان هذا التطور الذي بدأ من قبل لم يبلغ الكمال الا في عهد السيطرة الرومانية . ولكن العهد السلوقي أدخل المزيد من السرعة على حركته . ويصح القول نفسه عن الساحل بين السوري والفينيقي وعن جزيرة قبرص . أما في شمالي سوريا فقد توطلدت الحضارة اليونانية في المدن فقط ، إذ أن ظهور اللغات

المحلية فيها بعد، بفعل اندفاع الديانة المسيحية، يدل على أن الأرياف لم تتأثر كثير بهذه الحضارة؛ ولكن الريفيين قد حُرِّموا بسبب ذلك من نخبة اجتماعية كان باستطاعتها، لو وجدت، أن تنظم مقاومة حضارتهم التي كتب لها بالتالي جود قائم.

أما في المناطق الأخرى فكان الاغريق والمدن أقل عدداً وعلى شيء من التشتت والانعزال. ففي بلاد ما بين النهرين الوسطى والسفلى لم يمثّلوا سوى جزر صغيرة في محيط المساحات الشاسعة المتروكة لجماهير البلديين. أضف إلى ذلك أن روما لم تستطع مواصلة عمل السلوقيين فيها لأن قسماً كبيراً من إرثهم، حين استلمته، كان قد انتقل إلى الفارثيين الإرساسيين الذين استقروا في بابل منذ السنة ١٢٩ قبل المسيح والذين اضطرت أكثر من مرة لأن تدافع بصعوبة كليلة عن حدود الفرات ضد هجماتهم. فالحضارة اليونانية اذن لم تشع عالياً سوى في مدن نادرة لم يتوفر الوقت والطاقة البشرية للاكتثار منها في ما دعي بحق «الشرق الأقصى السلوقي».

وتجدر الإشارة مع ذلك، أقله في بعض المدن، إلى مقاومة الاغريق المدهشة والثافذة لاستشراق كان من الطبيعي أن لا يقف عدهم الضئيل في وجه نجاحه السريع. وإن البورجوازية اليونانية، تسافدها البورجوازية المستغرقة على الأرجح، قد دافعت طويلاً عن حضارتها وأبقت عليها على الرغم من تفوق عددي ساحق تتمتع به السكان الريفيون الذين حافظوا على قسم كبير من أنظمتهم الاجتماعية التقليدية والذين أعادت لهم انتصارات الفارثيين انظمة غير يونانية. أجل ساندت روما بعض الوقت الحضارة اليونانية في مدينة صغيرة كـ «دورا أوروبوس» على الفرات الأوسط التي كانت إحدى حصون حدودها. ولكن بعض الكتابات المكتشفة في بابل وسوزة القديمة التي أصبحت «ساقية - على - الافلايوس» تكشف عن استمرار اللغة والتنظيم والأخلاق اليونانية زمنًا طويلاً بعد أن حلت السيطرة الفارثية محل السيطرة السلوقية. أضف إلى ذلك أن هؤلاء الملوك الجدد قد أطلقوا على أنفسهم اسم «أصدقاء الحضارة اليونانية»؛ وفي السنة ٥٣ قبل المسيح أرسل البريد الذي اشتمل، فيما اشتمل، على رأس كراسوس الروماني، إلى «ملك الملوك» في أرمينيا حيث كان ممثلون يونانيون يمثلون باللغة اليونانية، أمامه وأمام بطرنته، لمناسبة عيد سلافي، رواية كاهنات باخوس لأورييد: فيفرض هذا السلوك المستهجن، يسلكه أولئك الذين كانت انتصاراتهم بمثابة عودة هجومية لحضارة إيرانية هزمها الاسكندر، بقاء عناصر يونانية في المدن تتمتع بنفوذ كاف للتأثير على الملوك وربما بقدر من القوة الفعلية يبد ومن المفيد معه مراعاة جانبهم. وماذا نقول عن بلاد البختيار النائية التي حال الاحتلال الفارثي دون كل اتصال مباشر بينها وبين باقي العالم اليوناني والتي بقيت مع ذلك، حتى بعد العهد الميلاي، مركز إشعاع لحضارة يونانية نبضت بحياة كافية لأن تهيض نفوذها حتى على المناطق الشمالية الغربية من العالم الهندي؟ وهكذا فإن المدن اليونانية، حتى حيث حالت ضالة كشافتها دون استمالة البلديين الكثيرين إليها، قد دامت مع ذلك في أكثر الظروف مناقضة للمنطق. فليس من

دليل أفضل على حيوية مشاتل رخصة وزرعها الملوك طيلة قرنين كاملين بسخاء وجرأة نادرة على هذه الاراضي البعيدة : فاذا عسى النتائج ان تكون لو ان هذه المشاتل حصرت في مكان واحد واقتصرت على غربي الفرات مثلا .

البلديون خارج المدن
اذا كان تأسيس المدن اليونانية عمل السلوقيين الرئيسي ، فانهم مع ذلك لم يكتفوا به لأنهم قد حاولوا ، في ما يظهر ، التأثير ، خارج المدن ، أقله على بعض طبقات المجتمع البلدي .

انطوى هذا المجتمع على مظاهر مختلفة جداً بسبب تنوع الشعوب التي تألف منها . بيد ان نظامه ، على العموم ، كان يخلو من كل شيء ديموقراطي : فقد أخضع ، في كل مكان تقريباً ، جماهير غفيرة محرومة من اليسار المادي ، وحتى من الحريات القانونية غالباً ، الى سيطرة نخبة محظية . أما أفضل هذه النخبة على من سواها فقد يكون اللسب ، اذ قد قامت امارات وارستقراطيات وراثية . وقد يكون المراتب الدينية ، اذ قد قامت ثيوقراطيات أفسدت الوراثة منها المبدأ على كل حال . ولكن فضلاً آخر أكثر ظهوراً خارجياً ، بسيطاً وحتى بدائياً ، هو الثروة ، قد رافق في كل مكان الحالة الاولى او الحالة الثانية . فالملكية اليونانية وجدت اذن أمامها في آسيا مجتمعاً بلدياً أكثر تفاوتاً منه في مصر حيث كان مستوى حياة كافة السكان وبقي متدنياً جداً ، باستثناء الكهنوت الذي وجه اللاجئين لامتيازاته ضربات قاسية بغية اخضاعه للقانون العام . وفر هذا الوضع للسلوقيين امكانات مناورة واختيار : ولكنهم منذ البداية لم يعيروا اهتمامهم ، عن قصد ، سوى الطبقات الاجتماعية العليا .

كان باستطاعتهم محاولة مزج رعاياهم واعتناء نوع من الاستعمار الداخلي مثلاً للتوفيق بين السكان والموارد المحلية ، ولكنهم لم يفعلوا . أما الحالات الوحيدة التي نعرفها عن « مستعمرين » بلديين فمردها الى أسباب أخرى ، عسكرية قبل كل شيء . وهكذا فان انطيوخوس الثالث ، اذا ما اعتمدنا على ما أورده مؤرخ يهودي ، قد أصدر أمراً ، في السنة ٢١٠ ، في أعقاب الاضطرابات التي حدثت في ليديا وفريجيا ، بأن ينقل اليها ٣٠٠٠ عائلة يهودية من بلاد بابل ليكون أفرادها رعايا أكثر اخلاصاً ويحملون السلاح عند الحاجة للدفاع عن وحدة المملكة . وكذلك أنشأ السلوقيون « مراكز » في غربي آسيا الصغرى ، حاذين بذلك حذو الملوك الفرس الذين سبق لهم وأقاموا هناك بعض الايرانيين . ولكن كلمة « مراكز » كلمة غامضة قد تعني وقائع مختلفة جداً : قد تكون مستعمرات عسكرية كما قد تكون قرى تقام فيها بعض العائلات وتخضع بالتالي لاحصاء سنوي يتناول الشبان البالغين سن الخدمة العسكرية . ومعها يكن من الامر فان المستفيدين من هذه المراكز قد ألفوا جماعات بشرية متراسة في حال أن اللاجئين قد وزعوا جنودهم المزارعين وفقاً لشهور الاقطاعات الفردية . وهكذا فانتبا نعرف جماعات من الفرس والكردوك الآتين من أعالي دجلة ، والفلاطين والميسيين ، دون ان يتيسر لنا التمييز بين

ما حققه الاخيميليون والسلوقيون والاطاليون في ذلك . ونعرف بنوع خاص « مراكز » المقدونيين لأن الطريقة قد اعتمدت لهؤلاء أيضاً ، مما أفضى بعد ذلك أحياناً ، الى ولادة مدن تباهت بأنها استطاعت ، حتى في عهد الامبراطورية الرومانية ، ان ترمي على نقودها خوزة رفاق الاسكندر . ولكن هذا الاستثمار الريفي كان استجابة لمشاغل عسكرية : فهو قد استهدف اما ان يوطن في أرض المملكة الجنود الذين تخشى هجرتهم واما ان تسهل تعبئة الجيش وإما ان يحفظ الأمن في المناطق المضطربة أو الحدود . ولم يفكر السلوقيون في عملهم هذا بتحسين حال المحرومين من رعاياهم ولا بتخفيف ما يقوم بينهم من قوارق عنصرية .

لا ريب في ان توحيد اللغة قد استمر في ظل سيطرتهم . أجل ان الآرامية قد استمرت في الانتشار ، شأنها في عهد الفرس ، في مناطق واسعة من المملكة لم تقتصر فيها الحضارة اليونانية : فقد حلت أخيراً محل اللغة العبرانية في فلسطين . ولكن الادارة الملكية بقيت اذ ذاك بعيدة عن هذا التطور : فهي لم تعرف ولم تستعمل سوى اليونانية التي لم تتوطد الا في المسند الكثيرة السكان .

ان الوحدة التي كان السلوقيون يرغبون في تحقيقها هي الوحدة في الحضارة اليونانية ، وهي الوحيدة التي كان من شأنها تطوير السكان والبلاد تطويراً حقيقياً . ويمكن ان نقدر دليلاً على ذلك انهم قد سعوا مباشرة ، أقله هنا وهناك ، الى طبع البلديين بالحضارة اليونانية دون ان يستعينوا بالمدن . ولكن نشاطهم لم يتناول في هذه الحال سوى أعضاء الطبقات الحاكمة . فان نصاً مسبارياً يعود الى السنة ٢٤٣ قبل المسيح يضيف الايضاح التالي الى اسم « أنو - اوباليت » ، « ذي المركز الثاني » ، في مدينة أوروك من أعمال بلاد بابل السفلى : « الذي أعطاه انطيوخوس ، ملك البلدان ، اسماً آخر هو نيكارخوس » . وبعد ذلك باثنتين وأربعين سنة ، اطلق على شخص يحمل هذا الاسم ، قد يكون من أحفاده ، ويحمل اسم سيفالون اليوناني أيضاً ، لقب « زعيم أوروك » . وهكذا أيضاً فان انطيوخوس الثالث يعهد بقيادات عسكرية رفيعة الى بعض البلديين كان أحدهم ميتريدات ابن شقيقته . وحين أصبحت فلسطين في أوائل القرن الثاني مملكة سلوقية انصبت الانعامات الملكية على أعضاء الارستوقراطية اليهودية الذين عرفوا ان يبرهنوا انهم يقدرون تفوق الحضارة التي يارسها الملك . فقد كان هنالك اذن ضغط على النخبة الاجتماعية التي هي أسهل مثلاً وأشد تأثراً بأغراء ما تستطيع حكومة ملكية ان تغدقه على رعاياها المخلصين ؛ ويغلب ان هذا الضغط قد اختلف باختلاف المناطق .

اعوز السلوقيين في الواقع ، للتأثير على الجماهير الشعبية ، جرأة لم يقدموا عليها . فهم لم يحوروا نظام اولئك الذين اطلق عليهم الاغريق اسم « الشعوب » ، لاسيما شعوب الريفيين ، المنحطتين ، الذين يقابلهم الجنود . فقد استمرت العبودية والفدائية والتبعية التي تنظمها الاعراف دون أي تغيير . واحتفظت مصانع المعابد بمبالمها كما احتفظت الأملاك الريفية بفلاحها المرتبطين

وراثياً بالأرض . واحتفظ كذلك الحكام القدماء بمراكزهم على الرغم من توصل بعض الاغريق
الدخلاء الطموحين الى احتلال مكان لهم بين المحظيين . ولم يضع الملوك في أي مكان نصب أعينهم
تحرير العبيد الذي كان مع ذلك شرطاً أولاً لاستمالتهم الى الحضارة اليونانية .

من الجلي انه كان أسهل على الملوك ان يبقوا على الأنظمة الاجتماعية القائمة ويحصرها بمجهودهم
في احتلال النخبة احتلالاً أدبياً . فان فكرة انقلاب شامل ، أو مجرد اصلاحات تدريجية ، لم
ترود قط أفراد اسرتين شريفتين احدهن مقدونية والأخرى ايرانية . ولو راودتهم لكادت
الواجب قضى عليهم باعمالها لأن الأنظمة الادارية كانت أوهى ، بسبب بدائيتها ، من أن تقوم
مقام الأنظمة الاجتماعية التي يجب القضاء عليها ، ولأن الملكية ، المهددة أبداً بمخطر أعدائها
الخارجيين ، كانت عاجزة عن الاقدام على عمل داخلي هام .

فهل نجحت هذه السياسة الاجتماعية ، الحرية بأن تنعت بالتحرز لو كان باستطاعتنا
النتائج التفاضلي عن تأسيس المدن اليونانية ، في توفير الهدوء الذي صبا اليه الملوك السلوقيون
على الأقل ؟ علينا هنا ان نعطي بعض الايضاحات .

لم يحدث ، على ما نعلم ، ثورات حتى ولا اضطرابات بسبب البؤس ، على نقيض مصر
والملكة الاطالية بنوع خاص حيث عقيبت موت آخر ملوكها ، في السنة ١٣٣ ، اضطرابات
ذات طابع اجتماعي ، جزئياً على الأقل ، إذ أن عبيداً ثائرين قد لعبوا فيها دوراً كبيراً جداً .
واذا لم يحدث ذلك عند السلوقيين فلأسباب بسيطة . فقد سهل عليهم أكثر من الملوك الآخرين ،
كما رأينا ، ان لا يشغلوا كاهل رعاياهم بالضرائب . ثم ان ابقاءهم على النظام الاجتماعي التقليدي
قد تلافى خطر الثورات : إذ جاء تواطؤ الأسياد الأجانب مع الطبقات المسيطرة يوفر السلامة
هؤلاء واولئك .

ولا يعني هذا ان الملكية السلوقية لم تعرف الصعوبات الداخلية الناشئة عن البلديين . ولكن
هذه الصعوبات تبدو لنا ، بنوع خاص ، وكأنها ردات فعل ضد محاولات النيل من ديانة بعض
الشعوب . وليس ما يوازي ، في هذا المجال ، من حيث الشهرة - وهي على كل حال شهرة تبالغ
في أهمية الاحداث الحقيقية اذا ما قسنا هذه الاحداث بمقياس المملكة الكبرى - ثورة اليهود
التي تعظمها كتب المكابيين كملحمة وطنية . ومن الخطأ ان نتوقف عندها هنا لأننا لا نجد في
هذه الثورة مكاناً محترماً لأسباب اجتماعية حقيقية . فهي لا تثبت بأسبابها وتطورها سوى
الحقيقة التالية : ان استمالة شطر كبير من الارستوقراطية الحاكمة لم تجد قتيلاً حياًل شعب يتميز
بمثل هذه الفردية اللفظة وتحتلظ عنده الفكرة الدينية والفكرة القومية وتؤلف حضارته التقليدية
جزءاً لا يتجزأ من النظام الذي أراده الإله . لذلك فان مثل اليهود كان استثنائياً بفعل وثوق
هذا الاتصال ، كما كانت استثنائية أيضاً الاخطاء الخرقاء التي ارتكبها ضدم بعض الملوك
السلوقيين في القرن الثاني . ولكن كيف يمكن ، آنذاك وفي المشرق ، الفصل بصورة مطلقة

بين الديانة والحضارة ؟ فتورة المكابيين تثبت اذن أنه استحال على الملوك اليونانيين اعطاء سيطرتهم اساً واسعاً ، لا بل اساً متيناً فقط ، باكتفائهم بأخذ النخبة الاجتماعية ، أخذاً يشكّ باخلاصه ، بالحضارة اليونانية . وقد اتضح ذلك في سوريا الشمالية نفسها حيث أتاح عدد المدن اليونانية استمالة هذه النخبة بكليتها : فالمقاومة قد انقضت ، عاجلاً أم آجلاً ، من الجماهير الشعبية المهمة الحام .

فلا يجب بالتالي ان يحدعنا نجاح المقاومة في فلسطين . وليس الفضل فيه لعزم الثائرين وحده ، وهو عزم يثير الإعجاب على كل حال . فقد تلقى الثائرون عوناً غير مباشر من الخلافات العائلية التي مزقت السلالة في المخطاطها ومن تدخل الاجنبي أيضاً ، فقد ساعدتهم روما في الدرجة الاولى ، وهي التي عظفت على كل ما من شأنه ان يزيد ضعف الملكية . وساعدهم الفارتيون خصوصاً الذين انطلق هجورهم من حدود ايران الجنوبية وأفضى بهم الى احتلال بلاد بابل نهائياً . وخلافاً لما حصل في المملكة اللاجية ، فان المملكة السلوقية قد انهارت لأسباب خارجية أكثر منها داخلية .

غير ان الشيء الأكيد هو ان الفارتيين قد استفادوا من الوضع الاجتماعي القائم في الشرق الأقصى السلوقي . فاذا لم يثر البلديون قط على الضغط الاداري ، كما حدث في مصر ، فانهم ، على الاقل ، قد استقبلوا بجمود عدو أسياهم اليونانيين الذين لم يهتموا بعض الاهتمام إلا للطبقات الحاكمة . ولكن هذه الطبقات ، باستثناء بعض الحالات الفردية المقتصرة عملياً على العناصر المقيمة في المدن ، لم تثبت سوى حضارة يونانية للجمالة ، أي ظاهرية فقط . ومن حيث هي بقيت سليمة واحتفظت بسلطانها ، فقد سببت دونما صعوبة ، بانتقالها الى الاعداء ، انتقال المجتمع البلدي كله اليهم ، فني نجد ايرن بنوع خاص أعلن الفارتيون عن أنفسهم جنوداً للعنصرية الايرانية وخلفاء للاخمينيين .

يتضح بعد كل حساب ان سياسة السلوقيين الاجتماعية قد أفضت بهم الى خيبات أمل خطيرة كما جرى للبطالسة في مصر . فهم شأن البطالسة لم يهتموا قط لرفع مستوى حياة عامة الشعب . وعلى غرارهم أيضاً - وكان الامران مرتبطين على كل حال - لم يفكروا بان يوفظوا ، عند هذه العامة ، الفردية التي تحرر الشخص البشري ، وهي مفهوم أساسي في الحضارة اليونانية . أجل ، بينا أخضع البطالسة رعاياهم للرقابة الشديدة ولاشراف ادارتهم المطلق ، اقتصر السلوقيون على إبقائهم خاضعين للارستوقراطيات الكهنوتية أو العلمانية ، ولصن الخضوع منها كان من اختلاف أشكاله واختلاف المستفيدين منه ، قد أفضى في النهاية الى نتائج ماثلة . وقد سبق لنا ورأينا ان الازدهار الاقتصادي في العالم الهليني قد تضرر بفعل ذلك ، لا سيما ازدهار اليونان القديمة الذي قوّضته منافسة الشرق وحرمة من سوق استهلاك كبير لصناعاتها ، أعني بها هذه البلدان الجديدة . ولكن الملوك اليونانيين ، بالإضافة الى ذلك ، في مصر كما في آسيا ، باستثناء المنطقة المتوسطة في هذه القارة ، لم يحاولوا ، بفعل محافظتهم وأنانيتهم وعدم ادراكهم ، ان يستميلوا اليهم أدبياً الطبقات الوضيعة بين السكان البلديين ، فدفعوا ثمن هذا الامل غالباً لأنهم لم يستطيعوا يوماً إزالة اعداء الخاضعين لهم الذين قامت قوتهم على اخلاصهم ونشاطهم .

المعتقدات والأذواق والأفكار

إذا ما بقي اتساع وفاعلية الاختبار الهليني ، في الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، دون الامكانيات التي بشر بها عمل الاسكندر المحدود ، فالأمر على خلاف ذلك حيال المظاهر الأدبية في الحضارة . وانه لمن الصعب علينا ان نحيط علماً بكافة التجديدات الثورية المدعوة لمستقبل باهر التي جاء بها هذا العهد المضطرب في حقول الديانة والفن والفكر . فهو قد كيّف ، لقرون طويلة ، روح وفكر البشر وفاقاً لمثل جديدة ، بينما سعت الحضارة الكلاسيكية جاهدة الى اخضاعها لأولية عقل مجرد ، متوقفة في ذلك الى ما هو جوهري . وقد شق بصورة نهائية طرقاً لم تكند تُعرف من قبل .

الحضارة اليونانية والملكية من الطبيعي ان هذه الرتبة قد ارتبطت بالنظام المادي الجديد الذي فرضته على العالم اليوناني الظروف والتطور التاريخي .

بقي المثل الأعلى ، في تحديده الجوهري ، بمثابة لمثل العهد السابق : فالهدف هو أبداً تشجيع تفنح الفرد وتحقيق أفضل الامكانيات المدين بها لطبيعته البشرية خير تحقيق وأكمل . ولكن هذا المثل الانساني الذي بشرتْ تصميمه ومواصلة تحقيقه ما ينطوي عليه التاريخ اليوناني من ركاسة وانخفاق ، قد تجمل اذ ذاك ونما . كانت حضارة البولس ، بتوجيهها إياه وفاقاً لحاجاتها الخاصة ومحصره في إطار ضيق ، قد وضعت له حدوداً هي حدود الشرائع المبينة على العقل وعلى مصلحة المجموع الحقيقية ؛ فكان من الحتم ، في العالم الهليني الذي وسّعه فتح الشرق توسيعاً مفرطاً ، أن تمتد هذه الحدود وأن تترأخى الاقتسارات ؛ فالرقابة والادارة ، اللتان تؤمنها سلطة أكنة بعبداً ، أقل ثقلاً على الفرد . وليست الانطلاقة بعد اليوم للامكانيات التي تتفق مع العقل ، أي الامكانيات الجسدية والفكرية فعصب ، بل أيضاً للامكانيات التأثرية والعامدة القياس .

بهذا أيضاً طبعت الملكية بطابعها ، الى حد بعيد ، حضارة الأزمنة الجديدة . وان المثالية التي بنيت عليها قد أسهمت في تطوير النزعة الانسانية القديمة بتوسيعها . فقد أحاطت الملك بهالة ،

لا بل باكليل من نور ، يخضع فيه العقل للصوفية ، والبرهان للثقة بقوى فائقة الطبيعة . وقد بدأ الملك ، بفضل هذه المثالية ، كمثل يقتدى به كنموذج للانسان المتجمل بالحسن والمواهب بما فيها نعمة الإله الذي يمنحه حرية ووسائل عمل تتيح لشخصيته أن تتفتح في كمالها .

أجل ليس باستطاعة الجميع بلوغ الدرجة القصوى من درجات الملكية بكل ما تتطوي عليه هذه الكلمة من معنى . ولكن خبرة نصف القرن الذي عقب وفاة الاسكندر تبين ان بلوغها ليس وقفاً على أبناء الملوك ، والتوق الى مثل أعلى لا يستلزم الأمل الوطيد في تحقيقه . ولا ريب أيضاً في أن وجود ملكيات على قليل أو كثير من التنظيم يحدد بالحد من حرية الفرد . ولكن هذا الخطر لا يطال سوى الحرية السياسية . وإذا ما نظرنا الى النزعات الشاملة في البولس الصغيرة ، التي تبرز في شرائعها ، والتي غالباً ما يكفي ضغط الرأي العام لتقريبها ، إذا لم تقررها المحاكم ، يصبح من الصعب ان لا نعتقد بواقع تحرير في نطاقات أخرى ذات ارتباطات لا تحصى ، أولها النطاق الديني . فالتساهل يغدو أمراً واجباً على ملوك مدينين للفتح ، بالتحديد وفي أكثر الأحيان ، بممارسة الملك على رعايا غرباء يمارسون شتى العبادات . أضف الى ذلك ان الاعتراف بتفوق يبرره كل شيء ليس مرادفاً للاستخزاء : فالأما لا يجدر بالإنسان الحر ان يعجب ويحب ويبذل نفسه يا ترى ؟ ومن ثم فإن الواقع الملكي يقود الى مفهوم نزعة انسانية أعظم اتساعاً وتنوعاً من النزعة القديمة ومثل أعلى يهز أوتاراً أكثر عدداً فيوقظ اصداً أطول مدى ، لأنه لا يخفى ، باسم عقل متفوق ، بعض النزعات العميقة في الطبيعة البشرية .

ثم ان الملوك قد ناصروا الآداب مناصرة محسوسة جداً بغية احاطة بلاطهم وملكهم بمجد يشعرون أنه أعظم ديمومة ونبلاً من المجد العسكري أو السياسي . وقد حرصوا ، حيال الحضارة التي تباها في الدفاع عنها ضد البرابرة ، لا على تأمين انتشارها فحسب ، بل على التوسع فيها أيضاً . وقد اهتموا ، بفعل ثقافتهم الشخصية وذوقهم المرهف أحياناً ، بالبحث هذه الحضارة ونجاحاتها ، وكرموا الذين حققوها وساعدوهم مادياً ، مرتاحين ارتياحاً تاماً في اجتذابهم اليهم ومعاشرتهم . فواصلوا بذلك تقليد الاستبداد اليوناني وتقليد الملكية المقدونية القديمة التي سبق لها واستقبلت اوربيد في شيخوخته وغمرته بمظاهر الحفاوة والتكريم ؛ كما ساروا على مثل أقرب عهداً هو مثل الاسكندر الذي أحضر معه أو استحضر الى آسيا كتاباً وفلاسفة وفنانين وعلماء . وليس من اغريقي حقيقي أبعد النزعة الانسانية عن مشاغله : فأسهم هؤلاء الاغريق عن قصد في إعطاء هذه النزعة مزيداً من الفتنة ووسائل العمل وقوة الجاذب . فمن هذه الزاوية أيضاً تبدو الحضارة الهلينية كحضارة ملكية .

لم تتوفر هذه الرعاية دون مقابل ؛ ولكن أنظمت أخرى كثيرة قد تحملت مقابلاً أشد ارهاقاً . ففي هذا النظام نال الهجائون - وهم قليلو العدد على ما نعلم - عقوبة قحتهم ؛ وكان هنالك فنانون وشعراء بلاط اتقنوا فن التملق . ولكننا لا نرى تنسيقاً عالياً يجب التساؤل ،

في حال وجوده ، عما اذا كان مفروضاً أم تلقائياً ؛ كما لا نرى كلاً عقائدياً يدخل فيه كل مظهر من حركات النفس والفكر في تلاحم مجموع واحد . فالقاعدة هي في التنوع الحر للاضطرابات والمحاولات الشخصية ، ولم تعرف النزعة الانسانية انطلاقتها العجيبة الا لأن نشاط الملوك لم يتعرض للشرط الأول للنزعة الانسانية .

وهناك ارتباط آخر بالظروف الزمنية يترامى في التوزيع الجغرافي لمراكز لامركزية وروسة اشعاع الحضارة الجديدة .

كان للحضارة الكلاسيكية مركز رئيسي هو أثينا . واحتفظت هذه المدينة ببعض سناها الغابر : وقد حرصت كل السلالات ، في فترة أو أخرى من تاريخها ، على اظهار « عظمها » نحوها ونحو ما تمثله . لم تعد تخلق الا نادراً ؛ ولم تعد الانطلاقة الخلاقة تصدر عنها . فمعظم نفوذها يأتيها من ماضيها ومن استثمار هذا الماضي على يد رجال مهرة نشيطين . فأخذت في احتلال المركز الذي ستحافظ عليه حتى آخر العصور القديمة ، أي انهاعدت مدينة يأتي اليها أبناء العائلات الميسورة لاكمال دروسهم في البيان والفلسفة والهوة الأثرياء لاختيار النسخ عن الروائع الفنية المشهورة في مصانع الفنانين أو المصنوعات التي يكرسها مصدرها . وقد نعتها أحد المسافرين في القرن الثالث نعتاً ساخراً بقوله عنها أنها « مدرسة لرجال المرمز » : أي ان الحياة الجريئة قد هجرتها .

أما في العالم الجديد فقد لعت إحدى المدن لمعاناً خاصاً نعتي بها الاسكندرية . وقد بلغ من لمعانها هذا ان التعبير التاريخي السائر « الحضارة الاسكندرية » أصبح مرادفاً لـ « الحضارة الهلينية » . فعظمة المدينة المادية وسحر دورها وازدهارها الاقتصادي وثروة ملوكها العجيبة النادرة وتفخّل بلاطها المرفه ودارا كتبها وآثارها ، كل ذلك أعطاها نفوذاً واشاعاً لم يضاهها نفوذ واشعاع آنذاك . ولكن مهما يكن من أهمية أثرها فانه أقل توجيهاً شاملاً من أثر أثينا في العهد السابق .

وكانت هنالك عواصم وبلاطات أخرى . وبذلت سلالات أخرى جهوداً مسائلة لم تقب نجاحاتها ، في هذه الحقول أيضاً ، نجاحات يستهان بها . فاسم برغاموس بنوع خاص قد لفت الأنظار منذ أعمال التنقيب الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر . وكذلك فان انطاكية في سوريا ، وحتى بيلّا في مقدونيا التي كان ديموستينس الأخير في وصف سكانها وملوكها بالبرابرة ، قد تحتلان المركز نفسه ، اذا ما أسفرت أعمال التنقيب فيها عن مكتشفات على أهمية مكتشفات برغاموس ومكنت من وضع بيان كامل بتحقيقاتها .

ويجب خصوصاً ألا ننكر بمراكز اقامة الملوك دون غيرها . فهناك ، الى جانبها ، المدن الكثيرة الآلهة والمنتعشة بتلك البورجوازية التي يؤلف انتشارها أحد الأحداث الاجتماعية الرئيسية في العهد الهليني وتجديداً لم يبق دون نتائج ثقافية . وكان لهذه المدن ، على العموم ،

صفات مميزة ، وقد توصلت ، بفضل جهود أقل تشتتاً ، الى الاحتفاظ باستقلالها في بعض الحقول الاختصاصية . أما أعظمها شهرة وازدهاراً ولعناً فمدينة رودس التي بدأت مناقشتها لأثينا ، منذ القرن الرابع ، في حقل مدارس البيان ، وشملت في النهاية حتى حقول النشاط الفني . ولكن كل مدينة ، في الواقع ، في العالمين اليونانيين القديم والجديد على السواء ، تعز كبرياء وتنشئ المزيد من المعابد والأبنية والمدارس . فابتعدت الحضارة اليونانية عن مركزها في مناقشة ليس حب التظاهر فيها ، في حال وجوده ، الباعث الوحيد ، ولا الباعث الرئيسي . وكأن الحضارة اليونانية تستهدف ، من وراء ذلك ، توزيع ثرواتها توزيعاً أفضل على الأراضي الشاسعة التي انتشرت فيها خلاياها الحضرية .

ما يثير الإعجاب ان هذا التنافس لم يقوّض وحدة الحضارة الهلينية . فهي من أقصى النطاق الجغرافي الذي انتشرت فيه الى أقصاه ، تنطوي علىميزات عامة ماثلة ترتدي مظاهر خاصة ليس وجودها نفسه قاعدة مطردة . فكما أن الاغريقي يستطيع السفر وتعاطي التجارة في كل مكان ، كذلك فإنه يشعر وكأنه في بلاده عندما يلتقي اغريقياً آخرين . وقد انتهى التطور ، الذي استهدف في القرون السابقة إزالة الفوارق الاقليمية في وحدة ثقافية ، الى نجاح يكاد يكون كاملاً . إذ ذاك ، وإذ ذاك فقط ، توحدت القومية اليونانية على أمس أدبية واسعة جداً . أجل لم يكن لهذه القومية وجود سياسي ، شأنها في الماضي على كل حال . ولكنه أصبح من واجبه أن تتكوّن ثقافياً بسبب التمازج بين الاغريق في الأراضي التي هاجروا اليها وبسبب التضامن الذي أوجده بينهم اختلافهم اليومي مع ممثلي الحضارات الأخرى ، فإذا كانت الحضارة اليونانية عاداً أكبر مشتركاً لرجال يأتون من مناطق نائية جداً ، فإنها بالإضافة الى ذلك المقياس الوحيد الذي يميزهم عن أولئك الذين ينظرون اليهم كمرؤوسين . فهم يتقاربون حتى تبرز المضادة بينهم جيداً ، إذ أن هذه الثقافة المشتركة ، في نظرهم ، تبرر امتيازاتهم .

بيد أنه من الخطأ الاعتقاد بأن هذه الثقافة المشتركة ، التي يفسر ظهورها تضامنتهم واعتزازهم ، لا تمثل سوى مثالة الحضارة الكلاسيكية التي ورثتها ، بعد إزالة الميزات الاقليمية . فهي لم تستلم كل شيء من هذا الارث ؛ وقد تحملت ، راضية ، تضحيات لم تقتصر على الفوارق فقط . ومقابل ذلك ، فإنها قد اغتنت بالامتدادات أو الاكتشافات بفضل جارات أتلحها لها توسع إطارها القديم وازدياد مواردها المادية . أضف الى ذلك ان الحضارة ، أية حضارة ، لا تحيا بلا ضرر في التعايش مع غيرها : فالحضارات التي تنتسب اليها النساء والحسد والشب تسرب ، أقله بواسطة الولد ، الى الحضارة التي ينتسب اليها السيد . ثم ان تصدع وتشئت النخب القديمة المحصورة وضرورة ارضاء رغبات بورجوازية تكاثرت تكاثراً عظيماً تبرز كعوامل تجديد أيضاً . أجل قد يكون المستوى الفكري الوسط تضرر هنا أو هناك بهذه الظروف العامة . ولكن قيماً عاطفية مهمة حتى ذاك التاريخ قد وجدت لها مكاناً أوسع في نزعة انسانية أكثر انطباقاً على تركيب الانسان .

١ - الديانة

المعابد المحلية لم تجر السيطرة اليونانية نتائج خطيرة على العبادات التي كان يمارسها البلديون الشرقيون ، إذ أن هذه العبادات قد حافظت ، على العموم ، على ميزتها الخاصة وحيويتها .

ففي مصر بقي كل شيء دون تغيير ظاهر . الملك يراقب الكهنوت عن كثب تلافياً لمقاومته الممكنة التي يخشى أثرها على السكان . ويكلف موظفيه مراقبة ادارة ممتلكات المعابد ، لا ليحد من ثروتها فحسب ، بل ليجعلها مرتبطة به . وليدخل « الأرض المقدسة » نفسها ، أي أملاك الآلهة العقارية ، في النظام الاقتصادي الموجه الذي أخضع له كل وادي النيل . ومنذ أواخر القرن الثالث على كل حال ، حين بدأ البلديون يثيرون الصعوبات الخطيرة ، ارتخت هذه الرقابة ، فحصلت الطبقة الكهنوتية ، التي أمسى عطفها أكثر ضرورة ، على حصانات وامتيازات واعطيات جديدة شتى . ومارس البطالسة ، من حيث هم فراعنة ، حقوقهم كأله وكوسطاء بين مصر وآلهتها . ولكنهم لم يعملوا واجباً واحداً من واجباتهم . فرسّمت المعابد القديمة وشيدت المعابد الجديدة ونقرت في الجدران النقوش البارزة والكتابات الهيروغليفية التقليدية ، وتؤلف كتابات معبد هوروس في ادفو التي تعود الى هذا التاريخ أحد مصادرنا الرئيسية حول ما كانت عليه الطقوس المصرية منذ أقدم العهود . ومن ثم فقد تأمن الاستمرار الديني ، أو بالأحرى أعيد الى حاله ، لأن إعادة ضم مصر الى الامبراطورية الفارسية ، قبيل فتح الاسكندر ، قد رافقتها أعمال عنف واكراه حتى حيال الآلهة . فقد خلف الاسكندر سيداً بغيضاً ، ثم جاء الأباطرة البرومانيون ونهجوا هذه السياسة . فشمع الفلاحون شعوراً ينطبق على الواقع ان ديانتهم القومية ، المحددة ، تواصل حياتها الدائمة .

أما معلوماتنا عن آسيا ، حيث جاءت النجاحات التي أحرزتها الحضارة اليونانية في بعض المناطق بفوارق دقيقة ، فنادرة جداً اذا ما قيست بمعلوماتنا عن مصر . وعلى كل حال فإن السلطة الملكية لم تبلغ ، في أية منطقة من مناطقها ، تلك القوة التقليدية على كافة مظاهر حياة البلاد ، كما لم تبلغ الادارة الهلينية فيها كمال الادارة اللاجية . فهذا أيضاً برهن الاسكندر عن احترامه للمعتقدات والطقوس ، لا بل انه تظاهر في بلاد بابل بمظهر المصلح الذي يعوّض عن كفر ملوك الفرس الأنخيريين . والصعوبات المالية وحدها ، في ظروف نادرة نسبياً على كل حال ، هي التي دفعت لمخلفائه الى اعمال العنف . فقد وضع الملك يده ، هنا وهناك ، أو حاول أن يضع يده ، على كنوز المعابد . وأقدم انطيوخوس الثالث بكل قعة على انتزاع الذهب والفضة من معبد اكباتان في السنة ٢١٠ ، ولكنه قتل على أيدي بعض الجلبين بعد ان نهب أحد المعابد في بلاد سوزة . وبعد ذلك بعشرين سنة تقريباً اضطر ابنه انطيوخوس الرابع الى الانسحاب حين عزم على القيام بعملية مماثلة . وانفجرت الخصومات الأولى بين السلوقيين واليهود حول موضوع

كنوز معبد أورشليم . ولكن هذه السياسة لم تطبق وفاقاً لتصميم أو قاعدة ، لأن المستندات الوفيرة العائدة للعهد الهليني التي اكتشفت في مدينة أوروكل الصغيرة من أعمال بلاد بابل السفلى تجعل الافتراض الثاني أكثر احتمالاً . فالملوك الذين لم يحملهم شيء على شمل هذه المدينة الصغيرة يعطف خاص قد أصلحوا وأنشأوا بعض المعابد فيها . وقد بقيت هذه المعابد مراكز اقتصادية يبدو أن نشاطها قد تمتع بامتيازات مالية . وعاش الكهنة باستمرار عيشتهم الماضية : فقد استنسخوا كتب الطقوس ووضعوا مجموعات الملاحظات الفلكية بصورة أعظم وفرة وانتظاماً منها في عهد السيطرة الفارسية . وبما لا ريب فيه ، إذا تأخرت الديانة المحلية في بلاد بابل ، ان مسؤولية هذا التأخر ، الذي لا تزال أسبابه الحقيقية سرّاً خفية ، لا تقع على عاتق الملوك اليونانيين . وفي غير مكان أيضاً لم تزل موجبات الخزينة ، حتى إذا عمل بها ، من الحرية الدينية . ولم يحصل أي اضطهاد ، وقد مورست الديانة المازدية بحرية مثلاً في نجد إيران ، على الرغم من أخطار ارتباطاتها بالأسياذ المعزولين وبالروح القومية الآرانية التي من شأن التهديد الفارقي ان يجعلها مريبة : وفي بلاد فارس ابقى بعض الاخمينيين كروساء محليين واطلق عليهم لقب « حراس النار » أى أنهم لعبوا بالتالي دوراً دينياً .

لم يسبب استغراق البلديين نفسه ، حيثما حصل ، أية مشكلة دقيقة ، لأن هذا التطور لم يستلزم أي ارتداد بما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى عصري وديني . أما الاغريق فغالباً ما أعطوا المثل وتبنوا بعض الآلهة الشرقيين أو حاولوا أن يستكشفوا فيهم مظاهر بعض آلهتهم الخصوصيين ، كزفس بنوع خاص الذي تمثلوه في كل « بعل » سوري أو فينيقي . ومن حيث ان لائحة آلهتهم كانت قابلة الاطالة فقد بلغ منها ان الشرقيين المستغرقين وجدوا فيها آلهتهم دونما جهد . ولم يحدث في غالب الأحيان أي تغيير جوهري في الطقوس أو في الواجبات المفروضة على المؤمنين . ومن ثم فقد حدث التطور في كل مكان تقريباً دونما صعوبة .

ولم يشذ بصورة خطيرة عن هذا التعايش ذي الطابع السلمي الحضارة اليونانية والديانة اليهودية وحتى الودي في أغلب الأحيان ، سوى فلسطين ، حيث جعل طابع الشريعة الدينية الخاص والسلطة التي كانت لهذه الشريعة على كافة أوقات وعادات الحياة اليهودية ، التعايش أمراً دقيقاً للغاية .

سارت الامور على خير ما يرام طيلة قرن ونصف في عهد سيطرة البطالسة أولاً والسلوقيين ثانياً . فأدار اليهود شؤونهم بحرية ، ولم يكتف الملك بأن لم ينل من عبادة المعبد ، بل تحمل نفقات ذبيحة يومية تقدم باسمه ، واستفاد الكهنة من بعض الاعفاءات المالية . ولكن الديانة اليهودية القديمة ، بفعل اتصالها بالحضارة اليونانية التي كانت آخذة في التقدم حول فلسطين ، قد تأثرت بصورة حتمية ، أقله في أوساط الارستوقراطية اليهودية ، التي استهوتها هذه الحضارة ورغبت في إرضاء الملوك اليونانيين . وانتشرت الحضارة اليونانية انتشاراً أوسع في مجتمعات

اليهود المهاجرين المقيمين في مصر أو في المدن الآسيوية . ولكن التطور قد ظهر في فلسطين نفسها أيضاً ، ففسر بعضهم الشريعة على هواهم ، حتى قيل انهم اهلوا الختان ، ولبسوا ثيابهم وكسوا رؤوسهم ، من جهة ثانية ، على الطريقة اليونانية ، وشجعوا الغريبة اليونانية التي تعلم في الأندية الرياضية : أعني بذلك ممارسة ألعاب القوى في حالة فاضحة من العري . وبكلمة مختصرة فان تياراً استغراقياً ، هو تيار « المستغرقين » ، قد نما شيئاً فشيئاً في أورشليم ، فكانت ردة الفعل ولادة شيع مختلفة متفاوتة في استقامة رأيها ازدادت كراهيتها لكل تسوية يوماً بعد يوم .

انتهت الحوادث المختلفة الى النزاع الدامي . فصمم أحد الملوك السلوقيين على ان يضع يده على كنز الهيكل ، فكان حادث الوزير هيليودوروس الذي قلبه وطرده فرسان سمايون . ثم أقدم الملك انطيوخوس الرابع على عمل انتقامي يهدف الى نشر الحضارة اليونانية ، فعين رئيساً للكهنة يستجيب لجميع رغباته ، وظن بأنه أفلح في مجهوده فاطلق على أورشليم اسم « انطاكية » وشيد فيها حصناً أقام فيه حامية عسكرية وانتهك حرمة الهيكل بذبائح دموية وبإدخال تمثال زفس الأولمبي اليه وكرس معابد محلية بأسماء آلهة يونانيين وأراد فرض أكل لحم الخنزير . فانفجرت اذ ذاك ، في السنة ١٦٦ ، من أعماق الشعب ، ثورة المكابيين التي استهدفت الملك والمستغرقين معاً والتي انتهت ، بفضل ضعف المملكة السلوقية ، الى قيام دولة يهودية مستقلة .

لا ترد هذه الأزمة الى تصلب الاغريق بقدر ما ترد الى تناقض الحضارتين وما أوجده من سوء تفاهم متبادل بين المسؤولين عنهما . وقد كان لحرق انطيوخوس الرابع دور كبير فيها ، أو بالأحرى لخطئه في تقدير نصج التطور الذي تحقق والانقياد الممكن لأوامره . ولكن الشر الأكبر مرده بنوع خاص الى اغراء الحضارة اليونانية لبعض اليهود والى ان الشعبين لم يضعوا الحد نفسه بين الحضارة والديانة . فاستهوى الاغريق ، بالتالي ، أن يفسروا التمسك بالدين كبربرية متصلبة ، كما استهوى الملوك ان يفسروا المقاومة الدينية كمعارضة سياسية .

أضف الى ذلك ان التعايش ، على الرغم من شتى أعمال العنف ، لم يبق دون ثمرة حتى عند اليهود . فقد انتهت دولتهم المستقلة ، في أواخر القرن الثاني قبل المسيح ، الى ملكية حل أول ملك فيها اسماً يونانياً هو ارسطوبولوس . ويكفي هذا الحدث للدلالة على ان مناهضة الحضارة اليونانية التي بدأت بثورة المكابيين قد اخفقت ، أقله في هذا الموضوع . ثم ان الأدب اليهودي الذي عرف حينذاك تجديداً أكيداً قد تأثر ، مع محافظته على طابعه الديني ، بالفلسفة اليونانية كما نرى ذلك في كتابي « الجامعة » و « الحكمة » . ويتضح ان واضع هذا الكتاب الأخير ملم بالافلاطونية من مفهوم الآلوه التي لا تتصل اتصالاً مباشراً بالعالم . وهكذا فقد تمهدت الطريق لمؤلفات « فيلون » في العهد التالي .

بيد ان مثل هذه الاتصالات ، التي تأثر بها اليهود العاشقون بين « الأمم » خصوصاً ، لا سيما

في الاسكندرية حيث نقلت التوراة آنئذ الى اللغة اليونانية على يد السبعين ، كما يؤكد التقليد ، الذين وكل اليهم بطليموس الثاني هذه المهمة - لم تحل دون استمرار سوء التفاهم ، أله بين الجماهير . فقد سبب سوء التفاهم هذا ، حتى آخر العهد القديم ، مآسي كثيرة أخرى . واستمر تمسك اليهود بديانتهم بفضل الشيع المعادية لكل خروج على الشريعة التي تفسر تفسيراً حرفياً ملزماً . ثم أكمل السخط والثورات على الملوك اليونانيين او المستقرين وعلى روما ما كان ناقصاً : فتغلبت الشريعة في النهاية على الرغم من ضغط الحضارة والجيوش الاجنبية .

هكذا استمر وجود أشد الديانات الشرقية تيزاً ، في حركة انتفاضية لم يبد الاسياد اليونانيون أي تصلب مقصود أو أية دعاوة دائمة لخلقها أو لتفانها . وإذا ما استثنينا العبادة السلافية ، التي لم يكن ليأنف منها غير اليهود ، لم يفرض الملوك موجبات دينية في الشرق فبقيت الديانات المحلية على ما كانت عليه .

أما معتقدات الاغريق أنفسهم وطقوسهم الدينية ففسدت طرأت سنى الديانة اليونانية الخارجي عليها تغييرات عميقة . فلم تعرف الديانة اليونانية التقليدية ، ديانة آلهة الاولمب وآلهة المدن ، مثل ذلك السنى الخارجي . وقد أفضى انشاء كل مدينة جديدة في الشرق الى تشييد معبد على الأقل لأن حاية الجماعة الجديدة وتلاوها يستلزمان عبادة إله مدينة على الأقل . وكثرت الهبات للمعابد المتمتعة ببعض الشهرة : فازدادت الذنورات والتأثيل والمذابح في ديلوس ودلفي وأولبيا . وأخذ الاثرياء والملوك على أنفسهم ، ولا سيما الملوك ، رغبة منهم في الدعاوة ، تخصيص رؤوس أموال ضخمة للقرض أو للأعمال العقارية فأوجدوا بذلك أوقافاً تقوية يستخدم ربعها للتقادم أو للأعياد الدينية . وفي كل مكان زادت الاعياد عدداً وعظمة ترافقها الذبائح والصاوت والتطواقات والالعب التي حاولوا نقلها ، من حيث أنظمة المباريات والمكافآت ، عن الالعب الاولبية أو الدلفية ، بغية تأمين الشهرة نفسها لها . وقد اسند تبرير هذه المظاهرات التقوية الى انعامات الآلهة ومعجزاتهم ، لا سيما الخلاص الذي تم على يدهم في ظرف خطير او ظهورهم للبشر . وسعوا آنذاك الى الحصول على معاضدة هاتف غيب ، لا سيما هاتف غيب دلفي الذي يبدو نشاطه المتزايد في هذا المجال وكأنه يواصل عمل المنظم الاكبر للحياة الدينية اليونانية . ثم أرسلوا السفراء الى المدن والاتحادات والملوك بغية الحصول على امتيازات للاعياد والمعبد ، وللمدينة نفسها اذا امكن ذلك ، وخير مثل معروف هو مثل « مغنيزيا - على - المندريس » حيث تليح كتابات عديدة تتبع المساعي المحقة في أعقاب ظهورات أبولون وإلهة المدينة الرئيسية ، ارتيس لفكوفرييني (« ذات الحواجب البيضاء ») . فبعد السفراء الاول بأربعة عشر سنة أرسل سفراء جدد حصلوا على نتائج باهرة : إذ جمع أربعة ملوك وخمسة اتحادات وأكثر من ستين مدينة التصريحات والتعهدات العاطفة على عيد الإلهة الدلفي وعلى المدينة نفسها . وما هذا سوى مثل بين أمثلة كثيرة .

جری کل ما جری وکان الدیانة الیونانیة ، الی اشعادت شباهة بفضل الانتصارات
السیاسة الی حقها ممارسوها ، تثیر فی أتباعها تقوی أشد حرارة من آی وقت مضی وتحقق
باجماع الرأي علی الحمد والشکر ، احتلال عالم جدید احتلالاً أدبیاً .

بید ان ازدهار الدیانة الکلاسیکیة هذا لا یمثل سوی مظهر فقط من
مظاهر الحیاة المدنیة آی مظهر من ظاهرة عامة ومیزة فی العهد الهلینی .
ولیس هذا المظهر أشد رقعاً فی النفوس من کثیر غیره ، ولكنه أكثر صنعة الی حدّ بعيد .
فالتقوی نحو آلهة المدن كانت تؤلف جزءاً من مصطلحات الحیاة المدنیة ، ولم یستهدف التنافس
فی الظهور بین المدن ، فی هذا المجال ، سوی غایات زمنية جداً . فهی إنما ابتغت امتداد شهرتها
واجتذاب الزائرین والحجاج وتشجیع التجارة المحلية وإلهاء السكان ومحاولة تجنب بعض المحلات
عن طریق الاعتراف بـ « قدسیة » المدنیة و « حقها بالحماية » ، لئلی ، عملیاً ، الاعتراف بمحصانتها
حیال شتی أعمال العنف . وعملیاً لم یکن لهذا النشاط ، المهرق للدخل المحلي ، آی شیء مشترك
مع العاطفة الدینیة الحقیقیة . وهل کان بالامکان ان تكون الامور علی غیر هذا الوضع حین
تقتصر حیاة المدنیة نفسها أيضاً ، فی غالب الاحیان ، علی ظواهر شکلیة ؟

أضف الی ذلك ان أدلة عدم أهلیة الدیانة الکلاسیکیة . قد برزت بشکل جلی أكثر من ذی
قبل . فقد أضربها علی الدوام انها لم تستجب لاضطرابات قلب الانسان وعقله . ولم تأت إلا
بتعلیم اخلاقی فردي بدائی ، دونما اهتمام لما هو عادل و غیر عادل ، مکتفیة بالنشاط الخارجی ،
لا بل متخذة ، فی غالب الاحیان ، شکل ومعنی صفقة تجارية یعقدها المؤمن مع الإله . وقد
ترکت الفرد دون سند ودون وعد ودون امل مطمئن أمام شبح الموت المقض . ولم ترتبط أو
أنها لم ترتبط ارتباطاً جیداً بمفهوم عام للکون وجوهره وتنظیمه . وقد اضيف الآن ، الی هذه
العیوب الدائمة ، حقیقة ومشهد ضعف المدینة آی الإطار البشري الرئيسي الذی ترعرت فیهِ
وارتبطت به ارتباطاً قلبیاً . وقد برهن اخفاق المدینة السیاسیة للجمیع ان الآلهة الذین التمس
منهم الحماية لا یستطیعون أو لا یریدون تأمين السلامة والسعادة لمواطنیها . فتعلم الانسان ، علی
حسابها ، ان مفهوم المواطن لا یحدده تحديداً كاملاً ویعمل منه بعض مظاهر کیانه ، تلك
المظاهر بالذات الی یجعلها شقاؤه أبرز ظهوراً .

وكانت روابط الآلهة الاولمبیین بآلهة المدن أوثق من ان تبقی بعيدة عن هذا الفتور . بید
ان بعضهم ، وفس بنوع خاص ، قد بدا وكأنه لم یثأر به ، ولكن السبب فی ذلك هو ان
اسمهم قد استخدم لاستغراق آلهة شرقيین . ویبدو فی الحقیقة ان دیزنیسوس قد تمتع بتعلق
أشد قوّة . فالتجارات الی احرزتها عبادته ، وهي منهشة اذا ما فکرنّا بالمركز الثالوثی الذی
احتله فی السابق ، لم تناسب مشاغل زمنية فقط . اجل اعتبره اللاجیون والاطالیون جداً
لهم ، ولم تكن السیاسة بعيدة عن التقوی الی تباهوا بها حیاله . ولا ریب ایضاً فی ان صفته

كإله المسرح قد عينته بصورة طبيعية كي يصبح شفيعاً لجميعات الفنانين الذين تفسر كثرة التمثيلات آنذاك نجاحهم وأهميتهم . ولكن هنالك اسباباً أخرى لنجاحات عبادته . ومن حيث ان هذا الإله تراقيّ المنشأ ، فإنه كان أقرب الى الآلهة الشرفيين من جميع الآلهة اليونانيين الآخرين الذين دخل بينهم في عهد متأخر . فنذ الاسكندر ، وعلى خطاه ، اتضحت اسطورة أسفاره ونجاحاته في آسيا وتوسعت بعد ان كانت اسطورة موجزة : فكيفته تكييفاً افضل يتفق وظروف العالم الهليني . اضيف الى ذلك اخيراً ان « طفولته » قد أوجدت حوله ، بالتفضيل على اي إله آخر ، جوّاً من العدوية الرقيقة النضرة قادراً على استغواء مشاعر ذاك العهد . فلو كان على الديانة اليونانية ، ان تستمد من ذاتها ، دون اي اكتساب جديد ، وسائل تجديدها ، لأسمى ديونيسوس ، على الأرجح ، اعظم الآلهة أهمية . وهو الوحيد ، على كل حال ، الذي ابرز عند اتباعه ، آنذاك ، في ما يظهر ، شيئاً آخر غير الحركات الاصطلاحية الخالية من المعنى الديني الحقيقي .

حدثت مع ذلك تجديدات متفاوتة الأهمية لارضاء ميول البشر
 التجديدات الدينية :
 العاطفية واحتلت كلها مكاناً في الحياة الدينية وعبرت أحياناً عن
 العبادة الملكية والسلالية
 ايمان عميق حقيقي .

فهناك في الدرجة الأولى العبادة الملكية والسلالية . وقد عاجلنا فيما سبق أصولها اليونانية والاشكال التي تلبدتها وتنظيمها حيث انتهت الى عبادة رسمية . وقد رأينا ، لجهة العواطف التي تتعلق بها ، توافقها العميق مع نظرية الفاسيلفس أي الانسان المتفوق على البشرية المتوسطة تفوقاً يصبح من الشرعي معه ان يمثل بالآلهة التي يمتلك قوتها . فهي قد عبرت في الوقت نفسه عن الاعجاب وعرفان الجميل واستئزال الانعامات الجديدة .

ولكن هل كل هذا بكاف للكلام عن عاطفة دينية ؟ انه لمن المغالاة نفيه نفيّاً باتاً شاملاً . فاذا كان التطور اللاحق قد عمق وعقد ادراكنا لمثل هذه العاطفة فمن الجدير بنا ان نعود الى الفكرة المكونة عنها سابقاً . لنصنع الى النشيد الذي ألفه أحد الشعراء والذي أنشد في أثينا اكراماً لأحد الانتيجونيين : « الآلهة الآخرون بعيدون ، وهم اما لا آذان لهم واما لا وجود لهم واما لا يعيرون حاجتنا أي اهتمام . أما أنت فنحن نراك هنا ، لا من خشب أو من حجر بل حاضراً حضوراً فعلياً . لذلك فنحن نبتل اليك انت أيها العزيز بين الأعزاء ، اعطنا السلام قبل كل شيء ، لأنك أنت سيد السلام » : تعبر . هذه الجملة عن روحية نفعية لا يقبل بها ذوقنا . ولكن هذه الروحانية أقرب الى الايمان اليوناني الذي انتظر أبداً من آلهته انعامات مباشرة ملموسة : وقد انقضى وقت طويل قبل ان تبدو مثل هذه الملاحظات ناقصة وغير كافية ، فجاءت خبرة الشرق الدينية تفعل فعلها في هذا المعنى بالذات . بيد ان فجاجة الاعتراف ، من وجهة النظر اليونانية ، وفي أوائل العهد الهليني ، لم تنتقص من تأثيره على الجماهير .

فليس اذن باستطاعتنا ان ننكر ان العبادة السلالية ، في حضارة وفي نظر أناس عزوا الى

القوة ، كقوة ، مصدرأ وطبيعة الهتين ، ربما جاءت تعبيراً عن تدين لا يقل واقعية عن التدين الذي عبّر عنه من قبل في عبادات آلهة المدن . فهذه العبادات الأخيرة أيضاً كانت رسمية ومفروضة ومتحجرة في طقوس اصطلاحية . فلم تضاف العبادة السلالية الى هذه النقاىس سوى التسهيلات التي وفرتها لتلقى خيس ولخضوع أكثر سلبية لأوامر سلطة أعظم قوة : وهذا التباين تباين في الدرجة لا في الجوهر . فيجب من ثم ان تفسر هذه العبادة كاستعاضة عن العبادات القديمة التي عدت آنذاك غير كافية لإيقاد ايمان الجماهير . وان هي لم تدخل على الحياة الدينية عواطف جديدة فقد وفرت لها على الأقل أشكالاً جديدة .

لم تحل الفلسفة الهلينية ، أقله في بعض مدارسها ، من الاصداء الدينية .
 التجديدات الدينية .
 عبادة إله الحظ .
 فقد ساعد نجاح تعليم أفيميروس الذي زعم ان اقدم الآلهة اليونانيين ، بما فيهم زفيس نفسه ، قد عاشوا حياة البشر ، لا بل حياة الملوك المحسنين ، فألهم رعاياهم الشاكرون ، على تقبل وازدهار العبادات السلالية . وذهبت تعاليم أخرى الى أبعد من ذلك . فانتهت الرواقية مثلاً الى مفهوم إله واحد ، خالق سيد الكون ، ولا يمثل الآلهة المعروفون سوى مظاهره التي يسهل على الانسان الوصول اليها . فتوقفت بذلك الى الاحتفاظ بالاساطير مفسرة إياها كرموز . ولكن هذه النظريات السامية لم تكن لتبلغ وترضي سوى غلبة قليلة العدد .

أما الديانة الشعبية فيبدو انها لم تنقل عن الفلسفة سوى مفهوم واحد هو مفهوم « إله الحظ » . وقد نشأ هذا المفهوم عن المدرسة المشائية التي واصلت تعليم ارسطو ، وعرف نجاحاً كبيراً جداً عند أغريق يتفاوتون مستوى عقلياً . وقد مثل هذا المفهوم حظاً عاماً يرتبط به مصير الانسانية جمعاء ، وليس قط مزادفاً للصدفة الخرقاء أو لجمعية لا تعفو . وعزيت اليه بعض الاهواء ، ولكن عزيت اليه أيضاً بواعث أملاها عقل لا يدركه الفكر البشري لسوء الطالع . واذا لم يكن هنالك أية طريقة لتليينه ، فانه لم يكن من الممنوع الابتهاال اليه فحسب ، بل التفكير في اسباب المصائب أيضاً وفي استخلاص النتائج الضرورية : وقد سيطرت فلسفة الحظ هذه على مؤلفسات بوليب التاريخية في احدى مراحل تحضيرها . ولكن قد سُلّم بالاضافسة الى ذلك ، لاسيا في الأوساط الأمية أو شبه الامية ، بوجود حظوظ كثيرة ، واحد لكل فرد وواحد لكل جماعة فتمكنت التأثيرات الشرقية ، أقله في هذا الحقل ، من ان تفعل فعلها عن طريق مفهوم « غاد (Gad) » السامي ، الحامي الخاص لكل مدينة . وقد درجت عادة مدعوة لديمومة نادرة ، عن طريق تشخيص إله الحظ في انطاكية الذي ذاعت شهرته بفضل تمثال لافتيخيداس ، تقضي بتشخيص المدينة بصورة امرأة تتوج رأسها الابراج . ومن المسلم به ان التقوى كانت أكثر حرارة نحو الحظوظ التي تبدو اعظم قوة ، وبتنوع خاص حظوظ الملوك التي كانت موضوع عبادة وتقسيم الأيمان باسمها . ويمكن القول ، على العموم ، ان عبادات قليلة عرفت الانتشار الذي عرفته هذه

الديانة : فلم يكن في الحقيقة من ديانة افضل انسجاماً مع اختبار عالم مجهول شاهد الكثير من الارتقاءات الفجائية التي عقبها كوارث فجائية أيضاً .

نلتس دون سمعية ، مع العبادة الملكية ، بقدر بعدها عن مجرد التملق ،
وفي عبادة إله الحظ ، اجماع الرغبة في تأمين السعادة بفضل قوى متفوقة .
فقد نكسّد الاضطراب النفوس وبحث الناس عن الخلاص بقلق شديد .
وقد عبروا عن هذه النزعة بقوة نادرة في لقب « المختص » الذي اطلق آنذاك على الكثير من
الآلهة القدامى والجدد ، والكثير من الملوك أيضاً : فكان شعورهم بأنهم في مأمن من اخطار الحياة
والموت الشرط الأول للسعادة .

وقد ابتلوا بجملة الى اسكليبيوس ، الإله الشافي ، للتخلص من الآلام الجسدية . فهو قد
قبل منذ زمن بعيد في مصاف الآلهة اليونانيين وكان له معابده ، وأشهرها في كوس احدى جزر
بحر ايجه ، وفي ابيدورس من اعمال الارغوليد . فتوافدت اليها جماهير غفيرة لم يسبق لها مثيل من
ذوي قبل . وكانت شهرة مؤسسته الطبية الدينية التي تخرج منها الأطباء الكثيرون احد مقومات
ازدهار كوس حيث حرصت الدولة على حمايتها واستمرارها عن طريق المساعدات المالية . اما
في ابيدورس فقد اقتضى توسيع الابنية حيث كان المرضى يقضون ليلهم ويجمعون ، في الاحلام
التي تراود سباتهم ، الدلالات التي يفسرها الكهنة لتوجيههم في معالجة آلامهم ؛ وتشهد اليوم
نذورات كثيرة ، ترافقها الكتابات التفسيرية ، يحيل المرضى المدينين لجود الإله بشفاء عجائبي .

ومن الآلهة النصر والرحاء والمخلصين ، على غرار غيرهم لا بل اكثر من غيرهم ، اولئك
الذين استطاعوا طمأننة الانسان حيال اخطار الحياة الثانية . وتوصلوا الى ذلك بإيقاف المؤمنين
على اسرارهم . وقد سبق للحضارة اليونانية الكلاسيكية ان عرفت هذا الشكل من الحياة
الدينية التي انتشرت في حينه انتشاراً غريباً في معابد يونانية وشرقية قديمة وجديدة . فعلى
بعض المسافة من أثينا حافظت الفيس الرسمية على زينها واستألت الكثير غيرهم ؛ ولكن
الفيس جديدة قد انشئت على مقربة من الاسكندرية لم تقم ، والحق يقال ، الا بنشاط ثانوي .
غير ان السوق التي راجت هي سوق اسرار اخرى بسبب ما انطوت عليه احتفالاتها من
مشرقية وتأثير ، حتى انها قد اهتمت بالشعوذة والدعارة . وكان لديونيوس ، الذي سبق
تكريمه في الفيس ، اسراره الخاصة التي اصبح لها فروع كثيرة . واذا وجد الاغريق هذه
الاسرار في تراث اجدادهم الديني ، فانهم لم يأنفوا من الاشتراك بغيرها مما يمت بصلة الى العبادات
الشرقية كعبادات « اقيس » و « وسيليل » في آسيا الصغرى وعبادات اوزيريس وايزيس
في مصر .

نحن لا نعلم حق العلم تفصيل هذه الاحتفالات التي توجب على المشترك المبتدئ ان يعتصم
بالصمت حيالها . ليس من ريب في ان الطقوس والصيغ قد اختلفت باختلاف الآلهة . غير ان

المؤمن قد وجد في كل مكان تهديئة لاضطرابه وقلقه : فانه كان يحضر قيامة إله ميت ، فيقف بذلك على اسرار الموت والتجدد . قد تكون اسرار الفسيس قد وقفت عند هذا الحد . ولكن الاسرار الاخرى قد قادت المشترك الى ابعد من هذا . فبعد تطهيرات مختلفة كان يتمثل بالإله ويشترك في طبيعته الإلهية . وكان أيضاً يتعود حالات نفسية جديدة كالانخطاف وحببة الإله المتألم الذين من شأنهما إدخال الذهول الى قلب أكثر الناس خشونة . كما كان يواجه مفاهيم جديدة لم تتعرض لها العبادات اليونانية قط عملياً ، كفهوم الخطيئة ، ومفهوم الطهارة ، لا الطهارة الجسدية التي يحصل عليها بالاستحمام والصوم فحسب ، بل الطهارة الأدبية أيضاً . فوفرله كل ذلك ، بالإضافة الى الوعود التي لا تقدر بثمن ، تنمية حياته الداخلية ، التي كانت متروكة لنفسها ففدت منذ ذلك مستنيرة وثابتة . وهذه كلها فتوحات لم تكن النفس البشرية لتقبل بالتخلي عنها بعد الآن .

أضيف كثير من هذه الاسرار الى عبادات آلهة شرقيين : ولكن
 التجديدات الدينية :
 الاغريق ، على الرغم من ذلك ، لم يحمّدوا عنها . فقد برهنوا
 العبادات الشرقية وسيرايس
 أبداً ، على الصعيد الديني ، عن قابلية للاقتباس ، معترفين

بنواقص معتقداتهم الخاصة ومستعدين للاستعاضة عنها باقتباسات عن الشرق . بيد انهم ، عندما تبناوا رسمياً عبادات غريبة ، بذلوا الجهد لتكييفها ولتطهيرها ، اذا صح التعبير ، باخضاعها للعقل : هذا كان مصير عبادة ديونيسوس في قلب اليونان الكلاسيكية ، اثينا . اما العبادات التي بقيت هي هي ، محتفظة بميزاتها وطقوسها الاصلية ، فقد استطاعت التسرب الى بعض المدن ، لا سيما الى المرافئ ، ولكن احياناً وبصورة خاصة فقط : هكذا استفادت عبادة إيزيس ، في البيرة ، من بعض التساهل ، ولكنها لم تحظ بالاعتراف الرسمي . وتبدل الوضع منذئذ تبداً كلياً . فاقترنت الاتصالات بالآلهة الشرقيين بصورة حتمية مباشرة وعلى اوسع نطاق ، شاءت الدولة تسهيلها أم ابت . ولم تحاول الدولة ، في اي مكان ، من جهة ثانية ، التعرض لها فستحت للاغريق فرصة تنميات روحية كثيرة قد تبدو خيانات محضة في نظر الحضارة اليونانية الكلاسيكية .

وقد حدثت تقاربات مذهشة . فتعرض يهوه نفسه للضم ، على الرغم من تميزه وارتهباطه الوثيق بشعب معين . فإن كلمة « الأعلى » كانت منذ قبل ذلك صفة لزفس . فاعتمدت لاسم أكثر غموضاً هو « ثيوس » (الآله) ، فاوجد بذلك آله جديد ، شبه غفل ، يسهل التوفيق بينه وبين بعض التعاليم الفلسفية ، لم يتردد الكثيرون ان يروا فيه إله اليهود . وآثر غيرهم تمثيل إله اليهود بديونيسوس ، باسمه الغراقي ساباذوس ، الذي كان من السهل ، بصدده ، تلبس بعض الكلمات كسبت وصباووت . وحلت استدلالات أخرى على الكلام عن زفس الدمشقي وزفس الدوليكاني اللذين ليسا سوى الإله حدد في دمشق ودوليكي . ودفعت إذ ذاك نزعة غريزية النفس

اليونانية على البحث عن إله كلتي القدرة يستجيب الصلوات ، وعلى خلقه عند الحاجة . وهكذا فقد شقت الطرق ، ولو بصورة غامضة جداً ، التي كان باستطاعتها ان تؤدي الى التوحيد .

جاول البطالسة توجيه هذا الجهد وفي الوقت نفسه توحيد الاغريق والبلديين المصريين في عبادة مشتركة . فأوجد بطليموس الأول ، توصلاً لهذه الغاية ، إلهاً جديداً هو سيرابيس ، ونظم عبادته بعد ان استشار اغريقيا والكاهن المصري مانيتون ، وهو الذي عهد اليه وضع موجز لتاريخ مصر الفرعونية باللغة اليونانية . وقد شيد المعبد الأول للاله الجديد في منف المدينة المصرية الصرفة ، ولم يشيد له معبد آخر إلا في عهد بطليموس الثالث في الحي البلدي من الاسكندرية المعروف باسم راكوتيس . ولم يكن اسم الإله نفسه سوى إله الأموات في منف ، « اوزيريس - أبيس » الذي شوّهه الاغريق فدعوه اوزورابيس وسارابيس وسيرابيس . وقد احتفل بعبادته في هذه المدينة ، وفاقاً لطقوسها الخاصة ، الكهنوتان اليوناني والمصري ، وكان الكهنة المصريون أكثر عدداً الى حد بعيد . غير ان النفوذ اليوناني لم يلبث ان وطد سيطرته ، لا سيما بفضل غثايل النقاش « براكسيس » الذي ابتكر طراز الرسم الاصطلاحي للاله ، كما يغلب على الظن . فهو قد سكب فيه خاصيات منقولة عن آلهة يونانيين عديدين كزوس ، بسبب قوته ، والإله الشافي اسكليبيوس وإله الأموات هادس : فاذا به قد مثل انساناً مهيباً ، يفيض بحياه عطفاً ورحمة ، كثيف اللحية وأجعد الشعر ، يكسو رأسه المكيال رمز الخصب ، جالساً على عرش ، قابضاً على عصا طويلة بيده اليسرى ومقلباً يده اليمنى على كلب . واذا كان الإلهان المصريان ايزيس واوزيس قد اشتركا مع الإله في معبد منف أيضاً ، واذا دفن فيه كل « أبيس » يموت ، فقد وجد فيه من جهة ثانية هيكل لديونيسوس ، كما قام أمامه بناء سداسي الشكل أحيط فيه بمتمثال هوميروس بخمسة تماثيل لفلاسفة يونانيين وخمسة تماثيل لشعراء يونانيين أيضاً . فكان الإله والعبادة ، بالتالي ، يونانيين ومصريين في آن واحد ، يغلب فيها طابع الحضارة اليونانية . التي لم ترض يوماً بالتسكّر لما كان ولا يزال سبب عظمتها . ولذلك فليس من الغريب اذا لم يكثرتم البلديون المصريون عملياً لسيرابيس ، في حال انه تتمتع بمركز ممتاز في الأوساط اليونانية ، بفضل ما انطوى عليه من خصائص غريبة عن الحضارة اليونانية الكلاسيكية ، كما نرجح . وقد كرست له ، في كل مكان تقريباً ، معابد احتفل فيها بالأسرار أيضاً : في آسيا الصغرى ، وديولوس ، وتراتقيا ، واليونان نفسها . وهو الذي مهد الطريق أمام انتشار عبادة وأسرار ايزيس في الامبراطورية الرومانية جمعاء .

على الرغم من ان الاحتياطات المتخذة للحفاظ على نصيب العناصر اليونانية ، استمر إذن استقلال ونفوذ الشرق دينياً بلا منازع . وقد اجتذبت عباداته ، دون أي تساهل ، العديد من المؤمنين اليونانيين الذين وصلّوا منهم ، باللغة اليونانية ، شهادات تقوى لا تحصى نحو آلهة « برابرة » لا غش فيهم . فامتدت عبادات هؤلاء الآلهة ، بواسطتهم ، نحو الغرب ، الجزر ولا سيما ديولوس

أولاً ، واليونان ثانياً . وقد أسهمت بعض الاسهام في هذا الغزو بلاد بابل نفسها التي فقدت ديانتها القديمة كل قوة توسعية واقتصرت في نشاطها على محاربة الفناء ، وذلك بواسطة التنجيم والسحر الذين مارسها من أطلق عليهم اسم « الكلدانيين » او « المجوس » أيضاً — لأن هذه العلوم الباطلة قد أشيعت ، على العموم ، باسم زرادشت — وتجدر الاشارة هنا الى ان جميع الديانات الشرقية ، التي ستتقاطر الى روما فيما بعد وتنتشر منها في المقاطعات الغربية من الامبراطورية ، قد بدأت تتوسع حتى قبل الفتح الروماني : فلم يكن دور السيطرة الرومانية ، على هذا الصعيد كما على غيره ، سوى توسيع نطاق التطور السابق .

فلا يبدو إذن من الغلو شيء التكلم ، بصدد الاغريق ، عن ثورة ديلية كان فتح الاسكندر منطلقاً لها . فان هذا الفتح ، بتخليصهم من اقتسارات الديانة المدنية ، قد حرر فيهم احساساً ووصفية خفيين ولكن مكبوتين . وقد أتاح لهم ، باقامتهم في عالم اتسعت آفاقه تمكنوا فيه من اغتراف الدروس ، اختبارات أثارت حماسهم الحاد . فاكشفوا في آن واحد ثروات الشرق المادية والروحية التي سحرتهم لفترة طويلة . واذا لم يفرض عليهم استخدام الثروات المادية أي تمرين ، فقد توجب عليهم ، حيال الثروات الروحية التي كانوا أمامها شبه مبتدئين ، ان يرضوا بالتلمذ لرعاياهم . فقد أحسوا نهائياً ، في هذه المدرسة ، بما يجعل نفوسهم غير راضية وتعمهوا تقوى جديدة قوامها القلق والحمية .

٢ — الفن

بالاستثناء بعض التقنيات ، لم يكن الشرق ، في الحقل الفني ، ليبرز للفن اليوناني والفنون البلدية معلماً حيال الاغريق الذين ثبت تفوقهم فيه منذ زمن بعيد . لا بل ان أثر الفن اليوناني ، منذ قبيل الاسكندر ، قد تسرب الى أماكن كثيرة من ساحل آسيا المتوسطي وحتى الى البلاط الفارسي . فكان الفن الهليني بالتالي فناً يوناني الجوهر بصناعيته وبتحقيقاته . ولم تحافظ الفنون المحلية على حيويتها إلا في بعض المناطق المحدودة جداً . واذا ما نظرنا الى الشرق في مجموعه ، رأينا ان هذه الفنون لم تجد علماً فرصة سانحة للظهور ، إذ ان النخبة الاجتماعية ، التي كان باستطاعتها احياءها عن طريق طلباتها ، قد افتقرت او أعرضت عنها بعد ان فقدت روحها القومية .

ولم يخرج عن قاعدة هذا الانحطاط العام سوى شواذ نادرة . وبالإضافة الى اوروك في بلاد بابل ، حيث يفسر استمرار حياة كهنوتية يعطف عليها السلوقيون تشييد وترميم المعابد التقليدية ، تكون مصر الشذوذ الرئيسي . وفي وادي النيل تساوى تصميم الملوك اليونانيين على الابقاء على التقاليد الاجتماعية في الحقل الفني وفي الحثول الاخرى . فشيدت المعابد المصرية وزينت جدرانها بالمشاهد الكلاسيكية : ولكن هنالك فوارق طفيفة ، كالسمي وراء التناسق في القياسات ، تحمل على الاعتقاد بجوار بل باشتراك اغريق يخضعون لعلم آخر في سنن الجماليات . أما البناء

الوحيد الذي يبرز فيه الاثر اليوناني بروزاً محسوساً ، بتمثيل أشخاص يرتدون الألبسة اليونانية ، وبعض الجزئيات ، كتكريم ديك أو وجود طفل على ذراع أمه ، فهو مدفن « بيتوزيريس » ، المصري الذي ينتمي الى اسرة كهنة ؛ وقد يكون هذا المدفن سابقاً لفتح الاسكندر أيضاً .

تجديد الفن اليوناني
سيطر الفن اليوناني سيطرة لم ينازعه فيها منازع ، ولكنه خضع لتجديد عميق الجذور . بيد ان ذلك لا يعني أنه نقل عن الفنون الشرقية فوق ما نقلت عنه . ويفسر تحولاً ، التي دلّ عليها تطوره السابق ، الظروف المختلفة التي كانت على نشاطه ان يبرز فيها .

نشأ التجديد عن المدد الذي وفّره ، لبعض النزعات الظاهرة منذ أواخر العهد الكلاسيكي ، الميل للاحساس جديد . فادخلت على الفن المعاني الروحية والقدرة على التأثير الديني . فاصطبغت الوجوه ، وحتى المناظر الطبيعية أحياناً ، بصبغة صوفية . ولم يكن كل شيء ، من جهة ثانية ، من النوع نفسه في الميل العاطفي الذي أعرب عنه زين أقل اهتماماً من ذي قبل بالتناسق المنطقي . وكان من شأن التأثير ان ينقلب اضطراباً وعنفاً ، حتى بشكل خارجي . فاستفاد الفن من ذلك عند الاقتضاء ، غير مقتصر على إعادة الأزمات والآلام النفسية ، باحثاً في قوة التأثير والضوء عن وسيلة للتعبير عن هوى النفس .

تحسنت الظروف المادية للحياة الفنية تحسناً عظيماً . فبعد العهد الكلاسيكي شرعت المدن اليونانية في التزيين والتجميل . واستمرت هذه النزعة ، لا بل توطدت ، وخضعت لها المدن الجديدة العديدة في الشرق على غرار مدن اليونان القديمة ، واعتزت كلها بهذا التنافس . وأفضى نمو البورجوازية الى ازدياد عدد الزين الميسورين الراغبين في البذخ الكيالي واللذة في الحياة الخاصة والعامة . فنتج عن ذلك ازدياد عظيم في الطلب وارتفاع في عدد الفنانين المهنيين الذين غدت حياتهم اليومية أكثر سهولة ، وأكثر ازدهاراً في غالب الأحيان . غير ان جودة المصنوعات قد تدنت دونما ريب بفضل ظهور وانتشار ما يمكن تسميته بالناذج القياسية الموافقة لأذواق طبقة اجتماعية أُمست أكثر عدداً من ان تبقى نخبة ثقافية واصبحت هي نفسها « قياسية » ، اذا جاز التعبير ، إذ اننا نراها متشابهة جداً في جميع مناطق العالم اليوناني .

أجل كان هنالك ، في الوقت نفسه ، زين آخرون مولعون بالثقافة العليا ومتمتعون غالباً بالوسائل اللازمة لبلوغها ، يطلبون من الفنانين ارضاء أذواق اخرى اعظم رقة ، أعني بهم الملوك وبلاطاتهم . وقد انطوت طلباتهم على البذخ والعظمة ايضاً للذين من شأنها اعلاء شأن جلال السلطة . ولكن التربية التي أعنتي بها اعتناء خاصاً منذ ان استطاعت السلالة تأمين بعض الاستقرار ، والبطانة التي حرصت على استالة أولئك الذين يستطيعون ، بفعل شهرتهم ، تجديد حكم الملك ، قد أدخلتنا عليها مشاغل وتصنّعات تفوق الى حد بعيد تلك التي اكتفت بها البورجوازية

المدنية . وقد حلت نصرته الفنون هنا كافة مشاكل الفنانين المادية حلًا أكثر شمولاً منه في المدن ، غير أنها قد وجهتهم شطر تحقيقات ، أما فخمة وأما بالغة في الدقة ، لم تكن دون غيرها مناقضة لتحقيقات العهد السابق .

١ - هندسة العمارة

كان باستطاعة هندسة العمارة الهلينية أن تنقل عن الشرق القوس والعقد الابنية الكبرى والقبة مثلاً . غير أنها ، على معرفتها بها ، لم تستخدمها إلا نادراً جداً ، متمسكة بالأساليب الكلاسيكية التي حصرت جهودها في اقتنائها . وإذا كان عدد الابنية المشيدة آنذاك عظيماً جداً فلم يأت سوى القليل منها ، في تصميمه وتحقيقه ، ببعض الجودة . وما تجديده هندسة العمارة اليونانية ، خصوصاً ، سوى في جمع العناصر القديمة لتحقيق مجموعات عظيمة .

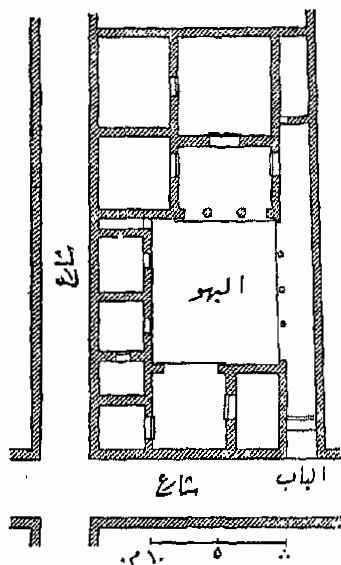
يعزز هذا الاستمرار في طراز المعبد الذي شيدت منه نماذج لا تحصى بسخاء أمثله مصطلحات التقوى الرسمية . والجدير بالملاحظة ان الفنانين ، ان هم اعتمدوا في بناء المعبد مواد وتزييناً غالباً ما تم عن غنى نلمس فيه التباهي ، لم يعودوا به الى القياسات الضخمة التي أهلها الذوق السليم في العهد الكلاسيكي . أما تصاميم المعابد الكبيرة التي عكفوا على تنفيذها ، دون التوصل الى إتمامها قبل زمن طويل ، أي في القرن الثاني بعد المسيح للقسم الأكبر منها ، فقد وضعت أقله في القرن الرابع ، كتصاميم معبد زفس الاولمي الذي يعود الفضل في الشروع فيه في أثينا الى بيسستراتوس . وقد يفرض هذه التصاميم أحياناً استخدام بقايا أبنية سابقة تهدمت عرضاً .

وما لا ريب فيه ان الابنية المستهجنة الطراز قد بقيت نادرة جداً . ولعل أغرب مثل عنها ، أبرزته اعمال التنقيب ، هو معبد « ديديموس » الذي تعهدت « ميله » إعادة بنائه منذ الاسكندر وواصلتها طيلة قرون . بلغت قياسات أساسه 116×52 مقابل 70×30 للبارثون . وانتصبت أمام مدخله عند وجه البناء اعمدة اشبه بالحرج بسبب كثرتها ، موزعة على خمسة صفوف ؛ واحاط بالبناء صنفان آخران ايضاً . وفي داخل الجدران ، أدت اثنتان وعشرون درجة تتجه الى الاسفل الى فناء طلق قام فيه معبد صغير لأبولون . لا يمكننا ، امام هذا الخروج عن المألوف ، إلا ان نفكر بالشرق وبقاعات الاعمدة في المعابد المصرية وبالفناءات الداخلية في معابد شرقية كثيرة . ولكن الى أي تاريخ تعود هذه التأثيرات يا ترى ، وما دام العمل قد تناول إعادة تشييد بناء التهمة النيران ؟ فقد ابقني مثلاً على التماثيل الجالسة القديمة جداً ، العائدة لأسرة البرنخيين الكهنوتية ، المرتبة على طول الطريق المؤدية من المرفأ الى المعبد وفقاً للطرق المصرية التي تحف بها تماثيل ابي الهول والكباش .

وعلى نقيض ذلك فقد برز هنالك طراز جديد ، يوناني بحت ، على الرغم من خصائصه المميزة ، ان لم يكن لمعبد فأقله لعمل هندسي غايته دينية : المذبح الضخم لزفس المختص في برغاموس . ارتفع على مقربة من اعلى قمة في المدينة ، داخل شبه مربع واسع يحده رواق

مزدوج من جهاته الأربع . وقام المجموع على اساس ذات درجات وادى اليه من جهة الطريق المقدسة سلم عظيم يشارف عليه جناحان من الرواق . ولكن هذا لم يكن بناء بالمعنى الصحيح بل تنظيمًا لمساحة خالية من البناء ، وفي الحقيقة كان المهندس المعمار ، هنا ، مهندس تجميل .

يبين هذا المثل ان هندسة العمارة الهلينية لم تنفرد نفوراً مبدئياً من التحقيقات الفخمة التي من شأنها ان تدهش العقول بقياساتها غير العادية . لا بل كان من المهم ان تخضع لهذه النزعة التي تتفق كل الاتفاق والوقائع السياسية والجغرافية والمالية السائدة التي اتسع نطاقها الى ما لا حد له . اجل لقد صمم « جيسار » رودس الجوف كتمثال هليوس ، الإله الشمس ، إله المدينة ، وصنع من عدة فدرات ضخمة . ولكن يجب ان نخص بالذكر البرج الثلاثي الطبقات البالغ علوه ١٢٠



الشكل ٢٨ - بيت هليوس في برينتا (إونيا)

متراً الذي شيده المهندس المعمار سوستراتوس الكنيدي عند مدخل مرفأ الاسكندرية وكان معداً لأن يرشد بواسطة النار المشتعلة في قته التي تعكس المرايا لمعانها الى مسافات بعيدة ، المراكب المتوجهة نحو المرفأ . (انظر الشكل ٢٦ - ص ٤٥٧) .

وهناك نزعة تجديدية اخرى في هندسة العمارة البيت الهلينية تفسر هازيادة الامكانات المالية أيضاً . نحن نجمل كل شيء تقريباً عن القصور الملكية التي لم يكشف التنقيب فيها عن شيء حتى الآن . ويجب في ما يظهر ألاّ تتصور أبنية عظيمة ، بل أبنية متنوعة ، زاهية ، مجهزة لرخاء العيش اكثر منه للآبهة الرسمية ، موزعة في رياض غناء فتنت الملوك الشرقيين أبدأ بنضارة اخضرارها . والوصف المفصل الوحيد الذي لدينا يعود للسرداق المعدّ لبطليموس الثاني لمناسبة عيد سلاي كبير ، ولقصر عاثم معدّ لنزه بطليموس

الرابع وبطانته على النيل ؛ وكلاهما مظهر عظيم وتعمير مؤثر عن الملكية اللاجية ، ولكن هذا المظهر وهذا التعبير زائلان او عرضيان لا يسدّان فراغ القصر الكبير الذي احجمت عن تشييده ، لأنه ما كان يستجيب لرغبات ملوكها لو شيّد .

على نقض ذلك ، أظهرت اعمال التنقيب ، لاسيافى المدرن الأسيرية كميله وبرينتا ، او البحرية كديلوس ، بيوتاً خاصة لا تحصى . وطبعي ان المساكن الضيقة الفقيرة التي ازدحمت فيها عائلات الطبقة الشعبية قد ألقت سوادها الأعظم . غير أنه قد برز الى جانبها طراز سكني جديد درج الكلام معه عن « البيت الهليني » تمييزاً له عن بيت العهد

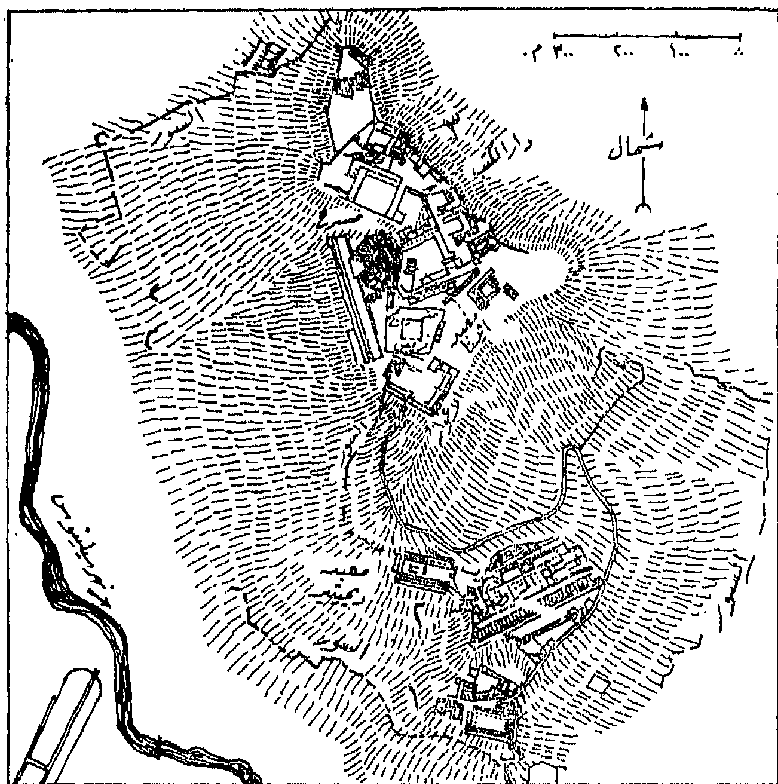
الكلاسيكي . وليس من شك في ان البورجوازية ، الراغبة في سعة العيش والرفاهية ، او الفخفة احياناً ، والمزودة بالوسائل اللازمة لادخال البهجة على حياتها اليومية ، هي التي روجت اعتماده . يشغل البيت الهليني مساحة اكبر : فمساحات البناء كانت اوسع من ذي قبل في المدن الحديثة وفي المدن القديمة ايضاً التي ضمت اليها احياء جديدة . ولم تفتح فيه نوافذ تطل على الخارج ، بل باب واحد فقط يؤدي الى ممر جانبي مظلم : فالبيت الذي هو ملجأ الحياة الخاصة يجب ان يكون في مأمن من المذال . ولكن الغرف — وهذا هو التجديد الكبير — كانت مفتوحة على فناء وسطي مجهز في الغالب برواق ذي أعمدة يقي من المطر والشمس ، او اقله ، ببعض الاعمدة التي تنتصب أمام مدخل القاعة الرئيسية .

كان هذا البيت كبيراً وحسن التهوية ، وكان مزيناً ايضاً . فقد رصفت ارضه بفسيفساء ملونة اعتمدت فيها الرسوم الهندسية او مواضيع تزيينية اخرى . وكثيراً ما ألبس القسم السفلي من الجدران بالصفائح الرخامية . وقد أبدل الرخام النادر احياناً ، في دلتا النيل مثلاً ، بالجبص الملون . ولم يكن من النادر ان تزين الجدران برسوم تمثل الحدائق او المناظر الريفية . هكذا نشأ في الشرق المتوسطي ذلك المسكن الخاص الذي سيتوسع ويتزوق مع الزمن ، وتضاف اليه احياناً حديقة كبيرة ، والذي سيفضي الى بيت بومبي الذي تحملنا المقارنات الكثيرة على الاعتقاد بأنه كان يونانياً اكثر منه رومانياً .

المدنية اذا ما نظرنا الى كل مدينة على حدة ، لم يظهر لنا أي تغيير هام في عناصرها التقليدية ، الاغورا والمتزاوف والمسرح الخ ، التي كوَّنت على الدوام الاطار المادي لحياة الاغريق الجماعية . ولكن تجديداً قد حدث مع ذلك : فان هذه العناصر التي كانت مستقلة حتى ذاك العهد قد جمعت كي تؤلف كلاً واحداً وخططت وأعدت وفاقاً لرسم عام وحوَّلت الى اجزاء من كل منظم تحقيقاً لأهداف جمالية ومادية . اما قسط الهندسة الهلينية في هذا التجديد فهو مفهوم المدينة : فيبدو انها اكتشفت وجود المدينة ووحدها ككائن مادي لا يختلف في تميزه وتفوقه على مجرد تلاصق الأبنية العامة والمساكن ، عن تميز البؤس وتفوقها على مجرد تجاور الافراد . فنشأ من ثم التجميل الذي برز منذ البداية كفن وعلم وتقنية ادارية .

اذا ما استثنينا بعض المدن التي انشئت في عهد متأخر نسبياً — كمرقأ البيره واولنشوس — اتضح لنا ان المدنية في العهد الكلاسيكي قد بنيت بلا تبصر ولا قصد ولم يواجه فيها المستقبل كما لم يهتم فيها لتغير المشاكل الخاصة الحالية . أما المدن الهلينية ، باستثناء بعضها — كديلوس مثلاً — ، فقد صممت وفاقاً لخطط كان تنفيذه من الأمور السهلة لأنها على الغالب مدن جديدة . وقد أخذ بعين الاعتبار ، في مخططها الهندسي وشوارعها المتوازية المكونة بتقاطعها زوايا مستقيمة ، توسعها اللاحق ، فأفسحت مساحات طليقة للمساحات العامة وللأبنية الضرورية لتفتح الحياة الجماعية ، ووزعت الأبنية الهامة توزيعاً منطقياً وفاقاً للغاية الموضوعة لها . فأرجب ذلك نوعاً من الوحدة

في القياس والقاعدة. غير ان طبيعة الأرض قد أخذت بعين الاعتبار، أقله، لتحديد تخطيط السور وموقع كل من القلعة والمسرح الذي كان من شأن اسناده الى منحدر احدى التلال ان يخفف نفقات بنائه. ومهما يكن من الأمر، فقد كانت هنالك مشاغل جماعية، جديدة في كثرتها وشموها، أوجب ذوق ذاك العهد النزول عندها.



الشكل ٢٩ - برغاموس الهلينية

ثلاث مدن اضيفت الواحدة منها الى الاخرى : المدينة السفلى (١)، المدينة الوسطى (٢)، المدينة العليا (٣). وقد استلزم توسع المدينة وانحدارها نحو السهل تعاقب تشييد أسوار أعظم اتساعاً.

مشاغل رفاهية في الدرجة الأولى. فقد حدد عرض اكبر للشوارع، عشرة امتار تقريباً للشوارع الرئيسية، وستة الى ثمانية امتار للشوارع الثانوية. ووضعت انظمة للأبنية، حفظت لنا الكتابات ما تعلق منها ببرغاموس، قضت بالنظافة والتقيد بمجد ادنى من المسابقات بين البيوت : وقد عين قضاة وموظفون خصوصيون، نقلت روما تنظيمهم فيما بعد عن الاسكندرية، مهمتهم السهر على تطبيق هذه الانظمة وتأمين السلامة ليلاً ومكافحة المجرات. واحيطت المساحات العامة المتميزة بالاتساع بأروقة تتفق مع متطلبات المناخ الشرقي ويحلو للكسالى التنزه فيها. وانشئت المجلات والاقنية لتأمين حاجة المدن من المياه. واذا ما عرفت المدينة الازدهار

وساهم الملوك والمواطنون الاثرياء بسخايمهم ، برز البذخ بصورة ابنية جديدة ومعابد ومتراوفات ومذابح وخصوصاً تماثيل برونزية او رخامية غدا عددها في النهاية عظيماً جداً . ومن الجلي ان البورجوازية المدنية المزودة ببذوات انيقة التزيين قد اعارت جمال المدينة الاهتمام نفسه : فكانت للتنافس شأنه على هذا الصعيد ايضاً .

اضف الى ذلك ان التجميل الهليني قد خضع لهم جديد هو وقع المنظر العام الذي يحصل عليه بتنظيم المدينة تنظيمًا جمالياً والتوفيق بين مناظر الأشياء البعيدة توفيقاً متناسقاً وتوزيع الخطوط والمسطحات والمجموعات التي تنتج عن هندسة العبارة توزيعاً متوازناً معتدلاً . ويبدو في هذا الصدد ان مدينتين ، هما مقران ملكيان ، قد انشئتا بنجاح كامل . فيها قد حددتا على كل حال لأجيال واجيال من الفنانين ، النقاشين والنحاتين والرسمين ، موضوعين من مواضع مناظر الخلفية . وهاتان المدينتان هما الاسكندرية وبرغاموس . أما الأولى ، وقد بنيت في ارض سهلية ، فقد اعطت الخطوط والمشاهد التقليدية لمنظر المرافئ الذي ألفه جميع المتوسطين والذي بلغ الكمال هنا بفضل تقدم الاساليب التقنية التي اعتمدت اذ ذاك في كل مكان تقريباً ولكنها لم تعتمد في أي مكان على مثل هذا النطاق الواسع : الجزر الصغيرة والارصفة والبرج المضيء وشتى انواع المراكب ونشاط حركة التحميل والتفريغ ، وتشرف على كل ذلك قم الاشجار الخضراء في الحدائق الملكية وسقوف الابنية العامة . واما برغاموس ، وقد بنيت على منحدر ثلة تشرف على سهل يلتقي فيه نهران ونضدت وفاقاً لمسطحات تفصل بينها سطوح افقية تتراعى خلالها جدران واعدة وسقوف المتراوفات والملاعب وتوجت اخيراً بسلام المسرح الحجري وبأعده المعابد ، فقد اعطت المنظر المدني يحصر معناه ، من حيث انها شيدت كستار خلفي في مسرح ، منظوية احياناً على كل معنى العظمة الملوسة ومذكورة تذكيراً مؤثراً بالمجهود البشري الذي فرض نفسه على الطبيعة وبلغ الذروة في التعبير عن جملة نحو الآلهة : فان ما بدأت أثينا في اعطاء مثل عنه في منحدر القلعة قد ظهر هنا على نطاق اوسع بفضل اضافة باقي المدينة الى هذه التقدمة المثوية الجبارة . فقد ولد حقاً فن جديد هو في الوقت نفسه نتاج وغذاء احساس جديد .

٢ - الفنون التصويرية

ان الظروف العامة التي كان لها أثرها في الفنون التصويرية تختلف اختلافًا
الظروف العامة
بيننا عنها في العهد الكلاسيكي .

ويظهر التغير بنوع خاص في الظروف المادية . فقيام الملكيات الكبرى وسياستها في نصرة الفنون الجميلة وتضخم الثروة والتنافس بين الجماعات وميل الافراد الى الفخفة ، كل ذلك أحدث ازدياداً عظيماً في طلبات المصنوعات الفنية . واليك بعض الأرقام المدهشة المذكورة عرضاً في الكلام عن بعض أعمال التهب . فيؤكد بوليب ان « ألفي تمثال على الأقل ، انتصبت

في فرموس ، المركز الديني والسياسي للاتحاد الايتولي . واستطاع القائد الروماني الذي دخل امبراسيا عنوة ، وهي مدينة في غربي اليونان كانت مغمورة في القرون الكلاسيكية وبقيت ثانوية بعد ذلك على الرغم من انها أصبحت مقراً للملك بيروس في فترة من الزمن ، ان يعرض ويسير لدى انتصاره ٧٨٥ تمثالاً من البرونز و ٢٣٠ تمثالاً آخر من المرمر، تاركاً التماثيل الخزفية في أمكنتها مع انها من انتاج زفكسيس . وضم موكب النصر الذي رافق فاتح مقدونيا ، بولس اميلوس ، ٢٥٠ عربية ملأى باللوحات والتماثيل والمنسوجات الثمينة والأواني الذهبية والفضية والشبهية والعاجية . وبدت المعابد الكبيرة الجامعة ، دلفي واولبيا وديلوس التي اثبتت الكتابات والاكتشافات عظمتها ، وبعض المدن كاثينا ، اكثرون أي وقت مضى ، وكأنها متاحف او معارض دائمة . وثابتت كافة المدن الاخرى الى بلوغ هذا الهدف وتوصلت كثيرات الى تحقيقه ، لا سيما تلك التي كانت مقراً للملوك فاستفادت استفادة كبرى من سخائهم وتنافسهم في التباهي والظهور .

كان لهذا الكلف العام اثره الطيب في حياة الفنانين المادية وفي مرتبتهم في الطبقات الاجتماعية وفقاً لتطور شبيه بذلك الذي حدث لمصلحة رجال الفكر كما سئى . فلم يرتفع عددهم فحسب ، بل زادت ظروف العمل لكل منهم ايضاً . فاستخدموا مواهبهم ، اكثرون من ذي قبل ، في معالجة بعض الحاسميات النادرة الثمينة التي رفعت من شأن مصنوعاتهم في نظر زبائنهم . فظهرت إذ ذاك تجارة المصنوعات الفنية بما تنطوي عليه من نتائج حتمية : تقليد الروائع الشهيرة وارباح الوسطاء وتوسع الاوساط المهتمة للشاغل الجمالية واتساع اسواق التصريف وتضاؤل الأوهام الاجتماعية القديمة . وبموازاة زيادة موارد الفنانين ، شملت الشهرة المحدودة اسماء اكثرون عدداً وبقيت الشهرة الكبيرة مقتصرة على نخبة قليلة العدد . في العهد السابق شذء فيدياس ، المقرب الى بريكلليس ، عن القاعدة العامة ؛ اما اليوم ، فعلى غرار ليسبوس الذي لحق بالاسكندر الى آسيا ، كان لفنانين كثيرين علاقة بعظماء هذا العالم . وزادت دعوات هؤلاء من تنقلات الفنانين التي عممت معرفة المصنوعات والتقنيات الفنية فأسهمت إسهاماً عظيماً في الحفاظ على وحدة الفن الهليني .

وهكذا خضع هذا الفن ، بفوارق واشكال خاصة بهذا المركز وذلك ، الى نزعات مشتركة موافقة لميول مجتمع قوئى التطور المادي والادبي التحامه الاول . اجل سبق لكثير من هذه النزعات ان ظهرت ولكنها انتصرت الآن . فعبّرت واقعية الصورة عن الفردية العامة التي لم ترض ان تنظر الى الانسان نظرتها الى مثال مجرد . وتوافق البحث عن التأثير ، والتعبير عن العواطف الحادة ، والميل الى الجمال حتى الشهواني منه ، والتلهي الزائل ، مع المذهب الذي ناهض مذهب العقلين في ذاك العهد . وبرز اثر الثورة الدينية ايضاً ، فنعكس الفن ، إيماناً يتميز بمزيد من الفردية والعاطفة وتوجه الى النفس والاحساس ، اقله بواسطة موجيات التفسير الصوفي .

وردد هوى الطبيعة والمناظر نفسه صدىً يختلف عن صدى نداء سكان المدن للآفاق العريضة والماء الجارية والأكضرار ؛ فعبّر أيضاً عن تقواهم نحو القوى العظمى سيدة الحياة الأرضية والحياة الثانية .

ويجب من جهة ثانية الى جانب عوامل التجديد هذه ، ان نفرز مكاناً لتقليد الماضي . فان سحر روائع العهد الكلاسيكي لم يزل يفعل فعله في الهواة ، لا سيما الملوك الراغبين في اعلاء مقرهم الى منزلة المناظر التي هي أشبه بالمناحف في اليونان القديمة . فتكونت إذ ذاك قطعة قطعة المجموعات الاولى التي كلفت رؤوس أموال باهظة . غير ان تعذر اخراج الروائع الاصلية من المعابد والمدن قد أرغم على الاكتفاء بنسخها . فارتفع انتاج هذه النسخ ارتفاعاً مطرداً ، لا سيما عندما فتحت اسواق جديدة ، في ايطاليا أولاً وفي مناطق الغرب الروماني ثانياً . فاضطرت مدينة كاثينا مثلاً ، منذ عهد باكر ، الى ان تخصص لمثل هذه الطلبات قسماً وافزاً من نشاط مصانعها ، واذا ما استطعنا اليوم محاولة تخيل تمثال « أثينا » الذي حققه فيدياس للبارثونون ، فنحن مدينون بذلك ، بصورة خاصة ، الى النسخة التي اكتشفت عنه في برغاموس . ومن الطبيعي ان امانة هذه النسخ لم تكن مطلقة ، إذ ان تقنيصة التقليد مع ما تستازمه من افراغ في القوالب وصقل لم تكتشف بسرعة وان الفنان قد تأثر بالذوق السائد في ايامه او لم يكبح ، كما يجب الكبح ، جراح إلهامه الشخصي . وهذا ما يحمل اليوم على التردد والجدل في تحديد تاريخ ، حتى تقريبي ، لعدد كبير جداً من القطع الأثرية . وهذا أيضاً ما أوجد ، أقله منذ القرن الثاني ، ردّة فعل بالعودة الى الفن القديم اخذت في البروز شيئاً فشيئاً حتى بلغ منها انها عبرت عن الاهمال حيال النزعات « العصرية » . وليس من شك في ان هذا التطور ، الذي لا يكون حالة وحيدة في تاريخ الفنون ، انما هو ثمن نمو العلم الواسع الذي احتل هو ايضاً ، كما سنرى ، مركزاً هاماً في الحركة الفكرية ؛ فقد حدث كل شيء ، في النشاطات التي لمعت فيها الحضارة الكلاسيكية بمثل هذا السنى ، كان الحضارة الهلينية شككت في نفسها فخضعت لتقليد الماضي تقليداً معجباً .

ليس في عداد النقاشين الهليليين الكثيرين سوى اسماء بارزة قليلة هي بالنسبة لنا اليوم النقاشه
غير مجرد اسماء .

واشهرها على الإطلاق هو اسم « ليسبوس » . بدأ نشاطه قبل الاسكندر ، ولكنه غدا النقاش الرسمي لهذا الأخير في آسيا وعرف ان يطبع الصور الرسمية التي نقشها بألمعية سيكولوجية جنببتها عبقريته الاصطلاح . وهي هذه اللمعية التي تجيز لنا الاعتقاد بأن تمثال « هرميس ازارا » في اللوفر ، الذي تؤكد كتابته تحملها قاعدته انه تمثال للاسكندر ، نسخة عن احدى روائع ليسبوس . ومهما يكن من الأمر ، فان ليسبوس ، ببحسه عن الحركة والاقناع ، وبتحليله الحاد للمريكة والمواطف ، قد شق نهائياً ، أمام خلفائه ، الطريق التي سلكها براكسيتيل وسكوباس من قبله .

إذا كان هذا الأخير قد علّم برياكسيس واضع التمثال العبادي الأول لسيرايس ، فانت خايس ، واضع جبار رودس ، إحدى « عجائب الدنيا » ، وافيخيدياس ، واضع مجموعة إله الحظ في انطاكية ، قد تملأنا على يد ليسبوس . ولكننا لا نعرف سوى هذه المجموعة بإحدى نسخها التي تتبع لنا تقدير قيمة تصميمها العام : وفرة وبساطة الرموز - تاج الأسوار المستنة ، حفنة السنايل ، السباخ الفقي القوي الذي يثل نهر العاصي منفجراً من تحت الصخر - ، ومعرفة الحركات كما يتضح من تعقيد وطبيعة الوضع الذي يرفع الرجل اليمنى على كنف السباح واليد اليمنى القابضة على السنايل حتى مستوى الرقبة ، بينما تتكوى اليد اليسرى على الصخر ، والفوارق الرقيقة التي تعبر عن الجلال والراحة في جلسة كلها مرونة ، وعن العطف والوقار في وجه يتسم بالعذوبة الحاملة .

بقيت فيما بعد أسماء كثيرة يتعذر علينا أن نربط بينها وبين رواثع نعرفها . ومنها بلغ من شهرة هذه الروائع ، كفينوس ميلو وإله نصر ساموتراس الفائت الذي اهدي مقدمة بعد انتصار بحري . أحرز في القرن الثالث أو القرن الثاني ، فان التماثيل قد كتب لها الاغفال والتباس التوقيت . وهنالك عدد لا يحصى من تماثيل افروديت في متاحفنا ، لم تكن صانعتها سوى حجة لتعرية جسم المرأة ، حَبِرت علماء الآثار ، تشهد بما انطوى عليه الزين الذين اقتنوها من ميل شواني يفوق حرارة إيمانهم ؛ وقد تذهب أفاقة تماثيل ديونيسوس طفلاً ويافعاً ، وجلال تماثيل زفس الملتحية ، وعضلات تماثيل هيراكليس القوية المرهقة أحياناً ، الى أبعد من ذلك لو لم تفرض نماذجها المجيدة امثلة اصطلاحية .

في هذا الفيض من الانتاج ، تراءت بعض النزعات المحلية ، فهل كانت هذه النزعات من القوة بحيث نستطيع الكلام عن « مدارس » كما جازف بعضهم مراراً كثيرة ؟ التعبير مبالغ فيه دون ريب لأن التنقلات الكثيرة قد مزجت فنانيين يختلفون منشأً جغرافياً ، ولأن مدرسة واحدة لم تمارس احتكاراً ، حتى فيما يبدو لنا ممكناً أن نجعله مقراً لها ، بيد أنه يتوجب علينا الاعتراف بأن هذه أو تلك من النزعات الكثيرة في النقاشة الهلينية قد برزت ، وفاقاً للأمكنة ، في تحقيقات منفردة أو مجموعة على درجة رفيعة من التميز .

وتتحقق هذه الحالة في برغاموس بمزيد من الوضوح ، ولعل ذلك بسبب تأكدها الترجيحي من نسبة الروائع الصادرة عنها . كان الملوك الاطاليون يهون رواثع العهد السابق ويقنونها ، وقد أسسوا مدينة - متحفاً لا تضاهيها مدينة في العالم الجديد آنذاك ، فأكثروا من الطلبات لتزيين عاصمتهم ولتوزيع العطايا الثمينة المفيدة لدعائهم على عدد من المدن اليونانية في أوروبا وآسيا . وقد استفادوا منها للاحتفال بزياراتهم مع الغلاطين الكلتيين الذين غزوا شمالي اليونان وأقاموا في قلب الانجاد الأناضولية فأرهبوا الجوار بسجسهم النهاب . ولم يكن ذلك دون بعض التساهل ، إذ أن السلالة ، بعد أن وجدت فيه فرصة لتوطيد سلطتها وتوسيعها ، لم تقرد في

استخدام الفلاطين ضد اغريق آخرين ، ففسرت هذه النزاعات كصراع الحضارة ضد البربرية . فأحييت بعض النقوش هذه النزاعات احياء مباشراً وأشارت إليها نقوش أخرى اشارة رمزية بواسطة مشاهد ميثولوجية او تاريخية . وهكذا فان بعض المجموعات ، في اسفل الجدار الجنوبي من قلعة اثينا ، قد مثلت ، لا هزيمة الغاليين على يد ابطال الاول ، بل هزيمة الجبابرة ايضاً على يد الاولمبيين وهزيمة الامازون والفرس على يد الاثينيين . وكذلك فان صراع الجبابرة هو الذي أوحى ايضاً موضوع نقوش الافريز الكبير في مذبح برغاموس .

وهكذا فقد استقر مثال افصى نجاحه الى انتاج المزيد من نسخه ، هو طراز الجندي الغالي ، المحارب ، الجريح ، المشرف على الموت ، المنتحر بعد قتل زوجته كي لا تقع في العبودية ، الخفيف بعريه وشعره الأشعث وحمته القعساء ، المؤثر بخيلانه في الشقاء ، القادر بعد كل حساب على ارباب وطماننة المدنيين الهانئين بسعة عيش مرفهة . ومع ذلك فان الانتاج الأعظم هو الافريز الذي ازدانت به ، على ١٣٠ م طولاً و ٢٠٣٠ م عرضاً تقريباً أساس مذبح زفوس الضخم في برغاموس . فان هوى النفس الذي يبلغ فيه حدّ العنف المفرط في المحاربين يتمثل في هيجان الأوضاع وتشنج الأوجه والمضلات المنكشة في مجهود حاقق . وتبرز براعة الفنانين الخلاقة في تنوع الأمثلة البشرية او المسيخة ، وفي قرينة لا تنضب تنوّع المشاهد الكثيرة - فحتى الجبار الفتي نفسه يخضع رحمة أمام جمال افروديت الرائع - ، وفي دقة رسم الأسلحة وحتى الملابس والأحذية . وبالتالي فان النقاشة الهلينية ، على نقيض النقاشة الكلاسيكية وتحفظها الكالغ ، تفضي ، بما تنطوي عليه من تفخيم وواقعية فظة ، الى مأساة قاسية جسدية وإخلاقية معاً .

ويبدو مع ذلك ان البحث عن تحريك العواطف قد بلغ أوجه في رودس ، بعد ذلك بوقت قصير . وان اشهر التحقيقات فيها ، اعني به مجموعة لاوكون وابنيه المتشجنين تحت تأثير التفاف الثعابين عليهم ونهشها ، الذي أثار إعجاب ميكال انجلو وليسينغ والذي يتهمه تطور الذوق المعاصر بالعنف المسرحي يبدو اسمى تعبير للألم الجسدي في خير بحث تشريحي . فقد استموى النقاشة الهلينية ان تنقل عن الميثولوجيا مشاهد الاحتضار هذه ، تعذيب « ديريكي » - موضوع المجموعة المشهورة باسم « ثور فارنيز » - او موت النيوبيين . وقد حاولت ان تمثل ، تصويرياً ، آلاماً اعتمدت المأساة ثقيلها منذ زمن بعيد ولم تبد لها وسيلة من الوسائل غير لائقة بها للتأثير في المشاهد رعباً وتقوى .

اما الاسكندرية فقد كانت بلا مراة مركز فن نزعاته أشد تنوعاً ، وغالباً ما ينتقص المؤرخون من اهميتها باقصار انتاجها الممتاز على الفنون المعروفة بالفنون الصغرى . وفي الحقيقة لم يظهر النقاشون وعماهم ، في أي كان ، على المواد الثمينة - ذهب وعاج وجوهر وجزع - مثل هذا الخيال الخلاق والمهارة التقنية لارضاء بذخ واناقة زين اسمى رقة . غير ان الطرف الرقيق ، المسترخي احياناً ، في كثير من هذا الانتاج ، قد أخفى نوايا ارفع مستوى ، فهو قد عبث بتمدين

على كثير او قليل من الغموض والواقعية والصوفية ؛ وقد اوسى ، بكثير من الرصانة ، بتقوى ورحمة خفيتين . والسيدة ، اذا كان هناك من سيئة ، تقوم في ان الابداع في الشكل وغرابة الابتكار تحملان على الاعتقاد بلعبة لا بتأمل مراقب .

ان النقاشة الهلينية أحبت الواقعية فدعت بها عن قصد الى فن قصوري في الموضوع والاملوحة ، محاولة الأرضاء تارة والاضحاك او التعطيف تارة اخرى . وكان الولد لها موضوعاً مفضلاً تؤثر فيه تطهيم الوجنتين والإليتين ، رمز الطهارة الصافية ووعد القوة : فكانت نتيجة هذا التفضيل تماثيل ديونيسوس وصغار آلهة الحب والولد الذي يصارع الازرة برصانة مضحكة . وقد دعا تقليد الفن المصري القديم الى السخرية الداعبة التي لم تترجع احياناً امام التصوير الهزلي : اقزام سمجون ، راقصون وراقصات مضحكون ، من شأنهم تفككة هواة اشمازوا من الجمال الفني . فلوحظت الأمثلة الشعبية ملاحظة دقيقة ، المصارعون من الدرجة الدنيا ، والفلاحون ، والشيوخ ، والعبيد ، فاكشفت فيها ظروف انتقادية على شيء مما يثير الاشفاق . وقد حرص النقش النساتي ، الذي تأثر تأثراً قوياً بفن التصوير ، على وضع المشاهد الميثولوجية ومشاهد الحياة اليومية في منظر مرفأي او مدني او ريفي . ولم ينفصل التمثال الرمزي نفسه انفصلاً كلياً عن الطبيعة ، واننا لنجد الى جانب اولاد يلهون بحرية ، نباتات مستنقعات الدلتا على مقربة من شيخ جليل يثمل النيل : وهذه مجموعة شهيرة اسهمت الى حد بعيد في نشر فكرة تشخيص الانهار ، إن لم تخلقها خلقاً على غرار ما فعلته لمدن مجموعة إله الحظ في انطاكية .

ان ما تعلمه عن تحقيقات فن التصوير الكبرى في العهد الهليني لا التصوير والتغزيف والصياغة يتعدى عملياً ، كما سبق وقلنا عن فن العهد الكلاسيكي ، ما بلغنا عنه بالخبر المنقول . فقد عاش ابليل في عهد الاسكندر ولم يستحق احد من خلفائه ، فيلوكسينوس او ايسيون او ثيون ، مها بلغت شهرتهم ، ان يحاري ذلك الذي حقق التحفة الرائعة التي لم تضاهها تحفة من بعده والتي تمثل افروديت خارجة من الماء وهي تعصر شعرها . وكى نكوث اليوم فكرة عن نتاج هذا الفن يجب ان تنطلق خيلتنا من بعض قطع الفسيفساء او الرسوم الجدارية الكبانية ، لا سيما في بومبي ، التي ليس من شك في انها تقليد لما حقق منها في العالم اليوناني .

واننا نرى فيها دون عناء بعض النزعات الظاهرة في النقاشة ، وليس هذا بالأمر المستغرب اذا ما اخذنا بعين الاعتبار اشتراك الفنين لا بل تنافسها في تزيين الأبلية . وهذا ما يبرر موازنة تطورهما ، على الرغم من ان المصورين قد سبقوا النقاشين ، كما يبدو ، في اصطناع بعض التأثيرات . وبرز معنى الحركة العنيفة في فسيفساء متحف نابولي التي تمثل هجوم الاسكندر الصاعق على داريوس في معركة ايسوس . وقد قدمت الميثولوجيا بوفرة المواضيع المحركة للمواطف التي عولجت بالتفضيل على غيرها . ولكن الفنانين لم يهملوا وضع الاشخاص في منظر راعوي او غامض ، في

حال ان الواقعية الدقيقة او التخيل المفقن والمبتكر قد رافقا معالجة الرسوم الرمزية . وكانت للروحانيات وكابوس الموت والفلسفة والأدب أثر في تصميم بعض الزخارف التي يرفع المعبد وتمثال الإله والرمز النباتي او الحيواني من تفهها الراعوي ، وفي تمثيل ربات وحيي الأدباء والفلاسفة والعلماء والخاصيات المسرحية والعلمية . وكان من شأن الانصاب المدفنية المصورة التي اكتشف عدد كبير منها في تساليا وفينيقيا ومصر ان تخرج من الابتذال الاصطلاحي احيانا بفضل طابع الصورة الفردي ، حتى اذا استخدمها زين من الطبقة الوسطى . وكان فن التصوير الهليني على العموم فناً عظيماً من شأنه ان يساعدنا على فهم الفنون الاخرى فهماً افضل فيما لو أحسننا معرفته .

اما فن التصوير على الخزف فقد تقهقر تقهقراً واضحاً في اعقاب توزع المصانع والجاذب الذي أحدثته مصنوعات ترفية اخرى : فقد فقدت ائينا امتيازها وأنشئت مصانع كثيرة في كافة أنحاء العالم اليوناني ، وحتى في خارجها ، واستخدمت بدأ عاملة أقل نجابة ومهارة . أضف الى ذلك ان الزين ، وهم أوفر ثروة ، غدوا يفضلون الأواني المعدنية التي تؤلف أبداً قسماً هاماً من المغنم التي بهر استعراضها الجماهير الرومانية في مواكب النصر الكبرى غداة حروب الشرق . وقد نقشت على البرونز والفضة مشاهد نائثة ، ويصحب في المواضيع المعالجة ، وفي طريقة معالجتها ، معظم ما قلناه عن التصوير والنقاشة . وهنا ايضاً تكشف اثاره الذكريات الفكرية والدينية والمدنية وحتى المأتمية عن ميول راسخة في هواة يتميزون بدوق رقيق . اما الزين المتوسطون فيكتفون بالخزفيات النائثة التي قلدت الأواني المعدنية وازدانت بالمشاهد نفسها وعرفت إذ ذاك رواجاً مطرداً . فلم يعد الخزف مادة لفن مستقل بل غدا تدريجياً بديلاً رخيص الثمن للمعدن .

حدث الشيء نفسه للتأثيل الصغيرة ايضاً . ففي بيوسيا وغيرها ، وفي آسيا الصغرى بنوع خاص ، ما زالوا يصنعونها بالتراب ، ولكن دقة صنعها تدنت فأكثروا الى جانب البورجوازيات الأنبيات والفتيات النضرات ، من تائيل مستهجنة تستهدف اثاره الضحك . فليس من ريب في ان مستوى الزين الاجتماعي قد تدنى ايضاً ؛ وزاد تقدم اليسار من طلب مصنوعات تكون مادتها أرفع ثمناً .

لذلك أصبح الحد الفاصل بين هذه الصناعة والصياغة غير واضح تماماً . واحتاج سبك المعادن من برونز وفضة او ذهب والعاج والزجاج والجوهر ، ونقشها وتزييلها ، الى قريحة زهارة وتقنية فنانين في خدمة أعلى الطبقات الاجتماعية . وقوقت الاسكندرية على برغاموس ومدن فينيقيا في هذا الانتاج الشرقي . فان عظمة البلاط اللاجي ومبالغته في الترف ، اللتين قامتتا على ثروة لم يضاهها ثروة في أي مكان ، قد خلقتا غطاء يفسر نجاحه التصديرات البعيدة - اكتشفت أوان زجاجية اسكندرية حتى في افغانستان - والأثر المستمر الذي فعل فعله بعد ذلك في ذوي الثروات من سكان روما . اجل ان في هذا النمط مجاهاة وتصنعاً واستهجاناً . ولكن فيه ايضاً ، في بعض الأحيان ، شعوراً رقيقاً يراققه ثقافة وتدين ليسا بسطحيين . ويظهر هذا الشعور نفسه

على وجه بالغ الصفاء تعزوه بعض روائع النقود الذهبية الى بعض ملكات البطالسة .
فقد توصلت هذه الحضارة ، أقله في أرفع نجاحاتها كالأ ، الى تشريف استخدام المواد التي
وغير لها فتح الاسكندر امتلاكها .

٣ - الحياة الفكرية

كثيراً ما يُبَخَس حق الحياة الفكرية ، في العالم اليوناني ، بتجاهل حيويتها ومجدها . اجل
انها لم تعط نتائجاً أدبياً عظيماً ، ولكن قوة الفكرة وجرة الرأي لم يعوزاها . ولا نستطيع ،
اذا ما أردنا اصدار حكم شامل ، ان نتكلم عن تدني القوة الخلاقة ، بل عن اتجاهها اتجاه آخر
فقط . أضف الى ذلك ان هذا النطاق هو الذي اثبتت فيه الحضارة الهلينية قدرة كلية على
الاستساغة .

١ - رجال الفكر والمجتمع الجديد

لم يكن تأخر البولس ليبقى دونما أثر . وليس من المستغرب مثلاً ان تزل
الظروف العامة الفصاحة السياسية والقضائية بانتهاء القرن الرابع لأنه لم يبق في الظاهر ظرف
واحد من الظروف التي دانت لها بنشأتها وسناها .

قدّمت الملكية ، منذ ذاك العهد ، إطاراً جديداً فرض تكييفاً خاصاً وأحدث كثيراً من
الموجبات والتسهيلات . فمنصة الآداب حدثت من حرية المؤلف أو وجهتها . وبلغ من السلطة
المطلقة أحياناً ان لاشتها ، واننا نعرف بعض حالات سببت فيها الانتقادات اللاذعة موت الشعراء
بعد تعذيبهم . ولكن العلائق طيبة اجمالاً ، وعلى فوارق كثيرة ، على كل حال ، تتفاوت بين
التملق والكرامة عند هذا ، وبين التنازل والاعجاب عند ذلك . وكثيراً ما لعب التنافس دوره
بين الملوك في اجتذاب فيلسوف أو كاتب شهير ، وقد حدثت في نهاية وليمة من الولائم ان منح
انطيوخوس الثالث هدية ولقب « صديق » لشاعر ألقى ابساناً من الشعر بعد ان رفض الرقص
مدججاً بالسلاح على غرار المدعويين الآخرين . وقد تألف البلاط الملكي على العموم من افراد على
ثقافة عالية لم يكن اعتدادهم بظرفهم الأدبي مجرد ادعاء فقط ؛ فهم قد يتصنعون ، ولا ريب في
ذلك ، ولكنهم يدركون خير ادراك النوايا الخفية التي ينطوي عليها القلب والقالب على السواء .
وحلّ اللطف والرقّة فيه محل الشدة الحازمة التي كانت توافق في الماضي جمهور المواطنين الحشّنين .
واذا تأتى من ذلك بعض الضرر فيجب ان لا ننسى المساعدة المادية الكبرى التي منحت للأدباء
والعلماء والأعطيات السخية التي سهلت معيشتهم والمؤسسات التي سهلت أبحاثهم .

نتج عن ذلك ، على غرار ما حدث في الحياة الفنية ، ازالة المركزية بشكل بيّن . ففقدت

أثينا نفوذها الفكري السابق . أجل انها ما زالت مدينة جامعية شهيرة بمعاهد الفلسفة والبيسان التي أخذت العائلات الثرية ترسل اليها ابنائها لإكمال تربيتهم . وقد نباهى الملك المقدوني انتيغونوس غوناتاس بإعلان ما هو مدين به لإقامته ياقعاً في أثينا وللمعلمين الذين تتلمذ عليهم . ولكن لأثينا منافساتها حتى على هذا الصعيد ؛ فان شهرة رودس مثلاً كادت توازي شهرتها . وقد تأثرت أثينا ، بنوع خاص ، في البحث العلمي عموماً وفي أكثر التحقيقات الفكرية والأدبية ، باستثناء الفلسفة والمهزلة ، بمنافسة العواصم الملكية الكبرى التي كانت أوفر ثروة وأفضل تجهيزاً وأقرب الى العالم الجديد . وكانت الاسكندرية وبرغاموس على الأخص بفضل مجموعات المخطوطات في مكتباتها وسخاء ملوكها ، أقوى استمالة وأهيز لمعائنا ؛ فلم تمد أثينا « مدرسة اليونان » ، او مدرسة العالم اليوناني المتوسع على الأقل .

هنالك سبب آخر من اسباب التبدل ، اعني به امتداد وانتشار البورجوازية المتوسطة في المدن . فلم تبلغ هذه الطبقة الاجتماعية إلا نادراً مستوى ثقافياً عالياً . ولم يستهوها التصنع المفرط الدقة الذي قد يستهوي المقيمين في البلاطات . ولكنها كجموع احترمت الامور الفكرية . تقتل الاغريقي « الوسط » في العهد الكلاسيكي بالفلاح الذي لم يكن امياً لعمري ، ولكنه كرس بالضرورة ، منذ عهد باكر في حياته ، شطراً كبيراً من مشاغله للنشاطات اليدوية . اما منذ اليوم فقد تمثل ، اقله في الشرق ، بالمديني الميسور ، الملاك ، التاجر ، او الموظف ، الذي يتصرف بمزيد من اوقات الفراغ دون ان يبقى عاطلاً . ويفسر هذا التطور تحسن المصير المادي وبالتالي ازدياد عدد من يتعاطون نشاطاً فكرياً . وقد أثبت هذا النشاط انه لم يكن قميناً بتفغذية متعاطيه فحسب ، بل بإيلائه ، بصورة شبه آلية ، حداً أدنى من المكانة الاجتماعية .

ان تعلق الاغريق بمحاضراتهم المتفوقة ، سواء انتسبوا الى الطبقة العليا أم الاغريق والشرقيون الى البورجوازية ، قد حدث من الاقتباس عن الحياة الفكرية في الشرق .

م يظهر الاغريق عموماً ، حيال هذه الحياة ، مزيداً من الفضول ، مع ان كل شيء قد توفر ، لا لتشجيعها فحسب ، بل لفرضها فرضاً ايضاً . فقد جمع مانيتون احد كهنة هليوبوليس ، بإيعاز من بطليموس الأول ، كل ما كان معروفاً عن السلالات الفرعونية ، ولا يزال الترقيم الذي اعتمده متبعاً حتى اليوم من قبل المعاصرين . وقد قام بالعمل نفسه « بيروز » احد الكهنة البابليين تلبية لطلب الملك السلوقي انطيوخوس الاول . ولكن الاغريق لم يقرأوا مؤلفاتها ، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأساطير التي ما زال هؤلاء يتناقلونها . وحتى في القرن الاول قبل المسيح ، اي بعد معاشرة طويلة ، لم يتردد اسكندر بوليبيستور ، عندما وضع تاريخ اليهود ، في جعل موسى امرأة سوية . وقد بقي محدوداً ايضاً الاقتباس عن العلوم الشرقية المشهورة بتقدمها لا سيما علم الفلك . اعتمد اللاجوني والسلوقيون الروناتمين المصرية والبابلية ، ويتيح لنا اليوم استخدامهم الرسمي لها ان نحدد تواريخهم بدقة تامة ، شريطة ان تكون هذه التواريخ قد بلغت اكملتها .

ولكن الاغريق في جميع المناطق الاخرى قد اكنفوا بروزاتهم التقليدية على الرغم من تأخرها . ولم ينتشر حساب خسوف القمر ، الشائع في المعابد البابلية ، إلا في وسط نخبة يونانية محدودة العدد : محتى في ٢١ حزيران من السنة ١٦٨ ، ألقى اختفاء القمر الرعب في الجيش المقدوني .

فلماذا نقول بعد ذلك عن جهل أحاطوا أنفسهم به ، عن قصد ، حيال امور الهند يا ترى ؟ كان الاسكندر ، مع ذلك ، قد تجاوز نهر الهندوس ؛ ولكنه مع رفاقه قد اكنفى بالغرائب السطحية دون ان يبذل جهداً جدياً لإدراك خوافي الامور . فقد شبهوا بالفلاسفة الوقحين اولئك الذين اطلقوا عليهم اسم « الحكماء العراة » ، متعجبين بنوع خاص من الموت الطوعي الذي اقدم عليه احدهم ، كالانوس ، باعتلاء النار المتقدة ، عندما رفض الاصغاء الى الأطباء اليونانيين في معالجة مرض اعتبره هو غير قابل للشفاء ، بعد ان التحق بالجيش ، وهو في طريق عودته ، حتى بلاد فارس : وكانت الدهشة كبيرة ، بعد موت الاسكندر في بابل ، من انه وعد الملك بأمر يراه ثانية في هذه المدينة . وسنحت بعد ذلك فرص اخرى . فقد اقترب بعض الملوك السلوقيين من الحدود الهندية . واستحضر احد سفراء سلوقس الاول ، ميغاستينوس ، كتاباً غنياً بالملاحظات الدقيقة والتصورية حول الرحلة التي قام بها حتى عاصمة المملكة المورية ، « باناليبوترا » (باننا) على نهر الغانج ، حيث استطاع ان يرى بعض البراهمة . وطلب احد ملوك الهندو ان يرسل اليه بعض النيزد والتين واحد الفلانفة . وفي أواسط القرن الثالث ، اوفد آخر ، يدعى « اسوكا » ، وهو بوذي مولع بالتبشير ، مرسلان الى انطيوخوس الثاني وبطليموس الثاني وحتى الى « انتيغونوس غوناتاس » في مقدونيا والى « ماغاس » في كيرينا . ولكن هذه الاتصالات لم ترتد سوى اهمية عرضية .

كان الاغريق ، المقيمون في شرقي ايران ، الذين يبدو ان عددهم قد أولاهم مركزاً على بعض القوة في بلاد البختيار ، افضل استعداداً لمعرفة الهند . وقد استفاد بعض زعمائهم من الخطاط الامبراطورية المورية وتوصلوا الى ان يقتطعوا لهم ممالك في البنجاب . وكان « ميناندروس » اشهر هؤلاء الملوك الهلينيين الذين تولوا الحكم في بلاد غربية . وتدعوه النصوص الهندية ميليندا ، ويظهره احد هذه النصوص ، « قضايا ميليندا » ، مستعماً للحكيم « ناكاسينا » عن الديانة البوذية . ولكن المملكة الفارسية الفتية ، منذ هذا التاريخ ، قد اندفعت الى الجنوب من بحر قزوين وقطعت الاتصالات بين اغريق الشرق الاقصى ومواطنيهم في جوار البحر المتوسط . ولم يعد باستطاعة التأثيرات الفكرية ان تنتقل الى هؤلاء : لذلك فان الحضارة الهلينية ، من حيث هي لم تعرف الهند ، لم تقتبس عنها شيئاً ذا اهمية حقيقية .

اما الشرق المتوسطي او بلاد ما بين النهرين فيجب الاعتراف بأن الحياة الفكرية فيها كانت على العموم اضعف من ان تستهوي الاغريق . وعلى نقيض ذلك فان الحضارة اليونانية هي التي استأثرت الكثير من الشرقيين . ويكون هذا الخطاط وهذه الاستساغة مظهرين من حدث

اجتماعي واحد لان الاستغراق قد حصل بنوع خاص عند النخبة البلدية التي كثيراً ما أغرتها السلالات ، ولدى سكان المدن الذين كانوا على اتصال بالدورجوازية اليونانية . ويستحيل احصاء اولئك الشرقيين الاصليين الذين تكلموا وعلموا وكتبوا باللغة اليونانية بحيث لا يمكن تمييزهم عن الاغريق الحقيقيين . اجل كان عددهم قليلاً في مصر بسبب سياسة التمييز العنصري التي طلع بها وطبقها البطالسة الأولون على الأقل ، وفي بلاد بابل بسبب بعدها وبفعل الفتح الفارقي . ولكنه كان غفيراً في آسيا الصغرى وسوريا وفينيقيا وفلسطين على الرغم من العراقل التي وضعتها الديانة في طريقهم . ويكفي هنا ان نذكر زينون الذي ولد في كيتيون من اعمال جزيرة قبرص وانحدر من وسط سامي ولم يتوصل يوماً إلى احسان التكلم باللغة اليونانية ، ولكن ذلك لم يمنعه من ان يؤسس المدرسة الرواقية الكبرى التي لا يُرى فيها شيء مما هو شرقي . وهناك مثل آخر كلّي الوضوح هو اضطرار يهود الاسكندرية لنقل كتب التوراة العبرانية إلى اللغة اليونانية ؛ فان هذا النقل لم يتم ، كما جاء في التقليد ، على يد السبعين ، بناءً لأمنية بطليموس الثاني الملحق ، بل اقتضى زمناً طويلاً واستجاب لرغبة محتمة اعرب عنها اليهود المقيمون في مدينة يونانية بعد ان بدأوا ينسون استعمال لغتهم القومية . لا بل ان اكتشافاً حديث العهد (ايلول ١٩٥٢) حصل في مغارة قريبة من الشاطئ الغربي للبحر الميت يثبت ان استعمال التوراة اليونانية قد جرى في فلسطين نفسها احياناً .

كان نشر الثقافة اليونانية ، إذن ، جدياً في كافة أنحاء الجزء الغربي من امبراطورية الاسكندر القديمة ، وتقع على الاغريق انفسهم ، كما رأينا ، مسؤولية حصر ذلك في بعض الفئات الاجتماعية . فهل تعوّض هذه الفتوحات الفكرية عن انصواء اغريق كثيرين إلى الديانات الشرقية ؟ يستحيل في الحقيقة احصاء او وزن هذه الارتدادات التي لا تتناهى على كل حال بمجرد حدوثها في اتجاهين متعاكسين . وحين بسط السيطرة الرومانية ، وحتى طيلة عهود الامبراطورية الاولى ، كان ما بقي من الشرق الهليني ، في الواقع ، سائراً تدريجياً نحو حضارة يونانية في الحقل الفكري ، ونحو حضارة شرقية في الحقل الديني . فليس من سبيل والحالة هذه إلى الشك في نجاح اليونان على هذا الصعيد ، وهو نجاح غير مقصود على كل حال . ويبرز هذا النجاح اكمل منه في الحقل الفني . فما زالت هناك قنون محلية تقليدية بفضل مساندة الديانة ، في حال ان جميع الشرقيين الذين اضطروا إلى التفكير والتعبير عن فكرهم قد انضوا إلى الثقافة اليونانية ؛ وزيد هذه المكاسب الأدبية ، التي حققت دوماً اكراه او ضغط ، من رصيد الحضارة الهلينية . اجل انها لم تعد منظومة على نبل وثقاوة الحضارة الكلاسيكية . ولكن الحضارة الكلاسيكية نفسها تعكرت منذ قبل الاسكندر وخضعت لتطور مائل حتى في اليونان القديمة حيث كانت بعيدة عن الإعداء الشرقي . ويجب بنوع خاص ان لا ننحصر باستخفاف على حضارة حققت مثل هذه النجاحات لدى شعوب مغلوبه على نفسها : فهذه الحالة من الندرة بحيث لا يجوز ان نمر بقدرتها على الاستساعة مرور الكرام .

٢ - في خدمة النشاط الفكري

الوحدة الفكرية : امتدت الحياة الفكرية الهلينية في الشرق وتوقفت على الحضارات المحلية ، غير مقتبسة عنها سوى القليل ، فليس من العجيب من ثم ان تحتفظ بوحدة الـ « كيني » تستحق الاعتبار ، وتوطدت هذه الوحدة عن طريق اللغة بنوع خاص . La « koinè »

لم يكن هنالك بعد لغة يونانية ، بل لهجات يونانية ، وحتى عدة لغات كتابية . ولم يكن ان يكون كثير من الكتبة المشهورين اثينيين او ان يعيشوا ويكتبوا في اثينا حتى تصبح اللغة الاتيكية اللغة الادبية الوحيدة : فقد كتب بنذاوروس باللغة الدورية ، وهيرودوتس ، على الرغم من الروابط التي شدته الى اثينا ، باللغة الايونية . فاللغة الاتيكية لم تكن سوى اعظم لهجات « الثقافة » سحراً في العالم اليوناني . ولذلك فهي قد اتجهت نحو الانتشار ، يساعدها في ذلك تقبلها لبعض خاصيات اللغة الايونية ، ولا سيما اهمية الدور الذي لعبته اثينا في الحياة السياسية والحضارة العامة . وهكذا فقد جعلت منها السلالة المقدونية ، قبل الاسكندر بزمن بعيد ، لغة القصر والادارة : وقد تكلمها الاسكندر في حياته الرسمية واليومية مقصراً تكلم لغة مواطنيه القومية على بعض الظروف الاستثنائية .

قدمت اللغة الاتيكية ، بفضل ذلك ، جوهر الـ « كيني » ، اللغـة « المشتركة » ، التي تكونت تلفائياً وباكراً جداً بعد الفتح . واستجابت هذه اللغة لحاجات ملحة في عالم تحول فيه الاغريق بحرية ، دونما تمييز في منشأهم الجغرافي ، وألفوا فيه جماعات جديدة يوحدها الشعور بتضامنهم في وجه البلديين . ولم تكن هذه اللغة ، على كل حال ، اللغة الاتيكية الخالصة . فقد ظهر فيها اثر اللهجة الايونية ، اوسع اللهجات انتشاراً في الشرق منذ زمن بعيد . واتجه الصرف والنحو اتجاهاً دائماً الى التبسيط ، بالاستغناء عن بعض الصيغ المعقدة النادرة الاستعمال . اجل ان الادارة اللغوية قد فقدت بذلك بعض مرونتها وبعض ميزاتها الدقيقة . ولكنها اسهمت اسهاماً فعالاً ، حتى أواخر العصور القديمة ، - اذ ان روما قد تركت هذا التحقيق الهليني لبيزنطية - ، في خلق واستمرار وحدة العالم اليوناني الادبية والفكرية .

كانت الكيني اذن لغة الدواوين والادارة ، ودرج استعمالها في المدن المجددة والجديدة ايضاً . وقد جعلت الاغريق المسافرين او المهاجرين ، شأنها في ذلك شأن وحدة الاخلاق وتشابه الزخرف المادي في البيوت والابنية العامة ، يخالون انهم في بلادهم ، حتى في مناطق الحدود النائية . وقد سهلت في الحقيقة انتشار الحضارة اليونانية في اوساط الشرقيين ، ولكنها لم تغلب في الارياض خاصة ، على السنة لم يأخذ الاغريق على انفسهم استئصالها استئصالاً جذرياً . واذا حدث ان اندثرت اللغات القومية القديمة في الشرق الآسيوي - باستثناء اللغة المصرية - ، فقد تم ذلك ، في الطبقات الاجتماعية الدنيا ، لمصلحة اللغة الارامية . واستمرت نجاحات الارامية داخل المملكة السلوقية على الرغم من انها لم تبقى لغة الادارة . ولم تبقى اللغة العبرانية في فلسطين

الاكفلة لاهوتية، بينما أصبحت الإرامية في النهاية لغة الشعب . ولكن لغة « السبعين » ولغة الاناجيل ، عملياً ، هما « الكيني » نفسها . وكذلك فإن الرومان ، هواة الحضارة اليونانية ، تعلموا وتكلموا وكتبوا « الكيني » .

ثم أمست اللغة الادبية الوحيدة في النثر . أجل لم يحدث ذلك فوراً : فقد احتفظ العالم اليوناني الغربي ، خلال بعض القرون بعد الاسكندر ، باللغة الدورية التي لم يستعملها ثيوكريتوس مثلاً ، على لسان الفلاحين الصقليين فحسب ، بل كانت لغة ارخميدس ايضاً . ولكن هذه اللهجات المحلية قد اندثرت تدريجياً او انها لم تستمر إلا بحيلة . وقد استعملت جميع الاوساط المثقفة ، عملياً ، اللغة نفسها ، واذا سهلت هذه الوحدة التنتلات الكثيرة التي قام بها اولئك الذين تفرغوا لنشاط فكري فانها قد ساعدت الى حد بعيد على انتشار الثقافة .

يؤلف هذا الانتشار احدى ميزات العهد الرئيسية .

انتشار الثقافة

لقد جاء المثل من فوق ، من الملوك والمقرين اليهم الذين اعتبروا الجهل أمراً مخجلاً لأن المواهب السياسية والعسكرية لا تكفي لتحقيق مثال الانسان . فان هذا المفهوم لم يغرب عن البال حتى في فترة انقلاط اطماع السيطرة بعد وفاة الاسكندر : فقد برز مؤسس المملكة اللاجبية ، بطليموس الأول ، كاتباً موهوباً وحرراً تاريخ الاسكندر بشكل مذكرات شخصية - إلا اذا كان الامر على نقيض ذلك -- فقدت لسوء الحظ ولكنها كانت ، للمؤرخين اللاحقين ، احدى أهم المصادر فيما يعود لحياة الفاتح وحملته العسكرية . ولم يتلاش التقليد حتى باخطاط الملكيات : فقد كتب آخر الملوك الاطاليين الذي توفي في السنة ١٣٣ بحثاً في علم زراعة البساتين . ولذلك فإن الدور الملكية قد اشعت على كافة الطبقات ولا سيما على بورجوازية المدن اليونانية .

وارتدى الاهمية نفسها المثل الذي اعطته النساء في البلاطات الهلينية . اجل غالباً ما اهتمت بعض الملكات عن كثب بالسياسة . ولكنهن قد اشتركن بالإضافة الى ذلك ، بفضل حرية السلوك التي وفرتها لهن نسبتهن ومغزلهن ، في حياة القصر الفكرية ، وهذا ما لم تستطعه نساء المجتمع الراقي في اليونان الكلاسيكية ، بعيداً عن مخالطة الرجال . ففي الاسكندرية ، على الأخص ، أكرمهن الشعراء في قصائدهم ، فأكرم ثيوكريتوس ارسينوي ، وكلياخوس بيرينيس . وانشغلت حاشياتهن بمشاغل مماثلة امتدت الى اوساط اكثر اتساعاً ، وهكذا قامت تدريجياً ثورة في الاخلاق التي اقضت النساء الشريفيات ، حتى ذاك العهد ، عن امور الفكر . فاختلقت بعض الفتيات هنا وهناك الى المدرسة متملصات من الحرم الذي اكتفت فيه والدتهن بتعليمهن ما كانت تعلمته هي بالاختبار . فسببت بعض الحالات نفوراً في الرأي العام ، كحالة « هيبارخيا » التي ضغطت على والدها للتزوج من الفيلسوف الوقح « كراتيس » وعاشت إذ ذاك مثله عيشة علنية وقبلت الدعوات الى الولائم وناقشت الحضور في الفلسفة والإداب . غير ان ابيقور ايضاً قد جمع

بين تلامذته لساء مصونات تزوجت ابنة احدها من ضابط سلوقي واصبحت نجيسة لاحدى الملكات . وكان هنالك اكثر من شاعرة ، حتى في مدن اليونان القديمة ، في اللوكريد او في البلوينيز . لذلك فان بداية تحرر المرأة الفكري يجب ان تدخل بكليتها تقريباً في رصيد الحضارة الهلينية .

ومن حيث ان الثقافة لم تعد وقفاً على جنس واحد ، فهي لم تعد بالتالي وقفاً على نجبة محدودة . ويجب علينا هنا ان نشدد مرة اخرى على اهمية الواقع الاجتماعي الذي تمثل إذ ذاك في انتشار البورجوازية وتطور ادواقها . فقد تكاثرت الطبقة الميسورة في آسيا وحتى في اوربا حيث اتسع الافق ونشطت العلائق الاقتصادية فحدث شبه اكتشاف لبعض المناطق المتأخرة والمغلقة تقريباً في اليونان الوسطى او الغربية . وقد اجتهدت هذه الطبقة في كل مكان تقريباً ان تترك لأبنائها ، بالاضافة الى امتيازات المواطن اليوناني القانوني ، تربية فكرية تبرّر ، في نظرها ، هذه الامتيازات .

كان هذا في الأساس من تعدد المدارس ، او بالأحرى من إيجاد نظام مدرسي التربية الهلينية أخذت الجماعات تهتم له ، بوزع تعليمياً تحقق حوله الاتفاق العملي . وكان هذا التنظيم المزدوج احد التحقيقات الهامة في العهد الهليني ، وقد اعتمد عملياً حتى اواخر العصور القديمة . حتى ذلك العهد ، اذا ما استثنينا كريت وسبارطة بنوع خاص ، حيث عهد بالتربية الى المدينة دون غيرها ، نظرت المدينة الى التربية كما الى شأن خاص واكتفت بالاقتصاص من سوء اخلاق المعلمين . فبدا هذا النظام ، الذي كلّف العائلات اموالاً كثيرة ، غير ذي فعالية حتى اذا لم يؤدّ الى المهذين الفرديين . فعينت مدن كثيرة قضاة خصوصيين عهدت اليهم مراقبة المدارس ، حتى الخاصة منها ، التي ازداد عددها ازدياداً عظيماً ، واقتصرت استخدام المهذين على العائلات المشهورة بثرواتها الطائلة اي عملياً على العائلات الملكية تقريباً . وبدل هذا التطور ان اهتماماً جديداً قد برز الى الوجود . اجل لم يفكروا بالاعتراف بحقوق الولد ، الذي هو رجل بالقوة ، وبتفتح امكاناته . ولكنهم أرادوا ، بردة فعل طبيعية للدفاع عن حضارة كانت على اتصال بحضارات اخرى وتباهت بتفوقها وعندت في الحفاظ على نفسها ، ابقاء الولد في حضن الاسرة اليونانية التي يوليها نسبه حقوقاً عليه ويفرض عليها واجبات نحوه .

وهكذا يتضح من جهة ثانية . كيف ان الملوك ، كملوك ، قد فوضوا امرهم في ذلك الى المدن : فلم يقدم احد منهم على سن الشرائع في الحقل المدرسي ، لأن التربية تتعلق بالاغريق دون غيرهم ، ولأن المدينة ، نظرياً ، ما زالت إطار حياة الاغريق ، حتى داخل الملكيات . وقد حدث ان حرصت المدن في ظروف غير نادرة ايضاً ، او تظاهرت اقله انها تحرص على ولاء الشباب للملكية بتشجيع تأسيس ونشاط جمعيات « شبان » تؤدي الاكرام ، بأشكال دينية مختلفة ، للملك ولعائلته . ولكن هذه المؤسسات ، شأن كل ما اختص بالعبادة السلالية في الاطار البلدي ،

لم يفرضها الملوك رسمياً. وإذا ما أُتيح للسياسة ان تتسرب الى نظام التربية فانها لم تحتل فيه سوى مركز ثانوي جداً.

لم يبلغ من مشاغل المدينة هذه ان أمنت مجانية التعليم : اذ ان ذلك يقتضي موارد لم تتوفر لميزانية الجماعة . ولكن العائلة قد ارتاحت مع ذلك ، بهذه الموارد او تلك ، اقله من جزء من العبء المالي الذي تحملته وحدها من ذي قبل .

اما مؤسسة الشباب الرسمية فقد كانت مجانية بالضرورة بسبب طابعها العسكري الأصلي . وهي قد اشتهرت في أثينا ، حيث نشأت على ما نرجح ، وتوصلت الى نفوذ عظيم واستقبلت الشباب من سن الثامنة عشرة حتى سن العشرين لتربيتهم تربية عسكرية . ولكن واجب الانتباه الى هذه المؤسسة الذي لم يكن إلزامياً ، على ما يبدو ، إلا خلال فترة قصيرة من النصف الثاني من القرن الرابع ، قد زال وأهمل : ولم يستمر في التقيد به سوى المتطوعين دون غيرهم ، أي بالتالي ابناء العائلات الميسورة . ثم تبدلت روح المؤسسة في العهد الهليني ، فسمح للأجانب بالانتماء اليها . وحلّت فيها التمارين الرياضية في النهاية محل التمارين العسكرية . وظهرت في القرن الثاني المحاضرات الأدبية والفلسفية ، فغدت المؤسسة ، من ثم ، بالنظر لسن الذين اختلفوا اليها ، ان لم يكن بالنظر للمستوى الفكري الذي بلغته ، شبيهة بالجامعات . وقد أنشئ مثل هذه المؤسسة في مدن اخرى كثيرة غير أثينا ، فكانت ، شأنها في أثينا ، مجانية ايضاً ، باستثناء النفقات التي فرضها العرف على الشباب المنتمين الى طبقة اجتماعية عليا .

لم يكن الاغريقي ليتصور التربية دون التدريب الرياضي الذي يجري في المتازوف . وكان الانتساب الى المتازوف بمثابة شهادة في الحضارة اليونانية التي يتزّن الشباب بها بكبرياء وطيلة ايام حياته ، لا سيما في مصر حيث حرصوا مبدئياً على اقضاء سكان البلاد عنها . ولكن المتازوف غدا اذ ذاك مؤسسة بلدية . فأصبح لكل مجموعة يونانية متازوف واحد على الاقل يشيّد ويعنى به على نفقتها ويراقبه قاض اختصاصي يطلق عليه اسم « حاكم المتازوف » . أما الادارة المالية ، ولا سيما تقديم الزيت للمصارعين ، فقد سهلتها عطايا الاثرياء السخية الذين لم يكن المالك في المؤخرة منهم . فكان تقديم الزيت او تأسيس وقف معد لتقديم الزيت « للمتازوف » او « للشبان » احد الاشكال التي اتخذتها في غالب الاحيان عادة شاملة في الكرم نحو المدن اي نحو مواطنيها اليونانيين .

وقد بلغتنا ايضاً اخبار بعض الاوقاف المؤسسة للمدارس نفسها . وهكذا فان الرودسين قد قبلوا - مما جعل بوليب يولمهم « بالنظر لثروة دولتهم والمكانة التي نعموا بها بفضل هذه الثروة - من احد الملوك الاطاليين هبة توازي ١٥٠.٠٠٠ هكتولتر من القمح : فكان عليهم ان يرظفوا المبلغ الذي يتجمع من البيع ويستعموا فوائده السنوية لدفع اجور المعلمين . اما في بعض الامكنة الاخرى فكان الواجبون افراداً . ومن الطبيعي ان هذه الاعطيات قد استتبعتم تعيين

المعلمين من قبل جماعة المواطنين التي كان لها الحق ايضاً في عزلهم . ولكن عدد مثل هذه الهبات ، في ما يظهر ، قد بقي ضئيلاً جداً ، فاستمر اهالي الاولاد في دفع رسوم مدرسية . ولذلك فان المجهود الذي فرضه تعميم وتنمية التربية قد مثل بالثالي تضحية حقيقية من قبل العائلات : وقد برهن الاغريق بقبولها - متذمرين احياناً ، كما نرى ذلك في إحدى مهازل هيروداس الاعمائية - عن الالهية الكبرى التي اناطوها بديومة حضارتهم .

افسحت هذه التربية مكاناً عريضاً للاهتمام بالتنمية الجسدية التي توفرها غارين المتزاوف . بيد ان المباريات الرياضية القديمة قد استمرت ودخل بعضها في برامج اغلبية الاعباد المستحدثة الكثيرة : ففي جميع هذه الاعباد مثلاً اجريت امتحانات خاصة للفتيان والشبان . فعدت الرياضة اكثر من اي زمن مضى ، بعد ان جردت تدريجياً عن غايتها العسكرية ، جزءاً لا يتجزأ من تربية الاغريق ؛ وقد حفظ عنها اكثر من يافع طعمة دائمة .

اما على الصعيد الفكري فتظهر لنا الاطماع اليوم على كثير من التحديد . فليس هناك علوم ، او ليس هناك سوى علوم قليلة . وقد اصيب رواج الموسيقى الآلية او الغناء الجوقي ، الذي كان كبيراً جداً في ما مضى ، بنكسة اسف لها المحافظون على التقاليد : واذا لم يعرف هذا الفن القائم بنفسه انحطاطاً اذ ذلك ، فانه قد غدا وقفاً على المحترفين . اما الملاحم الهوميروسية فكانت تقرأ وتعلم وتلقى وتستلخ دون انقطاع ، كما تشهد بذلك مكتشفات لا تحصى بين البرديات المصرية ، وبقيت في الاساس من تربية الولد : ونادراً ما تجاوز درس الشعراء هذا الحد . وفي آخر الدراسة كان الاهتمام يتحول الى علم البيان .

تفوق علم البيان تفوقاً واضحاً في ما يجدر تسميته بالتعليم العالي . فهو بنعل تنوعه ، وعلى الرغم من تدريسه على يد معلمين ذائعي الشهرة احياناً ، ومن التخصص الصارم في قواعده ، قد بقي ناقصاً جداً . اما بين العلوم التطبيقية فقد انفرد الطب دون غيره في اجتذاب الطلاب الى مدارس شبه مقفلة على كل حال اشبه بالجمعيات الدينية من حيث هي ملحقة بمعابد اسكليبيوس . وخارج هذه المدارس ، تلقى عامة مهنيي المستقبل علومهم على ايدي اطباء يمارسون مهنة الطب ، اذ ان ممارسة هذا النشاط قد بقيت حرة تماماً . اما التقنيات الاخرى فلم تعلم في اي مكان بسبب استمرار التقليد القديم الذي حرّمها لأنها تقود في النهاية الى نشاط تجاري . ولم تتمثل العلوم المجرّدة الا بالرياضيات وعلم الفلك ، وكان عدد المتخصصين فيها قليلاً ، كما لم يتردد اليها سوى عدد قليل من التلامذة . اما الفلسفة فكان طلابها كثيرين ، مستفيدة في ذلك من النفوذ الذي نعمت به طيلة العهد الكلاسيكي ، لا سيما في اواخره ، بفضل افلاطون وارسطو . غير ان شغفاً عاماً دفع الشبان بالتفضيل نحو علم البيان الذي بلغ الشهرة في عهد السفستيين اولاً وفي عهد خطباء القرن الرابع الاثينيين ثانياً الذين سبق لهم جميعهم ايضاً ان علموا الفصاحة . اجل لم يعد من شأنه ان يؤدي خدمات عملية كبرى ، بسبب انحطاط الحرية السياسية . ولكن نجاحه لم

يشير عن نجاح تعليم ايزو قراط الذي مثل علم الادب ، في نظره ، الفلسفة الحقيقية ، لأنه يستلزم وضوحاً في الافكار وبرهنة سليمة وامتلاك فن الكلام الذي هو امتياز الاغريقي على البربري . وقد علم قواعد ؛ هي اشبه بـ « الوصفات » ، معتمداً ، في وقت واحد ، التعليم النظري ، ودراسة روائع الفصاحة الاتيكية ، واجراء التمارين على مواضيع خيالية لم تلبث ان ألقت مستودعاً كبيراً . فافضى الى تثفيف عقول رشيقة اتصلت بالمثُل العامة ، لا سيما في الحقل الاخلاقي ، وقابلة لأن تقيم البرهان بفن ، ودون تصنع ، في شتى المواضيع ، ومتوخية ، عند الحاجة ، حتى التوصل الى النتائج المتناقضة .

قد يبدو ذلك اليوم موجزاً و سطحياً . ولكنه طابق مثلاً اعلى للانسان المثقف المعد جسدياً وعقلياً للتكيف وفاقاً لشتى المهام التي قد تفرضها عليه الحياة . وقد استمر هذا المثل ، دون تبدل يذكر ، حتى آخر العصور القديمة . ويعود الفضل الى الحضارة الهلينية في توضيح مفهومه وجعله سهل المثال بتشديد نظام تربوي متلاحم الاجزاء .

ما كانت الثقافة المنتشرة هذا الانتشار لتتجاوز ثقافة وسطاً ؛ ومن جهة
 نصرة الآداب والفنون
 ثانياً ، ما كانت الثقافة التي أحدثت ورسخت سوى تراث الاساتذة
 ومؤسست الأبحاث
 العظماء . اما التقدم الفكري الحقيقي فقد تمّ على مستويات اخرى
 بالبحث الخلاق الذي تهدته نخبة معينة . لم يخل العالم اليوناني يوماً من هذه النخبة التي وجدت
 إذ ذاك لدى الملكيات الكبرى عضداً مبادياً وأدبياً معاً من نوع جديد . وهنالك مؤسسات
 شهيرة ، المتحف ودار الكتب ، هما افضل مثل عن نصرة الملوك للآداب والفنون وعن التسهيلات
 التي وفرتها لانطلاقة الحركة الفكرية . غير انها لم تكونوا المؤسستين الوحيدتين في العالم الهليني .

المتحف ، بالتحديد ، هو معبد آلهات الفنون الحرة التي كان من الطبيعي ان تحظى باكرام
 رجال الفكر . فخصص لمن مذبح على الأقل في حدائق « الاكاديمية » (الجمع العلمي)
 و « الليسه » (المدرسة) حيث علم افلاطون و ارسطو في اثينا . ثم أسس اصداقاء ومعاونو
 وتلامذة هذين الفيلسوفين جمعيات استهدفت رسمياً تنظيم العبادة ، على انها استهدفت في الواقع
 تأمين ديمومة هذه المدارس التي كانت في الوقت نفسه معاهد أبحاث ، بشراء وصيانة العقارات .
 وقدمت الدولة الأثينية في أواخر القرن الثالث ، برئاسة الفيلسوف ديمتريوس الفاليري ، الذي
 سبق له واسهم في اعمال خلفاء ارسطو ، كل التسهيلات اللازمة على الصعيد القانوني ، دون ان
 تقدم مساعدتها المالية .

يرجع ان ديمتريوس الفاليري الذي حكم عليه بالنفي والتجأ الى بطليموس الاول في مصر قد
 اقترح على هذا الأخير انشاء مؤسسة شبيهة ، على ما فيها من اختلاف بين . فتلقى متحف
 الاسكندرية من الملك مساعدات اكبر ، ولكنه ارتبط ، بالمقابلة ، بالذي احسن اليه . وعوضاً
 عن ان يكون معهد فلسفة ينشر تعليماً ويتعمق فيه ، فانه قد غدا بجمعاً لكتبه وعلماء يعينهم

الملك ويعين رئيسهم أيضاً . ووضعت تحت تصرفهم ابلية مختلفة قائمة على مقربة من القصر معدة لحياتهم المشتركة ولنشاطهم . وتعهدت الخزانة الملكية كافة النفقات ، فاستطاع الكتبة والعلماء ان يكرسوا وقتهم للأبحاث دونما اهتمام للمصاديات او لأي واجب آخر . فكرسوا في الواقع وقتهم لمناقشاتهم أيضاً التي سخر منها بعض الهجائين ، بدافع الحسد على الأرجح ، بكلامهم عن « معجون الطيور الذي يوزع بسخاء على العديد من كتبة الدرجة الثانية وأكلة الكتب القديمة التي لا قيمة لها الذين يتخاصمون دونما انقطاع في قفص آلهات الوحي » . وكرسوه احياناً حتى لمجادلاتهم مع البلاط التي كانت السبب ، في القرن الثاني ، في تفرقهم المؤقت . وكانت هذه المؤسسة لا تزال قائمة في القرن الرابع الميلادي ، متخولة الى جامعة على كل حال ، إذ ان أعضاءها كانوا يعلمون رهطاً من التلامذة .

وقامت في الاسكندرية ، على مقربة من المتحف ، مؤسسات ملكية اخرى سهلت عمل العلماء : حديقة الحيوانات ، وحديقة النباتات ، ودار الكتب بنوع خاص . اما هذه الاخيرة التي أسسها بطليموس الاول ، على مقربة من القصر أيضاً ، فقد أمنت مجموعاتها انما مطرداً بأن اشترت ، في جميع انحاء العالم اليوناني ، المخطوطات المعروضة للبيع وبتنظيم استنساخ المخطوطات الاخرى : وقد سهّل ذلك انتاج البردي الذي كان وقفاً على مصر تقريباً . فبلغت محتوياتها ، منذ السنة ٢٨٥ ، على ذمة الرواة ، ٢٠٠.٠٠٠ « مجلد » اي لفافة من البردي ، و ٧٠٠.٠٠٠ في السنة ٤٨ قبل المسيح ، حين شبّ فيها حريق في ايام قيصر فأنتى على جزء منها . وكان هنالك بالإضافة الى هذا العدد ، حوالي ٥٠.٠٠٠ مجلد في دار كتب ثانية كانت منذ بطليموس الثاني ملحقة بمعبد سيرابيس . وقد عين الملك لدار الكتب موظفين كثيرين دفع لهم أجورهم : فقتلسم أمانتها شعراء من امثال ابولونيوس الرودي وعلماء من امثال ايراتوستينوس .

حدثت سلالات اخرى حذو اللاجئين الاولين . ولكن تحقيقاتها لم تبلغ مثل هذه الامة وهذه العظمة . ولم تؤسس واحدة منها متحفاً آخر : وليس ما أطلق عليه هذا الاسم في عهد متأخر ، أي في ايام الامبراطورية الرومانية ، سوى مؤسسات بلدية للتعليم العالي . غير ان جميع البلاطات قد حاولت ، عن طريق الفوائد المادية ، اجتذاب الكتبة والفلاسفة والعلماء . أضف الى ذلك ان بعض الملوك أسسوا وتعهّدوا دوراً للكتب أيضاً . فكان للسائقين مكتبتهم في انطاكية ، عاصمتهم السورية . ولكن اهم مكتبة قامت في برغاموس ، وقبداً أغناها الاطاليون انما مطرداً أيضاً : وعلى الرغم من ان البرديات ما زالت أكثر المواد استعمالاً ، فلا يمكننا هنا إلا ان نذكر بالجلد « البرغاموسي » الذي اشتق منه اسم (Parchemin) الرق) والذي لم يكن اختراعه ، من جهة ثانية ، لا اكتشافاً ولا احتكاراً برغاموسياً . وكانت مجموعات هذه المكتبة قد بلغت ٢٠٠.٠٠٠ مجلد حين أهداها انطونيوس لكليوباتره تعويضاً عن الأضرار التي لحقت بمكتبة الاسكندرية بفعل الحريق .

لم تكن نصرة عظماء هذه الارض شيئاً جديداً؛ فقد سبق لمستبدي العهد القديم ان تعهدوها. اما الشيء الجديد فكان هذه الطريقة في فهمها وممارستها اي في وضع وسائل العمل والبحث تحت تصرف المستفيدين منها . ولا يكفي احترام الشؤون الفكرية ، المنزهة عن كل غاية ، لتبرير قسريات الملوك المالية . ولكن المجد الباطل وحده لا يكفي لذلك ايضاً ، في حال ان الامة السياسية المولاة لتوجيه الدراسات العليا ليست موضوع بحث . اجل لقد ادخلت بذلك وثبة نافذة على بعض الابحاث التي كانت مستحيلة بدون هذه المؤسسات والتي ولدت من وجودها وكان لها أثرها على الحركة الفكرية في مجموعها . ولكن هذه الابحاث ، بحد ذاتها ، بقيت عادمة الاثر سياسياً ولم يكن باستطاعتها خدمة المثالية والبرنامج الملكي.

٣ - الشغف الفكري والروح العلمية

ان المقصود في الدرجة الاولى هو ما نعرف عنه اليوم بالاسنية والعلم
الاسنية والعلم الراجع الواسع .

استلزم جمع المخطوطات تنسيقها ودعا لمقارنتها ولاختيار افضل الدروس ولتوضيح النصوص بكل ما من شأنه ان يسهل فهمها . وكان هذا الجمع والبحث والتعليق متفقاً والطرائق التي سبق لارسطو ومعاونيه ان اعتمدوها . اما انشاء دور الكتب ، ان هو جعل هذا العمل اشد الحاحاً ، فانه قد بسطه ايضاً يجمعه قسماً من المواد اللازمة للمقارنة وجمع المعلومات وجعلها في متناول اليد . وقد قام بهذا العمل رجال من الطراز الاول ، فكرس له بعضهم كل نشاطهم واشتهر بعضهم الآخر ، من امثال كليماخوس وايراتوشينوس ، في حقول اخرى ايضاً .

من نافل القول انهم انقطعوا بالتفضيل الى الملاحم الهوميروسية التي افضت اهميتها في الحياة المدرسية وفي ثقافة الاغريق العامة الى الاكثار من نسخها المغلوطة فيها او الخشوة بالتذييلات في اكثر الاحيان والتي جعلت في الوقت نفسه الحاجة الى التوضيح امراً ملحاً . فأنجز عمل عظيم جداً بنشاط ومعرفة ، وذوق سليم غالباً ، يثير الاعجاب : فانه انتهى الشرح الالسي الى النقد الادبي . وغدا اسم احد امناء دار الكتب في الاسكندرية ، ارسطارخوس ، اسطوريا من هذا القبيل : وان ما نراه من مؤلفاته المندثرة ، في « دروس الندوات » المتأخرة ، ليم عن ألمعيته الفائقة ؛ فهو انما آثار معاضل كثيرة لا يزال العلماء المكبون على دراسة هوميروس يحاولون حلها ، غير قادرين على اجمال شكوكه واحكامه .

يمكن القول نفسه عن الخطب ، بسبب الامة المولاة لعلم البيان ، وعن نصوص اخرى كثيرة . وقد وضعت اذ ذاك - ولعب ارسطارخوس فيها دوراً كبيراً - « القوانين » الاسكندرية ، اي مجموعات المؤلفين المعتبرين قدوة يقتدى بها ومجموعات مؤلفاتهم التي اعتبرت اصلية . ونحن مدينون لهذه الجهود التي لم تعرف الكلل ليس بالمحافظة على نصوص صحيحة جهد

المستطاع فحسب ، بل بتعليقات تجلوه غموض مقاطع كثيرة . فقد وضع كليخوس وحده ١٢٠ « مجلدًا » تؤلف جدولاً بكل الادب اليوناني كما تمثل في ايامه في المكتبة الاسكندرية ، مورداً فيها نبذة تاريخية عن حياة كل مؤلف ولائحة بمؤلفاته ومعلومات تاريخية عنها . ثم اكمل خلفاؤه هذا الجدول .

قادت مثل هذه الابحاث بصورة حتمية الى دراسات نظرية وعملية في علم البيان وعلم الصرف والنحو وفقه اللغة وعلم تاريخ الازمنة . وقد يتطلب تعداد الاسماء الجديرة بالذكر ، في هذا المجال ، صفحات كاملة . فانتهل رواد الندوات في العهدين الروماني والبيزنطي باستمرار ، مما جمعه هؤلاء المؤلفون بفضل عملهم الجليل ، معلومات ذات قيمة عظيمة ، مضيفين اليها احياناً ملاحظات واخطاء شخصية . ولتكف باسم واحد هو احد اعظم الاسماء ان لم يكن اشهرها من غير الاختصاصيين : ديديموس الاسكندري ، معاصر شيشرون وقصر - اذ ان انطلاقة اوائل العهد الهليني قد دامت طويلاً . ان هذا الرجل ، الذي لقب بـ « ذي الاحشاء القاذية » ، بسبب طول أناته في التهام الكتب وتأليفها ، قد وضع ٣٥٠٠ « مجلد » طرق فيها شتى المواضيع التي واجهها في معالجة النصوص . فلا يجوز ان نستزى بهذا الجامع الجروح الجريء في وضع واستخدام البطاقات ، لأن مجموعاته التي لا تخلو من الحشو والتطويل ، تحتوي على ما هو حسن لا بل ما هو جيد احياناً . وقد كرّست ثلاثة من كتبه لخطب ديموستينس ضد فيلبوس ، وكان من شأن اكتشاف بردي دونت فيه مقاطع هامة من احده هذه الكتب المحتوي على التعليق التاريخي ، ان سجل ، بصدد معاضل سياسة أثينا الخارجية في القرن الرابع ، حدثاً هاماً في علم التاريخ المعاصر .

لقد غدا تقليدياً ان يجمع هؤلاء العلماء الواسعوا الاطلاع تحت اسم « الاسكندريين » . بيد ان نزعاتهم الفكرية لا تؤلف كل ما غدا تقليدياً ايضاً ان يعرف عنه بـ « المدرسة الاسكندرية » . اصف الى ذلك انهم لم يعيشوا كلهم في الاسكندرية وان بعضهم لم يقيموا فيها قط ؛ ولا يجوز ان ننسى ظلماً ان كراتيس العظيم ، الذي نشأ في مالوس في كيليكيا ، قد كان ، في القرن الثاني ، أمين مكتبة برغاموس ومقرباً من البلاط الاطالي . وليس من ريب مع ذلك في ان علماء الاسكندرية كانوا اكثر عدداً وافر انتاجاً ، وبالتالي اعظم تأثيراً ايضاً : فإليهم يعود الفضل في إعطاء المثلل وابتكار النهج . ولكن عملهم لم يخل من الصنارة التي برزت في مناقشتهم حتى الداخلية . وكان لثقافتهم ، الكتبية الى حد بعيد ، مساوئها ايضاً . ولعل اخطر المساوئ ان هؤلاء العلماء الواسعوا الاطلاع ، قد أوجدوا ، يجعلهم من كتب العهد الماضي أمثلة لا يعلى عليها ، وبحصر الطموح المعقول في الاقتراب منها ، تياراً معدداً لأن يسود تدريجياً : هو تيار الاحتذاء أو بالاحرى التنظيم الذي جعل من التلقائية طرائق فشلً بذلك الالهام الأصلي . فكانت النتائج شبيهة بتلك التي لمسناها في الفن ، إذ ان الحياة الفكرية قد تأثرت بالجفاف الذي أوجده الاعجاب المفرط بروائع الماضي والذي كبح الجموح الخلاق . اصف الى ذلك ان المؤلفات الكلاسيكية

الكبرى نفسها قد فقدت من نضارتها وقوتها المباشرة : فقد قرأ التعليق أو الخلاصة ، أو المنتخبات أحياناً ، ان تحلّ ، أو انها حلتّ فيما بعد ، مكان الاصل . ولكن هذه الملاحظات الانتقادية ابعد من ان تنسينا أهمية الخدمات المؤداة واتساع معارف الكثيرين من هؤلاء الباحثين وشأن الطرائق التي ثبتت صفتها العلمية — العمل الجماعي واستخدام البطاقات ووضع المراجع ؛ وملاحظة الوقائع بدقة ودرس ملاسباتها والتأمل في كلّ منها لاستخلاص القوانين — والتي أتقنوها وطبقوها على الشؤون الادبية ، ولم يحل شيء من هذا مبدئياً دون سلامة الذوق ورقة الحاشية اللتين احسن كبار المؤلفين التعبير عنها، هكذا أدركت وطبقت مبادئ «المدرسة الاسكندرية» التي مثلت ثورة في الحياة الفكرية والتي لا تزال تتأثر بنتائجها حتى ايامنا هذه . فما كانت عبقرية الاغريق الخلاقة لتموت بموت حريتهم السياسية ، وما كان دورهم كمرابي الانسانية ، حتى في مستقبل بعيد ، لينتهي بانتهائها .

نشطت البحوث التاريخية مؤقتاً نشاطاً نادراً جداً بفعل الروابط الوثيقة التي تجمع بين التاريخ الاطلاع الواسع والتاريخ : فإن موجبات الشغف الفكري والروح النقدية هي هي سواء تناولت فقه اللغة ، أو العلم ، أو التاريخ . وان جهود الملّفين في كشف وإجلاء مكنائيات المؤلفات الادبية ، التي تتأصل في زمانهم ، قد قادتهم الى بحوث حول الماضي . ثم ما هي السبيل لفهم مؤلف ما دون الاستعلام عن حياة وأفعال وبيئة مؤلفه ؟ فقد سبق لارسطو وتلاميذه ان اعطوا المثل في بحوث دقيقة ونظامية تناولت كافة الحقول ، فانتبهوا الى وضع كتب خصوصية ، أشبه بجدول للوقائع أحياناً ، يؤلف « دستور الاثنيين » افضل نموذج عنها في الحقل التاريخي . وتمشيا على الطريقة نفسها وانسجاماً مع الروح نفسها ، — لأن الكثيرين منهم انتسبوا الى المدرسة المشائية التي أسسها ارسطو — كان عدد رجال البحث مرتفعاً جداً خلية العهد الهليني . لا بل ان بعضهم وضعوا مجرد مجموعات من الوثائق والمراسلات والمراسيم . وانكب غيرهم بعباد على معاضل التاريخ التي من شأن حلها وحده ، قبل أي شيء آخر ، ان يوفر هيكلًا متيناً . ولم يكن هذا التعمق التقني ، من جهة ثانية ، ليسجن القائم به في تخصص ضيق لأن واحداً لم يفقد الشعور بتعمق الظواهر الفردية او الجماعية وعلاها . وعلى نقيض ذلك فقد تقدم التحليل السيكولوجي تقدماً مطرداً ، ولم تحتل قط دراسات الجغرافيا الوصفية ، التي توفر المعلومات حول الاخلاق والميزات المحلية وتوضح المسافات والموارد ، ما احتلته إذ ذاك من مكانة مرموقة . وهكذا فان العلوم الثانوية المساعدة قد جمعت المواد للمؤرخ ، من كل الجهات ، وسهلت مهمته الخاصة .

وكان هنالك ، للاهتمام بالتاريخ في مفهومه العلمي ، بالإضافة الى اوساط ذوي الاطلاع الواسع ، جمهور كبير تؤلفه تلك البورجوازية الوسطى التي كثيراً ما أتينا على ذكرها . فارت انتشارها قد اكثرت من القراء الراغبين في الاستطلاع والتفكير وأوجدت في الوقت نفسه رأياً عاماً أقل انقساماً منه في الماضي بفعل تحوّل المدن . فازدادت الدعاوة السياسية التي اعتمدت منذ زمن

بعيد ، وإذا ما اتخذت هذه الدعاوة غالباً أشكالاً لا تتفق مع التاريخ ، فعلينا ان نرى في ذلك شهادة في القوة الفكرية التي تمتع بها من استهدفتم هذه الدعاوة . وهكذا نشأ مثلاً نخط جديد هو نخط المذكرات التي وضعت كمذكرات او كروايات للأحداث العظيمة التي اشترك فيها المؤلف . فظهر كثير منها حول حملة الاسكندر ، لا سيما مذكرات الملك بطليموس الأول . ثم أصدر رجال دولة آخرون مذكراتهم ايضاً : الأثيني ديتريوس الفاليري ، ويروس ملك الأبير ، وأراتوس الحاكم الرئيسي في الاتحاد الآخي ، في القرن الثالث . ولكن مشاغل البورجوازيين وذوي الاطلاع الواسع ، في حقل الثقافة ، قد توافقت في غير هذا الاهتمام بالتاريخ السياسي . فمن حيث انتباه الاغريق الى حضارة حاولت جاهدة المحافظة على سلامتها امام الحضارات الشرقية ، كان من الطبيعي ان يعيروا اهتماماً متزايداً ، حتى في الماضي ، لمظاهر هذه الحضارة التي أوجت لهم المزيد من العجب للحلال . فلمعت من ثم اضواء جديدة في الحركة التاريخية آنذاك وظهرت وتقدمت دراسات جديدة كرست للتطور الفكري او الفني . وكان لذلك مغزاه الكبير ، أقله همنياً : فان جعل التاريخ يقوم بمهمة نقل وتعليل احداث الحياة الفكرية كان معناه ان هذه الحياة ، في نظر الشعب ، توازي في اهميتها منازعات الدول ؛ وان مفكراً كبيراً او فنانياً كبيراً يوازي رجلاً سياسياً او قائداً عسكرياً . وهكذا فان التاريخ — وهذا في الغالب دوره العملي ، إن لم يكن دوره المثالي — قد اسهم في ان قوى ، بواسطة هيكل داخلي ، الشعور القومي او ما يقوم مقامه ، اي وحدة اناس تشدهم ، فوق الحدود ، لغة واحدة وتفكير منطقي واحد وتربية فكرية واحدة ، واذواق واحدة ، اي ، بكلمة موجزة ، وحدتهم الأدبية .

كل هذا يفسر قوة العمل المنجز آنذاك والاستقبال الطيب الذي صادفه ، وبكلمة موجزة ، تقدم الشغف التاريخي الذي هو الشرط الاول لتقدم التاريخ . بيد انه بقي بعيد المنال . فقد احتوت مجموعات الرسائل كثيراً من الزيف ، حتى المفتضح أحياناً ، ويواجه النقد في ايماننا ، اكثر من مرة ، مشكلة الحكم في صحة المقاطع الاخرى التي يشك فيها كثيراً . ويصح القول نفسه في مجموعات المراسم التي لم تصل البنا على كل حال ويبدو انها لم تكن كثيرة العدد : وقد يستهينوا ان توجه اللوم لذوي الاطلاع الواسع في ذاك العهد لأنهم لم يلجأوا إلا نادراً الى مستندات المحفوظات ، او اقله الى الكتابات التي عرضت عدداً كبيراً منها على مرأى الجماهير . وقد أدخلت المذكرات ، بفعل تحديدها نفسه ، تشويهاً دفاعياً على الوقائع واسبابها الحقيقية . وأثر علم البيان ، بصورة حتمية ، في المؤرخين ، حتى ان الخطب التي استمعوا في نسبتها الى بعض الاشخاص لم يكن لها ما يبررها ، كما هي الحال عند توسيديد ، اجمال حالة عامة او عرض اسباب قرار ما : فقدت في اغلب الاحيان قطعاً صناعية جوفاء للأبهة فقط . ثم ان السمي وراء الأثر التصويري او المسرحي الخلق بأن يسلتي القراء او يشجيهم قد جعل من الانتاج التاريخي انتاجاً أدبياً بمعناه الازدرائي .

غير ان الرصيد الاجمالي ، مع كل ذلك ، يبقى ايجابياً الى حد بعيد . فقد ادخل النظام على

التأريخ القديم ، عن طريق البحث عن تواقى ولاية الملوك او القضاة ، في اللوائح المحلية : فنجد ايراتوشينوس على هذا الصعيد عملاً مجيداً وكان له الفضل في التأكيد ان التاريخ اليوناني ، قبل الشروع بوضع لائحة الفسائزين الاولمبيين ، في السنة ٧٧٦ ، يفتقر الى الاروم . وقد ازدادت دراسات التخصص . فعلى غرار أثينا ، استمالت سبارطة ودوا، اخرى او مناسلق اخرى من اليونان عدداً من الباحثين الشغفين بأصلهم وبماضيهم . ووضع غيرهم التراجم ، وهي لون جديد ، تأخر الى حد بعيد بالتقريب الخطابي الذي نشأ عنه . ووضعت تواريخ الفن والعلوم المختلفة والفلسفة والأدب : فمن اغرب الدلائل على سعة اطلاع بعض رجال ذاك العهد ان احد النقاشين الذين سبق لهم واشتغلوا في برغاموس ، انتيغونس الكاريسي (من جزيرة اوبسا) ، قد ألّف ايضاً تاريخاً للفن وتاريخاً لاهم الفلاسفة منذ ارسطو . ثم اقتضى بعد هذا كله القيام بمحاولة تأليفية في وضع تاريخ الحضارة : فكيف لا نذكر اسم ديكيارخوس الميسيني الذي كان الاول في الاقدام على هذه المحاولة ، باسم « حياة اليونان » ، غير متورع من الارتقاء الى ابعد الأزمنة رسوخاً في القدم ؟

لم نأت ، عن قصد ، على ذكر اسماء كثيرة ، على الرغم من وفرة ما نعرفه منها ، وحتى من الجهد الذي أحاط ببعضها في العصور القديمة . فهي ليست جميعها في الحقيقة سوى عناوين لمؤلفات مفقودة ، او لمؤلفات لم يبق منها ، في احسن الحالات ، سوى مقاطع صغيرة جداً . وليس من شك في ان ما حققه المؤرخون الهلينيون كان عظيماً ، ولكنه اهم ، مادياً ، واضعف ، أدبياً ، من ان تنقلها الينا الاجيال اللاحقة . فقد اكتفت هذه الاجيال بأن انتهلت منه ، لأن كل ما كان بالامكان عمله لجمع ذكريات الماضي والحيولة دون ضياعها قد انجز عملياً في هذا العهد . وقد استفاد المؤرخون واللغويون وغيرهم فيما بعد ، دونما ملل ، مما غدا ملكاً مشتركاً . وما نحن فنتهل اليوم ، بواسطتهم ، من هذا الملك المشترك نفسه ، سعداء بانهم أشاروا احساناً الى المصادر او اقتطعوا بعض الاستشهادات .

فشاءت الصدف مع ذلك ان يصلنا قسم كبير من مؤلفات بوليب . ولكن هذا الواقع ليس وحده ما يرغنا على اعتبار بوليب خير مؤرخ في هذه القرون الثلاثة .

لجأ في اسلوبه الأدبي الى صياغة الكلام وفاقاً للطريقة الرسمية آنذاك التي يزيد من ارتباكها ما تنطوي عليه من تعابير مجردة وصيغ بطيئة . وكثيراً ما تناول موضوع الاخلاق معتبداً في ذلك قواعد اخلاقية غير شاملة أملت على كل حال مفاهيم فلسفية تطورت ولم يجهد هو ، او لم يتسع له الوقت ، للتوفيق بينها . وقد أتبع في عرض موضوعه تصميمًا صارماً ، سنة فسنة ، ومنطقة قنطقة ، وفاقاً لنظام جغرافي معين . وشغف بفن الحرب فوجد لذة خاصة في سرد تفاصيل الهجمات المفاجئة . بيد ان الدقة التي تباهى بها لم تكن إلا ظاهرة احساناً ، وعلى الرغم من تأكيدات ومن امتيازها عادة عن المصادر الاخرى ، فانه لم يخل قط من الخطأ والتحيز . فقد

صدرت عنه هفوات عرضية عموماً وخطيرة أحياناً حتى في موضوع جغرافية البلدان التي زارها مثلاً . ولم يتمكن من ان يتجرد من مواطنيته الأخية وبورجوازيته الأخية وحتى انتهائه الى فئة من فئات البورجوازية الأخية .

ولكن هذه النقائص تتلاشى امام صفاته . فان نظريته في التاريخ ، التي لم يأل جهداً في عرضها واتقانها واعادة النظر فيها ، قد أصبحت نظرية علمية . اراد اللجوء الى جميع مصادر الاستطلاع بما فيها الدرس الشخصي للبلاد وحتى لمنطقة معينة فيها . واراد تاريخياً لا يكون صحيحاً ودقيقاً فحسب ، بل « علمياً » اي قيناً بتربية الانسان النشيط الذي لم يميزه عن الانسان الثاقب المضم على تحليل عمله المباشر واكتشاف المعنى الكامن في سلسلة من الاحداث . فقد اعترضته اذن معضلة الاسباب ، واذا هو لم يتمكن طيلة حياته كمؤلف ، وبالتالي في جميع مؤلفاته ، من السير في المنطق البشري حتى اقضاء ال اثر الإلهي - اي اثر إله الحظ - فانه لم يلجأ اليه كتفسير يائس ، لأن الصلة الوثيقة ، في تعاقب الاحداث ، بين العلل الطبيعية ومعلولاتها ، كانت موضوع بحثه المستمر . ولم يكنف بالظواهر ولم يتأثر بمجادلات الدعاوات المتقابلة ، بل دعا الى التمييز ، وميز هو نفسه ، بين الاسباب البعيدة والاسباب القريبة والحجج التي تخفي الاسباب الحقيقية . وادرك معنى تطور المجتمعات حتى بلغ منه ان توصل الى نظرية « دورية » تتعاقب بموجبها الملكية والأرستوقراطية والديموقراطية وتؤدي حتماً في هذا المجال من واحدة الى اخرى لأنها ، كلها ، تفسد حتماً عند التطبيق . وهو لم يبتكر كل هذا ابتكاراً على كل حال ، لأن هذا الرجل الرفيع الثقافة قد نقل ما جاء به عن الفلاسفة وواضعي النظريات الذين سبقوه ، دون ان يتوصل الى نظام متلاحم جداً . ولكن واحداً غيره لم يفكر بمثل هذا الحزم في ان يستخلص ، مما نقله ، النتائج لدراسة التاريخ .

اضف الى ذلك ان الفضل يعود له ، من حيث انه عاش طيلة الاربع الثلاثة الاولى من القرن الثاني ، في انه ادرك الاهمية العامة التي اذهبت عليها الاحداث التي شاهدها او لعب فيها دوراً ثانوياً أحياناً وصمم على درسها ك مجموع . وقد خدمته مصائب حياته نفسها في هذا الدرس . فقد ارغم على ان يعيش ١٧ سنة منفياً في ايطاليا حيث تقرب الى شيبون اميليانوس وتعرف الى الاوساط الحاكمة في روما ، فاستطاع من ثم في روما ، لا ان يجمع جزءاً كبيراً من مستنداته فحسب ، بل ان يتأمل في الاحداث المتفرقة ويجد الصلة القائمة بينها . وهكذا اتضحت له هذه الحقيقة التي شاهد جيله تحقيقها ، بين السنة ٢١٨ والسنة ١٦٨ اولا ، وبين السنة ١٤٦ والسنة ١٣٣ ثانياً وبصورة اكمل ، اعني بها وحدة العالم المتوسطي تحت سيطرة روما . ولمح اهمية تلك الثورة السياسية والعسكرية التي انتزعت من الاغريق لا استقلالهم فحسب بل فهمهم للعالم نفسه والمقياس الذي قاسوه به ، لأنها قد اثبتت لهم ضيق الآفاق التي عاشوا فيها وحقارة تحقيقات كافة الفاتحين الذين تمكنوا من معرفتهم ، بعد ان كانوا يعتبرونها بعيدة وعظيمة جداً . فان

الامبراطورية العالمية التي اكتفى اعظم الرجال بأن يحملوا بها كانت في طريق التحيز امام ناظري البورجوازي الآخي الذي احفظه الثوريون السارطيون والمستلبون الايتوليون . وهو قد آمن بمجتمعية مراحلها الاخيرة لأنه استحال عليه التفكير بأن الفارتين سيستولون على شطر كبير من تراث الاسكندر الاقليمي . بيد انه ادرك ترابط الاحداث ولمس من نفسه القدرة على تحديد عليها . فأخذ على نفسه ان يبين ، وفقاً لتحديده الخاص ، « كيف وبفعل اي نظام حصلت السيطرة على كل الارض المأهولة تقريباً التي امست - وهذا حدث فريد من نوعه - ملك امبراطورية واحدة هي امبراطورية روما » . ولعل خير اكرام يجب تأديته لبوليب هو الاعتراف بأنه ، بعد تصميم هذا المشروع العظيم ، لم يكن دونه مستوى .

في الاشكال الجديدة للحياة الفكرية ، اي فقه اللغة والعلم الواسع التقدم العلمي والتقدم التقني وحتى الدراسات التاريخية الى حد بعيد ، يبرز اثر الروح العلمية . وقد برزت هذه الروح ابدأ في ما مضى ؛ ولكن الجدة في دورها النافذ السريع واعتماد طرائقها في ما كان متعلقاً من قبل بالادب حين يفكر احدهم بالاهتمام له . ومن الطبيعي انها اوحث باستمرار الابحاث العلمية التقليدية التي ساعد شمول الشغف الفكري والانعامات الملكية على مواصلتها بنشاط وسهولة متزايدة ، وقد احتلت الاسكندرية ابدأ ، في هذا الحقل ، المركز الاول لأن ملوكها تفوقوا على غيرهم ثروة وكرماً . ولذلك فان الطابع الازدرائي الذي ارتداه اسم « المدرسة الاسكندرية » في الكلام الدارج لا مبرر له في كافة الحقول تقريباً ؛ ولا مبرر له في هذا الحقل بنوع خاص . وان اسم ايراتوسينوس وحده لكاف لاقتضاء تهمة الانحطاط الموجهة الى الحركة الفكرية التي ازدهرت آنشد بازاء قصور اللاجئين . وبكفي لذلك ايضاً ان تشير الى جثث الموتى قد اجري فيها لأول مرة بصورة صحيحة . فقد اقتضى لذلك جرأة استقصاء وتجهيز مواد لم يعرفا كلاهما من قبل .

بفضل هذه الظروف المؤاتية احرزت بحوث العلماء نجاحات تلتفت الانظار . وما يدعو الى الدهشة هنا ، كما في جميع العصور القديمة ، ان هذه النجاحات العلمية لم تؤد الا الى القليل القليل من التطبيقات العملية . فما زال الاهتمام بهذه الاخيرة معتبراً دون شأن العالم ومقامه . بيد ان الطب وحده قد نجا من هذا الحكم الذي ليس من المعقول ، في الحقيقة ، ان يصدر عليه . ولكن ارخميدس لم يرض الا في ظروف استثنائية بالقيام بأعمال المهندسين . فهو لم ينزل مركباً الى البحر ، بواسطة جهاز من البكر والعتل ، الا اكراماً للملك السيراكوزي ، هيرون الثاني ، وبعد ان نسب اليه العجز عن تحقيق ذلك ؛ ولم يصمم الآلات المدهشة الاسعياً وراء فك الحصار عن سيراكوزا . وكان كل ذلك في نظره ، كما يؤكد بلوتارك ، « لعباً هندسية تلهي بها لشمضية الوقت » . فتفسر هذه العقلية تأخر « الفنون الآلية » التي لا تتطلبها سوى الحاجيات الحربية تقريباً والتي تستلزم التجربة والاختبار . اجل لقد صنعت مراكب ضخمة ؛ ولكن

المركب الجبار « سيراكوزيا » الذي كان يتسع لثلاثة آلاف طن من البضائع ، ولستائة بحار وثلاثمائة جندي ينعمون فيه براحة تامة ، تخلص منه هيرون الثاني بأهدائه لأحد اللاجئين ، بعد ان انفض له عدم جدواه .

يجب في الحقيقة ان لا ننظر الى نتائج هذا التلمس المتردد بين الاحتقار . وقد اقتصرت العصور القديمة حتى بيزنطية على نقل او تطبيق التحقيقات الهلينية . ولم تحرز تقنية صناعة السفن اي تقدم بين ايدي الرومان ، لا بل انها ما لبثت ان اقتصرت طموحها على طراز ال « تريريم » التي لا تختلف عن « ترير » الاغريق في القرن الخامس ، مع انهم صنعوا سفناً افضل منها منذ القرن الرابع ، ولا سيما في مستهل العهد الهليني ؛ ومرد ذلك الى ان روما ، بعد ان انتهت فتوحاتها ، لم تصطدم بأية قوة بحرية كبيرة . وقد احرز الشرق الهليني نجاحات فائقة في حقل تجهيز المرافئ ، لا سيما في الاسكندرية حيث لم يكن برج فاروس سوى العنصر الاهم في مجموعة بقيت زمناً طويلاً دون منافس . وشيد هيرون الاسكندري بعد ذلك مسرحاً للتماثيل المتحركة ، وموزعين وحجاباً آليين ؛ وابتكر « فستقية » - تلك التي سيعرضها جان جاك روسو امام الفلاحين السافويين - توصل الى استخدام قوة البخار فيها . اجل لم تكن كل هذه الابتكارات سوى مجرد آلاء او بالاحرى حيل تتيح لبعض السحرة - المشعوذين استثمار سرعة التصديق المهرطة عند الشعب . ولكن تحققت اكتشافات مفيدة ايضاً . فقد استخدم لولب لا نهاية له ، اخترعه ارخميدس ، لتجفيف قعر السفن والاراضي المصرية بعد الفيضان . واكتشفت المطحنة المائية ، فحث احد الشعراء ربات البيوت على التضحى في نومهن لأن عرائس الينابيع اخذت على نفسها القيام بعملهن ؛ ولكن استخدام هذه الآلة العجيبة كان أبعد من ان يصبح عاماً . وان ما يلفت النظر بالتالي هو انه لم يتحقق سوى حد ادنى من تخفيف الشقاء البشري . اما الافتراض الذي افترضه ارسطو والذي بدا له غير قابل التحقيق على كل حال - « لو ان كل آلة تنفذ مهمتها بناء على أمر او اشارة ... ولو ان المكوك ينسج وحده والمضرب يعزف وحده على القيثارة ، لاستغنى المهندسون عن العمال والاسياد عن العبيد » - فلم يخرج عن اطار المستحيلات التي لم يحلم بها احد . وبدلاً من ان يتماهى العلم والتقنية ، نراهما يستمران في تجاهل بعضهما البعض ، لا بل ترى التقنية عائدة في احتقار العلم .

كان من شأن هذه اللامبالاة ان أبقت الادوات الضرورية للعلماء في حالة بدائية .
انطلاقة العلوم
فاضطروا ، بسبب حرمانهم من أدوات القياس ومن المجهر والمركب ، الى الاعتماد على حواسهم ، وعلى عقلم بنوع خاص . وهذا ما يطبع النتائج المحرزة بزيد من العظمة .

وكان العالم المعروف قد اتسع اتساعاً نادراً . ففي الوقت الذي تخطى فيه الاسكندر ايران ، متقدماً في تركستان والهند ، قام المرسلين بتياس بدورة حول اوروبا الغربية . فبلغ المضائق الدائرية والطرف الشمالي للجزر البريطانية . وحين روى ما علمه عن شمس نصف الليل والمحيط

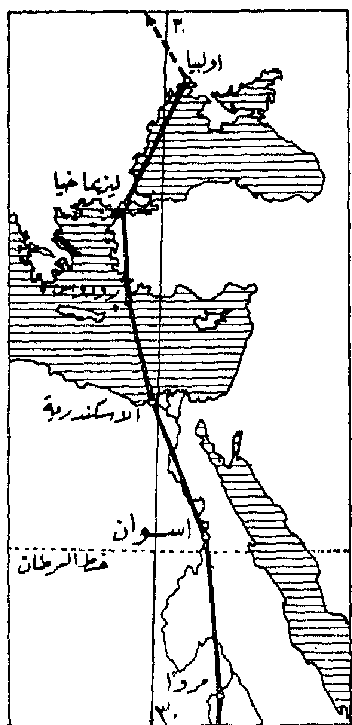
المتجمد الشمالي ، اتهمه الرأي العام بالخرقة والهدر ؛ ولكن بعض العلماء قد استفادوا من رواياته . ولم يخاطر الملاحون اليونانيون بعد ذلك بنفسهم في السفر نحو الغرب البعيد الذي أقام القادسيون أنفسهم حجاباً لا يركن اليهم عند مداخله . ولكن الملوك الهلينيين أوفدوا اكثر من بعثة الى بحر قزوين - الذي لم يستكشف كله على كل حال - والهند والجزيرة العربية والبحر الاحمر وأعالي النيل . فنشر بعض هؤلاء الأفتاقين رواية اسفارهم ، مما افرح الجماهير الشغوفة بكل غريب عجيب . غير ان الجغرافية العلمية قد أفادت الى حد بعيد من الجغرافية الوصفية . وليس سوى الافتقار الى الادوات ، في ما يبدو ، ما يفسر عدم تقدير الحقائق التي تراءت فترة من الزمن ؛ بيد ان تراثها ما يثير الاعجاب .

فان ملاحظة حركة المد والجزر الهامة في المحيطات قد جعلتهم يواجهون بشكل جديد معضلة اسبابها . فاكتشف بعضهم ، كبيتاس مثلاً ، انها مرتبطة بالقمر ، ولم يتمكن احد من بعدهم ان ينفي ذلك . غير ان الرأي لم يستقر على رفض دور الارياح التي نسب اليها ارسطو هذه الظاهرة : ومرد ذلك ان علم الفلك لم يكن بعد علماً صحيحاً .

وكانت كروية الارض امرأ معترفاً به ؛ فسعوا سعياً حثيثاً لتحديد قياساتها . وقد حقق ايراتوستينوس في هذا الموضوع لباب الامر ، ويعود اليه الفضل في اعتماد ايسط الطرق . فانطلق من اعتقاده بان اسوان تقع على خط الطول نفسه الذي يمر في الاسكندرية التي تفصلها عنها مسافة ٥٠٠٠ غلوة ، واكتشف ان أشعة الشمس ، في موعد انقلابها الصيفي ، تنحدر اليها عمودياً بينما تنحرف هذه الاشعة ، في الاسكندرية ، عن الخط العمودي مكونة معه في انحرافها زاوية تعادل $\frac{1}{8}$ من محيط الدائرة : فان المسافة بين المدينتين ، بالتالي ، تعادل $\frac{1}{8}$ من خط الطول . أجل لم تخل هذه الطريقة من الاخطاء : فان اسوان تقع في الحقيقة على مسافة ٥٠ كيلومتراً تقريباً الى الشمال من دائرة السرطان ، والاسكندرية على ثلاث درجات الى الغرب من خط الطول الذي يمر في اسوان ؛ أضف الى ذلك انه كان من الصعب قياس المسافة التي تفصل بين المدينتين . واذا ما افترضنا ان التنقيحات التقريبية التي أدخلها ايراتوستينوس على معطياته العددية جاءت صحيحة ، يبقى علينا ان نعرف ما هي الغلوة التي استند اليها عندما انتهى الى خط طول قياسه ٢٥٠٠٠ غلوة ، او ٢٥٢٠٠٠ غلوة بحسب « سترابون » . وما كان النقص النهائي ليتجاوز ٦٢٥ كيلومتراً في حساب الاول او ٣١٠ كيلومترات في حساب الثاني على ٤٠٠٠٠ كيلومتر ، اي ما يعادل ١٥٦ او ٧٧ ٪ . ولكن غلوتين اخريين كانتا معتمدين ايضاً تؤديان ، لو استند اليها ، الى فوارق اكبر . ومهما يكن من الامر ، فان الطريقة جديدة بكل اعجاب .

بفضل هذا التقدم ، بذلت الجهود في وضع الخرائط . فجمعت ، في سبيل هذا الهدف ، المعلومات الوجيزة المتوفرة حول المسافات . وفكر هيبارخوس ، في القرن الثاني ، بمراقبة

النجوم لتحديد خطوط العرض كخطوط الطول؛ ولكن الضرورة كانت تقضي بمقارنة الساعات، في حال ان آلات قياس الوقت لم تكن بعد مكتشفة . ومنذ القرن الثالث ، قام ايراتوشينوس بجهود تألّفي عظيم فتوصل ، بواسطة الاحداثيات الحسابية ، الى وضع خريطة عامة « للمسكونة » تلفت النظر ، على الرغم مما تخللها من اخطاء ، في ما يتعلق فيها بالسواحل



الشكل ٣٠ - خط طول الاسكندرية
كما رسمه ايراتوشينوس

المتوسطة وآسيا الصغرى ، بينما لا تزال مبسطة جداً في ما يتعلق بالمناطق الاخرى . ثم ان معرفة المحيط الهندي ، ورحلة بيتياس ، والاعتقاد السائد بأن بحر قزوين ليس مغفلاً من الشمال ، بدت لبيتياس مصداقاً للنظرية القديمة القائلة بوجود محيط واحد دائري وبأن الاراضي المعروفة تؤلف حلقة حول البحر المتوسط الذي ليس سوى بحيرة وسطية ؛ وهو قد افترض ، من جهة ثانية ، وجود قارة اخرى مماثلة في المنطقة المعتدلة الجنوبية . اجل لا يعود اليه الفضل في الطلوع بنظرية المناطق ؛ ولكن علم الفلك أتاح له ان يرسم للمرة الاولى وبشكل صحيح تقريباً الدائرة القطبية ودائرة الانقلاب وخط الاستواء . واذا قيل ان ايراتوشينوس يحتل المركز الثاني لكفوي ومؤرخ وشاعر ، فانه يبدو في نظر المعاصرين ، مسيطراً دون منازع على عهده في حقل الجغرافية العلمية .

لا ريب في ان علم الفلك قد استفاد من الملاحظات المتكدسة في المعابد البابلية . ولعل

تفسير هذه الملاحظات العلمي بلغ في الشرق نفسه شأواً بعيداً : فان كيدينو ، الذي يطلق عليه الاغريق اسم كيديناس ، كان عالماً حقيقياً ، حتى ولو لم يكتشف مبادرة نقطة الاعتدال التي تنسب الى هيبارخوس ايضاً . بيد ان تحقيقات علماء الفلك اليونانيين ، على الرغم من اجهاض حدسهم المبشري ، لجذير مع ذلك بكل اعتبار . فهم قد زفصوا نظرية الافلاك المجوفة التي طلع بها افدوكسوس في القرن الرابع . واقترح ارسطارخوس الساموسي في القرن الثالث نظاماً تكون الشمس نقطة الدائرة فيه تنبأه في القرن الثاني اغريقي بابلي يدعى سلوقوس : اي ان الارض والسيارات تدور حول الشمس خلافاً للظواهر ولكافة الشبروخ السابقة . وبما يلفت النظر ان هذا الافتراض لم يكن ليتفق مع الملاحظات التي سمحت بها الوسائل التقنية آنذاك .

لذلك فانه قد أثار معارضة الفلاسفة - ولم يردد احد رؤساء المدرسة الزواقية في ان يتهم بخرق القدسيات كل من يجرؤ على ازاحة « مركز العالم » - واكثرية العلماء ايضا من أمثال ارخيدس وهيبارخوس . واحتال هذا الاخير في تحسين النظام المقابل الذي يجعل من الارض مركز العالم والذي بقي بمثابة عقيدة ايمانية حتى كوبرنيك : ولم يكسر احد سواه ما كرسه من انتباه « للظواهر » ، وقد وضع جدولا بأكثر من ٨٠٠ نجم ثابت . ولكن مبدأه بالذات ، بسبب حالة التقنية ، حتم عليه الخطأ على هذا الصعيد .

اما في حقل الرياضيات ، فقد أخضع اوكليدس الهندسة ، او بالاحرى الجبر الهندسي ، لقواعد قياسية مترابطة دائمة . ولكن بعض العلماء الآخرين تفوقوا عليه عبقرية . ولعل اعظمهم حقاً هو ارخيدس الصقلي الذي مرّ مروراً على الأقل في الاسكندرية ، فقد أراد ان ينوّه النقاش على مدفنه بما اعتبره هو اهم اكتشافاته : نسبة ٢ الى ٣ القائمة بين حجم الكرة وحجم الاسطوانة التي تماسّ ضلوعها الدائرة . بيد ان رصيده ينطوي على اكتشافات اخرى كثيرة ، في الرياضيات والطبيعات ، اذ انه وضع بصورة خاصة مبادئ حساب الكمية الصغرى وعلم توازن السوائل وضغطها . ويحبب ايضا ان نذكر على الأقل اسم ابولونيوس البفيلي المنشأ الذي اهتم ، الى جانب النظريات الفلكية ، بدرس قيمة (π) والقطع المخروطي وتجاوز فيها ما حققه ارخيدس نفسه .

واستفاد علماء النبات والحيوان من الاتصال بالعالم الغربية واستوقفا انتباه مدرسة ارسطو بنوع خاص فوضع ثيوفراستوس ، خلفه المباشر ، « جغرافية النباتات » ومؤلفاً في « علل النباتات » ، فاحرزوا بعض التقدم . ولكن علماء التشريح في الاسكندرية اقدموا بجزأة على تشريح جثث الموتى وحتى اجسام المجرمين الاحياء كما جاء في التقليد . وهكذا توصل « هيروفيلوس » ، قبل « هارفي » بـ ١٩٠ قرناً ، الى ان يكتشف ان الشرايين لا تنقل الهواء بل الدم الذي يدفعه القلب . ثم عاد ايراسيستراتوس الى الهواء غير معترف بوجود الدم الا في حالة الحمى ، ولكنه ميّز في الجهاز العصبي الذي تراءى لسلفه بين اعصاب الحركة واعصاب الاحساس . ولم يتردد الجراحون في اجراء عمليات هامة : فان ايراسيستراتوس نفسه لم يحجم عن التعرض للكبد . وقد اعتمدت مدرستان طبيتان ، علمياً ، طرائق الشفاء والصحة التي اطراها هؤلاء العلماء . ولكن مدرسة ثالثة فاقتها في النهاية : فقد عرفت عن نفسها بأنها « اختبارية » واهملت التشريح والنظرية واكتفت بالبحث عن الادوية وتوصلت احياناً الى اكتشاف ادوية هامة ولكنها ارتكبت ايضا اخطاء هي اقرب الى السحر منها الى الطب . لذلك صادت السحر نجاحاً متزايداً لدى جمهور المرضى حين لم يفهمهم ايمانهم القلق للاتكال على الاحلام التي يوحى بها والمعجزات التي يجترحها الآلهة الشافون : اسكليبيوس وسيرايس ، وامبحوتب بن هابو في اخرة المعبد الذي شيدته حتشبسوت في دير البحري منذ ١٥٠٠ سنة قبل المسيح .

باستطاعتنا ان نرى في هذا الزيفان ، الذي لم يكن وحيداً من نوعه ، اكثر من حدث

عارض ، فإن الحركة العلمية في العهد الهليني ، لأعظم حركة علمية نشاطاً وحياءً وتنوعاً وانتاجاً في كافة العصور القديمة . ففي حقول الجغرافية وعلم الفلك والرياضيات والتشريح والفيزيولوجيا ، طلعت باكتشافات ووضعت نظريات كتب العالم المتحضر ان يتمشى على اخطائها نفسها قروناً طويلة . ولم يسبق للفكر البشري ان يربط ، كما انه لن يربط قبل زمن طويل ، بمثل هذا الايثاق ، بين التصميم على التجريد المنطقي وبين هوى المعارف العملية أي الخضوع للواقع . ولكن عجز التقنية قد حد من فاعليته لأن هذا العجز قد حال ، عملياً ، دون اللجوء الى الطريقة الاختبارية أولاً والبحث عن تطبيقات نجاحاتها العملية ثانياً . ولذلك فلم تصب هذه النجاحات سوى نجبة مثقفة محدودة العدد نسبياً ، وان كانت ارفع عدداً من ذي قبل . ولكنها لم تصب عامة الشعب حتى المتأدبين منها ، لا سيما وان نزعاتهم المخالفة للصولجهر ، وهي أقوى منها في أي زمن مضى ، لم تكن لتجعلهم يقدرون صرامة الروح العلمية . هذا هو مصدر الجاذب الذي استسلموا له بسهولة ، أعني به جاذب ما هو مستغرب ولا سيما جاذب السر الصمب المثال . وهكذا فإن العلوم الطبيعية انحرفت نحو وصف الفرائث النباتية او الحيوانية او المعدنية التي قد تكون صحيحة أو لا تكون والتي كثيراً ما ينسبونها الى قوى فائقة الطبيعية . وهكذا انحرف الطب نحو المعجزة والسحر ، فتحطمت الانطلاقة العلمية الصحيحة وحلت محلها في غالب الأحيان شعوذة رخيصة هي أبعد من ان تبقي على التفوذ الذي تمتع به كبار الاسكندريين في القرن الثالث وان تنقله الى خلفائهم .

٤ - المدارس الفلسفية والألوان الأدبية

لازم العلم اليوناني الفلسفة منذ نشأته . ولكن الفلسفة نزعت ، بفعل التقدم الذي الفلسفة أحرزته ، الى ان يكون لها قوام مستقل . ولذلك تراخت الصلة بينها دون ان تنقسم : ولم تلعب مدرسة ارسطو دور الحافز الا في البداية ولبعض العلوم أو بالأحرى لبعض الاساليب العلمية فقط .

بقيت أثينا المركز الرئيسي للنشاط الفلسفي : ففيها قامت الاكاديمية الافلاطونية والكلية المشائية المرتبطة بأرسطو ، متمشتين على نظام جمهوري تنتخبان بموجبه ممثلين . وفيها أيضاً القى الفينيقي القبرصي زينون دروسه في « الاغورا » تحت « الرواق » (*Stoa*) الذي كان في الاساس من اطلاق اسم « الرراقية » (*Stoicisme*) على تعاليمه وتبعة مذهبه ، وفيها ايضاً جمع الاثيني ابيقور تلاميذه في الحديقة التي ما زالت اسماً لمدرسته . أجل لا نستطيع الكلام عن احتكار أثيني ؛ فكان لكل من هذه الجماعات فروعها في الخارج ، كما ان جماعات اخرى لم تتخذ من أثينا مركزاً رئيسياً لها . ولكن الفلاسفة وتلاميذهم ، مع ذلك ، لم يكونوا في أي مكان آخر اكثر عدداً منهم في أثينا . ولم يحظوا في أي مكان بالاكرام الذي حظوا به فيها . فقد عين احد الملوك

الاطالين ، في السنة ١٥٩ ، أمين دار الكتب في برغاموس ، كراتيس المالي ، سفيراً له في روما ، وهو مشهور بسعة علمه فوق شهرته برواقيته ، ويعتبره سترابون واحداً من اثنين - الثاني هو ارسطارخوس - حلّقاً في علم الصرف والنحو . ولكن الاثنين عينوا ، في السنة ١٥٥ ، رؤساء المدارس الفلسفية الهامة ، للدفاع عن قضيتهم امام مجلس الشيوخ الروماني ، على الرغم من انهم ثلاثة اجانب : كرتياد الكيريبي من الاكاديمية ، وكريتولاوس الفاسيلي من الكلية ، ودوجين البابلي من المدرسة الرواقية . وهكذا فقد غدت أثينا ، دون ان تقدم الدولة مساعدات مالية للأساتذة ، مركزاً لمعهد فلسفة لا يضاهيه مركز آخر حتى آخر العصور القديمة .

وإنما المقصود هو التعليم لا الخلق والابتكار . ومما يثبت سنى التعليم وشهرته انه كثيراً ما يشبه المحاضرات حيث تلعب النصائح البيانية دورها ؛ اما الفلاسفة الذين يختارهم الاثينيون سفراء لهم في الخارج فقد كانوا في الحقيقة ، من هذا القبيل ، من المرتبة الاولى . ولكن النظريات الفلسفية ، بعد الازدهار الذي عرفته في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الثالث ، فقدت الكثير من اخصائها . ولم يبق سوى الحرارة الاولى التي استطاع العهد الهليني بفضلها تنمية التراث الذي استلمته من العهد الكلاسيكي .

وبديهي انه نمّاه بتحويله إياه ، وليس عجباً ان نرى ، في النزعات العامة لهذه الحركة ، انعكاس الظروف الجديدة . وبلغ من بعض المدارس ، كالمدرسة الكلية (الوقحة) ، والمدرسة الرواقية ، مراوغةً ، ان نادت « بالعالمية » مبينة المضادة بين « العالم » و « المدينة » ومستخلصة بذلك نتيجة توسع الاطارات السياسية . وقد قادتها وفرة وخلص الاتصالات بين الشعوب وبين الحضارات - فان أكثر من فيلسوف كان شرقي المنشأ على الرغم من اعتياد اللغة اليونانية - الى ان تكتشف مبدئياً أخوة البشر دوناً تمييز عنصري او قلاوني : غير ان المبدأ لم يطبق قط عملياً . ولكن ما يلفت الانتظار حقاً هو ان علم المعقولات قد بدا أقل استهواء في تلك الأيام المضطربة التي ضل فيها الانسان طريقه . فان ما حاولوا تحديده بنوع خاص هو المثل الأعلى للانسان الحكيم ، سر السعادة الحقيقية ، في علم أخلاقي وعملي أقرب الى آراء السفستيين وسقراط منه الى آراء افلاطون وارسطو .

لم تترك الاكاديمية والكلية أثراً يذكر في هذا العهد . اجل لقد نهافت عليها طلاب كثيرون ؛ وكان دور الكلية كبيراً في نشأة ونمو العلم الواسع ؛ ولكنها كليتها حصرت نشاطها في تدريس وتفسير تعاليم مؤسسيها . وبرز الاهتمام الحقيقي في غير مكان .

استمرت المدرسة الكلية بعد دوجين ، وأضاف عبدان سابقان ، « بيون » البورستيني ومينيوس السوري ، الى وعظهما ، كمتسولين تائمين ، نفوذ مؤلفاتها التي لم تراع سخرتها السامة لا الآدميين ولا الآلهة : فغدت « مقارعات » (*Diatribes*) الاولى وهاجبي (*Satires*) الثاني في الاساس من لون أدبي عرف الكثير من الاتباع في العالم اليوناني ، وفي روما بعد ذلك .

ولكن وراء هذه الظواهر الخارجية التي تتعارض تعارضاً عنيفاً وكافة المصطلحات ، ووراء هذا التظاهر بالوقاحة التي بلغت حدّ التعيير المقصود ، أخفى أولئك الذين لم ينحدروا الى الشعوذة ، مثلاً أعلى نبيلاً جداً للحكمة والتصميم على الجهد ، يرمز اليه هيراكليس ؛ للتحرر من الأهواء وبما ليس هو بجوهر الطبيعة البشرية .

وشرعت المدرسة الارتيابية ايضاً ، مع بيرون الذي تتبع الاسكندر في حملته على آسيا ، في الحث على دستور حياتي . فشددت ، في الاغضاء والخضوع للعادات ، على اتزان الروح ، والصراع التحريري ضدّ الاشياء ، وعدم الاضطراب ، وهناء الحياة . ولكن هذا الدستور قد ارتكز الى حقيقة فاز بها المنطق فندت مذهباً ، وأعلن الارتيازيون ان الحكم يخطيء كما تخطيء الحواس . لذلك يحذر ارجاء الحكم والاعتصام بالصمت امام منازعات الفلاسفة الذين جعلهم « تيمون » ضحكة للناس باستهزائه برواد المتحف الاسكندري وبحروب العقائديين الكلامية . ويبدو ان هذا الانتقاد اللاذع كان له أثره في الاكاديمية ؛ ومها يكن من الامر ، فانه قد خدّم التقدم العلمي بإبلاء الوقائع اهمية دونها اهمية النظريات وبالحث على ملاحظتها بتواضع .

بيد ان مذهبين جديدين تفوقا الى حد بعيد على كافة المذاهب الاخرى بامتداد واتساع ومدّة أثرهما في أوساط اجتماعية متنوعة ، حتى خارج الأوساط الفكرية .

كان ابيقور ، باشاعه الشخصي ، وبالمثل البطولي الذي أعطاه في آلام المرض ، في نظر تلاميذه ، المعلم الذي لم ينقطعوا ، في العالم اليوناني وروما ، عن ترداد وتفسير حكمه والتأمل فيها . واذا هو كوّن رأياً في العالم وعلم الطبيعة ، فانه لم يفعل ذلك ، في ما يظهر ، إلا لتحرير الانسان من خوفه الوهمي من الآلهة . انه لم ينكر وجودهم بل دورهم في الأمور التي تهّم الانسان ، وجعلهم يعيشون في بظالة دائمة ابعدت صفة ما فوق الطبيعة . واناط كل شيء بالمصادفة واعتبر الاجساد والأرواح مجرد كتل ذرات . وقد ثبني ابيقور بذلك معظم نظرية ديموكريت الايديري . أما ما أدخله عليها بنوع خاص فهو حركة عامة للذرات من فوق الى تحت تفرضها الجاذبية وتنوعها انحرافات طفيفة جداً عن خط الهبوط العمودي ووثب الذرات بعد مسّها الكتل المتكوّنة . ويستترام الموت في نظره انحلال الكتل : فليس بالتالي من حياة ثانية ويجب ان يزول الرعب الذي توحيه كما يجب أن يزول الرعب الذي يوحيه الآلهة .

فليس بعد ذلك ما يعترض سلوك حياة تصبح اللذة هدفها الطبيعي . ولكن مقياس اللذة الحقيقية هو عدم الشهوة والألم . فقد أعلن ابيقور : « لسنا نستهدف لذات الفساق ، لاولا اللذات التي يوفرها الاستمتاع » . ولذلك فان ثالي ابيقور ، من امثال هوراس الذي أسمى نفسه « خنزير » قطيعه ، قد تنكروا دونما خجل لكل تعليم أخلاقي لا يوصي حتى بالافراط في اللذات . أما الحكم فكان عليه أن يعيش « مستراً » ، دون طموح ، مرضياً شهواته الطبيعية والضرورية معاً بأبسط شكل اذ أن الحبز الأسود والماء يكفيان لذلك ، ومكدساً الحواس الطبية المعدة

لأن استحيل ، في الذكرى ، « لذة مستقرة » لا تستدعي ، على نقيض « اللذة العابرة » ، تجديد الشهوة ، ومن شأنها وحدها القضاء على الألم . وكانت تعاليم المعلم وأمثاله ، لهذه الغاية ، وافرة جداً ، تؤلف ارشادات عملية هي في مجموعها نظام دقيق جداً : وكان من شأن تطبيق هذا النظام أن يوفر ، في نهاية الأحاديث الجميلة ، ملاذاً ثميناً وأميناً في خضم الاضطرابات التي تهز صائر البشرية .

أما الرواقية فقد انكرت المصادفة التي لم ترد ان ترى فيها سوى ما لا يمكن تفسيره . وقد نظرت الى العالم كما الى كل ينظمه ويحركه عقل إلهي ، منطلقة ، كما فكر بذلك هيراكليت من قبل ، من النار الأولية . وكان الانسان نفسه في نظرها ، عالماً صغيراً منسجماً مع الكون ، مركباً من جسد تغلت فيه روح هي نشأة نارية متجلمة بالذكاء . فتطابق تأليه الكائنات هذا والتفاؤل المطلق اذ أن كل شيء فيه يناسب تسلسلاً عقلياً . ولكن القدرية على نقيض ذلك ، لم تتناف وعلم الأخلاق ، اذ أن واجب الفرد قائم في أن « يعيش وفاقباً للطبيعة » أي بحسب نظام العالم بالذات ، حتى يتوق الى الكمال . ويؤمن الانسان السعادة ، بموجب تعاليمها ، باحتقار كافة الحيزات وكافة الآلام وكافة المشاعر ، أي بالخضوع الى العقل الذي يتيح له ممارسة الفضيلة : وان هو فعل ذلك ، فانه يكون غنياً في فقره ، وحرراً في عبوديته ، وسعيداً على الرغم من المرض والتعذيب وحتى الموت .

اقتضى في الواقع تحسين هذا المثال الازامي المتشامخ ، بالمزيد من البراهين البقة . فقد أقرروا بأن هنالك بعض الحيزات ، في المنطقة المتوسطة بين الرذيلة والفضيلة ، كالصحة والقوة والجمال والفرح ، ليست خليقة بالاحتقار . ثم ان الرواقية ، على نقيض الابيقورية ، لم توص بالامبالاة حيال الشؤون السياسية : فان نظام العالم قد حال دون ذلك ، كما أنها قد حثت على الجسد والنشاط باسم العقل والواجب . فاستطاعت بذلك اجتذاب التبعة والابقاء عليهم ، وقد بذل بعضهم جهداً كبيراً وبرهنوا أحياناً عن نبل نادر كي يكونوا أهلاً لمعتقداتهم . وعلى نقيض الابيقورية أيضاً ، لم تنزرو الرواقية في عقيدة ضيقة تحددها تعاليم مؤسسها زينون . فبعد هذا الأخير استحق شرقي آخر هو كريسبوس الكيليني لقب « المؤسس الثاني للرواق » ؛ ونستطيع الكلام في القرن الثاني ، مع « باناييوس » الرودسي ، عن الرواقية « الوسطى » كما يصح بعد ذلك الكلام عن الرواقية « الحديثة » . ومنذ العهد الهليني ، قبل كلون الاوتيكي ، خصم قيصر ، كان هنالك رواقيون جمهوريون نشيطون ، بينما كان هنالك أيضاً ، قبل الامبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس بزمان بعيد ، ملك واحد على الأقل مرسوم الى حد بعيد بالتعليم الرواقي ، هو المقدوني أنتيغونس غوناثاس . وهكذا استطاع الرواق أن يترك أثراً كبيراً جداً بفضل رغبته في العمل بين الناس وبفضل مرونته في التفسير . ويحتمل تبشيره بالجهود العقلية الطوعي الناصب مركزاً هاماً في التراث الذي تركته لنا العصور القديمة .

لعل الحركة الفكرية تكشف حينذاك عن انها أقل ما تكون انتاجاً مفيداً في حقل الأدب . أجل كان الأدب في الحقيقة غصاً ومنتوعاً وبديعاً . ولا ريب أيضاً في اننا لا نعرف جيداً مؤلفات هذا العهد التي فقد اليوم معظمها على الرغم من بعث بعضها بفضل دراسة البرديات التي كان لها شأنها الكبير في اشهار كليخوس وهيرونداس ومينانديروس . ولكننا نترامى النزعات العامة مع ذلك ، واذا نحن لم نستطع انكار الأثر الذي كان للحضارة الهلينية ، في الحقل الأدبي وجميع الحقول الأخرى ، على الحضارة الرومانية في آخر عهد الجمهورية وأوائل عهد الامبراطورية ، فانه يبدو لنا ان هذا الأثر قد افتقر الى الاستمرار والإعراق . ولا تشابه البتة بينه وبين الأثر الذي تركته الفنون والفلسفة . ولا تشابه أيضاً بينه وبين اصالة وأهمية تقدم الروح العلمية وانتصاراتها .

صمم الادب الهليني في الحقيقة على أن يكون جديداً ، وقد حدث ان توقف الى ذلك . وقد حاول ذلك في جميع الاتجاهات باحثاً عن الجدة في النوع والوزن والعاطفة والطابع . ولعل عيبه بالضبط ان الافراط قد سيطر على صيغته وتصنعه ورقته . فمن حيث انه اقصى ، بفعل الظروف الجديدة للحياة السياسية والاجتماعية ، عن الجماهير الشعبية ، فقد اتجه الى جمهور مفرط في الرقة أحياناً ، لا سيما في بطانة الملوك . ثم ان العلم الواسع والتأني في الكلام وقفاله بالمرصاد فلم يقو على الدفاع عن نفسه ضد هما .

ويبدو الانحطاط ، على كل حال ، أجلى وضوحاً في النثر منه في الشعر .

النثر

قد يجدر بنا ان نستذكر هنا بعض المؤلفين الذين سبقت الإشارة اليهم . ولعل أعظمهم شهرة من الناحية الادبية — إذ انه الوحيد ، في الواقع ، الذي بلغت مؤلفاته ، التي عرفت الحياة ، شهرة حقيقية — هو بوليب . ولكن مرد شهرته الى المعنى لا الى المبنى الذي تثقله الصيغ والمفردات المجردة في ما صحت تسميته بـ « الرطانة السياسية » ، رطانة دواوين ومراسم ذاك العهد . اما اللغويون وذرو العلم الواسع والعلماء والفلاسفة فليسيوا أهلاً باستيقافنا . فالصفات الادبية ما كانت لتضر بمؤلفاتهم . ولكن ان هي لم تتحل بها ، فان صفاتها التقنية تجيز لنا ان لا نغالي في اتهامهم بالتقصير .

عانت الفصاحة سكرات الموت ، لمصلحة علم البيان الذي أقصر على الصيغ النظرية ، المطبقة بتصنع على المواضيع الوهمية ، ما كان في الاصل اجحات واكتشافات فن في خدمة المعتمدات الراسخة . أضف الى ذلك زوال ذلك الميل الى وضوح نافذ قارب الجفاف ببساطته الذي كان في الاساس من اهمية ليزياس ، وتلك الجملة الطويلة المتناسقة التي اشتهر بها ايزقراط او تلك القوة الثابتة التي اتصف بها ديوستينس . هذا كان الثمن الحتم لتعميم ثقافة متوسطة وزعها التعليم دون ان يجهزها بما يلزمها ضد النتائج اللعاعة الصنعية القادرة على التأثير والافتتان . ومنذ منتصف القرن الثالث برزت الفصاحة المعروفة بالـ « آسيوية » ، المفخمة تارة والمفصلة أخرى ، والمتكلفة

والموزونة ابداً . وعادت فيما بعد ، في عهد الامبراطورية ، الى تقليد كبار الكلاسيكيين . ولكنها أثارت ، اعجاب الرومان . فان هؤلاء ، حين كانوا يقصدون أثينا او رودس لتلقي دروس تفتقر الى الذوق السليم ، كان عليهم في أواخر العهد الجمهوري ، في روما ، ان يعالجوا مواضيع سياسية وقضائية حقيقية . ولم يتوفر هذا الحظ لأساتذتهم الذين لم يكن فيهم ليستطيع الازدهار إلا على ما وصفه احد معاصري اوغسطس ، دينيز الهاليكارناسي بالـ « غباوات » .

مارس بعض المؤلفين نوعاً قريباً من القصة ، وربما شجعهم على ذلك النجاح المستمر الذي عرفته بعض مؤلفات كسينوفون ، لاسيما لـ « كيروبيديا » . فليس بعيداً عن القصة مثلاً كتاب « افيميروس » الذي تخيل فيه بلاداً أسطورية استمرت فيها ذكرى حياة الآلهة اليونانيين البشرية والملكية . وليست بعيدة عن القصة ايضاً تلك « العجائب الخارقة » التي تنقل القارئ الى بلاد تجمد الكلمات فيها شتاء ، او « الشماليات » ، او « المصريات » ، وكلها مؤلفات موجهة لمؤلفين من الصف الثاني تكفي أسماؤها للدلالة على نزعتها . وهي ، من حيث فقدان عقدة القصة فيها ، قد حيرت القارئ بادخال الخيال على الواقع ؛ وسامت على عيائه من حياته اليومية ومن رغبته في الانفلات . فشقت الطريق بذلك أمام القصة الحقيقية التي لم تظهر إلا بعد زمن . ومنذ القرن الأول أقدم شاعر لم تصلنا قصائده ، هو بارثانيوس الذي اقتيد أسيراً الى روما ، على تأليف « آلام الحب » ، وهي مجموعة نثرية من ٣٦ قصة نقلها عن مؤلفين مختلفين . وقد قصد من وراء ذلك تقديم مواضيع رثائية لشاعر روماني نعم هو بمجايته . ولم يكن هذا الشاعر الروماني اوفيد بالذات : واذا حقق هذا الاخير هدفاً مماثلاً ، فان ذلك لدليل على النجاح الذي احزره المثال الأدبي الهليني لدى المؤلفين اللاتين . ثم ان معظم هذه القصص قد حلت عقدتها حلاً مسرحياً ، وان هذه المجموعة ، التي احتل فيها العشق مركزاً كبيراً ، خلقة بأن تعتبر تمهيداً للون الحكاية . لجل انها في الحقيقة تبشير متكررة وركيكة أدبياً ؛ ولكن الأدباء الذين تعرضوا لها لم تعوزهم الرغبة في التجديد ، لا ولا الاحساس الثاقب بكل ما من شأنه ان يرضي جمهوراً كبيراً .

أما الشعر فيبدو أفضل تمثيلاً .

الشعر

ليس من الأهمية بكان في الحقيقة ذلك اللون الشعري الجديد ، او المجدد بالاحرى — إذ ان العهد القديم قد اعتمد على الاخلاق ولللاهوت المرتبط بالعلم حينذاك — والمتلائم مع أوساط فكرية توسع الروح العلمية فيها نطاقه الى أبعد حد ، اعني به الشعر التعليمي المخصص لعرض المعارف العلمية . فظهرت قصائد من هذا اللون في مواضيع الزراعة — ودعيت « بالجيورجية » (الفلاحية) — والطب والنباتات المعدة لتحضير العقاقير والثعابين السامة . الخ ... ولكن مؤلفاً واحداً ، بين هذه المؤلفات جميعها ، قد عرف شهرة عظيمة وأثار حماس أجيال كثيرة حتى في روما نفسها ، اعني به ذاك الذي خلفه اراتوس الكيليكي السولي المنشأ . فلم يصلنا من

هذا اللغوي الذي نشر مؤلفات هوميروس وعلق عليها ، ومن هذا الرواقى المقرب الى الملوك الذين تباروا في محاولة اجتذابه دون جدوى رابقائه في بلاطاتهم ، سوى قصيدتين فعسب : الاول في علم الحوادث الجوية ، والثانية ، وهي الأشهر ، وهو مدين لها بمجده ، اعني بها « الظواهر » التي تصف النظام السماوي مفسرة إيابه وفقاً لنظريات افدوكسوس الفلكية التي كان قد فات زمانها حين تم وضعها في النصف الاول من القرن الثالث . اما النظم فيتصف بالمهارة وحتى بالطرف ، وتستوقف القارىء احياناً بعض الاستطرادات الخرافية والفلكية او البحرية . ولكن هذا الانتباه لا يلبث ان ينهكه العياء في كافة المقاطع الاخرى التي يتعاقب فيها هذا القدر من الابراج دون ان يبرز مرة واحدة ، لدى المؤلف ، أقل تأثير شعري عميق يجيش به مثل هذا الموضوع حتى للعالم . وان الاعجاب الاجاعي الذي أثاره هذا المؤلف العبوس الجاف ، حتى في أوائل القرون الميلادية ، لسرّ مغلق لا يمكننا إدراكه .

نرى الجهد والمعارف الجدية ، الاسطورية او الشاملة ، في مؤلفات شعراء آخرين لم ينضب الهامهم بسبب ذلك . وهؤلاء هم شعراء البلاط او الندوة . تغنوا بالنظريات الجمالية والمطالعات المختلفة ، فأحيوا الكناية التي بالغوا فيها ، حتى الغموض احياناً ، رغبة منهم في جعل القراء يشعرون بلذة ادراك معناها . اما ممثل المزلي ، على هذا الصعيد ، فهو ليكوفرون — ولكن أي ليكوفرون ؟ ومتى أُلّف ؟ أفي أوائل القرن الثالث ام في أوائل القرن الثاني ؟ — الذي وفر كتابه « الكسندرا » ، وهو مجموعة نبوءات اسندها الى « كساندر » الطروادية ، للمفسرين القدماء ولعدد اكبر من المفسرين المعاصرين ، سلسلة من الأحاجي المستبعدة . ولكن الإيجاز يفعل فعله ، عند افضلهم ، كما ان خلوص ظرفهم ورقة ابتكارهم لا يبقيان دونما تأثير .

ان اطرفهم دون منازع هو كلياخوس الذي حدّد له اللاجيون معاشاً ، وهو فيلسوف كبير وشاعر بلاط ماهر ، في تملّص الملكة ارسينوي وأخيها الذي هو زوجها ، بطليموس فيلدلفوس ، وفي التغني بـ « شعر بيرينيس » ، ولكنه الى ذلك مؤلف أناشيد ومراثي وملاحم صغيرة وأهاج ولواذع . كان شغفاً بالأساطير والحوادث المجهولة ، يبذل الجهد في اكتشافها في الأدب القديم وتقاليدته المحلية ، ويصل بينها وبين نشأة مدينة او عائلة او احتفال غريب . فقد درج على القول : « لا أسلك طريقاً تسير عليها الجماهير ، ولا اشترّب من يتدوع عومي ، فكل ما هو عومي تقز منه نفسي » . ولكن هذا الباحث عن الغرائب كان عالماً بأصول الوزن وماهرأ في إيجاد التعبير النادر ومتمتعاً بمذاقة خارقة . اجل يجوز ان نأخذ عليه عدم تلقائيته لأن ابتكاراته على كثير من الأرابة والتصنع ؛ ولكنه يثير الاعجاب ابدأ بمروته ويحدث ، في افضل ما سلم من مؤلفاته ، الأناشيد الموجهة الى بعض الآلهة على الطريقة الهوميروسية ، ان يعبر عن عاطفة دينية ليست بالعاطفة المتكلفة . واذا كان نفسه قصيراً ، فان في قصائده الصغيرة لطاباً وبحراً .

بعد قطيعة صاحبة ، وجه سيلاً من التهمك الى احد تلاميذه ، ابولونيوس الذي أراد الانتساب

الى « رودس » ، على الرغم من ولادته في الاسكندرية ، امتثالا منه لحسن الوفادة الذي صادفه في هذه المدينة حين اضطر لمغادرة البلاط اللاجى . اما سبب المأساة فهو بالضبط ملحمة « الارغونوط » التي بدت أبياتها الستة آلاف وكانها لا نهاية لها في نظر الاستاذ الذي تباهى بكراميته « للقصائد الطويلة طول الأنهار » . وقد روى ابولونيوس فيها مغامرات رحلة « جازون » ورفاقه ، على المركب « ارغو » ، الى بلاد « الكولخيد » ، بحثا عن الجزة الذهبية . فاستخدم يجد أساليب الملحمة الهوميروسية وأدخل على روايته ، عند كل ساحة ، معطيات فلكية وجغرافية وطبية أو سحرية ، وعرض بتفاخر تقنية وعلما في غير محلها . أما ما يشفع بالمؤلف ويسمى بطابع جديد ، يؤسفنا ان يكون كلياخوس تنكّر له ، فهو شخص « ميداي » ، ودقة التحليل السيكلولوجي التي امتاز باتقانها في وصف تكون الحب وصراعه واضطرامه وانتصاره النهائي في هذه النفس الفظة والحياة معا .

أقام ثيوكرت السيراكوزي في الاسكندرية أيضا — ولكن لمدة أقصر على كل حال ، لأنه عاش في كوس أيضا — ، واذا هو امتدح بطليموس الثاني وبرينيس ، فانه لم يهمل طلب حماية سيد وطنه ، هيرود الثاني . لم يصلنا منه ، بالإضافة الى بعض الاهاجي ، سوى مجموعة من المختارات يبلغ عددها الثلاثين تقريبا تعرف باسم « قصائد زهرية » . ولا يعني هذا الاسم سوى « قصائد صغيرة » ، ويعود الفضل للنجاح الذي أحرزه بعضها في صفة « الراعية » التي أضيفت اليها فيما بعد . وانه لنجاح حلال في الحقيقة . أجل لم يخلق ثيوكرت لونا جديدا بهذه القصائد ، واذا ما وجدنا القوة وطابع المأساة أحيانا ، فاقنا نلس ، أحيانا أخرى كثيرة ، بعض التفه لدى أبطاله الريفيين الذين أرضوا بعض المفرطين في الرقة الشغفين بالحياة الريفية . ولكنه ، بالإضافة الى مهارته في نظم الشعر واقتضائه للهجات — الايونية والدورية والايولية — المتنوعة التي يظهر التصنع في استعمالها ، معجبا صادقا بالطبيعة ، يحس بالمعاطفة الدينية الشعرية التي تنبعث منها ، وقادرا على الشعور بعذوبتها وشهوانيتها وفظاظاتها وعلى إظهارها للقارىء بغير بالغ في الدقة . ومن الخطأ الاعتقاد بسداجته . فان سحر الطبيعة التي يحن اليها في المدينة يؤثر فيه تأثيرا قويا ينفذ الى اشعاره . ومن شأن التصنع الاصطلاحي الذي لم يتمكن مقلدوه الكثيرون التخلص منه ، ان يزيد ، بالمقابلة ، من حدة الاحساسات والمواطف التي لم تقض عليها أبحاثه ككاديب فيه جدا .

بدلا من تعداد أسماء أخرى لمؤلفين كثيرين ومؤلفات كثيرة أيضا ، نرى الاقتصار ، بعد هؤلاء ، على لون يميز نجاحه وصنعتة التقنية وطبيعته نفسها الشعر الهليني المتوسط تميزا كافيا . سبق لكلياخوس وثيوكرت ان ألفوا أهاجي قصيرة ، فعذا حذوها كثيرون . واشتقت هذه القطع الشعرية من الكتابات القياسية التي درج على حفرها منذ زمن بعيد على المدافن أو النذور واستوجبت مهارة كبرى للتعبير عن عاطفة لها قيمتها في أشعار معدودة وللإبقاء على بدايتها .

ولم يكن الحدائق قليلي العدد ، لا ولا القراء المستعدون لتقدير نجاحاتهم حق قدرها . لذلك ظهر من هذه القطع عدد لا يحصى في جميع المواضيع : الفرامية ، والنذرية ، والمدفنية ، والاخلاقية ، والجدلية ، الخ . وظهرت حتى القطع الوصفية المكرسة لأحقر واقع أحيانا ، واقع المهن وادوات العمل مثلا . وألفوا منها مجموعات مختارة ظهرت أولاها باسم «التاج» في أواخر القرن الثاني ، ثم خلفتها بعد ذلك بزمن بعيد ، في بيزنطية ، المختارات البلاطية . أجل ليست هذه المختارات بالمؤلف الكبير ، ويستحيل مطالعتها مطالعة متواصلة . ولكنه من المستطاب ، بفضلها ، استعادة ذكرى البيئة « الاسكندرية » مع رشاقتها في الكلام والوزن وبراعتها في الابتكار وثقافتها الواسعة وسحرها وروح نكتتها ورقتها الشهوانية أو الشفوقة .

أظهر علم اللغات المكانة التي احتلها المسرح في الحضارة الكلاسيكية المسرح والمهزلة الايتانية والروائع الشعرية التي تدبّر له بوجودها ، فحاولوا استعادة نفّس ذلك العهد العظيم بمحاولة تأليف التمثيليات الفاجعة أو المآسي الانتقادية . وامتنحن كليا خوس قلمه فيها وأحرز سبعة مؤلفين غيره ، في نظر الاختصاصيين ، شهرة كافية لضمهم تحت اسم « الثريا » . اتقن هؤلاء جميعهم درس نماذج الزمن الماضي ؛ واكتشفوا مواضيع مهمة في الميثولوجيا التي تفوقوا على كل من سواهم في فهمها أو في التاريخ البعيد - كان هنالك تيمستوكليس - والقريب ؛ ولم تعوز الارابة واحدا منهم . بيد ان واحدا منهم لم يتوصل الى ان يعيد الى المأساة حياتها وأن يفرغ في قالبها إلهاما عيّا . فما زالت تمثيلات أوريبيد تستأثر بالنجاح وقد أعادت تمثيلها في كل مكان الجمعيات « الدونيسية » في البناء الضخم التي حرصت كل مدينة على تشييده . ولنذكر هنا ان « كاهنات ياخوس » قد مثلت في السنة ٥٣ قبل المسيح في اراتاكسا ، عاصمة ارمينيا ، لمناسبة عرس ابن ملك الفارتيين وشقيقة الملك الأرمني ، بحضور الملكين : كان هذان « البربريان » المعجبان بالحضارة الهلنكية يلجآن اذن الى أوريبيد وإلى الممثلين اليونانيين لاعلاء شأن الاعياد السلافية . فهل من برهان أفضل على انتشار الحضارة اليونانية وعلى جاذب المأساة التي هي أكثر ابتكاراتها تميزاً وعلى التوافق بين أوريبيد والأجيال اللاحقة الذي استمر طيلة قرون وقرون .

أما المهزلة ، كما تصورها ارسطوفانوس ومعاصروه ، فأبعد من ان يمكن إعادة تمثيلها : فن حيث هي انتقاد ملؤه التلميح الى الحوادث التي عاصرت التأليف ، يستحيل فهمها دون تفسير مستفيض . أضف الى ذلك ان لون المهزلة نفسه لم يكن لينسجم مع ذلك العهد . فان عنفها الجذالي وهوها الجامع يتنافيان واللطف الجديد الذي تحلى به مجتمع هذب ذوقه تقدم الثقافة واليسار . وكذلك فان « المهزلة القديمة » تفرض ديموقراطية تعي سيادتها وتتحلى بقسط مسنّ التساهل ترضى معه بان يُسخر من مناقشاتنا وبأن يوجه الانتقاد اللاذع حتى الى زعمائنا : فقد زالت الآن هذه الظروف السياسية . فأصبح من الواجب ان تتطور المهزلة حتى تعرف البقاء ، وهي قد توقفت الى ذلك ، منذ أواخر القرن الرابع ، مع ميناندرس الاثيني الذي نعرفه اليوم

معرفة مباشرة ببلد وإفارة وصلت إلينا عن طريق البرديات وأخرى بلغتنا عن طريق الهزليين الثلاثين ، لا سيما « بلوت » .

تفسر شخصية ميناندروس نفسها أكثر من نزعة في مؤلفاته . فإن الثروة التي أتاحت له ، في البيرة ، الاستمتاع بحياة بهجة ، دون الاضطراب للزول عند اغراءات بطليموس الثاني ، ليست بغريبة عن تفأوله المتساهل . بيد أن تفأوله هذا لم يخل من البصيرة : فقد كان على شيء من السفرية وحتى السويداء أحياناً . ولكن جميع شعراء « المهزلة الحديثة » أحسنوا في الدرجة الأولى مراقبة وتصوير الحياة التي اكتشفتم . فهل كانت عقد مهازلم نفسها حقيقية ؟ يجب علينا كي نعطي حكناً في ذلك ، أن لا ننسى أن أهال الأولاد ما زال حينذاك عادة سائدة وأن المؤلف والجمهور لم يهتموا ، بصدد الحاتمة ، إلا لأن تكون ناجحة فحسب . وكان من الواجب أن تراعي الحاتمة الناحية الاخلاقية أيضاً لأن حياة غريباً فرض بعض المصطلحات : فليس من « حب يوناني » مثلاً ، على الرغم من أن الحب ، في غير مكان ، كان موضوعاً أدبياً كما يتضح من قصائد ثيوكرت الراعية ؛ وليس من زنى نسائي أيضاً ، وإذا حدث أن سقطت إحدى الفتيات في زلة ، يجب أن تسوّى الأمور في النهاية بالنسبة هي أحسن . ولكن درس الطبائع والأمثلة الاجتماعية كان أهم من العقدة وطفورها الصنعي . فاقتبس ميناندروس طبائعه وأمثلته عنتم هم حواليه ، الأغنياء والفقراء ، الاسياد والعبيد ، الشيوخ والشبان ، والبغايا والأمهات . ومن السهل علينا أن نهتدي حتى في مهزلة القرن الثامن عشر إلى المزيد من وروثة الأمثلة التي أوجدها : العاشق المتقلب ، المسرف والحريص ، مستثمر عيوب الغير ، المتحدلق ، الطفيلي ، العبد الوجلي والوقع . ولكن هذه الأمثلة لم تكن عنده على شيء من التبسيط . فهو قد اهتم بها بعطف انساني ولون سيكولوجيتها بدقة وألف منها معرضاً بلغ من تنوعه وأمانته أن أحد المفسرين القدامى قد تساءل عما إذا كان هو الذي قلّد الحياة أو الحياة هي التي قلّدتة .

مارست صقليا وإيطاليا اليونانية منذ زمن بعيد لونا مسرحياً آخر يختلف كل الاختلاف ، مشاهد قصيرة ، يقلّد المأساة أحياناً ، لا ينطوي على عقدة ، يتصف بالفظاظة العنيفة والقدارة أحياناً . ومنذ القرن الخامس اقتبس بعضهم أشخاصهم عن الطبقات الشعبية الدنيا رغبة منهم في الاقتراب أكثر فاكث من المشاهدين . فنشأ عن هذه المهازل المضحكة فيما بعد لون أدبي جديد ، هو « المهزلة الإيمائية » التي وضعت نثراً في البداية وشعراً فيما بعد . فهناك ثلاث مهازل إيمائية بين « راعويات » ثيوكرت ، وأتاحت لنا البرديات بنوع خاص الوقوف على اثنتي عشرة منها ليرونداس الذي يضيف اسمه سنى الموهبة الشعرية إلى الشهرة الطبية التي يتمتع بها وطنه ، جزيرة كوس ، مركز مدرسة إبقراط .

اعتمد هيرونداس شعراً « ذا وتد مجموع أعرج » اعتمده من قبل أحد هجائيي القرن الرابع . ولكنه لم يعبأ بالاخلاقيات ، جاعلاً من الواقعية شغله الشاغل . فإن أشخاص مهازله الصغيرة

الذين لا يتجاوز عددهم الاربعة ينتمون الى الطبقة الحفيرة في حياتها اليومية : الأم التي تطلب الى معلم المدرسة ان يضرب ابنها الشقي ، وزين الاسكاف ، و « السمارة » التي تصرفها امرأة شريفة بدون غضب لا يجدي ، وغير ذلك مما هو أقيح . كلها تمثيلات صغيرة تفيض كلاماً مبتذلاً وقويحة وثرثرة وتدهش بمهارة الوصف . نرى فيها الحياة الشعبية البورجوازية كما هي في أيامنا تقريباً . فهل كانت هذه المهازل معدة للتشيل ؟ نحن نميل الى الاعتقاد بأنها أعدت للقراءة المسلية القمينة وحدها باكتشاف وتذوق النوايا الخفية التي تزخر بها ألأهي كاتب أثر على اللوحة الكبيرة لوحة صغيرة يستطيع اتقان كل جزء من أجزائها .

الخلاصة

من ناقل القول ان هذه الخلاصة ليست كاملة . ولكن الغموض الذي أملاه
 علينا جهلنا أو ضرورات عرض الموضوع لم يستطع إخفاء طفوح ثروة الحركة
 الفكرية الهلثينية . وقد حالت ثروتها في نفسها دون وحدتها . ويجب
 الاعتراف بأن التناقضات قد جزأتها . فهي قد أعجبت بروائع وحتى بمحاولات القروث
 الكلاسيكية التي حذت حذوها عن قصد ووفقاً لخطة مرسومة ، دون ان تلتكر شيء من
 الماضي ؛ ولكنها عن قصد أيضاً انحرفت عنها بدافع بعض النزعات الجديدة . ومن حيث انها
 نعمت مادياً وأديباً بحماية وتشجيع النخبة ، فقد توجب عليها ارضاؤها بأفراط لم يكن مجرد
 إثرة ؛ ولكنها ارتكزت أيضاً الى شيء آخر هو أهم الى حد بعيد لأنه عملياً مرتكز كل النظام
 الهلثيني : ثقافة واسعة متوسطة كان عليها هي ان تدافع عنها وان تنشرها . وانتهت في القمة الى
 ندوات من هواة دقة الفكر وحدة التصور ، ولكنها لم تستطع إهمال الدرجات الدنيا من الهرم
 الاجتماعي ، - لأنها انتهت منها في كل جبل قوى جديدة - تلك الطبقات البشرية المتزايدة عدداً
 وانتشاراً جغرافياً يوماً بعد يوم والمتمتعة باستعدادات وقابليات فكرية متنوعة جداً ، منذ
 التعليم الابتدائي تقريباً حتى مشارف أسمى المعارف وحتى تجارب ونشاط الواقفين على أسرار
 الفنون . فكان عليها بالتالي واجبات متشعبة : المحافظة ، والبحث عما هو جديد ، والتعميم في
 أفضل معانيه .

بيد ان اختلاف هذه المهام وتناقضها الظاهر على الأقل لم يشل عملها ؛ فهي قد حاولت في كل
 مكان ونجحت في أكثر من حقل . فكيف نستطيع التنسيق بين قيم لا تخضع في جوهرها للقياس ؟
 ولكننا بالرجوع الى الوراء نرى ان أبعد نجاحاتها تأثيراً وفعالية وشهرة لعله في الحقيقة نجاحها
 في حقل التربية : فكل شيء في هذا الموضوع تقريباً ، باستثناء بعض المراكز المحظية ، كان

بحاجة لأن يخلق خلقاً . وعلى الرغم من صعوبات الارتجال ، أعدت ووفرت الاطارات التربوية لجميع درجات التعليم ؛ فاستطاعت من ثم ، بفضل تعليم الموهوبين ، تأمين من يحل محل باعثيها أنفسهم . وبفضلها حافظ الاغريق أينما وجدوا ، وعلى مستوى كريم عموماً ورفيع جداً هنا وهناك ، على الثقافة التي كانت في الأساس من وحدتهم وعزهم . أضف الى ذلك ان هذه الثقافة قد استمالت عناصر بشرية جديدة : ومنذ عهد باكر أناب بعض البلديين المستغرقين من آسيا الصغرى وسوريا - فينيقيا عن اليونان القديمة . وبذلك استطاع رجال الفكر في العهد الهليني ، في آن واحد ، انقاذ ما أمكن انقاذه من الماضي وأنموا التراث الذي صار اليهم وحضروا المستقبل .

حضروا المستقبل في الشرق ، لأن الحضارة اليونانية ، التي استلمت بيزنطية إرثها فيما بعد ، لم يحافظ عليها إلا في الجزء المتوسطي من فتوحات الاسكندر . ولكنهم حضروه في الغرب أيضاً وبصورة أكثر جلاءً ، لأن العالم الهليني ، بسبب تفوق حضارته الفكرية والفنية معاً قد غدا مهذب روما .

القسم الثالث
آسيا الشرقية

آسيا الشرقية (من ١٤٠٠ الى ٣٠٠ ق.م)

تقام قطران في العصور القديمة رسالة اخضاع آسيا ، قطران يملكان قوى فعالة جبارة ، ولكن لكل منها أهواء وأساليب على طرفي تقيض : أنها الهند والصين . ولا حد لمعامل التباين بينهما من حيث الشكل الجغرافي والأهداف والتطور . ومع أن كلا منها اتبع طرقه الخاصة فقد بقيا على اتصال لا بل تلاقيا مراراً - كما حصل في اندونيسيا - ولكن اختلفت أساليب توسعها حتى استحال على المرء ان يقارن بينهما او يدرس في وقت واحد مراحل حضارتهما . لذا سنعمد ، حباً بالإيضاح ، الى تحديد مدى كل منها ، والتدقيق في خصائصها الأساسية .

ان الهند^(١) قوة تحضيرية تنبع كما يبدو من طبيعة أرضها. وتفضل الهند ان تستعمر سلباً، مع أنها عرفت حوادث دامية في مختلف مراحل تاريخها . وان الشبه الذي يظهر منذ طور ما قبل التاريخ بين الهند وبلاد آسيا الجنوبية الشرقية يستند في العصور التاريخية الى تعامل تجاري اتسع مداه مع الأيام ، وهجرة تزايدت فأنجبت من ثم أجيال خلاسين ، ودعاوة دينية لملتها احترام الغير وسداها التسامح . وأخيراً هناك تأسيس « ممالك » مستقلة حسب النظم الهندية ولكن بشكل يتفق مع المحيط الذي قامت عليه . وهكذا فقد تدخلت الهند - ولكن على درجات متفاوتة - في برمانيا ، وفي معظم أجزاء الهند الصينية وفي جزر سومطرا وجاوا وبالي الهندونيسية ، لا بل حتى في السيليب وبورنيو . وفرضت الهند نفسها بخاصة بتفوق ثقافتها

(١) اننا نشكر للسفارة الهندية الجليّة في بيروت حسن التفتاح لمساعدتنا علماً على نقل الاسماء الهندية التي وردت في هذا المؤلف الى اللغة العربية نقلاً دقيقاً من حيث اللفظ والكتابة . ونفتنهما ساعة سعيدة لنشيد بلطف أحد ابناء سرها السيد راج لما أبداه نحونا من عطف .
الناشر

ولكن عجزت عن الاستمرار طويلاً أمام كثر التقاليد الوطنية المحلية التي عرفت حياة جديدة .

واختلفت أساليب الصين اختلافاً كلياً : فهي تخضع البلاد حربياً و تفرض عليها قوانينها وعوائدها وديانتها ولغتها وكتابتها . وليست السيطرة بعرف الصين حصيلة تدخل وتسلسل بل نتيجة غزو كامل تفرض معه ، وبالغنى ، مجموعة من النظم متناسقة تتوافق مع تقاليد وأخلاق الشعب المغلوب على أمره . ولم يجبر الذين أخذوا بعظمتها وبأسها وأرادوا حذو حذوها على تبني حروبها فقط بل أيضاً على تقليد نظمها وأساليب ثقافتها .

ولكن هناك مع هذا مناطق تقابلت فيها الصين والهند وتشابكت فيها آثار حضارتهما : كالهند الصينية ، ويدل بوضوح هذا الاسم المركب على اقتسام البلدين مناطق نفوذ هناك ، والتركستان الصيني الذي قدر له تاريخاً استبقى دوماً ممر عبور ، والنيبال حيث تشابكت الثقافتان بشكل يثير العجب ، والتبت التي تستمد عناصرها الدينية والفنية من هذه الحضارة وتلك . وهناك مناطق عدة تبعد كثيراً أو قليلاً عن حدود البلدين تثبت تفوق حضارة الهند أو الصين فيها إن دقق المرء في خصائصها . وغدت الديانة البوذية أقوى عناصر هذا التلاقى ، وقد ولدت في الهند في القرن السادس ق. م. وأصبحت من أهم عوامل التوسع الهندي . وقد اقتبلت الصين البوذية في القرون التي تلت العهد المسيحي .

ولم تنفصم دون شك عرى العلاقات بين آسيا الشرقية والغرب طوال هذه الفترة التي حددوها اعتباطاً من سنة ١٢٠٠ إلى سنة ٣٠٠ ق. م. ولكن آثار هذه العلاقات هي أشد غموضاً وأقل عدداً من آثار الفترة السابقة حيث سجلنا تارة تسلسل حضارة بلاد الرافدين إلى زميلتها « حضارة الهندوس » وطوراً علاقات الصين في طورها السابق للتاريخ مع أوروبا الشرقية .

الهند

قد لا يقدرّون في الغرب أهمية الحضارة الهندية حق قدرها .
 خصائص الحضارة الهندية الاساسية
 فهي رأت ديانتين من أهم ديانات العالم تترعرعان على أرضها :
 البرهمانية والبوذية . ولعبت الهند في آسيا الدور الذي قامت به بلاد اليونان في أوروبا . ونسبة
 إلى الحضارات القديمة التي تعد الحضارة الهندية جزءاً منها اذنبات في زمن يحدوده تقريباً ما بين
 سنة ١٥٠٠ سنة ٨٠٠ ق . م . فإن لهذه الحضارة صفة استثنائية اذ هي لا تزال حية حتى
 أيامنا دون ان تتخلى عن خصائصها الاساسية التي عرفت بها منذ أوائلها التاريخية ، ان « المغامرة
 الهندية تتتابع أمام بصرنا اذ هي لا تستند فقط بكليتها إلى الماضي السحيق ، كما مجاد مصر
 وبابل الميتة » (ب . ميل P. Meile) . ولهذا الديمومة بعض الاسباب التي يحدّر تحديدها والتي
 بدونها يصعب فهم تطور الهند القديم وتجددها المستمر على مر القرون .

هناك ثلاث صفات رئيسية تحدد الهند وتفسر نوعاً ما هذه الديمومة : فالهند تحب التقليد .
 وهذا ما يسمح انتقال العادات من السلف إلى الخلف دون تحوير ؛ وهي تصبو نحو الوحدة مع ان
 التقيد والتناقض هما من مقوماتها ؛ وهي تهوى التشريع والتصنيف والتقسيم ، وهذه عوامل
 تهيب بها إلى اعتبار أعمال كثيرة تبدو شديدة الاختلاف كأنها أمور طقسية مما يخلق بينها من
 ثم تجانساً أصيلاً . ولم تظهر هذه الخصائص بمثل هذا الوضوح منذ بدء تكوين الحضارة الهندية .
 ولكننا نلاحظ تكوينها رويداً رويداً منذ عهد قديم ، ونشاهد تطورها بصورة حتمية نحو
 القصد الذي يوافقون عليه في زمن لاحق ، لا بل نراها تتحد اتحاداً وثيقاً مع مجمل العناصر
 الثقافية ، حتى انه يصعب جداً تحديد زمن ظهورها ومراحل تطورها .

ان للتقاليد في الهند قوة عظمى يصعب على رجال الغرب ان يدركوا مداها . وهكذا فإن
 النصوص الأدبية التي تركز عليها النظريات الهندية قد ألفت دون شك منذ عهد قديم جداً ،
 وبقوا يتوارثونها بصورة شفوية مدة يعجب المرء لطولها قبل ان توضع كتابة . وان جرى في

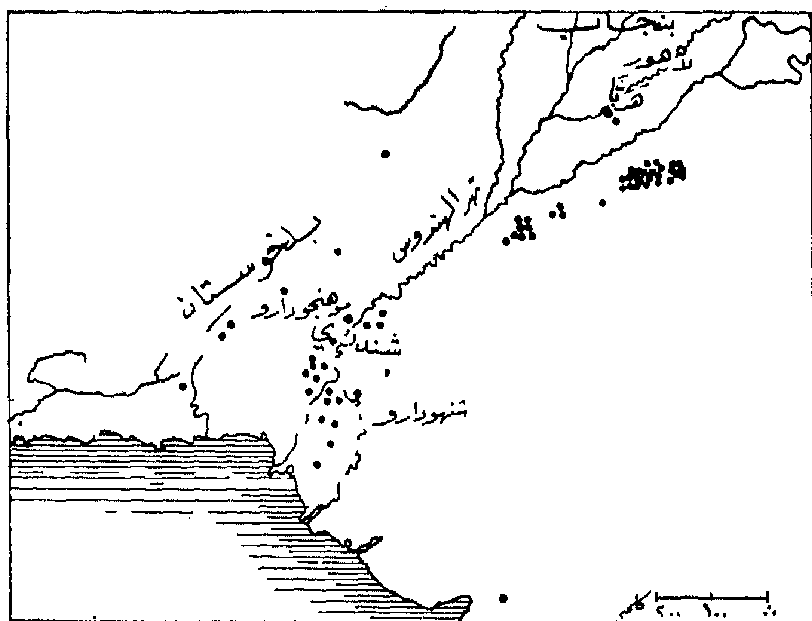
هذا المجال بعض التحوير، فانه يماثل دون رتبة التحوير الذي تعودنا رؤيته في مضمار الفن الهندي أي أنه يظهر رويداً رويداً ، وقد حور شيئاً فشيئاً الموضوع الاولي ، ولكنه أبقي طوال آلاف من السنين على كنه الموضوع الأساسي .

أما اتجاه الهند نحو الوحدة فانه ينمو مع الزمن . ويفقه الفكر الهندي بدقة وسرعة صفة الكثرة والتعدد التي تشمل كل شيء . ولكن بدل ان يتنكر لها او يحولها الى مجاز اخرى بقصد اذابتها فانه يكتفي بملاحظة نتائجها وكتابة بيان بها . وهو يجد بين أجزاء هذه الكثرة عروة وثقى : أي الوحدة الإلهية . وهو يفسر هذه الكثرة بأنها تعابير مختلفة لنفس المبدأ الموحد . لذا سمى طوال القرون ان يصنف كثرة المظاهر في فئات محددة المعالم تصبح كلها متماثلة في الاصل . هذه هي حالة الزون الهندي يدور سكانه الإلهيون الذين لا حصر لهم ، في فلك بعض الآلهة الكبار ويصبحون من ثم تعابير مختلفة عنهم ، هذا مع العلم بأن هؤلاء الآلهة ليسوا إلا تجسيدات للكائن الأوحد .

ويستند طبيعاً هذا الاتجاه نحو الوحدة على وجوب حصر كل المجتمع الإلهي والانساني ضمن القوانين . وخير مثال في هذا المضمار هو وجود الطبقات ، وهذا مظهر اجتماعي يختص بالهند ، لا سيما في الشكل الذي يرتديه : فالكلمة فرنا Varna ، أي « اللون » تدل بوضوح على المشكلة الاجتماعية التي يستند اليها التقسيم الطبقي والذي كان يقابل الغزاة المنتسبين الى الجنس الابيض والمواطنين الأصليين ذوي اللون المشع . وقد طبق أولاً هذا المبدأ ، في مراحل التطور التاريخي ، على فئتين من الأشخاص ، هما طبقة رجال الكهنوت ورجال الحرب العلمانيين . ثم طبقه على فئة ثالثة - فئة « الرجال الأحرار » - وعلى فئة رابعة - فئة « الفلاحين » - وتشعب أخيراً هذا المبدأ على أساس المهنة او الوظيفة ، وذلك بصورة حصرت تدريجاً مع الزمن حتى اعتبر الذين لم يصنفوا في طبقة ما بسبب « دنسهم » المفترض كمنبوذين . وان كان يبدو بأنهم لم يضعوا تدابير في غاية الشدة في بدء الديانة الهندية بين أفراد الطبقات النبيلة ، وإن سمحوا فيما بعد بالتزاوج بين أفراد ينتمون الى فئات مختلفة ، نشهد مع هذا اتساع ذلك المذهب حتى غدا تشريعاً جامعاً شمل مختلف تسمالم ما وراء الطبيعة والسنن الكونية . ونستطيع ان نتخذ أمثلة على وجهة النظر هذه من مختلف مرافق الحياة ، نسرد مثلاً مجال الاشارات « المتكلمة » (مدرا ، هستا ، أسانا الخ Mudrā, Hasta, Asana) الذي يثبت لنا هذا التصنيف المسند الى الفنون الطقسية . انها اشارات طقسية عندما يقومون بها أثناء تقديم الذبائح ، وتستمر على صفتها هذا إن نفذت أثناء الرقص او على خشبة الملهى ، او في فن الرسم الإلهي ، او في المواضيع المنقوشة والملوثة . ان الطقس الديني يشمل بصورة عملية أقل نشاط في العالم الهندي ، إذ لا وجود للشخص او للشيء إن لم يحمل اسماً (نام Nama) . ويدخلهم هذا الاسم ضمن حلقة يحدد جوهرها أحد الطقوس : وهكذا يستطيع المرء الذي ينتمي الى طائفة الغساليين ان يقوم بأي مهنة اخرى

شرط ان تطغى عليها صفة الفساليين؟ فهو كامن أقل شأنًا من غيره لأن مهمته مبدئيًا هي غسل الحرق التي تصبغ وسخة أثناء الحفلات الطقسية .

لذا غدا لزاماً على الهنود ان يحددوا بكل دقة جميع الأنظمة التي تمت الى طقوس العبادة . وهذا ما سمت اليه كتب الأدب الهندي الكثيرة منذ مجيء الآريين حتى عصرنا الحاضر ، خصوصاً المؤلفات (شاسترا) التي تعنى بهذه الناحية التقنية او تلك . ومن العبث والحالة هذه



الشكل ٣١ - الهند في الزمن السابق للآريين ، الحضارة المدعوة حضارة الهندوس .

اذن ان يسعى المرء لتفسير الحوادث الهندية خارجاً عن معانيها التقليدية ، وجلّ ما نستطيع القيام به هو ان نطبق على هذه المعاني أسلوب بحث علمي .

هناك عامل يجعل من هذه الدراسة مسألة دقيقة جداً : أذ لا يقيم الهندي تحديد الوقت والاصول وزناً لمشكلة تحديد الوقت كما يفهم الغربي هذا الامر . ولماذا يهتم لهذا الشأن إذ ان لا قيمة للحياة الانسانية . ولسرد متطلباتها إزاء السعي للوصول الى الكائن المجرّد ، هذا السعي الذي تأمر به ديانة الهندي ومبادئه فلسفته ؟ وعلى من يريد دراسة إطار الهند التاريخي ان يكتفي ببعض المعلومات تكون كالأزرم ، أو المقارنات مع حوادث لا تمت الى الهند ، أو

التحريصات أو الاستنتاجات. وان لم يرد التحيز عليه ان يبدي الكثير من أصالة الرأي ويكتفي غالباً بتخمينات تقديرية .

ولا يقدم لنا علم الآثار معونة تذكر حتى القرن الثاني ق . م . هذا ان استثنينا بعض آثار وادي الهندوس التاريخية . إذ لم يتصل بنا أي أثر من مواد صلبة يعود الى ما قبل هذا التاريخ الذي يتفق مع التفتح الأول للفن البوذي . ويظهر بأن استيطان الآريين كان سبب قهقري لفن البناء اذ لا نجد شيئاً مماثلاً لمدينتي موهنجو - دارو وهرابا Mohenjo-daro Harappa . وكانت مباني عهد الديانة الهندية الاول من خشب وآجر ، ولم يبق لها أثر نسبة لطبيعة أرض ومناخ الهند . وما يثبت هذا الظن بقايا قصر أسوكا في باتلبترا (القرن الثالث ق . م) والمباني الحجرية الاولى في القرن الثاني ق . م . التي تقلد بصورة واضحة المباني الحثيية

ولوضع دراسة عن هذه الفترة الطويلة جداً التي تمتد من مجيء الآريين (قبل القرن السادس عشر) حتى القرن الثاني ق . م . يضطر المرء الى استقاء معلوماته من النصوص الادبية . ويطلق على هذه النصوص اسم فيدا Veda « المعرفة » وهي مجموعة المعارف التي أتى بها الآريون والتي ازدهرت رويداً رويداً على الأرض الهندية . وتستند هذه النصوص الى وحي هبط على الحكماء (ريشي Rishi) ونقلوه الى الخلف . وهي تقسم لثلاثة أقسام : سمهتا Samhita أو « مجموعة » وهي تحوي خصوصاً على أناشيد دينية وصلوات وعبارات طقسية ؛ برهانا Brahmana « شروح » أو تعليقات لما جاء في « السمهتا » ؛ وأخيراً أبنشد Upanishad أو « دروس » لها صفة السر . وتضاف الى هذا كله الفيدانتا Vedanta أو ملحق للفيدا يوافق مضمونها التقليد والتي لا يزالون الى يومنا هذا يضيفون عليها .

ومن الحال تحديد تواريخ لأجزاء فيدا المختلفة إذ وضعت معظم النصوص وانتقلت الى الخلف بصورة شفوية وذلك حتى عهد قريب (القرن الحادي عشر المسيحي ؟) . ويجمعون على القول بأن السمهتا هي الأقدم عهداً ، وتعود الأفضلية في هذا الحال الى الريفيدا Rigveda التي تحتوي على عشر « حلقات » (مندولا Mandala) ، هذا مع العلم بأن الحلقة العاشرة هي الأقل قدماً من زميلاتها . وتعيد الجرفيدا Yajurveda والسامفيدا Samaveda مقاطع عدة من الريفيدا مما يدل بأنها ظهرت بعدها . ومما لا شك فيه بأن الاتهرفيدا Atharvaveda التي تحتوي على عبارات سحرية هي أحدثهم عهداً . وان كان ممكناً ان نعيد تاريخ أقدم فصول السمهتا الى عهد وصول الآريين ، أي ما بين سنة ١٦٠٠ وسنة ١٠٠٠ ق . م . فقد يبدو ان البرهانا والابنيشاد لم تظهر إلا في الفترة التي تتراوح ما بين القرنين العاشر والسادس ق . م . ثم رأت النور نصوص السوترا Sutra التي تعد جزءاً من الفيدانتا والتي ترتقي الى ما بين سنة ٤٠٠ وسنة ٢٠٠ تقريباً ، وهي سبقت بقليل الآثار الاولى للفن البوذي . ولكن نعود الى القول بأن هذه التواريخ ليست إلا تقديرية .

كما طغا الغزو الآري على كنه بلاد الهند العرقي السابق ، هكذا فرض هذا

الغزو لغته التي غدت بعد فترة قصيرة ، كما يظهر ، اللغة الكهنوتية : أعني السنسكريتية . ولا تزال قائمة عقدة معرفة لغة البلاد التي غلبت على أمرها . فهناك اعتقاد ، لا يرتقي إلى عهد بعيد ، بأن هذه اللغة تمت إلى اللغة الدرافيدية إن لم تكن شكلها الأساسي إذ لاحظ بعضهم وجود لغة درافيدية في عصرنا الحاضر في بلاد بلوخرستان ، أعني اللغة البراهوي Brahui التي تكتنفها من كل جانب اللغات الهندو - أوروبية ، وبعد أن فصت جحافل الآريين العرى بين هذه اللغة وأصولها ، غدت البراهوي شاهداً حياً على وجود لغة سادت ، قبل مجيء الآريين ، على جزء كبير من شبه الجزيرة الهندي .

وقد جلب الآريون معهم اللغة السنسكريتية ، لغة فيدا ، وهي تعد الفرع الهندي من المجموعة اللغوية الهندو - أوروبية . وفي النصوص الأشد قدماً (الريفيدا) تقدم لنا اللغة السنسكريتية الفيدية تشابهاً بارزاً مع لغة أفسسته الأبرانية ، تشابهاً يستمر ولو مجزئاً في النصوص الأخرى . ولكن يوجد اختلاف واضح بين اللغتين الفيدية والأفستية بسبب التجديدات . وفي هذا المجال كما في مجالات كثيرة أخرى وفقت الهند بين الجديد والقديم وألحقت لها الاستمرار معاً بما ولد تعقيداً يدعو غالباً إلى الدهشة .

و السبب هو نفسه الذي نجمه دوماً والذي يظهر خصائص الروح الهندية : فالسنسكريتية هي لغة كهنوتية تحصر مهمتها في التعبير عن فكرة موجهة ذات أهداف سحرية . فلشكل أهمية أكثر من المعنى ، وللمعنى السحري أفضلية على معنى الكلمات ، وتخضع الكلمات لترتيب رمزي معقد (ل. رنو L. Renou) . لذا نجد بكثرة التعابير القديمة وذلك حرصاً على عدم مس التقاليد مع ما هنالك من ضرورة ملحة للتجديد .

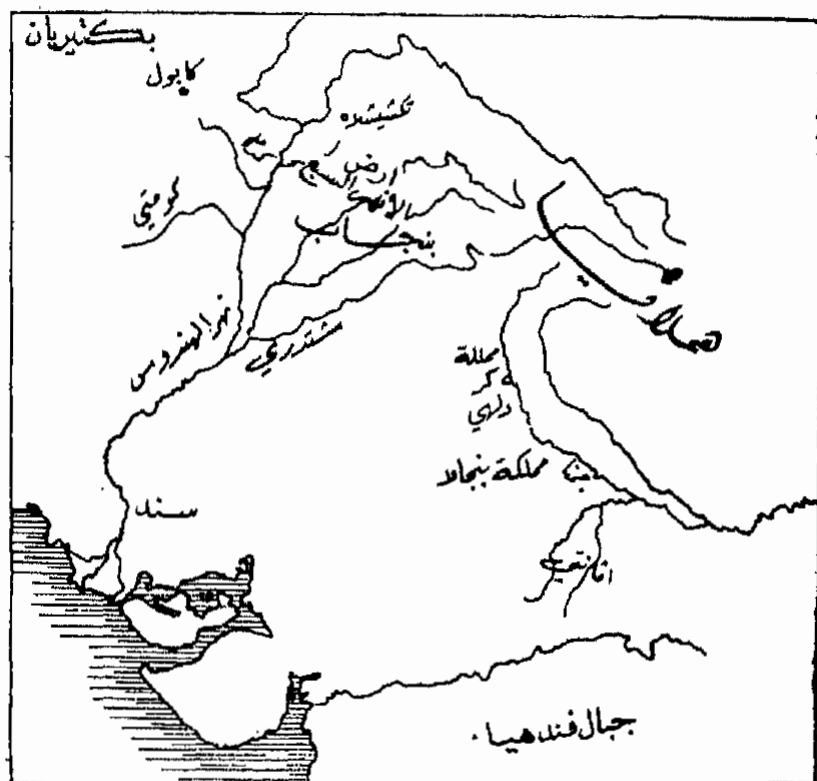
ولكن مع البرهانا تبدو اللغة السنسكريتية الكلاسيكية أكثر تحرراً إذ هي تستند إلى قواعد محددة وكلمات دقيقة المعنى جداً . ومع الاوينيشاد تقترب هذه اللغة أكثر وأكثر من اللغة المتداولة . ولكن تجددت على حالها اللغة التي تكونت وقد وصلت بنا على أشكالها القديمة .

وبصورة موازية للسنسكريتية نجد عدداً كبيراً من اللغات الكهنوتية أو العامية التي نشأت وامت وقد اشتق معظمها من السنسكريتية . ولكن احتفظ بلون محلي قد يكون أشد قدماً .

ويستعملون لكتابة السنسكريتية ٤٩ مقطعاً تحتوي على أحرف صوتية ونصف صوتية وغيرها ، وفي اللغة قواعد لتصريف الأفعال وأعراب الأسماء . وهكذا فهي تدخل ضمن إطار اللغات الهندو - أوروبية وهي من ثم على طرفي نقيض مع اللغة الصينية التي سنأتي على وصفها لاحقاً .

يبدو أن الشقاق حصل ما بين القرنين الثامن عشر والعاشر ق. م. على حدود هضبة إيران الشمالية - الغربية بين القبائل الهندو - أوروبية التي كانت قد

استوطنت تلك المناطق . وكانت تطلق على نفسها اسم الآريين Arya أو Airya . ولا يزال الجدل يدور حول أصلها . والنظرية التي تلقى اليوم رواجاً تأتي بالآريين من روسيا الجنوبية .



الشكل ٣٢ - الهند البراهمانية قبل سلالة الموريا

وقد وصلوا الى ايران باجتيازهم القفقاز ، ودخل الآريون الذين انشقوا عن الفرع الايراني الى الهند الشمالية - الغربية من منطقة ازربستان الحالية او من وادي كابل ، وقد استوطنوا أول الأمر في البنجاب وهم الذين دمروا مدن وادي الهندوس ، خصوصاً موهنجو - دارو وهراپا ، وحصل ذلك حوالي سنة ١٥٠٠ ق. م .

واستناداً الى المعلومات التي تحتويها أقدم النصوص الفيدية التي يرجع عهدها كما يظن الى زمن استيطان الاوروبيين في الهند ، فقد سكن هؤلاء أول الأمر في المناطق التي تمتد من أنهر كابل وسوات Swat ، والكرُمُ Krumu (كورام Kurram) ، والغومتي Gomati (غومال Gomal) ، وبلاد الأنهر السبع في الشمال - الغربي حتى أنهر سرسفي Sarasvati

(سرسوتي Sarsūti) ، وشندري Cutudri (ستلج Satlej) ، واليمنسا Yamuna (جينا Gama) شرقاً . وقد عرفوا شمالاً سلسلة جبال حملايا . وتذكر النصوص نفسها المحيط (سمدر Samudra) ، مما يحمل على الظن بأن الآريين عرفوا مجرى نهر الهندوس السفلي (السند Sindh) حتى مصبه الذي تخيلوه آنشد في درجة عرض أرقع مما هي عليه اليوم . ولم يتقدم الآريون الا قليلاً نحو الشرق اذ لم يذكروا نهر الغانج Gange الا مرة واحدة . وحصل تقدم الآريين في هذه المنطقة الجغرافية المحدودة لانتصارهم في الحرب . وبعد ان انهارت كل مقاومة للسكان الاصليين اجبر هؤلاء على الخضوع لسيادة المنتصرين وأصبحوا لهم من ثم عبيداً ، أو هجروا نحو الجنوب والشرق حيث سيخضعون للفتح الاوروبي في خلال القرون اللاحقة .

وبعد ان استقرت القبائل الآرية في منطقة البنجاب تألفت فكوئت أحزاباً ثم اتحدت وأسست ممالك ، ومن المعتقد بأن هذه الأمور لم تقم دون معارك داخلية . وحوالي سنة ٨٠٠ ق.م (?) حيث ازداد تقدم الآريين نحو الشرق حتى انتقل مركز الثقل من البنجاب الى دواب Doab ، أعني الى المنطقة التي تمتد من سرفتي الى ملتقى الغانج واليمونا . ولم يتم اخضاع هذه المنطقة عن تغلغل الروح الآرية الا قليلاً اذ اعتبر السكان الاصليون كأنهم يؤلفون طبقة (فرنا : لون) وضيفة جداً . وباستطاعتنا منذ هذه الفترة ان نتحدث عن الممالك الآرية ، وقد غدت دولة الكُرو (Kuru) أعظمها قوة وأشدّها مركزية . وقد تكون هذه المملكة قد أخضعت دولة البنكالا Pancala المجاورة وامتدت سيطرتها نحو الشمال - الغربي حتى وادي تكششلا Takshila (تكشلا Taxila) ونحو الجنوب - الشرقي حتى ملتقى الغانج واليمونا .

ومن المقدر بأن تكون القبائل الآرية المستوطنة بين مجريي الهندوس والغانج قد بدأت تقدمها نحو الشرق حوالي القرن السادس ، فتأسست إذ ذاك بعض الدول والممالك في مناطق دلهي Delhi ، و د بلاد الوسط ، (مدهيديشا Madhyadeśa) ، وفي اوده Audh (كوشالا Kōśala وفيدها Videha) ، وفي البهار الجنوبي Bihar - (مغدها Magadha) : وامتدت هذه الدول أيضاً جنوباً حتى جبال فنديا Vindhya وملكت معاً مدناً مهمة عدة منها كوسمي Kançambi على اليمونا وكامي Kaci (بنارس Bénarès) على الفرانافي Varanāvati .

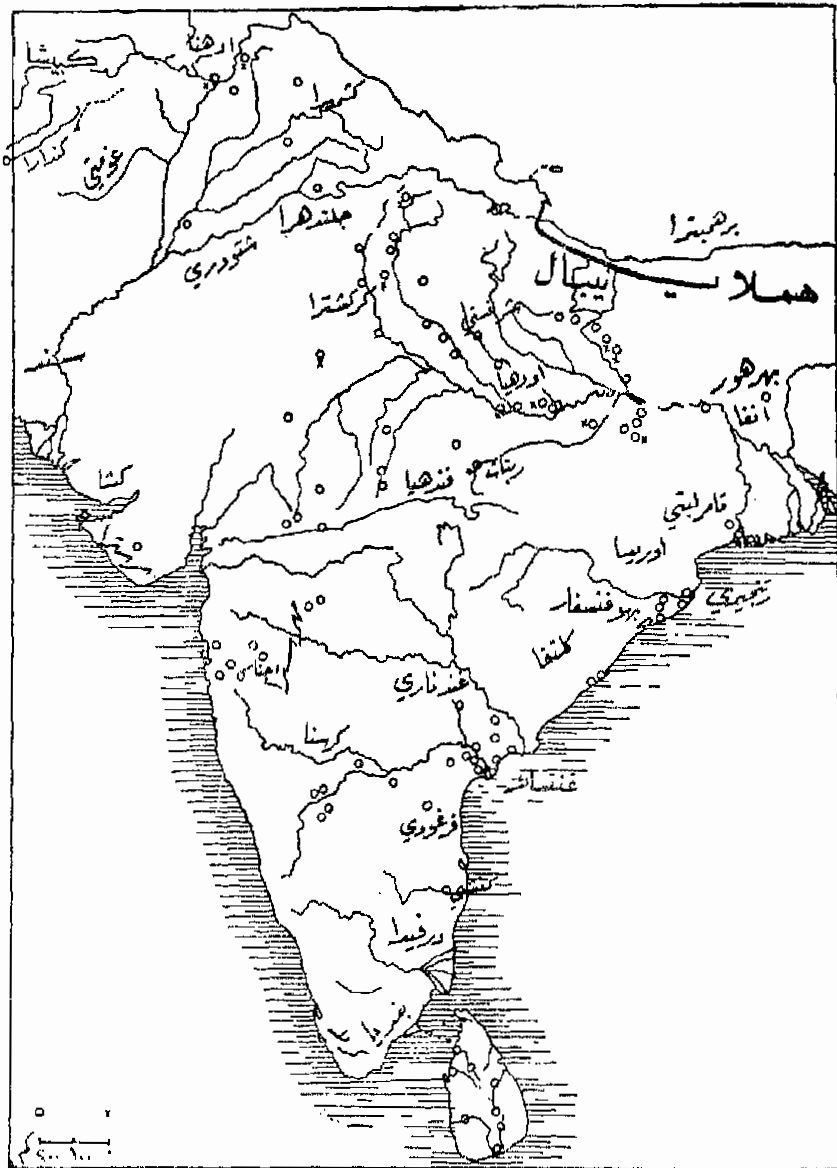
وبعد ان سعت مملكة الكُرو (دلهي) في العهد السابق لبطس سيطرتها حاولت الوصول الى الرئاسة ، وسعت للسيادة دولة مغدها (البهار الجنوبي) وكانت قد تشربت أقل من المناطق الغربية الروح الآرية وبقيت متصلة فيها الخصائص الوطنية الأصلية حتى اعتبرها الآريون منطقة شبه بربرية . وأخذت على عاتقها الاستيلاء على حوض الغانج في الفترة التي تقراوح بين القرنين السادس والرابع . وفي هذا الوقت تغلبت سلالة الششناكا Cishnaka الآتية من أفانتي Avantti (أعني من مملكة العهد الآري السابق التي تقع في أقصى الجنوب) على سلالة البرهمدرا

Brihadrātha السبي لا نعرف عنها في الواقع أي شيء . وأخضع ملوك السسوناغا - ولا نعرف جيداً منهم إلا الملكين بيمبيسارا *Bimbisāra* (٥٣٨ - ٤٨٦ ؟) وأجاشاترو *Ajātaśatru* (٤٨٦ - ٤٥٤ ؟) وذلك للدور الذي لعباه في الأدب البوذي - البنغال ومنطقة كاسي (بنارس) وكوسالا (اوده) وقيدها (بهار الشمالي) . وبعد ان سيطرت مملكة مغدها على منطقة واسعة يؤلف مجرى الغانج بحورها نقلت عاصمتها من راجغريها *Rajagriha* الواقعة في البهار الشمالي الى باتلبترا *Pataliputra* (بتنا *Patna*) على ملتقى السون *Sone* والغانج . وفي أواخر القرن الرابع ق . م . استبدل السيسوناغا على عرش مغدها بالنندا *Nanda* . وسيتابع هؤلاء العمل التوحيدي ويستفزع عنهم الموريا *Mauya* الذين سينجحون حوالي سنة ٣٢٠ بتأسيس أول امبراطورية هندية .

وبينا كانت مقاطعات الهند الآرية الشرقية تسعى لتنظيم نفسها واكتساب وحدتها ، غدت المقاطعات الغربية عرضة لتهديد غزاة جدد: اذ أخذت الامبراطورية الفارسية على عاتقها إخضاع المقاطعات التي على حدود مملكتها وذلك أيام كورش (٥٦٠ - ٥٣٠) الذي استولى على كابيشا *Kapisa* (منطقة كابول) ثم زمن داريوس (٥٢١ - ٤٨٦) الذي ضم الى ممتلكاته الجديدة غندهارا *Candhāra* (منطقة بشاور) ومجمل بلاد بنجاب الوسطى حتى بياس *Bias* ، وأخيراً السند ، وأصبحت هذه الحوادث بدء عهد اضطرابات أبقت مناطق الهند الشمالية - الغربية زمناً طويلاً على هامش الحياة الهندية السياسية الحقيقية ، إذ دامت السيطرة الفارسية زهاء قرنين وأعقبها تدخل جديد هو غزو جيوش الاسكندر الكبير (٣٢٧ - ٣٢٥) الذي سنأتي فيما بعد على دراسة نتائجها (انظر وجه ٦٠٧) .

لذا نستطيع ان نعتبر حكم الملك بيمبيسارا ذا أهمية إذ يكرس توحيد مناطق شاسعة في الشرق بينما يخلق انشقاقاً اجبارياً في المناطق الغربية تلسرب مرة ثانية من خلالها التأثيرات الايرانية كما حصل ذلك عندما أتى بها الآريون أنفسهم . ولكن يحمل هذا العهد أيضاً طابع حوادث دينية وروحية واجتماعية ستستمر نتائجها وقتاً طويلاً إذ حصلت تغييرات أساسية في الديانة الفيدية بتأثير البراهمة الذي تزايد مع الزمن . وبمناسبة هذه الحوادث ظهر تشريع حصر الجماهير في فئات وطبقات . وفرض البراهمة مبادئ روحية صارمة أخذت تحد من حرية الأخلاق . وبالاختصار فان مجموعة الحوادث التي تتكون منها الحضارة الفيدية أخذت تتطور نحو تشريع شكلي أوجب سلسلة من « الاصلاحات » . وتعددت المذاهب ، يعرض كل منها وسائل مختلفة تتعلق باحترام التقاليد والكهنة ونيل التحرر ... وفي عهد ملك بيمبيسارا ظهر رجلا ن يعملان لهدف واحد : شاكيمني *Cakya* الذي أسس الديانة البوذية وذاك الذي يطلقون عليه اسم مهابيرا *Mahāvira* ، مؤسس المذهب الجايني *Jainisme* . وقد وجد كل من هذين المصلحين العقول الهندية مستعدة لقبول تعديل فكري بخصوص المسائل التي كانت تطرح

عليها بقوة متزايدة ولكن علينا ان لا نرى في هذه الاتجاهات المختلفة - ان انتمسبت الى الديانة



الشكل ٣٣ - الهند في عهد سلالة الموريا

القيدية القديمة او الى المبادئ البوذية والجانانية الجديدة - ثورة دامية تستند الى حرب مقدسة ، بل على عكس ذلك فهي تفتح وتوسع للمشاكل الروحية والميثافيزيقية التي تستوجب قواعد حياة تلتئم

أكثر فأكثر مع متطلبات الفرد. وهذه المشاكل كانت دون شك أساس تحرير التعليقات والشروح (البرهمانا) والدروس ذي الصبغة السرية (الاوبنيشاد) التي زيدت على نصوص العهد السابق الفيدية، وهي التي مهدت السبل أمام شاكيمني وأعدت له تجاوباً لدى الأمة للمبادئ الخلقية التي كان يبشر بها، هذه المبادئ التي اتخذت لها أسماً محبة جميع الكائنات، وعلينا ان نتخيل اذن هذا العهد - الذي يشمل تقريباً القرنين السادس والخامس - كطور يقظة روحية حقيقية تسير جنباً الى جنب مع مساع حثيثة نحو الوحدة السياسية واتصالات أكيدة مع الغرب . ومع هذا علينا ان ننتظر ردى من الزمن قبل ان نشهد التناقض الحقيقي بين التقاليد الفيدية والبوذية . ولا يظهر في هذه الفترة الاختلاف العميق بينها إذ لا تزال البوذية في مستهل عهدها ، وهي تعتبر مجموعة مبادئ روحية أكثر منها دينية ولا تنفي من ثم الزون الشعبي كما لا تتنكر بأي شكل لأسس الحياة التي كانت مقبولة . ولن تظهر هذه الاختلافات بوضوح إلا في القرون الاولى للعهد المسيحي عندما يجعل منها تحرير النصوص البوذية وتفتح الفن البوذي مادة ملموسة . ومع هذا تبقى هذه الاختلافات متسمة بالطابع الديني والاجتماعي دون المادّي .

الفصل الثاني

الحضارة الهندية قبل عهد الموريا

عندما دخل الآريون الى مقاطعات الهند الشمالية - الغربية - بين سنتي ١٦٠٠ و ٨٠٠ ق. م. - وجدوا هناك سكاناً أصليين استرعت انتباههم خصائصهم العرقية ، إذ تنافت جداً ولا شك مع طباعهم . فقد كان لهؤلاء السكان بشرة دكناء ، وجعل منهم هذا اللون (قرنا Varna) أشخاصاً محترقين في نظر غزاة بشرتهم ناصعة البياض . وكان أنف السكان الأفطس على طرفي نقيض مع أنف الفاتحين الأقنى ، وتكلموا لغة « معادية » أعني لغة لا يفهمها هؤلاء . وأطلق عليهم سادتهم الجدد اسماً شاملاً هو « الدرافيديون » ولكنهم حملوا أسماء في غاية الغرابة : آجا (الماعز) ، سفرو (فجعل حريف) ، دازا Dasa او دازيو Dasyu ، باني Pani . وكان اسم دازا من الاسماء الأكثر شيوعاً ، وأصبح له في العالم الآري معنى في غاية الخطأ أي عبد (الموث : دازي Dasi) . ولا نعلم إن كان اسم الماعز والحريف يدلان على نظامين قد زالوا هما المبدأ النباتي Végétalisme والمبدأ الذي يعمل من الحيوان جد الخليفة (الطوطمية Totémisme) . ومع هذا فإنا نعلم بأن الدرافيديين كانوا يقيمون حياة الرعاة . ويصطادون الجاموس والأسد بالقوس والنبال ، ويحتمون وراء أسوار تعززها كوم من التراب والأوتاد . ونعتقد بأنهم كانوا يمارسون ديانة خاصة Phalique مع أن معرفتنا في هذا المجال محدودة جداً .

ويظهر أن دازا الذين استوطنوا السهول اعتصموا عند زملائهم الجبليين وقاوموا بشراسة الآريين مدافعين بكل ضراوة عن مساكنهم وأسوارهم المنيعه . ومع أن إخضاعهم غداً مراراً صعباً جداً فقد أحوال الغزاة رجالهم الى عبيد واتخذوا من نساءهم خليات . ومع أن الآريين يتفخرون غالباً بأنهم أخضعوا مناطق أعدائهم بالقوة - ولنا أدلة تحملنا على صدقهم - فلا يظهر بأنهم عاشوا بحالة حرب متواصلة مع السكان الأصليين ، إذ نقف على حالات تزواج بين الفريقين مما يثبت بأن الفاتحين في ذلك الطور القديم لم يشعروا - كما سيحدث فيما بعد - بضرورة الحماية من شرور التزاوج الخلاسي المنتظرة .

١ - خصائص الحضارة الفيدية

ان ابرز خصائص هذه الحضارة هي الحياة الزراعية المؤسسة على قوة الذبيحة المستندات
الإلهية الفاعلة . ان عناصر ثروة السكان الأصليين وسادتهم الآريين تقوم
خصوصاً على نتائج القنص والزراعة وتربية المواشي . وعلاوة على القوس والنبال استعمل
الآريون فأساً من النحاس ، ولجأوا الى الفخاخ والحفر للايقاع بالطريدة الكبيرة (الفيل ،
الأسد ، ثم النمر) والى الكلاب لاكتشافها والى الخيل للحاق بها ، كما استعملوا الشباك لاصطياد
العصافير . ويظهر بأن صيد الأسماك لم ينتشر الا في عهد البراهمة ، ومع هذا فان الأنهر وبحاري
المياه التي عاشت بقرىها القبائل الآرية الاولى كانت قليلة الاسماك .

وغدت الزراعة أهم أعمالهم . وتألفت قطعان الماشية من الابقار الحلوبة والثيران والمعجول
والاغنام والماعز . ولجأوا الى كلاب الحراسة لجمع القطيع ، وقاموا بهذا العمل مرة أقله في النهار ،
عند الظهيرة . وكانت البقرة منذ البدء حيواناً شبه مقدس اذ غدا قتلها وأكل لحما محرمين ، وقد
حلبوها ثلاث مرات في النهار . واستعمل الثور لجر العربات ولأعمال الفلاحة . وجمعوا شعر
الماعز للنسيج . وادخل الحصان بعض المزارع ضمن حيوانات القطيع واستعملوه للحرثة ولجر
العربات عند القيام بالأعمال الطقسية ، وكانوا يمتلونه ولكنهم لم يستعملوه في الحرب . ولم يصبح
الفيل أليفاً الا منذ عهد البراهمة وغداً من ثم خير مساعد للسان ولم يستعملوه في ذاك الوقت
في الحرب . ولا يظهر بأنهم جمعوا من الهر في ذاك العهد حيواناً داجناً . وغدا القطيع ملكاً
مشاعاً يجمعونه في بعض الحقول المسيجة وينزلونه معهم في البيت .

وقد أعمل الحرثة - وللحرثة اسم مشترك بين الهنود والايانيين - بواسطة محراث يحجره
خروفان . ومع انهم زعموا في عهد البراهمة بأنهم يستطيعون ان يشدوا الى المحراث ٢٤ ثوراً
فان هذه الآلة لم تتطور كثيراً خلال القرون اللاحقة ، اذ ثبت رسوم هذا المحراث التي ترتقي
الى القرن الثاني ق. م . (وهي أقدم زميلاتها) حالة هذه الآلة البدائية . ومنذ أقدم العصور
اعتنوا بري المزروعات . وكانت أعمال حفر قنوات الري وصيانتها أعمالاً مشتركة . وفي وقت
لاحق أضيفت خزانات المياه الى هذه القنوات . وابتداء من عهد البراهمة ، وكان قد توغل
الآريون في مناطق بلاد الوسط الأكثر خصباً ، عرفوا مبدءاً تسميد الاراضي واستثمار التلمي
والانتفاع من الرياح الموسمية الخيرة .

وشملت المزروعات في أول الأمر الشعير (?) (يافا Yava) ، لتمتد فيما بعد الى الارز
والقطن الذي غدا منذ ذاك اليوم أساس أعمال النسيج . ثم تطورت المزروعات وتزايدت فشملت
الحنطة ، والحمص ، والسسم ، وقصب السكر ، وأنواعاً عدة من الخضار والزهو والثمار . ولا
نعرف شيئاً أكيداً عن مزروعات الأشجار المثمرة ، ولكن نجد ذكر صنفيين للتين وهما تين لن

Ficus religiosa Linn وتين روكسب Ficus indica Roxb

وتتألف مواد التغذية والحالة هذه من حبوب قد تحول الى طحين ، وحليب ، وسمين ، وعسل ، وخضار ، وثمار ، وحتى عهد البراهمة ، ولحوم (تيس وضأن وثور وحصان) ، اذ لم يحرم اللحم الحيواني الا حين أصدر البراهمة قانوناً صارماً بهذا الخصوص . وهناك نوعان من المشروبات المسكرة : السوما soma ويستخرجونه من نبات ايراني الاصل لم يحدد بعد ، ويستعملونه عند تقديم الذابح - والسورا sura يستخرجونه من نباتات عدة يشربه الشعب وان كان شبه محرم .

ولم تنتشر التجارة في أول الامر ، ولكن سرعان ما ازدهرت . وقد سهلتها اقامة طرق للعربات بنوها بصورة مشتركة وبنوا عليها منازل تستعمل كلاجئ للسافرين في مختلف المراحل . والتنقل كثير الشيوع يقوم به الشعاذون والبراهمة والتجار . وقد ألفت هؤلاء نقابات وتجمعا ضمن قوافل تنتقل على الطرقات والممرات وتصل المدن الرئيسية بعضها ببعض وتنقل من منطقة الى أخرى الاقمشة - القطنية الموصلية والمزركشة والحريية - والطنافس والعقاقير والروائح والخطى والاسلحة والسكاكين . وقد تقوم هذه القوافل برحلات طويلة فتوطد من ثم العلاقات مع المناطق التي تجاور الهند خصوصاً الاسواق الافغانية والارانية . وتجري التجارة في المدن في دكاكين صغيرة خشبية تفتح للجمهور او في الاسواق . وكثيراً ما يأتون على ذكر تجار أغنياء مما يثبت ازدهار التجارة . وتوجد أيضاً التجارة النهرية وهي تستعمل قوارب لها من الاهمية ما يوجب استعمال جذافين ومدير دفة .

ويعتمد القانون التجاري على المقايضة ، وقد مثلت وحدة التعامل في البدء البقرة وحليّة (نيكشا Niksha) من الذهب والفضة ، ثم استعملوا للوزن نوعاً من الآلات (كرشنالا Kirshnala) وصفيحة أو قطعة من الذهب (ستانا ستانا) تساوي مئة كرشنالا . وعرفوا « المفاصلة » والدين والقرض . وأتوا على ذكر تجار جشمين ومرايين ، كما تكلموا عن الفائدة التي تتراوح بين ١/١ و ١/٢ . وعقد الاتفاق أمر عادي يحيطونه بنوع من الافعال الطقسية . والدين الذي لا يسدد يعرض صاحبه لعقاب صارم : اذ قد يحكم على من يستدين بالعبودية أو بالعذاب .

وتقوم الصناعة على الصناعات الريفية . والصناعات المذكورة هي قليلة العدد في أول الامر : فالنسج تنسج القطن وشعر الماعز ، وهي تخطط وتطرز وتصنع الفرش ؛ ويصنع النجارون الآلات الزراعية والعربات وعجلات الحرب ويعدون الاخشاب ؛ ويشغل الحدادون في معادن النحاس والبرونز والحديد ، كما يعد الدباغون الجلود . وتتألف النقابات بطريقة مطردة ويصبح لكل منها اختصاص استناداً الى المواد المستعملة : فالنجارون والنقاشون يستعملون الخشب ، ويذيب الحدادون والصاغة معادن الحديد والنحاس والقصدير والرصاص والفضة (وكثيرها نادرة) والذهب (وكمياته كثيرة جداً) ويصنعون منها الاشياء المختلفة ، ويستعمل اخصائيون العاج لصنع الاقواس والنبال . وتكون الآلات من خشب ولحاس وحديد . ونجد منها أخرى

كثيرة : فهناك الفلاحون والخبازون والنجارون والصباغون والفستالون والنساجون الخ . ويكثر جداً الملاحون والمانجمون وكهنة الضيغ . إذ لا غنى عنهم في كل أعمال الحياة ذات الاهمية . وكذلك العملة المستقرة . هم القباصون والصباغون والمحامون وكل الذين توجب عليهم أعمالهم قتل الخيوانات . (خصوصاً في الدول الشرقية) . وطبعاً هناك الرعاة والفلاحون ، كما يلجأ القوم الى الخواص والرسول ، ويذكرون طائفة من المهن التي لا يستقر أصحابها والذين يأخذون على عاتقهم التسلية والترفيه عن الغير : كالفراج والبهوان والممثل وناقر الدف والضارب على الزمارة . ويتوارث القوم أغلب الأحيان هذه المهن وقد نجد قرى لا يكنها الا الذين يتعاطون ذات المهنة . ولكن هناك صناعات بصورة عبارة يكونون عبيداً ويسمح لهم بالعمل ليستطيعوا تحرير ذاتهم وذلك من ثمره انتاجهم .

ومن المحتمل أن تكون الحرب أيضاً سبب ربح ، خصوصاً لافراد طبقة الراجانيا ثم الكشتريا الذين يهيئون على المجتمع الفيدي . ويرافقهم صناعيون وفلاحون سيحل محلهم فيما بعد الجنود المرتزقة . ولكننا لا نملك معلومات تفيدنا عن كيفية اقتسام الغنائم .

٢ - الحياة الاجتماعية

تستند هذه الحياة الريفية والزراعية على المجتمع القروي الذي يلتصق الى ما يدعونه المجتمع بالامرة الابوية والذي يشمل مسج هذا أثاراً من نظام الاسرة المنتسب الى الام . وتستند اهم أعمال هذا المجتمع الى الذبيحة . ومع انه منذ البدء اعتبرت فئتنا الكهنة (البراهمة) والمهاريين النبلاء (الراجانيا والكشتريا) الطبقتين الحاكمتين فلا يظهر مع هذا بأنه كانت هناك دقة كبيرة في تقسيم المجتمع منذ أول العهد الفيدي . ولكن حصلت في وقت لاحق تجزئة أوضح وتكونت فئتان أخريات ، طبقة « الرجال الاحرار » (الفيشيا) وطبقة العبيد (الشودرا Sudra) . ومع هذا لم تكن هناك طوائف محددة المعالم تفصل بينها حواجز منيعة كما سيحصل في العهود اللاحقة . ويصدق هذا بصورة خصوصية في الدول الشرقية حيث تغفلت الروح الآريسة بصورة سطحية . وقد كان لهذا العامل ولظهور البوذية الاثر في تخفيف قسوة المبادئ البراهمانية الحقيقية .

وتتصل الفئتان اللتان توجدان على رأس المجتمع - طبقتا رجال الكهنوت والنبلاء - بمرى وثيقة وتتمتعان بجزية كبيرة . ويستطيع البراهمة والكشتريا ان يتخذوا لهم مهنة الزراعة أو التجارة ، ويهتموا بقطعان المواشي أو بالقرافل ، وينقشوا على الخشب الخ ويستطيعون أيضاً ان يتخذوا لهم زوجات ينتمين الى فئات دونهم شرفاً ، حتى ان كن من طبقة العبيد . ولكن لا يتعاطى البراهمة غالباً الا الاعمال الطقسية ، وهذا مما يقوي سيطرتهم لانه يتعذر على أي كان الاستغناء عن خدماتهم اذ ترافق حتماً الذبيحة كل عمل مهم ان كان في مجال الحياة الشخصية أو الرسمية . فالبراهمة ورجال الامور المقدسة هم الكهنة المستديمون ، وهم يديرون الاعمال

الطقسية ويتقاضون نصف الاعقاب بينما يتقاضى النصف الآخر الذين يقومون بالأعمال الطقسية بصورة عابرة؛ وقد يختص كل منهم بعمل أو بعدة أعمال . وهم يقومون في القرى بدور الطبيب الساحر . ومن بينهم ينتخب كاهن الملك (البروهيت) الذي يصبح له المركز الديني الاول . واذ يعينه الملك يصبح مرافق العاهل في جميع تنقلاته لا بل يذهب معه الى الحرب ، ويتلو الصلوات ويتم أعمال الرقي ليضمن للملك النصر أو النجاح في الأعمال . انه ينظم أفعال العبادة ، ويرأس الحفلات الطقسية ويقبل الهبات . ويمتحن غالباً براهمة القرى مهنة قت الى بعض الاشكال الطقسية ، كمنة الحلاق والمنجم والفصال الخ ؛ وتبسة اليهم يوجد نساك وزهاد عديدون أخذوا على عاتقهم بث الدعاوة البوذية في الدول الشرقية منذ بدء انتشار تلك الديانة .

والكثثرياء هم المحاربون الاشرف ، يتعاطون الادارة والسياسة ويساهمون في المعارك ويكونون عادة طبقة الملاكين العقاريين في البلاد . وينتمي الملك الى هذه الفئة ومنها ينتخب نسبة لحقوفه الارثية والعائلية . وينتخب الشعب العاهل أو أقله يقبل به ، اذ لم يتوج الكهنسة الملك الا في زمن لاحق . وتنحصر مهمة الملك الاولى في الدفاع عن أفراد الامة والقيام بأود طغمة من رجال الكهنوت يقفون نفسهم في خدمته وخدمة شعبه ؛ وهو يستثمر أملاكه التي تتألف من غابات و « أماكن صحراوية » لذا يفرض الضرائب بواسطة الآخرين . وبما انه كان رئيس قبيلة أو جماعة أخذ يهيمن وسيطر بصورة مطردة ويعزز سطوته بالذبايح العظيمة كتقدمة الحصان (اشغميها) وبخجلة تتويج زاهية (راجوي) ؛ وهكذا توطدت منذ البدء صفة الملك الإلهية .

وتشمل فئة الرجال الاحرار الفلاحين والتجار والصناعيين . وان توصل بعض منهم الى جمع ثروة طائلة فانهم يقفون مع هذا عرضة للضرائب والتسخير اذ هم فلاحون عند الكثثريا ، يقدمون لهم الغذاء ويرافقونهم في الحرب . ويكون التجار والصناعيون نقابات يصعب رؤساؤها غالباً أصدقاء النبلاء .

والفئة الاكثر احتقاراً هي فئة العبيد ، وقد شملت في البدء دون شك احفاد السكان الاصليين الذين غلبهم الآريون على أمرهم . ويضاف اليهم الافراد الذين حكم عليهم لعدم تسديدهم ديونهم ، أو أفراد آخرون أبدلت عقوبتهم بالرق ، أو أسرى الحرب أو حتى رجال تخلوا ببلد ارادتهم عن حقوق طبقتهم واعتبروا أنفسهم عبيداً رغبة في التكفير أو قهر النفس . والسودرا هو كائن دنس من طبيعة نفسه يمكن جرحه أو حتى قتله . ولا يحق له دراسة الفيدا أو تقديم الذبيحة ، ولكن قد يجمع ثروة من عمله فيسمح له اذ ذاك بتحرير نفسه . ولكن يلجس المرء من خلال هذا التنبذ والخنوع الذي قد يؤدي الى الموت ذكرى المعارك المريرة التي خاضتها القبائل الآرية ضد السكان الاصليين في أيام الفتح .

وهكذا مع ليونة هذا النظام الاجتماعي نشهد عاولة صريحة لتقسيم المجتمع حسب الأعمال

والمن ، هذا التقسيم الذي يستند الى الضرورات التي تفرضها طقوس العبادة ، وهكذا نرى بان مبادئ الحياة الاجتماعية الهندية أصبحت على وشك اكتساب كل الخصائص التي سنشهدا لها في العهد اللاحق .

يستند هذا المجتمع الى نظام ملكي متكافئ فيه ثلاث سلطات : سلطة الملك ، وسلطة الدولة رجال الكهنوت ، وسلطة الشعب . ويخضع الشعب والكهنة للملك ولكن بصورة غير مطلقة . وهناك عدد من الموظفين الكبار يؤخذون من طبقة الكشترية ، لا بل من فئة الفيسيا مراراً : قائد الجيش (سيناني) ، شيخ القرية (غرامني) الذي يصبح كنائب الملك ، أمير الأخور ، المنادي أو الشاعر (السوتا) الذين يكون لهم سلطة قضائية . وللشعب كلمة في الحكم . وهو يجتمع في مكان خصوصي ، تحت أشجار القرية أو في مرادق سقفه من عشب . ويحتوي مجلس الشعب هذا على الشباب والشيب ، أفراد القبائل وسكان القرى . وهو يمين مجلس الشيوخ ولجان تحكيم تتخذ القرارات بإجماع الاصوات .

وتقسم المملكة اداًرياً الى غراما (القرية وجماعة مسلحة) ، وفيس (كور أو قفخذ قبيلة) ، وجانا (قبيلة أو مجموعة كور) . ولكن هذه المعلومات هي عرضة للتغيير والتبديل ولا نعث في النصوص الا على القليل من الأوصاف التفصيلية بهذا الخصوص .

أما السلطة التنفيذية فهي منوطة بالملك ، وقد يصدر بعض الأحكام مجلس شعبي (سبها) . ولا نجد شيئاً واضحاً للنظام القضائي ، ولا يأتون على ذكر بعض العادات التي ستسود في وقت لاحق كامال الأيون المسنين ، والتخلي عن البنات ، وجمعيات التحليلات اللواتي ينتسبن الى أصل شريف ، ومع هذا فهم يمارسون الدعارة . وتخضع الجرائم للعقوبات التي يفرضها وينفذها الشخص الذي هضمت حقوقه دون أن يستطيع مع هذا الحكم بالموت . ويقدر ثمن دم الانسان بمئة بقرة عندما تحدث جريمة قتل ؛ ولكن في عهد البراهمة تغيرت هذه القوانين تبعاً للطبقات . وهم يعددون لوائح للجرائم دون أن نعرف مع هذا بصورة دقيقة العقاب الذي يتناسب مع كل منها . وفي بعض الأحيان كان يأمر الملك بتعذيب جسافي . وهم يعاقبون على السرقة والخلع واللصوصية والدين . وتكثر سرقة الماشية حتى انه يوجد أشخاص اخصائيون للبحث عن الحيوانات المسروقة .

ان الامرة هي أساس المجتمع الفيدي ، وتخضع الاسرة لسلطة رب المنزل الذي عليه ان يمارسها دون شراسة . وله الحق بتأنيب أولاده وتقرير زواج بنيه وبناته . وهم يفضلون ولادة الذكور ويستمدون لها بسلسلة من الطقوس تحت صراحة الى السحر . وعندما يولد الطفل يشعلون له ناراً خصوصية ويقدمون هدايا من السمسم والأرز مدة عشرة أيام ، وينفج فيه الوالد النفس ويخضعونه للحمام ثم يطلقون عليه اسمين : الاسم العادي والاسم السري الذي لن يكشفوه له بعض المرار الا في وقت لاحق عند حفلة الاثراك . وعندما يبلغ الثالثة من عمره

يقص له الخلاق شعر رأسه لأول مرة حسب الشكل الذي يختص بأسرته . وعند تنفيذ هذا الأمر يقيمون حفلة يطمرون فيها الشعر بعد ان يخلطوه بالأعشاب وزيل البقر . وعندما يبلغ الفتى السادسة عشرة من عمره يعيدون نفس الطقوس عند حلقة لحية ، وهذه الحلقة هي رمزية فقط اذ يبقى رجال العهد الفيدي على لحيتهم بكاملها .

وعندما يبلغ الشاب سنًا يختلف باختلاف الطبقات والظروف يعهد به الى مرب . وقيمون بهذه المناسبة حفلة تكون مقدمة لحفلة الانسراك الدينية ، وعندئذ يدخل الشخص في مرحلة جديدة من الحياة . وعليه ان يسهر ليلتي نار الاسرة مشتعلة ، ويشهد قوت معلمه وقوته ، ويفترش الأرض ، ويحافظ على العفة ويطيع طاعة عمياء ويمتنع عن أكل بعض الأطعمة . وتقام حفلات طقسية اثناء حياته الدراسية في بدء ونهاية الفصول . ولم تحدد مدة هذه الدراسة . وعندما تنتهي يستعد الشاب للعودة الى أسرته ، فيستحم ويعتق من نذور الدراسة وي طرح أمتعته في الماء ويلبس ثياباً جديدة ، ويصبح اذ ذاك أهلاً للزواج ويقوم بدوره بأعباء ومسؤولية رب المنزل .

ويستند الزواج في العهد الفيدي الى انتخاب متبادل يحرمه الزوجان وهناك أسباب جدية بالاحترام تجذب الزوجين الواحد نحو الآخر . وقد رأينا بأنه يجوز عقد قران شخصين يتيمان الى طائفتين مختلفتين ، ولدينا أمثلة عدة تثبت بأن والده بعض الشخصيات كانت من طبقة العبيد ، دازي اوسودرا . ومع هذا غدا من المستحب في زمن البراهمة ان ينتخب الزوج زوجه من الطبقة التي ينتمي اليها . وتقع على عاتق الوالدة مسؤولية إيجاد زوج لابنتها ، وهي تقدم لها النصيح في هذا المجال وتشرف على زينتها لتجعل منها فتاة يرغب فيها أكثر وأكثر . وعلى طالب الزواج إذن أن يكسب عطف حماته المستقبلية ، ويتوجب عليه علاوة على ذلك أن يدفع لوالد خطيبته ثمناً كما لو كان يبناعها الشلكا (*ulka*) أي مئة بقرة وعربة . ولا نعلم ان كان هذا الأمر أصبح عادة أو غدا فقط شبه عقد . وكثيراً ما يشاهد الخطيب خطيبته دون أي قيد . وترتدي الفتاة ثياباً جميلة لتروق أكثر في عين من سيصبح لها زوجاً ، وهي لا تنام ملء عينيها ليلاً بانتظار مجيئه ولا يفترقان الا عند الفجر . ويعتبرون هذه الاجراءات كطقس يسبق الزواج . واستناداً الى هذه المعلومات فلا يجري الزواج الا بين شابين بلغا أشدهما وهما في ريعان الفتوة ، ولا يذكرون حتى هذا التاريخ — الاحادئة يخيم عليها الشك — زواجا يجري بين ولدين ، هذا الأمر الذي سيصبح عادة فيما بعد .

ويسير جنباً الى جنب نظام الزوجة الواحدة مع مبدأ تعدد الزوجات الذي لا ينفذ على كل حال الا لدى الطبقات الحاكمة . ولا يذكرون نظام تعدد الأزواج ، ولكن من المحتمل ان يكون قد عمل به في وقت سابق لهذا التاريخ اذ يجدون ذكره في بعض القصص الخرافية الإلهية . ويظهر بأنهم قبلوا في زمن متوغل في القدم بمبدأ نكاح الوالد لابنته أو الأخ لأخته ، ولكنه حرم في العهد الفيدي ، كما حرمت هذه العقيدة الزواج بين ذوي القربى في الدرجة الثالثة والرابعة .

ويسبب الزواج سلسلة من الحفلات الطقسية . ويحدد تاريخ النكاح بكل دفعة استناداً الى ارشادات المنجم . وعندئذ يرسل الخطيب رسلاً الى حميه المتيد . ويمتدح هؤلاء الخطيب واسرته ويتممون العقد . ويقودون بعد ذاك الخطيب الى بيت الفتاة وسط جمهور من النساء حيث يستقبلونه بمظاهر الحفاوة والتكريم كما يستقبلون زائراً مرموقاً . ويقابل الخطيب خطيبته ، ويقدم لها بعض الهدايا التقليدية (الثياب والمرآة) . وبعد ان تقدم الفتاة قرباناً من الحبوب المحسنة يرافقه الخطيب في جولة تستغرق سبع خطوات وهو ممسك بيدها وقد عقدت معها ثيابها . وهذا ما يكرّس تلك الخطيب لخطيبته . ويرمز العمل الذي سنأتي على وصفه الى تخلي الفتاة عن اسرتها . فهي توضع في عربة أو تعلقو جواداً أو فيلا ويقودونها بموكب نحو بيتها الجديد ، ترافقها نار طقسية تصبح نار اسرتها . وهي تدخل المنزل دون ان تمس عتبته ، ثم تجلس وتضع على ركبتها ابن امرأة لم تلد الا ذكوراً أحياء . وفي الثلاثة أيام التي تلي يحافظ الزوجان على العفة بكل حرص . ولا تبتدىء فعلاً حياتها المشتركة الا في اليوم الرابع بعد ان يقوموا ببعض التقادم التكفيرية .

ان الزوج هو السيد مبدئياً ولكن للمرأة مع هذا دورها الهام . وتشير كل الكلمات الفيدية التي تدل عليها الى افوتها وقدرتها على انجاب البنين وعاطفتها الوالدية . والزواج هو النهاية الطبيعية لحالتها ويصبح البيت الزوجي مستقرها اذ يستحيل على الزوج القيام بالطقوس العائلية والبيتية ان لم تكن الى جانبه . وان كان دور المرأة في هذا المجال سلبياً فهي تصبح مع هذا الكاهنة في بعض الحفلات الزراعية ان لم يكن لها زوج .

ولا تتوافق المعلومات التي لدينا عن شأن المرأة في العهد الفيدي . ولا يظهر مع هذا بأنهم أساؤوا معاملة البنات . فمن قبل زواجهن يساعدن الوالدة في القيام بأعباء المنزل ، ويحلبن الماء من الآبار بواسطة جرار يحملنها على رؤوسهن ، وينسجن الثياب ويطرزنها . والزواج هو سدرة الأمل عندهن ، وان لم يتزوجن يبقين عند والدهن ويعتنين بشؤونهن . والأخ هو حامي شقيقته ، ويتحدثون بسخرية أو بحسرة عن « الابنة التي لا شقيق لها » . فالابن هو الذي يرث الوالد ويمارس سلطاته . ومع هذا نجد بعض النصوص التي تشير الى عوانس عرفن اليتيم وورثن الأملاك الوالدية . وقد فضلهم القانون على الأولاد المتبنين أو غير الشرعيين . ولا نعرف معرفة بيئة اشكال الملكية . ويظهر بأن ثروة الأسرة استندت على ملكية الأراضي التي كانت تخص كما يبدو الوالد . وقد تكون أيضاً مشتركة تضاف اليها الممتلكات الخصوصية التي تشمل المواشي والأسلحة والحلى ، وقد تنقفت بعض النساء ثقافة عالية جداً ، وتحفظ كتب الادب القديم بأثر تقليدية تدل على مركزهن الثقافي . ونجد نساء بين النساك (ريشي) لا بل بين علماء اللاهوت في عهد الاوبنيشاد .

وقد تحيا الفتيات حياة لهو واستخفاف ويثرن الشكوك بشيائهن المحر . ويراقب الوالد والأخ سلوكهن ، ولكن كانت الدغارة كما يبدو أمراً كثيراً الوقوع .

ويبدون زواج الأرملة ان لم يكن لها ورثة ذكور من زوجها الاول ولكن فقط (؟) مع شقيق زوجها المتوفى بغية تأمين استمرار النسل . ولكن يظهر بأنه في وقت لاحق استطاع قريب المتوفى أو تلميذه أو حتى عبده ان يحل محله لينجب أولاداً للأسرة التي غدت تمثلها الأرملة . ومن المحتمل بأن الأرملة ، مثل عهد الريفنداء ، كانت تحرق مع زوجها ، اذ يجدون أثراً لهذا الامر في المستندات الطقسية . وقد ألغيت هذه العادة أيام الهند الفيدية ولكنها أعيدت ثانية في العصر البراهماني .

وتحدد طقوس منزلية حياة الأسرة بجميع مظاهرها . ومحور هذه الطقوس هو النار (Agni) التي تشعل داخل البيت وسط إطار من الحطب أو خارج المنزل ، وتعد السيدة الحقيقية (جأرميتيا) وبقرها تقدم القرابين اذ هي السبيل الى كل شيء ، وتمت هذه القرابين غالباً الى أصل نباتي وليس حيواني ، كسمن يذوبونه ثم يصفونه . والطقوس هي في غاية البساطة يقوم بها رب الأسرة ، وقد تؤديها الزوجة أو يتممها مراراً أحد البراهمة . ويقام عدد كبير من هذه التقدام والقرابين في اماكن عدة من المنزل وفي مناسبات مختلفة (على العتبة ، امام مقدمة السرير أو الجهة المناقضة) .

وهناك مناسبات عدة تعد ظروفها تستوجب القيام بأفعال العبادة أو اعمال طقسية منها اوجه الحياة الزراعية ، وعودة الفصول ، وإبعاد الحيات السامة ، واستقبال الضيوف ذوي المقام الرفيع ، وبناء منزل ... وللأعياد الزراعية أهمية خاصة اذ عليها يتوقف ازدهار الزراعة والماشية . وهي تظهر اكثر من سواها تدخل الحياة الدينية المتواصل في حياة القرويين اليومية .

ولكن يوجد طقوس اكثر أهمية وعظمة تأخذ فيها الذبيحة كامل معناها ويظهر فيها مقدما بدوره الإلهي الحقيقي ، أي الوسيط بين الانسان والإله ، وتثبت الذبيحة من ثم بأنها صلة الوصل بين الامور المقدسة والعادية . وتستوجب هذه الطقوس الحافلة وجود الكهنة واستعمال عدة نيران . وهناك انواع مختلفة منها ما يقام بمناسبة ظهور الهلال وبدء السنة الجديدة وجني البواكير الزراعية . ويبدو بأن بعضاً منها يعني افتداء حياة رجل بتقديم تيس . واهم هذه الطقوس هي تلك التي تستعمل السوما والتي تدوم مراراً اياماً عدة ، ومن اشهرها الفاجيبا ولا تعرف الغاية منها ولكنها تحتوي على امور غريبة كسباق العربات الذي قد يرمز الى الشمس ، والراجسويا أو التتويج الملكي . وهذه حفلة اقل قدماً من غيرها — حيث يعمد الكهنة ويمثلو الشعب الملك ويجلسونه على العرش ، والاسقميدها ، ذبيحة الحصان ، وهي من اكثر الطقوس كلفة ، تثبت قوة الملك المظفر وتهبه السيادة المطلقة وتؤمن ازدهار المملكة . وتشير بعض هذه الطقوس — الاسقميدها والراجسويا خصوصاً وبناء هيكل النار — الى تقادم بشرية ، ولكن يظهر بأن هذه العادة غدت امراً رمزياً منذ تأليف اقدم النصوص .

ووسائل التسلية شديدة التنوع ، ومن اكثرها اعتباراً لعبة الزهر التي يفضلون اسناد

مخاولاتهم فيها على الرقم ؛ . ويستهبون كثيراً سباق العربات التي تجرها الاحصنة ، هذا السباق الذي لا يدخل دوماً ضمن نطاق الطقوس الدينية . وتشمل حفلات الفرح رقصاً يؤديه الرجال او النساء على انغام الغناء والموسيقى . ومن آلات موسيقى ذاك العهد الدف والعود والمزمار . وابتداء من عهد البراهمة يأتون أكثر فأكثر على ذكر المهرجين والممثلين والبهالين وناقري الدف وعازفي المزمار .

وعند انتهاء الحياة تأتي طقوس الجنائز . فهم يقومون باللباس وتزيين الميت ثم يأتون به في موكب الى حيث ستحرق جثته ، اما محمولاً على الاكف او على عربة يشدون اليها غصن شجرة يمر على الارض ليمحو آثار ارجل الاقرباء الذين يكونون قد تقدموا الجثة . وعندما يصلون الى المكان المعين يحرقون للميت ، ولآخر مرة ، اعمال التزيين والتنظيف ثم يضعونه فوق كومة من الحطب . وتجلس امرأته بالقرب منه ثم يدعونها للزول (وهي ستحرق حقاً معه في الازمنة اللاحقة) وقبول شقيق زوجها المتوفى بملأ لها . ويضعون بجانب الجثة اشارات الغثة التي ينتمي اليها: قوس مكسور لأحد أفراد الكشتريا ، وادوات عبادة ان كان من البراهمة . واخيراً يحرقون مع جثة الميت تيساً او يضحون بقرة . ويقومون في فترة الحزن التي تلي الجنائز بسلسلة افعال تطهيرية (استحمام ، صيام ، تزهّد الخ ...) ، ثم يجمعون العظام المحروقة ورماد الجثة ويطمرونها في حفرة يغطونها بالتربة او الحجارة او باقامة بناء للذكرى . وهذا ما يستدعي ايضاً حفلة تتبعها طقوس تطهيرية ، وهم لا يتناسون الاموات ، بل يقدمون لهم تقادم يومية وقيمون لهم طقوساً احتفالية في بعض المناسبات (ولادة ، زواج الخ) . يرتقلب طقوس الدفن هذه رأساً على عقب اشارات الطقوس العادية وتأخذ اللون الاسود لونا اساسياً .

وهذا الوصف الموجز لحياة الاسرة والمجتمع يشير اشارات عدة الى قوانين وعادات يشترك فيها الهندو - اوروبيون في مناطق شاسعة جداً . وهناك خصائص تنتسب الى ايران . وهكذا فان الحضارة الفيدية هي جزء من كل يصلها بحضارتنا ، ولكنها مع هذا تبدو منذ ذاك الوقت مختلفة جداً . ونلمس من خلال النصوص التي عرفتنا بعبادتها الأساسية كثرة في الطقوس السحرية وتقدمة الذبائح . وتكون هذه الطقوس لحمة الحياة القروية او الرمية وسداها ، وهي تهيمن عليها وتسيرها اكثر فأكثر نحو شكل محدود وتوجهها نحو قيود وقوانين تزداد مع الأيام دقة وحصرأ .

٣ - المدينة والريف

كانت مدن (يور Yur) (الداذا تتألف من مجموعة منازل تملكها اسرة واحدة ، تتجساور داخل حوش تحيط به الأوتاد . وقد تحمي ايضاً بعض هذه البيوت حفر او كوم من التراب . ولا يبدو بأن الآريين قد غيروا كثيراً في هذه المساكن بل اكتفوا على ابعاد تقدير بتطويرها وذلك

بتوسيعها وزيادة عدد أكبر عليها من البيوت والدكاكين والمباني المعدة لاستعمال الجمهور والجماعات وذلك تبعاً لنمو التجارة واطراد الحضارة .

وتبدو المباني بدائية إن نحن صدقنا المعلومات التي تقدمها لنا النصوص التي تشرح لنا هيئة هذه المساكن (شالا) ودور العبادة (غريبا ، أغارا) . ويفرض هذا البناء القيام بأعمال تمهيدية عدة كالتخايب الأرض استناداً الى نوعية التربة ولونها وطعمها ورائحتها . ويقرر يوم البدء بالأعمال تبعاً لتخمينات المنجم . وبعد ان ينتخبوا الموضع يحددونه على شكل مربع او قائم الزوايا ، ثم يحفرون الأرض وينظفونها بمكنسة (ادوها) ثم يقسمونها بصورة تسمح للياه ان تجري بموجبها بصورة طبيعية الى شمال غرفة النوم ، لذا يعدون بعض الحفر توصلها لهذه الغاية . وأخيراً يحسبون الحساب لمطبخ في القسم الشمالي - الشرقي وردهة اجتماعات حيث يجتمع رب الأسرة مع ذويه او يستقبل الضيوف .

عندئذ يتبدى البناء . ولا يدخلون فيه أجراً او سجراً ، أقل في الاعمال العظيمة . ويحفرون في أول الأمر تسعة ثقب (غرتا) يبلغ عمقها حتى الركبة يركزون فيها تسعة أعمدة (ستوبا او ستوبنا) من خشب الادمبرا . وتوضع ثمانية من هذه العمود ابتداء من الواجهة التي تشرف على الشرق وتتتابع من الجهات الجنوبية والغربية والشمالية . ويحمل العمود التاسع اسم «العمود الملكي» (سوثاراجا) ، ويقام آخر ما يكون في وسط (؟) المنزل . ويختلف عدد الأبواب كما تختلف وجهتها ، ولكن لا يجوز قط ان يكون المدخل من الجهة الغربية ، كما يمنع منعاً باتاً ايضاً فتح بابين على نفس النمط حتى لا يستطيع المرء اجتياز البيت بنظره ، ، وأخيراً يعدون العتبة ويعملون للأبواب دقوقاً ومصاريع . وتتكون الأجزاء المرتفعة من عوارض خيزران (قشا) . وتشهد هذه العوارض بجبل الى أوتاد الأساسات ويوجهونها من الغرب الى الشرق في دور العبادة ، ومن الجنوب الى الشمال في المساكن الأخرى . وهناك حواجز (كدي) تفصل بين الغرف وقد تستعمل كجدران . ويستند قسمها الأعلى الى العوارض . ويحمل هذا الكل سقفاً من القش ينتهي على شكل ياقة (ستوبا) .

وفرش المنزل في غاية البساطة كما هو البيت . وهو يتألف خاصة من مقاعد تكون أحقرها مساند من عشب . اما مقاعد العبادة فهي من الخيزران . ويظهر بأنهم ركزوا فيها قطعاً من الخشب او شدوا اليها قداداً من الجلد . وقد يطوبن أحسنها بالذهب ، ويصنعون بعض المقاعد ، إن كانت للآلهة او للملوك ، من الخشب وقد يحفرون عليها الرسوم . ولكن لا نجد في هذا العهد التنوع الذي يصفونه لنا بصورة دقيقة في الأزمنة اللاحقة .

وبالقرب من المسكن يعدون مستودعاً للماء يسندونه الى اربعة حجارة . ويسكنون القطيع (البقر والثيران والمعجول والاحصنة) في البيت او في اصطبلات مجاورة ويعودون به الى ذلك المكان كل مساء مع الاولاد . وهناك يسكن الخدم ايضاً .

ولدور العبادة هندسة شبيهة جداً بالهندسة التي وصفت أعلاه، ولكن هناك بعض الاختلافات مع هذا. وتعد هذه الدور لإيواء من يقوم بالطقوس وزوجته والجماعة التي يحتاج إليها، والحيوانات والأدوات الضرورية للعبادة. ويعدون في هذه الامكنة ردهة (سالا) للحضور، وأثراً لإعداد الأطعمة الطقسية التي يكون أساسها اللبن، وغرفة لزوجة القائم بالطقوس، وحجرات للاستحمام الديني تسورها حصر، وغرفاً صغيرة للتقادم، وجناحاً مخصصاً لطقوس الاموات، وحجرتين صغيرتين مربعتين تتصلان معاً تصبح احدهما مسكناً لمن يقدم العبادة والثانية موضعاً للنضج، ثم رواقاً مخصصاً للمربات تحيط به حصر تمتد من عمود الى عمود، ومقابل هذا الرواق يبنون «المركز» (سادس) وهو قائم الزوايا تعلوه ثلاثة سقفوف متتالية.

واحدى الحفلات الاساسية التي تحتم اقامة مثل هذا البناء الديني هي ذبيحة الحصان (اشفميدها) التي أتينا على ذكرها والتي يرتقي اصلها كما يظهر الى زمن اقامة الآريين في ايران، وقد يكون ايضاً اكثر قدماً. ولمراسيم تقدمية الحصان ابهة خاصة اذ لا يستطيع ان يقوم بها الا الملك، او احد افراد الكشتريا الذي تقبل البركة الملكية، او «سيد الارض». والبناء قسمان عظيمين. فالجزء الخارجي قائم الزوايا ويحتوي على غرفة لمقدم الطقوس، وحجرة استحمام له، وحجرة اخرى لزوجه، وهيكل النار للسيد، وموضع تسند اليه الجرة الطقسية (أكها). وتحيط الاتواد بالقسم الثاني الذي يحتوي على الهيكل (اغني - كشترا)، وعلى طول جهة السور الكبير الشرقية ارتفعت احدى وعشرون ركيزة شدت اليها الحيوانات التي أعدت للتقدمة والتي انتخبوها من الماعز او البقر. وهيكل النار، كما الحال في سائر امكنة الذبائح، هو من الاجر ويسبب بناؤه - وغالباً على شكل عصفور - الى اقامة طقوس دقيقة جداً ابتداء من جمع الخرف حتى وضع النار باحتفال مهيب. ولهذا الهيكل خمس ركائز من الآجر (١٨٠٠٠ قطعة) وقد علق على احد جدرانه رسم من ذهب يمثل رجلاً، وهذه ذكرى للذبائح البشرية القديمة.

وارتدى السكان في اول الامر جلوداً وثياباً من صوف، نسجوها من شعر الماعز. وسرعان ما اضافوا الى هذه الاقمشة ثياباً من حرير وكتان وقطن وقنب وقد صبغت باللونين الاصفر والاحمر. ويتزينون بحلى يضعونها في جيدهم واذنهم وكاحلهم، ويدهنون شعرهم بالزيت ويستعملون المشط. وتجعل النساء شعرهن اما الرجال فيحبكون شعرهم بأشكال مختلفة وهم يدعون لحامهم تنمو مع انهم عرفوا موسى وكان من المتداول جداً قصها او تخفيفها.

يعرف المرء مما تقدم الى اي حد تغلغلّت الديانة في حياة الفرد والجمتمع الفيديين. والقيام بأعمال العبادة على المرء ان يتقيد بقواعد وتقاليده في غاية الدقة - عدا العادات السحرية الكثيرة العدد. انها ديانة معقدة تعقيداً علمياً لا نجد فيها الا آثاراً طفيفة من عبادات «اولية» كالطوطمية او المبداء النباتي او الفيتشية. انها حلوية واسعة تخضع فيها الالهية

لارادة الانسان الذي يؤثر عليها بأعمال الذبيحة او التقوى . وهي تستند على ميثولوجية تكثر جداً آلهة زونها . ان زعيم الآلهة هو اندرا الذي قد يكون في البدء حارس احدى القبائل المنتصرة . ويرمز الى طبيعته المحاربة والمظفرة الثور الذي يمثله . ويضيفون اليه صفة شارب السوما وهذا ما يشده بعزى وثيقة الى الذبيحة .

والفجر هو الربة الميثولوجية ، تمثلها بقرات ترتدي ثوباً وهاجاً والجلد (ديا دس) والارض (برتوي) هما زوجان . وبقربها نجد الآلهة الشمسية : سوريا وبوشان وفشنو وميترا وفرونا ، وهي آلهة قديمة العهد جداً تتصل اسمائها وخصائصها بآلهة الزون الايراني كما ورد في الافسته . وثبتت هذه الحقيقة بنوع ادق فيما يختص بميترا وفرونا . ويعتبر هذا الاخير حارس النظام ، وإله الكون وينبوع كل حياة وخير . وهناك بصورة ثانوية آلهة الزوبعة ، رودرا وشيفا ، وقد تميل شخصيتاهما نحو الاتحاد فيحتلان اذذاك المنزل الاول وتظهر شخصية شيفا بأشكال متعددة : وتزيد آلهة الرياح ، فايو وفانا والماروت ، وآلهة المياه والانهار - التي ترمز اليها الحية بعض المرار - هذه المجموعة الربانية التي يجب ان تدخل فيها ايضاً الشخصيات التي تمثل الاغني والسوما . ويطلقون على هذا الاخير لقب برجاباتي ، سيد الخلوقات الذي سيصبح بعد قليل وحدة خلاقة وحامية جميع الخلائق الحية لا بل العالم بأسره . وهناك اخيراً جموع من الارواح الهوائية التي تشكل زون هذا العهد الاول : الربهو ، والاسورا ، والغندهرفا ، والاباسراس ، والركسهاسا وكلها بقايا معتقدات شعبية تعادي الذبائح معاداة شيطانية . ولا تزال هذه الارواح ترافق حتى يومنا هذا الآلهة الكبار وتنتزج في كل الاساطير الهندية . ومنذ البدء ظهرت بمظهر الانسان ، وان هم ألصقوا بها مظاهر حيوانية ، يبقى سلوكها مع هذا شبيهاً بسلوك الانسان .

وقد ينتمي هؤلاء الاشخاص الى اساس من المعتقدات الهندو - اوروبية كما تعود اليه الاساطير التي يلعبون دوراً فيها . ولكن مقارنة هذه الامور مع المعتقدات الايرانية هي اشد ثبوتاً ، وهكذا نستطيع ان نقارب اسماء اهورا وميترا وفايو وفريثرغنا الايرانية مع اسماء اسورا وميترا وفايو وفريترهان الهندية . ويرافق ايضاً نبات هاوما السوما ونجد في كل من الديانتين عدداً من الافعال والتقاليد (عبادة النار ، تقدمه الحصان الخ) . وهكذا فبنسبة ما تتصل ايران بالوحدة الاوروبية وتمت الهند بايران يتأكد لنا بكل وضوح بأن الهند هي العضو الذي يقع في اقصى شرق المجموعة الاوراسية الشاسعة .

وتجاه هذه المعطيات الدينية التي تحتل المركز الرئيسي فقد قل جداً اهتمامهم بالمسائل الكونية ومصير الانسان . واعتبرت الفيدية مسألة الخلق امراً لا يرقى اليه الشك ولكنها لم تسع مع هذا لاختراق مراحل ، بل نظرت اليه كأنه عمل محترف او نتيجة مسألة تقنية ، او صنع فيسفاكرمان ، مهندس الكون . وتختلف كثيراً المعلومات التي تمت اليه وقد ينسبونه ايضاً الى ذبيحة بوروشا ، الكائن الكوني والاولي .

اما مسألة جوهر النفس فهي المذكورة في اقدم النصوص بصورة بدائية ولن يتسع مداها الا منذ عهد الاوثينشاه . انها مرتبطة بمشكلة الموت . ويقول الجميع بالحياة الاخرى كأمر طبيعي اذ تفتح امام الاموات ثلاث طرق : انهم يتحدون بالمياه والنباتات ، او يحيون بهدوء في مملكة يسيطر عليها ياما ، وهو اول من مات ، او اخيراً يعيشون في عالم واحد ولكن كل على حدة . ويظهر بان مسألة انتقال الانفس (سمسارا) الذي هو ضرب من التقمص لم تكن قد اصبحت عقيدة بعد ، اذ ان النظريات التي ستعظمى بالكثير من الاهمية منذ القرن السادس ق.م . لم تكن بعد الا في مهدها . ونتيجة الذبيحة الفاعلة هي اهم بكثير في نظر هؤلاء الريفيين الذين يأملون بواسطتها ازدهار مزارعاتهم وهبوط الامطار الخصبة وتأمين حراسة مواشيهم وغتلف دلائل نجاح حياتهم الزراعية والصناعية . انهم يهتمون برفاحية الاحياء اكثر بكثير من اهتمامهم بصير الاموات . ومع هذا يلمس المرء ايمانهم ببدا مكافأة الاعمال في عالم غير عالم الاحياء هذا : فالسما هي عالم الاعمال الصالحة ، والجحيم هو مستقر الاعداء والكفرة . وتجري الدينونة بواسطة ميزان او امتحان النار وتتحقق بالآلام وعذابات جسدية . ويدعون الموتى « الآباء » (بيثري) وهم يساورونهم بالآلهة الصغرى ان هم احرقوا ودفنوا وفقاً للطقوس . وقد رأينا اعلاه بانهم يقدمون لهم عبادة ضمن الاسرة لا بل وبعض الطقوس الاحتفالية ايضاً .

ومع الافعال الدينية نجد تقاليد سحرية تم انتقالها من الخلف الى السلف بصورة شفوية وسرية قبل ان تحرر نصوصها بزمان طويل ، هذا التدوين الذي لا يرتقي إلا الى نحو ٦٠٠ او ٥٠٠ سنة ق.م . وتعنى هذه التقاليد السحرية بجميع اعمال الحياة الهامة كتشيد المنزل ، وانتخاب الزوجة ، وتوطيد الحب الزوجي ، وصيانة القطعان وتكثيرها ، والربح في الالعب ، والنجاح في التجارة ، والنصر في الحرب الخ ... وهي تستعمل خاصة العبارات المنمنمة (منترا) ، والتحويل الى بعض الاشياء والحيوانات ، واخيراً تعاويذ وطلاسم تؤمن حياة طويلة ، وتشفي من الامراض او تقاومها ، وتبعد المؤثرات الشريرة ، وتأتي على الهموم والهواجس ، وتجلب حبة الشخص الحبيب الخ ... وكثيراً ما يلجأون الى العرافة وهم يستنجدون لذلك بالاحلام ، واشارات النجوم ، والدلائل التي يلاحظونها عند تقديم الذبيحة (اتجاه دخان النار ، حركات الحيوان) الخ ... ويدخلون في السحر بعض الضروب التششفية كمرابعة التنفس ، والتسبب في العرق ...

وفي عهد مجدونه تقريباً حوالي أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس ق.م . ظهرت عقلية جديدة او بالاحرى استتببت فكرة كانت قد تطورت تطوراً جيداً . وتحتل الذبائح والتقدم المركز الرئيسي وتوافق كل عمل مهم من حياة الفرد او المجتمع . فهي التي تحفظ النظام العام وتصبح الواجب الاول لكل انسان ، إذ تعد كدين يجب فرض تأديته نحو الآلهة . وهي التي تضفي على الكاهن سيطرة كلية . وللاحتفاظ بهذه السيادة يستغل البراهمة بعض الوسائل لإبعاد هجمات الشعب المحتملة والتي تساعد على حصر الامور المقدسة بيدهم : فهم يلجأون الى العبادات التششفية ، وينسجون حول معارفهم جواً سرياً ، ويتخذون احتياطات دقيقة لإعلان

إيماءات الآلهة ، ويبقون عمداً على الفموض في بعض الدروس التي يلقونها ، ويفرضون على تلامذتهم عدم البوح بالأسرار . ومع هذا فانهم يقاومون التعاليم الجافة التي تتعلق بالنباح والتقادُم ويتشبثون لأول مرة بالمبادئ الميتافيزيقية (الماورائية) ومع احتفاظهم بالزور الفيدي فانهم أوضحوا فكرة الكائن الواحد ، وحدوده بقولهم هو الحقيقة الوحيدة في العالم وهو إله كلي القدرة يشمل سلطانه الكون بأسره . ويجعل هذا الكائن اسم براهمان (اسم نكرة) . وتمت النفس الفردية (أتمان) الى الجوهر نفسه . وفي « الدروس السرية » او الاوينيشاد تظهر هذه الوحدة الجوهرية بين النفس العامة او براهمان والنفس الفردية او أتمان : « وانت أيضاً تكون هو » تقول الاوينيشاد للمؤمن محققة وحالة هذه سبقاً عظيماً في التطور الفلسفي . وتحدد هذه النظرية المسندة الى وحدة العالم المبهمة في وحدة الفرد المبادئ المنطقية الميتافيزيقية (او الماورائية) وتتطلب من ثم حلولاً لمختلف المشاكل المطروحة ، لأنه إن كانت هذه الوحدة حقيقية فكيف نفس وضع الإنسان وولايته ؟ وتلعب الاوينيشاد المصائب الى الفعل (كرم) . فضرورة القيام بالأعمال تولد الكنه الجسدي ، الذي بدوره ينتج العمل . وهكذا نجد حلقة تسمى الايمان عبثاً للتخلص منها لتعود الى حالتها الحقيقية اي لتذيب نفسها في البراهمان . ولأول مرة يظهر سياق المبادئ هذه التي لا يبحثون لها عن سبب آخر وتصبح من ثم نظاماً : انه انتقال الأرواح او التقمص (سماره) الذي لن يعرف نهاية إلا بالتلاشي في الكل الإلهي (براهمان) . ولكن العودة الى البراهمان لن تتم إلا بعد عدد من الولادات المتعاقبة . وكل مرة تظهر على الجسم دلائل الموت تولد حالاً الايمان مرة ثانية او تبقى منتظرة في العالم القمري الى ان تتلاشى كلياً فاعليتها فتستطيع إذ ذاك الاتحاد جوهرياً في البراهمان . ويعتبرون هذا الامر الخلاص النهائي (موكتشا) . وهكذا وضعت المبادئ التي ستبقى الى يومنا هذا شغل الفلسفة الهندية الشاغل . ونتائج هذا النظام بالغة الأهمية : إذ بعد تقرير مبدأ تجزئة المجتمع الى طبقات يغدو منطقياً ان لا تلعب قوة الخلاص نفسها الى هؤلاء واولئك . وكيف نفس هذا الفسارق إلا اذا اعتبره بأن القدرة على العمل قد ضعفت بدرجة مختلفة تقل او تكثر : وان ولد شخص في طبقة البراهمة او فئة الكشترى فذلك يعني بأن ايمانه قد أتمت عدداً من الولادات التي ضعفت من قوة الكرمين وهذا يعني أيضاً بأنه يقارب من الخلاص النهائي . وهكذا تسعى براهمانية هذا العهد لتحديد معطيات مشكلة التقمص ، وتجعلها تتلاقى مع حالة اجتماعية مستقرة بدل ان تجتهد لها الحلول . ونتيجة لهذا التعليم يعترفون بأنه كلما هوى المرء في سلم الطبقات الاجتماعية وغدا من ثم أشد ابتداءً واحتقاراً كلما صعب ان يتلاشى الكرمين الذي يكبله في سلسلة الولادات المتعاقبة . وإن أئنا عن ذكر حالة بعض الافراد اليائسة عرفنا بصورة افضل مدى الاصلاح الذي اقترحه بودا شاكين . وقد ورد هذا الاصلاح في الوقت الذي ظهرت فيه بعض الانتفاضات في العقيدة البراهمانية نفسها . واعتبر شاكين ، كما اعتبر معاصروه ، بأن السماره مشكلة أساسية إذ لا تمت فقط الى مصير الفرد بل أيضاً الى التكوين الاجتماعي بأكليته . وهكذا اخذ بودا يحل هذه

المشكلة بشعور انساني عميق ومتناهي في اللطف وهو يتعارض وقساوة البراهمة التي لا ترحم ، ويعتقد بأن قيمة الفرد لا تستند الى قوة افعاله بل الى مقدرة الشخصية في مجال الرحمة والمحبة والشفقة . انه لا يهتم كثيراً للزون البراهماني ، وهو يبقيه على حاله للذين يشرهم ، وهو لا معنى إلا بالإنسان ويسعى لإيجاد داء لئلا . وهو يشرع بتفكير منطقي يستند الى امور يألف منها كل كائن ذي احساس : الألم والموت . فالوجود ، كما يقول ، يحمل الألم في طياته ، وينتج الألم عن رغبة لا تتحقق ابداً ، وتتأذى الرغبة عن الجهل الروحي الذي يغمر بالمرء فيجعله يعتقد بأن الظاهر هو الحقيقة . وبالاتيان على هذا الجهل تتلاشى الرغبة وينعدم في الوقت نفسه الألم . ولا أهمية للموت ان لم تنتج عنه ولادة ثانية تعيد النظام الاول الذي نجبر من جديد ان تأتي عليه حلقة حلقة . وللوصول الى الغاية القصوى ، « النرفانا » ، الذي ينتهي بها كل شيء ، يجب ان نتبع طريقاً فيه التوازن الكلي الذي لا يقودنا الى التثاقفات المغشاة فيها والتي يمارسها بعض الناس ، ولا الى الملاهي الجوانح التي تعرقل سير الروح ، انه « طريق وسط » يطبقه كل على نفسه ويتطلب من رجال الدين اكثر مما يفرض على العلمانيين ، ولكنه يستند الى محبة الغير وعدم الاكتراث بالذات والشفقة نحو الجميع

وكان مؤسس العقيدة الجاينية معاصراً لهذا العهد الذي أحدث تجديدات في المجال الفلسفي . وقد أتى بمبادئه ، إن قيست بالتعالم البوذية ، تظهر اقل تناغماً مع الرغبات الشعبية . والحلولية التي تشمل الطبيعة بأسرها هي أساس ديانة مسافيرا التي تستند اكثر ما يكون على اللاعنف (أهيمسا) ، ومنع إيقاع الضرر بالحياة مها كانت مراحل تطورها .

وهكذا نرى بأن هذا العهد الذي يرتقي تقريباً الى القرن السادس ق. م . هو في غاية الاهمية لنهم الحضارة الهندية . وفي هذه الفترة بدأ المجتمع يستقر ضمن اشكال ستتسع فيما بعد ويستند عليها التطور اللاحق . وظهرت أسس الفلسفة الهندية نفسها التي ستضفي على الهند اهم خصائصها . واخيراً فان نشوء البوذية مهد طرق السيادة للعهد اللاحق الذي سيفقد فاتحة تطوره في وادي يكون له صدى صاعق في كل مناطق النفوذ الهندي اعني آسيا بأجمعها تقريباً .

تبعاً لهذا التطور الديني والفلسفي بدأ يتسع مدى المعارف التي لها الصفة العالمية البحتة العادم مستمدة حيويتها من الرياضيات وعلم الفلك . وهكذا اذ كان الشعب يكرم زونا تؤوله اغلبية من قوى الطبيعة المؤهة اخذ « العالم » الفيدي يقسم الكون ثلاثة اقسام — ويميلون الى الاعتقاد بأن هذا التقسيم الثلاثي يتوافق مع وجهة نظر ايران الافستية . فالارض اولا ، وهي على شكل قرص الشمس وتستند الى المحيط ، ثم السماء او الجسد حيث تسبح الغيوم وتقيم الاريح وتقطن البروق ، واخيراً السماوات العليا التي تحتوي الشمس والقمر والنجوم والسيارات . وتكون الشمس ، وهي على شكل درلاب ، القوة الفاعلة الكبرى في هذه المنطقة ، وهي التي تخلق الليل والنهار والشفق والشهر والسنة ، وتسبب هبوب الرياح وتبقي على التوازن بين النجوم

ونضيء وجه القمر . وتدور دورتها على اثنتي عشر مرحلة ، يمثلها اثنا عشر حيواناً ؛ ويعبر عن هذا الامر تقسيم السنة الى اثني عشر شهراً او اثنتي عشر شهراً شمسياً ؛ ويظهر جلياً بأن هذه المعلومات تمكس حقائق أشد قدماً ، اذ كانوا قد تحدوا عن الاثني عشر شهراً شمسياً فهناك ايضاً ثلاثة عشر شهراً قرياً . وحددوا ايضاً بدء السنة عند الانقلاب الشتوي ، ولكن يحتفلون بهذا الحدث عند ظهور الربيع . وكان لهم في اول الامر ثلاثة فصول ثم غدت خمسة : الشتاء والربيع والصيف والأمطار والحريف . وقسموا غالباً فصل الشتاء قسمين وعدوا كفصل سادس الفصل الذي يسبقه مباشرة ومن خصائصه الانداء .

وتعد ملاحظة كسوف الشمس وخسوف القمر متممة لمراقبة الانقلابات والاعتدالات . ويعزون هذه العوامل الى اسباب خرافية . وهم يعرفون الكسوف والخسوف الكليين ووجود سبعة وعشرين كوكباً سياراً يضيئون اليها الشمس والقمر . وهم يكتشفون الجهات الاربع الرئيسية بواسطة آلة خصوصية هي الغنومون .

والدور الذي يلعبه عالم الفلك - وقد احتكر النساك هذه الصنعة - هو عظيم جداً اذ يشترك في كل الذبائح الكبرى : فهو الذي يعين الوقت المناسب لتقديمها ، وهو الذي يحدد انواعها عند تبدل الفصول وعند عودة بدء السنة . وهذه الذبائح هي الاكثر اهمية ، خصوصاً ذبيحة الربيع التي تفرض تقديمها استحمام المرء وفقاً للطقوس .

وقد عم معطيات علم الفلك مبادئ هندسية وحسابية مع انه من الصعب فرزها عن فيض المبادئ العلمية التي تحيط بها . اتسع كثيراً مدى اسماء الارقام وعرفوا نحو ثلاثين اسماً اساسياً : واقرروا النظام العشري ، معتبرين رقم المئة كالوحدة فيه . ويبدو بأنهم اهتموا جداً لايجاد كيفية يقسمون بموجبها رقم الألف ثلاثة اقسام متساوية . ولكن ازاء هذا النظام الذي يستند الى رقم ١٠ نعرف انظمة أشد قدماً : خصوصاً وحدة الوقت الذي تتخذ لها اساساً الرقم ١٥ والتي تجزىء مدة النهار الى $\frac{1}{10}$ (= $\frac{1}{10}$ برانا) .

وعرفوا علم النبات ومارسوه اذ يمت بعمق وثيقة الى العالم ، ومن الضروري الوقوف عليه لتهيئة الذبائح ، وتركيب الادوية الخ . ويعتبر علم النبات مدمكاً في صرح حب الطبيعة الذي لم تنفض قط الحضارة الهندية يدها منه والتي زادت مدى شروط الحياة الريفية او التقشفية . لذا نرى منذ هذا العهد القديم بأنهم اعاروا اهمية قصوى بتحديد الاسماء النباتية ، الاشجار والاغراس ، وسعوا جهدهم لتصنيف هذه الخلائق . وفي الحالة الاخيرة اخذوا بعين الاعتبار علاقة النبات بالمبادئ الكونية والدينية اكثر من نظرهم الى خصائصه الذاتية .

الفصل الثالث

خصائص الحضارة الصينية القديمة

على نقيض حضارة الهند التي كانت لها علاقات مع الغرب «فان الحضارة الصينية قد تطورت وهي تدبر ظهرها الى عالم البحر الابيض المتوسط» (هنري ميساروا) . ولم يكن لها معه الا علاقات غير مباشرة بواسطة الجماعات السيبيرية وقد اتجهت عمداً وقصداً نحو المحيط الهادئ ، هذا العالم الذي يختلف كلياً عن العالم الذي حقق تطورها الثقافي (التطور الاوروبي) .

وبدل طباع الهند المتعددة والمتقلبة والتي قد يناقض بعضها بعضاً تقدم الصين تلاحماً متيناً يستند بقوة الى وحدة سكان الصين العرقية . وغدا نظامها الاقطاعي ثم الامبراطوري عـامل وحدة ايضاً في ثقافتها ونظمها اذ فرض بشكل مستديم مجموعة متناسقة من الافكار والتقاليد .

وتهيمن الروح الصينية على هذه النظم والآراء ، وتحب هذه الروح الدقة - حتى عندما لا تستند الا الى أمور خرافية- وتقدرها حق قدرها في المكييل والموازن والمقاييس وفي التواريخ والارقام ، في المسافات وفي المبادئ العلمية . ويقرب منطقها من منطق حضارات حوض البحر المتوسط الابيض . فالنظام الصيني هو أساس الحرية ، والسيطرة على الذات - التي توافق معرفة العالم - هي في الحقيقة حكمة وطمانينة في الحياة . وتعطى هذه الحكمة لمن عرف كيف يهذب نفسه ويتحرر بواسطة أمور تقليدية قديمة : اذ وراء واجهة أدبية وتقليدية تحصل حرية المرء بصورة سرية ولكن كاملة الاستقلال . ولا نجد حياة روحية متقلبة : اذ لا يعترف الصيني للآلهة بأي تفوق . فهي كائنات مجردة ؛ بعيدة قد تثير السخرية ، وذلك لأن الصيني بطبيعته يميل نحو الكفر بكل شيء وذلك بصورة سمجة وضاحكة . وهو يعتقد بأن لعب الماضي وأمثلة الجدود المتوفين أهمية أكبر بكثير ، اذ للتجارب التي تمت في القرون الغابرة قيمة عظيمة - وهو يبنى سلوكه وحياته على هذه السوابق « التاريخية » والجديرة بكل احترام . لذا فهو يعيش جداً كتب حياة الاقدمين وسير أعمالهم التي ، على غرار كتاب « حياة الرجال العظماء » لبلوتوك ؛ قوده في الحياة مهما بلغ عمره وجنسه وحاله ودوره في المجتمع ، وهو اذ يحذو حذوهم يكون

(١) يستند هذا الفصل على نطاق واسع الى نظريات مرسيل غرانه .

أكيداً بأنه يبقى جزءاً من كل ينتمي اليه ، اذ الفرد بعرفه لا يعيش وحيداً ، وهو لا ينفصل عن الطبيعة ولا عن المجتمع الانساني ؛ والهدف الذي يصبو اليه هو رفقة حسنة وصداقة - تستندان الى الآداب واللباقات - تؤمنان سلاماً سمحاً يفدو وليد النظام . وتتلخص غايته بأمرين : فهم الغير والوفاق معه . وهكذا يحصل حسن تفاهم الانسان مع أخيه ومع الطبيعة ، هذا التفاهم الذي ينتج النظام الخير . ومع هذا لا نجد صلابة ، ولا قوانين دقيقة متحجرة ، ولا موجبات مطلقة : بل أموراً حسية ولكنها غير محددة حتى تأخذ الحياة مجراها « وتلعب لعبتها » من خلال اللباقات والتقاليد .

وتهمن فكرة « اللعبة » على النشاط الفردي والجماعي . وعليها تستند الطقوس التي تجدد ، دون انقطاع ، مختلف مراحل الحياة الجماعية واطوار التاريخ وتقلبات الزمن . وتتناغم هذه الفكرة مع قواعد علم الطبيعيات الصيني الذي يفدو العالم الانساني صورة طبق الاصل عنه .

ويستند علم الطبيعيات هذا الى مبدأين اساسيين : الوقت والمدى . ويقسم هذان اقساماً متساوية لها في الجوهر . فالمدى ، اي الارض ، هو محصور ضمن مربع ، ويحجز أجزاء مربعة الشكل ايضاً : الحقول والمدن وهيكل القراب والمجالس والاملاك الملكية والامبراطورية بأسرها . ويوجهون هذا المربع بشكل يتلاقى معه كل ضلع مع احدى الجهات الرئيسية وأحد الفصول . ولكل ضلع لون معين : فهو اخضر شرقاً (الربيع) واحمر جنوباً (الصيف) وابيض غرباً (الخريف) واسود او اصفر شمالاً (الشتاء) . ويفصل المدى ، الذي عيّنوا له هذه الحدود وتلك الجهات ، اجزاء اجزاء يصبح وسطها المبدئي من املاك المعاهل . وتعرض هذه النظرية بمجمل القواعد الاجتماعية وتحفظ تناسق الدولة في مختلف اجزائها ، وبموجب طقوس محددة ومناسبة تحتفظ الوسط وحده بقوى المدى كله ، وعلى الاجزاء التي على الجوانب ان تأتي في أوقات معينة -- بواسطة ممثليها -- لتجدد قواها لدن المدى الوسطي . لذا وجب على حكام ورؤساء المقاطعات ان يأتوا كل سنة الى العاصمة يقدمون تقارير عن حكمهم وادارتهم الى الملك او الامبراطور . وحسب تقليد قديم يطوف الامبراطور مرة كل خمس سنوات على المقاطعات . وليوافق بين الزمن والمدى يتبع الامبراطور في عمله هذا نظام سير الشمس (شرقاً فجنوباً فغرباً فشمالاً) ويتوقف في كل جزء حسب احد فصول السنة الذي يختص به .

ويشبه نظام الزمن نظام المدى هذا . وكما يجب تجديد القوى في مجال المدى ، يجب ايضاً الاحتفاظ بحياة الزمن وذلك بتجديده . وتوزع مواعيد هذا التجديد على مدات غير متساوية ، ولكنها تتبع كلها نظاماً لا يتبدل : فقيام ملك جديد يلزم انشاء عهد جديد تعرف نهايته وتوقع عودته ويعني طقساً نهاية تقويم أثنى الزمن عليه وبهذه تقويم جديد يدوم ما دامت تلك السلطة قائمة . لذا تعطي الطقوس الملك او الامبراطور سلطة احياء الزمن والمدى لصالح اتحاد المقاطعات والمجتمع الفدرالي . وتشعر هذه المقاطعات وتلك الجماعات بضرورة تجديد دوري لا يستطيع

بدونه أي نظام ان يستمر. فالوقت اذن هو الهدف الطبيعي لكل أمر يريد الاستمرار ، وهذه رغبة الصينيين للقوى .

لذا لا تغدو العاصمة مركز الامبراطورية المحيي فقط ، بل أيضاً المقام الوحيد للمدى والزمن . وتصبح مقدسة (حسب بعض التقاليد) ان كان لها « بيت التقويم » (مينغ تانغ) يمثل شكله بصورة مصغرة العالم : فهو يتألف من قسم أساسي مربع يمثل الارض وسقف من العشب على شكل نصف دائرة يمثل السماء . ويقم فيه الامبراطور الحفلات لافتتاح الفصول والشهور المتعاقبة . ولهذا الغرض يدخل تحت القبة السجادة ، ثم يتجه نحو اشرق وهو يرتدي اللون المناسب ليشتم الطقوس التي تجدد الزمن في وسط المدى نفسه .

ولجد مبدأ الوسط هذا في المدى والزمن أيضاً ، والى هذه العقيدة تستند سلسلة المراتب التي اكتسبت أهمية كبرى في الصين الامبراطورية . ولكن هناك أيضاً مبدأ التعاقب والتناقض الذي ينعكس حتى على المارك الطقسية والرقصات المتناقضة والذي قد يرقى الى تقليد اكثر قدماً . ويقوم مبدأ التعاقب هذا على أمر قوي يليه أمر ضعيف بصورة تتوافق مع مسافة ملأى وأخرى فارغة . واذ نظم الصينيون العالم على هذا الشكل ادخلوا في الاجزاء الخمسة كل الطبقات الاجتماعية مع فضائلها وخصائصها ، والظروف ، والمواقع ، واشكال الفن النخ ، فحققوا والحالة هذه لكل القوى الفاعلة نظاماً لا شائبة فيه ، وقد اخضعوا هذه القوى الى ترتيب اعتبروه في غاية الدقة . وكان تلاحم هذا التقسيم المنطقي كافياً لتأمين فعالية كلمة لكل ما سواه .

ويلقي التوافق الذي يهيمن على المدى والزمن جواباً له في نظرية « ين » و« ينغ » الشهيرة اللذين يجتمعان في « الطاو » او العالم . والى هذه النظرية يستند كنه الفلسفة الصينية . وقد فتح تحديد هاتين الكلمتين المجال واسعاً امام تفسيرات شتى . ويبدو بأن المعلومات التي تشير الى اليها موجودة في مجموعة المعارف التي تسيطر عليها فكرة التناقض . ولكن لم تظهر الرموز التي تجسدها - والتي اخذوها كما يبدو من مادة علم الفلك - قبل القرن الثالث ق . م . ومع هذا غدا هاتين الكلمتين قبل هذا العهد بقرنين خصائص تناقض بعضها بعضاً ، كما هو ثابت في « شي-كينغ » مثلاً . ولا يجب ان نقتيد في هذا المجال بتحديد مجرد او شديد الدقة يمثل لنا اموراً متناقضة « ين » اي الشمال والظل والبرد والجنس الانثوي النخ ، وينغ الذي يمثل الجنوب ، والامكنة المشمسة والحرارة والجنس الذكر النخ (ولكن علينا ان نترك ليونة كبرى في هذا المضمار ، « لعبة » تتناسب مع التفكير الصيني . اذ لا يفرق الصينيون بين وبينغ عن الحقائق الاجتماعية التي توحى هذه الرموز الى ترتيبها (مرسيل غرانه) . وقد لا يكون في الامر حقيقتان تتناقضان بل رمزان متحددان يلخصان في كنهها بقية الرموز ، و « عنوانان اساسيان » يحتويان على كل شيء آخر . وهذا ما يفضي عليها القوة والسلطة اللتين يجتمعان بها اذ يرمزان وحدهما الى جوع المتناقضات والى التناقض الذي يكتف العالم . ولا تجعل منها صفاتها التي تسدو على

طريفي نقيض عدددين متنافرين ؛ بل يؤمنان بالعكس اكنال كلّ تختلف اجزاؤه جوهرأ وكثها .
ويبدو الين والينغ ، وهما صلة الوصل بين المدى والزمن التي تظهر على شكل (S) كأنها مبادئ
تعاقب الفصول ؛ هذا هو الاساس الجوهرى للحياة الاجتماعية بكاملها . ويعود الى الرئيس ان
ينشط تعاقبها ، وينعش قواها العجيبة ، وينظم فاعليتها الثنائية . ويمثل الين والينغ ، وهما
الغريمان المتضامنان ، اختلاف الاجناس واتحادها ، اى اساس النظام الاجتماعي ومن ثم النظام
العام . فهما يعبران في الوقت ذاته عن تضاد وحدتين وعن كل يكونه نصفان . وهما لا يتعارضان
إلا ليتم احدهما الآخر ويكونا وحدة مستقلة .

وهذه الوحدة هي الطاو (الطريق ، الاتجاه) ، مبدأ نظام ذي فعالية عظمى ، وقوة
تنظيمية ؛ ولا تحتكر المدرسة الطاوية هذه النظرية بل هي ملك التفكير العام . وينتظم كل شيء
في هذا المبدأ كما هو جبار في المدى والزمن : ويحتوي الين والينغ ، وهما القسمان الكبيران ،
تقسيمات عدة ثانوية لكل منها خمسة اوسنة حقائق تتجزأ بدورها حسب الجهات الاربع والسمت ،
فيقابل الشرق مثلا الربيع واللون الاخضر وعنصر الخشب والعلامة الموسيقية الخامسة ، ويقابل
الوسط منتصف الفصول وعنصر التراب والعلامة الموسيقية الاولى الخ . وتجتمع هذه الاجزاء
المتضامنة وتنظم معاً لتعطي الطاو وحدته . وهكذا يفسر النظام الكونى وكل مظاهر الحياة
مع اسبابها الموجبة . ونجد ايضا من ثم حلاً لكل وضع وسلوك وتبديل . ويقرر الطاو التفاصيل
كما يحقق المجموع ، فنظفر من ثم بالنظام الذي يهيمن على القوى العقلية الفاعلة كما يسيطر على حياة
العالم ، هذا النظام الفعّال والشامل الذي يمثل هدف النفس الصينية الأعظم . والطاو ، وهو
الطريق والسبيل ، على علاقة وارتباط مع الطرق العظيمة الموجبة التي نذتهي الى وسط العاصمة ،
اعني الى بيت التقويم (مينغ تانغ) او الى الصامود الذي نصبوه على مفترق الطرق الرئيسية ،
حيث - عند الظهر - لا يسمع اي صدى ولا يعطي ظلاً اي جسم وإن انتصب مستقيماً . وهذه
الصورة للوحدة المركزية التي تطفو على كل الخلافات هي ، حسب الخرافات ، صورة العالم حيث
ترتفع في وسطه شجرة عجيبة ؛ والامبراطور الذي ينتصب مستقيماً في وسط العالم هو المحور
ويسيطر على الطريق (الطاو) حيث تلتقي السماء والارض . وان وجدنا في هذه النظرية بعض
المبادئ التي لاقيناها في الهند القديمة ، نربأ أن الصين توصلت الى الشوط النهائي على مراحل مختلفة
وبفضل قياس حسي اكثر بما هو منطقي .

وداخل هذا البناء المتناسك أكثر الصينيون من التقسيمات التي تختلف رتبة ومزلة وذالك
بواسطة جداول وفهارس تحير مقاييس المقارنة فيها الفكر الغربي ولكن تستوجبها فكرة وحدة
العالم الدقيقة وتضامن الأمور الذي يلعب دوره في هذا المجال . وتجد العقلية الصينية مداها
الرحب في هذا المضمار .

ان معظم المعامات التي نعر عليها هنا وهناك والتي تتعلق بهذا الطور القديم
الطائ والمستندات تأتينا من النقوش المحفورة على العظام أو فلوس السلاحف أو قطع النحاس ،

أو من نصوص الأدب الكلاسيكي الكونفوشياني . وترتقي أقدم هذه النصوص إلى القرنين الحادي عشر والعاشر ق . م . ولكن لا يعود أصدقها من الوجهة التاريخية إلا إلى فترة تتراوح ما بين سنة ٧٧٢ و ٤٨١ ق . م . ونجد معها غالباً تعليقات خاصة في القرنين الثالث والثاني . وعلى أساس هذه المعطيات سينسج بلا ملل فلاسفة وأدباء القرون القادمة دون أن يزدوا إلا القليل القليل من الجديد . وتحوي الكتب المدرسية (كينغ) مجموعة كبرى من المعلومات المختلفة عبروا عنها بأساليب لا تقل عنها اختلافاً : أمور سحرية في « كتاب التغييرات » (يي - كينغ) ، وخطب سياسية وقرارات وقصايل عن سير الأعمال الإدارية في « كتاب التاريخ » (شو - كينغ) ، وإغاني حب وترانيم دينية وقصائد طقسية وانشيد للأعياد في « كتاب الشعر » (شي - كينغ) ، وسرد تاريخي في « كتاب الأخبار » (تش ، وان تس ، إيو وحرفياً فصول الربيع والخريف) الخ .

وهذه المستندات أدبية في مجملها ولها مسحة أكاديمية ورسمية . وهي لا تدع المجال إلا قليلاً للتفكير بالأساس الشعبي ، وردة فعل الجماهير ، ولا تتغل البنا إلا مظهر الحضارة الرسمي ، وكل ما يميز الارستوقراطية الصينية بما فيه مغالاتها في الدقة وتمسكها في المسائل الشكلية وحياتها المصطنع الذي يعتبر الياقات قوانين وقواعد . فضلاً عن المعلومات التاريخية الدقيقة جداً التي يقدمها لنا « كتاب التاريخ » فإننا نستطيع أن نستخلص فكرة شاملة عن عقائد وتقاليد التشاو . لذا نرى في « كتاب التغييرات » ظهور مبدئي ين وينغ اللذين يكونان العالم أو الطساو . وفي « كتاب التاريخ » تأكيد مبدأ الموافقة بين الإنسان والعالم بواسطة العناصر والجهات الرئيسية الخ . والطقوس ، أساس الحضارة الصينية ، هي في عهد نغوها وتطورها ، ولن توضع لها نصوص كتابية إلا ما بين القرن الرابع والقرن الأول ق . م . في ثلاثة كتب رئيسية هي « طقس التشاو » (تشاوي) ، وي يي ولي كي . وترتقي هذه الكتب إلى عهد لاحق بكثير لكونفوشيوس ولكنها تعبر عن تعاليمه .

وتهمين على عهد التشاو شخصية كونفوشيوس (حقيقية كانت أو خرافية) وخلفائه كنفسيوس (مونغ تسو) الذي عاش في القسم الثاني من القرن الرابع ق . م . وسيون كوانغ ما بين سنة ٣٠٠ و سنة ٢٣٠ ق . م .) وتطور الآداب الكونفوشيانية مستندة إلى الطقوس وساعية لنشر وتدعيم السلام في المجتمع وفي نفوس الأفراد على حد سواء . وبالمقابل نرى مبادئ الفلسفة الطاوية تعرض في كتب ثلاثة تظهر في القرنين الرابع والثالث ق . م . وهي : كتاب الطاو والطو (لاو - تسو أو طاو - طو كينغ) وكتاب تشوانغ تسو ولي تسو . وتدعم هذه الكتب سلسلة من المنشورات العقائدية التي تسعى لإحياء السلطة الحكومية بواسطة قانون جزائي . ويمتلك كتاب كثيرون ينتمون إلى مختلف العقائد الدينية « مدرسة القوانين » هذه ، التي يمثلها خاصة كونغ - سوان ينغ (ويعززون إليه كتاب تشوانغ تسو) وبين ون تسو وهان في تسو .

وفي الوقت ذاته نجد عدة مجار فكرية أخرى : مدرسة موتي (بين سنة ١٨٠٠ وسنة ١٩٠٠ ق. م.) ويعتقدون بأنه مؤلف كتاب موتسيو ، ومدرسة « الحكماء » المدعوة مدرسة الاسماء ومدرسة السياسيين ، ومدرسة الانتقائيين ... وقد قالت كلها بالإصلاحات ، وبالرجوع الى الماضي السحيق أو بالقيام بثورات . وهي تسند كل مبادئها الى السياسة والمفهوم المسادية أكثر بكثير من اسنادها الى عقائد فلسفية بعمق .

وبواسطة هذه المجموعة الادبية ، المرسومة او المنقوشة ، نستطيع ان نعيد بنسب صرح الحضارة الصينية . ولا يخلو هذا الامر من الخلل اذ يستعين بمطابق ومستندات عقلية وارشوقراطية اكثر مما يجب ؛ لذلك لا نستطيع الاعتماد الا بصورة جزئية جداً الى الاشياء والآثار المادية .

اللغة الصينية لغة ذات مقطع واحد ويمبر عنها بإشارات او « حروف » .
وتختلف اللغة الهكسية اختلافاً كلياً عن اللغة المكتوبة . إذ تخضع كلياً لكيفية النغم في اللفظ . وهي فقيرة جداً من حيث الحروف الصوتية ولكنها على نقض ذلك دقيقة جداً من حيث استعمال النبرة . وتلاقي في حالتها هذه صعوبات كبيرة للأعراب بصورة واضحة عن الفكرة المجردة . انها لا تلتقي قط للامور العلمية ولا تصلح لتحليل الافكار بل تعجيد الحقائق المعاكسة . وهذا ما يفسر لنا جزئياً بعض تطورات الآداب الصينية التي سهلت هنا وتعثرت هناك . ولكن يستحيل فهم كنه الحضارة الصينية إن جهل المرء تماماً بعض خصائص اللغة الصينية . ويسهل هذا الامر عندما نعرف مثلاً بأن نفس الكلمة « وين » مثلاً ، تدل بالوقت ذاته على الكتابة والرسم والآداب والحضارة .

ومع كل هذه الصعوبات بقيت اللغة الصينية لمدة طويلة لغة حضارة زاهية ووسيلة لنشرها في جزء فسيح من آسيا .

لمحة تاريخية
منذ زمن متوغل في القدم — لا نستطيع تقديره بالتدقيق — بدت البلاد الصينية وكأنها قسبان مختلفان : جزء من السهول المزروعة والتي تستثمرها جماعات من الفلاحين ، وقسم من المناطق الغفل حيث يعيش صيادون على شيء كثير من البداة . وإن نحن قدرنا بأن حكم السلالات الأشد قدماً يرتقي الى ما بين القرنين العشرين والخامس عشر ق. م . استطعنا ان نمزو الى هذه الفترة المصنوعات الخزفية المزينة « بالمشط » التي توافق بعض الموافقة زميلاتها في روسيا الجنوبية او سيبيريا . وحوالي سنة ١٧٠٠ (?) تظهر لنا بعض المصنوعات الخزفية الأكثر تطوراً والتي عثر عليها في هو — نان (ينغ — شاو وكين — ونغ — تشاي) تقدماً حضارياً محسوساً وذلك نسبة لتحصينها التتقي ورسومها ، مع ان تلك الحضارة لم تزل في طورها والخرافي السابق للتاريخ . ويعود هذا العهد كما يعتقدون الى حكم سلالة « هيا » . وتقعها سلالة شينغ (ما بين سنة ١٥٤٣ وسنة ١٠٢٨ تقريباً ؟) . وفي فجر حكم هذه السلالة تبرز مصنوعات من الخزف (دعورها مصنوعات بان — شان في كان — سو) وقد بلغ فن تزيينها دقة وجمالاً لا نجد لها

مثلاً في المناطق التي نستطيع ان نقارن بين مصنوعات الخزفية في الطور الذي سبق التاريخ وبين الخزفيات الصينية التي تتحدث عنها كبلاد اوكرانيا ورومانيا . وبعد فترة (حوالي القرن الرابع عشر ق.م.) تظهر فجأة عاصمة شنغية : نغان - ينغ الواقعة في أقصى شمال مقاطعة هونان الحالية (حوالي القرن الثاني عشر ق. م.) ولها جميع الخصائص التي تتميز بها حضارة كثيرة التطور الى مباني فسيحة ، وقبور ، وآثار قرابين ، وطقوس سحرية ، وأدوات عبادة ، وفنون استثمار النحاس والرخام واليشب ، وكتابات . ويضعنا فجأة علم الآثار وجهاً الى وجه أمام احدى عواصم الشنغ الاخيرة ، إذ لم يعثر بعد على العواصم التي سبقتها في الزمن والتي ترتقي الى حوالي ثلاثة قرون سابقة . وهكذا دون ان نقف على جميع مراحل تكوين حضارة تسرعني الانظار ، نجتاز بصورة مفاجئة من مرحلة مصنوعات خزفية ترتقي الى ما قبل التاريخ الى مرحلة استعمال مواد صلبة كالرخام واليشب والعظم استعمالاً دقيقاً ، ثم الى فن استثمار النحاس الذي يتطلب أدوات خصوصية ويفتح مجالات رحبة عدة . ونصل بعدئذ الى فن اللايقونات يدور كلياً تقريباً على أشكال حيوانية ويدل ، لكثرة الألغاز التي يثيرها ، على رموز ميثولوجية ، ثم اخيراً الى نوع من الكتابة التصويرية . سيتولد عنها رويداً رويداً نظام « الاحرف » الصينية . وقتل لنا نغان - ينغ حقاً ذروة الفن الصيني القديم بما تقدمه لنا من نقوش رخامية وادوات نحاسية طقسية دقيقة الصنع وفائقة الجمال : ولان يتوصلاوا قط في الازمنة اللاحقة الى روعة هذه الادوات النحاسية ، كما لن يتوصلاوا إلا بعد مرور قرون عدة الى مثل هذه النقوش الحجرية النائية . وتتفق هذه الاكتشافات مع التقاليد الصينية التاريخية التي تبرز بكل وضوح أبهة وعظمة بلاط سلالة الشنغ .

ولكن لا نكتسب المعطيات التاريخية قوة ووزناً الا مع بدء حكم سلالة التشاو . وسمحت سيول المهاجرين الصينيين الذين تقدموا رويداً رويداً بفتحاتهم نحو الشمال والغرب والجنوب ابتداء من السهل الكبير ، نقطة انطلاقهم ، الى استقرار الاسر الارستوقراطية استقراراً ثابتاً . واستوطنت أسرة التشاو في وادي «وي» العالي في شن سي (العاصمة تشانغ - نغان) ، وعاشت الحياة الاقطاعية المعروفة في ذلك العهد تسيرها ضرورات الانتاج الزراعي والدفاع المسلح عن مناطقها ضد هجمات القبائل شبه البربرية التي كانت تحيط بالاراضي الزراعية . وقوت حياة التقشف والجد هذه أحد أفراد أسرة تشاو (وفا - ونغ) فثار على آخر ملوك الشنغ في القرن الحادي عشر ق. م . بعد ان لمس منه ضعفاً ، ثم هاجمه وظفر به وأعلن نفسه ملكاً .

وغدا هذا الحادث فجر عهد سيدوم قرابة ثلاثة قرون تسيطر أثناءها السلالة الجديدة على مصير وتطور الحضارة الصينية . ولم يحدث هذا التطور دون عائق اذ لم يمحصر التشاو بين يدهم السلطة المطلقة : لقد حكموا فقط أقوى مملكة في عهدهم واجبروا على خوض معارك دون هوادة ضد الامارات الثلاث الاشد قوة التي كانت تتنافس بقية المنطقة « المتحضرة » . واتبعوا حياة

وقامت على انقاضها ثلاث امارات اخرى،التشاور والهان و«وي». واستمرت هذه الحالة السياسية
القلقة والمتقلبة وفقاً لاهواء واقدار القتال حتى سنة ٣٣٥ ق . م . عندما حقق الامراء
الاقطاعيون الأشد شكية تجزئة المملكة واتخذ كل منهم لقب « الملك » : وهذا هو بدء عهد
قيام «الممالك المحاربة» (التي وجدت بصورة عملية منذ سنة ٤٨١) . وهذا العهد هو فترة حروب
متواصلة ، وغالباً غير مشرفة جندت لها الجماهير الشعبية كما جندت فرق المرتزقة ، ولكن
بدأت مملكة تسين منذ سنة ٣١٠ توحيد البلاد لمصلحتها . وقد انتهت عملها هذا سنة
٢٢١ : «وقد اسست الامبراطورية الصينية في نفس الوقت الذي حققت فيه الوحدة
الصينية » . (رفيه غروسه) .



الحضارة الصينية أيام الشنغ والتشاو

١ - عهد الشنغ

مع انه يستحيل علينا تحديد المراحل الزمنية لهذا العهد فقد حصلنا على بعض التفاصيل التي تصفه لنا بصورة قد تكون مجدية . وتتألف الصين في هذا الطور من بقعة منحصرة وسط شعوب من البرابرة . ومن المحتمل بأن شعب هذه الجزيرة قسم قسمين كما سيحصل في الزمن اللاحق . وعلى رأس المراتب يوجد الملك (ونغ) الذي ينظم في الوقت ذاته الامور الدينية والمسائل المدنية والادارية . ولكن من المحتمل بأنه كان لموجباته الدينية ، كما حصل في ازمته ما قبل التاريخ - الافضلية على مهامه المدنية . وعاش الملك ، وهو شخص مقدس ، في قصر منفرد ، يقوم باقام الطقوس الموسمية والرسومية ، اذ يستند اليه نظام العالم الطيعمي . واقام المقر الملكي أيام الشنغ ، كما كان ايضاً عهد التشاو ، في احدى ضواحي العاصمة الجنوبية - الغربية . ومع هذا يظهر بأن الملك سكن في العاصمة . وكانت سلطته مبدئياً مطلقة . ولكن بقي الملك مع هذا اساس نظام سيامي محدد ينقل الوزراء وكبار القواد والموظفين اوامره ، وذلك نسبة الى عزله المقدسة التي فرضت قديماً وسطاء بينه وبين شعبه . ويقدم الملك كل الذبائح الكبرى الى الآلهة او الجودود الاموات . وهو الذي يستشيرهم بواسطة السحر عن الحصاد وتربية المواشي وهبوب الارياح وهطول الامطار الخ ، وقد يقوم ، عندما يستلم زمام السلطة ، برقصة تذكر بانتصارات جده الميثولوجية .

ويمش الملك في قصر قائم في العاصمة . ويحيط به وزيره الاول (كنج - شه) وكبار قواده الذين ينقلون اوامره وقراراته ، ويسهرون على تنفيذ اصول الياقات اثناء الاحتفالات الكبرى ، ويمدون ويحفظون المستندات الملكية ، ويقومون ببعض الطقوس ، ويسهرون على الكنز الملكي ويحفظونه . وهناك موظفون آخرون يساعدون كبار رجال الادارة هؤلاء . فهم

الذين يسهرون على تهيئة الطعام للقصر ، ونظافته وامنه . ويوجد خدم (شو) مخصصون لخدمة نساء القصر .

ويهتم الملك بالدرجة الاولى بالانتاج الزراعي ، فيعين مفتشوه البذار ويراقبون الحصاد . ولا تختلف حياة الفلاح اختلافاً كبيراً عن الحالة التي تصبح عليها ايام حكم السلالات اللاحقة ، أو تلك التي سبق عليها حتى عصرنا الحاضر . ولكن مع هذا يجب الاقارار بأنها كانت اكثر بداءة . واشهر مزروعات الحبوب استناداً الى طبيعة الارض هي الجاويرس والحنطة والارز . وتحمي الاراضي المزروعة كوم من التراب . ويسكن الفلاحون في مغاور يحفرونها في الصخور وقد تلامس اللس (الارض الرسوبية) في المناطق الشرقية . ولم تكن البيوت - ان كانوا قد عرفوها في ذلك العهد - الا من السباع ، ولا تستطيع مقاومة تقلبات الطقس . واعتنوا بتربية الثيران الداجنة والاحصنة . الحنازير والحراف ، التي كانت تقدم ذبائح .

ويظهر بأن الحرب والقنص كانا من امتيازات النبلاء . واستفتى الملك فلوس السلاحف المقدسة ليعرف اذا كانت الارياح ستعرض اعماله هذه او اذا كان عليه ان يتخذ قراراً تفرضه الحوادث . ويتألف الجيش من الحياالة وعجلات الحرب والمشاة ، وكان هؤلاء من الفلاحين بينما انتمى اولئك الى النبلاء . ويذكرون جيشاً يعد ثلاثة آلاف رجل ، وفرقة من الحياالة تنقسم الى ثلاثة اقسام يضم كل منها مئة خيال . والاسلحة على شيء كثير من الاختلاف والتطور ، ويصنعونها خاصة من النحاس اذ ان الحجر واليشب اصبحا يستعملان فقط للأسلحة الطقسية . ولن يظهر الحديد الا في أواخر عهد التشاو . ومن الأسلحة التي يعددونها السيف والقوس (التي تصلح لاطلاق النبال او الكرات) ، والسهم والفأس والحربة . . وكانت الورقة من جلد . وتعاطوا القنص في الادغال التي تحيط بالاراضي المزروعة ، ويقومون به بجيش من الماعدين يقتلون او يقبضون على النمر والفهد والهر البري والسبتي والدب والثور الوحشي والفيسل والكركدن والذئب والحنازير البري والضبع . وكانت هناك طرائد اقل شراسة تسرح زرافات زرافات كالابل والوعل والسعدان والأرنب والعصفور . . .

وان احتلت الزراعة المركز الاول في الحياة الصينية كما تثبت ذلك السؤالات والاجوبة المنقوشة على الفلوس او العظام السحرية ، فان الآثار القديمة التي وصلتنا تثبت ايضاً قيام بعض الفنون التقنية ومن ثم بعض المهن التي لا نعرف عنها مع هذا اي ايضاح . فهم يشتغلون العظم والعاج ، ويستثمرون وينحتون اليشب ، ويحفرون على فلوس السلاحف وقرون الكركدن والعظم والعاج واليشب والنحاس والحنازير . وقد توصلوا الى اذابة النحاس واعطائه الاشكال التي يريدون ، وعجن الخزف وشبهه واعطائه مختلف الهيئات .

ومن الصعب جداً ايضاً الوقوف على المعتقدات التي سادت في ذلك العصر ، مع الجهود التي بذلت في هذا المجال منذ اقدم الازمنة . ولكن باستطاعتنا التأكيد بأن المعلومات التي وصلتنا والتي تتعلق بالفلاحة والحراث والطقوس والموسيقى والتقويم واعمال المساحة هي قريبة جداً

من الحقيقة ، ولكنها ستقبلور اكثر ايام التشاور . لذا سنأتي فيما بعد على دراستها .

٢ - الحصار الصينية ايام التشاور

ان توسع المجتمع ايام التشاور والتطور السياسي والاداري الذي حصل بصورة سريعة في بعض الامارات (كإمارة تنس بن مثلاً) منذ أواخر القرن الخامس يجعلان كل وصف يعطى بصورة قاطعة أمراً تحكيمياً . وعلينا ان نفهم بأن كل ما سنأتي على ذكره يختص بصورة اولية بالمناطق التي خضعت مباشرة للإدارة الملكية ؛ وسنقدر من ثم دون صعوبة مدى ما نحن مدينون به لكتاب هنري مسيرو « الصين القديمة » .

المستندات
أصبح القنص والصيد وسيلتين للهو والتسلية اكثر مما هما وسائل لكسب العيش ، ولكنها يعودان مع هذا بالربح الوفير ، ويستعملون للقنص الحصان . اما الاسلحة فهي القوس والنبال ذوات الرأس المعدني والشباك والمصائد . والطريدة متنوعة جداً : الرنمو والتدرج والحضاري والأوز البري والساي والارنب وعناق الارض واليربوع والضبع والسنور البري والوعلة والاييل والخنزير البري والكركدن والثور والنمر الخ . والقنص هو هوا النبلاء والسادة . وقنص الحيوانات المفترسة هو هواهم المفضل ، وهو من الالعاب الرياضية الشرسة يقومون به جماعات جماعات وينهون بأقامة اعياد يفرضون فيها أكلًا وشرباً . ويعتبره الفلاح عمل سخرة يقوم به لإعالة سيده .

أما الصيد فهو أقل ذكراً من القنص ويستعملون له القراطل والشباك الصغيرة والكبيرة . وهم يعددون نحو عشرة اصناف مختلفة من الاممك التي تستعمل للغذاء .

ولكن تطفو الزراعة على كل نشاط آخر . فان الانتصار على الارض ، وقد اشتد الصراع ضدها بكل شجاعة منذ عهد لا يدرك بدأه عقل ، لا يتبع حتى ذاك التاريخ تخصيص هذه المنطقة لنوع من المزروعات ، كما سيحدث فيما بعد : فالمنطقة الواحدة تنتج كل ما يحتاجون اليه . ومع تطور الجماعات الريفية كثر عدد الاصناف المزروعة ، واتسعت اعمال قطع الغابات ، وتزايدت افعال تهيئة الارض للزراع بواسطة الماء والنار . وهم يستعملون المحراث والمنجل والغأس ، وكلها من معدين ، وخاصة الجرفقة . ويسرون في زراعتهم على المبدأ المتبع في زراعة الخضار إذ ان الحقول هي قليلة المساحة ويستثمرونها كما يستثمرون البساتين ، وتنضد المزروعات حول الارض المرتفعة التي يسكنونها ، تجاور البيت المزروعات الاكثر قيمة : بستان الخضار ثم الاشجار المثمرة ، وعلى بعض المسافة حقول النباتات الفسيحة واما القنص ، ثم الخضار الجافة والحبوب ، واخيراً في أقصى جهات الارض المروية حقول الارز .

وأضافوا الى مزروعات العهد السابق (الجاورس والحنطة والشعير والارز) الذرة والكوسى والخيار واللوبياء والحمص (وهم يعرفون الاحتفاظ بهذه الاصناف يابسة) والبطيخ والثمار التي تؤكل ، يضيفون اليها العنب البري والبصل والثوم وبعض انواع الاعشاب التي يستعملونها

كتوابل . وتنمو في البساتين شجرة التوت و انواع عدة من الاشجار المثمرة (كأشجار الكثرى والكرز والدراقن والمشمش والسفرجل والخوخ والكستنا والعناب ، وقد أدخلوا هذه الثمار الثلاث الاخيرة في بعض ألوان الطعام) . واحتنوا بصورة خاصة بشجرة التوت وغرسه القنب وهما منابع مرباح . وتستثمر شجرة التوت لتربية دود القز التي تغذي خيوطها المستخرجة أيام الحريف اعمال النسيج طوال أسابيع الشتاء . وهم ينسجون القنب في الربيع . ويستثمرون ايضاً بعض أصناف اشجار الغابات (كأشجار البندق والخور والسنديان والدردار ...) . ويعتنون بتربية المواشي ، ولكن يظهر بأنهم لم يوجدوا قطعاناً كثيرة العدد . وقد تنحصر حيوانات هذه الاقطاع ببعض الأحصنة والثيران والحراف . ولا يعتمدون على هذه الحيوانات لجر العربات إذ يقوم الانسان بمعظم الاشغال مستعيناً بالسلال والقفف ، مع انهم عرفوا العربات . ويربون حيوانات داجنة للتغذية : كالخنازير والارنب والدجاج والعصافير . ولا بد من اضافة الهر والكلب والوعل الى هذه الاصناف ، وحتى الفيل ايضاً في مناطق الجنوب .

ويختلف المنتوج الزراعي باختلاف المناطق ، وتبعاً لحصص الارض وأهمية اليد العاملة وحسن مناخ الفصول . وتنتج بعض المقاطعات الارز بكيات هائلة ، كمنطقة تش رو ، وتستثمر غيرها للحبوب ، كمنطقة تسين التي تستطيع ان تمون ، كما يقال ، المناطق الاخرى في السنين المعجاف . وهم يعتنون اعتناء خاصاً بأعمال الري التي تكون عنصراً أساسياً لهذا الازدهار .

وتعود ملكية الاراضي الى السيد . ويستغل الفلاحون هذه الاراضي لصالح المتبوع . واستناداً الى التقاليد الصينية ، التي تعكس كما يبدو الهدف الاعلى ، يوزعون الحقول على الفلاحين ، فتتال كل اسرة حقلاً . ولكل من هذه الحقول مساحة مربعة محددة ، تؤلف تسعة منها مجموعة واحدة . وتستثمر ثمانية من كل مجموعة لإعاشة ثماني عائلات ، اما منتوج الحقل التاسع (ويعتبر من الممتلكات العامة) الواقع في وسط الحقول الاخرى والذي تعني به معا العائلات ، فيخصص للملك او للسيد ويعتبر محصوله كضريبة .

وفي الصيف يسكن الفلاحون على الاراضي المزروعة في اكواخ مؤقتة . وعند اقتراب الحصاد يشددون الحراسة ضد السارقين والخنازير البرية والطيور . إذ للمحصول دور رئيسي في هذا العالم الاقطاعي ، فإن أتى جيداً يعتبرونه علامة نصر أكيد ، وإن كان رديئاً جلب الفساقه والجوع وزرع نظام المملكة . ويكون هذا المحصول الهدف الذي يزول اليه كل جيش مظفر .

والصناع والتجار قليلو العدد ، ومع هذا فهم اساس الحياة الصناعية التي عرفت حتى في هذا الطور بعض الازدهار ، ولكنها ستغدو ، في وقت لاحق ، منافسة خطيرة للزراعة . ويحتل النسيج ، الذي تقوم به النساء ، المركز الاول : فيصنعن اقشة حريرية وقد يطرزنها ، وقطعا من القنب ، وثياباً من خيطان النباتات التي تعارش . وعرف القوم كيف يصفرون الاشواك والاقصاب والقراص والتبن ، يستعملون الخيزران ويستثمرون الجلود . ويصنعون من الخشب والمعدن

والخزف والحجر واليشب أدوات الفلاحة والمجالات والأسلحة (كالحراب والدبابيس والأقواس والسهام والتروس وسلام المارك الخ .) وأدوات الموسيقى التي يكثر عددها حتى في ذلك العهد (كالطبول المختلفة الأنواع والمزامير والأعواد والطنايير والأجراس والصنوج الخ .) وأدوات متنوعة جداً للاستعمال (كدبابيس الشعر والمخارز والمقاص والملاعق والفؤوس والمراجل والطناجر الخ .) وهم قد استعملوا النحاس إذ لم يظهر الحديد إلا في أواخر عهد التشاو .

وغدا استثمار الأملاح والمعادن أساس ثروة بعض المناطق ، خصوصاً مقاطعتي تسين وتسين . وازدهرت أيضاً تجارة هذه المعادن .

ومع هذا لم تتسع التجارة إلا في وقت لاحق . وكان أساسها مبدأ الشراء والبيع أو المقايضة . وقد أتوا على ذكر الأرباح التي بلغت مراراً حداً عالياً إذ يؤكدون وجود تجار أغنياء ، صاحبوا الأمراء الاقطاعيين ، وعاشوا حياة بذخ ورفاهية ، يرتدون الثياب الحريرية المزركشة ويتنقلون في عربات يزينا الذهب واليشب . وجري التعامل التجاري بواسطة نقد كان ، أيام التشانغ ، عبارة عن نوع من الأصداف ، ثم أصبح قطعاً عظيمة ، إلى أن غدا من النحاس وكانت وحدة هذا النقد أولاً (الوان) (نحو ثلاث اواق ؟) ثم — أيام التشاو الشرقيين — الكين (نصف اوقية ؟) وقد جعلوه سبائك تزن كل منها عشر اوقيسات أو اثنتي عشرة اوقية (؟) . ولم يسكوا النقود الأولى بأشكال مختلفة (كالسيف والجرس الخ .) إلا في أواخر القرن الخامس .

ومع نمو واطراد التجارة غدت مشكلة إيجاد طرق المواصلات وصيانتها هم الإدارة الأكبر . ولا تسير فقط على الطرق قوافل التجار بل أيضاً العربات التي جهزت خصوصاً لتنقل الجمهور . ولم يستعملوا الأنهر للتنقل قبل قيام الدول الحاربية . وكانوا يعبرون مجاري المياه سباحة أو عند المزارات . وبواسطة وسائل النقل هذه تبادلت مختلف المقاطعات المواد الغذائية والأولية كالسك والملاح والنحاس والذهب والجلد والخيزران والخشب والزنجفر والحبوب .

ومع الزمن وتحسين سبل المواصلات وازدهار الصناعة أصبحت التجارة تنافس بصورة جدية الزراعة . ومنذ القرن الخامس ق. م. يلاحظ المرء سعي حكام المقاطعات لحفظ التوازن بين الزراعة والتجارة وميلهم المتزايد لمساندة سكان الأرياف وحمايتهم وثأمين الأرباح التي تعود إليهم .

وتشمل الحياة الاقتصادية التي أتيناعلى وصفها الضرائب والأرباح والخسائر التي تسببها الحروب . وهو يختلف باختلاف المناطق ويزداد كلما ابتعد المرء عن العاصمة . وتسدد هذه الضريبة أكثر الإحيان بإعطاء مواد طبيعية ، بينما تسدد الضرائب والمكوس في الأسواق بدفع قطع نقدية نحاسية . وقد تبلغ أكثر الضرائب فداحة ربع المنتج ، ولكن لا يصل منها إلى الخزينة الملكية إلا جزء ضئيل بسبب بطء المواصلات وكثرة عدد الوسطاء الاداريين بين العاصمة والمقاطعات . ويفرض ذوو السلطة الاقطاعيون ضرائب مباشرة ، كما تجبى مكوس من أثاث

السلع المتبادلة كالسك والملح . وتعجنى الدولة علاوات اضافية من الغابات والاملاح والمعادن التي تحتكرها . ومع هذا يبقى ريع الخزينة أقل من الريع الذي كان من الممكن ان يحققه نظام يقوم على المراقبة الدقيقة والجديّة . وان هم أمنوا ما تطلبه الحياة العادية فان المصاريف الاستثنائية تجد خزينة فارغة .

يظهر أن المجتمع ، أيام حكم النشار الغربيين ، لم ينقسم فئات محكمة الوضع حكماً اجتماعياً سيجري ذلك بصورة مطردة عندما سيسعون الى تحقيق الوحدة السياسية وتثبيت السلطة المطلقة . فهناك طبقتان كبيرتان تضم أفراد المجتمع : طبقة الفلاحين السفلى ، وطبقة النبلاء العليا (شي *Chie*) وهم الأشراف بالوراثة . ولكن سرعان ما تشعبت الطبقتان فرقاً فرقاً ، تبرز الواحدة زميلاتها حقوقاً ، ففي المقام الدّون ، نجد العبيد والفلاحين ثم نرتفع تدريجياً الى العمال الصناعيين والتجار فالأدباء فالموظفين فالوزراء فالموظفين الكبار فالنبلاء فالأمرأه حتى الامبراطور الذي يسيطر على هرم الرتب .

ان أساس المجتمع هو دون شك عامة الشعب . وللغامة هذه نظام يختلف في كل شيء عن نظام النبلاء . فالفلاحون ، وهم يشتغلون سوية ويعيشون معاً ، لا يتمتعون بشخصية ما ولا يأثرون بمبادرة ما . انهم تباع الارض التي يستثمرون ، وينتقلون معها من يد الى أخرى دون أن يصبحوا لها مالكيين بالمعنى الحصري . انهم لا يتبعون طقساً بل يخضعون فقط للتقاليد .

ومن المفروض ان يحثي الفلاح من عمله كل ما يحتاج إليه ليقوم بأود أمرته ويبيع ما يفيض في اسواق المدينة . وهذه هي علاقته الوحيدة مع العالم الخارجي والادارة . ومع هذا فلا تختص هذه العلاقة بالفرد بل بالطبقة التي ينتمي إليها والتي لها وحدها شخصية معنوية أمام رجال الحكم والادارة . ان حياته رهن بالفصول . ففي الشتاء ينزوي الفلاح بحكم الضرورة ويعود الى قصبته مع أفراد أسرته ليعيش ضمن اطار ربيته وبستانه الصغير . ويقوم بالأعمال التي يتطلبها المسكن . وعند حلول الصيف يترك الفلاح قريته ويقيم مع امرأته وأولاده على الأرض التي يزرعها ، وقد حمل أدواته الضرورية وأشعل ناراً جديدة في بقعة حددت خصوصاً لهذه الغاية في الحقول . ومع الحياة هذه في الهواء الطلق تنكشف على نفسها نظم حياة الاسرة إذ يخضع كل شيء عندئذ للحياة الجماعية .

ولا يعرف أفراد العوام هؤلاء الزواج (هوان *Houen*) ، إذ لا طقوس خصوصية لهم ، بل موافقة الرجل على العيش مع المرأة معاً (بن *Pen*) . ويجري هذا الأمر عادة في الربيع ، وذلك استناداً الى رأي الوسيط ، في وقت يقيمون فيه اعياداً كبيرة تسعف اقامة الفلاحين على الارض التي سيستثمرونها . وهذا الاتحاد هو حر طليق من كل شرط ، يثبتونه ان تحقق الأمل بانجاب البنين ، أثناء حفلة عمومية .

وتختلف الطبقة الاجتماعية الاخرى ، ففئة النبلاء ، عن العوام اختلافاً أساسياً بمأثلين

رئيسيتين : فلكل من افراد هذه الطبقة جدود ، وهو ينتسب الى اسرة . وتنتج عن هذه الحقيقة سلسلة اختلافات جوهرية : فالجد ، وقد كان رجلاً نبيلاً ، او بطلاً او امبراطوراً ، امتلك دون شك ارضاً او قام بوظيفة رسمية . واستناداً الى هذا الواقع فهو قد أدّى طقوس العبادة واعطى اسم جماعة . لذا غداً من الطبيعي ان يصبح أحفاده اعضاء في قبيلة ما ، فيقيمون طقساً ، ويمطون ارضاً او تسند إليهم وظيفة ، وبينما يضيع الفلاح وسط جماعة لا اسم لها ولا خصائص ، يصبح للفرد النبيل شخصية محددة ضمن عشيرته .

ولهذه الجماعات ايام التشاو ، مهما كان اصلها ولسبها ، خصائص جماعة دينية تحرم على افرادها كل علاقة زواجية فيما بينهم . ويبدو بأن عدد هذه الجماعات كان محدوداً ولم يتجاوز المئة . وكرمت كل جماعة جديداً كان يعرفها إلهاً او بطلاً (إله الجاورس ، إله قة الشرق الخ ..) . وكان لبعض من هذه الجماعات جد واحد . ونجد في هذه العبادات التي قدموها للجدود ، وقد يكونون بعض المزارع حيوانات او نباتات كالجاورس ، آثاراً قديمة جداً ، ولكن يصعب الوقوف عليها في هذا العهد .

وان كان التقسيم العشائري يقيم من النبلاء جماعة دينية فان التقسيم الذي يسيطر على تنظيم الاسرة والفرع والبيت هو تقسيم اداري ومدني بحث ويعتبر فرعاً من الاول . ان رأس البيت او الاسرة هو السيد المطاع : فهو الذي يقرر الزواج أو يبطله والذي يقبل او يرفض الأولاد ؛ وهو يمثل بشخصه كل أفراد المجموعة ، ويقاضيهم ويعاقبهم مباشرة دون ان يتدخل قضاء الدولة . ولا يخضع لسلطانه فقط افراد الاسرة المقيمون معه بل ايضاً الذين استقروا بعيداً .

وامتياز النبلاء الأساسي هو تملك الارض ، إن أعطيت لهم على سبيل الاقطاع او الملك الصرف . والنبلاء فئات عدة تتفاوت أوضاعها ان كانوا نبلاء ريفيين او قواداً كباراً او موظفين ادازيين . وهناك مبدئياً خمس درجات بين الاشراف نوازي تقريباً فئات من ندعوم اليوم دوق ومركيز وكونت وفيكونت وبارون وتختلف مساحة ممتلكاتهم باختلاف ألقابهم . ومع هذا تختلف ثروتهم المادية باختلاف الظروف . فقد نجد نبيلاً وافر الغنى يملك أراضي تدر عليه أرباحاً طائلة ، كما نلاقي شريفاً ذا ثروة بسيطة او حتى فقيراً جداً يجد نفسه مضطراً لخدمة سيده الذي يدافع عنه ويقدم له الغذاء وذلك بدل طاعته وخضوعه له : فهو يسير معه الى الحرب ويسلك في كل شيء كأنه تابعه ، ويقوم بوظائف مختلفة في بيت متبوعه كأن يصبح امير أخوره او سائق عربته او احد جنوده او حارس ثروته او احد طبائمه الخ . وقد يختار بعض النبلاء القليلي المال أعمالاً أكثر حرية (كعمل في مدرسة قروية او كاهن او ساحر او منجم او طبيب الخ ...) كما يتعاطى بعضهم التجارة او يصبحون وكلاء عند كبار اصحاب الأملاك ولكنهم يبقون ، مهما أصبح مركزهم ، أهلاً لتبوء اعلی الوظائف ولا يختلطون قط مع طبقة العوام إذ للنبلاء فضيلة

(طاو - طو) تعد اساس قوة و ثروة الرئيس وهي التي تحمي بصورة معاكسة - ونستطيع ان نقول بالمعنى - البلاد بأجها من طبيعة الى حيوان الى انسان ، وتحفظ لكل شيء الازدهار وتبعده عن الوهن وحتى الموت . وهكذا يستند كل امر الى السيد وروحه هذه ذات المفعول السحري وهو يعد اساس هذا المجتمع الاقطاعي . انه يختصر في ذاته كل القوى الفاعلة ويحدها بواسطة الطقس .

ان امتلاك الاقطاعية التي يقرر الملك تقليدها ، يجعل من النبيل اميراً او تابعاً لسيد الملك او لأمير آخر اكثر قوة . وتجري هذه التولية أثناء احتفال مهيب وتعطي النبيل حقوقاً وموجبات جديدة فيما يتعلق باقطاعه وأتباعه وسيد .

ان الملك هو في الوقت نفسه أمير الأمراء ، والنبيل الاول ، وابن السماء الذي وكل اليه سيد الاعالي مهمة حكم الشعب النبيلة والابقاء على نظام العالم الطبيعي إذ تعادل فضيلته المهمة المسنودة اليه . وهكذا يتم التوازن ما بين سلطانه الكهنوتية والسياسية . فهو يحدد الوقت في كل شهر ، ويقر القوانين ، ويسمح بمقابله ، ويلفظ الاحكام الخ . والسلطة الملكية ارضية يرثها الابن عن الأب . ويعتبر ابن الامراة الشرعية البكر الوارث القانوني . وعلى النساء ان ينظرن ويعقررن هذا الامر قبل حدوثه إذ لا بد من إقامة طقس خصوصي حتى ينقل اخو الملك المتوفى او ابن شقيقته ولو بصورة رمزية السلطات الى الوريث صاحب الحق .

المهنة الادارية مع اتساع مدى الزراعة والتجارة والمدن غذا من الضروري ان تصبح الادارة ايام التشاؤ اكثر تنظيمياً . وشبهوا الادارة هذه بهرم يسيطر على قمته الملك ووزيره الاول الذي لا يقل عنه بالواقع سلطة ونفوذاً خصوصاً اذا كان الملك ضعيف الارادة . ثم يلي الملك ورئيس وزرائه الوزراء الثلاثة الأكثر أهمية وهم وزراء الزراعة والحرب والاشغال العامة . ولوزير الزراعة دون شك الأهمية الكبرى في بلد زراعي وحضري في الدرجة الأولى . وهو يدير جهازاً محلياً يقرر بكل دقة أعمال الحقول ، وكيفية تصريف المحاصيل ، وبصورة أعم حياة الفلاحين أنفسهم ، وزواجهم وأعيادهم واجتماعاتهم . ويعتني وزير الحربية بكل الشؤون العسكرية كتجنيد الجيوش ومواسم الصيد والاستمراضات والتدريب الحربي : وهو يراقب مستودعات الذخائر والعمرات والخيول وزرائب الأحصنة الأصيلة . وهو الذي يمثل منوياً الامبراطورية اذ يحمل بكل عظمة وقت إحراز النصر ويرتدي ثياب الحزن ان اندحرت جيوش الدولة . ولا يهتم وزير الأشغال العامة إلا في الحقول وما يعود اليها . فهو الذي يقيس الحقول ويوزعها ويقم الطرقات ويسهر على صيانتها ، ويبني القنوات والسدود الخ . وعلاوة على هذا فهو يهتم أيضاً بشؤون العمال الصناعيين .

ويلي هؤلاء الوزراء ثلاثة وزراء آخرين يعنون بأمور الملك الخصوصية والقضاء الجزائي . ويهتم الاول بصيانة القصر الملكي وتكوينه وتأمين سير الخدمة فيه سيراً حسناً ، وبالأموال الملكية

ويعتني الثاني بصورة خاصة بشؤون العبادة ويراقب الكهنة والمنجمين والسحرة والأطباء الخ . ويعود الى مدير الشؤون القضائية الجزائية تطبيق القانون وإنزال العقوبات . وتتراوح العقوبات ما بين أحكام الموت ووشم الوجه مروراً بقطع الاعضاء التناسلية والأرجل وجذع الأنف . وهو لا يتعاطى القضاء بصورة شخصية إلا متى عوقبت الجريمة بالموت . ومع هذا يمكن استبدال كل عقوبة بدفع بدل حسب معدل مقرر يبلغ ألف سبيكة نحاس لإنقاذ حياة الرجل . ويحيط بهؤلاء الوزراء (وقد أطلقوا عليهم منذ القرن الرابع ق . م . اسم « الوزراء الستة ») عدد كبير من الموظفين . وهكذا غدا هيكل رجال ادارة البلاد معقداً جداً .

ولا تقتصر بطانة الملك على من ذكر ، اذ نجد ايضاً مجلساً يحمل اعضاؤه ألقاباً شرفية دون ان تحدد مع هذا وظائفهم . وعلاوة على ذلك فهناك وظائف في القصر الملكي وهي غالباً ما تكون إرثية يسعون اليها بكل نشاط اذ تقرب أربابها من الملك : رئيس الخوان ، وأمناء سر المال ، وكبير الكتبة الخ . ولا يخلو نظام الادارة هذا من بعض الشوائب . وخطؤه الأكبر انه يعمد بوظائف مختلفة الى الاشخاص انفسهم . لذا - عندما يضعف الملك - تتفكك عرى هذا النظام وتعمق الهوة التي تفصل بين الواقع والمباذى .

وتقسم ممتلكات الملك الى مقاطعات (هيانغ) يحكم كلا منها قائد كبير (تي - فو) . وتتجزأ هذه المقاطعات بدورها الى محافظات فنواح فديريات فمدن فقرى يتولى شؤون كل منها موظفون تقل رتبهم بصورة تدريجية . وينتخب هؤلاء الموظفون من الاشراف والنبلاء المحليين ، وهم يهيمنون تماماً على حياة الريف والمدينة فيقدمون الذبائح المقررة وينظمون اعمال المساحة واحتفالات الحياة الشخصية ، ويشرفون على عائدات المحاصيل الزراعية . ويستوفون الضرائب . وهم يقدمون سنوياً تقارير لرؤسائهم عن اعمالهم ، ويوجد مفتشون يراقبونهم ويضعون التقارير عن كيفية ادارتهم ، ويساعدهم جيش من الموظفين ذوي الاختصاص يكون الشعب على اتصال مباشر معهم كالمشرفين على المستودعات والجباة والموزعين الخ . ولا تقتصر مهمة رجال الادارة هؤلاء على تصريف شؤون البلاد المدنية بل تتعداها الى الاعمال القضائية يساعدهم فيها قضاة محليون . وتخضع القضية التي تتجاوز صلاحياتهم الى سلطات قضائية اعلى . وتضاف اخيراً الى وظائفهم المدنية والقضائية هذه مهام حربية اذ يصبح رجال الادارة هؤلاء في زمن الحرب تحت تصرف وزير الحربية . والتنظيم الحربي هو صورة طبق الأصل للنظام المدني وقد كان ذلك مثلاً لهذا في القرون الغابرة .

ويتألف الجيش من رجال تجبر الأسر على تقديمهم (وعلى كل اسرة ان تقدم محارباً) . ويبلغ عدد الجيش (١٢٥٠٠) جندي يقسمون خمسة فيالتي ، ويجزأ الفيلق الى خمس كتائب والكتيبة الى خمس فرق ، توافق كل منها منطقة . والممتلكات الملكية ستة جيوش ، ولا يحق للاتباع إلا حشد ثلاثة جيوش . او جيشين او جيش واحد . ويشمل كل جيش ، علاوة عن فرق

الحياة ، عربات قتال تجرها الخيل . سلاح المعركة هو الحربة والقوس ، وتعطى الأوامر بواسطة الطبول والاعلام . ويجهلون خطط القتال ، التي لن تعرف التطور والرقى إلا مع ظهور الممالك الحاربة ، عندما يحل الحياة مكان العربات . ومع هذا فله جيش منزلة رفيعة في حياة الرجل النبيل ؛ ففي هذا العهد الانقطاعي حيث تلعب المعارك والفتوحات دوراً عظيماً غدت الحرب عمل بطولة شريفة تخضع لقوانين المدينة التي تنعكس أنظمتها على كيفية ترتيب المعسكر والتي توافق سلسلة درجاتها الادارية مع سلسلة المراتب العسكرية .

ولكل اماراة واقطاعة نظام اداري يشبه نظام ادارة الأملاك الملكية . وسعى ملوك التشاو لجمع هذه المناطق وتوحيد حكمها : لذا قسموا البلاد الى تسع مقاطعات (تشاو) يعين على رأس كل منها حاكم (بو امو) يمثل السلطة الملكية ويحافظ على الأمن ويصدر الأحكام القضائية . ويكون عادة هذا الحاكم نبيلاً من المنطقة ، ويحبر بصفته من أتباع الملك المباشرين ان يقدم للعامل الخضوع في اوقات محددة ويؤدي له ضريبة عينية — تتكون عادة من المنتوجات التي تتفرد بها المنطقة — ويقدم له العون في زمن الحرب .

وهذا النظام هو بعيد عن الكمال والدقة إذ يسمى غالباً هؤلاء الحكام ، وقد غدوا يميزون عن المراقبة الملكية ، لتتحرر من السلطة المركزية لا بل للتحالف ضدها احياناً ، ولن تجدي مساعي التوحيد الاولى حتى ولو قام بها ملك متجبر وقوي الشكينة إذ ان عزلة كل مقاطعة واستقلال الحكام وصعوبة المواصلات تؤلف عوامل تساعد الانتفاضات الفردية وتحول دون قمعها . ويقوم الأمراء انفسهم بأعمال الأمن ويفرض بعض منهم قوانين أشد صرامة من قرارات الحكيم المركزي ، ومن أشهر هؤلاء الكونت هياو من تسين في القرن الخامس الذي أقام ، بمساعدة وزيره يانغ ، حكماً مطلقاً تعد اصلاحاته امراً ثورياً بالنسبة الى السلطة المركزية . ففي كل ناحية من نواحي الصين الغربية المتمدنة ظهرت اصلاحات مماثلة تهدف الى تعديل النظام الاجتماعي وتحسين انتاج الارض وتوزيع المهام الادارية وتأمين موارد منتظمة ، وهذه هي تباشير سقوط حكم التشاو وسيادة الممالك المنافسة .

ينقسم رجال الكهنوت فئتين لكل منهما منزلة على طرفي نقيض مع الاخرى . رجال الكهنوت ويتخذ افراد الفئة الاولى من النبلاء ويتفرعون طبقات عدة فمنهم الكهنة الرسميون والمصلون والمنجمون والسحرة ومفسرو الاحلام والمظاهر الطبيعية والفلكيون ، وتشمل الثانية رجالاً ونساء ينتمون عادة الى فئة اجتماعية وضيفة لذا أعدوا محتقرين يتماطلون السحر ويكونون كمن اعترام مس شيطاني .

وينتمي عادة رجال الكهنوت الرسميون الى أسر تحتفظ بكل ضراوة بامتيازاتها وخصائصها ويتدخل هؤلاء الكهنة في كل المناسبات الكبرى ، ولكل منهم اختصاصه الدقيق ولا يستغنى قط عن خدماتهم . فهم الذين يدبرون اعمال الذبايح ، ويتلون الصلوات التي تكرس للاتفاقات

والمعاهدات، ويراقبون حفلات الدفن، ويتنبأون عن مصير الحرب والصيد والزرع، ويفسرون الاحلام والعلامات والرقى (بواسطة اسقاط السلاحف كما جرى ايام الشانغ) ، ويسدون النصيح للنبيلى أو الملك عند اتخاذ القرارات العويصة .

ولرجال الكهنوت هؤلاء (وقد غدت بعض وظائفهم وراثية) عدد من المساعدين الثانوى يقومون بدور ما فى اقام اعمال العبادة : الموسيقيون والكتبة والخدام والموظفون ، ولصل اختصاصه ويرتبط بفئة معينة من فئات رجال الكهنوت .

ولا يؤلف رجال البيعة طبقة كهنوتية مع انه لا غنى عنهم نسبة لما يقومون به من وظائف، وان تمتعوا ببعض النفوذ فى الدواوين فقد ألحق كهنه املاك الملك بوزارة الشؤون الدينية واعتبروا كموظفين . ولا يبدو بأنهم خضعوا لقوانين حياة معينة إذ لا يميزهم شيء عن النبلاء . إنهم رجال مهنة يتوارثون فنهم ابا عن جد .

ومختلف عنهم كثيراً السحرة (هي) والساحرات (وو) الذين ينتسبون الى العوام او الى الطبقة النبيلة وتعدو مهنتهم كأنها دعوة ورسالة وليس إرثاً . والأطباء ومستدعو الامطار ومخرجو الأرواح النجسة الخ، هم وسطاء ينشئون علاقات مع الآلهة والأرواح فيصيحون مطية لهم، لذا يتخذهم الآلهة والأرواح أداة يعملون بواسطتها وينطقون بلسانها أثناء حفلات الاستلهم التي تشمل حركات تشيلية ورقصاً وأناشيد لم يعدوا العدة لها ، يقومون بها على أنغام الطبل والمزامير التي تثير حماساً جنونياً . ومنع ان رجال الكهنوت الرسميين قد استنكروا وجود السحرة (وقد ينسل هذا الاستنكار الى درجة حرقهم أحياء) فان هؤلاء السحرة يلعبون دوراً هاماً فى حياة النبيل ويكونون من عداد بطانته . وتزداد اهميتهم فى القرى حيث تعيش طبقة العوام الذين لا طقوس لهم ، لا بل نشاهد فى بعض المناطق جماعات لتعاطي اعمال السحر .

اختلقت الثقافة وطرق الحياة اختلافاً بيناً تبعاً لطبقات المجتمع إذ ، كما سبق أسرة الملاحين ورأينا ، يستحيل المقارنة بين العوام وطبقة النبلاء .

والفلاح هو ثمرة مجامعة (بن) وليس زواج قانوني (هوان) كما هي الحالة عند النبيل . ففي ربيع كل سنة ، بعد افتتاح موسم الزواج الذي يقوم به العاهل وقيل الخروج الى حقول الزراعة، يذهب الشباب والصبايا للغناء فى الحقول اما جماعات واما ازواجاً . وتتم المجامعة فى الهواء الطلق ولهم الحق فى التلاقى كما يريدون طيلة موسم الاعمال الزراعية . ولكن عندما يحين موعد الرجوع الى القرية فى بدء الشتاء وتعود كل أسرة الى الانزواء فى بيتها وتنتهى إذ ذاك الحياة الجماعية يفترق الأزواج ولا يستطيعون التلاقى بعدئذ إلا بصورة خفية . ويحدث عودة فصل الربيع اللاحق يتلاقى الأزواج ثانية او ينتخب الواحد رفيقاً آخر . وعندما تبلغ الفتاة العشرين ربيعاً تتزوج - إلا اذا كانت قد حملت قبلاً - أما الفتى فلا يتزوج إلا فى الثلاثين من عمره . ولا يتم اتحاد الأزواج لما يلاقى الواحد فى الآخر من جاذبية شخصية ، كما قد يتبادر الى الذهن بسبب ما سبق قوله ،

ولكن لضرورة التقارب بين الأسر . ويبدو بأنه كان محرماً ان يتحد الشخص مع شخص آخر من قريته . ويبدأ الوسيط المحادثات ويتابعها وتتم الحفلة برئاسته في الحريف ، وقد يتماقد الأزواج اثناء عيد جماعي واحد . إذ ذاك تغادر الفتاة قرية أهلها لتلتحق بقرية زوجها وتنقطع عن الفناء في أعياد الربيع . ويصبح اتحاد الأزواج من ثم غير قابل للانقسام .

وتحده التقاليد بكل دقة علاقات الزوج بزوجه ، ويحرم التعاطي الجنسي مدة فترات عدة في غضون السنة . وتفرق الزوجين الواحد عن الآخر طبيعة الاعمال التي يقومان بها فتخلق من ثم مجتمعاً للذكور وآخر للثلاث . فالرجال يقومون بأعمال الحراثة وتربية المواشي بينما تعني النساء بالمنازل (حيث لا يدخل الرجل إلا نادراً) والغزل .

ولا نجد تحديداً واضحاً لدرجات القرى او كلمات تميز بوضوح الابناء والاخوة وابناء العمومة . فهناك علاقات قرى جماعية تربط بعض الافراد فيما بينهم وتجعل منهم فئة اكثر وحدة وأقل افتتاحة . ويشارك اعضاء المجتمع العائلي الواحد أحزان بعضهم ويأكلون طعاماً أعد على نار واحدة .

وتتأثر حياة القرى بتتابع الفصول . ففي الحريف والربيع يجتمع الرجال والنساء ويقضون وقتهم في اللعب والعبث : سباق للشور على بيض العصافير التي تهاجر من بلد الى آخر ، ومصارعة ورقص وغناء وقطاف النباتات البرية وتراشق بالزهور وصراع يتنافس فيه الشباب والصبايا وهم يرقصون على إيقاع أغان مرتجلة الخ . ويختتمون هذه الملاهي بالأكل والشرب وقد يعقدون عقوداً ومبادلات كما لو كانوا في الأسواق .

وعندما تنتهي السنة الزراعية ويحين موعد الرجوع الى القرية يحتفل الرجال معاً بانتهاء الموسم ، ويتبادلون الهدايا . ويبتدىء إذ ذاك الفصل الموات باقامة حفلة الـ « نور الكبير » الذي ينذر بحياة الشتاء للإنسان والحيوان . ولا يشترك في هذه الحفلة إلا الرجال فقط فيرقصون ، وقد تنكروا بأشكال حيوانية ، على نغم دف من الخرف ، وينغمسون في الأكل والشرب لينتهوا الى السكر والمجون بعد ان يكونوا قد انفقوا بسعة ؛ ويشرف الشيوخ على هذه المهازل العمومية . وتختتم اعياد باتشا اوقات العمل التي تسبق مباشرة فصل الشتاء ويقوم بهذا الاحتفال شيوخ القرية فيرتدون ثياب الحزن ويمسكون بأيديهم العصي ويدعون الرجال لبدء فترة العزلة التي ستعده بدورها بعث سنة جديدة .

وترتبط الولادات عند الفلاحين بطقوس الماء ؛ وتتم عادة حفلة اشراك الولد عند الاحتفال بأعياد الربيع . وترمز كل مرحلة من مراحل الحياة الى الفصول وتبدلات الطبيعة المقدسة .

تتمحور مهام حياة النبيل في ضرورة تأمين استمرار الطبقة وعبادة الجدود . لذا فان الزواج عمل ديني يخضع لضوابط محددة . وتعدد الزوجات هو القاعدة ولكن لا يستطيع النبيل ان يتزوج إلا مرة واحدة ، لذا يعقد قرانه في الحفلة نفسها على امرأته

الاباسية وعلى نساءة الثاويات. ويحرم على الزوج ان ينتخب نساءه من اسرته . ويختلف عددهن تبعاً لمقامه : فله الحق بأمرأتين إن لم يكن صاحب مركز مرموق ، وبثلاث نساء إن كان قائداً ، ويتسع إن كان أميراً . وللملك الحق باتخاذ اثنتي عشر زوجة . ويضاف الى هؤلاء الحليلات عدد من الحليلات إن كان الزوج غنياً واستطاع ان يبتاعهن . ولا يكون الوسيط إلا احد الأقارب او صديقاً انتخب هذه الغاية ، وهو يقوم بالخطوات الضرورية حتى اعلان الخطبة . ويوم الزواج يأتي الشاب ليأخذ الفتاة ويبدو كأنه يريد سوقها في عربة . وعندما يصلان الى البيت الزوجي يأكلان معاً طعاماً يتكون من ثلاثة صحنون أريقت عليها ثلاث كؤوس من الحمر . وتشككون الكأس الأخيرة من ثمرة كوسى قسمت قسمين . ثم يأتي العروسان الى غرفتهما الزوجية حيثما ينزعان ثيابهما وفقاً لتقاليد خصوصية . وفي الغد يقدم الرجل امرأته الى أقاربه الأحياء والأموات ؛ وبعد انقضاء ثلاثة اشهر على وصول الزوجة الى اسرتها الجديدة تصبح حقاً من افرادها إذ تشارك طقسياً بالذبيحة الاحتفالية التي يقدمها الزوج لأجداده . وبعد الاشتراك فقط هذه الحفلة تصبح الى الأبد زوجته الشرعية .

ولا تستدعي ولادة الاطفال ، شرعيين كانوا او لا ، إلا القليل من الطقوس . ولكن لن يترك جميع هؤلاء الاطفال على قيد الحياة : فهم يقتلون او يهلون المولود الذي يرى النور في وقت يحسبونه شؤماً ، او في الشهر الذي ولد فيه ابوه ، او التوائم الثلاثة الخ . وعلى كل فالمولود ، ذكر أو كان أم انثى ، يترك وحيداً في غرفة دون أكل ولا عناية ، وذلك طيلة الأيام الثلاثة التي تلي رؤيته النور . وإن صمم رئيس الأسرة بعد انقضاء هذه الفترة على قبول الطفل ، يتقل هذا الأخير إذ ذاك الى مساكن النساء ويرضع الحليب لأول مرة . وعندئذ يعلن الوالد رسمياً مولد طفله وذلك بتقديم ذبيحة للحدود ؛ ثم بعد ثلاثة اشهر فقط يعرض عليه ابنه .

ويقومون أثناء عهد الصبا بعض الطقوس : حفلة قص الشعر ، وقد يترك للصبي خصلة شعر على قمة رأسه بشكل قرن وللفتاة على شكل صليب ، ثم حفلة انتخاب الاسم (منح) التي تدخل المولود حقاً في سجل الأسرة التي تهبه من ثم الوجود وتقرر مصيره .

وتختلف الثقافة باختلاف الجنس . فالصبي يتلقى العلم في مدرسة المنطقة اما الولد الكبير فله الحق بالذهاب الى المدرسة الملكية في العاصمة ، ويمنح هذا الحق ايضاً للتفوقين من تلامذة المناطق . وتستمر سنو الدراسة من العاشرة حتى العشرين وهي تشمل الفضائل الثلاث والطقوس والمعلومات (الرقص والموسيقى وقيادة العرب والرمي بالقوس والكتابة والحساب) . ولا يتعاطى قط التلامذة مع العالم الخارجي بل يسجنون داخل مدرستهم او جامعتهم . وعند انتهاء الدروس يصار الى اعطاء القبة الرجالية (كوان) التي ترمز الى انتقال الصبي الى عهد الرجولة ؛ وعندئذ يرجع الى ذويه يدع شعر رأسه ينمو وينتظر شهرين لاقامة هذه الحفلة الرسمية فيعطونه اثناءها اسماً جديداً (تسير) . وتبقى الفتاة مع الذكور حتى ربيعها العاشر ثم تعزل داخل بيت

الحرم حيث يلقونها اساليب الطاعة والاعمال الدسائية ويطلعونها على الدور الذي ستدعى للقيام به في الحفلات الدينية . وعندما تبلغ العشرين من عمرها ، او قبل ذلك ان خطبت ، تعزل لمدة ثلاثة اشهر في هيكل الجدود ثم تعطى دوس الزينة للشعر (كي) واسماً جديداً .

ان واجبات وامتيازات النبيل هي مبدئياً واجبات وحقوق المحارب . وهناك شبه دستور شرف يسيطر على اعماله مهما كانت وظيفته : يحرم عليه قبل كل شيء مخاصمة معلم او مرب قديم . ومن اهم واجباته الثأر للأسرة ، ويحول امام هذا الواجب كل نفع شخصي وقد يؤخذ الثأر من الأموات . والذي يقلد اقطاعة يشترك في حفلة رسمية تعد حدثاً هاماً في حياته ، فيستلم من يد ممثل الملك - وحسب طقس محدد - كومة من التراب وضعت على هيكل الارض الملكي ، ويجعل منها نواة هيكل إله الارض الذي سيقمه في ملكه . ولا تختلف موجباته وحقوقه عن حقوق وموجبات سائر الاشراف ما عدا العبادة التي عليه ان يقدمها لأرواح اقضاعته وحسن ادارة الجماعات التي تخضع له .

ولا تنتهي اعمال النبيل الا عندما يبلغ السبعين من عمره ، لا بل غالباً ما يستمر في تأدية خدماته حتى موته وان كان قد اجبر على فقدان احد اعضائه التناسلية او بتر رجله ليتولى بعض الوظائف . وطقوس الحداد على النبيل ودفنه محددة بكل دقة حتى تستطيع نفسه «العالية» ان تصبح من عداد الجدود وتنعم في مقرها السابوي بالامتيازات نفسها التي تمتعت بها على الارض . ويفرض على جميع افراد الاسرة ان يساعدوا الشريف لبلوغ هذا الهدف بعد ان يكونوا قد تأكدوا من موته . واثناء غسل جثة الميت يضعون في كل من نوافذها حجراً صغيراً من اليشب ، ثم يلبسوها ثوباً خاصاً (منغ ني) ويسجنونها على سرير مزخرف بالقرب من بيرق كتب عليه اسم الميت . واثناء التسمية - التي تختلف مدتها تبعاً لمنزلة المتوفى - يهرع الاقارب والغرياء يقدمون تعزيتهم الى اولاد الفقيد الذين يرتدون ثياب حزن بيضاء اللون . وتوضع الجثة في ثابوت حشواً داخله بالحرير الاسود ثم يقبلونه الى مدفن موقت . ويحمل اولاد الميت اذ ذاك عصا الحزن ، رمز قنوطهم . ويتكون القبر الاصلي من غرفة تعلوها كومة من التراب ويتقدمها ممر مكشوف فرشوه بالبلاط . وبعد فترة تقصر او تطول نسبة الى مقام المتوفى يأتون الى هذا القبر بالنمش وقسد لفوه بقمش ابيض . ويرافق النمش موكب كبير ينوح افراده ويصرخون وقسد سار على رأسهم الساحر ؛ ويأتي المشرف على القبور لينزل الى جنب النمش في الحفرة الاشخاص الذين اعدوهم ليرافقوا المتوفى ويكونون له خدما اذ يجب ان يحيا الميت في عالمه الجديد حياته العادية مع اسلحته وبلاطه وخدمه . وعند الاسر الفقيرة يستبدلون بدمي من القش او الحنشب هؤلاء الضحايا الذين يدفنون احياء والذي يختلف عددهم استناداً الى منزلة الميت . وعندما تنتهي اعمال الدفن يذهب ابن المتوفى الى هيكل الجدود ليضع لرحمة ابيه الموقرة ويقدم القرбан ، ثم يقيم مأدبة يشترك فيها ممثل عن الميت (شه) . وهكذا تنتهي سلسلة حفلات الدفن .

وان كان الملك ، بصفته نبيلًا ، يحيا حياة خاصة لا تختلف الا قليلاً عن حياة افراد رعيته ،

فانه مع هذا ينسق منهجه كما تفرضه واجباته الدينية والسياسية فيقسم وقته بين الذبائح الشهرية والاستقبالات الحافلة واصدار الاحكام القضائية واقامة المآدب ، فهو في كل صباح يبحث مع وزرائه شؤون الدولة ، اما الملكة فتقرر امور القصر . ويسبب موت الملك اقامة حفلات اكثر ابهة وشمولاً من وفاة النبيل العادي . وقبل ان يشعر الملك بذو اجله يعهد الى الحارس الاكبر (وهو واحد من ثلاثة نبلاء يدعى كل منهم دوق) بتسليم الحكم الى الابن البكر من زوجته الشرعية . وبعد موت الملك يعد الحارس الاكبر حفلة الدفن ، ويسجل وصية المتوفى بواسطة الكتائب الاكبر ، ويرشد الامير الوراثي في فترة الحزن ثم يعد العدة لحفلة تتويجه . وتم حفلة التتويج بنقل لوحة الشب ، رمز السلطة الملكية ، الى الملك الجديد .

يقطن الفلاحون في كهوف حفر في القرية الصفراء ، او في اكواخ من مجتمع القرية والمدينة الاغصان اقيمت مؤقتاً في الاراضي الزراعية ، او اخيراً - في الشتاء - في بيوت جمعت فكانت قرى ودساكر . وتصنع هذه البيوت من الطين ، على شكل مكعب ، وتغطي بالقش . وتحيط بكل بيت حيطان او سياجات تحمي بالوقت نفسه البساتين الصغيرة التي تؤمن العيش اثناء الشتاء . وترتفع القرى غالباً حول منزل سيد البقعة يحبسها جميعاً سور ، وارض البيت من التراب المروص ، وفيه موقد من حجارة يقترب بعضها من بعض ، وينطلق دخانه من ثقب اعد في وسط السقف . ولا يحتمي المنزل الا على باب ونافذة اعدا على الواجهة الجنوبية . ويتألف الاثاث بنوع خاص من سرير بدائي هو سرير الزوجين . ومع بساطة وحفارة البيت فان كل جزء من اجزائه يرمز الى امر ما ، ويظهرون نحوه الاحترام العميق .

وللقرية التي لها بعض الامية هيكل لاله الارض ومدرسة وسوق يتكون من مساحة مربعة يقفون وسطها مبدئياً فارغاً ويتوزع البائعون في الاحياء تبعاً لنوع بضاعتهم ، وتضع كل فئة لرئيس الحلقة الذي ياتمر بأمر مدير الباعة . ويقرر هذا الاخير الاثمان والضرائب التي يسهر على تطبيقها المراقبون ، بينما يعنى رجال الشرطة باستتباب الامن والنظام .

ويسكن في المدينة الرئيسية صاحب الاقطاعة مع نسائه واولاده وخدمه وتابعيه ، وهي تضم ايضاً الكهنة والكتبة والمماريين . وللقرية مساحة صغيرة (اذ لا يتعدى محيط العاصمة ثلاثة كيلومترات ونصفاً) يحيط بها سور جماعي يشدد او يقل مناعة ويرتفع في وسطه سور اقل شأنًا هو سور بيت السيد . ويكون هذا المنزل مدينة صغيرة ضمن المدينة الكبيرة ، ويحتوي على عدة فساتح لكل منها باب عظيم وعلى ردهة الاستقبال التي يرتفع بجانبها هيكل الجدود وهيكل إله الارض ، واخيراً على مسكن الزعيم . وحوالي هذا السور الداخلي تبني بيوت تابعي السيد ابتداء من المستشارين حتى رجال الصناعة . ولم يتطور بعد نظام تنسيق المدن ، هذا النظام الذي لا نعتز عليه الا من خلال المبادئ التقليدية ، لذا نجد نقصاً كبيراً في تنسيق المدن الداخلي . ومع هذا فان المدن الكبيرة هي احسن هندسة يقسمونها احياء احياء وتحرقها شوارع مستقيمة .

ولا يختلف نمر الملك عن منزل السيد الا بمساحته الاكثر اتساعاً وبعض الابنية التي تضاف اليه . وهو يرتفع وسط العاصمة . وتحده هذه الاخيرة كوم مربعة من التراب تحيط بها الحفر . ويدخلون العاصمة من اثني عشر باباً - ثلاثة ابواب لكل جهة - ويخصص الباب الذي في وسط الجهة الجنوبية بالملك . وتحترق العاصمة تسعة شوارع تتجه من الشمال الى الجنوب تؤلف زوايا مستقيمة مع تسعة شوارع اخرى تتجه من الشرق الى الغرب . ونجد الاسواق في شمال العاصمة ، ودور الحكومة في جنوبها ، بينما ترتفع مساكن الموظفين وبطانة الملك في الجهتين الشرقية والغربية . وتشبه هندسة القصر الملكي هندسة بيت الزعيم . ففي الفسحة الاولى يلفظ الملك احكام القضاء ويستقبل الوفود ؛ وهو يجتمع مجلس وزرائه في الفسحة الثانية التي تحتوي على مذبح إله الارض وإله الحبوب وهيكل الجدود ومذبح إله الارض للسلالة التي انتصر عليها التشاو . اما الفسحة الثالثة فهي مخصصة للدور الفخمة ومساكن الملك الخصوصيّة ومساكن الملكة ، ولقاعة تعقد فيها الاجتماعات لتقرير الامور الداخلية ، وليبوت الخدم والسراي ، كما نجد فيها منازل الحصان والاماء والمخازن والمطابخ الخ . . . اما القسم الشمالي من القصر اخيراً فيبقونه للحدائق الكبرى .

ولقد اتخذ التشاو مثل هذا القصر المدني عندما استلموا الحكم ، ولكن بقي مع هذا القصر القديم المقدس (مينغ - تنغ) ، وهو يؤلف شواذا اذا قيس مع الابنية الطقسية . وهو يقع في الضاحية الجنوبية - الغربية ، ويتألف من بناء مربع ذي طبقتين او يعلوه سقفان من القش ، تحيط به اربعة ابنية اخرى يرتفع كل منها على جهة من جهاته الاربع . ويخصصون الجناح الذي في الوسط لجد السلالة الملكية «ون» الذي يقدم له العاهل ذبيحة كل سنة باحتفال مهيب . اما باقي الاقسام ، وقد طلوا كلاً منها بلون يناسب احدى الجهات الاساسية ، فستعمل لاقامة الطقوس الموسمية التي يفتتح الملك بموجبها كل طور من اطوار التقويم .

ولا تحتفظ سائر الابنية المقدسة الا نادياً بصفة ثابتة ، اذ يقومون دوماً بأعمال العبادة في الهواء الطلق . ولا نجد مذابح وهيكل الالهة الارض والسماء والجدود ، وليس اسائر الالهة الا مذابح مؤقتة . ومذبح إله الارض هو كومة تراب مربعة الشكل ويختلف لونها باختلاف الاماكن التي يقام فيها . اما هيكل القصر الملكي فله اربعة ألوان ، فهو اخضر في الجهة الشرقية ، واحمر في الجنوب ، وابيض في الغرب ، واسود في الشمال . ونجد على كومة التراب شجرة ولوحة من حجر ، وما رمز الإله ؛ وبالعرب من هذه الكومة ترى حفرة مربعة حيث يدفنون الذبيحة المعدة للطقوس . اما هيكل إله السماء ، ونجد في الضاحية الجنوبية ، فهو تلة مستديرة ذات ثلاث طبقات . ولا يعلوه شيء اذ لا يمثلون هذا الإله .

وتشيد الهيكل المخصصة للجدود على الشكل نفسه في كافة انحاء المملكة . ويقام كل نبيل في بيته هيكل للجدود في الناحية الشرقية من عرصة القصر . ويحد الهيكل سور يشرف على الجهة

الحرب (ويبدو بأن هذه العادة الدموية أخذت بالتضاؤل منذ القرن السابع ق.م .) ، وهو يسود على المذبح الذي يعدونه له في سور القصر الملكي . ولكل إقطاعة ربان للأرض وهما دون هيو - تورتبة : إله للأملاك المحصورة وإله للأملاك المشتركة التي تمخص الامارة ؛ وكانوا يعتبرون الآلهة الأولى مطاردات وميتات عند تبديل السلالة ، ولكن استمروا مع هذا بتقديم العبادة له .

والجدود الأموات هم حراس الأسرة النبيلة المباثرون . وتكشف لنا حقيقة هذا المبدأ عقائد الصين القديمة بما يختص بغايات الانسان الاخيرة : فلكل إنسان عدة أنفس في الوقت ذاته ، وتنفصل إحداها ، الهون ، عن الجسد حالاً بعد الموت وتقطع طريقاً مليئاً بالخطار قبل ان تصل الى السماء حيث تعطي المركز الذي يحق لها استناداً الى المركز الذي كان يحتله الجسم وهو على قيد الحياة . أما النفس السفلى « البو » ، فتبقى مع الجثة ويخشى ، ان لم تقدم لها الفروض المقررة ، ان تصبح شيطاناً ، كوي ، أو عائداً بهم على وجهه يزرع الرعب في أسرة الميت . وان بقيت بو ، تذهب لتحيا في عالم جوفي . وتحيا الانفس الهون والبو ، كل منها في عالمها الخاص ، حياة الانسان ذاتها محتفظة بربتها وخاضعة للعرض أيضاً . ولكن لا يهتم التشاؤ لمصير الأنفس اهتمامهم للعلم الذي يحمل منها جذوداً . وهناك طقس في غاية البساطة يسهل هذا التحويل الذي يتم بعد انتهاء فترة الحزن التي تدوم مبدئياً ثلاث سنوات . وفي هذه الفترة الانتقالية تكرم لوحة موقفة في غرفة الميت ؛ وبعد انقضاء زمن الحزن تنقل اللوحة الى هيكل الجدود وتستبدل بلوحة نهائية تصنع من خشب الكستنا وعندئذ يقدمون للميت قرابين بصورة مستمرة فيصبح حامي الأسرة . ولكن تقل قدرته مع الزمن ويلقونه أخيراً بين مجموعة الجدود الذين لا تقدم لهم أي مقدمة شخصية .

وهناك اذن والحالة هذه عالمان إلهي وشيطاني يجب اكتساب عطفها . وقبل كل شيء ، على المرء ان يعرف معرفة دقيقة الآلهة والأرواح التي له علاقة بها بالنسبة الى مركزه الاجتماعي ووظيفته وواجباته . وبما أن الدقة في اقامة الطقوس وتلاوة الصلوات والمراسم هي أمر في غاية الخطورة وجب من ثم الاستعانة برجال كهنوت علماء يقظين .

وتقوم العبادة بصورة أولية على القرابين والصلوات والرقص ، مع ان التفاصيل تختلف باختلاف المكان والاله والطرف . وتقدم طقوس العبادة على أنغام الموسيقى . وتكون القرابين دموية بصورة شبه مستديرة ويختلف حيوان الذبيحة حسب الظروف ، ويكون لونها كما يفرضه مركز المقدم . وتكثر القرابين البشرية ولكنها تقتصر على بعض الطقوس الخصوصية : فتيات يقدمن كزوجات للآلهة ، أو أسرى الحرب يقدمون لرب الأرض والجدود ، أو سحرة ومشوّهون لاستدراار المطر في أوقات الجفاف الشديد ، أو بطانة النبيل أو الملك لمرافقتها في قبرها . وقد تنذبح هذه القرابين أو تحرق أو تدفن أو تفرق . ويقدمون أيضاً النباتات (الجاورس) أو الحرير أو الماء أو النار التي تنتج عن انعكاس الشمس على مرآة مقعرة الخ . وللصلاة قوة شبه سحرية

وثمر ثمارها ان تلبث بصورة دقيقة وفي الوقت المناسب وفي الظروف المتوجبة . ويقوم الرقص على حركات مقدسة تمثل الامور التي يريدون ان تحدث، وتعيد الى الذاكرة الغامرات الميثولوجية التي يتوجب على المرء ان يحققها لنجاح العالم . والموسيقى هي عربة الآلهة ، فهي التي تجذبهم وتحملهم وتحفظهم ، وتشترك فيها الاصوات والآلات (العود والطبل والقيارة) . وفي طقوس بعض القرابين كالتي تقدم الى الجدود يوجد وسيط (شيء، جثة) ينتخب من اقرباء الميت المذكور يمثل المتوفى الذي ينطق بلسانه ويتقمص فيه لمدة من الزمن . ونجد هذا الطقس في عبادة إله الارض الذي يعد كمينت ايضا .

ويتطلب تقديم الذبيحة بطبيعة الحال دقة ونقاوة في الطقوس ليس فقط بما يختص بالأدوات والتقديم ولكن ايضا بمقدمي القرابين والاشخاص الحاضرين .. وينال الجميع هذه النقاوة بطقوس تطهيرية وممارسة فترات تقشف تطول او تقصر .

وتقسم السنة فترات فترات أعياد وطقوس يتعلق بعضها بالمواسم الزراعية والاخرى بعبادة الجدود . وتضاف الى هذه الأعياد الموسمية الاحتفالات الطارئة وسائر احتفالات العبادة العادية التي توشي بها الحوادث اليومية او الظرفية (الصيد والحرب ومراحل الفتوة الخ) . ولكل منها عبادة معينة ومقررة بكل دقة وقد يغدو وبالأا اقامتها في ظروف غير التي حددت لها . ولا يلحق هذا الضرر مباشرة بالفرد ، ولكن بتعاقب الفصول وبحسن سير النظام العالمي ، لذا غدا القيام بها فرضاً لازماً على الذين ينيط بهم السهر على النظام الكوني ، اعني النبلاء وبالدرجة الاولى الملك . ويحدث موت الملك وحده بعض البلبل في سلسلة الأعياد العادية اذ تتوقف بعضها أثناء فترة الحداد .

ان الملك هو دون شك مقدم القرابين الاول . فعليه وعلى فضائله يستند تنظيم السنة الزراعية . فهو يبدأ الربيع بتقديم ذبيحة كبرى لرب السماء ، ثم يقوم بأول عمل فلاحية فيشق ثلاثة أثلام في حقل مقدس ، ويحذو حذوه في هذا العمل الرمزي جميع اصحاب الارض النبلاء في كافة أرجاء المملكة . ويفتتح الملك ايضا موسم الزواج ، ثم تقيم كل قرية حفلات مماثلة . ويحددون النار ويستعيدون من جديد النشاط في مختلف مرافق الاعمال . وفي الصيف تقدم القرابين الى آلهة الجبال والأنهار والينابيع والأمطار ، ثم تأتي أعياد الحصاد واختتام الحياة الزراعية . وتبتدىء فترة الشتاء بذبيحة كبرى لإله السماء بواسطة جد السلالة ، الملك «ون» ، وتوأ أمر ذلك يذهب الملك الى الضاحية الشمالية لاستقبال الشتاء واصدار الأمر بحجز الفلاحين في القرى . ثم يأتي دور القرابين الملكية لرب الارض والجدود الى ان يحين أخيراً عيد الحصاد ، وهو من أهم أعياد السنة . وتعاد حلقات هذه الحفلات والأعياد في الربيع دون ان يتبعوا التقويم الرسمي الذي يحمل في طياته شوائب فادحة بل حلول الفصول الطبيعية .

وتتخلل هذه المواسم أعياد مقررة يحددون أوقاتها ايضا تبعاً لحلول الفصول دون اعتبار

التقلبات الرسمية ، وهي تتعلق بصورة أولية بالجدود الذين تقدم لهم هذا عبادة يومية . ومن هذه الاعياد ما يقام مرة كل ثلاثة أشهر او كل سنة او كل خمس سنوات ، وأشهرها الذبيحة الملكية التي يقدمونها للجدود كافة بما فيهم الجد الاول . وبهذه المناسبة 'تقام وليمة جماعية وحفلات رقص صاخبة يشترك فيها الملك وأولاد الأسر الكبرى الذين يقبلون في البطانة الملكية.

وهكذا فالحياة كلها في الصين القديمة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأفعال دينية حددوا جميع دقائقها بعناية كلية ، وبدونها لا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً منظماً ومفيداً . والديانة ، وقد أسست على الامور الطقسية ، هي قبل كل شيء ديانة جماعية ترجى منها المنفعة وتوافق كلياً تقسيم المجتمع الى طبقات وفئات . ولكن نلاحظ تطوراً دقيقاً يظهر في منتصف دور التشاؤم سيقود الديانة القديمة الى حالة جمود وتنظيم عقيم يستبج معها الصينيون الذين وقفوا على مبادئ الفلاسفة ورجال الأدب بعض التحرر .

تشتد الحركة الفكرية منذ أواخر القرن السادس ق . م . اذ يظهر في هذه الحقبة الفلسفة الرجل الذي لعب أعظم الادوار في الحياة الصينية العقلية : كونفوشيوس (كونغ كيو الملعب بتشونغ - ني) ويميل رجال الأدب الأكثر تحوراً نحو الشك والارتياب في كل شيء حتى نفى وجود الآلهة والارواح واستنكار بربرية بعض طقوس العبادة كتقدمة الذبائح البشرية . ويسمى كونفوشيوس في تعاليمه للإبقاء على التقاليد مستنداً الى كتب العصور القديمة والى طقوس وسياسة العهد المنقرض . لذا فإن تعاليمه الروحية هي موجهة أساساً الى الطبقة الارستوقراطية وتهدف الى حسن قيادة وحكم الشعب استناداً الى الدرس وترويض النفس الروحي ، وهذا الترويض الذي لن يعود بالنفع على صاحبه بل عكس ذلك على الآخرين فيستتب اذ ذاك حسن التفاهم الذي هو الدعامة الكبرى للنظام العام . والوسائل الكفيلة بالوصول الى هذه الغاية هي طقسية ، كما كانت في عهد التنظيم الديني ، وتساعد الفرد ليصبح إنساناً أسمى ، وذلك لخير المجموعة ، ولخير الشعب بأكمله . ويستند كونفوشيوس ببرايمه وإثباتاته وأمثله الى ضرورة التشبه بقديسي العهود القديمة والوصول الى فضائلهم ، اذ هذا هو الشرط الاساسي لحفظ النظام والتوازن العالميين .

وقد أنجبت تعاليم كونفوشيوس فيلسوفاً عظيماً هو موتي ، أو بالاحرى موتسو ، الذي عاش في القرن الخامس . وتصغر لديه المعطيات الميثولوجية أمام الاستنتاجات الفلسفية أو تفقد التقاليد الكثير من امتيازاتها اذ يكره تنظيم الطقوس المادي الذي لا روح فيه . واستناداً الى تعاليمه تفقد الديانة صفاتها الجماعية والاجتماعية لتصبح حقاً ديانة الفرد اذ لا يؤسس تفكيره على نفوذ وسلطة قديسي العهود القديمة بل على قوة القياس الفلسفي . ان مبادئه غيبة الغير التي نادى بها كونفوشيوس والتي كانت غايتها خير إحدى الجماعات أصبحت مع موتسو تعاليم الهبة الجامعة الشاملة حيث تلتساوى كل الفئات الاجتماعية وطبقات الأفراد . وأساس تعاليمه هو الخضوع

لارادة رب السماء وعبادة الآلهة . وتوافق هذه النظرية ، وان كانت ثورية في بعض نواحيها ،
التغيرات الجذرية التي شهدتها المجتمع في ذلك العصر ، كما أنها تتناغم مع الوثبة الروحية والحنو على
الغير الذي كان يغذيها في الهند تلامذة شكيموني ، والتي لم تعرفها الصين إلا في وقت لاحق جداً .

وبجانب جهود هذين المعادين الكبيرين ، فقد قامت مدرسة ميتافيزيقية على مبادئ السحرة
الأقدمين . وهم يقارنون بالعالم الحسي عالماً وهمياً ويؤكدون مبدئياً بأن الأساليب السحرية تؤثر
على أحدهما بواسطة الآخر . وهم يلجأون الى الدين والينغ لتفسير تتابع السنة الزراعية وكل المظاهر
التي تنتج عنه . ولا تتعدى هذه النظرية في أول الامر محيط فئة مختارة من النبلاء ولكن منذ
أواخر القرن الخامس ق. م. يعتنقها كل الفلاسفة ، ثم تتسرب رويداً رويداً الى فئات أقل
ثقافة ، وتستمر الى يومنا هذا محوراً للفكرة الصينية .

وهكذا تتكون رويداً رويداً تفاسير دينية وفلسفية جديدة تؤلف وحدة منذ القرن الرابع
قبل العهد المسيحي ، عندما تحدث العوامل الحضارية المتوسطة تحويراً في الميثولوجيا وتأتي
بمعلومات فلكية جديدة مختلفة . ويتألف مع الزمن هذان العاملان الطبقي والفلسفي دون ان
يظهر بينهما تناقض ويكونان عقلياً لا تزال الصين تحتضنها الى عصرنا الحاضر .

ليس لدينا عن أبنية ذلك العصر إلا معلومات أدبية اذ ان المواد المستعملة — الطين
والخشب والآجر والقش — هي بمجد ذاتها مواد عرضة للتلف . ولا يبدو بأنه كانت
للأبنية التي خصصوها للموتى حظ أوفر بالديمومة . ونعرف معرفة أكثر وضوحاً وثبوتاً
الادوات التي استعملوها في إقامة العبادة ومختلف الطقوس ، وهي تتألف ، كما كان الأمر في
العصر السابق ، من أوان وأدوات نحاسية وأسلحة وأشياء رمزية من الذهب . ولا نجد إلا أدوات
قلبية جديدة تمثل الانسان . ويتكون الاطار بصورة مستمرة تقريباً من عناصر حيوانية عبروا
عنها بفن خصوصي وشملت حيوانات ميثولوجية وهمية نظرنا اليها وجهاً لوجه أو من جوانبها .
وقد نقشوا على سطح قطعة النحاس بكاملها نقشاً دقيقاً جداً ، تبدو عليها الحيوانات بصورة ناعمة بينما
تتشابك على سطح المعدن خطوط ملتوية . اننا لنجمل الرمز الذي يهدف اليه هذا النقش ، ولكن
تساعدنا أشكال الأواني على تنظيمها فئات فئات متعددة العالم ، توافق كل منها الطقوس الذي صنعت
لأجله . ولا جدال في حقيقة صفة هذه الاواني المقدسة . وكان الملك نفسه يحترمها ومنها الآلات
الشهيرة ذات الثلاثة أرجل التي حفظت في باب من أبواب العاصمة . وبصعب علينا ان نميز بوضوح
مراحل هذا التطور الفني للنحاس منذ عهد الشانغ حتى أواخر زمن التشاو . ولكننا نستطيع
مع هذا ان نلاحظ تطوراً فنياً بطيئاً تصبح تفاصيله رويداً رويداً جامدة لا حياة فيها ، ثم
تتشابك وتضخم الى ان تصبح في عهد الممالك المتقاتلة أمراً بسيطاً جداً فيه عوامل تزوين أكثر
دقة وبساطة — وهي تظهر فعلاً ذوقاً أشد رسوخاً وأعمت دقة ولكنه ذوق يفقد في الوقت
نفسه التعبير الصاحب والقلق الذي كان سائداً أيام الشانغ والتشاو .

الكتاب الثاني

من القرن الرابع الى أواخر القرن الأول ق.م.

ان كنا تسهلاً لسرد وقائع الجزأين الاولين من المجموعة قد اعتبرنا آخر القرن الاول ق. م. فاصلاً تاريخياً فلا يجب الاستنتاج من ثم بأنه من الهين إقامة مثل هذه المراحل الفاصلة عند درس الحضارات الآسيوية ، اذ لا يحق لنا ان نتحدث عن تغيير جذري في هذا الطور أصاب الهند والصين ، لا بل نؤكد بأنه من الصعب جداً فصل العصر الذي سبق هذا التاريخ عن المرحلة التي تلته . ولكننا مع هذا عملاً بالخطة التي انتهجناها في وضع هذه المجموعة فقد سعيينا جهدنا في تأليف هذا الجزء بالاعتماد فقط على المعلومات التي سبقت أواخر القرن الاول ق. م. ولكننا لا نخفي مع هذا بأن مثل هذا الحد الفاصل لا أثر له تاريخياً وبأننا نجد وحدة حقيقية تستمر حتى حوالي القرن الثاني للمسيح فيما يختص بالهند وحتى سقوط الهان سنة ٢٢٠ بعد المسيح فيما يختص بالصين . لذا سنضطر ، لحسن اظهار تطور هاتين الحضارتين الآسيويتين ، ان نعود - في المجلد الثاني - الى بعض المواد التي بحثناها في المجلد الاول .

الفصل الأول

آسيا الشرقية من القرن الرابع حتى القرن الاول ق.م.

ان كان من خصائص العهد السابق تحديد مختلف معالم المناطق الآسيوية الحضارية السياسية منها والاقتصادية والدينية ، فان العهد الذي نعرض له الآن يزيد في هذه المزية لاتساع وتطور التبادل التجاري والثقافي ، ولقيام سلطات أكثر مركزية ولا انتشار الديانات الكبرى .

فقد انتهت في آسيا الازمة الكبرى التي سببت الاصلاحات الروحية والفلسفية والدينية كالبودية في الهند والطاوية في الصين . وبعد ان كانت الاصلاحات هذه مجرد بدور فكرية أصبحت عرى وثيقة بين شعوب متناقضة ، تعد لنفسها حياة تتلاءم والمحيط الذي ولدت فيه وتتطور رويداً رويداً لتتوافق وميول كل قطر انتشرت فيه . وسيكون للبودية خاصة رسالة تبشيرية في القرون التي تهمنا .

ومن الناحية السياسية ستؤكد الصين والهند جهودهما في السعي نحو الوحدة : فستحرر الهند أرضها من الاستعمار الايراني وستقضي على غزو الاسكندر ذي القرنين لوادى الاندوس سنة ٣٢٥ وتدحر « الغرباء » نحو المقاطعات الهندو - افغانية . وبعد ان تكون الهند قد قطعت مرحلة الاستيطان الآري تصبح قادرة على تصدير حضارتها وقبول كل مستورد وتحقيق وحدة سياسية في ظل سيطرة سلالة الموريا الوطنية . وفي الوقت ذاته تتخلص الصين من دياجير قرون الحكم الاقطاعي لتقيم ، ببطء وعناء ، سيادة وطنية سياسية ينتج عنها ازدهار تجاري وتوسع اقليمي يفقدون من بواكير عظمة مدهشة . ويبعث عهد الملكين اشوكا في الهند وتسن ش - هوانغ - في الصين ، وكانا متعاصرين ، حماساً نحو الوحدة والسيادة لم يعرفها من قبل البلدان الآسيويان الكبيران . وهناك اقطار عدة على حدود هاتين الدولتين العظيمتين او ضمن مدى منافعها تبرز من طبقات النسيان لتدور في فلك هذا النفوذ التاريخي او ذاك : كالهند الصينية والتركستان الصيني وكوريا ثم بعد فترة من الزمن اليابان .

وتتقوى رويداً رويداً العرى التي تشد مختلف هذه الاقطار الآسيوية الى بعضها البعض او توحد العلاقات بين آسيا واوروبا . وقد وجدت هذه العلاقات منذ تاريخ سابق كما تشير اليه أدلة

عدة ، ولكن لن تظهر بوضوح وجدية إلا منذ القرن الرابع ق. م. وبعد قطع اليوسفور النقدية التي ترقى الى حوالي ٤٠٠ سنة ق. م. والتي وجدت في منطقة ايلي ؛ ففسد عثر بمئة كوزلوف في شمالي اورغا على اشياء للقايضة والتبادل نستطيع معها ان نعتبر منغوليا احدى مناطق التقارب بين اليونان والشرق الاقصى . ان الأدلة التي تثبت لنا وجود مثل هذا التبادل لا تزال غير كاملة ولكنها مع هذا تحيز لنا الظن بأن الاتصالات بين الشعوب كانت أشد وأقوى مما نعتقد عادة وتكشف لنا من ثم سلسلة حوادث تتوغل في القدم . وباستطاعة علم الآثار ان يضيف الى أدلة المؤلفين التقليدية المعروفة اثباتات يكشف النقاب عنها مجرى سير الحضارات وتأثيراتها . وتنسج هذه التأثيرات شبكة يستعصى حلها على القارة الاورو - آسيوية وتظهر سلسلة من التصادم والتفاعل يصعب مراراً تقصي اتجاه حوادثها ويذهل المرء غالباً لنتائجها ، ولكن كثيراً ما تبررها العوامل السياسية . وهكذا فان الصين ايام حكم الهان ، وقد أرادت استخدام اليوتشى ضد الهيونغ - نو ، اتصلت بالغرب عن طريق منطقتي سوغديان وبكتريان ، وأقامت علاقات دبلوماسية مع هذه الاخيرة حوالي سنة ١١٤ ق. م. وعرفت من ثم بلاد فارس والشرق الروماني . وعندما تنعدم الحقائق التاريخية - وهذا ما يحدث اكثر الاحيان لسوء الحظ - فان الحفريات تسد هذه الثغرة وتأتي الاشياء التي يعثر عليها لتثبت حقيقة امتداد الحضارات وتنقل معالمها . فقطعة العاج مثلاً التي نقش عليها في الهند ووجدت في بومباي او نقود السلالة الانطونية التي اكتشفت مؤخراً في الكوشنشين ، او أواني ارزو الخزفية التي عثر عليها بالقرب من بونديشاري - وتقع هذه الأماكن على حدود القارة الاورو - آسيوية المتناقضة - كلها اثباتات وشواهد على تنقل الحضارات بسبب الحروب او التجارة او الاسعار .

ونعرف عدة طرق للقوافل لم تسلكها الأشياء المادية فقط بل سارت عليها أيضاً الافكار والروايات . وتبدو لنا اذ ذاك آسيا العليا كمر لا يعرف سكينه اذ تخترقها على أقل تقدير ثلاث طرق : فيصل احدها الى ضواحي بكين مخترقة منغوليا الشمالية بعد ان تكون قد مرت شمالي البحر الاسود وبحر قزوين ، وتتصل الاخرى بشمال الجبال السماوية بعد ان تكون قد لغت جنوباً صحراء منغوليا . ومنذ عهد الاسكندر ذي القرنين اتصلت الهند ببحر قزوين والبحر الاسود بواسطة الملاحة النهرية وخصوصاً مجرى نهر الاركوس . وأشهر هذه الطرق لا بل أهمها كانت « طريق الحرير » وقد بدأوا بالأتيان على ذكرها منذ أواخر القرن الثاني ق. م. ، ولكنها ترقى مع هذا كما يظهر الى زمن أكثر قدماً . وقد أقيمت عليها أسواق زاهرة وسلكت ممرات افغانستان الحالية واخترقت التركستان الصيني باتجاه مناطق الحدود الصينية التي بلغت أقصى امتدادها الى واحة توان - هوانغ التي أصبحت حتى القرون الوسطى ممراً لجميع طرق القوافل الواصلة الصين ببلاد بكتريان ؛ وقد فترعت عن هذه الطريق الاساسية مسالك ثانوية تتجه نحو الهند ، مخترقة بكتريان ، والبنجاب النخ ، ومنتهية الى الشواطىء الهندية الغربية حيث كان يزدهر الاتصال البحري مع الغرب .

وكانت بضائع مصر وسورية تصل بجرأ الى نرافى الهند على شواطئ ملابار ، وخاصة موزيريس ، المدعوة اليوم كرانفانور . وكانت هذه التجارة مزدهرة جداً دون شك ويزداد نمواً مع القرون اللاحقة .

وهكذا انتقلت الأشياء التي تمثل حقاً بلادها الأصلية من حوض البحر المتوسط الى آسيا ، والعكس بالعكس . وبهذه الوساطة بعث الهند والصين ، البلدان الكبيران المتحضران ، نحو المناطق التي دارت في فلكها التجاري والسياسي كل المؤثرات الحضارية التي وصلت اليها . ولم يكشف لنا علم العاديات إلا آثاراً قليلة عن القرن الرابع ق . م . ولكن تعد هذه الآثار أدلة كافية مع هذا للنسب النتائج المتبادلة لهذا الاتصال الذي أتيننا على ذكره : كآثر الحضارة الاخمينية على بلاد الهند وقد مهتت الاساليب الفنية أكثر من الاشكال ، وآثر الحضارة المكدونية والابونية كما تثبت ذلك بعض الادوات التي عثر عليها في تكسيلا ، ونقود البوسفور التي وجدت في منغوليا الخ ، وهذه هي الفترة التي يغادر فيها الاخمينيون مناطق الهند ، في وقت يتوغل فيها الاسكندر ذو القرنين في غزوته حتى حوض الاندوس ، كما تتعرف فيها الهند الى وحدة سياسية حقيقية تحت حكم سلالة الموريا التي استولت على السلطات حوالي سنة ٣٢٢ ق . م . أي بعد سنوات قليلة من حدوث غزو الاسكندر .

وفي القرن الثالث ، اذ كانت روما وقرطاجة تتصارعان ، نعمت الهند المورية بفترة من الوحدة تحت حكم الامبراطور العظيم أشوكا الذي نشر في أرجاء مملكته قرارات روحية أوحى بها اليه الديانة البوذية التي كان قد اعتنقها . ولكن غدت هذه الفترة عهداً دمويّاً للصين في زمن حكم تسن شه هوينغ - في الذي كان يبني وحدة بلاده السياسية والذي بدأ لحمايتها بتشبيد السور الأكبر . وتأسست سلالة الهان سنة ٢٠٦ ، وستفتح هذه السلالة بلاد الصين على مصراعها للحضارات الاجنبية وتحتفظ بالسلطة زهاء أربعة قرون .

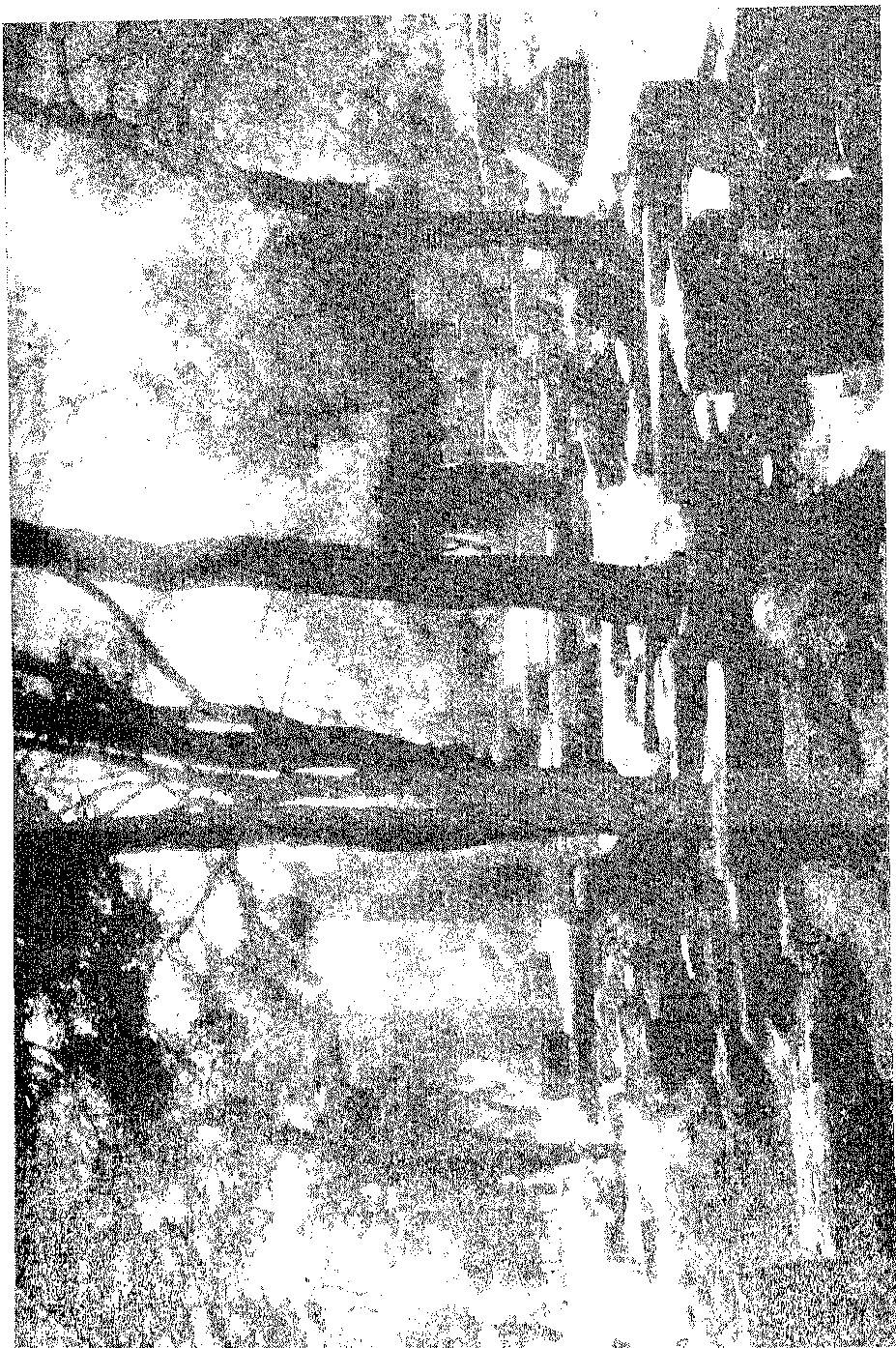
وسيشهد القرن الثاني ق . م . نمو واطراد مملكتي سوغديان وبكتريان الهندو - يونانيتين اللتين ظهرتا بعد غزو الاسكندر ذي القرنين . وسيوسع الهندو - يونانيون ممتلكاتهم باتجاه الهند فيستولون على البنجاب ، في الوقت الذي تمد الصين سلالة ملوك الهان فتوحاتها حتى كوريا شرقاً وواحة توان - هوانغ غرباً والتونكان جنوباً . وتعرض الشعوب المجاورة للصين لتقلبات مختلفة ، وهكذا يصل اليو - تشي ، وقد دحرم الهونج - نو ، الى بكتريان حيث يحولون الممالك الهندو - يونانية الى امبراطورية هندو - سيئية (حوالي سنة ١٣٠ ق . م .) وهكذا يصبحون من ثم الوسطاء بين الصين والغرب . ويساعد هذا الوسط الاورو - آسيوي أكثر من سواه على نشر مبادئ ثقافة القرون القديمة الكلاسيكية في وقت تشهد فيه الهند الجنوبية قيام حكم الاندرا الذي سيذهب خاصة ما بين القرنين الثاني والرابع المسيحيين والذي سيتأثر ، ولو بصورة لطيفة ، بالحضارة الرومانية .

وفي القرن الاول ق . م . ستتخذ العلاقات التجارية بين مصر والهند مجراها الطبيعي . وستتطور وتزدهر بعد فترة قصيرة ونرى نتائجها في القرن اللاحق .

وسنشهد لهذه العلاقات بعض الآثار في مجالي الأدب والعلم ، وإن كان يصعب تحديد تواريخ دقيقة لهذه الحقيقة . ولكن من الثابت بأن المسافرين « المثقفين » قد ساروا على الطرق التي خطتها التجارة . والاقتراسات التي أخذتها الهند عن إيران الأخينية هي دون شك ذات أهمية كبرى وإن كان يصعب اكتشافها جلياً لوحدة المصادر التي استقت منها حضارة كل من هذين البلدين . ولكن تظهر هذه الاقتباسات بكل وضوح في مزار الفن : إذ إن قصر اشوكا في بانثبورا مثلاً يظهر بعض الشبه مع قاعة العرش التي شيدها داربوس في برسبوليس . ويوافق الوصف الذي تركه لنا المؤلف اليوناني ميفستين بقايا القصر التي عثروا عليها . وهناك تشابه أيضاً بين تيجان العواميد التي نقش عليها اشوكا بعضاً من قوانينه والفن الذي كان سائداً في برسبوليس .

وتضاف الى شواهد تأثير الحضارة الإيرانية (التي يثبتها احتلال إيران للبلخ) حتى آخر القرن الرابع ق. م .) الآثار التي هي وليدة تأثير الحضارتين المكدونية والايونية والتي نشاهدها خاصة في مدينة تكسلا .

ومن المعتقد بأن آسيا التي اقتبست الكثير عن الغرب قد وهبت بعض الامور بالمقابلة . ويتساءل المرء ان لم تكن بعض العادات الهندية هي التي أوحى بحملة العرش الفارغ التي أقيمت في كيليكية لالاسكندر ذي القرنين سنة ٣١٨ ق. م . - أي خمسة أعوام بعد موته ... ويميل الانسان أيضاً الى الاعتقاد بأن هذه الناحية من القصة اليونانية او تلك النظرية الفلسفية هما من ثار تأثير الحضارة الهندية .





٣٤ - عدّافون اولمبيون . رسم على قارورة (القرن السادس قبل المسيح) متحف الفاتيكان .

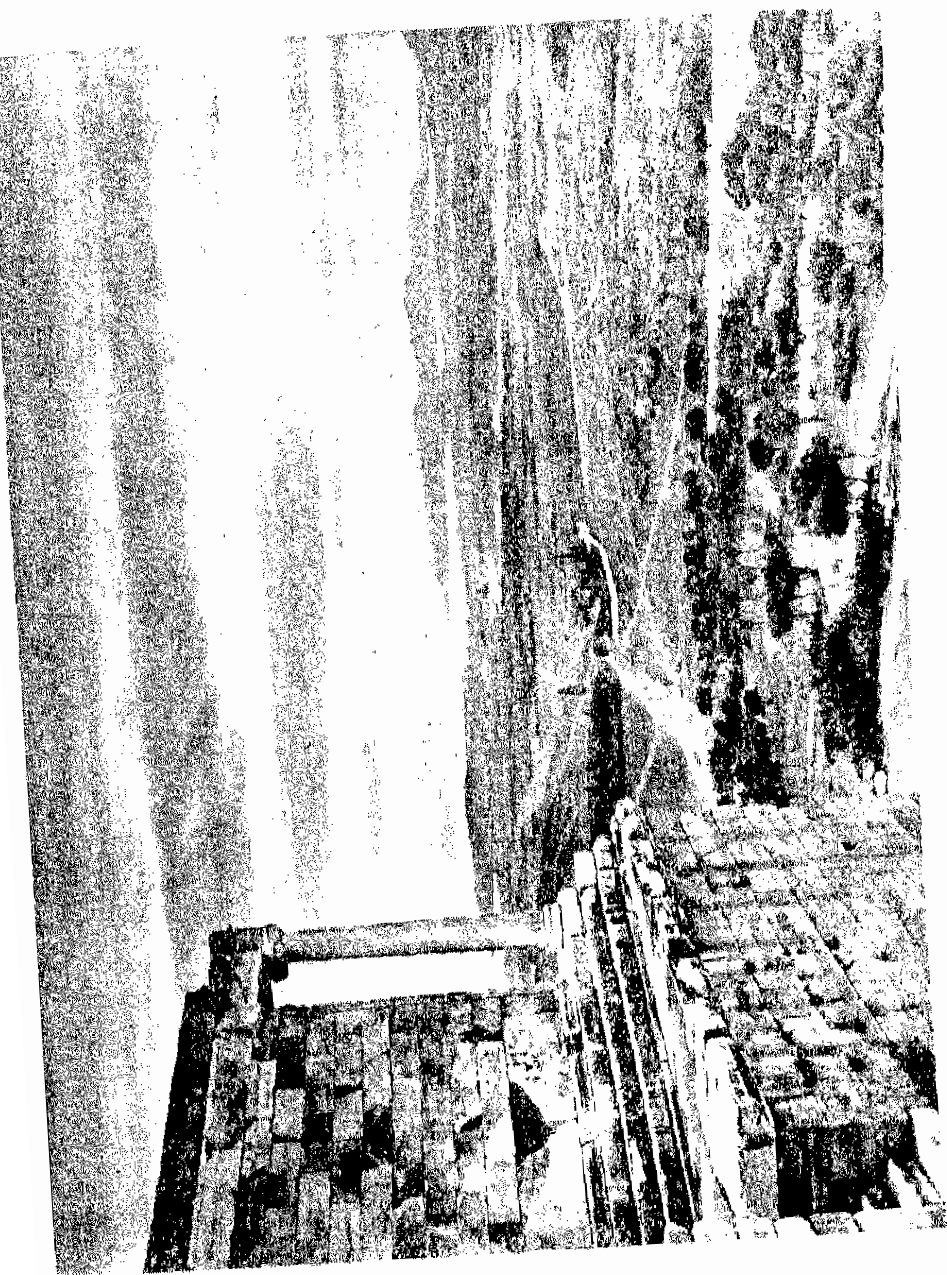


٣٥- زفس هيسثيا (ويعرف بزفس ارقيسيون ايضاً)، وهو من البرونز وينسب الى
كلاميس (حوالي ٤٦٠ قبل المسيح) . المتحف الوطني في اثينا .

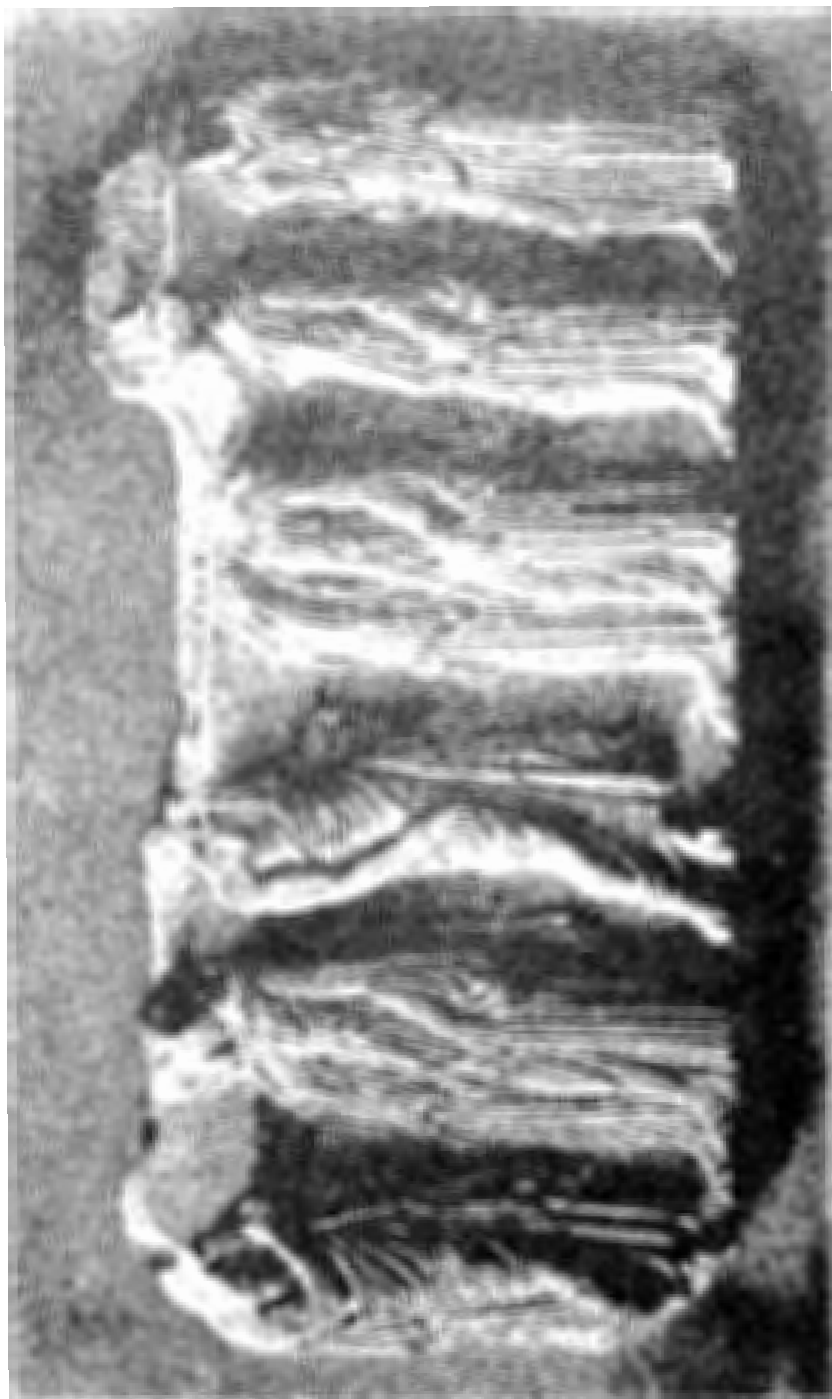




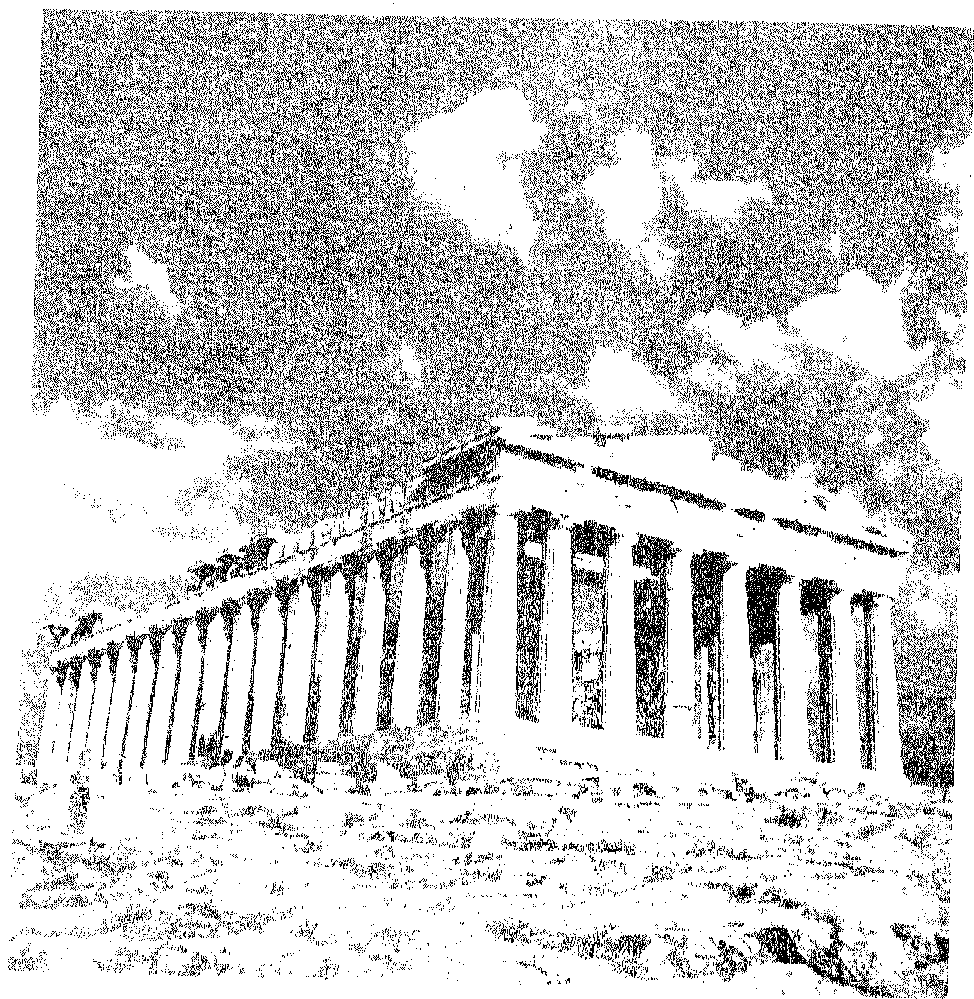
٣٧ - المعبد ذو الشكل D ، ويعرف بمعبد « جونون
الادسية » ، في اغريجنثه (القرن الخامس قبل المسيح) .







٤٠ - تطواف عيد الآلهة « اثينا ». قسم من أفريز البرثوتون . متحف اللوفر .



٤١ - البرثنون (في حالته الحاضرة) .



٤٢- اثينا برثنوس . مذالية من البرونز المذهب ، ويرجع
انه مستوحى من تمثال فيدياوس في البرثنون .



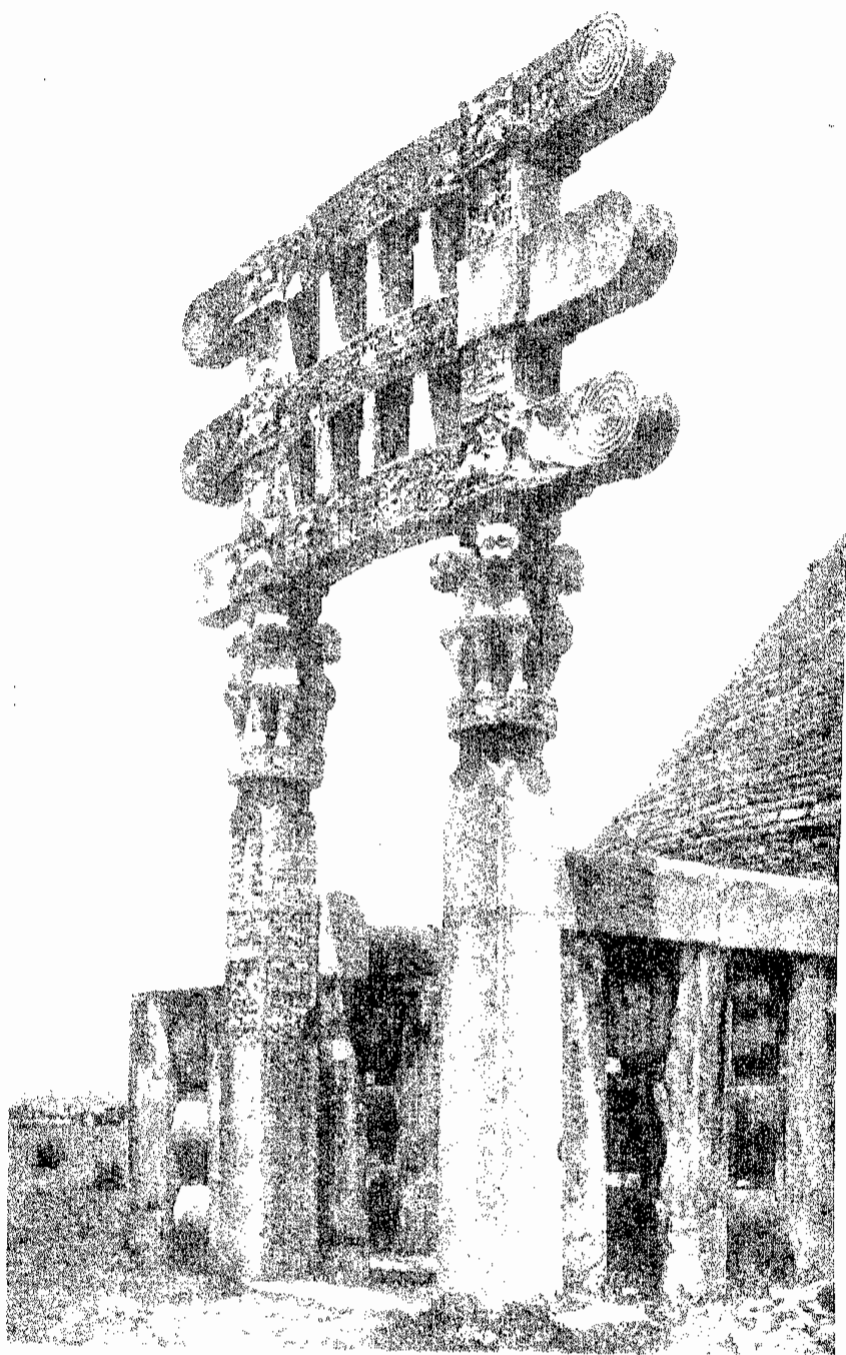
٤٣ - الاتيك او كورنشوس ، اواخر القرن الخامس او
اوائل القرن الرابع قبل المسيح الالهة « نيتي » في ساموتراس



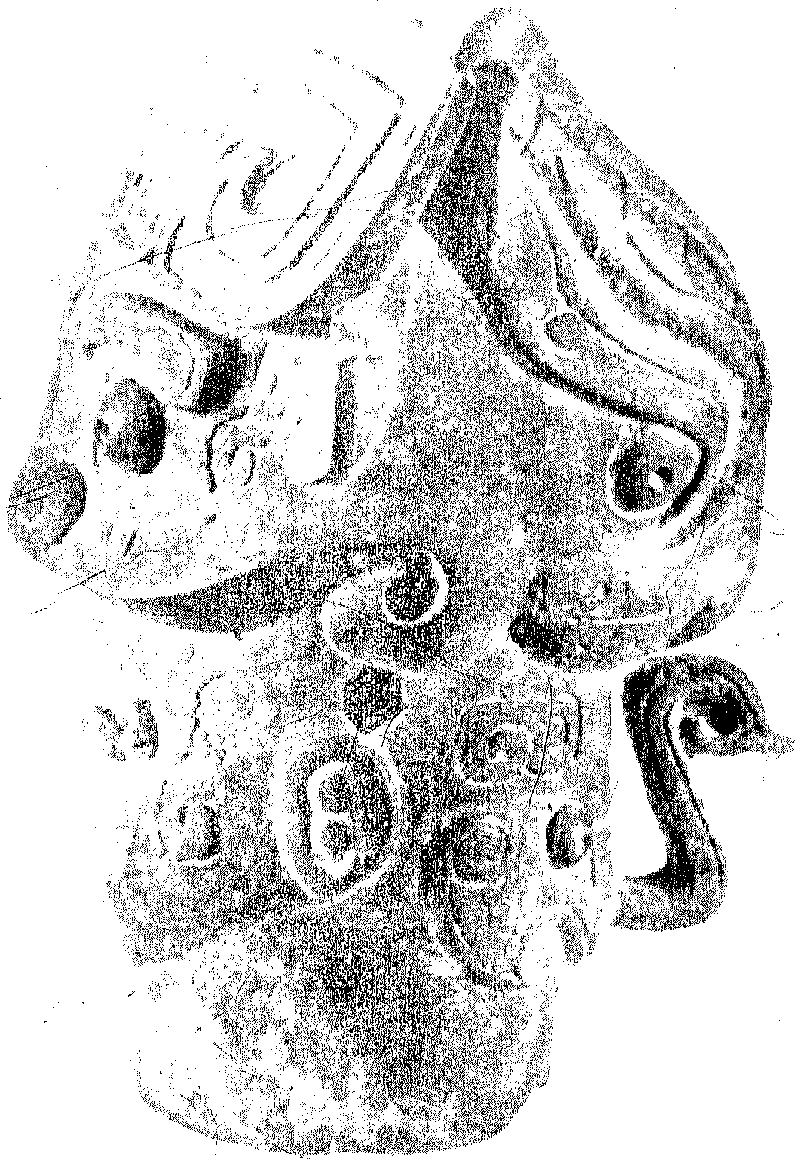
٤٤ - اثناء شنتفي ثلاثي القوائم مصبره نغان - ينغ ، عهد شنج .



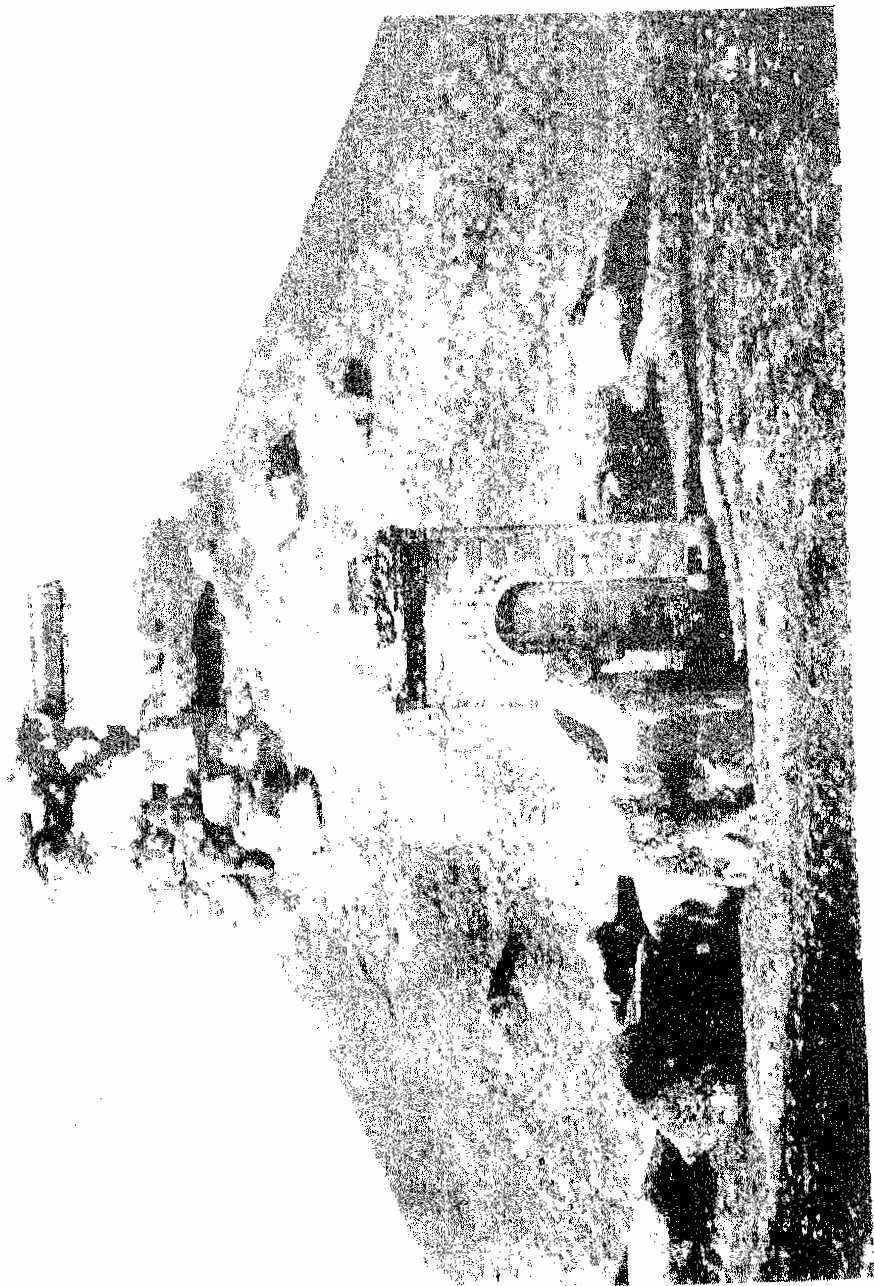
٤٥ - تمثال نصفي لرجل مصدره موهنجو - دارو .
الحضارة المعروفة بحضارة الهندوس . متحف الآثار ، نيودهي



٤٦ - المدخل الجنوبي للشتوبا في سانشي (الهند) . القرن
الاول قبل المسيح .



٤٧ - اثناء طقسي بشكل رأس رجل تعلوه الخوذة . طرف
قناة من البرونز عهد شنغ .



٤٨ - حصان من حجر وقبر هوو - كيو - بنغ الغروطي الشكل . هيان - بنغ ، مقاطعة شن - سي (السنة ١١٧ قبل المسيح) .

الفصل الثاني

الهند أيام حكم الموريا وخلفائهم

استمرت حركة البعث التي أوجدها الموريا دون توقف مدة حكم خلفائهم المباشرين الشونفا والكانفا (حوالي السنة الخمسين ق. م.) ، وغدت هذه الفترة عهداً بنشأة ومن أغنى أطوار الحضارة الهندية وسبقني أثرها العظيم في التقاليد الهندية حتى عصرنا الحاضر ، وإن كان مركز الثقل السياسي قد استقر منذ القرن الاول او الثاني للمسيحية في منطقة غير وادي الفانج ، أي في شمالي البلاد والشمال - الغربي مع سلالة الكوسانا وفي الجنوب - الشرقي مع ملوك الاندهرا فان النتائج التي حققها الموريا لم تندثر بل مهدت الطريق امام ازدهار الدور اللاحق الذي سبهم عليه عمل الغوبتا التوحيدي المتمر (القرن الثالث الى القرن الخامس) ، هذا مع العلم بأن هؤلاء الغوبتا سينتسبون الى الموريا لتثبيت سلطتهم .

ان أهم حدث هو دون شك سمي الموريا لتحقيق الوحدة السياسية التي شيدوا عليها امبراطوريتهم ، فقد أوجدوا نظاماً سياسياً مستقبلاً لتسهيل ازدهار البلاد الاقتصادي فدعموا علاقات الهند الدبلوماسية والاقتصادية مع سائر أقطار آسيا والغرب ، واستعملوا البوذية كأداة قوية نشرها بواسطتها في مختلف أجزاء الامبراطورية القوانين الروحية التي ستحقق الوحدة . وعموا هذه الديانة في سبلان ، وسينتشر هذا المعتقد بعد قليل من الزمن في آسيا الوسطى والشرق الأقصى . وعرف الفن نهضة مجيدة واستعملوا لأول مرة مواد صلبة ، وسيفدو جمال هذه الحقبة أساساً للازدهار اللاحق . وأخيراً سيمضي التأليف الأدبي قدماً في الازدهار ، حتى القرون التي ستلي ، كما سيحدث الفولكلور الوطني ومجاريه تحويراً عيقاً في الامور الرسمية . اننا امام عصر يدعو الى الدهشة ، تزدهر فيه مبادئ القروسية ، وتصبح فيه الثقافة ارستوقراطية ، وتتلند فيه المذاهب الدينية الى عوامل التسامح واحترام المؤمن ، وابتصر فيه اللاعنف ولو أقله بصورة مبدئية . ومع هذا فان تاريخ هذه الحقبة السياسي لا يعرف استقراراً إذ تقوم في المناطق الشمالية - الغربية سلطات غير ثابتة تحدث تغييرات مستمرة في مجرى الفتوحات الهندية . وتقدم هذه الحالة قروناً عدة .

ويبتدىء عز الهند السياسي أيام شندراغوبتا الذي عرفه اليونان باسم سندراكوتوس أو سندروجيتوس . انه أحد أفراد الكشتريا ، وقد ينتسب الى سلالة نندا التي كانت تلك في مغلها ، وقد خلفها على السلطة حوالي سنة ٣١٣ ق . م . (استناداً الى بهتسالي) وقبل استيلائه على العرش من الجائز ان يكون قد تقابل مع الاسكندر ذي القرنين ، وتزعّم الثورة التي نشبت ضد حكام المناطق الشمالية - الغربية الهندو - يرفانيين . وبعد ان أصبح ملكاً بدأ فتوحاته في كافة أرجاء الهند الشمالية . وسنة ٣٥٠ أجبّر سلوقس نيكاتور ، مؤسس المملكة السلوقية ، على عقد اتفاق وأقام معه علاقات دبلوماسية بواسطة اليوناني مضتين . وقد عاش هذا الأخير في غاصية الملك الهندي ، باتليسترا ، وترك لنا وصفاً شيقاً لها . وفي هذه الفترة عرف اليونان حقيقة حضارة الهند المورية وغدت لهم أنظمتها وثقافتها عامل دهمشة وإعجاب . وهكذا عرف اليونان مبدأ تقسيم المجتمع الى فئات ، وسيادة البراهمة الوراثة ، وزعامة أفراد الثمرانا التي حصلوا عليها بنبوغم وتقومهم . ونقف في كتاباتهم على مدى تفوق حضارة الموريا التي سعت مصر وسورية لتوطيد علاقاتها لها . وسنرى فيما بعد دقائق هذا التنظيم (وجه ٦١٢).

وستبلغ سلالة الموريا ذروة عزها مع أشوكا بربادريش ، حفيد شندراغوبتا ، وذلك لكسالى ثقافته واتساع فتوحاته . وقد بدأ حكمه (حوالي سنة ٢٦١ - سنة ٢٢٧) بارتكاب جريمة اذ قتل أخاه البكر ليستولي على العرش . ثم قام بحملة دموية على كالنغا . ولكن سرعان ما اعتنق اشوكا البوذية وغدا مثال الامبراطرة . ومن الحق القول إن لا مثيل له بين معاصريه . وتظهر لنا تعاليمه الواصلة الينا بواسطة « قوانين النظام » التي نقشها في مختلف أرجاء المملكة سمو مبادئه الروحية وفضائل شخصيته الفذة . وان كانت هذه القوانين قد استلهمت البوذية فهي مع هذا هندية الروح ودون أي تحيز ديني ، تسند النظام الاجتماعي والسياسي والروحي حتى نظام الكون نفسه الى شخص الملك . ويحافظ على هذا النظام موظفون ومبعوثون ونظار ومراقبون عموميون الخ ، ومهمتهم حمل القوم على احترام قرارات الملك وتوثيق العرى مع البلدان المجاورة . وأساس هذا الحكم - الذي ابتدأ مع هذا بالبطش واغتيال الاخ - هو مبدأ اللاعنف دون سواء . ويسعى هذا النظام جهده لاسعاد الجميع ، وعدم إرهاب الحيوانات ، وازال القصاص العادل بمستحقه ، والسهر على صحة الافراد وخلصهم . ومع ان اشوكا أثار ضجة كبرى حول اعتناقه البوذية واتم الجميع الكبري فانه حمى المعتقدات الاخرى كما يؤكد ذلك ما قدم من هدايا ملكية عدة الى الاجيفكا . وقد يكون التأم أيام حكمه مجمع بوذي كبير في باتليسترا ، وتأسس المعتقد البوذي في سيلان (حوالي سنة ٢٤٥ ق . م ؟) التي ستعدو في القرون اللاحقة عاصمة البلاد الاندو - صينية الدينية .

وشملت مملكته عملياً كل أجزاء الهند الشمالية والشمالية الغربية . وامتدت جنوباً حتى منطقة الاندھرا . وأقام الملك علاقات دبلوماسية مع سوريا ومصر ومقدونيا والقيروان والابير أو كورنثيا .

وبعد موت اشوكا تجزأت مملكته رويداً رويداً ، واستقر الحكم المركزي في مالفيا ومفدها بزعامة الشونفا (١٧٦ - ٦٤ ق. م. ؟ بالاعتداد على فيليوزات) ثم بزعامة الكانفا (٦٤ - ٥٠ ؟) الذين تولوا السلطة في ذات الوقت مع آخر حكام الشونفا ، بينما كانت الاضطرابات تغير من وضع الممالك الهندو - يونانية وتتقوى زعامة الاندهرا في الجنوب - الشرقي . ومع أننا لا نستطيع ان نتحدث عن نظام مثالي أقامه الشونفا والكانفا كالنظام الذي حققه اشوكا نلاحظ بأنهم غدوا تقاليد ثقافية وفنية زاهرة في المناطق التي سيطروا عليها اذ ترقى الى عهد ملكهم آثار نهر هوت وسائشي البوذية الجميلة . وحدوا حذر سلفائهم فوطدوا العلاقات مع الغرب كما يشهد بذلك العامود الذي أقامه هليودوروس حوالي السنة مئة ق. م. (?) بالقرب من فيديشا ، وقد كان من مواليد تكسيلا ومندوب الملك انتيالكيداس .

ولكن تتابعتم أثناء القرن الذي دامت فيه سيادة الشونفا والكانفا حوادث في المناطق الشمالية - الغربية سيكون لها تأثير عظيم على مصير الهند بالذات . وبعد تجزئة ملكة السلوقيين حوالي سنة ٢٥٠ ق. م. ، على يد البرثيين ظهرت دولة جديدة مستقلة في بكتريان يحكمها المرازية وأجبر هؤلاء المرازية للبقاء على استقلالهم على قتال البرثيين والايروانيين واليونان الذين طمعوا دوماً بهذه المنطقة . ولكن كان هؤلاء المرازية ذوي طموح وعقيلة حربية لذا سعوا ايضاً لتوسيع ممتلكاتهم على حساب المناطق الهندية ؛ وقاموا بغزوات عدة فاستولوا على غندهارا وتوغلوا حتى خليج كبي ، لا بل أخضعوا ايضاً لفترة من الزمن باقليتيرا واحتفظوا في البنجاب بملكية يسوسا الملك مناندر ، بطل « مسائل ميليندا » الشهيرة . وقد توفي هذا الأخير في الفترة الواقعة ما بين سنة ١٥٠ و ١٤٥ ق. م. (؟) . وحوالي الفترة نفسها حصلت اضطرابات سببتها غزوة هوث متغوليا الداخلية جرفت معها الى بكتريان جماعات مختلفة وعلى شيء من البداوة كانت قد أتت من آسيا الوسطى ، بينهم شعب « السيت » الذي أطلق عليه الهنود اسم شاك . فتضعضت إذ ذاك تضعضاً شديداً ملكة بكتريان لقدم هؤلاء المهاجرين اليها بصورة جماعية ، إذ كان هؤلاء المهاجرون يتحاربون دون هوادة . وزالت هذه الدولة نهائياً سنة ٨٠ ق. م. في وقت استقر به الشاك تحت رعاية البرثيين ، في كشمير ثم في وادي الهندوس ووصلوا الى البنجاب ومالفيا .

وهكذا حل محل تأثير الحضارة اليونانية في الهند تأثير سيني - برثي ذو صبغة ايرانية حاملاً معه مبادئ وعوامل من آسيا الوسطى . وغدت قوى البرثيين والشاك المتكاثفة في الشمال - الغربي وقوى الاندهرا في الجنوب سبب سقوط سلالة الكانفا .

١ - إطار المدينة والريف

ان المدينة المثالية الموصوفة في كتب الأدب هي العاصمة الملكية او الامبراطورية . وتتوافق هذه الأوصاف مع الأشكال التي وجدت هنا وهناك في الرسوم المنقوشة ومع الآثار التي عثروا

عليها . وقد تغطي العاصمة بعض المزارع مساحة شاسعة كبالييترا مثلاً التي امتدت ، على ملتقى الغانج والسون ، على طول (١٥) كلم وعرض (٣) كلم . وللعاصمة مظهر مكان حصن ، تحيط بها حفر من الماء تزدهر فيها نباتات الخندقوق وتستعمل كبواليع عمومية . وتتكون الأسوار من آجر غير مشوي وكميات هائلة من الخشب : وقد وجدوا هذه الامور بعض الأمثلة ترتقي الى عصر الموريا في راجنغريا . وعلى مسافات متفاوتة ترتفع أبراج للمراقبة فيها الشرفات تظهر أثر الحضارة الايرانية ، وتشق السور أبواب ضخمة عدة (غوبورا) ؛ وإن نحن صدقنا مفستين فقد حوت عاصمة اشوكا (٥٧٠) برجاً و (٦٤) باباً ! وتؤلف هذه الأبواب أبنية بكل ما في الكلمة من حقيقة إذ لها أساس من الآجر وينتصب عليها طابقان او ثلاثة طوابق أعدوا فيها منازل ومكاتب لضريبة الميزور واهراءات . وأمام الغوبورا يرتفع جسر فوق حفرة السور ويتصل عادة برواق يكونه عمودان متصل قمتها قطعة او عدة قطع من الخشب .

ويضاهي القصر الملكي أو الامبراطوري ، كما يقال ، قصور اكبتان او سوزة عظيمة ، إذ ان آثار قصر اشوكا التي عثروا عليها في باليترا تظهر تشابهاً مع قصر داريوس في برسبوليس . ولكن لا بد من القول بأن الهندسة هي من وحي هندي إذ دقائق الزين والتجميل ، كتيحات العمود مثلاً ، تثبت فقط فناً أجنبياً ، ومبدأ هندسة هذا العصر هو اقامة بناء بحكم الاجزاء . وتتألف غالباً الأبنية من طابقين ، وتنشق على شكل قبة أو مهد . ويحيط بالحروق - أبواباً كانت أم نوافذ أم كوى - سهم على شكل نعل القوس ، تصل الى داخلها أخشاب تحمل طناً بصورة مهد . وتسد هذه المجموعة شبكة من الأخشاب ركزوها على عمودين أقاموها على جانبي المدخل . والطوابق شرف . وتحيط بالقصر الملكي جنائن للترفيه جمعوا فيها العصفير وأقاموا فيها الأحواض للترية السمك . وبحفاظة على سلامة وأمن الامبراطور فقد أعدوا داخل القصر دهاليز وأروقة أرضية .

وبيوت القرى هي دون شك أقل عظمة ، تتألف من بناء مستطيل ذي طابق واحد من السباع ، ولا يقيمون له إلا باباً واحداً وكوة . وسقف هذه البيوت من القش يكون منحنيّاً أو على شكل مهد . ولأبواب القرية والأبنية التي تضم غرف القيلة سقف منحني يجتوي على قطع من الآجر لم يحسن شيئا ، وهي كبيرة الحجم (حوالي ٠.٣٠ × ٠.١٨) وتكون أكثر سماكة على أحد أطرافها .

ويوجد نوع من المساكن للنسك والزهاد ، وهي عيبارة عن أكواخ من القصب أو الطين تغطيها الأوراق وتنفر وسط الغابة أو الحقول . وبعض هذه الإكواخ هو أحسن صنفاً ، يبنونها دون شك من الطين ويملؤ سقفها الذي يكون على شكل قبة وعاء أهد لجمع مياه الأمطار .

وكانت المعابد في أول الامر دون شك حقلاً يحيط به حاجز من خشب (فديكا) ويحتوي على

شجرة وورثه أو حجر مقدس . ولم تتسع كثيراً الهياكل الأولى . وعندما بدأوا يستعملون المواد الصلبة للبناء ، حوالي القرن الثاني ق . م . كانوا قد قضوا دون شك فترة طويلة من الزمن لم يلجأوا فيها إلا إلى الخشب . واستعملوا حجارة صخرية وقد جوفوها ونقشوا عليها نقوشاً ساعين جهودهم لإظهار دقائق مجموعة الأخشاب التي تشد إلى بعضها بعضاً وتساعد العملة عند تشييد الأبنية . ومنذ هذا الوقت أيضاً أخذوا يبنون معابد ضخمة ، تدعى ستوبا ، تمسك ، بالحجارة والآجر ، شكل التومولي القديمة . وتتكون هذه الآثار من قبة نصف دائرية تستند إلى أسس قليلة الساكنة ويعملها سطح صغير مرتفع ترتكز عليه مظال عدة . ويحيط بهذا المبنى درابزون يضمون فيه خرقاً أو أربعة خروق بشكل ملتو لكل منها باب (تورا) . وترتقي لأجل أمثلة هذه المستوبا إلى القرنين اللذين سبقا العهد المسيحي وهي تقوم في بهرهوت وسانشي .

وهناك نوع آخر من المعابد ، خاصة معبد بوددهفايا ، من أجل موجوداتها الشجرة المقدسة التي تحت ظلها هبط الوحي على بوذا شكين . ولا تملك إلا اشكالاً لبيوت العبادة هذه إذ يرتقي المعبد الحالي إلى زمن لاحق جداً . وهو يبدو ، كما تظهر معابد أخرى تحضن نار ذاك العهد الطقسية ، متدبر الشكل ، أي عبارة عن فسحة ذات أعمدة يعملها سقف على هيئة مهد وتحيط بالشجرة .

وباستثناء الستوبا فانهم لا يتقيدون لتشييد المعابد بالمبادئ الهندسية ذاتها التي اتبعوها في الأبنية المدنية .

وتطور أثار هذه المعابد ففاق عظمة أثار هياكل الطور الفيدي وقد أطنبت الآثار الأدبية بوصفه ، ولكن لا يبدو بأن أصناف الموجودات قد تغيرت كثيراً ، إذ تقوم أساساً على الأرائك والعروش والأمرّة والمقاعد . وهناك أوصاف زاهية لأواني الطبخ والمائدة . ان الاجناس متنوعة فيها ما هو مخصص للأغراض الطقسية كالأواني التجلاء (الكومبها) النحاسية ، والأواني ذوات القوائم والعتق (بورناكلشا) ، والأباريق (كوندريكا) والأواني لماء النساك (كمندار) ... وكلها أوانٍ ستكتسب أهمية كبرى في المعتقد البوذي . وللملاق أيضاً غاية طقسية إذ تستعمل في تقديم الذبيحة البراهمانية . وللأكل يلجأون إلى القصاع دون الصحنون إذ عليهم ان يرموها بعد استعمالها ويستبدلونها بأوراق . وعندهم للشراب قنار وقوارير - يحملونها في شباك - وأقداح وكؤوس . ويغربلون الحبوب بواسطة مذار مستطيلة (شوربا) ثم يسحقونها في أجران بدقة خشبية ، ويصنعون عجناً للعلوى يسوّونها بمطمة على أخشاب تستند إلى الأرض بواسطة أربع قواعد قصيرة المدى . وهناك طباق وسلال من القش تنتم هذا الأثاث ؛ ويمكننا ان نضيف إليه الشاعد والقناديل وعدداً كبيراً من العلب والصناديق الصغيرة (المدة لحفظ الأقاويه والطيوب والحلي والثياب والذخائر) والمرايا المصنوعة من قرص معدني مصقول مثبت إلى مقبض غالباً ما يكون من العاج . ويجب أيضاً تعداد المذبات والمظال والاعلام التي ترافق العاهل في حله وترحاله

والتي تستعمل في تقديم بعض الذبايح . وللدغال مقبض طويل من الخيزران تنطلق من قمته قطع صغيرة تحفظ المظلة مفتوحة . وتتكون الاعلام من مقبض قد تؤلفه مراراً مجموعة من العصي تربط هنا وهناك . ويعلم هذا المقبض رمز وتشد اليه خرقة طويلة نقشت عليها مراراً اشكال شمسية وقمرية او نجمية . وللنسبية يصنعون ألعاباً من الزهر بواسطة أثمار مجففة او قطع خشب او عاج . وللموسيقى احياناً مقام ممتاز ان كان في التطوافات الملكية والغدوات الحربية وأعياد القصور والهيكل . وتتألف المجموعات الموسيقية من النساء - للرقص - والرجال . ويحمل أفراد هذه المجموعات طبولاً مختلفة الاحجام والاشكال ينقرون عليها بمخاصر مستقيمة او معكوفة مشدودة الى معانق . وترافق الأناشيد التي يدعها نقر الذف أنغام المزمار والعود . وسيدبقى العود ، وقد استعملته النساء خاصة ، الآلة المفضلة عند الفئة النبيلة وذلك حتى القرن السابع تقريباً .

وللأسلحة مركز مرموق في هذا التعداد الذي يعكس حياة النبلاء - المحاربين اذن - أكثر من حياة العوام . والسلاح الأساسي هو القوس ، ترافقها طبعاً النبال والأتراس . وعندما يوترون القوس يرفعونها الى مستوى الكتف ريشدون الوتر حتى الأذن . والنبال ذات رأس مثلث الزوايا قد يريشونها أو لا؛ وتوضع داخل جعبة يحملونها على ظهرهم دون ان نعرف شكلها اذ لا يظهر إلا أعلاها . ومن أسلحتهم « البيضاء » الحسام والسيف يضعونها في غمد تغطيه قدد من جلد متشابكة . وتعلمو رمانة السيف قطعة تنفصل بينها وبين النصل وتزيد عنه قليلاً . وتبدو الشفار الحادة التي عثروا عليها ، خاصة السكاكين ، منفوخة في وسطها . ويجب عند جرد الاسلحة ذكر الحراب ذات الرأس المتناسق . ومن أصناف الأدوات نعرف الفؤوس ذوات المقبض والمتاجل لقطع الاعشاب . ويستعمل الباحثون عن العاج منشاراً يدوياً صغيراً . ويلجأ عادة سواس الفيلة الى نوع من السباط محددة الرأس كالكلاب تنفصل اسنانه الحادة عن المقبض بشكل شبه عمودي . ولا نجد إلا أشكالاً قليلة للفؤوس ، وهي مستطيلة ، مستديرة في أعلاها ، مستقيمة الاضلاع في أسفلها نقشوا عليها رسوماً للترزين او تحمل قداداً متشابكة على جبهتها الداخلية .

ويعد الفيل والحصان والجمال من حيوانات الركوب . ويقبضون على الفيل البري بواسطة فيلة قد دجنوها وأعدوها لهذه الغاية . وقد يجمدون حركة الفيل لفترة ما يربط ذنبه الى خرطومهم بواسطة حبل يمر تحت بطنه ، ويشبثون الخرطوم دون حركة بواسطة قطعة خشب تثبتها بدورها الربط . ويلبسون الحيوان لتزيينه عقداً وتاجاً ، ويفطون ظهره بطنفسة تحمل رسوماً هندسية يشبثها في مكانها حبل قوي يمر تحت البطن ، ويشدون الى قدميه الجلجل ، ويلقون على عنقه وشاحاً طويلاً يحمل في طرفيه جرسين يتدليبان حتى ركبي الحيوان الذي يصطدم بهما عندما يسير .

ويلقى على ظهر الحصان وشاح قد يصل الى الذنب توضع عليه طنفسة كالبردعة ، وحزام مزدوج قد يستعمل كربط ، ولكن لا يظهر أي أثر للركاب حتى ان استعمال الربط أمر نادر

ومشكوك فيه . وقد يظهر مراراً نوع من النطاء على ركبتي الرجلين الامامين . ويحمل الرأس لجاماً تثبت فيه ريشة شبيهة بالمذبة وحكيتين تثبتان أيضاً برباطين يمر أحدهما على الناصية والآخر تحت العنق ، ورسناً و « سيراً للأنف » وهو عبارة عن رباطين يمر أحدهما على قسم الرأس الممتد من الاذنين حتى الخيشوم والثاني تحت الذقن ، وشكيمة في النم .

وفي الشمال يركبون الجمل أيضاً ، وتوصلاً لهذه الغاية يربطون حبلاً بقطعة صغيرة من الخشب توضع في أعلى الخيشوم ، كما يفعلون اليوم .

والحصان والثور هما من حيوانات الجر . ويجزر الفرس عربية لها دولابان يذكر شكلها عربية الرومان . ويشدون الى هذه العربية حصانين أو أربعة على كلا جانبي بحر العربية المعقوف الذي يحمل نيراً عودياً ، وتربط الاذنان بكل دقة الى جوانب الحيوانات ؛ ويحتمل على السير سوط من قدد الجلد المهبوكة والتي يربطونها مراراً بعضى . ويجزر الثيران ، وقد زين جيدهم بعض المزارع بعقد ثقيل ، عربات من دولابين ، وقد يلقون عليهم غطاء ويضعون على رقبتهن النير . أما الاحمال الخفيفة فينقلها الرجال على ظهورهم مستعملين قطعة خشبية مقعرة تثبت على جانبيها حبلان يحفظان التوازن .

ولا بد من الإشارة ، عند ذكر وسائل النقل ، الى المراكب والسفن التي لا تملك عنها إلا رسوماً نادرة . وللمراكب كوثل معقوف ، ويرى المرء بوضوح الربط التي تشد قطع الخشب بعضها الى بعض ؛ ويظهر بأنها كانت تدفع الى الامام بواسطة مجذاف يعتبر كاللقدف الخلفي ودفة قصيرة على شكل الآلة التي تضرب بها الكرة الطائرة . ولبعض مراكب الأبهة جدران على شكل عقاب يستند اليها ضرب من السراقد ذي الأعمدة .

٢ - الحياة الاجتماعية

تحتفظ الزراعة بالمركز الاول في لائحة الاعمال الهندية ، ولكن تقدمت كثيراً مع المصادر هذه التجارة والصناعة حتى أصبحتا تؤلفان حقاً أساساً ازدهار المملكة . فقد أحسنوا تنظيم التجارة أكثر من العهود السابقة ، وألقت التجار نقابات وخضعوا لقوانين وضعت بكل عناية . وهناك مراقبة على الاثان والموازين والمكاييل . ونظموا أيضاً أمور القوافل وفرضوا عليها دفع ضرائب ومكوس . وهي تتألف من عدد كبير من العربات يقودها ادلاء لاختراق الصغارى وترافقها الاطواف لاجتياز الانهر . واشتد التبادل التجاري مع البلاد المجاورة كاستيراد الجلود والحراير من آسيا الوسطى والصين وتصدير الحلى والاسلحة والافاويه . وازدهرت أيضاً التجارة البحرية في البحار او على الطرق النهرية . وألحقوا هذه التجارة بشؤون بحرية الدولة التي تقرر الملاحة وتعد المراحل وتراقب المرافىء وتدافع عن الشواطىء ضد القرصنة . وتشمل أيضاً الصناعة التي تغذي التجارة اعمال النسيج وتصنيع المعادن .

والصيد هو تسلية كبرى عند العظماء وأداة كسب القوت عند صغار القوم . ولموسمه عز وعظمة عند الملك والنبلاء الذين يذهبون الى جولات شاسعة ترافقهم نساؤهم وزرافات خدمهم ، ويتقدمهم رجال الموسيقى حاملين الدفوف والصنوج ، وينتظمون مواكب مواكب علي صهوات الاحصنة أو ظهور الفيلة أو العربات يحيط بهم حراس مدججون بالسلاح . وتجنّى من الحرب عندما تكون مظفرة فوائد كبرى ، وقد أتوا على وصفها أكثر فأكثر . وبسّلم القيادة فيها رجال الكشتريا والملك بالذات اذ هو محارب لا بل مبدئياً المقاتل الاول . ويتألف الجيش من المشاة وفرق الخيالة ومجموعات من الفيلة والعربات . ويكون الجنود من المرتزقة أو من الرجال الذين يدعون للسلاح في الوقت المناسب . وهناك فرق مختصة للهجمات في الجبال أو الغابات . ويشمل فن الحروب ، في ما يشمل ، علم بنساء الحصون الذي يفرض معلومات مختلفة ومتعددة .

وتكون الضرائب اخيراً مورداً خصباً يقررونها حسب معدل محدد وتستعمل للقيام بنفقات الملك والوزراء والموظفين والجيش والأرامل والبؤساء . وتضاف هذه الضرائب الى الارباح التي يجنيها الملك من أملاكه التي تتكون من أراض زراعية وغابات ومناجم ومصانع وسجون . وينفقون أيضاً هذه الضرائب على الاشغال العمومية التي تهتم بالطرق وقنوات الري والخزانات النخ . ويستفيد البراهمة ايضاً من الضرائب ، وفي البلاد التي اعتنقت البوذية ، الرهبان الذين يعطون علاوة على ذلك التقادم والهبات . ويخصص الملك - وله وحده الحق بسك النقود - مبالغ كبيرة لتأسيس أماكن دينية وبهيا ملكية الاراضي الزراعية ويعين لها الأشخاص الذين يتطلبهم استثمارها . ويحذو حذوه النبلاء والتجار الأثرياء اذ يعدون من اعمال الرحمة والعبادة الهبات التي يقدمونها بصورة مستمرة لرجال الكهنوت .

ان المجتمع هو أكثر تنوعاً وأحسن تقسيماً من مجتمع العمود السابقة ، مع أن التجزئة المجتمعية لم تصبح بعد أمراً مؤكداً وهي تختلف باختلاف المناطق والمعتقدات السائدة . ويظهر عدد كبير من الوظائف في الحاشية الملكية أو الأوساط البوذية ، لم يأتوا على ذكرها سابقاً .

ومع ان رجال الكهنوت هم منافسون أشداء للملك وسلطته ، يبقى الماهل الشخصية الاولى في السلم الاجتماعي . وينتخبه مبدئياً النبلاء والشعب استناداً الى فضائله أو بعض العوامل الخصوصية ، ولكن غداً عملياً انتقال السلطة الملكية أمراً وراثياً . ويسمح ملكاً باحتفال مهيب ترافقه زوجته الملكة ، ويكون هذا التكريس برش الملك بالمساء (ابهيشكا) يقوم به الكاهن المحتفل وكبار البراهمة والكهنة وجمهور الحاضرين . وتتمشى مع تقاليد العهد السابق يقدم الملك (ان كانت له المقدرة المالية) ذبيحة الحصان ، وهذه الذبيحة تثبت سلطانه . وللملك منازل عدة ، حتى في عاصمته ، ولا يقضي قط ليلتين في الغرفة نفسها . ويوقظونه من النوم بكل

صباح في ساعة محددة وعلى أنغام الموسيقى ، ثم يأتي حالاً كاهن القصر ليمسدي له التحية ، ثم يستمع الملك الى تقارير وزرائه ويأتي الى قصر العدل . وبعد ذلك يستحم ويتناول طعامه .

وبعد ان يتم العاهل واجباته الدينية يستقبل مراقبي الدولة ورجال الاستخبارات . وبعدئذ يحق له اللهو والتسليه ، فيقوم ببعض الالعاب (رمي القوس ، لعبة الزهر الخ) ويتزده في حدائق القصر ويستعرض الغيلة والخيالة . ولكن يجب ان يطلوه دوماً على أمور الدولة ان كان على مائدة الطعام او وجد في دار الحرم ، او في غرفته ، او في مزارعه ، او في العرية ، او في حدائقه . وللعاهل الحق في التقرير ايئاً كان ، ويجب ان تنفذ اوامره بسرعة كلية حتى ولو كانت شفوياً . واخيراً يحتفل بطقوس غروب الشمس ، ويستحم ويتناول طعامه ثم يختلي في جناحه ترافقه انغام الموسيقى . ويعتنون اعتناء دقيقاً بكل ما يت الى شخص الملك ؛ ويربون في القصر ببغاوات وطيور ويس ويطاطا لتكشف بأصواتها عن وجود حبات سامة ، كما يعتنون بالنموس لقتل هذه الزحازح . وهم يخضعون للتفتيش الادوات التي يلجأ اليها العاهل لاستعماله الخاص كما يراقبون الاطعمة التي تقدم له والادوية التي يقرؤها له .

ويحيا الملك حياة بذخ وعظمة ، ولكنه يبقى بالدرجة الأولى مقاتلاً يشترك شخصياً بأعمال الحرب والصيد . وأساليب لهوه هي أساليب الرجولة تقوم على اعمال الصيد والمصارعة والالعاب اخرى مختلفة تشترك فيها غالباً معه نساء القصر . ولا يجب ان يصبح مطلق الصلاحية مستبداً ، وهو يحكم المملكة يحيط به مستشاروه واصدقاؤه واقرباؤه ، يأخذ بعين الاعتبار آراء رؤساء النقابات وفصائل رجال الامن . وتشدد النصوص كثيراً على صفته الملكية : فهو من اصل ديني ومحور العالم الانساني وصورة الآلهة على الارض وخاصة تجسيد رب الارباب ، اندرا ، الذي يعبد على الارض بلاءه في الحروب وعدائه ، كما انه يتصل اتصالاً وثيقاً بالكوسموس ويمكس من ثم في هذا العالم افعاله وخصائصه .

ويستند تنظيم المملكة الاداري والسياسي الى سلسلة رتب شبيهة بزميلاتها في العهد الفيدي : غاتير القرى فنواب المديرين فالمدبرون فحكام المحافظات فنواب الملك فالوزراء . ويقوم هؤلاء الاخرون بتسيير أمور الاشغال العامة والمسائل المالية والشؤون الداخلية ، ويمتكر الملك حق ملك النقود . ويوجد مبعوثون ومراقب وحاكم يتجولون في فترات محدودة (كل ثلاث أو خمس سنوات) في مختلف أرجاء المملكة للمراقبة والتفتيش .

وتشدد وطأة المراقبة الملكية الدقيقة على كل شيء وفي كل مكان : في بيوت الحرم وفي الحقول حتى لبدن المؤسسات الدينية . ويقوم بهذه المراقبة مفقشون ملكيون لا يخضعون إلا لسلطة الملك ويحققون العدالة استناداً الى أصول عاكامات موحدة . ولل قضاء محاكم مختلفة يلحق بها قضاة اختصاصيون أنيطت بهم مهمة لإحقات الحق ومعاقبة الجرائم . ومع هذا فقد احتفظوا بمسند

العذاب الجسدي كالتعذيب وبتر الاعضاء . ويقررون السياسة الخارجية استناداً الى المعلومات التي يقف عليها الجوايس ورجال الشرطة . وتصلح جميع الوسائل للاستفادة من ضعف العدو مما يدعون ثم الى تقدير امكانياته تقديراً دقيقاً ، كما يصدق هذا القول عن الشعوب الخليفة . وهم يحبذون كثيراً تنمية واستمرار الشقاق بين الاعداء الذين يكونون قد تحالفوا معاً . ويعتبرون الخيانة ويعترفون بها وسيلة على نفس المستوى الذي ينظرون فيه الى قوى السلاح .

ان وضع وطرق حياة الكشتريا ، من نبلاء ومحاربين ، هي شبيهة جداً بوضع وطرق حياة الملك . وللكتيرين منهم وظائف مهمة جداً كقائد الجيش الذي تعيد حفلة استلامه السلطات ذكرى حفلات تتويج العاهل . ويتمتع أفراد الكشتريا بأفضل الامتيازات فهم يستطيعون تقديم الذبائح ودرس الفيدا وعليهم ان يميزوا العطاء المستمر لرجال الكهنوت .

ويعتبر البراهمة غالباً أكثر قوة وأهمية من افراد الكشتريا وحتى من الملك نفسه . ومنذ العهد الفيدي ازداد سلطانهم وذلك بالاستناد الى معرفتهم فنون السحر الذي يسيطر على جميع أعمال الحياة الفردية والرسية . وتزداد كثيراً ثروتهم للهباء التي يقدمها لهم باستمرار الملك ورجال الكشتريا والتجار . ويغدو أعظمهم سلطة كاهن الملك الخاص (بوروهيتا) ويتنهبونه نسبة لمعرفته معرفة دقيقة جداً الفيدا والسحر والسياسة . ويلعب البراهمة في الدولة دوراً عظيماً إذ هم الذين يقومون بأفعال العبادة والطقوس ، ويصبحون من بطانة الملك الخاصة ، ويغدوون له مستشارين . ويحترهم الشعب ويحبهم . وللنساء منهم ، رجالاً كانوا أم نساء ، الاحترام الأكبر ، وهم يقضون حياتهم في صوامع ويتبعمون طرق عيش قشف .

وقد عاد نمو وازدهار التجارة بالغنى على فئة من التجار الذين ألفوا نقابات وانتدبوا رئيسهم ليمثلهم أمام الملك . وقد يصبحون من موظفي العاهل . ويتضح غناهم غالب الاحيان لكثرة وأهمية الهبات التي يقدمونها للأماكن المقدسة . ويتصل بهذه الفئة رجال المصارف الذين يملكون غالباً ثروة طائلة . ويؤلف عامة الشعب الفلاحون وكل الذين يرتزقون من تربية المواشي والصيد ، والعمال والصناعيون . ولا بد من الاضافة الى هذه الجماعات المهرجين والمصارعين والمغنين والسحرة والأطباء . وقد امتدح مغستين مهارة رجال الطب الذين لا يستنكفون عن الاعتناء بالحيوانات ايضاً . ونجد في اسفل السلم الاجتماعي فئات عدة من الموظفين ورجال المهن : سكان الأدغال ، الغرياء ، الصيادين ، قاطعي الاعشاب ، سواقي العربات ، سواس القبيلة ، ساسة الخيول ، حاملي وحاملات المظال والمذبات والاعلام ، الجنود ، الموسيقيين وأخيراً الذين يقومون بأعمال شاقة ، كالذين يفرشون البلاط في الحدائق ويحملون الأثقال الخ .

ومع الزمن وضعوا قواعد وقوانين لحياة الطبقات الرفيعة ، وان هي لم تتبدل بصورة جوهرية . ومنذ هذا العهد قسموها أربع رتب تدخل في أطوارها مختلف مراحل حياة الرجل . وينتقل أفراد هذه الفئات بصورة تدريجية من صفة طالب (براهماشارين) الى منزلة رب البيت (غريستا)

الى رتبة زاهد (فانبرستا) واخيراً الى سلك ناسك او راهب (سميناسين) . والبراهماشارين هو فعلاً خليفة الطالب الفيدي . وتستمر دراسته على أقل تقدير اثني عشر عاماً وقد تدوم ثمانين سنة وأربعين عاماً ، وبصورة استثنائية ، الحياة كلها ! ولقبيل الشاب في فئة البراهماشارين عليه ان يتقدم بطلب الى معلمه (غورو) ، وان يهديه اطعمة وتقادم تعد لاضرام النار المقدسة . ويستفسر الغورو اذ ذاك عن مولد واسرة الطالب . وان أسفرت تحقيقاته عن نتيجة حسنة يقبل الطالب اذ ذاك في بيته حيث يتمتع والحالة هذه اربعة او خمسة شباب . وتقام الحفلة التي ترمز الى بدء عهد التغذية وهي تشير الى ولادة البراهماشارين الروحية . ومنذ ذاك الحين تصبح حياته ضعبة جداً ويلزم نفسه بفروض في غاية الشدة . ومن أسس المبادئ التي يخضع لها قهر الجسد والنفس والقيام بأعمال جسدية وعقلية . وفي كل حال عليه ان يطيع معلمه طاعة عمياء . وهو لا يلبس إلا رداء واحداً قائماً مصنوعاً من جلد وعل اسود ، ويبدأ يومه بالنهوض باكراً قبل معلمه ، فيقدم واجب العبادة للشمس ويكرس قلبه للآلهة ، ثم يذهب لتحية استاذة . وهو يستحم ثلاث مرات في اليوم ويأكل بعد معلمه طعاماً حددوه بكل دقة . ويقضي هذا الطالب نهاره واقفاً وليله جالساً ، وهو لا يسمى لإيجاد ملجأ عندما تنهمر الأمطار ولا يغطي رأسه عندما يشند البرد ويمتاز الانهار سباحة . وعليه ان يحافظ على العفة بكل دقة ويتم بعض الاعمال اليومية كاستجداء الطعام لمعلمه والعناية بنار التقادم وتنظيف المنزل والاعتناء بالماشية وزراعة الحقول . وهو يرافق الغورو في اسفاره ويساعده في اقامة الحفلات الطقسية . وتصبح علاقاته مع الغورو كعلاقات الابن مع ابيه . وعليه اخيراً أن يمكف على الدرس . وتختلف الدراسة تبعاً للفئة الاجتماعية ، فان كانت من البراهمة أعدوه ليصبح معلماً ، وان كان من افراد الكشترية علموه استعمال القوس والسيف وحيل المصارعة والقتال وقبادة الفيل او العربية وركوب الخيل والقفز والسباحة . ويعلمونه أيضاً فنون الكتابة والرسم والتمثيل والطب . ويعمدونه ، ان انتهى الى طوائف البراهمة والكشترية او الفيشيا ، ليصبح رب منزل ممتاز . وعلى كل حال عليه ان يحفظ عن ظهر قلبه الفيدا ويتمرن على حسن الالقاء . ومواد هذه الدراسة هي خاصة نصوص الريغفدا والياجوس والسامن ، وعالوم اللفظ والطقوس والصدف والتفسير والقياس والفلك الخ . وطرق التعليم التي يتبعها الغورو لتدريس الطالب هذه المواد هي طريقة التعليم الديني اي القاء السؤال وسماع الجواب . وعلى هذه الطريقة ان تعود الطالب الى مراقبة ذاتية دقيقة تمت فيه كل هوى وتسيره نحو السامنياسا او الى التأمل الروحي الذي يقتل فيه معنى الازدواجية ويقوده نحو اليوغا .

وتختلف مدة الدراسة عند البراهماشارين ، مع أنهم حددوها مبدئياً بثمانية أعوام ان كانت الطالب من الكاشترية ، واربعة فقط ان كان من البراهمة . ولكن لا ينتهي طور التنقيف هذا على كل حال قبل ان يتم الطالب ربيعه السادس عشر . وعندما تنتهي سنو الدراسة يأخذ البراهماشارين حماماً طقسياً ويبدل ثيابه كما كان يفعل قبل الطالب الفيدي . ويمنح البراهماشارين

وثبة جامعية تتناسب مع العلوم التي يكون قد اقتبسها في سني الدراسة ، ويهجر اذ ذاك محله مقدماً له الهدايا .

وحالما ينتهي الشاب من حالة البراهما شارين يفود الى أسرته حيث يستقبل بصكك حفاوة ورحاب . ويكرمونه وفادته اينما حل ويعلمون بأنه أصبح اهلاً للزواج . ويمكنه مع هذا ان يدد سني تثقيفه ليصبح رب منزل (غريستا) ممتاز . ولبلوغ هذا الهدف عليه ان يتابع تعاليم اختصاصيين مشهورين وأدباء مشهود لهم يتجولون دوماً في انحاء البلاد . وباستطاعته ان يذهب الى جامعات مختلفة (أنثراما) حيث يلقي الفن والأدب وأصول تجميل الجسم وعلم الحيوان والطبيعة والهندسة الخ ، وبإمكانه ان يشارك في مجاهلات الاكاديميات التي تجتمع في مختلف المحافظات ، ويحضر المؤتمرات التي يدعو اليها الملك والتي تفتح له أبحاثها وتبادل الآراء فيها آفاقاً أوسع على ثقافته الفلسفية والطبقية .

وبعد ان يصبح غريستا عليه ان يؤسس اسرة ويتخذ زوجة تنتمي الى فئته الاجتماعية . وعليه ان يقوم بالطقوس الخاصة ، ويمتاش من مهنته ، ويكون مثلاً للتقوى وضبط النفس . وتخضع حياته كلها للمقررات الطبقية التي لا حصر لها والتي تمنى بأدق الاعمال اليومية وأقل ظروف الحياة شأنًا . وهو الذي يريح أود أسرته ويمد طعامه ويرحب بالشحاذين ، ويقدم الهبات ويداوم كل صباح على درس الفيدا .

ولا يعتبرون الغريستا رجلاً كاملاً الا اذا اتخذ له زوجة . ولكن هذه الزوجة منزلة اجتماعية أقل امتيازات من زميلتها في العهود الفيدية . ومع هذه يقبلونها في «الأنثراما» حيث تتلقى ثقافة عالية تكون موادها الرقص والغناء والفلسفة . وهي تخضع الخضوع الكلي لزوجها ، أو بحالة موته ، لابنها البكر ، وان هي ساهمت مع هذا كلياً بحياة الاسرة واحتفظت كأُم بمرکز مرموق (حتى غداها في هذا المضار الاحترام الذي أبدوه للوالدة الإلهية أو الآلهة الكبرى) . ومع انها تشارك في الطقوس اليومية وتبقى موضوع احترام عميق فهي لا تشترك قط في إقامة الذبائح الكبرى . ويحرم عليها بصورة جازمة ان تعقد زواجا آخر ان ترملت ، اذ ان الزواج سر لا يجوز انتهاكه . ولا تستنكف الزوجات الأكثر صلاحاً من خرق أنفسهن على كومة الحطب المدة لحرق جثة الزوج . ونجد في كتب الادب امثلة على نساء قد تكون على طرفي نقيض ، وخير مثال للمرأة هو « سيتا » زوجة « راما » في الرامايانا التي تصبح مثلاً للسعادة الزوجية لأمانتها وجهاها وطهارتها وصفاتها العائلية . ولكن هناك تلميحات عدة تصور لنا المرأة شخصاً فاسقاً أصلاً وسيئ الاخلاق ومحباً للمشاجرة وغير صادق لا يؤمن شره وتصبب قيادته . لذا ينصحون الزوج ليبقى « على حذر من زوجه » . ولكن يجب دوماً مساعدة الزوجة حتى ولو تركت البيت الزوجي .

وينتقل المرء الى حالة ثالثة عندما يشعر باقتراب الشيخوخة اعني حالة الزاهد . فهو ينفرد اذ ذاك في الغابة ، وتستطيع زوجه اللحاق به . ويسكن في منسك يحاور نبع ماء ، ويكون

عبارة عن اكواخ من الأغصان او بيوت حَقيرة من الفس . وتخصص احدى الغرف لنار الذبيحة التي يكون الفانبرستا قد حملها من بيته عندما غادره . ويرتدي ثوباً من قشر الشجر تكوّن خيوطه قد اتخذت من ضغط قشرة بين حجرين . ويرخي شعر رأسه ويقطع من النار والجلود ويضيف جميع من ينزلون على الصومعة دون النظر الى فئتهم الاجتماعية . وهو يعيش بين عصفير وحيوانات الغابة يقبضها ويغني بها ، ويقوم عمله الاساسي بإيجاد الحطب لابقاء نار الذبيحة ملتهبة . وهو يرزم قطع الحطب هذه رزماً ويحملها الى الصومعة يغذي بها النار التي يقيم عليها الطقوس المفررة بواسطة ملاعق مختلفة الاشكال والاحجام . وعليه ان يحافظ على عفة دقيقة ، لذا فهو يحيا من جديد بعض مظاهر حياة البراماشارين ، ويستحم ثلاث مرات في اليوم ، ويفترش القراب وينهك جسده بالتقشف ، ويطالع الفيدا ويتأمل بمحتوياتها .

واسمى مرتبة يصل اليها الانسان هي السميناسين ، اذ يصبح ناسكاً متجولاً وشعاعاً . وهو يقبوا اذ ذاك أعلى المراتب واكثرها احتراماً . وهو يقر بذنوبه جهراً ويستوعب مبدئياً المعلومات الأكثر دقة وعمقا عن الفيدا والسحر والطب واساليب النسك .

وفي هذا العصر غدا سهلاً على الفئات الشعبية ان تساهم في اعمال العبادة ، ولكن لن يعم هذا المبدأ ويبلغ الذروة إلا في العهد اللاحق . وتبدل افعال العبادة الخصوصية اذ تحمل السمدية محل عبادة النار ، وهي تقوم على عبادة الشمس عند شروقها ، واعمال تطهير متنوعة ، وقارن تنفسية ترافقها التأملات ، وتحفظ تقادم الانواع النباتية بمركرها المرموق .

والارز هو اساس المواد الغذائية . وسيحرم اكثر فأكثر أكل اللحم ، وكان مادة غذاء في العهد الفيدي ، خاصة في الاوساط البوذية : فقد لاحظ اليونان بأن الهنود لا يتناولون اللحم ، وحرّم اشوكا ذبح الحيوانات في الطقوس وقتل الماشية . اما الارز ، فهو على قول اليونان ، عماد الغذاء . ولا يبدو بأنهم قد حرّموا شرب الكحول ، ولكن من الممكن ان يكون تعاطيها قد حصر ضمن النطاق الطقفي . ويبقى الارز في هذا المجال الأساس ايضاً .

ان الجماعة التي سبق لمغستين وعددها ستظهر بعد فترة قليلة على النقوش النافرة . الثياب والحلى وباستطاعة المرء ان يتحقق بسهولة عن تقدم وتطور فن الحياكة والصباغة . وتبدو منوعات عدة من الثياب والحلى ، تبعاً للفتات والوظائف . والاقمشة الأكثر تداولاً هي من القطن والحريير . وقد استرعت نغمتها المؤلفين اليونان فامتدحوا صفات الثياب الموصلية ، اما الثياب الحريرية فهي شفاقة ولينة وخفيفة الوزن جداً . والالوان كثيرة العدد ايضاً . وتأني أشهر هذه الاقمشة الحريرية من الصين وبنارس .

ويرتدي الملك وأفراد الكشترية قطعتين من القماش : تلف الاولى حول العنق وتندلى حتى الكتفين (اوتاريتا) ، وتربط الثانية حول الوركين وتقر بين الفخذين لترتفع الى الظهر حيث تثبت بواسطة زنار . وفي ذاك الزمن القديم استطال الثوب السفلي (حتى وصل الى الكعبين)

وتركوا فيه طيات ملتوية . ويحذر الموظفون الكبار وذوو المقام الرفيع والوزراء حذو المعاهل او الامبراطور فيلفون حول رأسهم وشاحاً طويلاً يعطونه شكل العمامة . وللممامة اشكال مختلفة جداً تحمل عقدة كبيرة على قمة الرأس او على الجانب . ويحتذي الملك في بعض الظروف نملاً يكون عادة من قطعة جلدية او خشبية تثبت عليها قدة تمر فيها الرجل .

ويرتدي الخيالة والحراس والصيداؤون وسواس القبلة والعربات الخ . . غلالة ضيقة ذات إكمام قصيرة او طويلة تحمي صدرهم ضد الجروح التي تصبغ من صميم وظيقتهم . وقد يكون لهذه الغلالة ، علاوة عن الهدف التي اتخذوها لأجله ، اصل غربي تبناها في الهند كما كانوا قد اقرروها في ايران . ويضيفون الى هذه الغلالة ضرباً من التنانير المسننة او ذات الطيات والتي تستقر عند الركبة ، او من انتارياً قصيرة . وهذا هو زي الجنود ايضاً الذين يبقون مراراً نصفهم الاعلى مكشوفاً ، ويلفون حوله مع هذا حبلاً ، وقد استمر الشيراسي على هذه الحالة حتى الفترة المعاصرة . وهذا هو زي « الغرباء » ايضاً : وهم غالباً سكان المناطق الشمالية والغربية حيث اهاب بهم المناخ وتأثير الوسط الايراني على لبس زي آخر يكون اكثر حرارة . فهم يرتدون ثوباً اطول ، ونوعاً من السراويل ونعلاً تشدها الربط الى الساق ، وقبعة مخروطية الشكل تعيد الى الذهن لباس الرأس « السيتي » .

ويكتفي الفلاحون وسكان الغابات بوزرة بسيطة من القماش او الاوراق . اما النساء فيستعملون جلد الوعل او نسيج قشور الشجر (فلكلالا) . ويبقى الزهاد عراة (ديمبارا) او يكتفون بوزرة صغيرة جداً ، وهم يحدلون شعر رؤوسهم الطويل على اشكال مختلفة ويبغون بعض المرار على الحام . ويرتدي الرهبان المشاهدون ثياباً رثة يخطون بعضها فوق بعض على شكل معطف . اما رهبان المدن فيرتدون ثوباً (كشايا) صبغ باللون الاحمر . ولا يدعون وبرا على ابدانهم كما يخلقون رؤوسهم .

ويتألف زي النساء من وشاح وتنورة خفيفة جداً . ويضعن على رؤوسهن عمامة كشيعة يعطونها شكلاً يخالف شكل عمامة الرجال او حجاباً يغطي الشعر بكامله ويتسدلى الى الظهر . وشعر النساء كثيف وطويل جداً وهن يصفقنه صفائر صفائر او يعقدنه عقداً تتخللها الازهار . ويضع سكان الغابات على رؤوسهم ضرباً من التيجان ذات الريش (?) ويقصون شعرهم حتى الكتف . اما النساء المتعشقات فيضعن على رؤوسهن ما يضعه الرجال المتعشقون .

ويبقى الأولاد عندما يكونون صغار السن عراة او يضعون وزرة ضيقة . اما الصبيان والصبايا فيرتدي كل منهم ثياب جلده كما يفعل الفتيان والفتيات . ولكن يضع الصبيان مع هذا عمامة خصوصية لها ريشة او شرابة تستوي على قمة الرأس ، كما سيفعل لاحقاً ممثلو بالا كريشنا .

وتكمل هذا الزي اشياء عدة للزينة مصنوعة من الذهب او الفضة او العاج او الصدف او قرون الحيوانات او الحجارة الملونة . ويتزين الرجال كالنساء ، ولا نجد فرقاً كبيراً بين ادوات

تخرج هؤلاء وأولئك . وهم يضعون عادة عقدين ، ويكون أحدهما ، وهو الأقرب إلى العنق ، مستدير الشكل ، بينما يتهدل الآخر على الصدر .

ويحتوي عادة العقد الأول عامل زخرفة من الزهر ويربط إلى الظهر بسلكين معقودين ينتهي كل منهما ببلوطة مذهبة . ويتألف الآخر من سلاسل عدة تثبت الواحدة بجانب الأخرى بواسطة قطع على شكل فلانس فاصلة عثروا على أمثلة منها في الحفر التي أجروها سنة ١٩٥٠ في مورتاليون (مقاطعة بونديشيري) . ولدينا مجموعة كبرى من هذه العقود والقطع يتوافق بعض منها مع ما استعملوه لتزيين الثيران والجمال والأحصنة .

ويضع الرجال على سواعدهم بعض الأشياء وهي تتألف من حلقة تحمل سعة صغيرة تظهر على أعلى الذراع . ويلجأون أيضاً إلى أساور تكون بعض المرات ضرباً من الأكام الصغيرة فتتألف من جواهر تتعاقب مع حلقات حلزونية الشكل أو مفردة . ويضع الرجال كذلك أقراطاً في آذانهم مربعة الشكل أو على هيئة «قباب» تلتف حولها شحات الأذنين الممددة . ويغرز سكان الأدغال في شحمة آذانهم القصيرة قطعة من العظم أو الخشب أو العاج . وقد تلاقى هنا وهناك بعض الخواتم في أصابع الرجال . ولا نجد حلقات في أكماب الأرجل إلا بصورة استثنائية كلية . ولا تزيد كثيراً اغراض الزينة النسائية عن التي تقدم ذكرها : إذ نجد علاوة على ما سلف زناوير للمناكب وعقوداً وحلقات لكمب الرجل قد تكون كبيرة جداً . وكثيراً ما تحمل العقود على الدامشة إذ تتدلى حتى السرة وتتألف من مواد عدة تغدو بعض منها رمزية «دورت» شك . وتكون حلقات وأساور الكمب على شكل حلزوني تلتف حول العضو كما لو كانت آلة توليية . وتضاف بعض المرات إلى هذا «الك» أو ذاك «الحذاء» حلقة كبيرة . وتتألف زناوير المناكب من مجموعة حجارة كريمة أو مواد مذهبة يمر فوقها زنار من القماش يعقد إلى الجهة الأمامية وقد يتدل أيضاً إلى هذه الناحية قسم من أسلاك الحجارة الكريمة . ويحمل الأولاد عقداً نشاهد عليه برائين حيوانية ، وهي كتسمية ضد المؤثرات الشريرة .

٣ - الديانات

يتميز العهد الذي همنا الآن بعاملين أساسيين : تحوير الديانة الفيدية (انظر وجه . .) التي تعرف من الآن وصاعداً باسم الديانة البراهمانية ، وتطور البوذية التي تصبح قوانينها محددة المعالم . ومن مميزات هذا العصر أيضاً استعمال الكتابة التي نعتز على أقدم أمثلتها المؤرخة في كتابات أشوكا الحجرية . وقد لعب دون شك هذا الاستعمال دوراً عظيماً في تكوين المجموعة الأدبية الكبرى التي تم تأليفها ما بين القرن الرابع ق . م . والقرن الثاني المسيحي . وترتقي قوانين «مانو» إلى حوالي القرن الأول ق . م . أما فيما يختص بالبوذية فأننا نستطيع أن ننسب إلى هذا العهد أيضاً أقدم كتابات قانون بالي (حوالي القرن الثاني ق . م .) والنص النهائي للجاسكا (القرن الأول المسيحي) .

وتتسلسل الديانة البراهمانية من المعتقد الفيدي بشكل يضعف ملاحظته ، ولكنها مع هذا تختلف عنه روحاً . فموضاً عن التقيد بأساليب الفيدية الطقسية الدقيقة تعتمد البراهمانية على الاختبار الروحي . ورويداً ورويداً تحمل أعمال العبادة (بوجا) محل الذبيحة . ومن الطبيعي ان يسدي هذا التطور على الآلهة الكبرى شخصية تتحدد معالمها أكثر فأكثر مع الزمن ، وتتولد منه عقيدة عبادة الصور . ان الصفة الطبيعية للمعتقد الفيدي الذي دعا الى عبادة قوى الكون معطياً إياها اسماء دينية لا تزال تهيمن على الآلهة ، ولكنها لم تمتد تصلح فعلاً إلا لوصف الخصائص الميثولوجية لكل من هذه الآلهة . وقد عادت الى الظهور تقاليد شعبية عدة كانت الفيدية قد أهملتها ، ويشهد المرء إذ ذاك انتشار عبادات محلية لا عد لها وتكوين مبدأ عبادة الصور التي ستنبولر أكثر فأكثر ، إذ ستقسم الآلهة فئات فئات وتتخذ أكبرها اشكالاً فردية محددة . وسيجهون أيضاً المعتقدات والطقوس لخدمة اهل المذهب . ومع هذا ستظهر رغبة توحيدية تلحق الآلهة الصغرى بالآلهة الكبرى وتعبّر عن تطور حقيقي نحو الوحدة ، إذ امام عدد المعتقدات والعبادات التي لا حصر لها غدا من الضروري ان تستوعب الديانة الرسمية الأمامي الشعبية : فالتأكيد بوجود وحدة اساسية بين الآلهة كان السبيل المناسب الوحيد ، وعلى كل لم يكن هذا النهج غريباً عن النفسية الهندية .

وهكذا احتفظ الزون بالآلهة الفيدية الكبرى ، واقتبل عدداً وافرأ من الآلهة الثانوية ، ولكنه أشار الى الفروق التي تفصلها . وتصبح آلهة فيدية عدة في المرتبة الثانية كالغجر والساء والارض والشمس وبوشان وميثرا وفرونا الخ ... في حين ترتقي آلهة اخرى الى المركز الاول : اندرا ، ملك الآلهة ، فيشنو وشيفا . ويتحول موضوع الذبيحة الفيدية القديم ، براهما ، الى الإله براهما وان لم تبلغ شخصيته المركز « الانساني » الذي احتلته الآلهة الاخرى الكبيرة . ويقدم الإله ، البطل ، كريشنا ، التجسيد الأكبر لفيشنو ، وقد كان الموضوع الانساني لقصيدة بهاغافاد - جيتا الروحية . وتضاف الى هذه الآلهة الرئيسية الآلهة الفيدية المذكورة أعلاه : القمر ، السيارات ، النجوم ، النار (أغني) ، إله الموت (ياما) ، إلهة الغنى (كوبرا) والحب (كاما) والحرب (سكتندا) ، الإله - الفيل (غنيسا) ، الربات التي ستعظم أهميتها مع الزمن ، جيش من الأرواح والشياطين كالاسورا التي تمت الى اصل فيدي ، والناجا (الحيات) واليكشا والغندهرفا (الموسيقون السماويون) والابسرا (الراقصات ، زوجات الغندهرفا) ورياث القرى والأمراض الخ . وقد ألهت أيضاً الحيوانات - خاصة البقرة والحصان والحيات - والنباتات والشجار ومياه المحيط .

والميثولوجيا معقدة وغنية بالروايات المختلفة ، خاصة القصص التي تمت الى فيشنو إذ يعادلون به بعض الآلهة الثانوية بشكل « تجسد » على الارض (افتارا) . وقد أحدثت عبادته ، كما أحدثت عبادة شيفا ، ازدهاراً دينياً يثير الإعجاب في الاوساط الشعبية والايوساط الفلسفية على

السواء . وفي العهد الذي يستوقفنا هنا تظهر صفته الشمسية على شيء من الوضوح . ويلاحظون منذ هذا التاريخ اتجاهها لجمع مع شيفا وبراهما في ثلاثي ، التريمورتى ، الذي سيهيمن على الديانة البراهمانية في وقت لاحق .

وتعيش الآلهة كما يحيا الانسان وهي شبيهة به . وهي تحتفظ بمظهر الصبا ، متى بلغت اشدها ، باستثناء كريشنا الذي يعتبر كصبي صغير . ولها مزايا الجمال وتستلذ حتى انتهاء هذا العالم . وهي تتميز بما يرافقها من حيوانات معينة تصبح كمطية لها (فاهنا) وبما لها من صفات ذات مغزى رمزي . ومن العبث القول إن قدرة هذه الآلهة تفوق قدرة الانسان ، وهي تكبر او تصغر كما تريد ، وباستطاعتها ان تصبح غير منظورة او تظهر في الوقت نفسه في اماكن عدة الخ ؛ وهذه الآلهة عرضة للشوائب نفسها التي تكون للانسان ، وقد تجبر بعض المراء على طاعته .

ومن خلال القصص الميثولوجية والنصوص « اللاهوتية » يقف المراء على الاتجاه المزدوج الذي تتميز به الروح الهندية الى يومنا (انظر وجه ٥٤٥) فتارة حلولية مبهمه وطوراً سعي للتوحيد ، وسيلتهي هذا السعي ، في القرون الوسطى والحديثة الى مبدأ وندوي نستطيع ان ننتعه بالتوحيد . وسيبرز عامل آخر مهم جداً سيكون له من الآن وصاعداً تأثير قوي : العبادة الروحية . وستوجه هذه العبادة الى آلهة شخصية كفيشنو وكريشنا ، وقد اوجدها الإندفاع الشعبي الذي يتضح في المهاباراتا والاقبال على اليوغا . وتعتبر عنها نبرات شعرية زاهية ، خاصة اشعار بهاغافاد جيتا السبعمئة الموجودة في المهاباراتا . وهي ستتلور في عقيدة البهكتي « الاشتراك في الالهوية » التي ستظهر حوالي القرن الثالث المسيحي بشكل تنظيمي عجيب .

وإزاء المشاكل الفيدية ، التي كانت نفعية فإن الطريق التي شقتها الاوبنشداد والبراهمانا نحو المسائل الميتافيزيقية والنظرية قد وجهت الديانة البراهمانية نحو مبدأ التوحيد ونحو تجارب روحية تصبح مع الزمن اكثر عمقا وتبلغ ذروتها في المهود اللاحقة . ولعلم « اللاهوت » الادبي مركز مرموق : فاللاعنف هو اساس التعليم الذي يهدف الى دستور حياة روحية وحياة روحية طبقية . ومع ان تحاديد الالهوية قد اختلفت وتعددت يشعر المراء بأن هذا المبدأ غداً قوياً جداً يعطي نتائجه الكاملة ويصيح الهدف الذي يجب على كل فرد ان يصبو اليه . وباستطاعة المراء ان يتبع طرقاً عدة للوصول الى الغاية : معرفة الامور المقدسة ، التشف ، العبادة او فقط الجهد الروحي والفردى . وعلاقات الفرد مع الآلهة هي ايضاً محدودة بأشكال مختلفة جداً ، إذ تصبح النفس موضوع جدل لا يبر له غور بين الطوائف والمدارس الفلسفية : فالنفس جوهر غير مخلوق ، او هي ذرة من الالهوية سجن في الجسد وألقت في خضم تيار الهجرات التي لا تعرف نهاية ، او هي مبدأ مادي غداً روحياً ... وهذه كلها نظريات توافق بالاعتماد الى القياسات الدقيقة صفات ودور الالهوية .

وفما يظهر العلم الذي ينظر في غايات الوجود — والذي لم يطرأ عليه إلا تغيير طفيف منذ

العهد الفيدي - بأن العامل الشعبي هو على تناقض مع هذه المعطيات الفلسفية، تسيطر مشكلة التقمص (سمسارا) التي أثارها الاوينشاد على الديانة البراهمانية، ويصبح الفعل (الكارمن) نقطة العقيدة الجوهرية. ولم يعد هذا العمل الطقسي كما كان في العهد الفيدي بل غدا الفعل «الذي يلد من الفكر والقول أو الجسم». ويعتبرون الفعل كعامل لا يسبر له غور، يتسرب الى الكون بأسره، ويلاحق الانسان في مختلف مراحل تقمصاته وذلك رغم أنف الموت. وهو يكون حاضراً وقت الحمل ويبسح الاكثار منه الولادات المتتالية ولن يعدم إلا بعد طول الزمن إذ لا يستطيع الانسان ان يتخلص من مجموعة الكارمن إلا بحاربه بالكفير. وهذه النظرية جعلت الفكر الهندي يتأرجح بين التشاؤم الكلي وجمال الكارمن. وبصورة متوازنة لعقيدة الكارمن فإن الايمان بالتناسخ قد تطور وغدت له أنظمتها؛ وهو يشبه دولاب الساعة الذي يدور دون توقف ويكون من ثم مجموعة ولادات لا نهاية لها على المرء ان يتقبلها لبقي على الكارمن متنقلاً دون هوادة بين حالات النبات والصخر والحيوان والمرأة والرجل تبعاً للتقلبات التي تفرضها أعمال المرء الصالحة أو الطالحة، دون ان يستفيد من ذكرى اختباره السابقة.

وتختلف طرق الخلاص باختلاف المذاهب البراهمانية: فالعلم التقشفي، والمعرفة الروحية، والحب الروحي هي الطرق الرئيسية المعدة للخروج من هذا المأزق الذي يوصف بحق بالجهنمي.

وتكون هذه المبادئ التي عرضناها هنا بصورة مختصرة جداً المادة الاساسية للنظريات البراهمانية. ويضاف اليها اللجوء الى استعمال الطقوس الجماعية والفردية، والى فاعلية الصلاة والابتهالات شبه السحرية والى التلفظ الطقسي بالكلمات المقدسة، والى قوة الاشارات (مودرا وهستا) والعلامات الدينية، هذا الاستعمال الذي أخذ ينتشر بازدياد، وتكتسب الصور والهيكل أهمية تصاعدية. وبلغ التطور أشده في هذا العصر فننتقل من الشجرة والحجر المنتصب الى الصورة والبناء. وتصف النصوص الأدبية العظيمة والفخامة اللتين توصلا اليها في هذا المجال بما عاد دون شك على العبادة بالشيء الوافر من حيث الالهة. فهم يقيمون البوجا أو «الاکرام» الذي حل محل الذبيحة الفيدي في المنازل الخصوصية وفي الهيكل. وهم يحتفلون بهذه العبادة بأبهة بحضور جمهور عظيم ويلجأون الى التقامد والرقص والموسيقى. وهناك طقوس خصوصية لحفلات تكريس الهيكل والاصنام، وتقديم الذبائح التكفيرية، وتشديد الأبنية مها صفرت، واستقبال الحوادث الجماعية أو الفردية، والاحتفال بمسح الملك أو تسليم السلطات الى الزعيم، وبصورة مختصرة لكل ما تتألف منه الحياة الاجتماعية والفردية.

ويغدو الدين محور هذا العالم، ونجد تفسيراً لوجود كل شيء في قاعدة دينية تكون فيها حصة اللاهوت أقل شأنًا مما كانت عليه في الطقوس السابقة. وهكذا تغدو البوذية في هذا العالم اصلاحاً اجتماعياً تؤثر على الحياة السياسية والاخلاق بما لها من مبادئ روحية وميتافيزيقية وقياسية. ولا تنكر البوذية لما كانت تحمله الديانة البراهمانية من خصائص هندية. ولكن خلافاً للبراهمانية التي

جعلت من واقع وجود الفئات مبدأ صارماً والتي أشادت كثيراً بالطبقتين الحاكمتين ، اي البراهمة والكشترية ، تعتمد البوذية القديمة على الفئات الاجتماعية الأقل شأنًا ، دون ان تسعى مع هذا المساواة بين مختلف الطبقات مبتدئة « من الاسفل » . وهي تثبت فقط بوجوب تخفيف سلطة البراهمة اللاحدة إن لم يكن القضاء عليها . وتعتقد البوذية القديمة بحقيقة التمتع والحياة الاخرى ، وتسد مبادئها الروحية الى وجود الكارمن والمصير الذي يخضع له الانسان ، ولكنها تؤكد مع هذا بأن الاحتفال الطقسي الدقيق كما تقرره القوانين لن يوقف مجرى وعدد الولادات بل يؤثر عليها الخضوع للفوضى التي تنتج عن المسؤولية الشخصية . وهكذا يقضى قضاء تاماً على امتيازات الحطب والنسب الاجتماعية والوراثة الطبقية التي هي أسس المجتمع البراهمني؛ لذا ترحب البوذية دون تفرقة بجميع الذين يودون نقض سلطة البراهمة - وتقود من ثم ثورة اجتماعية .

وتستند تعاليمها الروحية الى مبدأ صراع الخير والشر وتصف كدواء لداء التمتع بممارسة فضيلة المحبة نحو جميع المخلوقات والتواضع والكفر بالذات . وعلاوة على ذلك فهي تأتي بنظرية الفداء: إذ دون مخلص سيخضع الافراد دوماً الى نتائج أعمالهم . وهذا المخلص هو بوذا شاكيمني للطور الكوني الحالي ، يليه بوذا ميتريا الذي سيفقد سيد العهد المقبل والذي سيقبض بمجته زوال العالم . وتضيف بوذية هذا العهد الى البوذيين السابقين الذكر كائنات من كنهها محبة الغير ، البودهيستة ؛ ولكن لا تزال عبادتها في مهدها ولم تقبلور بعد ، وستكتسب هذه الكائنات أهمية متزايدة خلال القرون اللاحقة . وتصبح البوذية « استناداً الى مبادئها ونظرياتها ، ديناً جديداً ، وهي تلجأ لتنتشر الى مختلف وسائل الدعاية الدينية والتبشير ، ابتداء من اعطاء المثل الشخصي حتى وعظ المبشرين . وهي لا تستنكف ، مع ما تبديه الأساطير المحافظة من شديد استنكار ، من قبول النساء في عداد المؤمنين وارسال رهبانها ينشرون معتقدها في مختلف أرجاء آسيا .

وخلال العهد الذي يستوفقنا نرى البوذية تنتظم وتثبت قدمها . وما يزيد أهميتها وفوقها انتخابها كدين دولة من قبل الملوك كاشوكا مثلاً ، ولكن أدت هذه العوامل الى تحويل مبادئها الالهية : وهكذا يصبح الملك ، وقد اعتمد على نظام اجتماعي يحكم الحلقات ، سيد الجميع يتعد ذاتياً مع بوذا الذي يفقد رويداً رويداً صفته كرجل قديس ليصبح ملك الملوك (وذلك بالاستناد الى نظريات مختلفة منها رأي جان برزياوسكي) . وهكذا يغدو المجتمع البراهمني القالب الذي يهر بشكله المجتمع البوذي .

ان هذا العهد الذي نخصه بدراستنا هو من أخصب العهود في مجال الفن التصويري :
الفن
 ففيه بلغ الامبراطرة الموريا وخلفاؤهم ذروة مجدهم ، وفيه استعمل الحجر لأول مرة بدل المواد القابلة للتلف ، وفيه تكونت الفنون العظيمة وولد الفن التصويري البوذي المقدس وتطور قليلاً ؛ وقد تقبلت هذه الفنون تأثير زميلاتها الغربية ولكنها أدايته في مجموعة العناصر الهندية .

ويظهر التقليد ، وهو إحدى خصائص الحضارة الهندية ، بكل وضوح في الفن التصويري : فقد قلّد النقاشون على الحجر دقائق فن النقش على الخشب والمجّاج الذي سبق استعمالهما دون شك استعمال المواد الأكثر صلابة . ونرى الهياكل المنحوتة في الصخر تعيد بكل دقة أوصاف « الاسقالة » الخشبية بما فيها من فراض حتى أنهم يشيرون إلى مواضع المسامير . وتعيد أيضاً الأبنية التذكارية (ستوبا) التي يبنونها من الحجر أو الحجر بشكل التومولوس الترابي الذي كان على هيئة نصف دائرة . وبعد أن أوجدوا الصور المقدسة التي مثلت الأشكال الانسانية استمروا زمناً طويلاً على تكريم الأشجار المقدسة والحجارة التي حولوها إلى مذابح أو عروش إلهية ، كما استمروا على إقامة العواميد التي تنوب مناب أخشاب تقدمه الذبائح : وهكذا فإن الأشكال القديمة تبقى جنباً إلى جنب مع الاكتشافات الجديدة ، وذلك مدة طويلة جداً .

وندهش لواقع قد نجد له تفسيراً من خلال كنه الديانة البراهمانية المجردة والجافة ، وهو أن آثار هذا العهد هي ذات صفة بوذية دون سواها . ولكننا مع هذا نستطيع القول إن تلك الآثار التي تضيء عليها المزايا البوذية رونقاً وحلاوة تجسد قبل كل شيء الروح الهندية وتصور لنا بكل دقة حياة سكان الهند وأخلاقهم .

ومع تطور الفكر واتساع انتشار البوذية غداً لازماً على الفن أن يتقدم وينمو . ولم يعد باستطاعتهم الاكتفاء بأبنية وضيعة وسريعة الزوال وبأصنام لا شكل لها ولا جمال . إنه يازمهم صور مقدسة تدعوهم إلى الصلاة ، وهياكل فخمة ياجأون إليها ، وقاعات فسيحة تتسع لجمهور المؤمنين الذي يتكاثر عددهم ، واديرة تستوعب الرهبان والراهبات ، وآثار تحمل طابعاً تاريخياً تنطق بفضل شاكيني التقليدي . لذا تظهر في وقت واحد المعابد (شاتيا) المنقورة في الصخر والآثار التذكارية (ستوبا) التي يشيدونها من آجر وحجر في الهواء الطلق . وعلى هذه الأبنية الأخيرة خاصة تزدهر النقوش التاريخية التي تغدو دون شك إحدى جواهر الفن الهندي ، إذ تمثل لنا التقاليد البوذية بطلاوة وحرية تثيران السرور والاعجاب .

إن هندسة الأبنية الصخرية تعيد بأمانة - كما أشرنا إليه أعلاه - جميع دقائق وأوصاف ما كانوا قد شيّدوه من خشب . وهذه الأبنية هي غالباً ضخمة وشديدة الاتساع . ولأقدمها شكل أهليلجي ، وهي عارية عن كل فنون الزخرفة الداخلية ، وتطل على الجدار الصخري بباب قزم يعلوه القوس الهندي . وتشبه هندسة هذه الأبنية الأكثر اتساعاً هندسة الكاتدرائيات ، تحيط بصحنها ساحتان قنطريان بأعمدة على هيئة براميل منحوتة دون أن يكون لها قاع أو قاعدة . وفوق أفريز عريض يعلو الأعمدة يمتد السقف ، وقد أعادوا بكل دقة أشكال الأخشاب الأولية في القبة الصخرية . وفي داخل المبد نجد مصغراً للستوبا يدعونه داغوبا ينوب مناب المذبح ، يظهرون احترامهم له بالدوران حوله دوراناً طقسياً (برداكشينا) ؛ واستعملوا ساحات المعابد هذه كأمكنة اجتماعات وصلوات ، وقد سكنها الرهبان الذين انصرفوا عن العالم ، وغدت دون

شك مزارات أذ بعدت عادة عن الوسط الأهل بالسكان وحفرت في مناطق برية . وبعد أن تفننوا في النقش على الحجر وازداد حبهم للزخرفة غدا داخل هذه المعابد أكثر زينة وفناً فأضحى للعواميد قواعد على شكل ائاء ولها تيجان قد تحفر عليها جماعات من الخيالة والمطايا ، كما زينون بالنقوش الأفريز والداغوبا . ومع الزمن تسع الواجهة فتصبح والحالة هذه كطنف فسيح تظهر فيه الرفود التي كان من المفروض أن تسنده .

وآثار الستوبا التي عثروا عليها في بهرهوت وأمثلة الستوبا التي لا تزال قائمة في سانشي (بهوبال) هي شواهد ثمينة تدخل ضمن إطار هذه الهندسة الحجرية التي تعبد لنا فن البناء الحشي . وغطى ملاحظ مذهب وذو ألوان عدة القبة الحجرية النصف دائرية . وأقاموا من حجر الدرايزون الذي يحيط بها والأبواب الضخمة التي ترتفع في الجهات الرئيسية . وجعلوا للمصاريح والعوارض والعواميد والعتبات فراضاً كما كانوا يصنعون للقطع الخشبية .

وعلى درايزونات وشرفات بهرهوت وستوبا سانشي الثانية ، وعلى أبواب ستوبا سانشي الأولى والثالثة - خاصة - نرى نقوشاً نادرة تساعدنا مساعدة جلى على درس الحضارة الهندية في ذلك العصر . ونظير رجال العهود البدائية في الغرب فقد نقش رجال الفن أساطير أو قصصاً شبه تاريخية يرقدى أبطالها ثياب معاصريهم ويتبعون أساليب حياتهم . وقد وصلوا إلى درجة رفيعة من المهارة ، وإن كان فن رسم الأشياء بحسب رؤية العين لا يزال بدائياً في بهرهوت فقد تقدم كثيراً في آثار سانشي الأولى والثالثة . ومنذ البدء يظهر في كل شيء ميلهم لإعطاء رسومهم الاشكال الحيوانية ، وهذه صبغة ستلازم رجال الفن طوال تطور وتقدم الفن الهندي . وإن نظرنا إلى نقوش بهرهوت البدئية التي تمثل لنا مراحل حياة بوذا القديمة حيث تظهر الحيوانات كأبطال الحوادث ، أو إلى ما حققه النحت على الصخر فإننا نعجب لما نشاهد من فن ينشد طبيعة الأشياء، يضاهي إليه تفهم حقيقي للجماعات وبراعة عفوية وساذجة تتم مع هذا عن ملاحظة دقيقة ورقيقة للطبيعة .

ولنا على فن نحت التائيل أمثلة صنعت من كتلة واحدة . وأقدم هذه التائيل (يكشا باركهام النخ) هي ثقيلة الصنع وقد أسدوا عليها مسحة دينية لا تخلو من عظمة . وقد أجادوا لإجادة كلية في التعبير عن مختلف تفاصيل الثياب والحلى ، وذلك تمشياً مع عنايتهم للتعبير بدقة عن الأشياء ، هذا الاهتمام الذي نشاهده أيضاً في فن البناء .

وهكذا يبدو لنا الفن الهندي ، حوالي القرنين الثالث والثاني ق. م. ثابت الدعائم وإن كنا لا نستطيع إلا أن نتخيل المراحل الطويلة التي سبقت هذا الطور إذ لم تبق آثار عن تلك العهود السابقة نسبة للمناخ . ويظهر لنا هذا الفن قوي المعالم ومعداً بلوغ شأن خطير . ويستسيغ هذا الفن تطوراً سلتبت القرون اللاحقة قيمته وعظمته .

صين ملوك التسين والمهان

بعد تهمزة الامارات التي انبثقت عن التشاو ابقّت « الممالك المقاتلة »
 تطور الصين التاريخي (١) الصين في حالة جرب مستمرة (من سنة ٣٢٥ الى سنة ٢٢١ ق م.)
 وستنشأ عن هذه الاضطرابات وحدة البلاد. وتستعري أنظارنا ثلاث من هذه الامارات - التشاو
 والتسين والتشو - ولكن استطاعت امارة التسين ان تستولي ، منذ سنة ٣١١ ، على المراكز
 الحساسة في البلاد وبدأت تخضع سائر الاجزاء . وقد أتم هذا العمل المجيد الملك تشنغ الذي اتخذ
 له فيما بعد اسماً عدا شهيراً هو تسن - ش - هوانغ - تي (٢٤٦ - ٢١٠) . ولد تسن سنة
 ٢٥٩ ولم يكن له من العمر إلا ثلاثة عشر عاماً عندما ارتقى العرش . ولكن منذ ان بلغ التاسعة
 والعشرين اخذ يحرز الانتصار تلو الانتصار على منافسيه : وهكذا منذ سنة ٢٣٠ الى سنة ٢٢١
 كرم نفسه للحرب . وبعد ان عدا سيد الصين المعروفة آنذاك اتخذ لقب امبراطور وسعى
 لتحقيق وحدة بلاده السياسية والاجتماعية والفكرية .

وتظهر اعمال تسن - ش - هوانغ - تي كصدى لمسا قام به الامبراطور اشوكا في الهند ،
 وان لم يجر بين البلدين صلات او تبادل حقيقيين . وأوجبت ظروف الصين السياسية عملاً جذرياً
 عنيفاً لاقتلاع ما تبقى من آثار الحكم الاقطاعي . وخوفاً من رجوع مثل هذا النظام جعلوا الحكم
 مركزياً . وتسهيلاً لتقارب المناطق فرضت على الجميع نفس الاساليب الكتابية . وأخذ
 الامبراطور الجديد على عاتقه تأمين السلام في بلاده والدفاع عنها ضد الغزوات التي كانت تهدد
 غالب الاحيان المناطق الشمالية والشمالية - الغربية ، لذا وحد في خط دفاع الاسوار التي كان
 ملوك التسين والتشو والدين قد اقاموها على طول الحدود . انه الحائط الكبير الذي يمتد على
 مسافة ثلاثة آلاف كلم ، والذي يُعد من اعظم الاعمال التي حققها الانسان .

(١) سبق ان اشرنا الى انه من المتعذر ان نضع للصين فاصلاً زمنياً في آخر القرن الاول ق م . ومع قيام
 حكم ونغ ونغ الذي يقع في اوائل العصر المسيحي ، قامت الحضارة الصينية أيام سلالة المهان هي سلسلة مستمرة
 الحلقات دون تقاطع وتستند الى ذات المبادئ والصفات ، لذا يمتد بحثنا هذا حتى سقوط المهان سنة ٢٢٠ بعد المسيح .

ولكن مع هذا لم يستتب النظام في الامبراطورية إلا لسطوة شخصية تسن - شه - هوانغ - تي ، لذا غدا موته سنة ٢١٠ نذير قيام الثورات واشتعال الاضطرابات السياسية التي دمرت البلاد في فترة لا تتجاوز بعض السنوات . وسنة ٢٠٦ نشأت عن هذه الحروب الداخلية سلالة الهان التي ستحكم الصين حتى سنة ٢٢٠ مسيحية ، ما عدا فترة قصيرة تتراوح من سنة ٩ الى سنة ٢٢ بعد المسيح . وبأساليب لطيفة المظهر سعى امبراطور سلالة الهان الاول الى إعادة المركزية التي حققها تسن - شه - هوانغ - تي . واتبع مبادئ ادارة البلاد التي كان قد سار عليها هذا السلف . ومع انه منح امتيازات لبعض النبلاء فانه سعى لجعلها دوراً خطر على سلطته . ولكن لم تستعد قط صين الهان الوحدة الداخلية التي كان قد حققها وابقى عليها تسن - شه - هوانغ - تي . بل غدت الصين ايام الهان مجموعة مقاطعات لا توحد اعمالها وجهودها إلا عندما يهددها خطر خارجي . وغدا هذا الخطر شبه مستديم وكان مصدره « البرابرة » الذين هددوا دوماً مناطق الحدود الشمالية والغربية والذين توغلوا مراراً في غزواتهم حتى داخل الامبراطورية . وقد تفاقم هذا الخطر اذ لم يتردد بعض المغامرين من الاعتماد على هؤلاء البرابرة للاستيلاء على الحكم ؛ وعلاوة على هذا فقد تنافس امراء السلالة وتحاربوا للوصول الى العرش . واستمرت سلالة الهان على هذه الحالة من قمع غزوة الى اخاد ثورة حتى سنة ١٤٠ ق . م . وفي هذا التاريخ ظهر الامبراطور « وو » الذي لم يكن له من العمر إلا ١٦ سنة عندما اعتلى العرش والذي سيستمر في الحكم زهاء ٥٣ عاماً ، متبعاً سياسة الحكم المطلق (١٤٠ - ٨٧) . انه اعتد الى اساليب غير مباشرة ولكن شديدة الوطأة للقضاء رويداً رويداً على النبلاء والاستعاضة عنهم برجال قانون ينتمي معظمهم الى عامة الشعب . وقد ثبت بواسطتهم سلطة الحكم المركزي . ونشأت عن هذه التدابير طبقة جديدة من الاشراف وازدهرت الحضارة الصينية ازدهاراً عجيباً .

والى جانب أعماله الداخلية هذه أعد الامبراطور حملة ضد الهيونغ - نو الذين كانوا يهددون بصورة مستمرة حدود الامبراطورية . وأرسل لهذه الغاية بعثة استكشاف واستعلامات بزعامة تشنغ - كين وقد استمرت هذه البعثة في مهمتها من سنة ١٣٨ حتى سنة ١٢٥ تقريباً ووصلت الى افغانستان . وأضيفت اليها بعثات اخرى وقفت على حالة البلاد السياسية التي وقعت على الطريق التجارية الممتدة من كاتون حتى البنغال - وهي « طريق برمانيا » الحديثة . وغدا هذا العمل فاتحة هجمات مظفرة أسدت على الصين صفة الفاتح . واتسعت البلاد الصينية غرباً حتى توانغ - هوانغ (التي تشرف على مجازات ألتي) وجنوباً حتى كاتون . وهكذا استمرت منطقة كان - سو ، وخضعت بلاد يونان وشمالي آتام وفرغانا ، وأجبر الهيونغ - نو الأشداء على التزام السكينة ولو الى حين .

ومع انه حدثت اضطرابات بعد موت وو فقد تابع أحد حفدته سيوان - تي (٧٣ - ٤٩ ق . م .) الفتوحات الصينية في التركستان الصيني ، واستولى على النقاط الرئيسية في حوض تاريم

وقضى لقرون عدة على القبائل الهونية في منغوليا ، ولكن عقب هذا العهد فوضى شديدة كادت تقضي على حكم الهان . وتعاقب على العرش في الفترة الواقعة بين سنة ٤٨ ق. م الى سنة ٩ ب. م . ثلاثة ملوك تحقق معهم المخطاط ووهن السلالة . واغتصب الحكم ونغ منغ وهو يمت بالقرابة المنحرفة الى الاسرة الامبراطورية ، وسعى لاصلاح الامور معتمداً على الطبقة المثقفة (٩ - ٢٢) . ولكنه كان خيالي الاهداف ، وقامت ضده جموع الفلاحين وقد عضها الجوع بنابه فتنازل عن العرش أمام مطالبة ذوي الحقوق الشرعيين . واغتم الفرصة أحد الهان ليو سيو فأعاد سلطة سلالته واتخذ اسم كوانغ وو - في (٢٥ - ٢٧) .

وبدأ اذ ذاك عصر استعمار صيني زاهر : فأعيد السلام الى بلاد الاتام والتونكين (٤٢) واخضع الهون في منغوليا الداخلية (٤٨) ، وثبتت الحماية الصينية على واحات تركستان اثر غزوات القائد بان تشاو المظفرة (وقد انتهت سنة ٩٤) . وهكذا انفتحت الطريق نحو الغرب واستطاعت الصين بواسطة الحيل المدرية والمحطات المتعددة ان تتصل مع افغانستان والهند وايران والشرق الروماني - وكان الامبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧) قد أوصل تأثير روما في آسيا الى الأوج . واستغزو هذه الطريق « طريق الحرير » ستعود بالثروة لمدة قرون عدة على البلاد التي استطاعت ان تملكها ، واصبح لها علاوة على ذلك أعظم الأثر الثقافي والفلسفي إذ بواسطتها أدخلت البوذية الى الصين حوالي ستين او سبعين سنة بعد المسيح .

ومع هذا عادت سلالة الهان الى المخطاط لن تقوم لها بعده قائمة . واعتماداً الى هذا الضعف استعاد الهون هجياتهم وعظم شأن الحكام المتنافسين في المقاطعات . وبعد معارك دامية - دامت حوالي خمسة وسبعين عاماً - عزلت رسمياً سلالة الهان (٢٢٠) واعترف اذ ذاك بثلاثة امبراطرة في لويانغ ، وتشنغ - تو (٢٢١) ونانكين (٢٢٩) . وهكذا جزئت الصين ثلاث ممالك واجتاح الهيونغ - نو شمالي الامبراطورية القديمة . وأعطيت السلطات الرئيسية اذ ذاك لاسرة التسين في نانكين (٣١٨ - ٥٨٩) . اما في الشمال فقامت مملكة صينية - تركية عرفت باسم وي (٣٩٨ - ٥٨١) ستعد الطريق لقيام سلالة صينية جديدة ، اعني سلالة التانغ التي ستخلف سلالة السوي (٥٨٩ - ٦١٨) .

عندما حقق تسن - شه - هوانغ - تي وحدة الصين طرأت على المجتمع السلطة الامبراطورية واحوال الملك تغييرات هامة وعميقة الجذور . اذ في زمن الممالك المتحاربة لم ينفك النظام الاقطاعي عن ترسيخ قدمه ولم ينفك النبلاء عن اكتساب امتيازات في وقت ضعفت فيه السلطات الملكية وفقدت سيطرتها . ولم يستطع تسن - شه - هوانغ - تي فرض سلطانه المطلق إلا باللجوء الى اساليب عنيفة قلبت الوضع رأساً على عقب . وحذا تسن - شه - هوانغ - تي حذو المستبدن لترسيخ هذه النظرية الجديدة المتعلقة بسلطة وشخص الملك ، ولكن عمد امبراطرة الهان خلفاؤه الحقيقيون ، الى اساليب اكثر نعومة والتواء لينعموا بمآثر ذلك الوضع .

لقد اختلفت حتماً وجهات نظرهم الى الامور ولكن تساوت اهدافهم : فقد عزف تسن - سه - هوانغ - تي ، وهو الكلي القدرة ، عن الطقوس - اذ اعتبرها بالية اكل الدهر عليها وشرب - التي كان ملوك التشاو والاقدمون يقيمونها بصفتهم ابناء السماء. ولكن يبدو مع هذا بأنه رغب في لقناع مروؤسيه بالصفة الالهية التي تلازم شخص الامبراطور ، لذا احاط نفسه بسرية كلية ، وعاش في قصر منفرد ، لا يراه شعبه . وكان يرمز قصره الى عالم الآلهة ، وهو لم يظهر إلا في ظروف استثنائية رسمية كارتقاء جبال الامبراطورية المقدسة التي كانوا يقومون بها باحتفال مهيب .

اما امبراطرة الهان فأظهروا أنفسهم باعثي النظام القديم . ولكنهم لم ينتكروا المبدأ الروحية الامبراطور التي نادى بها الحكم المطلق وقد فطنوا للاخطار التي تتعرض اليها سلطاتهم بسبب طموح ومشاغبات النبلاء . لذا عمدوا الى اللبونة والحيلة : فبدل ان يحصروا إقامة الطقوس الامبراطورية في المينغ تنغ (صفحة ٥٧٦) كما كانت الحال أيام التشاو فإنهم عموها في مختلف أرجاء المملكة . وهكذا غدت جولات الامبراطرة الى جهات المملكة الأربع معادلة لدوران ابن السماء داخل بيت التقويم ، وتجدد نظيره تعاقب الازمنة . ومع ان الخصائص التي ستحدد لاحقاً بصورة ثابتة ألوهية الامبراطور لم تكتمل بعد ، ومع أننا لا نزال في طور انتقالي فان كنه النظرية الصينية التي تتعلق بشخصية الامبراطور قد أثبتت مبدئياً . وستستمر هذه المميزات حتى سقوط الامبراطور سنة ١٩١٢ .

والى جانب هذه العقيدة تظهر فكرة الدولة وتفرض القوانين التي لا تقتصر غايتها على «معاقبة الاشرار» بل ايضاً على «تشجيع الصالحين» .

وهكذا يتقبلون المبدأ القائل بأن عمل السماء يعود بالخير على النظام العالمي بينما يعنى الامبراطور بالنظام الاجتماعي . ويبدو الامبراطور عملياً اكثر أهمية من السماء ما دام قادراً على ترسيخ النظام الروحي اذ ان الامبراطور هو وحده المسؤول عن مثل هذه الامور ، وفضائل الشخصية هي خير كفييل لتحقيق سعادة الجميع . وتمثل مجموعة الموظفين ضمير الامبراطورية . والامبراطور ورجال الادارة هم معدون لتثقيف الشعب وتوجيهه وابقائه في مستوى معيشي نبيل .

تهدف ادارة الامبراطورية والاصلاحات الى غاية رئيسية : الابقاء على الجيش الذي جعلت منه الحروب ضد البرابرة أمراً لا غنى عنه . وقد تطور الجيش تطوراً جذرياً منذ ان أصبح يتألف بكامله تقريباً ، في عهد الممالك المقاتلة ، من فرق الحياطة التي ، لحقتها وسرعة تنقلها ، غدت تصلح اكثر من عربات التشاو الثقيلة لصد هجمات فوارس الهون الصاعدة . ومنذ هذا العهد أخذ الحياطة الصينيون يرتدون ثياب البرابرة ، اعني السرة القصيرة والسروال ، بدل ثياب خيالة المعصور السابقة الفضفاضة . ويضعون ايضاً دبابيس وأقراطاً من المعدن وقد اقتبسوا هذا الامر عن أعدائهم ايضاً . ويتخذون كذلك القوس والنشاب فيقاتلون والحالة هذه الرماة البرابرة بنفس الأسلحة . ولتأمين انتصارات مستديمة هؤلاء المحاربين يوجهون قسماً من

المصادر

اقتصاد الامبراطورية نحو الانتاج بكيات هائلة : فرجال الحدادة يشتغلون لهم ، ويشجعون كثيراً الافراد لتربية الأحصنة التي تصاف الى تحويل الاصطبلات الامبراطورية ، وتقدم لهم المزارع العمومية الوفرة من لحم الضأن والحبوب والعلف للحيوانات ، وتؤمن لهم مؤسسات النقل ، بواسطة قوافل من مئآت العربات ، ما يحتاجون اليه من مواد واسلحة ورجال . واخيراً يعملون جاهدين في اهراء العاصمة ودور صناعتها وتخازن اسلحتها لتأمين ما يطلبونه من ذخيرة وميرة ، ويسهل تنقلهم في مختلف أرجاء الدولة ما يقيمونه من طرق جديدة وقنوات .

وتشجع كثيراً هذه الاحتياجات الزراعة وتربية المواشي . فهم يصلحون الاراضي التي لم تزرع ، وينشئون الممتلكات الفسيحة التي تأتي على الاملاك الصغيرة ، وازدهرت ايضاً الملاحات وأكوار الحدادة . وتستدعي جميع هذه الاعمال توحيداً في بعض أمور الدولة : لذا فرضوا نظاماً واحداً للكتابة والموازين والمكايل والمقاييس ، وأثرى كثيراً بعض المواطنين خاصة بين الذين يملكون الاراضي ويتوسطون في الاعمال التجارية ويقدمون للجيش ما هي بحاجة اليه . وتكثر اليد العاملة المتوجة للقيام بالمشاريع العظمى إذ القضاء على الملكية الصغيرة والوسطى ألقى في أحضان الشقاء والعوز عدداً وافراً من رجال الزراعة والصناعة . وقد يستخرون العبيد كما تلجأ الدولة الى استخدام عدد من رعاياها الذين يكون قد حكم عليهم جزائياً لما اقترفوا من أعمال تخالف القوانين .

وتستفيد الدولة بأساليبها الخاصة من ثراء الاغنياء المتصاعدين فتقر أساليب قاسية ثم تنقضها وتستبدلها بقرارات أشد وطأة : ملاحقات قضائية ، وضع اليد على الاراضي والعبيد ، ضرائب مختلفة ، غرامات ... وكلها طرق تعطي الدولة الحق بوضع يدها على جزء من الثروات التي اكتسبت بوسائل تخالف كثيراً او قليلاً القوانين . وهكذا تتكون ثروة الدولة التي يهتم بها رجال مال ينتسبون الى فئة التجار ، وتتوالى التشريعات المالية لتزيد في كميات هذه الثروة : فهم يديحون تارة سك النقود ويمرّمونه طوراً ، ويحبل النقد الخفيف محل الثقيل - وعند كل تغيير تفرض الضرائب على مخالفتي القانون .

وتساعد هذه العوامل كلها على خلق طبقة نبيلة في المدن ، توى البذخ وتحيا حياة رفاهية وتستثمر اليد العاملة بأجر يحس تعثر عليها بسهولة نسبة لغناها وفقر هذه الطبقة العاملة . وسيثير حتماً هذا التفاوت في الثروات ثورات واصلاحات سيجبر خلفاء الهان على تحمل نتائجها .

على أثر الحروب الاقطاعية والاستبداد حصلت تغييرات جذرية في تكوين المجتمع المجتمع والروح الاجتماعية : فينجي المغامرون والآثرياء الجدد والجنود والملاكون الكبار نبلاء العهد القديم عن السلطة ويعتبرون الثروة أساس النظام العالمي إذ يصبح الغنى الأداة المفضلة للنجاح . ويبتدىء أعظم رجال الدولة الجدد حياتهم بامتهان أحقر الأعمال : فيصبح راعي الخنازير مستشاراً أكبر ، والجندي البسيط مربي كواكب ، والأسير قيماً على الامبراطورية ، ويفدو

الاستحقاق والحظ والتفوق الحربي والربح الوافر عوامل تكفل النجاح أكثر من الحسب والنسب والامتيازات الارثية .

وتستفيد الصناعة والتجارة من حياة الترف التي يعيشها هؤلاء الأثرياء الجدد منها أسدوا لهم من نصح . ويعطي المثل القصر الامبراطوري وينشط الجميع لحذو حذوه على احسن وجه : ويتسابق القوم لإقامة الولائم والاعياد والصرف دون حساب واعداد حفلات الصيد والقنص واحياء الروايات التمثيلية غير آبهين للقوانين التي تحرم دعوة اكثر من ثلاثة ضيوف الى بيت واحد والتي تفرض غرامة على من لا يتقيد بها .

ومع هذا فان الامبراطور ورجال بطانته - أيام الهان - يعرضون كل فرد على التقيد بأهداف الحياة القديمة والعودة الى بساطة العهود الغابرة . وقوانين الدولة الروحية صارمة وجازمة : فهي تؤكد سلطة الأب المطلقة ، وتستنكر الزنى وتحرم على الأرامل ان يتزوجن ، وتفرض عفة الاخلاق ، وينشر التعليم هذه المبادئ ويسعى لتعميمها في الملحقسات ايضاً : إذ للدساكر والمراكز الحكومية مدارس يدرسون فيها المنهج نفسه الذي يسيرون عليه في العاصمة . ويدوم عهد الدراسة تسعة أعوام ، وتتناوب في كل سنة مجموعة « العلوم » استناداً الى الفصول وتنتهي بإمتحان ؛ انه تدريس نظري فقط يعلم الاولاد الطقوس والموسيقى ورمي النشاب وقيادة العربية والكتابة والحساب وقواعد الآداب ، وتحتوي مواد قديرين الفاشة النسيج والحيطة والنقر على العود والشعر والتاريخ . ومنذ هذا العهد نلس ميل الصينيين نحو البحث في الكتب المدرسية عن مبدأ الحكمة والفضائل الاجتماعية والشجاعة .

ولم تتغير إلا قليلاً نواحي الحياة اليومية : فالطقوس وحفلات الولادة والزواج والدفن تتبع القوانين التي ساروا عليها قديماً . وتستمر الحياة الزراعية على الخضوع لتقلبات الفصول وضروريات المزروعات . وما حياة النبيل إلا صورة مصغرة لحياة الامبراطور ، فهو يمتلك العبيد - ولا يجوز ان يتعدى عددهم الثلاثين - ويستأجر الخدم . ويحتوي قصره نساءه وخدمه وكل ما هو ضروري للحياة العادية من ألواح الجدد حتى المؤن . وهو يستيقظ باكراً ، ويفسل يديه وفمه ويسرح شعره ويستحم مرة كل خمسة أيام ولا يخرج من البيت في ذاك النهار . ثم يرتدي ثياباً تليق بمقامه ويتناول وجبة خفيفة ، ويستقبل أولاده الذين يفدون لتحيته ثم يمكف على الدرس . ويحدثه مدير أعماله عن مختلف الشؤون . وبعدئذ يرتدي ثيابه الرسمية لتناول الغداء ويكرس ما تبقى من وقت نهاره للأعمال التي تفرضا عليه وظيفته .

وتخصص النساء وقتاً أطول للاعتناء بتبرجهن . وتعيش المرأة في غرفة خصوصية تحيط بها خادماتها يعتنين بها . وهي في كل صباح تمشط شعرها بعناية وتضع في رأسها دبائيس طويلة . وتلك المرأة كل ما تحتاج اليه للزينة في صناديق من اللك نقش عليها بكل دقة : مسحوق الارز المدعور المسحوق البربري تبيض به وجهها وكتفها وظهرها بواسطة شراية من وبر الحيوانات ،

ومسحوق الزنجفر او العصفور الاحمر تفضعه بصورة مستديرة على وجنتيها ، ومساحيق قائمة تضع بواسطتها بقعاً تبعثرها على وجعها تبعاً للعادات المتبعة ، وهي تسود حواجبها بواسطة ابرة خشبية طويلة ومعلقة .

وتتناول طعامها في غرفة منفردة بصحبة سائر نساء القصر . ويتألف الطعام من لحم الخنزير وضعوا عليه البصل . ويزيدون اليه بعض الانواع المجففة وأصنافاً من اللحم والجوارس والذرة والارز — ولكن لم يعرف الارز في ذلك العهد الانتشار الذي سيلقيه فيما بعد . وترافق الاطعمة الكحول التي يستخرجونها من الذرة ، او الماء او الشاي (في مناطق جنوبي النهر الازرق فقط) . ويقطعون غالباً اللحوم النيئة قطعاً نحيفة ويحفظونها ويطيونها بالزنجبيل ، او ينقعونها في خل أضافوا اليه البصل ، وتحتوي الولايم على خمسة اصناف من الطعام هي : المرق ، ولحم العجل والضأن أضيف اليه الارز ، ولحم الخنزير مع الجوارس ، والسمك ، والطيور . وتظهر على موائد النبلاء اللوس أصناف أطيب طعماً : حلزون تقع في الحل ، وخنزير صغير حشوه بالحمض ، وسلحفاة ، ولحم الكلاب ، ولحم فيء طيبوه بالزنجبيل وتبلوه ببيض النمل المحفوظ في الملح .

وتقام الولايم على أنغام الموسيقى والرقص ، وقد يشارك فيه المدعون انفسهم . ولكن يأتي غالب الاحيان رب البيت بالرقاصين الذين اتخذوا الرقص مهنة لهم والبهاليل والبهالين .

ان كانت العاصمة الامبراطورية قد اتسعت اتساعاً كبيراً لتحتوي بين ظهرانيها ، إطار المدينة كما صدرت بذلك ارادة الامبراطور ، أقوى أسر المملكة ، وان كان تسن — شه — هوانغ — تي قد أبدع في تجميلها ، فان مدن الارياف تبقى مع هذا ضيقة . ويشبه القصر الامبراطوري قصور امبراطرة العمود السابقة ، وله باحاته وأبنيته التي أحسنوا اعطائها الوجهة المقررة . وهو يمثل بصورة رمزية العالم ، يقيم في وسطه الرجل الأرحد ، اعني الامبراطور ، الذي يستمر على اتصاله مع قوى النظام العالمي .

ويبعد بيت الغني أقسام القصر الرئيسية ، ولكنه يبقى مع هذا شبيها بمنزل الفلاح الذي طرأ عليه بعض التطور . وتشرف ساحته نحو الجنوب . وفي قعر هذه الساحة يمتد بناء طويل قسم ثلاثة اقسام : ففي الوسط قاعة الاستقبال ، والى اليمين واليسار الغرف ومستودعات المونة . وتحيط بالجناح الاساسي أبنية عدة : فالى الشرق بيوت الضيوف ، والى الغرب مساكن الاولاد المتأهلين ، والى وراء المراحيض . ويحتوي البناء الاساسي على طابقين او ثلاثة : ويسكن رب الاسرة في الزاوية الجنوبية — الغربية ، وهي الجهة الاكثر شرفاً حيث تحفظ ألواح الجدود . وللنساء غرفة يستقبلن فيها تقوم عادة فوق القاعة الوسطى ، وتزينها عند صبغت باللون الاحمر . أما الجدران فهي من الحجر المطلي بالكلس ، وقد يغطونه بالقماش في المناسبات الكبرى . وتظهر في السقف أخشاب ملونة ومنقوش عليها ، ويسطون على ارض الغرفة طنافس كشيمرية . ويلتصّب مقعد رب الاسرة تحت مظلة أقيمت في وسط القاعة .

وأثاث البيت بسيط . والمضاجع هي عبارة عن لوح خشب أسند على أربعة قوائم قصيرة جداً ، يعلوه فراش ويمتد على مساحة الغرفة بكاملها ، ويمتد المرء عليه ملتجئاً بغطاء من القطن المبطن (ويكون من القماش عند الفقراء) أما الوسادة فهي من الخشب قد يضيفون إليها عوارض من الخيزران تخفف مرونتها وطأة تلك الوسادة . وتحجب السرير بعض السجوف وتعلوه مظلة عليها الستائر . ويجلسون على حصر . وما الطاولات إلا عبارة عن مقاعد طويلة ومنخفضة ، وهم يتكئون على مقاعد أقصر من السابقات . وحوالي القرن الرابع فقط نظهر الكرسي ذات القوائم الأربع والمقاعد المشبوكة القوائم ، وقد اتخذوها عن الغرب . ومن أدوات الأثاث أيضاً القناديل : وهي عبارة عن مصابيح لها تسعة مشاعل أو مصابيح زيت بسيطة وجيلة من السهل حملها . وتضع هذه القناديل من الخلف أو النحاس . وتوجد مكتبة في إحدى غرف البيت وتتألف الكتب من قطع خشبية رقيقة ربطت إلى قديتين من الجلد . وأدخلت عادة جديدة أيام سلالة الهان وهي استعمال لفات طويلة من الورق توصلوا مؤخراً إلى اكتشاف المادة التي صنعت منها ، ويستعملون للكتابة حبراً ومراقم خشبية صغيرة معددة الرؤوس أو مناقيش .

وأثبتوا مزولة على حائط في عرصة الدار . ويوجد في القصر ساعة مائية مؤلفة من عدة أحواض نحاسية تحدد الوقت بشكل علمي أكثر دقة .

وهناك أخيراً مكان هام خصصه للمطابخ . وفي البيوت الحفيرة نجد هذه المطابخ في قسم المنزل المخصص للسكن . ولكن في بيت النبيل أو في قصر الإمبراطور تتخذ هذه المطابخ لها موضعاً في أقبية قاعة الاستقبال ، أو بصورة أفضل في أماكن معينة يكون قربها دوماً بئر ماء . ونجد في هذه المطابخ كوراً كبيراً له ثقبان تفلي فوقهما مراجل كبيرة . ويلأون هذا الكور وقوداً من خلال موقد مربع الشكل ويؤججون النار بواسطة عصى طويلة مجوفة . وبالقرب من هذا الكور يعلقون المونة على خشبة فيها كلاليب . أما أواني المائدة فهي في غاية التنوع : أكواب مختلفة الأحجام ، أوعية مستديرة القعر ، أجران وأحواض ، وتكمل هذه الأواني أطباق وطاولات صغيرة يأتون بها بعد أن يكونوا قد أعدوها .

ولا تختلف كثيراً ثياب الرجال عن ثياب النساء . ويرتدي الرجال سروالاً داخلياً قصيراً من القماش وقيصاً قصيرة لا أكمام لها ، ثم يضعون فوقها سترة وسروالاً يطول أو يقصر . وتربط النساء على قسم جسمهن الأعلى قطعة قماش اهليلجية الشكل تغطي صدرهن وبطنهن ، ولكنهن يتركن الظهر والجانبين بحالة العري . وتشبه ثيابهن الداخلية ثياب الرجال ولؤلؤاء ، علاوة على ما تقدم ذكره ، قطع من الجلد الأبيض على الركب ، وجوارب من حرير تثبتنها إلى الساق بعض الربط ، واحذية جلدية وقبة أو عمامة . وفيما يرتدي العملة ورجال العامة ثوباً قصيراً أو يكتفون فقط بقطعة ضيقة من القماش تستر عورتهم بلبس النبلاء وخدامهم ثوباً طويلاً . أما ثياب رجال البلاط ، وقد استلهموا شكلها من ثياب رجال الأدب ، فتغطي الثياب الموصوفة أعلاه ، وهي

عبارة عن ثوب ذي مطاوع تناسب والقوام يبطنونه بجرير (ايض (باو) ، ار عن ثوب فضفاض يتدلى من الكتفين حتى الرجلين (تشونغ - نان - ي) . ويشد الثوب الى الجسم زناير يرتبط بمعدة تمر في ابرز من الممدن المنقوش عليه ، وسيفضلون أكثر فاكث الرداء باو الذي كان كثير الاستعمال في زمن الهان ؛ اما ابرز الممدن فهو مأخوذ عن عادة بربرية .

ان عهد الممالك المقاتلة التي سادتها الاضطرابات ، وقيام الحكم الاستبدادي ثم تفشي الفوضى التي سبقت استرجاع اهان السلطة عوامل لم تخلق جواً يساعد على انتشار وازدهار الآداب . فتن - شه - هوانغ - في مثلاً الذي أراد فرض الوحدة على بلاد الصين أمر باشغال تارأتى ليهيها على كثير من الكتب الادبية الكلاسيكية (سنة ٢١٣ ق.م .) . ولكن نجت مع هذا المؤلفات الفنية (الطب ، السحر ، والزراعة الخ) . وعندما أراد الهان بعث الأدب الصيني كانت الكتب قليلة جداً وقد زالت نصوص عدة . وسعى الأدباء الكونفوشيانيون لحياء جوهر الأدب القديم . ولم يحقق هؤلاء الادباء ، عمداً او عن غير قصد ، إلا عملاً دعائياً وليس علمياً : وهكذا غدا لجهدهم غاية توجيحية ونادى بأهداف كونفوشانية رسمية قالوا إنها تنسب الى العهود القديمة ولكنها فرضت بالفعل فرضاً .

واكتسب منذ ذاك الوقت رجال الأدب أهمية كبرى كان قد حرمهم منها شن - هوانغ - في وملوك الهان الأولون . وفرض الكونفوشيانيون على طلاب الوظائف الادارية تقديم امتحان ؛ وأضيفت الى الكتابة « العصرية » او الشعبية (كين - ون) - التي كانت قد ساعدت على ازدهار التجارة - كتابة علمية (كو - ون) أدت الخدمات الى رجال العلم دون سواهم . ونالت المؤلفات « العلمية » - ولم يذكر غالباً اسم واضعها - استحساناً متزايداً . ولكن أفسح هذا الامر المجال رجباً امام المناقشات التي لا تعرف حداً ، وإلى الجدال المدرسي والتنافس السياسي إذ وقف الكونفوشيانيون جهدهم على خدمة القضية الامبراطورية . وتصارع بشدة مشايخو الكين - ون والمتحزبون للكو - ون ومفسرو (وي - شو) النصوص القانونية المحددة . وقد فاز المنتصرون للكو - ون (نصف القرن الثالث المسيحي) . وبما هؤلاء من نفوذ وسطوة غدت التعامل الكونفوشانية الفلسفة الرسمية ، وكون القائلون بها طبقة نبيلة جديدة نفذ أعضاؤها الى مجلس الامبراطور ومهدت السبيل امام رجال الادب لمراقبة الحكومة ، وقد رسخت هذه النظرية الجديدة على يد تونغ تشونغ شو خاصة (مات حوالي سنة ١٠٠ ق.م .) .

ونشهد إذ ذاك ازدهاراً في الآداب الصينية : رجال نثر موهبون - ومنهم كياي (١٩٨ - ١٦٦ ق.م .) - وناشرون (ليو هينغ ٧٧ - ٦ ق.م .) - وشغراء (سو - ماسيانغ - جو الذي مات سنة ١١٧ ق.م . ويانغ هونغ سنة ٥٢ ق.م . الى سنة ١٨ بعد المسيح) - ومؤرخون ورواة (سو - ماتسيان ١٤٥ - ٨٦ ق.م .) ... وهؤلاء الادباء جميعهم هم فخر عصر الهان . وعرف الشعر خاصة تجدداً ارسى أسس القصيدة الصينية للأجيال اللاحقة ، ونجدهم في الفترة التي

تتأرجح ما بين ١٩٦ و ٢١٩ بعد المسيح يخوضون في مختلف المواضيع التي سيعيدون البحث فيها فيما بعد . وفي الوقت نفسه يتبلور ميلهم نحو جمال الاسلوب فتظهر إذ ذاك « قواعد الألحان » — والتي ستصبح اجبارية في الزمن اللاحق .

إننا نجد نزعتهم الى الجمال الحسي في مجال الفن ايضاً وقد دعمتها امكانياتهم على الفنون والتفنيات تحقيق الأحسن، تلك الامكانيات التي ساعدتها الظروف . وتحفظ المصنوعات النحاسية التي تلت عهد التشار بنفس المواضيع الحيوانية وتخضع لنفس القوانين، ولكن هناك روحاً جديدة تبث الحياة فيها : فعوضاً عن نقوش فن التشار النافرة وأشكاله الفظة نرى رسوماً مستقيمة تتشابه فيها الاجزاء المستوية الشكل والاقسام التي تملؤها خطوط ملتوية فيظهر الفن في تناسق وتناغم الملء والفراغ واتحاد الاشكال الحيوانية والزخرفة الهندسية . انها نقوش قوية وحيوية كزميلاتها السابقة ولكنها أكثر وضوحاً وليونة . وأشكال الاواني هي أكثر بساطة واستدارتها أكثر نقاوة . ويبدو بكل وضوح في حلقات الزناوير التي نقش عليها نقوشاً دقيقة أثر علاقات الصينيين مع البرابرة الهون . وثبتت هذه الحلى والمرايا واراقي المائدة النحاسية ذوقاً دقيقاً وشعوراً حقيقياً .

وتتكاثر التأثيرات الغريبة وتظهر بكل وضوح في صناعات عدة وذلك لازدهار التجارة الصينية أيام الهان واتساع الامبراطورية والعلاقات التي توطدها الصين مع الغرب . وقد صهرت هذه التأثيرات في البوتقة الوطنية وغدت صينية تماماً . ان الفن أيام الهان — أقله في الآثار التي وصلت إلينا — هو أكثر تشعباً من الفنون السابقة : فقد أضافوا الى المرايا واواني المائدة النحاسية وأدوات الزينة التقليدية هندسة تشييد الابنية للموتى ، ونقوشاً نافرة ، وسلسلة أشياء صنعوها من الفخار المشوي ، ونماذج أولية للفن الخزفي المزخرف بالملينا ، وأقمشة حريرية ، وأدوات من اللك المزينة بالنقوش . وتميط هذه الصناعات اللثام عن تقصير كبير في استثمار المواد المختلفة ، والبحث سيكون لها نتائجها الباهرة ، وتقدير مستمر لحقيقة الأمر . وهكذا فانهم يزينون النحاس بالذهب والفضة ، ويرصعونه بالملينا واللك والحجارة الثمينة (الفيروز والذهنج واليشب) . ومن مميزات الفن أيام الهان حرية كبرى في التأليف وترسيخ الخطوط وحاسة وحياة في الاشكال وتذوق عميق مليء بالليونة للحقيقة الطبيعية . ان هذا الفن هو خير انعكاس لعهد جذاب تأسست فيه الوحدة الصينية بالاستناد الى مجتمع مجدد ، يحب البنخ والرفاهية ، ويعشق الجمال ، قوياً كان أو دقيقاً ناعماً .

الخصامة

ان هذا الكتاب يهمل درس أكثر من حضارة نسبة لانتساع العهد الذي يبحث فيه أعني منذ ان وجد الانسان على الارض حتى ظهور العهد المسيحي . وكان لا بد من بعض التوضيحية وذلك لانعدام الآثار والمصادر : ولن نستطيع إلا في زمن لاحق الكتابة عن بعض الشعوب التي عاشت في قارات فسيحة إلا بعد ان ينهتك ستر دياجيرها وتشع عليها الأنوار التاريخية الاولى . وقد نفسر أمراً معقولاً فرض علينا توضيحات أخرى موقته : إذ كيف لا نبقي لدراسة واحدة تاريخ روما وشعوب الغرب المتوسطي الذي غدت حضارتها ، في القرون القديمة ، صورة للحضارة روما تلك ؟

ومع هذا غدا لزاماً علينا ان ندرس بالتتابع اثني عشرة حضارة . وقد أجبنا على تتبع تطور البعض منها في مراحل مختلفة ، هذا التطور الجذري العميق الذي يحرم علينا من ثم اعتبارها كوحدة لا تتجزأ . وفي مثل هذا المحيط الجغرافي الضيق لن يبرز قط درس الحضارات ، في عصور التاريخ اللاحقة ، مثل هذه الصفة في التنوع والتجزئة . وهذا الأمر أكيد لا ريب فيه . وان توغلنا في عصور ما قبل التاريخ الاكثر قدماً ، يصبح هذا الاعتبار أشد وطأة إذ ان نقطة الانطلاق كانت وحدة الشعوب في تكوينها الطبيعي وحياتها المادية والروحية . وهكذا يبدو بأن تطور الحضارة وتقدمها قد وضعاً حواجز بين الأمم ، واهابها الى تشييد حضارات استقرت على ما بينها من تضاد .

وقد حصل فيما بعد تقارب واندماج . ولكن لم يمنع هذا المصير ، نتيجة الارادة كان او عوامل الحروب ، من تكوين ثلاثة عوالم : عالم الشرق الادنى ، وعالم الهند وعالم الصين . وعندما بدأ العهد المسيحي ، كان كل منهم قد أرسخ وجوده وخصائصه منذ قرون عدة : وباستثناء مقاطعاتهم المتجاورة لم تقم فيما بينهم إلا علاقات لم تمس الجوهر . ولم يكن هناك تأثير مشترك أصاب الكنه . وعندما وجدت الامبراطورية الرومانية غدت هذه العلاقات اكثر عدداً وأوسع مدى ، ولكن بقيت مع هذا سطحية محصورة ضمن نطاق تبسـ . بادل السفراء الوقتي او المواد او المصنوعات الفنية القيمة . وسينقضي وقت طويل قبل ان تتخذ لها مجرى آخر . ان التناقض بين هذه العوالم الثلاثة قد أصبح ، مدة قرون . إن لم يكن آلاف السنين ، من المعطيات الأساسية لتاريخ الحضارات .

وهناك حقيقة أكثر رسوخاً إذ يخضع كل شيء انساني لظروف الزمان وتغيير القوانين . فائشاء الفارة الطويلة جداً التي كانت موضوع بحثنا في هذا المؤلف خضع العالم الهندي مثل العالم الصيني للغزوات او تمتع باتساع الرقعة . وسيعرف كل منها في القرون اللاحقة حركات اخرى من المد والجزر . وقد تطورت حضارتها وستطور ايضاً . ولكن منذ أواخر الألف الثاني ق. م . وعندما ثبتت القبائل الآرية قدما في الهند حصل تطور هذين العالمين الثقافي دون حوادث تبدل او انقلاب فجائية ، وذلك بصورة مستقلة وبتأثير القوى الداخلية وحدها . ولا نجد للصين او للهند ما ندعوه « القرون القديمة » اعني ذاك الطور التاريخي الذي يستحق اسمه ان قبلناه « بالقرون الوسطى » التي تلتها « النهضة » . فالهند والصين بدء تاريخ فقط . وان كانت القرون التي سبقت العهد المسيحي تختلف عن سواها فذلك لأن هذه القرون شاهدت تكوين الحضارتين الهندية والصينية ، وكل منهما مدعو الى الاستمرار ، حتى زمن قريب جداً منا ، على نهج حياة قد تبدل ثابتة لا تتغير معالمها .

ويختلف الأمر إن نظرنا الى العالم المتوسطي . ففي مصر وبلاد ما بين النهرين خاصة كان لهذا العالم حضاراته التي نشأت في اطار ضيق وعاشت على نفسها ومن حيويتهما دون أي جلب من الخارج . لقد كان لهذا العالم نفس الحضارات تقريباً وهي استمرت زمناً طويلاً ، ولكنها انقرضت منذ آخر القرون القديمة على أبعد حد . وقد قضت عليها شيخوختها دون شك ، هذا إن لم نقل بالاولى بأنه قد أصابها الكسح ، وأذابت حيويتهما وخنقتها حضارات أقل عهداً وذات طاقات اكثر لقبول التجدد . ولقد نشأت هذه الحضارات الاخيرة في عالم غير العالم المتوسطي وفي زمن أقل قدماً . انها استثمرت تجارب الآخرين او بالأحرى كونت معظم أجزائها مما أخذته او ورثته عن الغير . ومع هذا لم تقف ميزاتهما الجوهرية القليلة حائلاً دون انتصارها ، ولكن عرفت بدورها الاضمحلال بتأثير قوى خارجية وجديدة .

وهكذا منذ القرون القديمة يبرز عالماً الشرق الاقصى كعالمي الاستقرار والديمومة ؛ اما العالم المتوسطي ، مهد العالم الغربي الآتي ، فهو عالم الثورات الدامية والتحول المستمر . وفي القرون الاولى المسيحية التي سنخصص لها كتابنا الآتي لن يخفف مصير روما او مصير المناطق الآسيوية من هذا التناقض البين .

المصادر

(١) الشرق المتوسطي واليونان

١ - دراسات شاملة

- L. DELAPORTE, *Le Proche-Orient asiatique* (3ème éd., 1948).
- E. DRIOTON et J. VANDIER, *L'Egypte* (3ème éd., 1952).
- R. COHEN, *La Grèce et l'hellénisation du monde antique* (3ème éd., 1948).
- P. LAVEDAN, avec la collaboration de S. BESQUES, *Antiquité* (1949), t. X, *Histoire de l'art*.
- L. DELAPORTE, E. DRIOTON, A. PIGANOL et R. COHEN, *Antiquité* (1937) t. XII *Atlas historique*.
- J. DELORME, *Chronologie des civilisations* (1949).
- P. JOUGUET, J. VANDIER, G. CONTENAU, E. DHORME, A. AYMARD, F. CHAPOUTHIER, R. GROUSSET, *Les premières civilisations* (nouvelle rédaction, 1950).
- P. ROUSSEL, avec la collaboration de P. CLOCHÉ et R. GROUSSET, *La Grèce et l'Orient, des guerres médiques à la conquête romaine* (2ème éd., 1938).
- A. MORET, *Histoire de l'Orient*, 2 vol. (1929-1936).
- G. GLOTZ, avec la collaboration de R. COHEN, *Histoire grecque* t. I, *Des origines aux guerres médiques* (1952).
- t. II, par les mêmes, *La Grèce au V^e siècle* (1931).
- t. III, par les mêmes, *La Grèce au IV^e siècle ; la lutte pour l'hégémonie*, 404-336 (1936).
- t. IV, G. GLOTZ, P. ROUSSEL, R. COHEN, *Alexandre et l'hellénisation du monde antique* (1938).
- *Encyclopédie photographique de l'art* (éditions «Tel») (1935-1938).
- CH. PICARD, *La sculpture antique* (Paris, Laurens) t. I, (1923-1926).

٢ - حول ما قبل التاريخ

- G. GOURY, *Précis d'archéologie préhistorique; origine et évolution de l'homme*, 2 t.

- H. BREUIL et R. LANTIER, *Les hommes de la pierre ancienne, paléolithique et mésolithique* (Paris, Payot, 1951).
- J. DECHELETTE, *Manuel d'archéologie préhistorique, celtique et gallo-romaine*, 2 t.

٣ - حول مصر وبلاد ما بين النهرين

- H. FRANKFORT (1948), trad. par J. MARTY et P. KRIEGER, *La royauté et les dieux ; intégration de la royauté à la nature dans la religion de l'ancien Proche-Orient* (Paris, Payot, 1951).

٤ - حول مصر

- A. MORET, *L'Egypte pharaonique* (Paris, Plon, 1932): t. II de G. HANOTAU, *Histoire de la nation égyptienne*.
- A. ERMAN, trad. par H. WILD, *L'Egypte des pharaons* (Paris, Payot, 1939).
- A. ERMAN et H. RANKE, trad. par CH. MATHIEU, *La civilisation égyptienne* (Paris, Payot, 1952).
- A. MORET, *Le Nil et la civilisation égyptienne* (Paris, A. Michel, 1926).
- P. MONTET, *Les scènes de la vie privée dans les tombeaux de l'Ancien Empire* (Strasbourg, Istra, 1925), et *La vie quotidienne en Egypte au temps des Ramsès, XIII^e, XII^e siècles avant J.-C.* (Paris, Hachette, 1946).
- J. VANDIER, *La religion égyptienne* (2^e éd., 1949).
- A. ERMAN, trad. par H. WILD, *La religion des Egyptiens* (Paris, Payot, 1937).
- J. SAINTE FARE GARNOT, *La vie religieuse dans l'ancienne Egypte* (Paris, P.U.F., 1948).
- CH. DESROCHES - NOBLECOURT, *Le style égyptien* (Paris, Larousse, 2^e éd., 1946).
- J. VANDIER, *Manuel d'archéologie égyptienne* (Paris, A. Picard, 2 vol., 1952-1953).

٥ - حول آسيا الغربية

- G. CONTENAU, *Manuel d'archéologie orientale, depuis les origines jusqu'à l'époque d'Alexandre* (Paris, A. Picard), t. I-III (1927-1931) ; t. IV, *Les découvertes archéologiques de 1930 à 1939* (1947).
- Du même, *L'art de l'Asie occidentale ancienne* (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1928).
- M. RUTTEN, *Arts et styles du Moyen-Orient ancien* (Paris, Larousse, 1950).

٦ - حول بلاد ما بين النهرين

- L. DELAPORTE, *La Mésopotamie, les civilisations babylonienne et assyrienne* (Paris, A. Michel, 1923).

- Du même, les chapitres sur l'Elam ajoutés à la nouvelle édition de C. Huart, *L'Iran antique* (Elam et Perse) et *la civilisation iranienne* (Paris, A. Michel, 1948).
- G. CONTENAU, *Les civilisations anciennes du Proche-Orient* (Paris, P.U.F., 2^e éd., 1948).
- Du même, *La civilisation d'Assur et de Babylone* (Paris, Payot, 2^e éd., 1951), et *La vie quotidienne à Babylone et en Assyrie* (Paris, Hachette, 1950).
- SIR LEONARD WOOLLEY, trad. par J. LEVY, *Ur en Chaldée* (Paris, Payot, 1938).
- M. RUTTEN, *Babylone* (Paris, P.U.F., 1948).
- A. PARROT, *Archéologie mésopotamienne, les étapes* (Paris, A. Michel, 1946).
- H. R. HALL, *La sculpture babylonienne et assyrienne au British Museum* (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1928).
- E. DHORME, *Les religions de Babylone et d'Assyrie*, dans le fasc. 2 du t. I, *Les anciennes religions orientales*, de la collection « Mana » (Paris, P.U.F., 1945).
- CH. VIROLLEAUD, *Légendes de Babylone et de Canaan*, fasc. 1 de la coll. « L'Orient ancien illustré » (Paris, A. Maisonneuve, 1949).

٧ - حول آسيا الصغرى

- L. DELAPORTE, *Les Hittites* (Paris, A. Michel, 1936).
- G. CONTENAU, *La civilisation des Hittites et des Hurrites du Mitanni* (Paris, Payot, 2^e éd., 1948).
- R. DUSSAUD, *Les religions des Hittites et des Hourrites*, dans le fasc. 2 du t. I, *Les anciennes religions orientales*, de la collection « Mana » P.U.F., 1945).
- Du même, *Prélydiens, Hittites et Achéens* (Paris, Gentner, 1953).

٨ - حول فارس

- G. HUART et L. DELAPORTE, ouvrage cité plus haut pour la Mésopotamie (éd. 1952).
- A. T. OLMSTEAD, *History of the Persian empire, Achaemenid period* (Chicago, The University of Chicago Press, 1948).
- J. DUCHESSE - GUILLEMIN, *Zoroastre*, étude critique avec une traduction commentée de Gâthâ (Paris, G.-P. Maisonneuve, 1950).
- R. GROUSSET, E. BENVENISTE, etc., *La civilisation iranienne* (Paris, Payot, 1952).
- F. SARRE (1922), trad. par P. BUDRY, *L'art de la Perse ancienne* (Paris, Crès, 1924).

٩ - حول الإيبين

- G. GLOTZ, *La civilisation égéenne* (Paris, A. Michel, réédition procurée par P. Demargne en 1953).

- CH. PICARD, *Les religions préhelléniques*, fasc. 1 du t. II., *Les religions de l'Europe ancienne*, de la collection « Mana » (Paris, P.U.F., 1948).
- J. CHARBONNEAUX, *L'art égéen* (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1929).

١٠ - حول كنعان ، سوريا ، العبرانيين

- G. CONTENTAU, *La civilisation phénicienne* (Paris, Payot, 3^e éd., 1949).
- R. DUSSAUD, *L'art phénicien au II^e millénaire* (Paris, Geuthner, 1949).
- A. DUPONT-SOMMER, *Les Araméens*, fasc. 2 de la collection « L'Orient ancien illustré » (Paris, A. Maisonneuve, 1949).
- R. DUSSAUD, *Les religions... des Phéniciens et des Syriens*, dans le fasc. 2 du t. I, *Les anciennes religions orientales*, de la collection « Mana » (Paris, P.U.F., 1945).
- CH. VIROLLEAUD, *Légendes...* ouv. cité plus haut pour la Mésopotamie.
- A. BERTHOLET, *Histoire de la civilisation d'Israël* (Paris, Payot, 1929).
- AD. LODS, *Israël, des origines au milieu du VIII^e siècle, et Des prophètes à Jésus ; les prophètes d'Israël et les débuts du judaïsme* (Paris, A. Michel, 1930 et 1932).

١١ - حول اليونان

- J. HATZFELD, *Histoire de la Grèce ancienne*, réédition procurée par A. Aymard (Paris, Payot, 1950) et *La Grèce et son héritage* (Paris, éditions Montaigne, 1945).
- A. JARDE, *La formation du peuple grec* (Paris, A. Michel, 1923).
- M. CROSET, *La civilisation de la Grèce antique* (Paris, Payot, 1932).
- G. GLOTZ, *Le travail dans la Grèce antique* (Paris, Alcan, 1920).
- P. CLOCHE, *Les classes, les métiers, le trafic* (Paris, Belles-Lettres, 1931).
- L. GERNET et A. BOULANGER, *Le génie grec dans la religion* (Paris, A. Michel, 1932).
- M. P. NILSSON, *Geschichte der griechischen Religion* (Munich, C. H. Beck, 2 vol., 1941 et 1951).
- H. MARROU, *Histoire de l'éducation dans l'Antiquité* (Paris, Editions du Seuil, 1948).
- A. et M. CROSET, *Histoire de la littérature grecque* (Paris, de Boccard, 5 vol., 3^e éd., 1910-1921).
- L. ROBIN, *La pensée grecque et les origines de l'esprit scientifique* (Paris, A. Michel, 1923).
- CH. PICARD, *Manuel d'Archéologie grecque. La sculpture* (Paris, A. Picard) t. I, *Période archaïque* (1935); t. II, *Période classique, V^e siècle* (2 vol., 1939); t. III, *Période classique (IV^e siècle), première partie* (2 vol., 1948).
- H. LECHAT, *Sculptures grecques*, album commenté (Paris, Hachette, 1925) et un exposé rapide et précis, *La sculpture grecque* (Paris, Payot, 1927).
- CH. DUGAS, *La céramique grecque* (Paris, Payot, 1924).

١٢ - حول اليونان في العهد القديم

- J. BURNET (1914), trad. par A. RAYMOND, *L'aurore de la philosophie grecque* (Paris, Payot, 1919).
- P.-M. SCHUHL, *Essai sur la formation de la pensée grecque*. Introduction historique à une étude de la philosophie platonicienne (Paris, P.U.F., 2^e éd., 1949).
- J. CHARBONNEAUX, *La sculpture grecque archaïque* (Paris, éditions de Cluny, 1939).

١٣ - حول اليونان في العهد الكلاسيكي

- G. GLOTZ, *La cité grecque* (Paris, A. Michel, 1928).
- V. MARTIN, *La vie internationale dans la Grèce des cités (VI^e-IV^e siècle avant J.-C.)* (Paris-Genève, 1940).
- CH. PICARD, *La vie privée dans la Grèce classique* (Paris, Rieder, 1931), ou *La vie dans la Grèce classique* (Paris, P.U.F., 2^e éd., 1949).
- J. CHARBONNEAUX, *La sculpture grecque classique* (Paris, Editions de Cluny, 2 vol., 1943-1945).

١٤ - حول اليونان في العهد الهليني

- M. ROSTOVITZ, *The social and economic history of the Hellenistic world* (Oxford, Clarendon press, 3 vol., 1941).
- P. JOUGUET, *L'impérialisme macédonien et Hellenisation de l'Orient* (Paris, A. Michel, 1926).
- W. W. TARN, trad. par E. J. LEVY, *La civilisation hellénistique* (Paris, Payot, 1936).
- E. BIKERMAN, *Institutions des Séleucides* (Paris, Geuthner, 1938).
- CL. PREAUX, *L'économie royale des Lagides* (Bruxelles, Fondation égyptologique Reine Elisabeth, 1939), et *Les Grecs en Egypte d'après les archives de Zénon* (Bruxelles, Office de Publicité, 1947).
- P. ROUSSEL, *Délos* (Paris, Belles-Lettres, 1925).
- A.-J. FESTUGIERE, *Epicure et ses dieux* (Paris, P.U.F., 1946).

(٢) حول آسيا الشرقية

١ - دراسات عامة

- RENE GROSSET, J. AUBOYER, J. BUROT, *L'Asie orientale des origines au XV^e siècle* (Paris, P.U.F., 1941).
- J. SION, *L'Asie des moussons* (Paris, A. Colin, 1929).

٢ - حول الهند

- L. BACHHOFFER, *Early Indian Sculpture*, 2 vol. (Paris, 1929).
- G. COMBAZ, *L'Inde et l'Orient classique*, t. I, 2 vol. (Paris, 1937).
- G. COURTILLIER, *Les anciennes civilisations de l'Inde* (Paris, A. Colin, 1930).
- A. FOUCHER, *Beginnings of Buddhist Art* (Paris, 1917).
- A. FOUCHER et SIR J. MARSHALL, *The monuments of Sanchi*, 3 vol. (Calcutta, 1940).
- A. FOUCHER, *La vie du Bouddha* (Paris, Payot, 1949).
- L. DE LA VALLEE-POUSSIN, *L'Inde au temps des Maurya et des Barbares*, dans *l'Histoire du monde*, t. III, (Paris, de Boccard, 1930).
- E. MACQAY, *La civilisation de l'Indus*, trad. A. et H. COLIN-DELAUVAUD (Paris, Payot, 1936).
- P. MASSON-OURSSEL, H. DE WILLMAN-GRABOWSKA et STERN, *L'Inde antique et la civilisation indienne* (Paris, Albin Michel, 1933).
- L. RENOU, J. FILLIOZAT, P. MEILE, A.-M. ESNOUL et L. SILBURN, *L'Inde classique*, t. I (Paris, Payot, 1947-1949).

٣ - حول الصين

- CREEL, *Naissance de la Chine*, trad. M. CLERC-SALLES (Paris, Payot, 1937).
- M. GRANET, *la civilisation chinoise* (Paris, Albin Michel, 1929).
- R. GROUSSET, *La Chine et son art* (Paris, Plon, 1951).
- B. KARLGREN, *Prehistory of the Chinese*, *Bull. of the Museum of Far-Eastern Art*, N° 15 (Stockholm, 1943).
- H. MASPERO, *La Chine antique*, t. IV de *l'Histoire du monde* (Paris, de Boccard, 1927).
- DU même, *La vie privée à l'époque des Han*, *Revue des arts asiatiques*, t. VII (Paris, 1932).
- DU même, *Les religions chinoises*, Publ. Musée Guimet, Bibl. de Diffusion, t. LVIII (Paris, 1950).
- DU même, *Le taoïsme*, Publ. Musée Guimet, Bibl. de Diffusion, t. LVII (Paris, 1950).
- DU même, *Etudes historiques*, Publ. Musée Guimet, Bibl. de Diffusion, t. LIX (Paris, 1950).
- A. RYGALOFF, *Vie de Confucius* (Paris, P.U.F., 1946).
- A. WALEY, *Trois courants de la pensée chinoise*, trad. G. DENIKER (Paris, 1949).

جدول زمني مقارن

ان التوقيت القديم غير أكيد في الغالب . لذلك اضطررنا الى الاكتفاء ببعض الاشارات الغامضة من جهة والى بعض المصطلحات من جهة اخرى :

— إن كلمة « حوالي » ، بصدده العهود القديمة ، لا تشير الى التاريخ ، بل الى توقيت تقريبي :
فالتفاوت قد يبلغ قرناً أو قرنين أو أكثر أحياناً .

— إن كلمة « تقريباً » تشير الى تفاوت أقل اتساعاً في الزمن : بين نصف قرن وعشر سنوات على وجه التقريب .

— إن علامة الاستفهام (?) تشير الى تاريخ متأرجح يبلغ التفاوت فيه عدة سنوات فقط

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
١٢٤٢ - ١٢٤٥	الوقت الأساسي لتقرير التقويم المصري	أولى حضارات بلاد ما بين النهرين	بدء الحفارة العيلامية	
حوالي ٤٠٠٠				
حوالي ٣٥٠٠				
حوالي ٣٢٠٠	المملكة الموحدة في مصر			
٣٢٠٠ - ٢٦٠٠		الطور السومري الأول ؛ مدن لاغاش وأور وأوردك النخ تتحارب ، تسلل الساميين الى بلاد بابل		
حوالي ٣٠٠٠				
بدء الالف الثالث				بدء العلاقات الوثيقة بين جبيل ومصر
من ٢٨٠٠ - الى ٢٢٠٠ تقريباً	مملكة منف القديمة			
٢٧٥٠				التاريخ التقليدي لتأسيس صور
٢٧٢٣-٢٥٦٣ (?)	السلالة الرابعة ، بيني ملوكها الثاني والثالث والرابع خوفو وخفرع ومنكورع الاهرام الكبرى			
٢٦٠٠ - ٢٤٠٠		طور أكاد . في البدء يؤسس مرجون ملكة أكاد السامية ، وله نفوذ كبير على آسيا الداخلية ؛ تقضي على الملكة غزوة من القبائل الجبلية	مرجون الأكادي يخضع بلاد عيلام	
حوالي ٢٥٠٠ - ١٥٠٠				

العالم الايجي والعالم اليوناني	اكتند	الصين	التواريخ
			٤٢٤٢ - ٤٢٤٥
			حوالي ٤٠٠٠
			حوالي ٣٥٠٠
			حوالي ٣٢٠٠
			٣٢٠٠ - ٢٦٠٠
			حوالي ٣٠٠٠
استمرار حضارة العصر الحجري الجلديد في اليونان، وبدا استعمال المعادن في جزيرة كريت			بدا الالف الثالث
			من ٢٨٠٠ - الى ٢٢٠٠ تقريباً
			٢٧٥٠
			(?) ٢٥٦٣ - ٢٧٢٣
			٢٤٠٠ - ٢٦٠٠
			٢٦٠٠
			حوالي ٢٥٠٠ - ١٥٠٠
حضارة وادي الهندوس (موهنجو - دارو، هراپا) لم تفسر بعد الكتابة		سلاة الهيا (٢١٥٢٣ - ٢١٩٨٩)	

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
من ٢٣٥٠ الى ٢١٥٠ تقريباً	الفوضى في العهد الاول الذي يفصل بين الملكتين			
حوالي ٢٣٠٠		خودبا يملك في لاغاش ؛ سلالة أور الثالثة	السومريون يخضعون بلاد عيلام	
٢٣٠٠ - ٢٠٠٠		الطور السومري الثاني		
من ٢١٥٠ الى ١٦٨٠ تقريباً	دولة طيبة الوسطى			
حوالي ٢١٠٠		خراب مملكة أور	العيلاميون يقضون على مملكة أور	
٢١٠٠ - ١٩٠٠		سلالات ايسن ولسا وازدباد نفوذ سامي الغرب او الاموريين		ازدهار جماعة من التجار الاشوريين في كبادوكية
حوالي ٢٠٠٠			استقرار الهندو-اوريين في إيران	استقرار الحبشيين في الاناضول ، ازدهار ارغاريت في لينقيسا ، توسع علاقاتها مع بلاد ما بين النهرين وخاصة مع العالم الايجي
من ٢٠٠٠ الى ١٧٨٥ تقريباً	السلالة الثانية عشرة ، وأشهر فراعنتها هو سنموت الثالث المعروف بسمنارس عند اليونان (١٨٨٧ - ١٨٥٠)			
٢٠٠٠ - ١٦٥٠		السلالة البابلية الاولى		
١٨٠٠ - ١٩٠٠				استناداً الى التوراة المبرانيون يمتازون سوريا وفلسطين بطريقهم الى مصر
١٨٤٠				الاشوريون سادة ماري على الفرات
أواخر القرن التاسع عشر		حكم حورابي		

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
			من ٢٣٥٠ الى ٢١٥٠ تقريباً
عز طروادة الثانية			حوالي ٢٣٠٠
			٢٣٠٠ - ٢٠٠٠
			من ٢١٥٠ الى ١٦٨٠ تقريباً
			حوالي ٣١٠٠
			٢١٠٠ - ١٩٠٠
بناء القصور الاولى الكريتية			حوالي ٢٠٠٠
			من ٢٠٠٠ الى ١٧٨٥ تقريباً
			٢٠٠٠ - ١٦٥٠
			١٨٠٠ - ١٩٠٠
			سنة ١٨٤٠
			أواخر القرن التاسع عشر

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
١٨٠٠	استناداً الى التوراة، قدوم المبرانيين الى مصر			
١٧٣٠ تقريباً - ١٥٨٠	غزو وحكم الحكموس . الطور الثاني الفاصل بين الملكتين			
١٢٠٠ تقريباً				
القرن السابع عشر				تأسيس مملكة الهوريين في بلاد ميتاني ؛ ازدهار الامبراطورية الحثية
١٦٥٠		الغزوة الحثية على بابل وقيام السلالة الكاسية		
١٥٨٠ - ١٠٩٠	الملكمة الطيبية الجديدة			
ابتداء من ١٥٨٠				حملات فراعنة بملكية طيبية الجديدة على بلاد كنعان
١٥٨٠ - ١٣٢٠	السلالة الثامنة عشرة			
حوالي ١٥٠٠				
القرن الخامس عشر - النصف الاول من القرن الرابع عشر		تأثير مصر القوي على بلاد ما بين النهرين		
١٤٨٤ - ١٤٥٠ (?)	حكم تحوتس الثالث الذي بسط سيادة مصر حتى الفرات			
ابتداء من ١٤٨٣				غزوات تحوتس الثالث المظفرة وهو ينشئ الامبراطورية المصرية في آسيا

العالم الايجي والعالم اليوناني	افند	الصين	التواريخ
			١٨٠٠
			١٧٣٠ تقريباً - ١٥٨٠
ظهور الاخيين في ارغوليد؛ دمار القصور الكريتية الاولى يليه بمد فترة قصيرة تشيد القصور الثانية			١٧٠٠ تقريباً
			القرن السابع عشر
			١٦٥٠
			١٥٨٠ - ١٠٩٠
			ابتداء من ١٥٨٠
			١٥٨٠ - ١٣٢٠
أوج عظمة دولة مينوس البحرية	وصول الكريين الى حوض الهندوس	سلالة الشانغ (١٥٢٣ ؟ - ١٥٢٨) وقد دعوا الى «دين» منذ سنة ١٣٠٠	حوالي ١٥٠٠
			القرن الخامس عشر - النصف الأول من القرن الرابع عشر
			١٤٨٤ - ١٤٥٠ (?)
			ابتداء من ١٤٨٣

بلاد ما بين النهرين	مصر	التواريخ	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)
	خروج العبرانيين	١٤٠٠ تقريباً	
		١٣٨٨ - ١٣٥٠ تقريباً	
تضعضح الامبراطورية المصرية في آسيا	حكم امنوفيس الرابع - اخناتون طور تل العمارنة	١٣٧٠ - ١٣٥٢ (?)	
	السلالة التاسعة عشرة	١٣٢٥ - ١٢٠٠ تقريباً	
		القرن الثالث عشر	
عصر المظلمة الآشورية الاول : حوالي سنة ١٢٧٠ يبتاز شانصر الاول الفرات ، من سنة ١٢٦٠ الى سنة ١٢٤٠ حكم توكولتي- نينبورتا الاول الذي يقتصر في كل جهة ريستولي على بابل . حوالي سنة ١١٠٠ يبلغ تغلت فلاصر الاول البحر الابيض المتوسط في فينيقيا		القرنان الثالث عشر والثاني عشر	
	حكم رمسيس الثاني الذي يلتصر في قادش في فلسطين ويعقد تحالفاً مع الحثيين	١٢٩٨ - ١٢٣٢ (?)	
		سنة ١٢٧٨	
	هجمات « شعوب البحر »	ابتداء من ١٢٣٠	

بلاد كنعان وسوريا والاناضول	العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
نصوص اوغاريت المدينية , تحركات الشعوب الكبيرة , استقرار المبرانيين في فلسطين , الشعوب البحرية بتسديدهم بالتحرك , تزعم الامبراطورية المصرية	دمار قصر كخنوسوس . ذروة ازدهار الحضارة الميسينية والملكة الآخية			١٤٠٠ تقريباً
حكم الملك الحثي سوبيلوليوما الذي يسيطر على ميتاني ويصل الى فلسطين				١٣٨٨ - ١٣٥٠ تقريباً
تضعف الامبراطورية المصرية في آسيا				١٣٧٠ - ١٣٥٢ (?)
				١٣٢٠ - ١٢٠٠ تقريباً
ناروس احيرام في جيبيل ! وجود الإيجدية الفينقية				القرن الثالث عشر القرنان الثالث عشر والثاني عشر
	التاريخ الذي اعتمدته القرون القديمة لحرب طروادة			النصف الثاني من القرن الثالث عشر
				١٢٩٨ - ١٢٣٢ (?)
				سنة ١٢٧٨
بعد صراع دميس الثاني مع الحثيين تقاسم النفوذ بين الفراعنة والملوك الحثيين ! وقد هددتهم جميعاً حركات شعوب حوض المتوسط الشرقي				ابتداء من ١٢٣٠

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاتناصول
نهاية القرن الثالث عشر والثاني عشر قبل ١٢٠٠				اقامة الفلسطينيين على شاطئ فلسطين والآراميين في سوريا
ابتداء من القرن الثاني عشر				تقهر الامبراطورية الحثية : الشاء الدولة الفريجية في وسط آسيا الصغرى
القرن الثاني عشر - القرن الحادي عشر				حروب العبرانيين ضد الفلسطينيين
١١٧٥		ملك عيلام شورتوك ناخونتيه الاول يغزو بلاد بابل		
انتهاء القرن الحادي عشر - ابتداء القرن العاشر				حكم الملكين داود رسلبان حكم احيوام ملك صور
القرن الحادي عشر - القرن السابع	فوضى : حكم رؤساء كهنة امون ، السلاطات اليمنية والنوبية			
١٠٢٧				
٩٦٦ (?) - ٩٥٩ (?)				بناء هيكل اورشليم
بعد ٩٣٥ (?)				انقسام ممالك اسرائيل ديودا
من القرن التاسع - القرن السابع		الفتوحات الاشورية الكبرى	منذ القرن التاسع غزوات الاشوريين المتكررة على بلاد عيلام	غزوات الملوك الاشوريين اخضاعهم ارمينيا وسوريا وفينيقياس وفلسطين

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
			نهاية القرن الثالث عشر والثاني عشر
			قبل ١٢٠٠
الغزو الدوري		نغان يانغ عاصمة الهونان	ابتداء من القرن الثاني عشر
			القرن الثاني عشر - القرن الحادي عشر
			١١٧٥
			انتهاء القرن الحادي عشر - ابتداء القرن العاشر
			القرن الحادي عشر - القرن السابع
		سلالة التشار (١٠٢٧ - ٢٥٦) الانتاج (?) الادبي الاول	١٠٢٧
			٩٦٦(?) - ٩٥٩(?)
			بعد ٩٣٥ (?)
			من القرن التاسع - القرن السابع

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والأناتول
٩٠٠ -- ٧٠٠				
حوالي ٨٠٠				
القرن الثامن				نبوءات عاقوس راشع
٧٧٦				
٧٧١				
منتصف القرن الثامن - آخر القرن السادس				
النصف الثاني من القرن الثامن				
٧٤٧		اعتماد الحلقة المكونة من ١٩ عاماً للتقويم البابلي		
٧٢١ - ٧٠٥		حكم سرجون الثاني الاشوري		
٧١٥			ابتداء الملكية المادية	
٧١٠				سرجون الثاني الاشوري يقضي على دولة المبرانيين
آخر القرن الثامن				
القرن السابع				التنافس بين المصريين والبابليين في فلسطين ، نبوءات ارميا .

العالم الايبيري والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
الأواني الخزفية الهندسية			٩٠٠ - ٧٠٠
	امتداد العنصر الآري نحو الغانج. الاولينشاد الأساسية		حوالي ٨٠٠
			القرن الثامن
بدء جدول المنتصرين في الالهاب الارلمية			٧٧٦
		سقوط عاصمة التشار بيد برايرة الغرب . تأليف تقويم الربيع والخريف : بين ٧٧٢ و ٤٨١	٧٧١
الاستعمار اليوناني . تأسيس كوم في كماليا (٧٥٠) وسرقسطة (٧٣٣) وترث (٧٠٨) وبيزنطية (٦٦٠) ومرسيليا (٦٠٠) ونكراتيس (بعد ٥٦٩ بقليل)			منتصف القرن الثامن - آخر القرن السادس
قصائد هوميروسية			النصف الثاني من القرن الثامن
			٧٤٧
			٧٣١ - ٧٠٥
			٧١٥
			٧١٠
			آخر القرن الثامن
هيود			القرن السابع
أدوات الفخسار ذات الطابع الشرقي. ابتداء النقد في اليونان			

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٦٨٥ ؟				ايام جيفس ، حكم سلالة المرمناد في ليديا . ظهور التقودغري آسيا الصغرى
٦٧١	اسرحدون الاشوري يخضع مصر السفلى			
٦٦٥	اشوربانيبال يخضع مصر العليا			
٦٦٨ - ٦٢٦		حكم اشوربانيبال		
٦٦٣ - ٦٢٥	السلالة السادسة والعشرون الصائبة			
٦٤١			اشوربانيبال يستولي على سوزة ويدسرها	
٦٢٦ - ٥٣٩		المملكة البابلية الجديدة		
٦٢١				اصلاح عزيا الديني في مملكة يهوذا ركا تقول التوراة نشر سفر تثنية الاشراع
٦١٤		الماديون يدمرون اشور	تحالف الماديين والبابليين ضد الاشوريين	
٦١٢		دمار نينوى على يد الماديين والبابليين		
٦٠٥ - ٥٦٢		ملك نبوخذ نصر في بابل		
القرن السادس يبدأ القرن السابع				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
			٦٨٥ ؟
			٦٧١
			٦٦٥
			٦٦٨ - ٦٢٦
			٦٦٣ - ٦٢٥
			٦٤١
			٦٣٦ - ٥٣٩
(?) قوانين دراغون في اثينا			٦٢١
			٦١٤
			٦١٢
سافو والسبي			نهاية القرن السابع وبدء القرن السادس
			٦٠٥ - ٥٦٢
	التوسع الآري نحو الشرق والجنوب ، زعامة مقدما		القرن السادس

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٥٩٧				استيلاء نبوخذ نصر على اورشليم
٥٩٤ (?)				
٥٨٨				دمار الهيكل . « سي بابل » ونبوذة حزقيال
٥٨٥				الحرب ثم التحالف بين الماديين والليديين
٥٦٦				
٥٦١ (?) - ٥١٠				
٥٦٠ - ٥٤٦ (?)				حكم كرسوس في ليديا
٥٥٩ (?) - ٥٣٠			كوروش ملك الفرس	
٥٥٩				
٥٥٥ تقريباً (?)				
حوالي ٥٥٣ (?)				
٥٥١ (?)				
التصف الثاني من القرن السادس				
٥٤٩ - ٣٣٠			العمد الفارسي	
٥٤٩			إخضاع كورش لملكة الماديين	

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
			٥٩٢
قوانين صولون في اثينا			٥٩٤ (?)
			٥٨٨
٢٨ ايار : الكرف الذي ثبأ به تاليس			٥٨٥
تأسيس اعياد بانثينا الكبرى			٥٦٦
حكم الظالم يستمرات وارلاده في اثينا			٥٦١ (?) - ٥١٠
			٥٦٠ - ٥٤٦ (?)
	حكم كورش ، قاهر كيشا « كابل »		٥٥٩ (?) - ٥٣٠
	ميلاد بوذا		٥٥٩
هيكل ارقيس في افسس			٥٥٥ تقريباً
	ابتداء حكم يميمبارا		حوالي ٥٥٣ (?)
		ميلاد كونفوشيوس	٥٥١ (?)
زرال عز الآلية الفخارية الكورنثية بعد خضوع آسيا الصغرى للفرس . هجرة رجال الفن والادب « كسوفان » نحو اوروبا			القرن السادس الغربي الثاني من
			٥٤٩ - ٣٣٠
			٥٤٩

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٥٤٦ (?)			استيلاء كورش على آسيا الصغرى	
٥٤٠ (?)				
٥٣٩ - ٣٣١		السيادة الفارسية		
٥٣٩		كورش يستولي على بابل		انتهاء سبي بابل
٥٣٤				
٥٣٢ - ٥٢٢				
حوالي ٥٣٠			سنة ٥٣٠ موت كورش أثناء حملة في الشمال الشرقي من ايران	
٥٣٠ - ٥٢٢			حكم قمبيز	
٥٢٥ - ٣٣٢	الحكم الفارسي			
٥٢٥	خضوع مصر لملك الفرس قمبيز			
٥٢٢ - ٤٨٦			حكم الملك داريوس الاول	
٥١٩ - ٥١٨	داريوس الاول في مصر. اصلاح القناة ما بين النيل والبحر الاحمر			
٥١٨			نقوش بيستون	
٥٠٧				
آخر القرن السادس - بدء القرن الخامس			عملا بأوامر داريوس رحلة سكيلكس	

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
	ولادة جينا مؤسس الديانة الجانية		٥٤٦ (?)
			٥٤٠ (?)
			٥٣٩ - ٣٣١
			٥٣٩
اول سباق دمري باثينا في اعياد ديونيسوس			٥٣٤
طغيان بوليكرات في ساموس . ذهاب بيتاغور الى ايطاليا الجنوبية			٥٣٢ - ٥٢٢
الاراني الارلى ذات الوجه الاحمر . توسيع هيكل ميكاومبيدون في اثينا			حوالي ٥٣٠
			٥٣٠ - ٥٢٢
			٥٢٥ - ٣٣٢
			٥٢٥
			٥٢٢ - ٤٨٦
			٥١٩ - ٥١٨
	انتصارات داروس في شمالي الهند		٥١٨
قوانين كليستين في اثينا			٥٠٧
نشاط هر كلت الادبي وهيكته الميلي . تمثيليات اشيل الاولى . قصائد بندار الاولى			آخر القرن السادس - بدء القرن الخامس

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٤٩٠				
٤٨٦ - ٤٦٥	ابتداء من سنة ٤٨٦ ثورة مصر على الفرس		ملك كسرخوس الاول	
حوالي ٤٩١ او ٤٨٦ (?)				
٤٨٣				
٤٨١				
٤٨٠				
٤٧٩				
٤٧٨ (?)				
٤٧٧				
٤٧٤				
حوالي ٤٧٠				
٤٦٨				
٤٦٣				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
الحرب السادسة الاولى . هزيمة الفرس في مراون			٤٩٠
			٤٨٦ - ٤٦٥
	بدء حكم اجاثشتر		حوالي ٤٩١ او ٤٨٦ (?)
ثينا تبتدي ببناء اسطول حربي عظيم			٤٨٣
		الممالك التجارية (٤٨١-٢٢١)	٤٨١
الحرب المادية الثانية . انكار الفرس في سلامين . وفي هذا اليوم انتصار حاكم مرسطة على القرطاجيين في ميار		حياة الفيلسوف مودسو (سنة ٤٨٠ - ٤٠٠) تقريباً	٤٨٠
معركة بلاتيه التي تطرد الفرس من اليونان . معركة ميكال التي تحرر يوناني آسيا من حكم الفرس		موت كونفوشيوس (?)	٤٧٩
	موت (نرقانا) بوذا		٤٧٨ (?)
تأسيس حلف ديلوس الذي ينفذ مستعمرة لاينا بسبب الحرب ضد الفرس ثم ضد سبرطة			٤٧٧
انتصار حاكم مرسطة على الأتروسك في كورم			٤٧٤
مولد سقراط			حوالي ٤٧٠
تفوق سوفوكل على اشيكل في المسرح التمثيلي	موت جينا (?)		٤٦٨
اصلاحات افنالت الديموقراطية في اثينا . باغتيال افنالت بعد مدة وجيزة يصبح بركليس زعيم الحركة الديموقراطية . بدء حرب اثينا ضد سبرطة			٤٦٣

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و ایران (بلاد سوزة)	بلاد كتمان وسوريا والاناضول
حوالي ٤٦٠				
٤٥٦				
٤٥١				
بعد ٤٥٠ بقليل				
٤٤٨				
٤٧٤				
٤٤٦ (?)				
٤٤٣				
٤٤٠				
٤٣١				
٤٢٩				
٤٢٧				
٤٢٣				
٤٢١ - ٤١٣				
٤١٥ - ٤١٣				
٤٠٦				
٤٠٠ - ٣٦٧				

العالم الایجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
تأسيس المسابقات التمثيلية الهزلية في اثينا			حوالي ٤٦٠
اولى مسرحيات اوربيدوس			٤٥٦
قانون حقوق المواطن في اثينا			٤٥١
الصلح بين اثينا والفرس ثم بينها وبين سبرطة			بعد ٤٥٠ بقليل
تمثال زفس بيد فيدياس في اولبيا			٤٤٨
بدء اعمال الاكربول في اثينا . تشييد البارثونون (٤٤٧ - ٤٣٨) والاركتيون (٤٣٥ - ٤٠٧) و هيكل اثينا المنتصرة (بدء الاعمال به سنة ٤٢٠)			٤٧٤
هيرودوتس يقيم في اثينا			٤٤٦ (?)
بعد نفى زعم المعارضة ، بركليس يتصرف بضرائب الامبراطورية لإقامة الاعمال العظيمة التي يشر بها ويفقد سيد اثينا . ويماد انتخابه زعيماً لمدة ١٤ سنة دون انقطاع			٤٤٣
بدء حروب البلبونيز بين اثينا وسبرطة وخلفاء كل منها		انقضاء التشار	٤٤٠
موت بركليس			٤٣١
مسرحية ارستوفان الهزلية الاولى . اقامة الاديب غورجياس في اثينا			٤٢٩
نفى توسيديد الذي يقيم في تراقيا وينهي فيها تأليف كتابه تاريخ حروب البلبونيز			٤٢٧
توقف القتال رسمياً بين اثينا وسبرطة			٤٢٣
غزوة اثينا لصقلية التي تنتهي بانكسارها امام سرقسطة			٤٢١ - ٤١٣
موت سوفوكل واوريبيدوس			٤١٥ - ٤١٣
طغيان درنيس القديم في سرقسطة وهو بحالة حرب مع قرطاجة . افلاطون يسافر راراً الى سرقسطة			٤٠٦
			٤٠٥ - ٣٦٧

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران بلاد (سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٤٠٤				
٤٠٤ - ٣٧١				
٤٠٤ - ٤٠٣				
انتهاء القرن الخامس وبدء القرن الرابع			كتيسياس اليوناني طبيب في بلاط فارس	
أثناء القرن الرابع				ثورات المرازية المتعددة ضد ملك الفرس في آسيا الصغرى وفي سوريا
٤٠١ - ٤٠٠		غزوة الشرة آلاف		
٣٩٩				
٣٩٤				
٣٨٧				
٣٨٠				
٣٧٧ - ٣٥٣				موت مؤزل سكرزبان كارية. بعد موته تشييد قبره في هلكراس
٣٧٧				
٣٧١				
٣٦٧		تقرير التكوين البابلي		
٣٥٩				
٣٥٤				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
بعد انكسار اغوس بوتوس زوال امبراطورية اثينا واستسلام اثينا			٤٠٤
سيادة سبرطة في اليونان			٣٧١ - ٤٠٤
ارليغرشية الثلاثين ثم اعادة الديمقراطية الى اثينا			٤٠٣ - ٤٠٤
	كتاب القواعد باني		انتهاء القرن الخامس وبدء القرن الرابع
	بدء تنظيم سباهاراتا		أثناء القرن الرابع
			٤٠١ - ٤٠٠
محاكمة وموت سقراط			٣٩٩
سبرطة تتخلل عن يوناني آسيا فيخضعون للفرس			٣٩٤
تأسيس الاكاديمية على يد افلاطون			٣٨٧
تأبين ايزوكرات			٣٨٠
			٣٧٧ - ٣٥٣
تأسيس الحلف الاتيني الثاني			٣٧٧
انكسار جيش سبرطة في لوكترا على يد ابيمينونداس الذي يبعث حتى سنة ٣٦٢ السيادة في اليونان لطيبة			٣٧١
			٣٦٧
بدء حكم فيليبس في مقدونيا . نشوب الحرب مع اثينا (وبعد هدنة من ٣٤٦ - ٣٤٠) التي ستدوم حتى ٣٣٨			٣٥٩
اول دفاع لديوستينوس أمام مجلس الشعب في اثينا			٣٥٤

بلاد كنعان وسوريا والأناتول	بلاد عيلام وإيران (بلاد سوزه)	بلاد ما بين النهرين	مصر	التواريخ
				حوالي ٣٥٠ ٣٤٣ ٣٣٨ ٣٣٦
سنة ٣٣٤ - ٣٣٣ نزول ذي القرنين الى آسيا الصغرى . انتصاره على الفرانيين، خادثة المقدنة الغوردية . بعد انتصاره في إسوس في كيليكيا يعود الى سوريا . ٣٣٣ - ٣٣٢ الاسكندر يحاصر صور ويستولي عليها .	سنة ٣٣١ يستولي ذو القرنين على سوزه وبرسبوليس وبسرغاد واكبتان . سنة ٣٣٠ موت داريوس الثالث . سنة ٣٣٠ - ٣٢٦ غزوة ذي القرنين لإيران	سنة ٣٣١ - ١٢٩ السيادة اليونانية . سنة ٣٣١ انتصار ذي القرنين على داريوس الثالث في أربيل . دخول ذي القرنين الى بابل	سنة ٣٣٢ - ٣٣٠ الدور اليوناني . سنة ٣٣٢ وصول ذي القرنين الى مصر . سنة ٣٣١ تأسيس الاسكندرية	٣٣٤ - ٣٢٣
	يخترق ذو القرنين إيران الجنوبية من الشرق الى الغرب . أمير بحريته نبارك يبحر بحر الهندوس على الخليج الفارسي			٣٢٥
	حفلة الزواج في سوزه			٣٢٤
بعد سنة ٣٢٣ صراع قواد ذي القرنين		موت ذي القرنين في بابل	بطليموس حاكم مصر	٣٢٣
				حوالي ٣٢٢
				٣٢١
		سلوقس حاكم بابل		٣١٣ - ٣١٢ (?)
				٣١٠
	استيلاء سلوقس على إيران . إبرامه تحالفاً مع الملك الهندي شندراغوبتا			٣١٠ - ٣٠٦

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
ارسطو يصبح معلم الاسكندر الذي بلغ الثالثة عشرة انتصار فيلبس في كرونيه اغتيال فيلبس ، بدء حكم الاسكندر		حياة ملشيوس (مونج - تسير)	حوالي ٣٥٠ ٣٤٣ ٣٣٨ ٣٣٦ ٣٣٤ - ٣٣٣ سنة ٣٣٤ . ارسطو يستقر في اثينا ويلتقى الأكاديمية
	سنة ٣٢٦ - ٣٢٥ غزوة ذي القرنين حتى خفاف الهندوس		٣٢٥
			٣٢٤
سنة ٣٢٣ - ٣٢٢ بعد موت ذي القرنين ثورة اليونان على مقدونيا . قم الثورة . ديموستينوس يخرج السم			٣٢٣
	سلالة الموريا (٣٢٢ - ١٧٦)		حوالي ٣٢٢
اول تمثيلية عزلية لميناندر			٣٢١
	بدء حكم شندراغوبتا		٣١٣ - ٣١٢ (?)
		بدء تأسيس مملكة تسين	٣١٠
			٣١٠ - ٣٠٦

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وإيران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاتناضول
٣٠٦	يتخذ بطليموس لقب الملك	سوقس يتخذ لقب ملك		
٣٠١				اتفاق يترك سوريا الجنوبية (سوريا الجوفية) الى بطليموس الاول ملك مصر
نهاية القرن الرابع وبدء القرن الثالث	تأسيس متحف ومكتبة الاسكندرية . مالتون الكاهن المصري يكتب تاريخ مصر الفرعونية ويحدد تعاقب السلالات	الكاهن العكداني بيروسوس يولف تاريخ بلاد ما بين النهرين		يولد بطليموس الاول وابنه بطليموس الثاني حكمهما المباشر او حمايتها على جميع شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والغربية
٣٠٠ - ٢٣٠				
٢٨٧ - ٢١٢				
٢٨٥ (?) - ٢٤٦	حكم بطليموس الثاني . في بدء عهد هذا الحكم تشيد منارة الاسكندرية على يد المهندس سوتراتوس			
٢٨١				سوقس الاول يخضع معظم أجزاء آسيا الصغرى ولكن السلطة على برغام تبقى الى الملك الاول الانتيدي
٢٧٩ - ٢٧٨				
حوالي ٢٧٥				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
			٣٠٦
			٣٠١
في أواخر القرن الرابع يتخذ بعض قواد الاسكندر لقب ملك . ازدهار رودس الاقتصادي وهي من سنة ٣٠٥ الى سنة ٣٠٤ . تدافع ضد حصار سرير . يؤسس ابيكوروس وزيتون مدرستها في اثينا . في بدء القرن الثالث يسيطر بطليموس الاول على بحر ايجيه			نهاية القرن الرابع وبدء القرن الثالث
	سفارة مينستين في باتلبورا (حوالي سنة ٣٠٠)	سيون كوانغ	٣٠٠ - ٢٣٠
حياة ارخميدس			٢٨٧ - ٢١٢
			٢٨٥ (?) - ٢٤٦
			٢٨١
غزو السلتيين لمقدونيا حتى دلف . تثبيت العالم الهليني مع الممالك الثلاث : اللاتيون في مصر والسلاوقيون في آسيا والانتيفونيد في مقدونيا . يحكم برغام ملك اتيدي . وفي اليونان يتقوى الحلف الايتولي . أما الحلف الآخي الذي ألف منذ زمن قصير ، ينتدى بالازدهار في البلونيز			٢٧٩ - ٢٧٨ حوالي ٢٧٥

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران	بلاد كنعان وسوريا والاناطول
٢٧٥ - ١٩٤				تتجزأ مملكة السالوقيين في آسيا الصغرى حيث يستقر الغلاطيون وحيث يفوز بالاستقلال الشام ملوك بيلينيا وكتبادوكيا والبطرس وبرغام . وفي هذه المدينة يتخذ اقلوس الاول لقب ملك حوالي سنة ٢٤٠ . وبعد حروب طويلة «حروب سوريا» يميز الملوك السالوقيون عن استرجاع سوريا الجوفية من ملوك مصر اللاجيين
٢٦٤ - ٢٦١ (?)				
٢٥٩				
٢٥٠ (?)			ابتداء من سنة ٢٥٠ بدء حكم سلالة البرثيين الارمانيين	
٢٤٦				
حوالي ٢٤٥				
٢٢٧ - ٢٢٦ (?)				
٢٢٣				ملك انطيوخس الثالث الذي سيعيد عز السالوقيين في آسيا الصغرى ويستولي على سوريا الجوفية منتصراً على بطليموس الخامس ويفقد هذا الاخير آخر المعاقل المصرية في آسيا الصغرى
٢٢٢				
٢٢١				
٢١٣				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
حياة اروتستين			٢٧٥ - ١٩٤
	بدء تقرير الرامايانا	تأليف تاو - توكنغ، مؤلف يمت الى الحرافقة	القرن الثالث
	استيلاء اشوكا على العرش		٣٦٤ - ٢٦١ (?)
		مولد تشنغ (الذي سيصبح تسن - شه - هوانغ - ني)	٢٥٩
	اعتناق اشوكا البوذية . تصبح البهكتران مستقلة مع اليوناني ديدوت الاول		٢٥٠ (?)
		بدء حكم تسن - شه - هوانغ - ني (٢٤٦ - ٢١٠). البدء ببناء السور الكبير	٢٤٦
	تأسيس الكنيسة البوذية في سيلان		حوالي ٢٤٥
سنة ٢٢٧ اصلاحات الملك كليومين في سبرطة	موت اشوكا		٢٢٧ - ٢٢٦ (?)
آخر القرن الثالث : انحطاط السلطة الالاجية التي لن يحجب لها حساب في اليونان وبحر ايجه			٢٢٣
			٢٢٢
الملك المقدوني إسحق كليومين في سلاويا		سلالة التسن (٢٢١ - ٢٠٧)	٢٢١
		حرق الكتب الكلاسيكية	٢١٣

بلد كنعان وسوريا والناضول	بلد عيلام وإيران (بلاد سوزة)	بلد ما بين النهرين	مصر	التواريخ
	غزوة انطيوخس الثالث الى الشرق			٢١٢ - ٢٠٥
				٢٠٦
				٢٠٧ - ١٩٢
			نقل التوراة المصرية الى اليونانية في الاسكندرية	انتهاء القرن الثالث وبدء القرن الثاني
				القرن الثاني
				٢٠٠ - ١٩٦
				النصف الأول من القرن الثاني
				١٩٢ - ١٩٨
سنة ١٨٩ الرومان يقتصدرون على انطيوخس الثالث في مفتزيا . معاهدة إبامه (١٨٨) تفقد السلوقيين آسيا الصفرى ويمود قسمها الأكبر الى اللاتينية				١٨٩
				١٨٧
	موت انطيوخس الثالث في غربي إيران سنة ١٨٧ . انتهاء السيادة السلوقية على إيران . استقرار البرانيين واستقلال مملكة بكتريان اليونانية			١٧٦
قبل سنة ١٧٦ بقليل يسمى هليودور ، وزير ساقس الرابع للاستيلاء على كنول هيكمل اورشليم				

العالم الايجي والعالم اليوناني	المهند	الصين	التواريخ
الحرب المقدونية الاولى بين روما وفيلبس الخامس. تمعد روما معاهدات مع العالم اليوناني وترسل سفنًا الى بحر ايجه			٢١٢ - ٢٠٥
		سلالة الهان (٢٠٦ ق.م - ٢٢٠ بعده)	٢٠٦
حكومة نابيس الثورية في سبرطة			٢٠٧ - ١٩٢
	قوانين بالي . اول ذكر لطريق الحرير	قوانين شه - كينغ	القرن الثاني
حرب مقدونيا الثانية. انتصار فلبيوس الروماني على فيلبس الخامس في كنفاليس (١٩٧) . السلم يطرد مقدونيا من اليونان			٢٠٠ - ١٩٦
بناء مذبح زفس العظيم في برغام			النصف الأول من القرن الثاني
الحروب السورية الانتليسيدية . روما تقتصر على انطاكيوس الثالث في ترموبيل (١٩٢) وتبسط نفوذها على الحلف الاقوي. سلطة الحلف الاخي على جميع أجزاء الباليونيز وذلك بمساعدة روما			١٩٢ - ١٩٨
	غزوة ديتريوس للبنجاب		١٨٩
			١٨٧
	بدء حكم شفا (١٧٦ - ١٦٤)		١٧٦

بلد كنعان وسوريا والافاضول	بلد ما بين النهرين	بلد عيلام وايران (بلاد موزة)	مصر	التواريخ
				١٧٢ - ١٦٨
حكم انطيوخس الرابع				١٧٤ - ١٦٤
انطيوخس الرابع يتبع سياسة هيلينية في فلسطين ، ثورة المكابيين				١٦٩
				١٦٨
				١٦٧
				بعد ١٦٤
الانحطاط والفوضى المتزايدتان في المملكة السلوقية أثر صراع السلالات الحاكمة ، وتقدم البرثيين وانتصارات اليهود الذين تمضدوم روما سياسياً				١٤٨
				١٤٦
				١٤٥
				١٤٠
موت أنطونس الثالث الذي يهب كنوزة الى الشعب الروماني				١٣٣
				حوالي ١٣٠

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
الحرب المقدونية الثالثة تشنها روما على الملك برسيه سنة ١٦٨ بول - اميل يسحق برسيه في يديه	اوكراتيدس ينتزع بكتريانا من ديتريوس		١٧٢ - ١٦٨
			١٧٤ - ١٦٤
			١٦٩
	ميناندر في البنجاب (مات حوالي سنة ١٥٠ - ١٤٥) .		١٦٨
	تصل غزواته الى بانلبترا		١٦٧
القضاء على مملكة مقدونيا . الرومان ينزلون باليونان عقوبات صارمة . نفي بوليب وآخرين الى إيطاليا . تمطي ديولس الى اثينا ولكنها تبقى ميناء حراً . ازدهار ديولس الاقتصادي التي تصبح سوق التجارة الإيطالية في الشرق			بعد ١٦٤
بعد القضاء على ثورة قامت في مقدونيا اخضاع البلاد وجعلها مقاطعة ورمانية . يراقب حاكمها بلاد اليونان			١٤٨
بعد حرب قصيرة مع الحلف الآسي يدمر الرومان كوروثيا			١٤٦
		حياة المؤرخ مه مانتس (١٤٥ - ٨٦)	١٤٥
		حكم دو (١٤٠ - ٨٧) اتساع الفتوحات نحو تركستان الصينية	١٤٠
			١٣٣
	يصل اليو - تشه الى بكتريان ويخضعونها		حوالي ١٣٠

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناطول
١٢٩		انقراض الحضارة السومرية: يستولي البرثيون على بابل بدلاً من اليونان		
١٢٦				بعد ان سحقت روما ثورة ارستونيكوس تأخذ على عاتقها تنظيم مقاطعة آسيا
حوالي ١١٤				
١١٢				ميتريدات ملك البنتس . سنة ١٠٧ يستولي على مملكة البوسفور البحرية (مضيق كرتش في القرم)
١٠٤				يأخذ كلامن اورشليم الاكبر ارستبولوس لقب ملك
حوالي ١٠٠				
القرن الأول				
٨٨				
٨٨ - ٦٤				من سنة ٨٨ - سنة ٨٤ حروب روما ضد ميتريدات
ابتداء من ٨٠				
٧٣				
٧٠				
٦٤				رومي في سوريا

العالم الايجي والعالم اليوناني	المند	الصين	التواريخ
			١٢٩
			١٣٦
		علاقات سياسية مع بكتريان	حوالي ١١٤
			١١٢
			١٠٤
	عمود هليودوروس في فيديشا		حوالي ١٠٠
	قوانين مانو		القرن الأول
تلبية لنداء ميتريدات هجرة الإيطاليين في آسيا الصغرى الغربية وديلوس			٨٨
حروب سيل في اليونان ضد جيوش ميتريدات . حصار ورك اثينا (٨٧ - ٨٥)			٨٨ - ٦٤
	هبط الشاكا نحو البنجاب ومالفا		ابتداء من ٨٠
		حكم سيونتي (٧٣-٤٩) فتوحات جديدة نحو الغرب	٧٣
	بدء حكم الاندرا في الجنوب. انهاء ستوبا سانشي الاولى		٧٠
	بدء حكم الكانفا (٦٤ - ٥٠؟)		٦٤

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام و إيران (بلاد سوزة)	بلاد كنعان وسوريا والاناطول
٦٣				استيلاء بومبي على اورشليم . بعيد بومبي تنظيم الشرق ، ويخلق مقاطعتي سوريا وبيتينيا الرومانيتين ، وينشئ على طول الفرات الوسط سلسلة من الدويلات التابعة ضد البرثيين
٥٣		ينتصر البرثيون على كرسوس في كار و يقتلونه		
٤٨	مقتل بومبي أمام بلوزة ، وصول قيصر الى الاسكندرية . بدء حروب الاسكندرية التي تتحرق في اثنا عشر مكتبة الاسكندرية			
٤٧	موت بطليموس الرابع عشر شقيقين كليوباتره			
٤٢				
٣١				
٣٠	موت كليوباتره . مصر تصبح رومانية			

العالم الالبي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
			٦٣
			٥٣
			٤٨
			٤٧
انتصار الطونينوس واغسطس على الجمهوريين في فيليبس في مقدونيا			٤٢
انتصار اغسطس على انطونيوس وكليوباتره في اكيوم في الابين			٣١
	حوالي سنة ٣٠ بدء حكم الكوشان في الشمال		٣٠

جدول الاعلام

- ١ -

١١٤ ، ١٣١ ، ٢٦٩ .	ابراهيم : ١٤٨ ، ١٦٦ .
واتيس : ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٤٩٣ .	ابساراس : ٥٦٩ .
اتيك : ٣٣٥ ، ٣٧٧ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ،	ابيرا : ٦٢٤ .
٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ٣٦٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩ ،	ابقراط : ٢٣٠ ، ٣٨٩ ، ٥٤٠ .
٤٠٧ ، ٤٠٨ .	ابن خلدون : ١١ ، ١٢ .
أثينا (الإلهة) : ٣٦٠ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ،	أبو سنبل : ١١٨ .
٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٩٤ .	ابولوت : ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢٣٤ ، ٢٩٤ ،
أثينا - الاثينيون : ٢٤٠ ، ٢٤٨ ، ٢٦٢ ،	٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ،
٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،	٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٧١ ، ٣٨٧ ، ٤١٧ ، ٤٤٧ ،
٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،	٤٧٣ ، ٤٨٩ ، ٤٩٨ .
٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ،	ابولونيد : ٢٣٠ .
٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،	ابولونيوس : ٥١٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ .
٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ،	ابيخارموس : ٣٩٦ ، ٣٩٨ .
٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ،	ايدوس : ١٠٤ ، ١٠٧ .
٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ،	ايدورس : ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٨ ، ٤٩٣ .
٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ،	اير : ٤١٤ ، ٤٤٧ ، ٥٢٣ ، ٦١٠ .
٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ،	ايس : ٨٧ ، ٨٨ ، ٤٩٥ .
٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ،	ايفور : ٣٨٥ ، ٥٣١ ، ٥٣٣ .
٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٨ ،	ايبيل : ٣٧٨ ، ٥٠٧ .
٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ،	ايبيل - ايل : ١٩٥ .
٤١١ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ،	اكارغاتيس : ٢٦٤ .
٤٦٥ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ،	اتوريا الاتروسكيون : ٢٠٧ ، ٣٠٧ ، ٣١٣ ،
٤٩٨ ، ٥٠٣ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ،	٣٣٠ .
٥١٠ ، ٥١٣ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢١ ،	اتان : ٥٦٩ .
٥٢٤ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٦ .	اقوم : ٩٤ .
اثيوبية - الاثيوبيون : ٣٩ ، ٢٢٧ .	اقون : ٥٠ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١١ ،
اجاثترو : ٥٥٤ .	

ارغوس : ٢٣٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٨٥ ،
 ٢٩٦ ، ٣٠٥ ، ٣٩٦ ، ٤٥٣ .
 ارغوليد : ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ،
 ٣٧١ ، ٣٨٨ ، ٣٩٦ ، ٤٩٣ .
 ارميا : ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ .
 ارميتاج : ٣٨٠ .
 ارمينيا : ١٥٧ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢٧٧ ، ٥٣٩ ،
 ارقبوسا : ٣٨١ .
 اريدو : ١٦٧ .
 اريستيبوس : ٣٨٥ .
 اريستيدس : ٢٩٢ .
 اريتا : ٢٠٦ .

آريون : ٢١٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ،
 ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٦١ ، ٥٦٦ ،
 ٥٦٨ .
 اسانا : ٥٤٨ .
 اسباسيا : ٣٣٨ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ .
 اسبانيا : ٢٥٩ ، ٣١٣ .
 استير : ٢١٩ .
 اسرائيل : ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ،
 ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ .
 اسرائيل (ملكة) : ٢٦٧ ، ٢٧١ .
 اشيل : ٣١١ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ .
 اشين : ٤٠١ .
 اسكليبيوس : ٣٧١ ، ٣٨٨ ، ٤٩٣ ،
 ٤٩٥ ، ٥١٧ ، ٥٣٠ .

الاسكندر الكبير : ٢٩ ، ٣٠ ، ٦٩ ،
 ٧١ ، ١٢٦ ، ١٣٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ،
 ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ،
 ٢٣٠ ، ٢٥٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ،
 ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ،
 ٣٥٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٥ ، ٣٩٧ ،
 ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤١٢ ،
 ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ،
 ٤٣٠ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ .

اخشويروش : ٢١١ ، ٢١٦ ، ٢٣٠ .
 اهيرام : ٢٦٠ ، ٢٦١ .
 اختاتون : ٩٨ .
 الاخينيون : ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٦٤ ، ٢٧٩ ، ٤٨١ ، ٤٨٧ ،
 ٦٠٧ .
 اختاتون : ٥٠ ، ٦٥ ، ٧٩ ، ٩٦ ، ٩٨ ،
 ٩٩ ، ١١١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٨ .
 الاخيمون : ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٥٢ ،
 ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٤٠٩ .
 ادفو : ٨٩ ، ٤٨٦ .
 ادونيس : ١٦١ ، ٢٠٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ،
 ٣٦٦ .
 اراتاكسا : ٥٣٩ .
 اراتوس : ٥٢٣ ، ٥٣٦ .
 الاراميون : ١٥٨ ، ١٧٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ،
 ٢٦٤ .
 اربيل : ١٦٦ .
 اوتحششتا : ٢٢١ .
 اوتيس : ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٤٨٩ .
 ارجينوز (جزر) : ٣٦٢ .
 ارجيه (جبل) : ١٥٨ .
 ارخميدس : ٥١٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣٠ .
 ارخيتاس : ٣٨٨ .
 الاردن : ٢٦٦ .
 ارزو : ٦٠٦ .
 الارساسيون : ٤٠٥ ، ٤٧٧ .
 ارسطارخوس : ٥٢٠ ، ٥٢٩ ، ٥٣٢ .
 ارسطو : ٣٢٣ ، ٣٣٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ،
 ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٤٠٤ ، ٤١٠ ، ٤٩٢ ، ٥١٧ ،
 ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٣٠ ،
 ٥٣١ ، ٥٣٢ .
 ارسطوبولوس : ٤٨٨ .
 ارسطوفانوس : ٣٤٤ ، ٤٥٣ ، ٣٥٧ ،
 ٣٥٩ ، ٣٨٣ ، ٣٩٧ ، ٥٣٩ .
 ارسينوي : ٤١٩ ، ٥١٤ ، ٥٣٧ .

٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ،
٥٠٨ ، ٥١٢ ، ٥٢٩ ، ٥٤٢ .

الاسانيون : ٤٧١ .

اسين : ١٥١ .

اشنار : ١٤٠ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٨٤ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ .

اشعيا : ٢٧٣ ، ٢٧٥ .

اشنونا : ١٥١ ، ١٧٩ ، ١٩٠ .

اشور : ٤٠ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٤ .

١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،

١٧٥ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ، ٢٦٤ ،

٢٦٨ .

اشوربانيبال : ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ،

١٦٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٩٧ .

اشورناسيربيلي : ١٤٠ .

اشورية - الاشوريون : ٣٩ ، ١٣٧ ،

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ،

١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،

١٨٧ ، ١٩٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٨ ،

٢٦٢ ، ٢٦٣ .

اشوكا : ٥١١ ، ٥٥٠ ، ٦٠٥ ، ٦٠٧ ،

٦٠٨ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦٢١ ، ٦٢٣ ،

٦٢٧ ، ٦٣٠ .

اشيل : ٢٩٩ .

اطال : ٤١٣ ، ٥٠٦ .

الاطاليون : ٤١٣ ، ٤٢٤ ، ٤٣١ ،

٤٥٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٧٩ ، ٤٩٠ ، ٥٠٥ ،

٥١٦ ، ٥١٩ ، ٥٣٢ .

اغاجنون : ٢٤٨ ، ٣٩٦ .

الاغريق : ١٥ ، ٤٠ ، ٥٢ ، ٦٣ ، ٧٢ ،

٧٤ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٩٤ ، ١١١ ، ١٢١ ، ١٢٦ ،

١٢٧ ، ١٣٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ،

٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ،

٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ،

٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،

٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،

٤٤١ ، ٤٤٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ،

٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٧ ، ٤٧٩ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ،

٤٨٦ ، ٤٩١ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥٠٣ ،

٥٠٤ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ،

٥١٤ ، ٥١٣ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣٣ ، ٥٤٢ ،

٥٥٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦١٠ ،

الاسكندرية - الاسكندريون : ٤٥ ،

٧١ ، ٢٥٨ ، ٣٥١ ، ٤١٧ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ ،

٤٣٠ ، ٤٤٢ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦٦ ،

٤٦٧ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٨٤ ، ٤٨٩ ،

٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٩ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٦ ،

٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ،

٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ،

٥٣٠ ، ٥٣٨ .

الاسكندرية خاركس : ٤٦١ .

اسوان : ٥٢٨ .

اسورا : ٥٦٩ ، ٦٢٤ .

آسيا : ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٥٠ ، ٦١ ،

٨١ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ١٧٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ،

٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧٩ ،

٢٨٦ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٣٦ ،

٣٤٥ ، ٣٥٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٧ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ،

٤٤٥ ، ٤٥١ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٢ ، ٤٧٠ ،

٤٧٣ ، ٤٧٥ ، ٤٧٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٦ ،

٤٩١ ، ٤٩٦ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥١٥ ،

٥٣٣ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٥٢ ، ٥٥٩ ،

٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١١ ،

٦٦٥ ، ٦٢٧ ، ٦٣٢ .

آسيا الصغرى : ٢٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،

١٧٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،

٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٢ ، ٢٣٧ ،

٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،

٢٧٩ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٠٠ ،

٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣٧٢ ، ٣٨٩ ، ٤٠٨ ،

٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٣٦ ،

٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٧٠ ،

٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٤٠٠ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٣٣ .
 اقيونس : ٤٣٠ .
 افييروس : ٤٩٢ ، ٥٣٦ .
 الاقصر : ١١٥ .
 أكتاد (اغاده) الاكتاديون : ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٦٢ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ٢٢٠ .
 اكاديموس : ٣٨٥ .
 اكيتا : ٢٢٠ ، ٤٨٦ ، ٦١٢ .
 اكي : ٣٥٤ ، ٣٥٥ .
 اللثاني : ٢٥ ، ٦٣١ .
 ألتيس : ٣٧١ ، ٣٧٣ .
 السه (القيا) : ١٤٥ ، ٢٨٨ ، ٣٠٠ .
 الفيس : ٢٩٧ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٣٩٥ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ .
 القبيادس : ٢٦٢ ، ٣٦٣ ، ٤١٢ .
 القينودس : ٣٥٧ .
 الكيمان : ٢١٢ .
 الاياذة : ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٩٩ .
 اليان يعل : ٢٦٠ .
 امازون : ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٥٠٦ .
 اماوس : ٢٦٢ .
 امبراسيا : ٥٠٣ .
 امبيندوكليس : ٣٨٢ .
 اخوتب : ٩١ .
 امنحوتب : ٩١ ، ٥٣٠ .
 امنمحت : ٩٥ .
 امنوفيس : الثاني ١٢٠ — الثالث ٦٤ ، ٩١ ، ٩٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ — الرابع : ٥١ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٩ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١١١ ، ١٢٨ ، ٢٦٩ .
 امور : ١٣٧ .
 امون : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١٥ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ٣٦٦ .

٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٢ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠٠ ، ٥٠٦ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٥ ، ٥٢٠ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٤٢ .
 اغني : ٦٢٤ ، ٥٦٩ .
 اغيس : ٤٥٣ .
 افانتي : ٥٥٣ .
 افاميا : ٤٧١ .
 افتارا : ٦٢٤ .
 افيخيدياس : ٤٩٢ ، ٥٠٥ .
 افدوكس : ٣٨٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٧ .
 افروديت : ٢٩٤ ، ٣١٠ ، ٣٧٤ ، ٤٣١ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ .
 افريقيا : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٥٩ ، ٣٤٣ ، ٤٦٠ .
 اقستا : ٥٦٩ .
 افسس : ٣٠٣ ، ٤٢٨ ، ٤٦١ .
 افغانستان : ٢٢٣ ، ٥٠٨ ، ٦٠٦ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ .
 الافلاسيون : ٤٧٧ .
 افلاطون : ١٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ .

الاناضول : ٢٠٤ .

افاكساغور : ٣٨٢ ، ٣٨١ ، ٣٦١ ، ٣٨٨ .

افاكسيمندروس : ٣٠١ .

افاكسيمينوس : ٣٠١ .

اتام : ٦٣٢ ، ٦٣١ .

اتوم : ١٦٥ .

اتلياكيداس : ٦١١ .

اتيرودس : ٤٦٠ .

انتستين : ٣٨٧ .

انتيفون : ٣٩٦ .

انتفونوس : ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥٢٣ ، ٥٣٤ .

الاتفونيون : ٤١٣ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ .

اندرأ : ٥٦٩ ، ٦١٢ ، ٦٢٤ .

اندهرا : ٦٠٧ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ .

اندونيسيا : ٥٤٥ .

انطاكية : ٤٢٤ ، ٤٦١ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ .

٤٧٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٨ ، ٤٩٢ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ .

٥١٩ .

انطونيوس : ٥١٩ .

انطيوخوس : ٤١٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ .

٤٧١ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٦ ، ٤٨٨ ، ٥٠٩ .

٥١١ ، ٥١٠ .

انقره : ٢٠٩ .

انليل : ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٨٥ .

انيتا : ٢٠٧ ، ٢٢٥ .

اهورا : ٥٦٩ .

انو : ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .

انوبيس : ٤٩٥ .

اهريمان : ٢٢٥ .

اوبنيشاد : ٥٦٤ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٦٢٥ .

٦٢٦ .

اوبويه (جانين) : ١٢ .

اوبيا : ٢٨٦ ، ٥٢٤ .

أوده : ٥٥٣ ، ٥٥٤ .

الاولديسيه : ٧٠١ ، ١٧٥ ، ٢٩٩ .

اور : ١٣٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٧ .

١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ، ٢٦٤ .

اوروبا : ١٧ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ .

١٧٨ ، ١٨٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٤٣ .

٢٥٣ ، ٢٦٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٤٢٩ ، ٥٠٥ .

٥١٥ ، ٥٢٧ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٦٠٥ .

اورستس : ٣٩٥ .

اورشليم : ٢٢٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٤٣٣ ، ٤٨٨ .

اورغا : ٦٠٦ .

اورفيوس : ٢٩٧ .

اورموزد : ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

٢٢٧ ، ٢٢٨ .

اور - نامو : ١٧٩ .

اوروك : ١٣٧ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .

١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ٤٧٩ ، ٤٨٧ ، ٤٩٦ .

اوربييد : ٣١٤ ، ٣٤٢ ، ٣٥٧ ، ٣٩٦ .

٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٧٧ ، ٤٨٣ ، ٥٣٩ .

اوزريس : ٤٦ ، ٧٣ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ .

٩٤ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ .

١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ .

اوزورابيس : ٤٩٥ .

اوستاليا : ١٩ .

اوغاريت : ٢٤٢ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ .

٢٦٠ ، ٢٦١ .

اوغسطس : ١٨٩ ، ٥٣٦ .

اوفيد : ٥٣٦ .

اوقيانيا : ١٩ .

اوكرانيا : ٥٨٠ .

اوكتير (سيده) : ٣٠٦ .

اوكلينس : ٥٣٠ .

اوكون (نهر) : ٦٠٦ .

الاولب : ٤٨٩ .

اولبيا (مدينه) : ٢٩٦ ، ٣٠٨ .

٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٤٧ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٧١ .

٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٤٨٩ ، ٥٠٣ .

اولبيا (والده الاسكندر) : ٤١٩ .

ایطاک : ۲۵۳ .

ایطالیا : ۲۵۱ ، ۲۸۵ ، ۲۸۶ ، ۲۸۷ ، ۳۰۱ ، ۳۰۹ ، ۳۱۳ ، ۳۲۲ ، ۳۳۰ ، ۳۴۵ ، ۳۴۹ ، ۳۷۹ ، ۳۸۸ ، ۴۳۵ ، ۴۴۱ ، ۴۴۲ ، ۴۴۵ ، ۴۴۷ ، ۴۵۴ ، ۴۵۴ ، ۴۵۰ .

ایفوروس : ۳۹۲ .

ایفوسبولامی : ۳۴۶ .

ایفتو : ۵۰ .

ایل : ۲۶۰ ، ۲۶۴ .

ایلی : ۶۰۶ .

ایلیا (مدینه) : ۳۰۲ .

ایلیا (النبی) : ۲۷۳ .

ایلزید (حقول) : ۱۰۴ .

ایلیس : ۳۲۴ ، ۳۴۷ .

ایمار (اندریه) : ۱۲ ، ۱۳ .

ایونیة : ۲۱۳ ، ۲۲۷ ، ۲۸۶ ، ۲۸۷ ، ۲۹۴ ، ۲۹۸ ، ۳۰۰ ، ۳۰۶ ، ۳۰۷ ، ۳۰۹ ، ۳۸۳ ، ۴۴۱ .

- پ -

بابل - بابلیون : ۳۷ ، ۳۸ ، ۱۳۷ ، ۱۴۴ ، ۱۴۸ ، ۱۵۰ ، ۱۵۲ ، ۱۵۴ ، ۱۵۵ ، ۱۵۶ ، ۱۵۷ ، ۱۵۸ ، ۱۵۹ ، ۱۶۲ ، ۱۶۳ ، ۱۶۶ ، ۱۶۷ ، ۱۶۸ ، ۱۶۹ ، ۱۸۲ ، ۱۸۴ ، ۱۸۵ ، ۱۸۶ ، ۱۸۸ ، ۱۸۹ ، ۱۹۱ ، ۱۹۷ ، ۱۹۸ ، ۲۰۳ ، ۲۰۴ ، ۲۱۴ ، ۲۱۶ ، ۲۱۷ ، ۲۱۸ ، ۲۱۹ ، ۲۲۰ ، ۲۲۲ ، ۲۲۴ ، ۲۲۷ ، ۲۶۸ ، ۳۲۲ ، ۴۱۳ ، ۴۱۴ ، ۴۲۹ ، ۴۳۱ ، ۴۳۷ ، ۴۵۵ ، ۴۵۶ ، ۴۵۹ ، ۴۶۰ ، ۴۶۱ ، ۴۷۱ ، ۴۷۴ ، ۴۷۶ ، ۴۷۷ ، ۴۷۸ ، ۴۷۹ ، ۴۸۷ ، ۴۹۶ ، ۵۱۱ ، ۵۱۲ ، ۵۱۷ .

باتالیوترا : ۵۱۱ ، ۵۵۰ ، ۵۵۴ ، ۶۰۸ ، ۶۱۰ ، ۶۱۱ ، ۶۱۲ .

باتشا : ۵۹۴ .

باتنا : ۵۱۱ .

باخوس : ۴۷۷ ، ۵۳۹ .

باراسیوس : ۳۷۸ .

بارفانیوس : ۵۳۶ .

اولنئوس : ۳۵۶ ، ۵۰۰ .

اولیس : ۱۳۱ ، ۲۵۳ ، ۲۵۹ ، ۲۹۹ .

اومستیس : ۳۶۲ .

اومیوس : ۲۵۹ .

ایا : ۱۶۷ .

ایبامینونداس : ۳۳۱ ، ۳۴۳ .

ایبور : ۵۲ .

ایتولیا - الایتولیون : ۴۰۹ ، ۴۵۲ ، ۵۲۶ .

ایجه (بحر) : ۲۱۴ ، ۲۵۳ ، ۲۵۴ ، ۲۵۸ ، ۲۹۳ ، ۳۴۰ ، ۳۴۵ ، ۳۴۸ ، ۳۸۹ ، ۴۲۹ ، ۴۳۸ ، ۴۴۰ ، ۴۴۱ ، ۴۶۰ ، ۴۶۱ ، ۴۷۳ ، ۴۹۳ .

ایجینا : ۲۸۶ ، ۳۱۰ ، ۳۴۵ .

الایجیون : ۷۱ ، ۲۳۹ .

ایدا (جبال) : ۴۵۷ .

ایراتوشینوس : ۵۱۹ ، ۵۲۰ ، ۵۲۴ ، ۵۲۶ ، ۵۲۸ ، ۵۲۹ .

ایراسیستراتوس : ۵۳۰ .

ایران - ایرانیون : ۲۶ ، ۱۷۳ ، ۲۰۱ ، ۲۰۵ ، ۲۱۴ ، ۲۱۶ ، ۲۱۷ ، ۲۱۸ ، ۲۲۳ ، ۲۲۴ ، ۲۳۴ ، ۳۸۵ ، ۴۰۴ ، ۴۱۳ ، ۴۴۱ ، ۴۶۰ ، ۴۷۱ ، ۴۷۴ ، ۴۷۸ ، ۴۸۱ ، ۴۸۷ ، ۵۱۱ ، ۵۲۷ ، ۵۵۱ ، ۵۵۲ ، ۵۵۸ ، ۵۶۶ ، ۵۶۸ ، ۵۶۹ ، ۶۰۸ ، ۶۱۱ ، ۶۲۲ ، ۶۳۲ .

ایرتیا : ۳۴۵ .

ایرخشیون : ۳۷۲ ، ۳۷۷ .

ایریس : ۲۹۴ ، ۲۹۵ ، ۳۲۲ .

ایزوب : ۲۱۲ .

ایزوقراط : ۳۴۶ ، ۳۶۱ ، ۳۹۲ ، ۴۰۰ ، ۵۱۸ ، ۵۳۵ .

ایزیا : ۳۵۱ ، ۳۹۹ .

ایزیس : ۷۳ ، ۹۱ ، ۹۲ ، ۹۳ ، ۱۲۹ ، ۱۳۲ ، ۳۶۶ ، ۴۹۳ ، ۴۹۴ ، ۴۹۵ .

ایسوس : ۵۰۷ .

ایسیون : ۵۰۷ .

بارثنون : ٣٧٦ ، ٣٧٥ ، ٣٧٤ ، ٣٦٨ ، ٣٧٧ ، ٣٧٥ ، ٤٠١ ، ٤٩٨ ، ٥٠٤ .
 البارسيس : ٢٢٠ .
 بارس : ١٣ ، ١٢ .
 باساي : ٣٧٢ .
 بالي : ٦٢٣ ، ٥٤٥ .
 باناييتيوس : ٥٣٤ .
 البحر الاحمر : ٢٥٩ ، ٢٠٧ ، ٧٠ ، ٥٠ ، ٥٢٨ ، ٤٦١ ، ٤٥٦ .
 البحر الاسود : ٢٩٣ ، ٢٤٣ ، ٢٢٢ ، ٣١٢ ، ٣٢٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٧٩ ، ٤٤١ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٦٠٦ .
 البحر المتوسط : ٣٧ ، ٣٥ ، ٢٧ ، ٢٦ ، ١٣٧ ، ٢٧٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥١ ، ٢٢٣ ، ٢٠٩ ، ٢٩٢ ، ٢٤٣ ، ٣٤٦ ، ٤٤٦ ، ٥١١ ، ٥٢٩ ، ٥٧٤ ، ٦٠٧ .
 البحر الميت : ٥١٢ .
 البختيار : ٤٦١ ، ٤٦٠ ، ٤٥٩ .
 البرابرة : ٤٥٥ ، ٣٧٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠ ، ٤٧٦ .
 براكسيتيل : ٥٠٤ ، ٣٧٨ ، ٣٧٤ .
 براهما : ٦٢٥ ، ٦٢٤ .
 براهان : ٦٢٤ ، ٥٧١ .
 براهانا : ٦٢٥ .
 برنبيان : ٤١ .
 برتوي : ٥٦٩ .
 برزيلوسكي (جان) : ٦٢٧ .
 برسبوليس : ٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٠ ، ٦٠٨ ، ٦١٢ .
 برغاموس : ٤٨٤ ، ٤٥٩ ، ٤٢٤ ، ٤١٣ ، ٤٩٨ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١٩ ، ٥٢١ ، ٥٢٤ ، ٥٣٢ .
 برلين : ١٢٣ .
 برمانيا : ٦٣١ ، ٥٤٥ .
 برهدرتا : ٥٥٣ .
 بروا (ادوار) : ١٣ .

بروتاغوراس : ٣٨٣ ، ٣٦١ .
 برومبياوس : ٣٩٥ .
 برياكسيس : ٥٠٥ ، ٤٩٥ .
 برياموس : ٢٠٩ .
 البريطانية (الجزائر) : ٥٢٧ .
 بريكليس : ٣٣٦ ، ٣٣٠ ، ٣٢٨ ، ٢٩٢ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٠ ، ٣٩٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٤٩ ، ٥٠٣ .
 بريينا : ٤٩٩ .
 بيسرغاد : ٢٢٦ ، ٢٣٠ .
 بستانونت : ٢١٠ ، ٢٠٧ .
 البطالسة : ٩٥ ، ٨٠ ، ٦٩ ، ٥٣ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٤١٣ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٨١ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٥ ، ٥٠٩ ، ٥١٢ .
 بطليموس : ٤٣٠ ، ٤١٩ ، ٤١٦ ، ٤١٤ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٨٩ ، ٤٩٥ ، ٤٩٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٣ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ .
 بطولييايس : ٤٦٧ .
 بعل : ٢٧٠ ، ٢٦٠ ، ٢٠٧ .
 بعل هامون : ٢٦٠ .
 بكتريه : ٦١١ ، ٦٠٧ ، ٦٠٦ ، ٢٢٧ .
 بكين : ٦٠٦ ، ٢٣ .
 بل : ١٦٧ .
 بلاتيا : ٣٣١ ، ٣١٢ .
 بلجكا : ٤١ .
 بلشاصر : ١٨٥ .
 البلطيق (بحر) : ٢٨ .
 البلقان : ٢٦ .
 بلوونيز : ٢٥٢ ، ٢٤٨ ، ٢٣٩ ، ٢٣٧ ، ٢٨٦ ، ٢٩٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٣١ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٧ ، ٤٠٩ ، ٥١٥ .

بلوت : ۳۹۸ ، ۵۴۰ .
 بلوتارك : ۹۱ ، ۹۲ ، ۳۶۲ ، ۵۲۶ ، ۵۷۴ .
 بلوخستان : ۵۵۱ .
 بلين : ۴۷۴ .
 بنارس : ۵۵۳ ، ۵۵۴ ، ۶۲۱ .
 بنتاوار : ۵۱ .
 بنتيليك : ۳۷۴ .
 البنجاب : ۵۱۱ ، ۵۵۲ ، ۵۵۳ ، ۵۵۴ .
 ۶۰۶ ، ۶۰۷ ، ۶۱۱ .
 بن خدد : ۲۶۲ .
 بنديس : ۳۶۶ .
 بنداروس : ۳۱۰ ، ۳۴۲ ، ۳۹۲ ، ۴۰۷ ، ۵۱۳ .
 بنفال : ۵۵۴ ، ۶۳۱ .
 بنكالا : ۵۵۳ .
 بهار : ۵۵۳ ، ۵۵۴ .
 بهافادجيتا : ۶۲۵ .
 بهتسالي : ۶۱۰ .
 بهرهوت : ۶۱۱ ، ۶۱۳ ، ۶۲۹ .
 بهستون : ۲۲۷ .
 بهكتي : ۶۲۵ .
 بهوبال : ۶۲۹ .
 بهوجا : ۶۲۶ .
 بهخوروس : ۵۴ ، ۶۹ .
 بهخيس : ۸۸ .
 بهدهفايا : ۶۱۳ .
 بوذا : ۵۷۱ ، ۶۱۳ ، ۶۲۷ .
 بورسيبا : ۱۷۶ ، ۱۸۹ .
 بورنيو : ۵۴۵ .
 بوروشا : ۵۶۹ .
 بورانياس : ۳۳۱ .
 بورايدون : ۲۹۴ ، ۲۹۶ ، ۳۷۶ .
 بورايدونيا : ۳۰۹ .
 بورريس : ۹۲ ، ۱۰۳ .
 البوسفور : ۲۸۵ ، ۶۰۶ ، ۶۰۷ .

بوشان : ۵۶۹ ، ۶۲۱ .
 بوغاز - كي : ۱۷۳ ، ۲۰۳ .
 بولس اميليوس : ۵۰۳ .
 بول (مرسلين) : ۲۷ .
 بوليب : ۳۴۷ ، ۴۴۳ ، ۴۴۴ ، ۴۴۹ ، ۴۵۰ ، ۴۵۳ ، ۴۵۴ ، ۴۶۹ ، ۴۹۲ ، ۵۰۲ ، ۵۲۴ ، ۵۲۶ ، ۵۳۵ .
 بوليفنوت : ۳۷۸ .
 بوليكليت : ۳۷۵ .
 بومباي : ۶۰۶ .
 بومباي : ۴۴۵ ، ۵۰۰ ، ۵۰۷ .
 البونت : ۵۰ ، ۷۰ ، ۳۱۳ ، ۴۱۴ ، ۴۴۲ .
 بونديشاري : ۶۰۶ ، ۶۲۳ .
 بياس : ۵۵۴ .
 بديلوس : انظر جيبيل .
 بيبي الاول : ۱۲۲ .
 بيت ايل : ۲۶۵ .
 بيتوزريس : ۴۹۷ .
 بيتوساراييس : ۴۵۹ .
 بيتوكليتس : ۳۶۱ .
 بيتون : ۳۰۵ .
 بيتياس : ۵۲۷ ، ۵۲۸ ، ۵۲۹ .
 بيتاغور : ۳۰۱ .
 بيتينيا : ۴۱۴ ، ۴۲۱ .
 بيدنا : ۴۲۵ .
 بيرغوبوليتيوس : ۴۴۳ .
 البيره : ۱۸۵ ، ۲۶۲ ، ۳۵۴ ، ۳۵۵ ، ۳۶۰ ، ۳۶۹ ، ۴۴۰ ، ۴۴۱ ، ۴۹۴ ، ۵۰۰ ، ۵۴۰ .
 بيروز : ۵۱۰ .
 بيروس : ۴۱۴ ، ۵۰۳ ، ۵۲۳ .
 بيرون : ۵۳۳ .
 بيرينيس : ۵۱۴ ، ۵۳۷ ، ۵۳۸ .
 بيزنطية : ۲۸۵ ، ۴۱۸ ، ۵۱۳ ، ۵۳۹ ، ۵۴۲ .
 بيزيديا : ۴۷۲ .

٥٨٩ ، ٥٨٨ ، ٥٨٧ ، ٥٨٥ ، ٥٨٤ ، ٥٨٣
 ٥٩٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠٣
 ٦٣٠ ، ٦٣٣ ، ٦٣٩ .
 تش رو : ٥٨٦ .
 تشو : ٥٨١ .
 تشنغ : ٦٣٠ .
 تشنغ - تو : ٦٣٢ .
 تشنغ - كين : ٦٣١ .
 تشو : ٦٣٠ .
 تشوكتيان : ٢٣ .
 تفلأ قفلامر : ١٧٥ .
 تكسيلا : ٥٥٣ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦١١ .
 تل برسيب : ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٧ .
 تل المارنة : ٩٩ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١٢٢
 ١٢٣ ، ١٣١ .
 تموز : ١٦١ .
 تناغرا : ٣٨١ .
 تنيس : ٤٥ .
 توان - هوانغ : ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٣١ .
 توت عنخ أتون : ٩٩ .
 توت عنخ امون : ٩٩ ، ١٢٥ .
 الثورين (مقاطعة) : ٢٨ .
 تورينو : ١٢٣ .
 توسيديد : ٢٨٤ ، ٣٥٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩١
 ٣٩٢ ، ٤٠١ ، ٥٢٣ .
 تونغ تشونغ شو : ٦٣٨ .
 تونكان : ٦٠٧ ، ٦٣٢ .
 التفتيت : ٥٤٦ .
 تيرنتوس : ٢٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠
 ٢٥٣ ، ٢٥٤ .
 تيرنس : ٣٩٨ .
 تيشوب : ٢٠٧ ، ٢٤٠ .
 تيمستوكلس : ٢٩٢ ، ٣٣٠ ، ٣٦٢
 ٣٩٨ ، ٥٢٩ .
 تيمون : ٥٢٣ .
 تيناروس : ٤٢٨ .

بليس : ٩١ .
 بيسيستراتوس : ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٠٩
 ٣١٠ ، ٣٣١ ، ٣٦٨ ، ٣٩٨ .
 بيلأ : ٤٨٤ .
 بيلالما : ١٧٩ .
 بيلويداس : ٣٣١ .
 بيلوس : ٢٣٩ .
 بيميسارا : ٥٥٤ .
 بيوسيا : ٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٣٣٦ ، ٣٦٢
 ٣٨١ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٥٠٨ .
 بيون : ٥٣٢ .
 - ت -
 تاليس : ٢١٢ ، ٣٠١ .
 تانغ : ٦٣٢ .
 تانيس : ١٢١ .
 تحوتس : ٤٢ - الثاني ٤٩ - الثالث ٥١ .
 تواجان : ٦٣٢ .
 تراقيا - تراقيون : ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ،
 ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٢٩ ، ٤٢٨ ، ٤٩٥ .
 ترانسفال : ٢٤ .
 تركستان : ٢٦ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٣ ،
 ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٥٢٧ ، ٥٤٦ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦
 ٦٣١ ، ٦٣٢ .
 ترميوري : ٦٢٥ .
 ترينيل : ٢٣ .
 تساليا - تساليون : ٢٥٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦
 ٣٤٢ ، ٤٠٩ ، ٥٠٨ .
 تس - اين : ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧ .
 تسن - شه - هوانغ - تي : ٦٠٥ ، ٦٠٧
 ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٦ ، ٦٣٨ .
 تسين : ٥٨١ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٩٢
 ٦٣٠ .
 تشانغ : ٥٨٧ .
 تشانغ - نغان : ٥٨٠ .
 تشار : ٥٧٨ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢

- ث -

حورابي : ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ،
١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،
١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ،
١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٩٠ ، ٢١٩ ، ٢٦٩ ،
حورحبيب : ٦٤ ، ٨١ ، ٩٩ ، ١٤٦ ،
الخوريون : ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،
٢٠٨ ،
حيرام : ٢٥٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،

- خ -

خاريس : ٥٠٥ ،
خرساباد : ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ،
١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ،
خطوش : ٢٠٣ ،
خفرع : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ،
خلقيدونيا : ٣٣٢ ،
خلقيس : ٣٤٥ ، ٣٩٩ ، ٤٣٥ ،
خنصو : ١١٦ ،
خوارزم : ٢٢٧ ،
خولو : ١١٩ ،
خيرونيا : ٣١٦ ، ٤٠١ ،

- د -

داريوس : ١٢٨ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ،
٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،
٢٢٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٥٠٧ ، ٥٥٤ ،
٦٠٨ ، ٦١٢ ،
دازا : ٥٦٦ ،
داغون : ٢٦٠ ،
الدانوب : ٢١٦ ،
دانيال : ٢٦٤ ،
داوود : ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،
٢٧٢ ،
دجلة : ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٥٨ ، ١٨٥ ،
٢٠٥ ، ٢٦٣ ، ٤٦١ ، ٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ ،
الدرافيدون : ٥٥٧ ،

- ج -

جازون : ٥٣٨ ،
جافا : ٢٣ ، ٥٤٥ ،
جبعة : ٢٦٥ ،
جبل طارق : ٢٨ ، ٢٥٩ ،
جيبيل - جيبليون : ٧٠ ، ٩٢ ، ٢٤٢ ،
٢٤٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،
الجلجال : ٢٦٥ ،
جوبتير : ٢٠٧ ،
جيشيون : ٣٤٨ ،
جيحس (جيفيس) : ٢١٠ ، ٢١١ ،
٢٨٩ ،
جيسر : ٩١ ، ١١٩ ،

- ح -

حاتور : ٨٧ ، ٨٨ ، ١١٤ ،
حتشبست : ٤٩ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٩١ ،
٩٥ ، ١١٨ ، ١٢٣ ، ٥٣٠ ،
الحثيون : ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ،
٢٠٩ ، ٢١٠ ،
حداد : ٢٠٧ ، ٢٤٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ،
حران : ١٦٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ،
حزقيال : ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ،
حلب : ٢٦٢ ،
حماة : ٢٦٢ ، ٢٦٥ ،
حصص : ٢٦٤ ،
حلايا : ٥٥٣ ،

دراكون : ۲۹۲ .

الدردنيل : ۳۳۲ .

دقنى : ۴۷۳ .

دلتا : ۴۰ ، ۴۱ ، ۴۲ ، ۴۴ ،

۴۵ ، ۴۶ ، ۷۰ ، ۷۱ ، ۷۵ ، ۷۶ ، ۸۰ ،

۸۸ ، ۹۲ ، ۹۹ ، ۱۰۳ ، ۱۲۱ ، ۱۳۶ ،

۴۵۶ ، ۴۶۰ ، ۴۶۷ ، ۴۶۹ ، ۵۰۷ .

دلفي : ۲۹۴ ، ۲۹۶ ، ۲۹۸ ، ۳۰۴ ،

۳۰۵ ، ۳۰۸ ، ۳۲۴ ، ۳۲۵ ، ۳۶۲ ، ۳۶۳ ،

۳۶۴ ، ۳۷۱ ، ۳۷۲ ، ۴۴۴ ، ۴۴۷ ، ۴۴۸ ،

۴۴۹ ، ۴۸۹ ، ۵۰۳ .

دهلي : ۵۵۳ .

دمشق : ۲۶۲ ، ۲۶۳ ، ۲۶۴ ، ۲۶۵ ،

۴۹۴ .

دندره : ۸۹ ، ۲۵۲ .

دنكرلك : ۴۱ .

دواب : ۵۵۳ .

دورا وروپوس : ۴۷۷ .

دور - شروكين : ۱۸۴ ، ۱۸۶ ، ۱۹۱ ،

دوريفوروس : ۳۷۵ .

الدوريون : ۲۳۸ ، ۲۵۳ .

دوليخه (دوليكي) : ۲۰۷ ، ۲۶۴ ،

۴۹۴ .

دوموزي : ۱۶۱ .

دونيس : ۳۱۶ ، ۳۳۰ ، ۳۹۷ ، ۵۳۶ .

ديادس : ۵۶۹ .

ديديموس : ۵۲۱ .

دير البحري : ۷۱ ، ۹۱ ، ۹۵ .

ديركي : ۵۰۶ .

ديسكوبول : ۳۷۵ .

ديكي : ۲۹۵ .

ديكيارخوس : ۵۲۴ .

ديلوس : ۲۶۴ ، ۲۹۶ ، ۳۰۵ ، ۳۰۸ ،

۳۶۳ ، ۴۴۱ ، ۴۴۲ ، ۴۴۴ ، ۴۴۵ ، ۴۴۶ ،

۴۴۷ ، ۴۵۱ ، ۴۸۹ ، ۳۹۵ ، ۴۹۹ ، ۵۰۰ ،

۵۰۳ .

ديتريس : ۵۱۸ ، ۵۲۳ .

ديموستينس (ديموستين) : ۳۳۰ ،

۳۳۸ ، ۳۵۳ ، ۳۶۶ ، ۳۹۸ ، ۳۹۹ ، ۴۰۰ ،

۴۰۱ ، ۴۰۷ ، ۴۸۴ ، ۵۲۱ ، ۵۳۵ .

ديموسيدس : ۲۳۰ ، ۳۰۲ .

ديموكريت : ۳۸۲ ، ۵۳۳ .

ديميتير : ۲۰۷ ، ۲۹۴ ، ۳۶۴ .

ديتارخوس : ۳۹۹ .

ديوجين : ۳۸۵ ، ۵۳۲ .

ديونيزيس : ۴۶۹ .

ديونيسوس : ۲۹۴ ، ۲۹۷ ، ۲۹۸ ، ۳۱۰ ،

۳۶۲ ، ۳۶۴ ، ۳۶۸ ، ۳۶۹ ، ۳۷۰ ، ۳۷۱ ،

۳۹۳ ، ۳۹۴ ، ۳۹۶ ، ۴۴۴ ، ۴۹۰ ، ۴۹۱ ،

۴۹۳ ، ۴۹۴ ، ۴۹۵ ، ۵۰۵ ، ۵۰۷ .

الدينومينيس : ۳۳۰ .

- ۵ -

ذيادومينوس : ۳۷۵ .

ذيليون : ۳۱۶ .

ذيودوروس الصقلي : ۵۴ ، ۶۹ ، ۱۳۰ ،

۱۸۹ .

- ۶ -

راهبر : ۵۶۹ .

راجانيا : ۵۶۰ .

راجفريا : ۵۵۴ ، ۶۱۲ .

رأس شمرا : ۲۴۲ ، ۲۵۱ ، ۲۵۶ ، ۲۶۰ ،

۲۶۱ .

راكوتيس : ۴۶۶ ، ۴۹۵ .

الرامة : ۲۶۵ .

رامون : ۲۶۴ .

رع : ۴۶ ، ۴۸ ، ۴۹ ، ۵۳ ، ۹۴ ، ۹۵ ،

۹۸ ، ۱۰۱ ، ۱۰۲ ، ۱۰۳ ، ۱۰۴ ، ۱۰۶ ،

۱۰۷ ، ۴۱۴ .

رعسيس : ۶۵ - الثاني : ۴۰ ، ۴۶ ، ۴۸ ،

۴۹ ، ۵۱ ، ۷۴ ، ۸۲ ، ۸۷ ، ۱۱۶ ، ۱۱۸ ،

۱۲۳ ، ۲۶۱ .

رگسپاسا : ۵۶۹ .

رودرا : ۵۶۹ .

رودوس : ۲۸۵ ، ۴۰۷ ، ۴۰۸ ، ۴۴۱ ،

۴۴۲ ، ۴۵۹ ، ۴۶۰ ، ۴۸۵ ، ۴۹۹ ، ۵۰۵ ،

۵۰۶ ، ۵۱۶ ، ۵۳۶ ، ۵۳۸ .

روستوفتريف (ميخائيل) : ۴۴۲ .

روسو (جان جاك) : ۵۲۷ .

روسيا : ۳۱۳ ، ۳۴۶ ، ۳۷۹ ، ۴۳۵ ،

۵۵۲ ، ۵۷۹ .

رومانيا : ۵۸۰ .

روما - الرومان : ۱۳ ، ۳۰ ، ۱۳۱ ،

۱۷۱ ، ۲۰۷ ، ۲۵۶ ، ۲۶۴ ، ۲۶۵ ، ۳۳۲ ،

۳۳۳ ، ۳۳۴ ، ۳۴۹ ، ۳۵۲ ، ۳۷۸ ، ۴۰۵ ،

۴۰۷ ، ۴۰۹ ، ۴۱۰ ، ۴۱۳ ، ۴۱۴ ، ۴۱۸ ،

۴۲۴ ، ۴۲۵ ، ۴۲۸ ، ۴۳۴ ، ۴۴۱ ، ۴۴۲ ،

۴۴۷ ، ۴۵۳ ، ۴۵۴ ، ۴۶۱ ، ۴۷۳ ، ۴۷۴ ،

۴۷۷ ، ۴۸۹ ، ۴۹۶ ، ۵۰۱ ، ۵۰۸ ، ۵۱۴ ،

۵۲۵ ، ۵۲۶ ، ۵۲۷ ، ۵۳۲ ، ۵۳۳ ، ۵۳۶ ،

۵۴۲ ، ۶۰۷ ، ۶۱۵ ، ۷۳۲ ، ۶۴۰ ، ۶۴۱ .

ريفندا : ۵۶۵ .

- ز -

زرادشت : ۲۲۴ ، ۲۲۵ ، ۲۲۶ ، ۴۹۶ ،

زغروس : ۱۳۸ ، ۲۰۳ ، ۲۱۴ ، ۲۳۷ ،

زفس (زوس) : ۲۰۷ ، ۲۹۴ ، ۲۹۶ ،

۲۹۷ ، ۳۰۳ ، ۳۰۴ ، ۳۶۴ ، ۳۶۶ ، ۳۷۱ ،

۳۷۳ ، ۳۷۶ ، ۴۰۳ ، ۴۸۷ ، ۴۸۸ ، ۴۹۰ ،

۴۹۲ ، ۴۹۴ ، ۴۹۵ ، ۴۹۸ ، ۵۰۵ ، ۵۰۶ .

زفكسيس : ۳۷۸ ، ۵۰۳ .

زنجري : ۲۶۲ .

زندافستا : ۲۲۶ .

زينون : ۵۱۲ ، ۵۳۱ .

- س -

سابادوس : ۴۹۴ .

ساراييس : ۴۹۵ .

السارة : ۲۶۷ ، ۲۷۱ .

ساموتراس : ۵۰۵ .

ساموس : ۳۰۱ ، ۳۰۳ ، ۳۰۶ ، ۳۱۷ ،

۴۵۶ .

سامون - رامات : ۱۴۸ .

الساميون : ۱۶۱ ، ۱۶۲ ، ۱۷۲ ، ۱۷۳ ،

۲۰۳ ، ۴۷۱ .

سالتشي : ۶۱۱ ، ۶۱۳ ، ۶۲۹ .

سايبس : ۴۰ ، ۴۵ ، ۶۹ ، ۷۱ ، ۸۰ ،

۹۱۱ ، ۱۲۱ ، ۱۲۳ ، ۱۲۸ ، ۱۴۵ ، ۲۱۹ ،

۲۵۹ .

سبا : ۲۶۶ .

سبارطة : ۲۹۱ ، ۲۹۴ ، ۳۰۰ ، ۳۱۰ ،

۳۱۷ ، ۳۱۸ ، ۳۱۹ ، ۳۲۰ ، ۳۲۱ ، ۳۲۴ ،

۳۲۵ ، ۳۲۶ ، ۳۲۷ ، ۳۲۸ ، ۳۲۹ ، ۳۳۱ ،

۳۳۲ ، ۳۳۶ ، ۳۴۲ ، ۳۴۳ ، ۳۴۷ ، ۳۴۸ ،

۳۵۰ ، ۳۵۵ ، ۳۵۸ ، ۳۶۲ ، ۳۶۳ ، ۳۶۷ ،

۴۰۷ ، ۴۰۸ ، ۴۱۱ ، ۴۳۷ ، ۴۴۵ ، ۴۵۲ ،

۴۵۳ ، ۵۱۵ ، ۵۲۴ ، ۵۲۶ .

السبعون : ۵۱۴ .

سترايون : ۱۵۵ ، ۱۵۶ ، ۱۸۹ ، ۴۴۱ ،

۵۲۸ ، ۵۳۲ .

سد : ۱۰۷ .

سرجون : ۱۳۸ ، ۱۴۰ ، ۱۴۳ ، ۱۶۷ ،

۱۸۶ - الثاني : ۱۸۴ ، ۱۸۶ ، ۱۹۰ ، ۱۹۱ ،

۱۹۶ ، ۲۶۵ ، ۲۶۷ .

السرچونيون : ۱۳۷ ، ۱۵۴ .

سرخس (كسر كسيس) : ۲۱۱ ، ۳۵۴ ،

۳۶۲ .

سردانايل : ۱۸۵ .

سرديس (سارد) : ۲۱۱ ، ۲۱۲ ، ۲۱۴ ،

۲۲۰ ، ۲۲۷ ، ۲۸۶ .

سرديليا : ۲۵۹ .

سرسفي : ۵۵۲ ، ۵۵۳ .

سرسيداس : ۴۵۲ .

سسوناغا : ۵۵۴ .

٣١٧، ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠،
 ٤٧٠، ٤٧٤، ٤٧٧، ٤٨٦، ٦١٢،
 سوتراقوس : ٤٩٩،
 سوغديان : ٢٢٧، ٦٠٦، ٦٠٧،
 سوفوكليس : ٣٦٤، ٣٨١، ٣٩٥،
 ٣٩٦،
 سوما : ٥٦٩،
 سو - ماتيان : ٦٣٨،
 سومايانغ - جو : ٦٣٨،
 سومر - السومريون : ١٣٤، ١٣٥،
 ١٣٧، ١٣٨، ١٦١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٧،
 ١٨٦، ١٩٣، ١٩٤، ٢٠٣،
 سومطرا : ٥٤٥،
 السون : ٥٥٤، ٦١٢،
 السويس : ٥٠، ٧٠، ٢٢٣، ٤٥٦،
 سويسرا : ٢٦،
 سيا : ٥٣،
 سينار : ١٦٦،
 سيباريس : ٢٨٦،
 سيبيريا : ٥٧٩،
 سيفيل : ٢٠٧، ٢١٠، ٢١٢، ٤٩٣،
 سيت : ٦١١،
 سیتی - برثي : ٦١١،
 سيرابيس : ٨٧، ٩١، ٤٩٥، ٥٠٥،
 ٥١٩، ٥٣٠،
 سيراكوزا : ٢٨٧، ٣١٣، ٣١٦، ٣٣٠،
 ٣٤٥، ٣٥٣، ٣٨١، ٣٨٥، ٣٩٦، ٣٩٧،
 ٣٩٨، ٣٩٩، ٤١٣، ٥٢٦،
 سيراكوزيا : ٥٢٧،
 سيزوسترس الثاني : ١١٣،
 سيفنوس : ٣٠٤، ٣٠٥،
 السيكلاذ : ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤٢،
 ٢٥١، ٢٥٣، ٢٩٦، ٤٤٠، ٤٤١،
 سيكيوني : ٣٠٥، ٣١٠،
 سيلان : ٦٠٩، ٦١٠،

سقراط : ٣٠٨، ٣١٩، ٣٢٧، ٣٥٧،
 ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٢، ٣٦٧، ٣٨٣، ٣٨٤،
 ٣٨٥، ٣٨٧، ٣٩٦، ٥٣٢،
 سكندا : ٦٢٤،
 سكوپاس : ٣٧٨، ٥٠٤،
 سكيلاكس : ٢٢٣،
 سكيوني : ٢٨٦،
 سلامين : ٣١٢، ٣٣٠، ٣٦٢،
 سالوقس : ٤١٤، ٤٥٩، ٤٧١، ٥١١،
 ٥٢٩، ٦١٠،
 سالوقيا : ٤٢٩، ٤٦١، ٤٧١، ٤٧٤،
 السالوقيون : ٢٦٨، ٤١٣، ٤١٧،
 ٤٢١، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٤، ٤٦٩، ٤٧٠،
 ٤٧١، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٨، ٤٧٩،
 ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٩٦، ٥٦٠،
 ٥١٩،
 سليمان : ٢٥٧، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨،
 ٢٧٠،
 سميراميس : ١٤٨،
 سن : ١٦٢، ١٦٥، ١٦٦، ٢٦٤،
 سنجاريب : ١٨٥،
 السند : ٥٥٣، ٥٥٤،
 سندباد : ١٣١،
 سوات : ٥٥٢،
 سوبارتو : ١٣٧،
 سوتيس : ١٢٩،
 السودان : ٤٦١،
 السوريون : ١٣،
 سوريا (اله) : ٥٦٩،
 سوريا - السوريون : ٥١، ٦٨، ٩٠،
 ٩٦، ١٣٣، ١٥٨، ١٦١، ١٨٧، ٢٢٣،
 ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٢،
 ٢٦٦، ٢٦٤، ٤١٣، ٤٢٩، ٤٣٦، ٤٣٧،
 ٤٤٠، ٤٥٩، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٧١، ٤٧٣،
 ٤٨٠، ٤٨٤، ٥١٢، ٥٤٢، ٦٠٧، ٦١٠،
 سوزو : ١٧٥، ١٧٩، ١٨٠، ٢١٤،

شي - كنغ : ٥٧٦ .

شيشرون : ٣٣٢ ، ٣٩٠ ، ٥٢١ .

شيفا : ٦٢٤ ، ٦٢٥ .

- ص -

صافو : ٣٠٠ .

صقليا : ٢٥١ ، ٢٥٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،

٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ،

٣٢٢ ، ٣٣٠ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٧٩ ، ٤٠٥ ،

٤٣٨ ، ٤٤٢ ، ٤٥١ ، ٥٤٠ .

صموئيل : ٢٦٥ .

الصنطور : ٣٧٤ .

صهيون : ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ .

صور : ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ،

٢٦٧ ، ٢٦٦ .

صولون : ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٠٠ ، ٣٣٧ ،

٣٣٩ ، ٣٦٨ .

صيدون : ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

الصين : ٢٢٣ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٧٤ ،

٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٨١ ، ٥٨٣ ، ٥٨٥ ، ٥٩٢ ،

٥٩٩ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ،

٦٠٧ ، ٦١٥ ، ٦٢١ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ،

٦٤٠ .

- ط -

طارقتا : ٢٨٧ ، ٣٠١ ، ٣٤٥ ، ٣٨٨ ،

٤٢٨ .

طار : ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ .

طرادة : ١٢١ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٣٨ ،

٢٤٣ ، ٢٥٢ ، ٣٠٤ .

طوخ : ٨٩ ، ٩٥ ، ١٠٣ ، ١٢٨ .

طيبة - الطيبون : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ،

٥٧ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩١ ،

٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،

٢١٦ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٣٦ ، ٣٦٢ ، ٤٠٧ .

السليبيب : ٥٤٥ .

سيلينوتته : ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ .

السياريون : ١٤٤ ، ٢١٦ .

سيناء : ٥٠ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٨ ، ٧٢ ،

٢٦٩ .

سينوبارغيس : ٣٨٤ .

سيوان - قي : ٦٣١ .

سيون كوانغ : ٥٧٨ .

- ش -

شاك : ٦١١ .

شاكيميئي : ٥٥٤ ، ٥٥٦ ، ٦٠٣ ، ٦٢٧ ،

شارول : ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ .

شتدري : ٥٥٣ .

الشرق الأدنى : ٢٨ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ،

٥١ ، ٦٩ ، ١٣١ ، ٢٠١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ،

٢٥٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٦٤٠ .

الشرق الأقصى : ٢٠ ، ٢٢٣ ، ٤٦١ ،

٤٧٧ ، ٦٠٩ .

الشرق الأوسط : ٢٦ .

شرمانا : ٦١٠ .

ششناكا : ٥٥٣ .

شليان : ٢٥٢ .

شمبوليون : ١١١ ، ٢٣٩ .

شمش : ١٤١ ، ١٥٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،

١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢٦٩ .

شندراغوبتا : ٦١٠ .

شن سي : ٥٨٠ .

شنغ : ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨٣ ، ٥٩٣ ،

٦٠٣ .

شنغ - قي : ٥٩٩ .

شنيرب (روير) : ١٣ .

شورتوك فاختوته : ١٧٩ .

شوتغا : ٦٠٩ ، ٦١١ .

شيبون اميليانوس : ٥٢٥ .

شيت : ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٠٦ .

-ع-

العاصي : ٢٦٢ ، ٤٧١ ، ٥٠٥ .

عاصيون جابر : ٢٦٦ .

عاموس : ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ .

العبرانيون : ٢٢٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ،

٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،

٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ،

٢٧٧ ، ٢٧٨ .

العرب : ١٤ ، ٢٧٠ .

عشرت : ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠ ، ٣٦٦ .

العقبة : ٢٦٦ .

عيلام : ١٣٨ ، ١٧٥ .

-غ-

غاد : ٤٩٢ .

غاليا - غاليون : ٣١٣ ، ٣٤٦ ، ٤٠٥ ،

٤٥٥ .

غالاتيون : ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٧٨ ، ٥٠٥ ،

٥٠٦ .

الغانج : ٥١١ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٦٠٩ ،

٦١٢ .

غرانيه (مرسيل) : ٥٧٤ ، ٥٧٦ .

غروسيه (رنيه) : ٥٨٢ .

الغز (البيت) : ١٤٤ ، ١٦٢ ، ٢١٦ .

غلا (جزيرة) : ٢٤٩ .

غندهارا : ٥٥٤ .

غندهرفا : ٥٦٩ ، ٦٢٤ .

غنيشا : ٦٢٤ .

غوبتا : ٦٠٩ .

غوديا : ١٦٢ ، ١٩٥ .

غوردياس : ٢٠٩ .

غورديون : ٢٠٩ .

غورغياس : ٣٩٩ .

غورنيا : ٢٤١ ، ٢٤٣ .

غوغو : ٢١٠ .

غومتى : ٥٥٢ .

غيسيا : ٥٦٢ .

غيلغميش : ١٦٣ ، ١٧٥ ، ١٩٣ ، ١٩٦ .

غيمه (متحف) : ١٣ .

-ف-

فانا : ٥٦٩ .

الفارتيون : ١٨٩ ، ٤٠٥ ، ٤١٣ ، ٤٢٩ ،

٤٦٠ ، ٤٧٧ ، ٤٨١ ، ٦١١ .

فارس : ١٧٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،

٢٣٠ ، ٤٣٦ ، ٤٧٢ ، ٤٨٧ ، ٥١١ ، ٦٠٦ .

فاروس : ٤٥٦ ، ٥٢٧ .

فافيو : ٢٥٢ .

فان (بحيرة) : ١٣٧ .

فايستوس : ٢٣٧ .

فاير : ٥٦٩ .

فتاح : ٨٧ ، ٩٤ .

الفرات : ٤٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ،

١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٦ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ،

١٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٥ ، ٢٤٢ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ،

٢٦٣ ، ٤٦١ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ .

فترهان : ٥٦٩ .

الفرس : ٣٠ ، ٣٩ ، ٧١ ، ١٢٦ ، ١٤٥ ،

٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ،

٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،

٢٦٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٨ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ،

٣٥٤ ، ٣٦٢ ، ٣٨٩ ، ٤١٣ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ،

٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٦ ، ٥٠٦ .

فرسال : ٤٠٩ .

فرغانا : ٦٣١ .

قرناقي : ٥٥٣ .

فرلسا : ١٨ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٤١ .

فرنسوا . (اناء) : ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

فرونا : ٥٦٩ ، ٦٢٤ .

فريثرغنا : ٥٦٩ .

فريجيا - الفريجيون : ٢٠٧ ، ٢٠٩ ،

٢١٠ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ .

القاهرة : ٤٥ .

قبرص : ١٣٨ ، ١٥٧ ، ٢١٠ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٨٥ ، ٣٢٩ ، ٤٧٦ ، ٥١٢ .

قدس : ٥١ ، ٢٦٩ .

قرطاجنة - قرطاجيون : ٣٥٩ ، ٢٦٠ ، ٣٣٠ ، ٣٤٥ ، ٣٥٣ ، ٤٠٥ ، ٤١٤ ، ٤٣٨ ، ٤٤١ ، ٦٠٧ .

قرطاجنة (في قبرص) : ٢٥٩ .

قزوين (بحر) : ٤٦١ ، ٥١١ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٦٠٦ .

قبيز : ٢١٤ .

قورش (كورش) : ١٣٠ ، ١٣٩ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٣١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٣١٢ ، ٣٠٢ ، ٢٦٨ ، ٥٥٤ .

القوقاس (القفاس) : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ٤٦١ ، ٥٥٢ .

القيروان : ٢١٤ ، ٦١٠ .

قيصر : ٤٤٢ ، ٥١٩ ، ٥٣١ ، ٥٣٤ ، ك -

كا : ٨٥ .

كابول : ٥٥٢ .

كابيشا : ٥٥٤ .

كاتون : ٥٣٤ .

كارية (كاريون) : ٢٢٧ ، ٤٤١ ، ٤٧٦ .

كاريندا : ٢٢٣ .

كاسي : ٥٥٣ ، ٥٥٤ .

كلانوس : ٥١١ .

كلنغا : ٦١٠ .

كلياس : ٣٥٣ .

كلما : ٦٢٤ .

كلماريس : ٢٤٧ .

كلنتون : ٦٣١ .

كان - سو : ٦٣١ .

كانفا : ٦١١ ، ٦٠٩ .

كليوس : ٣٥٩ .

قريبي : ٣٧٤ .

فلسطين : ٥١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٤٦٦ ، ٤٧٣ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٥١٢ ، ٥١٣ .

الفلبطيون : ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ .

فندھيا : ٥٥٣ .

فوقيا : ٢٨٦ .

فيدا : ٥٥٠ ، ٥٦١ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ .

فيدها : ٥٥٤ .

فيدياس : ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨١ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ .

فيديشا : ٦١١ .

فيسفا كارمان : ٥٦٩ .

فيشتو : ٥٦٩ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ .

فيغر لوسيان : ١٧ .

فيلبوس : ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٦ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٩٢ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤٢٩ ، ٤٥٠ ، ٥٢١ .

فيلبومين : ٤٥٤ .

الفيلة : ٨٧ .

فيلوكسينوس : ٥٠٧ .

فيلون : ٤٨٨ .

فيليزات : ٦١١ .

فينوس : ٥٠٥ .

فينيقيا - الفينيقيون : ٩٨ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ١٦١ ، ١٧٤ ، ٢٠٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ .

٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٣٢٩ ، ٤٢٣ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٦ ، ٥٠٨ ، ٥١٢ ، ٥٤٢ .

الفيوم : ٧٥ ، ٤٥٦ ، ٤٦٨ .

-ق-

قادش : ٢٥٩ .

كبادوكية: ١٣٩ ، ٢٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٢١ ، ٤٧٠ .
 كتيسياس : ٢٣٠ .
 كراتيس : ٥١٤ ، ٥٢١ ، ٥٣٢ .
 كراسوس : ٤٧٧ .
 كرانغفور : ٦٠٧ .
 الكردوك : ٤٧٨ .
 الكرُم : ٥٥٢ .
 الكرمل : ٢٥٦ .
 الكرنك : ٦٥ ، ٧٠ ، ٨٢ ، ١١٥ ، ١٦٦ .
 كرنباد : ٥٣٢ .
 كرُرو : ٥٥٣ .
 كروتون : ٣٨٩ .
 كروزيه (موريس) : ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ،
 كريت - كريتيوت : ٧١ ، ٢٣٦ ،
 ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،
 ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،
 ٢٥٤ ، ٢٩١ ، ٣٤٢ ، ٥١٥ .
 كريتيولاوس : ٥٣٢ .
 كريزوس : ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٩٨ ،
 ٣٠٣ .
 كريسبوس : ٥٣٤ .
 كساندر : ٥٣٧ .
 كريشنا : ٦٢٤ ، ٦٢٥ .
 كستوس : ٢١٢ ، ٢٢٤ .
 كسينوفانوس : ٣٠١ .
 كسينوفون : ٢١٩ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ،
 ٣٤١ ، ٣٤٨ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٩٢ ، ٣٣٦ ،
 كشتريا : ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٦ ،
 ٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٦١٠ ، ٦١٦ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ،
 ٦٢١ ، ٦٢٧ .
 كشمير : ٦١١ .
 كلاروس : ٢٩٨ .
 الكلدان : ١٤٨ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٧١ ،
 ١٧٦ ، ٤٩٦ .

کلرمون - فران : ۱۳ .
 کیستین : ۲۹۲ ، ۳۲۸ ، ۳۳۷ ، ۳۳۸ ، ۳۳۹ .
 کلیتاخوس : ۵۱۴ ، ۵۲۰ ، ۵۲۱ ، ۵۳۵ ، ۵۳۷ ، ۵۳۸ ، ۵۳۹ .
 کلیویاتره : ۴۱۳ ، ۴۱۹ ، ۵۱۹ .
 کلیویس : ۳۰۵ .
 کلومینوس : ۳۴۳ ، ۴۳۸ ، ۴۵۳ ، ۴۵۴ .
 کلون : ۲۹۲ ، ۳۵۲ ، ۳۵۳ .
 کمانیا : ۳۰۹ ، ۳۱۳ .
 کبی : ۶۱۱ .
 کنسان : ۲۳۸ ، ۲۵۵ ، ۲۵۷ ، ۲۶۹ ، ۲۷۰ .
 کنوسوس : ۲۳۷ ، ۲۳۹ ، ۲۴۰ ، ۲۴۱ ، ۲۴۵ ، ۲۴۶ ، ۲۴۷ ، ۲۴۸ ، ۲۴۹ ، ۲۵۱ .
 کوانخ - وو - تی : ۶۳۲ .
 کوپا : ۲۰۷ .
 کوپاییس : ۲۴۹ .
 کوپرا : ۶۲۴ .
 کورینیک : ۵۳۰ .
 کوتا : ۱۶۶ .
 کورتئوس : ۲۵۸ ، ۲۸۴ ، ۲۸۶ ، ۲۹۶ ، ۳۰۷ ، ۳۱۰ ، ۳۴۵ ، ۳۵۴ ، ۳۹۹ .
 ۴۰۹ ، ۴۴۲ ، ۶۱۰ .
 کوریا : ۶۰۵ ، ۶۰۷ .
 کوزلوف : ۶۰۶ .
 کوس : ۲۳۰ ، ۳۸۹ ، ۴۶۱ ، ۴۹۳ ، ۵۴۰ .
 کوسانا : ۶۰۹ .
 کوسمی : ۵۵۳ .
 کوشالا : ۵۵۳ .
 کوشنشین : ۶۰۶ .
 کولنحید : ۵۳۸ .
 کوماجین : ۲۰۷ .
 کومس : ۳۳۰ .
 کونخ - سوان یخ : ۵۷۸ .

كونفوشيوس : ٥٧٨ ، ٥٨١ ، ٦٠٢ .

كوي : ٥٩٩ ، ٦٠٠ .

كياي : ٦٣٨ .

كيتون : ٥١٢ .

كيدنياس (كيدنيو) : ٥٢٩ .

كيريني (كيرينا) : ٣٦٦ ، ٥١١ .

كيزيل - ارماك : ٢٠٣ .

كيش : ١٣٨ .

كيليكية : ١٣٧ ، ٢٢٢ ، ٤٦١ ، ٤٧٣ ،

٤٧٦ ، ٥٢١ ، ٦٠٨ .

كيمن : ٢٩٢ ، ٣٣٨ .

كين - ونغ - تشاي : ٥٧٩ .

كيوس : ٣٨٨ .

ـ ل ـ

لابان : ٢٦٢ .

لابروس (ارست) : ١٣ .

اللابيث : ٣٧٤ .

لاتين (بحيرة) : ٢٦ .

اللاجيون : ٤١٣ ، ٤٣٤ ، ٤٢٨ ، ٤٥٨ ،

٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ ،

٤٧٠ ، ٤٧٨ ، ٤٩٠ ، ٥١٠ .

اللاذقية : ٤٧٣ .

لارسا : ١٦٣ .

لاغاش : ١٣٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ،

١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٩٥ .

لاكيدميون : ٣١٥ ، ٣٢٣ .

لاووديكي : ٤١٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ .

لاووكون : ٥٠٦ .

لاوي : ٢٧٠ .

لبنان : ١٨٧ ، ٢٢٧ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،

٢٥٨ ، ٢٦٢ .

اللردو : ٢١٠ .

لوريون : ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ ،

٤٥١ .

اللوفر : ١٢٣ ، ١٤١ ، ١٧٩ ، ١٩٥ ،

٥٠٤ .

لوقيانوس : ٢٦٠ .

لوكترا : ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٣٦ .

لوكريس : ٣٨٢ .

لويانغ : ٦٣٢ .

لي : ٥٩٩ .

الليبيون : ٣٩ ، ٥١ ، ٧٢ .

ليديا - ليدون : ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٣ ،

٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧ ، ٣٠١ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ .

ليزياس : ٣٥١ ، ٣٩٩ ، ٤٤٠ ، ٥٣٥ .

ليستوس : ٣٧٨ ، ٣٨٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ،

٥٠٥ .

ليسندروس : ٣٣١ ، ٣٦٦ ، ٤١٢ .

ليسيفغ : ٥٠٦ .

لشع : ٢٧٢ .

ليكوفرون : ٥٣٧ .

ليوسيو : ٦٣٢ .

ليونيداس : ٣٢٧ .

ليوهنغ : ٦٣٨ .

ـ م ـ

ما بين النهرين : ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٥ ، ٣٦ ،

٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٣ ،

١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،

١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ،

١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،

١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،

١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ،

١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،

٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،

٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،

٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٣٠١ ، ٣٨٥ ، ٤٦١ ،

٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٥١١ ، ٦٤١ .

مات (مامات) : ٥٢ ، ٥٣ ، ٩٨ ،

١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ .

للاديرين : ١٣٧ ، ١٤٤ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ،

٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ .

ماراقون : ٣٧١ ، ٣٩٥ .

مارسياس : ٣٧٥ .

ماراي : ٢٤٧ .

ماركوس اوريليوس : ٥٣٤ .

ماروت : ٤٦٩ .

ماري : ١٣٨ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،

١٩٧ .

مارينيت : ٨٧ ، ١٢٣ .

ماغاس : ٥١١ .

مالغا : ٦١١ .

مالوس : ٥٢١ .

ماليا : ٢٣٧ .

مانيتون : ٤٩٥ ، ٥١٠ .

مقرا : ٢٠٦ ، ٢٢٥ ، ٥٦٩ ، ٦٢٤ .

مقريا : ٦٢٧ .

مقريداث : ٤٠٥ ، ٤٧٠ ، ٤٧٩ .

مجدو : ٥١ .

المحيط الاطلسي : ٢٧ .

مدرا : ٥٤٨ .

مدھيديشا : ٥٥٣ .

مردوك : ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،

١٩٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٤ .

مرسيليا : ٢٨٦ ، ٣١٣ ، ٤٠٥ .

مرماريا : ٣٧٢ .

مرمناد : ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٨٦ .

مريكاره : ٦٤ .

مسبارو (هنري) : ٥٧٤ ، ٥٨٥ .

مسينيون : ٣٤٣ .

المشكب : ٦٦٣ .

مصر - مصريون : ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ،

٣٥ - ٨٥ ، ٨٧ - ٩٢ ، ٩٤ - ٩٦ ، ٩٨ -

١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٠ ،

١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ -

١٣٣ ، ١٣٥ - ١٣٧ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ،

١٧٣ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ٢٠٠ - ٢٠٢ ، ٢٠٤ ،

٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٨ - ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ،

٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ،

٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ -

٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٩٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،

٣١٣ ، ٣٤٥ ، ٣٨٨ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٧ ،

٤١٨ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ - ٤٣٣ ، ٤٣٦ -

٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٥٥ - ٤٦٠ ، ٤٦٢ ،

٤٦٣ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ - ٤٧١ ، ٤٧٤ ،

٤٧٥ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٦ ، ٤٨٨ ،

٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠٨ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ،

٥٤٧ ، ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ٦٤١ .

المصفاة : ٢٦٥ .

مفدها : ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٦١٠ ، ٦١١ .

مفنزيا : ٤٧٢ ، ٤٨٩ .

مقدونيا - المقدونيون : ٣٩ ، ٥٣ ،

٢١٨ ، ٢٦٨ ، ٣٢٩ ، ٣٤٢ ، ٣٥٩ ، ٤٠١ ،

٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٨ ، ٤٢١ ،

٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ،

٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٨ ، ٤٧٣ ، ٤٧٩ ، ٤٨٤ ،

٥٠٣ ، ٥١١ ، ٦١٠ .

المكابيون : ٢٦٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٨ .

ملابار : ٦٠٧ .

ملقراط : ٢٦٠ .

منون : ١٢١ .

منتوحوتب : ١١٨ .

مندريس : ٢٨٦ ، ٤٧٢ ، ٤٨٩ .

منديس : ٨٨ .

منشيوس : ٥٧٨ .

منغوليا : ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦١١ ، ٦٣٢ .

منف : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٧ ، ٨٧ ،

٩٤ ، ١٠٧ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٩ ، ٢١٦ ،

٤٩٥ .

منكورع : ١١٩ ، ١٢٠ .

منيفيس : ٨٨ .

مهاباراتا : ٦٢٥ .
 مهابيرا : ٥٥٤ ، ٥٧٢ .
 موت : ٢٦٠ .
 موترليون : ٦٢٣ .
 موتسو : ٦٠٢ .
 موئي : ٥٧٩ ، ٦٠٢ .
 موريا : ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٦٠٥ ، ٦٠٧ .
 ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١٢ .
 موزيريس : ٦٠٧ .
 موسى : ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ .
 موس (مارسل) : ١٨٠ .
 الموشكو : ٢٠٩ .
 مولوخ : ٢٦٠ .
 مولير : ٣٩٨ .
 مونيه (رولان) : ١٣ .
 موهنجو - دارو : ٢٨ ، ٥٥٠ ، ٥٥٢ .
 ميتافي : ٢٠٣ ، ٢٠٨ .
 ميداس : ٢٠٩ .
 ميداي : ١٩٢ ، ٢٢٧ ، ٥٣٨ .
 ميرون : ٣٧٥ .
 ميريس (بحيرة) : ٧٥ ، ٨٧ ، ١١٣ .
 ميسين - ميسينيون : ٢٣٨ ، ٢٤٨ .
 ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ .
 ٢٨١ .
 الميسيون : ٤٧٨ .
 ميفارا : ٢٨٦ .
 ميفاستيتوس : ٥١١ ، ٦٠٨ ، ٦١٠ .
 ٦١٢ ، ٦١٨ ، ٦٢١ .
 ميكال الحجلو : ٥٠٦ .
 ميل ب : ٥٤٧ .
 ميلتيادس : ٢٩٢ ، ٣٣٠ ، ٣٣٨ .
 ميله : ١٨٥ ، ٢١٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩١ .
 ٤٦١ ، ٤٩٩ .
 ميلو : ٥٠٥ .
 ميلوس : ٢٣٧ ، ٢٤٢ .
 ميليندا : ٥١١ ، ٦١١ .

مينة البيضاء : ٢٥١ ، ٢٥٦ .
 مينس : ٤٤ ، ٤٥ .
 مينغ تانغ : ٥٧٦ ، ٥٣٣ .
 ميندلروس : ٣٩٨ ، ٥١١ ، ٥٣٥ .
 ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٦١١ .
 مينوس : ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ .
 مينوطور : ٢٤٠ ، ٢٤٤ .
 مينوس : ٥٣٢ .
 - ن -
 نابو : ١٨٩ .
 نابولي : ٥٠٧ .
 نابوليون : ١٨٠ .
 نابونيد : ١٦٢ .
 نابيس : ٣٤٣ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ .
 ناجا : ٦٢٤ .
 نارام سن : ١٤٢ .
 ناكاسينا : ٥١١ .
 الناكسيون : ٣٠٥ .
 نانكين : ٦٣٢ .
 نبوخذ نصر : ١٤٥ ، ١٥٨ ، ١٦٧ .
 ١٨٤ ، ١٩٢ ، ١٩٧ ، ٢٢٤ ، ٢٦٨ .
 نخاور : ٢٥٩ .
 نختسافيس : ٤٦٩ .
 نرغال : ١٦٦ .
 نغان - ينغ : ٥٨٠ .
 نغريتي : ١٢٣ .
 نكش - أي - روستم : ٢٢٨ .
 النمسا : ٢٦ .
 ننبا : ٥٥٤ ، ٦١٠ .
 نو : ٥٩٤ .
 النوبة - النوبيون : ٥٠ ، ٥١ ، ٥٧ .
 ٦٠ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٩٦ .
 لوزيكا : ٣٥٧ .
 لوكراتيس : ٧١ ، ٢٨٦ ، ٤٦٧ .
 لوميدا : ٤٣٨ .

نيارك : ٢٢٣ .

نيبال : ٥٤٦ .

نيبور : ١٦٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ .

نيقياس : ٣٤٨ ، ٣٥٣ .

النيل : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ .

٥٣ ، ٥٧ ، ٦٧ ، ٧٥ ، ٩٢ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .

١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٩ .

١٥٥ ، ١٦٥ ، ٢٤٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٤١٣ .

٤٢٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٢ ، ٤٧٩ ، ٤٨٦ .

٤٩٦ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٧ ، ٥٢٨ .

نيميا : ٢٩٦ .

نيميسيس : ٣٩١ .

نينوى : ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٦٦ ، ١٧٦ .

١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٩٧ ، ٢١٤ .

النوبيون : ٥٠٦ .

نيوسري : ١١٤ .

- - -

ناير : ٩١ .

ناديس : ٣٦٤ ، ٤٩٥ .

نارابا : ٢٨ ، ٥٥٠ ، ٥٥٢ .

نارفي : ٥٣٠ .

نازائل : ٢٦٢ .

ناليس : ٢٠٣ ، ٢١١ .

نالكارناس : ٣٧٨ .

نات : ٥٨٢ ، ٦٠٤ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ .

٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٥ ، ٦٣٧ .

٦٣٨ ، ٦٣٩ .

نان في تسو : ٥٧٨ .

نرموليس : ٩٤ ، ٩٥ .

نرميس : ٣٦٢ ، ٥٠٤ .

نريحور : ٦٥ ، ٧٠ .

نستا : ٥٤٨ .

الهكسوس : ٥٠ ، ٩٠ ، ١١٠ .

هليوبوليس : ٤٦ ، ٤٩ ، ٩٤ ، ٩٥ .

٩٦ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١١٤ ، ١٢٩ .

١٣١ ، ٢٦٤ ، ٣٥٩ ، ٥١٠ .

الهند : ٢٠ ، ٢٦ ، ١٥٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ .

٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٦١ ، ٥١١ ، ٥٢٧ ، ٥٤٥ .

٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ .

٥٥٥ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ .

٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ .

٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ .

٦٤٠ ، ٦٤١ .

افند الصليبة : ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٦٠٥ .

الهندوس : ٢٨ ، ٧٠ ، ١٥٨ ، ٢١٤ .

٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٤٦٠ ، ٥١١ ، ٥٤٦ ، ٥٥٠ .

٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٦٠٥ ، ٦٠٧ ، ٦١١ .

هو : ٥٢ .

هوراس : ٥٣٣ .

هوروس : ٤٦ ، ٤٨ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ .

٩٣ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٢٢ .

٤١٤ ، ٤٨٦ .

هوستاب : ٢٦ .

هوميروس : ٢٤٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩ .

٤٩٥ ، ٥٢٠ ، ٥٣٧ .

هون : ٦١١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٩ .

هو - نان : ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ .

هيا : ٥٧٩ .

هينار : ٥٩٢ .

هينارخوس : ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ .

هينارخيا : ٥١٤ .

هينوداموس : ١٨٥ ، ٣٦١ .

هينيريس : ٤٠١ .

هيرا : ٣٠٦ .

هيراكليت : ٣٠١ ، ٥٣٤ .

هيراكليس (هوقل) : ١٧٥ ، ٣٧٤ .

٥٠٥ ، ٥٣٣ .

هيرودوتس : ٤٠ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٧ .

١٠٧ ، ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٢ .

١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ .

٢٢٩ ، ٢٩٥ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ ، ٣٦١ ، ٣٨١ .

٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٥١٣ .

هيروفيلوس : ٥٣٠ .

هieron : ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣٨ .

هيراونداس : ٥٣٥ ، ٥٤٠ .

هيزود : ٢٨١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ .

٣٣٢ ، ٣٥٢ .

هيسارليك : ٢٤٣ .

هيكاتومبيدون : ٣٠٩ ، ٣١٠ .

هيكاتيه الميلي : ٤٠ ، ٣٠٢ ، ٣٩٠ .

هيكوب : ٢٠٩ .

هيلينوزوروس : ٤٨٨ ، ٦١١ .

هيلوس : ٤٠٧ ، ٤٤١ ، ٤٩٩ .

هيميرا : ٣٣٠ .

هيو - تو : ٥٩٩ ، ٦٠٠ .

هيونغ-نو : ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ .

- و -

وازيريستان : ٥٥٢ .

وفا - ونغ : ٥٨٠ .

ون : ٥٩٨ ، ٦٠١ .

ونغ - منغ : ٦٣٢ .

وو : ٦٣١ .

وي : ٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٦٣٢ .

- ي -

اليابان : ٦٠٥ .

ياما : ٦٢٤ .

يانغ : ٥٩٢ .

يسوع : ٢٦٤ .

يعقوب : ٢٦٢ .

يكشا : ٦٢٤ .

مينيا : ٥٥٣ .

ين : ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٦٠٣ ، ٦٣٠ .

ينغ : ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٦٠٣ .

ينغ - شار : ٥٧٩ .

ينغ - هيونغ : ٦٣٨ .

اليهود : ٢٢٤ ، ٤٦٧ .

يوذا : ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ .

يوه : ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ .

٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

يرتشي : ٦٠٦ ، ٦٠٧ .

يوسف : ٧٣ .

يوشع : ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

يرناتان : ٢٦٨ .

يرنان : ٦٣١ .

اليونان : ١٢ ، ٢٦ ، ٤٠ ، ٥٤ ، ١٤٥ .

٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ .

٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ .

٢٥٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

٢٩٦ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ .

٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ .

٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ .

٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ .

٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٧٢ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٨ .

٣٨٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ .

٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤٢٨ .

٤٢٩ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ .

٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ .

٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٥ ، ٤٨١ .

٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ .

٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥٢٤ ، ٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٦٠٦ .

٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٢١ .

يين ون تسو : ٥٧٨ .

صفحة

- ١ - مصر (خارطة) ٤٣
- ٢ - مدينة مصرية في عهد الامبراطورية الوسطى (تصميم) ١١٣
- ٣ - معبد شمسي شيدته الملك نيوسري (تصميم) ١١٤
- ٤ - منطقة طيبة (خارطة) ١١٥
- ٥ - معبد خنصو في الكرنك (تصميم) ١١٦
- ٦ - منطقة منف (خارطة) ١١٧
- ٧ - معبد خفرع المدفني (تصميم) ١١٩
- ٨ - ديماس امنوفيس الثاني (تصميم) ١٢٠
- ٩ - بلاد ما بين النهرين (خارطة) ١٣٤
- ١٠ - امتداد الامبراطورية الاشورية في عهد آشور بانيبال ١٣٨
- ١١ - رجم نيبور : ١ - على لوحة مسارية ، ٢ - حسب أعمال التنقيب الحديثة ١٧٧
- ١٢ - مدينة آشور (المدينة) ١٨٥
- ١٣ - دور شروكين ، خرساباد اليوم (تصميم) ١٩١
- ١٤ - بابل عشية الفتح الفارسي (تصميم) ١٩٧
- ١٥ - امبراطوريات آسيا الوسطى نحو منتصف القرن الخامس قبل المسيح (خارطة) ٢١٠
- ١٦ - امتداد الامبراطورية الفارسية في بدء القرن الخامس قبل المسيح (خارطة) ٢١٥
- ١٧ - منطقة برسبوليس (خارطة) ٢٢٧
- ١٨ - العالم الايجي (خارطة) ٢٣٥
- ١٩ - قصر تيرنثوث (تصميم) ٢٥٠
- ٢٠ - كنعان وسوريا (خارطة) ٢٥٧
- ٢١ - معبد ارتميس في افسس (تصميم) ٣٠٣
- ٢٢ - معبد الهيكتومييدون في قلعة اثينا (تصميم) ٣٠٩
- ٢٣ - اثينا والبيره في القرن الرابع قبل المسيح (تصميم) ٣٥٥

٣٧٣	٢٤ - الألتيس ، نطاق زفن المقدسى فى اولبىا ، فى أواخر القرن الرابع قبل المسىح (تصمىم) .
٣٧٧	٢٥ - قلعة اثىنا فى أواخر القرن الرابع قبل المسىح (تصمىم)
٤٥٧	٢٦ - الاسكندرية الهلينية (تصمىم)
٤٧٣	٢٧ - خريطة لاوذكىا البعوىة السلوقىة (اللاذقىة الیوم)
٤٩٩	٢٨ - بیت هلىنى فى برىىنا (ابونىا) (تصمىم)
٥٠١	٢٩ - برغاموس الهلینیة (تصمىم)
٥٢٩	٣٠ - خط طول الاسكندرىة كآ رسمه ایراتوشینوس (تصمىم)
٥٤٩	٣١ - الهند فى الزمن السابق للآرىین . الحضارة المدعورة حضارة الهندوس (خارطة)
٥٥٢	٣٢ - الهند البرامانىة قبل سلالة المورىا (خارطة)
٥٥٥	٣٣ - الهند فى عهد سلالة المورىا
٥٨١	٣٤ - الصىین حتى سقوط سلالة الهان (خارطة)

فهرست الصّـور

- ١ - افریز الأياثل السوداء في مفارة لاسكو .
- ٢ - سيدة دامارالند البيضاء .
- ٣ - هرم سكرّة ذو الدرجات .
- ٤ - أهرام الجيزة .
- ٥ - أبو الهول في الجيزة .
- ٦ - نقش ناتىء في مصطبة أخوتحتوب .
- ٧ - جبارا ممنون .
- ٨ - معبد حتشبسوت في دير البحري .
- ٩ - معبد امنوفيس الثالث في الأقصر .
- ١٠ - غدام الأميرة .
- ١١ - قاعة الأعمدة في الكرنك .
- ١٢ - معبد أمون في الكرنك .
- ١٣ - سقي الاول والإلهة حاتور .
- ١٤ - معبد سقي الاول في إبيدوس .
- ١٥ - التماثيل الجبارة في معبد أبي سنبل . السلالة التاسعة عشرة .
- ١٦ - المعبد المدفني لرعمسيس الثاني في طيبة . السلالة التاسعة عشرة .
- ١٧ - أور - ناتشي ، ملك لاغاش ، وعائلته (حوالي السنة ٢٨٠٠ قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ١٨ - نصب نصر لنارام سين ، ملك اغادي (القرن السادس والعشرون قبل المسيح) .
- ١٩ - سومريو لاغاش ، بقيادة ملكهم ايناتوم ، يدوسون الجثث في مسيرهم الى المعركة (القرن الثامن والعشرون قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ٢٠ - دستور حورابي ، ملك بابل (حوالي ١٨٠٠ (?) قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ٢١ - كودورو بابلي ، الملك مليشيباك الثاني يضع ابنته تحت حماية اجدى الآلهات (حوالي ١٢٠٠ قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ٢٢ - النقل البهري . نقش ناتىء من الالبستر مصدره قصر خرسباد (القرن الثامن قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ٢٣ - ثورة منجم ذو وجه بشري مصدره قصر سرجون الثاني في خرسباد (القرن الثامن قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ٢٤ - الملك آشوربانيبال في عربة أبة . نقش ناتىء مصدره نينوى (القرن السابع قبل المسيح) .

- ٢٥ - نقش في الابدانا في برسبوليس (القرن الخامس قبل المسيح) .
- ٢٦ - « الملك الكاهن » أو « الأمير ذو زهور الزنبق » في كنوسوس (كرتيا) . نقش جصي ملون ، بعد ترميمه (حوالي ١٦٠٠ ق . م .) .
- ٢٧ - باب اللبوءات في ميسين .
- ٢٨ - « مذخرة أتريا » في ميسين .
- ٢٩ - البرناس كما يرى من زيمينون .
- ٣٠ - عند لحف حصون ارغوس . في المؤخرة أكمة لاريسا (٣٠٠ م .) . في المقدمة أكمة اسبيس (٨٠ م .) .
- ٣١ - طريق اللبوءات في ليتون ديلوس (القرن السابع قبل المسيح) .
- ٣٢ - مشهد وليمة : هيراكليلس عند افريتيوس . رسم ذو طابع كورنثي (القرن السادس قبل المسيح) . متحف اللوفر .
- ٣٣ - الهيرايون في اولمبيا .
- ٣٤ - عداؤون اولمبيون . رسم على قارورة (القرن السادس قبل المسيح) . متحف الفاتيكان .
- ٣٥ - زفس هيسيتايا (ويعرف بزفس اركيسيون أيضاً) ، وهو من البرونز وينسب الى كلاميس (حوالي ٤٦٠ ق . م .) . المتحف الوطني في أثينا .
- ٣٦ - مسرح ابيندورس .
- ٣٧ - المعبد ذو الشكل D ، ويعرف بمعبد « جونون اللاسينية » ، في اغريجننا (القرن الخامس قبل المسيح) .
- ٣٨ - مرفأ سلامين الطبيعي كما يرى من برج أثينا نيقى .
- ٣٩ - قلعة اثينا .
- ٤٠ - تطواف عيد الإلهة « اثينا » ، قسم من افريز البرثنون . متحف اللوفر .
- ٤١ - البرثنون (في حالته الحاضرة) .
- ٤٢ - اثينا برثنوس . ميدالية من البرونز المذهب ، ويرجح انه مستوحى من تمثال فيدياس في البرثنون .
- ٤٣ - الإلهة « نيقى » في ساموتراس .
- ٤٤ - إناء شنفي ثلاثي القوائم مصدره نغان ينغ . عهد شنغ .
- ٤٥ - تمثال نصفي لرجل مصدره موهنجو - دارو . الحضارة المعروفة بحضارة الهندوس . متحف الآثار ، نيودلهي .
- ٤٦ - المدخل الجنوبي للشوفا في سانشي (الهند) . القرن الأول قبل المسيح .
- ٤٧ - إناء طقسي بشكل رأس رجل تعلوه الخوذة . طرف قناة من البرونز . عهد شنغ .
- ٤٨ - حصان من سحجر وقبر هوو - كيو - بنغ المخروطي الشكل . هيان - ينغ ، مقسطة شن - سي (السنة ١١٧ ق . م .) .

فهرست عام

صفحة

١١

مقدمة الطبعة العربية

١٧

مقدمة عامة لتاريخ الحضارات العام

٢٣

مدخل - من وحدة العصر الطراني الى التنوع التاريخي

ظهور الانسان - العصر الحجري القديم - من حضارة العصر الحجري الحديث الى عصر الحديد -
غزوات وتجهين - وحدة الحضارات وتنوعها - الامبراطوريات القديمة ووحدة الحضارة .

القسم الأول

حضارات الشرق الأدنى والامبراطورية

العوامل التي ساعدت على النجاح في مصر وما بين النهرين - سر هذا النجاح -
أهلية الشرق الأدنى للسيطرة والسودد .

٣٥

الكتاب الأول

الحضارة المصرية

٣٩

مدى الحضارة المصرية واستمرارها - وحدة وفوضى - عزلة وأصالة .

٤٤

الفصل الأول . - النظم السياسية

٤٤

١ - الملك

الملك محور الوحدة وشالقهـ اختيار العاصبة منف وائر ذلكـ الملك الإله - تمين الملك وتوجيهـ
حياة الملك - وظائف الملك : الدين - وظائف الملك : الحرب - وظائف الملك : استتباب
النظام وراشاعة العدل .

٥٤

٢ - الحكومة والادارة

الصفات العامة - الحكومة المركزيـ الادارة الاقليمية والمحلية - الادارة والحياة المادية في مصر -

مراقبة الحياة المادية وغنى التاج - الموظفون والنظام الملكي - الحلال الامبراطورية القديمة
وزوالها - الاصلاح الاعرج - رئيس كهنة آمون .

٦٦ الفصل الثاني . - النظم الاقتصادية والاجتماعية

النظام المثالي

٦٧ ١ - الحياة الاقتصادية

الموارد الطبيعية واستثمارها - التحويل والمقايسات - التجارة الخارجية - عزلة مصر الاقتصادية
وتنائجها .

٧٢ ٢ - المجتمع

الارضاع الاجتماعية : الرق - الأميرة : المرأة - الولد والاحصائيات البشرية - الاتجاه الممتوم الى
الطبقات الوراثية - الأمثلة الاجتماعية : الفلاح - المامسل - الجندي - الضابط -
الكاهن . - الكتائب .

٨٤ الفصل الثالث - المظاهر الدينية

٨٤ ١ - الآلهة

التعدد الاساسي - الواقع والخيال في الفكرة الدينية - حدود تشبيه الآلهة بالانسان - الآلهة المحليون :
تعدد وجههم - الآلهة الكونيون - الآلهة الشعبيون - اوزوريس - المذاهب اللاهوتية - مذاهب
هليوبوليس ومنف : «رع» و «فناح» - آمون وأمون رع - الثورة « الاقنوية » وفشلها .

٩٩ ٢ - عالم ما بعد الموت

الايان بالحياة الثانية - فعل العقائد حول الحياة الثانية الى مستوى الشعب - العقيدة الشمسية في
الامبراطورية القديمة - تعميم العقيدة الشمسية - انتصار عقيدة اوزوريس - وزن النفس
وما يمينه .

١٠٥ ٣ - العبادة

عبادة الآلهة - المراسم الجنائزية وعبادة الاموات - الدين والحضارة .

١١٠ الفصل الرابع . - المظاهر الفنية والعقلية

١١٠ أ - الفن

ابداع الامبراطورية القديمة - التطور اللاحق - مصر القديمة في فنها .

١١٢ ١ - الهندسة المعمارية

ماكن الاحياء - المبد - المدفن .

١٢١ ٢ - النقاشة والتصوير

صناعة التابل - النقش النائي - التصوير - الفنون الثانوية .

١٢٦ ب - الحياة العقلية

الكتابة- الكتاب؛ المدارس و «بيوت الحياة»- العلوم الصحيحة - العلوم الطبيعية والسحر- الأدب،

١٣٢

الخاتمة . - الحضارة المصرية والعالم القديم

الكتاب الثاني

حضارة بلاد ما بين النهرين

مصر وبلاد ما بين النهرين : تشابه في المصير والحضارة - مصر وبلاد ما بين النهرين : حضارات موحدة ومقفلة . - وحدة حضارة ما بين النهرين .

١٣٦

الفصل الأول . - الأشكال السياسية

التجزئة - الاستمرار على مفهوم مقومات البلدة - مفهوم الامبراطورية - بزغزع الامبراطوريات - النظام الملكي وجماعة المواطنين - الملك « نائب الآلهة » - تعيين وتنصيب الملك - واجبات الملك الدينية - الملك صلة الوصل بين الشعوب والآلهة - السلطات والنظم الملكية - القيادة الحربية - الجيش الاشوري - التعبئة - الادارة والموظفون - المركزية زمن حورابي - الابهة الملكية .

١٤٨

الفصل الثاني . - الأشكال الاجتماعية والاقتصادية

القصر - الهيكل - المجتمع العائلي - المرووس - العبد - تبشيع الاسرة - العمل الصناعي - المواد الأولية - وسائل النقل - التجار ومستعمراتهم - تنظيم المعاملات - المعايير والقيم .

١٦١

الفصل الثالث . - الحياة الروحية

١٦١

١ - الأفكار والوقائع الدينية

الديانة : السوربون والسميون - تكريم الموتى : عدم النظام في قبور اور - الافكار المتداولة بخصوص الموت - خوف وتقوى - الآلهة الكبرى - الصلة الشخصية بين الإله والفرد - الآلة والمزايا الانسانية - الآلهة والدول - الهيكل - العبادة ورجال الكهنوت - السحر - المرافة - علم التنجيم - معطيات ديانة بلاد ما بين النهرين المستديرة .

١٧٢

٢ - الاكتشافات الفكرية

الروايات - الكتابة المسجارية - اللغتان السومرية والاكادية - اللغة الارامية - المؤلفات الادبية - الاناشيد الميثولوجية الكبرى - المكاتب - العلوم : الطب وعلم الفلك - الرياضيات وعلم المرازين - علوم الطبيعة - العلم والسحر في الفنون - الحقوق : العقود - القوانين : قانون حورابي - حدود الجهد الفكري .

١٨٣

الفصل الرابع . - الآثار الفنية

المدن والحصون - استعمال الخنزف - النتائج - السقف ودعمه - الهيكل - البرج ذو الطبقات - الموك والمباني الدينية - القصر - الجنائز - الاوصاف المعمارية لفن النقش - مقوماته شروط التقنية - فن صنع التماثيل - قم ماري، غوديا - النقش البارز - التزيين المزسوم والمزخرف بالطين . - فن النقش على الحجر .

٢٠٠

الخاتمة

الكتاب الثالث

آسيا الصغرى وإيران

- ٢٠٣ الفصل الأول . - الحضارة الحثية
الحضارات الحثية والحورية : الخطوط الكبرى - الدولة - النصوص القانونية وتعاليمها - الفن والدين - استمرار هذه الديانة وانتقالها .
- ٢٠٩ الفصل الثاني . - الحضارة الليدية
الفريجيون - المملكة الليدية - الحياة الاقتصادية - الحضارة الليدية والحضارة اليونانية .
- ٢١٤ الفصل الثالث . - حضارة بلاد الفرس الاخمينية
روح السيطرة الفارسية - الروح الإيرانية - إرث « الشرق الكلاسيكي » - النظام الملكي - الحكم والادارة - أهداف الادارة - الديانة - الحياة الفكرية - الفن - الميزة الإيرانية والحليية .

القسم الثاني

حضارات الانسان في الشرق الأدنى

الكتاب الاول

المقدمات

- ٢٣٦ الفصل الأول . - الحضارة الايجية
١ - وحدة الحضارة الايجية وازدواجيتها
العهد الكرويقي - العهد الميسيني - وحدة وازدواجية - حدود المستندات .
- ٢٣٦ ٢ - الحضارة الكريتية
الملكية الميتوسية - النشاط الاقتصادي - طريق بحر ايجه المعرضة - المجتمع - الديانة - الفن .
- ٢٣٩ ٣ - الحضارة الميسينية
الامراء المحاربون - الارستوقراطية والطبقات الكادسة - التجارة والثروة - الفن الميسيني - إرث الميسينيين .
- ٢٤٨ الفصل الثاني . - كنعان وسوريا
١ - الفينيقيون
- ٢٥٥
- ٢٥٦

الحياة السياسية - الحياة الاقتصادية - الاستعمار - الديانة والفن - الإيجدية - دور الحضارة
الفينيقية التاريخي .

٢٦٢

٢ - الأراميون

الحياة السياسية - الدور التجاري - الأرامية لغة الشرق - الديانة .

٢٦٥

٣ - العبرانيون

٢٦٥

أ - الثقلبات الزمنية

القضاة - الملكية الاتحادية - الازمات والتبوقراطية - أولوية الديانة .

٢٦٩

ب - الديانة وتطور النظريات الأخلاقية

يهوه القديم - أخطار التأثيرات الخارجية - اورشليم - الأنبياء - المثل الأعلى والعمل النافذ - يهوه
والعبادة - الشريعة - التفرد الديني والأخلاقي - قسط العبرانيين .

٢٧٩

الفصل الثالث . - الحضارة اليونانية القديمة

٢٨٠

١ - التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي

المجتمع القديم : دور الأملاك الواسعة - أواخر الدم - الدولة الأرستوقراطية - أسباب ثقلبات
الأحوال : تقنية الحرب - أسباب ثقلبات الأحوال : الثورة الاقتصادية - الأزمة السياسية
والاجتماعية - المسترعون - الاستبداد والحضارة اليونانية - منهجية الاستبداد وعمله -
الوضع في آخر العهد القديم - تقدم اثينا .

٢٩٣

٢ - التطور الأدبي

عوامل التطور الأدبي - التنوع الديني - الطقوس مكونة الوحدة : المباريات - التصوف -
مناقشات القيب - الشعر الملحمي - نشأة الشعر الغنائي ونضارته - نشأة العلم والفلسفة -
أولوية الفكر اليوناني - الهندسة المعيارية - النقاشة - صناعة الخزف - مراكز الإشعاع .

الكتاب الثاني

المدينة اليونانية والانسان

حضارة اليونان الكلاسيكية (القرن الخامس والرابع)

٣١٢

الفصل الأول . - الشوائب الداخلية في الحضارة اليونانية المنتصرة

مندرجة الحضارة اليونانية : الحرية والفساد - حالة الحرب حالة طبيعية - الحروب : الأساليب
والخسائر بالأرواح - الحرب : قافونها وويلاتها - التجنيد : مبدأ وواقع - الثورات
الدائمة - العود والنفي والارتداد .

٣٢٣

الفصل الثاني . - المثل الأعلى والوقائع السياسية

٣٢٣

١ - سيادة المدينة

المدينة - سيادة المدينة الخارجية - المدينة والورد .

٣٢٩

٣ - خطوط التنظيم السياسي العامة

المدينة والسلطة الشخصية - الجمعية - المجلس - القضاء المدنيون - الارليغارشيات والديمقراطيات :
المواطنون الإيحائيون والمواطنون السليون .

٣٣٦

٣ - الديمقراطية اليونانية

تقدم الديمقراطية - حدود الفكرة الديمقراطية اليونانية - الديمقراطية والاستعمار - الديمقراطية
اليونانية ولادة زمانها .

٣٤١

الفصل الثالث . - الحياة المادية والاجتماعية

٣٤١

١ - المجتمعات الريفية

كبار الملاكين - الغدادية - صفار الملاكين .

٣٤٤

٢ - المقايضات

الاقتصاد المركب : شراء وبيع - المراكز الاقتصادية الكبرى : اثينا .

٣٤٦

٣ - المجتمعات المدنية

الحياة في سبارطة - مناجم وعبيد الـ « لوريون » - العبيد المدنيون في اثينا - الاجانب المقيمون -
انصراف المواطنين عن النشاط الاقتصادي - بتأثير التعويض اليومي - بفعل استمرار
الاعتبارات القديمة - فقدان الثروات الطائلة .

٣٥٤

٤ - المدن والحياة الخاصة

البيرو واثينا - المساكن - سيدة البيت - حياة الرجل .

٣٥٩

الفصل الرابع . - الكلاسيكية الروحية والجمالية

تباين التقدم الثقافي - اولوية اثينا .

٣٦١

١ - الديانة

الروح الشعبي - العبادات الشاملة - الالعب الكبرى - أسرار الفيس - العبادات المدنية -
التصلب والتساهل - النخبة والديانة المدنية والاعبياد - عيد الإلهة « اثينا » الكبير -
أعياد ديونيسوس والتمثيلات المسرحية - تطور الاعياد .

٣٧٠

٢ - الفن

التنافس في جهود هندسة العمارة - التقليد والكمال في هندسة العمارة - تنوع النقاش - أوج
الكلاسيكية - النقاش في القرن الرابع - الفنون الاخرى - التصوير وصناعة الخزف
والفضار .

٣٨١

٣ - الحياة الفكرية

الفلسفة : التقاليد والجدد في القرن الخامس - الفلسفة في القرن الرابع - العلوم - التاريخ -
الشعر : الشعر الغنائي - المسرح - كيبسار مؤلفي المأسمة في القرن الخامس - « المهزلة
القديمة » - المسرح في القرن الرابع - أصول ولقاء البيان - الاسابذة ومعدو الخطب -
البيان - الفلسفة : ايزوقراط - البيان - الفعل : ديومستينس - نهاية الكلاسيكية اليونانية .

الكتاب الثالث

الملكية الهلينية والانسان

الحضارة الهلينية (من القرن الثالث حتى القرن الأول)

صفحة

- ٤٠٣ الفصل الأول . - الاسكندر باعث حضارة جديدة
ركاكة الامبراطورية السبانية - مكوينة الحضارة الهلينية - النتائج .
- ٤٠٦ الفصل الثاني . - المثالية الملكية والحكومة الملكية
- ٤٠٦ ١ - الرواسب والاقتراسات الجمهورية
انحطاط البولس - المدن والحرب - الاتحادات - الانظمة الاتحادية - الديمقراطية؛ طراهر ورقائع.
- ٤١٢ ٢ - مثالية الملكية الهلينية
اصول الملكية الهلينية - امتداد وقوة الواقع الملكي - المثالية الملكية - الحق الملكي - الاخلاق الملكية .
- ٤١٨ ٣ - الأنظمة الملكية
السلطة الملكية - بطانة الملك والسياسة - الحكومة المركزية - الادارة المحلية - الوسطاء، والامتيازات المحلية - الثروة - القوة العسكرية
- ٤٢٩ ٤ - العبادة السلالية
العبادة السلالية ؛ اصولها - العبادة السلالية ؛ الاشكال - العبادة السلالية ؛ مفزاها وأهميتها .
- ٤٣٤ الخاتمة
- ٤٣٥ الفصل الثالث . - الاقتصاديات والمجتمعات
- ٤٣٥ ١ - العالمان
اليونان القديمة - الشرق - شركة أم استثمار ؟
- ٤٣٨ ٢ - الاقتصاد والمجتمع في اليونان القديمة
- ٤٣٨ ١ - التطور الاقتصادي
السحبوة الاولى - مزاحمة الزراعة والصناعة - تطور التجارة .
- ٤٤٢ ٢ - الطبقات الاجتماعية
طبقة ذوي اليسار في المدن اليونانية- المثل البروجوازي الاقل؛ المدينة والبيت- المثل البروجوازي الاقل ؛ القرية والثقافة - الطبقات الاجتماعية الدنيا - العبيد .

- ٤٤٩ ٣ - الآفات والاضطرابات الاجتماعية
تدني عدد السكان - الاضطرابات الاجتماعية - الثورة الاجتماعية في سبارطة - المضلة الاجتماعية
والمعامل السياسية .
- ٤٥٤ ٣ - الحياة الاقتصادية في الشرق الهليني
أسهم الاغريق في نمو الشرق الاقتصادي - النشاط الاقتصادي في الزراعة والصناعة - النشاط
الاقتصادي : التجارة - رجحان السياسة على الاقتصاد : الملوك يضمنون بدمهم على الحياة
الاقتصادية .
- ٤٦٤ ٤ - الاتصال بين المجتمعين
المدينة اليونانية والمواطنون الأصليون .
- ٤٦٦ ١ - الحل الاجتماعي في مصر
الاغريق والبلديون في مصر : المدن - الريف - الملكية الاجتماعية والمجتمع البلدي .
- ٤٧٠ ٢ - الحل السلوقي في آسيا
سياسة السلوقيين الاقتصادية - السلوقيون والاكثاريين - المدن اليونانية والبورجوازية اليونانية
في آسيا - عمل المدن اليونانية - البلديون خارج المدن - النتائج .
- ٤٨٢ الفصل الرابع . - المعتقدات والأذواق والأفكار
الحضارة اليونانية والملكية - لامركزية روحية .
- ٤٨٦ ١ - الديانة
العادات المحلية - الحضارة اليونانية والديانة اليهودية - سنى الديانة اليونانية الخارجية - المخطاطات
الراهن - التجديدات الدينية : العبادة الملكية والسلاية - التجديدات الدينية : عبادة
إله الحظ - التجديدات الدينية : الفلق والحلاص - التجديدات الدينية : العبادات
الشرقية وسيرايس .
- ٤٩٦ ٢ - الفن
الفن اليوناني والفنون المحلية - تجديد الفن اليوناني .
- ٤٩٨ ١ - هندسة العمارة
الأبنية الكبرى - البيت - المدينة .
- ٥٠٢ ٢ - الفنون التصويرية
الظروف العامة - النقاش - التصوير والنقش والصياغة .
- ٥٠٩ ٣ - الحياة الفكرية
١ - رجال الفكر والمجتمع الجديد
الظروف العامة - الاغريق والشرقيون .
- ٥٠٩ ٢ - في خدمة النشاط الفكري
الوحدة الفكرية : الـ « كيني » - انتشار الثقافة - التربية اهلينية - نصرة الآداب والفنون
ومؤسسات الأبحاث .
- ٥١٣

- ٥٣٠ ٣ - الشغف الفكري والروح العلمية
الأسلمية والعلم الواسع - التاريخ - التقدم العلمي والتقدم التقني - انطلاقة العلوم .
- ٥٣١ ٤ - المدارس الفلسفية والألوان الأدبية
الفلسفة - الأدب - النثر - الشعر - المسرح والمهزلة الايمائية .
- ٥٤١ الخاتمة
سهام ونجاح الحركة الفكرية .

القسم الثالث

آسيا الشرقية

الكتاب الأول

- ٥٤٥ آسيا الشرقية من (١٢٠٠ الى ٣٠٠ ق . م)
- ٥٤٧ الفصل الأول . - الهند
خصائص الحضارة الهندية الأساسية - تحديد الوقت والاصول - اللغات والخطوط - لغة تاريخية .
- ٥٥٧ الفصل الثاني . - الحضارة الهندية قبل عهد الموريا
١ - خصائص الحضارة الفيدية
المعتقدات .
- ٥٦٠ ٢ - الحياة الاجتماعية
المجتمع - الدولة - الاسرة .
- ٥٦٦ ٣ - المدينة والريف
الديانة - العلوم :
- ٥٧٤ الفصل الثالث . - خصائص الحضارة الصينية القديمة
المطابق والمستندات - اللغة والكتابة - لغة تاريخية .
- ٥٨٣ الفصل الرابع . - الحضارة الصينية أيام الشنغ والتشاو
١ - عهد الشنغ
- ٥٨٣ ٢ - الحضارة الصينية أيام التشاو
المستندات - المجتمع - الهيئة الإدارية - رجال الكهنوت - أسرة الفلاحين - حياة النبلاء - مجتمع
القرية والمدينة - الديانة - الفلسفة - الفن .
- ٥٨٥

الكتاب الثاني

من القرن الرابع الى أواخر القرن الأول ق. م.

- ٦٠٥ الفصل الأول . - آسيا الشرقية من القرن الرابع حتى القرن الأول ق. م.
- ٦٠٩ الفصل الثاني . - الهند أيام حكم الموريا وخلفائهم
- ٦١١ ١ - إطار المدينة والريف
- ٦١٥ ٢ - الحياة الاجتماعية
- ٦٢٣ المصادر - المجتمع - الثياب والحل .
- ٦٢٣ ٣ - الديانات
- الفن .

- ٦٣٠ الفصل الثالث . - صين ملوك التسين والهان
- تطور الفنون التاريخية - السلطة الامبراطورية - المصادر - المجتمع - إطار المدينة - الآداب - الفنون والتقنيات .

- ٦٤٠ الخاتمة
- ٦٤٣ المصادر
- ٦٤٩ جدول زمني مقارن
- ٦٨٩ جدول الأعلام
- ٧١١ فهرست الحرائط والتصاميم
- ٧١٣ فهرست الصور
- ٧١٥ فهرست عام

انتهى المجلد الأول، ويليه المجلد الثاني،
رومًا وامبراطوريتها

منشورات عویدات ۹۱۸ / ۱۹۸۶

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS

Publiée sous la direction de
MAURICE CROUZET

TOME 1 L'ORIENT ET LA GRÈCE ANTIQUE

par

André AYMARD et Jeannine AUBOYER

Texte Traduit en Arabe

par

Farid M. DAGHER et Fouad ABOU-RIHAN

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth — Paris.

موسوعة تاريخ الحضارات العام

الشرق واليونان القديمة

تأليف

جانين أوبوايه

أستاذة مساعدة في التاريخ

أندريه إيمار

أستاذ في الفلسفة

في هذا المجلد أقسام كبيرة ثلاثة:

١- حضارات الشرق الأدنى والإمبراطورية

أ- الحضارة المصرية بنظمها السياسية والإقتصادية والإجتماعية ومظاهرها الدينية والفنية والعقلية.

ب- حضارة بلاد ما بين النهرين بأشكالها السياسية والإجتماعية والإقتصادية وبحياتها الروحية وآثارها الفنية.

ج- آسيا الصغرى وإيران، الحضارة الحثية والحضارة الميديية وحضارة بلاد الفرس الأخمينية.

٢- حضارات الإنسان في الشرق الأدنى

أ- الحضارة الإيجية: الحضارة الكريتية، الحضارة المسيية. كنعان وسوريا: الفينيقيون، الآراميون، العبرانيون. الحضارة اليونانية القديمة: تطورها الإقتصادي والإجتماعي والسياسي والأدبي.

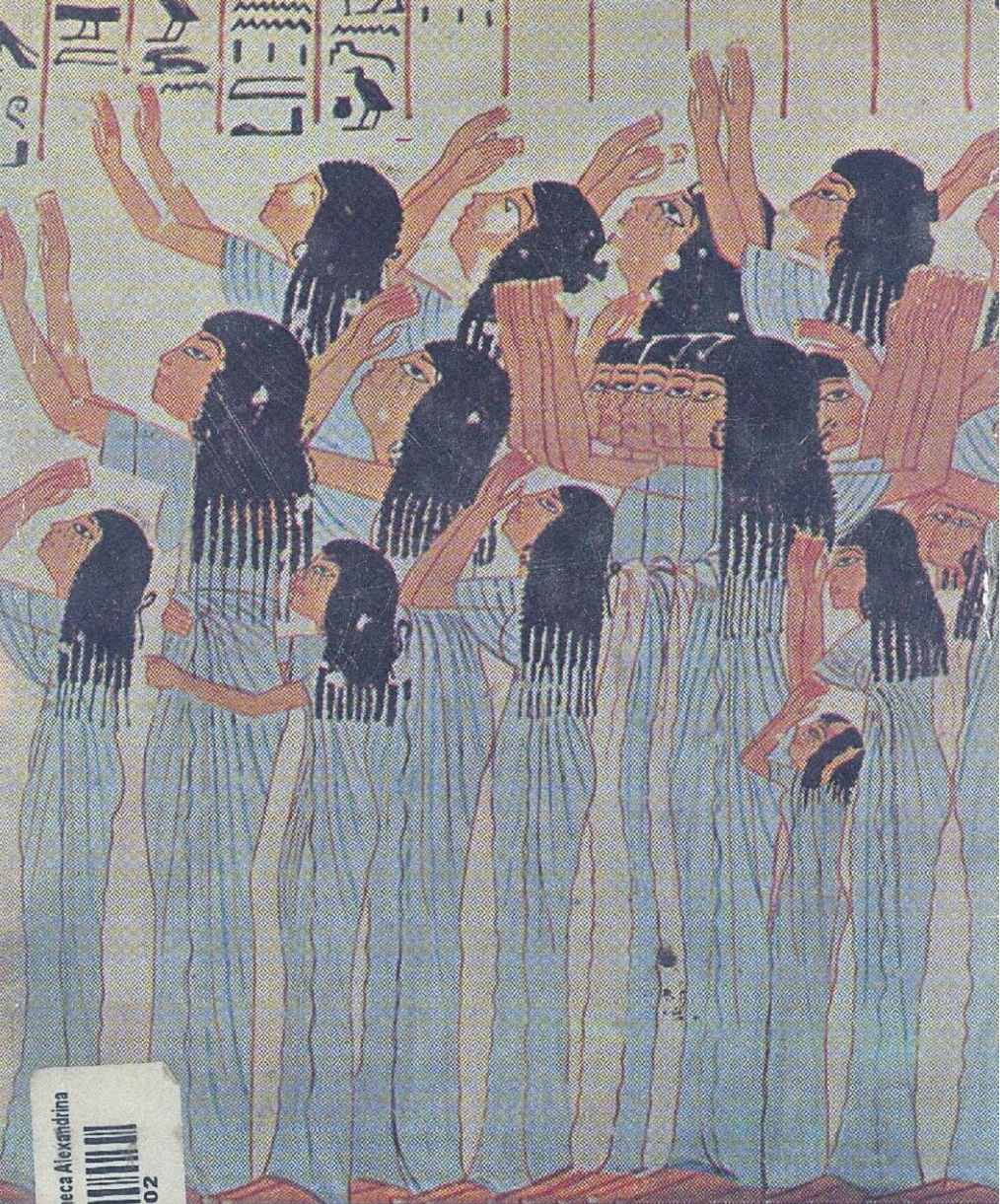
ب- المدينة اليونانية والإنسان: حضارة اليونان الكلاسيكية-القرن الخامس والرابع ق.م. المثل الأعلى والوقائع السياسية، الحياة المادية والإجتماعية، الكلاسيكية الروحية والجمالية.

ج- الملكية الهلينية والإنسان: الحضارة الهلينية من القرن الثالث حتى القرن الأول. الإسكندر باعث حضارة جديدة، المثالية الملكية والحكومة الملكية، الإقتصاد والمجتمع في اليونان القديمة، الآفات والإضطرابات الإجتماعية، المعتقدات والأنواق والأفكار: الديانة، الفن، الفنون التصويرية، الحياة الفكرية...

٣- آسيا الشرقية

الهند، خصائص الحضارة الهندية: الحضارة الفيدية، المجتمع، الدولة، الأسرة، المدينة والريف، خصائص الحضارة الصينية القديمة وأيام الشنغ والتشاو. آسيا الشرقية من القرن الرابع حتى القرن الأول قبل الميلاد: الهند أيام حكم الموريا، صين ملوك التسين والهان.

يقع هذا المجلد في ٧٧٤ صفحة من القطع الكبير، مجلد بالقماش، ومزود بـ ٣٤٤ رسمة وخريطة وفيه ٤٨ لوحة مختلف مراحل الحضارات، الى جانب جدول زمني مقارنة وجدول بالاعلام والأماكن.



Bibliotheca Alexandrina



0219002

تاريخ الحضارات الع

منشورات عويدات - بيروت - بّاريس